

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرسالة الأولى :

تاريخ الإسلام منذ نشر الإسلام إلى اليوم

(إطار البحث)

ظهر الإسلام بعد انهيار الحضارة الرومانية التي أوشكت على الانحلال عام ٤٤٠م فما كادت كلته ترون في الأفق حتى أخذ مكان القيادة في العالم كله خلال مائة عام ، فقد نشأ في الجزيرة العربية ولكنه لم يلبث بعد اثني عشر عاماً من الهجرة أن وسع نفوذه إلى العراق و فارس إلى الشام ومصر وأفريقيا حتى بلغ الأندلس عام ٧١١م ثم بلغ الهند وماوراء الهند وأشرف على أوروبا وأوغل في فرنسا وجنوبي إيطاليا حتى أوقفه اتساع الدائرة التي امتدت من دمشق إلى بواتية حاضرة هذه الألوف من الأميال في معركة بلاط الشهداء (١١٤ هـ - ٧٤١ م) . وقد امتدت هذه الدولة من حدود الصين إلى حدود فرنسا في أقل من مائة عام وبلغت من السعة الضخمة في هذا المدى القصير من عمر الزمن ، الواسع في الامتداد الجغرافي على غير نحو مسجوق في الحضارات والامبراطوريات كالدولة الرومانية وغيرها . ولا شك أن القيم واللبادى التي يحملها الإسلام تفسير هذا التوسع والانتطور ، لم يكن يبدأ القرن الثانى الهجرى حتى كان الغرب قد بدأ الصراع مع القوة الجديدة محاولاً إيقاف مدها في معركة بلاط الشهداء .

هذه للمركة التي قادها كارل مارتل والتي عدها بعض المؤرخين الغربيين تجميداً لنمو الإسلام واتساعه . ولقد اعترف الكثير من المؤرخين الناصقين بأن معركة بواتيه (بلاط الشهداء) كانت شرأ على أوروبا ، وأنها أوقفت الحضارة الجديدة الإسلامية عن النمو والامتداد سبعة أو ثمانية قرون . هكذا نظرت أوروبا إلى الإسلام ، وقد وسعت هذه النظرة من بعد فحسبت أن سوريا ومصر وشمال أفريقيا كانت كلها تابعة للدولة الرومانية ، وأن الإسلام قد انقزها من الغرب وأن من حق الغرب أن يستعيد هذه الأرض ويرد الإسلام إلى الجزيرة العربية . وفي خلال قرن ونصف قرن توالت الحملات الصليبية (ثمان حملات من ٤٨٩م إلى ١٩٠٦م إلى ١٢٤٤م - ١٢٥٣م) لم تتوقف ، وجاءت حملة لويس بعد هذا التاريخ بعشرين عاماً على تونس وهي ما يطلق عليها المؤرخون الحملة

الصليبية الثامنة ، وكانت هذه هي قمة الضغط على الإسلام ومحاولة تمزيقه والقضاء عليه . وقد مضت أوروبا من طريق بيزنطة لا تتوقف عن مهاجمة حدود عالم الإسلام تنقيب الفرصة بعد الفرصة للتدخل والسيطرة على هذا للدخل الحيوى ، وظلت القوة الاسلامية ترددها وتبدل منها حتى هزمت بيزنطة في معركة ملاذكرد ، وأحس الغرب بأنها لم تعد قادرة على تحقيق مطامعها ، هناك قذف الغرب عالم الاسلام بالحملات الصليبية للتتالية وأقام المملكة اللاتينية في قلب عالم الاسلام . وظلت تمتد حتى برز صلاح الدين فاتتصر في حطين عام ٥٨٣ - ١١٨٧م واسترد بيت المقدس . وكانت حملة التتار التي اجتاحت « عالم الاسلام » منذ عام ١٢١٦م ١٢٤٩م فاستطاعت أن تستولى على بغداد ٦٥٦ - ١٢٥٨م وأن تتوالى توسعاتها حتى ردها المسلمون في عين جالوت ٦٥٩ - ١٢٦٠م . وكانت معركة تصفية الأندلس من العرب والاسلام قد بلغت ذروتها عام ٨٩٨م ١٦٠٩م باتفاق فرديناند وإيزابيلا ، واستطاعت في خلال مائة وعشرين عاماً أن تجلى للمسلمين نهائياً عن الأندلس وأوروبا فتم ذلك عام ١٠١٨م - ١٦٠٩م غير أن حملات الغزو على عالم الاسلام لم تتوقف إلا بقدر ما أتيح لأوروبا استعادة الأندلس ومن ثم انطلقت البرتغال وأسبانيا إلى تطويق عالم الاسلام في حركة ضخمة سيطرت على سواحل أفريقيا وحولت بحرى التجارة الأوروبية إلى طريق رأس الرجاء الصالح في محاولة لفرض الحصار الاقتصادى على العالم الاسلامى وأضعافه اقتصادياً ، وقد وصلت حماية التتويج إلى الهند وتجاورتها إلى الملايو ومهدت « لعصر الاستعمار » الذى بدأ في أوائل القرن التاسع عشر بالحلة الفرنسية على العالم العربى كقائمة للسيطرة على العالم الاسلامى كله وقد بلغت ذروتها في نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ . وهكذا تبدو صورة العالم الاسلامى في معركة مستمرة بينه وبين القوى للعادية له ، المتدفعة إلى السيطرة عليه في عمليات هزو متصلة ، خرج منها الاسلام ظافراً منتصراً لم يتوقف خلال هذا التاريخ عن الامتداد والانساع بقوته الذاتية ، فإذا كان قد انحسر نفوذه من أوروبا من ناحية المغرب والأندلس ، فإنه امتد إلى قلب أوروبا من ناحية الشرق هندما سيطر العثمانيون على القسطنطينية ٨٥٨م ١٤٥٢م ومدوا نفوذهم حتى بلغ أسوار فيينا ١٠٩٥م ١٦٨٣ في قلب أوروبا ويمكن القول بأن ما بلغه العالم الاسلامى في فترة الحكم العثمانى من ضعف إنما جاء نتيجة هذه هوامل أبرزها « دورة التاريخ » ذات الحكم الذى لا مرد له ، نتيجة التوسع الجغرافى من ناحية والامتداد الزمنى من ناحية ، غير أن العامل الحاسم في حركات الجزز إنما ترجع بقدر أكبر من الأهمية إلى العوامل الخارجة إلى العمليات الخارجة وهى عمليات الغزو التي جرت على فترات متوالية خلال هذا التاريخ الطويل ، وأبرزها عملية الغزو الاستعمارى الحديث التي بدأ عام ١٧٩٨ - ١٢١٣م . وإذا كان النفوذ الغربى الذى سيطر على العالم الاسلامى وامتد حتى اليوم خلال القرنين ١٣ و ١٤

المجربين قد حقق بعض النتائج في مجال الاستعمار ، فإن الاسلام — الذي سقطت دولته في برائن الاحتلال الفرنسي البريطني الأسباني الابطالي — لم يوقف أمرين : (الأول) الفكر الاسلامي الذي ظل حياً متحركاً قوياً ممتداً ، والذي تعمق خلال هذين القرنين الأخيرين وتوسع وكشف عن نفسه غطاء الجود والتخلف والتقليد وبدت ماله أشد وضوحاً وأكثراً إشراقاً مما كانت في فترة الضعف التي سيطرت على العالم الاسلامي . (الثاني) توسع الاسلام نفسه بالانتشار في أفريقيا وجنوب شرق آسيا ، بالرغم من سيطرة الهيئات التبشيرية المختلفة المسندة بالحكومات والاحتلال ، فقد استطاع الاسلام أن يحقق من طريق التوسع الذاتي انتصاراً ساحقاً يمكن أن يوصف بأنه أضاف للإسلام أكثر من خمسمائة مليون مسلم .

والظاهرة الواضحة أن تاريخ الاسلام لم يتوقف في أي مرحلة من مراحلها من تقديم بناء الدول وقادة الفكر ، وكان جرياً على ناموس الحياة يمر بمراحل القوة ، ثم يمر بمراحل الضعف ، ثم يعود مرة أخرى إلى القوة من خلال الدول المنجدة ، والبناء الذين يقومون على هذه الدول ، ومن خلال الفكر الاسلامي العربي المنجدة وقادته ، الذين لم يتوقفوا يوماً عن إتاحة الفرصة للنمو الانساني والحضاري ، وفتح الطريق لالتقاء الاسلام بالحياة والحضارة ، كاشفاً عن قدرة الاسلام على الالتقاء الدائم ، والحركة المنصلة في العلاقة بين مجتمعه وبين مختلف الحضارات والثقافات والمجتمعات مع القدرة على الأخذ والعطاء ومع المحافظة الدائمة على مقوماته الأساسية . ويمكن للنظر إلى تاريخ الاسلام كوحدة تامة منذ بزوغ فجره إلى اليوم ، وتتمثل صورته شاملة كاملة في مجاليه الواسعين . (١) مجال بناء الحضارة . (٢) مجال بناء الفكر ولا يمكن — حين إلقاء النظر نحو أحدهما دون الآخر — أن تكون الصورة واضحة أو تكون النظرة صحيحة ، فقد كان بناء الحضارة وتطور الفكر يجريان في خط واحد في مواجهة تحديات واضحة ، هي تحديات الجود والانحراف ، ومقاومة القوى الخارجية في آن واحد . فمن خلال الجاهة الاسلامية الأولى التي كونها الرسول : محمد ﷺ أمكن تعميق مفهوم الاسلام الذي حملته هذه الجماعة ومضت تشق به وجه هذا السكوكب شرقاً وغرباً متعلقة من قلب الجزيرة — ذلك المنطلق الذي قام موجات بشرية متعددة من قبل — حتى بلغت حدود الصين وحدود فرنسا . وإلى الذين يعجبون من قدرة الاسلام — التي توصف بأنها خارقة — على التوسع في خلال هذه الفترة القصيرة ذلك المدى ، أن يذكرنا أثر عملية البناء التي أجراها (محمد) الرسول بتعاليم (القرآن) لهذه الجاهة الصغيرة من أتباعه حين سيطر مفهوم جديد للحياة ، يحمل طابع التوحيد لله والايان بدهوته والاندفاع في صدق لنشرها في آفاق الأرض ، وبذل النفس والتضحية

بالروح في سبيل هذه الرسالة ، وهذا التحول النفسى في جماعة المسلمين الأولى التى كانت من العرب أساساً ، هو المصدر الحقيقى لذلك التوسع السريع الشامل ، وقد كان دور العرب في هذا العمل ضخماً وشاملاً ، وحين توقف التوسع على هذه الجبهة من أفريقيا وآسيا بما أطلق عليه (عالم الاسلام) كانت المرحلة التالية هى أخطر مرحلة : مرحلة الانصهار الاجتماعى والفكرى بين الأمم والقبائل والشعوب والأجناس ولا نفسى أن نذكر أن مفهوم الإسلام وأيدلوجيته قد استكملت مفهومها قبل أن يلحق الرسول بالرفيق الأعلى ، وأنه لم يجر إضافة أى شئ جديد إلى « مقومات الاسلام بعد ذلك ، وأن الخطوط العامة والأسس الأولى كانت قد رسمت فعلاً خلال حياة الرسول ومن خلال النص القرآنى الثابت على النحو الذى يكفل للإنسانية صورة رسالة إنسانية عالمية خالدة تمتد مع التاريخ والبشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها في ضوء هذه المفاهيم وبعيداً عن النظرة التقليدية يمكن تقسيم تاريخ الإسلام إلى عصور ست (الأول) عصر بناء الجماعة الإسلامية التى بناها الرسول خلال ثلاثة وعشرين عاماً في مكة والمدينة التى قام بها مجتمع موحد في الجزيرة العربية كلها ، وإلى هذه الجماعة ترمى تلك القوة التى وصفت بأنها معجزة في سبيل إذاعة الإسلام في أطراف الأرض . (الثانى) توسع الاسلام واستداده ، وهى تمثل للرحلة التى بدأت بعد اختيار الرسول للرفيق الأعلى ، حتى تم للإسلام امتداد هائل من حدود الصين إلى أطراف فرنسا وهى مرحلة تمتد إلى عام ١٩٤ تقريباً من الناحية التاريخية وإن كانت امتدادات الاسلام لم تتوقف إلا بعد فترة طويلة . (الثالث) مرحلة بناء الفكر الإسلامى في مواجهة محاولات تحريفه ، وبناء الحضارة الإسلامية وهى مرحلة مزدوجة النمو في مجال الثقافة والمدنية معا وفيها ظهر بناء الدول وقادة الفكر ، ويمكن أن توصف تاريخياً بأنها تمتد من بدء حركة التدين إلى الحرب الصليبية الأولى ١٠٩٦ م ١٤٨٩ . (الرابع) مرحلة أزمة الإسلام والغزو الخارجى : حين واجه عالم الإسلام غزوات الصليبيين والتتار ومزاعمات الباطنية (الحشاشون) وفي هذه المرحلة قامت الماسكة اللاتينية في قلب العالم الإسلامى ثم تقلصت ، وانتهت غزوات المغول ، وفيها توسع الاسلام بالسلطنة ، وحيث تسقط الخلافة في بغداد ، وينقلص النفوذ الإسلامى في الأندلس ، يقتحم الإسلام آفاقاً جديدة في جنوب شرق آسيا وقلب أفريقيا وتمتد هذه المرحلة تاريخياً إلى قيام الدولة العثمانية ٩٩٦ - ١٣٠٠ واندماج القوة العربية معها في عام ٩٢٧ ١٥١٧ . (خامساً) ظهور مرحلة الوحدات الثلاث في عالم الإسلام : (١) الدولة العثمانية في منطقة آسيا الصغرى والعالم العربى (٢) الدولة الصفوية في فارس (٣) دولة المغول في الهند وتمتد هذه المرحلة تاريخياً حتى عام ١٢٤٦ هـ - ١٨٣٠ م وهو

تاريخ الاحتلال الفرنسى للجزائر بعد أكثر من ثلاثين عاماً من وصول الحملة الفرنسية إلى مصر والشرق . (سادساً) مرحلة البيضة العربية الإسلامية . وتبدأ هذه المرحلة بالدعوة إلى التوحيد في قلب الجزيرة العربية ، وحيث تجري مرحلة الاحتلال الغربى لعالم الإسلام ، وهى مرحلة جديدة في تاريخ الإسلام تتمثل في نهضة الفكر والحضارة التى تحمل لواءها الأمة العربية مرة أخرى . وقد صار تاريخ الإسلام فى خطوط متساوية مقسارها : * خط التوسع والامتداد ، ونمو الفكر الإسلامى وتطوره . * خط للقاومة لمحاولات هذا الفكر الإسلامى ومقاومة الهجوم الخارجى . * قيام بناء الدول وقادة الفكر فى كل المراحل التاريخية وفى كل أجزاء عالم الإسلام . * بناء الحضارة وتطورها فى مجالاتها المختلفة ، وتطور المجتمع * أثر الإسلام فى العالم الخارجى من توسع عقدى ونمو فكرى .

(١)

« الإسلام والتاريخ »

التقى الإسلام والتاريخ منذ بزغ نوره ، وظل هذا اللقاء ممتداً إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم ، متصلاً مؤثراً بعيد المدى والأثر ، فما من حدث من أحداث العالم والإنسانية إلا والإسلام متصل به ومؤثر فيها ومتفاعل به . تلك حقيقة فى حاجة إلى بيان فكيف بدأ التقاء الإسلام بحركة التاريخ ؟ منذ بدأ الانسان يتصل بالحياة ويترك بصماته على أحجارها ويعرف الكتابة والنار فقد بدأ عصر التاريخ . وتكاد تجمع التحقيقات العلمية على أن ذلك كان قبل الميلاد بخمسة آلاف سنة . هنالك سارت الحضارة والأديان فى موكب واحد ، لترسم للبشرية طريقها إلى حياة أفضل ، وقد التقى التاريخ فى مسيرته الطويلة بأديان وحضارات وقادة فى محاولة بناء السكبان الانسانى وترقية البشرية وتعميق رسالة السكائن الأسمى . وفى خلال هذه المسيرة التقى التاريخ بقمم عالية وأحداث ضخمة ما تزال علامات كبرى فى تاريخ الإنسانية . ولقد كان الاسلام واحداً من أكبر هذه القمم ، ولكن ميزته أنه جاء بعد أن مرت البشرية بحضارات وأديان ومواقف أتاحت لها أن تنهض وتسمو وترتفع عن خشونتها وبدونتها لتتخطى فى طريق الارتقاء .

ومن خلال حلقات الحضارة الفرعونية وحضارة حورابى والحضارة الفينيقية والحضارة الفارسية والحضارة الاغريقية والحضارة الرومانية . ومن خلال الديانات العبرية والزرادشتية والهندوكية والبوذية والبكتنفوشيويسيه والمسيحية التقى التاريخ بالاسلام . كانت هذه المدنيات

علامات على الطريق إلى الحضارة والنور والعرفان ونمو العقل والفكر ، وكانت الأديان علامات على الطريق إلى ضياء القلب وصفاء النفس حتى جاء الاسلام جامعاً في مزيج دقيق للطريق « العقل والقلب » معاً في تناسق يمكن أن يطلق عليه (رسالة حياة) . ولقد كانت البشرية في خلال تطورها ومراحل نموها المتصل الطويل ، تلتقي من خلال موكب التاريخ بالحضارات والأديان ، وبالأنبيا والرسل والهداة على مراحل ، وكانت الأديان مصادر للحضارات ، وكانت رسالات السماء ودعوات المصلحين كلها تهدي البشرية إلى الطريق ، ولكنها كانت « جزئية » تقوم في قطر أو أمة أو شعب وتقتصر به ، وقد يقوم أكثر من هادئ في وقت واحد ، في قطرين متجاورين . كانت كل رسالات السماء ودعوات المصلحين إذ ذاك ، دعوات مرحلية وجزئية وزمنية ترتبط بالانسانيا في مسارها الطويل ، ليظل مشمل ضيائها موقداً ، فهي عمدة بالزيت بين حين وحين ، ولما كانت الانسانية لا تزال لم تبلغ رشدتها ، فقد توالى الدعوات والرسالات فسكها طال بها الزمن وانحرفت عن مسيرتها جاءت دعوة أخرى لتصحح المفاهيم وتردها إلى الدعوة الأصلية : دعوة التوحيد والايان بالله وحده ، وإحلال « الانسان » مكانه في الأرض بوصفه سيد هذا الكون تحت ظل الله . ولقد كانت اليهودية قبل ألف ومائتي عام من ميلاد المسيح رسالة السماء ، رسالة إلى أمة العبرانيين فلما انحرفت وغلبت عليها المادية جاءت المسيحية تصحيحاً لها وتكميلاً ، جاءت لنفس الأمة والشعب في خلال فترة اليهودية والمسيحية ، كانت هناك البوذية والمكثفوشوسيه والزرادشتيه ولها مجتمعاتها وأممها ونموها ولكن هذه الأديان البشرية كلها قد خلت من روحها ودخلت إليها انحرافات وزيف كثيرة ، وفقدت سلطانها وأثرها في البشرية ، وتحولت إلى وثنية وتحلل ، اضطربت معها الخنثيمات أما الحضارات السائدة إذ ذاك ، حضارة الفرس في الشرق وحضارة الروم في الغرب فقد شاخت كلانها بعد ذلك الصراع العنيف والمعارك الدامية والاضطراب البالغ الذي استأثر بمصادر البناء والقوة والحركة فيهما . ومن هنا سقطت روما في القرن الخامس وبقيت بيزنطة تعاني شيخوخة وهجراً ، ولعل المؤرخ الكبير جيبون صاحب كتاب سقوط الامبراطورية الرومانية هو أصلي من يرسم صورة بيزنطة في هذه الفترة : يقول : في أواخر القرن السادس وصلت الدولة الرومانية في تردها وهبوطها آخر نقطة ، وكان مثلها كمثل دوحه عظيمة ، كانت أمم العالم في حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف ، ولم يبق منها إلا الجذع الذي لا يزداد كل يوم إلا ذبولاً . ويقول درابر : لما بلغت الدولة الرومية من القوة الحربية والنفوذ السياسي أوجها ، ووصلت في الحضارة إلى أقصى الدرجات هبطت في فساد الأخلاق ، وفي الانحطاط في الدين والتهديب إلى أسفل الدرجات . بطر الرومان

معيشتهم وأخذوا إلى الأرض واستهنروا استهتاراً وكان مبدؤهم أن الحياة إنما هي فرصة للتنميع بالنقل فيها الإنسان من نعم إلى ترف ومن لهُو إلى لذة . ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الأحيان إلا ليعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم إلا ليطول به عمر اللذة ، كانت مواعيدهم تزهو بأواني الذهب والفضة مرسعة بالجواهر يخفف بها خدام في ملابس جميلة خلافة ، وهاديات رومية حسناء ، ويزيد من نعمهم حمامات باذخة وميادين للهُو واسعة ، ومصارع فيها الأبطال مع الأبطال أو مع السباع ولا يزالون يصارعون حتى يجر الواحد منهم صريماً ، وقد أدرك هؤلاء الفانسون الذين دوخوا العالم أنه إن كان هناك شيء يستحق العبادة فهو « القوة » . أما الفرس فقد كان الأكاسرة ملوك فارس يدهون أن دما الهيا يجرى في عروقهم ، وكان الفرس ينظرون إليهم كآلهة فوق القانون وفوق البشر وقد استحوذت على الناس في الامبراطورية الرومانية — حياة الترف والبذخ ، وكان لسكسرى أبرويز ١٢ ألف امرأة وخمسين ألف جواد . وكانت عبادة فارس : النار والشمس ، أما المجوسية فقد اضطربت واشتبكت فرقها في صراع متواصل ، وفي نفس الوقت الذي بدأ فيه انحلال السلطنة الفارسية وقع الصراع بين الفرق المسيحية حول طبيعة المسيح ، وبلغ الجدل قننه واختلاف غايته « وأصبحت البوذية بالانحطاط وابتلعها البرهمية فتحوّلت إلى «وثنية» تعمل معها الأصنام أينما سارت تبنى الهياكل وتنصب التماثيل . وانتقلت الأديان من بساطتها ويسرها إلى التعقيد والجدل وسيطرت عليها الفلسفات والوثنيات المفرقة ، وانقلبت المشاحنات المذهبية إلى فنن ومناجيج ، ومع صراع الأديان كان صراع الامبراطوريتان السكسريان : « فارس وبزنتة » ، وقد اشتبكنا في صراع مستمر دائم كل منهما تطمع في السيطرة على العالم وقيادته ، وبالجملة فقد كان القرن السادس والسابع لميلاد المسيح « من أخطر أدوار التاريخ بلا خلاف حيث ساد الانحلال والفوضى وسوء النظام وحسف الحكم ، حيث بلغت الوثنية أوجها ، وسيطر نظام الطبقات الجائر ، وبلغ ظلم الحكام والباطرة والأكاسرة غايته ، وانحط مركز المرأة ، وسيطر الربا على معاملات الاقتصاد ، وسيطرت الإباحة على حياة المجتمع ، وبلغت العصبية القبلية والدموية مداها ، وغلب الحمر ، والانحراف الجنسي ، والطعم وشهوة المال ، وأصبح الأخبار والرهبان أرباباً من دون الله ، ووأد الناس الأولاد وقتلهم . وبدأ عالم متدهاى قد شارف النهاية ، وكانت الأحداث كلها تتمثل في تطلم كبير ، التطلم إلى رسالة جديدة ودهوة جديدة ترد البشرية إلى الحق ، إلى التوحيد ، إلى عقيدة مسمحة بعيدة عن تعقيدات الفلسفة ، وظلام الوثنية ، وزاد هذا التطلم اضطراع الفرق في مخناف الأديان ، حتى فقد الناس ثقتهم بكل القيم والمقدسات ، وكان كل ذلك مقدمة لرسالة ورسول . هكذا وصلت البشرية في أكبر مظهر من مظاهرها : الحضارات والأديان إلى أبعاد مهاوى الاضطراب والضعف ، مما ينذر بسقوط

كثير من النظم والعقائد ، التي فشلت في هداية الإنسانية إلى الحق ، وكان لابد من دعوة يمثل فيها الرشد الإنساني ، من خلال مرحلة جديدة تتيح تقبل رسالة عالمية إنسانية شاملة ، بعد أن انطوت مرحلة الدهوات والرسالات والنبوءات المحدودة والجزئية والإقليمية والزمنية ، رسالة جديدة تعيد صياغة الفكر الإنساني والحضارة وفق مفهوم التوحيد وتحمل في أعماقها طابع الشمول والتكامل ومن هنا كان النقاء التاريخ بالإسلام التقاءً حاسماً ومؤثراً وبعيد المدى وكانت بؤرة اللقاء هي : « الجزيرة العربية » بوصفها منطقة عذراء بعيدة عن تأثيرات الحضاريين الفارسيين والرومانيين فضلاً عن « أن العرب بوصفهم جماعة » لم ينضجوا كثيراً للأديان والحضارات السابقة ، ولا شك كان ظهور الإسلام في الجزيرة العربية كدعوة عالمية ورسالة إنسانية هو أول علامات الظفر والقوة التي حققتها هذه الدعوة ، إذ لم تكن منطقة ظهوره غارقة في تجمية فكرية للوثنية أو المسيحية أو اليهودية ، ولم تكن منحصرة قد هقدتها الحضارة وأصابها بالانحلال ، ولم تكن تطويها عقيدة واضحة أو نزعة سالفة عميقة الأثر ، وكانت إلى ذلك فقيرة وغير مسرفة في الثراء ، وبذلك كله أصبحت قادرة على أن تحمل لواء دعوة جديدة دون عناء من تبعات المعتقد أو الحضارة .

فإذا ألقينا نظره على « الجزيرة العربية » وجدناها قبائل متصارعة ، ضعيفة ، تعيش على هامش الحياة تنطلق إلى الفرس والروم على أنهما مظهر القوة القادرة والثراء البالغ والتعرف الواسع ، وهي من دون ذلك ممزولة ضعيفة ، لا تقوى إلا على التجارة في أطراف الجزيرة ، رحلة الشتاء والصيف ، غارقة في الوثنية مضطربة بين الربا والبغاء ، والتفكك والصراع القبلي ، وإن كانت قریش على قدر من الثقافة والبلاغة تقول الشعر ، وتقيم أسواق الجدل وحلبات السجال ، ولم تخل من طوائف من الموحدين زهدوا في الوثنية ، وأحرار ضاقوا بظلم الطفافة والأثرياء يترقبون ساعة الخلاص . كانت الجزيرة العربية « بؤرة الرسالة » كانت تعيش بعيدة عن الأحداث وتحركات الدولتين المتصارعتين ، إلا ما تتأثر به أطرافها ، مبقية على وثنييتها ، لا تبلغ من صراع الأديان ما يدفعها إلى أن ينخلص من سلطانها ، فالسكبة في مكة قاعدة الوثنية ، ولكل قبيلة صنم تعبده ، اللات لثيف ، ومناة للعزدج ، والعزى لسكنانة ، وأساف ونائلة لأهل الصفا والمروة ، وسواع لبني هزبل ، ويغوث لبني مزجح ، ويعوق لهمدان ، ويسر الذي البكلع ، ومن السكبة ثلاثمائة صنم . و « مكة » بعد مقر النفوذ الوثني الضخم يجمع إليها الناس من كل مكان ، ثم هي مقر التجارة مع العالم كله شمالاً إلى الشام وجنوباً إلى اليمن ، ومن هنا فهي متأثرة بأحداث الصراع السياسي والعقائدي ، يجري فيها الجدل حول المجوسية والمسيحية واليهودية ، ويصطرح الخلاف حول أفق الفد ، الذي تفرقه البشرية ،

وقد نبت فيها قبل البعثة رأى عام متقف ، حمل لواء الغصوة لاثنية ودعى إلى شجب عبادة الأصنام قوامه ورقة بن نوفل أهل أهل مصره ، وعثمان بن الحويرث وعبيد الله بن جحش ، وزيد بن عمرو ابن نفيل ، واسكن قريشاً كانت نصر على وثليتها باعتبارها مصدر النفوذ والسلطان ، فهم صندة البيت ، ولهم امتيازات السكينة وفي حسابهم أن الوثنية هي مظهر الزعامة والسياسة للجزيرة كلها ، غير أن الأحداث لم تلبث أن هزت مجتمع مكة والجزيرة كلها ، حين زحف أبرهة من اليمن على مكة لخاصرة الكعبة ، ثم انصرف عنها منهزماً ، وقد ترك آثاراً بعيدة المدى ، كانت إرثاً خاصة للعصر والجزيرة وعلامة على ما وقع بعدها باربعين عاماً ، وفي نفس العام . ٥٧٠ م عام الفيل ولد « محمد بن عبد الله » الذى اختاره الحق لحل لواء هذه الرسالة التى غيرت مجرى التاريخ .

برزت دهوة الاسلام فى إبان الحاجة إليها ، حاجة الضرورة والتطور ، لتعيد إلى البشرية الثقة فى الانسانية وتفتح من جديد آفاق الحرية والعدل والكرامة ، رسالة جديدة فى صياغتها ، قديمة فى مصادرها وجذورها ، من خلال قيادة محمد بن عبد الله ومنهج « القرآن » تستهدف دفع البشرية خطوات إلى الأمام فى طريق الانسانية . ومن خلال الصورة التى كانت تهيأها البشرية فى القرن السادس للميلادى ، التى التاريخ فى مسيرته بالاسلام . ومنذ بزغ فجر الاسلام إلى اليوم وهو بالغ الأثر فى حركة التاريخ وفى تطور الانسانية غير منفصل عن العالم فى مسيره ومصيره . نعم . منذ ظهر الاسلام إلى اليوم فى خلال أربعة عشر قرناً مازال مؤثراً فى مجرى التاريخ لم يتوقف أثره فى كل أحداث العالم والانسانية منذ ظهوره إلى اليوم . فالاسلام هو حركة التاريخ نحو الحرية ، تحرر الانسان من رقة الظلم والاستعباد ، وبذلك فهو انطلاقة إنسانية بعيدة المدى فى كل الأمم والشعوب التى اتصلت به . ولقد كان لبزوغه فى محيط الأمة العربية دلالة واضحة ، هي اصطفاء هذه الأمة لحل رسالته ، ومن ثم بعث « محمد » من أهلها ونزل القرآن بافئها ، فكانت الجماعة الإسلامية الأولى التى صاغها الاسلام فى الجزيرة العربية ، هي القوة الدافعة التى حملت هذه الرسالة وسارت بها إلى الآفاق لتحقيق بها حركة التاريخ نحو التوحيد والأخاء والرحمة وبناء حضارة جديدة وفق مضمون إنسانى عالمى يجمع بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة .

(٢)

« بناء الجماعة الإسلامية »

قال جعفر بن أبي طالب : « كنا قوم نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، القوي منا يؤدي الضعيف ، لا نمبأ بحق ذوى القربى أو الجار ، إلى أن بعث الله إلينا رسولا من بيننا نعرف هراقة منبته ونثق بإخلاقه وأمانته ، أمرنا بالصدق فى القول ، وتأدية الأمانات إلى أهلها ، ومراعاة حقوق ذوى القربى والجار ، واجتناب المحرمات واراقة الدماء ، كما أمرنا بعبادة الله وحده » .

يمكن أن نوصف المرحلة التاريخية التى تبدأ من بعث الرسول إلى اختياره الرفيق الأعلى بمرحلة (بناء الجماعة الإسلامية) ففى خلال ثلاث وعشرين عاماً أمكن بناء مجتمع جديد ، بدأت فى مكة فى قلب الجزيرة العربية ، وفى دار الأرقم بن الأرقم بمكة ، ثم امتد فى مرحلتين : مرحلة مكة (ثلاثة عشر عاماً) ومرحلة المدينة (عشرة أهوام) تنو سطهما « الهجرة » وهما مرحلتان متكاملتان لا انفصال بينهما تكمل الثانية الأولى ، وتعد امتداداً ونموا ونتيجة لما . يمكن أن يطلق على الأولى ، مرحلة بناء الفرد المسلم والأخرى مرحلة بناء الجماعة الإسلامية ممثلة فى الأمة العربية التى تقيم فى الجزيرة العربية وكلتا المرحلتين سيران فى تدرج واضح من الدعوة السرية فى مكة إلى إنذار العقيدة الأقربين ، ثم إعلان الدعوة وإحتمال الأذى ، والتنذير ، والهجرة إلى الحبشة ، والمقاطعة فى الشعب ، ثم بدأت دعوة الرسول لأرافدين فى موسم الحج ، وظهور عصبية مؤمنة فى يثرب استطاعت أن تبرز بعد ثلاث مواسم فى قوة ، تباع الرسول بالحماية والنصرة له وللدعوة ، إذا هاجر إليهم ، ثم تكون الهجرة تأمينا للدعوة ، وفى يثرب « المدينة » يبدأ الرسول فى أنعام رسالته فى ثلاث جوانب (١) بناء المجتمع الجديد (٢) تأمين الدعوة بالسرايا والغزوات (٣) تشكيل « أبولوجية الاسلام » : فكرياً وشريعة وديناً ومجتمعاً .

وفى مكة تبدو الأحداث خلال ثلاثة عشر عاماً كشرائط متتابع دقيقة لمحاولة رائدة فى هزو فكرة جديدة مليئة بالإيجابية والسمو والتقدمية لمجتمع راكده مفاق ، فيه — شأن كل هذه المجتمعات — هدف المقاومة للجديد ، وصلابة العداء لكل ما يغيره عن أوضاعه ، بيد أن هذه الخصومة وهذه المقاومة إنما تتمثل فى الطبقة التى تسود المجتمع ونحكمه وتسيطر عليه ، والتى تعبد فى الدعوة الجديدة إنهاراً لسلطانها وزوالاً لنفوذها وتراثها . أما الطبقات الفقيرة للطبقة للغبونة ، فقد وجدت فى

الدهوة الجديدة: ضياء ونورا، فسارع هؤلاء الفقراء والأذلاء إلى جناح الرجل الذي حل لواء كلمة التوحيد، وانضموا إليه، ولم يكن هذا الرجل قادراً — إذ ذاك — على أن يحصى نفسه فضلا عن أن يحصى أهوانه والمنضويين تحت لواء الإسلام. ومن هنا بدأت عملية تعذيب واضطهاد طويلة امتدت خلال هذه الفترة أو أغلبها في أكثر من صورة، في صورة تعذيب للموالى حتى كان يعتقم للوسرون من المسلمين، وفي تخالف قريش على مقاطعة بني هاشم فأقاموا ثلاث سنين محصورين في شعاب مكة لا يبتاعون ولا يبيع لها ولا يعاملون معاملة اقتصاد أو اجتماع :

وفي دار الأرقم وفي الشعاب كان الرسول يعلم أصحابه الصبر ويمدحهم للدهوة ويمكن في أعماق نفوسهم لإيمان عميق يستطيع أن يندفع بعد قليل في الأرض، وفي مرتين أتاح الرسول لأصحابه التحرر من هذا المجتمع الظالم، كانت الأولى بالمجرة إلى الحبشة حيث هاجر أحد عشر رجلا وأربع نسوة، وللمرة الثانية بالمجرة إلى يثرب وكانت هجرة شاملة بعد أن تحقق بها قيام جماعة إسلامية صغيرة حملت لواء الحماية والاستعداد لاستقبال المسلمين. وكان إسلام حمزة وخالد من أهم نقاط الارتكاز في بناء هذه الجماعة، وكانت إصابة الرسول بوفاة زوجته خديجة وعمه أبو طالب في عام واحد من الوقائع البعيدة الأثر في مسار الدهوة، غير أن الأهوام الثلاثة عشر في مجموعها قد استطاعت أن تنقل الدهوة من مرحلة السرية إلى دهوة العشيرة إلى إعلان الدهوة الشاملة، وأن تحملها من مرحلة إلى مرحلة، تنمو ويزداد أنصارها، وكانت قريش تنظر إلى الدهوة أول الأمر ساخرة، فلما بدأ هودها يورق، وجندرها يثبت تأمرت للقضاء عليها، واشتد الأذى على من في مكة من المسلمين وكان الرسول — وهو صاحب دهوة طلمية إنسانية — وقد أخذ يعرض نفسه على القبائل القادمة إلى مكة لزيارة في موسم الحج، ومن هنا بدأ ضياء خافت من قبل يثرب، ثم توسع خلال عامين بزيادة « الأنصار » الذين دعوا النبي من تلقاء أنفسهم، دهوة أكيدهم ماحة، إلى الهجرة إليهم وعدوا معه بيعة تعاهدوا فيها بنصرته وحمايته وحماية أتباع الإسلام بما يحجمون به أهلهم وحشيتهم، هناك أذن النبي لأصحابه في الهجرة، فتجهزوا في خفاء وسر، وتسللوا، وكان بين أولهم وأخرم أكثر من عام، مضوا خلاله يرافدون بالمال والظفر، ويترافقون، هناك اشتد الخطر على قريش حين أغالت هؤلاء، فازمعو قتل حامل اللواء وصاحب الدهوة، وتسامروا للقضاء عليه في مؤامرة جماعية يضع بهادمه بين القبائل، واستطاع الرسول في بقعة القائد وعمق البصيرة وحماية الله أن يفلت من المؤامرة وأن يشق طريقه إلى يثرب، حتى بلغها، حيث أقام الجماعة الإسلامية. ولم يكن هذا آخر العهد بقريش

ولكنه كان في الحق أول العهد بمقاومة خصومها وعدوانها وتأميرها للركز لتفويض دعائم الجهاد الجديدة بالتأمر مع القبائل المجاورة في الجزيرة خارج يثرب وبالتأمر مع اليهود داخل يثرب ذاتها .

كان بيت « الأرقم بن أبي الأرقم » هو مقر الدعوة الإسلامية الأول ، حيث اجتمع النبي ﷺ آمنوا به من شباب خلال ست سنوات وهي فترة الدعوة السرية حتى أسلم عمر بن الخطاب وقد أتاحت هذه الفترة فرصة تكوين هذه الجماعة التي لم تلبث أن انداحت في الأرض بعد أقل من خمسة عشر عاما حاملة لواء الإسلام إلى كل مكان ، فكانت دار الأرقم بذلك المدرسة الإسلامية الأولى ، التي جمعت القادة والعلماء وبناء الدول من بعد ، وقد علمهم النبي ﷺ في هذه الفترة : دروس العبر والإيمان والثبات والإيثار ، فقد بنام بالقرآن أمة وسطا ، فأقاموا مجتمعها صغيرا بعد أن انفصلوا عن أهلهم ، ولم يكن لأغلبهم مورد أو مال ، فكان الرسول ﷺ يضم الغنى إلى الفقير ، ويرسل أحدهم هنا أو هناك يعلم القرآن ، ومن ثم شهد نظام « المؤاخاة » أول صورة له في هذا المجتمع ، ثم تحول إلى نظام للمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في مجتمع المدينة ، فقد خلط الجميع بين طمسهم وشرابهم وملابسهم وأدواتهم ، فلما جهر النبي ﷺ بالدعوة بعد أن انضم إليها حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب خرجوا إلى السكبة فصلاها بها وفرضوا على مجتمع الوثنية صورة جديدة شابة : هذه المجموعة الشابة للمؤمنة التي انطوت تحت لواء الإسلام حين دهاها « محمد رسول الله » تمثل أبرز صحابة النبي الذين اشتركوا من بعد الهجرة والغزوات والفتوح ، وقد برز في هذا الرعيل - علي بن أبي طالب ، الزبير ابن العوام ، السائب بن عثمان بن مظعون ، طلحة بن عبيد الله ، الأرقم بن أبي الأرقم ، عبد الله بن مسعود ، سعيد بن زيد ، سعد بن أبي وقاص ، عبد الله بن مطعون ، مسعود بن ربيعة ، جعفر بن أبي طالب ، صهيب الرومي ، قدامة بن مطعون ، زيد بن حارثة ، عثمان بن عفان ، عاصم بن أبي وقاص ، السائب بن مظعون ، طليب بن عمير ، خباب بن الأثر ، عاصم بن فهيرة ، مصعب بن عمير ، للقداد بن الأسود ، عبد الله بن جحش ، عمر بن الخطاب ، أبو هيبدة بن الجراح ، هبة بن هزوان ، أبو حذيفة ابن هبة ، بلال بن رباح ، عمر بن سعيد ، خالد بن سعيد ، عباس بن أبي ربيعة ، عاصم بن ربيعة ، نعم بن عبد الله ، عثمان بن مظعون ، أبو مسلمة بن عبد الأسد ، عبد الله بن هوف ، عمار بن ياسر ، أبو بكر الصديق ، حمزة بن عبد المطلب ، عبيدة بن الحارث ، أبو ذر

كما أسلمت سند بدء الإسلام : خديجة بنت خويلد ، أم أيمن ، أسماء بنت أبي بكر ، فاطمة بنت الخطاب ، أسماء بنت عميس ، أم سلمة بنت حذيفة ، أسماء بنت سلامة ، أمينة بنت خلف ، فاطمة

بنت صوان ، ليلي بنت أبي حيثم . وقد جمع الإسلام في مجتمعه الأول : بلال الحبشي وصهيب الرومي وطلحة الأنصاري ، فتمثل بذلك رمز الطابع الإنساني في دعوة الإسلام ، وبدأت نقطة الامتداد من الجزيرة العربية إلى العالم كله من خلال مختلف الأجناس والشعوب . وقد كان هذا الجيل مقدما لجيل ثانٍ تكون من خلال سنوات استعلان الدعوة والهجرة وما بعد الهجرة ، وقد ربي هذا الجيل في أحضان هذا الرعيل وظل ينظر إليه نظرة الإعجاب بالسبق ، وكانت للمشاركة في « بدر » رمزاً المدرسة الأولى ليندل النفس والإشهاد فأعطى أهل بدر درجة مميزة في تاريخ الإسلام . ومن أبرز شباب الجيل الثاني الحسن بن علي والحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عباس وعائشة .

الجماعة الإسلامية في مكة

مرت الدعوة الإسلامية في مكة خلال (١٣ عاماً) بمسيرة مواقف حاسمة :

١ — عندما هبط الوحي على محمد في غار حراء في سن الأربعين بالقرآن (٦١٠ م)

كان ذلك نقطة البدء في مرحلة جديدة من مراحل تاريخ الإنسانية من أزهى هذه المراحل وألعمها أثراً ببناء الحضارة الإنسانية ، وإعطاء البشريه هألية إنسانية قوامها : التوحيد والمساواة ،

وكان محمد بن عبد الله « النبي » الذي حمل هذه الرسالة ، إنساناً ممتازاً ، وقد هيأته عوامل كثيرة لكي يكون أقدر الناس على حمل هذه الأمانة ، أبرز هذه العوامل أنه لم يكن منتمياً إلى دين سابق أو إلى عبادة الأوثان ، وكان في تقدير الجماعة التي أختير لتبليغ الإسلام إليها غاية في الأمانة والشرف ، ملتصقا بذلك من مكانة أسرته وقبيلته ومن سلوكه الشخصي والاجتماعي ، وكان إلى ذلك تاجراً حرف الرحلة ، ومعاملة الناس ، وانتمت آفاق فكره وحياته . وقد مرت الدعوة في ثلاث سنوات : [الدعوة السرية ، وإعلان الدعوة للعشيرة الأقربين ، ثم الجهر بالدعوة للناس جميعاً] ، وقد واجه هذه المراحل بأصرار وثبات ، وصادف من البيئة جوراً ومعارضة تمثلت في ردود فعل مختلف ، أقلها تعذيب اتباعه ، ثم محاولة قتله بوضعه صاحب الأواء فإذا سقط انتهت دعوته .

وكان جهر محمد بالدعوة إعلاناً واضحاً بالمعارضة لكل مفاهيم قريش وقضاء على السيادة القبلية وهي أبرز مفاهيم العالم في ذلك الوقت ، كانت دعوته تحمل بذور أمرين خطيرين يمثلان المقاومة والشجب للمفاهيم التقليدية التي يفرضها سلطان الرؤساء ونفوذ الطبقات الحاكمة . (١) عبادة الله وحده لا شريك له ، ونبذ عبادة الأوثان ، وفي هذا مقاومة للوثنية ولدهوات المنحرفة باسم بعض الأديان وقضاء على نفوذ سدنة الكعبة (٢) المساواة بين الناس جميعاً ، لا أبيض ولا أسود ، ولا فقير ولا غني ، وفي هذا هدم لنظام الطبقات التي تفرض للسادة نفوذاً وسلطاناً وتجعل ممن دونهم عبيداً وخداماً لاحق لهم في شيء ما . وقد تابع النبي في دعوته : العبيد والضعفاء لأنهم وجدوا في صيغته وسيلة إلى تحررهم وقد واجه الرسول والذين أتبعوه من المستضعفين والفقراء حملة متصلة من الاضطهاد ، لم تزد لهم إلا صلابة وثباتاً على ما آمنوا به واحتدل العبيد الأذى في سبيل ماوهمهم الاحلام من حرية وقادوا إلى أبعد حد ، واستطاع للمسلمون بعد قليل أن يجتمعوا في دار الأرقم ابن أبي الأرقم بحسبانها أول جامعة لتكوين الفرد المسلم وبناءه عقلياً وروحياً ، وهذب بلال وخباب ابن الإثري ومات ياسر وهو يعذب وطمنت زوجته ، وتعرض لإيذاء قريش أبو بكر وعثمان والزبير وأبو عبيدة . ولم يكن أمام المسلمين إلا الصبر والانتظار حتى يؤذن لهم بالدفاع عن أنفسهم . فلما ازداد الأذى بالمسلمين أخذ الرسول بالهجرة إلى الحبشة فكانت هجرة الحبشة علامة على مفهوم الدعوة الإسلامية في الحركة ، وفي رفض الجلود على موقف القتل ، وترك البيت التي لا تهتق الأمن لأفرادها ، ولا التو للدعوة وكانت تجربة لها أهميتها في سير الدعوة ، فقد كشفت عن جوهر الاسلام في آفاق جديدة وفتحت الطريق للهجرة أكبر من بعد ، لقد ضمت الهجرة إلى الحبشة هتمان بن عفان والزبير ابن العوام وعبد الرحمن بن عوف وجعفر ابن أبي طالب وقد هاجروا إلى الحبشة مرتين (ابن هشام وابن القيم في زاد الميعاد) وحاولت قريش أن تسترد المسلمين فكان ذلك مجالاً للحوار واسع مع التجاشي حول مفاهيم الإسلام ، كشف عن جوانب جديدة للصورة أكدت نبوة النبي ، وصدق ما جاء به وكان إسلام عمر رأس مرحلة جديدة ، فقد أتاح للمسلمين الخروج من « الاختباء » في دار الأرقم إلى « جبهة » الدعوة والصلاة في الكعبة ، وكان عمر بعد حجرة علامة على التطور الطبيعي للدعوة التي استطاعت أن تكسب من محيط جديدة غير محيط الضعفاء ، وأن توسع نطاقها وآفاقها . وحاولت قريش الضغط على الرسول وأغرائه بالمعرض وفي هذه المناسبة قال كلمة الحرية الخالدة « والله لو وضوا الشمس في يميني والقمر في شالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته » ولما لم يجدى الأغراء بالناسب والمال والجاء

بدأت حملة الهجوم والإيذاء والتهديد، هنالك كان لابد أن تضغط قريش بقوة ، تفرض المقاطعة على المسلمين ، هنالك تمالت قريش على مقاطعة بن هاشم فأقاموا ثلاث سنوات محصورين في الشعاب لا يبيعون ولا يشتبهون ، فقد وقعت بذلك قريش « وثيقة » التزمت بها مكة كلها ، وكانت تلك قمة الاضطهاد ، كجزء من خطة الضغط السياسي من جانب قريش ، وكانت مقاومة المسلمين حلقة من تجربة التكوين النفسى أو الروحى والاجتماعى الذى أهده الاسلام للمؤمنين به ، وهى المرحلة التالية للاضطهاد الفردى ، تتمثل فى الاضطهاد الجماعى ، غير أن صدور المسلمين - والرسول على رأسهم قدوة ومعلم - كشف عن فشل هذه المحاولة ، وجمع للمسلمين قلوباً جديدة ، وفتح الباب مرة أخرى أمام المسلمين لمرحلة جديدة وكان حدث نقض الصحيفة لإفتتاح الطريق أمام الدعوة الإسلامية إلى نصر جديد ثم بلغت ذروة المساءة والاضطهاد عام ٦٢٠ . وكلاهما كان سناداً قوياً لمحمد أضف إلى ذلك ما تلقى من أهل الطائف إذ دعاهم إلى الإسلام فردوه رداً غير جميل ، هنالك فتح الله لمحمد الطريق إلى نهج جديد مريض هو عرض دعوته على القبائل فى موسم الحج ، ولم يكن هذا الطريق سيراً ، فقد صار وراءه عمه عبد المزى ابن عبد المطلب (أبو لهب - أينا صار يرد الناس عنه ، ويسكذبه ويحرض الناس عليه أينما ذهب ، وكان لذلك رد فعل عكسى ، هو اتجاء الناس إليه ومحاولة استكشاف كلته . وصمد محمد لهذا النهج ، وزاد عليه أن زار بعض قبائل العرب فأنى « كندة » فى منازلها وكلبا وبني حنيفة وبني عامر بن صعصعة ، وردوه جميعاً رداً غير جميل . وكان حادث الاسراء بالرسول امتعاضاً جديداً لأصحابه وخصوصه على السواء وكانت هذا الحزن والأحداث كلها غريبة لا بد منها للتأبين للإسلام والموالين لمحمد حتى يستغنى جماعته على تلك التنازع التى عرفت من بعد فالبطولة والنبل والتصميم . وكان ثبات محمد على دعوته رغم كل مالتيه ، هو مصدر النصر ، ذلك النصر الذى تمثل فى إيمان جماعات أهل يثرب بدعوة الاسلام ونصرة رسوله فى مراحل ثلاث ، فقد قدم فى السنة الحادية عشرة للبعثة نفر من الخزرج يريدون الحج فاستقبلهم النبي ودعاهم إلى الله فأمنوا وعادا ، فاذا هو ذلك بين قومهم ، وثنافس الأوس والخزرج فى الاستباق إلى الإسلام ، وفى السنة التالية تمت بيعة العقبة الأولى وكانت فى اثنى عشر رجلاً ومعهم امرأة « هفراء بنت هبيد » قدموا إلى رسول الله واجتمعوا به عند العقبة « وعاهدوه : ألا نشارك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل ولا نأخذ بيميننا نفقر به بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيك فى مكروه » وأرسل الرسول معهم مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ويعلمهم الصلاة ، وقد هز مصعب يثرب وجمع إليه رؤساءها فاستمع الناس إليه وانضوا تحت لواء الدعوة الجديدة ، وفى السنة الثالثة

عشرة لبعثة تمت البيعة الثانية وكانت في ثلاثة وسبعين رجلا وأمرأتين قدموا من يثرب ودهوا رسول الله إلى الهجرة وبايعوه زهبا ونبيا، وعاهدوه أن ينصروه ويحمونه ويحاربون لأجله الأبيض والأحمر من الناس، قال العباس لو فد بيعة العقبة الكبرى: أن محمدا منا كما علمتم، وقد منعتنا من قومنا فهو في هزم من قومه ومنعة في بلده، وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم والحق بكم فإذا كنتم ترون أنكم وافون بما دعوتموه إليه وما نهوه من مخالفه، فإنتم وما حملتم في ذلك، وإن كنتم أنتم مسأله وخالوهم فمن الآن فدهوه. قال الوفد: «تسلكم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت من العبود وللوائيق»، قال الرسول: «أبايعكم على أن تمنعوني عما تمنعون منه لساءكم وأولادكم، فبايعوه على هلاك الأموال وقتل الأشراف والاحتمال في كل حال».

(٢)

الجماعة الإسلامية في المدينة

لم تكن «الهجرة» إلا مرحلة طبيعية من مراحل تطور الدعوة في سبيلها إلى غايتها، كانت مرحلة مكة في أهوامها الثلاثة عشر تمهيدا طبيعيا للكلمة، وإعدادا لعنتيتها، وهذا المجتمع مكة حتى يلتقي بالاسلام بعد الهجرة بسنوات، وحتى يكون ذلك مقدمة لوحدة الجزيرة العربية كلها خلال الأهوام الثلاثة والعشرين. فنصبح «الجماعة الإسلامية الأولى» هذه التي كونها الرسول، هي قائدة التوسع الاسلامي إلى الآفاق، وحاملة لواء الحضارة والفكر إلى الفرس والترك والبربر. وقد كانت الهجرة تطبيقا حقيقيا لمفهوم الاسلام، وهو: الحركة، وتغيير الوطن إذا استمعى إلى الفكرة انطلقتها إلى غايتها أو أصلب صاحبها الاضهاد، لقد كان لقاء الرسول لوافدين إلى مكة في موسم الحج من مختلف الأقطار، وعرض الاسلام عليهم، هو منطلق الاسلام إلى الانسانية كلها، وهو انجاء الرسول بالاسلام إلى وطن جديد أكثر تقبلا لفكرته، حتى إذا وجد تجاوبا وقبولا من أهل يثرب، سارع فدما أتباعه إلى الهجرة إليها، تخلصا لهؤلاء المؤمنين الضعفاء الفقراء من اضطهاد أهل مكة، فلما قامت الجماعة الإسلامية في المدينة، كانت نموذجاً للمجتمع الاسلامي الأمثل، من حيث بقاء السكان الداخلي على مستوى الترابط المسكن بالمسجد والترابط الفكري بالقرآن والاجتماعي بالاخاء. ثم التماقد مع أهل الوطن بوثيقة مكتوبة تقوم على أساس المشاركة في العمل الاجتماعي والوطني، وبقي بعد هذا — لاستكمال إطار الجماعة — حماية هذا المجتمع من الغزو الخارجي، وكانت

قريش التي حاربت الدعوة وحالت بينها وبين أن تقوم في مجتمع مكة ، ثم حاولت القضاء على صاحب الدعوة بعد إذنه لأصحابه بالمهجرة ، قد توهجت هذه الدعوة بالقضاء عليها في مجتمعها الجديد ، فكان لا بد للجماعة الإسلامية أن تدافع عن نفسها ، وأن تدبيل من خصومها ومن ثروتها لقاء ما صادرت من ثرواتهم . وقد تمت بيعة أهل يثرب للمسلمين ، على مراحل ثلاث في سنوات ثلاث ، و تمت البيعة الكبرى حين تقدم اليثريون للرسول داهين إياه وقومه إلى إرتضاء بيثهم مكانا لدعوته ، وقد اشترك فيها النساء مع الرجال ، وكان تهادنهم فيها واضحا ، أنهم يحمون النبي والمسلمين بما يحمون منه أهلهم وأبنائهم ، وكانت دعوة الإسلام خلال ذلك قد انتشرت في المدينة وانسع نطاقها ، ومن هنا قامت الجماعة الإسلامية على دعائم وطيدة ، وقد جرى تمام الجماعة الإسلامية في المدينة من نقطة « المهجرة » منطلقا حتى تمت بوحدة الجزيرة العربية كلها للإسلام وإذعانها بالولاء له . كقوة موحدة ضاربة ، استكملت عوامل القوة النفسية القادرة على العمل من أجل إذهاب الإسلام ، تحمل إيماننا لأحد تة بصدق الدعوة ، وتحمل بيعة كاملة تقدم أرواحها مستشهدة في سبيل النصر والتوسع .

ولا شك كانت مرحلة « بناء الجماعة الإسلامية التي بدأت من خلال مجتمع مكة المضطرب التي اهتزت قواعده ، حين انفصل عنه هؤلاء الذين والوا الدعوة الجديدة ، وقد استمر نمو هذه الفئة القليلة المستضفة في مجال الاضطهاد ، وبين عوامل الانتصار حتى تمت المهجرة التي كانت تعبيرا صلبا جوهريا على قدرة الدعوة على الحركة ، لاستنفاد نفسها من الاضطهاد والفناء ، وإتاحة الفرصة للمستضعفين في جو مؤمن قادر على حمايتهم ، وكنتيجة بدء لبناء مجتمع جديد بد في أرض أشد خصوبة وأوفر قدرة على استقبال الدعوة ونموها في يقرب .

وكان بناء المسجد ، هو الخلية الأولى للبناء الاجتماعي الأسرة والجماعة ، بوصفه أداة صهر المؤمنين بالإسلام في وحدة فكرية واحدة ، من خلال حلقات العلم والقضاء والعبادة والبيع والشراء وإقامة المناسبات المختلفة . فالمسجد هو مكان الندوة العامة ، ومجال المشاورة ، ومقر عقد الأولوية للجيوش وإرسال البعث . فلم يكن المسجد مميدا أو مقرا للصلاة وحدها ، بل كان شأنه شأن الإسلام نفسه متكامل في مختلف جوانب الدين والسياسة والاجتماع . ثم قام في الوقت نفسه تنظيم الحياة الاجتماعية والإقتصادية للمسلمين الذين يتشكون في المهاجرين القادمين من مكة ، والأنصار « الأوس والخزرج » وقد تم ذلك على مرحلتين : « المرحلة الأولى » هي دعم الوحدة بين الأنصار واصلاح ما بينهم والقضاء على خلافاتهم ، وإذابة العوامل القديمة والتقليدية في بوتقة الوحدة ممثلة في كلمة « الأنصار » ثم اجراء عملية صهر كبرى بين الجماعة الجديدة (الأنصار) بوصفها المستقبلية للمهاجرين على أرضها .

عملية صبر كبرى بين هذه الجماعة الجديدة (الأنصار) بوصفها المستقبل للمهاجرين على أرضها ، وبين (المهاجرين) وقد أظم النبي نظام الإخاء أو المواخاة حين عقد رابطة أخوة قوامها رجلاان أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار ، وقد بدأت هذه الرابطة على نحو إيجابى ينمى فى تحقيق للعيشة والعمل لها معاً ، وكان المهاجرون الذين تركوا أموالهم فى مكة لا يملكون شيئاً ، فاقسم الأنصار أموالهم معهم على نحو آخر ، وكان تصرف الأنصار فى هذا الموقف مثلاً عالياً من المروءة والكرم والإيثار ، فلم يلبث المهاجرون أن شاركوا فى التجارة وعملوا فى مزارع الأنصار على نظام المؤاجرة ، أو المزارعة ، ولم تلبث أن إنتظمت حياتهم الاقتصادية ، كما إنتظمت حياتهم الاجتماعية بإقامة أسر جديدة ، والإصهار إلى الأنصار ، وقد حققت هذه الخطوة (انصهار الجماعة الإسلامية) فى وحدة شاملة على أساس رباط العقيدة بعد أن كانت الروابط تقوم على أساس المفهوم القبلى .

ثم يلبث الرسول أن عقد مع مختلف الأطراف فى المدينة عقداً ، هو أشبه بدستور دولة ، وقد دخل فى هذه « الصحيفة » — كما أطلق عليها المؤرخون — مختلف القبائل والبطون والعشائر ، حيث أقر الدستور لكل من الأطراف الثلاثة : شخصيتهم ودورهم فى بناء وممارسة الحياة فى المجتمع الجديد ، وقد أبرز هذا العقد « أمة الإسلام » لأول مرة أمة واحدة ، يجمعها رباط التعاون والتضامن والتكافل ، كما رسم الروابط بين المسلمين وبين اليهود فى نظام الجماعة اليتيمية لكل . وكان فى مجموعه صورة تطبيقية لمفهوم الإسلام فى إقرار نظام سياسى واجتماعى يشترك فيه المسلمون وغيرهم على سنة المساواة والتعاون ومراعاة حقوق الجوار . وبعد هذا العقد أول نظام مكتوب قامت على أساسه دولة منذ أول تكويتها ، كما يمثل تطوراً كبيراً فى مفاهيم الاجتماع والسياسة ، فهذه جماعة تقوم لأول مرة فى الجزيرة العربية على غير نظام القبيلة وعلى غير أساس رابطة الدم ، حيث انصهرت طائفتا الأوس والخزرج فى جماعة الانصار ، ثم انصهر الأنصار والمهاجرون فى جماعة المسلمين ثم ترابطت هذه الجماعة المسلمة مع اليهود الذين يشاؤكونهم الحياة فى المدينة ، إلى أمد ، ولأول مرة بحكم القانون ، حيث ترد الأمور إلى الدولة ويرجع بالرأى الأخير إلى رئيسها ، وبذلك بدء قيام مجتمع جديد على مفاهيم جديدة ، بعيداً عن القيم القبلية ، ومن خلال تغيير شامل ونحول سريع بطوى صفحة اجتماعية طابعها القبلية ، ويفتح صفحة جديدة أكثر إيجابية وأقرب إلى الترابط والتكافل والوحدة الفكرية تنمو خلالها العلاقات الإنسانية وترتفع فوق مفاهيم الثأر والمصيبة والفردية والقبلية . وكانت من أهم ما شغل الرسول فى مرحلة فى « بناء الجماعة الإسلامية » هو تأمين أمرين هامين . (١) أمر الجماعة وأمر الدعوة الإسلامية وفتح الطريق الآمن لنومعها وإعطاء الراغبين فى اعتناقها الإحساس بالأمن والحماية

(٢) وخلق جو الهية التي يرهب خصومها فيحجمون عن الإثارة بها أو الانتفاض عليها . وقد فرض « الجهاد » لتأمين الدعوة الإسلامية ، وحماية حدود المجتمع الجديد ومواجهة من يقف في سبيله أو سبيلها . وأعطى إنطلاقة كبرى ، هي أن هل ممتنقى الإسلام والمؤمنين به رسالة متجددة على الزمن ، أن يجاهدوا في سبيل كلمة الله وإذاعتها في الآفاق ، وكان هذا العمل مقدمة لخطوة التالية مباشرة وهي : توحيد الأمة العربية في كيان نفسى وفكرى واجتاهى واحد ، غير أن « الجهاد » لم يفرض إلا بعد مرحلة طويلة من الإعداد النفسى والاجتاهى له بوصفه دفاعاً عن النفس ، وتأميناً للدعوة الإسلامية ، وأنه ليس هدفاً مسبقاً للدعوة ، بل هو آخر المراحل حين يقف خصوم الإسلام في وجهه يحاولون دون انتشاره ، أو حين يحاولون الانتفاض على بناءه وجهته . وقد أمضى المسلمون مرحلة « الإعداد والدعوة » في مكة في احتمال عجيب للأذى ، دون أن يسمح لهم الرد بالمثل ، ثم كانت « الهجرة » محاولة جريئة لتحرير الدعوة من عوامل القضاء عليها ، واستئنافها بالحركة ، وبنسب الجاهة في مكان أكثر قبولاً لها وأكثر أمناً ، استعداداً للدور الجديد من أدوارها ، في سبيل بناء وحدة « أمة العرب » : وحدة اجتاهية وجغرافية تمثل القوة الأولى التي ستتحرك إلى أفق الأرض تحمل أمانة الدعوة . غير أن انتقال الدعوة إلى « يثرب » لم يوقف خصومه قريش لها ، بل زادها رغبة في تفويض دعائهم ، هنالك كان لابد من الدفاع عن النفس . وتأمين الدعوة الإسلامية ، فأذن للذين يقاتلهم خصومهم ظلاماً أن يواجهوا الموقف على مستواه في تقدير دقيق ، وهو ليس إذناً مفتوحاً بغير قيود : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » . ومن هنا كان نظام « السرايا » الذى هو أشبه بدوريات « أمن وحماية » لمجتمع المدينة وحدودها الخارجية فضلاً عن تدريب المسلمين وإعدادهم على المقاومة المسلحة ، وذلك بعد أن تم إعدادهم فكرياً وتربوياً وبناء شخصيتهم الاجتاهية الصلبة في مجتمع مكة ، وقد جرى ذلك مع تقدير محسوب للدور الذى سيلقى على هذه الطلائع بمد عام الدعوة للاندفاع في آفاق الأرض من أجل أذاعة الدعوة ونحطيم العوائق التى تقف أمام نشرها . وقد كانت فريضة الجهاد موجهة أساساً للدفاع لا للهجوم ، وفي مفهوم الإسلام كله لم يكن هدف الإسلام الهجوم ، ولا هو من أساليبه ، وغاياته ، فالإسلام أساساً : « عقيدة فكر » لا يتحقق قبولها إلا بالافتناع العقلى والتقبل النفسى ، وقد حرص الإسلام على أن يترك أصحاب العقائد في حرية مع هتائهم ، بل ومع حمايتهم ، وكل وثائق الرؤساء في الحرب والحكم والقادة تحمل في نضائهم تأكيد هذا المفهوم في وضوح تام . وكان الرسول شديد الإيمان بأن الإسلام بوصفه توحيد الله وهداية اجتاهية سيجد من قلوب الطبقات المختلفة تقبلاً وإيماناً ، وأن المقاومة لن تصدر إلا من الآخذين

يبدى زمام السلطة والنفوذ والمستغلين والظلمة ، هؤلاء الذين يخشون من ضوء الاسلام على صرا كزيم وثرواتهم ، والذين ، يشبهون بالقيم القديمة البالية على نفوذهم ، أما القوى الشعبية الغالبة التي تعيش حياة الظلم والفقر والاستعباد ، فانها سوف تنضوي تحت لواء الاسلام بوصفه رسالة التوحيد والعدل والاجتهاد وأنها مستنفذ ولائها لحكامها الظالمين للمعتدين ، ومن هنا فليس الاسلام في حاجة إلى قتال لنشر كفته ، ولكنه في حاجة إلى أن يجد الوسيلة لا بلانج هذه الكلمة إلى الناس وحلها إليهم أيا كانوا ومن هنا كانت فريضة الجهاد لا تعنى غير الدفاع عن النفس ، وإزالة العوائق من طريق انتشار الاسلام ، مع قدم كبير من التسامح والعدل والمساواة ويبدو مضمون هذا التفسير واضحاً في آي القرآن نفسه التي فرضت الجهاد « إذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » .

وقد فرض الجهاد في السنة الثانية من الهجرة بعد أن أتاحت الفرصة للجهاد الاسلامي أن ترمى قواعد مجتمعا ، وتعلن نظامها ، وفق مفهوم الإسلام ، وقد كان يعنى أمرين أساسيين : (١) حماية مجتمع الاسلام بوصفه دولة لها حدودها ، ولها هيئتها ضد أى أعتداء خارجي ، (٢) فتح الطريق أمام كلمة الإسلام لتنتشر طريقها إلى العالم كله بوصفه رسالة عالمية وإنسانية شاملة ولم تبدأ خطة الدفاع عن الدعوة ومجتمعها إلا بعد أن حدد « القرآن » خطة الجهاد « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » والاذن هنا مشروط بالدفاع وعدم الاعتداء ، وقد بدأت قريش هدوانها حين تخطت بقوافلها حدود الدولة الإسلامية ، في محاولة للاستيلاء بها ، والانقضاض عليها ، فكان لابد للمسلمين أن يخرجوا لمواجهة الأمر ، أما بالإسقيلاء على القافلة نفسها بوصفها جزءاً من أموالهم التي صادرتها قريش عند هجرتهم إلى يثرب ، أو مواجهة الموقف مواجهة دفاع ومنذ استقرار المسلمون في يثرب بدأ تكوين المجتمع الاسلامي ، وتنظيم علاقاته الداخلية بين المهاجرين والأنصار وفيما بينهم وبين اليهود المقيمين في المدينة ، وبدأت إجراءات الأمن في حماية يثرب من غارات خصوم للمسلمين — وفي مقدمتهم قريش — عليها . وتركزت أهم التنظيمات الداخلية على التنظيم الاقتصادي والتنظيم الاجتماعي . وقد تم إعداد نظام اقتصادي قوامه العمل والكسب والملكية الفردية ، وشرعت الزكاة لتقريب بين الطبقات وضمانا لحق الفقير والشيخ والعاجز والمريض ، والتي الربا ، فقد أحل الاسلام البيع وحرم الربا . وكانت الزكاة إحدى أركان الإسلام الخمسة : تعطى الفقير الحق في

مال الفنى ، فهى ليست صدقة أو منحة ، ولكنها حق أكيد قائم تقوم الدولة عليه وتنفقه في وجوهه . ويشتمل في مقدار معين يدفع في وقت محدد ، ويرتبط بمحاصيل الزرع والثمار والذهب وعروض من التجارة . وقد انتظم بناء مجتمع المدينة على مراحل ، ونزل التشريع على دفعات ، وامتد على سنوات ، وغطى مختلف مسائل الاقتصاد والقانون والاجتماع وأمور البيع والاجارة والربا والمقتل والسرقة والزواج والطلاق والميراث . وكان تدرج التشريع في إلغاء الربا والخمر والزنا وغيره يعطى صورة الانتقال على مراحل ، حتى لا يصاب المجتمع باضطراب أو نكسة من جراء الانتقال الفورى ، أو الطفرة ، كما نظم الاسلام المجتمع أمور للمرأة وحقوقها وعلاقتها بالرجل وأمور الزواج والطلاق . بما يحقق حماية الأمرة ودعها ، وصلات الزوجين والأبناء على نحو غاية في السكال والدقة ، بما يحقق سلامة الأسرة والمجتمع . وبما يضمن نمو المجتمع الإسلامى على دعائم ثابتة وكان قضاء الاسلام على : الزنا وأد البنات وتقييده تعدد الزوجات ، تلة واسعة عن مجتمع ما قبل الإسلام ، وقد تحقق المرأة المسلمة بهذا النظام حقوقها السكاملة في حرية البيع والتصرف فى المال والاجارة والميراث وضمن لها حقها فى الزواج والطلاق والحضانة على نحو لم يكن معروفاً فى الجزيرة العربية وحدها ، ولا فى العالم كله فى هذه الفترة . وكان ذلك دفعا لها لتكون عضوا حيا عاملا فى المجتمع الإسلامى مما أهلها لأن تخطط خطوات واسعة فى مجال العلم والحرب وبناء الأسرة وأن تبرز شخصيتها فى تاريخ الاسلام وتعلم ، وكان الرسل حريصا على أن يعقد للنساء اجتماعا وأن يوجهن ويفتح لهن الطريق ، وكانت زوجات الرسول المثل المتقدم فى هذا المجال ، وقد استطاعت طائفة وحفصة أن يكونا من رواة أحاديث الرسول ، وتحقق من بعد لكثيرات المشاركة فى ذلك . كان للمرأة المسلمة دورها الواضح فى الجماعة الاسلامية ، هذا الدور الذى تتميز فيه المرأة من حياة ما قبل الاسلام ، كان أساس هذا الدور هو موقف الاسلام الواضح ، الذى ترتب عليه دورها فى المجتمع ، وتمثل ذلك فى شمول الخطاب القرآنى للمرأة والرجل ، والتسوية فى الحقوق والتبعات بين الرجل والمرأة وإقرار القرآن لأهلية للمرأة ، « أهلية حقيقية » الإرث والهبة والوصية والدين والهلاك والتعاقد ، والسكسب ، دون أن يكون ذلك منوطا بموافقة الرجل أو إذنه ، والتسوية فى التكاليف العامة بين المرأة والرجل من زكاة وحج وصلاة ، وكما أعطى الاسلام المرأة حريتها كاملة فى أمور الزواج والطلاق والبيع وحق الإرث . وكرم المرأة بنتا وزوجة وأما ، وكرم الأم وسأوى بين المرأة الرجل ، وأكد الفرق بالبنات وتعليمهن والعناية بالأسرة فى انصوص صريحة فى القرآن « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » ، « لا يحمل السك أن ترثوا

النساء كرها ولا تمضواهن لتندبوا بهن ما ينتموهن . وفي تعاليم الرسول : طلب المسلم
فريضة على كل مسلم ، استوصوا بالنساء خيرا فانهن هوان لاكم ، الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة
الصالحة ، نعم الولد البنات ، وأباح الاسلام تعدد الزوجات ولم يفرضه ووضع له من الضمانات ما يذهب
الظلم وينفي الضرر . ثانيا : شاركت المرأة في غزوات النبي وبرزت أسماء كثيرة : أم عطية .
أم عماره . نسيبة بنت كعب المازنية ، صفية بنت عبد المطلب ، ومنهم من غزت مع النبي سبع
غزوات (أم عطية) وكن يخلفن الرجال في رحالهم ويصنعن الطعام ويدواين الجرحى ويقمن على
المرضى ، ومنهن من شهدن العقبة الكبرى كأُم عماره أول مبايعة للنبي فيها ، وقد شهدن مختلف
الغزوات ، وكان لهن دور ضخم . ثالثا : في مجال العلم والفصاحة والبلاغة وقد نافسن الرجال في
العلم بالاسلام ، جافطات للقرآن روايات للحديث ، شاعرات وخطيبات ، وشاركن في كل مجال
ودخلن المساجد ، وشهدن حلق العلم والصلاة جماعة ، وخضن الممارك ، والقين المطلب والأشمار
وكان الرسول يعد لهن في مجالسه وفي الصلاة أما كن خاصة ، واشتهر نفر من النساء غير قليل
بالحديث والفقه ، حتى أن طائفة من الأحاديث المختلفة قد رويت عن عائشة وأم سلمة ، وغيرهما من
الصحابيات ، بل أننا نرى بعض الأحاديث تروى سلسلة عن نسوة دون أن يكون بينهما رجال ،
وروت عائشة عن النبي ألفين ومائتين وعشرة أحاديث . وجاء في الاصابة أن عائشة أم المؤمنين
كانت تجيد القراءة ، وأن حفصة كانت تحسن الكتابة ، هلنها أياها « الشفاء » بنت عبد الله
بن شمس القرشية وكان لابد لمجتمع المدينة أن تبرز فيه ظاهرة الغزو والحرب والقتال . فقد كان
ذلك ضروريا لبناء الجاهة الإسلامية في المدينة أن تؤمن من الخارج ، ولما كانت قريش قد أحست
بفداحة الخطر الذي يمتدق من هجرة المسلمين إلى يثرب ، وقيام مجتمع جديد شاب بها ، من شأنه
أن يفسر الاسلام في أنحاء الجزيرة ، وأن يعود قويا زاحفا إلى مكة من بعد ،
لما كانت قريش قد أحست بذلك إحساسا قويا فإنها قد أخذت تتأمر للقضاء على هذه الجاهة ،
لذلك كان لابد للمسلمين من إحساس دائم باليقظة والحركة ، والحراسة ، حتى لا تؤخذ الجاهة
على غرة ، ومن هنا كانت السرايا ، وكان الاستعداد الدائم لمواجهة أى موقف من مواقف الغزو ،
وقد تمثل هذا حين زحفت قريش بعد استنقاذ قافلتهما إلى ماء بدر قريبا من المدينة ، وكان لابد
وقد أذن للمسلمين بأن يقاتلوا من يهاجمهم ، أن يصطدموا مع قريش ، وأن ينتصروا مع قلة العدد
والعدد ، وكان ذلك بدأ صدام مسلح وهذيان متصل شنته قريش خلال أهوام متصلة ، في غزوة أحد
بعد عام واحد من بدر ، وفي مؤامرة ضخمة حشدت لها كل قبائل العرب واليهود وخصوم الاسلام

جميعاً في غزوة الخندق . غير أن الهزيمة التي منيت بها « الأحزاب » قد دفعت مجتمع الإسلام إلى القوة وأضافت إليه انتصارات ومكاسب جديدة ، فقد ذاع الإسلام في الجزيرة ، ورجعت كفة « الجماعة الإسلامية » بانضمام قبائل جديدة إليها ، وكان لابد أن يتجه المسلمون إلى السكبة : البيت الحرام في مكة ، وقد استوى مجتمعهم ، معتمريه ، فقد كان الحج فريضة من فرائض الإسلام ، وقد ساقوا أمامهم الهدى علامة السلم لا الحرب ، والحج لا القتال ، واستطاعت قريش أن ترى قوة الإسلام والتي أصبحت وشيكة أن تدخل مكة ، فلم تلبث أن عقدت مع النبي « صلح الحديبية » الذي كان أول علامات « نصر الله والفتح » وطاد الرسول والمسلمون ليرجعوا في العام القادم يؤدون عمرة القضاء . وفي خلال ذلك أخذ النبي والمسلمون يوسدون المجتمع ويقاؤون ، وإصرار اليهود بمحاصرم في خيبر ، وإجلائهم ، بعد أن تواصلت محاولاتهم للقضاء على الجماعة الإسلامية ، وكان عقد الحديبية وعمرة القضاء مقدمة لأكبر نصر في تاريخ الجماعة وهو « فتح مكة » . وحقق المسلمون في هذه المرحلة أعظم توسع سلى لهم بتضاعف عدد المنضوين تحت لواء الإسلام . وحقق فتح مكة انتصار الدعوة الإسلامية وتركزها ، وقد أصبحت « مكة » مصدر الدعوة الأولى ، وقد دانت للإسلام ، وتطهرت السكبة من الوثنية وتقدم دعاة الإسلام الذين أوفدم النبي إلى القبائل ناشرين لواء الإسلام ، وحاولت حين أن تغزو مكة فيأدرها الرسول في اثني عشر ألفاً ، ثم كانت الطائف هي الخطوة الثانية في تركيز الإسلام في الجزيرة العربية . والتفت الرسول إلى مشارف الجزيرة حيث « الروم » تريد أن تنقض على الجماعة الإسلامية فيأدرها في ثلاث جولات متصلة ، إحداها مركة مؤنة ، ثم كانت هزوة للمصرة الشاقة التي زحف على رأسها الرسول في ثلاثين ألف من المسلمين إلى تبوك ، ولم يقع قتال ، وكان بحث أسامة قبل أن يلحق الرسول بالرفيق الأهل علامة على تأمين الشمال وتأكيد الحرص على خطر انقضاؤ الروم منه . وفي خلال هذه السنوات العشر في المدينة تمحق للإسلام أن ينشر ظله على الجزيرة جميعاً فانضوت تحت لواء الإسلام .

ثم أتم الرسول الحلقة ، بأفراد الحج للمسلمين فلا يحج مشرك ولا يطوف بالبيت هريان . وبذلك قام مجتمع الإسلام الأول ، منتظماً الجزيرة العربية ، وقد أتم الله الرسالة ، وأكملها ، وتم نزول القرآن ، وكان الرسول قد أعلن عموم رسالته بإبلاغ الإسلام إلى الملوك والأمراء على حدود الجزيرة العربية وأرسل رسله يحملون الرسائل إلى هواهل الفرس والروم والحبشة ومصر معلناً إياهم ومبلغاً ، وقد استقبلها بعضهم بالقبول وبعضهم بالتحفظ ، والبعض الآخر بالنقمة ، وكان ذلك كله تمهيداً لحركة الإسلام المتصلة ، ومرحلته التالية في التوسع والانتشار وتكوين الجماعة الإسلامية الكبرى ،

وقد تمت الوفود من أنحاء الجزيرة العربية وأطرافها مبايعة وأطرافها مبايعة الرسول بالإسلام ، وأذن رسول الله في القبائل بالحج الأكبر فاجتمع مائة الف مسلم من شبه الجزيرة في ركب الرسول ، وفي هرفت أعلن رسول الله أمر الله بتمام الرسالة: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» فكان ذلك إيذاناً باكمال المرحلة الأولى من بناء الاسلام ، ولم يلبث رسول الله أن اختار الرفيق الأهل وكانت كفته الأخيرة «انفذوا بعث أسامة» . وباختيار الرسول الرفيق الأهل كانت «رسالة الاسلام» في أيديولوجيتها السكاملة قد تمت واستسكمت ، ولم تدخل عليها أى إضافات أخرى من بعد ، وقد دار الفكر الاسلامي بمختلف مقاهيمه وحركاته وتطوراته من بعد ، وحتى اليوم في إطار مفهوم الاسلام - كارتبه القرآن وقام عليه الرسول - سنة وتطبيقاً ولم يخرج عنه ، وإنما كان الفكر الاسلامي تديراً وتحليلاً وتوسيعاً لآفاق الالتقاء بين الاسلام والحياة .

(٤)

• تكامل مفهوم الإسلام •

كانت فترة «الثلاثة وعشرين عاماً» منذ بزوغ فجر الاسلام إلى اختيار الرسول الرفيق الأهل هي فترة بناء «مفهوم الاسلام» وتكوين «القاعدة» التي اندفع منها إلى العالم كله ، وبناء النماذج القادرة من القادة المحاربين وبناء الدول وقادة الفكر . وقد اكتملت مقومات الاسلام ومقاهيمه في حياة النبي من حيث هو دين ومدنية ومجتمع . وتم وضع الخطوط العامة لها ، هذه الخطوط التي لم يدخل عليها بعد إلى إن يرث الله الأرض ومن عليها أى إضافة جديدة ، فسكان كل مجاهد من بعدهم يراهم وتوسيعاً لآفاقها ، وتحليلاً لقائنها ، مستمداً من جوهرها القابل للحركة والتطور وعلى النحو الذي أتاحتها في صميم مقوماتها من سعة وحيوية ومرونة ، جعلتها قادرة أبداً على مسيرة الحياة والاسان والحضارة على اختلاف البشاش والأزمة . فقد استطاعت أن تخرج بالثقافات والحضارات المختلفة وتعهدها في بوتقتها وتحولها إلى طابعها ، وتتقبل من أساليب الفكر الانساني ما يزيد بها قوة على البقاء والحياة والتجدد دون أن يفقدها أصالتها ، وقد ظل الاسلام إطاراً ثابتاً للثقافة والحسك والاجتماع والحضارة ، تتحرك صورته وفق مجريبات الزمن وتطورات الأحداث ، دون أن يخرج عن طابعه الأصيل ومقوماته الأساسية .

و « الاسلام » بمفهومه الأصيل هو دعوة التوحيد مع التكامل والوسيلة بين جوانب السياسة والاجتماع والحضارة والاقتصاد والثقافة ، تلتنق هذه الجوانب من خلال الاسلام وتتمهر ، قوامها العقل والقلب ، والدين والعلم ، وللمادة والروح ، والدنيا والآخرة ، ومن خلال الاسلام لا تبدو هذه الجوانب متصارعة ، ولا يتحتمل في لقائهم ثنائية بل تنظم في امتزاج وتكامل ، وقد أعطى الاسلام للحياة في المجتمع الجديد رسالة ، أسمى من الصراع القبلي ، وهذا أكبر من المطامع الدانية . أما القرآن فهو : « الوثيقة الاسلامية الخالدة » التي لم يصعب تحريف أو يتورها نقص بوصفها للنهج السكامل ، لمقومات الاسلام والفكر العربي ، ومفاهيمه ، والأرضية السكاملة له ، وللنطق ، وقوام جذوره الأساسية .

« ومحمد بن عبد الله » هو رسول الله بالاسلام إلى الانسانية كافة ، وهو التطبيق العملي البشري لمفهوم القرآن للانسان ، والدافع للقيم الانسانية إلى التفاعل مع الحياة ، وقد عاشت سيرته نموذجاً حياً لتطبيق « أخلاق القرآن » وظلت سنته مصدراً حياً لتقديم النموذج الانساني السكامل بوصفها تفسيراً للقرآن وتطبيقاً له . وقد كانت حياة النبي نموذجاً كاملاً رفيماً للانسان في أسمى صورته ومفاهيمه وتصرفاته ، فقد وصفت ذلك السيدة عائشة بدقة حين قالت « كان خلقه القرآن » .

٢ — ولقد كانت الجماعة الاسلامية الأولى محاولة لتطبيق « مفهوم الاسلام » في بناء المجتمع والحضارة لتظل صورة مثلى أمام التاريخ كله ، تتمد بالقوة والنموذج والمثل العملي كلما افتقر الناس إلى فهم مضمون الاسلام في مجالي الاقتراب منه أو الابتعاد عنه ، ففي خلال هذه الثلاثة عشر سنة هامة اختصرت صورة كاملة لتحول أمة من النقيض إلى النقيض عن طريق مفهوم الاسلام ، كان القرآن فيها هو المنور وكانت السنة هي للذكر التفسيرية ، وتطبيق القرآن على النموذج الأول « محمد » حامل لواء الدعوة .

وقد مرت هذه للرحلة من حياة الجماعة الانسانية الأولى بمرحلتين (١) مرحلة الدعوة . (٢) مرحلة بناء الجماعة التي حملت لواء الدعوة وانطلقت بها إلى أطراف الأرض ، كانت للرحلة الأولى في مكة منع الدعوة في محاولة التحدي الكبير لاجراء مجتمع من أوضاعه القائمة للورثة إلى أوضاع جديدة أكثر تقدماً وإيجابية وإخاء ووحدة . ولقد قاوم المجتمع القديم بكل قوته في سبيل المحافظة على قديمه ، وصادم بكل وسائله وأدواته الدعوة والداهي بكل ما استطاع أن يصل إليه من أسلحة . إلا بضعة نفر من الفقراء والضعفاء تبعوا الداهي وآمنوا بدعوته ووهبوا أنفسهم للدفاع عنها

ثم كانت « الهجرة » نتيجة لظهور مجموعة من المؤمنين بالدعوة في يثرب سموا (ثلاث سنوات متوالية في أعداد متزايدة إلى مكة موسم الحج لينتقروا بالداعي، ثم عاهدوه على أن ينصروه إن هاجر إليهم، وأن يحفظوه مما يحفظون به، أبنائهم وذويهم، فكانت الهجرة إلى المدينة هي « حركة الاستجابة » لنحدي مكة خلال ثلاث عشر عاماً، ومن ثم بدأ مجتمع الدعوة الجديدة يتسكون ويمارس حياته ووفق أنظمة الدولة، ويمضي ليقر هذا النظام في الداخل ويثبت الدعوة إلى أطراف الجزيرة العربية كلها، فكانت بذلك هي الطاقة للشعة، والأمة الحاملة لدعوة الاسلام إلى العالم كله والجماعة الأولى التي تلقت الأمانة واستطاعت بما قدمه لها الاسلام من قيم ومفاهيم أن تغير نفسها وتحول إلى أمة موحدة، وتسمى لتنتشر الاسلام في الأرض .

هذه هي أمانة « الأمة » ممثلة في الجماعة العربية الاسلامية الأولى التي تسكونت في خلال عشر سنوات في مجتمع المدينة بعد ثلاثة عشر عاماً من صراع مع القوى المسيطرة المنحكمة . وفي خلال هذه السنوات العشر استطاعت الجماعة الاسلامية التي قامت في المدينة أن تسيطر على مجتمع مكة وأن تنديه في الاسلام، وأن تصهره في بوتقة الدعوة الجديدة، وتشده معها في كفاحها ونضالها من أجل إعلاء كلمة الاسلام في الأرض . ومن هنا كان مفهوم الاسلام نفسه هو الحكم والنياس، فهو الذي استطاع أن يبني هنا المجتمع، وأن يكون هذه النماذج القادرة من أبطال القادة وبناء الدعوة والمفكرين، ووفق مفاهيمه صيغت هذه العقليات والنفوس التي أصبحت به خلفاً آخر . فكانت لها هذه القدرة المعجزة التي أدهشت الباحثين خلال أيام التاريخ الاسلامي كله من استطاعتها تحقيق بناء التوسيع خلال مائة عام . ومن هنا تبين أيضاً سلامة المقاييس التي لا تتغير في الحكم على الأحداث فيما بعد، فكلمة قربت الأحداث من مفاهيم الاسلام كانت مندفعة في الطريق الصحيح، وكلمة انحرفت من هذه المفاهيم الأولى كانت المازات والأزمات والهزائم .

إنه مقياس لم يحط به خلال أربعة عشر قرناً كاملة، الارتباط بمقومات الاسلام ومفاهيمه، هي الصحة والسلامة والتمسك بالقوة على البقاء والحركة، والانحراف عنها هو الخطأ والهزيمة والضعف والعجز عن الحركة والبناء . وفي كل نهضة نهض بها « بناء الدول » في عالم الاسلام يبدو هذا للوعي واضحاً، وكلما إنهارت دولة أو حركة كان مصدر الانهيار هو الانحراف عن معنى الاسلام بدعوته إلى الاخوة والقوة واليقظة .

٣ — كان المجتمع الاسلامي الذي كونه الرسول خلال عشر سنوات في المدينة ونمرة دعوته

خلال ثلاثة عشرة سنة في مكة هو بؤرة الدعوة الإسلامية كلها، وفيه انصب ذلك الفريق من صحابة الرسول الذي أطلق عليه اسم «الصحابية» وكان تكوينه وانتمائه في مجالات احتمال الأذى والعبر على التمدب والايان بالرأى والاصرار عليه في مسكة، والسكر والغر والقتال والاشتراف في السرايا والغزوات والبعوث في المدينة، إيماننا بالاسلام وبيعة الروح لله في سبيل نصر الاسلام ونشره والدفع عنه والشهادة في سبيله. وكانت حياة الرسول هي النموذج الأعلى لذلك الايمان، باحتمال الأذى والنضال في سبيل ومقاومة خصوم الاسلام، فقد كان هو المثل الذي لا يرقى إليه مثل في هذا المجال، يتقدم أهوانه في القتال حتى لا يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ويصرف الأمور في حكمة واتزان، وهو صاحب الكلمة المشرقة والنفس المتسامية على الحقد والهوى والطامع. ومن حوله هذا الرحيل الأول قد صهر الاسلام «خوله إلى قوة جارفة بالحقيقة التي لا تجادل: «أحرص على الموت توهب لك الحياة» وبالفكرة العليا التي تستغرق هذه النفوس، وهي إذاعة الاسلام في العالمين، والنضحية بمتاع الدنيا وللال والنفس في سبيل هذه الغاية، وكل عجب بوجه إلى إلتشار الاسلام في أقل من مائة هام من الصين إلى الأندلس، يجب أن يرد تفسيره إلى عملية التكوين والبناء والتربية التي قام بها محمد رسول الله هذه الجماعة للمسلمة في مجتمعي مكة والمدينة.

٤ — إنما أقبل على دعوة محمد في أول الأمر الفقراء والمستضعفين والعبيد، وأولئك الذين كانوا يحسون الضعف والمهانة، وكانوا يترقبون في ظل الاسلام هزة وكرامة، هم المستضعفون والفقراء والعبيد في كل مكان، هؤلاء الذين ترقبوا دعاة الاسلام حين أقبلوا عليهم فانضموا تحت لوائهم طامعين في التخلص من العلفيان والذل والحرمان. وهؤلاء الضمقاء الذين تنفوا حول «محمد» هم الذين حملوا من بعد رايات الاسلام إلى كل مكان. بعد أن صهرتهم الأحداث من تمذيب واضطهاد ومساواة، خلال سنوات مكة القاسية، وخلال سنوات المدينة المليئة بمحركات الدفع من المجتمع الجديد من سرايا وقتال وبعوث.

• — كان على الجماعة الإسلامية في يثرب أن تنظم نفسها على مفهوم الاسلام: ديناً ودولة، ومجتمعاً وحضارة، ولتكون نموذجاً تطبيقياً، وأن تنشر الدعوة إلى الاسلام في شبه الجزيرة كلها حتى تصبح في نهاية عهد النبي «أمة موحدة» وجماعة كاملة، وأن تكون مناهية للسكناح والاندفاع في الأرض لنشر الاسلام وإذاعته وإقامة مجتمعه الكبير. وقد استطاعت فعلاً هذه السنوات العشر أن تذيل من خصوم الاسلام في الجزيرة، وأن تحقق انتصارات متعددة: أبرزها دخول الرسول مكة

فإنها واستسلامها ، ثم استسلام القبائل المتعددة التي دخلت في الاسلام واعتنقته ، وكان على الرسول ﷺ أن يتم دعوته بأن يبعث إلى الملوك والأباطرة والأمراء في شتى الأنحاء من حوله داعياً إليهم جميعاً الاسلام كملامة على الطريق الذي سبلكه الاسلام من بعد وكان أبرز قوتين تجاوزان الجزيرة العربية هي : فارس الروم .

٦ — ولا شك كان إرسال الرسل إلى مختلف الشعوب والأمم بالدعوة إلى الاسلام علامة على « عالمية الرسالة » وبحسبانها ليست للعرب وحدهم ، ودلالة على الطريق الذي سلكه الاسلام بعد في اندفاعه إلى العالم كله . وقد فهم المسلمون في الجماعة الاسلامية الأولى تلك الصفة الانسانية وذلك الطابع العالمي لرسالة الاسلام . وهذا هو ما عبر عنه الفقهاء بمعنى « عموم الرسالة » باعتبار أن الاسلام كان الدين السماوي الذي اختاره الله للجنس البشري كافة ثم أوحى به إليهم من جديد على لسان محمد خاتم النبيين ، وقد حمل القرآن آيات كثيرة تثبت عالمية الاسلام . وقد أرسل الرسول الكتيب إلى الملوك والأمراء في السنة السادسة من الهجرة (٦٢٨ م) إلى هرقل قيصر الروم ، كسرى فارس ، وحاكم اليمن ، وحاكم مصر ، ونجاشي الحبشة . ولقد كان مقتنعاً منذ اليوم الأول لرسالته بمفهوم عالمية الرسالة وإسنادتها معاً ، وأن تركيز دعوته في الجزيرة العربية ونحويلها إلى مجتمع واحد ، وأمة واحدة ، إنما كان يهدف إلى تكوين القوة التي تستطيع أن تحمل لواء هذا الدين وتندفع به خارج الجزيرة العربية إلى العالم كافة ، وكان ذلك يتمثل في قوله أن بلالا هو أول نصار الحبشة ، وصهيباً هو أول نصار الروم وأن سلمان أول نصار الفرس ٧ — ومنذ تكونت الجماعة الاسلامية واكتمل بناؤها تم اكتمل بناء الاسلام في حياة النبي . بدأت في التاريخ صورة جديدة ، ذات طابع جديد . وبرز مفهوم جديد للحياة من خلال « رسالة » ، وجهادة تقوم على « فكرة » قد قهرت خلافتها المصيرية والقبلية ، ونجحت لتشق في التاريخ خطاً جديداً ، منذ ذلك الوقت بدأ تأثير الاسلام في التاريخ ، حين مضى يدك صرح الامبراطوريتين العظيمين : فارس والروم ويدل منها ويقم بنسائه الجديد الضخم على امتداد هريض متصل من الصين إلى الأندلس في مائة عام ، فيعبر الفرس والبربر والترك ويصوغ المصريين والفارسية والهند والسوريين في بوتقة واحدة وينف ابواجه الصراع مع أوروبا والدولة الرومانية الشرقية « بيزنطة » ورثة الدولة الرومانية في روما ، بإحساس أن أرض الاسلام كانت تحت سلطان الروم الشام ومصر والمغرب ثم سيطرة الاسلام على الأندلس وهي جزء من أرض الغرب ثم محاولات السيطرة على أطراف فرنسا وروما . ٨ — أن « قوة بنسائه الشخصية » : الذي أعطاه الاسلام في هذه المرحلة الذين تنفوا حول محمد ، والفردج الذي عملوه في

الرسول ، هذه القدرة الزائفة هي التي أمدت هذا الرهيل الأول بتلك الصلابة التي صارت من بعد مضرب المثل ، في الايمان بالله ، وفي الشوق للشهادة من أجله ، وفي الاندفاع لنشر الاسلام بالحق في أقطار الأرض من خلال نفوس تستعلى على متاع الدنيا وتطعم في أن تذود عن هذه الرسالة حتى تستحصد وتقوى ، هذا هو التفسير الذي يعطى مفهوم معجزة النومع الذي حققه الاسلام في خلال فترة قصيرة على نحو أعجز الباحثين وأدهشهم . إن قوة بناء الشخصية إنما يتمثل من خلال الحياة المضطربة التي عاشتها تلك القلة في مجتمع مكة في اضطهاد لم يتوقف . ٩ — أعطى الاسلام بمجتمعه الصغير الأول ذلك النموذج الذي هـش مدى المصور في نفوس المسلمين وحقولهم مثلاً بمحتذى وصوره شائعة من صور المثل الأعلى للمجتمع الانساني السليم المتكامل الذي يقوم على الأخاء والمحبة والتسامح والتكافل . ليس هذا المجتمع صورة مثالية غير واقعية ، ولكنه تطبيق أبين لمفهوم الاسلام ومضمونه وأيدلوجيته ، وما تزال صورة هذا المجتمع الاسلامي الأول باتساقها وصلابتها وصلاحها في فهم مضمون الاسلام ومنهجها تعطى علامة القوة في تطبيق الاسلام ، فمن هذه الجاهة الاسلامية أنطلقت « الدعوة الاسلامية » إلى العالم كله ، فبالتصين شرقاً والأندلس غرباً وليس صحيحاً ما يدعيه بعض المستشرقين ومن تابعهم من أن سياسة هذه الجاهة لا تلائم طبيعة العمران ، أو أنها توقفت على رجال يندر اجتماعهم في عصر . ١٠ — كان مجتمع مكة غير متقبل لقيام مجتمع جديد في داخله أو على أطرافه متحرراً من الزعامة القبلية ، أو قاضياً على الصراع القبلي ، أو مجتمعاً نعمت لواء محمد ، هذه الأولوية القبلية التي كانت تتسكون من خلال المعصية الخاصة والاساطان والمال . أما « مجتمع المدنية » على النحو الذي كان عليه فقد كان متقبلاً لقيام هذه الجاهة ، بعد أن ذابت القوتان القويتان فيه — وهما الأوس والخزرج — في جماعة المسلمين ، ودانت بالولاء لصاحب رسالة الاسلام . ومن هنا نما مجتمع جديد له مفهوم جديد قوامه الايمان برسائه والدفاع عنها وأذايتها في الناس . ومن هنا كان لابد للجماعة الاسلامية من تنظيم سياسي واجتماعي واقتصادي يحفظ قوام الجاهة ويورد عنها خصوصها ، ويدفعها في تمامك وقوة الاندفاع برأيه الاسلام إلى أفق الأرض . وقد توسعت هذه الجاهة من بعد ، ولكنها ذابت في المحيط الواسع الكبير ولم تكن صورة الدولة ، أو الحكومة التي قامت ، إلا تطبيقاً لنظام حكم يتحرك في إطار الاسلام . ومن هنا كانت سنة الاسلام وروحانية ومرونته في فرض نظام معين يلتزم به المسلمون ، وكان الالتزام الوحيد أن يكون الاسلام هو إطار الدولة والجماعة والفكر مع قدرة كل منهما على الحركة والتجاوب مع تطور الزمن وتغير البيئة . ١١ — ولم يكن مجتمع المدينة كما نحاول أن تصوره مختلف كذب

السيرة ، مجتمعت حرب وغزوات وقتال . فلو أننا أحصينا عدد الغزوات الكبرى فيه وأيامها لما تجاوز ذلك في مجوعة بضعة شهور في خلال عشر سنوات . ومن هنا فان المجتمع الإسلامي في المدينة قد قام فعلاً وبني خلافاً على دعائين واضحين : نظام مجتمع ونظام دولة ، كما نرى تشريعاً وقانوناً ، ثم كانت الحرب إحدى وسائله للحفاظ على بقائه ومداومة خصومه ، ثم كانت المهمة الكبرى التي أولاهها رسول الإسلام إهتمامه البالغ ، وهو نشر الدعوة إلى أفق الجزيرة العربية . ثم ابلاغها إلى ملوك العالم القريب منه في رسائل ودعوات خلال السنوات الأخيرة من حياته ، وفي خلال هذه السنوات العشر الخصبية تشكل منهج الفكر ونظام المجتمع وتشريعهم ، وصارت الدعوة إلى غايتها في التبليغ . وكانت الغزوات لدفع العدوان جزءاً من هذا العمل الكبير ، ولما لم تسكن هي كل شيء كما نحاول أن نصورها كتب التاريخ التي بين أيدينا . ١٢ — كانت مدرسة الأرقم في مكة بالإضافة إلى مدرسة مصعب بن عمير بالمدينة قد كونت تلك الطليعة التي ظلت خلال سنوات المدينة تخرج في بعوث متوالية تحمل كتب النبي إلى شيوخ القبائل العربية ، وتزامل الوفود للتواليبة التي كانت تتقدم معلنة إسلامها إلى المدينة ، وفي كلا الحالتين كانت تقوم بالدعوة إلى الإسلام لأولئك أو تعلمها لهؤلاء . وقد اتى بعض هؤلاء الدهاة ، الأحنات والتمذيب والشهادة ، وقد أرسلت بعثة من أربعين معلماً إلى قبيلة بني هاشم فقتلوا غدرًا ولم ينج إلا ثلاثة منهم ، كما لقيت هذه القبائل من محمد رسول الله تفهماً عميقاً لمشاكلهم وقضاياهم ومنازعاتهم ، ساعدت على الصلح بينهم وكانت حكمة النبي وسماحته وحسن معاملته عاملاً هاماً في تجميع الذلوب حوله . ١٣ — قبل أن يلحق محمد رسول بالرفيق الأعلى كانت القبائل المائة التي تعيش في الجزيرة العربية قد انصهرت في الجماعة الإسلامية ، فجمعها « وحدة فكر » قوامها الإسلام « وقيم أساسية » تستمدّها من القرآن و « زمامة واحدة » هي زمامة محمد ، وقد ارتقت فوق عوامل التنافر والصراع ، وبدأ لها اتجاه واضح ، وهدف محدد ، ونظام سياسي واجتماعي واقتصادي واضح المعالم ، لتندفع بعد ذلك إلى مجال التوسع والنمو والتعدد في خطين واسعين : أحدهما اتجه شرقاً إلى الفرس والثاني اتجه شمالاً إلى الروم .

(٥)

د بناء الإسلام

« لم يكن للمسلمون يحملون الناس على دينهم بالقوة ولم يكن من علمهم الحرب والقتال إلا إذا حيل بينهم وبين تبليغ الإسلام تحقيقاً لمعوم الرسالة فإذا قاتلوا قاتلوا وازالوا القوة المناهضة فإذا قبلوا الصلح جنحوا لها وقد ضمن الإسلام لأهل الكتاب حرية كاملة في عباداتهم وشئونهم كلها . لم تقم دهوة الإسلام على القسر بل قامت على الإقناع الذين كان يتولاه دهاة متفرقون ومن أبرز الظواهر أن كتاب قليلة العدد ضيقة للدخل غلبت أقوى الجيوش هناك وجنودا » .

* * *

كان « بناء الجماعة الإسلامية » في الجزيرة العربية إلى أن اختار الرسول ، الرفيق الأعلى هو نقطة الانطلاق لبناء الإسلام : أمة ودولة وحضارة . وكان الاندفاع من الجزيرة العربية المحدودة إلى آفاق الحضرة انجهاً طبيعياً ، فبعد أن تكونت الجماعة الإسلامية في قلب الجزيرة من خلال مكة ويثرب ، ثم إسلام الجزيرة كلها وولائها الدعوة الجديدة ، كان طبيعياً أن يتجه الإسلام إلى الآفاق . وقد عرف الإسلام بظواهر ثابتة استمرت خلال تاريخه كما وأبرزها « القدرة على الحركة » تبدو واضحة في نشأة الدعوة ، والدعوة التي ظهرت في مكة لم تنوقف ، حاولت أن تنفذ إلى قلوب أهل مكة وهتوها ، فلما واجهتها للمعارضة والنحدي والاضطهاد تحركت حركات متوالية ، تحركت بالهجرة إلى الحبشة والدعوة خارج مكة في طوائف ثم تحركت بالهجرة نحو يثرب ، وفي يثرب بدأت « مرحلة جديدة » لقد انتقلت إلى أرض أكثر قابلية وأكثر بسراً ورخاءاً ، ثم عادت إلى مكة ظافرة ، ثم استطاعت أن تواف الجزيرة العربية في « وحدة فكر » وفي « مجتمع موحد » ، ثم كانت حركاتها في أواخر سنوات النبي إلى الشمال ، نحو الحضر ، نحو هنتى الزجاجية ، نحو القوكة التي خرجت منها الهجرات المختلفة ، وكان يدفعها إلى ذلك عاملين هامين . الأول : نشر الدعوة الإسلامية وإذاعتها والجهاد في سبيل تحقيق رسالتها . الثاني : المبادئة بالحركة واليقظة وإبراز أهمية الرادعة للخصوم المتربصين على الأطراف والذين يحاولون الانقضاض عليها . وقد أشارت تحركات الرسول في خيبر ، ومؤته ، وبث أسامة الذي لحق الرسول بالرفيق ورآيته منصوبة أمام للمسجد ، والذي كان آخر ما أوصى به « أنفذوا بث أسامة » والذي أنفذ أبو بكر في أول أعمال ولايته ، كانت كل هذه الارهاصات توحى بالخط الذي يسلكه الإسلام ، وهو خط طبيعي ، فإن دهوة « هالية الرسالة » لابد أن تنطلق إلى الآفاق ، لأن من أقوى دهاتها الجهاد في سبيل الله لشهرها

وقد بدأ الرسول هذه الخطوة بأن أرسل رسائله إلى الملوك والأمراء، داعياً إياهم إلى الإسلام، لذلك كان طبيعياً أن يتجه الإسلام إلى مجالته الحيوى وأن ينفذ من الجزيرة إلى دولتي الفرس والروم المتاخمين لجزيرة العربية.

وكانت دولتي فارس والروم قد أحسنا في السنوات الأخيرة من حياة الرسول بمخطر الدهوة الإسلامية، فقد ألفت مجتمع الجزيرة العربية، وقد تجمع في وحدة فسكر قوامها التوحيد والاخاء والمعدل الاجتماعي، وبلغتها رسائل النبي بدعوتها إلى الإسلام، فكان لا بد أن تفكر طويلاً في أمر على الجماعة الوليدة، ومدى الخطر الذي يترتب على وجودها ونموها. ومن ثم بدأت تتأمر حتى كانت بعث أسامة. فكان لا بد أن يندفع الإسلام لمواجهة هذا الموقف. وكان التحاق النبي بالرفيق الأعلى علامة الطريق على الخطر وعلى خط مسيرة الإسلام نفسه. ومن هنا لم تسكن حروب المسلمين مع فارس والروم حروب غزو بل حروب دفاع ووقاية. ولم يكن من الطبيعي أن ترى دعوة الإسلام للشابة العالمية هذا الخطر يترتب بها على أبواب الجزيرة ثم تتفاهس منه. ثم زاد هذا الخطر قوة حين واجه الإسلام بعد انتقال الرسول للرفيق الأهل انتفاضاً شاملاً في شبه الجزيرة.

فارتد كثير من العرب، وثبتت قريش والطائف، وواجه المسلمون للموقف على هزيمة أبي بكر خليفة رسول الله، الذي أصر على مقاومة المرتدين وكان موقف أبو بكر حاسماً، وهو من المواقف الخالدة في تاريخ الإسلام كله وفي تاريخه هو بوصفه أول حاكم بعد النبي، فقد أصر على مقاومة من منعوا الزكاة، وقال «والله لو منعوني حقلاً كانوا يؤذونه إلى رسول الله لقاتلهم عليه»، والله لا جاهد منهم ما استمسك السيف في يده «ورفض رأى بعض الصحابة الذين قالوا: تقبل منهم الإسلام»، وقال عبد الله بن مسعود: «والله لقد قنا بعد رسول الله مقاماً كدنا فيه لولا أبي بكر، أجمعنا أن لا تقاوم على ابنه ليون ونعبد الله حتى يأتينا باليقين»، فغرم الله لأبي بكر على قتالهم، ثم اتفق الصحابة كلهم على قتالهم واستصوبوا ماراً أبو بكر، وقال عمر: «والله لقد رجعت إيمان هذه الأمة في قتال أهل الردة»، والله ما هو إلا أن رأيت أن شرح الله صدر أبي بكر لقتال حتى عرفت أنه الحق...»

وكان أبو بكر قد تقلد سيفه وأزمع أن يخرج وحده لقتال المرتدين، من هنا فقد حقق قتال أهل أهل الردة «وحده الجزيرة العربية». ذلك الدور الذي لعبه الفرس في حروب الردة: فقد تأمر الفرس وتآمر الروم مع بقايا اليهود في شمال الحجاز، بل لقد جدد انتفاض الجزيرة العربية «حركة الردة» — جدد الأمل هذه الفرس والروم — على محاولة القضاء على الإسلام، هنالك قدسيت الفرس

والروم لخصوم الاسلام هوامل الإغراء للانتفاض ، وكانت في هذه المرة بعض المساعدات العسكرية كما آوت للشردين ، لذلك فما كاد المسلمون يعيدون وحسدة الجزيرة حتى قرروا الزحف نحو الشمال لمراجعة العدوين الكبير المرتبطين بالاسلام .

ثم كان إنفاذ بعث أسامة من علامات التمام والثوة ، فقد رفض أبو بكر تأخير جيش أسامة ، وكان قد جهزه النبي وأمره أن يسير إلى اللوزع الذي استشهد فيه أبوه « زيد حارثة » وأمره أن يوطئ الخيل تحوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ومشارف الشام ، وقد أوصى النبي قبل اختياره الرفيق الأعلى : « انفذوا بعث أسامة » . وكان أول أعمال أبي بكر هو انفاذ هذا الجيش ، وقد عارض الصحابة حين سمعوا أخبار الردة وانتفاض العرب فقال : لو طئنت أن السباع تخطفني ، لأنفقت جيش أسامة الذي جهزه رسول الله ، فلم يلبث أن بث الجنود في بلاد قضاة وأغار وقتل وغنم ورجع لأربعين يوماً . وقالت العرب : لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه . والحق أن اختيار المسلمين لأبي بكر خليفة النبي ، كان عملا بعيد المدى في تطور الدعوة الإسلامية واجتيازها الجزيرة العربية ودعم قواها في خلال الفترة القليلة التي أمضاها والبا لأمر للمسلمين خلال عامين استطاع أن يحقق ثلاث مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام . (١) بيعة السقيفة وجمع كلة للمسلمين على ولاية الأمر . (٢) مواجهة خطر « الردة » بالحسم . (٣) دفع الإسلام إلى آفاق الانطلاقة الكبرى . وقد سار الإسلام بعد أن خرج من الجزيرة العربية في مرحلتين متتابعتين ، هما مرحلة « الإبعاد والأحقاق » . كانت مرحلة الإبعاد تعني التوسع والامتداد الجغرافي ، حيث حل العرب رسالة الإسلام من الجزيرة العربية فاطلقوا بها إلى آفاق الأرض فأقاموا بناء الدولة الإسلامية في ثلاث موجات : للموجة الأولى (١) من ١٢ - ٦٢ هـ إلى العراق ودمشق وفارس ومصر والقدس وطرابلس الغرب . للموجة الثانية (٢) من ٤٠ - ٥٠ هـ في شمال أفريقيا . للموجة الثالثة (٣) ٨٣ - ٩٣ هـ إلى الأندلس غربا والسند شرقا . ولم تلبث للمنطقة كلها من حدود الصين إلى حدود فراسا أن رفعت راية للإسلام ، ولكن حركة الإسلام لم تتوقف منذ افتتحت قارة أوروبا من الأندلس حينما كانت تلج على نفس القارة من الشرق بحصار القسطنطينة . ومن هنا بدأ الصدام بعالم الفرنجة والغرب وللسيحية ، وهو صدام لم يتوقف حتى اليوم ، وكان على الإسلام أن يواجه هذا الخطر من طرفين أسامين : خطر البيزنطيين على حدود الشام وخطر الفرنجة على حدود الأندلس (أسبانيا) واستولى عليها ٨٩٣ - ٧١١ م . منذ ذلك اليوم بدأت معركة ذات صراع وهول بين عالم الإسلام وعالم الغرب ، وبين الإسلام نفسه كرسالة ونظام وفكر وبين الغرب وفكره

وحضارته التي قامت أساساً على المنهج التجريبي الذي ابتدئ منه من حضارة الإسلام ، وقد وصل للصدام إلى مداه في معركة بلاط الشهداء ١١٤ - ٧٣٣ غير أن ذلك لم يوقف التوسع الإسلامي في فرنسا وإيطاليا وسواحل أوروبا . أما حركة « الأعماق » فتتمثل في بناء المجتمع الإسلامي بالانصباء والفكر الإسلامي بالتبلور وهي مرحلة تالية لمرحلة بناء الإسلام وتوسعاته .

(٦)

« حركة التوسع »

في الموجة الأولى من حركة التوسع ، تقدمت القوات الحربية الإسلامية إلى حدود الشام والعراق ، في مواجهة نفوذ الدولة الرومانية وإلى حدود العراق لمقاومة نفوذ الدولة الفارسية . فقد وجه أبو بكر إلى الشام : أبو هبيدة إلى حمص ، ويزيد ابن أبي سفيان إلى دمشق وعمر بن الخطاب إلى فلسطين وشرحبيل بن حسنة إلى وادي الأردن ، وقد بدأت حركة التقدم في أرض العراق ، على يد المنذر بن حارثة الشيباني ، فلما بلغت مرحلة دقيقة أنجده الخليفة يد « خالد بن الوليد » فتقدم إلى الحيرة فالأنبار فعين النهر ، وأهم مواقعها ذات السلاسل .

وبينا كان خالد في تقدمه في قلب العراق ، دهم إلى إخماد قوات الشام وارتد جيش المنذر إلى أطراف الجزيرة العربية . وأعطيت حركة التوسع في الشام بذلك مداها ، وكان إخماد المسلمين بفرو الروم هو بالدرجة الأولى ، لتخليص شعب الشام وفلسطين من احتلال الروم . وقد واجه الروم قوات المسلمين بزحوف ضخمة ، اضطرتها إلى توحيد قواتها ، وانجى خالد من العراق لمساندتها ، إذ قطع المفازة بين العراق والشام في رحلة أسطورية ، ثم جمع القادة الحسنة على خطة موحدة . وواجه المسلمون الروم في معارك (اجنادين) في ٣٠ ألف مسلم في مواجهة مائة ألف ، وفي معركة (دمشق) دخل المسلمون المدينة من ناحيتين ، دخل خالد من الباب الشرقي قسراً ، وأبو هبيدة من باب الحبابية سلماً (١٤ هـ) وهزل عمر بن الخطاب خالد من الرئاسة بعد معركة (اجنادين) وتناق خالد هزله راضياً ، وعمل جندياً تحت قيادة أبي هبيدة ، وقال عمر : أتى لم أعزله من ربي ولكن الناس عظموه فخشيت أن يفتنوا به ، وكان هذا الموقف من عمر غاية في تحيز الفكر الإسلامي من عبادة الفرد ، وكانت استجابة خالد بتقبل هزله عن ميدان الحزب كلبية ، مثلاً هالياً أعمق مفهوم الإسلام في نفسه ، وسلامة شخصيته ، وقد وصف تصرف عمر فوق ما صورته هو ، بأنه براعة سياسية ، فقد كان أبو هبيدة في

تقديره أقدر من المسألة . وفي معركة « البرموك » كان المسلمون في ٢٤ ألفا بقيادة أبي عبيدة ، والرومان في مائتي ألف بقيادة جبلة بن الايهم آخر ملوك الفساسنة ، وقد انتصر المسلمون في كل هذه المعارك بأزهم من تفاوت العدد والعدد ، وتوالت الانتصارات حين استولى أبو عبيدة وخالد على حمص وحماه وقنسرين واللاذقية وحلب ، واستولى عمر بن العاص وشرجيل على هكا وحيفا ويافا وغزة ، ودافع الروم عن بيت المقدس دفاعاً شديداً ، فلما اشتد حصار المسلمين له ، طلبوا الصلح على أن يتم ذلك على يد الخليفة نفسه ، ليكتب معهم هدناً وقد قدم عمر بن الخطاب في رحلة ذات طابع هجيب وكتب بنفسه كتاب الأمان : ثم استسلمت مصر لقوات الاسلام ، وقد سارع المصريون إليه خروجاً من ظلم الرومان ، بعد أن جرت المعارك في أكثر من موقع ، وهزم جيش الرومان ، وتم الصلح بين عمرو بن العاص والمقوقس (٥٢٩) على دفع الجزية وحرية العبادة ورحيل حامية الروم ولائك قد رحب السوريون والمصريون بالمسلمين وهم هرب من بني جنسهم ، تخلصاً من الغاصبين . وفي فارس استأنف المسلمون الزحف على فارس ، وكان معركة القادسية (٥١٦) بقيادة سعد بن أبي وقاص والمسلمون في عشرة آلاف ، في مواجهة قائد الفرس : رستم ذا الحاجب في مائة وثمانين ألف مقاتل ، ونصر أبو محجن الثقفي قوات المسلمين فقد أنزع نفسه من القيد ، وركب البلقاء فرس سعد . وفي معركة المدائن على ضفتي نهر دجلة انتصر المسلمون على قلة هددتهم ، وسقطت العاصمة (٥١٦) وفي معركة جلولاء التي أعاد يزدجرد هزيمة الفرس فيها آخر محاولاته وكانت من أعنف معارك فارس ، وصفها البلاذري فقال : أن المتحاربين استعملوا الرماح حتى نقصت وتجاهدوا السيوف حتى انتهت ، وثبت المسلمون وكتب لهم النصر ، وفي معركة نهاوند (٥٢٩) تم النصر النهائي فأطلق عليها (فتح الفتوح) وكان الفرس في مائة ألف بقيادة الفيرزان والمسلمون في بقيادة النعمان بن مقرن المزي الذي ولاء عمر بعد عزل خالد ، وسقط النعمان في مطلع المعركة وخلفه خديفه بن النعمان على القيادة ، ثم استولى المسلمون على الأهواز ، وقم ، وكاشان . من هذا العرض السريع تبدو معارك المسلمين مع الروم والفرس ، وقد كللت كلها بالنصر ، وكان المسلمون فيها غاية في الكفاية والجدية والبطولة والقدرة على الاستشهاد والانتصار بالعدد القليل وكانت نتيجة هذه المرحلة أن دانت امبراطوريتان كبيرتان ، وساد حكم الاسلام العراق وفارس ، والشام والقدس ومصر .

غير أن هذا النصر لم يكن ليستقر أو يستمر دون حراسة وبقظة دائمة ، فقد كانت عوامل الانقضاض تحاول أن يجتاحه أو تنقص من أطرافه ، ومضى أصحاب السلطان المنهار في استثنائ

محارلات جديدة لاسترداد نفوذهم ، أما الروم فقد هاجموا الاسكندرية بجيش كثيف ، أما خراسان فقد انتفضت في محاولة انقلاب ، وقد رد المسلمون الحركتين وأبادوها ، وكانت معركة ذات الصواري (٥٣١) اشتركت فيها قوات إسلامية في أسطول مكون من مائتي سفينة ، في مواجهة ثمانمائة سفينة رومانية بقيادة قسطنطين امبراطور الروم وكان النصر للمسلمين ثم اتصل التوسع الاسلامي مرة أخرى في خلال عهد ههنا ، وكان أبرز ما اتسمت به هذه المرحلة : بناء الأسطول الاسلامي وتولى معاوية بن أبي سفيان أمره ، وفي خلالها انضم إلى السكيان الاسلامي برقة وطرابلس وجزء من بلاد النوبة وبلاد أرمنية ، وأجزاء من بلط طبرستان جنوبي قزوين ونخعت جيوش للمسلمين نهر جيحون ودخلت بلاد ماوراء النهر ، فاستولى المسلمون على بلخ وهراة وكابل وغزنة من بلاد الترك . وعن طريق البحرية الاسلامية دخلت (قبرص) في إطار الدولة الإسلامية وقد قام معارية بفزوها ببحراً (٢٨) ثم قد توقفت هذه الاندفاعات لتعود مرة أخرى في أوائل حكم معاوية الذي أولى اهتمامه التافذة الشمالية بينه وبين الروم ، فقد كانت هذه الثغرة من أخطر ما واجه المسلمون في تاريخهم كله ، وقد أولى معارية هذا الليدان اهتمامه في موالاة حصار القسطنطينة سبع سنوات متوالية وغزو بعض جزر البحر الأبيض (الموجة الثانية) ونجذوت موجة التوسع مرة أخرى في عهد عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك في امتداد جناحي الإسلام ، (إحداهما) استكملت الامتداد الغربي فيما يلي برقة حتى الأندلس ثم بلغت قلب فرنسا . والأخرى استكملت الامتداد الشرقي فيما يلي فارس وما وراء النهر وانقسمت إلى قسمين : (إحداهما) سار إلى الشمال تجاه ماوراء النهر ، (والثاني) مضى إلى الجنوب حيث بلغ السند واخترق الهند وبلغ حدود الصين في خلال حكم الوليد ابن عبد الملك (٥٩٣ هـ) انجذ التوسع إلى الأندلس وأطراف فرنسا من ناحية وإلى السند وحدود الصين من ناحية أخرى . ثم تنامي إلى مرحلة من أعمال الولايات خلال حكم الأغابة لتونس ، وإذا كانت في الامكان أن يقال أن القرن الأول كان هام التوسع في ظل القوات المتدفقة خلال هذا الأفق الواسع من حدود الصين إلى حدود فرنسا ، فإن هناك أمرين جديرين بالاهتمام والتسجيل : (الأول) : أن مرحلة التوسع الثانية (٤٠ - ٩٣) في خلال حكم الأمويين لم تسكن في عمق المرحلة الأولى ، فقد كانت أقل درجة في السكفاءة ولذلك فإن أغلب الأرض التي كتبها لم تثبت طويلاً كما ثبتت الأرض التي كتبها الجولة الأولى (الثاني) : أن الاسلام بعد القرن الأول لم يكن في حاجة إلى أن يجري في ظل الحركات العسكرية ، بل بدأ خطوات جديدة مستقلة ، واستطاع أن يفتح أفقا جديدة بقوته

الذاتية . ومعنى هذا أن قيام « عالم الاسلام » على النحو الذى قام به خلال القرن الأول وعلى هذا النحو الرائع العجيب ، وما حققه من نتائج ضخمة فى نقل سكان البلاد إليه بالدهوة وعلى أساس جوهر مفاهيمه : « التوحيد — العدل الاجتماعى — المساواة » كان ذلك كافياً لأن يدفعه دفعا ذاتياً ليحقق توسعات جديدة فى أرض لم يكن للإسلام عليها دولة أو كييان سياسى . (ثالثاً) كانت الجولة الثانية للتوسع الإسلامى أقل درجة من ناحية الاهتمام بمفاهيم الاسلام وقيمة الأسس التى رسمها « نبي » الاسلام وحرص صحابته وحلفاؤه على الاستمساك بها (رابعاً) كانت منهج التوسع الإسلامى فى عهد الأمويين أقل درجة من ناحية العمل على نشر الإسلام والدهوة إليه ، وكانت « الفتوة » التى تمثل رأس القيادة الاسلامية أقل درجة على إعطاء المثل الأهل للإسلام مما كانت أيام الراشدين ، فقد كانت بساطة الخلفاء الراشدين هادلاً عجيباً فى كسب غير المسلمين فى الأقطار التى تولوها الاسلام ، منها فى عهد الأمويين ، غير أننا نؤمن بأن التطور الذى بلغته القيادة السياسية كان تطوراً طبيعياً ثم دخل الاسلام فى الجولة الثانية : « الأندلس والهند » ولسكنه لم يتعمق نفوس المسلمين وكان من أسباب ضعفه حرص الولاة على إيراد الخزينة العامة حتى جاء عمر بن عبد العزيز فحطم هذا القيد وألقى الأوضاع التى كانت تفرض على المسلمين ما كان خليقاً أن يرفع عنهم من ضرائب بعد إسلامهم ، فقد أوقف عمر بن عبد العزيز الجزية عن دخل الاسلام منهم فدخل الناس فى الاسلام أفواجا ، ودعا ملوك السند قبلوا بدهوته وتبعتم شعوبهم ، كما دخل الاسلام كثير من أهالى مصر والشام وفارس وهو القائل لواليه الذى أعترض على إلغاء الجزية لأنها تنقض مال الخزنة « قبح الله رأيك ، أرفع الجزية عن أهلك ، فإن الله يمشى محمد هادياً ولم يبعثه جالياً ، وامرئى لعمر أشقى من أن يسلم الناس جميعهم على يديه » وفى هذه المرحلة ظهر من أسماء الفاتحين : حارث بن مالك وطارق بن زياد وموسى بن نصير (الأندلس والمغرب) وقتيبة بن مسلم (ماراء النهر إلى حدود الصين) ومحمد أبو القاسم الثقفى (السند) ويزيد بن المهلب (جرجان وطبرستان) ومعاوية ابن أبى سفيان (حصار القسطنطينة) وهبة بن نافع (فتح أفن يقبا إلى المحيط) وقد شغل التوسع العسكرى الميادين الثلاثة : (١) الجرب ضد الدولة الرومانية (بيزنطة) ومحاصرة القسطنطينة (٢) شمال أفريقيا ، وقد أمتد حتى المحيط ثم عبر مضيق جبل طارق وأمتد إلى أسبانيا (الأندلس) . (٣) شرق آسيا : سار إلى (١) الشمال تجاه ماوار النهر (٢) وإلى الجنوب فشمى السند . وقد كان قادة المعارك نماذج نادرة فى البطولة والایمان . « قتيبة بن مسلم » غراً ماوراء النهر وأغار على الصفد وفتح مدائن خوارزم صلحاً وغراً سمرقند وسار إلى حدود الصين (٨٩٦) فأزسل ملكها وفدأله

يقول : ارجع ، فقد هرفت حرص من أرسلك وقلة أصحابه ، قال قتيبة : كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيلة في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ، وكيف يكون حريصاً على الدنيا من خلف الدنيا وغرائك ، إما تخويفك إيانا بالقتل فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نسكرها ولا نخافه ، و « يزيد بن المهلب » غزا جرجان وطبرستان بجيش مكون من مائة ألف ، أما « محمد ابن القاسم الثقفي » فقد حل لواء الحرب وهو في سن السابعة عشر وجسم بين البطولة والشجاعة وسداد الفكر . وما نجد الاشارة إليه أن ما أورده كثير من المؤرخين من خلاف بين طارق بن زياد وموسى بن نصير لا تؤكده المصادر الأئمة ، وكل ما روى في هذا سنده ضعف ومن وضع وضاع العصر العباسي ، فقد كل أخدهما الآخر ، أرسل موسى طارق فلما تحقق النصر ودانت أرض الأندلس هب من منطقة أخرى ليكمل التوسع ، وليحكم الخطة ، فلما التقيا سار آما إلى الشمال حتى وصلا جبال البرانس . وفي الجولة الثانية للتوسع الاسلامي أنشأ الأمويون الأسطول البحري ، وقد غزا معاوية في البحر واستعمل على أسطوله عبدان بن قيس كما أغرى معاوية « عقبة بن عامر » فوجهه إلى رودس ، وركب معاوية البحر إلى قبرص فافتتحها وكان معه ألف وسبع مائة سفينة للسلاح والأموال وأجرى معاوية محاولته لفتح القسطنطينية وكانت صور وحسكا وطرابلس موانئ متخصصة لصناعة السفن .

تفسير لتجاسع التوسع الاسلامي

ان أبرز ما يتركز عليه مفهوم الرسالة في الاسلام هو تبليغها وإذاعتها ونشرها في الآفاق ، ذلك هو هدف الاسلام الأكبر والغاية المنشودة بكل من يعتنق الاسلام والأمانة التي يحملها كل مسلم ، فالاسلام ليس دين عبادة ، ولكنه دين ورسالة ، قد وكل الى معتنقيها أن يذيعوها في أنحاء الأرض ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، سجل ذلك القرآن حين وصف الاسلام بالعالمية ، وحين بعث محمد للعالمين نذيراً وكافة للناس ورسول الله إلى الناس جميعاً . وقد سجل الرسول ذلك في حديث من أحاديثه : « إني بعثت رحمة للناس كافة » ومن هنا كانت دعوته الى ملوك العرب وأمرائها بعد صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة ، ثم رسائله الى الملوك قبل فتح مكة فقد بعث الى الملوك ورؤساء الأمم خارج الجزيرة العربية يدعوهم الى الاسلام ، الى هرقل امبراطور الروم وإلى كسرى فارس (هوروز بن هرمز) ونجاشي الحبشة ، والمقوقس حاكم مصر ، وقد صدرت هذه الرسائل من يقين ثابت وحاسم مقفد على حصد تعبير (توماس ارنولد) وتدل دلالة

واضحة على (عموم الرسالة) التي تكررت في القرآن ، وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك مما هو معلوم من الدين بالضرورة . وليس في طبيعة الإسلام ، ولا في خطط الرسول في دعوته ، ولا في أحوال الأمم عند مبث الرسول أمراً لا يؤكد « عموم الرسالة » . وقد صدقت الأحداث ذلك من بعد وأبديه وقد أمر القرآن بالدعوة إلى الله باقناع ونهى عن الإكراه . « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » .

وقد كان الإسلام منذ بدأ ظهوره « دين دعوة » ، وكان مفهوم « عالمية الإسلام » واضحاً في النماذج التي اعتنقت الدعوة الإسلامية في المدينة ، بلال أول ثمار الحبشة وصهيب أول ثمار الروم وصليبا أول ثمار الفرس ، هكذا كان يطلق عليهم ، ومن ذلك ما ذكره الرسول عن بلاد كثيرة تفتح على المسلمين ، وما أوصى به لقيط مصر ، وما أشار إلى من سيعطي أساور كسرى . ويعني هذا كله أن عالمية عالمية الإسلام ، وعموم رسالته كانت أمراً مقطوعاً به ، وأن المسلمين كانوا في جماعة الإسلام التي كونها محمد في المدينة يفهمون منطق الإسلام ، هذا المنطلق الذي بدأ فعلاً يبعث أمامة التي أعده الرسول وأمر بإتقائه وكان أنجاهه إلى عنق الجزيرة العربية ، إلى الشمال . وعلى ضوء هذا المفهوم استطاع أن تنظر إلى حركة التوسع التي قام بها الإسلام والتي حققت قيام دولة ممتدة من حدود الصين إلى حدود فرنسا . فقد كانت هذه الحركة تحقيقاً لمفهوم عموم رسالة الإسلام ودفعاً للقوة الحاضرة دون انتشاره والقضاء عليها ، مما يطلق عليه عبارة (الفتح) إذا جاز لنا أن نستخدم لفظ « الفتح » فإتاما يتم ذلك بمفهوم واحد هو إزالة القوة التي تقف أمام أمامة « عموم الرسالة » التي حلها المسلمون عن الرسول ، وكانت في تقديرهم : مهمة حياتهم ، يهبون لها أرواحهم ، ويستشهدون من أجلها . فالفتح هو كسر الحواجز للنادية التي يحاول أن يقيمها الحكم والأباطرة والأمراء أصحاب السلطة في الأقطار التي ينفذ إليها الإسلام ، رغبة في تحقيق اللقاء بين الإسلام وبين هذه الشعوب للعلوية على أمرها ، الغارقة في : (١) الظلم الاجتماعي . (٢) الوثنية ، ولذلك فقد استقبلت هذه الشعوب الإسلام بغيطة كبيرة وتقدير لاحد له ، لأنه أتاح لها التحرر من مظالم الاستبداد ، وحفظ لها حقها في ديانتها وطقوسها القديمة دون أن يفرض عليها عقيدته ، وسمح لها أن تتأكد بمزيد من الحياء كيف يحقق الإسلام : العدل والمساواة ، هنالك اندفعت تحت لواء الإسلام بإرادتها الحرة ، وباقتناها العقل والروحي الكامل .

وفي كل خطوة من خطوات الصدام المسلح كان الإسلام متمدياً عليه أو محالاً بينه وبين إذاعة

كلية، ونشر دعوته، وقد انتفضت الجزيرة العربية بعد أن لحق الرسول بالرفيق الأهل وقطعت دوابلها، كان معنى الانتفاض، إفراط عقد الوحدة التي كانت موضع هيبة الامبراطوريتين الفارسية والرومانية وقيد نظرم في حركة الاسلام، لذلك كان لابد من صدام مسلح بعيد وحدة الجاهة الاسلامية، غير أن انتفاض أهل الردة شجع الفرس والروم على العمل والقضاء على الدعوة الناشئة، وسارعت الفرس والروم فقدمت للمتفضين مساعدتها وآوت المتمردين، ولذلك فقد كان طبيعياً أن يتجه المسلمون إلى مواجهة الفرس والروم، بعد القضاء على الردة، في موقعة فاصلة، يزولون بها هذا الخطر الذي يقف أمام نمو الإسلام وانتشاره. والذي كان يترصد به ويستعد لضربه ضربة قاتلة، ومن ثم اتجهت القوات للسلسلة إلى أطراف الإمبراطوريتين في وقت واحد، وفي معركة زمنية واحدة، وكان ذلك من علامات القوة بالرغم من أنها تخالف العرف العسكري والحرب الذي يرى أن لا يشترك المحارب في معركتين معاً في وقت واحد غير أن ذلك أربح العدوين وأدال منهما.

وتوالت الانتصارات، حاسمة، متتابعة في كلا المعسكرين وبرزت بطولات رائعة، ظهر قادة أبطال، وأعطت هذه العمليات الحربية صورة رائعة لتطبيق مفهوم الإسلام وأنصاره في نماذج حية رباها محمد وكونها خلال كفاح طويل، وبرزت صورة من التضحية والاستشهاد والبطولة غير عادية. ولقد لغت التوسع الإسلامي نظر الباحثين فذهبوا في تحليله مذاهب شتى، يقول لوتروب ستوارت: «كل زدنا إستقصاء باحثين عن سر تقدم الإسلام زادنا ذلك العجب العجيب بهراً، فارتدنا عنه بأطراف حاسرة، هرفنا أن سائر الأديان العظمى إنما نشأت تسير في سبيلها سيرا بطيئاً متلافياً كل صعب حتى أن قبض الله لكل دين ما أراد له من ملك ناصر وسطان قاهر انتحل ذلك الدين ثم أخذ في تأييده، والذب عنه حتى رسخت أركانه ونمت جوانبه. فبطل النصرانية: «قسطنطين»، وبطل البوذية: «أسوكا» وكل منهم ملك جبار أيد دينه الذي انتحله بما استطاع من القوة والآيد، إنما ليس الأمر كذلك في الإسلام، الإسلام الذي نشأ في بلاد صحراوية يموت فيها كل شيء، حيث القبائل الرحالة التي لم تسكن من قبل ربيعة المسكنة والمنزلة في التاريخ فلسرعان ما شرع يتدفق وينتشر وتسمع رفقته من جهات الأرض مجتازاً أهدح الخطوب وأصعب العقبات دون أن يكون له من الأمم الأخرى هون يذكر، ولا أزر مشدود، وعلى شدة المكاره فقد نصر الإسلام نصراً ميبيناً عريقاً إذ لم يكدهم على ظهوره أكثر من قرنين حتى باتت راية الإسلام خفاقة في البرانس حتى هملايا وفي صحارى أواسط آسيا حتى صحارى أواسط أفريقيا، وعندنا أت العامل الأول في نجاح التوسع الإسلامي لم يكن هو التطلع إلى السلطان والثروة كما يظن بعض المؤرخين الأجانب، ولم يكن

مصدر النصر الوحيد هو ضعف هذه الدول ولكن العامل الأول في الحقيقة إنما هو عمق مفهوم الإسلام وسلامته وقربه من الفطرة الانسانية ومطابقته، لواقع هذا المفهوم هو بناء حضارة جديدة في إطار التوحيد : كانت القوة الدافعة هي إيمان هذه الجماعة إيماناً لا يتزعزع بالاستشهاد في سبيل دفع لواء الإسلام إلى كل أرض . أما السلطان والثروة فقد كان الإسلام في أعرق مفاهيمه جامعاً بين الدنيا والآخرة ، وللسادة والروح لا يفرق بينهما ولا يفصلهما ولم تسكن الوسائل الحربية التي اتخذها المسلمون هي وحدها سبب النصر فقد كان هناك دوماً فارق بعيد في العدد والعدد بين المسلمين وخصوم الإسلام ، وإنما كان مصدر النصر الحقيقي هو ذلك الإيمان بالقاعدة الذهبية : « أحرص على اللوت تذهب لك الحياة » ، ولقد خالف المسلمون القاعدة الاستراتيجية الحربية التقليدية التي تقول . على المحارب أن يركز قواته في ميدان واحد ، ودفعوا قواتهم في ميدانين واسمين في وقت واحد ، ومهما يكن من العوامل التي يوردها للزورخون تفسيراً لهذا النصر الرائع ، فإن العامل الأول والأعظم ، هو ذلك الإيمان العميق بالله والثقة في نصره وطلب اللوت في سبيل إذاعة الإسلام وإبلاغه للعالمين ، والنضحية بالروح والتماس الشهادة ، هذا هو العامل الأول والأعظم من بين العوامل المتعددة . فقد كانت الامبراطورية الرومانية قد شاخت ، وبلغت المدى في الضعف والتحلل ، وكان الأباطرة الرومان قساة مستبدون ، وكانت حياة الترف والانحلال بادية ، وكان الخاضعون للروم يعيشون في ضللك من جراء ثقل الضرائب الباهظة وفساد الموظفين فلم يكونوا يدينون بشيء من الولاء لهذا الحكم ، وكانت مصر مزروعة قمح لروما ، أما الفرس فقد كانت الحروب مع الرومان قد أنهكتها وكان جنودهم يحاربون من غير حافز روحي ، حتى اضطر القائد الفارسي في أحد المواقع أن يقيده جنوده بالسلاسل حتى لا يفروا ، وذلك في موقعة ذات السلاسل . لقد ذهب البعض إلى عرض مفهوم « الجهاد » في الإسلام عرضاً غير منصف ، محاولاً أن يجعله عملاً حربياً هجومياً عدوانياً ، بينما لم يكن الجهاد جهاد حرب أو قتال عدوان ، بل كان عملاً ببناء للشخصية الانسانية أساساً والمجتمع والدفاع عن الإسلام ونشر لوائه ، فهو دعوة خالصة وسيلتها الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالحسنى ، فإذا فرض العدو المعركة ووقف في طريق الدعوة كانت الحرب ، وهي في مفهومها تقوم على أساس غلبة في الرحمة والعدل . والحق أن موجة التوسع الإسلامي كانت حركة عدل ورحمة ، فقد سادت أقطاراً غلبت عليها قوى الظلم والاضطهاد والفقر والذل ، فكانت دعوة الإسلام بمفهومها « دعوة التوحيد والعدل والمساواة » ، هدماً على تحرير الرقيق والعبيد والضمفاء وتخليصهم من سلطان الأباطرة . فبقوة مفهوم الحرية والعدل كانت تشق طريقها بعزيمة ونجدة في كل مكان تحمل فيه قبولا ، لأنها كانت تزيل السلطة المستبدة الطاغية وتحل محلها سلطة جديدة قوامها العدل ، لا ترغم للناس

على دينها واسكنها تؤمن للناس حياتهم وحرية أديانهم. فقد كان المسلمون يصلون إلى الأقطار فيقيمون فيها نظامهم فيقبلهم الناس بالرضا لأنهم كانوا يحررونهم من الظلم ولا يفرضون عليهم الاسلام، ويؤمنونهم على أموالهم وأملأهم ويدهون لهم حرية دينهم. بل لقد تركوا الأرض لأصحابها على أن يدفعوا خراجها بينما كان الأكاصرة والقياصرة يعتبرون أنفسهم ملاكا الأرض والعالمين فيها وكان المسلمون يتركون لغير المسلمين أن يحكموا قانونهم المدني في شؤونهم، وإلى جوار ذلك كان دعاة المسلمين والفقهاء يتحدثون عن الاسلام ومبادئه وقيمه. ومن هنا أخذ الاسلام ينتشر ببطء، وأخذت الجماعات المختلفة تنخلص من أديانها وتعتنق، وتنخلص من لغاتها وتعتنق اللغة العربية أيضا، حتى رجال الكنيسة في القرن الرابع الهجري وضعوا كتاباتهم باللغة العربية. وقد سجل ملوك غمر بن الخطاب في مدينة القدس مقدار الرقيق العظيم الذي كان يعامل به العرب الأمم الداخلة تحت لواء الاسلام، فلم يرد عمر أن يدخل معه مدينة القدس سوى عدد قليل من أصحابه وطلب إلى البطريرك سفر ونيوس أن يرافقه في زيارته لجميع الأماكن المقدسة، وقد أعطى الأمان لسكان المدينة وقطع لهم عهداً باحترام كنائسهم وأموالهم وبتحرير العبادة على المسلمين في بيعهم؛ وكذلك فعل عمرو بن العاص، فقد منح المصريين حرية دينية تامة وهذلا مطلقا ومساواة كاملة واحتراما كبيرا لأموالهم وتبديلا للضرائب الجائرة التي فرضها قياصرة الروم. وهكذا وجد الفرس والمصريون والسوريون في الاسلام منفذا من الظلم والظلماني والاستغلال، حين ضمن لهم حرية الأديان، وترك الأرض لأصحابها على أن يدفعوا خراجها وهو أقل بكثير مما كانت يدفعونه للأكاصرة والقياصرة، كما أن غير المسلمين على وأهم وأهلهم، وقد نفذ النظام الاسلامي على المسلمين وترك لنديم الفصل في شؤونهم وفق القانون الذي كان مصدرا لقضائهم. ولقد تابعت حركات الفتح أعمال الدعوة والتعريف بالاسلام، فقد أثبت الفقهاء والدعاة في كل مكان يتحدثون عن مبادئ الاسلام وقيمه، وكانت صورة الزهد والكنودج وقدوة وما الله أصحابه وتابعوه، من شمائل وخلق، من العوامل الأساسية لفهم الاسلام، وقبوله، مما دعا الكثيرين إلى اعتناقه، وقد انتشرت اللغة العربية مع الاسلام إذ أصبحت لغة الجماعة وقوام الأنظمة السياسية والاجتماعية، وفي الحق لم تكن أعمال التوسع مجرد أعمال عسكرية تهدف إلى السيطرة أو تحقيق المجد الشخصي أو توسيع رقعة الأرض، بل كانت أساسا لفهم دعوة الاسلام إلى كل مكان، ولم تكن الشخصيات التي برزت في هذا المجال شخصيات طامعة إلى السلطة أو رغبة في الظفر اللدائي أو المادى، بل لقد استهدفت حركة التوسع الاسلامية نشر الاسلام أولا، وإزالة القوى الحاكمة الظالمة المسيطرة ذات النفوذ والمصاحبة الخاصة، لآتاحة الفرصة لأهالي الأقطار المختلفة لتحقيق قيام حكومات شعبية أهلية.

ولقد كانت كل نتائج الحروب والمعارك مفضية إلى هذه الحقيقة ، فقد كان الهدف الديني في الدرجة الثانية وكان هدف تضيحة الروح والاستشهاد في سبيل الغاية هو أبرز الدوافع ، إذ ألقى بالبسالة الفائقة والتضحية بالنفس لا تكون مصدراً للطعام الدنيوية بذاتها ، ولقد كانت مختلف للواقف تشهد بأن المسلمين كانوا الصف الأقل عدداً بينا كان عدوم يمثل ضعف هدم أو إضعافه ، ومع ذلك كان مرجع النصر الذي يكسبونه دائماً ، إلى قوة أخرى ، غير القوى المادية وحدها . ومع هذا العامل القوى فإن المسلمين لم يتخلفوا عن الامتياز والتميز ، والابتكار والبراعة في فنون الحرب والقتال واصطناع أحدث الوسائل ، وأذكي الخطط ، وما تزال المعاهد العسكرية العالمية تدرس خططهم الاستراتيجية .

(٧)

الإسلام والحرب

لم تكن مواقع التوسع مجرد أعمال عسكرية تستهدف زيادة رقعة الأرض الإسلامية وإنما كانت تتمثل في القضاء على المقاومة التي تحول دون إندفاع دعوة الإسلام إلى مداها بعد أن تسكنت الجماعة الإسلامية التي صنعها محمد في الجزيرة العربية خلال ثلاثة وعشرين عاماً لإبلاغ الإسلام إلى العالمين . وظلت الحرب في مفهوم الإسلام حرب دفاع لا حرب هجوم ، ورداً للعدوان وذوداً عن الحق ، وكانت القوة في الإسلام إرهاباً أكثر منها تدميراً ، وأعدوا لهم ما استقطعت من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وقد صاغ الإسلام لفكرة الحرب مفهوماً يختلف عن مفهومها العدواني ، فصاتها من قتال الأطفال والشيوخ والعباد ، من أي دين ، وارتفع بها عن التدمير والإبادة ولم يجعل مفهوم انتشار الإسلام مرتبطاً بالحرب ، بل عمله منوطاً بالاعتناع والتقبل النفس ، وكان أهم ما أدخله الإسلام من تطوير لنظرية الحرب هو السمو بها ووضع مبادئ تقود المحاربين إلى النصر بالاهداد للمركة إهداداً سالياً يضمن كسبها .

وانسدت مواقع التوسع الإسلامي بالبسالة الفائقة والتضحية بالنفس ، كان المجاهد حين يقاتل يطمح في إحدى الحسين ، على النحو الذي علمه الرسول للجماعة الإنسانية : النصر أو الشهادة ، ولم تكن مطامع الفوز المادية منسكوره ، غير أنها لم تكن أبداً الهدف الأول كما تحاول كتابات بعض الغربيين أن تصورها . وإذا اعتبرنا أن المسلمين في هذا المرحلة قد اعتنقوا عقيدة نشر الإسلام والسير بلوائه إلى أقصى مدى يستطيعون بلوغه في الأرض ، فإن هذا الإيمان العميق قد فتق أذهان

وهقول هذه النخبة الممتازة إلى فنون من الحرب وابتكار أدوات للقتال وأساليب الدفاع . وقد رسم الرسول قاعدة الفوز في كلمات حاسمة دقيقة ظلت دستور الاسلام في الحرب :

« أهرو باسم الله ، في سبيل الله ، لا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليسدا ولا امرأة ولا كبيرا غانيا ، ولا منعزلا بصومعة ، لا تغرقوا نخسلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مشجرة ، ولا تهدموا بناء ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ، ولا يديرا إلا لما كره ، سوف تمرون على أقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدهمهم وما فرغوا له . أوصيكم بتقوى الله وبن معكم من المسلمين خيرا . » وقد حقق الرسول ﷺ بوصفه القائد الأول لجيش الاسلام مبادئ عسكرية ونظريات حربية جديدة طبقها في موقعة بدر ، ثم جاء قادة المسلمين فأضافوا إليها ، وأهم هذه القواعد : (١) تقسيم مواجهة الهجوم . (٢) القضاء على القوة الرئيسية للعدو . (٣) تخصيص قوة حراسة تسمى مؤخرة الجيش . (٤) السيطرة على ممر في جبل لمنع العدو من المرور فيه . (٥) دراسة شخصيات قادة العدو . (٦) الاستعداد لمواجهة طباع وهادات وأساليب الحرب لسكل قائد منهم . (٧) تطبيق مبدأ الوقاية . (٨) ومبدأ للبادئة . كما اتخذ الرسول : خطة اختيار الموقع لللائم لجنده ، كان يخرج لقاء عدوه ، وكان يبادد الخروج ولو كان منعبسا ، كما فعل بعد معركة أحد ، وكان يفرض الحصار وفقا لخطة حربية ، والسيطرة على الماء ، وحفر الخندق . وكان مع هذا لا يكل نفسه إلى القوة المددبة ولا يكتفى بها بل يلجأ إلى الله ، وكان يؤمن بخطار الحرب في نتائجها بما تختلف عن بدايتها فيقول : « لا نتمنو لقاء العدو فإذا لقيتم العدو فاقبضوا » . وكان حريصا على تعرف قوة العدو بوسيلة أو بأخرى فقد يسأل عن الجزور التي تعود ذبحها كل يوم ثم يستنتج منها عدد جيش أهدائه ، ولا يضطرب في الأزمة أو القارعة بل يثبت في صمود ، وفي موقعين غاية في الخطر ثبت الرسول ولم يضطرب ، أولها عند الفشل في أحد ، فقد ثبت بقوة ، كما ثبت بقوة في حنين بعد أن فارقه أكثر أنصاره . ولم تذهله المعركة عن واجباته كفائد لقومه ، وهو لا يمتنع من تغيير مكان المعركة إذا وجد في رأى أهوانه صوابا ، ولا يستهين برأى أحد من رجاله ، ففي بدر غير الموقع وفي الخندق غير الخطة . وكان من أسلحته القضاء على اقتصاديات العدو ومحاصرته وذلك بالتعرض لقوافل قريش ، وكان لا يتعرض للآمنين الوادعين الذين لم يشتركوا في الحرب ، ولا يغير على قوم لم يخاصموه أو يعادوه فإذا عرف بمزمة قوم على مهاجمته سارهم بالمعجم ، وإذا بلغه أن قوما يحملون عليه أو يهاجمون دعوته أرسل إليهم من ينصحهم ويدهمهم إلى الاسلام فإذا رفضوا حاربهم ، وكان في خط النار أقرب ما يكون إلى إلى العدو ، قال أصحابه « كنا إذا حى وطيس الحرب وحيت الخندق تنق به فلا يكون

أحد أقرب إلى العدو منه . وقد تطورت خطط الحرب بعد ذلك وتوسع نطاقها وتمددت أساليبها . ولسكنها لم تخرج عن المثل الأعلى للإسلام ، فلا يتأخر المسلمون عن إداء الصلاة في مواجدها ، ولا يهاجموا غير المحاربين ، ولما صادفهم مواقف جديدة استحدثوا لها ما يواجهها ، ولما واجهتهم الفيلة ضربوا خراطيمها ، ولما واجههم النهر خاضوه بالفرسان .

(٢) ابتكر القمعاق بن عمرو فناً عسكرياً جديداً ، فقد وصل قادماً إلى معركة الفارسية من العراق في نجدة من الجنود في اليوم التالي فلما رأى قلة عدد المسلمين ، قسم جنوده ، وكانوا يعدون ألف فارس أقساماً صغيرة كل قسم عشرة وأميرهم ، ثم أمرهم أن يتواتروا إقبالا على المعركة عشرة بعد عشرة ، وأن يبدأوا الهجوم عند وصولهم فيزيدوا في قوة المسلمين ويظن الفرس أن الامدادات متتابعة فيساهد ذلك على خذلانهم . (٣) كانوا يسرون إلى الحرب يرتلون الآيات القرآنية ويكبرون عند الهجوم ويستعملون الطبول ، يقول عبد الله بن الزبير : « بتنا وباتوا ، وللمسلمين دوى القرآن كدوى النحل وبات أولئك في خورم وملاحهم » . (٤) كانت النساء يصحبن المقاتلين وتقصص لهن أما كن وراء الجيش ، وكن يعملن مع الرجال في أثناء المعركة ، ويقمن بتحريض الرجال على الصبر والاستبسال ، وينقلن الماء ، ويشفقن بتحريض المرضى ومواساة الجرحى ، وقد وقفت النساء المسلمات خلف الجيش في معركة اليرموك وبأيديهن العمد والحجارة يضربن بها من يحاول الهرب .

(٥) برز طابع الاستقامة الخلقية في معاملة أهالي المدن المفتوحة ، فلا فساد ولا خور ، أما الجندي فلا يقيم في الجيش أكثر من أربعة أشهر ثم يسمح له بزيارة أهله ، وكان عمر قد سأل ابنته عما يمكن أن تنتظر للمرأة غيبة الرجل ، فقالت أربع شهور . (٦) عرف خالد ببراغمته في خطته الحربية ، وفي « مؤتة » استطاع الارتداد بثلاثة آلاف مقاتل لما ظهر رجحان الروم عليهم ، وفي معارك الردة كان يتقدم لمبارزة قائد المعركة فيقتله ويفرق أصحابه ، وفي معارك العراق أخذ بالمفاجأة ، وفي موقعة ذات السلاسل فرق جيشه (١٠ آلاف مقاتل) إلى ثلاث فرق وواجههم (الخفيع) ، وفي معركة الوجلة حارب أهداه في ثلث جيشه ، وأرسل الثلثين كميناً له على أن يأتوا العدو من خلفه ، وبدأت للمعركة والعدو لا يظن إلا أن خالداً في هذه القوة القليلة وأنه ظاهر عليه حتماً ، وخالد يماكر هدوه ويخائله ، حتى ظهر كمين خالد من خلف العدو فأصبح محاصراً من خاف ومن أمامه .

وكان خالد يتحرك دائماً على تعبئة ، وفي معركة (اليس) واجه خصومه وهم يتبينون لطعاهم ، فلما رأى هدمهم وقوتهم ، تعالاهم بالسيف فشتت شملهم ، وفي (الانبار) وجد القوم قد خندقوا

واحتصموا في حصونهم فافتحم الخندق بجيش الابل الضعيفة فحرها ورمها في الخندق ركلاً وأمر جيشه بالعبور على هذا الجسر ، وكان من أساليب القدرة على قتل جيش عدوه بعيداً عن مراكزه ، فقد عسكر في (الخفير) فلما تحرك هزمه قائد الجيش غادر المسكن إلى (كاطمه) فسكبه عدوه السير مسافة طويلة وواجههم وقد أضنام الثعب وكان الانتقال في الرمال والمفاوز أمراً سهلاً على العرب مهلكاً للفرس . ولم يلبث أن هاجم هرمز وقتله وبدد جيشه . وكانت أبرز مفاهيم خالد الحربية . (١) معرفة مواطن الضعف في عدوه (٢) سرعة الحركة (٣) الزعامة والجرأة ، وفي البرموك كان في أربعين ألفاً وكان الفرس في مائة ألف فقسم جيشه إلى كراديس ، كل كرادوس ألف فارس ليوم الروم أن العرب شلهم عدداً .

(٧) ومن القواعد التي سنها عمر بن الخطاب : أن يكون كل مسلم جندياً من جنود الاسلام على أهبة الاستعداد لتلبية دأى الجهاد في كل لحظة دفاها عن دينه وأن يمنح من بيت مال المسلمين عطية معينة . وقد حدد قادة الحرب المسلمين خطوات العمل الحربي على خمس مراحل : (١) الاستيلاء على المراكز ، ذات الخطورة العسكرية (٢) استئبار الجند بين الشمس أو الريح . (٣) كثافة أخبار الجيش في حله وترحاله . (٤) وضع الأسلاك الشائكة حول الجيش . (٥) إقامة السكين « حركة التمويه » .

وأهم من هذا كله الحرص على الموت : احرص على الموت توجب لك الحياة .

× عن البلاذري أن النعمان بن مقرن قاتل لرجاله في معركة نهاوند : أتى هازلواثى ثلاث هزات فأما أول هزة فليتوضأ الرجل بعدها ، أما الهزة الثانية فليتضرع الرجل بعدها إلى سيفه وليتم بأوليها من شأنه ، أما الثالثة فإذا كانت فاحلوا ولا يلوي أحد على أحد .

× عند اقتحام دمشق بعد معركة البرموك سيج المسلمون عبر الخندق الذي يحيط بها وكان مليئاً بالماء ، وهلى ظهورهم القرب ، ثم رموا بالحبال والأنشودة فعلفت بالأسوار فتسلقوها وفتحوا الأبواب .

وكان القادة يعملون من أنفسهم القدرة في كل آن ، فيدهون أشجع الشجعان إلى المبارزة قبيل كل معركة ، فإذا قضوا عليهم حلت الزعامة بالظهور . كان فن الحرب أول الأمر جديداً على المسلمين . وكانت أبرز مقومات غزوم :

الايان والشجاعة والاقدام ، غير أنهم لم يلبثوا أن درسوا أنظمة الحرب فأنشأوا كتائب منظمة .

كانو يرتقبون الاشتباك قبل صلاة الظهر ، ويحافظون على التوازن الحربي حتى المساء ، ليعودوا إلى المعركة بكتائب جديدة ، وأخذ خالد طريقة إخراج الجيش إلى مكان بعيد وإعادته في الصباح فرقة وراء فرقة ليفت في عضد العدو ، وليزيد أصحابه قوة برفع روحهم المعنوية بامداد جديدة ، ولم تمل الغنائم إلا دوراً ثانوياً في مفهوم المسلمين الحاربين ، وهى الاسلام بتأمين أسر الحاربين ففرض عمر بن الخطاب راتباً لأرملة الجندي وذلك لأول مرة في تاريخ العالم . وفي مجمل الصورة تبدو ظاهرة انتصار العدد القليل من المسلمين على العدد الأكبر من خصومهم « قضية » عاودها بالبحث كثير من المؤرخين ومجمل القول فيها أن مقاومة المسلمين كانوا من طراز خاص ، لقد أعطاهم الايمان بالله مع تضحية النفس في سبيل نصر الاسلام قوة على الاندفاع في الحرت دون خوف الموت ، ومع إكبار لهذا المعنى كانت نفوسهم تحمل الازدراء لحطام الدنيا ولا تفرص عليه . وحرص قادة المسلمون على تأمين القوى الحاربة ، وكانت صيحة الخلفاء والولاة : لا تقدموا بالمسلمين على مواقع شديدة الأحوال ، كما حقق الانسلاخ الداخلي فيه مشاركة على قدم المساواة في ماركه وغنائمة وقياداته ، فكان أهل الوحدات الاسلامية دائماً غالبية الحاربين وإليهم ينسب النصر والظفر ، وفي مختلف توسعات الاسلام فيما وراء النهر والهند والمغرب والأندلس كان أهل البلاد من فرس وترك وبربر هم أهم القوى الحاربة ، ولم يكن الطمع في الغنائم هو الدافع الأول إلى انضمام هؤلاء كما يصور بعض المؤرخين ، وإنما كان الاسلام في مفهومه متكاملًا جامعاً بين نصر الاسلام وخير الدنيا : ألا نفوس هؤلاء الحاربين يقول فون كريمر : كان العرب المسلمون في حروبهم مثال الخلق الكريم ، فحرم الرسول عليهم قتل الرهبان والنساء والأطفال والمكوفين كما حرم عليهم تدبير المزارع وقطع الأشجار ، وقد اتبع المسلمون في حروبهم هذه الأوامر بدقة متناهية ، فلم ينتهكوا الحرمات ، ولا أفسدوا الزرع ، وبينما كان الروم يقدمونهم بالسهم المسمومة ، فإنهم لم يبادلوا أهداهم جرماً بجرم ، وكان نهب القرى واشتعال النار عادة درجت عليها الجيوش الرومانية في تغلبها ونراجمها ، أما المسلمون فقد احتفظوا بأخلاقهم المثلى فلم يحاولوا من هذا شئنا . ولا شك كان الحرب المسلمين في جبهتين في وقت واحد وانتصارهم فيهما — وهو مما لم يقع كثيراً في التاريخ — أثر كبير في تقدير المؤرخين والباحثين ، يقول ابن مثيروز في كتابه (الحرب على مصر المصور) . لقد كان من القواعد العسكرية المقررة المنفق عليها

ألا يحارب قائد في جبهتين ، وإذا كان لا بد من حرب خصمين فليقدم أحدهما على الآخر ، ولكن العرب لم تأخذ بهذه القاعدة ففي الوقت الذي كانوا يحاربون الفرس ، أرسلوا جيشا إلى سورية لمحاربة الروم ، وظفر العرب في الحربين وقضوا على جيوش الدولتين ، وهذا من عجائب الدنيا .

استراتيجية الحرب والمعارك

لا شك كان الأسلوب الذي اختطه للمسلمون في للمارك والغزوات والحروب أسلوبا إنسانيا بارعا ، فقد كان قوامه وسداه وخطته « مفهوم الإسلام » نفسه ، في السلم والحرب ، هذا المفهوم الذي يستهدف نشر الإسلام والهدوء إليه بالافتناع والحسنة والموعظة الحسنة ، فلا يلجأ المسلمون إلى القتل إلا لدفع العدوان أو إزالة أصحاب النفوذ الذين يحولون وون انتشار الإسلام وامتداد دهرته .

ومن هنا كانت معاركهم في الأغلب : « معارك دفاع » وهم لم يبدأوها إلا بعد أن استنفذوا كل وسائل التبليغ ومحاولات السلام ، فإذا اضطروا هزموا ، فكانوا قوة هجيبية في كسب الممارك . إيماننا بالله وثقة بالعقيدة التي يمتنعونها ، وإخلاصا يفتق العقول والغلوب لأساليب التغلب على العدو ، وما زالت معارك المسلمين وحروبهم ومواقعهم ، تدرس في الجامعات العسكرية في العالم كله ، كأرقى مثال لنظم الحرب ، البريقة من الفدر والانتقام والابادة ، وقد كشفت هذه المواقع عن أهلام أبطال ، هم قادة الممارك الذين حلوا رايات الإسلام إلى الصين وإلى الأندلس ، كان للعرب : الأمة التي أنزل هايتها القرآن واختيرت لحل لواء الإسلام — المكان الأول في هذه المراحل ، متمثلة في القوى البدوية الشابة الصاعدة ، المنبثقة من قلب الجزيرة العربية ، تدفع معها كل مسلم من كل جنس ولون إلى مواقعها ومعاركها .

ومع ذلك فلم يكن لهذه القوة وهذه الممارك والحروب صلة بانتشار الاسلام أو دهرته ، فقد كان هدفها تخليص الأقطار والبلاد من حكامها الذين وقفوا أمام الاسلام ، يردونه ويقاومونه ، أما البلاد التي قبل قاداتها وحكامها « الإسلام » فلم تقع بها حروب أو معارك ، وفي كلا الحالتين لم يفرض الاسلام نفسه « ديننا » على غير الذين ارتضوه واعتنقوه من إقتناع ، وإنما سمح لكل الأديان والطوائف أن تباشر هباتها في حرية ، وقد شهد بهذه الحقيقة المؤكدة كثير من المنصفين . فهذا روتش في كناية (تاريخ شارل كان) يقول : إن المسلمين وحدهم هم الحس الذين جمعوا بين التسامح وغيرة التبشير . فلما حلوا السلاح للنشر مذهب نبهم أباحوا للذين لم يريدوا اعتناق هذا المذهب أن يبقوا متمسكين بدينهم .

ويقول ميشود في كتابه « تاريخ الحروب الصليبية » : منع (محمد) قواده من قتل الرهبان لأنهم رجال صلاة ، ولما استولى (عمر) على بيت المقدس لم يمس النصارى بسوء ، ولما صار الصليبيون سادة هذه المدينة (يعنى القدس) ذبحوا للمسلمين بلا رحمة ولا هوادة . ويقول جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب) : لم تكن القوة عاملا في انتشار الإسلام قطعا ، فقد ترك المغلوبون أحراراً في المحافظة على دينهم وإذا حدث أن اختلفت الشعوب دين دينهم ، فذلك لأن الفاتحين الجدد بدأوا أكثر عدلاً نحوها مما كان عليه سادتها السابقون ، ولأن دين هؤلاء الفاتحين كان البساطة البالغة مما لم تعرفه الشعوب حتى ذلك الحين ، ولم يفرض القرآن بالقوة بل بالاقناع ، والإقناع وحده هو الذى كان يمكن أن يجلب إلى اعتناقه الأمم التى فهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول .

وقد كان اتجاه التوسع الإسلامى واضحاً في الطريق إلى الشمال ، هذا الطريق الذى كان مصدر الخطر على فوهة الجزيرة العربية ، وكان يهدف إلى توسيع عالم الإسلام بإزالة سلطان الامبراطورية الرومانية من الشام ، وقد بدأت أعمال التوسع في العراق والشام في وقت مبكراً ، على نحو هد من مبشكرات الاستراتيجية الإسلامية ، وكان مصدر النصر ، بعد أن أوقع الهزيمة في قلوب قادة الامبراطوريتين ، وقد رجح الخليفة أبو بكر أمر الشام فأرسل إلى خالد بن الوليد أن يترك موقعة في العراق إلى الشام : « إمض مخففاً في أهل القوة من أصحابك الذين قدموا معك العراق من الجهاد وصحبوك في الطريق حتى تأتى الشام وتلقى أبو عبيدة ومن معه من المسلمين ، فإذا التقيتم فانت أمير الجماعة » فلم يلبث خالد أن استجاب فترك القيادة للمثنى بن حارثة ومعه نصف الجيش . وسار بالنصف الآخر إلى الشام ، وهنا تبرز عبقرية خالد ، ولما حينه ، فقد اختار طريقاً قصيراً شاقاً ، ليصل في أقصر وقت ، ولينفادى الفلاح الرومية في طريق وادى سرحان ، فسار من دومة الجندل (الحوف) إلى قراقر ، واقتحم بوابة سوريا في صحراء مجدبة خمسة أيام وأمامه دليلة رافع بن عير ، ولم يلبث أن وصل إلى أطراف دمشق في ثمانية عشر يوماً . وقد تحقق مفهوم الإسلام في الحرب على هذا النحو :

(١) في مختلف المواقع العسكرية الكبرى التى وقعت بين المسلمين من ناحية والروم أو الفرس من ناحية أخرى كانت القوة الإسلامية أقل بكثير من القوة للضادة . في اليرموك كان جيش الروم ١٤٠ ألفاً وجيش المسلمين في ٤٠ ألفاً . (٢) في موقعة فتوح دمشق كانت براحة المسلمين تتدخل في البيعة ، وتزقب الأحداث ، فقد سهر خالد يرقب تحركات العدو حتى شاهد غفلة من الحراس الذين غادروا أما كنهم لحضور فرح مولود جديد فاتهمز الفرصة ، وتسلى السور بواسطة سلام من الحبال ، ومعه القمعاق بن عمر ومنصور ابن هدى فقتلوا الحراس ، ونصبوا سلام أخرى من الحبال ، رقى بواسطة

أركانها إلى السور ، ثم المهدروا إلى الداخل ، حتى فاجأوا حراس الأبواب فقتلهم ، وفتحوا الأبواب ، وراحوا يكبرون ، واقتحم المسلمون الأبواب . (٣) عندما تولى عمر الخلافة عزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش وولاه أبو عبيدة ، هنا تبدو صورة من أروع صور مفهوم الإسلام في إنكار الذات ، جاء البريد بعزل خالد ومركة اليرموك هي أشدها ، فاحتفظ أبو عبيدة بالرسالة فلم يعلتها لخالد ، تاركا إياه على قيادة الجيش ، وهو جندي معه حتى علم خالد بالأمر من غيره ، وخالد لا يضيق بالعزل ، بل يتقبله ويمضى بعد جنديا في الجيش تحت أمرة أبو عبيدة ، فيحقق انتصارات جديدة . (٤) اشتركت النساء في القتال وتضميد الجراح وتقديم الماء . (٥) ملئت مدينة القدس صلحا بعد حصار شديد ، اشترط أهلها إن يسلموها إلى الخليفة عمر ابن الخطاب ، وقدم عمر ابن الخطاب من المدينة إلى الجابية ، وذهب إلى بيت المقدس ، ولم يصطحب معه غير خادم ، ولم يأخذ معه من الزاد غير قربة ماء وجراب شعير وتمر ، فلما دعاه البطريق ليصلي رفض أن يصلي في الكنيسة ، وخشى أن يتخذ للمسلمين من صلاته حجة لاتقرا الكنيسة من أصحابها . (٦) ظهر طاهوت عواس فأباد عشرين ألفا من الجنود ، فأرسل الخليفة عمر إلى أبي عبيدة قائد المسلمين يستدعيه في حيلة بارعة لينقذه من الوفاء ، غير أن أبا عبيدة رفض عرض الخليفة . قال : أنك يا أمير المؤمنين تريد أن تستبقي ما ليس باقيا . (٧) لم تكن القيادة العسكرية يوما وقفا على العرب وحدهم ، بل عقدت ألوية الجيوش إلى قادة من المسلمين : أحياشا وفرما وحجا وبربرا . (٨) استقبل الأهالي المسلمين في كل مكان بلا مقاومة . (٩) احترم المسلمون شروط الهدنة والصلح . (١٠) الجماعة الإسلامية الأولى التي كونها محمد في المدينة وبكة هي التي حملت لواء نشر الاسلام وهي يديها تحقق التوسع ، وهي التي واجهت سيوف الروم وفارس .

(٨)

« مرحلة الانصهار والبلورة »

(١١٤ - ٤٨٩ هـ)

« كان لابد أن يمر الاسلام بمرحلة الانصهار والبلورة ، فقد دخلت خلال سنوات قليلة ، في عالم الاسلام ، شعوب وعناصر وأمم وأجناس متعددة ، دخلت بفكرها وثقافتها وأديانها لم يفرض عليها الاسلام دائما ترك لها حرية الاعتقاد ، وفي هذه الفترة تم حلين كبيرين (١) تبلور

الفكر الاسلامى باستصااص الثقافات والفلسفات على قاعدته الأساسية . (٢) العناصر عناصر عالم الاسلام فى المجتمع اسلامى متكامل .

نعم مرحلة الانصهار والبلورة من أخطر وأدق مراحل تاريخ الاسلام . لقد بدأت هذه المرحلة فى نفس الملاحظات التى تمت فيها مرحلة التوسيع الأولى فى عهد الخليفة الثانى (عمر) عندما سيطرت القيادة السياسية للإسلام فى المدينة على فارس والعراق والشام ومصر ، وإزات اديراطورية الفرس وضمت على ما كان تحت نفوذ الدولة الرومانية من أرض الشام ومصر ثم أفريقيا من بعد ، فى هذه الملاحظات بدأت « مرحلة الانصهار والتبلور » لهذه العناصر المختلفة التى ضمها الاسلام تحت قيادته السياسية وقبل أن يجمعها تحت لوائه ككفر وعقيدة . وكانت الدولة الفارسية المنهارة هى أدق وأخطر هذه العناصر ، وأقواها أثراً ، بحكم أنها أ كثر حضارة ، وأ كثر اهتزازاً بقوميتها ، وبحكم أنها كانت ترى العرب — قادة الحركة الجديدة — من قبل ، أقل من الفرس درجات فى مجال الحضارة والسلطان السياسى والعسكرى . ثم اتسمت مرحلة الانصهار والبلورة من بعد ، عندما توقفت حركة التوسيع فى أواخر حكم عثمان ، وبدأ أثرها الواضح فى حركة الشد والجذب حول نظام الحكم إذ ذاك واستمرت سنوات من حكم « عثمان » وخلال حكم « على » حتى انتهت إلى مرحلة جديدة : هى مرحلة الملك المعزود بولاية معاوية لشئون القيادة السياسية .

غير أن هذا الانتقال من الخلافة إلى الملك المعزود لم يكن هو النهاية ، فإن عملية الانصهار والتبلور كان لابد أن تكون طويلة المدى ، ولقد زادها النظام الجديد حركة وحيوية خلال فترة حكم الدولة الأموية (٤٠ — ١٣٢ هـ) كله . لقد نكونت منذ أواخر عهد عثمان معارضة قوية تمثلت فى فرق مختلفة ، لا تريد أن تلتزم فى عرضها مناهج المؤرخين السابقين ، بل ترى أنها تتمثل فى دهاة المثل الأعلى ودهاة الماطفة ، وفئة المؤامرة على الاسلام ، وقد تداخلت العناصر الثلاث تداخلاً هجيباً ، حتى لم يكن فى قدرة السكثير من الباحثين الفصل بينها ، بل أن احدها قد حاول أن يفتنح بقوة الآخر ، فى سبيل تحقيق هدفه ، ثم ظهر من بعد دهاة العدل والمساواة . وقد استطاعت « المعارضة » أن تلتنم بالتحول الخطير الذى شمل المجتمع الاسلامى كله ، نتيجة لتوجهة بالعناصر المختلفة ، واتجاهه إلى تفهيد أسلوب الحكم ، ومكانه ، وتداخل الثقافات الفارسية واليونانية والرومانية والفرهونية ، وامتزاج القيم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية المختلفة فى هذا المجتمع الواسع المتضخم ، هنالك كانت تلك الأزمة الخعيرة التى ظهرت فى ظل الخليفة الثالث (عثمان)

وكان لها مقدماتها في حكم (عمر) كان أبو زر من دعاة العدل الاجتهابي والخوارج من دعاة المثل الأهل، وأنصار آل البيت من دعاة العاطفة، وعبد الله بن سبأ من قادة المؤامرة، يتحركون جميعاً وربما تلاقوا وربما اتخذ قادة المؤامرة من منهج قادة العاطفة متاراً، وربما حاول دعاة العدل الاجتهابي أن يحسنوا الظن بالمؤمنين، فاضطربت الحياة السياسية اضطراباً أوقع ذلك الصراع بين أهل الأمصار والخليفة الثالث، وأوقع الخلاف بين المسلمين والخليفة الرابع، وانتهى ذلك كله على النحو الذي حقق قيام الملك المضود، وبدلاً للخلافة في دمشق بقيادة معاوية، هنالك بدأت مرحلة جديدة من هذا الصراع استمرت، خلال حكم الدولة الأموية. كانت الدولة الأموية بقيادة معاوية هي الحل الذي ارتضاه الواقعيون لضمان «وحدة المسلمين» واستمرار سلامة المجتمع الاسلامي، فقد نقلت النظام السياسي من الخلافة إلى الملك، ومن قلب الصحراء إلى قلب المدينة، ولكن هل حققت مطالب دعاة المثل الأهل، ومطالب العدل، ودعاة العاطفة، لقد ظل هؤلاء جميعاً في صف خصوصها في صف المعارضة، واستمرت فئة المعارضة على الاسلام من زحزح الاسلام نفوذهم الشخصي، وصلطاتهم السياسي، لقد استمرت هذه الفئة الموثورة حرباً هلياً، غير أن غالبية المسلمين كانوا قد والوا النظام السياسي القائم في دمشق واعتصموا به، هؤلاء هم (دعاة الواقع) الذين كانت لهم حججهم في قبول هذا النظام ودعمه حرصاً على بقاء الاسلام نفسه ودفعاً له إلى الأمام. غير أن المعارضة كانت تأخذ على حكم الأمويين، مخالفاته في تأكيد السيادة العربية الخالصة وتميزها عن المسلمين من غير العرب مما خلق مشكلة لمطالب العدل (الموالي)، وما استتبع استمرار هذا النظام من محاولات متوالية لانتفاض دعاة العاطفة (الشعبة) الذين آمنوا بحق آل البيت في تولي الحكم وينتشل أبرز خصوم الأمويين من دعاة المثل الأهل (الخوارج) الذين كانوا يرون أن من حق المسلمين اختيار حاكمهم، وقد استغلت «المؤامرة على الاسلام» كل هذه الفرق الساخطة، وكل قوى المعارضة، غير أن الدولة الأموية بوصفها القيادة السياسية للإسلام قد حققت للإسلام كثيراً إذ وسعت نطاق عالم الاسلام وأضافت إليه وعمقت آفاق الحضارة فيه. وإن كانت الدولة الأموية لم تلبث أن سارعت دعاة العاطفة، وبلغ ذلك قننه بمقتل «الحسين»، هنالك تجمعت مختلف القوى على النظام الأموي، فاستطاعت أن تسقطه.

والحق أن سقوط النظام الأموي كان تطوراً طبيعياً للمجتمع الاسلامي فقد حقق كسر القيود التي كانت تحول دون اشتراك العناصر المختلفة في المجتمع الاسلامي على قدم المساواة بلا تفرقة وفق مفهوم الاسلام ودون سيطرة العرب على سائر المسلمين أو استغلالهم، وإذا كانت النظام

العباسي قد كسر هذا القيد ، وأرضى دهاة المساواة فإنه لم يحقق آمال دهاة المثل الأعلى (الخوارج) ولا طلاب العدل الاجتماعي ولا طلاب العاطفة وفي هذه الفترة كانت هذه الفرق المتصارعة تنصارع حول سلطان الدولة ، فقد واصل دهاة المثل الأعلى حريهم وكذلك واصل طلاب العدل الاجتماعي دهوتهم كما واصل دهاة العاطفة حملتهم ، وأفسحت هوامل الصراع الطريق لدعاة المؤامرة على الإسلام والشعوبيين جميعاً . في هذه المرحلة ظهرت حركات حملت لواء العدل الاجتماعي كالزنج والقرامطة ، وحركات حملت لواء العاطفة حاولت أن تنصير لآل البيت الذين خاصهم العباسيون بالحكم بنى حومتهم بأقصى مما خاصهم بالأمويون ، وفي هذه المرحلة نهض الفكر الإسلامي وتمتدق ووسع آفاقه في مواجهة « المؤامرة على الإسلام » ، وظهر دعاة للدفاع عنه تحت أسماء كثيرة ، تحت أسماء المعتزلة ، والأشعرية والفقهاء ، والحدثيين ، وأهل السنة . وفي هذه المراحل مضت حركات ثلاث في خط واحد ، هي :

[(١) نمو الحضارة (٢) انصهار المجتمع (٣) بلورة الفكر] . وقطعت في ذلك الطريق خطوات واسعة ، في عالم الإسلام كله ، في الشرق والغرب والأندلس ، وساعد على ذلك ودفعه — إلى الأمام دوافع قوية — بروز السلطات الاستقلالية في كل قطر ووطن ، وظهور القوى القومية الخالصة في مواطنها يحمل لواء الحكم فيها « ببناء الدول » الذي كانوا في الأغلب قادة مبرزون يجمعون — في الأغلب — بين الفقه والحكم ، فقبروا العلماء وشجعوا الشراء ووطدوا الحضارة وأقاموا العمارات وفي خلال ذلك اتسع نطاق التجارة وبلغ الثراء مبلغه بعالم الإسلام وامتد بين الأندلس والصين في طريق مهد أمين يستطيع أن يتحرك فيه المسافر دون أن يصده شيء . وقد استطاع المجتمع الإسلامي أن يترابط ويتطور وتنصر فيه كل القوى وأن نجمها روابط مفهوم الإسلام وتعمل على روابط الجنس والدم والقوميات الإقليمية ، غير أن هذا الانقسام السياسي تحت خلافت ثلاث ، وفي ظل دول استقلالية ، وغلبة عناصر الخلاف بين هذه القيادات السياسية الرئيسية ، ثم خلبه الترف ، وضعف القوى العسكرية ، وتراخيها كل ، وهذا أخرى القوى للتراسة خارج عالم الإسلام به ، فأخذت تنأهب للانقضاض عليه وغزوه . هذا الغزو الذي بدأ أول أمره حينما في جبهتين : جبهة الحدود البيزنطية وجبهة حدود الأندلس ، في محاولة الغرب الصاعدة لرد قوة الإسلام عن أوروبا والأدلة منها وتحرير شبه جزيرة أيبيريا من الإسلام أيضاً ، وحصر الإسلام في أفريقيا وآسيا ، تلك كانت خطة الغرب قامت عليها الدولة الرومانية الشرقية في شرق أوروبا ودولة الفرنجة في غرب أوروبا ، فقد ظننا تتربعان فرص الضعف للانقضاض على حدود عالم الإسلام من ناحيتين ، حتى أتيسح

لها من بعد أن يصل إلى هدفها بالحروب الصليبية التي هزت عالم للشرق ، بينما كانت الحروب الصليبية في المغرب والأندلس لا تتوقف . والحق ، أن مرحلة الانصهار والبلورة قد استطاعت — بعد توقف حركة التوسع وحتى أوائل القرن الخارجي . أن تصل إلى مداها في (١١٤ — ١١٨٩) في مجالات نمو الحضارة وانصهار المجتمع وبلورة الفكر ، بالرغم مما واجه هذه الحركات من صراع المعارضة والفرق المختلفة ، ما كان فيها داهياً إلى تحرير السلطة والضيافة العليا من عوامل النقص والاضطراب ، وما كان منها متآمراً على الاسلام نفسه ، راجعاً في القضاء على دولته أو تشويه مقومات فكره . هذه نظرية مجملة لهذه المرحلة تفصلها في بعد : كان لابد أن يمر الاسلام بمرحلة الانصهار والبلورة منذ بدأت حركات التوسع الاسلامي وخلقها وبعدها .

فقد دخلت في سنوات قليلة ، في عالم الاسلام ، شعوب وعناصر وأمم وأجناس ، متعددة . دخلت بفكرها وثقافتها وأدينتها ، لم يفرض عليها الاسلام وإنما ترك لها حرية الاعتقاد ، في نفس الوقت الذي بدأ فيه دعاة الاسلام يعرفون به . هنالك بدأت حركة ذات موجات هذه : (١) تحول من هذه الأديان القديمة إلى الاسلام . (٢) مقاومة من سقط نفوذهم السياسي أو الاجتماعي من الفرس وغيرهم . (٣) تأمر من اليهود الذين انتزع سلطانهم ونفوذهم ومن سدة الأديان المختلفة الذين أحسوا بخطار الاسلام على نفوذ معادهم ونفوذ الشخص . ومن هنا كان لابد أن تتواتر الدهوات والحركات وتصارع وتتمارك في هف . وقد استغلت هذه الحركات خلافات المسلمين حول الحكم ، وانفذه بعضها من جانب (آل البيت) ساراً لهم ليث دهنهم وإبراز شعار براق خادع هو موالاة آل على وأولاده وإدعاء التشيع .

(٩)

(حركة البلورة)

تتمثل في هذه المرحلة عدة ظواهر : قوامها . (١) محاولة « التبلور » في فكر إسلامي عربي موحد . (٢) محاولة الانصهار في مجتمع إسلامي متكامل .

وأبرز معالم هذه الفترة الالتقاء بين العرب والفرس والبربر والترك بوصفها العناصر التي جمعها الإسلام وحدة فكرية وعالم الإسلام جغرافيا في وحدة سياسية ، وقد برزت في هذه الفترة أربع ظواهر : (الأول) قيام عدد منوع من الدول المستقلة في مختلف أقطار « عالم الإسلام » عبدالرحمن الداخل والدولة الأموية في الأندلس (١٣٩) الأغالبة في تونس : إبراهيم ابن الاغلب (١٤٢) ادريس ابن عبد الله : الادراصة في مراکش (١٧٣) طاهر ابن الحسين في خراسان (٢٠٤) أحمد بن طولون في مصر (٢٥٥) يعقوب بن أليث في فارس (٢٥٨) الدولة الفاطمية : عبد الله بن المهدي (٢٩٨) سيف الدول في حلب (٢٣٣) السلاجقة (٣٤٥) البويهيون (٣٣٤) بنو هباد (أشبيلية) (٤١٤) طغرل بك في خراسان (٤٢٩) دول المرابطين (٤٥٤) (مراکش) .

ولقد تمثلت في هذه الدول حركات نشاط سياسي واجتماعي ، لا حد لها في تحريك الأمم وبناء الحضارة ، فاستطاعت أن تجدد شباب عالم الإسلام ، وقد قامت هذه الدول في مواجهة تحديات الحضار والسياسة .

(الثاني) حركة التدوين والتفنين والترجمة والتأليف ، وهي حركة مترابطة ، وقد كانت هذه الحركة في مجموعها تمثل : الدفاع عن الاسلام ، ومقاومة خصومه ، ومواجهة تحديات الأديان والعقائد وللذاهب القديمة ، والوافد من ثقافات الفرس والروم والهند والفراخنة والاغريق والرومان . وقد كان موقف الاسلام من هذه الثقافات متمثلا في أصالتها ومماحتة وانفتاحه على الحضارات والثقافات ، فقد استصنى الفكر الاسلامي عصارات من هذه الثقافات ، وفق مفهومه وهي قاعدته وداخل إطاره القائم على مفهوم التوحيد والنبوة وسيادة الانسان على السكون تحت حكم الله ، ورد ما سوى ذلك هارضة وتقدمه .

(الثالث) : مقاومة حركات الانقراض من الداخل : وأبرز الحركات : حركة البرابكة (١٨٨) حركة بابك (٢٢٣) حركة القرامطة (٢٧٧) .

(الرابع) : مقاومة حركات الانتفاض من الخارج . وأبرزها مقاومة المسلمين للبيزنطيين (٣٣٣) وسقوط طليطلة في الأندلس كاول محاولة لقرينة لافضاء على الاسلام (٤٧٧) والحلة الصليبية الأولى على بيت المقدس (٤٨٩) .

[كبريات الأحداث في مرحلة الانصهار والبلورة من ١١٤ — ٤٨٩ هـ] : في أواخر القرن الأول الهجري (٨٩٣) بلغ التوسع الإسلامي غاية مداه في أرض السند شرقاً والأندلس غرباً ، هنالك كان قد آن الوقت لمرحلة جديدة في تاريخ الإسلام : يمكن أن يطلق عليها مرحلة « الانصهار والبلورة » أو مرحلة بناء الفكر والحضارة . هذه المرحلة تستمر من خلال السنوات الثلاثين الأخيرة تقريباً للدولة الأموية التي كانت تمثل سلطان الدولة الإسلامية الموحدة ، ومن خلال الدولة العباسية التي لم تلبث أن شاركتها دول كثيرة في حكم (عالم الإسلام) . ولعل هذا هو أكبر تطور في تاريخ الإسلام السياسي ، وهو تطور طبيعي ، بعد مرحلتى المدينة والكوفة ، ومرحلة دمشق ، فقد انتهى « طابع » من ولاية أمور المسلمين تمثل في (أبو بكر وعمر وعثمان وعلي) وبدأ نظام جديد في دمشق امتد (٤٠ — ١٣٤ هـ) أكثر من تسعين عاماً ، كان له طابعه الواضح ، طابع الملك العضود ، بوراثة السلطة وهود ولاية اليهود ، وقد تمثل في هذه المرحلة طابع الحكم العربي الخاص ، وفي خلالها توسع عالم الإسلام إلى أقصى مداه الذي بلغه ووقف عنده ، حدود الصين شرقاً ، والأندلس من شرق أوروبا ، ولما كان هذا الحكم هربياً خالصاً ، فقد استهدف الكثير من النقد والتأمر ، وكان من الطبيعي أن يشطور من ناحيتين : « الأولى » أن تشارك فيه كل الأجناس وأبناء الأوطان التي انضوت تحت راية الإسلام كالفرس والترك والمصريين والبربر « الثاني » وأن يضعف نفوذ السلطة الجامعة في (بغداد) ويبرز من كل قطر قادة يستقلون بالأمر ، ويبايعون الخلافة بالولاء أو ينفصلون عنها ، وقد أعطت هذه المرحلة تطبيق هذين الأمرين كأوسع ما يكون التطبيق ، وأضاف ذلك لعالم الإسلام مزيداً من التقدم الحضارى ، وأن أصابه بكثير من التمزق والضعف . غير أن الذي يلفت النظر حقاً ، هو ذلك التفجر الحى للطاقات الخلافة في كل أجزاء عالم الإسلام بحيث لم تتوقف موجات النهضة ، أو التجدد ، وقد أبرزت هذه المرحلة وما تلاها من مراحل ، عديداً من بناء الدول للتوابع الذين جمعوا بين الثقافة الإسلامية والقوة الحريسية ، أو بين القدرة على الحكم ، والبراعة السياسية واستطاعت كل القوى التي ترى أنها خليفة بأن تسود سياسياً والتي تحمل فلسفة ما أو مذهباً ما من مذاهب السياسة أو الاجتماع أن تبرز انتصاراً ، بأن تلى الحكم في منطقة ما ، فالفرس ، والترك ، والمصريون ، والنولسيون ، والمغاربة ، والبربر ، والفاطميون ، والشيعة ، والممثلة جميعاً استطاعوا

أن ينفذوا إلى مجال الحكم والسياسة . ولم تمتد سلطة الولاية العامة قاصرة على العرب وحدهم ،
ما عدا الخلافة التي ظلت تمثل العباسيين حتى سقوط بغداد ٦٥٦هـ وكانت الصورة على هذا النحو :

كبرى الأحداث (١١٤ - ٥٤٨٩)

١٠٢٣م	: محمود الغزنوى (السند) ٩٩٨م - ٤١٤هـ بنو عياد (اشيلية)
١٠٦٢	: ٤٢٩ طغرل بك (خراسان) : ١٠٣٧ - ٤٥٤ دولة الرابطين (مراکش)
١٠٨٥	: ٤٥٦ نظام الملك : ١٠٦٣ - ٤٧٨ سقوط طليطلة
١٠٧١	: ٤٥٤ دولة المرابطين (مراکش) : ١٠٦٢ - ٤٦٤ معركة ملاز كرد
١٠٨٦	: ٤٧٩ يوسف بن تاشفين يهزم الفرنجة في الزلاقة
٧٤١م	: ٤٨٩ الحملة الصليبية الأولى : ١٠٩٦ - ١١١٤ بلاط الشهداء
	١٢٣ الدولة العباسية : ٧٥٠م -
٧٥٥م	: ١٢٩ عبد الرحمن الداخل : الدولة الأموية في الأندلس
(بغداد)	١٤٢ الأغلبية في تونس (إبراهيم عبد الأغلبي) - ١٧٠ هارون الرشيد
٨١٣	: ١٧٣ ادريس بن عبد الله (مراکش) - ١٩٨ المأمون
٧٤٧	: ٢٠٤ طاهر بن الحسين (خراسان) ٨١٩ - ٨٢٣ المنوكل والسنة
٨٧١	: ٢٥٥ أحمد بن طولون (مصر) : ٨٦٨ - ٢٥٨ يعقوب بن الليث (فارس)
٩١٠	: ٢٩٨ الدولة الفاطمية (عبيد الله بن المهدي)
٩١٢	: ٣٠٠ عبد الرحمن الناصر (الأندلس)
٩٤٤	: ٣٢٣ سيف الدولة وجروية ضد البويهيون
٩٤٥م	: ٤٠٥ السلاجقة : ٩٥٦ - ١٢٣٤ البويهيون في بغداد :

* * *

وقد جمعت هذه المرحلة بين ظاهرتين مترابطتين : حركات بناء الدول ، وقيام الحكومات
المستقلة في كل أجزاء عالم الإسلام ، وظهور قادة الفكر في مختلف جوانب السياسة والاجتماع والثقافة
والعلوم . ولقد كانت دهوات المفكرين أحيانا بمثابة رد على تحديات السياسة ، أو تجديدا لجوانب
أصاها الجلود ، أو تصحيحا لقضايا اضطربت مفاهيمها أو تحاقت مع مفهوم الاسلام .

ومما يلفت النظر أن هذه الدول التي قامت ، خلال تلك الفترة ، لم تستطع البقاء والصمود فترات طويلة ، فكانت تقوم برجل أو رجلين أو ثلاثة لتتولى ، لتقوم مكانها دولة أخرى برجال آخرين ، ولكن الظاهرة الواضحة أن « بناء الدول » كانوا قادرين دائماً في عهد إزدهار دولهم على البناء والنهضة ، والعمل ، وكانوا حقيقين بالعلماء والأدباء والفقهاء ، وكان طابع الإسلام وإطاره واضحاً متمثلاً .

لم يكن هذه المرحلة هي مرحلة تراخ وترف فحسب ، إذ انتهى المسلمون من أعمال الفتح والتوسع ومن هنا بدأ عهد السكلام والصراع الفكري كما يقول بعض كتاب الغرب ، ولكن الحقيقة أن الإسلام الذي توسع في الآفاق على هذا النحو في مرحلة (الإجماع) كان لا بد أن يمر بمرحلة تالية في طريق نموه هي مرحلة (الأزمات) ، وهي مرحلة طبيعية لا شك فيها ، فقد للنقي الإسلام الذي أقام « دولة » بتراث ضخمة وقضايا ومعضلات في مجال الفكر والقانون والاجتماع كان عليه أن يواجهها وفق مفهومه ، ومن هنا بدأت تظهر أبرز معالمه ومقوماته وهي الإصالة للتجدة القادرة على إيجاد حلول لقضايا جديدة ليس لها سابقة في القرآن والحديث والانفتاح بالفترة على تقبل النقائات والحضارات وإمتصاص التراث العقلي السابق على وجوده وتمثله وإذابته في كيانه كقوة جديدة دافعة إلى الحياة ، وقد واجهته في هذين المجالين أعظم تجربة ، فقد استطاع قادة الفكر أن يجددوا ويمتصروا في تجربة ضخمة من تراث اليونان والرومان والفرس والهنود والفراعنة على نحو من القدرة والعمق والحرية ، فأخذوا مازادهم قوة ورفضوا مالا حاجة لهم به أو ما يختلف مع جوهر فكرهم : ثم صاغوا هذا التراث مرة أخرى صياغة جديدة في إطار قيم « الإسلام ومقوماته » ، واتخذوا منه سلاحاً ماصياً في مقاومة خصوم الإسلام .

(١٠)

أزمة الحضارة

إن مقتل عمر بن الخطاب الخليفة العادل بمنجبر أي لزؤة ، كان علامة على ذلك التحول الخطير والأزمة العظيمة التي انفجرت بعد أكثر من عشرة أهوام من حكم هبمان . هذا الموقف الذي اتصل بهبمان وأدى إلى مقتله ، واتصل بهبلى وأدى إلى مقتله ، وأقام هذه المرحلة الدقيقة المجيبة منذ أواخر حكم هبمان وطوال حكم هبلى ، إلى أن ولي معاوية سلطة الحكم الاسلامى العامة ، لا شك أن هذه الأزمة بالغة الدقة فهى ذات أطراف عديدة ، أطرافها بين هبمان وأهل الأمصار ، وبين هبمان وأهله ، وبين هبلى والصحابية وبين هبلى وأنصاره ، وبين هبلى ومعاوية .

وهي تنلخص في ثورة أهل الأمصار على عثمان ثم قتله ثم ولاية هلى وخلافه مع الصحابة والاصطدام بهم ثم خلافه مع الذين خرجوا عليه ، ثم موقفه مع معاوية ، وانحسار الموقف بخروج ثلاثة لقتل هلى ومعاوية وعمره ، وقتل هلى ونجاة معاوية وعمره . وقد حدثت هذه الأزمة كلها في خلال خمس سنوات أو تزيد قليلا ، ولكن مقتل عمر بن الخطاب بمنجبر أبى لؤاؤة قبل ذلك بخمسة عشر عاما ، يكاد يكون علامة على الموقف الجديد الخطير الذى بدأت تواجهه سلطة الحكم الاسلامى العامة فى المدينة بعد اتساع نطاق الدولة الاسلامية وإسقاطها امبراطوريتى فارس والروم ، فقد اتسع عالم الاسلام بدخول عناصر جديدة مختلفة إليه ، كانت ذات حضارات وأديان ، وقد يجرد كثير من قادتها من النفوذ والسلطان ، وفى مقدمة ذلك الجوس واليهود الذين عقدوا العزم على التنامر بالاسلام ومحاولة القضاء عليه . وقد أدى التحقيق فى مقتل عمر بن الخطاب بمنجبر أبى لؤاؤة الجوس الفارسى إلى أنه جاء نتيجة خطة دبرها (الهرمزان) الذى كان يقيم فى المدينة بعد أن سقط نفوذه فى فارس ، فتجمع ومن تأمر معه هلى الانتقام فى شخص عمر بن الخطاب الذى ساند التوسع الاسلامى ودعمه واستطاعت الدولة الاسلامية فى ظل حكمه أن تقوم .

وبطبينا حادث مقتل عمر بن الخطاب على ما عرف به من رفعة العدل ، علامة على ذلك التحول الذى بدأ يفرض أوضاعا جديدة هى أوضاع الحضارة ، وصراع الثقافات والمدنيات ، وتلاقى الأديان والمذاهب ، ومحاولات خصوم الاسلام كدين ، وخصومه كدولة ، فى العمل من طريق الدس والتنامر بعد أن سقطت أسلحة الحرب والقتال .

وقد امتد هذا التحول فى عهد هيمان ووجد طريقا أشد فسحة واندفاعا ، إزاء خليفة ليس له سطوة عمر ولا قوته الشابة ، فقد كان عمر قويا على نفسه وعلى أهل ، هادلا شديد العدل ، يقظا متنبها إلى تطورات الأمور ، حتى لا تبغته ، وقد هاش عمر أيام التوسع وهاش هيمان وأخوها ، إذ امتد التوسع فى هذه وبلغ غايته فى المغرب والمشرق ، غير أن السنوات الطويلة فى خلافت الرجل الثلاثة التى مضت (وهى أكثر من ربع قرن) قد أحدثت تطورا فى الفكر والحياة وأضافت مضاعفات جديدة ، وفتحت أبواب قضايا متعددة من السياسة والفكر والمجتمع نفسه وقل التوازن بين مقر الحكم فى الجزيرة العربية وبين حواضر الدولة الواسعة التى انصرف إليها الصحابة فأقاموا بها وملكوا وبدأت عملية خطوة ضخمة تريد أن تذيب المجتمع الاسلامى كله فى بوتقة واحدة . هذا المجتمع الذى بدأ فى الجزيرة والصحراء صغيرا ، ثم اتسع نطاقه وشمل العرب والروم والفرس والترك والبربر والفراخنة والهنود . كانت فترة حكم عثمان هى أدق مراحل النمو والتحول من مجتمع بسيط صحراوى

إلى مجتمع دقيق مركب ، وكان هذا التطور قويا عاصفا من المسير مقاومته أو الوقوف في وجهه أو ضبطه على النحو الذي كان يضبط به حكم الجماعة الإسلامية في المدينة ولما يتجاوز الإسلام الجزيرة العربية . ومن هنا كان ذلك الاضطراب الذي لاحد له ، وكانت تلك الواقف المفاجئة المتوالية التي هيجت القادة عن مواجهتها وإيجاد حلول سريعة لها مما دفعها إلى التفتاقم والتضخم .

فاذا أضفنا إلى ذلك ، أن هذا التطور لم يكن طبيعيا يجري في تيار واضح محدد ، إلى غاية للرصومة ، وأن هناك قوى معينة كانت تفرض عليه إيجابا معينا ، وأن هذه القوى من الجوس واليهود قد سمت مخططا دقيقا لتزيق جبهة الإسلام وإيجاد صدام ضخم ، وأن هذا المخطط قد حمل لوائه « عبد الله بن سبأ » وسار به سيرا دقيقا ، واستغل كل الأحداث ، واختلق مواقف بارعة ماكرة رمى بها إلى ضرب الوحدة الإسلامية وتزيق الجماعة الإسلامية ، إذا ذكرنا هذا كله عرفنا أي إلى حد كانت هذه الأزمة الداخلية الكبرى . لقد كان عمر بن مسك الصحابة في المدينة ولا يسمح لهم بمبارحتها إلى الأمصار ، حتى ضاقوا بذلك أشد الضيق ونمو نهايته ، فاذا سمح لهم عثمان من بعده ، تحول موضع الثقل الذي كانت تمثل « للمدينة » بصفوة أهل الرأي فيها ، كما ظهر جيل جديد غير جيل النبوة ، الذي أخذ ينقرض ، ومن هنا بدأ التحول واسعا في نظام الحكم وعناصر المجتمع ، واستتبع مواجهة شاملة بما يتلائم مع التغير الشامل والعناصر الجديدة وإفساح نطاق البحث وإشراك الأجناس المختلفة في الحكم والسياسة ومختلف شؤون الإجماع والاقتصاد بما يواهم مرحلة التحول والتطور والانتقال بما يبرز فيها من مشكلات وقضايا ومعضلات .

ومن هنا كان لا بد للتيار الجديد أن يمضي في الطريق الذي رسمه له للتآمر على الإسلام ، فلم يكن هناك ما يحول دون رده ، أو تعديله ، ومن هنا وقعت تلك الأحداث للتوالية للصلة التي لم تتوقف إلا بأمرين خطيرين ، هما إشداد التحول ونتيجة له : (١) نقل مقر السلطة الحاكمة الرئيسية من الجزيرة العربية إلى (دمشق) حيث الحضارة والمدنية (٢) تحول الخلافة إلى الملك المعزود بمراسيمه ومناهجه وأساليبه ممثلة في (معاوية) الذي نهج نهجا عصريا حديثا يتمثل فيه أمالوب الحاكم الناجح القادر على تركيز سلطته في وجه أنصاره وخصومه على السواء . ولكن هذا النهج الذي كان يرسم نظاما ناجحا للحكم متخلصا من قيود كثيرة والذي نهج نجاحا مؤقتا ، لم يكن هو الأمالوب الذي يتمثل مفهوم الإسلام كاملا وأن تحرك في إطاره ، فلم تلبث بعد ذلك أن ظهرت معضلة المعضلات في تاريخ الاملا م كله .

تلك هي قضية « العرب وغير العرب من المسلمين » مما يطلقون عليها قضية الموالى أو قضية الصراع بين الفرس (الموالى) والعرب . وما أثير حول ذلك ، من نتائج لسياسة الأيوبيين في مواجهة « بنى هاشم » وأهل البيت والعرب من غير قريش وغير العرب من الأجناس الأخرى ، وما بلغ من التفرقة بين العرب وغير العرب . مما كان عاملاً في تمزق الوحدة الإسلامية .

ويمكن إطلاق اسم معركة الحضارة على الموقف الذى نبت منذ تولى عثمان الحكم ، ثم تولاه « هلى » حتى معاوية . وأن أى محاولة لتصوير همان بارتفاع السن أو موالاة بنى أمية ، أو بالتماس مؤامرة همد الله بن سبأ ، إنما هي عوامل إضافية للخطر الأكبر : خطر التحول من البداوة إلى الحضارة ، أن الأمر كله كان أوسع من ذلك ، وبمنظرة فوقية واسعة يمكن أن ترى المجتمع الإسلامى وقسده اتسعت آفاقه فبلغ مدى بعيداً ، ودخلته عناصر متعددة ، من اسم وديانات وأجناس وشعوب ، وترى كيف يحاول المجتمع أن ينصهر فى بوتقة واحدة ، بوتقة إظهارها الإسلام ، وقواها حكمه ودولة ونظام جديد ، مفاهيم المفاير للنظام القديمة والسلطات الحكم الفارسية والرومانية ، وبمفاهيم جديدة ، حيث تتجمع القوى القديمة الفارقة لسلطانها فى مؤامرات للانتفاض ، وفى محاولة للقضاء على القوى الجديدة ، وقبلها تذهب « ايدولوجيا الاسلام » فى توطيد دهاها ، والدولة الإسلامية فى بناء قواهدها ، والمجتمع الجديد فى محاولة الاتزاج والتداخل ، كان هذا الصراع لابد أن يعنفو هلى السطح فى صورة هزة ضخمة طويلة المدى ، ترى أن تحقق تغييراً شاملاً قوامه : (١) الانتقال من الخلافة إلى الملك : (٢) الانتقال من الصحراء إلى المدينة : (٣) بناء نظام سياسى واجتماعى جديد ، إظهار مفهوم الإسلام ، وتمثل فى كيانه ، مفاهيم جديدة من حضارات الروم والفرس والقراهنه والبربر ، تحاول أن تنصهر كلها فى حضارة جديدة « هربية إسلامية » ووفق لغة جديده هي « اللغة العربية » وفى نطاق دولة مدنية ، فكأنما التاريخ كان يجرى وينحرك بقوة إلى دولة أوروبية هاصمتها فى دمشق كمرحلة أولى لبناء يستمر (من عام ٤٠ إلى عام ١٣٣) أكثر من تسعين عاماً . كان همد أنى يسكر وعمر هو همد بناء الدولة الكبرى ، وفتح الطريق أمام الاسلام فى إنطلاقته الجيارة ، وقد تحقق فى ظل « حكم عمر » أكبر قدر من هذا النمو والتوسع الجرى القوى . وفى ظل حكم همان تم توضع فى طرف الجناحين (الهند) و (المغرب) .

(عصر عثمان)

إنهسى عصر عمر بعد «عشر سنوات» من حكم عادل دقيق يمثل ذلك العصر العجيب ،
وتلك المرحلة الدقيقة في تاريخ الإسلام كله ، المرحلة التي تم فيها قيام «دولة الإسلام الكبرى»
على أنقاض الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية في فارس والعراق والشام ومصر. وبدأ ذلك التطور
الخطير في بناء الأمة الإسلامية : إجتماعيا وصياصيا واقتصاديا . وجاء عصر عثمان خلال خمسة عشر
عاما مختلفا كل الاختلاف مع عصر عمر وشخصيته ، فهو امتداد له ، ولكنه امتداد مغاير بحكم
الزمن نفسه وبحكم شخصية الخليفة وتصرفاته ، زادت رقة عالم الإسلام خلالها وامتدت ، وبدأت
هوامل التعمد والتغير بصورة أوضح ، فقد انتفت عناصر المجتمع الجديد ، في أقطار متعددة ، تحت
سلطات دولة «المدينة» في قلب الصحراء على بساطتها وحيث خرج الصحابة إلى الأمان فأقاموا
فيها ، وحيث ازداد الثراء وتدفق المال ، وبدأت معضلات جديدة تبعاً لذلك التطور الأجتماعي
والاقتصادي والفكري . ولم تكن آثار التغير بسيطة ، بل كانت متعددة ومعقدة ، وكانت في
حاجة إلى مواجهة تقدير شامل للموقف ، كان التطور أكبر من طاقة القيادة السياسية في المدينة ،
وفي هذه المرحلة برزت ظاهرتين خطيرتين (١) ظاهرة ستمحة كريمة ، يمثل فيها أول صوت لدعاة
العادل الاجتماعي ، تتمثل في «أبي ذر» ، (٢) وفي نفس الوقت ظهرت دهوة معارضة هنيئة مأكرة ،
هي دهوة «عبد الله بن سبأ» ، تنسكاً على اسم آل البيت في الحكم والخلافة ، وكان دهاش بن سبأ
عربياً ، فقد حاول أن يفيد من دهوة أبي ذر ، فإذا لاحظنا أن خطيرين كانا يحيطان بالموقف كله ،
هما خطر اليهود وخطر أصحاب السلطان المنتزع من الفرس ، هرفنا إلى أي مدى أمكن للموقف أن
يفضطرب ، وكيف أمكن لهذه القوى التي تريد أن تدبيل من الإسلام نفسه ، أن تتحرك وأن تفيد
من هذه الخصومة العنيفة التي تمثلت من قبل في مقتل عمر ، حين أخذت المؤامرة طريقها هادفة إلى
مصارعة القيادة السياسية الحاكمة في المدينة ، في ضوء هذا كله يمكن النظر إلى حركة عبد الله بن سبأ ،
فما قصد خصوم الإسلام ومن تابعهم من دعاة الشعبوية والتفريب إلى التقليل من شأن ابن سبأ
ودوره بل وإنكار وجوده ، فإن الاجماع منعمد على أن حركة لتأمر على الإسلام بمنزلة في أصحاب
النفوذ من الفرس أو المنامرين مع اليهود ، قد وجدت فرصتها في ظل حركة التحول الفكري والتوسع
الحضاري التي برزت في عهد عثمان بعد توسع آفاق الجماعة الإسلامية وانبساط نفوذها . ولذلك كان
اليهود والجوس : أشد خصوم الإسلام حملة عليه . فقد أطفأ الإسلام نار الحوسية بعد أنى هام وإلى
الأبد ، ودخلت فارس في عالم الإسلام وقام للسجد الأقصى على انقاض الميكل ، فكانت الحملة على

أبي بكر وعمر، وهنّان وأبو عبيدة وخالد وسعد، ولما كان خصوم الاسلام هؤلاء لا يستطيعون أن يحاربوا في جبهة مكشوفة، فلا بد من أن يدّوا هو اعتناقهم الاسلام وأن يوزعوا أنفسهم بين صفوف المسلمين يشيرون الشبهات والأحقاد، وكان شعارهم الذي وجدوه وسيلة فعّية لانتقام قلوب المسلمين هو «آل البيت». وكان عبد الله بن سبأ على رأس هذه المؤامرة «يهودياً» إذ دعى الاسلام ووالى علياً، ونقل إلى الاسلام مفاهيم اليهودية والمجوسية حين قال بتأليه علي، وقد أنكره «علي» ونفاه وأبمده، ولكنّه مضى يثد دهورته في تدرج ودعاء واستجاب له بعض الناس، وتكونت له حركة ودعاة، وفهم أهوانه أغراضه فساروا في الأقطار يحملون مفاهيمه، وقد أتاح له فرصة الخلاف إعداد نفر من الدعاة، انهبوا في البسطاط والسكوة والبصرة، عملوا على التأثير في أبناء الزعماء وقادة القبائل. فاستجاب لهم الضملاء والسكران. من هذه النقطة بدأ ذلك الخط الذي اتسع من بعد وحل لواء المؤامرة على الاسلام واستغل مختلف الأحداث، وكان مؤثراً في المواقف المختلفة، وكان لهذه الحركة أثرها في موقف الثورة على هنّان، وفي تأليب الناس عليه، وفي تزوير قصة الخطاب التي أبلغ الخلاف بين وفود الأمصار وهنّان غايته، هذا الخطاب التي كتبه باسم هنّان وأعطاه لأحد رجاله، ثم رصده من صاهره منه، فأجج الموقف ربه اندلعت نار الثورة وقد ثبت أن الخطابات التي نسبت إلى هنّان واستند إليها خصومه في أمر قتلها كانت مزورة. دعا ابن سبأ إلى الطعن في تصرفات الحكم فالتفت حوله العامة، وقد استطاع أن يعمل في البصرة وفي السكوة وفي الشام وفي مصر، وكانت كلته هي الطعن في هنّان وولائه، والدعوة لخلافة علي بوصفة ومي الرسول. ولقد استطاع ابن سبأ أن ينفذ إلى الشيخ الزاهد (أبي ذر) بأن يستغل دهورته البريئة، وينشر آراءه في مجاله ويفريه بالحكومة ويجرضه على الأغنياء، وكان يملن في كل مصر وقطر: «هذا على وصي الله فانهضوا في هذا الأمر وحركوه وابدأوا بالطعن على أسرائكم»، وقد وجد في مصر مرئياً خصبياً. وكان ابن سبأ من يهود اليمن، ادعى الاسلام وقرأ كثيراً من التوراة وخطبها ليعلمها بالقرآن، وأدخل إلى مذهبه مفاهيم الفرس القديمة المتمثلة في خطط المجوسية، فلما اشتدّ مساعد دعائه في هذه الأقطار ونما ذلك التيار بالخصومة على هنّان، وجه الثوار إلى المدينة من كل قطر وذهب هو من خلفهم يدير لهم الخطط ومن ثم استطاعت حركة ابن سبأ أن تزعزع السلطة السياسية الإسلامية. ولا شك أن كان هناك أرباباً واتصالاً بين موقف الهرمزان وأبي لؤلؤة، ومن وراءهما أممات كثيرة أرتفعت أهلاؤها. عبد الله بن يسار، وأبو بكر السكروسي ورشيد الهجري، ومحمد بن أبي زنب وضيقان الطائي وجهم بين صفوان وهشام بن الحكم وأبو سالم الجواليقي، والأحوص أحمد بن اسحق القمي

وكثيرون ، هؤلاء كانوا من أولياء الجوسية الحاقدين على الإسلام ، كانوا يأخذون على الإسلام أنه أخضع الدولة الفارسية للإسلام وأطاعوا نار الجوسية وأقام المسجد الأقصى على أنقاض الهيكل ، وكان الهدف هو التخلص من زعماء الإسلام وأئمة ، فانخرطوا بدعوة إعتناق الإسلام لتنفيذ المؤامرة ، ولم يجدوا فسكرة يقتسمونها ويحاربون في ظلها ، إلا فسكرة آل البيت التي نجد من جواهر الناس عطفاً وتمر مشاهير وأحاديثهم ، وقاد الحركة جيمها « عبد الله بن سبأ » ، الذي كان يقول في يهوديته : أن يوشع بن نون هو وصي موسى ، فلما أسلم قال أن علي بن أبي طالب هو وصي محمد ، وهناك إجماع على أنه أول من أشهر القول بإمامة علي وأظهر البراءة من أعدائه ، ولقد هارض الإمام علي كرم الله وجهه قوله ابن سبأ ولعنه ، وطارده ونفاه ، وأنكر دعوته في مختلف خطبه على منبر الكوفة وفي قوله « خير هذه الأمة بعد نبيها : أبو بكر وعمر » وقد روى ذلك عنه من ثمانين وجهاً ورواه البخاري .

وقد بلغ من دهاء ابن السرداء ، أن كان يبيت دعوته في كل مكان على وجه مختلف زيادة في التأمر على صحابة رسول الله ، فمكان يبيت في جماعة القساطر الدعوة ليلي . وفي جماعة الكوفة الدعوة لطلحة ، وفي جماعة البصرة الدعوة للزبير ، وهو الذي زور الكتاب على عثمان إلى حاله بمصر ، بدليل أن حاله كان يترأى لهم متممداً ثم يتظاهر بأنه يكتم عنهم لينير ربيهم . وفي اعتقادي أن هذا هو مصدر الأزمة السنية التي واجهها النظام الإسلامي في هذه الفترة ، هذه الأزمة التي أودت بعثمان ثم علي ، والتي قسمت للمسلمين وأرقت بهم ذلك الصراع الرهيب حتى استشهد الإمام علي .

أما ما نسب إلى عثمان من أمور تتعلق بإمرائه في تقريب أهله ، أو إعطائهم وإعطاء مائليه فتلك أمور لا تؤدي إلى مثل هذه المؤامرة الضخمة ولا تدفعها إلى هذا النحو الخطير البالغ الأحكام من حيث التأمر والتنفيذ ، ولا شك قد مهدت لذلك عوامل التحول التي واجهها المجتمع الإسلامي في مجال التطور والانصباب .

فقد كان عصر عثمان عصراً جديداً تفتحت فيه آفاق الثراء وتدفقت فيه الأموال وإن ما حدث من تحول هو تحول طبيعي بدأت بوادره في أواخر عهد عمر ، وإذا كان لكل عصر من عصور الخلفاء الراشدين طابع ولون يستمد من العصر ومن مقومات شخصية الخليفة نفسه ، فإن عمر كان مظهر الزهد بينما كان عثمان مظهر الثراء والعطاء ، ولقد أهمل عثمان من ماله وأنفق ، ولم يعط أهله فقط بل أهمل الجميع ، وقد كشف عن مفهوم الإسلام وسماحته بالنسبة للحضارة والتخلص من البداوة .

الامام على

وقد استطاع ابن سبأ أن يذيع نظرية دخيله على مفهوم الاسلام هي نظرية الحق الالهي والوصاية حين قال : (إن لسكن بني وصيا ، وأن علياً خاتم الأوصياء ، كما أن محمداً خاتم الأنبياء) وهي نظرية فارسية أصلاً ، ومعناها أن علياً هو صاحب الحق الأول في الخلافة ، وقد تصدى « علي » لجموع الزاحفة على المدينة وكشف لهم عن خطأ ما ذهبوا إليه ومخالفته لجوهر الاسلام وما يؤدي اليه من إضغاث لوحدة المسلمين ، وواجه عثمان الثاثيرين بما أقنعهم بسلامة موقفه ، حتى أنهم قتلوا راجعين وأحسن أن ابن سبأ أنه أوشك على الهزيمة ، وأن الهدف الذي يعمل له سنوات قد فشل ، هناك إهتدى إلى « الحيلة » ، فاختلق قصة الخطاب وروى أن الثاثيرين رأوا رجلاً يمشي على بعد منهم ، وأنه حاول أن يختفي عنهم أو يخفي شيئاً في ثيابه ، فشكوا في أمره فلحقوا به وقبضوا على وقتلوه فوجدوا معه خطاباً عليه خاتم عثمان وفي الخطاب أمر إلى وآلى مصر أن يقتل هؤلاء الثاثيرين ، هناك جاشت الفتنة مرة أخرى وعاد الثوار إلى المدينة ، وقد أقسم عثمان أنه لم يكتب وثبت من بعد أن هذا الخطاب زوره عبد الله بن سبأ ، ولكن عثمان قتل وهرعت الجماهير إلى « علي » تباعه بالخلافة : وقال « علي » : أن هذا الأمر ليس لسكن ولكن لأهل بدر . وبدأت سنوات « علي » الحسة في الحكم مصيبة مضطربة . كان « علي » إشتداداً لحكم أبي وعمر ، بيد أنه كان بينه وبين ذلك خسة هشر طاماً وأحداثاً وتطورات ، ولم تكن مفاهيمه المثالية وفلسفته الأصلية قادرة على أن تمضي في الطريق .. إذ كانت مفاهيم المجتمع الاسلامي قد تطورت وتبلورت في صورة أخرى خف فيها طابع الإيمان الخالص فبدأ « علي » وكأنه غريب عن مجتمعه وكان « معاوية » أكثر قدره على العمل منه ، وصر « علي » بذلك المضطرب في مبارك ثلاث : مع الصحابة وعائشة ومع شيعته والخارجين عليه ومع معاوية كان ينتصر في كل موقف بالحق ، ولكن التحول النفسي والاجتماعي كان يكشف عن أنه غريب عن أساليب السياسة ، كان يعمل في ظل « المثل العليا للإسلام » وكان التطور يفرض غير ما يريد فلم تكن نهايته إلا انتملاً لانطواء منهج قد بعد عنه عصره ، وأسلوب قد مضى زمنه وكان معاوية إعلناً لتطور جديد في الخلافة والحكم والملك . كانت قضية مفهوم السلطة السياسية العليا في الإسلام هي أولى المضكلات التي واجهت المجتمع الاسلامي ، فكانت مصدراً لظهور « حركة المخارضة » التي تمثلت في أكثر من فرقة أو حزب : أبرزها دعاة المثل الأعلى (الخوارج) ودعاة العساطفة (آل البيت) ذلك أن الإسلام لم يرسم في مجال الحكم والقيادة نظاماً محدداً ، تقديرآ لتطور الأمم

وتحول العصور . ولكنه وضع « مقومات أساسية » هي : الشورى وحق اختيار الشعوب لحكامها ، دون أن يكون هذا الحاكم من جنس معين ، أو دم معين ، وأن ينصب هذا الحاكم ما ارتضاه الناس ولو كان عبداً حبشياً . لذلك لم ينص الرسول نصاً صريحاً على من يخلفه ، وكان اختيار أبى بكر اختياراً طبيعياً قريباً إلى منطق الأمور وتطور الأحداث ، فهو صاحب رسول الله وأول المؤمنين به ، وأكبر الصحابة خبرة ، وذكاء ، وقد كانت مواقفه في خلال عامي ولايته غاية في الجسم والقوة ، فقد واجه « الردة » بمفهوم تابع به مقومات الإسلام ووحدة المجتمع الاسلامى ، كما دافع المؤامرة على الإسلام ووسع نطاق عالم الإسلام ، وكان اختياره لعمر من بعده مرضياً عنه من جلة الصحابة والمسلمين وكان امتداداً طبيعياً .

وجرى اختيار عثمان وفقاً لخطة دقيقة ، ثم اختار المسلمون علياً . وحين عقد أبو بكر لعمر ، لم يكن مستتباً برأيه ، بل استشار الصحابة فيه فأنشأ عليه وأقرأ رأيه في استخلافه ، وهو لم يرغب جماعة المسلمين على قبوله ، وبذلك كان اختيار الخلفاء الراشدين الأربعة انتخاباً حراً شورياً ، غير أن توسع « المجتمع الإسلامى » في ظل عمر ، وافتتاح الجزيرة العربية على عالمي الامبراطورية الرومانية والفارسية الخاضعين لعالم الإسلامى ، قد خلق مضطربة سياسية واجتماعية واقتصادية ضخمة ، امتدت أواخر حكم عثمان وخلال حكم على ، وانتهت بتحول في نظام الحكم وفى مكان سلطة الحكم جميعاً وأصبح « معاوية » رأس للتنظيم السياسى فى الدولة الإسلامية ، بعد خلافة الراشدين يمثل مرحلة جديدة من النظام والحكم أقرب إلى نظام الملك المضود منها إلى نظام الخلافة الجمهورى ، ومن هنا بدأ « نظام حكم » مستقر فى وضع ورأى ، يتمثل فى ولاية العهد . وقد التمس المؤرخون والباحثون فى تاريخ الإسلام لمعاوية هذا فى هذا فى هذا الإجراء ، ومنهم من عده تطوراً طبيعياً للأمر ، فقد كانت الأحداث المتوالية التى قضت بقتل الخلفاء الثلاثة (عمر وعثمان وعلي) تتطلب إجراءات جديدة حاسمة ليس لها طابع بساطة نظام الحكم فى المدينة ، مع تعقد الأمور ، واتساع الدولة ، وتعدد العناصر ، فهو فى نظرم اتجاه ضرورى فرضته الظروف والأحداث التى واجهها المجتمع الإسلامى إذ ذاك .

ولاشك كان أبرز تحول فى منهج السياسة الإسلامية العليا هو إقرار الحكم فى أسرة بالتوارث ، ولاشك فى رأينا كان لهذه الظاهرة دوافعها وضرورتها ، وكان لها أخطارها ومضارها وأثارها السلبية . لقد بدأ الإسلام جمهورياً شورياً ، يفتح الفرصة لاختيار الخليفة وانتخابه ثم تحول إلى نظام

ولاية العهد ، ووراثة الملك تحت ضغط ظروف معينة كانت تواجه (معاوية) أول من سن هذه السنة ، فقد جاء معاوية عقب صراع عنيف ، تشققت فيه فرق وخلافات ، وتعرضت فيه الدولة الإسلامية للخطر الشديد ، فضلاً عن أن نظام الدولة كان قد تحول تحولاً واسماً من الخلافة ، إلى الملك المضروب ، هنالك رأى معاوية ورأى من معه أن يأخذ بنظام ولاية العهد إبقاء على فترة استقرار أطول ، ثم توألى هذا النظام من بعد ولم يعد هناك مجال لتغييره . وقد حقق هذا النظام باستقراره نتائج كثيرة في مجال النمو الحضارى والاجتماعى والاقتصادى ، غير أن هناك عاملاً هاماً ظهر فيها بعد ، هو قيام الأنظمة الاستقلالية ، والحكومات التى يستقل أمرؤها بقطر أو بآخر ، حين يبرز فيها واحد من « بناء الدول » فيسيطر على الحكم ويمثل الولاء للخليفة ، بل أن (بغداد) نفسها عاصمة الخلافة قد تعرضت من بعد لذلك ، حين ظهر نظام السلطنة ، وحيث قام بالحكم « سلطان » نيابة عن الخليفة نفسه ، وقد كان لهذا النظام الإستقلالى نتائجها الهامة والضرخمة في نمو الحضارة وبناء الدول ، فقد كان كل حاكم من هؤلاء الحكام حريصاً على أن يعمل ماوسمه العمل في سبيل إلهاض الأمة التى وليها ، وتقريب العلماء وتشجيع للفكرين ، وإن لم يطل عمر هذه الدول أو تستمر كثيراً ، فقد كانت تعطى صفحاتها أحياناً بانتهاء بانيتها ، فهى ما تسكاد تدخل في نظام ووراثة الملك حتى تدخل في مرحلة الضعف ، ثم تتلاشى لتفرم غيرها مكانها ، وأحياناً كان الذين يولون الحاكم الأول أكثر منه قوة ونهضة ، وربما زادوا عما قدمه سابقيهم ، ولكن هذه الدول كلها ظلت تبرز وتتألق وتختفى وتخل محلها دول أخرى ، في مختلف أنحاء العالم الإسلامى منذ توقفت حركة التوسع ، وفى ظل الدولة العباصية ، وما بعدها في العصر العباسى ، ومن حق أن ظهور الدول الاستقلالية كان أمراً طبيعياً لا بد منه ، لاتصاع نطلق الدول الام وتباعد الأقطار عن مقر السلطة وأنه كانت له آثاره من بعد من تبرز الوحدة الإسلامية ، غير أنه لم يكن ممكناً أن تظل الوحدة للتمثلة في إطار الدولة قائمة طوال القرون أذى على أساس سليم يظمن مفهوم الاسلام ، لانهز في مشكلات الصراع بين عناصر المسلمين ولا تستفحل : لقد حقق قيام الدول للاستقلالية المتمدة إلى نتائج إيجابية في شأن الحضارة وفى منح العناصر الإسلامية المختلفة الحقوق الحكم .

ولكنه أضف مركزية الدولة والوحدة الإسلامية الشاملة وبذلك مهد للفرد الخارجى وضرب مركز القيادة وفيه : زحف الصليبيون على الشام والنصار على العراق والفرنجية على الأندلس والغرب . ويرى بعض الباحثين أن نظام الحكم الذى بدأه معاوية (نظام الملك) كان تطوراً طبيعياً من النظام

القبلى ، وأنه لم يكن من البسير قيام نظام جمهورى إنتخابى لهذه المساحات الواسعة من دولة الاسلام ، وأن نظام الشيعة إنما كان يتمثل فى الملكية فى آل البيت وأن كل الدعوات كانت تحمل لواحد من الحكم فى بيت وسلاطه (ما هذا الخوارج بالطبع) .

حركة المعارضة

يمكن أن يطلق على الفرق والدعوات التى وقفت فى وجه الدولة الاسلامية التى كانت تمثل القيادة السياسية للعالم الاسلامى (الخلافة الراشدة ، الدول الأموية ، الدول العباسية وما رافقها من دولة الأمويين فى الأندلس والدولة الفاطمية فى مصر وغيرها) هذه الدعوات والحركات - فيما هذا حركة المؤامرة على الإسلام ومؤامرات طلاب الحكم - كانت تتصل بمفهوم من مفاهيم الإسلام ، العدل الاجتماعى لنظام الحكم ممثلاً فى حركة (أبى زر) ، للمساواة ممثلة فى حركة اللوالى ، للعدل الأعلى لنظام الحكم ممثلاً فى حركة الخوارج ، فخير أن الحركات كلها لم تلبث أن انحرفت عن مفهومها ، حين حاولت فرض مفهومها بالقوة ، عن طريق حركات الانقلاب أو الانتفاض على الدولة ، أو الانضواء تحت لواء خصوم الإسلام وللتأمرين عليه ، لقد أسرف هؤلاء جميعاً فى مقاومة الدولة القائمة ونسوا أنها تمثل السكان السياسى الأكبر للإسلام وأن الانتفاض عليها من شأنه أن يفرى بالإسلام خصومة من خارج نطاق عالم الإسلام ، وهو ما وقع بالفعل بعد أن اتصلت هذه الحركات والنصير بعضها فى حركة المؤامرة الضخمة على الإسلام التى تمثلت فى القرامطة ، والاسماهيلية ، والباطنية وغيرها . وكان أخطر ما بلغت هذه الحركات هى إصطناع مبدأ الاغتيال واستحلال قتل مخالفينهم من المسلمين ويجب أن نفرق هنا بين حركات المعارضة للحكم وبين حركات المؤامرة على الإسلام ، وبين فرق الشيعة والمعتزلة والخوارج وهى فرق مجتهده بما تراه من حق ، وبين فرق المؤامرة على الإسلام التى التفت لها ستاراً من الشيعة الغالية .

ويمكن أن يقال أن صراعاً قد برز بين الحضارة (الحكم والسياسة والمجتمع) وبين المثل الأعلى للإسلام وأن هذا الصراع تمثل فى طلاب العدل والمساواة (أبو ذر والخوارج) .

وأن هناك صراعاً بين طلاب الحكم بحق الروابط التى تنصل بآل البيت وبين من يرون لأنفسهم حق الولاية ، وهناك فريق دعاة النقد الاجتماعى وكشف هيوب الحكام والمجتمع (حسن البصرى) وهناك قول يكاد يصل إلى الاجماع هو أن حركة دعاة المساواة (الموالى) كانت رد فعل لملوك الدولة الأموية فى تمثيل السيادة العربية ، مما أدى إلى قيام صراع بينها وبين المسلمين من غير العرب من

أطلق عليهم الموالى ، هؤلاء الذين كان مفهوم الإسلام وفق أصوله - يعطيهم حق المساواة مع غيرهم . ويرجع المؤرخون ذلك إلى أن طابع الدولة الأموية كان عربياً غالباً في العروبة ، حتى أنهم فرقوا بين العرب ومن دخل الإسلام من العناصر الأخرى ، وكان أغلب هؤلاء الموالى فرساً ، وقد كان لطلاب الملك من الفرس قضية ارتبطت بمقتل عمر ابن الخطاب ، مصدرها حق الطبقة التي كان يبيدها النفوذ والسلطان ، فضلاً عن طابع النظرة الفارسية القديمة إلى العرب بوصفهم أصحاب حضارة والعرب أصحاب بداءة ، وقد توالت الأزمة التي عاشت أيام هبّان وهلى وكان موقف بعض الفرس فيها يحمل طابع الحقد على العرب لأنهم سيطروا على دولتهم ، وفي رأى الفرس أن الإسلام هو الذى أعطى العرب هذا الامتياز ، ومن هنا بدأت حملتهم على الاسلام نفسه وقد صاحب هذا الاتجاه موقف الأمويين من الموالى فارتبط به على نحو من الأنحاء .

والحق أن موقف الإسلام من للموالى كان واضحاً صريحاً ، وأن مخالفة هذا للمفهوم كان مصدر « الأزمة » التي وقعت بين العرب والموالى والذي أودى بالدولة الأموية ، فقد كان للموالى دورهم في زهزة بنائها في سبيل قيام نظام يحقق لهم المساواة ، ولقد كان مفهوم الإسلام أن يحكم المسلمون عرباً وغير عرب ، وأن لا يقتصر السلطان على العرب وحدهم ، وهذا ما حققه تطور الأمور في العصر العباسى . وللموالى هم خليط من المسلمين الذين كانوا موالى لمن أعنتهم ، أو أهل الأمصار الذين أسلوا وانضموا إلى العرب ونحالفوا معهم فأصبحوا موالى بالخلف ، وقد كانوا يمثلون الأيدي العاملة في الدولة ، وبما يذكر لهم أنهم كانوا أداة الجيوش ومادتها ، وأنهم قاموا بدور ضخم في توسيع عالم الإسلام وأنهم صدقوا الله اسلامهم وقدسوا أرواحهم خالصة في حركة الجهاد المقدس وفي للمعارك المتوالية التي استمرت ردحاً طويلاً خلال حكم الدولة الأموية ، كما أتيج لهم أن يسيطروا على الحياة الاقتصادية ، غير أن الأوضاع التي فرضها الاستعلاء بالسيادة العربية تركت في أنفسهم كثيراً من الجروح والندوب ، فأحسوا بفوارق مختلفة لا يقرها مفهوم الإسلام نفسه ، وهذا المفهوم الذى سوى بين العرب وغير العرب تحت لواء الإسلام الذى فرض للقيادة السياسية الحساسة أن يحقق هذه المساواة ، وفي حكم عمر بن الخطاب بدا هذا المفهوم واضحاً وهو يوضع موضع التحقيق .

وقد كان من نتائج هذا ، قيام ثورات مختلفة متعددة للموالى على الحكم الأموى ، وقد أدى ذلك إلى انفضاء طائفة من المجتمع الإسلامى إلى خصومه وإلى حركات التأمر على الإسلام ، كما انضموا إلى الخوارج ، والشيعة ، وإلى كل منتفض على الدولة ، حتى تجملت الشيعة والخوارج والموالى على هدم

الدولة الأموية ، ولا شك كان سقوط الحكم الأموي ، وقيام الحكم العباسي إنتصاراً للموالى ، فقد حقق لهم العمل على قدم المساواة مع العناصر الإسلامية الأخرى ، ولقد إعد المؤرخون مواقف الأمويين من الموالى واستغلالهم بالسيادة العربية ، من أكبر الأسباب التي أدت إلى سقوط دولتهم ، غير أن أخطر النتائج التي أدت إليها حركة الموالى التي في ذلك التحدي الذي فرض اتصال بالموالى بالفرس النافقين على العرب ، إنما كان ظهور موجة الشعوبية العاصفة المنحرفة التي بدأت أول أمرها تنادي بمساواة العرب والموالى التي تطورت في العصر العباسي فصارت تنادي بأن الفرس أرفع درجة من العرب ، ومن الحق أن يقال أن شعور الاضطهاد الذي أحس به الموالى كان عاملاً هاماً لها من الموامل التي دفنهم إلى المشاركة في حركات التآمر على الإسلام نفسه رغبة منهم في إسقاط الدولة الأموية .

دعاة المثل الأهلى (الخوارج)

وكان « دعاة المثل الأعلى » أبرز من حلوا لواء المعارضة للسلطة السياسية ، كان الخوارج يمثلون مفهوم الخلافة الحق ، الخلافة الديمقراطية التي لا تنقيد بقرش ولا بآل البيت ، وقد صاغوا من المثل الأهلى الإسلامى « نظرية » دافعوا عنها ، وبلغوا في حساسة الدافع عنها حد العنف وسفك الدماء ، وهم في نظريتهم لا يقبلون مفهوم الواقع المتطور ، ولا الواقع الجارى ، ولا النظرة العميقة لمفهوم الأحداث وتطور الأمم ، ولو لم ترتبط فلسفة الخوارج بالانتفاض على الدولة والمقاومة الدموية ، لظلت تمثل جانب المثالية في الإسلام في مواجهة الدولة التي كانت في الأغلب نظاماً سياسياً يدور في إطار الإسلام ولا يطابق مفهومه تمام المطابقة . كانت أيولوجية دعاة المثل الأهلى أن تكون الخلافة شورى بين المسلمين ، لا يقبلون مبدأ الوراثية ، ولا حق قرش في الخلافة ، وقد حدد الخوارج موقفهم في قضية الخلافة فقالوا : أن الإمامة قد تكون في غير قرش ، ويجب ألا ينظر في اختيار الإمام إلا لتوافر الكفاية والعمل واجتناب الجور ، فشكل من أسس فيه المسلمون هذه الاخلال فلم أن يولوه الإمامة ، ومن خرج عليها وجب اعتباره عاصياً ، وأن غير الإمام السيرة وعهد من الحق وجب عزله ، أو قتله كما أنه يجوز أن يكون الإمام عبداً وحرأ ، قرشياً أو غيره .

وقد ظل الخوارج أشد الفرق الإسلامية معارضة لقيام الأمر والحكم الموروث وأشدّها مقاومة للملك الجائر ، ولم يفت أمرهم عند وضع النظريات بل ذهبوا في تطبيقها أبعد مدى وهرف لهم أبطال وأدب ومواقف متعددة ، وتاريخ طويل إمتد خلال حكم الأمويين والعباسيين فقد شهروا

الحرب على الدولتين ، ولبثوا يقاومونها زهاء قرنين وكانوا مثلاً عالياً في الجرأة والمخاطرة ، غير أن أبرز ما يؤخذ عليهم أسرهم في سفك الدماء ومقاتلتهم في قتل الأطفال والشيوخ والنساء .

دعاة العاطفة (آل البيت)

يمثل مفهوم آل البيت : « العلويون ، الشيعة » الانبياء المرتبط بالرسول ﷺ وآل البيت وهي دعوة العاطفة العميقة التي ملأت نفوس المسلمين بحب رسول الله وآل بيته في ظل مفهوم القرآن « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » . وكان حقاً لهذه الدعوة أن تنقسم في مجال رد الفعل لما واجهت من تهدي ، هذا التهديد الذي تمثل في امتناع النبي ﷺ وخليفته أبي بكر وعمر عن إعطاء سلطات سياسية أو قيادات حربية لأحد من آل البيت (آل علي وآل العباس) ويتصل بهذا ما أورده المسعودي من حوار دار بين عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس جاء فيه قول عمر : « إني رأيت رسول الله استعمل الناس وترككم » فقال عبد الله : « والله قد رأيت من ذلك ، فلم تراه ، قال عمر : « والله ما أدرى أضن بكم من العمل فأهل ذلك أنتم ، أم خشى أن تبايعوا بمنزلكم منه » ومما يروى في هذا من أن علياً والعباس قد التقيا في مرض النبي ، قال العباس لـ علي : أنت بعد ثلاث عبد المصطفى وأن رسول الله ﷺ سيتوفي في مرضه هذا ، وإني لأعرف للوثة في وجوه بني عبد المطلب ، فذهب إلى رسول الله فأسأله فيمن يكون هذا الأمر ، فإن كان فينا هلنناه ، وإن كان في غيرنا أمره فأوصي بنا ، فقال علي : « لئن سألتها رسول الله فنعنا إياها لا يعطينا الناس أبداً » ويتصل بهذا ما كان من أمر اجتماع السقيفة حيث دار الحوار بين الأنصار والمهاجرين حول أمر الاختلاف بعد النبي : « وافق علي أن يكون للمهاجرين هم الأمراء والأنصار هم الوزراء ، وبايع عمر بن الخطاب وأبو عبيدة لأبي بكر . ثم ما كان من أمر علي وتردده في البيعة ما يقرب من ستة شهور وما وقع للمعدة فاطمة بنت النبي حين قصدت خليفة رسول الله أبا بكر تسأله في أرض لرسول الله في فذلك وما أجابها به أبو بكر حين قال : أنت معاشر الأنبياء لا يورثون وما تركوه صدقة . من هذه الصور يتمثل الانبياء التي كون موقف دعاة العاطفة الذين أحسوا بآل البيت وهم مبعدون بعد رسول عن مكان الحكم ، وإن لم يبعدوا عن مكان الصدارة ، فقد كان علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس هم أبرز قادة الفكر الإسلامي في هذه الفترة . وفتناء للسليدين : حتى كان يقال « قضية ولا أبا حسن لها » . قد امتدت هذه الصورة وانسم نطائرها حين اخير عثمان بعد أبي بكر وعمر ، وكان علي في

مقدمة للرشحين ، وما روى في شأن ذلك من آراء . وروايات لا حد لها ، من أبرزها ما قبل من أن الصحابة كانوا قد ضاقوا بنظام حكم عمر ، وخشوا علياً أن يكون استمراراً لهذا الحكم ، وتعلموا في هتان طاباً أقل شدة وأكثراً انطلاقة نظراً لارتفاع سنه ، واختلاف طبيعته ومفاهيمه عن « عمر » الشديد الخازم .

فلما جاء دوره بمسد هتان كان المجتمع الإسلامي قد بلغ غاية من الاضطراب ، وقد هلت فيه صيحات وتنافعت قضايا ، وتفرق الصحابة في الأمصار ، ووقع الخلاف بين جماعة للسدين ، ثم وقع الخلاف بين علي وشيعته ، ثم وقع الخلاف بين علي ومعاوية ، ثم كانت نهايته تلك الازمة الأليمة ، وما كان من تنازل ابنة الحسن لمعاوية عن الخلافة ، ثم كان خروج الحسين ومقتله بيد ولاية الأمويين الذين كانوا قد جعلوا السلطة الإسلامية العليا توارثاً في بينهم ، هنالك وفي خلال هذه الظروف تكونت جماعة « دعاة العاطفة لآل البيت » قوية عنيفة ، تناهض نظام الدولة القائم ، وتحاول أن تدبيل منه بالثورات والانتفاضات ، حتى بلغت من بعد مباحها « حركة ذات فلسفة ومفاهيم » تطعنها بطابعها .

وقد حاول خصوم المسلمين والمتآمرين عليه أن يندسوا في رحاب هذه الدعوة وأن يحملوا لوائها حتى دق الفارق — في فترة من الفترات — بين دعاة العاطفة المحيين لآل البيت وبين للتآمرين على الإسلام ، هؤلاء الذين كانوا دائماً يحملون لواء آل البيت وبدعون باسم آل علي أو أبناء فاطمة . وقد واجه دعاة العاطفة خصومة الأمويين ، حتى إذا شاركوا في محاولة القضاء عليهم ، كان أبناء عمهم (العباسيون) الذين ولوا الحكم أشد هتفا في معادلتهم والخصومة معهم ، ولسكنهم استطاعوا من بعد أن يقيموا الدول : في فارس (البويهية) وفي المغرب (الدولة الفاطمية) التي امتدت من تونس إلى الشام والحجاز واستمرت ٢٦٠ عاماً . ولقد أقام آل البيت « الشيعة » : أتباع علي وبنيه ، مذهبهم على أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ويختار القائم بها بل هي متصلة في آل البيت وأبناء علي وقد اعتندوا في فكرهم ومفاهيمهم على أحاديث الرسول صحت عندم تعطى فلسفتهم جنودها الأسامية ، وقد ظلت فكرة آل البيت هدفاً يلتصق كل من يطلب الانتفاض على الرئاسة السياسية القائمة يلتصقها وسيلة لاستهواء الناقين والبسطاء والساخطين .

دعاة النقد الاجتماعي

انتقلت القيادة الإسلامية من المدينة إلى دمشق من البداية إلى الحاضرة ، كان الاتجاه إلى الشمال وإلى مواطن الحضارات تطوراً طبيعياً لمقر القيادة الإسلامية ، كما كان التحول من جمهورية الراشدين إلى نظام الملك تطوراً طبيعياً لنظام الحكم ، وكان قيام دولة عربية حاضرة القيادة والسلطان تطوراً طبيعياً بعد أزمة الخلافة ، كان هذا كله انتقالاً طبيعياً في مجتمع متعدد الأجناس والعناصر في مرحلة تفاعلها وتبلورها وانصهارها ، في محاولة صياغة فكرها من جديد في إطار الإسلام ، لم يكن من الطبيعي أو المعقول أن يتحقق المثل الأعلى الإسلامي في هذه المرحلة المبكرة ، ولذلك فقد كان النظام السياسي محاولة لتمثيل مفهوم الإسلام وأن لم تبلغها أو تحققها ، لقد كان الإسلام أيديولوجية إنسانية شاملة للناس كافة في كل عصر ومصر ، وصلاحيتها مستمرة ، وقدرتها على الالتقاء بالحضارات والأمم والأجناس والأقطار مفتوحة طبعاً ، ولقد كان من شأن النظام السياسي الإسلامي أن يحاول مجتهداً أن يقترب من هذه الأيديولوجية وأن يتناول إلى تطبيقها ، غير أنه لم يستطع ذلك على نحو يرضى الفقهاء والمفكرين والأئمة ، فقد طفق دعاة النقد الاجتماعي وطلاب المثل الأعلى لا يكفون عن التوجيه والنصح . كان طابع الملك يحمل في طبيعته الاحتجاب عن الشعب بالإضافة إلى نحو الحضارة وظهور نظم القصور وطوايع الترف والثراء ، مع وجود الطبقات السكادحة الفقيرة . مما جعل الفقهاء ودعاة النقد الاجتماعي على مواجهة الخلفاء والأمراء ، ويمكن أن يقال أن «أباذر» من دعاة النقد الاجتماعي غير أن أبرز مثل لذلك هو الحسن البصري ولم تكن ذهوة الحسن معارضة للقيادة السياسية ولكنها كانت نقداً اجتماعياً يتصل بمحاولة تصحيح مفاهيم المجتمع نفسه في ظل موحاة الترف والتفان والانحلال التي أخذت تفتحها في أواسط العصر الأموي ، وكانت علامة على نزعة الزهد التي كانت رد فعل للترف ومحاولة من بعض المثاليين لاهتزال المجتمع . وقد كان العلماء والأئمة والمفكرون على طول التاريخ الإسلامي قادرين على رد المسلمين إلى المفهوم الصحيح للإسلام ومقاومة الانحراف الفكري والاجتماعي ، هؤلاء الدعاة والمجاهدون ونقاد المجتمع الذين هارضوا دائماً الانحراف ، ومنعوا العامة أن يجرها الترف أو التفان أو الانحراف ، وقد كانوا عاملاً سياسياً في بناء الإسلام والحفاظ على أيديولوجيته من أن يضاف إليها ما يغير مضمونها أو يحول طابعها . فقد بذلوا جهداً ضخماً في المحافظة على خصائص الأمة ، واتصال حياتها الروحية والفكرية .

ولقد غل تيار الإصلاح الإجتماعي قادراً على مواجهة خطر للادية الجارفة والأخطاط الخلقى والروحي ، وإذا كان قد عرف الحسن البصرى ومدرسته : سعيد بن جبير ومحمد بن سيرين والشعبي ، فقد حفل تاريخ الاسلام بهؤلاء الدعاة في كل عصر ومكان في عالم الاسلام وكان منهم كثيرون يؤمنون بالعمل الخالص البريء من الدعاية والشهرة . والظاهرة الواضحة أن هؤلاء جميعاً كانوا من دعاة المساواة (للولي) وقد عملوا وفق منهج واضح ، قوامه : الحث على الايمان والعمل الصالح والتحذير من غرور النفس ومهاجمة للعرف ، وكان الحسن البصرى وصفوه من هؤلاء الدعاة يصدهون بالحق في شجاعة أمام رجال الحكم ، لا يخشون في الله لومة لائم ، وقد اتسق مفهوم هؤلاء القادة السياسيين مع نقاد المجتمع فأولوم تقديرنا ، وسارع كثيرون منهم إلى هؤلاء الناقدين بطلبون نصيحهم ، وكان محمد ابن سيرين والحسن البصرى والشعبي في نهاية القرن الأول وأوائل القرن الثاني في مقدمة العاملين وبما يروى في ذلك أن عمر بن هبيرة الفزاري ولي العراق ، في أيام يزيد بن عبد الملك ، قد دعا الحسن البصرى ، وصاحبيه ، قال الحسن يا ابن هبيرة خف الله في يزيد ولا تحف يزيد في الله ، أن الله يمنك من يزيد ويزيد لا يمنك من الله ، وأوشك الله أن يبعث إليك ملكاً فيزيك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينحبك إلا عملك ، يا ابن هبيرة : أن الله قد جعل هذا السلطان ناصر الدين الله وعباده فلا تترك دين الله وعباده لسلطان الله فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . وفي هذه الفترة واجه تاريخ الاسلام حدثاً من أبلغ أحداثه ذلك هو تولى « عمر بن عبد العزيز » الخلافة خلال هامين ونصف بين سنوات حكم الأمويين ، كانت غريبة غاية الغرابة ، أراد عمر خلالها أن يعود بالناس إلى « منهج عمر بن الخطاب » وكان ذلك هسيراً عليه كل العسر ، وكان سبباً في القضاء عليه ، حقاً ، لقد استطاع أن ينشئ للمجتمع قبا جديدة تقترب من « المثل الأعلى للاسلام » ولكن المجتمع الذي استجاب للتحويل السريع العميق ، لم يكن قادراً على حاية الخليفة الذي جمع بين صفة للقائد السياسي والداعية الإسلامي . كان مخطط عمر بن عبد العزيز مغايراً للخط الذي قطعه الحضارة ، كان محاولة لتقريب النظام السياسي من مفهوم الاسلام ومقوماته ، غير أن ذلك لم يكن يسيراً بالقدر السكافي في فترة حكمه القصير ، وربما استطاع أن يصل إلى شيء من التحول لو طال به العمر — ذلك أن للحضارة موج دافع لا يتوقف ، ولحركة التطور مراحل لا تتراجع ، ولم يكن من اليسير تغيير خطها بعد اندفاعه خلال جيلين أو ثلاثة إلا بمجهود زمني واسع لم يتح له ، غير أن عمر بن عبد العزيز ترك صفحة مضيئة مشرقة مازالت حتى الآن تهز المؤرخين والباحثين ، وترك آثاراً هامة فقد حمل لواء الدعوة الاسلام على نحو رائع أدخل أعداداً ضخمة من أهل عالم الاسلام نفسه ، فقد رفع الضرائب

عن الداخلين في الإسلام ، وأعلن أن الله لم يبعث محمد جابيا بل بعثه داعيا ، كما أرسل الولاة الممتازين إلى المغرب والأندلس على النحو الذي حقق تعميق الإسلام واتساع نطاقه ، وأجرى الحوار المفتوح مع طلاب العدل والمساواة حتى أوقفهم وأنهى صراهم مع الإسلام وعقده وكان دورة ليس في توسيع الإسلام بل في تعميقه ، وليس في بناء الدولة بقدر ما كان في بناء الفكرة والعقيدة وقد دعمه فعلا بالمثل والقوة ، فقد كان هو نموذجيا هاليا ومثلا رائعا ، صحيح كل مواقف الخطأ ، في تصرفات الخلفاء ، وحفظ مال المسلمين عن الانفاق في الترف وإعطيات الشعراء ، وجمع إليه العلماء والخصلاء ، ونقل الناس من وضع إلى وضع فالتاس على دين ملوكهم ، وخفف أبهة الملك ، وألغى المظاهر الفخمة ، والمواكب وقد اقترب من أيديولوجيا الإسلام تطبيقا للشريعة الإسلامية ، وكتب إلى ملوك الهند يدهورهم إلى الإسلام فلما بلغتهم سيرته ومذهبه أسلموا وتسموا بأسماء العرب ، كما كتب إلى ملوك ماوراء النهر فأسلم بعضهم ، ولما أقر البربر أمره إليه إسماعيل بن أبي المهاجر غلب الإسلام على المغرب ولعل منهج النقد الاجتماعي كان نعمة لحكم عمر بن عبد العزيز القصير وكان في مقدمة تلاميذه الحسن البصري وقد انتقد الحسن البصري النفاق في الطبقات الممتازة من الأمة ، وانتقد أدواء المجتمع ، ووصف العلاج ، وحقق نتائج هامة واجتمع حوله نفر كثيرون ، حيث جمع بين التوجيه والتربية العملية والنقد البناء وقد توارث هذه خلفاء بعد وفاته ١١٠ هـ ومضى هذا الخط لم يتوقفه هادفا إلى المحافظة على مفهوم الإسلام وروح هذه الأمة وصلتها بالله والمحافظة على منابع الحياة الإسلامية الأساسية (القرآن الحديث) ومن خلال هذا الاتجاه ظهر تيار الزهد واعتزال المجتمع كرد فعل على تيار الترف والنفاق والامعان في الذات الحسية ، وقد ظهر من بعد في العصر العباسي : الأوذراعي وسفيان الثوري وصالح بن عبد الجليل وابن السكيت ، وكان هؤلاء مواقف وكللت غاية في القوة بل أن بعض العلماء من أصحاب المثل الأهل قد أهرضوا عن فرض آرائهم ومذاهبهم بسططان الحكم ، كما فعل مالك حين اعتنق المنصور عن نشر موطئه في العالمين دون كتب الحديث والفقه ، وقد وكان لما لك مواقف في معارضة النفوذ السياسي .

الواقعيون

يشمل الواقعيون المسلمون في تلك الجوع العامة التي أولت القيادة السياسية للإسلام ثقها ورأت في الحفاظ على وحدة الجماعة ضرورة والتجهم حول القيادة أهمية كبرى في بقاء الإسلام نفسه ونموه واستمراره ، وقبلوا بالولاء لنظام الدولة بوصفه قوة فائدة دافعة إلى العمل والحركة والتوسع ، ولقد كان

هؤلاء الواقعيون هم الأغلبية الغالبة أو الساحقة للمسلمين ، هؤلاء الذين عملوا للتطور ونشأته ، والتقدم وآثاره ، وهم الذين شهدوا تلك الأزمة الضخمة التي أودت بمستقبل الخلفاء الثلاثة وما أصاب المجتمع الإسلامي خلال حشرين عاما كاملة بعد وفاة عمر إلى هام الجحاش : عام البيعة لعمارة واستقرار الإسلام تحت قيادته السياسية : دولة أموية عربية مقرها « دمشق » .

هؤلاء الواقعيون هم الكثيرة السكانية من المسلمين ، يرون أن القيادة العربية ضرورة في هذه المرحلة لبقاء الإسلام واستمراره ونموه ، ونشر اللغة العربية وحيطرتها على اللسان ، وحلها محل اللغات القديمة . لقد قبلوا بالولاء لحاكم من صحابة الرسول وبيت من بيوت الإسلام ، واستطاعت الدولة الأموية أن تبنى بناءاً ضخماً في كل مجال ، بنت في مجال التوسع الإسلامي وسارت في سنة الجهاد للقدس مدفوعة إلى إضافة أرض جديدة إلى رقعة عالم الإسلام ، وبنت الأسطول الإسلامي وواجهت بيزنطة ودفعت قواتها إلى محاصرة القسطنطينية مرات .

وتواصلت توسعات الإسلام إلى حدود الصين ، وفي عهدنا أضيف السند والهند وما وراء النهر إلى رقعة الإسلام واستكمل ولا للغرب للإسلام وعبر المسلمون بحر الزقاق إلى شبه جزيرة أيبيريا وأوغلا في أوروبا . وقدمت الأموية للإسلام طائفة من بناء الدول من أمثال : معاوية وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك . وقدمت قادة في مجال الحرب من أبرزهم : موسى بن نصير وعبد الرحمن الداخل ومحمد أبو القاسم الثقفي ، وبنى الأمويون الحضارة ووسعوا مجال التجارة . ونشروا الإسلام بعد أن أخضعوا هذه الأرض الواسعة .

وبعد فليس شك أن الدولة الأموية كانت تواجه تحديات خطيرة ، جعلتها حريصة في نظر الواقعيين جميعاً ، وهم جاهل للمسلمين ، إلى حياة استقرار ، فضلاً عن ضرورة سيطرة المنصر العربي في هذه الفترة الأولى من حياة الإسلام ، فقد كان العرب هم حملة لواء الرسالة ، نزل فيهم القرآن وظهر منهم وبينهم رسول الله ، واصطفوا لحل أمانة الإسلام وإذاعتها في العالم كله ، وهم الذين اعتنقوا هدية الدعوة إلى الاسلام ونشروا ومقاومة كل قوة تقف في طريقه ، ولذلك فقد كان طابع الدولة الأولى التي تكونت بعد جمهورية الإسلام الراشدة ، دولة عربية ، التمس من مفهوم الإسلام ما استطاعت أن تحققه كنظام للحكم . وقد كان أبرز ما اتسمت به هي قدرتها على السير برسالة الإسلام وتوضيح آفاقه وتثبيت دعائمه ، ونشر الإسلام في الأمم التي دخلت تحت لواءه . وقد كان لها دور إيجابي ضخم غير منكر في دعم هذا اللواء ، هذا فضلاً عن أن مرونة معاوية وبراهته

السياسة وقدرته على فهم ماحولة من حضارات الأمم ونظمها والاستجابة لها ومسايرتها . بحيث تبدو الدولة في موضع الهيبة . كان ضرورياً إذ ذاك ، وكان بعيد الأثر في عملية الانصهار والبلورة ، هذا بالإضافة إلى انتقال حاضرة الدولة الإسلامية إلى دمشق حيث انصبب والنماء ، وقريباً من مواقع الدفاع عن حدود الدولة الإسلامية وعلى شواطئ البحر المتوسط حيث الأسطول البحري والحركة السريعة في أفق عالم الإسلام الممتد ، كل هذا كان من دوافع القوة والتثبيت للعالم الإسلام .

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى تعليل سقوط الأمويين بأنهم كانوا أشد تعصباً للعرب واهتماماً عليهم دون سواهم ، وصنع الدولة الأموية بالصيغة العربية حتى أطلق عليها اسم الدولة الأموية ، وأنها هربت الأقطار المختلفة ، برز أفريقيا وأقباط مصر وأهل فارس والمصريين كما استطاعت أن تحقق صهر مدنيات الأمم الداخلة تحت لواء عالم الإسلام في بوتقة المروية . وليس في هذا كله ما يعيب إلا أن يبلم الأمر مبلغه من التعصب للعرب بما ينقص حق العناصر الأخرى من المسلمين وخاصة للوالى وقد ذهب خصوم الأمويين إلى اتهامهم بالعصبية القبلية ، وهي العصبية لبني أمية ، فوق عصبيتهم للعرب على غيرهم من المسلمين ، وقد تجسد في ظلمهم الخلفاء القديم بين الأمويين والعباسيين ، وبلغوا في ذلك إلى الفخر على العربية يوسفهم أهل قريش ، فضلاً عن أنهم ناصروا الفيسيين حيناً والعليين حيناً آخر .

ولاشك أن التعصب القبلي يناهض مفهوم الإسلام نفسه الذي دعا إلى محو نخوة الجاهلية وخرها بالآباء حيث لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ، ولست أتصور قيام دولة في ظل مفهوم الإسلام إلا على النحو الذي قامت على الدولة الأموية بعد مرحلة التمهيد التي تمثلت في امتداد العصر النبوي وقيام جمهورية الراشدين التي كانت تحتاج إلى جهود ضخمة لتتسع لنظام يصهر جميع العناصر الإسلامية فيه ، والذي قصرته عنه بيئة المدينة ، وتدافع التوسع واتمام السيطرة على أغلب أراضي الإمبراطورية الفارسية والرومانية وانضواؤها لسيطرة حكومة المدينة ، على هذا النحو السريع قبل أن تقترب نفوس المنضوين مفهوم الإسلام أو ترتضيه معتقداً لها ، ومن هنا كانت الازمة التي حوالت جمهورية الراشدين في خلال عشرين عاماً إلى نظام عربي الطابع والصيغة قائماً على نفوذ إحدى قوتى قريش الكبيرتين ، وهي بالقصد ليست للقوة التي تحمل اسم النبي صاحب الرسالة ، وإنما هي القوة المناهضة لها والتي أبطأت في اعتناق الإسلام ولسكنها القوة التي قدمت هديداً من القافة والولاء والنوازع في خلال أيام النبي وحكومات الخلفاء الراشدين الأربعة مما أهلها للصدارة ولطوطابع القيادة السياسية على هذا النحو .

ولا شك كان انتصار الأمويين انتصاراً للطابع العربي ، الذي امتد إلى الفزعة القبلية ، والذي بلغ درجة السيادة العربية ، مباحداً من مفهوم الإسلام في إسقاط أفضلية عنصر على عنصر ، وكان لهذا ضرورته من ناحية في ظل التحدي الذي واجهه من خلال مؤامرة القضاء عليه ممثلة في عناصر الفرس والموالي والمجوس ، ومن هنا كان رد الفعل في حماية القيادة السياسية من غير العرب عملاً مرحلياً لحماية الدولة من الاضطراب ، غير أن تراخي الزمن ، وانتشار الغزو وعدم تحقق المثل الأعلى الإسلامي في الحال الاجتماعي كاملاً وقد أضف هذا النظام وأبعده عن طابعه الإيجابية وفتح الطريق لنظام سياسي آخر يتطور من داخله يتغير موضع القيادة فيه فيسلبها إلى البيت الآخر من قریش ، ويحل بعض الأزمات ، وأن بقي نظام الحكم ممتداً في أمرة واحدة ، ونظام واحد هو نظام ولاية العهد ، وهو الطابع الذي استمر النظام السياسي في الإسلام على أساسه فيما بعد طويلاً . لقد كان هناك قوتان للمجتمع الإسلامي : قوة المثل الأعلى وقوة التطبيق . كانت قوة المثل الأعلى والمعايير الخلقية تنطلق إلى أن يقترب النظام السياسي أكثر وأكثر من مفهوم الإسلام وكانت قوة التطبيق تحاول أن تدور في إطار الإسلام على قدر ما تمكنها ظروف الوراثة القبلية والعنصرية ، وتطور المجتمع ، والحضارة ، وقد ظلت «أيدولوجيا الإسلام» ولا تزال منهاجاً سمعنا مرناً قابلاً للأخذ منه وقادراً على مواجهة تغيرات البيئات وتطورات الأزمنة ، وقد ظل يشتمل في صورة عليا لما نصل إليها قوة التطبيق بعد وإن دارت في فلسفها مجتهد ، ومن هنا كان دور المجتهد من الفقهاء والأئمة والعلماء ، الذين كانوا يوائمون دائماً بين الواقع وبين أيدولوجيا الإسلام ، بين المثل الأعلى وبين التطبيق ، وكانت من رأى الواقعيين دائماً الحرص على مبدأ وحيدة الجماعة وسلامتها بقبول التوفيقات والتسويات التي تسمح بالتوازن بين القوتين .

ومن هنا كان دور الفقهاء والمجتهدين دافعاً للمجتمع الإسلامي إلى الاقتراب أكثر من مفهوم الإسلام وتمثله ، تدوجاً نحو السكمال ، ومن هنا ظلت مقومات الإسلام هدفاً متشكلاً للمحكم والعلماء والمجتمع على السواء ، سمياً وراء العدل والمساواة . ولقد كانت كل مواقف التاريخ الإسلامي تتسم بالنصر والنجاح والقوة كلما اقتربت من مفاهيم الإسلام ومقوماته وتنسم بالضعف والهزيمة كلما بعدت عن هذه المفاهيم ، وكل معضلات تاريخ الإسلام وأزماته إنما صدرت عن تخلف عن تلك المقومات البسيطة البسيطة التي رسمتها أيدولوجيا الإسلام وحاول الرسول أن يطبقها في المجتمع الإسلامي القائم الرائد ، ولطالما استعاضت التجربة التاريخية أن تحقق بالتحول والتطور «مفهوم الإسلام» جرباً على صن السكون في التعبير والاتجاه نحو السكمال .

ولقد تفاعلت مفاهيم الاسلام وأيدلوجيته مع المجتمع الاسلامي في درجاته المختلفة ومرحلة المنصلة وقواه المتعددة ، ومع اختلافات الناس والبيئات والعناصر ، واستطاع بآفاقه الواسعة أن يحقق نتائج مرموقة على توالى القرون ، لم يصطدم بالحضارة ولا بالتطور ولم تتوقف ولم تنجمد ، وقد مضت كلها ضمن إطار الاسلام الواسع . فقد كانت أيدلوجيات الاسلام ومضامينه الأساسية ، نظاما شاملا للحياة كلها على أسس التوحيد والعدل الاجتماعي والمساواة والاخاء ، وهو منطق فسيح متسع ، متقبل لمعادات الأمم وأذواقها وتقاليدها وفلسفاتها ما دامت تصاغ في إطاره وتنحرك وفق هذه الأسس ، ولم يكن الاسلام ديناً إلا من ناحية إعطاء دفعة للضمير والخلق ، أما في مجال الثقافة والمجتمع والاقتصاد والسياسة فقد كان نظماً بارانياً إنسانياً كاملاً للمجتمع ، متقبلاً للتطور ، متمثلاً للمصير والقيم ومتميز عن المختلفة قادراً على الحركة والحياة . مميتاً لتقبل أبعد تطوراتها حالاً لا كثر مضلاتها خطراً ، أكثر مذاهبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية خطاءً . وقادراً على صبره على بوتقة وتشكيلها في إطاره : توحيداً وعدالة اجتماعية ومساواة وبناء ضمير وخلق .

ومن هنا تبدو جميع دعوات العدل الاجتماعي والعقل والمساواة والمثل الأعلى والمعاطفة والواقعية كلها تراث إسلامي مستمد من صميم الاسلام ومفاهيمه ما دامت لها جذور من القرآن والسنة ، وليس هذا اختلاف بين دهاة هذه الدهوات ، إلا خلافاً بين وجهات نظر تتعدد حول الفريسيات والقضايا وتنطق أساساً حول القيم العليا للإسلام وتدور كلها حول النظام السياسي والاجتماعي للمجتمع ولا هييب أن تتعدى وجهات النظر وتختلف ما دامت في نطاق الفروع ، وما دام ذلك كله يجري في إطار لاسلام نفسه وليس خارجاً عنه ، وهو علامة صحة وليس علامة مرض ، إذ تستهدف هذه الحركات جميعاً أن تصل إلى الحق والعدل ، وأن تصهر أفكارها وتبلور في مفاهيمها وهو عمل ضروري أساساً للمجتمع تكون من عناصر مختلفة وثنايات وفلسفات وتقاليد ومقومات متعددة ، ومن هنا فإن كل هذه الدهوات ، إنما تمثل مراحل لفكر والحضارة الاسلامية ينسجم لها أفق المؤرخ والباحث — والحياة الانسانية ولا شك تتطور وتتغير في موجات متعددة ، من القوة والضعف ، والانحراف والاعتدال ، التجزئة والتكامل . ولقد كان تاريخ الاسلام يتمثل هذه الحركات والموجات وكانت تبرز فيه دوماً القوى القادرة على تصحيح الطريق ورد الدهوات إذا خرجت عن مفهوم التكامل والشمول والوسطية ، ولقد كانت كل حركات الفكر الاسلامي وكل موجات المجتمع الاسلامي ، علامات قوة وقد مضت حركات التغيير وظهور بناء الدول وقادة الفكر مستمرة دائماً لا تتوقف ، كل حركة منها ، تحقق خطوة إيجابية نحو التقدم والبناء وهي في ذاتها دفاع عن حق مضيع ، أو تصحيح لحقيقة أوشك أن تفقد مفهومها في طريقها إلى تحقيق حتمية الاسلام بوصفه رسالة عالمية وإنسانية .

إن كل هذه الحركات والدعوات تلتبس من الاسلام بسبب ، وتصل به بنسب وهي الآن حصيلة فكرية وثقافية وتاريخية لا سبيل إلى الرضا عن بعضها ، ومعاداة بعضها الأخرى ، ولكنها تراها اليوم عبارة فكرية متجدد ، وحين تفصل عنها ما أرتبطت به من عوامل السياسة ، ودوافع الصراع ونستصفينا نكشف عن مدى حرية الاسلام وسعة أفقه التي كانت قادرة على تعطى انطلاقا الفكر والرأى ، غير أن هذه القطاعات تمثل قطاعات الاسلام الجزئية ، وحين تلتقى تمثل شمول الاسلام وتكامله .

(١١)

النظام السياسى

استمر النظام السياسى الاسلامى الذى تمثله (الدولة الأموية) مرحلة بلغت ٩٢ عاما تقريبا بين عام ٤٠ — وعام ٩٣٢ هـ عندما سقطت لتقوم مقامها (الدولة العباسية) وكان مقر السلطة السياسية العليا (الخلافة) دمشق ، وهي سلطة شاملة ضمت تحت لوائها أقطار الدولة متمثلة فى بلاد ما وراء النهر والسند والهند حتى حدود الصين ، والشام بأجزائه والجزيرة العربية ومصر والمغرب كله (شمال أفريقيا) والأندلس فى جزيرة ايبيريا . كان هذا النظام للتمثيل فى حكم عربى خالص ، قد أمضى دورة كاملة من دورات الدول بين الأبعاد الأربعة : نشوء ونمو ونفوج واكتهار ، استطاعت أن تحقق فيه رسوخ دولة الإسلام وامتداد نفوذه ، وتحول غالب المستبطلين بظلة إلى الاسلام واستقرار اللغة العربية وقيامها محل اللغات الإقليمية ، وانتشار كلمة الإسلام إلى أبعد مدى مستطاع ، وقيام حضارة ضخمة واسعة الآفاق بعناصرها المختلفة من فكر وعادة وتجارة واقتصاد وبرز عدد كبير من الأعلام والقادة وبناء الدول . وإذا كان « العرب » هم الذين حلوا اسم الاسلام وشقوا به الطريق إلى هذه المنطقة الواسعة من حدود الصين فى آسيا إلى حدود إيطاليا وفرنسا فى أوروبا عبر شمال أفريقيا فقد تعددت العناصر القوية التى شاركت العرب فى حل نوا التوسع ، وفى بناء الحضارة وفى الثقافة والفكر ، وفى مختلف جوانب الفكر ، هذه العناصر التى كانت تتأهب بدخولها الاسلام لتحمل لواء القيادة والسيادة فى أفكارها وأمصارها : وأكبر هذه العناصر وأكثرها نفوذاً : الفرس والترك والبربر . لقد كان الفرس هم أقرب هؤلاء العناصر إلى العرب وأكثرهم تأثيراً بالفتح وتأثيراً فى هذه المرحلة ، وكان لهم دور ضخم فى الأحداث التى بدأت بها مرحلة التبلور والانصهار ، وكان لإصرارهم وتصميمهم على المحافظة على كياناتهم الخاص داخل نطاق الاسلام وإحساسهم بماضيهم وحضارتهم

وسبقهم للعرب في مجال المدنية ثم سيطرة العرب عليهم بنفوذ الاسلام ونفوذ الحكم اثره في الصراع والمقاومة وبرز روح التآمر على الاسلام بالاشتراك مع العناصر الأخرى كالفرس واليهود وقدامى الجيوش وبقياء المذاهب الهدامة في بروز تيار قوى هو تيار (الشعبوية) . أما الترك فإن دورهم لم يكن قديماً بعد وهو دور ضخم بعيد المدى ينظم تاريخ الاسلام كله من بعد ، هذا في الشرق والشرق الأقصى ، أما في الغرب فقد كان البربر أقوى القوى التي قاومت الاسلام وصارحت حكوماته العربية الخالصة ، ثم كان لهم — كما كان للترك والمماليك أبعد الأثر في نصرة الإسلام وحل لوائه والدفاع عنه في مرحلة الغزو الخارجي ، هذه المرحلة التي تلي مرحلة التبلور والانصهار . وكان تقويض الدولة الأموية بعد تسعين عاماً من حكمها انجهاها طبيعياً ، بحكم أنها لم تنجح لنفسها فرصة البقاء بتوسيع قاعدة عملها السياسي على النحو الذي فعلته الدولة العباسية في أمرين هامين : الأول : أنها لم تصبغ نفسها بصبغة عربية لها طابع السيادة والعصية بل صمحت للعناصر المختلفة أن تجري في الفلك السياسي وأتاحت لها حق المساواة والحرية ، الثانية : ظاهرة ظهور الدول الاستقلالية الذي جاء نتيجة لهذا في عصر الدولة السياسية مما يمكن القول منه أن الدولة العباسية ليست إلا إحدى نظم المرحلة التي تلت الدولة الأموية في خلال المرحلة من ١٣٢ هـ إلى عام ٦٩٩ بظهور الدولة العثمانية كبرى الدول الكبرى الموحدة لأغلب أجزاء عالم الإسلام . وعندنا أن انفلاق الدولة الأموية على السيادة العربية كان ضرورة ، ولكنه بلغ في بعض مراحله درجة عالية من الخطر ، وما كان من طبائع الأمور ونوايس الحياة أن يستمر ويبقى نظام منفلق ، ومن هنا فقد استطاعت القوى الاسلامية غير العربية أن تتجمع للانتفاض على هذا النظام السياسي والقضاء عليه جرباً على سنة الحياة في ضرورة مشاركة هذه العناصر من ناحية واتجاها مع مفهوم الاسلام الذي يرفض سيطرة الطبقة أو العنصر ، ولو كان هذا العنصر هو العنصر العربي الذي نزل فيه الاسلام وكان له دورة الخلفاء في بناء دولة الاسلام وتوسيع آفاقه . وفي كل دولة في تاريخ الاسلام عناصر بقائها وهوامل انهيارها ، فهي كلما اقتربت من مفهوم الاسلام وحولت لتحقيق أيولوجيته في العدل الاجتماعي والمساواة استطاعت إطالة بقاءها . وعندنا أن برز هوامل انتهاء الحكم الأموي ، هو بلوغه أبعد قدر مستطاع من تحقيق الهدف الذي قام من أجله ، فقد نبذت قواعد النظام الإسلامي ولم يعد هناك ما يخشى منه ، لم تعد المؤامرات الداخلية قادرة على انتزاع الاسلام أو القضاء على دولته ، لقد تمكنت جنوده في الأرض ، وقامت حضارته ، وأصبح أيولوجية إجتماعية عقلية روحية لهذه الجماعة التي أرفقته واهتفتته ومضى وقت طويل بلغ أكثر من قرن وربع قرن على بزوجه ، وتوالت الأجيال بعد الأجيال التي ولدت في أفقه وعصره . ومن هنا حققت الدولة الأموية

أبرز أهدافها ، وهى حماية الاسلام من الأزمة الضخمة التى واجهها فى منتصف حكم هان والى تأمرت فيها قوى مختلفة من اليهود والفرس والمجوس وغيرهم على اجتثاث الاسلام من جنوده ، والعودة إلى الديانات القديمة ونفوذ أسر الأباطرة ، وكذلك أمنت المداخل الشمالية فى مواجهه دولة بيزنطية التى انتزع الاسلام ما كانت تسيطر عليه فى الشام وشمال أفريقيا بعد أن أحست هيبة الدولة الاسلامية وقاعدتها الضخمة ، وبعد أن استقر حكم الاسلام فى جزء من أوروبا ، وقامت دولته متصلة بالمغرب الاسلامى .

وكان هذا الهدف قد تحقق ، هنا الهدف الذى بلغ القائمون عليه أبعد حد فى تأكيده وتركيزه وبقي عليه إتاحة الفرص للعناصر الاسلامية غير العربية ومن أبرزها العناصر الجاهلية التى تشكل القاعدة الكبرى وهى طائفة الموالى ، هؤلاء الذين دخلوا الإسلام إيماناً بقبيلة ومفاهيم وأيدولوجية فى العدل الاجتماعى وللأساوة الذين لم يجدوا من عدل الدولة الاسلامية تطبيقاً كاملاً ، ومع ذلك فإن هذا لم يردم عن الإسلام ، بل دهم إلى ملاقاته خصوم الدولة القائمة لاستقاطها ، رغبة فى قيام نظام جديد يفسح لتختلف العناصر حرية للمشاركة على قدم المساواة فى العمل الاجتماعى والسياسى وإذا ذكرت هذه القطاعات الضخمة من المجتمع الاسلامى ذكر أفضل عناصره ، وأقواها ، وأعماها إيماناً ، وأبدها أثراً فى هذا البناء الذى قام وتضخم ، فقد كانوا هم القوة العسكرية الضاربة التى شاركت وجاهدت واضطهدت فى سبيل الاسلام ، من مختلف العناصر من الفرس والبربر والترك ، وغيرهم من العناصر ، الذين كانوا هم القوة الحقيقية للمجتمع الاسلامى فبالإضافة إلى دورهم الضخم وتكوين الجيوش الاسلامية فى غالبيتها منهم ، فقد كانوا عماد الحركة الاقتصادية والعالية والاجتماعية فى مختلف أجزاء عالم الاسلام ، وبهم رجعت كفة القوة للناوثة للنظام الأموى ، وهى التى أضافت إلى طلاب الحكم والمتأمرين على الحكومة الأموية قوة شعبية ضخمة فى الأطراف البعيدة حيث كانت تجرى حركة الانتفاض التى شاركت فيها عناصر آل البيت (العلوية العباسية مما) وعناصر الخوارج ، وعناصر الموالى ، وعناصر النافقين من خصوم الاسلام يهوداً وفرساً ومجوساً إلخ وقد كان أبرز ما حملته بيانات الحركة العباسية التى أطلقت على نفسها (الرضا من آل محمد) إلى جوار استقطاب العناصر الشعبية المختلفة حول اسم آل البيت ، كان أبرز ما حملته دعوته هى إتاحة الفرصة للعناصر الاسلامية المختلفة للمشاركة فى النظام السياسى الحاكم ، وأسقاط هذه العزلة القاسية التى فرضتها (السيادة العربية) للتمتة فى الحكم الأموى بأقصى صورها . لم تغير الدولة العباسية العمود الفقرى للنظام الإسلامى الحاكم ، بل أبقت على ما كان عليه ، حكماً قائماً وفى أسرة ونظام توارث للعرش ،بقى هذا على ما هو عليه ولكن الذى تغير أن طابع

الحكم لم يمد هربيا بل أصبح فارسيا سمح للعناصر الشعبية وأبرزها للوالي أن تشارك فيه وأن نجد حريتها وانطلاقها . وهنا تحول للوقف تحولا هكسيا بالنسبة للعرب فقد أخذوا يذويون في السكيان الإسلامي وظهر في هذه المرحلة أدب له طابع إسلامي أكثر انفتاحا على الأدب الفارسي القديم .

غير أن هذا الاتجاه الذي غلب فيه طابع الفرس على الطابع العربي باسم إعطاء الموالي فرص الحرية والمساواة قد تحول قليلا إلى أن أصبح حملة ضارية على العرب ومن هنا برزت الحركة الشعبية التي استطاعت تنمية هذا الاتجاه وتوسيع أفقه كجزء من جزء مخطط للمؤامرة على الإسلام نفسه . وقد كان طبيعيا أن يتحول الحكم من البيت الأموي إلى البيت العباسي فإن ذلك في ذاته استناد للنفوذ السياسي السائد من خلال الصراع بين أمية وهاشم ، ولقد كانت صيحة المقاومة للأمويين تركز دائما على المطالبة بعودة الحكم إلى بيت الرسول ، وهنا كان العلويون والعباسيون خصوما للدولة الأموية ، وم للتصديرون للحكم في الدولة الجديدة فأبهم يحرز قصب السبق .

ومرة أخرى تنقلب إرادة التطور ، بما تميل في طياتها من واقعية ، ومرونة ، وانفتاح على الآفاق الجديدة ، وفي مقدمتها الأفق الفارسي ، وأفق العناصر المختلفة التي تجد في العباسيين الواجهة الأصلح ، كانت دهوة العلويين تحمل كلاء آل البيت ، وهي بالغة الأثر في جمع الناس حولها ، غير أن دعاة العباسيين استطاعوا أن يتقدموا خطوة أبعد مدى دلت على فكاه وسعة أفق وهي أنهم وضعوا برنامجا سياسيا واجتماعيا أبرزوا فيه اهتمامهم بالإصلاح الاجتماعي والسياسي للطوائف المضطهدة في ظل الأمويين ، ولا شك قد كان لسنة التجول أثرها الواضح في سيطرة النفوذ الفارسي ونفوذ الموالي والعناصر المختلفة اجتماعيا وثقافيا ، وكان لا بد أن يتم ذلك بالسيطرة السياسية . ولا شك كان أبرز عوامل القضاء على الحكم الأموي ، هو بلوغها مرحلة الضعف التي لا بد أن تصيب أي بناء سياسي بعد جيلين أو ثلاثة أو عدة عقود من السنين ، وبذلك يمكن القول بأن قيام الدولة العباسية .

كان تطورا طبيعيا وفق نواحي الحياة نفسها ومن خلال إطار الإسلام نفسه ، وخطوة واسعة في مجال النظام الإسلامي انتقلت من مفهوم غلبة عنصر ولو كان هو العنصر الرئيسي في بناء الدولة الإسلامية — هي العناصر الأخرى ، وبذلك وضع مفهوم الإسلام في أنه (لا فضل لعربي على أعجمي ولا أبيض على أسود) موضع التنفيذ . ولا شك كان لسكس هذا القيد ، ولفتح الطريق أمام المساواة أثره البعيد في نمو الحضارة توسيع آفاق البناء الاجتماعي والاقتصادي والثقافي ، فقد كان للمسلمين من غير العرب دور ضخم لأحد لضخامته في مجال الثقافة والفكر والحضارة ، قام هذا الدور ليس

باسم أجناس لها تركيب بيولوجى أو عقلى خاص بل بوصفهم عناصر انصهرت بثقافتها فى إطار الإسلام
وجرى نموها العقلى والثقافى من خلال ايدولوجية الإسلام الفكرية وبيئة الدولة العباسية .

الدولة العباسية

تمت الدولة العباسية تطوراً طبيعياً، ومرحلة متصلة بالمرحلة السابقة لها فى النظام السياسى الإسلامى، وغير
صحيح ما ذهب إليه البعض من أنها نظام مستقل ، فالجتميع الإسلامى ما زال مستمراً مطرد التطور
والحركة ، لم يغير منه سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية إلا (١) انتقال مقر الدولة من
الشام إلى العراق (٢) تحول القيادة السياسية العليا من الأمويين إلى العباسيين ، وإن استتبع ذلك
تغييراً فى بعض مناهج الحكم ، أو فى تحقيق العدل لبعض قطاعات المجتمع . غير أن نظام الحكم نفسه
ظل نظاماً ملكياً وراثياً ، قائماً على ولاية العهد ، فى أسرة من الأسر ، ولم يتحقق بها أى تعديل فى
نظام الشورى مما يقرب للمسلمين من ايدولوجية الإسلام فى الشورى . وقد كان خصوم الدولة الأموية
وأخصار اسقاطها هم : الشيعة والخوارج وللوالى ، أما الشيعة فإن التغيير لم يحقق لها شيئاً ، وقد ظل
العلويون فى ظل حكم أبناء عومتهم يقاسون نفس الاضطهاد والأبعاد من مرا كز القيادة كما كانوا فى
عهد الأمويين بل وأشد ، أما الخوارج فإن للثلل الأعلى الذى تطلمعوا عليه فؤاد لم يتحقق .

غير أن التغيير الأكبر الذى تحقق هو قيام دولة لا يسيطر على قيادتها أصحاب السيادة العربية
وإن كان خلفاؤها وقادتها من العرب ، فقد قامت بنفوذ الفرس ، ومن هنا فقد انصهرت القطاعات
العربية فى الحكم ولم يعد لها صفة قيادية وكل ما تحقق هو أن العناصر الإسلاميه قد سيطرت وأن
السيادة العربية فى المجتمع الإسلامى قد تراجعت . وكما أن الدولة الأموية لم تحقق للمسلمين للثلل الأعلى
الدين كانوا يتطلعون إليه ، هذا المثل الأعلى المتمثل فى العدل الاجتماعى والمساواة فإن الدولة العباسية
أيضاً لم تحقق هذا المثل ، ومن ثم فقد واجهت انتفاضات متعددة عليها .

توقفت فى خلال حكم العباسيين التوسع الإسلامى وأسفرت الدولة الإسلامية فى حدودها التى
بلغتها فى أواخر الدولة الأموية ، وكان أبرز معالم هذه المرحلة الرخاء والترف وبلوغ الحضارة الإسلامية
قمة عالية ، وتوسع نطاق الفكر الإسلامى نماء وترجمة وانصهاراً ووضوحاً لا بدولوجيته فى مجال الفقه
والفلسفة والعلوم ويمكن القول بأن مرحلة الحكم الأموى كانت مرحلة التوسع الإسلامى (الأبعاد)
وأن مرحلة حكم العباسيين كانت مرحلة البناء الحضارى الثقافى (الأعماق) غير أنه لا انفصال بين

مرحلتين من الحكم في مجتمع ضخم واسع يضطرم بأسباب القوة والحياة في مجالات الحضارة والثقافة والاقتصاد، وإنما يمكن أن يقال أنه تطور طبيعي، غير المجتمع خلاله خلافة وجبلدة، وأن كل البذور التي أُنشئت في التربة خلال فترة حكم الأمويين قد نمت وآتت ثمارها في العصر العباسي حتى كان الرشيد يقول للسحابة المارة: أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك » وقد باغت إيرادات الدولة العباسية في هذه (٧٠ مليون و١٥٠ ألف دينار) (مقدمة ابن خلدون) وقد زادت في عصر المأمون عن ذلك كثيراً. غير أنه لم يكن هناك فارق كبير في أبهة الحكم أو الترف أو الاستقرارية التي كان يعيشها الحكماء، فإن انتقال الحكم من البيت الأموي إلى البيت العباسي لم تغير من مظاهرها ولم يقترب بها نحو مفهوم الاسلام، بل على العكس من ذلك ربما ازدادت عمقا واتساعا. كما أن المجتمع نفسه لم يتحول عن طريقه الذي كان قد حفره وسار فيه من حيث الامان في الحياة الحضرية بكل ما فيها من انحلال وفساد وذنقة وبجون وإلحاد وانحرافات في الأخلاق والآداب، وقد رسم الجاحظ لتurf في العصر العباسي صورة دقيقة في كتابه الحيوان (ج ٧ ص ٩١ ج ٥ ص ١١٥) وقصة عرس المأمون العباسي على بوران بنت الحسن بن سهل بالغة الحد في الترف (وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٥٩) لم يكن هذا الترف متفقا ولا مقبولا في مفهوم الاسلام ولا ايدلوجيته، بينما كانت الطبقات الوسطى والفقيرة تعاني الأذلال والفقر والمسغبة، ومن هنا برزت في ظل حكم العباسيين كامتداد لحكم الأمويين حركات مناهضة تحمل لواء العدل الاجتماعي وربما كانت تسير وراءه، مدفوعة بمخسومة التأمر على الاسلام، ولكنها وجدت فعلا من مناهض المجتمع وعيوبه ما يدفعها إلى اتخاذ سلاحا اشهره في وجه الحكومة العباسية. ولم يكن المجتمع العباسي يجري كله في مجارى الترف والانحلال، ولكن كان كالمجتمع الأموي جماع عناصر القوة والصفاء، ما، يضم بيئات الزندقة والتurf والانحلال ويضم بيئات العلم والزهادة وحلقات العلماء والفقهاء والمساجد والجامعات وللمعاهد، غير أن هذا الاغراق في الترف قد خلق در فعل يشمل في تيار جديد توسع من بعد وعمق هو تيار الصوفية الزاهدة المنعزلة عن المجتمع، النابذة له هذا، إلى جوار تيار النقد الاجتماعي الذي اتسع نطاقه في خلال الحكم العباسي وبرز كثير من أهلامه الذين واجهوا الخلفاء ومارضوا الانحراف فقد كان هؤلاء العلماء والزهاد مواقف مجيدة أمام الخلفاء وفي مواجهة موجة الترف العارمة، تحمل طابع النصيحة البارة الخالصة، البعيدة عن عنصر التأمر، وظهرت في نفس الوقت قوى جديدة تقاوم الحكم العباسي وتنقض عليه، هاد الخوارج مرة أخرى إلى موقف المارضة المسلحة، وكذلك ذهب دعاة العاطفة من آل البيت إلى موقفهم في مقاومة الحكم العباسي لند أزدهرت الحياة السياسية

والاجتماعية في المرحلة الأولى للدولة العباسية ، حيث ظهر أعلام من بناء الدول في مقدمتهم النصور باني بغداد والرشيد والمأمون وللمتعصم ، يقول الشعالبي أن لبني العباس فاتحة وواسطة وخاتمة فالفاتحة المنصورة والواسطة المأمون والخاتمة للعتضد ، والحق أن الدولة العباسية منذ قيامها عام ١٣٢ إلى أول حملة صليبية على العالم الاسلامي عام ٤٩٨ هـ تمثل مرحلة متسلسلة هي مرحلة قيام البناء الحضاري والفكري الأساسي في مجال الانصهار والتبولوج وهي مرحلة تتمثل في ثلاث قطاعات متشابهة :

- (١) الانصهار في مجال المجتمع . (٢) التبولوج في مجال الفكر .
- (٣) نمو المؤامرة على الإسلام وانتقالها إلى مرحلة التنفيذ : في هذه المرحلة انفتح الطريق أمام الفرس الذين كانوا يميلون على الدولة الأموية لأنها تسيطر بنفوذ هربي وتسنأثر بسيادة عربية خالصة ، فقد كان الفرس هم القوة الأولى والأساسية التي أهانت على قيام الدولة العباسية التي يمكن أن نوصف بأنها « واجهة عربية وبناء من الفرس والموالي » كان لهذا أثره الايجابي وأثره السلبي ، الأثر الايجابي هو سهولة الانصهار في المجتمع والبلورة وامتزاج العقليات والثقافات وتبولوجها في إطار الاسلام ، وأثره السلبي في : (١) معركة هدم الأمة العربية بوصفها سياج الاسلام ومادته وما جرى من معارك هنيئة ذهب فيها الفرس إلى تجريد العرب من كل مقومات الأمم ، وكذلك ذهب العرب إلى الدفاع عن كياناتهم ومقاومة الفرس بنفس السلاح (٢) معركة مفهوم الاسلام نفسه ، وهي تتمثل في الحملة على مفاهيمه بإدخال مفاهيم وثنية وطارسية ومجوسية كمحاولة للقضاء على القيم العليا للإسلام والقضاء عليها كوسيلة للقضاء على السلطة السياسية الاسلامية هاتان المعركتان يمكن أن يطلق عليهما اسم « الشعوبية » وقد استتبع ذلك على الصعيد السياسي ، تلك المحاولات التي جرت لنقل النفوذ السياسي من القيادة العباسية العربية إلى القيادة الفارسية ، وظهر ذلك في حركتين كبيرتين بعد حركة « أبي مسلم الخراساني » : هي حركة : البرامكة في أيام الرشيد ، وحركة الفرس في الصراع بين الأمين والمأمون . فقد انهك الفرس بعد سقوط نفوذ أبي مسلم الخراساني وشيعته بوصفه مؤسس دولة العباسيين ، إلى أساليب أكثر مرونة ودقة ، حتى أحصى على « جعفر بن برمك » قوله : أننا سنحول الدولة إلى الفرس بأسلوب غير أسلوب الخراساني ، وقد وصل البرامكة في ذلك غاية الدهاء عملوا لهذا المنهج سنوات طويلة ، فخير إن القوى العربية البيقظة استطاعت استشارة الرشيد حتى قضى على نفوذهم بضرية واحدة ، غير أن هذا الصراع نتج مرة أخرى على نحو أشد عمقا بعد وفاة الرشيد من خلال الصراع بين الأمين (وأمة عربية) والمأمون (وأمة طارسية) وانتصار المأمون ، وانجابه إلى خراسان ، ومحاولة توليه ولي ههه (على الرضا) أمام الشيعة المواليين لفرس ، وهذا الخلاف والحرب بين الأمين والمأمون . هي صورة أخرى من صور المؤامرة على الاسلام والخلاف بين عنصرى

العرب والفرس غير أن هذا الصراع لم يتوقف عند الحال السياسي ، بين مفاهيم الفرق المختلفة ، وكان لظهور الدهوات الفلسفية والباطنية والمفاهيم المستترة الخفية التي تحاول أن تتخذ لها واجهة من الدهوات لآل البيت ، كانت ترسم مخططا واسعا لصراع فكري واجتماعي وسياسي ضخم تمثل بعد في حركات سياسية ضخمة ، وهي ثورة الزنج ، وثورة القرامطة وثورة الباطنية وهي ثورات انشعبت بأنوار العدل الاجتماعي والدهوة لآل البيت ، وحاولت أن تقضى على السلطة السياسية العليا الممثلة في الدولة العباسية وكان هذا الصراع كله مقدمة لضعف عام ، كشف القيادة الاسلامية أمام خصوصها في منطقة الخطر الحسامي (الحدود البيزنطية الاسلامية) حيث يمكن الخطر المتحيز دائما للاقتضاض على عالم الاسلام بانتم أوروبا والغرب والدولة الرومانية التي لم تنس أن الاسلام قص جناحيها وأزال نفوذها في الشام وشمال أفريقيا .

(الدول الاستقلالية)

لعل من أبرز ما تنقسم به المرحلة التي تلت نهاية الدولة الأموية وخلال البناء السياسي العباسي ظهور دول كثيرة ونظم سياسية ذات طابع قيادي باسم الخلافة في مصر والأندلس . ظهرت ثلاث دول كبرى : السلجوقية في فارس والعراق ، الأموية في قرطبة ، والفاطمية في مصر والمغرب ، كما ظهر نفوذ آخر غير نفوذ الخليفة في مقر السلطة السياسية العليا هو نظام السلطنة وأمر الأمراء ظهرت دول استقلالية في فارس : الديدي والصفارية والسامانية والبويهية . وفي مصر : الطولونية ، الأخشيدي ، الفاطمية ، الأموية . وفي أفريقيا : الأغالبة ، الأدرسية ، الفاطمية ، المرابطون ، الموحدون ، الخ وفي الأندلس : الدول الأموية ، ملوك الطوائف ، دولة المرابطيين ودولة الموحدين

وقد استقلت بعض هذه الدول عن الرئاسة السياسية في بغداد ، وظل بعضها الآخر على علاقة ولاء للخلافة مع الاستقلال الذاتي لها ، كان لهذا التطور أثره فإن أفريقيا الشمالية وكانت تمثل الجناح الأيسر من عالم الاسلام ، قد برزت في هذه المرحلة ذات كيان سياسي واضح ، وهي التي تحملت أكبر مسئولية في مواجهة أوروبا والغرب باعتبارها القوة المخالفة وراء دولة الأندلس التي كانت شوكة في جنب أوروبا طوال فترة بقائها ، وظلت عمليات التآمر عليها لاستقاطها خلال القرون الثمانية التي هاشتها في شبه جزيرة أيبيريا . ولعل هذا التطور الذي حدث في خلال الفترة التي تلت الدولة الأموية يسمح لنا بأن نقول أن هذه المرحلة هي مرحلة الدول الاستقلالية : هذه الدول التي كان لها بعد الأثر في توسيع نطاق الحضارة والثقافة .

(١٢)

المؤامرة على الإسلام

لم نكن للمؤامرة على الإسلام أمراً مستغرباً ، بل هلى العكس من ذلك كان أمراً طبيعياً ، فإن أى قوة جديدة من شأنها أن تغير مجرى التاريخ وتفرض كيائها ، فإنما تقبم هذا الفعل على أرض الواقع ، مؤثرة فى الأوضاع القائمة بالتغيير أو بالإزالة أو بالنحويل ، ولم يكن فى الإمكان أن يقوم هذا الفعل فى فراغ ، ولذلك فقد كان لابد له من رد فعل .

ومن هنا كان للإسلام رد فعل بعيد المدى فى البيئات المختلفة ، التى سيطر عليها والأديان التى واجهها ، والقوى الحاكمة التى أزالتها ، لقد قاوم الوثنية والمجوسية وأزال إمبراطورية الفرس ، وأجلى الإمبراطورية الرومانية من مناطق استعمارها فى الشام ومصر وأفريقيا . ومن هنا كانت مقاومة الإسلام بالحرب هى العمل الأول الذى واجبه بحركة التوسع البسارحة التى أقامت عالم الإسلام فى أقل من نصف قرن ، غير أن الخطر بعد توقف أعمال التوسع كان يتمثل فى مقاومة ذات واجهتين .

١ - مقاومة خارجية تتمثل فى أوروبا والغرب وتمثل فى دائرتين . (أ) مقاومة الفرنجة فى الأندلس ومن حولها . (ب) مقاومة البزنطيين فى حدود عالم الإسلام من الشمال ، وهى مقاومة لم تتوقف طوال القرون الأربعة عشر وإلى اليوم . ٢ - مقاومة داخلية وتمثل فى القوى التى سقط نفوذها السياسى والدينى من الفرس والمجوس واليهود . وقد بدأت هذه القوى عملها منذ قيام الدولة الإسلامية فى عهد (عمر) وتمثلت أولى صور هذه المؤامرة فى مقتل الخليفة الثانى بختنجر أبى لؤلؤة المجوسى الفاروسى .

وفى الأزمة العنيفة التى تهركت فى أواخر حكم عثمان وامتدت خلال خلافة على وهى أزمة ذات طابع دقيق ، حتى لم يكن القول بأنها قد أحدثت فى الإسلام منذ ذلك الوقت صدعا لما يلىثم . فقد تهركت القوى المختلفة تناضل من أجل مفهوم النظام السياسى للدولة الإسلامية . ولم تتوقف منذ ذلك الوقت حركة الانتفاض : على الدولة الإسلامية أو التآمر على الإسلام ، وقد تداخلت هذه الحركات ، بين طلاب الحكم وطلاب العدل وبين حركات استهدفت فعلا القضاء على الإسلام نفسه .

الفرس والعرب

ويمكن القول بأن المعركة بين نفوذ العرب ونفوذ الفرس كانت أبرز معالم هذا الصراع وكانت مشاعر الأقوام الفارسية شديد الحساسية بالنسبة لسيطرة العرب ، وخضوع بلادهم للسيادة العربية ، وقد قام هذا الاحساس على أساس اختلافات القديعة بينهما ، وفي ظل الشعور الذي كان يغمر الفرس بأنهم أصحاب حضارة وسلطان ولغة وتقاليد ، ومن هنا كان عملهم الدائب لنصرة العباسيين وتأييد دعوتهم للقضاء على الأمويين .

ولاشك كان مفهوم الاسلام لا يسمح بقيام أى نوع من أنواع الاستعلاء بين العناصر التي جمعها الاسلام تحت لوائه ، ولذلك فقد كان قيام الدولة العباسية تطوراً طبيعياً إزاء موقف الدولة الأموية الجافى لمفهوم الاسلام في المساواة بين العرب والفرس ، غير أن قيام الدولة العباسية لم يحقق أثره في نفوس طلاب الحكم الطامحين وللقامرين من الفرس الراغبين في إعادة السيادة الفارسية ، ومن هنا كانت المحاولات للتولية للقضاء على الرئاسة العربية العباسية للدولة بمؤامرات التولية أبرزها : مؤامرة البرامكة ومؤامرة ولاية عهد المأمون . كما تمثل هذا الصراع في الحلة العنيفة التي شنها الفرس على العرب واتهامهم بكل تقيصه والانتقال في مجال الحلة من العرب إلى الاسلام نفسه كحاول للقضاء على الاسلام « فكرة ودولة » . ومن هنا كانت مؤامرات : الزنج ، القرامطة ، الباطنية ، وهي مؤامرات تستر بسم آل البيت كذبا ، وكان طابعا فارسيا ، والواقع أنه لا يجوز إطلاق القول في نسبة هذه الحركات إلى الشيعة ولا إلى الفرس ، بدليل أن للدافعين عن الاسلام من الفرس كانوا يبحث لا بحصصهم العد ، مدافعين عن الاسلام واللغة العربية . وتاريخ العرب . ومقومات الفسك الاسلامي . كذلك لا يمكن أن تنسب هذه الفرق — التي تحمل شعار آل البيت والتي انخرقت في مفهومها — إلى الشيعة ، فقد كان الفرس قوة من قوى الاسلام وما تزال بعيدة الأثر فيه ، لا تختلف مع السنة في أى من أصول الاسلام وإن اختلفت في بعض الفروع والمسائل وقضايا الحكم والشرعية ، فلا بد من التفرز في نسبة مثل هذه الحركات إلى الشيعة أو الفرس بعامة .

وقد كانت أغلب هذه الحركات تحمل طابع الدعوة إلى « العدل الاجتماعي » كالزنج والقرامطة ، ولكنها كانت في الأغلب دعوات متآخرة في أهدافها مهما خلت من شعارات فقد نادى خصوم الاسلام من مجوس ويهود وأصحاب النفوذ القديم من الفرس ، ولكنها كانت تستدع جوانب من النقص كانت في حقيقتها مجافية لمفهوم الاسلام ولو طبق مفهوم الاسلام في العدل الاجتماعي

والمساواة بين العرب وغير العرب لضعف أنجاه الخارجين على الاسلام ولما وجدت مثل هذه الشعارات مكاناً أو تقبلاً، ولو خلت القيادات السياسية من طابع التعصب والانحراف والاستئثار بالنفوذ والثراء لأولياتها، وكانت أكثر قدرة على الاستجابة لصيحات التحرر وطلاب العدل الاجتماعي لما استطاعت مثل هذه الحركات أن تجد من يستمع إليها أو أن ينضوي تحت لوائها. غير أن أغلب هذه الحركات كانت تستهدف أساساً إسقاط الاسلام بإسقاط دولته، وكانت تعلن العودة إلى الوثنية والمجوسية والنبوية والزرذنية والمناوية وعبادة النار ومن هذه حركة بابك والأفشين وكانت بابك الخرمي، قد راسل ملك بيزنطة وأغراه بغزو بلاد الاسلام فصار هذا الملك وأوقع بالمسلمين، وقد نقلت عن الأفشين أمور تسكيد للإسلام وتجهيد في هدم الدولة، فقد كتب إلى مازيار ملك أشروسنة يقول: أن هذا الدين يعني الاسلام أن إنفقنا أنا وأنتم محونا أثره ونعود إلى دين آبائنا المعجم (يقصد المجوسية). وقد قاوم المعتصم هاتين الحركتين مقاومة شديدة وأنفق في عام واحد — عام ٢٣١ — ألف ألف دينار. والخرمية حركة فارسية حاولت أن تعنهم ببرامج اقتصادية لتخفي هدفها الاساسي وهو التخلص من حكم العباسيين ومن الاسلام وإرجاع مجد فارس والدين المجوسي بشكل ما. وجاءت ثورة الزنج ٢٥٦ هـ واستمرت حتى ٢٧٠ هـ. ثم اندلعت ثورة القرامطة ٢٧٧ هـ التي كانت مرحلة نالية لثورة الزنج فقد انتشرت الدعويان في محيط الفلاحين، هذه القوى التي كانت تعيش في جنوب العراق وبادية الشام وتمثلت هاتين الثورتين مقاومة النظام الاجتماعي والاقتصادي القائم في ظل الدولة العباسية، كما كشفت عن قسوة الحياة التي كانت تحياها هذه الطبقات من العاملين في أراضي الاقطاعيين.

غير أن هاتين الثورتين لم تصدرا عن منهج اسلامي أصلي يتيح لها صفة البقاء، وقد اتخذت كل منهما أساليب غاية في العنف والتدمير، إذ قام الداهون إليها بفظائع لاحد لها، فقد حمل لواء الدعوتين متآمرون ادهوا الانتساب إلى الشيعة واستهدفوا القضاء على الدولة. وقد دمرت ثورة الزنج كثيرا من المدن الهامة كالبصرة والأبلة، غير أن هاتين الحركتين لا تخيلان القيادة السياسية للدولة الاسلامية من مسئوليتها إزاء استخدام هذا العدد الضخم من العبيد في مزارع الاقطاعيين بأجور نافية. وقد جلبوا من شرق أفريقيا وحشد الألوف منهم في أوضاع سيئة، بما يخالف مبادئ الاسلام. أما «القرامطة» فقد بدت حركتهم عن مفاهيم الاسلام بعداً أشديداً، بل حاولت أن تبهم الاسلام بأنه مصدر امتداد الجاهلير، ولم يكن ذلك في الواقع هو مفهوم الاسلام، ولم يكن تطبيقه هو مصدر الظلم، بل على العكس من ذلك، كان التخلف عن أيولوجيا الاسلام التي قامت على العدل الاجتماعي والمساواة، هو مصدر قيام مثل هذه الثورات. وقد صاغ القرامطة دعوتهن في

مفاهيم المجوسية والثنوية والوثنية فادھر أن الجنة هي الدنيا ونعيمها، واعتد حمدان قرمط في دعوته على مفاهيم حركة مزدك المجوسية التي قامت في العصر الساساني، كما استغل القرامطة تسكنل أهل الحرف ووجهوه لهدم الدولة العباسية والقضاء عليها فأوقدوا فيها نار التدمير. وحملت « الحركة الباطنية » نفس مفاهيم الحركة البابكية الخرمية، مستهدفة القضاء على حكم العباسيين وهي الاسلام وإرجاع مجد فارس القديم والمجوسية، ووجدت أرضا خصبة في الطبقات العاملة والفقيرة في سواد العراق من الأتباط والفرس والسريان ولذلك وجهت خصوصيتها إلى « الدين » واعتبرته مصدر الشقاء، ومن هنا جازيت مفهوم الدين أصلا واحلت بدلا منه مفهوم الفلسفة، ولما كان أهل المناطق التي وجهوا إليها دعوتهم يؤمن بالاسلام ومن الصعب حملها على خلعه، فقد أنجھوا إلى طريقة التأويل أو علم الباطن، وكان الباطنية « قادرين » على تعديل وسائلهم بما يناسب الوسط مع الاحتفاظ بالأساس والمهدف الذي يرمون إليه وهو القضاء على الاسلام معا، ودولة الاسلام، وكانت الحركة القرمطية إحدى حركاتهم وقد اتخذت الباطنية من الحشيشة وسيلة إلى إغراء الشباب المنظم إليها باعتراف مذهبها، وذلك بدھوی أن من يموت في سبيل غايتها ينتقل إلى الجنة فكانوا يحدرون الشباب بالحشيشة ثم ينقلونهم إلى حدائقهم الجميلة فإذا استيقظوا وجدوا أنفسهم في ذلك الفردوس المصنوع، وقد خدعوا كثيرا من الشباب بهذه الوسيلة وازداد نفوذ الحشاشين قوة وخاصة في فارس والعراق، ومن أكبر معارقلهم في « قلعة الموت » قرب بحر الخزر، وقد أنهى المغول سلاطنتهم التي ظل يهدد الدولة العباسية أكثر من قرن ونصف قرن. وهكذا مرت حركة التآمر على الاسلام باسم الاسماھيلية والباطنية والحشاشية، بصور وأشكال متعددة، وكان أبرز وسائلها إذاعة السخط على الدولة العباسية بالدھوة إلى حق العلويين « الشيعي » في الحكم، بينما كانت تهدف أساسا إلى القضاء الاسلام نفسه وذلك بمزج مبادئ الأديان والفلسفة، واستغلالها، لخلق روح التدمير الاجتماعي مستغلة في ذلك الطوائف والعناصر غير العربية.

وينسب الدور الأكبر في تنظيم الحركة الإسلامية ووضع مبادئها إلى عبد الله ابن ميمون القداح وقد اتبع أتباعه وأولاده أثره في توسيع نطاق الحركة. ويؤكده مؤرخو الغرب أمثال دي ساسي وديموج بوجه خاص وجود دافع سياسي لدى عبد الله ابن ميمون القداح هو رغبته في القضاء على سلاطان العرب وعلى الاسلام الذي جلب إليهم تلك السلطة وإرجاع مجد فارس القديم مرة أخرى. ويؤكد الدكتور عبد العزيز الدوري في كتابه العصور العباسية المتأخرة القول: بأن القداح أراد أن يقوض الاسلام فأشعل الشهور الشيعي عند الجماهير، وكون المذهب القرمطي المؤدى إلى الاتحاد

واستغل اسم اسماعيل بن جعفر (الصادق) في إثارة حركة وشعبية قوية تنقل الملك إلى أحمد أحفاده باسم « المهدي » .

وقد ارتبطت مختلف حركات القرامطة ، (في العراق والبحرين خلال القرن الرابع) والحشاشين والباطنية في (سورية وإيران خلال القرن الخامس والسادس) كانت لهم دهوة في كل زمان ومقالة جديدة بكل لسان (الشهرستاني) وأهم مبادئهم مبدأ (الباطن) الذي كان من أبرع الأساليب وأدهاها وأقدها على التأثير بين جماعات مختلفة المذاهب والأديان ، فهم يقولون بأن لكل ظاهر باطن ولكل تنزيل تأويل ، وأن الظاهر بمنزلة القشور والباطن بمنزلة اللب . وقد تأولوا آيات القرآن وسنن النبي ، وقالوا أن من ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف وأن جميع ما استعبد الله به العباد في الظاهر من الكتاب والسنة أمثال مضروبة ونحتها معان هي بطونها وعليها العمل وفيها النجاة (ابن الجوزي) ويرى الباحثون والمؤرخون أن غايتهم الأساسية سياسية عامة ، وأن تطبيق التأويل كان خبير وسيلة لاستخدام الكنب المقدسة لجميع الأديان لتحقيق غرضهم في جمع مختلف الطوائف تحت لوائهم للقيام بالثورة المنشودة (الدكتور الدوري) والأثر الفارسي القديم ظاهر في تضاهيف هذه الدعوة ومفاهيم الثنوية والمجوسية واضحة في جوهرها ، مما يؤكد أن هدفها كان ضد الإسلام أساساً وأنها كانت حلقة من المؤامرة على كيان الإسلام ودهوته .

وقد أكد البغدادي : أن الذين وضعوا أساس الباطنية كانوا من أولاد المجوس ، وكانوا مائنين إلى دين أسلافهم وقال « لا نجد على ظهر الأرض مجوسياً ألا وهو مواد لهم (أي للباطنية) منتظر لظهورهم على الديار . وقد قاومت الفتن هذه الحركة مقاومة ضخمة ، وواجهت مفاهيمها وردت هايتها ونقضت شبهاتها وأكده للمؤرخون أنها حركة معادية للإسلام ناشئة من دين أجنبي بمحسباتها حركة فارسية إيرانية ضد العرب وأنها وثيقة الصلة بالحركات الفارسية كالراوندية والخرمية والبابكية وامتناد لها . وقال الدكتور الدوري : أنها تمثل نمو مبادئ الزردكية التي تطورت بظهور الإسلام واكتسبت ثوباً إسلامياً . وقال ابن الجوزي (أحد كبار المؤرخين للمسلمين) أو الزردكية والخرمية والبابكية والاسماعيلية « حركة واحدة » . والمعروف أن فكرة التأويل ماثوية وفكرة الحلول والرجمة والتناسخ من آراء الفلاة ، والثنوية من تعاليم مزدك ، الداعي إلى استباحة الأموال والأعراض . وتعد حركة اخوان الصفا على نفس الخط ، وهي محاولة للتأمر على القيادة السياسية والإسلامية عن طريق نشر مفاهيم فلسفية تجمع بين مفاهيم الزردكية والبابكية .

ويرى مؤرخو السنة أن الباطنية كانوا يريدون سلخ الناس عن المذاهب والأديان وخاصة عن الإسلام ليركزوا لهم الخيار في اتباع أى مذهب وخاصة للمذاهب الفلسفية والجوسية ، وترك مراسم العبادة الإسلامية (أى رفض الطاهر) . ويقول الدكتور الدورى : أن الدعوة الباطنية (الاسماعيلية) كانت تهدف قبل كل شيء إلى أحداث ثورة اجتاهية ولما كان الإسلام هو أساس النظام القائم فقد حاولت هذه الدعوة بطريقة التأويل والتلشؤ توحيد للتدريسين من كل العناصر والأديان في جو من التمازج لتقويض المجتمع وإقامة آخر .

وقد هاجم الإمام الفزالي « الدعوة الباطنية » وما جرى على يديها من ترويع وإرهاب وسفك دماء . وبينما كان السلاجقة يكافحون الباطنية بوصفها خطراً سياسياً كان الفزالي يكفحها من حيث أنها انحراف عن مفهوم الإسلام ومقوماته . فكشف في كتابه « فضائح الباطنية » عن بدعهم وضلالهم وفنون فكرهم ووجوه استدراجهم الناس . وقد اعتبر الفزالي : الباطنية ، والقرامطة ، والقرمطية ، والخرمية : والاسماعيلية ، والسبعية والبابكية كلها فرقاً خارجة عن مفهوم الإسلام . وعمل بيب تلقينهم بالباطنية بأنهم يدهون أن القرآن « باطننا » وقال أن هدفهم الأكبر هو إبطال الشرائع وم اللبسبون إلى حمدان قرمط ، وبابك الخرمي . وقد استطاع خط الدافع عن الإسلام الكشف عن نوايا هذه الدعوة ، في مواجهة تواطؤ الجوس وللزديكية والثنوية الملحدة . ولأحدة الفلاسفة على هدم عقائد الإسلام ، في نفوس معتنقية ، على أن يتخذوا هذه الدعوة في إطار من السرية مستغنيين في ذلك الزكون إلى طائفة يثق بها المسلمون وهم آل البيت ، ولما لم يكن من الممكن إعلان هذه الدعوة إلا بوسيلة خادعة للجماهير الناس ، اتخذ الباطنية منهجاً سرىا مكوناً من تسع درجات ، وقد تجمع في في نطاق هذه الدهوات الموتورون الذين ملأ الحقد نفوسهم من أبناء الأكاسرة والدهاقين ، والروافض والملاحدة والثنوية ومن استولت عليهم الشهوات ودفعهم — هذه المطامع المتباينة إلى التجمع تحت لواء الحركة الباطنية التي قامت على تأويل معاني الشريعة .

(١٣)

حركة الدفاع عن الإسلام

(١)

أبرز ما تنقسم به مرحلة « البلورة والانصهار » أنها كانت المرحلة التي جاءت بعد « بناء عالم الإسلام وتوسعائه » فعندما توقفت حركات التوسع بدأت مرحلة الترسيب وحضانة القيم الجديدة ، ذلك أن الإسلام قد أزال القوى الخائكة التي وقفت في طريق دعوته وأتاح للشعوب التي إنضوت تحت لوائه نظاما جديدا قوامه : « التوحيد — العدل — المساواة » جاءت بدلا من الأوضاع الظالمة القاسية المضطربة التي كانت تعيش فيها الأقطار والأمصار ، غير أن الإسلام لم يفرض نفسه على هذه الشعوب كمقيدة ، بل ترك لها حرية تقبله عن إقتناع أو البقاء على عقائدهم ، ومن ثم نشأت بعد توقف حركات التوسع محاورات ضخمة ومجادلات واسعة في كل أقطار الإسلام ، فقد أتاح الإسلام لأهل الأديان الأخرى من مجوسية ومسيحية ويهودية الدفاع عن معتقداتهم ، وكان المسلمون يردون على هذه المناظرات ويدخلون في مساجلات مع أصحابها على أساس فلسفي جدلي ، ومن هنا كانت الفلسفات سلاحا أخذ به أصحاب الأديان الأخرى ولم يسكن نمة سبيل إلى تجاهل هذا السلاح للدفاع به عن الإسلام إذ كان لابد للمسلمين أن يكونوا على مستوى السجال والجدل ومن هنا ظهرت طائفة « المعتزلة » .

وكان لابد للمسلمين من علماء وفقهاء يمدون هدايت « حركة التوسع » ، من الدعوة إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة — فكانت القوى التي تستمع إليهم تتعرض إلى ذكر الحجج والبراهين التي تعرفها عن الأديان الأخرى (المجوسية واليهودية والمسيحية) وكان كل من هذه الأديان قد تسليح من قبل بالمنطق السرياني والفلسفة اليونانية يستخدمها في الجدل ، وإذا كان عصر الأمويين هو العصر الذي تكاملت فيه حركات التوسع حتى وصلت من السند وبخارى وسمقرتند إلى كاشغر على حدود الصين ، ووصلت من الأندلس إلى حدود فرنسا ، فقد كان عصر العباسيين هو العصر الذي ترسبت فيه قيم الإسلام ومفاهيمه في هذه الجماهير الضخمة التي تنوعت أديانها وتنوعت لغاتها وتنوعت أجناسها ، فبدأت تنصهر في بوتقة واحدة ، هي « بوتقة الإسلام » حيث أخذت ثقافتها وفلسفاتها

وعاداتها وقوانينها ونظم مجتمعاتها تتبلور في «إطار الإسلام» وتخفض لمفاهيمه وقيمه الأساسية، وكان الإسلام بمبادئه وسمة أفقه ومرونته قادراً على تقبل خير ما في هذه الثقافات والفلسفات والقوانين وعادات المجتمع ونظمه وصهرها في مفاهيمه وفق الخطوط العامة لأيدولوجيته، ورد كل ما يتعارض مع هذه المقومات وقد كان النظام السياسي للدولة العباسية، والصبغة المذهبية المتصلة بآل النبي أثرهما في تحقيق قدر كبير من النجاح في سبيل اعتناق أغلبية ساحقة من عناصر المجتمع الإسلامي للإسلام عن اقتناع، فقد وجد كثير من الناس في الإسلام وبساطته وبتواضعه مآدقهم إلى اعتناقه تحرراً من العقائد التي أصابتها الوثنية والفلسفة اليونانية بالتمعبد وما احتواها من اضطراب.

وسعى في هذا السبيل المحدثون بمناهجهم السليمة القريبة إلى القلوب، والمعتزلة (المشككون) بأساليبهم الذهبية المقنعة للعقول، فوجد الإسلام طريقان منه لان بالقلوب والعقول، هذان الطريقان هما - يمثلان مفهوم الإسلام الذي يقوم على التكامل والشمول والوسطية، ويخاطب العقول والقلوب جميعاً. وقد استعان المحدثون بالقرآن والسيرة والحديث النبوي والمغازي يعرضون تاريخاً مليئاً بالعزة والسباحة والبطولة والإيمان والعدل والمساواة، واستعان المعتزلة بالجدل والمناظرة والمنطق ونظروا في كتب الديانات الأخرى من مجوس ونصارى، والمذاهب من بجمرة ورافضة ومانوية وقد فجمعت هذه الحركة نجاحاً بالغ النظر فقد تحول كثير من أدبياتهم إلى الإسلام، وأسلم على أيدي المعتزلة كثيرون، حتى قيل أنه أسلم على يد أبي المنذيل العلاف وحده وهو رأس المعتزلة أكثر من ثلاث آلاف رجل، كما أسلم على أيدي المحدثين كثيرون ممن بهرتهم القدوة والخلاق والمثل الأهل، وقد أسلم يوم مات أحمد بن حنبل عشرون ألفاً من النصارى والمجوس واليهود، كما كان لدعاة الوهظ والتصوف أثرهم البعيد المدى، أمثال أبي قاسم الجنيد، وأبي الفرج ابن الخوزي.

وكان الخلفاء العباسيين في هذا المجال دور واضح، فقد نشط كثير منهم الدعوة إلى الإسلام، وكان المأمون يكتب إلى عماله على خراسان في دعوة من لم يكن على الإسلام من أهل (ماوراءالنهر) يستميلهم بالرغبة، فإذا وردوا بابه شرفهم وأنعم عليهم بالاعطيات والأرزاق، وصار المأمون لله على نفس الخطوة، فغلب الإسلام على أهل ماوراءالنهر من السند والأشروسنة وأهل الشاش، بل لقد كان المأمون يدعو إليه من يرتد عن أسلموا، فيناقشهم ويحاوهم، حتى يقتلهم، ولم يسره

أحد من خلفاء العباسيين أحداً ولم تسكن الجزية تؤخذ إلا من القادرين ، وكانت مرفوعة عن
للسكنين ، والأعشى ، ومن لاحرقه له ، ومرفوعة كذلك عن الرهبان في الديارات والشيخ الكبير
ولم تسكن تزيد عن ٤٨ درهما الفنى و٢٤ درهما للوسط و١٢ درهما للعمال والصناع في العمام (الخراج
لأبى يوسف) ومن هنا لم تسكن هذه الجزية البسيرة بدافمة أصحابها إلى ترك أديانهم إلا عن إيمان
واقناع وتفضيل .

(٢)

المعتزلة والدفاع عن الإسلام

أنصور حركة التأمر على الاسلام وقد أتيجت لها الفرصة لأن تبرز في خلاف حكم العباسيين
من خلال قضية الموالي والصراع بين العرب والفرس . لقد برز ذلك التباين في صور متعددة من
خلال مراحل متوالية . لقد كان للترجمة وانتشار الفلاسفة وتعدد النظريات الفارسية والهجوسية
واليونانية القديمة بما تحمل من وثنية وثنائية ، داعيا إلى ظهور المعتزلة كدافعين عن الإسلام
بنفس الأسلحة ، فقد برز فريق من الذين دخلوا الاسلام مستهدين بث أفكارهم وفلسفاتهم ،
كوسيلة لمدم الاسلام ، كان أخطر هؤلاء من أذال الإسلام نفوذهم : الفرس واليهود ، ولم تلبث
أن ظهرت شعارات وكلمات منحرفة عن مفهوم الاسلام ، كانت هذه المعاني قد عرفت في محيط
الإسلام منذ حل هيد الله بن سبأ لواء الدعوة إلى بث مضامين الهجوسية في الاسلام عن طريق
الوصاية والرجمة وغيرها . وقد انتشرت هذه المفاهيم وأثارت الفتن ، حين زعم « ابن السوداء »
أفح عليا إله وأن الجزء الالهي يحمل في الأئمة ، وقد جاهد الامام على ونفاه إلى ساباط المدائن ،
وحرق بعض أتباعه ، ومن أتباع ابن سبأ ظهرت فرق الغلاة « السيئة » وبدأ ذلك الخط الدقيق
من المؤامرة على الاسلام ، هذا الخط الذي اتسع من بعد ، حين توسع في استخدام أفكار الغلاة
والأديان القديمة ولم يلبث متفقو المسلمين أن اصطنعوا نفس السلاح ، وظهر « المعتزلة » كأقوى قوة
فسكرية في هذا المجال ، فكان لهم فضل الدفاع عن العقيدة بالحجة العقلية ، وفي مقدمتهم وأصل
ابن همام ، والنظام ، وأبو طندا العلاف ، والجاحظ والجبائي .

وقد كان عمل المعتزلة في هذه الفترة من صميم الدفاع عن سلام ، بإعطاء العقل مكانة في مفهوم
الاسلام ، غير أن المعتزلة تطورت من وغالت في مكانة العقل وبعدت بذلك عن مفهوم الشمول
والشكامل والوسطية في الاسلام ، هذا المفهوم الذي يمزج بين العقل والقلب ، فانحرفت عن مفهوم

الإسلام الشامل الجامع ، وبلغ ذلك نهاية الاضطراب حين تدخلت الدولة ففرضت مفاهيم المعتزلة على الناس ، غير أن خط الدفاع عن الإسلام لم يلبث أن تطور حين ظهر رجالات من أبرز رجاله ما : الأشعري والماتريدي . أما الجاحظ فقد كان هلياً بأساليب الكلام وطرق الجدل مع الإمام بالديانات وللذاهب الكلامية وللناطق ، فقد رد الجاحظ على للشبهة والنصارى واليهود ورحض شبهاتهم ، وهذا فضلا عن دوره في مواجهة الشعوبية والرد على دعايتها . وقد قاوم المعتزلة البدع والخرافات التي أخذت تدخل على مفاهيم الإسلام وتسيطر على عقول العامة واستأصلوها ، إيماناً منهم بخطرم في الزحف على أصول الإسلام ومقوماته الأساسية ، وفي مجال العقائد الفلسفية للنزاة ، استطاع المعتزلة أن يواجهوا جدل أهل الأديان الأخرى وأهل الفلسفات بنفس أسلحتهم ، وكان لهذه الحركة أثرها في إحاطة الإسلام بدرع قوى في مواجهة خصومه . وكان المعتزلة أول من أدخلوا الفلسفة في الإسلام محاولين التوفيق بين الدين والفلسفة ، وأطلق على مناهجهم التي استعملوها « علم الكلام » أو فلسفة الدين أو علم التوحيد ، وقد غل أهل السنة بعيدين عن هذا المجال ، حتى ظهر أبو الحسن الأشعري الذي كان من أنصار المعتزلة ، ولم يلبث أن خرج عليهم حين انحرفوا عن الهدف الأول وقاومهم بنفس أسلحتهم ونصر مذهب السنة واصطنع أساليب « علم التوحيد » في مناصرة أهل الحديث في البحث والمناظرة والاستدلال .

ولقد كان لهذا الخطر الذي امتد من المعتزلة كدافع من الإسلام بأسلحة الفلسفة في وجهه خصوصاً ، ثم تطورها على يد الأشعري والماتريدي إلى الدفاع عن السنة والحديث ، كان لهذا العمل أثره الذي لا حده في ازدهار الإسلام وعلومه ، كما مهد لظهور للذاهب الفقهية . وكان أبو الهذيل العلاف أول متكلم إسلامي تأثر بالفلسفة ، وهو من أوائل من ناقشوا أصحاب المال الأخرى من الجوس واليهود والمسيحيين ، وكانت البصرة موطن أبي الهذيل في هذه الفترة توج بتيارات مختلفة تحاول أن ترد الإسلام وكتابه عن المسكاة التي يلقيها وتدافع عن دياناتها ومذاهبها وفلسفاتها وتواجه هذا الدين الجديد بسلاح الجدل ، وكان الاسلام من قبل بسيطا سمحا ، وكانت الديانات القديمة قد تفلسفت وتأثرت بالفلسفة اليونانية بالذات التي انتشرت في الشرق منذ فتح الاسكندر ، وكانت الفرس — هم القطاع الثاني من الاسلام بمد العرب في هذه الفترة — قد عرفوا الفلسفة اليونانية ، وكان اليهود والنصارى والجوس قد تأثروا بها جميعا واتخذوا سلاحا للمحافظة على ديانتهم ، ومن هنا كان أنجاء المسلمون إلى الأخذ بسلاح الفلسفة أنجاء ضرورة لا ممدى عنه ، وقد أدار « أبو الهذيل العلاف » مجالس المناظرة التي كان يعقدها المؤمن مع أهل الديانات الأخرى ، وعرف بقوة هذه ،

وفصاحته ، فقد قرأ بدقة مختلف هذه الديانات وتبحر في الأدب العربي وحفظ كثيراً من الشعر العربي ، وكان أبو الهذيل مقتدراً على توجيه الجدل والرد على كل الشبهات والانتصارات في النهاية ، وذلك لحض قدرته على تعمق آراء الفرق المخالفة للإسلام وعمله بالشبه التي تثار حول القرآن والإسلام وإخام منيرها . وكان ذلك الجدل الحر المنطلق هو أروع ما عرف في مساحة دين ، يسمح في مجال حكمه وفي ظل دولته بالجدل وينبج لأصحاب الأديان والمذاهب المختلفة حرية الدفاع عن معتقداتهم ، ومن قبل أظلمهم بظله دون أن يفرض على هذه الطوائف الانتقال إليه قسراً ، بل سمح لهم بأن يقيموا شعائرم في حرية ، ومن هنا وفي ظل الحرية المتاحة ، بقي كثير من أصحاب الأديان الأخرى على عقائدهم القديمة مخلصين لها .

ثم كان لهم من بعد أن يعلموا في تحويل المسلمين إليها ، وكان من المسموح به أن يتحدث جبر عن يهوديته وقبيل من مسيحيته ، وكان أبو الهذيل يناقش هؤلاء ويجادلهم ، وبلغ من أمر هذه الحرية أن ألف « يحيى الدمشقي » كتاباً يعلم فيه المسيحي الدفاع عن دينه وعمله عن طريق السؤال والجواب ، فيقول : إذا قال لك المسلم كذا فقل له كذا ، وكانت هذه الفترة — بعد أن توقفت أعمال التنوع — مرحلة انصهار واسعة وبلورة ضخمة للفكر والمجتمع الواسع الضخم ، وكان لترجمة الفلسفة اليونانية وانتشارها أثرها في خلق هذا الجو الجديد ، وكثيراً ما كانت هناك محاولات لاختاذ هذه الفلسفات والمواقف وسيلة للتأمر على الإسلام ولقد كان المعتزلة في مرحلة من مراحل حياتهم الفكرية « دعاة الدفاع عن الإسلام » وحقاً لواء القدود عنه ، غير أنهم مع ثقافتهم الواسعة وبراهنهم لم يعمقوا الإسلام ، قد ووقفوا منه عند حدود الجانب العقلي وأسرفوا في تقديره ، وكانت تلك نقطة الضعف : الاسراف في تمجيد العقل والايان الذي لا حد له باقتداره ، فقد رأوا أن العقل البشري قد منح من اليقظة والسمعة ما يمكنه من إقامة البرهان حتى فيما يتعلق بالله سبحانه وتعالى :

هنا برزت ظاهرة التجزئة في مواجهة قانون التكامل في مفهوم الإسلام ، هذا القانون الذي يقف في وجه كل فكرة متقدمة إذا بلغت درجة الانحراف ، لقد بانح المنةزلة درجة الانحراف حين أغفلوا تماماً جانب القلب ، والإسلام بوصفه أيولوجية يقوم على الشمول والتكامل والوسعية ، وعلى القلب والعقل معاً ، فإن الايمان بالعقل وحده وإعلانه إنما يمثل انحرافاً بالإسلام عن مفهومه الذي لا يجعل الاهلاء لشيء سوى الله وحده ، ولقد أخذ على المعتزلة كثير من المؤرخين والباحثين أنهم حاولوا إخضاع العقائد الإسلامية للعقل وحده ، وكان هذا اتجاهها خطراً على مفهوم الإسلام

التسكامل ، وأنهم أفرطوا في قياس الغائب على الشاهد ، وأن سيئهم وراء السلطان العقلي قد جعلهم قد جعلهم ينقلوا الاسلام إلى مجموعة من القضايا العقلية والبراهين المنطقية ويحولوه إلى نهج فلسفي ، وليس الدين (أقصد الاسلام) كالمسائل الرياضية ولا النظريات الهندسية ، وإنما يجمع — دوماً — بين العقل والقلب والعلم والروح . وجهة القول أن نظام المعتزلة نظام جيد التفكير ضعيف الروح ، غالى في تقدير العقل وقصر في قيمة العاطفة (ضحى الاسلام : أحمد أمين) . ولا شك كان الاهتزال هو الجناح الثاني للتصوف والزهد ، وكان كلاهما يستمد من مقومات الاسلام ، ولذلك كان لا سبيل أن يسرف أحدهما فيستأثر بمفهوم الاسلام دون الآخر . ولقد بلغ أمر الاهتزال غايته في الانحراف والانحراف حين فرض نفوذا سياسيا في عهد المأمون ، وضع الناس موضع الامتناع بخلق القرآن ، وأثار أزمة سياسية وفكرية بعيدة المدى تصدى للوقوف على رأس معارضتها الامام أحمد بن حنبل بوصفه أبرز رجال الحديث والفقه . إذ قال أحمد بن حنبل : القرآن كلام الله لا نقول عنه أنه مخلوق أو غير مخلوق . غير أن السياسة لم تلبث أن غيرت موقفها وجاء على رأس القيادة السياسية رجل أبعد المعتزلة وقرب أهل السنة ، وكان ذلك كله مقدمة لتحول خطير في صفوف المعتزلة ومفاهيمها وهو ظهور « الحسن الأشعري » وكانت موجة الاهتزال قد سيطرت واستخدمت في إثارة الشبهات في وجه السنة ، والعقائد ، وبدأ بعض دعاة يعيثون بتفسير القرآن ، واضع على أنجاه تقديس العقل وتحسينه في كل شيء ، وبدأ أن (الإيمان) يتعرض لصراع مع العقلية ، هنالك برزت « شخصية الأشعري » كقوة دافعة جديدة لتصحيح مفاهيم الاسلام والقضاء على الانحرافات التي أنتجها تحول المعتزلة . وكان الأشعري من المعتزلة أصلا ، ولكنه آمن بالسنة ، وكانت السنة قد بلغت درجة التقليد والجمود بينما بلغت المعتزلة درجة الانحراف ، هنالك كانت صيحة الأشعري بقطعة جديدة تخرج الاهتزال في السنة بوصفها رمز لمفهوم الاسلام الذي ينتمى « بالشمول والتسكامل والوسطية » فقد أعاد صياغة الفكر الاسلامي على النحو الذي يعطى السنة أسلحة الاهتزال لتجديدها وتدافع بها عن جوهرها ، وتنشئ لفكر الاسلامي أفقا مجدداً يقف على الجمود والانحراف معا .

٣ - بلورة الفكر

أما وقد اتسع المجتمع الاسلامي وأخذت العناصر المختلفة تنصهر فيه : عرب وترك وفارس وبربر ، كما أخذت الثقافات والفلسفات والأديان تتبلور فيه ، فقد كان من الضروري أن يبرز نمط خطير في مواجهة مفهوم الاسلام ، ذلك هو موقف الفكر الاسلامي من القانون الروماني والفلسفة اليونانية ، ومن الحسكة الفارسية ، ومن مفاهيم اليهودية والمسيحية ، ومن أهداف الوثنية والجوسمية واللاتونية ، فن خلال الانصهار والتبلور جرت حركة التزاوج في مجالى الأجناس والأفكار وعملية التوليد : الاجتهادى والعقل ، فكان ضرورياً في خلال هذا البحر الخضم الذى يقذف بالثقافات والعادات والفلسفات والأديان ، أن يبرز الفكر الاسلامي واضح الحدود والمعالم ، كاشفاً عن خطوطه العامة ومقوماته الأساسية ، لتكون الإطار الذى تلتقى فيه هذه الثقافات جميعها وتنصهر ، وقد زاد هذا التحدى قوة : توسع حركة الترجمة من الفارسية واليونانية ، هذا التحدى هو الذى فرض تدوين السنة والفقه ، وتحقيق الحديث وتقنين الفقه ، وتنسيق مصادر التشريع الاسلامي .

وهناك حقيقة هامة هي أن «أيدلوجيا الاسلام» قد تمت قبل اختيار الرسول للرفيق الأعلى ، وأن مقومات الفكر العربى الاسلامي قد تمت قبل الترجمة من اليونانية والفارسية . وقد أثمرت هذه الحركة الضخمة عملين كبيرين : (١) تحقيق الحديث والسنة على النحو الذى قام به البخارى ومسلم ومالك والترمذى وأبو داود السجستانى والنسائى وابن ماجه . (٢) تقنين الفقه على النحو الذى قام به مالك والشافعى وأبو حنيفة وابن حنبل .

ومن هنا نكون صورة واضحة لمفهوم الاسلام ومقوماته ، محققة دقيقة ، استوعبت إراث الفكر الاسلامي منذ بدأ الرسول محمد ﷺ دعوته وما تابعها من أحكام وأحاديث وقضايا واجبهها الخلفاء الراشدون وصحابة الرسول ، وما اتصل بذلك كله من أمور تتعلق بتنظيم المجتمع الاسلامي في مجال المعاملات بين المسلمين وبعضهم البعض وبين المسلمين وغيرهم من أهل الأديان الأخرى ، وقد كان خلق هذا الاطار وتسكوينه ضرورة خطيرة بعيدة الأثر في هذه المرحلة في مواجهة مختلف التيارات والأفكار والقضايا النابعة من فلسفات اليونان والهند والفارس ، ومن مفاهيم الديانات وللذاهب المختلفة .

كان هذا العمل الفكرى الذى يطلق عليه حركة «التدوين في الاسلام» عاملاً هاماً في مواجهة

ذلك السيل للندفقي من ثقافات الشعوب والأديان التي انطوت تحت لواء المجتمع الاسلامي ، فقد حدد موقفه منها ورسم لها المقومات الأساسية والقيم العليا للاسلام منسلة في (التوحيد ، العدل الاجتماعي والإخاء الإنساني كما أيا ن عن أبرز مضامين الاسلام ومقوماته وهي : الشمول والتكامل والوسطية ، بين الروح والمادة والعقل والقلب ، والدين والدنيا ، كما كشف عن طابع الاسلام الأساسي : دنيا ومدنية ، وأبرز مرونة الاسلام وقدرته على الحركة وتفتحها على الثقافات والحضارات ، ودعائه الأساسية في التجدد والاجتهاد والتطور على النحو الذي يجعله قادراً على الحياة والاستمرار مع تطور الأزمان والحضارات ، في مختلف البيئات والاقطار ، فقد جعل الاسلام « الاجتهاد والاستنباط » في مقدمة أسسه العامة حرصاً منه على مواجهة التطور ، ولم يمنع — في حدود هذه المفاهيم والأسس — من الاقتباس من مختلف النظم الرومية والفارسية والثقافات اليونانية والهندية « تنظيمات لانظما » ، مادامت لا تمس هذه القيم ولا تخرج من هذا الاطار .

وهكذا كشف الاسلام في مرحلة التيلور والانصهار على قدرته الفائقة في تذويب الثقافات المختلفة وصهر الفلسفات والمذاهب ، وبلورة المفاهيم بحكم أنها أساساً مفاهيم إنسانية عامة تستهدف خير البشرية ، وبذلك أبان عن طابعه العالي الإنساني الشامل بوصفه « الحتمية التاريخية » التي تتطلع الإنسانية إلى بلوغها مهما وقفت العقبات في طريقها على مسار البشرية الطويل ، ومن هنا كشف الاسلام عن دوره الإيجابي في لقاء التاريخ ، ومن هنا تفتت الأسس التي استطاعت أن تلقى الضوء الكاشف على محاولات تحويل الاسلام من مجراه ، أو تجزئته ، مفهومه ، أو طاقته عن طريقة ، أو انتقاص شموله وتكامله . على النحو الذي بدا في حركات التناحر على الاسلام التي توالى في هذه المرحلة .

وقد كشف الفقهاء والمعلماء والمحدثون في هذه المرحلة عن قدرتهم الفائقة ، على إحياء الفكر الإسلامي وتوسيع أفاقه بما جعله قادراً على الاستجابة للحضارة والتطور ، وذلك باستنباط المسائل وحل القضايا ووضع الإجابات السمحة للمضلات ، واستخراج النتائج والفناوى في كل ما يتعلق بتنظيم التجارة وشئون المجتمع ، وقد أحصى لأبي حنيفة أنه أجاب عن ٦٠ ألف مسألة منها ٤٥ ألفاً في للمعاملات (مناقب أبي حنيفة للسكي) وأورد مالك في المدونة (٣٦ ألف مسألة) وجمعت مسائل أحمد بن حنبل في أربعين مجلداً (الجامع لمولم الإمام أحمد : أبو بكر الخلال) وقد سارت هذه المدارس كلها في طريق واحد ، تنوالى على نحو متكامل وتقوم على أربعة قضايا هامة :

(١) الاجتهاد باعطاء المجتمع الحلول الفقهية لمختلف معضلاته . (٢) تصحيح المفاهيم إذا اضطرب الطريق أو خرج من مفهوم التكامل والوسطية . (٣) الدفاع عن الاسلام والرد على الشبهات الموجهة إليه . (٤) النقد الاجتهادى للمجتمع ، ومناصرة الولاء .

ولقد ظل عمل مفكرى الاسلام طوال هذه العصور ، هو « إعادة صياغة مفهوم الاسلام » وتشكيله على النحو الذى تكشف عن قدرته الفائقة فى الاستمرار متفاعلاً مع التطور فى البيئات المختلفة على توالى العصور ، متقدماً نحو تحقيق الحرية والعدالة والأخوة والمساواة بين بنى البشر فى ضوء التوحيد ، ولقد كان لذلك العمل بعده إلهام بالنسبة لحركة الترجمة التى أعطاها الفكر الإسلامى تقديره وثقته ، حتى اشترط الخلفاء على البيزنطيين فى عقود المهادنة والصالح ، تقديم المخطوطات اليونانية ، وقد نقلت هذه المترجمات فلسفات ونظريات لم يقبلها الفكر الإسلامى على هلالها بل قبل منها ورد منها فى نطاق مفهومه ، وفى إطار مقوماته الأساسية واستطاع أن يستفيد من النطاق كسلاح للدفاع عن الإسلام فى مواجهة استعمال أصحاب الأديان الأخرى له .

وقد تبلور هذا العمل عن صياغة كاملة لأيدولوجيا الاسلام : السياسية والاجتماعية والاقتصادية وقد قامت هذه الأيدولوجيا على القرآن ، والحديث ، أما القرآن — الوثيقة الخالدة التى خلت من التحريف على مر العصور — فهى المصدر الأول ، أما الحديث فقد حوى ذخيرة ضخمة بالأحكام والمواقف والأقضية ، التى واجهت المسلمين كجنتهم خلال ثلاثة وهشرين عاماً فى حياة الرسول ، هذا الحديث كان فى حاجة إلى مراجعة وتنقيح ، ونفى المكذوب منه ، وقد حمل لواء هذه المهمة أهلهم أبرار ، عاشوا حياتهم كلها ، وقد اهتمت أساساً على الصحف التى كتبت فى حياة الرسول وحفظت لدى أوائل المسلمين ، وقد كانت هذه الجوامع والمسانيد والسنن هى الأساس لتجميع وقد قطع المحدثون وفى مقدمتهم « البخارى » أعمارهم فى السفر من أقصى العالم الإسلامى إلى أقصاه طلباً لتحقيق الحديث من أقصى المغرب إلى خراسان .

غير أن إطار الاسلام للثقافة الجديدة قد ظل واضح الأثر فى حركات النقل والترجمة والاقتباس فإن المسلمين مع كونهم ترجعوا الفلسفة والعلوم والثقافات ، فانهم لم يترجعوا أى تشريع أو قانون أو نظام . وفى مجال الفلسفة فإن الفلاسفة المسلمين أخضعوا ما نقلوا إلى مفهوم الاسلام فى التوحيد والنبوة . وقد ظل دعاة الاسلام وعلمائه وفقهائهم ، قادرين دائماً على المحافظة على مفهوم الاسلام

وأيدولوجيته ، وبموجب هذا التفریق بین مبادئ الإسلام وتعالیه وبين التطبيق الذي رسمه التاريخ لقيادات السیاسية الإسلامية المختلفة ، فقد ظل الفكر الإسلامي قائماً حياً يُدفع من كيانه عوامل الانحراف والتجزئة والاضطراب ، ويدافع عن التطبيق ، وظلت الجماعة الإسلامية قوية حية سليمة ، فان للمسلمين لم يعودوا سيرتهم الأولى قبل الإسلام ، ولم يتراجعوا عن الإسلام بعد إذ أسلموا ، وظلت طبقات العلماء والزهاد والمجاهدون والدعاة والطبقات الشعبية ، مثل مفهوم الإسلام ، لم تنحرف إلا بعض الطبقات الحاكمة والمترفة . ومع ذلك فقد ظلت الشريعة الإسلامية نظاماً مطبقاً في مختلف العصور حتى أوقفها الاحتلال الغربي ، غير أن نظام الإسلام في بعض المراحل قد أسوء تطبيقه ، ولكن هذا لا يعني أنه قد أبعد نهائياً عن مجال التطبيق .

وقد مرّت مرحلة الصراع بين المذاهب والأديان والأنظمة والفلسفات وتبلورت في صورة «فكر إسلامي عربي» له مقوماته المستمدة من الإسلام وله قدرته على التطور والحركة ، وقد عولجت على أساسه مشكلات الجماعة الأساسية ، وقد استطاع الإسلام أن يواجه التقبسات من الثقافات الميلينية والفارسية وأن يصورها في بوتقته بحيث أصبحت فكراً عربياً خالصاً . واستطاع «الفكر الإسلامي» أن يحقق نتائج هامة :

- (١) القدرة على استمرار أيدولوجيا الإسلام ، وفكره وفقه في مختلف الأزمنة والبيئات مع استطاعته المرنّة على موايضة الحضارات والثقافات المختلفة وذلك لحيويته وقدرته على الحركة وإيجابيته وتقدميته . (٢) مواجهة الصراع الفكري والرد على المؤامرات الموجهة للإسلام . (٣) استمرار انتشار الإسلام وتوسعه وتعمده ، ونحوّل العناصر المختلفة في المجتمع إلى الإسلام وفتح الإسلام لآفاق جديدة . (٤) نقد المجتمع الإسلامي ومقاومة الانحرافات من ترف وإباحة ومناسحة الحكام والولاة . (٥) تصحيح المفاهيم ، ومقاومة الانحرافات الفكرية التي تحاول تجزئة الإسلام وإقصائه من مفهوم النسكامل والوسطية . (٦) إعادة صياغة الإسلام بالتجديد ورد الانحراف بكشف القيم الأساسية ودفع الإسلام في مجراه إلى الامام مع العمل على إزالة ما يحول بينه وبين الحركة ، كالنجميد أو التوقيف أو التجزئة .

(٤)

انصهار المجتمع الإسلامي

في هذه المرحلة تمت عملية إنصهار المجتمع الإسلامي ، وقد واجهت عملية الانصهار خطوات بالغة الدقة ، فقد كانت الجماعات المختلفة في العراق وفارس والشام ومصر وبرقة ، تحصل عناصر مختلفة وديانات مختلفة ، وقد تداولت عليها حضارات ومدنيتان متعددة .

ولم يكن العرب حين قاموا بحركة التوسع قد هزلوا أنفسهم عن أهل هذه الأقطار ، بل أنهم إنصهروا فيها بالنزواج والتوليد ، وكانت أبرز القضايا الاجتماعية هي : الرقيق ، أو الأمري ، أو الموالي ، كما تعددت أسماءها ، وكان بروز هذه القضية طبيعيا نتيجة لحركة التوسع وما يتصل بها من رق وولاء ، غير أن هذه الجماعات قد أخذت تنصهر بسرعة بعد أن دخلت بيوت العرب عناصر فارسية ورومانية وفارسية ومصرية وبربرية ، نتيجة للزواج أو التسرى ، فلما جاء الجيل الثاني لعصر التوسع حل معه دماء مختلطة ، وقد أتاح الإسلام لعملية الانصهار أفاقا من السمة والسماحة حققت الاختلاط والامتزاج والمشاركة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، فلم يكن العرب بوصفهم أصحاب حركة التوسع مستعمرين انزلوا عن هذه الشعوب ، بل إنهم اقتداندمجوا في الأقطار منذ اليوم الأول ، مما جعل بعمله « الانصهار » ، فضلا عن أن الإسلام لم يكن يفرق بين العناصر المختلفة . كما امتزجت العادات الفارسية والرومانية بالعادات العربية ، و انتظمت كل عمليات البلورة والانصهار مختلف مرافق الحياة الثقافية والاجتماعية والسياحية والاقتصادية .

ولم تفسد إلا فترة قليلة خلال نظام الأمويين الذي قام على السيادة العربية حتى انصهرت القوى العربية مع العناصر الأخرى ، وفي حكم العباسيين الذي أصبح طابعه إسلاميا شاملا تمتدق الانصهار وأتيحت الفرص لسكل العناصر أن تقيم دولا حكومات . غير أن هذا « الانصهار الاجتماعي » قد حفظ أمرين أساسيين : اللغة العربية والإسلام ، قد انسحبت هذه العناصر من أديانها أولا بأول كما انسحبت من لغاتها ، إذ أصبحت اللغة العربية هي لغة العلم والسياسة ، ولقد كان طابع الإسلام واضح البروز في هذا المجتمع الجديد الذي امتزجت فيه العناصر المختلفة ، فقد ظهرت حركات النقد الاجتماعي ، ومناصرة الولاء والزهد كرد فعل على الانحرافات التي اضطرب بها المجتمع ، وفي مواجهة حركة الهوى والانحراف . وقد حملت بعض هذه الفرق لواء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وفي مقدمتها حركة خالد الهدريوس وسهل بن سلامة الأنصاري وهم من دعاة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بكتاب الله . يقول الطبري أنه تبعهما خلق كثير ، وقال ابن خلدون : أن الذي دعا إلى هذه الحركة هو توافر أهل الدين والصالح على منع الفساق وكف عاديهم .

ثم كانت حركة الزهد التي قادها : عبد الله بن المبارك ، شعبان ابن عيينه ، سفيان الثوري ، الفضل بن عباد هي رد الفعل على انحراف الجمع ، وقد رفض هؤلاء عطاء الأمراء . وعندما ظهرت حركة الزنادقة (الشك والإلحاد) قاموا العلماء ، والخطباء ، يقول المسمودي أن المهدي آمن في قتل للملحدين والمداهين عن الدين ، ولما انتشر من كتب ماني وابن ديسان دسوقيون ، ومما ترجمه من الفارسية والفهلوية إلى العربية وما صنف ابن أبي العوجاء وحده مجرد ويحيى ابن زياد ومطيع بن إلياس في تأييد المذاهب المانوية والديسانية . كما أمر المهدي رجال الكلام والمعتزلة بالبحث والكتابة في الرد على الملحدين ، وقد قاموا في ذلك بحركة واسعة دحضوا فيها شبه الملحدين . وقد اتفق الخليفة الهادي (١٦٩ هـ) نفس الطريق الذي سلكه المهدي ، فقام أصحاب ماني التي وصفت بأنها « فرقة تدهو الناس إلى ظاهر حسن ، ثم تخرجها إلى هبادة اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة » كما تعقب الرشيد الزنادقة (١٧٠ هـ) كما واجه العلماء والفقهاء كل فرقة ظهرت تقاوم الإسلام ، من أمثال عبد الكريم ابن أبي العوجاء الذي وضع أربعة آلاف حديث مكذوب ، وحجاج الراوية ، وصالح بن عبد القدوس ، وبشار بن برد ، وابن المنعم . وقد كان دعاة الزهد ونقد المجتمع ، يراهم هذه الحركات ويصححون المفاهيم ، ويدحضون دعاوى اللطالين ، ويمجدون تقديراً بالغا لما أنتموا به من ورع وتقوى ، وهزوف عن أصحاب الجأه والسلطان . وكانت سفيان الثوري مع صلاحه وورعه يعيش من تجارته ويرفض عطاء الولاة ، وكان المعتزلة في مقدمة من تصدوا للرد على الزنادقة ، وفي مقدمتهم أصل بن عطاء وأبو الهذيل العلاف ، وبشر ابن المعتمد ، وإبراهيم ابن النظام وهكذا واجه الإسلام كل ما جرى له من مزاخرات لشعوبه أو أويله وبقي قادراً على الاحتفاظ بدينه وروحه ، طاب به وسلامة شخصيته وعمله . كما قاوم البدع والأفكار والأعمية والثنية كما امتنع بالديار والتعرف والإلحاد والزنادقة والفلسفات حتى شك الناس في قدرة الإسلام على مقاوم هذه الهجمات ، ولكن الإسلام لم يستسلم ولم ينهزم ، وقام خلال مختلف مراحل رجال أعلام ودعاة أبرار فضحوا المتآمرين ، ورفعوا التحريف عن الإسلام ، وكشفوا عن جوهره الأصلي ، وقاوموا البدع والخرافات ودافعوا عن السنة دفاعاً حاراً ، وحاربوا الوثنية والتعرف وجهروا بالحق في وجه الولاة والأمراء ، وبذلك انتصر الإسلام في هذه المعركة الضخمة خلال مرحلة التباور الفكري والانصهار الاجتماعي وصهر التراث

الإنسانى كله فى بوتقته ، دون أن يخرج من أصوله ومفاهيمه وأساسه . ومضت قوى الدفاع عن الإسلام وتحريره من الزبوف وتنقيته من التقاليد والبدع ، والتحريف ، وإعادة عرضه فى صورته الصادقة بما يؤم تطور المجتمعات وتحول العصور ، وظل تاريخ الإصلاح والتجديد متصلاً لم يتوقف ولم ينقطع ، فلم تمر فترة دون ظهور مصلح أو مجدد ، يمارض التيار المنحرف ويكافح الفساد الشامل ، ويرفع صوت الإسلام الحق ، ويفتح نوافذ جديدة أمام اتصال الإسلام بالحياة ، وقدرته على الأخذ والعطاء ، وما من مجدد وعالم أو مصلح إلا وقد أضاف إضافة مهما كانت صغيرة فقد كانت ضرورة فى عصرها وجديدة ، وبذلك بنى المصلحون لبنات فى هذا البناء الضخم كشفاً لجوهر خصائص الإسلام وتجديداً لاتصاله بالطبيعة وفتحاً لطريق الإسلام إلى غايته فى حتمية التاريخ : نظاماً للإنسانية كلها .

(١٤)

دور الإسلام فى العلم

منذ كشف الإسلام عن مفهومه فى تقدير العلم والعقل ، انفتح الطريق أمام المسلمين إلى أفق البحث . فقد كشف القرآن عن منهج جديد هو « منهج البحث العلمى » والجدل العلمى ، والمطالبة بالبرهان والدعوة إلى إيمان النظر والفكر كما حمل على المنكرين الذين يعملون عقولهم ، وأعطى الإسلام العقل قدرة ، ودعا إلى النظرة فى السكون وجعل العقل أساساً للتفكير والتفكير فى الطبيعة ولفت النظر إلى السماء ، والأرض ، والجبال وخلق الإنسان والنبات ، ودعا القرآن إلى إيقاظ العقل ورفع من شأن العلم والعلماء « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وكانت نظرة الرسول إلى العقل نظرة واضحة وهو عنده أصل الإسلام وأساسه ومناط التكليف ، وأن لا دين لمن لا عقل له : فالعقل أصل دينه ، وبه يتفاضل الناس ، وقال : العقل نور فى القلب يفرق بين الحق والباطل ، وفضل الإسلام العالم على العايد ، خذ الحكمة ولا يضررك من أى وهاء خرجت ، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة .

وفى نطاق هذه المفاهيم كانت انطلاقة للمسلمين والعرب إلى مجال الفكر والحضارة فأصبح للعلم مقامه الإسمى فى الفكر العربى الإسلامى ، وقام منهج هذا الفكر جامعا بين العقل والوجدان ، محاجة ومحاجة وتفريراً ، فلا تمارض بين العقل والنقل ، وقصد أخضعوا الأدب والفكر للبرهان ،

وعالجوا القضايا على أساس للنطق والدليل دون أن يخل ذلك بمفهوم التكامل والشمول في الإسلام
« مادة وروح » مما .

وقد فتح لهم هذا « الإيمان بالعقل » الذي أمدهم به الإسلام أبواب البحث العلمي والتجربة حين
كانت أوروبا غارقة في ظلمات العصور الوسطى، ومن ثم أبرز الإسلام تفوقاً ملحوظاً في مجال الحضارة وسام
بدور فعال في مختلف عناصر العلوم والفنون : الطب والصيدلة ، الكيمياء والنبات والزراعة ،
الرياضيات والفلك والجغرافيا ، التجارة والصناعة ، العمارة والبحرية ، الإدارة والموسيقى والفروسية
واستند المسلمون قاعدة البحث العلمي من مفهوم القرآن أساساً ، وقد بدأ اتجاه العقل الإسلامي إلى
هذا المجال مبكراً ، قبل عصر الترجمة ونجلي ذلك أولاً في مجال الفقه والتشريع والقانون ثم امتد إلى
مجال العلوم ، وكان يزيد بن معلوية في مقدمة من تناولوا هذه العلوم ، ثم كان للترجمات التي تمت في
خلال خلافة المنصور الرشيد والمأمون ثمرة في بروز العقلية الإسلامية في مجال العلوم حيث استطاع
مجموعة من العباقرة المسلمين الانتفاع بما وصل إليه اليونان في هذا المجال والإضافة إليه والتوسع فيه
على نحو حقق نتائج بعيدة المدى .

وقد امتد هذا القطع منذ القرن الثالث الهجري إلى القرن العاشر ، لم يتوقف ، ولم يخل دونه
الأحداث التي اضطرب لها عالم الإسلام : في مرحلة « الفزو الخارجي » ، وقد انتظم البحث العلمي
عالم الإسلام كله ولم تقتصر وحدة من وحداته على العمل وحدها ، فن حران والقاهرة ودمشق
وبوزجان وخوارزم وطوس وبغداد والري وقرطبة وبخارى والبصرة ظهر ذلك العدد الكبير من
العلماء الذين عملوا في مجال الجبر ، والتفاضل والتكامل ، وذلك والطب والرياضيات والبصريات
والجراحة . ومنهم من جمع بين الطب والفلسفة (الرازي) ومن جمع بين الفلسفة والنجوم والفلك
والحساب والهندسة والطب والطبيعيات والموسيقى (السكندی) ومنهم واضع علم الجبر (الخوارزمي)
ومن تساوى مكانه في الكيمياء مكان أرسطو في المنطق (جابر بن حيان) .

في هذه المرحلة برز جابر بن حيان ومحمد بن موسى الخوارزمي والسكندی وثابت بن قرة والبناني
وأبو بكر الرازي والفارابي والبوزجاني وابن يونس وابن سينا وابن الهيثم والبيروني وأبو القاسم
الزهرای . وقد حقق هؤلاء العلماء في مجال العلم بأنواعه إضافات جديدة ، تسلمها من جاء بعدهم ،
وكانت بيئة المشرق في هذه المرحلة ذات أثر واضح ، ثم أصبحت بيئة الأندلس من بعد أكثر قوة

واختلما ، ومنها تحولت نهضة العلوم إلى الغرب فأن كل جزء من أجزاء الأندلس كان يسقط في أيدي الفرنجة إما كان يصبح بدراساته وتجاريه التي حققها الحضارة الإسلامية خلال القرون المتوالية جزءا من أوروبا ، لقد تعلم المسلمون والعرب من الفكر : اليوناني والهندي مبادئ هذه العلوم ، ثم تعمقوها وقدموا عليها تصحيحات هادفة وإضافات مهمة . وليس صحيحاً ما رددته خصوم الإسلام من أن العرب لم يكونوا إلا قلة ، تقول دكتورة سجريد هوتك : « حين أخذ العرب هذه الأشياء فانهم لم يكونوا مجرد وسطاء لنقلها فحسب ، إلا فإن الإغريق هم وسطاء أيضاً ، أن لكل عبقريّة طابعها الخاص ، وطريقها الخاص ، وإن ما أثر العرب الخالدة لنقوم على تطويرهم بواسطة المشاهدة والتجربة للمعطيات العلمية الموروثة من الإغريق ، وأن العرب هم مبدعو « التجربة » بالمعنى الدقيق للكلمة ، وهم الخالقون الطبيعيون « للاستقصاء العلمي » فقد كانوا أول من جعل من الوقائع المعزولة عن منها نقطة الانطلاق لكل بحث ، وهندئذ أصبح الارتقاء الصبور من الخاص إلى العام أو الطريقة الإستقرائية : الطريقة العلمية الأساسية ، وأن الفكر الغربي لم يستيقظ من ذلك الخدر الذي أثقل عليه طوال ألف عام ويفرد جناحيه لكي يطير ، إلا بعدما استمسك المنجزات العربية في الميادين التقنية والصحية والإدارية ، بعد ما تبني هذه المنجزات على المستوى الحضارى . »

وشهدت أبحاث المسلمين في مجال العلم أنهم كانوا لا يضمون قاعدة إلا بعد تجربة واسعة تباين هشرات المشاهدات وقد قدم المسلمون في مجال العلوم كشوفاً جلي : (١) في مجال النكاح وحركات النجوم ، شيدو « مراقب » في مختلف العواصم وبلغوا الغاية في استقصاء السماء وتوصلوا إلى اكتشافات لا حصر لها في تحديد مدارات الشمس والقمر والنجوم ، بصورة متزايدة لدقة . (٢) وفي مجال الرياضيات بلغوا الغاية في حل المسائل بواسطة الحساب وهم أول من استخدموا الفاصلة للإشارة إلى الكسور ، كما أسسوا علم المثلثات والحساب الستيني وقسموا الدائرة إلى ١٦ درجة ووضعوا الحساب التفاضلي الذي أسسه ابن سينا وقد قادت الفارابي نظرياته في الفنون الموسيقية قريبا من اللوغاريتم ، ونظريته في المقادير المنتهية في العصر مع نظرية ابن سينا ألهمت العلماء الأوروبيين :

× ابن سينا : اكتشف الطبيعة المعدية لمرض السل ، وصف مرض الإلتهاب في الفشاء الصدري وكثيراً من أمراض الأعصاب وهو أول من كشف مرض الأنكاستوما وإعلامات الإصابة والقابلية لمرض السل . + الرازي : كشف عن مرض الجدري والحصبية ، عرف الطعوم واكتشف أن مركز الإبصار هو قاع العين ونادى بأن السكيا يجب أن تستغل في خدمة ألعاب وعرف كثير

من الأطباء المسلمين فائدة السكى، وأعراض السرطان الذى يعيب المعدة، ووضعوا الجراحات للضادة في حالات التسمم، وهو أول من وصف استخراج اللسان من العين.

× ابن الهيثم: أول من قرر أن الرؤية تتم ليس بواسطة شعاع تطلقه العين في اتجاه الأجسام إلى العين التى تراها بواسطة جسمها الشفاف بل العكس ووضع نظرية الظل وكان سابقا إلى استخدام المفرقة للظلمة في تجاربه × جابر بن حيان مؤسس علم الكيمياء × أنطونى ما زال اسمه يطلق على الأعداد وهو علم الجبر × البيرونى: حدد الكثافة النوعية لكثير من المعادن والأحجار الكريمة × الزهرادى أعظم الجراحين وفي كتابه «التصريف لمن يعجز عن التأليف» وصف دقيق لعمليات الجراحية، أو من لجأ إلى استئصال حصاة المثانة من النساء عن طريق اللبيل ونجح في شق القصبه الهوائية كما أجرى عملية نفثت الحصاة من المثانة. وفي مجال الطب إكتشف علماء المسلمين: التطعيم ضد الجدري (الرازي وابن سينا)، وابن النفيس الذى إكتشف دورة الدم الصغرى قبل وليم هارفى بأربعمائة عام، وقد استغل بالطب عدد كبير من المسلمين بلغ في عصر واحد في عاصمة واحدة، «بغداد»: في عهد الخليفة المتوكل بالله ما يقرب من تسعمائة طبيب. والجرجاني كشف عن تضخم الغدة الدرقية وبهاء الدولة عرف السعال الديكى، ومهر المسلمون في الجراحة وخاصة في أمراض العين، وكانوا أول من طبق طريقة التخدير العام في العمليات الجراحية، كما كانوا يستخدمون التعقيم بواسطة السمكادات الحارة، وكان الأطباء المسلمون أول من استخدم المرقد (المخدر) في إجراء العمليات ووضعوا علاج اليرقان والهواء الأصفر، وأول من كتبوا في الجندام ووسائل انتقال المرض وكان لهم دورهم في الصيدلة يقول جورج سارطون: إن التشريح كان في أوروبا ممنوعا البتة، فلما اجتئنا إلى الإسلام رأينا أن صناعة التشريح قد بلغت فيه الذروة وخصوصا في المغرب، وأعظم تقدم علمى حققه المسلمون كان في علم البصريات وفي مقدمتها أبحاث السكندى وابن الهيثم والخازن. فقد عارض السكندى كل كل من سبقه من العلماء الذين اعتقدوا أن العين ترسل أشعة تبصر بها الأشياء المرئية فقرر أن شكل الجسم المرئية هو الذى ينفذ إلى العين مراراً من خلال العين مراراً خلال الفتحة الشفافة (المعدة) وفي دراسات إنكسار الأشعة وانكسارها وانقلاب الصورة المعكوسة. (٣) وفي الكيمياء لم ينجح العلماء المسلمين، وما تزال كثير من المصطلحات الكيميائية الأوروبية تحمل الاسم العربى، كالنيتروجين والأكسجين، والتقصير، والتشور، والزرنيخ، والداق والحجارة والزرنيق. (٤) وفي الطبيعيات درس المسلمون علم مركز الأتقال وخواص السوائل، (عبد القادر الطبرى) والخازن له بحث في الضغط الجوى، والمسلمين أبحاث في الجاذبية سبقوا بها نيوتن. (٥) وفي الرياضيات كانت أوروبا تجهل

استعمال الأرقام : (٦) وفي الجغرافية : ياقوت والمقدمي وابن الفقيه وابن حوقل والممودي والبيروني وابن بطوطة وابن جبير وابن خردزاية والاردبسى ، ومن الظرائط التى رسمها العلماء المسلمون كون « كولومبس » فكرته من السكرة الأرضية وكان اعتقاد الأوربيين أن الأرض مسطحة ، فغير الجغرافيون المسلمون هذا الاعتقاد وأكدوا كروية الأرض ، وقد ذخرت البحار والمحيطات بأساطيل المسلمين وما تزال مصطلحات الفلك عربية : [القلظة ، أمير البحار ، دار الصناعة ، الطرف ، كرمى الجوزاء ، الكف ، الأرنب ، والمرقوب ، سعد المعود] والفزارى هو من أول من اصطنع الاصطراب . ومن أول من اخترعها الكتابة البارزة للمكفوفين : (زين العابدين الأمدى) ، والحالة المالية عرفها العالم الاسلامى قبل أوروبا ، وكذلك الورق والعلابحة ، والقطن أهداه المسلمون إلى أوروبا . (٧) والمسلمون لهم دووم فى الموسيقى ، وقد عرفت أوروبا آلات الموسيقى التى جلبها المسلمون : العود والصمغارة والرباب والصنوج والنفير ، ويقول الدكتور فرانز روزينثال : أعظم نشاط فكري قام به العرب والمسلمون يبدو لنا جليا فى حقل المعرفة التاريخية ضمن دائرة لاهظاتهم واختياراتهم ، فإنهم كانوا يبدون نشاطا واجتهادا فحبيين ، حين يلاحظون ويحفظون ويحسون ويحسون ويرتبون ما تعلموه من التجربة أو أخذوه من الرواية والتقليد ، ولذلك فإن أساليبهم فى البحث أكبر ما يكون تأثيرا عندما يكون الأمر فى نطاق الرواية والوصف . ويقول فرانز روزينثال : أن الغاية يجب أن تكون عند المسلم محددة واضحة قبل الشروع فى أى بحث ، أما البحث الذى لا يعلم صاحبه إلى أين سيؤدى به ولا النتائج التى تسفر عنه فيحرم فى الإسلام ، وحلجة هذا العلم أن يعرف الانسان أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وأعتقد أن العقيدة بالقضاء والقدر ، لم تؤثر التأثير السوء فى النشاط الفكرى الاسلامى طيلة قرون عشرة ، لقد كان المؤرخون المسلمون ، كما كان العلماء يعتمدون على الوثائق المدونة ولم يكن للمعارف السنية تعتمد الذاكرة شأن فى تأليفهم . ولم يكف المؤلفون المسلمون عن ذكر « الجذاذات » التى كانوا يدونون عليها الملاحظات أو يدونونها منها المقتبسات ، وقد هنى علماء الحديث والفقه وعرفوا فى الدرجة الأولى بالأمانة والدقة فى ذكر المصادر المأخوذ عنها ، لأن الأسانيد فى نظرهم من مادة البحث ، وكل عمل آخر له علاقة مباشرة بهذين العلمين « الحديث والفقه » ، تأثر إلى حد بعيد بالأسلوب المتبع فى درسهما ومعالجتهما ، ومن الواضح أن العلماء المسلمين كانوا يقربون أهل العلم من غير دينهم ويحترمون الثقافات منهم بإحترام ، وقد ألف العلماء المسلمون كتباً لدحض آراء معينة ، وكنبراً ما كان العلماء المسلمون يحاولون وضع مقاييس لتقرير صدق المعلومات لشعورهم بضروره ذلك ، عندما يجابهون المشاكل التاريخية التى يبحثونها ، ويمتد الطبرى أن الظن أو الحدس لا يصلح أن يكون حكاكى لإثبات الحقائق وإن الحقائق لا يمكن الحصول عليها إلا بواسطة

المعلومات التاريخية المتوفرة لدينا . وأوصى رشيد الدين ابن أبي أصيبعة ، المؤلفين والمؤرخين أن ينظروا في كل خبر نظراً عارياً عن محبة أو بغضة وأن يزنوه بميزان العقل والقياس وأن يتفحصوه . وقد كانت الغاية للثلي للثريية عند المسلمين أن يقرب الانسان من السكال ما أمكنه الاقتراب في كل ناحية من نواحي العلم في سن مبكرة جداً ، فإن ابن سينا يباهي بأنه كان يجيد معرفة كل علم وفن يخطر بالبال ، ويقول الأزدى في كتابه تاريخ الممالك الإسلامية : أن الزمن لا ينف بل أن صفته الدائمة التغيير ، ولم تكن فكرة التطور الفكري المستمد من جيل إلى آخر فكرة غريبة كلياً عن التفكير الإسلامي ، وكان الرازي يرى أن تاريخ الفلسفة بناء متواصل على أسس وضعتها الأجيال السابقة ، وتأخذ نظرية ابن خلدون فكرة التطور التدريجي بعين الاعتبار في مجال الطب والكيمياء لم تكن فكرة التطور والنمو التدريجي غريبة على العلماء المسلمين ، وقد اهتموا بلوغ السكال بمعنى أن المتأخر يتم عمل المتقدم هو الصفة الرئيسية التي يتصف بها التطور والنمو من جيل إلى جيل .

(١٥)

« إنتشار الإسلام »

كانت عدالة النظام الإسلامي في مختلف وحدات عالم الإسلام بعد أن تمت حركة التوسع ، عاملاً هاماً في إنتشار الإسلام نفسه وانتقال الناس إليه . فإن تخليص الإسلام للجماعات المختلفة من الجور والظلم كخطوة أولى ، ثم ما حققته من حرية لجماعاتها ودياناتها كتطبيق على الإسلام نفسه ، وفي حدود ما أذاعته تعاليمه وما رسمه عمر بن الخطاب وغيره من الولاة في العقود التي هقدوها كمقد بيت المقدس وغيره ، كل هذا أسرع بالجماعات المختلفة إلى الإسلام بعد أمد قصير ، وزاد في ذلك ما عرف من بساطة الإسلام وبمده من التعقيد وصدق توماس أرنولد حين قال : إن للقوة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل الناس إلى الإسلام ، وقد تواتر جماعات من العلماء والعقهاء في مختلف الوحدات الجديدة إذاعة مبادئ الإسلام وشرحها ، وكان الخلفاء يرسلون إلى كل قطر من بقعة الناس في دينهم وبمحظهم القرآن . وكانت « الجزية » التي يدفعها غير المسلمين — وهي بمثابة ضريبة الدفاع التي تفرض على غير المسلمين في مقابل الدفاع عنهم مع إعفائهم من الاشتراك في القتال — هذه الجزية كانت ترفع فور إسلام صاحبها ، وقد رد المسلمون « الجزية » لأهل حمص عندما تحولوا عنها ولم يستطيعوا أن يتموا أهلها . وقد كانت مغريات « الأخوة » بين المسلمين كافة عاملاً هاماً في اندفاع الناس إلى الإسلام ، وقد شهدت الإرادة في أسلام المجموعات المختلفة كثير من الباحثين المنصفين ، يقول توماس أرنولد :

لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لارغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الاسلام ، أو عن اضطهاد منظم قصد به إستئصال الدين المسيحى ، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التى أقصى بها (فرديناند وإيزابيلا) دين الاسلام من أسبانيا ، أو التى جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانى مذهبا يعاقب عليه معتقوه فى فرنسا ، وأن مجرد بقاء الكنائس الشرقية فى آسيا حتى الآن ليحمل فى طياته الدليل القوى على ما قامت عليه سياسة الحكومات الاسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم ، والمعروف أن المسيحيين فى بداية دخول العرب لبلادهم قد انتقلوا إلى الاسلام فى جموع هائلة . وانست الفترة التى تولى فيها عمر بن عبد العزيز الخلافة (٩٩ - ١٠١) بتعميق ضخم لدهوة الاسلام وتحول واسم النطاق إلى الاسلام وقتل مجال الدعوة الاسلامية من التوسع الجغرافى إلى التعمق العقائدى ، فقد أرسل عشرات الرسائل يدهو الرؤساء والأمراء فى مختلف وحدات عالم الاسلام إليه ، وكانت شخصيته هادلا هاما فى هذه الحركة فإن الصورة التى رسمتها حياة عمر بن عبد العزيز فى سماحته وتفقهه واستغلائه على مظالم الحكم ، وعدالته المقطوعة النظير ، كانت هى أساسا مصدر ما تحقق من نجاح بعيد المدى فى هذا السبيل حتى دخلت ألوف مؤلفة من الناس إلى الاسلام عن طريق الولاة النادرين الذين اختارهم ، وكانوا من تلاميذه فكروا وهلى نهجه عملا .

كما أنه ألقى القرار الذى كان قد وضع قبلا ، فأعفى من يدخل فى الإسلام من دفع ضريبة الرأس ، ورفع ضريبة الأراضى ، واستبدلها بضريبة أخف هى ضريبة العشر ، وكانت هذه الأساليب كما يقول أرنولد : « وإن انطوت على خسارة فادحة من الناحية المالية قد صادفت نجاحا تاما فى الانجاء الذى كان يريد أن أثارها بحقه صاحب العقلية التى أشربت الورع والتدين فبادرت جموع هائلة إلى الدخول فى زمرة المسلمين » . يضاف إلى هذا ما قام به ولادة للمسلمين من عمل متصل فى الرد على الشبهات التى تُثيرها أصحاب الأديان الأخرى وخصوص الإسلام ، والمأمون (١٩٨ - ٢١٨) مثل بارز فى هذا المجال فقد كان شديد الحساسية للجهود التى تبذل فى نشر الإسلام ، وقد أرسل إلى كثير من الأمراء ممن كانوا يقيمون فى أقصى أجزاء عالم الاسلام كبلاد ما وراء النهر وفى غانة يدهوهم إلى الاسلام (البلاغرى) ومنذ أن توقفت التوسع الاسلامى إلى أن بدأ الغزو الخارجى لعالم الاسلام بالهجمات الصليبية كانت عمليات البلورة والانصار الفكرى والاجتماعى تحاول أن تعيد صياغة مجتمع موحد وعقلية متقاربة . وكانت الأجناس العربية والفارسية والتركية والبربرية تتلاقى وتنصهر فى بوتقة عالم الاسلام بمحدوده الجغرافية لتسكون « أمة واحدة ذات عقلية واحدة » . وكانت الفلسفات والمذاهب

والنظريات والعلوم والآداب والفنون الهندية والفارسية والرومانية واليونانية والمسيحية واليهودية تحاول أن تنصهر في بوتقة الفكر الاسلامي بمقوماته الأساسية لتسكون فكر أمة واحدة . غير أن ذلك العمل كان على ضرورته خطيراً ودقيقاً ، وكان مائتاً بالتحديات ومؤامرات خصوم الاسلام ، ومن هنا بدأ ذلك الصراع للضخم بين الفقهاء والفلاسفة والصوفية ، في معركة كبرى ذات نهل وفرق ، مختلفة متعارضة ، كان قوامها سياسى فى الأغلب ، غير أنها لم تلبث بعد أجيال متعددة أن تبلورت من قيام « أسس كاملة » للفكر الاسلامى دعائمها القرآن نفسه ، وقوامها « جوهر الاسلام » كما دعا إليه محمد رسول الله ، أساسه « التوحيد والنبوة والقرآن » ، على قواعد الاسلام الأصلية ، ولم يبق اختلاف قائماً إلا فى الفرعيات والقضايا والمسائل التى لابد من اختلاف فيها نتيجة اختلاف الأجناس والأوطان والظروف : وكانت أكبر قضية خلافية هى قضية العقل والروح : هذه التى أقامت معسكرى السنة والشيعة من ناحية ، وطبعت للفكر الإسلامى بطابع فلسفى معتزلى من ناحية وطابع صوفى روحى من ناحية أخرى . والواقع أن الإسلام فى جوهره ليس إلا امتزاجاً دقيقاً وواهباً بين العقليات والروحانيات فلا يمكن الفصل بينهما ولا يرجح أحدهما عن الآخر ، وكل ادعاء بأن جانباً بمفرده يمثل مفهوم الإسلام هو ادعاء مردود .

وقد كان رجحان العقليين فى مرحلة من مراحل تاريخ الإسلام مدعاة للاضطراب ، كما كان رجحان الروحيين فى مرحلة أخرى . ومن هنا كانت حتمية الاستمرار فى الإسلام قادرة على تصحيح المفاهيم ورد كل انحراف ينشأ بين حين وحين ، بقيام داعية مصلح يعيد صياغة مفهوم الإسلام على أساس جوهره القائم على التكميل والشمول والوسطية .

وفى خلال « مرحلة التبلور » والانصهار ظهرت دعوات المعتزلة والفقهاء والفلاسفة ثم برزت الصوفية التى تحمل طابع الزهد أول الأمر ، وكانت رد فعل لتطرف والانحراف الذى أصيب به المجتمع الإسلامى فى تطوره ثم تطورت الدعوة الصوفية فى القرن الثالث من زهادة ملتزمة لقواعد الإسلام متمسكة بالفقر ومحاسبة النفس والتوكل على الله ، إلى فلسفة نظرية قوامها دعوة إلى وحدة الوجود والحلول والاتحاد وبذلك انخرقت عن مضمونها الإسلامى الأصيل ، حين تأثرت بالفلسفات القديمة والنظريات الباطنية والمنحرفة التى كانت بعض دعوة خصوم الاسلام فى سبيل إخراجها عن مفاهيمه الأصلية . وقد إتصلت بأصحاب الدعوة إلى الصوفية الفلسفية ، شبهات التأسر على الإسلام فإن كلام من الحلّاج والسروردي قد اتهم بمخالفة حركة من حركات الانتفاض على الإسلام .

وقد قدم التصوف الإسلامى فى تياره الأول « الزهد » روحاً جديدة إلى الفكر الإسلامى تخفف من جفاف الطابع العقلى الذى سيطر على دعوات الفلسفة والاعتزال والفقه ، غير أنه لم يلبث أن دخل فى متاهات فلسفية أذهبت عنه إصاحته وسماعته وبساطته المستمدة من « جوهر الإسلام » حين أخذ يبحث فى قضايا المعرفة والأحوال والمواجد والأذواق ، غير أن الإمام الغزالى فى نهاية هذه المرحلة قد استطاع أن يقضى على هذا التمزق الذى أصاب الفكر الإسلامى بانقسامه إلى فقه وتصوف ، فأعاد صياغة الفكر الإسلامى من جديد فامتزج التصوف والفقه وعادت إلى الإسلام وحدته ، وكان هذا مقدمة للوحدة الإسلامية التى استطاعت من بعد أن تواجه الغزو الصليبي ، غير أن التصوف كان قد تحول إلى مرحلة جديدة ، قوامها تكوين الفرق الصوفية ، هذه الفرق التى توسعت فى مرحلة الغزو الخارجى من بعد .

والحق إنه إذا كان « التصوف » الذى بدأ بألم الزهد إنما جاء بمثابة رد فعل على الإتراف فى الغرب الذى وقع فيه الأمراء والولاة والحاكين ، فإنه قد انحرف حين تحول إلى دعوة واسعة من مفهوم الإسلام فى التحرر من الفقر ، وهذا التحرر الذى يتم بتحويل الطبقات الشعبية إلى البصر بإحقاق العدل الاجتماعى والزكاة ، وليس بإقرار الفقر وفلسفة الرضى به والدعوة إليه ، فقد ظهر فى ظل الدعوة الصوفية مفهوم التواكل والاسلام وقبول الذل والفقر ، مما يخالف مفهوم الاسلام نفسه ، وإن كان قد قام فى خلال تلك الفترات من دعا إلى الإصلاح ومناصحة الولاة وتحرير مفهوم الاسلام من انحراف التصوف كدعوة جزئية تنقسم بطابع الروحية ولا تشمل شمول الاسلام وتسكاته ووسطيته التى تجمع بين الروح والمادة ، والعقل والقلب ، والعمل للدنيا والآخرة معاً . وقد خرجت الصوفية بذلك من بساطة الاسلام وفطرتة وعباداته البسيطة وظهره السبع حين تحولت إلى رموز ومعميات وانفصلت به هروة فلسفة الاسلام التى تجمع بين حصول المعرفة عن طريق القاب والعقل معاً . أبرز ما يتمثل فى هذه المرحلة بعد أن بلغت « موجة التوسع والامتداد الإسلامى غايتها هو أن العوامل المختلفة قد أخذت تتجمع محاولة أن توفقها أو تصدها ، وبدأ أن الموجة قد بلغت غاية امتدادها الزمنى خلال أكثر من مائة عام من ناحية وغاية امتدادها الجغرافى إلى قارب أوروبا . من ناحية أخرى فى خلال هذا التوسع كانت معركة أخرى على وشك أن تدور ، معركة من طرفين أحدهما فى الداخل والآخر فى الخارج ، وكلاهما يجمع على دحر الاسلام وتقليص ظله والقضاء عليه . وقد تنبه المسلمون لمدين الخطرين ، أما أحد الخطرين فكان قريباً ملاصقاً يتحرك فى قلب عالم الاسلام ويتمثل فى عمليتين : (١) عمل حركى ، يحمل طابع التأمر السياسى على نظام الدولة ويتمثل ذلك

في حركات الباطنية القرامطة والباطنية وغيرها . (٢) عمل فكري ، يحمل طابع الشعوبية والتآمر على قيم الاسلام ومفاهيمه ، وقد كانت أغلب هذه الحركات تجمع بين التآمر السياسي والتشكيك للفكرى وتستهدف ذلك القضاء على الاسلام بالقضاء على دولته ، والقضاء على مفاهيمه . ولقد امتدت هذه المعركة طوال تاريخ الاسلام وامتدت للمقاومة ورد الفعل لهذا التحدى ، في ظل جبهة من العلماء والفكرين والدعاة يمكن أن يطلق عليهم اسم «المصلحون المجددون» بحمل لواء العمل لمواجهة هذه الحملات التي هي أشد عنف عنفا من الحملات العسكرية والحربية وقد استمرت هذه الجبهة قوية ممتدة على طول التاريخ كله لم تنوقف ، تواجه هذه الانحرافات والشبهات وتكشف محاولات الخصوم في القضاء على المفهوم الأساسى والقيم الأصلية الاسلام . وقد استطاعت هذه الجبهة أن تحقق كثيراً من النصر ، وأن تقضى على هوامل نيجزئة مفهوم الاسلام أو تحريفه أو تشويهه وقد برز هذا العمل واضحا خلال هذه المرحلة ، في مجال ترجمة التراث : اليونانى والفارسى والهندي وتداخل للفاهيم الوثنية والاسرائيليات والشبهات إلى مضمون الاسلام . ولقد كانت هذه المعركة خلال تلك المرحلة من أبرز المعالم التاريخية لهذه الفترة التي تتحمل فيها قوى : (١) قطاع الترجمة والنقل من الفكر اليونانى والفارسى والهندي . (٢) قطاع الزهد والنقد الاجتماعى وشجب المجتمع . (٣) قطاع العلماء العاملين في مجال تقييم الفقه والسنة . (٤) قطاع المدافعين عن الاسلام في مجال العقيدة .

(١٦)

«مرحلة الغزو الخارجي»

(٤٩٣ - ٨٩٨ هـ)

«إذا كانت مرحلة (التبلور والانصهار) هي نتاج طبيعي لمرحلة بناء الاسلام وتوسعاته فإن مرحلة الغزو الخارجى هي الرد الفصل الطبيعي لصراع الغرب مع عالم الاسلام الذي بلغ قمة أبعاده بالتوسع وأهماته بالانصهار فكان لابد من مهاجمة من كلا طرفيه ، من طريق المشرق على ساحل الشام وعلى حدود الغرب على أطراف الأندلس ، ثم كان إن بلغت (الأزمة الاسلامية) قمتها بالجماعة المغولية التنارية الملتزمة مع الصليبيين على هدف موحد هو تطويق الاسلام وخنقه غير أن الاسلام بوصفه حتمية التاريخ كان قادراً على المقاومة والدفاع عن نفسه حين انبثقت من أحشائه

القوى الثلاث البدوية الشابة : [السلاجقة والمماليك والبربر] التي سحقته الغزوات ثم كانت قدرته البعيدة الأثر في إخماد التتار والمغول في بوتقة وفرض حضارته على وفكره الغرب .

* من تاريخ الاسلام في مراحل متداخلة فإن الجماعة الاسلامية التي انصهرت في الجزيرة العربية خلال ثلاث وعشرين عاماً لم تلبث أن حققت اندفاعاً ضخماً باهرة أقامت عالم الاسلام من حدود الصين شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً في أقل من مائة عام ، هنالك ازدهرت مرحلة الانصهار والبلورة التي كانت قد بدأت فعلاً بعد قيام « التوسع » بانصهار العرب بالفرس والترك والهنود وتضام الوحدات الاسلامية .

غير أن الصراع الداخلي ، في عالم الاسلام ، والانحراف عن مقومات الاسلام بالنفك والصراع والتخلف في مجال القوة والوحدة والعدل الاجتهادي قد هيأ الفرصة لضربات متوالية من الغزو الخارجي ، جاء من الغرب أولاً « الحروب الصليبية » ثم جاءت من الشرق « غزوات التتار » واستمرت قرنين كاملين ، لم يستطع المسلمون خلالها مواصلة التوسع لأنهم تخلفوا عن مقومات الاسلام وكانت الغنائم مصدراً من مصادر المزينة ، ولم يستطع المسلمون مواصلة التبلور والانصهار في مجتمع واحد ففكر موحد ، كان الخلاف والخصومة والصراع بين الأمراء والملوك المسلمين المتجاورين ، وكان الخلاف بين عناصر المسلمين أنفسهم ، هرباً وفرنساً وبربراً ، كابت هذه كلها جميعاً نفس مصادر المزينة التي عدها الاسلام من عوامل الانقياد والتخلف وفي ضدها تكن عوامل النصر والقوة ، والحق أنه حين ضعف مركز السلطة والوحدة السياسية ، تمكن الفرنجة من تسديد الضربة ، ولقد حذرت « أبندولجيا الاسلام » من هذا الضعف والتفريق ونوهت بأهمية إنضمام الصفوف وتلاحم القوى ، كما دعى الاسلام إلى القوة الحربية واليقظة في الثغور لمواجهة العدو ، وكان الفرنجة — من نافذة بيزنطية التي ظلت مركز الصراع بين الاسلام والغرب خمسة قرون كاملة — أشد من المسلمين يقظة لأخبار دار الاسلام بينما قصر المسلمون في الاحاطة بتحركات الفرنجة ، وهو نقص وصفة الاسلام بالغفلة حين أشار إلى ضرورة اليقظة في ترصد أخبار العدو . ومن هنا تمد « حركة الغزو الخارجي » لعالم الاسلام من أبرز صفحات تاريخ الاسلام فقد واجه الاسلام غزواً مزدوجاً من خارجة : من طريق حملات التتار والمغول الوثنية القادمة من المشرق زاحفة على « كاشغر » ومن طريق حملات الفرنجة والغرب والأوربيين على عالم الاسلام من طرفيه : حدود بيزنطية وحدود الأندلس ، أما هجمات القوى العسكرية المغولية فقد توالى وامتدت خلال قرن من الزمان وكان أبرز مواجهاتها ثلاث حملات كبرى هي حملات جنكيز خان وهولاكو وتيودورلوك ، غير أن الاسلام

استطاع أن يفرض من داخله هذه القوة وبحولها من الوثنية إلى التوحيد . أما القوة التي خارت
الاسلام بعنف وأمرار وشراسة فهي القوى التي أطلقت عليها : اسم القوى الغربية الفرنجية الأوروبية
هذه القوى التي أحست منذ اليوم لظهور الاسلام ، أنه قد سيطر على مناطق كانت داخلة تحت
نفوذها كالشام ومصر وأفريقية . ثم كانت اندفاعه الإسلام إلى أوروبا من خلال معارك القسطنطينية
في آسيا الصغرى ومعارك شبه جزيرة إيبيريا في أسبانيا مصدراً لفكرة استعمارية صليبية في عالم
الغرب وأوروبا تهدف إلى سحق تيار الاسلام والحيلولة بينه وبين النفاذ إلى قلب أوروبا . وقد استمرت
هذه الحركة وازدادت على الأيام قوة وهنفاً ونشكلت في صور مختلفة ، وضمت تضعف وتقوى ،
وتتقدم وتراجع حسبما ترى الظروف أمامها .

وقد أثبت التاريخ أن حركات الانقراض على الإسلام من بيزنطة ومن أسبانيا استمر متصلاً
طوال القرون ، وفق خط لم تمت أبداً وما ظن أنها ماتت حتى اليوم ، أو ستموت غداً ، ذلك الصراع
الذي أطلق عليه : الصراع بين الشرق والغرب أو الاسلام والمسيحية ، أو ما نطلق عليه نحن :
« الصراع بين عالم الاسلام والغرب » وإذا كانت هذه الفكرة قد بدأت منذ بدأ الاسلام بمد
نفوذه الثقافي والسياسي إلى مناطق كانت تابعة للاستعمار والإخضاع إلى الدولة الرومانية ، ثم حيث
مد الاسلام نفوذه إلى الأندلس وإلى القسطنطينية ، فإن هذه الفكرة لم يلبث أن أخذت طابع الغلو
لتسيطر على مقدرات الفكر الغربي وتكون هدفاً أساسياً ضخماً ، لم يكن في ذاته جديداً ، فقد كان
بين الغرب والشرق قديماً . وكان في آخر مراحلها يتمثل في فتح الاسكندر الأكبر للشرق ، وبه
رجعت كفة الغرب وسيطرته ، ولكن الصراع القديم قد أخذ طابعاً جديداً أشد هتفاً وشماساً حينما
برز الإسلام فأحاله هذه للمنطقة إلى طابع جديد من حيوية التوحيد والمعدل والمساواة ، هذه القيم التي
أيقظت المنطقة وأهلها فأحست بكيانها الانساني ، قادرة على أن تبشر مفهوم السيادة ، وأن تقف
موقف الندد للغرب وأن تواجه بالمقاومة الضامدة لعدوانه وغزوه ، لقد طبع هذا الموقف عالم الغرب
من خلال مفاهيم السيادة والاجتماع والاقتصاد والثقافة بطابع النحس الذي أطلق عليه
« الحروب الصليبية » والتي اشتعلت فعلاً واستمرت مشتعلة طوال هذه القرون لا تتوقف ،
منذ بلغ الإسلام القسطنطينية والأندلس ، حتى جاء الورد الذي على رأس قوات الغرب الغازية
إلى القدس ١٩٩٨ فقال كلمته التي عبرت عن ضمير الغرب وفكره إزاء الاسلام وعالاه حين
قال « اليوم انتهت الحروب الصليبية » .

كانت فكرة الغزو الغربى لعالم الاسلام كامنة حية ، متحركة لا تتوقف ، تمثلت فى تلك الجولات المستمرة بين بيزنطة من ناحية وأطراف الاسلام عالم (الموصل وحلب والشام) وفى الصراع بين الأندلس ودولة قشتالة والفرنجية من ورأها . ثم لم تلبث أن وجدت أمامها فترة ضعف فى ظل موجة السلاجقة التى تخافتت ، فسكّلت تلك الحملات الصليبية المتواصلة خلال قرنين كاملين فى غارات لا تتوقف على جميع سواحل عالم الاسلام فى الشام ومصر والمغرب جميعا .

ثم لم تتوقف هذه القوة من بعد وإن ضعفت وخضعت ، وقد استطاعت أن تجلى الاسلام والعرب من الأندلس من بعد ، وأن تنتصر فى هذا القطاع فى مواجهة هزيمتها إزاء الضربة القاضية التى أوقعها القوة الاسلامية الشابة : « النمانية » بها بالاستيلاء على القسطنطينية بعد محاولات منهكة لم تتوقف من جانب عالم الاسلام . وهكذا يمكن أن يطلق على هذه المرحلة التى تعد من أدق مراحل تاريخ الاسلام : « مرحلة الأزمة الكبرى » فقد كان توقيتها طبيعيا بالنسبة لرسالة تمت الدنيا ل فترة قليلة من الوقت ، فكان لا بد أن تمتحن حتى تكشف عما إذا كانت جذيرة بالبقاء والخلود شأنها فى هذا الامتحان شأن كثير من الدهوات والرسالات التى سبقها وعاصرتها ، وقد كشفت هذه الأزمة عن جوانب القوة وجوانب الضعف فى المجمع الاسلامى وأتاحت الفرصة للمسلمين لمواجهة أنفسهم وتجميع قواهم . ولم يكن هناك مصدر للضعف إلا ذلك التناقض بين قيم الاسلام وبين أحمل المسلمين ، أو بين الأيدلوجيا والتطبيق ، فإن عوامل الانقراض لم تقع من كل جانب من خصوم الاسلام إلا بتقدير محسوب بضعف عالم الإسلام أو اضطرابه أو وجوده أو تصوره عن حماية نفسه أساسا .

وإذا كانت « أزمة الاسلام » أساسا هى الغزو الخارجى والانقراض عليه ، وكان أبرزها أن هذه الفترة : غارات الصليبيين والتتار ، فإن المصدر الحقيقى لذلك هو ضعف الجبهة الداخلية وتفككها ، وتاريخ الصراع بين الاسلام وخصومه يكشف عن حقيقة واقعة ، مازالت مستمرة ، وقائمة قوام هذه الحقيقة : أمران : « الوحدة » وهى عمل معنوى و « القوة » وهى عمل مادى فطلما كانت الوحدة والقوة استطاع عالم الاسلام أن يوجه خصومه وأن يرهب للترصين به .

والحق أنه كان لا بد أن يمر الاسلام من أزمة ضخمة تستمر فترة طويلة يمكن أن توصف بأنها نصف قرن من الزمان ، امتدت فيها المعارك من الأطراف الثلاثة : من حدود عالم الاسلام فى المشرق الأقصى عن طريق التتار ، ومن حدودها الشمالية من حدود دولة البيزنطيين عن طريق الصليبيين ،

ومن حدودها الغربية من طريق فرنسا وأسبانيا في عمليات الانتفاض واسترداد الأندلس . لقد بدأت عمليات غزو عالم الإسلام في أواخر القرن الخامس غير أن هذه العمليات لم يبدأها خصوم الاسلام إلا بعد أن تأكدوا من ضعف الجبهة الداخلية ، وانقسام الوحدة ، وتراخي القوة ، وهي مرحلة بدأت قبل ذلك بوقت طويل .

ويمكن القول أن حله القوى الخارجية على عالم الاسلام إنما جاءت كرد فعل لفترة المد الطويل خلال خمسة قرون ، وكانت الأطراف التي امتد إليها الاسلام هي مصدر الانتفاض : من طرفين : الأول : آسيا الصغرى (الدولة البيزنطية) . الثانية : غرب أوروبا (فرنسا وأسبانيا) . ومنذ بدأت أعمال التوسع الإسلامي حول القسطنطينية من ناحية ، وحول الأندلس من ناحية أخرى لم يتوقف الاشتباك ، فهل يمكن القول بأن اقتحام الاسلام أوروبا خارجا من آسيا وأفريقيا كان هو المصدر الأساسي لهذه المعركة التي يمكن أن يقال أنها امتدت منذ عام ١١٤ هـ حتى الآن ولم تتوقف خلال ألف وثلاثمائة عام . غير أنه لو لم يقتحم الاسلام أوروبا ، هل كانت أوروبا تتوقف عن مهاجمته في أفريقيا . أن نظرة إلى تمركزات الدولة البيزنطية متربة فترات الضعف لتنتفض على حدود عالم الاسلام كذلك موقف الفرنجة من المسلمين على حدود الأندلس ، تكشف عن أن الموقف بين المسلمين وأوروبا كان سجالات منذ هذه الفترة البكرة في تاريخ الاسلام ، فقد ظلت أوروبا تحمل في أعناقها عصراً بعد عصر « طابع إلا دالة من الاسلام وإخراجه من أوروبا » .

ولذلك فإنه لم يكذب يصل للتوسع الاسلامي إلى مداه ، حتى كانت القوة الخارجية تعمل على الانتفاض عليه وسنة الإنتفاض منه وتلك سنة طبيعية ، لا تحيد عنها في تاريخ البشرية في نوايس الكون ، ومن هنا كانت دهوة الاسلام لأنصاره في أعداد القوة دائما ، وحماية الثغور والرباط بها والبقطة درما « وأعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » . وطالما نقد المسلمون هذا القانون الطبيعي من قوانين البقاء ، كانوا في مأمن من عدوهم ، وما تراخوا عنه حتى واجهوا حالات الانتفاض والمدوان على أرضهم .

ولقد شهدت مناطق الشام وحلب تاريخاً طويلاً في المقاومة والغزو ، وكان لها دوراً بارزاً من أدوار البطولة حل لوائه سيف الدولة الحمداني في فترة من أدق فترات المقاومة .

ولإلقاء أضواء واسعة على هذه المرحلة نقول :

تاما عالم الإسلام واستكمل توسعه عام ٩٩٣ تقريباً حين بلغ السند وما وراء النهر شرقاً وبلغ الأندلس غرباً، ثم هذا التوسع خلال ثمانين عاماً (١٢-٩٩٣). ثم توقف في الجبهة الشرقية واستمر في الجبهة الغربية على شواطئ أوروبا في حملات متصلة مستمرة حمل لوائها الأغلبية في تونس وجروا بها شوطاً طويلاً (١٤٢-١٨٤٣) ولم يلبث «عالم الإسلام» أن دخل مرحلة التبلور والانصهار وهي مرحلة دقيقة غاية الدقة، كانت مصدر صراع فكري لا حده، غير أن أبرز ما تنسم به هذه المرحلة التي تمت فيها الحضارة هي «روح الترف» التي انخرقت بالجنوع الإسلامي عن مفاهيم الإسلام في وسطية وتسكاته، والتي تخلت عن طابع الوحدة والقوة واليقظة. كانت الحلقة الأولى في مرحلة التبلور والانصهار في المشرق والمغرب تسير في خط واحد تقريباً: العباسيون في المشرق والأيوبيون في الأندلس، وقد حققت هذه الفترة نتائج ضخمة في مجال انصهار الفكر الإسلامي، وبرز فيها عدد كبير من بناء الدول والحضارة ثم تراخى طابع القوة بتقلب روح الترف ثم بدأت روح الضعف تسري في عالم الإسلام كله ومع ذلك فإن «الدفاع عن أرض الإسلام» لم يتوقف، كانت دولة الأغلبية خلال أربعين عاماً تواجه الفرنجة وتبدل منهم وتسيطر على شواطئ البحر الأبيض وتصل إلى سواحل إيطاليا وإلى قريباً من العاصمة «روما». وقد تمكن المسلمون من السيطرة على جزيرة صقلية (٨٢١٢) وفي جبهة الدولة البيزنطية كانت مقاومة سيف الدولة مثلاً هالياً من أمثلة الكفاح ضد الغزو الخارجي ٨٢٣٣ أما في الأندلس فقد توالى حملات المقاومة التي قادها عبد الرحمن الناصر (٨٣٦٦) الذي غزا خمسين غزوة انتصر فيها جميعاً. وفي الشرق استطاع محمود الغزنوي أن يوضع عالم الإسلام وأن يحقق انتصارات رائعة (٨٣٨٨) غير أن تمزق الدولة العباسية في بغداد، وسقوط الدولة الأموية في قرطبة، قد أدى إلى تدمير الغرب إلى مدافعة عالم الإسلام والانقراض عليه، هنالك انبعثت قوتين جديدتين من أعماق الصحراء بدوينتين خشتين هنيئتين تتمثلان في الأتراك السلاجقة في المشرق والبربر في المغرب ثم شلت قوة المماليك في مصر والشام.

هاتان هما القوتان الجديدتان اللتان سيطرتا على عالم الإسلام، بعد أن ضعفت القوى للتحضرة التي تخلقت عن مفهوم الإسلام، كانت قوة السلاجقة في المشرق (٨٤٢٩) وقوة الرابطين في المغرب (١٠٥٤) بمثابة دم جديد وهامة قوة، فقد كانت القوى للتربعة بالإسلام من حدود الدولة البيزنطية (آسيا) ودولة الفرنج (أوروبا) قد تحفرت من جديد لانتفض، فسكانت قوة السلاجقة قادرة على الردع

الذى ظهر من بعد في موقعة ملازكرد بقيادة عماد الدين زنكى (٥٤٦٤هـ) ومركة الزلافة التي قادها يوسف بن تاشفين في الأندلس (٧٤٩هـ) بعد أن سقطت طليطلة في أيديهم (٥٤٧٨هـ) : وقد أخرج ظهور هذه القوى انقضاء الغرب على عالم الإسلام ، ففي سنوات متقاربة هاجم الفرنجة للبهية (الغرب) بأسطول مؤلف من ٣٠٠ مركب (٣٠ ألف مقاتل) عام ٥٤٧٦هـ ثم زحفت الحملة الصليبية الأولى عام ٤٨٩هـ فاستولت على بيت المقدس ٤٩٣هـ - غير أن الصورة الشاملة لقد مات الغزو الخارجي لا تتم باستعراض شامل للصراع بين الروم والمسلمين على حدود الدولة البيزنطية .

(١٧)

دأمة الاسلام ،

هاش الاسلام بعد مرحلة التوسع والامتداد مرحلة الانصهار والتبلور . كانت المرحلة الأولى : موجة من موجات التوسع بلغت في قرن من الزمان حدود الصين من الشرق وحدود فرنسا من الغرب . ثم كانت مرحلة جديدة انبثقت من أعماق هذه المرحلة ، هي تبلور هذه الجماعة وانصهارها ، فكريا واجتاهيا وسياسيا ، من خلال العناصر التي تكون منها عالم الاسلام : العرب والفرس والترك والبربر ، غير أن مرحلة الانصهار كانت تضطرم بالصراع السياسي والعسكري ، يتمثل هذا الصراع السياسي والفكري ، يتمثل هذا الصراع في قيام الدول وسقوطها ، و بروز القادة من بناء الدول ، وظهور هديد من الدولة المستقلة المرتبطة بالخلافة أو المنفصلة عنها ، فضلا عن ظهور خلافت وحكومات منفصلة في ظل هذا الانصهار والتبلور في إطار الاسلام ، فكريا واجتاهيا وسياسيا ، برزت مؤامرات داخلية متعددة من خصوم الاسلام ، تهدف إلى القضاء على كيان الدولة أو مفهوم الاسلام نفسه ، حدث هذا التخلخل والاضطراب والانقسام وصراع الحكام والقادة ، في نفس الوقت الذي كان الفكر الاملاي يجري نحو الانصهار والتبلور والتوحيد . كان هذا مقدمة لتحد خطير هو الغزو الخارجي لعالم الاسلام في مواجهة الإستجابة لقيمة أساسية من قيمات الاسلام وهي «الوحدة» وهائل خطير هو « القوة » فإذا تمزقت الوحدة بين أطراف عالم الإسلام ووقع الصراع بين الأجزاء ، ثم ضعفت القوة الرادعة وروابط الخليل الذي يرهب العدو . إذا ما تراخى هذا كله ، كان ذلك مقدمة لتجميع خصوم الاسلام للانقضاض عليه ، كانت صورة عالم الإسلام تتمثل في أزمة واضحة شاملة ، فقد تراخت نظم الدولة الإسلامية ، وتمزقت الوحدة ، وغلب الترف ، وضعت الحماية على

النزور ، وبان الخلاف بين الدول المتعددة ، وحكم نظام يعيش في إطار الاسلام ولكن لا يلتزم بمقوماته . ومفاهيمه ، هنالك ، كان لابد أن يواجه عالم الاسلام أزمة كبرى ، ومحنة حاصفة ، تقطع من حياته مرحلة لا تقل عن (٤٩٣ — ٨٨٩٨) أربعة قرون وهي مرحلة عصبية حنيفة تداخلت فيها الأحداث على نحو عاصف ، وانتهت باسترداد العرب الأندلس ، وسيطرة عالم الاسلام على القسطنطينية . وقد اشتبك فيها المسلمون من خلال معارك طويلة بالصليبيين في حملات متعددة على مختلف الجبهات ، من حدود الدولة البيزنطية إلى فرنسا ، عبر سوريا وبيت المقدس ومصر وتونس والمغرب والأندلس ، كما اشتبك المسلمون في حملات متعددة بالنتار الذين تأمروا مع الصليبيين لإقتلاع عالم الاسلام ومحوره . وكانت الأحداث متوالية دراكاً . والحق أن الصراع بين عالم الاسلام والغرب لم يبدأ يوم جاءت (الحملة الصليبية الأولى — ٤٩٣ هـ) وإنما كان قد بدأ قبل ذلك بأربعمائة عام ، يوم اندفعت توسعات الاسلام لتنفذ إلى أوروبا من القسطنطينية مرة ومن الأندلس مرة أخرى ، وكانت أعوام ٩٢ — ٩٨ هـ حاسمة في هذا الموقف ، فقد كانت د اندفاع الاسلام ، قد انطلقت من الشام إلى مضاب آسيا الصغرى حتى بلغت مياه البسفور وحاصرت القسطنطينية كنيسة إنطلاق الاسلام (٨٣٣) إلى أوروبا ، ثم هادت مرة أخرى إلى ذلك عام ٤٤ هـ ثم هادت مرة ثالثة عام ٩٦ هـ ورابعة ٩٨ هـ وفي هذه للراحل الأخيرة جاز المسلمون أسبانيا واقتحموا غرب أوروبا — إذا استعصت عليهم القسطنطينية — حتى بلغوا قلب فرنسا ونحو اقوار ، وكان لاقتحام الاسلام أوروبا من غربها ووقوفه على حدود الدولة الرومانية للشرقية في سبيل اقتحامها من المشرق ، هالما من عوامل الصراع بينه وبين الغرب لم يتوقف منذ ذلك اليوم وإلى اليوم .

كانت غاية التوسع الأولى والكبرى هي تبليغ أوروبا دعوة الاسلام ، وكان الخليفة اشالث هئان قد تصور ما يمكن أن يصل إليه الاسلام حين يتصل بين أسبانيا والقسطنطينية خنقاً قلب أوروبا ، وكان موسى بن نصير ينطلق إلى أن يصل دمشق من طريق القسطنطينية . غير أن أوروبا قد استطاعت أن تواجه هذا التيار الجديد وأن تصمد في سبيل صده ودفعه ، وأن تقاوم في ذلك غاية المقاومة . كان الصراع يجري في ميدانين في وقت واحد : ميدان الدولة الرومانية (بيزنطة) حيث كانت عمليات الفوز والادالة بين شمال الشام وحدود بيزنطة لا تتوقف ، خلال أربعة قرون ونصف القرن ، كان عالم الاسلام يتغالا بتردد في رد عدوان بيزنطة الذي كان يترقب أى لحظة ضعف ليهجم ويحاول أن يستقطع من أطراف عالم الاسلام ، وكان الميدان الثانى هو ميدان الأندلس ، فإن دولة

الإسلام التي قامت فيه لم تتمكن من أن تلتقط أنفاسها دون صراع أو مؤامرة ، أو حركة انتفاض على أطرافها ، وقد امتد ذلك طويلا ، مشتملا فترات الضعف ليحاول الإدانة منها .

وقد امتدت حركة المقاومة لأطراف عالم الإسلام من القسطنطينية والأندلس ، حتى بانمت مرحلة دقيقة ، عندما بدأت قوة جديدة من قوى الإسلام تبرز هي قوة « السلاجقة » في المشرق ثم تلتها قوة « الموحدين » في المغرب والأندلس ، وهنا بدأت أوروبا تصارع القوتين وكانت الحروب الصليبية بمحاملها النعس قد بدأت نتيجة لتوسعات السلاجقة . أما في الميدان الشرقي ، ميدان الدولة البيزنطية فقد كانت عين المسلمين على ذلك الخط الفاصل بينهم وبين الروم ، وقد حرص المسلمون على حماية هذه الثغور . وكانت البحرية الإسلامية التي بناها معاوية في خلال خلافة عثمان وما بعدها قوة رجع ومهابة ، وقد وقع الصدام في هذا الجانب طويلا وحاصر المسلمون القسطنطينية مرات خلال أكثر من سنين هاما ، حيث اضطرت حملات الشواني والصوائف . لانتى ولا تتوقف .

ثم كان ذلك التربع من أطراف عالم الغرب ممتدا ، لا يفتقر ، ومستمر لا يتوقف ، يترقب فترات الضعف ومراحل الغفلة ليتعض ثم لا يلبث أن يدافع المسلمون عن هذه الحدود مرات في مواقع حاسمة ، ويتوغل هارون الرشيد في أرض الروم ، وينهض المعتصم لرد العدوان ، ثم يظل هذا الصراع قائما حتى نرى سيف الدولة الحمداني في ثلاثينات القرن الثالث الهجري بموافقة المشهورة في الرد على عدوان الروم .

غير أن هذه المناطق ظلت بعد ذلك عرضة لهجمات الدولة البيزنطية طويلا . فقد كانت أوروبا ترى في هذه الجبهة قوة مدافعة عنها تحول بينها وبين سيطرة عالم الإسلام أو توسعه في أوروبا . حتى لحقت الشيوخوخة الدولة البيزنطية ولها الضعف إزاء موجات الإسلام المتلاحقة ، التي لا تفتقر عن موالاته الدفاع عن الثغور ، وكانت السلاجقة قوة جديد من قوى الدفاع قد اجتاحت بيزنطة وأدالت منها وكشفت عن ضعفها وعجزها عن حماية أوروبا ، هنالك كانت فكرة الحملات الصليبية بمثابة بديل عن قوة بيزنطة المنهارة .

هذا في الشرق ، أما الطرف الثاني من عالم العرب فلا سلام كان قد هير « بحر الزقاق » وسيطر على أسبانيا ومنها نفذ إلى فرنسا حتى بلغ نهر الأوار ، حيث نجحت أوروبا لتقف أمام زحفه في موقعة « بلاط الشهداء » ، هذه المعركة التي انسحب منها الإسلام مستغفدا قواء ليعاود الكرة في إقترحام أوروبا من ثغور إيطاليا .

وقد يقف المؤرخون طويلاً عند معركة بلاط الشهداء (١١٤ هـ - ٧٤١ م) ويقولون إنها نهاية التوسع الإسلامي في أوروبا، بينما تشهد وقائع التاريخ بأن حوادث التوسع لم تتوقف في غرب أوروبا عند هذا الموقف. بل امتدت حتى عام ١٢٩٨ هـ، وأن دولة الأغالبة في تونس قامت في ذلك الحال بدور ضخم، إلى أن شغل المسلمون عن أعمال المقاومة والتوسع، وتراخت قبضتهم خلال قيام الدولة الفاطمية واتجاهها نحو الشرق، هنالك أخذت حركة «الاسترداد الغريبة» تنأهب لجولة حاسمة في مواجهة «التوسع الإسلامي»، فيها أطلق عليه من بعد «الحروب الصليبية» هذه الحركة التي بدأت من دور الفرنج أولاً عبر الأندلس والمغرب العربي، ثم كانت صيحة البابا أوربان الثاني للانجاء إلى الشرق مرحلة تالية لها، وقد امتدت الحركتان معاً للأدلة من عالم الإسلام عن طريق الأندلس وعن طريق الحملات الصليبية على الشام ومصر. أما معركة بلاط الشهداء فقد هلك لها المؤرخون الغربيون بوصفها عمل حاسم في سبيل استنقاذ أوروبا من التوسع الإسلامي، وكانت تلك وجهة نظر ضيقة محدودة في تقدير موج للندنية الزاحف في ركب الإسلام، ذلك أن عمل كارل مارتل إنما كان في حقيقته تمويكاً للحضارة الإنسانية نفسها وأنه أخر تقدمها في قلب أوروبا بثمان قرون، وقد شهد بذلك كثير من المؤرخين في مقدمتهم الملامة كلود فرير الذي دعا أوروبا إلى تصحيح تاريخها الرسمي: فقال ليس ما أكتبه فصلاً من التاريخ الرسمي بل هو التاريخ الحقيقي الذي يتعلمه المرء بنفسه، مما يجتازه من بحار أو نقطة من فياق وآفاق.

فاذا أضفنا إلى هذا شهادة هنري دي شامبيون، هرفنا إلى أي مدى صور بالخطأ والتمصيب موقف الإسلام.

أما للمسلمون في الحق أنهم لم يتوقفوا عند موقعة بلاط الشهداء عن أن يصلوا إلى قباب أوروبا حتى بلغوا روما (قال كلود فرير: في هذا اليوم (٨ شعبان ١١٤ هـ - أكتوبر ٧٢٢ م) تراجعت المدينة ثمانية قرون إلى الوراء، ويكنى المرأ أن يطوف في حدائق الأندلس أو بين الآثار العربية التي لا تزال تأخذ بالأبصار مما يبدو من هواطف السحر والخيال (أشبيلية، غرناطة، قرطبة، طليطلة) لشاهد الأمل الغريب آخذاً منه، ماهاها تكون بلادنا الفرنسية لو أُنقذها الإسلام العبراني السلي المتساح - لأن الإسلام في مجموعة كل هذا - فخاصها من الأهاويل التي لا أمتاء لها، وكان من ذلك نتج خراب غالباً القديمة التي استعبدتها أولاً لصوص أو سترانا، حدث هذا في حين كان العالم الإسلامي من نهر الوادي الكبير في أوروبا إلى نهر السند في قلب آسيا يزدهر كل الازدهار في ظل الإسلام تحت أقدام أربع دول (الأبوية، العباسية، السلجوقية، العثمانية).

وقد ظلت مقاومة الغرب لعالم الإسلام من القسطنطينية ومن الأندلس متمسدة لا تتوقف ، ومستمرة لا تنقطع ، واستطاع السلاجقة أن يردوا همدوان بيزنطة في موقعة حاسمة هي موقعة ملازكرد (٥٤٦٣) التي كشفت عن الضعف الذي بلغته الدولة الرومانية الشرقية ، مما جعل الغرب على التنفكير في عمل آخر يقاوم به توسع عالم الإسلام ، بعد أن ظلت هذه الدولة تقاوم عالم الإسلام خمسة قرون ، وقد تمثل العمل الجديد في تلك الحملات التي تحركت خلال قرنين كاملين على القدس والشام ومصر ، أما الأندلس فقد ظلت تواجه حملات انقضاء منسلة من داخلها ومن خارجها . حيث ظل الفرنجة من خارج الأندلس والقوط من داخلها في محاولات مستمرة للإقضاء عليها ، ومحاصرتها ، لا يقف التوسع الإسلامي وإجلاء العرب والمسلمين إلى أفريقيا ، وتحرير أوربا من الإسلام في هدف واحد محدد . وقد زاد هذا الضغط بعد موجات استنقاذ الأندلس التي قام بها المرابطون ثم الموحدون < ٨٤٤٥ - ٨٦٧٤ > (١٠٥٣ - ١٢٧٥م) وفيما كانت الحملات الصليبية تنوالى على المشرق وتقيم المملكة اللاتينية في القدس لم يتوقف عالم الإسلام عن المقاومة في جهة الشام ومصر لهذه الحملات وفي جهة الأندلس والمغرب ، لحملات الغزو والانقضاء المتوالية وقد أبرز عالم الإسلام أبطالاً حملوا لواء الدفاع والمقاومة : من أمثال نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي والظاهر بيبرس في المشرق ، ويوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن علي في المغرب .

مواقف الدفاع

غير أن هذا خطراً ثالثاً لم يلبث أن واجهه عالم الإسلام بقوة في خلال معركته مع الصليبيين في القدس ومع الفرنجة في الأندلس ، ذلك هو الإحصار « التتري المغولي » ممثلاً في غزو جنكيز خان وهولاكو وتدمير ذلك على التوالي خلال فترة (١١٩١ هـ) [من ٦١٦ - ٥٨٠٧] . (بدأ الغزو المغولي للعالم الإسلامي عام ٦١٦ بقيادة جنكيز خان وهاجم هولاكو بغداد ٦٥٦ ونوفي تيروراتك عام ٨٠٨ بعد حملة سوريا عام ٥٨٠٤) . ولا يمكن أن ينظر في أمر هذا الغزو ، منفصلاً عن ارتباط وتدمير واتفاق بالغزو الأوربي ، ومن ثم أصبح عالم الإسلام بل الإسلام نفسه في امتحان خطير وكان لمصر دورها الحاسم في مواجهة الصليبيين والتتار في هذه المرحلة ، وكان لدولة المماليك الدور الحاسم في القضاء على القوتين بعد معارك صلاح الدين التي تقدمتها . لقد توقفت الحروب الصليبية في جهة المشرق وانتهت بفشل هذه المحاولات ، ولسكنها لم تنته بالنسبة لجهة المغرب والأندلس ، فقد أجهت ناسمة هذه الحملات إلى تونس لتشارك في الاداة من الدولة العربية الإسلامية القائمة على

أرض أوروبا ، والتي دخلت مرحلة دقيقة من مراحل المقاومة حتى صغيت . ولكنها لم تهف إلا بعد
أقامت موجة جديدة من موجات القوة الإسلامية ممثلة في الأتراك العثمانيين .

هذه القوة التي استطاعت أن تسيطر على القسطنطينية في نفس الوقت الذي زالت فيه الأندلس
وبدأ عالم الغرب يواجه توسعاً جديداً داخل أوروبا من فوق الأرض التي قاومت الإسلام (أرض
الدولة البيزنطية) خلال ثمانية قرون . وفي هذه الفترة استطاع الإسلام أن يكسب قوة جديدة ، فقد
تحول التتار والمغول إلى الإسلام فأعادوا بناء هذه المنطقة التي كانوا قد أزالوا منها علامات الحضارة
في نهضة جديدة ، بل أنه وفي نفس الذي كان التتار يلحون على بغداد بالغزو لتسقط في أيديهم
كإحدى منارات عالم الإسلام يشق طريقاً جديداً إلى جنوب شرق آسيا دون معارك أو قتال ليفتح
فتحاً جديداً من فتوحه وتوسعاته الذاتية في عالم جاوه وسومطره .

(١٨)

« الروم وعالم الإسلام »

ظلت الروم (الدولة الرومانية الشرقية) أو دولة بيزنطة المناخلة لحدود عالم الإسلام من الشمال ،
هي النفرة الخطرة ذات الأهمية الكبرى على حدود عالم الغرب ، فقد كان الغرب منذ ظهور الإسلام
وامتداداً إلى الشام وأفريقيا يهدد باستعادة ما كان تحت يد الرومان ، لذلك وقف المسلمون إزاء
هذا الخطر في أهبة دائمة ومواجهة مستمرة ، وقاموا بمحاولات ضخمة لتطويق بيزنطة وغزو
القسطنطينية والاستيلاء عليها ، جرى ذلك إبان حكم الخليفة الثالث : « عثمان » ثم استأنف معاوية
بنظم الشواني والصوائف . ثم كانت محاولته الكبرى في الاستيلاء على القسطنطينية بعد بناء
الأسطول الإسلامي الأول الذي بلغ (١٧٠٠ سفينة) . زود بالصلاح واستطاع أن يسيطر على جزيرة
رودس (٥٥٣) وأقريطش (كريت) ٥٥٤ ، ثم غزا صقلية وأرواد ، وفتح قبرص ، وغنى من بعد
لمعركة حصار القسطنطينية التي استعصت وقاومت خلال سبع سنوات كاملة (٥٤ - ٦١) فلما توقفت
هذه الحملات ، أخذ الروم في مهاجمة شعور عالم الإسلام فاستولوا على بعضها واقتحموا ساحل أوروبا ،
ثم تمكن (عبد الملك بن مروان) من استعادة شعور الإسلام وأخضع أرمينية ، ونظم سياسة من
الشواني والصوائف ودعم الحصون بالحراسة والدخاثر .

ولم يلبث عام ٨٤ هـ أن غزا الروم وفتح حصن للصبيصة ، ثم انجبه الوليد بن عبد الملك من بعده

إلى ميدان آسيا الصغرى واستولى على حصون مرعش وعمورية وأنطاكية ، وأجرى سليمان بن عبد الملك من بعد محاولة حربية أخرى للإستيلاء على القسطنطينية التي قاومت الحصار الثاني — الذى ظل مضروباً عليها — حتى رفعه (عمر بن عبد العزيز) وقد برز في مجال هذه المعارك أبطال مجاهدون في مقدسهم جناده بن أبي أئين قائد الأسطول الإسلامى الأول ، ويزيد بن معاوية ، وأبو أيوب الأنصارى وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن عبد الملك . وكانت هذه المحاولة مقدمة لمعارك متصلة استمرت خمسة قرون حتى استطاع السلطان محمد الفاتح أن يستولى على القسطنطينية (١٤٥١م — ٨٥٧هـ) وفي خلال هذه الفترة ظلت الدولة الرومانية تواصل انتعاشها على الأرض الاسلام منتهزة فترات الضعف والخلاف الداخلى ، وقد واصل المسلمون مقاومتها ورددها الادالة منها في مواقف متوالية شارك فيها الرشيد والمأمون والمعتصم وكان أبرز أدوار المقاومة الدور الذى قام به سيف الدولة الحمداني ثم الدولة الحمدانية وقد استطاع هارون الرشيد أن يرغم الروم (١٨١ هـ) على دفع جزية بلغت ٣٠٠ ألف دينار سنوياً ، وذلك بعد انتصاره في حركات غزو الروم المستمرة لأراضى عالم الاسلام ، وقد استمر دفع هذه الجزية سنوات متوالية ، ثم كان غزو المعتصم لعمورية (٢٢٣ هـ) حيث حقق النصر على الروم بجيش قوامه خمسة عشر ألف فارس في مواجهة جيش الروم البالغ (مائتى ألف) : (النجوم الزاهرة) ثم استطاع السلاجقة توجيه ضربه ضخمة لبيزنطة في موقعه « ملازكرد » كانت مقدمة لنقل المعركة بين عالم الاسلام والغرب من الدولة الرومانية — المستضعفة التى حث أوروبا خلال خمسمائة سنة من توسع الاسلام — إلى اندفاعه الحملات الصليبية من قلب أوروبا إلى عالم الاسلام خلال مائتى عام . ولقد لفت هذا الصراع أنظار الباحثين حتى قال « سيد أمير هلى » : لعله لا يوجد هلى وجه الأرض مكان نشبت على أديمه معارك مروعة كهذه التى نشبت في الأرض الواقعة بين الشام والأناضول ، فقد ظلت تمربرات الجيوش على الحدود قائمة ومستمرة ، وكانت حاميات حصن وطرسوس وأذنة والمصيصة أهم هذه الحاميات ، غير أنه بالرغم من توالى الصدام بين الروم والمسلمين ، فإن ذلك لم يمنع من قيام معاملات تجارية ، وفترات سلام تبادل فيها المسلمون والروم العلاقات الثقافية والاقتصادية ، وكان التبادل الثقافى من أهم المبادلات في هذه الفترة ، فقد جعل الخلفاء المؤلفات اليونانية والرومانية القديمة بديلاً للمبالغ المعروضة ، وفي أوقات السلم كانت بيزنطة — تستقبل السفراء العرب من بغداد والقاهرة ، كما كانت بغداد تستقبل سفراء الروم ، وكان الخليفة يستقبلهم رسمياً في أبهة شرقية بالغة ومن خلال عروض عسكرية — وكانت مقاومة سيف الدولة الحمداني ودولته (٢٩٣ — ٣٨٠) للروم بالغة الأثر في الإسلام فقد قامت الدولة الحمدانية بالجزيرة على حدود الروم إذ أوجع سيف الدولة روح الجهاد والمقاومة والمرابطة في سبيل حماية الشعوب

فكانت ثغور مطليه والحلث ومرعش والمارونية والسكنيسة وعين زربة والمصيص وأذنه وخرسوس معاقل صامدة للمقاومة إذ كانت مواقف سيف الدولة كلها موقف دفاع ، إزاء هجمات الروم المتوالية ، يقول ماركفارت : أن حروب سيف الدولة فصل خطير من فصول الحروب الصليبية ، فالروم في ذلك الوقت كانوا يتبنون على أرض المسلمين ، وكان سيف الدولة يقف من غزواتهم موقف الدفاع في حالات كثيرة . غير أن المرحلة التي نالت الدولة الحمدانية لم تكن بنفس القدوة على المقاومة مما جرت الدولة البيزنطية على مزيد من التوسع والاعتداء على حدود عالم الإسلام ، ولم يواجه هذا العدوان من المسلمين إلا مقاومة ضعيفة فاستطاعت أن تدفع فتوحاتها نحو الشرق والجنوب وأن تسيطر على أرمينية وأن تفرض الجزية على الأمراء المسلمين في شمال الجزيرة وشمال الشام وقد كان هذا كله مقدمة لمشروع غربي ضخم لغزو الشرق الإسلامي ، بالاشتراك مع الدولة البيزنطية لم يؤخره إلا ظهور قوة إسلامية جديدة هي « قوة السلاجقة » هذه القوة التي جددت شباب الإسلام وحلت محل القوة العباسية المنهاره . وقد استطاعت القوة السلجوقية الشابة أن تواجه الغزوات البيزنطية في صمود وأصالة وحاز قاذتها (طغرليك ، ألب أرسلان ، ملك شاه) لرد عدوان الأراضي البيزنطية وحققوا انتصارات هامة ، كان أكبرها في موقعة (ملاذكرد) التي أسر فيها الإمبراطور رومانوس ، الذي كان قد خرج على رأس جيش ضخم من الروم والصقالية والفرنجة وفي أعظم قوة جردتها الدولة الرومانية الشرقية على قوى الإسلام ، وأتجه إلى « ملاذكرد » وهي بلدة حصينة على فروع نهر مرادصو ، فحارب حولها الحصار وقد خاض المسلمون المعركة بقيادة (ألب أرسلان) في عدد لا يتجاوز ربع قوة عددهم ، وتقول الرواية أن قائد المسلمين إختار الإشتباك مع الروم يوم الجمعة فصلى بحجته ظهراً ، ولبس البياض وتحنط ، استعداداً للموت وأعلن أنه إن هزم فإن مساحة الحرب تغدو قبره وزحف على رأس قواته نحو الروم .

وقد ثبت المسلمون وحاربوا في براعة وجلد وبسالة ، فلم رأى رومانوس مالحق بجيشه من الضعف حاول الارتداد ، ليتأهب للقتال في اليوم التالي ، غير أن المسلمين حاولوا بينه وبين ذلك ، فضغطوا بقوة ضخمة على صفوف العدو المتخاذلة المتراجعة ، فأحدثوا ثغرة ، تدافع منها الفرسان المسلمون واقتحموا قلب القوة الرومية وأصلوها سهاراً قاتلة ، ثم إنقضوا على جيش الروم من كل ناحية فحصدوه وأسر رومانوس وتمت هزيمة الروم (٤٦٣ هـ) ونقل القيصر الأسير إلى حيث التقى بالسلطان ألب أرسلان الذي عاتبه على رفضه طلب الهدنة الذي تقدم به المسلمون .

وصال ألب أرسلان الإمبراطور : ماذا كان بفعل لو كان هو المنتصر . وقال رومانوس : أنه كان

بقتل السلطان ويمثل به . قال أرسلان : ولستى هزمت على العدو هنك والفداء . فاقبدي الإمبراطور نفسه بألف دينار وخمسمائة ألف دينار ، وقد أطلقه السلطان وأطلق معه البطارقة وشيعة فرسخاً . وأرسل معه جنداً يحفظونه ومعه راية مكتوب عليها « لا إله إلا الله » . (البداية والنهاية) . وقد علق على هذه المعركة للؤرخ رينشارد بنوهول فقال : لقد كان الغزو الإسلامي بقيادة ألب أرسلان في نطاق لم تشهد الإمبراطورية البيزنطية أوسع منه منذ أكثر من ثلاثة قرون ، وقد أدى الروم بهزيمة منكورة تمزقت بها أوصال جيشهم ، وأخذ المسلمون الإمبراطور البيزنطي أسيراً ، ومن ثم كانت واقعة (ملاز كرد) من الوقائع الفاصلة في تاريخ الشرق والغرب ، إذ كانت ضربة للامبراطورية البيزنطية لم نبرأ منها فكانت عاملاً حاسماً في اندلاع الحروب الصليبية ، ولو أن ألب أرسلان سار في طريقه — بعد هذه المعركة — إلى البوسفور لما وجد شيئاً من المقاومة ولقوض أركان الأمبراطورية البيزنطية .

ومنذ معركة (ملاز كرد) استوطن السلاجقة ، هضاب آسيا الصغرى ، وأصبحت في حوزة المسلمين ، ثم استولوا على (نيقية) ٤٧٧ هـ وبقي سلطانهم في هذه البلاد أكثر من قرنين حتى قضى عليه المغول ٦٥٥ هـ قبل سقوط بغداد بعام واحد ، وتوفي السلطان ألب أرسلان بعد معركة « ملاز كرد » بعامين ، وخلفه ملكشاه واستمرت غزوات السلاجقة لأراضي الدولة الرومانية الشرقية حتى طوى السلاجقة آسيا الصغرى من الجنوب وبنطوا سلطانهم عليها ، وكان لملاز كرد أحق وقع في أوروبا ، فقد بدا للغرب أن سيل الغزو الإسلامي ينذر باقترحام الدولة الرومانية الشرقية ، والاندفاع إلى أوروبا ، هنالك تعالت الصيحات وجرى إعداد مخطط الغزوات الصليبية ، التي امتدت بجناحيها إلى المشرق وإلى المغرب ، غير أنه لم يمض على (ملاز كرد) أكثر من خمسة عشر عاماً حتى استطاعت القوى الإسلامية في المغرب والأندلس بقيادة المرابطين أن تسحق الفرنج في « موقعة الزلاقة » ٤٧٩ هـ . هكذا كان هذا الموقف الخطير فيما بين المشرق والمغرب ، وفي طرفي عالم الإسلام بحاذأة الدولة الرومانية الشرقية الضعيفة المنهارة ، وبحاذأة فرنسا على حدود الأندلس ، دافعا لمخطط الحروب الصليبية التي اندلعت في أواخر القرن الخامس واستمرت خلال القرنين السادس والسابع ، وانتهت بهزيمة ساحقة لها في المشرق ، وبتصفية الأندلس كجزء من عالم الإسلام في الغرب .

غير أن الحروب الصليبية نفسها كانت مقدمة لموجة جديدة قوية شابة عالم الإسلام هي موجة الوحدة الإسلامية العثمانية ، التي استطاعت أن تتوغل في أوروبا وتسيطر على أقدارها خلال خمسة قرون كاملة ، كرد فعل للحروب الصليبية والتي استولت على « القسطنطينية » وأقامت في آسيا

الصغرى إمبراطورية ضخمة امتدت ستة قرون (١٣٠٠ - ١٩١٧ م) (٦٩٩ - ٨١٣٣٦). وإذا كان لنا أن نستعرض النتائج التاريخية والثقافية والاجتماعية لهذه الفترة التي سبقت الحروب الصليبية، قلنا أن الإسلام كان بعيد الأثر في النفاذ إلى قلب الدولة البيزنطية والتأثير في مفاهيم الغرب الفكرية مما كان له أثره في حملة رجال الكنيسة على الصور والأيقونات المقدسة. كما كانت هذه المرحلة بعيدة الأثر في الأدب العربي الاسلامي حين رسمت صورة البطولة الاسلامية في المرباطة والدفاع عن الثغور، وبرز اسم الحارب العربي المسلم «عبد الله البطال» الذي اسجعت حول حياته قصص أسطورية حاولت أن ترسمه، وقد وهب قوة خارقة فوق مستوى البشر وكان قد استشهد في معركة أكرونيون في آسيا الصغرى. كما كان لهذه المعارك آثارها في انتقال كلمات كثيرة من العربية إلى اليونانية وبالعكس.

(١٩)

الحروب الصليبية في المشرق

«الحروب الصليبية»: كانت هي انطلاقة أوروبا الدينية والاقتصادية في مواجهة عالم الإسلام، وتوسعاته، وقد بدأت منذ اليوم الأول لبلوغ الإسلام أطراف أوروبا، ثم ازدادت عمقاً واتساعاً مع توالي الزمن، فلم يسكد يصاب بماسك الدولة الإسلامية بالضعف وينالها التجزؤ والاقسام حتى توالى هذه الحملات من طرفي عالم الإسلام اندفاعاً، فلم تلبث أسبانيا والمغرب وآسيا الصغرى وشمال أفريقيا والشام ومصر والعراق وشبه الجزيرة العربية والبحرين المتوسط والأحر أن أصبحت جميعها ميادين معركة ضارية قوامها الحملة على الإسلام والعمل على سحقه والادالة منه. أن الظاهرة الواضحة الهدالة لهذا المعنى هو أن الغزو من قبل أوروبا والغرب كان عنيفاً مليئاً بروح التمهيب والانتقام، بينما كان التوسع الاسلامي في عالم الغرب أو الدفاع عن هدوان الغرب ومقاومة غزوه كان رحباً هادلاً. وقد أجمع المؤرخون على أن الحروب الصليبية لم تبدأ يوم بدأت ٨٤٩٢ - ١٠٩٩ م بل أنها تعود إلى الوراء سنوات طويلة، وتعتبر امتداداً لمعارك الدولة الرومانية البيزنطية مع عالم الاسلام، وترتبط بالصراع الذي دار بين المسلمين والفرنجية في أسبانيا وحدود فرنسا، وأنها لم تنته يوم انتهت بسقوط هكا ٨٦٩٠ - ١٢٦١ م ولكنها امتدت بعد ذلك حتى استعادت الأندلس وأخرجت المسلمين من أوروبا وشملت — ليس منطقة الساحل الشامي وحده من القسطنطينية إلى القدس ومصر — بل ساحل البحر الأبيض المتوسط جميعاً.

الحروب الصليبية

٥٤٢ (١١٤٧) : الحملة الأولى :	٥٤٢ (١١٤٧) : الحملة الثانية :
بيت المقدس	ساحل الشام
٥٨٤ (١١٨٨) : الحملة الثالثة :	٥٩٩ (١٢٠٣) : الحملة الرابعة :
ساحل الشام	القسطنطينية
٥٩٩ (١٢٠٤) (مصاصات ناهية)	٦١٣ (١٢١٧) : الحملة الخامسة : مكنا
٦١٥ (١٢١٨) : الحملة السادسة :	١١٦ (١٢١٩) : استيلاء الصليبيين
دمياط (مصر)	على دمياط .
٦١٨ (١٢٢١) : استعاب الصليبيين	٦٢٥ (١٢٣٨) : الحملة السادسة
من مصر	استعادة بيت المقدس (فردريك الثاني)
٦٣٩ (١٢٤٤) : الملك الصالح أيوب	٦٤٧ (١٢٤٩) : الحملة الصليبية السابعة :
يسترجم بيت المقدس	(دمياط)
٦٤٨ (١٢٥٠) : هزيمة الحملة الصليبية	٦٤٨ (١٢٥٠) : مقتل توارن شاه
السابعة (المنصورة)	وتولى المماليك حكم مصر
٦٨٨ (١٢٨٩) : الحملة الصليبية الثامنة :	٩٦٠ (١٢٩١) : سقطت مكنا في أيدي
تونس	المسلمين (الأشرف خليل)

- × الحملات الأولى والثانية والثالثة والخامسة : أنجبت إلى الشام :
- × السادسة والسابعة : أنجبت إلى مصر — والثامنة أنجبت إلى شمال أفريقيا (تونس)
- × أم الحملات : الأولى والرابعة والخامسة .
- × كانت الحملات الثانية والثالثة والسادسة والسابعة والثامنة تحت زعامه ملوك أوروبا .
- × منذ بدأت الحملة الصليبية الأولى إلى الشام ١٠٩٨ لم يتوقف ورود جموع صليبية جديدة ، متصلة ، على هيئة حجاج إلى بيت المقدس ، وقد بلغت هذه المجموع في مجموعها ، أضعاف الأرقام التي عرفت عن الحملات الصليبية .

× انصل مجرى هذه الحملات خلال قرنين كاملين ، مصر بثلاث مراحل . (أولها) دور ظفر الأفرنج (٥٤٩٢ — ١٠٩٨ — ٥٥٣٩ — ١١٤٤) . (ثانيا) بدأ رد الفعل الإسلامى بحركات مقاومة وصلت إلى استعادة الرها (٥٣٩) بقيادة نور الدين ، ثم بلغت قمتها بانتصارات صلاح الدين فى « حطين » واستعادته بيت المقدس . (ثالثاً) محاولات لمقاومة التمزق والنهاية فى مواجهة حملات المماليك (الظاهر بيبرس وقلاوون والناصر) انتهت ٦٨٩ هـ — ١٨٩١ عندما فقد الصليبيون آخر سلطة لهم فى بلاد الاسلام .

× كانت جيوش الصليبيين مؤلفة من نورمانين وإيطاليين وبريطانيين وفرنسيين والمسيحيين ونرويجيين وسويسريين ، ولم تكن لهذه الحملات الصليبية قيمة توسعية هامة أكثر مما حققتها .

× الحملة الصليبية الأولى (١٥ يوليو ١٠٩٩) ٤٩٢ هـ حققت الانسحاب على بيت المقدس . أما باقى الحملات فقد كانت موالاة للبقاء ومحاولات للاستمرار .

× استنطاق الفرنجة باحتلال بيت المقدس إقامة عدة ممالك : (١) إمارة الرها (٩٤٢ — ٥٣٩ هـ) . (٢) أما إمارة طرابلس (٤٩٦ — ٦٨٨) : (٣) إمارة أنطاكية حتى ٦٦٧ هـ . (٤) إمارة بيت المقدس . إمارة الرها فقد استمرت من ٤٩٢ — ٥٣٩ حتى إزالتها عماد الدين زنكى ، أما مملكة بيت المقدس فقد أزالتها صلاح الدين . والمعروف أن حركة المقاومة الإسلامية بدأت منذ اللحظة الأولى تقير على قواعد العدو ، ثم تطورت إلى قوة هجوم حـمل لواءها عماد الدين زنكى الذى استطاع أن يستعيد (الرها) كبرى معاقل المملكة اللاتينية (٥٣٩ — ١١٤٤) .

وقد اهتز الغرب لسقوط الرها اهتزازاً ضخماً فكان ذلك دافعاً للحملة الصليبية الثانية ٥٤٢ — ١١٤٧

× لم تتوقف حركة اتحاد أجزاء العالم الإسلامى المتناخم لجمال الغزو الغربى أما منطقة الشام وفلسطين ومصر فقد انجمت فى ظل نور الدين محمود الذى هزم جيش أنطاكية واستولى على تل باشر آخر بقايا إمارة الرها . كان لانتصارات نور الدين محمود أثرها فى تحريك الحملة الصليبية الثالثة التى فشلت أمام دمشق :

× توسعت خطوات المقاومة وبلغت قمتها فى أعمال صلاح الدين حتى استطاعت فى معركة حطين

أن تسترد بيت المقدس (٥٨٣ - ١١٨٧) هنالك أخذت الحملات الصليبية تتوالى على مصر بوصفها المركز الأقوى التي يقود حركة المقاومة حيث أنجبت الحملات الصليبية الخامسة إلى دمياط (١٢١٨) والسابعة (١٣٤٩) إلى شاطيء مصر في محاولة لويس للاستيلاء على دمياط ثم هزيمته في المنصورة وفارسكور (١٢٥٠).

× كانت الحملة السادسة قد استطاعت بعد وفاة صلاح الدين أن تستعيد بيت المقدس (٦٢٥ - ١٢٢٨) غير أنه ولم ترض على هزيمة لويس في المنصورة إلا سنوات قليلة حتى استولى المغول على بغداد واسقطوا الخلافة العباسية وقتلوا الخليفة المستعصم العباسي (٦٥٦ - ١٢٥٨) ثم اجتاحتوا حلب واستولوا على دمشق، وأتيح لمصر مرة أخرى أن ترد المغول في عين جالوت (٦٥٩ - ١٢٦٠) وكانت قوة المماليك قد سيطرت منذ سنوات قليلة على السلطة في مصر بذلك استطاعت أن ترد الحملة الصليبية (٦٤٨ - ١٢٥٠) والحملة المغولية (٦٥٦ - ١٢٦٠) في خلال عشر سنوات، هنالك بدأت هذه القوة الجديدة (المماليك) تسيطر على مقدرات عالم الاسلام وتحمل لواء المقاومة خلفا لنور الدين وصلاح الدين، وبمثلة في قطز والظاهر بيبرس وقلاوون والناصر، وفي هذه المرحلة حقق المماليك ثلاث أمور هامة.

(١) تصفية الممالك اللاتينية والصليبية وانهاء ممكة بيت المقدس. (٢) تصفية قلاع الباطنية في الشام والقضاء عليها. (٣) الحفاظ على الشام ومصر من غزو المغول: وقد أمتد هذا النفوذ واستمر حتى برزت موجة جديدة من موجات المقاومة الاسلامية البدوية هي قوة العثمانيين التي سيطرت بعد ستة قرون كاملة.

(٢)

وصلت الحملة الصليبية في الأولى إلى القدس عام ٤٨٩ هـ وسقطت آخر معاقل المملكة اللاتينية في القدس عام ٦٩٠ هـ وتوالى خلال هذه الفترة ثمان حملات صليبية (منها أربع حملات على القدس وحملتان على مصر وحملة على تونس). ومن خلال الحروب الصليبية كانت حملات التنار التي انتهت بسقوط الخلافة في (بغداد - ٦٥٦ هـ) وقد بدأت مقاومة عالم الاسلام للفرز ومنذ وطئت قوى الفرنجة القدس، ولم تتوقف خلال قرنين كاملين، برز خلالها عدد من الأبطال والقادة والمجاهدين واستشهد عدد لا حصر له من المحاربين. وواجه المسلمون والعرب هذا التحدي برد فعل متصل.

برز « نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي ، والملك الصالح نجم الدين ، والظاهر بيبرس وقلادون وخليل » . على فترات في الشام ومصر خلال هذه الفترة ، حتى صفت هذه المواقع ، وقضى على هذه الحملات ، وانتهت بالفشل ، وكتب المسلمون والعرب المقاومون صفحات غاية في الإشراف والقوة والحيوية ، كشفت عن البطولة في المقاومة ومواجهة أساليب الصليبيين البالغة العنف في العدوان بأساليب كريمة ، قد اندفع الفرنجة في حملتهم يفسكون الدماء على نحو غاية في البشاعة ، فلما استمكك المسلمون بالأمر لم يردوا هذا الفشل بمثله ، ولم يوغلوا في الانتقام . وقد ضرب « نور الدين محمود » مثلاً هالياً في تطبيق خلق الإسلام وطائمه ، وكان صلاح الدين الأيوبي نموذجاً رائعاً في البطولة والساحة مما ، وكاناً مما في إطار الجهاد والمقاومة : أشبه بالشيخين أول الإسلام ، وتمثل في الظاهر بيبرس ، وقلادون وخليل وجميعهم من المماليك موجه أخرى من موجات القوى المنبثقة من أحشاء الإسلام ، تضاف إلى موجات السلاجقة والبربر ، ولهم جميعاً دورهم في هذه المرحلة في مقاومة الغزو الخارجي ، وقد كان لأبطال المماليك بعد دور بطال السلاجقة (نور الدين وصلاح الدين) أثر ضخم في إنهاء للمملكة الصليبية اللاتينية ، والقضاء على التتار .

وكانت « حطين » معركة فاصلة ، في سبيل استرجاع بيت المقدس ، وكان هزيمة لوريس في للصورة حاسمة في فشل الحملات وهودتها خاسرة . خير أن ذلك لم يكن هو النهاية بالنسبة لموقف أوروبا من مقاومة توسع الإسلام والعمل على دفع موجة نفوذه ، فإن فشل هذه الحملات قد أغرى قوى الفرنجة بالضبط على أسبانيا وتكثيل القوى الأوروبية في سبيل تصفية الإسلام والعرب من شبه جزيرة أيبيريا وفقاً لخطتها مؤداها : « تحرير أوروبا من شرقيها وغربيها من دفعة الإسلام » ومن ثم فقد تعمقت في هذه المرحلة خطط اقتلاع الإسلام من أسبانيا والقضاء على الدولة العربية بها .

ويمكن القول أن أبرز هوامل الحملات الصليبية هي العمل على استعادة الأرض التي في يد العرب وإعادة السيطرة على عالم الإسلام ، أو على الأقل إيقاف توسع الإسلام والحلوة بينه وبين السيطرة على أوروبا ، وقد كان ذلك مفهوماً عاش واستمر وتطور في أعماق النفس الأوروبية قروناً متصلة ، منذ وصل للمسلمون إلى أسوار القسطنطينية وسيطروا على الأندلس وبلغوا نهر الأورار وما بعده حتى باتوا قريباً من روما .

ومن هنا فقد كانت الدولة البيزنطية هي حامية أوروبا دون توسع الإسلام ، فلما هجرت عن القيام بدورها التاريخي ، كان على الغرب أن يتربص فرصة وقوع جزر إسلامي جديد لتحقيق هذا الهدف

باسم استرداد بيت المقدس . وكانت محاولة الاسترداد ممتدة على طول البحر الأبيض المتوسط من القسطنطينية إلى الأندلس ، وعلى الشام ومصر والمغرب بالذات . ولاشك كان العامل الديني متمزجا بالماملين الاقتصادي والاجتماعي ، دون تفرقة أو تفضيل لأحد منهم من الآخر ، فهي حركة أوربية مناهضة لسيطرة الإسلام تحمل الطابع الديني في أشد مراحل هفوه وتعصبه لمقاومة نفوذ العرب للمسلمين الذي تزايد في هذه للرحلة . ثم هي حملة من مجتمع أقل حضارة ومدنية وثقافة على مجتمع حضارة وثروة ، وقد واجه الفرنجة حضارة أرقى من حضارتهم فأخذوا منها ، بينما ترك الأوربيون آثاراً بعيدة للذى لصور الجشع والتعصب والحرب والتدمير ، ما زالت تتمثل حتى اليوم ، بالرغم من محاولة الغرب رسم صورة أقل عنفا في حملته الثانية (الاستعمار الحديث) التي فصلتها عن الأولى ثمانية قرون هي عمر القوة العثمانية .

ولاشك أن حركة إعادة نفوذ الغرب في المناطق التي كانت تحتلها الدولة الرومانية في شرق وجنوب البحر الأبيض المتوسط والتي لم تسكن في الحقيقة جزءاً من هالم الغرب نفسه وإن فرضت عليها السيطرة الاستعمارية ، وهي التي أصبحت بعد جزءاً من هالم الإسلام . هذه الحركة كانت قد تقدمت خلال مائة عام ونيف قبل الحملة الصليبية الأولى نتيجة لموجة الضعف التي كانت تمر بالمسلمين إذ ذاك بعد مرحلة تضخم وترف ، فكانت بعيدة الأثر في اضماع الوحدة السياسية والقوة العسكرية مما أدى إلى القصور عن الحماية واليقظة في النفور والمناطق للكشوفة للفرز . ومن أهم اللواقع في هذه الفترة : استرداد الغرب لصقلية الإسلامية ، وإزالة الفرنجة لكثير من أجزاء الدولة الإسلامية في الأندلس بتفريق الأمراء للمسلمين والايقاع بينهم وتجزيق إماراتهم وتضام أمراء الفرنجة ودمج ممالكهم في سبيل مواجهة البقاء الإسلامي في شبه جزيرة ايبيريا . وقد كانت الحركة الصليبية في المشرق ذات مخطط واضح فهي قد اندفعت في خط ممتد من القسطنطينية إلى غزة ، ووجهت حملاتها إلى شواطئ الشام ومصر وأقامت دولة ذات أربع إمارات على الساحل الشامي خلال مائتي عام . ثم وصمت نفوذها بالسيطرة على العقبة ، وبذلك أقامت فاصلاً يحول دون إنتقاء هالم الإسلام في أفريقيا وآسيا ، واستطاعت فعلاً أن تستنزف — خلال مائتي عام — جميع القوى البشرية والمادية في هذه المنطقة حيث كانت الشام ومصر هي المسؤولة عن مواجهة هذه القوة الممعدية ، وقد توقفت خلال هذه الفترة أعمال البناء والحضارة كما انسم والفكر الإسلامي العربي بطابع المقاومة والتحدى . ورد الفعل ، وقد برز ذلك في اتجاه فكر الغزالي وابن تيمية وأصحاب الموسوعات . فمن الناحية الاقتصادية تناقصت الثروة ، وضعت الأيدي العاملة نتيجة لأعمال الحرب التي استنفذت الموارد

الاقتصادية والقوى البشرية . هير أن هذه الحملات كانت ممبراً للحضارة والثقافة إلى أوروبا ، إذ كانت بعبدة المدى في خلق جسر واسع عريض خلال قرنين كاملين لنقل الحضارة الاسلامية العربية إلى أوروبا ، فقد نشأت على الأثر حركة واسعة في ترجمة العلوم والمعارف العربية إلى اللاتينية وكانت أبرز مركزى هذه الترجمة : جزيرة صقلية والأندلس .

كما استطاعت « أيولوجيا الاسلام » أن تتمثل في كثير من الحركات الثقافية والاجتماعية التي عرفتها أوروبا بعد ذلك ، فالأوروبيون وإن لم يأخذوا الاسلام ، وقاموا عالمه بعنف وشراسة ، فإنهم أخذوا « منهجه التجريبي » في العلم ومقوماته في الفكر والاجتماع والفروسية ، فقد كان الاسلام وفكره وثقافته ومفاهيمه بعيد المدى في حركات الإصلاح الديني ، قوى الأثر في الحركة العقلية وعلى الحضارة وعلى كل جوانب النهضة التي بدأها الغرب بعد ، وبذا يمكن القول بأن الاسلام أعطى وتفاعل مع كل القوى التي اصطدمت به أو حاولت هزوه ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للتجارة . ومن هنا يمكن القول أيضاً بأن الغزو الخارجي لعالم الإسلام كان هو العامل الأكبر في دخوله « مرحلة الضعف » هذا الضعف الذي تمثل في تخلف المسلمين عن أيولوجية الإسلام عن الحركة والعمل ، بينما كانت تنوال الوجات القوى البشرية القادرة على الدخول فيه وحمل لوائه .

هذه القوى التي تتمثل في السلاجقة والسنار والبربر والتمانيين وهي قوى بشرية هائلة دخلت الاسلام وآمنت به وسيطرت على عالمه عسكرياً وسياسياً ، ولكنها ظلت دون القدرة الكاملة على تطبيق أيولوجيته على نحو يكفل لها الاستمرار ، أو إقامة مجتمع العدل والحرية لجماهير المسلمين .

لعل أبرز ما يأت النظر هو الاستجابة السريعة بالتحدي ورد الفعل على الحملات الصليبية إلى المشرق « فلا يكاد الصليبيون يغزون الشام حتى تخرج الجيوش في العراق لمنازلة الغزاة الممندان ، ولا يكاد الصليبيون يتحركون ضد مصر حتى تسرع جيوش الشام للندود عنها ولا يكاد الناصر صلاح الدين يثبت قدميه في مصر حتى يسخر جميع مواردها البشرية وطاقاتها المادية لطرد الصليبيين من دمشق ، ولا يكاد أرنأط حاكم السرك الصليبي يخرج في البحر الأحمر لتهديد الحجاز حتى تشيد السفن في مصر وتحمّل على قاطع الجبال إلى البحر الأحمر لدفع الخطر عن الحرمين . ولا تكاد الأخبار تصل إلى القاهرة بأن لويس التاسع مات فرنسا قد نزل على رأس جيوشه في تونس حتى تتخذ

الاجراءات السريعة لدفع هذه الغارة « وهكذا ظل التجاوب سريعاً وتاما بين أجزاء الوطن العربي . كانت الحروب الصليبية حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب ، وكانت رداً على توسع الاسلام بعد سيطرة الغرب لأكثر من ألف عام على أغلب المناطق التي قام فيها الاسلام والتي كانت قد أضيفت إلى الغرب بعد حركة الاسكندر الذي استطاع أن يسيطر على هذه المنطقة ، وأن يوحدتها تحت سلطة الغرب ونفوذه ، ولكن هذه الحلات كشفت عن مفهوم جديد ، هو أن هذه المنطقة بعد ظهور الاسلام لم يعد من السهولة ضمها إلى عالم الغرب وفكره . لقد جاءت الحروب الصليبية بعد خمس قرون من ظهور الاسلام في محاولة لاستعادة هذه المناطق التي لم يعد من السهل إعادتها إلى الغرب . لأن مفهوماً فكرياً جديداً قد سيطر في هذه المنطقة وتعمق وأصبح يمثل قوة جديدة تستطيع أن تواجه عالم الغرب ، فقد برزت حضارة وعقلية جديدتين ، وظهر أسلوب حياة مباين بحيث يمكن القول أن الحروب الصليبية هي صراع بين حضارتين وعقليتين وأسلوبين في الحياة وأنه بعد مائتي عام ، اتضح للغرب عجزه عن تكرار محاولة الاسكندر الأكبر ، ذلك أن الاسلام قد أقام أيديولوجيا جديدة عميقة الجذور ، وأن الغرب نفسه قد جاء في أفواج همجية مشردة ، لمواجهة عالمها من الحضارة المدنية يستطيع أن يعطى ، في مجال القيم الخلقية والفكرية والحضارية .

وبعد : فإن عالم الاسلام لم يواجه هذه القوى — بعد أن سيطر عليها وأحاطها بنفوذه ثم إجلاها . لم يواجه هذه القوى يمثل ماواجهته عندما غزت أرضه فأسرفت في القتل والعدوان . بل كان بها هادلاً رحيماً ، وقد بدأ يمثل صلاح الدين الأيوبي وهو في موقف القوى المنتصر قائماً في ضوء مفهوم الاسلام وأيدلوجيته ، كريماً رحيماً هادلاً ، يمثل مفهوم الاسلام : (العفو عند المقدرة) مما كان له أثره في تحول مفهوم أهل الغرب عن الاسلام وأهله بالنسبة لما كانوا يعتقدونه بالظن فيه ، لقد كانت المقارنة قادرة على الكشف عن مفهومين وعقليتين . لا يمكن أن يلتقيا ولكن يمكن أن يقتبس كل منهما من الآخر

(٣)

معاملة المسلمين ومعاملة الفرنجة

حاول مؤرخو الغرب وتابعهم بعض المؤرخين العرب أن يبرروا الحلات الصليبية على « عالم الاسلام » ، بأنها إنما كانت مجرد حلات لاسترداد بيت المقدس وإنما لم تحرك لتحرير الطريق إلى قبر السيد المسيح ، وحايته من مظالم السلاجقة الذين اضطهدوا الحجاج المسيحيين ، وأن بطرس الناسك قد زار القدس وعاد يبيع الخواطر وينبها على سوء المعاملة . والحق ، أن هذه إحدى افتراءات التاريخ الكبرى التي عاشت طويلا دون أن نجد من يحققها أو يدفعها ، فليس هناك أى دليل أو أى وثيقة تثبت مثل هذه الاتهامات ، وكل ما عرف في هذا المجال هو أمر الضريبة المقررة على الحجاج والتي زعموا أنها قاحشة ، أما الاعتداء على حجاج القبر المقدس فلم تتأكد بدليل واحد أو شاهد منصف ، وإذا وجدت حوادث فردية فهي مما لا تخلو منه مملكة . ومن المؤرخين المنصفين الذين عاشوا تلك الفترة وزاروا الشام : « برنارى فيس » الذى كتب في مذكراته يقول أن السلام ساد فوق تلك الربوع بين النصارى والمسلمين حتى أنى لو كنت مسافرا ونفق بمصرى أو حمارى الذى ينقل أمنقى وتركتهما كلها دون حارس ولا رقيب وسمرت إلى أقرب مدينة لأجاب لى بميراً أو حماراً آخر لوجدت عند هودى أنها باقية على ما هى عليه » وقال العلامة منزو : « كانت تلك الفظائع المنسوبة إلى المسلمين ممزوجة بكثير من الأقوية « التوابل » لتوافق روح ذلك العصر الذى كان أشد توحشا من عصرنا هذا ، وكان النصارى يأخذون قصص تلك الفظائع على علانها » وتجميع المصادر على أن المسلمين لم يعاملوا الفرنجة بالمثل ، بالرغم من مظاهر العنف البالغة والانتفاض والنكث بالعهود والناسم التي نفذها الأوروبيون وكرروها في أكثر من موقف

كان المسلمون في جميع أدوار الحروب الصليبية يتصرفون في حدود مفهوم الاسلام وأيدلوجيته وفقاً وعدلا في دار الحرب والسلام ، ويسجل المؤرخون أن الصليبيين في الحملة الأولى سفكوا دماء المسلمين حتى في المسجد الأقصى بحيث كان الفارس منهم وهو راكب تصل إلى رجليه دماء المسلمين الذين قتلوا (كتاب التاريخ العام الافيس ورامبو) فإذا نظرنا إلى أعمال الصليبيين تركنا للعلامة ميشو في كتابه تاريخ الحروب الصليبية أن يصور أعمالهم قال « إنهم قتلوا في معركة النعمان وحدها جميع من كان من المسلمين اللاجئين إلى الجوامع ، والمحنفين في السرايب وأهلكوا صبرا (دون قتال) ما يزيد على مائة ألف إنسان .

وقال مبشرو: لقد تعصب الصليبيون في القدس التعصب الأعمى التي لم يبق لها نظير حتى شكنا من ذلك للنصفون من مؤرخيهم ، فكانوا يكرهون الغرب على إلقاء أنفسهم من أعالي البروج والبيوت ، ويجعلونهم طعاما للنار ويخرجونهم من الأقبية وأحواق الأرض إلى الساحات حيث يقتلونهم فوق جثث الأدميين وقد دام الدبح في للمسلمين أسبوعا حتى قتل منهم على ما اتفق في رواية مؤرخو الشرق والغرب سبعين ألف نسمة . كما أحرقوا دار الحكمة في طرابلس وكان فيها نحو مائة ألف مجلد من الفكر الاسلامي ، فإذا راجعنا ما فعله صلاح الدين بعد سيطرته على القدس واستعادتها منهم عام ٥٨٣ هـ وكان بها ألف من الفرنجة والصليبيين (منهم ٦٠ ألف راجل وفارس) غير النساء والأطفال لوجدنا تصرفا يختلف كل الاختلاف ، لقد حفظ صلاح الدين الأيوبي حياة هؤلاء جميعا واستوصى بهم وسمح لهم أن يخرجوا بكل ما يملكون من ذهب وفضة ، واكتفى بأن فرض على كل منهم عشرة دنانير وعلى كل امرأة خمسة وعلى كل طفل دينارين وتحمل عن عجز منهم ، فأهنا كثيرين من هذه الفدية .

وأدى للملك العادل أخو صلاح الدين الفدية من ألف منهم ، وهومل النساء بمعاملة غاية في السهاحة والعلف ، وأغضى عن كل ما حلوا معهم من غنائم . وأباح للبطريرك الأكبر أن يخرج آمنًا بأموال البيع وذخائر الجوامع التي غنمها الصليبيون في هجومهم الأول . ورفض صلاح الدين ما ذهب إليه مستشاروه من أن البطريرك سيتقوى بما أخذ على حرب المسلمين ثانية ، وقال : « لا أخدر به » ، كما خالف ما أشار به بعض الفقهاء الذين قالوا بمعاملة الفرنجة يمثل ما عامل به أجدادهم جمهور المسلمين يوم فتحهم للقدس .

بل لقد ذهب صلاح الدين إلى أبعد من ذلك فانه لما عقد الصلح بينه وبين الفرنجة ، دخل خلق كبير من الافرنج إلى القدس فأكرمهم صلاح الدين وقدم لهم الأطعمة ، لقد ألزم صلاح الدين منهج الإسلام ومفاهيمه وحلول أفت يكون مثلا واقعيًا للقيم الإسلامية وكان لهذا أبعد الأثر في تصحيح مفاهيم الغربيين إزاء ما ألقى إليهم من شبهة عن قسوة المسلمين وظلمهم . حتى عاد كثيرون منهم بعد انتهاء الحروب الصليبية يتحدثون عن الإسلام وعن صلاح الدين بإنصاف . وقد تحدث بعض المؤرخين عن خلق صلاح الدين فقال « أيوركا » المؤرخ : « لقد أظهر الجند المسلمون الذين راققوا المطرودين من الفرنجة شفقة مؤثرة ، ولا سيما على الأطفال والنساء ، ولا يتأتى إيراد البرهان على سمو أخلاق صلاح الدين بأكثر مما عامل به الصليبيين ، حتى لقد هدد أصحاب السفن من رعايا الجمهوريات

الإيطالية ليعبدوا هؤلاء البائسين من الصليبيين . وقال منرو : كان صلاح الدين محبوباً في الغرب لرأفته وكرمه بعد استيلائه على أورشليم ولسلوكه سلوكاً آخر غير سلوك الصليبيين آثار دهشهم وعبهم ، وكان كما هي العادة عند المسلمين شديد الفساح مشهوراً بتأدبه ، ولكن هل كان في ذلك هبة أو رد بالجيل ، الواقع أن العكس هو الذي كان ، فإن الصليبيين لم يلبثوا أن أظهروا القدر بعد قدوم الحملة الصليبية الثالثة ، إذ سارع رينشارد قلب الأسد مسبقاً وعباً لصلاح الدين بإرسال بعض الأمانات ، ولم يلبث أن أخذ ملك الانجليز ألفين وسبعمائة من أسرى المسلمين وقتلهم على رأس قل في عكا بمرأى من جنود صلاح الدين وبقر هكره بطون للقنولين ليروا إن كان فيها شيء من الجواهر والذهب ورغبة في الانتفاع بمرأهم لينخدعوا بها دواء يستشفون به (تاريخ الأمير حيدر) . وسجل للزخون الغربيون كيف أسر للمسلمون كثيراً من الفرنجة الذين ظلوا أمداً طويلاً في أسرم فكانوا يعاملونهم معاملة طيبة ، ويمنحونهم وأفرأ من الحرية . (تاريخ الحروب الصليبية لمندرو) وقد أشار هذا للزورخ إلى أن الفرنجة قد اكتشفوا حقيقة هامة وخطيرة هي أن « اتهام المسلمين بالجن قد زال من أذهان الصليبيين لما النحوا معهم في القتال » .

المقاومة

(أولاً) وحدثت الحروب الصليبية جبهة المسلمين وأزالت خلافتهم فأضحوا عرباً وتركات وأكراد مجتمعين على مقاومة الغزو الغربي ، كما تلاقت الدول : الفاطمية والأتابكية ، والأيوبية ، والمالكية . (ثانياً) عنى المسلمون بفنون الحرب ، وبرهوا في ابتكار أنواع جديدة منها وكانت مواقعهم واختراعاتهم الجريئة موضع إعجاب الفرنجة حين قالوا بالإبراج والمنجنقات والدبابات والسكباتي والهاب والطلب والسرايات وطلم الخنادق ونصب السلام والزخوف في الليل والنهار . (ثالثاً) كانوا يتحاورون المعارك والمواقف ساعات من الليل والنهار فيعملون في سبيل أرزاقهم أو قانا ويخصصون للجهاد ساعات وأياماً . (رابعاً) أبرزت الحروب الصليبية أعلاماً في مجال السياسة والحرب : نور الدين وصلاح الدين والكمال والظاهر وقلادون والأشرف وعشرات من الزعماء والقواد . (خامساً) اختلف أسلوب مقاومة الحملات الصليبية في الشرق وتطور ، كان منهج نور الدين مختلفاً عن منهج صلاح الدين ، وكان منهجها مما يختلف عن منهج الظاهر بيبرس وقلادون . وقد ظلت مقاومة نور الدين قائمة ومستمرة في الفترات على حصون الصليبيين ، وقد استطاع أن يفض أكثرها ففتح أكثر من

خسرين حصنا ، وكسر الصليبيين في حارم وكانت هدمتهم ٣٠ ألفا من الروم والأرمن والفرنج ، أما صلاح الدين فقد أوقع بهم في معارك فاصلة وقد أعطى صلاح الدين الفريبيين صورة باهرة للتطبيق الإسلامي للحرب والقتال والصلح أما الظاهر بيبرس فقد اضطر إلى اصطناع أسلوب أكثر عنفا من صلاح الدين وكان لمؤامرات الصليبيين أبعد الأثر في هذا الإنحياض . (سادسا) ظل الشعب صامداً ومنحمرآلام الضيق الاقتصادي نتيجة استنزاف الموارد في معارك المقاومة ، ولكنه ظل يقظا لأي موقف مهادن . فقد استنكر المسلمون صنع الملك الكامل ابن أخي صلاح الدين عندما وقع مع الأبراطور فردريك معاهدة بإزالة الصفة العسكرية عن القدس والتنازل عنها للصليبيين . (سابعا) قاوم المسلمون كل محاولة لتثبيط الهدم ، فقد دبرت الخائون صفوة الملك على أيها شمس الملوك صاحب دمشق من يقتله لما أيقنت أنه استوهمى الافرنج ليعلم إليهم الملك . ولما وقع أحد ملوك الصليبيين أسيرا في قبضة نور الدين باع نفسه بمال عظيم أنفق في الجهاد . وافندى أحد ملوكهم نفسه بمبلغ كبير فأخذته وبني به مستشفى عظيما . (ثامنا) حاول (ارناط صاحب السرك) من ملوك الصليبيين فتح الحجاز ، فأنشأ لذلك أسطولا في بحر الدوم (الأحمر) وسار في البحر فخاصر - صعد «إبله» ، وأنجبه نحو هيناب لاضطهاد المسلمين في تلك الأرجاء ، وأهان أمم النبي بكلمات رويت عنه ، فغلف صلاح الدين أن يقبله بيده إذا ظفر به ، وقد حقق صلاح الدين وعده بعد موقعة حطين . (ثاسعا) في خلال الحروب الصليبية وفي معظمها ، برز «الخطر المغولي» : كانت الحروب الصليبية تشغل الشام ومصر.

أما الخطر المغولي فقد اجتاحت عالم الإسلام من حدوده الشرقية حتى وصل بغداد ، وحلب ودمشق فكانت (حملة هولاكو) (١٢٥٩ - ١٢٥٨) بعد الحملة الصليبية السابعة (حملة لويس على مصر) (١٢٤٩ - ١٢٤٨) بعشر سنوات وقد اجتاحت عاصمة الخلافة (بغداد) فأسقطتها ، واستطاع المماليك الذين كانوا قد حكموا مصر قبل ذلك بسنوات قليلة (١٢٥٢) ، أن يردوا هذوان التنازل على حدود مصر في موقعة فاصلة هي «هين جالوت» ، انهزم فيها التنازل بعد جولة ضخمة من النصر اكتسحوا خلالها عالم الإسلام . (عاشرنا) أثبت انهيار مملكة بيت المقدس في موقعة (حطين) ٤ يوليو ١١٨٧ - أن الصليبيين بعد تسعين عاما لم يتمكنوا من توطيد أقدامهم في البيئة العربية الإسلامية وجاءت الأحداث المتوالية مؤكدة أن الأيدلوجية الغربية لا تستطيع أن تسيطر على عالم الإسلام أو يذبحه أو تقضى على مقوماته المستمدة من الإسلام ، ولم تكن الفترة التي امتد خلالها كيان مملكة الفرنجة في الساحل الشامى بالرغم من الامدادات المتوالية والحملة المستمرة إلا فترة مضطربة

هزيمة ، انتهت بالقضاء على هذا السكان وهزمت هزيمة منكروهمزقة وعزيقا ، لقد توقفت الحملات الصليبية على الساحل الشامي بعد الحملة الثالثة واتجهت الرابعة إلى مهاجمة الأبراطورية الشرقية والحملة الخامسة والسابعة اتجهت إلى مصر .

(٢٠)

غزو الفرنجة للمغرب

وفي مقابل الحروب الصليبية على للشرق كانت هناك الحروب الصليبية للفرنجة على المغرب الإسلامي وبينهما أوثق الروابط حيث كانت أوروبا تعد جتاه الغزو إلى القسطنطينية وللشرق ، من ناحية ، وبعد جناحه الآخر إلى الأندلس والمغرب . بلغ التوسع الإسلامي أفريقيا ، ثم عبر الأندلس سنة ٩٢ هـ على يد القائد بن طارق بن زياد وموسى بن نصير ، فلم تلبث أسبانيا أن أصبحت ولاية إسلامية ودخلت عالم الإسلام ، ثم شق التوسع طريقه إلى ماوراء جبال البرنيه فأدخل المسلمون في ولايات فرنسا الجنوبية ، وسيطروا على سهول الرون وتقدموا في قلب فرنسا خلال عشرين عاماً حتى توقفوا ثمة في معركة تولوك (تولوشة) ١٠٢ هـ ٧٢١ م واستشهد قائدهم السمع بن مالك فارتدوا إلى أسبانيا ، ثم كانت موجة جديدة قادها (عبد الرحمن الغافقي) ١١٣ هـ فقص إلى الشمال مخترقاً أراجون وناظر حتى بلغ نهر الدون فهزم الفرنسيين وطاردهم حتى بوردو ، ثم استولى على ليون ، وبلغ قريباً من باريس نحو مائة ميل ، واتجه إلى ضفاف اللوار ليتم فتح هذه المنطقة فيسيطر على نصف فرنسا الجنوبي ، وقد امتد خط التوسع كما يقول إدوار جيبيون — مدى ألف ميل من صحرة طارق إلى ضفاف اللوار ، وقد كان اقتحام مثل هذه للمسافة يحمل العرب إلى حدود بولونيا وربي أيقوسيا ، فليس الرين بأمنع النيل والغرات ، فلو حدث كانت أحكام القرآن تدرس الآن في جامعة أ كسفورد وربما كانت منابرها تؤيد لمحمد صدق الوحي والرسالة .

ثم كان اللقاء بين المسلمين والفرنجة في معركة بلاط الشهداء (تورو بواتيه) ١١٤ هـ هذا اللقاء الذي يقف عنده المؤرخون الأجانب على أنه حاسم ، وأنه قضى على التوسع الإسلامي في أوروبا بينما ظل المسلمون يتوسعون في أوروبا من بعد ذلك إلى تاريخ بعيد .

لم يتوقف التوسع الإسلامي في أوروبا بعد معركة بلاط الشهداء وإن كان قد انتظر ثمة ، ثم هاود من بعد حركته وكانت دولة بني الأغلبي في تونس هذه المرة ، هي التي حلت لواء التوسع بعد توقف دولة

المغرب فلم يلبث عبد الله بن الحيات والى أفريقيا أن بعث حبيب بن أبي هبيدة بن عقبة القهري عام ١٣٣ — أى بعد معركة بلاط الشهداء بتسع سنوات — إلى حدود إيطاليا .

ثم جهز زياد الله الأكبر أسطولا عام ٢٠٧ بإمارة محمد هبيد الله النخعي لمنازلة مردانية ثم أماد عليها السكرة ٢١٢ هـ بقيادة أشد بن القرات ثم توالت محاولات التوسع في إيطاليا ٢٢٤ هـ ثم سيطر المسلمون على جزيرة أفرطش بعد موقعة هائلة مع أسطول بيزنطة (٢٤٠ — ٢٥٠) واقتحم القائد خفاجة جنوة عام ٢٥١ هـ وتقدم إلى جبال الألب وسيرت بيزنطة أسطولا ضخما لمحاربة المسلمين في شطوط أوروبا الجنوبية ومنهم من التقدم في فرنسا فواقهم خفاجة على شواطئ جنوة وسركوسة وألحق بهم خسارة عظيمة واستولى الأسطول الأغلبى على جزيرة مالطة .

وتقدم الحسن بن رباح إلى مرسيليا وفتح البروفنس ، فاستنجحت فرنسا بالدولة البيزنطية فسيرت لها أسطولا مؤلفا من ١٤٠ مركبا فلقية الأسطول الإسلامى في عرض بحر الروم ودارت معركة ضخمة ، وتوغلت القوات الإسلامية في فرنسا بقيادة خفاجة ن سفيان واستمرت من ٢٦٦ إلى ٢٧٢ هـ فسلكت بعض شواطئ الرون واحتلت كولونيا كما جهزت أفريقية أسطولا عظيما عام ٢٧٥ هـ لتعقب أسطول البيزنطيين ، فشل حركتهم عن التقدم ، ولم تكن سيادة المسلمين في إيطاليا وجانبها من فرنسا .

يقول العلامة عبد العزيز الشعالى الذى نقلنا عنه هذا العرض : لقد استمر نجم الإسلام صاهداً في أوروبا بعد هذه الواقعة العظيمة والأمراء الأغالبية لا ينفكون من تمزيق المسلمين في ولايتهم الأوربية مراقبة حركات الصليبيين مراقبة عنيفة تحيط كل مسمى في الانتسكاس إلى أن قامت الدولة العبيدية (الفاطمية) هنالك توقف التوسع الإسلامى (أواخر القرن الثالث) ومعنى هذا أن المسلمين ظلوا من عام ١١٤ إلى ٢٩٨ تقريباً وهم يؤسمون عالم الاسلام في فرنسا وإيطاليا ، وقد اقتحم المسلمون بعض ولايات إيطاليا الجنوبية واشتبكوا في معارك بحرية في مياه أوسنيا (نهر روما) وهددوا مدينة روما بالحصار حتى اضطر البابا يوحنا الثامن أن يدفع لهم جزية قدرها ٢٥ ألف مثقال من الفضة .

غير أن الموقف لم يلبث أن تحول بانتقال المعز لدين الله إلى المشرق ، وشمر الغرب بسريان الضعف والانحلال في القوة الإسلامية ، فأخذوا يتواثبون في كل مكان وما زالوا يؤلبون عليهم

حتى ٣٧٢ هـ حين قاد الملك روجار النورماندى جوعاً كثيفة لمناجزة المسلمين فى فرنسا ودارت معارك ردت الفرنجة على الأعقاب ، وقد استنفر (روجر) الأمم الأوربية لمحاربة عالم الاسلام فى أوروبا وأفريقيا . ثم نزل الرومانديون من شمال فرنسا إلى جنوبها وشرها وينتقمون القوى الاسلامية ويناجزونها فى إيطاليا حتى أزالوا المسلمين من جنوب أوروبا ، ثم انجسوا بعد ذلك إلى مهاجمة أفريقيا ففى عام ٤٧٦ هـ هاجروا أغر « المهدي » وهو دار الملكة الصنهاجية بأسطول مؤلف من ثلاثمائة مركب بها ٣٥ ألف مقاتل فحرقوا وخربوا وهاود المسلمون السكرة عام ٥١٦ هـ فأغرى على بن يوسف بن تاشفين صاحب العدوتين أسطوله شطوط أوروبا الجنوبية بقيادة (أبى عبد الله ميمون) وأعاد النورمانديون السكرة على المهدي ٥١٧ هـ ففتم المسلمون مراكبهم وأسلحتهم وأموالهم ثم هادوا عام ٥٤٣ هـ فاحتلوا المهدي ، وجعلها الصليبيون قاعدة لخرابهم البحرية فى شمال أفريقيا إلى أن أجلاهم عبد المؤمن بن على سنة ٥٥٥ هـ .

وقد جاء هذا الصراع بين الإسلام والغرب ، على حدود إيطاليا وفرنسا وأسبانيا (مدخل أوروبا الغربى) مكمل للصراع بين الاسلام والدولة البيزنطية (مدخل أوروبا الغربى) فلم ينفصل هذا فى شطريه ولم يتوقف ، وكان آنأ ينسم ويمقى فى إحدى الجناحين ، ثم يشغف ليوصل اشتداده فى الجناح الآخر .

ولم يلبث الإسلام أن دهم وجوده فى الأندلس ، ولكنه كان وجوداً محفوفاً بالخطر ، الذى كان يحتاجه من أطرافه ، فلم تلبث أن قامت الدولة الأموية راسخة البنيان استمرت (٢٧٥ عاماً) ثم اعتورها الضعف والترف والتمزق ، ولم تلبث أن نهوت إلى ممالك صغيرة استطاع نفوذ الفرنجة المترص أن يحتاجها وينتقص منها ويغرى بعض أمرائها بالبعض الآخر ، وكان المسلمون قد تركوا إبان وصولهم إلى الأندلس جيها به مجموعة من الفرنجة اعتصمت بالجبال وظلت تكبر وتنمو حتى أصبحت قوة كبيرة وخطراً مهدداً ، ولم تلبث الأندلس أن تعرضت لغزو الصليبي الذى كان ينتقمها من أطرافها ، لولا موجتين متواليتين ، إحداهما المرابطين ، والأخرى الموحدين ، هاتان الموجتان اللتان قادهما يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن على ، قد أجلتا تمزق الأندلس فترة من الوقت ، وكانت قوة البربر التى ظهرت على مسرح الأحداث فى المغرب إحدى القوى الإسلامية الثلاث البدوية الخشنة التى نصرت الاسلام فى إبان أزمتها ، وهى ثلاثة : السلاجقة والماليك .

ولقد ظل الغرب يقاوم بقاء المسلمين فى أوروبا ، ويسمى على إجلالهم من مواقعهم ، وكانت

دورته الاسلام قد تراخت فلم تحقق تطلعا إلى بلوغ القسطنطينية من الأندلس ، وتحول الموقف مريعا من مرحلة التوسع إلى مرحلة الدفاع والمقاومة ، وهي مرحلة طويلة مديدة ، واجه فيها المغرب والأندلس صراعا امتد من عام ٩٣ إلى ٨٩٨م — وهو عام إسترداد الغرب — للأندلس ولم يتوقف . وقد تزايد الغزو الصليبي على الأندلس من ناحية وعلى عالم الاسلام في المشرق من ناحية أخرى وازداد ضغطا وقوة بعد فشل الحروب الصليبية في المشرق وارتدادها منهزمة ، وكانت أوروبا تتفكك المعركتين وتؤلب عليهما في كلا الميدانين : ميدان الشرق في الشام ومصر وميدان الغرب في الأندلس والمغرب ، ولقد بلغت الأندلس مكانا هاليا في مجال العلم والحضارة وازدهرت قرطبة وناظت بغداد ودمشق والقاهرة بينما كانت أوروبا على مرمى حجر منها تعيش في ظلمات البداوة والتفوق .

تقبلت أسبانيا عبور المسلمين إليهم تقبل المنقذ فقد التفت فيه الشخص من الظلم والاستبداد كما تقبلت دولتا فارس والروم « الاسلام » محررا لها وقد توالت حركة التوسع في الأندلس ممثلة في فرقة طريف الاستطلاعية ثم هبرت قوة طارق ثم هبر بعد موسى ابن نصير نفسه وكان فيليب الدور الأعظم في هذه المعارك ثم هبر جبال البرانس من بعد « الحر بن عبد الرحمن الثقفي » (٧١٧م — ٨٩٩) فاستولى على سبانيا ، ثم إحتل أربونة ، التي جعلها المسلمون من بعد حصنا منيعا ومستودعا للذخائر ، ثم كانت موقعة بلاط الشهداء عام ٩١٤م بعد عشرين عاما من التوسع ، فانسحب المسلمون بعد هزيمة اليوم الأول واستشهد عبد الرحمن الغافق . وتوقف التوسع في هذا الجناح ليعبد في جناح آخر ، وبطابع آخر فقد استأنفته قوى المسلمين في جناح تونس ، وإن لم يكن بنفس الدرجة ولا القوة .

ويمكن أن ينظر إلى هذه الموجة التي بدأت عام ٩٢ وتوقفت ٣١٤م على أنها موجة طبيعية قد بلغت مداها ، كان قوامها البربر والعرب ، وقد استنفدت قوتها ، بعد أن بعدت عن جبل طارق نقطة بداها نحو ألف ميل ، فصلا عن الخلاف الذي دب بين البربر والعرب وفضلا عن مأساة القتل .

فكان بلوغ الزحف موقع « بلاط الشهداء » في الحق ، هو أقصى ما يمكن أن تبلغه هذه الموجة ، ومن هنا بدأت المرحلة التالية : مرحلة التبلور والانصهار وبناء الحضارة التي ازدهرت في ظل الدولة الأموية الأندلسية خلال (١٣٩ — ٤١٤) قرنين ونصف ويزيد . خبر أن الظاهرة الواضحة في الأندلس أن الصراع لم يتوقف بين المسلمين والفرنجية حتى في أزهر المصور .

وأن بناء الدول أمثال عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر وللنصور أبو عامر كانوا مجاهدين بالدرجة الأولى وكانوا يوالون تأمين حدودهم من غارات الفرنجة الذين كانوا يتربصون الدوائر بهنـه المملـكة العربية الإسلامية التي نجحت في قلب عالم أوروبا النائم المنـصب ، المبيت النية للقضاء عليها ، ومع ذلك فقد تمت في مرحلة التبلور والحضارة وأبـنت نمارها وكتبت صفحة باهرة ، فقد تأقت حضارتها حضارة المشرق .. وحملت لواء العلم والفلسفة واضطرت أوروبا أن تنصل بها وأن تأخذ عنها ثم أن تمـنص هذه الحضارة وتحيلها إلى كيانها وتبدأ بها النهضة الحديثة فقد كان « المنهج التجريبي » هو أعظم ما قدمت الأندلس المسلمة العربية إلى الحضارة الأوروبية الوليدة ، وكانت مؤامرة سحق الأندلس وإخراج المسلمين والعرب من أسبانيا والقضاء على الإسلام واللغة العربية في أوروبا والتخلص من آخر هربي ومسلم في أوروبا بالإخراج أو القتل أو التنصير هو رد الفعل أو رد الجليل .

ومن عجب أن تكون قرطبة عاصمة الأندلس هي زهرة أوروبا كلها وفيها يقيم نصف مليون من السكان وكان بها سبعة مائة مسجد وثلاثمائة من الحمامات العمومية وبها شقت شوارع طولها أميال كانت دائماً مضادة بقتاديل حيث لا يوجد في ذلك الوقت قنديل واحد عمومي في لندن إلا بعد سبعة مائة سنة ، أما باريس فظلت قروناً بعد ذلك ، لا يأمن من يتخطى حـتة داره في يوم ماطر من الخوض في لجة من الوحل .

(١٩)

الغزو المغولي التتري

يمثل الغزو المغولي (التتار) موجة من الموجات العاصفة التي واجهت عالم الإسلام وامتمرت بجناحه بمنف على دفعات متوالية خلال أكثر من قرنين ونصف قرن . X جنكيز خان : امبراطورية المغول (١٢٠٠) X هولاكو في بغداد (١٢٥٦) . X تيمورلنك في خراسان وما وراء النهر ٧٧١ — فتوحاته ٧٨٣ في بغداد (١٣٩٥) . حملة تيمورلنك على سوريا ٨٠٤ — وحله تيمورلنك على الدولة العثمانية . وقد افترقت غزوات التتار لعالم الإسلام بغزوات الصليبيين وارتبطت بها وفق مخطط عسكري في محاولة وضع عالم الإسلام بين فكي كاشة قوامها الصليبيين والتتار الذين كانوا على صلة بالقوى الأوروبية التي تدهم الحملات الصليبية ، كما حاولت القضاء على الدولة العثمانية كقوة شابة من قوى الإسلام ، وكان المغول والتتار في كلا الموقعين من غزو بغداد

لإحباط الخلافة ودحر القيادة السياسية الإسلامية ٨٦٥٦ بقيادة هولوكو و ٨٧٩٥ بقيادة تيمورلنك ثم غزو آسيا الصغرى لإسقاط الدولة العثمانية الشابة التي تمثل قيادة الإسلام الجديدة — لا شك كان هذا مرتبطاً بإرتباطاً أكيدا بخطط الفرنجة والغزو الغربي . خير أن الإسلام شأنه دائماً مع كل القوى المواجهة له ، كان دائماً قادراً على التأثير فيها ، فقد استطاع بقوته العقلية والروحية الفاعلة أن يحول الفتنة إلى الإسلام . فلم يكذب ينفضى على ظهور التنار أكثر من ثمانين عاماً حتى أعلن الامبراطور (تاجدار أوغل) الذي تولى السلطة عام (٨٦٨١ — ١٢٨٢م) اعتناق الإسلام وأطلق على نفسه السلطان أحمد ، ووزع منشوراً بذلك على المقاطعات التي يكون فيها امبراطوريته (هريستان . هجستان . هندستان . تركستان) . وكان نص منشوره التي بثت به إلى وإلى بغداد يقول : « لقد جاءت على عرش أجدادي فخذوا هلم أننا معشر المغول مسلمون وأن حقوقكم الموروثة من عهد العباسيين .

سنظل محترمة مقدسة ، وقد أمرت أن ترد إلى العراق جميع التكايا والمدارس والمؤسسات الدينية والشخصية التي كانت ملكاً لهم ، واغتصبها عمال ووكلاء أجدادي وابلغت نائبي لديكم أن يثنى في جميع أحكامهم على مقتضى تعاليم الشرع الإسلامي لأن محمد ﷺ بشرنا بالقرآن الكريم أن الدين الإسلامي هدانا لهذا والسلام سيظل قائماً وسائداً إلى يوم القيامة ، ونأمل الاعتقاد بذلك فالحمد لله الواحد الأبدى الذي عليكم : (امضاء) الخان الأعظم ملك ، لوك آسيا (تاجدار أوغل) .

وسار (غازان) ابنه في نفس الطريق ، فما أن تولى الملك حتى هاجم بلاد مغولي الصين ، التي كانت تنتمسك بالشامانية والبوذية والكنفوشوسية وحلهم على اعتناق الإسلام ، فأصبح المغول بأجمعهم والتابعون لهم يدينون بالإسلام . وقد كان هذا التطور سبباً رئيسياً في إقبال الأهالي على اعتناق الإسلام ومن تمرركز الإسلام في بلاد المغول ، ثم أمر « السلطان جاردوان » بهدم المعابد الوثنية وإقامة المساجد الإسلامية مكانها .

وما زال حادث سيطرة الإسلام على هؤلاء الفاتحين القساء الذين كانوا كالأحصار الملاحق للخصوة الإسلامية ، ما زال يعد من أحداث تحولات التاريخ الخطيرة التي نحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث . فقد كان حادث إسقاط الخلافة العباسية في بغداد من الحوادث الفاصلة المدودة في تاريخ الإسلام كله . والتي هزت عالم الإسلام هزة هنيئة حتى قال ابن الأثير في تاريخه سنة ٨٦١٧ :

« لقد بقيت هذه سنين ممرضا عن ذكر هذه الحالة استمظاما لأمرها ، كرها لذكرها فانا أقدم إليه رجلا وأوخر أخرى ، فن ذا الذي يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين . ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ، فيأبى أن يلم تلامي . » وقد صور توماس أرنولد قوة الإسلام في النجدي ورد الفعل حين استطاع بعد ربع قرن من إسقاط التتار لبغداد منار الخلافة الإسلامية ، أن يفرض عليهم اعتناق الإسلام . « لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطبا أشد هولا من غزوات المغول فقد انسابت جيوش جنكيز خان أنسياب الثلوج من قُلل الجبال واكتسحت في طريقها للراكنز الإسلامية وأتت على ما كان لها مدنية وثقافة ، . . . ولكن لم يكن به من أن ينهض الإسلام من تحت أقباض عظمته الأولى وإحلال مجده الخالد ، كما استطاع بواسطة دعاة أن يجذب أولئك الفاتحون المتبريرون ويحملهم على اعتناقه ، ويرجع الفضل في ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة منافسين قويين كانوا يحاولون إحراز نصب سبق في هذا للقبائل . وقد واجه للمغول صراعا حاييا بين البوذية والمسيحية والإسلام ، كانت الشعوب التي اختلطوا بها على أثر فتوحاتهم تضم أهل الديانات الثلاث ، وقد تنافس دهاه هذه الديانات في كسب الفاتحين إلى أديانهم .

ولما فتح جنكيز خان البلاد التي تسكنها قبيلة السكرايين للمسيحية تزوج كما تزوج ابنه كراباي منها ، أما ابنه الثاني أخياي فإنه لم يعتنق المسيحية . وكان لهذه المصاهرة أثرها في تطلع قوى الأفرنج إلى مساعدة المغول في حروبها ضد المسلمين فقد تمكن هيتون ملك أرمينيا المسيحي من اقناع ما نجو خان (٦٤٩ - ٦٥٥) وحمله على إرسال تلك الحملة التي فتحت بغداد تحت قيادة هولاكو (٦٥٤ - ٦٦٣) . غير أن الخطة التي كانت تقوم بها حملات التبشير وقوى الفرنجة لكسب المغول فكان للصراع بينها أثرا سيئا في نفوس التتر . ومن ثم استنظاهت البوذية واستطاع الإسلام أن يحتل مراكز متقدمة في بلاد المغول . وظل الصراع قائما حتى حسمه « بركة خان » رئيس القبيلة الذهبية ١٢٥٤ م وكان أول من أسلم من المغول وكان بركة خان قد اعتنق الإسلام منذ طفولته وكان جيشه مسلما ، وقد دخل بركة خان من بعد في حلف مع الظاهر بيبرس ، وكان من نتيجة ذلك أن وفد كثير من رجال القبيلة الذهبية إلى مصر حيث اتخذوا الإسلام ديناً لهم (المقرئى) . وكان من أبرز آثار انتشار الإسلام بين المغول بعد أن ردم الظاهر بيبرس عن سوريا أن عمدوا إلى توطيد أقدامهم في فارس والعراق ، وانصرفوا إلى التعمير وإقامة الحضارة ، وإصلاح المناطق التي كانوا قد خربوها ، والحق أن المغول بعد هذه الحملات العاصفة على عالم الإسلام والتصاقهم بالمجتمع الإسلامي

قد وجدوا أنفسهم خاضعين للإسلام ، دين ضحاياهم وثقاتهم ، ويمكن القول أن أثر الغزو المغولي في ضراوته لا يقل عن أثر الحروب الصليبية ، بل إنه كان من الوجهة النفسية أسوأ أثراً حيث أسقط مركز القيادة السياسية الإسلامية التي كان دوماً موضع الإعجاب والإجلال ، وكان الغزو المغولي قد بلغ من العنف مبلغاً لا حد له ، وامتدت رقعته امتداداً شمل آسيا كلها وبلغ أطراف أوروبا ، غير أن المغول لم يلبثوا بعد أن انصهروا في عالم الإسلام واهتدقوا ديانته ، أن أقاموا دولة كبرى امتدت من الصين إلى بغداد بينما أقام الصليبيون في الشريط الساحلي للبحر الأبيض نجاه الشام .

وقد نقلت غزوات التتار مقر الحضارة الإسلامية إلى مصر التي لم يحسها هذا الغزو وانكسر لأول مرة على حدودها ، والذي استطاع إبراز قوة حربية فنية ظلت تحمي عالم الإسلام أكثر من قرنين هي قوة المماليك ، الذين انضوا تحت لواء الإسلام وحملوا راياته ودافعوا عنه ، وكانوا إحدى القوى الثلاث التي ابتغتها الإسلام من أعماق للدفاع عنه : السلاجقة الاتراك ، والبربر المتونيين ، والمماليك البحرية .

التتار وسقوط بغداد

زحف هولوكو على بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية فدمرها وقتل الخليفة المنصور وجملة العلماء والفقهاء ، ووضع السيف في بغداد أربعين يوماً حتى زاد عدد القتلى من ٨٠٠ ألف (هذا الأطفال ومن هلكوا في السرايب واللقى والآبار) ، وبدد مظاهر الحضارة من كتب وفنون وتراث ونهب أكثر من أربعمائة ألف مجلد ملاً بها خزانة كبيرة نقلها إلى عاصمته من بغداد والشام والجزيرة .

وقد أشار ابن تيمية في مؤلفاته إلى أن من قتلهم هولوكو في هذه المعارك من المسلمين : بضعة عشر ألف إنسان وقال إن الإسلام لم ير ملحمة مثل هذه الملحمة . وقد هجرت السلطات الحاكمة في بغداد عن الوقوف في وجه الغزو المغولي الأول عام ٦٥٦ نتيجة لعوامل كثيرة توالى بها الضعف هاما بعد عام ، أبرزها التفكك الذي أصاب دولة الخلافة وسيطرة القوى المحتلة الغازية عليها : ومن بغداد اتجه المغول نحو الشام في غزو مندفع كالأحصار .

بدأ غزو التتار لشام بعد إسقاط بغداد ١٢٥٩ (٦٥٧ هـ) فتدفقت قواتهم على الجزيرة واستولى هولوكو على آمد ونصيبين وحران والرها والبيرو ، ثم أجهت القوات صوب حلب فاستولت عليها هنة ، ثم استولى هولوكو على دمشق ١٢٦٠ م (٦٥٨ هـ) ووصلوا إلى غزة ثم جاء دور مصر

واحتطاع قطز ويبرس التصدى للخطر وإيقافه لأول مرة منذ زحف المغول من أواسط آسيا، فقد هزموا هذه القوة التي لم تستطع أى قوة في الشرق الأوسط والأدنى الصمود لها، وانتصر للصربون على التتار، في موقعة « عين جالوت » وقتل « كتيغا » قائدهم الخطير وأظهر المالبك شجاعة كبيرة فقد اهتز السلطان قطز عندما اضطربت صفوف المسلمين ورمى خورته من فوق رأسه إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته « وإسلاماه » وحل بنفسه على العدو، وقضى على العدو قضاءً تاماً . وتعد معركة « عين جالوت » من المواقع الفاصلة في التاريخ لما ترتب عليها من نتائج خطيرة، فلواتصر التتار في هذه الموقعة لفعلوا بمصر وأهلها ما فعلوا بال عراق ولأقاموا واستقروا في الشام، ومن هنا لم ينقذ انتصار المالبك مصر وحدها بل ألقاها الشام أيضاً (سجد الدين عاشور : المالبك) .

ويجمع المؤرخون على أن غزو التتار لبغداد إنما كان بتحريض واتفاق مع الصليبيين في سبيل القضاء على قوة الإسلام : فقد كانت زوجة هولاكو « دوقوز خاتون » مسيحية نسطورية، وكان ذات نفوذ مسموعة الكلمة « وقد كان للقوى الصليبية في ممسكة هولاكو نفوذ بارز، ومن هنا استطاعت هذه القوى — وفق خطة مرسومة مع القوى الأوربية — أن تخرض التتار وتستغل قوتهم في القضاء على عالم الإسلام، وقد تحالف الأرمن (مملكة أرمينية الصغرى) مع التتار واشترك الطرفان في وضع خطة غزو هولاكو لبلاد الشام، واستطاعت أوروبا أن تقيم صلات مع تزار فارس بلغت درجة عالية، فاستطاعت أن تحقق بهذا الغزو التتاري لمناطق الشام والجزيرة وأطراف آسيا الصغرى نتائج هامة، إذ هي المناطق التي تناخم المملكة اللاتينية على الساحل الشامى والقضاء عليها وضربها لاشك يؤدي إلى إضعافها وهجزها عن مقاومة الصليبيين، وقد كشف التاريخ عن أن ضربات التتار كانت تزداد عنفاً كما استولوا على مدينة من مدن الشام الإسلامية مثل حلب ودمشق، فقد كانوا « يسرفون في اضطهاد أهلها المسلمين وامتهان مساجدهم بقدر ما أسرفوا في تأمين العناصر المسيحية واحترام كنائسها ودورها » .

وللمعروف أن زوجة هولاكو وأمه كانتا مسيحتين، على المذهب النسطوري، الأمر الذي جعل هولاكو يعطف على المسيحية بقدر ما قسا على المسلمين، وقد وجدت قيادة القوى الصليبية في الشرق الأدنى وفي الغرب فرصة في إمكان تحويل التتار إلى المسيحية فاتصلوا بهم واستشاروهم ضد المسلمين، وفي المراجع الصليبية المعاصرة ما يثبت أن ملك أرمينيا الصغرى للسيحي اتصل بهولاكو وورس معه خطة هزو بلاد الشام وانتزاع بيت المقدس من المسلمين ليلسله المسيحيون : أما المعركة الأخرى :

التي أزر فيها التتار النفوذ الغربي الأوربي الصليبي فهي الحملة التي شنّها تيمور لنك على الدولة العثمانية الناشئة .

وكانت هزيمة التتار في « هين جالوت » هي رد الفعل الحاسم بعد هامين على تدمير بغداد ، بعد سنوات طويلة من الاندفاع للغول والانتصار التتاري دون أن تقف في وجههم قوة يحسب حسابها . وكانت قوة الدفاع عن الإسلام إذ ذاك قد تركزت في وحدة مصر والشام لمواجهة الغزو الصليبي ، غير أن غزو المغول وحملاتهم للتوالية لم تنوقف بعد ذلك على الشام ، فلم يلبثوا أن عادوا إليها في حملة أخرى (١٢٧٠ هـ) فانتصر عليهم الظاهر بيبرس ، ثم هادوا الهجوم على الشام بقيادة غازان وكانوا قد اعتنقوا الإسلام ، فأدال منهم السلطان الناصر محمد قلاوون ودارت المعركة في حصن وحامة وكانت قوة التتار مثل خمسة أمثال القوة الإسلامية ، ثم نجحت الممراك مرة أخرى (١٢٧٢ هـ) وخرج الناصر من مصر على رأس جيش كبير لملاقاة التتار بالشام ودارت المعركة عند برج الصفر بالقرب من حصن وانتصرت القوة الإسلامية العربية .

ثم نجحت خطر التتار مرة أخرى برهامة « تيمور لنك » الذي اجتاحت وسط آسيا وزحف بمجموع جرارة على بغداد ، وحاصر البصرة ، وقد خرج السلطان برفوق في جيش كبير إلى الشام ٧٩٩ هـ وبلغ دمشق وقصد منها إلى حلب وعبّر الفرات ليلقي تيمور لنك على ضفته الشرقية ، وقد استطاعت القوة الإسلامية أن تدبيل من جموع التتار وأن تغنم منهم ، كما أغار تيمور لنك مرة أخرى على حلب وحصن وبعلبك ودمشق وخرج السلطان للصري فرح لمحاربتهم فالتقى بهم عند دمشق . وهكذا توالت حركات الغزو للغول وحملت مصر لواء المقاومة واستطاعت في مخناف الممراك التي نشبت أن تدبيل من القوات الغازية وتردها .

تحول التتار (المغول) تحولاً بطيئاً نحو الإسلام بعد حملات هاصقة ضارية لا حد لضراوتها في القتل والنحرىض . وكانت قوتهم قد ظهرت عام ٩٠٠ هـ بعد أن تدهأت قوة الإسلام وصمفت ومزقت الحملات الصليبية كيائها وشغلت مناطق الشام ومصر بالمقاومة التي لا تنوقف . وقد امتدت مملكة جنكيزخان : من بحر الصين إلى البحر الأسود ، فاستولى على ماوراء النهر ، وخوارزم ، وخراسان ، وهراء ، وقندهار وملتان ، وأتى على حضارة الاسلام خلال ستة قرون في غزته ونيسابور وشيراز وبخارى وممرقند وطوس وقزوین وأصفهان ومراغه . وانتهت هذه الموجة بالسيطرة على هذه المناطق حتى جاءت الموجة التالية بعد أكثر من نصف قرن بقيادة « هولاكو » الذي وسع دائرة

الغزو فهدا إلى بغداد والشام وتوقف عند حدود مصر ، غير أن هؤلاء الذين ضربوا الحضارة العربية الإسلامية في عنف لم يلبثوا أن خضعوا لنفوذ الإسلام واستسلموا المدينة العرب وأخذتهم الدهشة من هجائها إلى حد تحولوا إلى حام لهذه للدنية (أجوستاف لوبون) ولم يلبث للقول أن اعتنقوا الإسلام ، وقد استعان هؤلاء بنصير الدين الطوسي في بناء للرصد وإنشاء المكتاب فابتنى مرصداً في مراغة ، وأقام إلى جانبه مكتبة فسيحة الأرجاء وأخذ يجتمع بالعلماء والفلاسفة ، وخطا كوبلاي خان خطوة أخرى فهو ما كاد يتم فتح الصين حتى تقل إليها المؤلفات من بغداد والقاهرة ، فانتشر الإسلام عاجلاً بين شعبها وأمرائها ، فتعالت للآذان في تركستان وروسيا وتوسم ذلك وازداد في عهد « غازان » . أما تيمورلنك فقد كان مسلماً تغلب على امبراطورية المغول ، وقد ساق غزوة عاصفة على عالم الإسلام كله وبغداد والشام ولكنه كان أقل عنفاً فقد نهى عن التعرض لدور العلم وبيوت الدين ، وفي مصر تيمورلنك برزت نهضة عليه وصدرت مؤلفات متعددة لعماله عرباً وفرنساً وفي مقدمة هؤلاء الفيروزبادي مؤلف القاموس الكبير وأشار سديو إلى أن بغداد كانت ما تزال منارة العالم الإسلامي (١٧٥٠) .

ومثل غارات التتار (للمغول) « سنة » الكون « وحركة » التاريخ التي لا تتخلف ، فإذا انحدرت الحضارة وغلب الترف ووقع التفكك وتراخت الأيدي عن المقاومة والحفاظ على الشئور وضعت الجيوش ، وتخلفت الأمة عن مقومات فكرها وقيمها الأساسية ، كان لابد أن يسقط هذا الملك في يد قوة جديدة بدوية شابة .

ولاشك تقع مسئولية انتصار قوى التتار الغازية على المسلمين الذين ضعفوا ونخلوا عن العوامل الثلاث لسيادة : « القوة والوحدة والإيمان » غير أن التتار لم ينتصروا على طول الخط ، بل واجهوا بعد معركة بغداد مقاومة صلبة على حدود الشام ومصر ردتهم عن هذه المنطقة طويلاً . ثم لم يلبث الإسلام أن صهرهم في بوتقته فأقاموا دولاً كبرى تحت رايته كان أبرزها الدولتان الخوارزمية في منطقة ما وراء النهر والمغولية في الهند . قال أرنولد : لم يكن أحد يتوقع أن ينتصر الإسلام في هذه المعركة وتهمز البوزية والنصرانية ويستأثر وحده بالتتار ، فقد كانت عاصفة هجومهم وغاراتهم أشد على المسلمين منها على غيرهم . والفضل هؤلاء الدهاة الخلفيين الذين حرصوا على إرشاد هؤلاء الظالمين وهدايتهم وأسلوب دعوتهم ورقة مواهظهم ونجودهم من الأنانية والكبرياء ، فقد أسلم سلطان كاشغر (تغلق تيمورخان) عام ١٣٤٨م ، ١٣٤٧م على يد الشيخ جمال الدين الذي جاء من بخارى . فقد أوثق مع جماعة من الغرباء وحلوا إليه : قال لهم تيمورخان : كيف دخلتم في حماي من غير إذن ؟

قالوا : نحن غرباء ولم نشعر إننا نعيش في أرض ممنوعة ، قال : حتى السكاب أفضل منكم . قال الشيخ جمال الدين : صدق الملك لولا أن الله أكرمنا بالدين الحق لسكننا أذل من السكاب .

وتحير الملك ، ومضى للصيد ، وبقيت كلمة الشيخ تشغل فكره ، فلما هاد من الصيد أمر بمعرضهم وخلا بالشيخ وقال : فسر لي ما قلت وأخبرني ماذا تعنى بالدين الحق . وفسر الشيخ الإسلام في حساسة وقوة تفسيراً رقى له قلب السلطان وصور الكفر تصويراً فزع له السلطان ، ورأى السلطان أنه لو أعلن الإسلام لما استطاع أن يدخل قومه في الإسلام ، ورجا الشيخ أن ينتظر حتى إذا سمع أنه ولي الملك وجلس على أريكة الحكم زاره ، وكانت المملكة الخنثائية قد توزعت على أمارات متعددة ، واستطاع تغلق تيمور خان أن يجمعها ويكون منها مملكة كبيرة ، ورجع الشيخ جمال الدين إلى بلاده ومرض مرضاً شديداً ، ولما حضرته الوفاة دعا ولده « رشيد الدين » وقال له : أن تغلق تيمور سيكون في يوم من الأيام ملكاً عظيماً فإذا سمعت ذلك فعليك أن تزوره وتقرئه معنى السلام وتذكره بما كان قد وعدني به من اعتناق الإسلام . فلما بوج تغلق تيمور بالملك وجلس على الأريكة سكان أبيه ، توجه الشيخ رشيد إلى المعسكر لينفذ وصية أبيه ولكنه لم يخلص إلى الملك فاحتال ، وبدأ يوماً يؤذن بصوت هال هند خيمة السلطان في الصباح الباكر فطار نوم السلطان وغضب وطلب رشيد الدين وحضر الشيخ وبلغ السلطان بحجة والده ، وكان السلطان على ما ذكر به فنطق بالشهادتين وأسلم ونشر الإسلام في رعيته وأصبح الإسلام ديانة الأقطار التي كانت تحت سيطرة أولاد خبثاي بن جنكيز خان « . ا . ه .

سقوط قلاع الباطنية

ظلت قلاع الباطنية في قلب عالم الإسلام أكثر من قرنين تنير الحرب على عالم الإسلام كواحدة من أبرز الحركات الهدامة ، التي كان لها أبعد الأثر في مقاومة الإسلام والقضاء على قوى المقاومة التي تكونت لمقاومة الحركة الصليبية . وإذا كانت غارات المغول على العالم الإسلامي هي أقصى ما مر من حملات العنف في تاريخ الإسلام حتى قال ابن الأثير : إنه « لم ينل المسلمون أذى وشدة منذ جاء النبي إلى هذا الوقت مثل ما دفعوا إليه الآن ، هذا العدو الكافر (التتار) قد طامثوا بلادنا وراء النهر وملكوها وخربوها والعدو الآخر (الفرنج) قد ظهر في بلادهم إلى أقصى الزوم بين الغرب والشمال » . وإذا كان المغول قد أوقفوا الحياة الفكرية والثقافية نحواً من قرن كامل في المناطق التي اجتاحوها إلا أنهم قد خلصوا عالم الإسلام من قوة ضارية خطيرة هي قوة « الباطنية »

فقد تمكنوا من القضاء على القلاع والمعقل الباطنية ، ذلك أن التتار قد هادوا إلى تعمير الأرض التي خربوها بعد أن صهرهم الاسلام في بوتقته ، فاهنته زعماء قبائلهم . يقول المؤرخ نيورسكى : لقد كان الحشاشون (الباطنية) أهدى أهداء أهل السنة ، وكانوا كثيرا ما يبتشون الألقام ويدبرون المكائيد للقضاء على المذهب السنى بشكل منظم ، ولقد هيا القبول بالقضاء عليهم سبيلا لوحدة الاسلام وكان هذا من أهم العوامل الرئيسية في انتصار الاسلام وبقائه بالرغم مما أصابه على يد التتار من عسف وإرهاب . ولم يكن الحشاشون مهما أوتوا من بأس وقوة ليؤثروا في بقاء الاسلام في الأمصار الأخرى ، برغم أن دهايتهم كانت واسعة النطاق . ذلك أن هولاء كو قد دم قلعة « ألموت » الحصينة وقضى على دولتهم قبل أن يدخل بغداد بمأمن ، بدأ هولاء كوا بمهاجمة الباطنية (الاسمايلية) واستولى على قلعتين من قلاعهم في قهستان وحماطون وخواف ، وكان قد استصحب معه ألف بيت من صناعات المنجنيقات وأصحاب الحيل في إصلاح آلات الحرب فاستطاع هدم قلاعهم الضخمة وفي مقدمتها قلعة « ألموت » ، في الشمال الغربي من قزوین بوصفها قاعدة لمحبي قلعة أخرى في هذه المنطقة ، وقلعة ألموت ، هذه القلعة الرهيبة ذات التاريخ المظلم في مقاومة الاسلام ، تقع على ستة فراسخ من قزوین وقد استول عليها الحسن الصباح عام ٥٤٤٦ هـ وظلت خلال مائة وسبعين عاما حصنا محروفا يتحصن بها أتباع مذهبه حتى قضى عليها هولاء كوا ٥٦٥٣ هـ .

(٢١)

« القوى التي جددت شباب الإسلام »

(السلاجقة ، البربر ، الماليك)

وكانت حركة الإسلام بين هاملين : عامل دهوة العناصر التي يضمها عالم الإسلام إلى الإسلام ، نفسه ، وذلك بالحوار المفتوح بين الأديان والمذاهب المختلفة ، وقد بلغ الإسلام في ذلك غاية السباحة ، إذا أذن لكل صاحب دين أن يناضل من دينه حتى يتبين الحق .

٢ — عامل الانتشار الثقافي في المناطق التي لم تسيطر عليها دولة الإسلام .

غير أن حركة الاسلام لم تلبث أن دخلت مرحلة جديدة هي مرحلة المقاومة والغزو الخارجي . ولم يصل هذه الغزو الخارجي إلى ذروته إلا بعد أن تفككت القوى الداخلية وانسحب عالم الاسلام

من مفهوم الاسلام نفسه في مجالين من أكبر مجالى ايدولوجيته : (١) الوحدة ، وقد ساد التمزق (٢) القوة ، وقد بدأ الضعف : هنالك تحرك القوى الغربية التي كانت قد تمت وتوحدت واتسعت إلى غزو عالم الاسلام من ناحيتين : من طريق الدولة البيزنطية التي ظلت توالى الانقراض على عالم الاسلام خلال خمسة قرون ، ثم تحولت إلى مجال لمرور الحملات الصليبية خلال قرنين آخرين ، ومن ناحية الأندلس كانت قوات الفرنجة والاسبان تحاول أن تقضى على دولة الأندلس وتسيطر على أطراف المغرب . وهي معركة دارت طويلا واستمرت تاريخ الاسلام كله في القرون الثانية التي قضاها في الأندلس . والحق أنه لم تكن حركة الاسلام لتتوقف ، وهي تحاول أن تغزو القسطنطينية من ناحية الشرق وأن تصل إلى قلب أوروبا عن طريق فرنسا ونهر القوار وأن تصل إلى قريب من روما ، تكن لتتوقف إلا لتراجع ، فهي بين المد والانحسار ، وهي ظاهرة واضحة طوال تاريخ الاسلام فن حيث انطوى تاريخ الاسلام في أوروبا على الأطراف في بزنطة وحروب فرنسا وحدود إيطاليا بدأت حركة الغزو المضادة لاجلاء هن أوروبا كلها ، بل إن هذا الاجلاء لم يتوقف من بعد : ولم يكتف بإخراج الاسلام والعرب من أوروبا ، بل أمتد في عملية انتقام واستعمار قامت به القوى التي كانت في نطاق دولة الاسلام كالأرمن والاسبان الذين نهضوا لتطويق عالم الاسلام ، وتقدموا لا كشف رأس الرجاء الصالح والذهاب إلى تمبكتو ، فقد واجه الفرنج تهدي الاسلام يتعدى أشد منه في القرن الثامن الميلادي على حد تعبير « تومبي » فقد استنار هجومًا مضادًا من جانبهم استمر عدة قرون ولم يقتصر ذلك الهجوم على دفع أتباع الاسلام بعيداً عن شبه الجزيرة العربية ولكنه تجاوز كذلك هدفه الأصلي حاملاً الاسبان والأرمن إلى البحار إلى قارات العالم بأسرها . وهكذا بدأ واضحا أن أبرز معالم المد في تاريخ الاسلام : القوة والوحدة وافترقاها هو أبرز معالم الجزر : والوهن والضعف . فكلما تفرق عالم الاسلام ونجزاً ووقع الخلاف بين قادته وأوليائه كلما تعرض لغزو الخارجى ، وكلما تماسك وحدة وقوة كلما توقفت حملات خصومه عليه . فقد نشأ عالم الاسلام أساساً من خلال التوسع في أرض كانت تسيطر عليها الإمبراطورية الرومانية ثم لم يلبث أن بلغ أطراف أوروبا ، وأدخل فيها بمحاصر القسطنطينية وبالنفوذ إلى أسبانيا وأطراف فرنسا وإيطاليا . ومن هنا قامت بينه وبين الغرب معركة مستمرة الأوار لم تتوقف ، وظلت محاولات الانتقاض على أطراف عالم الاسلام من طريق دولة بزنطة في آسيا الصغرى مستمرة لم تتوقف ثم أسلمت هذه الحركة الدائمة نفسها إلى القوات الصليبية التي تكونت بديلاً للقوة البيزنطية المنهكة .

٢ - كانت قوة العرب المنبثقة من الجزيرة العربية والتي حملت لواء الاسلام قوة بدوية

تتميز بالقوة والصلابة — وقد أمدتها روح الإسلام بمفهوم الجهاد في سبيل الله وإذاعة الإسلام — تتطلع إلى أحد أمرين : الشهادة أو النصر . فلما ضعفت القوة العربية البدوية ، وانصهرت في مجال الحضارة ودخلت في صراع المذاهب والفرق ، بعد أن توقف التوسع الاسلامي . بدأت عوامل الضعف تفتتح المجتمع الاسلامي وتمزقه . وبينه عوامل الصراع ، ثم تولدت من ذلك عوامل الضعف والانهيار نتيجة خلية التفرق والانحلال . هناك ضعف جبهة للقاومة عن عالم الاسلام مما أغرى القوى المتربصة من أطراف عالم الاسلام : أسبانيا وبيزنطة بالإيفال الغزو ومحاوله السيطرة والتوسع . ونجحت أوروبا الغربية لنضرب عالم الاسلام من كلا جناحيه ، اعتماداً على ضعف القوى العربية والفارسية المسيطرة ، هناك برزت قوى جديدة من أعماق عالم الاسلام أو أحشائه ، من البداوة ، ظهرت قوة البدو وبرزت بعد أن ضعفت قوة الحضرة الفارسية العربية وظهرت القوة البدوية في أجزاء العالم الاسلامي الثلاث : السلاجقة (وأتباعهم الاتابكة والكرد) في العراق وفارس وآسيا الصغرى ، و « البربر » في المغرب (الموحدون) ، وللمالكي في مصر والشام كانت خشونة هذه القوات الثلاث بعد إسلامهم قوة ضخمة للإسلام ، ردت عن الاسلام عادية القوى الثلاث التي انتفضت على عالم الاسلام : الصليبيون في الشام ، الفرنجة في المغرب والأندلس ، انتشار القادمون من شرق سمروقد يحتاجون عالم الاسلام .

٣ — كان من بعد هذه القوى الثلاث التي برزت مطابقا للحاجة إليها ، ومطابقا لغزو هذه القوى التي دخلت في الاسلام بعد أن اتسع نطاقه في ما وراء النهر ، وفي المغرب الأقصى وقد غطت هذه القوى تتفاعل وتتكون ، حتى أتيج لها أن تشكل ظاهرة الانتعاش الاسلامي منذ القرن الخامس إلى القرن السابع بالقوى الشابة القادمة من خارج نطاق المدينة ، القوى البدوية التي كانت أشبه ما تكون حامية وقوية وبطولة ، بالقوى العربية البدوية التي خرجت من الجزيرة في القرن الأول ، وإن كانت أقل حوجة من حيث عمق إيمانها بالاسلام وتمسكها بمقوماته ومناهجه في شؤون الحرب والقتال . بل إن انتشار المغول الذين اكتسحوا عالم الاسلام من بعد في ثلاث حملات ضخمة : هولاكو ، جنكيزخان ، تيمورلنك ، قد صهرم الاسلام وأصبحوا من حماته . برزت هذه القوى التي دانت بالاسلام وحملت لواء الدفاع عنه حين تراخت قوى المسلمين من العرب والفرس الذين أدى الصراع فيما بينهم إلى التمزق والضعف والدوبان في التفرق والرخاوة ، بل إن بعض هذه القوى لم تقف عند حاية الاسلام والرد على عدوان العرب له ، بل استطاع أن يحقق مهمة أخرى هي توسيع دائرة عالم الاسلام بالدمرة والقسوة ، فقد حل البربر الاسلام إلى قلب أفريقيا ، وكان ذلك قد جرى بوسائل

منها القوى الصوفية التي تشكلت في أفريقيا . وقد كان ذلك مقدمة لموجة أخرى من موجات انتعاش الاسلام هي « موجة الوحدة العثمانية » التي استطاعت أن تسيطر على أغلب عالم الاسلام ست قرون كاملة . وإن تقيم دولتها في أرض إمبراطورية بيزنطية التي كانت خطراً متلاحقاً على الاسلام ستة قرون كاملة ، وأن تسيطر على القسطنطينية وتضمها بعد أن حاصرها المسلمون وانفضوا عنها . بل بلغوه إلى أبعد من ذلك إذ اقتحموا أوروبا وسيطروا عليها حتى بلغوا أسوار فينأ أكثر من ثلاثمائة عام .

(٢٢)

موجة السلاجقة

وصل الإسلام إلى أرض الأتراك بعد أن تخطى ما وراء النهر ودخلت الشعوب التركية فيه منذ بلغها عن طريق قتيبة بن مسلم ثم محمود الغزنوي من بعده ، في الإسلام ، ومن ثم أصبحوا على موحد مع التاريخ العالمي لكي يلعبوا دوراً هاماً في تاريخ الإسلام وفي تاريخ العالم كله ، بدأ ذلك منذ استفادهم المنعم وبنى لهم مدينة (صامراً) ثم كانت جولاتهم الأولى في نصر الاسلام هي « موجة السلاجقة » .

وكان دورهم هذا بعيد الأثر في تغيير مجرى الاسلام وفي التأثير البالغ فيه حيث حلوا ومن بعدهم خلفائهم لواء السنة ولواء الدفاع عن الاسلام في مواجهة قوى الصليبيين . وكانوا بذلك مقدمة لدور أكثر قوة وضخامة ، هو دور الأتراك العثمانيين الذين دحروا الدولة الرومانية الشرقية وأقاموا مكانها إمبراطورية عظيمة استطاعت أن تنتزع القسطنطينية وأن تعبر إلى أوروبا فترفع أعلام الاسلام عليها ستة قرون . استمرت موجة السلاجقة بامتداداتها من الأتابكة والأكراد (زنكي وأيوب) (٤٥٠ — ٦٤٧) خلال قرنين كاملين وكانت قوة من القوى الاسلامية الشابة المجددة التي حلت محل القوة السياسية الحاكمة في بغداد عندما دخلت الدول العباسية في مرحلة الضعف : وقد أظهرت هذه القوة هدداً كبيراً من رجالها بناء الدول والمحاربين من أمثال : ظفر بك ، الب أرسلان . ملك شاه ، والوزير نظام الملك ثم أظهرت عماد الدين زنكي ونور الدين وصلاح الدين الأيوبي . وقد سيطرت موجة السلاجقة على المنطقة الشرقية من العالم الاسلامي : فارس والعراق والشام وأحرزت تقدماً ضخماً في مجال الحضارة والقوة العسكرية وكانت قوة ناصرة ومؤيدة للمفهوم الاسلامي الجماعي (مفهوم السنة) وكان وجودها نهاية لعوامل الصراع العنيف التي استمرت طوال القرن الثاني والثالث بين الفرق

والمذاهب والنحل في صراعها السياسي والديني الطويل الذي كان يمثل في صورة صراع بين
الفرس والعرب ، ويهدف إلى القضاء على القوة السياسية المسيطرة في بغداد وإزالتها من
مكان القيادة مع العمل على تمزيق مفهوم الاسلام نفسه والقوة العربية بوصفها حاملة لواء
الاسلام إلى العالم كله

وقد استطاعت موجة السلاجقة أن تحقق ازدهاراً مادياً وأدبياً ، وإن تنصر الاسلام في مفهومه
الوسط والجاهلي ، وأن تواجه الغزو الخارجي المتمثل في الدولة البيزنطية المتاخمة لحدود عالم الاسلام
والتي كانت توالي المدون على هذه المناطق وقد جرى « بناء الدول » وقادة السلاجقة على سنن
الخلفاء في مناصرة الآداب والفنون فاحتضنوا عدداً كبيراً من الأعلام أمثال : عمر الخيام والنظامي
والسمدي وجلال الدين الرومي . وأحبوا السلاجقة الروح الاسلامية بعد أن خدمت طويلاً ، فمضى عام
٤٢٩ إلى عام ٧٠٠ هـ فجددت مفاهيم الاسلام في بناء القوة العسكرية وتوحيد عالم الاسلام مرة أخرى
والثبات في وحدة سلجوقية وقد هادوا الاسلام قوتاً مرة أخرى ونجس في بوتقة السنة ، وطاردوا السلاجقة
ومن بعدهم نور الدين وصلاح الدين خصوم الاسلام وأصحاب دهوات الشيعية والزنادقة ، وغالوا
يعاملون اليهود والمسيحيين وأهل الذمة بمعاملة إسلامية مجددة بالغ من تسامحها أن طالبت جهات
مسيحية بيزنطية الحكام السلاجقة تخليصها من حكمها ، وأصبحت دمشق وحلب والموصل وبغداد
واصفهان والري وهرات ونيسابور ومرو حواضر زاهرة ، فقد أظهرت لب أرسلان تقديراً للفن والثقافة
وبرز همد من النهضة العلمية والابتكار في مجال الأدب والفن والفلك والموسيقى والشعر والعمارة وفي
عهد الملك شاه (٨٦٥ — ٤٨٨) برز الوزير نظام الملك . وقد جدد السلاجقة شباب دولة الاسلام
وأمدوها بدم جديد ، وكانوا محاربين أشداء ، بدأوا ذوى بأس في القتال . أفواياه الأجسام ، بعد أن
ضعف العرب والفرس ، وقد أهادوا للخلافة العباسية نفوذها الروحي وسلطتها السياسية وخلصوا
العالم من انخلافات والمصارعات ولا شك كان ظهور السلاجقة مؤدناً بقوة دفاعية جديدة تواجه
محاولات الانتفاض على عالم الاسلام من خارجه ، واستطاع السلاجقة وخلفاؤهم قهر خصوم الاسلام
طوال مرحلة طويلة ، في مباركها مع بيزنطة وانتصارها في موقعة حاسمة هي ملاز كرد ، وفي مواقف
حماد الدين زنكي ونور الدين محمود (٥٤١) وصلاح الدين (٥٦٧) في مواجهة الحملات الصليبية .
وم القوة الأولى في هذه المرحلة التي نصرت الاسلام وتمييزهم قوة الممالك ، وهكذا استطاع السلاجقة
أعلاء كلمة الاسلام داخل عالمه ، وهزموا خصوم الاسلام والمنقضين عليه وأوجدوا مرحلة
من مراحل بقطة المثل العليا الاسلامية تمثلت بصورة رائعة في نور الدين وصلاح الدين : ولقد

حققت سلاجقة إيران والعراق دوراً هاماً على مسرح الأحداث ، وسيطرت فترة قرنين من الزمان ومهدت حملات السلاجقة في آسيا الصغرى السبيل أمام الأتراك العثمانيين فيما بعد للقضاء على الدولة الرومانية الشرقية ، وقد كان هدف السلاجقة توحيد الرقعة الكبيرة من عالم الاسلام الممتدة من بلاد ماراء النهر شرق البحر الأبيض ، في ظل لواء السنة والائتقاء حول علم الجهاد المقدس للشر راية الاسلام والدفاع عنه .

وقد كان دور السلاجقة في مواجهة الروم حاسماً وضحياً فقد كان للوقوف على حدود الدولة الرومانية البيزنطية ضعيفاً بعد موقعة عمورية ١٠٧٣ هـ حيث لم تقم الخلافة العباسية طوال هذه الفترة بهجوم يذكر ، مما جرأ الروم على الانتفاض على العالم الإسلامي فكانت موجة السلاجقة عاملاً هاماً في مواجهة القوة الرومانية ومن وراءها من قوى تتربص بفرات الضعف ، وقد اجتاز السلاجقة الثغور والعوامم وانتزعوا من الروم أرض الأناضول وحولوها إسلامية وسيطرت قوى جديدة على المنطقة . غير أن الخلاف بين السلاجقة لم يلبث أن أضاعهم ، فانتهزت أوروبا الفرصة لتحل محل الدولة الرومانية البيزنطية التي قاومت عالم الاسلام خمسة قرون كاملة ، ولتنقسم باسم استعادة بيت المقدس في إعدام بأن الحجاج للمسيحيين قد وجدوا بعض الفين أو الاضطهاد ، وفي غيبة من القوة العسكرية والوحدة استطاع الفرنجة إحتلال بيت المقدس ١٠٩٩ هـ . وكان ذلك عاملاً من عوامل التحدى الضخمة التي واجهت عالم الاسلام والتي برزت برد فعل ضخم في النهضة التي حمل لواءها آل زنكي خلفاء السلاجقة ، وفي مقدمتهم عماد الدين زنكي الذي استطاع أن يوجد دولة قوية ضمت دولة الجزيرة العربية وأهالي الفرات وحص و حلب وبعلبك ومرة النعمان ، ومضى يكيل الضربات للصليبيين ، وكانت أكبرها استيلاؤه على إمارة الرها (١١٢٩) وإزالة نفوذ الصليبيين فيها مما هز القوى الغربية ودفعها إلى إرسال حملة صليبية جديدة بقيادة ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا ، وقد فشلت هذه الحملة التي هاجت دمشق ثم ارتدت منهزمة . ثم كانت محاولة مملكة بيت المقدس الصليبية بالاستيلاء على مصر ، وبروز نور الدين محمود ، حيث هزمت هذه الجولة وخلصت مصر لقوة نور الدين محمود الذي حمل لواء الدفاع عن العالم الإسلامي في مواجهة الغزو الصليبي ، غير أن خلافه مع إخوته ، أتاح الفرصة للجوسين أمير الرها في استرجاعها ، هنالك توجه نور الدين من حلب في عشرة آلاف فانتزعها منه (١١٦١) هـ . ومضى نور الدين يبدل من إمارات الصليبيين ففتح عدداً من الحصون والمعاقل ، واستطاع التغلب على صاحب أنطاكية (ريموند) ١١٤٤ هـ كما تغلب على الحصون والقلاع التي كان يسيطر عليها الجوسين والواقعة شمالي حلب . ولم يكن نور الدين الذي حمل لواء الوحدة في مواجهة الغزو، واضطلع الأسلوب

الإسلامي في المعاملة إلا مقدمة لحركة ضخمة استطاع أن يحمل لواءها « صلاح الدين » وأن يعنى بها ممقاً خطة « نور الدين » ومتجاوزاً إياها إلى أبعد مدى . فقد استطاع صلاح الدين « زعيم الصليبيين في « حطين ٥٨٣ هـ » واسترجاع بيت المقدس (يوم الجمعة ٢٧ رجب) وقت صلاة الجمعة ، حيث أقيمت صلاة الجمعة ثامن يوم الفتح لأول مرة في بيت المقدس بعد واحد وتسعين عاماً . إذا كانت مقاومة الحملات الصليبية تتمثل في أقوى صورها في موقف عماد الدين زنكي وأسامة بن منقذ ونور الدين محمود وصلاح الدين والظاهر بيبرس على الترتيب ، يحمل الراية منهم بطلاً بعد بطل ، فإن لهذه المقاومة تاريخ سابق منذ وطىء العدو أرض الإسلام فما أن استقرت الحملة الصليبية في بيت المقدس حتى تحركت المنطقة المتاخمة لها في مناهضة مريعة إختلقت فيها الخلافات الشخصية بين الأمراء ، فلم يلبث عدد من الأمراء المسلمين في شمال العراق أن التحموا وحملوا علم الجهاد . ولعل سيطرة الرها إحدى إمارات الصليبيين ١٠٩٨ على الطرق المؤدية إلى صلب والموصل هو القى حرك جيوشها لثورة عليها فلم يلبث (مودود أتابك الموصل ٥٠٤ هـ ١١١٠ م) أن أعلن الجهاد وخرج بجيش كبير وزحف على أطراف الرها وتقدم صوب طرابلس . ولم تنجح هذه المحاولة ، ولكنها فتحت الطريق لمحاولات أخرى . ومعنى هذا أنه لم يمر غير عام واحد بعد احتلال الصليبيين الأرض الإسلامية حتى بدأت المقاومة ، وزاد ذلك انتفاضة القوى الإسلامية وتجمعها ، وأخذت روح الجهاد المقدس عملاً النفوس ، ونهز المشاهر ، وتحركت جبهة كبيرة من أهيان حلب وتجارها ووقفاؤها إلى بغداد يستمضون الحمم ، وانهزوا فرصة صلاة الجمعة للناداة بالجهاد ، واستشارة المشاهر ولم تلبث أن تجتمعت القوى الإسلامية بقيادة مودود (٥٠٥ — ١١١١ م) فاتجه إلى الرها حيث حاصر المسلمون في قل بشار ، ودبت اليقظة وبدأت تتمركز في أرض الشام ، وبدأت علامات الوحدة بين الأمراء المسلمين . وظهر (أيلغارى) وحمل الراية بعد مودود وقاوم الصليبيين في حلب ١١١٩ حين هاجموا ، واستولى على حصن قد طون غربى معرة النعمان . واتسع نطاق حركة التجمع والمقاومة ، وظهر بلك بن ارتق ١٠٦ — ١١٢١ وكانت وجهته الرها أيضاً . ثم ظهر البرسقى : أتابك الموصل ٥١٨ ونجح البرسقى وحاول أن يتخذ من حلب مقر تجمع يربط بها الموصل ، ثم سقط البرسقى كما سقطت الشخصيات الثلاث التي سبقته يفزو الجماعات الباطنية التي كانت تقاوم الوحدة الإسلامية . غير أن شخصية كبيرة لم تلبث أن ظهرت هي شخصية (عماد الدين زنكي) الذي تولى أتابكية الموصل ٥٢١ هـ ١١٢٧ م وكان من أبرع القادة العسكريين فلم يلبث أن أمن حدود ولايته واتجه إلى حلب ودمشق وزحف على حصن وحاء ، واستطاع تكوين جبهة إسلامية تضم الإمارات والبلدان المتاخمة للإمارات الصليبية . وكانت خطته دفع الخطر البيزنطى من الشمال ومقاومة الفرنجة من الغرب والجنوب .

ثم إنجبه عماد الدين زنكي نحو الرها ٥٣٩ هـ التي قاومت طويلا ، حتى استسلمت كل وسائل التسليم السلمي ، هناك نصب عليها آلات الحرب وضربها بالمجانيق وافتضها بعد حصار عنيف ، وكانت هذه هي أولى معارك الانقضاض الإسلامي على المملكة اللاتينية ، وكانت النصر فيها قويا للمسلمين رفع من روحهم المعنوية وزادهم قوة وحاسة كما دفع الأمراء المسلمين إلى التآزر والوحدة . لقد كان سقوط الرها ضربة كبرى في مواجهة القوة الصليبية ، وكان مقدمة للخطوات إلى حقها نور الدين وصلاح الدين .

« نور الدين »

حققت هذه الخطوات لنور الدين إقامة وحدة تسكنل القوى الإسلامية في وجه الخطر الصليبيين على نحو أعطى حركة المقاومة قوة وحيوية . وكان لشخصية « نور الدين » أثرها البعدي المدى في هذه الحركة . فقد تمثلت فيه صورة القائد المسلم ، وأهانت سعد بن أبي وقاص وعمر بن عبد العزيز ، بل لقد حاول كثير من المؤرخين أن يضعوا إسمه مع أسماء أبو بكر وعمر .

والحق أن نجاح نور الدين كان إلى حد ما نتيجة للخطوات التي سبقته ، كما أن كان أثره بعيد المدى في خطوات صلاح الدين ، فهو حلقة مسبقة وسابقة ومرتبطة ، غير أن أثره الواضح العميق وتألق شخصيته في معركة المقاومة للحمل الصليبية ، وبروزه في صورة القديسين والشهداء إنما يرجع إلى إنكاره لذات ، فقد جمعت شخصيته بين البسالة والزهدة ، والإيمان والقوة فكانت بذلك بعيدة المدى في تحقيق وحدة المسلمين وكان أبرز ما إنتمت به حركته هو أنه أعطى السياسة قوة الأخلاق فاقترب من مفاهيم الإسلام ومقوماته إلى حد لم يسبقه إليه الكثير في هذه المرحلة من تاريخ الإسلام . وقد كان إقترابه من مفاهيم الإسلام في محاولته لدعم الوحدة الإسلامية لمواجهة الخطر الصليبي هو أقوى العوامل التي حققت له النصر ، حتى ليتمكن القول بحق أن نور الدين قد أنسج ثلاث قوى من قوى الإسلام في سبيل عمله هي : (القوة ، الوحدة ، الإيمان) .

ولقد جرت محاولات لتصوير نور الدين في صورة زعماء الصوفية في عصره ، غير أن الحقيقة كانت غير ذلك تماما ، وأن « نور الدين » كان أعمق فهما للإسلام وأنه كان يجمع بين السياسة والخلق معاً ، السياسة بكياساتها ومرونتها ودهائها دون أن يحرفه ذلك إلى القدر أو الحقد أو الانتقام وقد أعطاه ذلك ثقة من كانوا حوله ، أو اتصلوا به ، وقد أثناء هذا الوضع عن كثير من مناورات

السياسة وأكاذيبها وأتاح له سرعة تحقيق هذه الوحدة ويمكن له استمرارها، ودعم الضربات للنزالية التي وجهها إلى العدو .

وقد استطاع نور الدين خلال مدة حكمه (٥٤١ — ٥٦٩) أن يفتح أمرين هامين : أولاهما توحيد القوى الإسلامية مما أسماه المؤرخون « الجبهة الإسلامية المتحدة » والادالة من الإمارات الصليبية وقد شملت سوريا الشرقية وقسما من سوريا الغربية والموصل وبار بكر والجزيرة ومصر ومض البلاد المغرب وجانبها من اليمن ، وكما حصن قلاع الشام وبنى الأسوار حول مدنها ومضى مداوما للجهاد يود معارك المقاومة بنفسه ، لا يتوقف عن مهاجمة الإمارات الصليبية التي تكاثرت في نهاية القرن الخامس الهجري في أربع وجعات : مملكة بيت المقدس ، أمارات أنطاكية ، طرابلس الشام ، الرها وقد استطاع أن يوقف زحف الصليبيين من الشام ، وقد وصف المؤرخون مواقفهم من الصليبيين بأنها نقطة التحول في تاريخ تلك الحروب وأن نور الدين قد أعاد الأساس للعمل الذي حققه من بعد صلاح الدين وكان أبرز ما حققه في سبيل النجاح خطة المقاومة هو استيلاء على دمشق ٥٤٩ هـ — ١١٦٨ م) بعد أن تبين أن حملات الصليبيين قد اتجهت إليها أخيراً بوصفها مصدر المقاومة . أما استيلاؤه على دمشق والقاهرة فقد قضى نهائياً على مطامع الصليبيين في التوسع فضلاً عن أنه وضع الإمارات الصليبية بين فكي السمكة الإسلامية التي ظلمت تضغط بقوة حتى استخلصت هذه الأجزاء واستردتها .

وقد عمل نور الدين على تخليص نصارى العرب من ظلم الصليبيين ، وأعطى مقاومة الصليبيين طابع الغزو والاعتداء وبذلك وحد « العرب مسلمين ونصارى » في جبهة المقاومة ، وأعطى معارك طابع الاسلام : لم يسكن كنيسة ولم يؤذ أحداً من أبناء الأديان الأخرى ، وكرم الرهبان والقسيسين ، وعارض منهج الصليبيين في اعتدائهم على المسلمين ، وكان ظلمته الواضح في عمله السياسي يلقى المهابة في قلوب خصومه ، وقد أقام للمجتمع الاسلامي مقومات حديثة ، فقد أسقط المكوس وأقطع حرب البادية إقطاعات حتى لا يتعرضوا للحجاج ، وقد كان من أهم ما أولاه نور الدين بالغ الاهتمام بناء القواعد الفكرية للمقاومة عن طريق نشر الثقافة الإسلامية الموحدة البعيدة عن الخلافات بوصفها جوهر المقاومة وتأريث الجهاد في النفوس ، فبنى مدارس كثيرة ، وبنى أول دار الحديث وبنى الخانات على الطريق ، وكان أهمل ملوك زمانه ، عارف بالفتنة ، يجلس إلى العلماء كل أسبوع ويسمع لمن يشاء أن يحضر مجلسه ، وقد كان لهذا التكوين الثقافي بالإضافة إلى ما طبع عليه عذو إيمانه وخلقه من ميزة لمصره كله وأجيال المسلمين فكانوا يتطلعون إلى دعوته للغير العلم ، وتنتال الجوع من

لخلف الأقطار وأثمة بالنصر بقيادته . وفي الوقت الذي لم تسكن الإمدادات الصليبية تتوزع من أوربا وصقلية طاماً واحداً ، كانت قوات المسلمين والعرب تتدفق على معسكرات الجهاد المقدس ، وتلتصم في معارك المقاومة . وقد تميز نور الدين من أفراد أمرته من السلاجقة والأتابكة تميزاً كبيراً فهو أول الذين سبقوه قد نصرروا الإسلام وأهزوه كملك وأمرأه .

أما نور الدين فقد أهره كجهاد عسكري وقائد سياسي وهادئ زاهد فقد « امتلأت نفسه بالإسلام وعمل روحه على نحو لا تسكاد نجهده شبيهاً إلا عند الأوائل من أعلام صدر الإسلام » .

ولم يكن إيمان تعصب وتشدد بل إيمان سمح بسيط أساوت أمامه للذاهب الإسلامية فلم يفرق بينها ، وكانت سماحته في معاملة المسيحيين واضحة ، وكان يحارب الصليبيين بوصفهم أجنبان اهندوا على بلاده ومقدسات أمة ، ويفضل فضلاً واضحاً بين هذا للذي وبين أنهم نصارى ، ولذلك كان حلياً برجال الدين مكرماً لهم لا يدخلهم في حساب مقاومته ، وقد انضم إلى صفوفه نصارى العرب في معركة المقاومة بناء على هذا الفهم الدقيق وكان الصليبيون يتدرون عمق إيمانه بالإسلام في مقاومتهم ، ووسائله فيقولون : « أن ابن القيم (أى نور الدين) له مع الله سر فإنه ما ينتصر علينا بكثرة جنسده وعسكره ، وإنما يظهر علمنا بالدهاء وصلاة الليل » . والحق أن نور الدين كان يرى في بناء الإيمان من طريق الثقافة الإسلامية عاملاً موحداً للأمة ، ودافعاً إلى الجهاد ، ومن هنا كانت انطلاقته الهضمة في بناء للدارس والمساجد والروايا وإعداد برامج الدراسة فيها كوسيلة فعالة وأساس جذرى للمقاومة . وكانت مؤاخاتة لجندده ، والتحاقه بهم ومداومة المشورة معهم والتقدم أمامهم في المعارك ، من أبرز العوامل التي أ كسبته النصر ، وقد كسب تقدير الصليبيين تعصباً ، أشال وإسالم الصورى مؤرخ مملكة بيت المقدس فقد اعترف بفضل نور الدين وعمله . إذا كان اسم صلاح الدين قد لمع كثيراً في مجال العدل والسماحة فإن نور الدين هو الذى بنى هذه القاعدة وترك لصلاح الدين صورة رائدة للنبل الأهل الإسلامى في مواقف المقاومة والحرب .

صلاح الدين

إذا كان « عماد الدين زكى » قد استطاع أن يستعيد « الرها » أولى الإمارات الصليبية ، فقد حقق « نور الدين محمود » الوحدة الفكرية والروحية في المنطقة كصلاح المقاومة الصليبية ، وبذلك استطاع صلاح الدين أن يحقق أضخم نصر في معارك المقاومة في موقعة حطين الذى مكنته من استرجاع بيت المقدس . فما كاد صلاح الدين يوحد مملكته ويؤمن مواقفه حتى بدأ بمعاركه مع

الصليبيين عشر سنوات كاملة ، ونحقق على يديه أضخم ضربة مع معركة حطين (٥٨٣هـ - ١١٨٧م) والاستيلاء على بيت المقدس ، مما حصر الصليبيين في منطقة ساحلية ضيقة انتقلت إليها مملكة بيت المقدس وجعلت مدينة (عكا) عاصمة لها .

وكان موقف صلاح الدين في استعادة بيت المقدس مشرفا كريما ، تجري فيه على مفهوم الإسلام فلم يزد عليه للنصر بحيث يدفعه إلى الانتقام ، وقد سمح صلاح الدين للصليبيين باقتداء أنفسهم مقابل مقدار زهيد من المال (١٠ دنانير للرجل ، ٥ للمرأة ، ٢ للطفل) وأوسع لهم في أجل هذا الفداء زمنا زمنا بلغ أربعين يوما ، وخرج الصليبيون تحت حماية القوات ، ولم يدخل بيت المقدس إلا بعد أن أجلى الصليبيين عنها .

وقد أدهى الأب لا منس بأن محاسبة صلاح الدين للصليبيين كانت عجزا وخوفا فلم يعاملهم بأبذع حروب القسوة والعذاب ، وخير ما يدهض هذه الشبهة ما كتبه ول ديورانت في هذا المجال . وهناك شبه إجماع على أن صلاح الدين لم يكن قائما بارعا أو محاربا أو شجاعا أو حاكما عادلا بقدر ما كان « إنسانا » ممثلا للأخلاق والقيم الإسلامية ، فإن هذا المفهوم وحده هو الذى جمع حوله جميع العناصر والقوى التى كانت تهدف إلى توحيد الإسلام في وجه الفزاة ، يقول هاملتون جب ، إنه لم يستعمل في تحقيق هذا الأمر شجاعته وعزمه الذاتيتين في غالب الأحيان وإنما حقق ما حققه من ذلك بإنسكاره الذات وتواضعه وكرمه ودفاعه المعنوى عن الإسلام ضد أعدائه وضد من يقتسمون إليه انتماءا اسميا على حد سواء ، كان غاية في البساطة فذا في النزاهة ، ولقد أجبر أعداءه من الأديين والأبعدين ، لأنهم كانوا يتوقعون أن تكون حوافزه مثل حوافزهم ، وأن يقوم بالألاهيبة والمناورات السياسية مثلها يفعلون ، وكان هو نفسه طيب السميرة ولذلك لم يكن يتوقع أبدا أن يفهم فكر الآخرين ، وقائمه وذلك ضعف استغله فيه أحيانا أقرباؤه ، إلا أنهم كانوا آخر الأمر يسططون بصخرة مستقرة من إخلاصا لمثله العليا إخلاصا لم يكن لأحد من الناس أو لشيء من الأشياء أن يزهره من مكانه . . والحق أن صلاح الدين وضع في خطة نور الدين ، خطة الإيمان بأن قيام الإمارات الصليبية إنما جاء نتيجة من تخلف مفهوم الإسلام نفسه وانحراف عن القيم الأساسية له وفصل بين السياسة والأخلاق ، وكان المفهوم الذى بدأه نور الدين وبلغ به صلاح الدين الغاية ، مما حقق له النصر ، هو الإيمان بضرورة إعادة السكبان الإسلامى في ظل دولة موحدة ، وفق مفهوم الإسلام نفسه وعلى مستوى القيم والأخلاق التى صار عليها محمد ابن عبد الله وصحبه الأولون . وقد

أورد في بعض رسائله مقاصده الثلاث من حركة : الجهاد في سبيل الله والسكف عن مظالم عباده الله والتجمع حول قيادة سياسة قوامها الخليفة العباسي . وتكشف رسائله عن كثير من مفاهيمه الأساسية أهمها : « إنه إن بسمح يتداول الحرب بين أمراء المسلمين بدلا من اتحادهم معا في الجهاد » . يقول جب : « كان يعرف أن المشكلة التي يواجهها لم تكن سياسية فحسب بل هي إلى حد كبير أخلاقية نفسية وأنه إذا هالجهما على المستوى السياسي والعسكري سيعجز عن حلها ، وأدرك أنه إذا شاء أن يصل إلى نتائج فعالة ، فعليه أن يدهم الولاء السياسي بموافز وروادع أخلاقية ونفسية » ، ومن أجل أن يصل إلى غايته كانت عليه أن يقوى أعماله والقذوة التي يخلقها بإيجاد تيار خافي ونفسى يسند موافقه ويكون قويا بحيث يتعذر مقاومته فكان لذلك في حاجة إلى خلفاء وبخاصة فقهاء المدارس قادة الرأي العام يومئذ » . وهناك شبه إجماع بين المؤرخين على أن السر في نجاح أعمال صلاح الدين العسكرية وظفرو في معركة حطين واستعادته بيت المقدس ، إنما يرجع إلى قابلية هذه المواصل لا إلى الأعمال العسكرية .

(٢٣)

موجة البربر

يمثل « البربر » إحدى القوى البدوية الشابة التي اعتنقت الإسلام ووجدت شبابيه ، وهي القوة الكبرى في شمال أفريقيا والتي يدين لها نحو الاسلام وانتشاره في أفريقيا كلها بالأثر البين الواضح خلال عمر الاسلام كله ومنذ دخوله أفريقيا . وقد برزت هذه الموجة تحت أسماء كثيرة أهمها : المرابطون والموحدون والمرينيون ، هذه القوى ذات الفاعلية الضخمة في تاريخ نمو الاسلام والدفاع عنه ، فقد شارك البربر منذ المراحل الأولى في عمليات التوسع ، وكانوا هم فاتحو الأندلس أصلا ، وهم القوة الإسلامية الأولى التي عبرت إلى بحر الزقاق ، فأسست « الأندلس » أول دولة للإسلام في أوروبا ، وكانت قوى البربر التي تدفقت إلى الأندلس من بعد ذات أثر كبير في عمليات التوسع والاستقرار والدفاع طوال فترة القرون الثمانية وقد ساهمت قوى البربر المسلمة بالاشتراك مع القوى العربية ، في مختلف أعمال التوسع التي امتدت في قلب أوروبا ، وكان دورهم أبرز في حركات التوسع في قلب أفريقيا .

وقد ظل البربر ينظرون إلى التوسع الاسلامي على أنه سيطرة من نوع جديد فقاوموا الفاتحين

أمثال أبو المهاجر بن دينار ، وهبة بن نافع الفهري ، وحسان بن ثابت ، وزهير بن قيس حتى جاء موسى بن نصير واستطاع بشخصيته الرائعة أن يكسب البربر إلى صف الإسلام ، فقد كان داعية إلى الإسلام أكبر منه قائدا محاربا ، حيث استطاع أن يكسب قلوب البربر بالإسلام وأن ينشر الإسلام نفسه ، وبدعو إليه بينهم وبكشف لهم عن جوهره ، وأن ينفذ منهم ، وقف الأخاء لا موقف الرئاسة ففرب إليه البربر وأشرهم في إدارة بلادهم ، فتحقق لهم بالإسلام قوة جديدة ، حين لم يفقدوا سلطانهم وبفوذهم في بلادهم ، وكانت ذكاة موسى بن نصير هي التي هدته أن يكون لإمام البربر اقتناها وحيا ، فوسع آفاق الثقافة الإسلامية وأنشأ للساجد .

هناك تأكيد البربر أن الإسلام ليس نظام استعمار شبيهة بسابقه ، أو أنه سلطة مفروضة أو أن اهتنامه أمرا ملزما لمن لا يقتنع به ، من هنا كان إقبال البربر على الإسلام وتأيدهم موسى بن نصير ، على النحو الذي تحقق في خروجه إلى الأندلس في الغزوات الثلاث بقيادة طريف بن مالك ثم طارق بن زياد ثم بقيادته ، وقد كان البربر هم المنصر الأكبر والأغلب من قواته في فتح الأندلس ، وقد اشتركت منهاجاة المسلمين في قوات التوسع . وقد تم التحالف بين العرب والبربر بعد الإسلام ، وأدى ذلك إلى دخول قبائل متعددة في الإسلام وبعد منهاجاة دخلت لتونه ، وامتدت سياسة موسى ابن نصير من بعده حتى كان عصر عمر بن عبد العزيز الذي أولى نشر الإسلام اهتماما كبيرا ، وغلبه على نظام الاقتصاد والضرائب ، وكان رسوله إلى إفريقية اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر الذي ولي أسرا أفريقيا وكان مثالا هاليا من أمثلة دهاة المسلمين وقادتهم مما أدى إلى نشر الإسلام في ربوع المغرب الأقصى ، حتى لم يبق في ولايته يومئذ من البربر أحد إلا أسلم (المؤرخ ابن عبد الحكم) وكان عمر بن عبد العزيز قد أمده بصفوة من أهلام التابعين أنبثوا في البلاد بمحضون الناس وببصرونهم بمقاصد الإسلام . ويرى المؤرخون أن إسلام المسلمين في القرن الثالث الهجري كان ذا أثر بالغ في تاريخ قبائل البربر ، فقد تمحض عن تحالف قوى ضم قبائل المسلمين جميعا بزعامه لتونه ، بفضل زعامة الزعيم اليمتوني (تيولوتان بن تيكلان) الذي أسلم وحسن إسلامه وأكسبه دينه الجديد القوة التي مكنته من إتمام هذه الوحدة .

غير أن قوى البربر قاومت محاولات حكام العرب إلى السيطرة مثل حبيب بن عبيدة مما أدى إلى ثورتها على نظام الحكم العربي ، وقيام جبهة من المقاومة حملت لواء الدعوة إلى أن الإمامة ليست للعرب وحدهم بل هي للمسلمين جميعا على السواء ، والمعروف أن البربرو للغاربة كانوا يمتازون

بالإسلام كقوة من قوى الحرية ، ولذلك ضاقوا بمحاولة السيطرة عليهم وثاروا على النفوذ المفروض ، وكانت هذه المواقف نهاية لسلطان العرب ومبرراً لحكم القاربة لبلادهم . ومع هذا فقد ظل البربر أولياء للإسلام صادق الإيمان به ، فقد اندفعوا في سبيل إذاخته ونشره والاستشهاد في سبيله ، مما دفعهم إلى إبلاغ الإسلام لدير الزنوج في غانا حتى تحررت من الوثنية بزعماء زهيم صنهاجة اللغوي . كما قضى الإسلام ووحده الفكرية على الخلاف بين قبائل صنهاجة وزناته وكان العداء بينهما هنيئاً متصلاً ، تقليداً لامتداده بين البرانس والتبر ، وقد أثر البربر مذهب مالك واتخذوه مصدراً لمفهوم الإسلام على النحو الذي آمنوا به ، مستمدين منه مفهومهم في الحرية مؤكدين به إيمانهم بالزعة بالاستقلالية ، كصدر من مصادر القوة في مقاومة كل نفوذ أجنبي يحاول أن يفرض عليهم ، فقد اتهم مذهب مالك بمقاومة نفوذ الحكم المسندين ، وظلت مفاهيمه مرتبطة في أنفسهم بإعلاء كلمة الحق والاستشهاد في سبيل العقيدة ، وأنه لا ولاية لظالم أو فاسط ، وقد تطورت هذه المفاهيم إلى إيمان له طابع الجهاد في سبيل نشر الإسلام والزهادة في المطامع الدنيوية ، هذا الإيمان الذي كان مضوون الدهوة التي حملها المرابطون ثم الموحدين وفي القرن الخامس كانت «وجه البربر» هي أقوى موجات الإسلام في أفريقيا والأندلس ممثلة في قبائلها زناته وصنهاجة وكنانة والمصائدة ، التبر والطوارق والملمسين والبرانس وطوائفها التي واجهها الإسلام عندما بلغ أرض أفريقيا والمغرب ، وهي قوى بشرية ممتدة من طرابلس إلى السوس الأقصى ، وقد كان لهذه القبائل شأن أي شأن في تاريخ المغرب والإسلام تفوقاً في الروح الحربية ، وشخاعة (زناته) تتمثل في رجالها الفرسان الذين لعبوا دوراً هاماً في تاريخ الأندلس زمن المنصور بن أبي هاجر حين استقدم إلى الأندلس أعداداً ضخمة قامت بدورها في مقاومة الغزو الطارح على الأندلس .

وقد كان لقبائل اللثميين نواة الدولة للرابطية أبلغ الأثر في نشر الإسلام في ربوع أفريقيا والسلطان للغربي فقد مضت بعد إسلامها قروناً طويلة مجاهد قبائل السودان حتى أدخلتها في نطاق عالم الإسلام ، وقد أمد الإسلام هذه القبائل بالوحدة والالتقاء بعد أن كانت تتصارع فأعطاهما اتحادها قوة دفعهما في أقصى الصحراء ، ناشرة لواء الإسلام ، وقد بلغت سعة دولة المرابطين من منحنى النيجر في الجنوب حتى للبحر الأبيض في الشمال ثم جاوزته إلى الأندلس ، وقامت (صنهاجة) بنشر الإسلام بين قبائل السودان ، ميممة شطر الجنوب حتى بلغت منحنى النيجر ، وقد تم توحيد هذه القبائل تحت لواء «عبد الله بن ياسين» . وقد أهدت هذه للمفاهيم البربر إلى التطلع لزعماء تجمع قوام وتدفعها في سبيل نشر الإسلام حين توحدت بزعماء «عبد الله بن ياسين» ، باسم «الرباط في سبيل الله» .

بمعنى الإمامة في الثغور حيث ترابط خيل للقتالة تحمي الحدود ، وورد للعتدين وتجاهد في سبيل الله وقد واجه للرايطون القوى المغيرة على السواحل الإسلامية التي ظلت تتعرض لغارات الأسطول البيزنطي ، من قواعده في صقلية وسردانية وجنوب إيطاليا ، وأقاموا في المدن الساحلية وتحصنوا بها ، ووفد عليهم عدد كبير من المقاتلة الذين آمنوا بأن الرباط في سبيل الله ضريبة يفرضها الإسلام للدفاع عن ثغوره وسواحه ، وقد انتشرت أعمال الرباط من بعد على ساحل البحر من الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي ومن ثم تراجعت الأماطيل البيزنطية أزاء هذه القوة الجديدة ، وظلت هذه القوة المرابطة تحرير المسلمين وتتخذ من الرباط عبادة فإذا دم الغزاة أرض المسلمين تنادوا إلى المرابطين الذين يتدافعون لرد العدوان ويصمدون في وجه الغزاة . ثم تبلورت قيادة المرابطين في زعامة يوسف بن تاشفين (٤٥٤ هـ) الذي امتد نفوذه من المحيط الأطلسي إلى الجزائر والمغرب الأقصى وأنشأ « مراکش » . ولم يتردد المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين من العبور إلى الأندلس فنجدة للمسلمين الذين تمزقت دولتهم بعد جهاد طويل ومقاومة ضخمة لعبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبي عامر ، فلما ذوت الدولة الأموية وتقسمت بين إمارات الطوائف طمع الأسبانيون والفرنجة في الأندلس وأخذوا يغيرون على أطرافها حتى زلزلت دولة الإسلام في أوروبا هناك ، عبر يوسف إلى الأندلس في قوات ضخمة من ، واشتبك مع الأسبانيين والفرنجة في معركة حاسمة هي معركة الزلاقة (٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ هـ) . وقد اتحدت قوى الأسبانيين تحت راية الأذنفوس السادس لمواجهة القوة الإسلامية الجديدة ، وفي هذه الموقعة الحاسمة أظهر المسلمون شجاعة وقوة ونصروا الله حقاً ، فحققوا الظفر الذي رد خصومهم واستخلص لهم سرقسطه وطرطوشة وبلنسية وقد كادت أن تلتهمها القوى الغربية ، ولم يلبث يوسف أن عاد إلى المغرب ، غير أن تجمع القوات الأسبانية والفرنجة ، ولم يلبث يوسف أن عاد إلى المغرب ، غير أن تجمع القوات الأسبانية والفرنجة مرة أخرى بعد عام واحد للمدن الإسلامية ، اضطره إلى العبور إلى الأندلس مرة أخرى حيث قضى على ملوك الطوائف ، واستولى على غرناطة ومالقة وقرطبة وأشبيلية ، واستطاع أن يؤخر سقوط الأندلس في أيدي الأسبانيين والفرنجة فترة أخرى . ولم يلبث أن ضعف المرابطون وهاد الأوربيون والفرنجة للأذالة من مملكة الأندلس ، فاستولى الأذنفوس ملك أرغونة على طليطلة ثم سرقطه ٥١٣ هـ ومضى بمحاصر غرناطة ومالقة ، هناك كانت المواجهة البربرية الثانية « الموحدون » قد استحصدت واستطاعت أن تعبر إلى الأندلس بقيادة « عبد المؤمن بن علي » حيث واجه الموحدون الخطر الغربي الذي تددى على سواحل أفريقية ٥١٧ هـ في حملات النورمان الذين استولوا على سواحل طرابلس المغرب والجزائر .

وانتهت بوصول الأسطول النورمانى إلى للمهدية وقد انبعثت دهوة للوحدين فى مستهل القرن الخامس الهجرى بقيادة محمد بن تومرت وكان من أعظم أنصاره عبد المؤمن بن على ، وقد خاف للوحدون للرايطين واستطاعوا أن ينصروا الإسلام فى جوة جديدة وموجة تالية ، حيث طردوا النورمان من السواحل الأفريقية ٥٥١ هـ وهبوا إلى الأندلس وضموا إليهم مدائن الأندلس ، التى أصبحت جميعها عام ٥٦٧ هـ تحت سيادة للوحدين .

ثم كان للوحدين معركة حاسمة مع الأسبان الفرنجية إنتصروا فيها انصاراً ساحقاً ، وأخضعوا المنتفضين على الأندلس ، فى معركة الأرك سنة ٥٩١ هـ غير أن هذه القوة الإسلامية الغنية البدوية قد أصابها ما أصاب مختلف القوى من لقاء الحصار والتعرف ، فلم تلبث أن اضطربت وتمزقت ، وبينما كانت القوى الأسبانية والأفريقية تتسكتل وتسعيد قوتها لتتأثر من هزيمتها فى الزلافة والأرك كانت القوات الإسلامية قد ضمنت حتى هجرت أن تلتقى بالقوى الإسلامية المجاهدة فى المشرق ، حين أرسل صلاح الدين إلى أبى يوسف المنصور ٥٨٠ هـ ويدعوه إلى عقد العناصر لمقاومة الحملات الصليبية فى معركة موحدة للعالم الإسلامى كله ، وفى موقعة العقاب استطاع الأسبانيون والفرنجية الأداة من المسلمين ، بعد أن توحدت القوى الغربية وتدفقت سيول الصليبيين من مختلف أنحاء أوروبا حتى بلغت مائة ألف ، بينما لم تكن قوات الموحدين متحدة أو متعسة ، فلم تلبث أن اضطربت أمام حجاجل الفرنجية سنة ٦٠٩ هـ التى حققت نهراً كافى مقدمة لامتراج الأندلس .

وما تزال موجات القوى الشابة تبرز وتجدد الاسلام ، تبرز قوة شابة خشنة بدوية ثم تنالها يد الحضارة والتعرف فتضعف ، لتحل موجات أخرى بديلاً لها ، لم يتوقف عالم الاسلام من إمداد الاسلام بهذه القوى فى مجال الدعوة إلا الإسلام أو الفسكر أو بناء الدول والأبطال وما تزال ، هذه القوى تنوالى وما تزال أسماء أبطالها تلمع مرحلة بعد مرحلة .

وكلما تحاول أن تستمد القدوة من المسلم الأول (ﷺ) ومن تجربته ومفهومه وتصرفه فى بناء عالم الإسلام وفى الحرب والسلم وفى الدعوة إلى الاسلام والدفاع عنه والبربر (للرايطين ومن يمدح للوحدين) ، دور فى تاريخ الاسلام إيجابى رائع ، فقد اشعروا الاسلام فى ربوع السودان الغربى وثبتوا الشفافة الإسلامية بين الشعوب الأفريقية واشعروا اللغة العربية ، وشاركوا فى معركة الدفاع عن الاسلام وتثبيت دولته فى الأندلس ، وقد سجل تاريخ الجهاد أسماء أبطال وقادة وفرسان ، وقرن اسم يوسف بن ناشقين وعبد المؤمن بن على بأسماء نور الدين محمود وصلاح الدين ، وكان لدولة للرايطين وللوحدين

قوة جاهدت وفي البر والبحر وصمدت للفرنجة وقاومتهم وأدالت منهم . وقد كان المغاربة للمسلمين في ظل الدولتين دور ضخم في بناء القوى البحرية والأساطيل ، نافس قوى المسلمين في المشرق ، وذلك بعد ضعف القوى البحرية الإسلامية التي أنشأ موسى بن نصير مؤسس البحرية الإسلامية في غرب البحر المتوسط ، فقد عادت دور الصناعة على طول الساحل الأفريقي من برقة إلى طنجة مرة أخرى قلاعاً ضخمة عامرة ، تصعد للمغربين وتدفع الخطر الفرنجي ، ومن خلالها استطاع المسلمون تنظيم غارات متصلة بين الجزر والقواعد البحرية كما أغار مسلمو المشرق على قبرص ورودوس ، وكان فضل يوسف بن تاشفين في أحياء البحرية الإسلامية سنة ١١٧٠ هـ كبيراً . ويمكن القول في إيجاز :

(١) قاوم البربر توسعات الاسلام ونفوذهم حين دخل المغرب واستمروا في هذه المقاومة صويلا بحسبانهم نفوذاً غريباً ، كما قاوموا من قبل نفوذ الدولة الرومانية الذي امتد ألف عام ، فلما تحققت هدنة الاسلام وسماحته وأتاحته الفرصة لأهل كل وطن في حكم وطنه أقبل البربر على الاسلام في اندفاع قوية فاهنتهم وجاهدوا في سبيله نشره جهاداً مشرفاً وأصبحوا أكثر أنصاره إيماناً به ودفاعاً عنه . (٢) البربر هم فاتحوا أسبانيا أصلاً ، وهم القوة الإسلامية التي عبرت إلى بحر الزقاق فأست « الأندلس » أول دولة للإسلام في أوروبا ، فلما تم الفتح تدفقت جماعات كبرى من البربر إليها فأنصهرت في مجتمعا مع العرب شركائهم في التوسع ومع القوط أصحاب البلاد الأصلية . (٣) ساهمت قوى البربر بالاشتراك مع القوى العربية في مختلف أعمال التوسع التي إمتدت في أسبانيا واستمرت طويلاً ، والتي وصلت في ظل قيادة عبد الرحمن الغافقي إلى مدينة (صانص) التي لا تبعد عن بلنسية أكثر من مائة كيلو ، ومن ثم أصبحت ضفاف أنها الرن والساوون والوار تحت نفوذها . (٤) قاد المرابطون والموحدون والمرينيون أضخم معركة مقاومة مع الفرنجة والأسبانيين هي إحدى شقي معركة الغزو الصليبي ، وذلك بعد إن ضعفت القوى العربية المسيطرة في الأندلس بفعل الترف والتخرف . وكان للمغرب أضخم دور في حماية الأندلس من القوى الغربية المنجمعة للقضاء عليها . (٥) كان للبربر أقوى القوى الإسلامية الشابة في المغرب في مواجهة أزمة الاسلام في القرن الخامس ومن بعده ، حين بدأ الغرب تنفيذ مؤامرة الغزو الصليبي محتاحه المشرق والمغرب . وكانت أبرز دولهم دولتي المرابطين والموحدين التي امتدت (بضعة قرون) وقد أدى البربر مهمتين خطيرتين . (الأول) نشر الاسلام في أفريقيا وتوسيع آفاقه إلى أبعد حد ممكن . (الثاني) الدفاع عنه في مواجهة الغزو الخارجي للأسبان والفرنجة في الأندلس فقد عبر الموحدون إلى الأندلس في خلال قرن واحد ثلاث مرات ثم غير بعد ذلك المرينيون . وقد ظهرت قوتا البربر متواليتين : المرابطين والموحدين ،

أما المرابطون فقد ظهرت قوتهم في وقتها لإيوانها ، حين اندلعت نيران الحروب الصليبية بالشرق الاسلامي ، وحين ضعفت الدولة الأموية في الأندلس ، وتوقفت غزوات عبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبي عامر الذي غزا الفرنجة خمسين غزوة ، فلما تقسمت الدولة الأموية إلى إمارات الطوائف في نفس الوقت الذي توحدت فيه أرجوة وقشتالة بمملكتي الفرنجة في مملكة واحدة استأنست وأخذت تدبيل من أرض الأندلس ، بينما تقسم المستنمون وتصارهوا ، مما مكن الأذفوس ملك أرغونة من الاستيلاء على سرقسطة ثاني معقل إسلامي (٥١٢ هـ) بعد طليطلة ، ونمى في محاصرة غرناطة وتهديدها. وبلغ مآله ، هنالك كان لابد لحركة التاريخ الاسلامي أن تعطى قوة جديدة في مواجهة الغزو العنيف ، موازنة للموقف ، وإتقانا للإسلام من الانحدار كما كانت قوة السلاجقة وخلفائهم في المشرق والمماليك من بعدهم هي عنصر الموازنة ورد الفعل والنحدي أزاء الحملات الصليبية كذلك كانت المرابطون والموحدون في المغرب .

(٢٤)

هوجة المماليك

حقق « المماليك » علاضخا في مجال المفاومة الاسلامية ، فاستطاعوا أن يردوا الهجوم المغولي والغزو التتري الذي تعرض له (عالم الاسلام) من سمرقند إلى حلب في موقعة (عين جالوت) : بقيادة قطز وبيرس بعد سقوط بغداد بعامين ، وكانت هذه أول هزيمة تواجه القوات المغولية التترية في زحفها الطويل خلال أربعين عاما وتوقف اندفاعها نحو البحر المتوسط ومصر .

ثم استطاع الظاهر بيبرس أن يحقق انتصارات أخرى على معسكرات الصليبيين وحصون التتار وقلاع الباطنية ، وأتم تصفية هذه القوى الغازية . قلاوون وصلاح الدين خليل ، وكان للمماليك بحق : قوة من أكبر قوى الإسلام ذات الفاعلية في مجال الجهاد ودفع العدوان الذي تعرض له عالم الإسلام خلال القرنين السادس والسابع ، وقد هانت دولتنا المماليك (البحرية والجزاكية) ٢٧٠ عاما تولى الحكم فيها خمسون سلطانا ، وإذا كان (الغزو الصليبي) على عالم الإسلام قد أبرز القوى الإسلامية المتمثلة في السلاجقة وخلفائهم (عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين) فإن (الغزو التتري) قد أبرز للمماليك (قطز وبيرس وقلاوون والناصر) كذلك أبرز غزو الفرنجة والأسباب قوى البربر

(المرايطون والموحدون) : يوسف بن تشفين وعبد المؤمن بن علي ، وقد كان اجتياح المغول لبغداد حدثا طبيعيا ونهاية محتومة إذا ما نظرنا إلى تطور القوى في العالم إذ ذاك ، مع ضعف القيادة السياسية الإسلامية في مقر الخلافة في بغداد ، حتى يمكن أن يقال أن العبارات التي وجهها جنكيز خان وبشمورلنك إلى أمراء المسلمين إنما تمثل الواقع المحتوم في هذه الفترة حين وصفهم بأنهم « ملوك وحكام ظلمة قد أشبعوا أنفسهم وأجأهاو آمنهم وأنهم غفلوا عن مفهوم الإسلام في هدائته ووحدته وفي المساواة والحق ، ولذلك فإن الله قد شاط التنازل عليهم لينقموا منهم ، وإلهم آية الله على هذه القيادات الظالمة » ، هذه العبارات التي أوردتها التتار في رسائلهم إلى أمراء الإسلام إنما تمثل مفهوم التطور وحركة التنازع فما من قوة تضعف إلا ولقوة أخرى مجددة أن تسيطر عليها ، أن تحل محلها ، وأن الدول تمر بمراحل من القوة والضعف ، فإذا شاخت كان لا بد لها أن تنهار ، وكذلك كانت الدول الممثلة للإسلام من سمرقند إلى بغداد في هذه الفترة (٦١٦ - ٦٥٦ هـ) بين سيطرة جنكيز خان وهولاكو قد أصابها الفرقة والضعف والغفلة واستسلمت إلى الترف والانحلال وانطوت على نفسها فكان لا بد أن تطيح بها قوة جديدة شابة حتى ينقيظ المسلمون من غفلتهم . وقد جاءت موجة المغول الأولى ١١٦٣ هـ - ١٢١٦ م بقيادة جنكيز خان في جيش قوامه ستين ألفا ، اجتاحت هراة وبخارى وسمرقند وبلخ وخوارزم وندفقت ما بين الصين والادرياتيكا . ثم كانت موجة المغول الثانية (١٢٥٨ - ١٢٥٩ م) بقيادة هولاكو فاجتاحت عالم الإسلام حتى بلغ بغداد فدمرها ، واسقطت الدولة العباسية وقتل الخليفة المعتصم ، وبلغ الشام واستولى على حلب . وكانت معركة « عين جالوت » هي الرد الحاسم من القوة الإسلامية الجديدة التي برزت في مصر ، وهي « قوة المماليك » التي حملت لواء الدفع عن الإسلام غير أن التتار لم يلبثوا بعد نصف قرن من حكم هولاكو أن طواهم الإسلام فاعترف بركة خان سامع الخانات وزعيم القبيلة المذهبية بالإسلام ديننا لدولته ٦٥٤ - ١٢٦٥ م وكان بركة خان معاصرا لركن الدولة الظاهر بيبرس سلطان المماليك ، ومن ثم قامت محالفة بين الرجلين على مقاومة بقايا الصليبيين والتتار الوثنيين ، وكان لهذه المحالفة أثر بعيد المدى في إنتصار الإسلام والأدلة من خصومه ، وفي ظل محالفة بيبرس لبركة خان استطاع أن يكبد المغول خسائر فادحة وأن يوقف زحفهم نحو الشام ومصر والأجزاء القريبة من عالم الإسلام ولم يلبث أوزبك خان أن انضم إلى الأميرين وعرف بنحمسه للإسلام والدهوة إليه ، وكان أول من جد في نشر الإسلام في جميع أنحاء روسيا .

(٢)

إذا كانت قوة السلاجقة وخلفائهم ممثلة في عماد الدين زنكي ونور الدين وصلاح الدين قد واجهت المرحلة الدقيقة من معركة الحملات الصليبية ، فإن المماليك قد واجهوا معركة التنار ومعركة تصفية الإمارات الصليبية . وقد كان المماليك قوة إسلامية شابة بدوية ، من الصعب أن تنسكون وتنمو وتبلغ ما بلغته من هز وقوة في غير ظل الإسلام على حد تعبير (فيليب حتى) فقد كان المماليك مجموعة من أرقاء مختلف الأجناس والعناصر رفهم الإسلام وأمدهم بمفهومه في الحرية والقوة فدافعوا عنه ونصروه .

سيطر المماليك على مقدرات السياسة في الشام ومصر طوال قرنين وثلاثة أرباع القرن ، في أدق مراحل التاريخ الإسلامي وفي أدق مناطق الخطر ، وأتيح لهم أن يحققوا نصرين كبيرين للإسلام : (الأول) إجلاء بقايا الصليبيين والباطنية وإقامة سد منيع في وجه جيوش التنار دون غزو هذه المنطقة أو بلوغ امتدادها في البحر الأبيض وأوربا ، وكان ذلك من أدق المواقف التي يقدرها التاريخ العالمي قدرها حين يكون السؤال : ماذا يكون ميزان القوى وحركة التاريخ لو لم يكن للمماليك في هذه المنطقة وماذا يكون مستقبل آسيا الغربية ومصر ، في التعرض لموجات التنار التي ساقوها على بغداد وسوريا وحلب . ولقد كان دور « الظاهر بيبرس » في هذه المرحلة بالغ القوة والأثر ، في معارك عين جالوت واستخلاص الإمارات التي سيطر عليها الصليبيين ، واحدة بعد واحدة ، والحملات العنيفة التي جردها عليهم حتى تزعزع مركز بقائهم في ساحل الشام مما جعل باجلأهم من بعد . وكانت لببيبرس ، حركته العالمية الضخمة في معاهداته مع ملوك المغول وملوك أوربا واتفاقاته مع زعيم خانات المغول في وادي الفولجا ، وما حقق من دفع امتداد الإسلام في قبائل المغول ، بحيث كسب الإسلام قوتهم العسكرية لوقوف في صفه والدفاع عنه .

وكان لببيبرس تاريخ قديم قبل معركة « عين جالوت » فهو الذي هزم لويس التاسع في معركة المنصورة ٦٤٨ - ١٢٥٠ وقد أتيح له بعد سيطرته على مقدرات الحكم أن يبنى جيشاً وأسطولا قويين ، وقد كملت مختلف اشتباكاتهم مع الصليبيين بالظفر والنصر ، ومن أجل هذا يعده المؤرخون ثالث المعلمين : هارون الرشيد وصلاح الدين وقد عرف بجولاته الرائعة وتنقلاته من حصن إلى حصن ومن ميدان إلى ميدان حول المملكة اللاتينية الممتدة من شمال سوريا إلى حدود مصر ، وداخلها ، وقد كانت هذه المنطقة مجال جهاد المماليك العنيف المتصل ضد الصليبيين ، فامتلات بجيوشهم وزهرة فرسانهم حتى انتفروا منهم آخر معاقلهم واستخلصوا آخر حصونهم ، كما استأصلوا أشاة الباطنية والحشاشين .

وكان قلاوون وابنه الملك الأشرف من أبرز المجاهدين في سبيل الدفاع عن الإسلام ورد خصومه وإلهم انتهت آخر إقلاع الصليبيين ، وفي عهد الأشرف سقطت هكا في أيدي المسلمين ٦٩٠ — ١٢٩١ . وكان لاستمادة هكا صدى بعيدا في المجتمع الإسلامي ، فقد كان ذلك علامة على انتهاء آخر حلقات الغزو الصليبي في المشرق الإسلامي ، وقد وصلت سلطة المماليك أقصى اتساع لها خلال القرن التاسع الهجري (ق ١٥ م) حين استطاعت أن تسيطر على قبرص وتحاول ضم رودس للاجهاز على ما بعد الحملات الصليبية من محاولات الحصار على عالم الاسلام كما بسطت نفوذها على الشام ومصر وعلى الفرات وأطراف آسيا للصغرى الشرقية .

ولا شك كانت هذه الفترة ، مرحلة من أقوى مراحل « استمادة الثقة » في عالم الاسلام فشهد نشط المسلمون إلى عمليات المقاومة وبرهوا في أعمال القتال بالمنحيقات والسكوش وهدم الأسوار والأبراج ، وفي هذه المرحلة كان الأدب العربي سلاحا قويا في مواجهة هذه الحملات وفي شحذ الحمم ، وتمينة القوى الروحية والعسكرية ، وكان الزحف الصليبي والزحف التنرى من بعده دافعا قويا للمسلمين إلى الوحدة والمقاومة وكان التنار مع الصليبيين على اتفاقات سرية وارتباطات حددت مواهيد للغزو التنرى ، وذلك لوضع العالم الاسلامي بين فكي السكاشة : التنار من الشرق والصليبيين من الغرب ولكن الاسلام استطاع أن يثبت للصليبيين والمغول ، واستطاع بيبرس وخلفائه ، أن يضربوا الصليبيين ، وبمنعوم من التحالف مع التنار ، حيي خرج الصليبيون مقهورين ، وامتنص الاسلام المغول وصهرم في بوتقته ، واعتنقوا الاسلام وكونوا دولا إسلامية كبرى ، أشهرها دولة المغول في الهند التي أسسها الملك باير . وإذا كان القرن السابع (١٣ م) قد شهد تصفية الإمارات الصليبية وطرد للصليبيين نهائيا من فلسطين وساحل الشام فإن القرن الثامن الهجري (١٤ م) شهد رد الفعل لهذه النتيجة في المعسكر الصليبي حيث قامت أوروبا بالدعوة إلى مقاطعة عالم الاسلام وتحريم الأنجار مع المماليك مهددة تجار الأفرنج بتوقيع قرارات الحرمان من الكنيسة .

غير أن المماليك كانوا من البراهنة والحنسكة السياسية بحيث استطاعوا تحطيم هذا الحصار ، وتمكنوا من عقد عدة معاهدات مع الدول الأوروبية ، كما أحسنوا معاملة التجار الفرنجة ، ومن ثم أخذ الغربيون في إعداد حملة لمهاجمة مصر عسكريا ، وقد تم ذلك بالحملة على الاسكندرية التي قام بها بطرس الأول ملك قبرص (٧٦٧ هـ — ١٣٦٥ م) غير أنه اضطر إلى الانسحاب بعد بضعة أيام — ويمثل القرن الثامن الميلادي (١٤ م) مرحلة جديدة في تاريخ الاسلام ذلك هو ظهور الدولة العثمانية

الفنية التي امتطاهت من بعد أن تجمع أغلب أجزاء العالم الإسلامي وفي مقدمتها العالم العربي تحت جناحها ، وأن بقي المماليك يسيطرون على الشام ومصر خلال القرن التاسع الهجري (١٥ م) حيث واجهوا غارات القراصنة الفرنجية بالتعاون مع القبارصة وفرسان الاسيارية في رودس على السواحل والنفوذ للصربية والشامية ، مما أنهى إلى إذكاء روح الجهاد من جديد في صد الفرنجية ، حيث قام للمماليك بغزوات انتقامية ضد رودس وغيرها من جزر البحر الأبيض بالامتلاء على قبرص في عهد (برصباي) .

(٢٥)

انتشار الاسلام في مرحلة العزو الخارجي

تكشف « حركة التاريخ الإسلامي » عن ظاهرة بعيدة المدى على طوال مراحلها هي : قدرة الإسلام على كسب النصر في مجال النكسة ، وتوسيع نطاقه حين تحاول القوى الأجنبية الانتفاص منه ، وامتداد ظلاله إلى شعوب جديدة حين تنكسر قواه وتلحقه الهزيمة أو الضعف في إحدى مراكزه للتقدمة . وفي مرحلة العزو الخارجي واجه عالم الإسلام هجوم ثلاث قوى :

(١) هجوم الصليبيين في حملاتها للولاية التي لم تتوقف ومعارك المسلمين معها . (٢) هجوم الفرنجية والأسبانيين على الأندلس وشواطئ المغرب . (٣) هجوم التتار والمغول في زحفهم الضخم وانتصارات المسلمين عليها .

ولقد كان وقع سقوط بغداد في قبضة العزو للمغول بالغ الأثر في المجتمع الإسلامي كله ، فقد زلزل النفوس وأصابها بالاضطراب والتشاؤم وأضفى على المسلمين روحاً من اليأس العال ، فقد خيل للناس من ضخامة وقع الحدث وعمق الضربة أن الإسلام قد انتهى ، حتى أن مؤرخاً كبيراً هو ابن الأثير ظل مريضاً عن ذكر الحادثة بضع عشر سنة ، بل لقد كان وقع سقوط بغداد أكثر دواً ، وأخطر أثراً في النفوس من الحملات الصليبية ، ذلك أنها كانت تمثل ضربة رئيسية موجهة إلى مركز القيادة السياسية لعالم الاسلام وقاعدة الاسلام بالرغم مما منيت به هذه القاعدة من الضعف وما بلغت من الانكماش والتضاؤل في نفوذها الحقيقي .

غير أن النظرة الأوسع تكشف عن حقيقة هجبية ، هو أنه في نفس العام ٦٥٦ هـ الذي سقطت فيه بغداد مركز القيادة السياسية الاسلامية في يد المغول ، في نفس هذا العام غزا الاسلام واحدة

من أضخم قبائل التتار هي قبيلة بركة خان وفتح طريقه بالسيطرة على عقول وتلوب هذه القوة العاتية التي كانت قد هزت العالم كله وزالزت قواعده منذ أربعين عاماً قبل فتح بغداد ، وكانت موضع تطلعا الغرب الطامع في أن يضمها إلى دينه وثقافته ليجعل منها أحد فكي الشكاشة في الأطباق على عالم الإسلام ، غير أن ذلك لم يتحقق فقد « كان دعاة الإسلام » البسطاء أقدر على كسب إبلخانات المغول من حملات التبشير الغربية ، ويرى توماس أرنولد أنه ليس في تاريخ العالم تغيير لذلك الحركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام حيث كل ديانة تنافس الأخرى لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة .

وكانت زوج جنسكيز خان من قبيلة مسيحية ، ومن ثم تطلعت السلطانان للسيحيان في الشرق والغرب لمساعدة التتار في حربها الصليبية مع المسلمين ، ويؤكد توماس أرنولد أن هينون ملك أرمينية للسيحي هو العامل الرئيسي في إقناع ماينخوخان (٤٤٦ - ١٢٤٧ م) بإرسال تلك الحملة التي دمرت بغداد بقيادة هولاكو (١٢٥٨ م) الذي حملته زوجته للمسيحية بما كان لها من نفوذ على أن تظهر عطفاً شديداً على المسيحيين ، وقد ظن الغربيون أن للمغول قد تحمسوا للمسيحية وانتصروا لها فأرسل القديس لويس سفيراً من قبله إلى الخان الأهم لم يستجبه على مواصلة جهوده للنشر للمسيحية غير أن ظهور الاختلافات بين المسيحية من اللاتين والأغريق والنسطورين والأرمن وامتدادها إلى وسط معسكر للمغول ذاته ، قد جعل الأمل ضئيلاً في إحراز نجاح أكبر ، هذه عبارة توماس أرنولد في الخطة التي دبرها الغرب مع للمغول والتي تحطمت حين دخل بركة خان وقبيلته في الإسلام ثم تحالف مع الظاهر بيبرس سلطان المماليك وكان بركة خان (١٢٥٦ - ١٢٦٧) أول من أسلم من أمراء للمغول وكان رئيساً للقبيلة الذهبية في الروسيا ، غير أن تحالف هولاكو مع القوات المسيحية في الشرق كذلك أرمينية والصليبيين ، ربما قد حجب الأمل في انتشار الإسلام بين المغول قليلاً ، وكان ابن هولاكو (أباقا خان) قد تزوج من ابنة إمبراطور القسطنطينية ، وكان يرسل السفراء إلى القديس لويس ملك فرنسا وشارل ملك صقلية وجيمس ملك أرغونة يطلب إليهم التحالف معه على المسلمين . غير أن ذلك لم يحقق نتيجة ما على النحو الذي كان يرجوه لوك أوروبا ، فإن أخوه تكودار ٦٧١ هـ - ١٢١٢ م الذي احتل العرش من بعده كان قد اعتنق الإسلام منذ صباه عن طريق اتصاله بالمسلمين فلما تولى السلطة رغب في تحويل كافة التتار إلى الإسلام وأرسل نبأ إسلامه إلى سلطات المماليك في مصر « قلاوون » قال في رسالته : « لقد ابتدأنا بتوفيق الله بإعلاء أهل الدين وإظهاره ، في إيراد كل أمر وإصداره تقدماً لنا موس الشرع الحمدي على مقضى قانون العدل الأحدي إجلالاً وتعظيماً ، إن

الإسلام يجب ما قبله ، وأنه تعالى ألقى في قلوبنا أن نتبع الحق وأهله ، عفا الله عما سلف ومقدمنا بإصلاح أمور المساجد والمشاهد والمدارس ، وعارة بقاع الدين والربط للدوارج ، وأمر بتعظيم أمر الحاج ونجيز وفدها وتأمين سبلها وتيسير قوافلها وإنا أطلقنا سبل التجار المترددين على تلك البلاد لیسافروا بحسب اختيارهم ، توقيع « تسكودار أحمد » . وتوالى الأبلغانات المسلمين حتى كان أعظمهم شأنًا « غازان » ١٢٩٥ هـ ١٢٩٥ م سابع الأبلغانات الذي جعل الإسلام دين الدولة الرسمي في فارس . وتوالى إسلام أمراء التتار وملوكهم : أسلم طرماشبرين ملك جمعاتى ٧٢٧ هـ - ١٣٢٦ م وتغلق تيمو خان ملك كاشغر ٨٤٨ هـ ١٣٤٧ م على يد الشيخ جمال الدين وعندما تولى تغلق تيمور السلطة استقبل أمراء دولته وكان أولهم الأمير تولك : وقال له الخان: ألا تدخل الإسلام ، عند ذلك سالت هبرات الأمير وقال: قد دخلت في الإسلام منذ ثلاث سنين على يد أحد رجال الدين في كاشغر ، وأصبحت مسلمًا منذ ذلك الحين ولستى لم أصرح بذلك خوفًا منك ، وعرض الإسلام على سائر الأمراء فقبلوه جميعًا إلا واحدًا وفى هذا اليوم قص ١٦٠ ألف رجل شعورهم ودخلوا في الإسلام . ولما تولى أوزبك خان زعيم القبيلة الذهبية (٣١٧ هـ) ١٣١٣ م - ١٣٤٠ م السلطة عمل على تحويل كثير من الأهليين إليه ، وقد وضع خطة لنشر الإسلام في كافة أرجاء بلاد روسيا . وبالرغم من تحمسه لنشر الإسلام وتغانيه ، كان كثير من الناس يحور هياله المسيحيين وقد منحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم من غير أن يتعرض لهم أحد بسوء .

وفى هذا يقول تومارس أرنولد : إنه بالرغم من كل المصاهب أذهن هؤلاء المغول والقبائل المنبربة آخر الأمر لدين هذه الشعوب التى سلموها الخلف وجملوها فى مواطى أقدامهم . ولا بد أن يكون هناك كثير من أنصار النبي ﷺ قد انتشروا فى طول إمبراطورية المغول وعرضها بمجاهدين فى طى الخلفاء لجنب غير المسلمين إلى حضارة الإسلام . كما حقق الإسلام توسعًا ذاتيًا فى هذه المرحلة فى قلب الصليبيين أنفسهم فإن روح الإسلام وهداك التى لمسها الغربيون عن قرب ، وما أدهشهم من شئ مثل نور الدين وصلاح الدين قد شدم إلى الإسلام ، وقد أدى اختلاط علماء اللاهوت المسيحيين بالإسلام إلى تغير مفهومهم عن المسلمين ودينهم ، وبدأ رأيهم أقرب إلى الإنصاف بل لقد انجذب كثير من منهم إلى حظيرة الاسلام ، ويقول تومارس أرنولد : يظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التى انطوت على البطولة قد أحدثت فى أذهان المسيحيين فى عصره تأثيراً سحرياً خاصاً حتى أن نفراً من الفرسان المسلمين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أنهم هجروا ديانتهم المسيحية وهجروا المسيحية وهجروا قومهم وانضموا للمسلمين ، حتى أن صيغة القسم التى عرضها على القديس لويس

أولئك المسلمون الذين أتروهم حين طواب بأن يعتمد بأداء ما فرض عليه من الفدية ١٢٥٠ م كانت من إملاء بعض المسلمين الذين كانوا قسيسين من قبل ثم اعتنقوا الاسلام (جونفيل) ويتصل بهذا أن المسلمين حين استعادوا سلطانهم على بيت المقدس بسطوا على المسلمين روح التسامح التي كانت من قبل ، ومن المؤكد أن المسيحيين من أهالي هذه البلاد قد آثروا حكم المسلمين على حكم الصليبيون ، ويظهر أن أهالي فلسطين من المسيحيين لما وقع بيت المقدس في أيدي المسلمين نهائياً ١٢٤٤ م رحبوا بالفاتحة الجدد واطمأنوا اليهم ورضوا بحكمهم . وقد دفع هذا الشعور كثيراً من مسيحي آسيا الصغرى إلى الترحيب بمقدم السلاجقة باعتبارهم مخلصين لهم من الحكومة البيزنطية البغيضة لاسبب نظام الضرائب المجهف وحده ولكن بسبب روح الاضطهاد التي ظهرت بها الكنيسة الاغريقية (توماس أرنولد) .

وقد انتشر الاسلام ذاتياً في آفاق أخرى ، هي المغرب وشمال أفريقيا وكان لتقبل البربر له أبعد الأثر في انتشاره في آفاق أفريقيا ، ويرى المؤرخون أن ظهور المرابطين كان بعيد الأثر في انتشار الاسلام بوصفه حركة قومية عظيمة جذبت هداً كبيراً من قبائل البربر نحو الاندماج في الامة الاسلامية (الدكتور حسن محمود) وقد ظهر في مستهل القرن الخامس «عبد الله بن ياسين» المعلم النقي الذي اكتشفه يحيى بن ابراهيم شيخ قبيلة صنهاجة ، وكان مقدمة للنهضة الفخمة التي قادها من بعد يوسف بن تاشفين ، فقد عمل عبد الله بن ياسين على نشر الاسلام في مختلف أنحاء قطاعات أفريقيا التي تعرف بالسودان ، وقد بنى رباطاً في جزيرة نهر السنغال حيث كون مجموعة ضخمة من التلاميذ المدربين على الدعوة بلغ عددهم ألف شخص ، ثم دفعهم إلى قبائلهم وهشترم ، ثم زاول الدعوة في القبائل المجاورة ، واستطاعت حركة عبد الله بن يس أن تحقق توسعاً في قباب أفريقيا حيث أصلت قبائل كبيرة من البربر الوثنية ثم كانت حركة الموحدين امتداداً لحركة المرابطين من حيث جذبت إلى الاسلام قبائل أخرى كانت بعيدة عن الاسلام وقد استطاع ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين أن يكسب الكثير للاسلام عندما كتب رسائل التوحيد باللغة البربرية وشرح قواعد الاسلام وأمر بالأذان بها .

(٢٦)

الفكر والثقافة في مرحلة الغزو الخارجي

هل مهدت مرحلة التبلور والانصهار لمرحلة الغزو الخارجي : الواقع أن مرحلة التبلور والانصهار تميزت باندفاعات قوية نابعة من مفاهيم الاسلام . فقد استطاع الاسلام أن يحقق انتصارات ضخمة في خلال مرحلة « التبلور والانصهار » مستغلا من الدولة الاسلامية . ذلك أن حرية الحوار الفكري بين دعاته وبين دعاة الأديان الأخرى والمذاهب والمال المختلفة قد كشفت جوهره ، فاستطاعت بساطته وشموله وتكامله أن تنفذ إلى أعمق النفس الانسانية المتطلعة إلى قوة دافعة إيجابية تهيئ على البناء والتقدم والانشاء . وقد أعطى الاسلام معتنقيه هذه القوة وأنشأ نهضة ضخمة في مجال العلوم والفكر والبناء والحضارة فهو بقيمه الإنسانية من التوحيد والعدل والمساواة وسماحته في الانفتاح على الثقافات والحضارات قد استطاع أن يستوعب حصيلة ضخمة من حضارة تجارب الأمم ونهضاتها مكنه إلى الاندفاع إلى الأمام ، كما استطاعت مفاهيمه التي تنقسم بالشمول والتكامل والوسيلة أن تصهر العناصر المختلفة في بوتقة « وحدة فكر » بقيت واضحة الخطورة في مجال البقاء حيث ظلت قوى الشعوبية والزندقة والإلحاد والاباحية تواصل محاولاتها في إزاحة الاسلام عن مفهومه ، أو التآلب عليه بالمؤامرة على دولته .

وطلت دولة الاسلام تشق طريقها على الذي تحقق لها ، دائرة في ذلك الاسلام ، لم تصل بعد إلى تحقيق المثل الأعلى الذي رسمه ، ولكنها وضعت تبنى الحضارة في الشام ثم في العراق وفارس ، وأصبحت القيادة السياسية في بغداد في العصر العباسي ، وقد أفسحت الطريق إلى الدول الاستقلالية حيث ظهر بناء الدول وقادة الأفكار المختلفة وحيث استطاعت كل القوى والمال والمذاهب والعناصر أن تقيم دولا وحكومات لا فرق في ذلك بين الشيعة والسنة ، وبين القرامطة والزنج ، غير أن الصراع بين هذه القوى بدافع الخلاف بين العرب والفارس أساساً وبين محاولة الفرس في الاستقلال عن النفوذ العربي ، وبين حركات التآمر والانقضاض التي حاولت أن تحمل شعارات الطويلين أو آل البيت كوسيلة لإغراء الشعوب ، هذه المعركة الحضارية في مجال الفكر وفي مجال الحركات السياسية قد أضعفت الوحدة السياسية الاسلامية بين أجزاء « عالم الاسلام » على النحو

الذى مكن القوى الخارجية من التآهب لغزو من الأندلس في حدود المغرب والدولة البيزنطية في حدود الشام هنالك دخل العالم الاسلامى فى مرحلة جديدة : هى مرحلة «أزمة الإسلام» كما نسميها وهى مرحلة الغزو الصليبي المزدوج على الشام والأندلس والغزو التترى الذى ارتبط بالغزو الصليبي فى خطط منسقة كحالة ثلاثية للقضاء على عالم الاسلام . وقد استمرت هذه المرحلة : مرحلة الغزو الخارجى فترة قرنين كاملين ها (القرن لسادس والسابع) وفى هذه المرة ظهرت القوى الثلاث الشابة البدوية المحاربة ذات الفروسية والصرامة والى كانت فى مستوى الأحداث وهى قوى (١) السلاجقة وحلفائهم وتابعيهم الأتابكة والأيوبيين (٢) المماليك (٣) البربر « المربعين والواحدين » وبعد فاذا كان شأن الفسك الاسلامى فى هذه المرحلة :

كان الفسك الاسلامى فى مرحلة الانصهار والبلورة قد مر بعدة مراحل :

(١) المعتزلة : لسان الدافع عن الاسلام فى مواجهة الفلسفات القديمة . (٢) تحقيق الحديث والسنة وتكوين مدارس الفقه فى مواجهة حملات الشوبية . (٣) أهادة صياغة مفهوم الاملام بالعودة إلى مفهوم « القرآن » بوصفه حجر الأساس الفسك الاسلامى جامعاً بين العقل والقلب فى مواجهة انحرافات (١) الاعتزال (الأشمري) (٢) الباطنية (الفزالى) وفى أواخر القرن الخامس وأوائل مرحلة الغزو الخارجى استشرت الدهوة الباطنية (١) كقوة فكرية يهدف إلى القضاء على مفهوم الاسلام فى بساطته وشموله وتكامله ووسطيته (٢) وحركة سياسة تهدف إلى اسقاط الدولة الاسلامية.

كسافت الفسكرة الباطنية خلاصة الفلسفات الجوسية واليونانية الوثنية مصاغة فى قالب ظاهرة إسلامية ، تدهو إلى اسقاط التكليف فى العبادات وتعطيل ظاهرة الشريعة ونسخه وذلك من طريق تأويل الكلمات الشرعية الاسلامية المتواترة تأويلاً لا يقوم على اللغة والقياس والمنطق مع إنكار الفبيات وانكار عقيدة ختم النبوة . وقد صور دهاة الباطنية هدفهم فى عبارة واضحة بعث بها هب الله بن الحسن القيروانى إلى الحسن بن سعيد الجبائى زعيم القرامطة على النحو « أدع الناس بأن تقترب اليهم بما يميلون إليه وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم فن آست منهم رشداً فاكشف له النطاء فاذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به فعلى الفلاسفة ممولنا » . والواقع أن دهاة الباطنية وفى مقدمتهم (هب الله بن ميمون القداح) قد بحثوا عن أنصارهم بين الوثنيين وحلاب الفلسفة اليونانية على حد تعبير دوزى — ولم يكن ابن ميمون يعتمد إلا على الطائفة الأخيرة وإلهم وحدهم استطاع أن يقضى بسرّه وخفى عقيدته ، وهو أن الأئمة والأديان ليست إلا ضلالاً وسخرية وأن باقى البشر

(وكان يطلق عليهم الحر) لبسوا أهلاً لفهم هذه المبادئ، وقد ظلت الباطنية تنشر دھوتها باسم الدھوة إلى آل البيت، حتى أصبحت مؤسسة ضخمة تنقض على الحكومات وتقتل الأھلام من الوزراء والقادة أمثال الملك العلوي والوزير نظام الملك وكان لها دورها الخطير في معركة الاسلام مع الصليبيين، فان معظم المجاهدين الذين قاوموا الغزو الصليبي نرصدتهم الباطنية بالقتل أو تعرضوا لمحاولات الاغتيال كما تعرض صلاح الدين . ويتصل بالباطنية جماعة إخوان الصفا ودھوتهم خليط من الفلسفة اليونانية والعقيدة الباطنية ومزيج من الاسلام والالھيات اليونانية مستهدة خالق دين آخر، وكانت دھوتهم هي « أن الشريعة قد دنست بالجهالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة (التوحيدى : الامتاع والمؤانسة) والمعروف أن أصحاب حركة (إخوان الصفا) قد كتبوا أسماؤهم، وهنا موضع التساؤل فيما لو كانوا مخلصين أو غير منخرقين عن فهم الاسلام ومقوماته . ومن أم معالم دھوتهم إنكار البعث بالاجساد (ج ٤ ص ٩١ . رسائل إخوان الصفا) ويفسرون الآخرة والجنة والنار على نحو مغاير لما يفهمه ويعتقده المسلمون، وبالجملة فان فلسفة إخوان الصفا هي مزيج من فلسفات اليونانية الوثنية، والمزدكية الفارسية، والمأوية، والوثنية، والسكھانة والتنجيم والسحر، ويرى العلامة أبو الحسن الندوى أن هذه الدھوة كانت تهدف إلى إبعاد النصوص والنقوى لحركة انتفاض جديدة، وذلك بتجميع علم ماكر يراد به حمل سياسى لهدم دولة الاسلام والاصلام نفسه .

الغزالي : وإعادة صياغة الإسلام

هذه هي الصورة التي كانت تتحرك قبل الغزو الخارجي لعالم الاسلام، بالإضافة إلى التفرق السياسى والخلاف الضخم بين العناصر والقوى الاسلامية ومن هنا كان لا بد للاسلام أن يواجه هذا الصراع بإعادة صياغة مفهوم الاسلام على نحو يسلك الجماعة الاسلامية في وحدة فكرية وسطية متكاملة . أما من الناحية الفكرية فقد كان « الغزالي » هو حامل لواء « إعادة صياغة مفهوم الإسلام » بالإتيحاء نحو القرآن نفسه كمصدر أساسى وإعطاء الاسلام تسكاه وشموله بالجمع بين العقل والقلب في مواجهة انحرافات الباطنية والفلسفات القديمة : وفي نفس الوقت كانت القوة للسلاجوقية البدوية الشابة المحاربة في المجال السياسى هنوئاً لسيطرة وحدة الجماعة، فهم حملة علم الستة، وأصحاب اللواء المرفوع في وجه الغزو الخارجى، وقد استطاع الغزالي أن يعيد صياغة مفاهيم الاسلام صياغة

جديدة ، بعد أن أوغل في دراسة الفرق وتمييز حجج الفلاسفة والباطنية (٤٥٠ - ٥٠٥) كان جوهر الإسلام قد اختفى وتوارى خلف تيارات الكلام والفلسفة والباطنية فاستصحب الغزالي الإسلام من جديد وأزال هن وجهه ذلك الغشاء الذي حجب صفاءه ، وصارع القوى التي كانت في يوم من أيام الإسلام أسلحة قوة ثم تحولت مع الزمن ومع انقضاءها عن شمول الإسلام وتكامله ووسطيته لتصبح وكأنها مفهوم الإسلام نفسه ، صارع قوى المتكلمين والباطنية والفلاسفة وواجه انحرافاتها وردّها جميعاً في صياغة جديدة ، وصبها جميعاً من جديد في « بونفا الإسلام » ليبرز الإسلام بمفهومه الأسنى ، وقد استصحب عناصر القوة والحياة التي تتمثل في هذه الأفكار والدعوات وإعادها إلى منابها من الإسلام وأقام من جوهرها بناء فكر الإسلام في شمله .

فليس الإسلام فلسفة وحدها ولا فقها وحده ولا زهداً وحده ولا كلاماً وحده ، ولكنه هو الأصل الأصيل التي تلتقي فيه هذه المفاهيم على قدر لتسكون شمول الإسلام وتكامله ووسطيته . وقد دعا الغزالي إلى اتخاذ القرآن نفسه أساساً لمنهج الفكر الإسلامي كاشفاً عن أن علم الكلام كان سلاحاً من أسلحة الإسلام لفترة من الفترات غلبت فيها الفلسفات القديمة فكان دفاع عن الإسلام — عن نفسه — بنفس أسلحة خصومه ، وإنما يمثل الكلام أمراً جزئياً فيما يتعلق بالدفاع عن شكوك خصوم الإسلام وهو ليس دعوة شاملة ، للطباع السليمة والعقول المستقيمة « أما القرآن » فهو الغذاء الصالح والماء السائغ لكل إنسان ، ليس فيه ما في الكلام من ضرر أو خطر أو جزئية بحال الدفاع عن الإسلام والرد على خصومه فضلاً عما تعطى آراء المتكلمين من صورة الجدل مما يعمز منه العامي وربما يكون سبباً لظهور العناد في قلبه ، والأفهم هو الكلام الجاري كما يشتمل عليه القرآن .

« وأولية القرآن أنه مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان ، أما أولية للمتكلمين فهي مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ، ويستنصر به الأكثرون بل إن أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي الرضيع والرجل القوى » . أما الفلسفة عنده فهي « مجموع أفكار وقياسات وتعميمات » والغزالي لم يهتم بالفلسفة بالتفكير أو بهاجها بالهجاء ، ولكنه قال « أن أغلب قضاياها برهانية ولا يخدم الإسلام انكارها ، وقال أن الإسلام لا ينصر بانكار هذه العلوم وليس في الشرع تعرض لها بالنفي والإثبات ولا في هذه العلوم تعرض للعلوم الدينية » ، وقال إن بعض علوم الفلسفة لها فائدتها وخاصة علوم (الرياضة والطبيعة) أما الإلهيات ففيها أكثر أخطائهم ، وقال إنهم ما قدروا على الوفاء بالبراهين على

على ما شرطوه من المنطق ، ويرجع ذلك إلى أن الإلهيات ليست كالعلوم الأخرى (الرياضيات والمنطق) وليس لها مقدمات ومحسوسات ومبادئ ، ولذلك كثرت فيها أغاليطهم وتخيلاتهم ، وقال أن خطر الفلسفة على أذهان الناشئة هو أن يبدوا أصحابها مع رزاة عقولهم وغزارة هلمهم ، شكريين للشرائع والتحل جاحدين لتفاصيل الأديان والملل ، ولم يهاجم الغزالي علوم الفلسفة التي لا تصادم الشريعة ونافس مسائلهم في الإلهيات وما بعد الطبيعة وبين ضعف استدلالهم وتناقضهم واختلافهم في ثلاث مسائل : (١) قدم العالم (٢) قولهم بأن الله لا يحيط هذا بالجزئيات الحادثة من الأشخاص والظواهر . (٣) بمسائل الأجساد وحشرها ، وقال إن هذه المسائل الثلاث لا تلائم الإسلام بوجه ، وعلى هذا النحو بدأ القرن السادس وقد أقبلت الحملة الصليبية الأولى . وبدأت حركة مقاومة ضخمة في منطقة الشام وساحل فلسطين ولم يلبث أن برز عماد الدين زنكي بحمل لواء الوحدة الإسلامية السنية وخلفه نور الدين محمود صاحب دعوة « إعادة بناء الأخلاقية الإسلامية » كقوة أساسية لمركبة المقاومة . ثم صلاح الدين الذي أقام بخلفه الإسلام نموذجاً جديداً للفن الأعلى الإسلامي . وقد كان لازمة الإسلام أثرها في أمرين : (١) وحدة الجاهة الإسلامية : وحدة سياسية وفكرية وبروز دعاة ومصلحون من أمثال « هبة القادر الجيلاني » (بروز دعوة الزهد والتصوف وتجميع كتائب المرابطين في الثغور ثم نحوهم إلى جهات تعيش في الخوايا والزوايا . (٢) ظهور أدب جديد هو أدب المقاومة للصليبيين (الشرق) والفرنجية (الغرب) والنتار . وقد كان للحملات الصليبية المستمرة أثرها في بروز دعاة السنة من السلاجقة وخلفائهم من الأتابكة والزنكي والأيوبيين والمماليك أثره في النقاء الفكر الإسلامي على وحدة تمثل في مفهوم السنة والجاهة حيث انصهرت مختلف الفرق الفلسفية والكلامية والمتصوفة والفقهاء من جديد في لقاء روي وفكري بين أجزاء العالم الإسلامي ومفاهيمه الفكرية وفي مقاومة الغزو الصليبي والفرنجي خلال القرنين كاملين ، وكما انتشرت حلقات الوعظ وحلقات التصوف وانتشرت المدارس السنية التي أنشأها السلاجقة وفي مقدمتها المستنصرية والنظامية وبدأت التربية الإسلامية تمشق طريقاً جديداً قوامه « وحدة الجاهة السنية » في النقاء المذاهب الإسلامية ، كما برزت حركة الأخاء والفتوة الإسلامية ، غير أن دور الغزالي في إسقاط الكلام والفلسفة الإلهية اليونانية قد أنشأ التصوف خلال القرن السادس كله حين بلغ التصوف مبلغه من الانحراف الذي بلغت الفلسفة والكلام من قبل ، ههنا كان الإسلام في حاجة إلى شخصية ضخمة « تعيد صياغة مفاهيم الإسلام » في مواجهة محاولة الجزئية الصوفية بمفهومها الجبري حيث - أولت أن تمثل مفهوماً كاملاً للإسلام ، ففي نحو قرن من الزمان انقلب التصوف إلى حركة فلسفية مضطربة

جمعت إليها انحرافات الفلسفات القديمة وقالت بالحللول والاتحاد ووحدة الوجود وبعدت عن بساطة الاسلام في شموله وتكامله ووسطيته . وينتمثل ذلك في أقوال الخلاج والسهروردى وابن عربى ، كما تحولت حركة الرباط في النفوذ إلى حركة الدراويش المفسحة من المجتمع والعمل والحركة والحياة إلا الاعتساف في الخوانق ، ومن هنا أصبح التصوف انحرافاً إلى نزعة فلسفية فكرياً وإلى جود وهزلة وسلبية من الناحية العملية ، ودخل إلى التصوف القول بإسقاط التكليف وبذلك بعد عن مذهب السنة وقواعد الشرع ورجع الاسلام في طبيعته الإيجابية القائمة على محاربة النفس والتوكل على الله والجهاد . غير أن الحركة الصوفية من ناحية أخرى قد استطاعت أن توسع قاعدة الاسلام وأن تنشر التوحيد . في مختلف أجزاء أفريقيا وآسيا . ثم لم تلبث خلال هذه المرحلة أن تقاربت السنة من الصوفية ، كما تقاربت الصوفية من مفاهيم الشيعة ، وحاولت أن تلتقي في وحدة فكر في حظيرة الاسلام . وإذا كان « الكلام » هو محاولة إيقاف الاسلام في فلك العقل فإن « الصوفية » هي إيقاف الاسلام في فلك القلب ، وكلاهما شطرى الاسلام ولا يستطيع بهما أن يستقيل بالاسلام ، والاسلام في شموله وتكامله ووسطيته يلتقي بهما منصرفين فيه والاسلام دين العقل القلب معاً .

(٢)

الحركة الموسوعية الكبرى

كان هجوم الصليبيين والفرنجة والتمار من خارج عالم الاسلام عليه في ثلاث اتجاهات متلاقية يربطها خط واحد هو القضاء على الاسلام « دولة وفكرة » وهي حملة « ثانية » يمكن أن توصف بأنها « أزمة الاسلام الكبرى » ، كان يمكن أن تغشى على أى حضارة يحمل لواثها فكرة ودولة ، غير الاسلام ، فقد استطاع الاسلام أن يخرج أحشائه من البدو المقاتلين الأشداء في ثلاث قوى : هي السلاجقة والمماليك والبربر في مواجهة القوى الثلاث ، كانت هذه القوى عاملة على « إعادة وحدة الجماعة » في مفهوم الوسط (السنة) والدفاع عن أرض الاسلام ، غير أن الاسلام لم يتوقف في هذه المرحلة عند « الدفاع » بل استطاع أن يفتح فتحاً سليماً في آفاق جديدة في أفريقيا وجنوب شرق آسيا ويشق طريقاً مجدداً فيغزوا قلوباً جديدة ببساطته وسماحته وشموله ووسطيته ، فيضيف عناصر جديدة في الوقت الذي كانت قلاع الباطنية تسقط ، والمغول البرابرة يدخلون في الاسلام أفواجا .

وفي هذه المرحلة برزت « حركة فكرية وثقافية » بعيدة المدى ، لم تشهدها المرحلة السابقة من حيث عمقها واسماها وشوئها ، ذلك أن الغزو الخارجى قد هز نفوس الأعلام والمفكرين هزاً حقيقياً وكانت عمليات القضاء على التراث الإسلامى على النحو الذى حدث فى بغداد حين فقدت مئات الألوف من مجلدات الكتب . أو ما حرق منها فى ساحات حلب أو دمشق أو نقل إلى مناطق بعيدة بقصد القضاء على قوتها كفكر ، لقد هال الباحثون المسلمون الأعلام هذا الموقف ، ومن ثم بدأت مرحلة من مراحل تأليف الموسوعات الضخمة ، تضم إليها ألوان الفنون والثقافات التى كانت موزعة على كتب مختلفة . وقد نشطت من جديد دون تقدير كبير للصياغة الفنية ، وكان ذلك حساباً لها من الضياع ، وإعادة لأحيائها من جديد ووضعها فى أيدي الباحثين .

ونظرة إلى مؤلفات الغزالي أو ابن تيمية أو ابن القيم نجد أنها محاولة لتقديم عصارات شاملة سرية للفكر الإسلامى كله ، حتى لقد قيل فى وصف كتاب إحياء علوم الدين للغزالي ، أنه يكفى بدلاً إذا فقد التراث الإسلامى كله ، ومهما كان فى هذا القول من المبالغة فإنه محاولة لتصوير مدى هذا التحدى الذى واجبه الغزالي فى سنواته الأخيرة بعد قدوم الحملة الصليبية الأولى إلى المشرق واستيلائها على البيت المقدس ، وفى مواجهة ذلك الاحساس المضطرب بالخطر على الفكر الإسلامى مما كان تمرته تأليف عمل ضخم كإحياء علوم الدين . قد اتسمت مرحلة الغزو بظاهرة هجبية فى مجال الفكر هى وجود إنتاج ضخم فى مختلف مجالات الثقافة : فقه ونحو وأدب وعروض وحديث وتفسير وبلاغة وأدب وتاريخ وجغرافيا ومنطق وفلسفة وسياسة ورياضة وفلك وتنجيم ، فقد كانت هذه المرحلة فى الواقع ثمرة المرحلة السابقة التى توسعت فيها دور العلم والمساجد والمعاهد والمؤسسات العلمية المختلفة فى هوامم الحواضر الإسلامية ، وكانت منطقة الشام ومصر أغنى هذه المناطق حيث لم نحل الحروب الصليبية ولا الغزوات النورية ولا غزوات الفرنجة لأطراف الأندلس والمغرب من استمرار حركة الفكر والثقافة والإدب ، وطعمتها بتجدد جديد وأضفت عليها لون المقاومة والحفاظ على التراث وظلت الجامعات الكبرى : الأزهر فى مصر والقرويين فى فارس والزيوتة فى تونس والأعظم بالفيروان والأموى بدمشق والتنجف وكر بلاه وسامرا ، ظلت قادرة على أن تحمض هذه الثقافة وأن تحميا . وهندما سقطت بغداد تحت سنانك الممولى ، ظلت مقاهرة ودمشق وحلب وحواضر المغرب جميعها حافظة للثقافة منمية لها . ولعل هذا العمل هو أقوى رد على الشبهات التى كانت تنفرد من آن الحياة العقلية قد واجهت فى مرحلة الغزو الخارجى مرحلة انحطاط ، فضلاً عن أن الخلفاء وبناء الدول فى مصر ما قبل الغزو (٤٩٢ هـ إلى ٦٩٩ هـ) - وهو فترة أول الحملات الصليبية إلى أوائل

عصر الوحدة العثمانية - هؤلاء القادة لم يرددوا في تسكريم النوايغ والعلماء واستقدموا إلى دولتهم هداً كبيراً من أهلهم أمثال البيروني وابن سينا وابن الهيثم .

غير أن هذا العصر يقسم بظاهرة أشد عمقا : هو أن « الجدل الفكري الإسلامي » قد انتهى حيث تقاربت مفاهيم الكلام والسنة والتصوف وأهل البيت، وبدأت تلتقي في وحدة فكر إسلامي له وسطية وتكامله ذلك أن حكام هذا العصر كانوا علماء وأئمة وعلى قدر كبير من الثقافة وكان من حولهم دوماً نخبة ممتازة من أهلهم المثقفين . فقد كان نور الدين محمود يتابع سياسة السلاجقة في بناء المدارس واستقدام العلماء وكذلك شجع صلاح الدين العلماء وقريبهم ، وكانت مجالسهم حافلة بأهل العلم والفضل ، حيث تطرح مذكرات واسعة ومحاورات مفتوحة حول مختلف جوانب العلوم ، وكان صلاح الدين يتكاف السعي إلى العلماء الذين لا يغشون مجالس الأمراء والسلاطين ، كما بنى السكامل دار الحديث في القاهرة وناظر العلماء ، وفي كل ليلة كان يجلس إلى المفكرين ويعقد المباريات بين العلماء في حفظ الجامع الكبير وغيره من كتب الحديث ويجريء عليها . كذلك كان كاف الظاهر يبيرس بالعلماء والنوايغ ، وحبه لمحاورات التاريخ الفقه ، وعلى هذه السنة كان قلاوون الذي أنشأ المدارس الكبرى وطراح الأدباء . وكانت حلقات العلم ، زاخرة في مختلف الجوامع الكبرى والزوايا ، وفي القاهرة كان جامع عمرو والأزهر والطولوني وجامع الحاكم والمشهد الحسيني وكذلك كانت جوامع دمشق وحلب ودار الحكمة في طرابلس كلها تشغل بالعلم .

وقد رحبت القاهرة ودمشق وحملت بالعلماء من مختلف أجزاء العالم الإسلامي واستقبلت القاهرة هداً من علماء الأندلس وفدوا إليها مهاجرين خلال حملات الفرنجة . وساهمت الأميرات المسلمات : روح للامك الأشرف وأختا صلاح الدين في إقامة للدارس ، وفتت مدارس المذاهب الفقهية المختلفة : المالكية والحنابلة والشافعية والحنفية ومدارس الحديث ومدارس للقرآن ومدارس للطب . وكانت هناك خزائن الكتب المتعددة . وقد تعددت آثار الباحثين خلال هذه الفترة في مجالات الحديث والفقه والقراءات والتعبير وأصول الدين والنحو والقروض والقوافي واللغة والبلاغة والنقد الأدبي والتاريخ والجغرافيا والفلسفة وعلوم الرياضة والكيمياء والملك والموسيقى والطب والسياسة واللغات الأجنبية وبرز أهلهم متعددون في مقدمتهم : الشاطبي ، السخاوي ، القرطبي ، محبي الدين النووي . ويجمع الباحثون المنفقون على أن الحياة الفكرية في مرحلة الغزو الخارجي قد نشطت نشاطاً كبيراً وأن ظاهرة « الموسوعات » علامة صادقة على حركة التحدى ورد الفعل في مواجهة الغزو الخارجي : الصليبي والتتري في القضاء على الثقافة الإسلامية . وقد ظهرت في هذه المرحلة موسوعات : نهاية

الأرب : لنويرى . صبح الأهلى : للقلقشندى ، ووضع كثير من معجمات اللغة والتاريخ ومجاولات السير والأخبار ، وقد ظلت اللغة العربية هى لغة العلم والسياسة ، وقد اصططنها السلاجقة والمماليك والبربر بوصفها لغة القرآن الكريم وكان الفاطميين والأمويين من قبل دور واضح فى رعاية الآداب والعلوم والفنون فى مصر والشام بعد أن تحولت الحركة الأدبية والعلمية إليها بعد سقوط بغداد .

(٣)

الفكر الإسلامى يقاوم محديات الغزو

بمراجعة مرحلة الغزو الخارجى (من وصول الحملة الصليبية الأولى ٤٨٩ إلى نهاية الحملات الصليبية - ٦٩٠ هـ) نستطيع أن نسجل ظاهرة بعيدة الأثر فى حركة التاريخ الإسلامى ، هذه الظاهرة أن مقاومة حملات الفرنجة فى المغرب والصليبيين فى المشرق والتتار فى خلال هذه المرحلة وهى حملات متوالية لم تتوقف ، بل كانت دائماً فى اضطراد وتدفع ، هذه المقاومة لم توقف العمل فى مجال الثقافة والفكر الإسلامى ، بل يمكن القول بأن تمار مرحلة الانصهار والبلورة قد تحققت فى هذه المرحلة ، يظهر ذلك بوضوح فى مراجعة سريعة للاعلام الذين ظهوروا فى هذه الفترة ، وهم من المع شخصيات الفكر الإسلامى فى مختلف فنونة . الفقه والفلسفة والعلوم واللاهوت والتصوف والحكم : الفزائى وهبى القادر الجيلانى وفخر الدين الرازى ومحمد بن تومرت وابن رشد ويوسف بن هبى المؤمن وأبو فرج الجوزى وهز الدين هبى السلام ونصر الدين الطوسى وتقى الدين ابن تيمية ومحيى الدين النووى ، وابن دقيق العيد ، ومحيى الدين بن عربى وجلال الدين الرومى . وقد اتسم بمجال عملهم الفكرى شأن الفكر الإسلامى فى مختلف تطوراتهم ومراحله ، اتسم بمقاومة الغزو الخارجى ، وتوجيه مفاهيم الإسلام إلى العمل فى هذا المجال ، وأبرز ما توصف به آثار هؤلاء العلماء وكتاباتهم أنها كانت تهدف إلى القضاء على الدهوات والنزعات والمذاهب المنحرفة التى كانت من هوامل التخذيل ، ومن الأدوات التى ستنفها الفزاة لتفرقة جماعة المسلمين أو بث روح التراخى والترف والهزيمة ، وكانت هذه الآثار من ناحية أخرى تحاول أن تصوغ إيدولوجية الإسلام على نحو جديد ، جامع ، موحد شامل ، يمزج بين الدهوات المتفرقة ويردها إلى أصلها ويقرب بين دعاتها فى وحدة ، حتى لا تكون هذه الفرة بين الصوفية والمتكلمين ، أو بين الفقهاء والفلاسفة هاملا من هوامل التفرق فى كيان المجتمع الإسلامى ، وكان هناك أيضاً الإحساس بالخطر من تدمير مقومات الفكر الإسلامى . ومن هنا كانت خطورة ذلك العمل الذى وصف بالتصنيف والموسوعات ، وقد لعب العلماء والفقهاء والمسلمين دوراً كبيراً فى مجال المقاومة للغزو الصليبي والتترى ، كان إيمانهم بأن مقاومة هذا

الغزو يتطلب تحرير الاسلام من البدع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحرير القيادة السياسية والعسكرية من الظلم والظلميين . ومن هنا كانت مواقف ابن تيمية والغز بن عبد السلام وابن دقيق العيد في مواجهة الأمراء . كانوا يوصون السلاطين بالمعالة في جميع الضرائب والمكوس ، ويعلمون إليهم أن يقدموا مالههم ولدي ممالكهم أولاً من حياصات الذهب والخلي ، فإذا انفقوا هذا في الجهاد أفتى لهم الفقهاء بأخذ مزيد من مال الرعية وقد عرفوا جميعاً أن المناصب المرموقة واستعملوا على عطايا السلاطين . حين استجاب مثل ابن دقيق العيد تلميذ المازن عبد السلام إلى قبول منصب قاضي القضاة اشترط بأن لا يرد حكمة وأذاع منشوراً هاماً يدهو الجميع إلى التزام نصوص الشرع وأطراح ما يؤثر في تنفيذها من الوساطات والمحسوبيات وشدد التنكير على من تضيف نفسه أمام شهوات الحكم . ولم يتوقف هؤلاء العلماء عند حدود النصح بل شاركوا بسيوخهم في الجهاد ، شارك ابن تيمية في مقاتلة التتار . واشترك الغز بن عبد السلام في مدافعة الصليبيين في غزو دمياط ، وأشعلوا الحماسة في الصدور ، وكان ابن تيمية يوقد الحماسة في الصفوف المقاتلة ، ويقود الفقهاء في ميدان التدريب الحربي على أعمال الفروسية والجهاد . وكان « ابن تيمية » يرى أن مهاجمة الجلود والتقليد الفكري وتحرير الإسلام من الشبهات والبدع هاملاً من عوامل النصر في معركة الغزو الخارجي ، هاجم أصحاب الدعوات للتحرف عن مفهوم الإسلام وفي شموله وتكامله ، وهاجم أنصار الاتحاد ووحدة الوجود والحلول : وناصر عقيدة التوحيد ونازل خصومه بالرأى والحجة وعقد مجالس للناظرة ، واحتمل في سبيل ذلك مؤامرات خصومه وتقبل السجن والاضطهاد في تصميم وإيمان ودعا إلى إحياء روح الجهاد في المسلمين وفتح باب الاجتهاد في الفروع وإصلاح التصوف . وكتب الإمام النووي إلى الظاهر بيبرس بوجه في أمور المسلمين وهاجم للبتدعة والباطنية . وقد قام الغز بن عبد السلام بدور ضخم في الإصلاح الاجتماعي حيث أنكر بيع الخمر واصطفاة الجند وتقبيلهم الأرض بين يدي السلطان ورابط في مواجهة الحملة الصليبية السابعة للمسلمين في المنصورة بحمصهم ويمنهم على مقاتلة الصليبيين . وقد هي قادة المسلمين : نور الدين محمود وصلاح الدين ، والظاهر بيبرس ، بفتح مدارس الحديث كما حرصوا على وحدة العلماء والمسلمين ، فقد أجرى صلاح الدين حسم الخلافات بين العلماء من أجل استئصال الخطر الصليبي ، وكان العلماء موضع شوري القادة ، كان الملك العادل أخى صلاح الدين يستشير الشيخ هيد الرحيم البيهقي (القاضي الفاضل) في شؤون الجند والأسطول وتقل المؤن إلى ميادين القتال ، كما قدم مصر والشام خلال مرحلة تصفية الأندلس عدد كبير من العلماء حيث لم يتوقف البحث العلمي الصرف ، فقل وصل إليها عالم النبات : أبو العباس

بن الرومية من المغرب ٥٦١٣هـ والطبيب مذهب الدين عبد الرحيم الداخوار. الطبيب والأديب وألف بها مقالة عن الأهدية واشتغل بعلم الفلك واقتنى الآلات الفلكية وكانت لديه ست هجرية رسالة في في الاسطرلاب . وكان بها : العلامة السكال شديد بن القاسم مدير البجارسنن الناصري وأخوة رشيد الدين أبو خليفة من علماء الرياضيات والموسيقى والطب والأدب . كما اجتذبت القاهرة العالم الرياضي علم الدين قيصر تلميذ كمال الدين موسى بن يونس ، والنبأى البارغ صفاء الدين عمر (ابن البيطار) الذى عرف بسياحته وأسفاره لدراسة خواص النبات فى اليونان وآسيا الصغرى ، كما شيد السلطان السكامل دار الحديث السكاملية وشجع على التأليف فى التاريخ والسياسة . وألف فى « فن الدبلوماسية » تاج الدين بن حويه كتابه عن السياسة الملوكية وألف على ابن يوسف كثيراً من كتب التاريخ . ومن لمعوا فى هذه المرحلة جمال الدين الحاجب فى النحو والصرف وزكى الدين عبد العظيم فى الحديث والطبيب أبو سعيد بن أبى سليمان الذى ألف عيون الطب والعشاب ابن البيطار مؤلف الجامع فى الأدوية . ومن أبرز ملامح هذه المرحلة أحب المقاومة المتمثل فى شعر الشعراء والخطب الحماسية والكتابة عن الجهاد والفروسية وتفسير آيات الجهاد وأحاديثه وإعادة كتابة مواقف البطولة فى التاريخ الإسلامى ، فقد أشاد الشعراء بالأبطال والحاربين وكان الشعر من أعظم الأسلحة فى معركة الصليبيين . كما لعب الفقهاء فى الأندلس دوراً هاماً فى إيجاد نوع من الوحدة بين القوى الإسلامية المتنافرة للوقوف فى وجه الخطر الغربى ولاسيما بعد سقوط طليطلة ، ومن أوائل الداعين إلى توحيد القوى أبو الوليد الباجى الذى طاف بملوك الأندلس يؤلف قلوبهم على نصرة الإسلام وتوحيد الصفوف (الدكتور حسن محمود) .

(٤)

الفكر لا الادب هو أداة المقاومة

حاول بعض المؤرخين والكتاب أن يصفوا الفترة من ٥٦٥٦هـ بعد سقوط بغداد إلى ٥٦١٣هـ - ١٧٩٨م وهو تاريخ قدوم نابليون إلى الشرق بأنها فترة انحطاط . والحق أن هذه القرون الستة لا يمكن أن تدرس على أنها مرحلة واحدة ، ولا يمكن أن يصدر عليها حكم واحد . فضلاً عن أن علامات اليقظة فى عالم الإسلام تبقت قدوم نابليون بوقت طويل وقد انبثت من الأعماق ولم تكن بفعل مؤثر خارجى . وأعتقد أن هذا الحكم بما قصد القائلون به قطعاً معيناً هو « الأدب العربى » ثم انسحب على الفكر الإسلامى كله . ذلك أن الدلائل المؤكدة تثبت أن الفكر الإسلامى قد واجه

مرحلة ضخمة من مراحل التحدى خلال فترة الغزو الخارجى وأنه استجاب استجابة واضحة فكانت على مستوى المعركة ، وقد استمر هذا الفكر قوياً إلى مرحلة « عصر الوعدة الإسلامية للعثمانية » وأن فترة ضعفه لم تزيد من مائة عام قبل ظهور دهوة التوحيد على لسان الإمام محمد بن عبد الوهاب .

والواقع أيضاً أن الأدب ليس هو الفكر العربى الإسلامى فى هذه المرحلة ولكنه قطاع واحد منه ، ولم يكن سقوط بغداد فى الحق هو أول مرحلة الغزو ولكنه وسعها ، إذ بدأت هذه المرحلة بالغزو الصليبي وليس سقوط بغداد إلا حادثاً جزئياً ، ربما أحدث أثره فى الآداب نتيجة للهزة العاطفية التى أصابت للمسلمين بعد سقوط مقر القيادة السياسية الإسلامية ، أما أثره الفكرى فلم يكن عميق الغور إذ أن مراكز الثقافة لم تليث أن انتقلت إلى الشام وعصر وللغرب . ويمكن القول بأن « عصر الغزو والمقاومة » كان امتداداً طبيعياً « لعصر التبلور والانصرار » لعالم الإسلام فكراً ومجتمعاً ، بل أن تيارات الفكر الإسلامى والعلوم والفلسفات كلها قد تفتحت فى عصر المقاومة ، ولعل الادعاء بأن هذه المرحلة جميعها فترة ضعف ، ولا نقول أخطأً ، قد جاء نتيجة ما لوحظ من توقف حلات الصراع بين المذاهب والدهوات التى اتسم بها « عصر التبلور والانصرار » ، بيد أن هذا التوقف فى ممارك السجال إنما هو ظاهرة طبيعية لهذه المرحلة وليس علامة جود فإن المذاهب التى نشأت نتيجة اختلاف مقاليم المعتزلة والسنة ودعاة الكلام والفلاسفة والتصوف كانت قد تقاربت بعد أن زال الصراع السياسى الذى كان يحمل لواءها ويستخدمها ، وبعد أن دخلت إلى الإسلام موجات ضخمة من السلاجقة والبربر والماليك وهناصر مختلفة من الأجناس والأمم وبعد أن غلبت الثقافة السنية للقى حمل لواءها الأتراك فى عناصرهم المختلفة : سلاجقة وأتابكة وأبوبيين وهبانيين من بعد وكانوا بالإضافة إلى الماليك والبربر (المرابطون والموحدون) جميعاً من أنصار الثقافة السنية ، بينما كانت الثقافة التى تحمل طابع أهل البيت وهى أساساً لا تختلف مع مذهب السنة والجماعة إلا فى الفروع قد انحسرت فى منطقة فارس وما بعدها وتمثلت فى الفرس والتمنار . ومن أبرز ما تنقسم به هذه المرحلة منذ الغزو الخارجى لعالم الإسلامى (الصليبيون فى المشرق والفرنجية فى المغرب) هو حلبة طابع التصوف على الجماعات الإسلامية وتغلغل هذه الظاهرة فى المجتمع الإسلامى وتأثيرها على مفاهيم الثقافة السنية والربط بينها وبين مفاهيم الثقافة الشيعية فى الالتقاء على حب النبى وآل البيت ، بما قرب هذه المرحلة بين أهل الفقه وأهل التصوف وبين السنة والشيعة جميعاً . وقد كان لهذه التصوف الظاهرة الواضحة فى هذه المرحلة أثرها البعيد المدى فى معركة المقاومة للغزو الأجنبي فقد كانت من

هو ابل القوة الهافعة لمجموعات ضخمة من الشباب بالفنوة والمراطة فى سبيل الله والانصراف الى الجهاد والمقاومة والاعتصام بالشعور، والانضواء تحت لواء القسوات الاسلاميه المتدفقة بقيادة حماد الدين زنكى ونور الدين محمود، وصلاح الدين الايوبى والظاهر بيبرس ويوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن على وغيرهم من زعماء مقاومة المزو انطارجى لعالم الإسلام . وفى هذه المرحلة كانت المعاهد الاسلاميه القائمة فى أنحاء العالم الاسلامى هى العامل الأ كبر الذى حافظ على اللغة العربيه والفكر الإسلامى ، الأزهر فى مصر ، والقرويين فى فارس ، والزيتونة بقرنيس ، والأعظم بالقبروان والأموى بدمشق ، ومعاهد التحف وكر بلاه وسامرا ، وكلها استطاعت أن تحتضن الفكر الاسلامى واللغة العربيه فى هذه المرحلة الدقيقة وتذود عنها عادية الغزو ، وقد ظلت هذه المعاهد من حلقات المساجد والكنائس ، وإلى الجامعات قائمة بدورها التاريخى خلال فترة اجتياع الماعول والصلبيين والفرنجية لعالم الإسلام . وكان دور المرأة فى مجال العلم خلال هذه الفترة مضطرب النماء فقد ظهرت أسماء لها شهرتها فى هذه المرحلة من المسلمات المتفقيات ، كن يعلمن ويتحدثن فى مجالس القاهرة ودمشق كما رافق حكم المماليك فى مصر والشام حركة علمية أدبية توافرت خلالها المدارس والمكتبات وللؤسسات الخيرية فضلا عن التأليف والأبحاث الدينية والقانونية وظلت اللغة العربيه هى لغة العلم والسياسة .

وكان للأزهر دوره الضخم فى هذه المرحلة ، فقد أطلق صلاح الدين الايوبى ٥٦٧-١١٧١م للأزهر رسالته فى مجال الثقافة الإسلامية السنية ، ومنذ عصر صلاح الدين أصبح الأزهر جامعة الفكر الاسلامى ومعهداً للإسلام واللغة العربيه ، فلما جاء الظاهر بيبرس جدد شباب الأزهر ، حيث هادت صلاة الجمعة . وكانت للأزهر فى مرحلة الغزو والمقاومة مدارس فرعية متخصصة بعمد الطلاب . وكانت إقامة هذه المدارس قد بدأت فى عصر الدولة الأيوبية ، وقد أقامها نور الدين محمود فى الشام (دمشق وحلب) وفى مصر قامت مدارس مختلفة لدراسة الفقه الشافعى والمالكى والحنفى والحنبل ، وفى المدرسة الناصرية تولى شأن الدراسة ابن خلدون . وقصد الأزهر علماء كثيرون من مختلف أنحاء عالم الإسلام ، فى هذه الفترة منهم عبد اللطيف البغدادى (٥٨٩) وقد تولى التدريس بضعة أهوام فيه ، وكان موسى بن ميمون يلتقى فيه دروساً فى الرياضة والفلك والطب ، وكان شرف الدين بن الفارض يعقده حلقاته الصوفية والروحية ، وكذلك شهاب الدين السهروردى ، وشمس الدين بن خلدكان صاحب وفيات الأعيان . وكان الأزهر فى هذه المرحلة يضم أهدافاً ضخمة ، وكان مفتوحاً للطلاب من كل مذهب ، تدرس فيه سائر العلوم الدينية والقانونية ، ويقوم على تنقيف العدد الكبير من الطلاب

عدد كبير من الأساتذة يقصدونه من كل بقاع عالم الإسلام ويقطن في أودقته منهم عدد كبير ، بلغ في أواخر القرن الثامن الهجري سبعمائة وخمسين طالباً (المقرئى) .

ومن علماء الأزهر في القرن الثامن الهجرى : شمس الدين الأصبهاني (أعلام الدنيا في القوميات) وشرف الدين الزواوى المالكي وكان بمصر من الأندلس العلامة : محمد بن يوسف ابن جنان النفري والعلامة الحافظ بن حجر المصنف والمستقلاني وتقى الدين للمقرئى تلميذ ابن خلدون ، والحق أن الأزهر منذ الغزو للغولى والقضاء على الحضارة الأندلسية أصبح أكبر معهد في عالم الإسلام كله ، وميزته أنه يتوسط هذا العالم وأنه قريب من الحجاز وله صبغته العربية المحضة (د . فولرز) ، والواقع أن هذه فترة ناضت فيها الثقافة الإسلامية وأن ضعف الأدب ، كانت عوامل اليقظة والقوة واضحة في مجال التاريخ والقصة والنصوص . وفي تأليف الموسوعات وكان ذلك تهيئاً للضعف السياسي ، وكان مجال العلم التجريبي والفلسفة قد اتسع أفقه في الأندلس ، بينما هرفت الشام ومصر بالنقد في مجال الفقه والنصوص . ولعل من أم الظواهر في هذه المرحلة « ظهور الثقافة العربية » ، مقام الأدب العربي الذي لم يكن في كل هذه المراحل مثلاً لثقافة الإسكندرية ، وقد كفى طابع التكامل والوسطية التي اتسمت به الأبحاث في هذه الفترة أكثر إصالة من ذلك التمزق الذي حفلت به الفترات الماضية حين كان الأدباء والشعراء ينهبون إلى أبعد مدى في خدمة الأمراء وإذلال النظم لهم ، وقولهم غير الحق ، وإسرافهم في المدح والمجاء ، والمجون والإباحة والخمرات على نحو بلغ انحرافاً عن مفهوم الإسلام حدّاً كبيراً . أما « الثقافة العربية » في مرحلة الغزو الخارجي فقد كانت تهررت من خلافت المذاهب وماركها ، كما تهررت من أهواء الشعراء والنظاميين الواقفين على أعتاب الأمراء ، ومن ثم كان العلماء وهم القادة في هذه الحالة أشد الناس عزوفاً عن عطايا الحكم أو قبول مناصبهم ، تهرراً لفكرهم واستملاء على قبول الظالم أو كتمان كلمة الحق ، وكان للثقافة الإسلامية في هذه المرحلة أثرها الواضح في التخلص من المحسنات البلاغية ومع جمع الفنون المختلفة والمزج بينها ، وكان التأليف الموسوعي الجامعي المنوع في هذه المرحلة يهدف إلى تقديم المعرفة بصورة شاملة وسريعة ، وكان ذلك في واقع الأمر يمثل أكبر رد فعل للغزو الصليبي والفرننجي والمغولي ومادرس من مكتبات وآثار وقضى على معاهد وجامعات ، فهو عصر خوف وسرعة ومقاومة ، استهدف جمع حصيلة ضخمة من التراث الإسلامي وحفظها وتنسيقها في موسوعات ما تزال حتى الآن من الأعمال التي قامت عليها النهضة الحديثة في مجال التراجم والفقه واللغة . أما توقيف الاجتهاد وغلبة التقل والتقليد فيرجع ذلك إلى طابع العصر نفسه ، فإن عصور

المقاومة والجهاد لا تنجح فرمة العمل العقلي المنظم الذي يحقق الابداع والاجتهاد ابداعاً واجتهاداً
يتصل بمصور البناء ونمو الحضارات وازهار السلام كما يقوم في كنف الوحدات النامية المزدهرة
ومن خلال تطور الحياة الاجتماعية ونموها بالتفاعل والتعامل .

أما في عصر المقاومة فن الحق أن ينصرف الفكر الإسلامي كله إلى شحن أسلحة المواجهة والجهاد وإعادة
صياغة الفكر على نحو من الشمول والتكامل حتى لا يفقده الفوز المتصل بمقوماته الأساسية . وآية ذلك أن
النشاط العقلي للمسلمين لم يتوقف وإن ضعف فيه الابتكار الذي هو ثمرة حياة الادة والسلام ، وبرزت ظاهرة
تأليف الموسوعات التي تعد من أعمال مراحل التحدي والمقاومة ، ويمكن القول بأن هذه الفترة
ليست فترة موت ولكنها فترة بناء على نحو يتفق مع تحديات العصر في مجال حياطة وحماية وتجديد
الفكر الإسلامي وتنسيقه على نحو جديد . وقد تنوعت الثقافة في هذه المرحلة : بين أبحاث التاريخ
والجغرافيا والأدب والكلام والفن والعروض والحديث والتفسير والفلك والموسيقى والسياسة
والفلسفة والرياضة (أحمد أحمد بدوي : الحياة العقلية في مصر والشام في عصر الحروب الصليبية)
ويرجع ذلك إلى انتشار دور العلم في أرجاء مصر والشام وخزائن الكتب ، وقد وصف حكاهم هذا
العصر بأنهم كانوا مثقفين ثقافة ممتازة وقد أحاطوا أنفسهم بطبقة ممتازة من المثقفين ، وآية ذلك مجالس
نور الدين محمود صلاح الدين الحافظة بأهل العلم ، فضلاً عن بناء المدارس .

وقد مضى المالك في نفس طريق الأيوبيين ، فكان الظاهر بيبرس يقرب التائبين في كل علم
وفن ، ويقول أن سماع التاريخ أعظم من التجارب وكذلك فعل فلاوون ، وظلت المساجد خلال هذه
الفترة بمحلات العلم وكذلك الزوايا والمدارس .

وأبرزت هذه المرحلة عديداً من الأعلام :

الفزويني : (٦٠٥ - ٦٨٢)	ابن منظور : (٦٣٠ - ٧١١)	مرحلة الفزو
ابن نباته : (٦٨٦ - ٧٦٨)	ابن قيم الجوزية : (٦٩١ - ٨٥١)	
ابن بطوطة : (٧٠٣ - ٧٧٩)	القلقشندي : (٧٥٦ - ٨٢١)	مرحلة الوحدة العربية الإسلامية
المقريزي : (٧٦٦ - ٨٤٥)	لسان الدين الخطيب : (٧٣٣ - ٨٠٨)	
ابن خلدون : (٧٣٢ - ٨٠٨)		

(٢٧)

مرحلة الوحدة الإسلامية العثمانية

« بعد أن أمت القوى الثلاث البدوية الشابة : « السلاجقة والمماليك والبربر » دورها في مواجهة قوى الغزو الصليبي والفرنجة والنتار لم يلبث أن انبثقت مرحلة الغزو الخارجى ومقاومة عالم الإسلام له من : مرحلة قوة ووحدة ، أما القوة العسكرية الضخمة فقد تجمشت في ظهور (الدولة العثمانية) التي استطاعت أن تقيم وحدة عربية عثمانية فنضم إلى الأناضول وآسيا الصغرى والبلقان أكبر قوة في الإسلام هي « الأمة العربية من الحجاز والعراق والشام ومصر والمغرب » .

أما الوحدة فقد تجمشت في قيام ثلاث دول كبرى في عالم الإسلام : الدولة العثمانية والدولة الصفوية في فارس والدولة المغولية في الهند ، وكانت الدولة العثمانية ضامة إليها (الأمة العربية) هي كبرى الوحدات جغرافياً ، وقد حملت هذه الدول الثلاث لواء الإسلام وامتد بها الزمن حتى واجهت مرحلة الاستعمار الغربى التي جاءت في أعقاب البقطة العربية الإسلامية .

مر الإسلام خلال قرنين كاملين (من الحملة الصليبية الأولى إلى القدس حتى ظهور الدولة العثمانية) ، بأدق مرحلة في تاريخه كله ، مرحلة الأزمة الكبرى ، في محاولة ضخمة من القوى الخارجية على عالمه للقضاء عليه واكتساحه ، وقد تدفقت عمليات الغزو من أطرافه الثلاث : من الشمال عن طريق بيزنطة بالحمالات الصليبية ومن الشرق : بالغزو التنرى المغولى ومن المغرب : عن طريق الأندلس بغزو الفرنجة والأسبان ، وكان الغرب وأوروبا هو الذى يقذف الإسلام بالقوى الغازية من القلب إلى الجناحين عن طريق آسيا الصغرى وعن طريق حدود فرنسا التي ألبيت التنتار المغول وتأمر معهم على ضرب جناح المشرق ، غير أن عالم الإسلام لم يقف صامتاً إزاء هذا الغزو ، بل واجهه بالمقاومة والوحدة والقنال واستطاع أن يدبل من القوى الصليبية الغازية وأن يمزقها وأن يردّها على أدبارها مهزومة وأن يصر القوى التنرى المغولية في بوقتته فيحولها إلى الإسلام فتصبح قوة ضخمة من قواه الفاهلة . أما في المغرب فقد قاومت الأندلس ولم تسلم ، .. هنالك كان لا بد لتاريخ الإسلام أن يستقبل موجة جديدة من موجات القوة ، وقد تجمشت هذه القوة في الدولة العثمانية الجديدة الشابة التي حملت رايات الإسلام من جديد بعد أن ضعف السلاجقة والمماليك والبربر ، وأدوا دورهم في المقاومة .

كان هدف حملات الغزو هو : « القضاء على الاسلام » وقد أُلحِت هذه الحملات خلال قرنين كاملين على عالم الإسلام وردت منهزمة مدحورة ، ونجاة الإسلام ، غير أنه كان ضعيفا منهكا بالجراح وكان عرضة لحملات جديدة ، قد بدأت فعلا بالحصار الاقتصادي الذي ضربته أوروبا على البحر الأبيض مع اندفاع القوى الأسبانية والبرتغالية في محاولة صليبية جديدة ، هي تطويق عالم الإسلام من خارجة والسيطرة على نفس النفور والموانئ المغربية التي قاومتها ودحرتها ، هنالك استطاع الإسلام أن يبرز قوة جديدة من قواه المذخورة ، هي قوة الأتراك العثمانيين الذين اندفعوا من أطراف آسيا ، هاربين من وجه الغزو التنرى ، والذين كانوا قد اعتنقوا الاسلام ودخلوا في حظيرته كقوة جديدة شابة يدوية عسكرية ، هذه القوة الجديدة التي استطاعت أن تقوم بدور كبير عجزت عنه قوى السلاجقة والمماليك والبربر ، وهي القوات الثلاث الشابة البدوية الحاربة التي سبقتها والتي واجبت مرحلة الغزو التنرى الصليبي الفرنجي ومن ثم بدأ « عصر الوحدة الإسلامية العثمانية » ١٢٩٩ (١٣٩٩ م) واستمرت هذه الوحدة قوية قادرة أربعة قرون ونصف القرن ، ثم ضعفت من بعد ، ولكنها ظلت تسيطر سياسيا حتى مزقتها الغزو الاستعماري الغربي عام ١٢٣٧ — ١٩١٨ أي أنها عاشت مهيمنة مؤثرة أكثر من (٦٤٨ عاما) ويمكن أن يطلق على هذه المرحلة : مرحلة قوى الوحدة الثلاث ، فقد قامت فيه الدول الكبرى الثلاث : (العثمانية) التي ضمت العالم العربي وتركيا وأجزاء من أوروبا ، و (الصوفية) في فارس و (اللغوية) في الهند . ومن قلب هذه الموجة برزت الموجة الجديدة : « موجة اليقظة العربية » كقوة ذات فعالية في تجديد الإسلام ونموه ، ويمكن القول بأن عصر الوحدة الإسلامية العثمانية قد أمضى القرن الثامن والتاسع وللعالم في مكان القوة والصدارة . وهو دور التوسع والتوغل في أوروبا ، هذه المرحلة التي كانت في حد ذاتها رد فعل الحروب الصليبية ، التي ظلت تسيطر على الشاطئ الشامي خلال قرنين ، حيث استطاعت الدولة العثمانية الإسلامية أن تسيطر على قلب أوروبا وأن ترفع رايات الإسلام فيها على البلقان والصرب ونهل إلى أسوار فيينا ثلاث مرات ، وفي القرن الحادي عشر (١٠٠١ — ١١٠٠) بدأت الدولة العثمانية تنتقل إلى مكان الدفاع بدلا من الهجوم ، وأخذت تفقد نفوذها حثيثا وترفع يدها عن هذه الأجزاء التي سيطرت عليها في أوروبا ، في هذه المرحلة بالذات كانت أجزاء كثيرة من العالم العربي قد بدأت تستقل حيث أخذت قيادات جديدة عربية تسيطر ، غير أن البعث العربي الاسلامي كقوة روحية وفكرية قد بدأت فعلا في منتصف القرن الثاني عشر ، وحوالي ١١٥٣ — ١٧٤٠ بظهور دعوة التوحيد كقوة سياسية وروحية عربية ، تنبعث من قلب الجزيرة العربية ، مجددة دعوة ابن تيمية ، وداعية في نفس

الوقت إلى ابتعاث القوة العربية كقوة جديدة شابة تلعب دورها على مسرح الأحداث في عالم الاسلام . في هذه المرحلة (٧٠٠ — ١١٥٣) هـ (١٣٩٩ — ١٧٤٠) م سقطت الأندلس في أيدي الفرنجة والأسبانيين وارتفع عنها لواء الاسلام الذي عاد إلى حدود إفريقية ، حين أصرت أوروبا على أن تتحرر من الاسلام والمسلمين والعرب جميعا ومن ثم أجلت هذه المناصر ، وحررت أوروبا تحريراً كاملاً من حكم الاسلام وأهله غير أنها لم تكن قادرة على أن تحرر أوروبا من أثر الاسلام الفكري والعلمي والثقافي إذا كانت قد استوعبت حضارة الاسلام والعرب وراثتها وعلموها وفلسفاتها ، واعتصرت هذه القوة العسكرية الحية وترجمتها إلى لغاتها ومضت بها في قوة فطورتها وامتدتها بالقوة والحياة في مجال الكشف والرحلة والملاحة والصناعة والعلوم ، وإذا كانت أوروبا قد بلغت غاية التعصب حين أخذت فكر الاسلام وعلمه وفلسفاته ، ثم عاملت أهله بأقصى صنوف الاضطهاد والعنت ، فإن الاسلام بسماحته قد استطاع حين أقام في أرض أوروبا بالأندلس تماماته عام أن يعطي الإنسانية علومه وحرياته ورسالته الحية التي لا تموت ، أبلغها إلى أرض الأندلس وأقرها في جملتها ومكانتها وأوقد لمبها في نفوس علماءها ، حتى استطاعت أن توفد جذوة اليقظة والضياء في قلب أوروبا ، لبعض مشغل الإنسانية مرفوعا حين تخلف المسلمون والعرب عن حمل لوائه . وإذا كان الاسلام قد طوى امتداده في أوروبا عند الأندلس من الغرب ، فإنه قد استطاع أن يحقق نصراً بالغ الأثر والقوة ، هو إمتداده إلى أوروبا من خلال البلقان من الشرق ثم وضع يده على « القسطنطينية » عاصمة الدولة البيزنطية وتحقيق له في هذه المرحلة لإسلام القبيلة الذهبية في روسيا والباكتان ، فضلاً عن توسع الاسلام بقوته القانية في أفريقيا الوسطى ، حيث دخلت الصومال في الاسلام وظل التوسع سائراً ، وظلت الدولة العثمانية تزداد باسم الاسلام قوة ونفوذاً في مجال الحضارة والتوسع ، وهي تقسم أساساً بالسمة العسكرية ، حيث قضت أهوامها في ميدان الجهاد مؤمنة به كأساس من أسس الاسلام ، وكانت هذه المرحلة هي مرحلة النصر ، هذا النصر الذي تجتمعت أوروبا في وجهه ، وعقدت العناصر على هزيمته وهجرت عن ذلك ، كما هجز عنه تيمورلنك الذي هاجم أقرة في القرن التاسع ، وهدم قصر الأمبراطورية في الأناضول ، غير أن العثمانيين مالبتوا بعد قليل أن أفاقوا ، وقد أهادوا كيانهم قويا ، وحققوا بعد قليل أعظم نصر هز أوروبا كلها وهو السيطرة على القسطنطينية ، ومن خلال الصراع بين الاسلام ممثلاً في الدولة العثمانية من ناحية والغرب من ناحية أخرى ، كانت طلائع الاستعمار التي تحمل لواء تطويق عالم الاسلام مندفة من أسبانيا والبرتغال في طريقها حيث استطاع فاسكودي جاما كشف طريق رأس الرجاء الصالح — ١٤٩٨ وإقامة محطات

على طول الساحل الشرقي لأفريقيا كمرحلة من خطة الضغط الاقتصادي على عالم الإسلام وحرمانه من من قوافل التجارة التي كانت تمر في أعماقه . وتنفيذاً لخطة الدوران حول أفريقيا دون المرور بأرض الإسلام لفرض العزلة على العالم الإسلامي تمت القوة الإسلامية العثمانية الجسدية بين القرن السابع والقرن العاشر (٧٠٠ — ١١٥٣) فقد اندفع العثمانيون بعد أن استولوا على آسيا الصغرى وأزالوا الدولة الرومانية الشرقية إلى شبه جزيرة البلقان ، الصرب ، بلغاريا ، اليونان ، اليوسنة ، الهرسك ، أروغ ، القرم ، البحر ، ترانسلفانيا سيطروا على هذه الأجزاء من أوروبا في الفترة ما بين ١٣٩٩ — ١٥٤٧ ، ١٥٤٧ — ١٥٥٤ .

وحين دخل العالم العربي في قلب هذه الوحدة الإسلامية العثمانية ، امتدت الدولة العثمانية من الدانوب إلى الخليج الفارسي إلى المغرب الأقصى وقد قامت في هذه المنطقة وحدة سياسية إسلامية الطابع ، على أنقاض التمسك الذي واجهه عالم الإسلام بعد ضعف قوى الممالك التي استنفدت في الصليبيين والتتار . وفي ظل هذه الوحدة بدأت مرحلة استقرار في عالم الإسلام ، فقد كان قيام هذه الوحدة انقذاً لهذه الوحدات من عالم الإسلام [من آسيا الصغرى والشام ومصر والعراق] من سيطرة قوات الغزول ، أو الحملات الصليبية التي كانت توشك على التحرك قبل ظهور القوة العثمانية الإسلامية كما أوقفت هذه الوحدة النفوذ البرتغالي من التوغل في البحر الأبيض المتوسط وبذلك استنفذت أدق مناطق عالم الإسلام وأشدها حساسية من الخطر الأوربي . ولاشك أن الوحدات العربية قد وجدت في « لواء الإسلام » الذي رفقه الدولة العثمانية قوة جديدة تحميها وترد عنها الغزوات الغربية ، وكان النظام الذي وضعه العثمانيون لحكم هذه الوحدات نظاماً مرناً ، فقد أقرروا النظم القديمة وتركوا السكل وحدة : الحرية في تصريف أمورها ، مع ربطها بمحزام السياسة العامة والدفاع والضرائب ، وإن كان هذا النظام الذي كان مقبولا في فترة القسوة قد أصبح هاملاً من هوامل الخطر في فترة الضعف ، ويمكن القول أن القوة العثمانية الجديدة كانت موجة جديدة من موجات الإسلام أمدته بقوة جديدة ، ردت عنه الغز الخارجى وأقامت « وحدة » استمرت قوية أربعة قرون ونصف قرن ، فقد خلف العثمانيون العرب والفرس والسلاجقة والأتابكة والأمويون والبربر في رفع راية الإسلام واستطاعوا أن يمتازوا عن القوى الإسلامية التي سبقتهم بأنهم لم يقفوا في صفوف الدفاع والمقاومة بل أهادوا عصر التوسع الإسلامي الأول بأن اندفعوا في قلب أوروبا وحققوا انتصارات وضمو أجزاء كبيرة منها إلى عالم الإسلام ، وإن كانوا قد هجروا أن يصبروا أهل هذه الأجزاء أو أن ينشروا فيهم دهوة الإسلام . وأن كانت أوروبا قد استطاعت أن تصمد الإسلام كقوة أساسية عنها من ناحية الأندلس

وفرنسا حتى نهر الأوار ، ومن ناحية البلقان حتى أسوار فيينا فإنها لم تستطع أن تصد الإسلام كفسكر وإذا كان العثمانيون قد استطاعوا أن يواجهوا الغرب بالقوة العسكرية منتصرين ثلاثة قرون أخرى فإن هذا كان رد فعل للحملات الصليبية على المشرق وحلات الفرنجة على الأندلس . وكان في نفس الوقت مصدر تلك الخسومة العنيفة التي ظلت أوروبا والتاريخ الغربي يحملها للدولة العثمانية والوحدة الإسلامية ممثلة في هذه الفترة ، لقد استطاعت القوة العثمانية الإسلامية أن تخاف الموجات الإسلامية السابقة على سيادة البحر الأبيض واستطاعت أن تحيل البحر الأسود بحيرة إسلامية . كما بسطت سيادتها على البحر الأحمر وخليج فارس وأثر انتصار أسطولها على أساطيل الدول الأوروبية للتحدة والبابا ، وقد هاشت القوة الإسلامية العثمانية خلال القرون الستة بين صراع القوة والغلبة والنصر ثم في صراع الدفاع والمقاومة . وكانت مرحلة من مراحل الإسلام استعاد فيها قوته ورفع رايته في قلب أوروبا وكند وحدة شعوبه . وكانت فكرة الجهاد من أبرز العوامل التي دفعت العثمانيين إلى اكتساح الامبراطورية البيزنطية والتوسع في ممالك أوروبا . وإذا كان العثمانيون لم يلشروا دهوة الإسلام على نحو تربوي وعلى كما فعل المسلمون من قبل ، فإن الإسلام قد اتصل بأوروبا وأثر في أسلوب الفكر والحياة والحضارة ، وأثر في جذور الفكر الأوروبي نفسه ، كما ترك العثمانيون في قلب الأوروبيين هبة الإسلام وتقديرآ له ، حين استطاعت قوتهم أن ترد قوى أوروبا المتجمعة مرة ومرة ومرات وفي هذه المرحلة لم يكن العثمانيون منعصبين ، ولكنهم كانوا يمالئون الضامير المختلفة على أساس أحكام الإسلام وقد ظل شيخ الإسلام مرجعا للسلطة في الأمور الشرعية والمدنية على السواء ، ولاشك كان طابع العثمانيين طابعا حربيا عسكريا ، وبذلك غلبت على حياتهم صورة الحرب والقتال والغزو ، مما قلل من فترات الاستقرار وبناء الحضارة . ولقد أهان على هذه الوحدة الإسلامية تحت لواء العثمانيين ، أن الفكر الإسلامي قد دخل في مرحلة غلب فيه الطابع الصوفي وصبح بلونه السنة والفقه والفكر جميعا ، وكان هذا الطابع هو أحد عوامل أسلمت عالم الإسلام إلى مرحلة الضعف التي قصرت فيها عن مقاومة الغزو الغربي من بعده .

(٢)

كانت مرحلة الغزو الخارجي لعالم الإسلام مرحلة شاقة ، واجهها المسلمون بكل قوام ، وصمدوا لها وقدموا زهرة شبابهم في مجال الجهاد المقدس باسم الدفاع عن راية الإسلام وحماية أرض الإسلام ، وقد امتدت هذه المرحلة إلى قرنين كاملين وانتهت وقد استنفدت كل القوى الحية الشابة ، وخلقت المعركة وراثتها عالما مفككا مضطربا ، من مختلف النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وقد

انطوت القوات القويات الثلاث : السلاجقة ونوابهم (الأتابكة والأيوبيون) والمماليك ، والبربر : (المرابطون والموحدون) بعد أن بلغت قمة قواتها وأدت دورها ، وضمت وتمحلت بالخصارة والغرف ، ووقف عالم الإسلام والجلالات الصليبية تصنى موقفها من ساحل الشام بترقب قوة جديدة شابة بدوية لها طابع الفروسية والحرب تحت لواء الإسلام تحقق له وحدة تضم أجزائها المتناثرة المضطربة وتندفعه في مجال الحياة دفعة قوية . ولم يكن الغرب بعد أن فرض على بقايا قواته الغازية أن تنسحب من المشرق ، قد جعل ذلك آخر جولاته بالنسبة للصراع التنفليدي الدائر المستمر بين عالم الغرب وعالم الإسلام ، بل بدأ مرحلة جديدة قوامها الضغط على المسلمين في أسبانيا لنصفية دولتهم وإخراج آخر مسلم وهربي من أوروبا ، وبدأ في نفس الوقت مرحلة جديدة من مراحل الزحف لتطويق عالم الإسلام . وكانت جبهة المغرب الاسلامي قد ضعف بعد أن انهارت قوى المرابطين والموحدين والمزنيين وحيث كانت جبهة المشرق لا تزال صامدة بالمماليك البحرية وسلاجقة قونية ، لذلك كان ظهور الدولة العثمانية كقوة إسلامية جديدة شابة بدوية مقاتلة ، تطورا تاريخيا طبيعيا على النحو الذي تطور إليه تاريخ الإسلام في مراحل المختلفة . وكظاهرة اهتيادية موافقة لناوس حركة التاريخ الاسلامي وعلى طريق حتميته إلى غايته الكبرى . وأبرز ما تمثله هذه الظاهرة أنها حققت ، مظهرين أساسيين من مظاهر القيم الأساسية للإسلام هما : الوحدة والقوة وإن لم تحقق المظهر الثالث ، وهو (العدل) وهو مظهر افتقدناه طويلا على طول حركة التاريخ الاسلامي ، وتنسم القوة الاسلامية الجديدة بطابع التكميل من حيث أنها لم تكن كالقوى الثلاث التي ظهرت في مرحلة الفزوة الخارجى قوى قادرة على المقاومة والدفاع ورد العدوان لحسب ، ولكنها كانت قادرة أيضا بالاضافة إلى ذلك على التوسع ودفع قواها في قلب أوروبا ، كنموذج عادل للإسلام على مرحلة انتقاض القوة الغربية لأرضه من خلال جداره الشمالى ، وكرد على محاولة إخراجه من أوروبا الغربية . وعلى يد القوة الاسلامية العثمانية عرفت أوروبا — بعد تصفية المملكة اللاتينية الصليبية في ساحل الشام لسبعين عاما — قوة إسلامية جديدة لم تقتصر على إيقاف توسعها في أرض الإسلام ، بل زحفت إلى أوروبا وظلت تهددها بالفتوة حتى حاصرت أسوار فينا ، وكان دور العثمانيين طبيعيا بحكم أنه دور قوة اسلامية امتطاهت أن تنمو بعد أن ضمت القوى الاسلامية التي توالى : العرب والفرس والفرس والبربر والسلاجقة ، ولقد كانت القوة العثمانية أشد حماسة للإسلام واندفاعا في سبيل نشره .

وكان أبرز ما تنسم به هذه القوة هو الطابع الحربى العسكري للنظام إلى توحيد عالم الإسلام

وتوسيع نطاقه بإضافة أرض جديدة وإبلاغه إلى القارة المستنصرية عليه ، القارة التي قاومته منذ وطأ أرض الأندلس ويجمع المؤرخون على أن دور العثمانيين في بناء الاسلام هو دور طبيعي وأنه « بينا كانت الجذوة الإسلامية تضعف في نفوس قيادات الإسلام بتأثير الحضارة ، كانت تلك الشعلة تضطرم في أفئدة الترك وتدفنهم إلى أداء دور العرب في صدر الإسلام والمبادرة إلى تمثله . ويقول ليون كاهن : أن دخول الإسلام لمدار الترك قلب حال العالم ، فبعد أن كان الأتراك أهداء للسليدين وحلفاء صادقين لأوربة ، انقلبوا هقب اسلامهم إلى خصوم لها ألداء ، وقد كرمو كل قوتهم لخدمة الإسلام ، وأنهم دخلوا إلى الإسلام بعد فترة وبسر شديد ، والواقع أن الأتراك أقبلوا على الاسلام بعد خصومة طويلة له ، فلما اعتنقوه — شأنهم في ذلك شأن البربر — انقلبوا إلى حماة له شديدي التمسك به . ولما بزوا في ميادين الجهاد ، وظهرت بوادر انتصاراتهم في حروبهم ضد الإمبراطورية البيزنطية التي وقفت أمام موجة الاسلام المندفعة إلى أوربا سبائئة هام ، هناك علق المسلمون عليهم الآمال وأنجسوا بفلوبهم إليهم ، ووجدوا فيهم المنقذ والحامي ، وكان هذا هو مصدر النجاح السريع الذي حققه العثمانيون في حركة توحيد هالم الإسلام حيث لم تقف في وجههم إلا قوة الفرس التي أقامت دولة ضخمة هي الدولة الصفوية التي حملت لواء الثقافة الشيعية وأخذتها شعاراً لها في نطاق الاسلام السمج المنقبيل لثقافات المختلفة . وكان ظهور القوة العثمانية الموحدة لعالم الاسلام قد برزت بشوقيت متفق مع نوااميس حركة التاريخ الاسلامي في طريقه إلى حتميته ، في خلال معركة الأندلس بين المسلمين والعرب من ناحية وبين القوى الأسبانية والفرنجية التي كانت قد أعدت خطة لإجلاء الاسلام من أوربا . وقد استبسلت القوى العثمانية واجتازت البسفور إلى الضفة الغربية ثم أنبج لها أن تدخل القسطنطينية ١٤٥٧ هـ - ١٤٥٣ م فقصت على الدولة البيزنطية ومضت في طريقها حتى حاصرت أسوار فينا ثلاث مرات وكان فتح القسطنطينية من الأحداث الضخمة القليلة في تاريخ العالم كله ، وفي تقدير أوربا والغرب ، فقد أتاح للقوة الإسلامية العثمانية أن تزحف إلى إرومانيا وبلغاريا واليونان ويوغسلافيا وألبانيا وبلاد الحجر . وبذلك قلبت القوة الاملائية العثمانية ميزان القوى ، بعد أن كان هالم الاسلام في موقف الدفاع وهالم الغرب في موقف الهجوم ، أصبح المكس فقد وقفت أوربا منذ ذلك التاريخ إلى ثلاثة قرون متصلة موقف الدفاع في وجه الهجوم العثماني .

وعندما احتل العثمانيون القسطنطينية (١٤٥٧ هـ) كان ذلك فة الموقف بالنسبة لغرب فقد بدأت حركة إجلاء المسلمين عن الأندلس ولم يمض أكثر من أربعين هاما (١٤٩٨ هـ) حتى سقطت

الأندلس وأنطوت صفحة الإسلام بها ، وبالرغم من تجمع القوى الغربية وتوحيدها في وجه الزحف الإسلامي ، فإن القوة العثمانية الإسلامية ظلت قادرة على كسب النصر ، غير أن أوروبا لم تقف موقف المقاومة في وجه القوة الإسلامية العثمانية ، بل عمدت إلى فتح جبهة أخرى من طريق أسبانيا والبرتغال في الكشف الجغرافي لتطويق عالم الإسلام ، والاتجاه نحو أفريقيا الاستوائية والهند وأندونيسيا ، ومنذ ضعفت مقاومة الأندلس كانت فكرة الغزو الأسباني البرتغالي لعالم الإسلام قد خطت أولى خطواتها ، فلم تمض إلا سنوات قليلة حتى بدأ (فاسكودي جاما) طوافه حول رأس الرجاء الصالح إلى الهند (١٤٩٨ - ١٤٩٩) وذلك لاستقطاب مراكز جديدة تحقق إحكام الحصار الاقتصادي لعالم الإسلام بصرف مجرى التجارة العالمية عن البحر الأبيض وموانئه الإسلامية ولقد كانت أسبانيا والبرتغال أولى دول الكشف الجغرافي بمعنى الاستعمار كردفع على السبيل الإسلامي على الأندلس ، وكقوة دفعها أوروبا لغزو عالم الإسلام الذي ظل يسيطر على أسبانيا ثمائمائة عام وكواصلة لمخطط متصل لم يتوقف بالقضاء على الإسلام والمرب في الأندلس ، بل بالزحف على أرض الإسلام نفسه والسيطرة عليها ، وقد بدأت فعلا في ذلك الوقت حركة التطويق ، غير أن نمو الدولة العثمانية وصمودها آخر ذلك أكثر من ثلاثة قرون .

(٣) سجل عام ٦٥٦ هـ اجتياح التتار لبغداد واسقاط الخلافة كما سجل (عام ٦٩٠ هـ - ١٢٩١ م) نصفي الامارات الصليبية وطرد الصليبيين نهائياً من ساحل الشام وبيت المقدس ، وسجل عام ٦٩٩ ظهور أول خيط في بناء الدولة العثمانية التي أصبحت من بعد قوة إسلامية ضخمة استمرت تحكم ستة قرون حتى صفاها الاستعمار الغربي بالقضاء على آخر الأجزاء العربية التابعة لها (١٣١٦ هـ - ١٩١٨ م) .

في ظل هذا المواقف الحاسمة الثلاث التي سجلها القرن السابع الهجري قبيل نهايته شهدت هذه الفترة رد فعل شديد ، في عالم الغرب ، يتمثل فيما قامت به أوروبا والبابوية من الدعوة إلى تحریم الاتجار مع دولة المماليك بقصد حرمانها من الموارد الاقتصادية الرئيسية لها ، وقد تمخض اتجاه الحصار الاقتصادي عن حملة ملك قبرص لاحتلال الإسكندرية ٧٦٧ هـ - ١٣٦٥ م ثم انسحاب الحملة ، وقد تطور الاتجاه خلال القرن التاسع الهجري إلى مشروعات تخريب اللوائى للمصرية لشل الحركة التجارية ، وانتشار الفرسان على السواحل المصرية والشامية للقربص بسفن التجارة الإسلامية ، وقد واجه المماليك ذلك بفزوات انتقامية على أوكار القراصنة ورووس . هذه هي الحملات الصليبية الجديدة التي كانت تتمثل في مواجهة عالم الإسلام قبيل بروز قوة الدولة العثمانية وتوحيدها العالم

الاسلامى تحت جناحها (ماهدا فارس والمهند) لذلك فإننا حين نقول أن عالم الإسلام لم يلبث أن اندمج في الوحدة الاسلامية العثمانية بمحض إرادته وأن عملية السيطرة العثمانية على العالم العربى لم تكن فتحاً بالمعنى الذى تصوره الكتابات الغربية التى تحمل الحقد على الدولة العثمانية القادرة التى هاجمت عالم المغرب وأوقفت تقدمه وهزوه لعالم الاسلام . فقد كان عالم الإسلام في الساحل الأفرى كله من الشام إلى المغرب يواجه غزواً جديداً في نفس الوقت الذى برزت فيه القوة العثمانية داهية إلى الوحدة الإسلامية الكبرى ، ولذلك فإن التقاء القوى العربية التركية إذ ذاك كانت رداً على التحدى الغربى المتمثل في جولة جديدة لغزو عالم الإسلام ، ومن هنا فإن اندفاعات العثمانيين للسيطرة على أوروبا كانت تواجه من عالم الاسلام كله بالاعجاب والتقدير والتأييد وأن حركة الجهاد المقدس التى حلت الدولة العثمانية لوائها في دفع رايات الإسلام إلى أبعد مدى في قلب أوروبا أدت إلى إذكاء روح الوحدة والنضام بين المسلمين في الشام وعصر المغرب . بدأت الدولة العثمانية ١٢٩٩هـ - ١٣٠٠م وانتهت ١٣٣٩هـ - ١٩١٨م وقد مرت في طورين كبيرين : الطور الأول : « طور القوة » والثانى : « طور الضعف » كان طور القوة مرتبطاً بمفهوم الاسلام أو دأئراً في إطاره من حيث الوحدة والقوة فلما تخلف العثمانيون عن هذا المفهوم وحل الصراع والضعف العسكرية تحولوا من مركز الهجوم والتوسع إلى الدفاع والانتقاض ويرى الكثيرون أن مرحلة الضعف تبدأ بزعيمهم هند أسوار فينا ١٠٩٥هـ - ١٦٨٣م أو ١١٠٩ - ١٦٩٧ . وهى نفس الأهوام التى بدأت فيها أرهاسات اليقظة العربية التى وضعت في منتصف القرن الثانى عشر الهجرى (القرن الثامن عشر الميلادى) وهى المرحلة التى تمثل حركة الانتقاض حتى انتهت في أواخر الحرب العالمية الأولى (١٣٣٩هـ - ١٩١٨م) وبهنا هنا أن تركز على : مرحلة الوحدة الاسلامية العثمانية وأن نعنى بالمرحلة الأولى : مرحلة القوة والتوسع فقد أمنت توسعات العثمانيين في ثلاث اتجاهات : (١) أوروبا (٢) العالم العربى (٣) فارس وقد تحقق لها النصر في الميدان الأوروبى وظل شغلها الشاغل حتى مرحلة الضعف ، وقد بدأت الدولة العثمانية فعمبرت مضيق الدردنيل إلى غاليلوى وشرعت في اكتساح الأقاليم الأوربية التابعة للدولة (الرومىلى) الشرقية ، ومنها بدأ توسعهم في جزيرة البلقان ، وكان انتصارهم في موقعة أنقرة قد مد نفوذهم إلى نهر الطولة . ثم إلى السلاطين غزو أوروبا حتى استنطاع محمد الثانى أن يحقق أكبر نصر في تاريخ الاسلام بالسيطرة على القسطنطينية وبسقوطها في يد عالم الاسلام انتهت الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وامتد التوسع إلى بلاد القريم ، وجزائر الأرخييل وخفق العلم الاسلامى العثمانى على قلعة (أوترانتو) في إيطاليا نفسها . ومضى التوسع إلى بلغراد حتى أصبحت بلاد المجر في يد

العثمانيين وبدأ حصار فيينا ١٥٣٩ ومضت الانتصارات الباهرة متعاقبة، حيث اكتسحت أساطيل القوة الإسلامية العثمانية شواطئ البحر المتوسط (بحر الروم) وجزائره إلى سواحل أسبانيا ونشر رجالها أمثال بربروسة ودراخوت وبيالة « الهيبه » على سواحل أوروبا وشمال أفريقيا واستطاعوا طرد الأسبان من بلاد الجزائر .

وقهر العثمانيون الأسطول البابوي ، وامتدت راياتهم إلى بودابست على نهر الدانوب ، غير أن هذا التوسع الذي ظل ممتدا ومستمرا حتى ١٥٧١ م بدون هزيمة أو توقف ، بدأ يصاب بضربات وهزائم منذ موقعة ليبانتو البحرية ، وليس معنى هذا أن انتصارات العثمانيين قد توقفت ولسكنها أصبحت تتأرجح بين النصر في مراعق والهزيمة في مواقع أخرى ، فقد أضاف العثمانيون إلى نفوذهم أقرطش وجزائري أخرى غير أنهم ارتدو هن فيينا ١٦٨٣ م ، وتحطمت قوام في موقعة (موهكس) فضاحت بلاد المجر من أيديهم ١٦٨٦ م .

٢ - أما للشرق فقد تضاعفت الوحدات العربية في الشام ومصر وكردستان وديار بكر وبلاد العرب ومكة والمدينة . ثم توالى إلى انضمام أجزاء للغرب العربي : تونس والجزائر والمغرب إلى الدولة العثمانية . ٣ - أما بالنسبة لفارس فقد توالى حملات العثمانيين عليها دون أن يحقق نصرا واستطاعت فارس أن تحتفظ بسلطانها وأن تقيم دولة عظيمة هي « الدولة الصفوية » أما الهند الإسلامية فقد نجحت من حملات العثمانيين وأقامت « دولة المغول الكبرى » التي ظلت قائمة حتى أزالها الاستعمار البريطاني للهند ، وقد بهر العثمانيون العالم بالقوة الحربية وبالبطولة العسكرية التي هرفت أسلطينهم : هنان ، واركخان ، مراد الثاني ، بايزيد ، محمد الخامس ، سليم الأول ، سليمان ، وم السلاطين الذين شهدوا مرحلة التوسع والانتصار وقد تمثلت قوتهم العسكرية في التنظيم الرائع الذي أقامه أروخان للجيش والذي أطلق عليه « الانكشارية » وهو نظام عسكري إسلامي له طابع الجهاد الإسلامي متمزجا بالزهادة الإسلامية : هذه القوة التي استطاعت أن تحقق هذه الانتصارات والتي حين تلقت الضربة الجانحة التي وجهها إليه المغول لم تسقط نهائيا ، بل استطاعت أن تسارع إلى تنظيم صفوفها من جديد ، وكان تيمور لنك قد ظهر في جنوب آسيا ، واستمرى انقباء الغرب الذي خشى أن يجتاح أوروبا ، ومن هنا اتجه المخطط الغربي إلى توجيه قواه لضرب الدولة العثمانية خصم أوروبا والغرب ، فإذا نفى عليها أزال نفوذها وإذا قضت عليه خلعت أوروبا منه . ولقد جرت بين تيمور وهام الغرب مفاوضات واسعة في محاولة استغلال قوته العسكرية ضد الإسلام والانتفاع بها من ناحية تجنب خطرهما وتحطيم القوى الإسلامية ، وكانت « جنوه » قد تبادلت مع تيمور المراسلات والشعراء . وحرصته

على تحطيم الدولة العثمانية ، كما أرسل ملك قشتالة (أسبانيا) الشعراء إلى تيمور وبنحريض من أحد الرهبان الدومنيكان الذي كان صديقا لتيمور ومن دعاة المسيحية هناك .

وقد جرت أوربا على في ذلك على نفس المخطط الذي نفذته مع هولا كو حين حرزته على تخريب بغداد خدمة للملكة الصليبية القائمة في قلب العالم الإسلامي إذ ذاك ، وكخطه تحالف بين التنار والصليبيين لمحرم عالم الاسلام ، وأشهد معظم كتب التاريخ أن المراسلات دامت بين الغرب (فرنسا والبابا) وبين خلفاء هولا كو ، فلما نالقي تيمور ، كان الخطر العثماني قد أهدق بأوربا الشرقية وطلوق القسطنطينية ، ومن هنا حرصت أوربا في أن تهرضه على قتال العثمانيين . يؤيد ذلك الكتاب الذي حمله إليه وقتئذ الراهب « فرانسيسفوس » من ملك فرنسا شارل السادس ، ذلك الكتاب الذي كتب تيمور الرد عليه بعد أن قضى على آل عثمان وقد أرسل ملك أسبانيا إذ ذاك يهنيء تيمور في إجهازه على آل عثمان ، وقد كانت مصادمة التنار والعثمانيين ٨٠٤هـ - ١٤٠٢م من الضربات القاتلة التي تلقتها الدولة العثمانية بصمود عجيب ، واستطاعت بعد قليل أن ترتفع بعد جراحها وأن تعيد تكوين جيشها ، وإن تقلت القوة الاسلامية النامية من الموت ، وأن تعود مرة أخرى أشد قدرة على التوسع وأن تستطيع بعد قليل أن تحقق أكبر نصر لها وهو « فتح القسطنطينية » . وقد نجح العثمانيون في بناء هذه القوة العسكرية « الانكشارية » حين أقاموها على أساس نظام الاسلام في القرية العسكرية وفق مفهوم الاسلام ، فصارت ولا مثيل لها في القوة والاقدام ، وقد استمر نظامها مثلا هاليا في الكفاية ثلاثة قرون ثم تغير مع ضعف الدولة .

(٤)

كان العثمانيون قد ورثوا السلاجقة في الأناضول ، وقامت حركتهم على مفهوم الجهاد المقدس ورفع راية الاسلام والدفاع عنها ودفعها إلى الأمام ، وهو نفس المفهوم الذي تبناه السلاجقة والأتابك والأيوبيون والموحدون والمماليك [استمدادا من مفهوم الاسلام نفسه ، وعلى نفس المخطط الذي سار فيه المسلمون في حركة بناء الاسلام وتوسيع عالمه . وكان هذا الأساس السياسي هو الذي دفع القوة الاسلامية العثمانية إلى العمل في عدة ميادين : الأول : « القضاء على الدولة البيزنطية » التي وقفت أمام توسع الاسلام إلى أوربا عن طريق القسطنطينية ستمائة عام . الثاني : « التوسع في أوربا » وقد استطاعت أن تبلغ فيه بعد فتح القسطنطينية رومانيا وبلغاريا واليونان وبوغسلافيا وألبانيا وبلاد الجر وأن تحاصر أسوار فيينا ثلاث مرات .

الثالث : « إقامة وحدة إسلامية » ضمت العالم العربي كله من العراق إلى المغرب إلى الحجاز والسودان . بالإضافة إلى الأناضول حيث قامت الدولة العثمانية . ولم يتخلف عن هذه الوحدة غير الدولة الصفوية في فارس ، والمغولية في الهند وقد رحب العرب بالوحدة الإسلامية العثمانية ، بعد أن ضعفت قوى المماليك والبربر وأصبحوا هدفا لحملات صليبية جديدة ، وقد وجدوا في العثمانيين منتمشا جديداً للإسلام ، وقوة شابة بدوية مقاتلة ، رفعت راية الإسلام عالية خفاقة ، وأحدثت ذكرى الأبطال الأوائل ، في سبيل إهزاز الإسلام ونشره كإحسان العرب في مصر والشام بالوحدة الإسلامية العثمانية ، بعد أن تقموا على دولة المماليك إهمالها شأنهم في المرحلة الأخيرة فحاربوا في صفوفهم . والواقع أنه لم يكن في هذه المرحلة خلاف جذري بين العرب والترك ، فقد كان الطابع الإسلامي هو أساس الوحدة الأساسية بين العناصر المختلفة والوحدات المنضمة تحت لواء الوحدة الإسلامية الكبرى ، والحق أن العثمانيين قد قاموا في المرحلة الأولى بتمثل مفهوم الإسلام في نطاق الحكم وتحرروا من خلال إطاره . ويشهد المؤرخون بأن العثمانيين قد اقتنوا أثر الخلفاء في العدل والتسامح وتمثلوا أعمالهم واتخذوهم قدوة ، وعملوا على جمع القلوب إليهم بتقدير العلماء والأتقياء وإنشاء الجوامع والمدارس وكان هذان مثلاً على ذلك فقد أطعم الفقراء بيديه وأكرم العلماء والأتقياء وظلت مفاهيم القرآن بوصفه الكتاب الكريم ، أساس السنة والتشريع الإسلامي هو طابع الحكم والحضارة والفكر فضلاً عن احترام الترك للعرب وتقديرهم للغة العربية ، وإعلاهم للطابع العربي الشامل الذي هو طابع الإسلام نفسه . لغة وتقاليداً وقيماً ، وكانت جامعة الإسلام بطبيعتها تمتص الكثير من خلاصات العناصر والأمم والأخطار على النحو الذي حققه الإسلام في تاريخه كله وبالنسبة للفرس والترك والبربر كانت وحدة الثقافة وتقاربها في ظل مفهوم « السنة » والوسائط التي جمعت بين السنة والنصوف وكانت تمزج بينهما عاملاً أساسياً في الالتقاء السياسي والاجتماعي ، كما حرص الحكماء الأتراك على تقدير العرب ، وتأكيد معنى الرابطة الإسلامية « وقد توطد ذلك بطول المدة فعاش أهل البلاد في جو الفكرة الإسلامية » وذلك خلال مرحلة القوة التي توارثها . وقد حرص العثمانيون بوصفهم أصحاب القيادة السياسية للوحدة الإسلامية على متابعة الخط الذي سارت فيه الخلافة الأموية والعباسية ، وفق التقاليد والمخططات التي رسمها الخلفاء وفي نطاق دراسات فقهاء السنة . ومهما قيل في أمر تنازل آخر الخلفاء العباسيين عن الخلافة ، وهو أمر شكلي محض ، فإن نظام الخلافة قد أصبح ضرورة سياسية لا محيص عنها بالنسبة للعثمانيين ، كما كان ضرورياً من قبل للمماليك بحسبان أنه يعطي القوة الروحية المرتبطة في نظام الإسلام بالقوة السياسية ، وقد قام منصب « شيخ الإسلام »

في الدولة العثمانية كرمز على تطبيق الشريعة الإسلامية . وكان نظاماً مقدوراً من الخلفاء الذين لم يكونوا يتصرفون في أمر من الأمور الدينية أو المدنية إلا بعد صدور فتوى للرجح الأكبر للشريعة الإسلامية ، وكان المفكرون للمسلمون والفقهاء قد صاغوا نظام الخلافة وفق حاجة المسلمين وتطور التاريخ الإسلامي ، وفي نطاق مفهوم أساسي للاجتهاد في الاسلام هو المحافظة على وحدة المسلمين ، وحماية عالم الاسلام من التفكك . وبذلك حلت السلطنة محل الخلافة في مختلف أمهاتها والتزاماتها ، وقد صاغ هذه النظرية العلامة (الدواني) ووصل ابن خلدون إلى نفس النتيجة . وكانت هند كلاله العالمين تطبيقاً لنظرية الفزالي التي كانت ترمي إلى توحيد المجتمع السني تحت لواء إمام أو خليفة أو سلطان ، أو حاكم يقود الناس إلى السكال ويحقق لهم نظاماً صالحاً .

(٥)

وقد حرصت القيادة السياسية الإسلامية في هذه الفترة على رعاية الأديان المختلفة وأولياها على النحو الذي رسمه مفهوم الاسلام ، وقامت للعلاقة بين الدولة والعناصر غير المسلمة على تسامح كامل وإن لم تعدى تساكن المسلمين وغيرهم وتزاوجهم ، وقد أعطت الدولة الحرية الدينية التامة لكل العناصر وخولتهم حقوقهم من ناحية العبادة والتعليم ، وإن ظلت هذه العناصر على عدااء للوحدة الإسلامية العثمانية ، بالرغم من هذا التسامح الذي كان فيها بعد عاملاً من عوامل التجميع للتآمر ضد الدولة وعناصر من عناصر هدمها . وقد سجل ذلك كثير من المؤرخين للنصفين ، ومن بينهم المؤرخين لا فبس ورامبو (من مؤرخي فرنسا) قالوا : أن محمداً فاتح القسطنطينية كان كآ كثر سلاطين الأتراك والفلول بعيداً عن كل اضطهاد ديني ، وكانت حكومة الأتراك لا تعاوض أحداً في دينه وكان الأتراك لا يسمون امتيازات الكنيسة الأرثوذكسية « بل إن البعض ذهب إلى أبعد من ذلك فرأى أن هذه الحرية الدينية كانت من بعد مصدر ضعف الدولة العثمانية ، يقول دجوفارا : أن من أعظم أسباب انحلال الدولة العثمانية هو مشربها في إعطاء الحرية للذهبية وللدرسية النابتين للأمم المسيحية التي كانت خاضعة لها ، لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحريتين كانت نبث دهايتها القومية ، ونهايك وتسير سيراً قاصداً في طريق الانفصال عن السلطنة العثمانية » .

وقد أشار العلامة جميل بيهم في كتابه « فلسفة التاريخ العثماني » إلى أنه لما استتب الأمر لآل عثمان عادوا إلى سياسة الخلفاء الراشدين في الفقه والحكم ، وكان يخيرون انصهر بين الاسلام والجزية

والحرب ، وأن السلطان محمد الخامس قلده بطريق الروم « الرئاسة على قومه وثبته فيها ، وأن هذا العدل لم يكن قاصراً على الدين يرضون بدفع الجزية طوعاً ، وإنما كانت شاملة للأمصاير المفتوحة قسراً وأن محمد الخامس حين دخل القسطنطينية (٢٩ مارس ١٤٥٣) أعلن حرية الدين لغير المسلمين والاحتفاظ بأموالهم وأموالهم ، وقال العلامة بهم معلقاً : أنه جرى في ذلك مجرى عمر بن الخطاب في معاملة البطريرك (صفر بنوس) في بيت المقدس ، وفي أيا صوفيا احتفظ الروم بكنائسهم كافة وبحرية دينهم واستقلالهم . وكانو ينعمون بالسيادة والحرية ويتركون لأهل البلاد أمراً بما فيه استقلالها السياسي ، وعندما اهتدوا على محمد الفاتح لعدم تخييره رهينة من النصارى بين الاسلام والقتل ، قال : كم هو فوق الواجب الادعاء بالحرص على الاسلام زيادة على حضرة الشارع (يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم) وكذلك فعل أورخان في البلاد التي ضمنها فقد حافظ على سلامة أهلها وخديرم بين البقاء والهجرة ولهم أموالهم كافة .

وكان العثمانيون قد مدوا سلطاتهم باسم الاسلام إلى قلب أوروبا ، وحقق ذلك دخول عدد كبير في الاسلام ولا سيما في آسيا الصغرى ، وأن سياسة العثمانيين إزاء هذه العناصر كانت من العوامل للشجوة لهم على دخول الاسلام ، بالرغم من هذا فإن الدولة العثمانية قد قصرت تقصيراً لا حده في الدهوة الاسلامية بين العناصر التي ضمنها الدولة خلال سبعمائة عام ، وأنها لو فعلت لتزكت في أوروبا قوة اسلامية فاعلة . إذ فقد درج آل عثمان على التمسك بالشريعة الاسلامية منذ اليوم الأول ، وكرموا مفكرها وقتها ، وقد سجل هذا منصف كتاب الغرب يقول « دوش » سواء للسلم أو الحرب أو لنظام سياسي أم قانون عسكري كانت تركيا تلجأ إلى شيخ الاسلام طالبة فتواء ، ويقول جونين وفوتخيفر صاحب كتاب تاريخ العالم :

كان كل شيء في المملكة تحت نفوذ مفتى الاسلام لأنه نائب السلطان المطلق في الأمور الشرعية وللدنية سواء . وقد أشار كثير من المؤرخين إلى مدى عمق تأثير الاسلام في نظام الأبراطورية العثمانية من حيث مفعوله بواسطة قيام سياسة الدولة على أحكامه ، ومن حيث مفعوله في أخلاق السلاطين .

(٢٨)

القوى الإسلامية الثلاث

قامت في هذه المرحلة ثلاث وحدات إسلامية : (١) الأبراطورية العثمانية ونظم بلاداً ناضول والعالم العربي . (٢) الدولة الصفوية في فارس . (٣) الدولة المغولية في الهند . وقد حاولت « الدولة العثمانية » السيطرة على فارس وضمها إلى نطاق الوحدة الإسلامية العثمانية غير أنها فشلت، واستطاعت فارس في ظل « الدولة الصفوية » أن تقاوم العثمانيين وأن تقيم دولة قومية على أصل من الثقافة الشيعية الإسلامية ، بينما كانت الدولة العثمانية تنحصر الثقافة السنية ، وقد كانت حواجز الثقافة الإسلامية العربية تحت سلطاتها ومن بينها المدن المقدسة الثلاث : مكة والمدينة وبيت المقدس .

أما « الدولة للمغولية » في الهند فقد ظلت بعيدة عن صراع العثمانيين والفارس . ويمكن القول بأن الحركة الصفوية كانت هي بذرة الدولتين العثمانية والصفوية . وأن هذين الدولتين هما من ثمرة الثقافة الصفوية الإسلامية ونجماتها ، وأن هذه التجمعات ذات الطابع الصوفي كان تحمل طابع الجهاد لنشر الإسلام ، كان لها أثرها من قبل في بناء دولتي للرايبطين وللوحدين في المغرب ، وقد كانت هذه الحركات قد بدأت دعوة الإسلام ثم تحولت إلى دولة وقوة سياسية وعسكرية ، وكانت « فارس » قد سقطت تحت نفوذ المغول ثم استطاعت أن تتحرر من هذا النفوذ في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، وهنا ظهرت دعوة صفى الدين أحمد شيوخ أردبيل ، حاملاً لواء الدعوة إلى الثقافة الشيعية فلقبت دهوة قبولاً ، ونجمت مع القبائل ، وقد اتصل صفى الدين ياوزون حسن شيخ قبيلة ألاق فيون لو ، إنصلاً انتهى بامتزاج الدهوة الشيعية بالقوة العسكرية ، وقد ترك صفى الدين أساساً قوياً مكن إبنه « الشاه إسماعيل » من إقامة دولة عظيمة ضم إليها بغداد وديار بكر والوصل وامتدت من باكو شمالاً إلى شتر جنوباً ، ثم بلغت نهضة الدولة الصفوية الفارسية الإسلامية أوجها في عهد عباس الأكبر (٩٨٥ — ١٠٣٨ هـ ١٥٨٧ — ١٦٢٩ م) وفي هذه المرحلة استطاع الصفويون الانتصار على العثمانيين ، يقول (بركلان) أن نهضة فارس قد مكنتها من استرداد شخصيتها مستقلة عن العالم الإسلامي ، وأصبح لها جيشاً قوياً منظماً بالأساليب الأوروبية في القرن الحادى عشر .

وقد وصف الشاه عباس الأكبر امپراطوريته حتى شملت فارس كلها ، وقد قام بدور واضح في المقاومة الإسلامية للنفوذ الغربي حين حارب البرتغاليين واستولى منهم على هرمز ، وكذلك قامت الدولة للغولية في شبه القارة الهندية في القرن العاشر الهجري فوسلت بالحكم الإسلامي في هذه البلاد إلى أرقى صورته ، وبلغ نفوذ الإسلام أوسع مداه ، وذاعت الوحدة الإسلامية إلى أقصى درجات القبول واستطاعت — بنشر الإسلام في ربوع الهند — أن تحول ملايين عدة من أهل الهند عن معتقداتهم القديمة إلى الإسلام ، وهن فنونهم ولغاتهم ورسومهم إلى فنون المسلمين ولغاتهم ورسومهم ، وقد عاصرت المغولية الصفوية في فارس والمغانية في آسيا الصغرى والعالم العربي ويمثل قادة الدولة للمغولية خلفاء النثر وللغول بعد أن صهرتهم بوثقة الإسلام وتحولوا إليه ، وتحولوا من دعاة هدمه إلى دعاة نصره وإذاعته والدفاع عنه . وقد عرفت الدولة للمغولية الإسلامية برعاية العلم والعلوم رعاية صادقة وأقامت ماشنات الثقافة وللندية ، وازدهرت على أيديهم الحضارة الإسلامية في الهند وخراسان وفي كثير من للدائن التي ضربها أجدادهم من قبل (بار توله : تاريخ الحضارة) وقد كان ولاية الدولة للمغولية يمثلون الإسلام في معاملاتهم مع غير المسلمين ، فقد أطلقوا حرية العبادة لأهل البلاد من الهندوك وتحو لهم أبواب المناصب ، ما كان له أثره الواضح البعيد المدى في إعتناق عدد كبير منهم للإسلام بوصفه رسالة للساواة بين معتقيه ، فسحلوا فيه أفواجا ، كما كان لهم دورهم في رعاية الثقافة الهندية وتطورها ، وقد بدأ للإسلام أثر واضح فيما حيث نشأ مزيج إسلامي هندي بلغ بالحضارة الإسلامية أرقى صورها ، وكان للإسلام أثره الواضح في مفكرى الهندوكية ومصلحيهم الذين نادوا بمذاهب جديدة خففت من قيود نظام الطبقات وأنكرت عبادة الأوثان ودهت إلى عبادة الإله الواحد (نامديو كبير ونانك) وقد أقام الدولة المغولية الإسلامية ظهير الدين محمد بابر حفيد تيمورلنك وجنكيز خان في أول الربع الثاني من القرن العاشر الهجري كما ٩٢٥ هـ وظلت تحكم البلاد أكثر من ثلاثة قرون حتى انتزع الاستعمار البريطاني نفوذها . وكان من أبرز مظاهر الالتقاء بين الثقافة الهندية والإسلام وأداها ظهور « اللغة الأردية » أوسع لغات شبه القارة الهندية والتي أخذت أغلب ألفاظها من اللغة العربية ، ومزجتها بالألفاظ الفارسية والهندية الأصلية . وكانت الأردية لسان الزعماء المسلمين . وقد أشار الندوى إلى أن أثر الإسلام في الهند كان بالغا ، فانه فضلا عن اجتذابه الملايين من أهلها بسماحته وقوله بالساواة بين الناس جميعا لم يلبث أن دفع طائفة من المصلحين الهنالك إلى الدعوة لأفكاره في التوحيد وإنكار نظام الطبقات وزواج الأطفال .

(٢٩)

الإسلام والأندلس

يمكن تعريف تاريخ الإسلام في أسبانيا في ثمان حلقات : * عصر الولاة : ٩٢ — ٨١٣٨ .
* العصر الأموي ٦٣٨ — ٤٢٢ . نظام الطوائف ٤٢٢ — ٤٨٤ . * عصر الموحدين ٤٨٤ — ٦٤٠ .
* الحروب الصليبية بالأندلس ٦٢٥ — ٨٩٨ . وسقوط غرناطة * عصر العرب الأخير : مرحلة الاضطهاد
والقتل (٨٩٩ — ١٠١٧) . * ترحيل المسلمين نهائياً عن الأندلس (١٠١٨) .

(١)

المقاومة والمعارك مع الفرنجة

خلال عصر الدولة الأموية بالأندلس

حين سيطر المسلمون على الأندلس، غفلوا عن منطقة جبلية كانت من بعد مصدر الخطر والمقاومة، هي منطقة « قنطرية » على مقربة من حدود فرنسا، وكانت جبلية وهرية، استهان بها المسلمون، واعتز بها الفرنجة وآزروها، حتى قامت بها حكومة في (استوربارس) التي استهدفت إهانة أسبانيا إلى الغرب وذلك بمواصلة الحملات المتوالية على الدولة الإسلامية العربية، ولم تلبث هذه القوة إن استمادت ليون (٨١٠٠) بينما المسلمون يجتازون جبال البرانس إلى فرنسا، ثم استعجل شأن الأسنوريين وأمدم الافرنج بالعتاد والامدادات حتى استطاعوا أن يسيطروا على جبلية وقشتاله واستغلوا تفازع العرب، فلما انحلت الدولة الأموية إلى الولايات، قام عليها ملوك الطوائف ازداد شعورهم بالقوة فقامت دول : نواره، ليون، قشتاله، قطلونيه، أرغون، البرتغال، واحتاطت هذه الدول بالأندلس العربية الإسلامية على هيئة هلال وقد حددت هذه الحركة الدولة الإسلامية فبدأت معركة المقاومة والادالة، واستمرت فترات طويلة، بل أنها لم تتوقف في الأغلب، قد أمضى عبدالرحمن الناصر سنوات حكمه في الغزو والمقاومة، وواصل أبو هاجر المنصور حركة المقاومة والادلة من الفرنجة في خلال فترة حكم (٩٧ هـ) فانصر عليهم في خمسين موقعة وقضى حياته شهيداً.

وقد استمر هشام بن الحكم الثاني (٣٦٥ - ٤٠١ هـ) حكمه على تيمنة خلال اثنين وعشرين عاماً في مواجهة ممالك ليون ونواره وقشتالة وقطالونية: هير أن الفرنجة أستطاعوا أن يجتاحوا ثلث الأندلس حين أنهارت الدولة الأموية، وكانت الإمارات الأربع للملك الطوائف: بنو زيري (غرناطة) بنو هامر (بلنسية) وبنو هيساد (أشبيلية) بنو دور (مرقسطة) وقد تنازع الأمراء فيما بينهم تنازهاً شديداً واستعان كل منهم بالأسبان الفرنجة على خصومه، وبرزت للفرنجة مملكة كانت نواة حركة استرداد الأندلس: هي «قشتالة» ٣٥٠ - ٩٦١ م ثم تلاقت مع دولة ليون في اتحاد عام ٤٢٩ هـ، فانظمتا تحتلان مملكة ضخمة، لم تلبث أن حملت لواء المقاومة والأدالة من المسلمين إلى أن تولى الفونس السادس ملك قشتالة قاتلهم طليطلة ٤٧٨ م واتخذها قاعدة لدولة وبدأ تهديد هنيئاً لأمراء المسلمين، دفع المعتمد بن عباد إلى مناداة (المرابطين) في مراكش، وكان يوسف بن تاشفين ٤٥٣ - ٥٠٠ هـ قد جاء على رأس موجة جديدة جددت شباب الإسلام هي موجة البربر في أفريقيا فسيطر على المغرب الأقصى والأوسط وبنى مدينة سبتة مراكش، وقد استجاب النداء فعبّر إلى الأندلس وهزم الفرنجة في موقعة حاسمة هي «الزلاقة» ثم لما حادو الفرنجة الهجوم على مواقع المسلمين في الأندلس من بعد، هير مرة أخرى عام ٣٥٧ هـ واندمجت دولة المغرب والأندلس في وحدة بقيادته لمقاومة غزو الفرنجة المتدارك. ثم لم يلبث (الموحدون) وهم موجة أخرى من البربر أن حلت محل الموحدين، وكان لهم دور ضخم في مقاومة الزحف الفرنجة على مملكة الأندلس، فقد ألقوا الزحف في أوربا فتناحلت للجميع، لمقاومة الموحدين وللقضاء على الأندلس المسلمة العربية، وكان أبرز قادتهم يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٧ - ٥٨٠) ويعقوب المنصور (٥٨٠ - ٥٩٥). وقد استطاع المنصور أن يقتحم طليطلة عاصمة ألفونس التاسع ملك قشتالة، وأن يبعدها إلى الإسلام، وكانت الحروب الصليبية إلى الشرق قد آذنت بالفتيل، ومن هنا ركزت أوربا كلها على تحرير القارة من الإسلام والعرب والمسلمين، ومن ثم بدأت مرحلة من مراحل الحروب الصليبية في الأندلس، هنيئة عاصفة، وحملت لواء الدعوة إلى إخراج «المراقطة» أي المسلمين من أوربا، وقد واجه المسلمون هذه الحركة بصلابة وإصرار، وواصلوا الاشتباك مع الفرنجة في معارك فأدوا منهم، غير أن المرقف كان في صف القوى المتجمعة على أرضها والتي ازدادت استقراراً وقسوة على مقاومة إمارات بدأ عليها الضعف والتزق والخلاف، حتى انهزم المسلمون في موقعة العقاب (طولوز) عام ٦٠٩ هـ - ١٢١٢ م ولم يلبث بنو مرين (١٢٧٤ هـ) وهم موجة من موجات البربر - الذين نصرروا الإسلام - أن سيطروا على المغرب وجزوا إلى الأندلس

واشتبكوا مع الفرنجة في معارك عدة غير أن الصراع لم يلبث أن وقع بين الأمراء بعضهم البعض ، وبين أمراء الأندلس والذين هربوا إليهم من المغرب ، واعتقد — بنو الأحمر آخر أمراء المسلمين في الأندلس على خصومهم في الانتصار على أشقائهم وجيرانهم ، ولم يلبث الفرنجة أن استولوا على هذه الامارات واحدة بعد أخرى (قرطبة ٦٤٥ مرسية ٦٩٥ هـ) ثم جاءت أقصى مراحل القضاء على العرب والإسلام في الأندلس ، وفي أوروبا ، عندما تضافت مملكتنا فرديناند وإيزابيلا ٨٨٤ هـ حيث لم تلبث غرناطة بعدها بضعة عشر عاماً حتى أسلمت آخر أنفاسها وانطوت صفحة الاسلام والعروبة في أسبانيا .

وهذا إجمال له تفصيل : فنجد ضمت قوى « الموحدين » أخدت قوى الأسبان والفرنجة في إثارة الاضطرابات ، وكانت مملكتي قشتالة وأرغونة نهملان لواء المؤامرة وتؤلبان على مملكة الاسلام المنقسم إذ ذاك إلى ولايات تنصارع ، وأخذت « حركة الاسترجاع » التي بدأت منذ عصر ملوك الطوائف تقوى ، وزادها قوة اضمحلال الموحدين ، والذين كانوا بمثابة الموجة التالية بعد المرابطين في إيقاظ الأندلس من الخطر المحتوم ، ولم تلبث إمارة بلنسية ٦٣٦ هـ أن سقطت في أيديهم واتجه أهلها من المسلمين إلى غرناطة جنوب الأندلس ، واستسلمت عاصمة بني أمية « قرطبة » عام ٦٢٣ هـ ٢٣٦ م وانتهجت قوى الغزاة إلى أشبيلية ، وتوحد ملوك أسبانيا ضد المسلمين وأبدى المسلمون بسالة لاحد لها في كل مختلف عمليات الاسترجاع فلم ينصرفوا عن موقع إلا بعد أن استنفذوا كل ما يملكون من قوى بشرية وحربية ولم يسلم المسلمون موقفاً واحداً إلى الأسبانيين بدون قتال وقد حاصرت الجيوش الأسبانية مدينة أشبيلية وأمتد الحصار ثمانية عشر شهراً ، أبدى فيها المسلمون ضروباً من الصبر والشجاعة دون مدد أو مساعدة فلم تستسلم قواتهم ٨٦٤ ١٢٤٨ إلا بعد أن استنفذت كل قواها ولم تبق إلا مملكة غرناطة تحت إمارة بني الأحمر ، وهي رقعة ساحلية ضيقة بالجنوب الشرقي لشبه جزيرة أيبيريا محصورة بين الوادي الكبير والبحر الأبيض ، وقد تجمع المسلمون فيها بعد أن أنزعت منهم إماراتهم ، واستمرت قائمة قرابين ونصف قرن (٦٣٥ — ٨٩٧) ولم تلبث ممالك أسبانيا الثلاثة أن اتحدت على مواجهة « مملكة غرناطة » وهرب سلطان بني مرين إلى الأندلس بجيوش عظيمة عام ٧٧١ هـ اشتبكوا في معركة (طريف) مع الفرنجة وانتهت بهزيمتها ، ولم تلبث غرناطة أن واجهت الخطر الأسباني بمفردها ، وعمل الأسبانيون على إثارة الخلافات والفتن والدسائس بين بني الأحمر ، ولم تلبث مملكة قشتالة أن استولت على جبل طارق ٨٦٨ ١٤٦٢ م بعد أن توقفت المنجذبات الواردة من المغرب الأقصى وبلغ الخلاف الداخلي أوجه في غرناطة حيث

اقتسمها الأخوين ، فأصبحنا مملكتين : غرناطة ومالقة ، وقع ذلك في نفس الوقت الذي إهدت فيه قشتالة وأرغونة ١٤٧٩ م ، ثم توالى الخلافات والمؤامرات وتوالى الصراع بين الأسرة الحاكمة ، وبين زوجات السلطان وأبنائه ، حتى سيطر الأسبان على مالقة . وقد حوصرت أسبانيا حصاراً عنيفاً وثبت أهلها للحصار حتى أكلوا الجلود وورق الشجر ، ولما علم حكام الأسبان أن سلطان المماليك وسلطان المماليك بمصر هزما على نجدة الأندلس بادروا إلى احتلال الموانئ الأندلسية وأحدها مالقة حتى يحولوا دون وصول أى مدد إلى الأندلس . ولما طلب حكام أسبانيا إلى غرناطة التسليم ، عمدوا إلى آخر مافي استطاعتهم من قدرة على المقاومة ، ووجد الأسبانيون مقاومة جبارة ، هي مقاومة الفناء من المسلمين المحصورين في دائرة ضيقة ، وكان الأسبانيون قد أحكوا الحصار على الغرناطيين وصمد المسلمون وصبروا على طول الحصار ، وكان موسى بن أبى القاسم أبرز من حل لواء المقاومة وقد امتنع عن الخضوع والاستسلام ولم يمت شهيداً إلا بعد قتل مئات القشتاليين ، وصبر المسلمون على طول الحصار ونفاذ الزخيرة وتفشى الجوع والمرض ، ولم تسلم غرناطة في ٨٩٧ (٣ ربيع الأول) ١٤٩٢ م إلا بعد أن أهدرت إلى الله بالمقاومة . وتقدم فرديناند وإيزابيلا إلى غرناطة ودخلتها الجيوش الأسبانية في مظهر رهيب وبذلك أقرض آخر مظاهر الاسلام والعروبة من الأندلس (٩٢ - ٧٩٧) بعد ثمانية قرون .

لقد سقطت الأندلس بعد أن نخلت عنها الدول الاسلامية القوية ، كالمغربيين والمماليك ، وكان حكام الأسبان قد أحكوا الحصار البحري عليها حتى لا تنسرب إليها أى معونة أو مدد من عالم الاسلام وتعهد الأسبانيون في « وثيقة تسليم » غرناطة باحترام أمر المسلمين في دينهم وأموالهم وحرثهم والسباح بالهجرة لمن أراد الخروج منهم إلى ديار الاسلام ، غير أن الأسبان لم يصدقوا في عهدهم ولم يلبثوا أن اضطهدوا المسلمين رجاء تصفيتهم والتخلص منهم نهائياً . واستطاع الكردينال كيمناس أن يحمل حكام أسبانيا على نقض شروط الأمان التي منحت للمسلمين ، وبدأت دهوة جاثمة إلى تنصير المسلمين ، وفي عام ٩٠٥ هـ - ١٤٩٩ م - صدر قانون تنصير المسلمين جبراً ونهزم إقامة شعائرهم الدينية وأخلاق المساجد ، وأحرق الكردينال كيمناس كتب التراث الاسلامي في غرناطة فاشتملت النار في مئات الألوف منها . وزادت الحملة عنفاً على المسلمين . ففي ٩٠٧ هـ - ١٥٠٩ م منع المسلمون من البقاء في أسبانيا ، وثار المسلمون في جبال البشيرات فقاومهم الأسبان في وصدر قانون بإكراه المسلمين (للوريسكو) على ترك ألبستهم الخاصة واتخاذ الزي الأسباني ومنعوا من الاغتسال ودخول الحمامات والتكلم بالعربية (٩٥٦ - ١٥٥٥ م) وحولت للمساجد إلى كنائس

واندلمت الثورة مرة أخرى في جبال البشرات ٨٩٨٦ — ١٥٦٨ م بقيادة محمد بن أمية ، الذي استطاع أن يضم إليه مختلف قوى البشرات ، وقاوم المسلمون مقاومة فناء وهم يعلمون أن أمر القضاء عليهم وسحقهم لا شك أنه يسير على القوى الأسبانية ، ولكنهم لم يتخلفوا عن المقاومة ، واستشهد ابن أمية وتولى بعده (عبد الله) .

وفار المسلمون في بلنسية وانتفضوا ، ولكن القوى الإسبانية استعصمت أن تقيم ثورتهم ، وفي عام ١٠١٧ هـ وضعت نهاية المسلمين (للوريكو) في أسبانيا حيث تقرر نفهم وإجلائهم نهائياً وحشدت لهم السفن فذهب بعضهم إلى فرنسا وإيطاليا وإلى الهند وإلى مصر والأسنانة ، وذهبت الأغلبية الساحقة إلى المغرب العربي وتونس — ويقرر الطاهر بن عاشور أن عدد المخرجين بلغ (٣٠٠ ألف) ويردد قول بعض المؤرخين بأنه ربما بلغ نحو المليون ، سافر منهم إلى فاس وتطوان وسلا والرباط وتلمسان ووهران وتونس (١٣٠ ألفاً) . ومات منهم في الطريق ما يقرب من تسعين ألفاً من الجوع والتعب ، وخرج منهم إلى فرنسا مائة ألف فاشترط عليهم الافرنج أن يتدينوا بالديانة الكاثوليكية فرفضوا فردوا من حيث آتوا ، فاحتاروا في أمرهم وقصدوا المراسى الفراسية للسفر فمات منهم كثير في فرنسا ونجا قليل . وقد تسلط أهراق البوادي على كثير ممن خرجوا إلى فاس وتلمسان في الطرقات ونهبهم ولم يسلم من ذلك إلا الذين خرجوا إلى تونس .

ولا شك تكشف هذه الصفحة للأولة عن الصمود الذي عرف به المسلمون في إبان الأزمات والأحداث الكبرى مع القدرة على التضحية والاستشهاد ، ذلك أن المسلمين لم يسلموا في أي جزء من أجزاء وطنهم إلا بعد أن بذلوا آخر ما في مقدورهم من قوة على التضحية والاستشهاد ، كما تكشف عن أفسى صور الظلم والظفر التي واجهتهم . ولكن هل توقف المسلمون المخرجون من الأندلس وهل انتهى أمرهم ، «الحق أن لا» ، فإن هؤلاء المخرجين عاشوا وعاش أبناءهم من بعدهم في مقاومة منصلة للفرنجية ، فقد عمدوا إلى الانتقام من الفرنجية الذين حاولوا السيطرة على موانئ المغرب العربي ومراسيه .

ذلك أن الأسبان والبرتغال حين طردوا المسلمين من الأندلس ، لم يكونوا ليفقوا عند هذا الحد ، بل كانت خطتهم إقتحام سواحل المغرب والانتقام من المسلمين الذين ظاهروا الأندلس ، في مخطط طويل لتطويق العالم الاسلامي والسيطرة عليه . ومن هنا بدأ الأسبان والبرتغال في إقتحام السواحل الأفريقية كرحلة مجددة من مراحل الحروب الصليبية التي شنها عالم الغرب على

الإسلام ، لقد فشل الصليبيون بالشرق ، وسيطر الصليبيون على القسطنطينية وأخذوا يهددون أوروبا الغربية والوسطى ، كان كل هذا بالإضافة إلى السيادة البحرية في مشرق حوض البحر الأبيض بمادفع الغرب إلى التركيز على مغرب حوض البحر الأبيض ، فاندفع الأسبان والبرتغال بفزوني شواطئ المغرب والقارة الأفريقية ، وكان هنري الملاح قد أهد خطه مع ملك البرتغال للاتصال بملك الحبشة المسيحي لتعاقد والتحالف ضد المسلمين .

وفي هذا المجال كان عمل المهاجرين الأندلسيين بأسلافهم الذين قاوموا غارات السفن الأسبانية ضد السواحل للبرية ، والانتقام من الأسبانيين الذين أخرجوهم من ديارهم ، وقد حملت هذه الغارات طابع الجهاد ، وشارك فيها سكان السواحل الأفريقية ، وقد بدأت على هيئة إغارات متصلة على السفن الأسبانية كانوا يهودون منها بالفنائم والأمري ، ومن ثم تكونت هذه القوة للرابطة في الثغور التي تحمل لواء الجهاد والانتقام من الأسبان وتكون تحت قيادة هؤلاء المجاهدين أسطول جديد ، وبرزت أسماء عروج وخير الدين واستطاع خير الدين أن ينفذ ٧٠٠ ألف مسلم أندلسي وقطعت هذه الحركة على البرتغال والأسبان محاولة الاستقرار بسواحل المغرب العربي واحتلالها ، واستطاع الإخوان عروج وخير الدين (٨٩٩ — ٩٣٢) الاستيلاء على السواحل الجزائرية واستخلاصها من الأسبان : وإذا كان سقوط الأندلس في أيدي الفرنجة بعد ثمانمائة عام من إسلامها وهروبها قد هز المشركين والأدباء وبعض اللورخين ، فإن النظرة العلمية وفق نوايس التطور وحركات المد والجزر في التاريخ كانت تكشف جميعها عن قلق واضح في هذا الجزء من عالم الإسلام منذ اليوم الأول ما دام التوسع الإسلامي قد توقف عندها ، فإن أوروبا المسيحية بكل مفاهيمها وقيمها وطبيعتها قد ظلت طوال هذه القرون الثمانية تقاوم ولا تستسلم أبداً لفزو الإسلام لها سواء من القسطنطينية أو من الأندلس ، وأنها طالوت بقاء هذه الدولة بالمؤامرات والفن والمقاومة ولم تبدأ حتى ضعف المسلمون وتمزقوا ، وانقسموا على أنفسهم : وإذا كانت الأندلس مرت بكل ما تمر به كل الدول من علامات التكون والقوة والضعف والانهيار بالرغم مما حملت في أعماقها من حضارة باهرة زاهرة ، فإنها كانت في الواقع أشبه بالمحصنة أو المعزقة من عالم الإسلام بحكم وقوعها في أوروبا وكان العدو أقرب إليها من أهلها في الغرب ، وكأنما كانت مملكة إسلامية منفصلة ، لها طابع واضح يجري في إطار طابع الإسلام ولكن يختلف عنه بحكم البيئة الأوروبية والجوار والعقليات والتحديات المختلفة . ولما كان الأندلس كانت من ناحية أخرى هي أذكي نمرات الحضارة العربية الإسلامية التي تكونت ونجمت في قلب أوروبا إيماناً بالدور الذي سيقوم به الغرب في تلفظ هذه الحضارة وتثبيتها ، وإذا كانت الحروب الصليبية

واتصال الغرب بالشرق قد قرب مرحلة النقل والترجمة وبقى القيمة الحضارية العربية الإسلامية ، فإن قوة التاريخ في تحركه وتطوره ، قد نقلت مركز الثقل في الحضارة الإسلامية إلى قلب أوروبا نفسها مثلاً في « قرطبة » بوصفها البيئة المعدة والمنتبها لحل أمانة الحضارة في هذه المرحلة بحسبان أن النمو والتطور الحضارى لن يتوقف إذا ضمت أمة من حل أمانته وتنميته . ولقد استطاعت أوروبا فعلاً أن ترفض الاسلام وأن تهمل العرب عن أرضها ومن مداخلها الشرقية والغربية ولكنها عجزت عن أن ترفض « فكر الاسلام » وهقلية العرب ، وأن تبدأ من حيث توقف المسلمون ، وإن صاقت ذلك على نحو آخر محاولة أن تقضى إغضاء الناكر الجميل بالدور الاسلامى في الحضارة هنا وقد كانت عوامل سقوط الأندلس هي نفسها امتداداً لعوامل توقف الاسلام من التوسع في أوروبا ، نتيجة ضعف روح الجهاد والايان بالعمل في سبيل نشر الاسلام وتبليغه وحمله إلى أفق العالم على النحو الذى فعل الرواد الأولون ، بالإضافة إلى طابع الترف والهدنة والحضارة والاستقرار ، ثم غلبه عنصر التفرق والخلاف والقصور عن القوة واليقظة ، بينما أحرز المسلمون كل القوة الإيجابية للحضارة الإسلامية وفكرها فأمجد وتسليح وآمن بحقه في استعادة أرضه ونشر دينه . ويمكن القول إجمالاً أنه لولا الموجتين البربريتين اللتين جازتا إلى الأندلس فأمدته الواحدة بعد الأخرى بقوة البقاء لا تقضى أجل دولة الأندلس قبل ذلك بكثير . ولقد كانت هذه القوى التي أعادت شباب الاسلام قوى بدوية لم تنحضر .

(٣٠)

الثقافة في عصر الوحدة الإسلامية العثمانية

ينتظم عالم الاسلام في هذا المرحلة : ثلاث وحدات سياسية هي : (١) الدولة العثمانية التي قامت على إنقراض الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى ، وقد انضم إليها العالم العربى من العراق إلى المغرب الأقصى . (٢) الدولة الصفوية في فارس . (٣) الدولة المغولية في الهند . غير أن هذا التغيير السياسى الذى بدأ منذ أوائل القرن الثامن واستقر في القرن العاشر تقريباً ، لم يغير كثيراً أو قليلاً في مجرى الثقافة الإسلامية التي كانت تسمى كنهراً قد عمق مجراه واتصلت روافده بين أقصى عالم الاسلام وأقصاه . قائماً على الاسلام أساساً كإطار فكرى هام بمقوماته الأساسية من التوحيد والمساواة والأخاء . وكانت مرحلة الفزوة الخارجى التي حبت هذه المرحلة قد أضاف إلى هذه الثقافة تطوراً جديداً وخلقت فنوناً جديدة من الأدب والفكر ، فدهزت أعمال الفزوة نفوس المفكرين وأظهرت

فنوناً جديدة من فكر المقاومة والجهاد والنحدي حين تدافعت من في حدود أرض الإسلام من الشرق والشمال والغرب قوى الغزو الثلاث: (النتار والصليبيين والفرنجية) فقد تدافعت في سرعة وقوة إلى التجمع والتوحيد بين أجزاء عالم الإسلام تحت قيادات جديدة بدوية شابة ظهرت في أوانها ، وحملت لواء « الجهاد » في سبيل الدفاع عن الإسلام ورفع رايته ودحر خصومه ، وكان لهذا أثره في مختلف جوانب الفكر والأدب والثقافة معاً . وقد برز في هذه المرحلة طابع التقاء فكري بين كبرى الحركتين الثقافيتين الإسلاميتين ، وهما السنة والشيعة ، وإذا كان اللقاء والتقارب بينهما قد تم في حركة « النصوص » فإن أعمال العدوان الضخمة للمنصية خلال القرنين السادس والسابع قد دفعت المسلمين في طريقين هما : طريق الجهاد والرباط لمقاومة العدو ، وطريق لزهد والارتفاع على ماديات الحياة ومطامعها في ظل الجائحات التي فتكت بالإهداد الضخمة من المسلمين في هجمات النتار للتوالية ، والجملات الصليبية المنصية ، غير أني أبرز ما تتمثل به هذه المرحلة . هو إلتساع نفوذ الفتنين الفارسية والتركية إلى جوار اللغة العربية ، فقد برزت ثقافة إسلامية لها طابع فارسي منذ القرن الثالث الهجري ، غير أنها لم تلبث أن توسعت وتعمقت وحملت مضامين قومية وصوفية ، ثم كانت نهضة الأدب التركي المستمد من الأدب الفارسي أساساً والسائر في نفس خطه الصوفي ، والتميز بطابعه القومي فيما بعد ، وقد بدأ طابع الثقافة الشعبية يقلب على فارس منذ قيام الدولة الصفوية ، ويبدو فيها فكراً جديداً يتمثل في مفهوم الدعوة الشيعية وفقهها وتاريخها وبعولاتها . كما ألتسمت الثقافة التركية — التي أحيث اللسان التركي وبدأت تكتب به — بطابع السنة ، للشوب بروح النصوص الفارسي ، وبري بارتوله أن الترك لم يتخلوا عن لسانهم ومع ذلك فإن تأثير المدنية العربية الايرانية على الترك كان من القوة بحيث لم تستطع اللغة التركية في أي مكان أن تصبح لغة رسمية أو لغة ثقافية وحتى القرن (١٣٨٧ م) كانت اللغة العربية لغة رسمية في آسيا الصغرى ، وهي أقصى بلاد الترك من ناحية الغرب ، والنقوش الموجودة بالأناضول كانت تكتب حتى القرن ١٣ م باللغة العربية . وقد ظلت العربية لغة القضاء في بلاد الترك حتى كاشفر إلى النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي .

ولا شك قد لعب الإسلام دوراً هاماً في تكوين الثقافة التركية ، التي كانت في الأساس جزءاً من الثقافة الإسلامية مطبوعة بطابع السنة بالإضافة إلى التقاليد ، والعادات واللغة العربية ، وأصطناع الحروف العربية في كتاباتهم . بالرغم من أنخذ الدولة العثمانية « التركية » لغة ، فإنها لم تحاول أن تفرض لغتها على البلاد العربية حيث ظلت اللغة العربية سائدة ، وطل الإسلام بوصفه ثقافة عربية يفرض طابعه على بلاد الأناضول والبلقان . بل أن اللغة التركية تأثرت باللغة العربية القرآنية حتى

وصفت بأن نصفها عربي ، وظهر أثر ذلك في أسماء الأسر والأفراد وغدت طوابع التقاليد الإسلامية العربية واضحة الأثر في المجتمع العثماني وفي أنظمة البيوت ، بل أن المثقفين والكتّاب العثمانيين احتفظوا باللغة العربية أساساً ، بعد أن كتبوا لغتهم بالحروف العربية ، وألقوا بها كثيراً من الكتّاب وظل القرآن العربي والحديث العربي يتلى ويروى بأدائه وحروفه العربية (هزة دووزه) وهناك شبه إجماع بين الباحثين على أن العنصر التركي لم يستطع أن يصبح العرب والعالم الإسلامي بصيفته بل ، هو أن الذي تحول إلى الصبغة الغالبة : صبغة العربية والسلطان العربي الأدبي يحكم أنه طابع الإسلام أساساً . وقد ورث العثمانيون النظام الإسلامي الاجتاعي والسياسي المستمد من الشريعة الإسلامية ، وطبقوه وجعلوا من المذني (شيخ الإسلام) وعدد من المفتي والفقهاء ومشايخ الطرق وخطباء المساجد هيئة تتولى الناحيتين القضائية والتعليمية في أنحاء الدولة ، وكان هذا هو مصدر محافظة العثمانيين على الثروة الفكرية والثقافة الإسلامية التي تتمثل في الفقه والتوحيد والشريعة والتصوف والفلسفة .

وبصور العلامة حيدر بامات أثر الإسلام في الأدب التركي فيقول : يبدو هذا الكلام من الأدب التركية أنه من المنعذر تجرّدها من المؤثرات العربية ، فما لا جدال فيه أن هذه المؤثرات ظلت بعملها خلال الأدب الفارسي على الخصوص ، وأن الأدب الفارسي لم يبلغ أوج كماله إلا بمباشرة الفاتحين العرب ، وبفضل المثل الديني الأعلى الذي كان العرب حملة لوائه . ويقول فون هامر برجستال : عرف الترك الذين لم يكن عندهم مثل ما عند العرب والفرس من هبقرية شعرية فطرية أن يجمعوا ذخائر ثقافة هاتين الأمتين فبدوا اتجاه العرب والفرس من هذه الناحية وغيرها كما بدا الرومان تجاه اليونان وقد ردد الشعراء العثمانيون صدى الشعر الفارسي والعربي . وقد ظلت اللغة العربية هي اللغة الدينية والعلمية التي تكتب بها الوثائق الدولية وتتم بها المراسلات . أما اللغة الفارسية فهي لغة البلاط ، أما اللغة التركية فكانت لا تستعمل في غير الاتصال بالشعب . وقد أجمع المؤرخون على اهتمام العثمانيون بالعلوم والأدب العربية الإسلامية وولوع سلاطينهم بها ، وأن السلطان محمد الفاتح فضلاً عن أنه أسس جامعتين عظيمين : (وكان خلفاء العثمانيين أسسوا مساجد فاخرة) فإنه حتى بالكتّاب وأنشأ لها الخزائن وأبقى على فرائسها وأمر بأن يكتب على أبواب المكتبات قول النبي ﷺ : طالب العلم فريضة على كل مسلم ، وقد أولى اهتماماً لكتّاب اليونان فأمر بنقلها إلى التركية . كما برع العثمانيون في التاريخ ، فلم يكونوا رواة فحسب ، بل محللين ، وقد قدّموا في مجاله بمجونا مستفيضة (مادة وتحليل) ومن أهم مؤرخيهم سعد الدين صاحب تاج التواريخ . وكان أوائل السلاطين إلى ذلك أدباء وشعراء ناصروا الأدب وأهله ، وقدّموا العلماء والأدباء كثيراً من الهدايا والمكافآت

الجزيلة التي أعانت على تقدم العلوم والفنون ، وكان منهم شعراء لهم دواوين مطبوعة ، وقد برز في
 عصور الدولة العثمانية الأولى مفكرون وعلماء كثيرون ، نقول هذا ونحفظ في أن العثمانيين لم يتأثروا
 خطي العرب إلا في أمور الشريعة والفقه وعلوم الدين ولم يظهروا ميلا إلى العربية وخدمتها على النحو
 الذي أظهره الفرس . وقد حظي في عصور السلاطين أمهالام كثيرون بالتكريم للعلم فقد تشبهوا
 بالخلفاء والسلاطين والملوك السابقين في تقدير العلماء وبناء المدارس ، وقد اتخذ أروخان ابن هيان
 من العلماء أهل شورهاء وعهد إليهم إدارة المدارس التي فتحتها . ومن العلماء اللامعين في حاشيته هربشاه
 السورى ، أما الفانج فكان ينسكح خمس لغات وكان ملما بالعلوم والرياضة ، وقد أحيى في القسطنطينية
 ما وصف بمصرها الذهبي بما أنشأ من المدارس ودار الفنون وكان السلطان سليم الأول شاهراً وله
 آثار في اللغات التركية والفارسية والعربية ، وقد نقل إلى بلاده المؤلفات العربية واستقدم العلماء
 والأدباء ، أما السلطان سليمان القانوني فقد كان عالما بالفقه والقانون وهو الذى وضع قوانين الدولة .

الحركة الصوفية

كان للصوف دوه الحاسم في كلا المرحلتين : مرحلة الغزو الخارجى ، ومرحلة الوحدات الثلاث :
 (العثمانية ، الصفوية ، المغولية) ومنذ القرن السادس (١٢ م) صارت للصوفية منظمة اجتماعية ،
 إحتضنت عدداً ضخماً من أفراد المجتمع ، وكانت في مصادرها الأولى تتمثل في مجموعة المراتبين في
 في الثنور ، والمنظورين للجهاد وقتال العدو المغير على السواحل ، والعلماء على نشر الإسلام في
 الأطراف البعيدة ، غير أن حركة التصوف لم تلبث أن ركبت ونحوحت من ناحية إلى جماعات من
 الدراويش المقيمين في الخانات والتكايا ، وقرا فكرها خليط من التصورات الفلسفية الهندية
 والمجوسية والبوذية واليونانية القديمة في مسائل الحلول ووحدة الوجود فأخترت من مفهوم الزهادة
 الإسلامى السمح ، ومن هنا كانت معارضة ابن تيمية لها وحملته عليها ، واعتباره الحبيج الأضرحة
 والتماس العون من قبور الألياء « وثنية » تخرج عن مفهوم الإسلام البسيط السمح الذي يفتح الطريق
 بين الإنسان وربّه دون وساطة أو شفاعة . غير أن دهوة ابن تيمية إلى التوحيد الخالص (٧٣٩ هـ)
 ومعارضة مختلف الفرق كالصوفية والفلاسفة والمنسكحين إنما كانت تهدف إلى تصحيح مفهوم
 الإسلام في شموله وتكامله ووسطيته ، هذه الدهوة لم تحل دون امتداد التصوف وانسحابه طوال
 العصر العثماني حتى تجددت الدهوة إلى التوحيد الخالص في أبان بقظة الأمة العربية كقوة جديدة من
 قوى البعث الإسلامى ، وكوجة جديدة هي عنوان على « مرحلة البقظة العربية الإسلامية » بعد أن
 ضمنت « الوحدة الإسلامية العثمانية » من حمل لواء الإسلام كقوة متطورة دافعة لتاريخ الإسلام إلى

حتميته . وكان جلال الدين الرومي قد ظهر في الأناضول (توفي ٦٨٨م) وعرف بأنه أعظم شعراء الصوفية وله كتاب « المثنوي » بالفارسية وهي منظومة صوفية في نحو ٣٠ ألف بيت . قال للؤرخون أنها موضع نظر الصوفية من سور الصين شرقاً إلى شاطئ البحر الأبيض غرباً وأنها مرجع لكل من أراد إلماًاً بقصائد الصوفية . وقد كان للمثنوي أبعاد الأثر في الشعر التركي . وقد نشر جلال الرومي طريقة الصوفية في الأناضول قبيل ظهور الدولة العثمانية فانتشرت طريقته المعروفة بالمولوية . وفي أوائل العصر العثماني ظهرت « الطريقة النقشبندية » وامت أقطار الدولة العثمانية ثم توسعت الطرق الصوفية من بعد : (أروخان — الطريقة السعدية) . وقد تأثر الأدب العثماني بالتصوف تأثراً كبيراً . ويرى حيدر بامات أن التصوف كان من العوامل التي ساعدت على نشوء الأدب التركي وأن هذه للباديء الصوفية جاءت من آسيا الوسطى ، وقد كانت الأناضول مستعدة استعداداً خاصاً — بعد أن اجتاحتها الغارات المغولية الأولى — لتقبل مواهب الدراويش الذين أدخلوا إلى الأناضول أشعار أحد يسمي التركية فانتشر نفوذ هذا للتصوف الخراساني في جميع آسيا الوسطى وفي أذربيجان حتى سهل الفولجا وكان منصوفة الأناضول يكتبون بال لغة الفارسية فيعانون نفوذ التصوف العربي الفارسي الذي ظل جلال الدين الرومي عنوانه الأهل . وقد تأثر العثمانيون بالتصوف والسنة معا ، ويرى الباحثون أن تشدد الترك واندفاعهم إلى العمل تحت راية الإسلام والجهاد كان نتيجة مفهومهم لعقيدة السنة والتصوف بمنزجين ، وأن هذا يختلف عن مفهوم الفرس الذي ينقسم بطابع الاجتهاد والعقلانية والفلسفة ، وقد كان هبة القادر الجيلاني (٥٥٦١) أكبر دعاة الصوفية الذين حملوا لواء الدعوة إلى إخضاع الطريقة للشرعية والتمسك بالكتاب والسنة ، فقد عارض بقوة دهور القائلين بانفصال الشريعة عن الحقيقة ودعوى أن الوصول إلى الحقيقة يسقط الفرائض والتكاليف الشرعية والفلسفة ، وقد وكان ذلك التصحيح لمفهوم الإسلام سبباً في دخول عدد كبير من غير المسلمين في الإسلام وتصحيح عقائد عدد هائل من المسلمين غير أن التصوف الإسلامي لم يلبث أن انحرف مرة أخرى بتأثير تراث التصوف الفارسي القديم من الاتحاد والحلول ووحدة الوجود .

(٢)

ينقسم هذا العصر في مجال الفكر والثقافة بمظاهر هامة : الأولى : نمو البحث العلمي الإسلامي في مجال الفلك والعلوم الطبيعية ، فقد هاجر إلى المشرق كثير من علماء المغرب والأندلس الذين كانت جامعاتهم وأبحاثهم العلمية قد انهمكت في الغرب حين أضاف مدنهم الحافظة بمعامل الأبحاث

والدراسات إلى نفوذه ، كما حدث في طليطلة وبالنسبة وقرطبة ، وقد اتسمت مرحلة الغزو الخارجي بالتحاق كثير من علماء الأندلس والمغرب بمحاضر مصر والشام وفي هذه المرحلة استمر هذا التندفق . الثانية : كما ظهر في مرحلة الغزو والمقاومة (٤٩٨-٦٩٨) مجموعة من أعلام الفكر الإسلامى في مجال العلوم الطبيعية لا تقل قدرآ عن مرحلة التبلور والانصهار (١٣٢-٤٩٨) أمثال المقريزى وابن منظور وابن طفيل وابن رشد ، فإن مرحلة الوحدة الإسلامية (٦٩٩-١١٥٣) قد حفلت بأعلام لهم دور كبير في بناء الفكر الإسلامى وتطويره ، لعل من أبرزهم ابن تيمية ٧٢٨ وابن القيم ٧٥١ وابن خلدون ٨٠٨ ، وابن نباتة ٧٦٨ وابن بطوطة ٧٧٩ والقافقشندى ٨٢١ والمقريزى ٨٤٥ والشاطبي والبليقي ، والسيوطى ، وقد اتصل تطور العلم في مجال الطب والطبيعية فقد كان من ألم أطباء هذه الحقبة: ابن النفيس: مكتشف الدورة الدموية. الثالثة: طالت معاهد وجامعات الفكر الإسلامى تقوم بدورها: الزيتونة والاموى ومدارس النجف والازهر، ومن خلال هذه المعاهد انبعثت البقعة مرة أخرى ، وظلت هذه الجامعات منارات للثقافة العربية الإسلامية ومرجعاً للدولة العثمانية في شؤون اللغة واللغة العربية ، وفي الازهر تعلم أكبر العلماء العثمانيين : شمس الدين الفنارى ، ومقبوب بن إدريس ، وحى الدين السكافيه جى والمولى أحمد بن إسماعيل السكورانى وهديده من أعلام الثقافة الإسلامية من الأتراك ، وكان الأزهر إلى ذلك هيئته واحترامه . وفي هذه المعامل تحسنت اللغة العربية والتراث الإسلامى وغالبت لغة العثمانيين ، وفي خلال القرن التاسع الهجرى حفل الازهر بأعلام في مقدمتهم : ابن حجر العسقلانى ٨٥٢ القلقشندى ٨٢١ المقريزى ٨٤٥ ابن تيمى بردى ٨٧٤ بدر الدين العيني ٨٥٥ سراج الدين البلقينى ٨٦٨ وشمس الدين السخاوى ٩٠٢ وجلال الدين السيوطى ٩١١ وفي خلال القرنين العاشر والحادى عشر أبرز الازهر عددآ من العلماء أمثال : ابن الحلق السنباطى والشيشينى والمناوى والصفدى والشوبرى والشبرايمى والزرقانى والبرماوى وحسن الجبرتى (والد الجبرتى) والشرنلافى (راجع : السكواكب السائرة في أعلام المائة العاشرة) . وظل الازهر كذلك مقصد أ كابر العلماء الوافدين إلى مصر من أنحاء عالم الاسلام ومن قدم إليه خلال القرن الحادى عشر هامة المغرب : شهاب الدين المقرئ ١٠٢٧ وتوفى بها ، وكتب المقرئ في مصر: نفع الطيب وإزهار الرياحين . وظلت حلقات الازهر خلال هذه المرحلة خاصة بالعلماء والطلاب ، وبلغ طلابه في هذه الفترة نحو ألف طالب ، وفي فاتحة القرن الثانى عشر وفد على القاهرة عبد الغنى التابلسى وكتب يقول : دخلنا الجامع الازهر الممور بالعلماء والصلحاء وقراءة القرآن ودرس العلم ليلاً ونهارآ ، كما قدم إلى مصر في هذه الفترة مرتضى الزبيدى شارح القاموس والعلامة المغربى

أبو عبد الله المربى . رابعاً : بدأت في هذه المرحلة إرهابات اليقظة فالوزير العثماني أحمد باغور وإلى مصر ١١٦٢ ١٧٤٨ م كان من هواة العلوم الرياضية ، وقد قابل علماء الأزهر وفي مقدمتهم عبد الله الشبراوي شيخ الأزهر وسألهم عن العلوم الرياضية فاعتدروا بأنهم لا يعرفون عنها شيئاً ، ونفى الوزير هذا النقص من علماء مصر ، وقد نال الشيخ حسن الجبرتي والد الجبرتي المؤرخ حظوه عند الوزير لبراعته في العلوم الهندسة والرياضية ، وقام الوزير بتصميم عدة مزاويل لبيان الوقت وأهدى إحداها إلى الجامع الأزهر وقد ظلت قائمة به إلى عصر الجبرتي .

خامساً : دارت في هذه المرحلة مساجلات فكرية ضخمة : فقد أثارت آراء ابن حجر والقلقشندي والمقريزي ، في صحن الأزهر مناقشات ، وقدم ابن خلدون نظرياته في العمران والعصبية وأسس الملك ونشأ الدول : وتلقاها عنه تلميذه المقريزي الذي تأثر بها في موسوعة [إغاثة الأمة لكشف الغمة] ودارت بين البقاعي والسيوطي ، وبين البقاعي والسخاوي وبين السيوطي والسخاوي معارك أدبية وفكرية في اللغة والأدب ، وجرى في صحن الأزهر مراجعات فحفل بها موسوعة السخاوي : [الضوء للامع في أعيان القرن الرابع] وكان موقف العثمانيين من الثقافة بوجه عام موقف ينسق مع طابعهم العسكري الحربي فقد كان الحسكاه الأول قرييون من اللغة العربية والثقافة الإسلامية ثم توسع نطاق الثقافة التركية القائمة على الفنتين الفارسية والتركية وضعف أمر الثقافة العربية الإسلامية ، ويمكن القول بأن ثقافات ثلاث شملت عالم الإسلام مرتبطة باللغات الثلاث الكبرى :

— الثقافة الفارسية الإسلامية في فارس والهند . — الثقافة التركية الإسلامية في آسيا الصغرى — الثقافة العربية الإسلامية في الوحدات العربية . هذه هي الظاهرة الأولى : أما الظاهرة الثانية فهي سيطرة الأدب الصوفي في العالم الإسلامي كله ، ولقد كان للثقافتين الفارسية والتركية أثرهما في توسيع نطاق هذا الأدب العاطفي وتأثر الأدب العربي به نتيجة لاتصال مضمونة بالإسلام نفسه . ومن ثم ضعفت في هذه المرحلة وتقلصت الدراسات العقلية في مجال الفقه والفلسفة والتوحيد . ويمكن أن يقال : أن العالم الإسلامي قد انحاز إلى الطوائف الروحية والوجدانية التي تتمثل في الصوفية للفرقة في الجبرية والإسناسلام ، وقد كان لهذه الظاهرة المنحرفة عن وسطية الإسلام أثرها البعيد المدى لعدة قرون من بعد :

الظاهرة الأولى : تقوم الثقافة التركية الإسلامية على عناصر ثلاث : (١) الثقافة الفارسية وقد ظلت هي لغة البلاط العثماني . (٢) والثقافة العربية وهي ثقافة الفقه والشريعة والدين والعلوم . وكانت العربية في أول الأمر لنفس الدولة في مراسلاتها ، ثم تكونت من العنصرين معاً : « الثقافة

التركية ، التي كتبت باللغة التركية وكانت في أول الأمر لا تستعمل في غير المجالات الشعبية ، فقد تأثر الترك بأثار الثقافتين الفارسية والعربية . أما الثقافة الفارسية فقد غلب عليها الشعر الصوفي ، أما الثقافة العربية فقد غلب عليها الفكر الإسلامي لعلومه ودراسته المختلفة . ولما كانت اللغتان الفارسية والتركية متقاربتان ، فقد غلب طابع الثقافة الفارسية المتمثل في اللغة التركية وأصبحت لغة الدولة والثقافة معاً ، ولما كانت الثقافة التركية فارسية الطابع وليست عربية ، فقد برز دور الأزهر والزيوتنة والنخف والقرويين في حماية اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية : وتبدو هنا ملاحظات هامة :

(١) إن حذور الثقافتين الفارسية والتركية قائمة أصلاً على « للثلل الإسلامي الأهل » . (٢) إن غلب التشيع على الفرس وغلب السنة على الترك لم يمنعهما من التأثر بالتصوف ، الذي ساد الثقافات الإسلامية الثلاث بدرجات متفاوتة ، ومع ذلك فقد ظلت الثقافة العربية محتفظة بطابعها ومقوماتها الأساسية القائمة على نزك النفس والتوحيد معاً ، على اللزج بين الفقه والتصوف . وإن غلب طابع التصوف على الفقهاء . ويرجع ذلك إلى جامع الأزهر والزيوتنة الذين حفظا : الفكر الإسلامي واللغة العربية في وقت معاً . الظاهرة الثانية : ارتباط ظاهرة اتساع الحركة الصوفية بالحروب الصليبية والغارات للفرولية ففي خلال القرنين — خلال معركة الغزو الخارجي والمقاومة — وتمثل التصوف في الجهاد والمقاومة ، فقد كان عمق الإيمان بالإسلام هو الدافع الأكبر لتحرر المجموعات المضخمة من المسلمين عن مطامع الحياة واندماجها في القوى العاملة للحرب والمقاومة والقتال ، وكان ذلك يفرض على هؤلاء المجاهدين نظماً اجتماعية قوامها للرابطة في النمرور والاكتفاء بالقليل من الزاد والالتجاء إلى الله فلم يكن الزهد أو التصوف في هذه المرحلة إلا سلاحاً ضخماً من أسلحة المعركة ، التي عزف عنها الطامعون في الحياة ، الفارقون في ترفها وتمتعها ، بينما أقبل عليها رغبة في الدافع من أرض الإسلام وكيان المسلمين ، أولئك الذين كانت نفوسهم قد ارتبطت بتابعه صيحة الدهاء والمرشدين وصغرت في هيونهم رغبات الحياة ومطامعها ، وقد شملت هذه الظاهرة عالم أفق عالم الإسلام كله ، ففي المغرب وعلى سواحه كانت عمليات الغزو التي يشنها الفرنجة لا تتوقف ، وفي المشرق كانت حملات الصليبيين وإمداداتهم لا تتوقف ، وغزوات التتار الجاثمة المندفعة كانت تباغت عالم الإسلام ، هوامسه ، ومن ثم هاش المسلمون في مختلف هذه المناطق حياة ذات طابع غريب ، هو طابع المقاومة ياط ، وهو طابع هاشت عليه أجيال متوالية ، لم تتردد من أن تهبط نفسها للمعركة ، دون أن تولي اهتمامها لأمر من أمور الدنيا ، فلما توقفت الحروب الصليبية وغزوات التتار ، كانت تلك

الظاهرة التي استمرت حوالي مائتي سنة قد تركت آثارها في المجتمع والفكر ، وخلفت أثراً بعيد المدى قوامها ذلك الطابع الجبري من التسليم والرضا بالظلم ونشأ ذلك التصور البعيد كل البعد عن مفهوم الاسلام وهو : تقبل ذلك كله والاستسلام له بوصفه قدراً من هند الله لا يرد ، وكان هذا هو البعيد للذي أنتج الانفصال عن مفهوم الإسلام في الجهاد وفي الحياة وفي الزهد جميعاً ، ولقد كان هذا المفهوم الجبري دخيلاً على الإسلام وليس مستمداً من مقوماته أو مفاهيمه الأساسية ، وإنما جاء من فلسفات ومذاهب قديمة عاشت طويلاً في تلك البيئات ولما تنصهر انصهاراً كاملاً في الفكر الإسلامي ، ثم استطاع الغزو الأجنبي أن يثيرها ويجدها ليجعلها عاملاً من عوامل التضييق والاستسلام والاذعان لنفوذ وسلطانها . ثم استغلها بعض الحكام والأمراء والولاة في خلال « مرحلة الوحدة » الإسلامية الثمانية ، التي كان « التصوف » الجبري طابعها الاغلب ، وإن كان الأمر لم يخل مطلقاً من قيام دعاة يقيمون الاسلام فيها سلباً يدهون إلى التحرر والتصوف ويدهون إلى أوتباطة بالشريعة وإلى تخليصه من النزعات الفارسية والهندية واليونانية القديمة التي أضافت إليه نظريات الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ، وإذا كان « التصوف » قد كان بعيد الأثر في مرحلتي الغزو الخارجي ومرحلة الوحدة العربية الإسلامية وما بعدها في نشر الاسلام وتوسيع آفاقه ذاتياً وكسب أرض جديدة للتوحيد ، فإنه قد أضعف الجانب العقلي في الاسلام ، وأصاب المجتمع الإسلامي بموامل الركود والضعف والاستسلام والقدرية باسم « الجبرية » التي لم تسلم منها المفاهيم الصوفية جميعاً في هذه المرحلة ، وكان من آثار الموجة الصوفية العاتية اتساع نطاق الزوايا والتسكيات ، وكثرة الداعين إلى رفض الدنيا ، ومن قلب الدولة العثمانية التي كانت تقود المعارك وتقاتل وتحارب ، ظهرت هذه الدعوة وتممقت وكان لها أثرها البعيد في مرحلة الضعف والتخلف ويرى كثير من الباحثين أن « المفاهيم الصوفية » قد تأثرت كثيراً بالفلسفات اليونانية والجوسية الفارسية القديمة . ولم يلبث رجال الصوفية أن سيطروا على القنترات السياسية في الدولة العثمانية وازداد نفوذ أصحاب الطرق الصوفية عندما بالغ الحكام في الخضوع لهم ، وكان موقف العلماء بالنسبة لذلك يتمثل في محاولات إصلاح الصوفية وردّها عن انحرافها والانكار عليها ومن الذين أنكروا على الصوفية محمد صفي الدين الحنفي وكلهم تابعوا تقي الدين بن تيمية وابن حجر العسقلاني ، كما شكوا العلماء من انتشار الجهل ، ويمكن القول بأن الصوفية كانوا يمثلون ممسكين منفصلين : الصوفية المجاهدون الذين عرّفوا عن السلطان وهاموا في الأرض يدهون إلى الله والدين أسلم على أيديهم كثير من الأمراء والحكام ، والصوفية التقليديون الذين اتصلوا بالولاة فاتخذ منهم الآخرين وسيلة لتثبيت ملكهم . ولم يكن الانحراف في مفهومهم الصوفية إلا جزءاً من الانحراف الذي أثارته الباطنية والشعوبية وخصوم

الإسلام وأصحاب دهورات الهدم والتدمير ، وكانت كل جهود هذه الدهورات تهدف إلى الانحراف بالإسلام عن مفاهيمه الأصلية ، الاستغناء بالجزء من الكل ، بينما يتمثل الإسلام في مفهومه الحقيقي . في خاصية الشمول والتكامل والوسطية ، قلباً وعقلاً ، قتها وتصوفاً ، روحاً ومادة ، كان أبرز العوامل الهدامة في دهوة بعض الصوفية « طابع الجبرية والاستسلام للمقادير وغلبة النزعات الوجدانية والروحية » واعتباره الوسيلة الوحيدة لفهم الإسلام وكذلك في رفع مقام الولي إلى مقام النبي أو ما فوقه وقد جعل الشمراني (٩٧٣ هـ) على المتصوفة في عصره — وهو من أئمة الصوفية — فقد رأى أن معظم دجالون ، يمتالون على أموال الناس ، وحذر المجتمع من حيلهم ودجلهم وأورد صوراً وقصصاً تمثل فساد أخلاقهم وتهاونهم على حطام الدنيا ووقوفهم بآبواب الحكم ، غير أن كثيراً من أعلام الصوفية ، كآبي الحسن الأشعري ، والشمراني ، وأحمد البدوي قد حملوا السلاح في معارك مقاومة الفسز والظالجي ولا شك كان التصوف رد فعل خطير في مواجهة التحال والانحراف والتزلف الذي غمر الجمع الاسلامي في هذه المرحلة ، وفي مواجهة طغيان الحكم والولاء والامراء .

(٣١)

اليقظة العربية الاسلامية

« جرى تاريخ الإسلام على سنة الانبعاث من الداخل وأقر في مختلف مراحل حركته للطاقت قانوناً ثابتاً لا يتحول ، هو تفجر الطاقات الجديدة من قلب الطاقات القديمة وبناء الخلايا الشابة بمجرد هجز الخلايا العاملة من الحركة . وقد أتاح الإسلام بقيمة القادرة على الحياة والحركة والنماء لتاريخ الاسلام : هذه الخاصية من النماء والتحول موجه بعد موجة من خلال دورة كاملة ، ومن هنا فقد كان ضعف الدولة العثمانية الاسلامية عن حل أمانة لإسلام ، إيماناً ببروز قوة جديدة تحمل هذه الأمانة ، هذه القوة هي الأمة العربية التي انبثقت من أحماقها الدعوة الإسلامية الأولى فحملتها إلى آفاق العالم وكانت لغتها هي لغة القرآن ، قالقوة العربية تعود مرة أخرى بعد أن نضلت طويلاً من مكان القيادة — إلى حل أمانة الإسلام من جديد تدهو إلى تحريره من التقليد والجبرية وترد إليه روح الاجتهاد وإلى التجدد وتحمل لواءه . »

في أواخر القرن السابع الهجري ، كانت الحركة الصليبية في المشرق قد بلغت غاية الضعف فلم

تلبث أن طوت أهلها وأنسجت من عالم الإسلام مهزومة بعد قرنين كاملين من الصراع . هنالك كانت موجة جديدة من موجات الإسلام تنأهب لتأخذ مكانها على مسرح الأحداث وتلعب دورها التاريخي كحلقة متتابعة متصلة من حلقات تاريخ الإسلام . وقد بدأت هذه القوة بالفعل تأخذ مكانها في آسيا الصغرى منذ (٦٩٩ - ١٣٠٠ م) ولم تلبث أن مدت آفاقها خلال القرنين الثامن والتاسع بالتوسع في أوروبا حتى استطاعت في القرن العاشر أن تقيم الوحدة الإسلامية العثمانية (٩١٥ - ١٥١٧ م) ولم تلبث أن مدت آفاقها خلال القرنين الثامن والتاسع بالتوسع في أوروبا حتى استطاعت في القرن العاشر أن تقيم الوحدة الإسلامية العثمانية (٩١٥ - ١٥١٧ م) في نفس الوقت الذي كانت الدولة الصوفية في فارس والمغولية في الهند تغطي عالم الإسلام في مجال البناء السياسي .

وكانت « الوحدة الإسلامية العثمانية » هي أقوى الوحدات الإسلامية الثلاث وأوسعها نطاقاً فقد شملت العالم العربي كله بالإضافة إلى الدولة العثمانية وإلى امتدادها في أوروبا وقد امتدت هذه الوحدة قوية مهيبة ضخمة خلال أربعة قرون كاملة ، غير أنها لم تلبث أن واجهت نقطة التنازل والضعف في القرن الحادي عشر لخلاله وخلال القرن الثاني عشر كانت الوحدة الإسلامية العثمانية تتحول من معارك الهجوم إلى معارك الدفاع ، وكانت أوروبا التي واجهت التوسع الإسلامي العثماني خلال القرون الأربعة قد أخذت تتقدم علمياً في مجال الحرب والصناعة ، حين توقفت الدولة العثمانية عن تطوير صناعاتها الحربية وأساليبها في مجال المقاومة والدفاع ، ومن ثم بدأت هزائم الدولة العثمانية في نفس الوقت الذي بدأت هذه الوحدة تتزعزع ، وأخذت عوامل الضعف والاضطراب تؤثر في كيان المجتمع ، وتوسع شقة الخلاف بين العناصر والقوى والأحداث ، وحين أخذت الصوفية تجرف الفكر الإسلامي وتتحرف به ، وتسيطر عليه وكأنها وحدها مفهوم الإسلام ، بينما إنعادت تحت سيطرتها وضعفت مفاهيم الإسلام الأساسية من التوحيد والعدل والحسنة والقوة واليقظة والرباط الحربي ، وحين بلغت الصوفية سيطرتها على المجتمع ووسمته بطابع التواكل والضعف والاستسلام الحقيقي : للجائع بين العقل والقلب والعلم والروح ، والدنيا والآخرة ، وإخفى طابعه الإيجابي التقدمي : طابع الشمول والتكامل والوسطية .

فإذا ما بلغت مفاهيم الإسلام هذا الانحراف ، كان لا بد أن تبرز قوة جديدة لتعيد صياغة مفهوم الإسلام من جديد ، وتصحيح المفاهيم ، وتكشف عن جوهره الذي اخفى تحت تظاهرات الانحرافات المسيطرة . شأنها في ذلك شأن الإسلام في مختلف مراحله ، وطوال تاريخه .

ومن هنا كانت « موجة اليقظة الإسلامية العربية » ، نبعثة من القوة الأصلية الأولى التي بلغت مفهوم الإسلام عن النبي أول مرة في جزيرة العرب ، وحملته إلى العالم كله وظلت تحمل لوائه في مجال الفكر والسياسة خلال قرون متصلة ، تلك القوة هي « الأمة العربية » . فقد بدأت من قلب الأمة العربية أول دهوة إلى تحرير الإسلام من الزيوف والبدع والاضافات المنحرفة التي عاصرت هذه المرحلة الطويلة ، وكانت هاملا من عوامل الضعف والتخلف ، وامتد أثره من بعد ، حين انهارت الوحدة العثمانية الإسلامية وضعفت قيادتها ممثلة في الدولة العثمانية ، وكان الغرب قد أهد خططه في السيطرة على مختلف وحدات الدولة العثمانية بعد انتزاعها منها ، وبذلك وعن طريق هذا الانحراف في مفهوم الإسلام ، انهارت الدولة العثمانية كمثل . وسيطر الاستعمار على هذه الوحدات العربية .

غير أن صوت « الدعوة إلى تحرير الإسلام » من الاثراقات قد كان هاملا أساسيا في اليقظة الإسلامية الجديدة التي كانت قيادتها مرة أخرى للأمة العربية ، التي بدأ كيائها يبرز كقوة منفصلة عن الدولة العثمانية ، بعد أن مرت حركة للقاومة بمرحلة طويلة من العمل تحت لواء « الجامعة الإسلامية » ؛ هذه الجامعة التي كانت تمثل مواجهة السكان العرب العثماني موحداً لحركة الاستعمار ، ثم كان لا بد من انتقال إلى مرحلة جديدة من المقاومة باسم الوحدة العربية وحدها ، بعد أن وقع الصراع بين العثمانيين والعرب حين حل قادة العثمانيين لواء الدعوة إلى الجامعة الطورانية أو القومية التركية . وفي نفس الوقت الذي كان دور الترك بالنسبة لقيادة عالم الإسلام ينتهي ، كان دور العرب يتألق ويقوى ، فقد حملت الأمة العربية مرة أخرى لواء هذه المرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي كقوة قيادية موجبة ، حملت لواء اليقظة ، هذه اليقظة التي انبعثت من تصحيح مفهوم الإسلام « التوحيد » بينما كان انهيار القوة العثمانية يقظة للاستعمار الذي حل محلها في كل مكان ، بدأت حركة اليقظة الإسلامية ، وقد أطلق عليها حركة الإصلاح الإسلامي ، من قلب الإمة العربية وتمثلت في دهوات متتارة في إجراء العالم الإسلامي في وقت واحد ومتوالية من بعد على فترات . بدأت الحركة الأولى والكبرى والأم (عام ١١٥٣هـ - ١٢٤٠ م) في منتصف القرن الثاني عشر ومازالت مستمرة إلى اليوم خلال أكثر من قرنين كاملين (أو ما يقرب من ٢٢٧ سنة) وكانت الأمة العربية هي « بؤرة الحركة » وإن كان قد امتد أثرها إلى الهند وأندونيسيا وأفريقيا .

وقد صحح العرب مفاهيم الإسلام في دقة ، وكان أبرز مراكزها عليه ، شجب المفهوم الفائل بأن الصوفية وحدها هي الإسلام أو أن القلب وحده هو طريق المعرفة ، وكانت دهوة اليقظة العربية

الجديدة تقول بأن العقل والفلب هما مصدر المعرفة وأن الإسلام في تكامله وشموله ووسيطته يجمعهما ويمزج بينهما وبذلك التقى الغزالي وابن تيمية في نفوس هؤلاء الدعاة والتقى التصوف والافتزال وقامت « السنة » من جديد وفق هذا المفهوم تفسر اتصال الإسلام بالحياة والحضارة وتكشف عن جوهره وحيويته وقدرته على الحركة والعمل في كل عصر وبينة . وحين بدأت الوحدة العربية استلمت قاعدتها الأساسية من وحدة الفكر العربي الاسلامي الذي يتمثل فيه فكر مختلف العناصر التي تعيش في العالم العربي ، هذه الوحدة التي كانت تحمل مفهوما واضحا هو أنه إذ ذل العرب ذل الاسلام وأن بقظة الاسلام لا بد أن تلبث أساساً من الأمة العربية التي تأملت لحل لواء الإسلام منذ أربعة عشر قرناً والتي تحمل لواء اللغة العربية : لغة القرآن . وكما كشفت هذه المرحلة من جوهر الإسلام قويا إيجابيا قادراً على الحياة فقد كشفت عن أصالة العالم الاسلامي في مواجهة الغزو الاستعماري الحديث في مرحلة عنيفة ممتدة حاول فيها الغرب السيطرة على هذه الوحدات المختلفة ، بدأت هذه الحركة بتطويق العالم الاسلامي من خلال حملات الكشف والملاحقة ، التي بدأها البرتغاليون والاسبانيون كرد فعل انتقامي لشواطئ المغرب وأفريقيا ، وكحركة تطويق لعالم الاسلام ، انتهت بسقوط الأندلس ، اتصال معركة الحروب الصليبية في المشرق بمعركة الحروب الصليبية بالمغرب . وقد واجه العالم الاسلامي الاستعمار الغربي : هولندية في أندونيسيا وإنجلترا في الهند وفرنسا وإنجلترا في العالم العربي في معركة مقاومة مستمرة ، كما واجه المسلمون معركة تصفية خيبرية في التركستان وما وراء النهر من الروس . كما صمدوا أمام مواجهة ضخمة في الهند والصين ، وكان أخطر ما واجهه الاسلام سيطرة الصهيونية العالمية على فلسطين .

(٢)

بدأت علامات اليقظة العربية الإسلامية في أوائل القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) كان العلماء في الأزهر أول ضوء في هذه اليقظة ، فقد أخذ العلماء يواجهون الأمراء والحكام ويجيبونهم بالمظالم ، يأخذون عليهم الموائيق ، هذه الظاهرة تعطي أول دلالة على « أصالة » مفهوم الإسلام في مواجهة معضلات المجتمع ، فقد كشف العلماء في هذه الفترة عن إيجابية الإسلام في مواجهة الأشرار المستبدين ، وكانت آراء « ابن تيمية » في تحرير مفهوم الاسلام ، والدعوة إلى التوحيد ، وما أغاض العلماء في الكشف عن « نصوص الشريعة » من حق الأفراد ، وواجبات الحكم ، ومن هنا بدأ « علماء الإسلام » يأخذون مكان الصدارة بعد أن ظلمت هذه الصدارة فترة طويلة « تصوفية » .

الذين كانوا موضع تقدير الحكام وتقدير الاستعمار من بعد لفاهيمهم المنحرفة التي تفرض على الناس التسليم بالواقع ، وقبول الجبرية في ساحة الحاكم ويسجل الجبرتي أن عام ١١١٤ هـ - ١٧٠٢ م شهد موقفاً باكرآ من هذه الموقف عندما أصيب أهل الأسواق ، نتيجة لظلم الأمراء ، فاجتمعوا إلى الجامع الأزهر « وشكوا أمرهم إلى العلماء وأئزوم بالركوب معهم إلى الديوان » وقد بلغ ذلك الأمر من القوة غايته حين ألزم العلماء الأمراء بالتوقيع على ميثاق (١٢١٠ - ١٧٩٥ م) الذي يعد وثيقة محددة لمفهوم الإسلام في إلزام الحكام بمنع فرض أى ضريبة على الأهالي إلا بعد استشارتهم ويروي الجبرتي أنه عندما حكمت المحكمة على أحد الأمراء بالإذعان ، فرفض ، هنالك هب العلماء لنصرة الحق ، أرسل الأمراء له وحلوه على الأذهان ، ولم يترك العلماء الأمير بغير حق مسجل فسكتب لهم صلح رسمي به شروط على الأمراء وتعهد من الحكام بالتزام مايقضى به القانون ومن هذه النقطة ، نقطة نجد نفوذ العلماء وارتفاع صوتهم ، بدأ هائل جديد ، مضاد لعامل الجبرية الذي فرضه الصوفية والذي كان يعطى للحكام حق إذلال الرعية والسيطرة عليها باسم الإسلام ، لقد وقف العلماء مع الشعب في نضاله ضد الأمراء الطفافة كمقدمة للحد من استبدادالولاة وهكذا كان العلماء في هذه المرحلة على رأس الثورات الشعبية التي قام بها الشعب على الأمراء الظالمين ، وكان مراد وإبراهيم طاهيتين منجبرين حيث كانت مجموعات الشعب تقصد إلى الأزهر فيتقدمهم العلماء ، وفي مقدمة من شاركوا في ذلك أعلام أجلاء م الدرديري ، والعروسي ، والشرقاوي ، وكان لعمر مكرم دور كبير من بعد ، قال الجبرتي عن الشيخ الدرديري : فركب بنفسه وتبعه جماعة من الصامة حتى التقى بالأمر فكلمه ، ووجهه وهو راكب على بغلته ، وقال له : أنتم مانحافون الله ، كما النجأ الناس إلى الشيخ العروسي بعد وفاة الدردير يلتزمون عنده الحماية من الظلم .

وقد عزل الوالي وولى غيره ، قال الجبرتي ، ونزل الوالي الجديد من الديوان إلى الأزهر وقابل المشايخ واستراضهم ، كما التحأ الفلاحون إلى الشيخ الشرقاوي لمخاطبة مراد وإبراهيم ، فلما كلمهم ولم يجد أثرآ لمسماء ، دعا إلى الثورة ، واجتمع له أهل القاهرة وأهل الأطراف ، هنالك « التزم الأمراء بما شرطه العلماء عليهم واتفق الصلح » وكان القاضي حاضراً ، فسكتب صحيفة بذلك ، وفي خلال الحملة الفرنسية كان موقف عمر مكرم والعلماء مشرفاً ، وقد بلغ عمر مكرم القمة في ذلك حين خاطب خورشيد الحاكم التركي الذي رفض أن يستجيب لرغبة الشعب بعزله ، قال عمر مكرم : « أن أولى الأمرم العلماء وحلة الشريعة والسلطان العادل ، وهذا الحاكم ما هو إلا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعته ، وأن للشعوب طبقاً لما جرى به المسلمون قديماً ولما تقضى به أحكام الشريعة

الإسلامية الحق في أن يقيموا الولاء ولم أن يعزلوا إذا انصرفوا عن سنن العدل وضاروا بالظلم ، لأن الأحكام الظالمين خارجون من الشريعة ، فلقد كان لأهل مصر دائماً الحق في أن يعزلوا الوالي إذا أساء ولم يرض الناس عنه ، على أني لا أكتفي بذلك ما جرت عليه عادة البلاد من قديم ، بل أذكر لك أن السلطان أو الخليفة نفسه إذا سار في الناس سيرة الجور والظلم كان لهم هزلة وخلعه وقد صدر « عمر مكرم » في هذا عن فهم مفهوم حق الإسلام والشريعة الإسلامية ، — ولم يصدر كما ردد بعض المؤرخين من فهم لأراء الفرنسيين — والواقع أن علماء المسلمين كانوا دائماً ينصرون الحاكم ويواجهونه إذا سار في الرعية سيرة الظلم ، وكان عمر مكرم امتداداً لمفهوم العلماء الذين سبقوه منذ أوائل القرن الثاني عشر ، ودلالة على أن الإسلام قد أخذ يكشف عنه تلك القشرة التي حجبته جوهره خلال انتشار مفهوم الجبرية الصوفية . والحق أن صوت الإمام محمد عبد الوهاب كان قد ارتفع منذ (١١٥٣ — ١٧٤٠ م) بالدهوة إلى التوحيد ومواجهة الاستبداد السيلاني وظلم السلاطين والملوك ، ولم تكن دعوته إلى تحرير العقيدة ، وتصحيح المفاهيم وإعادتها إلى نقاها إلا تمهيداً من الخضوع لغير الله ، وقد كانت تنعوى في أعماقها على مفهوم سياسي واسع يرمي إلى مقاومة الظلم ونفوذ الأمراء المستبدين . وقد سارت ذلك في نفس الفترة حركات سياسية ، يمكن أن توصف بأنها حركات إقليمية تدهو إلى تحرر بعض الوحدات واستقلالها عن الدولة العثمانية ، مثال ذلك حركات :

على بك الكبير في مصر ، الأمير فخر الدين الممعي في لبنان ، وظاهر العمر في سوريا ، وداود باشا في العراق . ولا شك يمثل القرن الثاني عشر مرحلة دقيقة في حياة الإسلام وتاريخ العالم الإسلامي والأمة العربية والدولة العثمانية ، هي في جوهرها رد فعل واضح لتدهي الطغاة الذي واجبه الإسلام نتيجة لضعف الدولة العثمانية وغلبة عوامل التنفك في عالم الإسلام ، ومن أبرز مظاهر هذا التحول الجديد ما يتصل بالمواقف التي حاولها نادر شاه في إيران ، والسلطان محمود في الدولة العثمانية من أجل مواجهة حالة الضعف والتفكك .

وكان نادر شاه الذي ولي عرش إيران ١٧٢١ م قد قلبه إلى أن ضعف للمسلمين يرجع في جوهره إلى الانقسام بين السنة والشيعة ، وأن الاختلافات للذهبية هي العامل الأول لهذا التفرق الذي مكن الاستثمار الأوربي من فرض نفوذه ، ومن هنا حاول تأكيد الالتقاء بين إيران الشيعية والدولة العثمانية السنية في محاولة لتوحيد السنة والشيعة على أصل مستمدة من جوهر الإسلام وفي نفس

الوقت أتجه السلطان محمود في تركيا ليحمل لواء هذه الدعوة، وكان من أهم ما قام به في هذا السبيل : القضاء على قوة الانكشارية ، تلك القوة العسكرية التي ظلت تركيا تعتمد عليها جيلاً بعد جيل ، وقد أصابها في هذه المرحلة الانحلال والتفريق والضعف نتيجة لتسرب مذاهب تحمل اسم التصوف وتتحرف به عن مفهوم الإسلام . وكان قد تسكف بوضوح مدى الخطر الذي أصاب الروح المعنوية للانكشارية بعد أن انحرفت عن مفاهيم الإسلام الأساسية مما أدى إلى فرار ٥٠ ألف جندي في وجه خمسة آلاف جندي في البلقان ، وقد عمد السلطان محمود في مواجهة الزحف الغربي على عالم الإسلام إلى إجراء إصلاحات مدنية وسياسية وإدارية مستهدفاً استعادة هيبة الدولة العثمانية لنظل صامدة كسد قوى في وجه النفوذ الأوربي ، غير أن هذه الإصلاحات لم تكن جذرية ولم تنفذ وفق مفهوم الإسلام ، الذي يجمع إلى القوة التكاملي بين العقل والقلب ، وبين العلم والدين ، والتي تهدف أول ما تهدف إلى تحقيق العدل الاجتماعي والحكومة الشورية ، وتوحيد العناصر ، وقد كانت القوة والرباط والجهاد واليقظة في مواجهة العدو ، والوصول إلى مثل قوته ودرجة كفايته الحربية والعسكرية أمراً سياسياً ، ومن أولى مفاهيم الإسلام في مواجهة العدو ، وهو ما لم يتيسر على وجه حقيقى للسلطان محمود مما عهد لنهاية المحتومة للدولة العثمانية .

(٣٢)

تركيا العثمانية بين الرفعة والانحدار

اقتصروا العثمانيون على العناية بالقوة العسكرية والجري وراء التوسع دون تركيزه واستقطابه وبلورته . واستغرفت الدولة العثمانية تاريخها كله بين التوسع والمقاومة ، ثم تطورت أوروبا بسرعة وتوقفت العثمانية وتجمدت وكان التطور في أساليب الحرب وفنونها وآلاتها هو العامل الأول الذي رجح كفة أوروبا حين ضعف لدى العثمانيين مفهوم الإسلام بعد أن ضعف تطبيقه غير أنه لا سيبل إلى إنكار دور العثمانيين الحاسم حين أعادوا وحدة الإسلام ورفعوا رايته ستة قرون كاملة ، فقد واجهوا أوروبا التي كانت تتحفز للسيطرة على عالم الإسلام فاستطاعوا صدّها ونجيمدها على الأمل من طريق البحر الأبيض ، ومن هنا تبدو حقيقة لا سيبل إلى إنكارها ، وهو أن العثمانيين لا ينالون من المؤرخ الأوربي أي أنصاف بل على العكس يواجهون حقاً وخصومة تحول دون كلمة الحق ويمكن القول أنه في القرن الثاني الهجري (القرن السابع عشر الميلادي) مال الميزان ، بالدولة العثمانية وارتفع بقوة جديدة ، هي القوة العربية حاملة لواء اليقظة للفكر الإسلامى العربى .

كان الانبعاث أساساً مستمداً من مفهومين هما : التوحيد ومقاومة الاستبداد في صورة الحاكم المستبد والنفوذ الأجنبي مماً . وكان ذلك رداً على تهدي خطير تمثل في للرحلة الأخيرة من حياة الدولة العثمانية وهالم الإسلام كله في هذه الفترة ، وهو غلبه طابع « الجبرية والتواكل » ، الذي تفاقم في مختلف قطاعات المجتمع والفكر . وهو ما أسلم تركيا العثمانية إلى مرحلة الانحدار ، وأورث الغرب الغلبة والسيطرة على العالم الإسلامي كله ، فلم يكن الجزر العثماني إلا مسدداً عالياً للاستعمار ، انتهى بإسقاط للمنطقة كلها في يد « قوة غربية » نحاول أن نستعيد نفوذها القديم على الأمة العربية والوحدات الإسلامية وفق أسلوب جديد ، وقد تمثل هذا للمنى في عبارة اللورد الكنتي قائد الجيوش البريطانية حين دخل القدس عام ١٩١٨ بعد مرور ٨٣٢ عاماً على خروج الصليبيين عام ١٠٩٥ حين قال « الآن انتهت الحروب الصليبية » ومعنى هذا أن كل حركات الغزو وبجناحيه في المشرق والمغرب طوال تلك هذه الفترة إنما كانت تستهدف تحقيق إسقاط العالم الإسلامي كله في قبضة الغرب . كانت سمة الوحدة العثمانية الغالبة هي : « القوة والحرب » مختلفة في ذلك من طابع الموجات الإسلامية المتوالية التي تقدمتها ، والتي كانت تبرز بين بناء القوة وبناء الحضارة . كانت « القوة » سمة الحرب تبدو بارزة في سنوات التكوين الأولى للدولة ، ثم تكون سمة « الحضارة » هي الغالبة من بعد . أما في خلال خمسة قرون من النفوذ العثماني فقد كانت القوة والحروب هي الصورة الممتدة المتصلة ، لا تفسح للحضارة أو البلورة الفكرية أو لانصهار العناصر أي مجال ، مما قلل كثيراً من طابع الحضارة الذي يتمثل فيه الاستقرار والبناء الاجتماعي والاتزاج بين العناصر المختلفة . ومن هنا تعذرت عملية الانصهار والبلورة ، في مجال المجتمع ، كما غلب طابع الفكر الصوفي الموم ، مما أضعف من قوة الجوانب العقلية هالم الفكر الإسلامي وكان لذلك أثره في المجتمع والبناء السياسي وكيان الدولة نفسها . وكانت أقصى عمليات التدهور والاضطراب هي أن العثمانيين ضرفوا من مجال مجدهم ومظهر دولتهم : « القوة والحرب » فقد غفلوا عن عوامل التطور والنمو والتغيير في هذا المجال بالذات فسبقهم الغرب فيه ، فكانت هزائمهم المتوالية في حروبهم مع أوروبا ، ومن هنا بدأ التدهور والضعف من قلب مصدر القوة . توقفت الدولة العثمانية إذن ، وتخذ هالم الإسلام كله في الوقت الذي تقدمت فيه أوروبا واقتحمت مجالات الكشف والملاحظة والعلم حين اتصلت بعلم المسلمين ، فسكاناً أخذت أوروبا مفهوم الإسلام حين غفلت عنه القوة الإسلامية الكبرى فتألفت أوروبا وسادت وضعت القوة العثمانية وتدهورت ونستطيع أن نقف طويلاً عند مرحلة التدهور ، ويجمع المؤرخون على أن هذه المرحلة بدأت بهزيمة الدولة العثمانية عند أسوار فينا عام ١٦٨٣ حين فشل

الحصار للمرة الثانية ، ومن هذه النقطة بدأ الصراع بين الغرب وعالم الاسلام يتحول لصالح الغربيين والواقع أن هذه العلامة على التدهور لم تسكن هي نهاية المعارك بين الغرب والعثمانيين ، بل كانت علامة على الضعف الذي أصاب معسكر المسلمين في مواجهة التصاعد في القوى الغربية ، فقد توالى من بعد ذلك الهزائم وخاصة في الحرب الروسية التركية ١٧٩٨ — ١٧٧٤ . ويرى بعض المؤرخين أن علامات التدهور بدأت قبل ذلك ، حين نجحت أساطيل الدول المتحدة لمواجهة الأسطول العثماني في موقعة (البيات) عام ١٥٧٩ . غير أنه لا بد من ربط الموقف المتصل بالواجهة العثمانية الاسلامية بالخطوات الواسعة التي خطاها الغرب منذ أزال الأندلس وأعاد أسبانيا إلى عالم الغرب وصفها من القوى الاسلامية والعربية ، وسيطر على جامعاتها ومعاملها وراثتها وحضارتها ، وبدأ في نقلها إلى لغاتها ، وما تبع ذلك في خط واحد من حركات الكشف والسيطرة على البحار ، حين اندفعت البرتغال وأسبانيا في حركة رد فعل عنيف للانتقام والإدالة من أطراف عالم الاسلام ومن شواطئ المغرب وأفريقيا بالغات ، وهو ما وصفه المؤرخون في مقدمتهم أرنولد توينبي بحركة « تطويق عالم الاسلام » هذه الخطة التي بدأها العالم الغربي بتطويق البلاد الاسلامية بدلا من مقابلتها وجها لوجه ، كإفعل خلال الحروب الصليبية ، يقول : وفي طوائفهم حول أفريقيا وصل البحارة البرتغاليون إلى الشواطئ العربية للهند سابقين ببضع سنوات إلى هناك (المغول) آخر موجة من موجات الاسلام التوسعية . هؤلاء الذين قدروا من آسيا الوسطى بطريق البر ، وعندما حقق الأسبانيون ربط المحيطين الأطلسي والهادي مروراً « بمكسيكو » قامت في الفلبين حواجز جديدة أسيوية هذه المرة ، بين المسيحية العربية والاسلام اللذين حتى ذلك التاريخ لم يتجاوزا إلا في الطرف الثاني من العالم في وادي الدانوب وغربي المتوسط ، وهكذا في نهاية القرن السادس عشر بفضل السيطرة على البحار ، استطاع الغرب أن يطوق البلاد الاسلامية ، ولكنه لم يخاطر في شد الحبل إلا في القرن التاسع عشر فيما بعد ، وحتى ذلك التاريخ كانت فكرة بسالة المسلمين العسكرية تفرض الحذر على الغربيين وتشدد هزائم المسلمين أنفسهم لتجعلهم واثقين من أنفسهم ، هذه الثقة المتينة قفى عليها شبتاً فثيناً على أثر الفضل المتوالى الذي منبت به الأباطورية العثمانية وباقي الدول الاسلامية وقد كبدوا إياه خعم بحجز بأسمحة غربية تملك التنكيتك والعلم الذين تقوم عليها الحرب الحديثة .

ولا شك كانت حركة الكشف والملاحة هاملا هاما في إضعاف الوحدة الاسلامية العثمانية وتطعيمها من الخارج ، وقد امتزجت بها حركة موازية لإضعاف هذه الوحدة من الداخل وتمزيقها ، تمثل هذه الحركة حملة الأضعاف من الداخل فيها محاولات دول الغرب فرضه على الدولة العثمانية من

الامتيازات مستغلة فترة الضعف ومتغلطة من حماية المسيحيين في داخل الدولة وسيلة لفرض نفوذها ، وكان هذا النفوذ في أكبر خطر موأم أمره داخل العالم الاسلامي متمثلا في إتاحة الفرصة للاراساليات التبشيرية التي بدأت تسيطر على الثقافة داخل العالم الاسلامي والعربي بوجه خاص ، وكانت هذه الامتيازات من هوامل التفرق وإثارة الفتن من بعد ، وقد كانت مؤامرة ١٨٦٠ بين الموارلة في لبنان من نتائج هذه السياسة . عاشت أوروبا خلال فترة المد العثماني لأوروبا (١٢٠٠ - ١٦٨٣ م) مرحلة خصومه وانتفاض ، لم تنوقف فيها المعارك ولم تتحول العلاقة بين الدولة العثمانية والوحدات التي سيطرت عليها من أوروبا إلى رابطة سياسية أو اندماج ، حيث لم تقم الدولة العثمانية بصهر هذه العناصر ، وإقامة نظام اجتماعي لها يؤهلها للدخول في عالم الاسلام ، كان طابع العلاقة هو طابع السيطرة العسكرية لا الترابط العقلي أو الروحي ، أو الحضاري ، ومن هنا عاشت أوروبا في احساس بالخطر العثماني المباغت ، وقامت علاقة خصومة وعداوة حملت طابع الصراع بين المسيحية والاسلام حتى أطلق على العثمانيين اسم الاسلام وحمل الاسلام تسمية نصر قائم وسياستهم ومفاهيمهم . وإذا كان التوسع العثماني الاسلامي في أوروبا ، يمثل في نظر بعض المفكرين « رد فعل » للحروب الصليبية في فترة بلغت ضعف زمنها ، فإنه قد أعاد تأجيح نار الخلاف والخصومة مما دفع الغرب إلى رد الفعل في عنف لا حد له بمجرد أن ضعفت الدولة العثمانية ، فقد ساد أوروبا انجاء حاصف يحمل طابع الخصومة والانتقام وقص أجنحة الاسلام عن أن يستطع في غده أن يمتلك القوة المادية أو الوحدة أو الايمان وهي العوامل التي تمكنه من مواجهة الغرب أو الانتصار عليه أو التحرر من نفوذه .

وكان مخطط الغرب قد أعد منها سياسيا وعسكريا وثقافيا يحاول أن يقضى على القوة المادية لعالم الاسلام وتمزيق وحدته حتى يحال في حسم شديد دون استئناف مقدراته في مجال الصناعة والتكنيك والقضاء على مقومات فكره التي تعطي القدرة على المقاومة وتدفعه إلى الوحدة ، وذلك بالعمل على إثارة الشبهات من حول تاريخه ولفته ودينه ومفاهيمه ، وتسليط نزعة مادية والباحية « تبشيرية » على شبابه وأجياله الحديدة حتى يحال بينها وبين العوامل الايجابية القادرة على مقاومته وهزيمته ، وذلك بالقضاء على قواه الروحية والجسدية بالنحال والتفرق والتفرق ، وكانت هذه الحرب موجهة أساسا إلى مفاهيم الاسلام باعتبارها أبرز هوامل القوة في بناء عالم الاسلام الديني والاجتماعي وقد كانت حملة الغرب على الدولة العثمانية هنيئة . ومستمرة ، تمثلت في هشرات المؤامرات والنسكتلات بين القوى المختلفة لتمزيق تركيبها وتقسيمها ، وقد امتدت هذه المشروعات طوال فترتي القوة والضعف ، وانحذت أول الأمر سبيل مقاتلة المسلمين بالتجارة بالعواف حول رأس الرجاء

المصالح في محاولة لفرض الحصار الاقتصادي حول عالم الاسلام ، حتى إذا بدأت العثمانية تضعف ، كانت الخطة هي تحرير أجزائها الأوروبية والسيطرة على أجزائها العربية . واتصل بهذا المخطط إنشاء قناة السويس في مصر قلب العالم العربي ، كوسيلة لربط العالم الاسلامي بالعالم الغربي والسيطرة على مقدراته ، يقول دجوفورا الوزير الروماني في كتابه : مائة مشروع لتقسيم تركيا :

Cent Projets de partage de lo Turquie مدة ستة قرون متتابعة ، كانت الشعوب المسيحية تهاجم الدولة العثمانية ، وكان الوزراء ورجال السياسة وأصحاب الأقلام يبيثون برامج تقسيم هذه السلطة ، مما يناهز مائة برنامج ، كانت المصالح الاقتصادية تفرق بين الملوك فإذا جاء الوقت الذي يتسككون فيه عن تركيا (الرجل المريض) انتفخوا . أن السلطة العثمانية لم تسقط دفعة واحدة ولكنها تساقطت قطعة بعد قطعة ، في مدة الأعمار الطوال التي كانت أوروبا تناصبها العداء ، فما السبب ؟ الأسباب كثيرة ، منها السبب الذي نشأ عنه سقوط أكثر الممالك العظمى في العالم (١) سعة الممالك المفتوحة تلك الظارقة للمادة (٢) اختلاف الأمم الخاضعة واستحالة اذابتها في بوتقة واحدة وصعوبة إعطائها كلها فكرة قومية متحدة (٣) فساد الإدارة وارتخاء النظم (٤) ضعف القوة العسكرية (٥) اختلاف الأديان بين سكان السلطنة .

وقد كانت السلطة العثمانية عسكرية محضة مستندة على شرع سماوي ، وكان التسامح هو الذنب العظيم عند الأتراك : فقد أهملت الدولة العثمانية المسيحيين حرمتهم الدينية التامة وخولتهم الحرية المدرسية ، هذه الحرية التي كفلت نوم وترقيتهم ، وقد كانت النصرانية هروية دينية وثيقة كفالت للامم البلقانية جامعة تتأهب للمقاومة ، أقول ، ومن هنا فقد حرص الأوروبيون على هدم هذه الجامعة في عالم الاسلام حين استولوا على بلاده . قال دجوفورا : لقد كانت هداوة الأوروبيين للمسلمين برغم تسامح المسلمين في الدين والحرية الدينية ، قال المؤرخان لافيس ورامبو (من مؤرخي فرنسا) أن عمداً فأنح القسطنطينية كان كأكثر بلاد ما بين الأتراك والمغول بعداً عن كل اضطهاد ديني ، كانت حكومة الترك لا تعارض أحداً في دينه وكان الأتراك لا يحسدون امتيازات الكنيسة الأورثوذكسية ثم ركز دجوفورا على هذا المعنى حين قال : إن من أعظم أسباب انحلال الدولة العثمانية هو مشربها في إعطاء الحرية المذهبية وللدرسية التامتين للأمم المسيحية التي كانت خاضعة لها ، لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحريتين كانت تبث دهايتها القومية ، وتنامك وتنمض وتسير مبرراً قاصداً في طريق الانفصال عن السلطة العثمانية ، ومن خطط بمزيق تركيا : ما قدمه الرهبان وسنشارو للترك من مشروعات يجعلون التجارة فيها أساساً للسيطرة ، وماودة العمل على استعادة بيت المقدس

والسيطرة على العالم الإسلامي ، في استئناف مخططات الحروب الصليبية ، ويرى دجوراً أن هذه المشروعات بدأت في أواخر القرن السادس عشر بعد موقعه لبيانت البحرية وكانت الخطة هي جمع كلمة أوروبا على وقف تقدم الإسلام في قلب أوروبا ، وعمل البابا ماكسيان على دعوة للولاء والأمراء على مقاومة سلطان الدولة العثمانية مجتمعين تحت زعامة البابا . وتم التحالف في ٢٥ مايو ١٥٧١ على إعلان الحرب الهجومية والدفاعية على الأتراك لاسترداد جميع المواقع التي سيطر عليها الأتراك . ومن جملتها تونس والجزائر وطرابلس ، وفي موقعه لبيانت فقد للمسلمون ٣٠ ألف مقاتل و ١٣٠ سفينة ١٠ آلاف أسير ، ووصفت بأنها علامة الإنحدار الأكيد للقوة الإسلامية العثمانية . منذ ذلك الوقت بدأت أوروبا تستعيد أجزاءها البلقانية الخاضعة للدولة العثمانية واستمرت عملية الاسترداد حتى عام ١٩١٨ حين وقف اللورد اللنبي في بيت المقدس ليعلم أن الحروب الصليبية قد انتهت ، وقد نشأت في ظل هذه الحركة أجيال من أوروبا ، تحمل في عقولها ونفوسها طابع الحقد والكراهية للإسلام متمثلة في خصومتهم للدولة العثمانية ، وتحمل طابع الانتقام من تركيا وتقسيم أملاكها والسيطرة عليها وكانت في مجموعها تهدف إلى محو تركيا والإسلام بأسره ، يقول فندال : في هذه المرحلة لم يكن رجل سياسة إلا وهنده برنامج تقسيم السلطنة العثمانية ، وقد استمر ذلك حتى أوائل القرن التاسع عشر حين قدم تاليران (١ أكتوبر ١٨٠٥) مشروعاً بتقسيم السلطنة العثمانية وقد درس نابليون مع الروس هذا المشروع . وكان يرى أن يستولى على فلسطين .

(٣) إذا كان ضعف القوة العسكرية هو العامل الأكبر في تدهور الوحدة الإسلامية العثمانية فإن عامل الانفصال عن جوهر الإسلام ومفهوم فكره ومقوماته الأساسية كان لا شك بعيد الأثر ، فقد سقطت الدول وانهارت النظم في وحدات الإسلام خلال تاريخه الطويل نتيجة هذا الانفصال أو الانحراف عن مفهوم الإسلام . كانت سلبية الصوفية واستعلاء الدراويش وسيطرتهم ، عاملاً هاماً وأساسياً في حركة الجزر المتدفقة في قوة ، ذلك لأن الفلسفة التي غرستها في أعماق القلوب العقول كانت سلبية جبرية تدفع إلى الزهادة والانعطاع والانصراف عن العمل والبناء ، وقواتها ترغيب الجماهير في الفقر والمسكنة ، وبذلك قضت على أبرز مفاهيم الإسلام وهو الإيجابية والعمل والحركة ويصور العلامة نهجت الأثرى كيف كان سلطان طوائف المتصوفين في اليهود الأخير خاصة ، أقوى سلطاناً على عقول الجماهير وكيف كان مسلكتهم يجرى على هدى الطبقات الحاكمة في حجب الأبصار عن ترفهم وباطلهم وتسميهم ، فوطدت المظالم والاستبداد ، ووقعت في وجه الإصلاح والمصلحين ، كما حلت طاقة الأمة وقصفت بقواها عن السمي . ولا شك كانت هذه المرحلة مصدر

تأخر الإسلام وأنحطاط مجتمعه . بينما كانت الحركة الصوفية في خلال الحروب الصليبية وبعدها علامة قوة ونجم ، وكانت في قلب أفريقيا وشمال شرق آسيا هاملاً هاماً من عوامل توسيع رقعة الإسلام . وكانت نظام « الفتوة الصوفية » قد تحولت في الدولة العثمانية إلى قوة ذات تأثير ، وفي مقدمتها الولاية النقشبندية ، وكذلك كان نظام « الأخية » وهو ما يسمى بنظام الأخوة ، هاملاً هاملاً في خلق جو اجتماعي بعيد الأثر في نجدة الغرباء ، وقضاء الحوائج والأخذ على أيدي الظلمة ، والاختفاء بالغرباء من الناس غير أن هذه الحركات التي كانت علامات قوة ، لم تلبث أن تراخت مع الزمن فأصبحت من عوامل الضعف .

(٣) ومن علامات الضعف تمزق الثقافة الإسلامية ، فقد كانت قوة المسلمين في وحدة الثقافة ، وقد بدأ ذلك على نحو باهر في مرحلة الغزو الخارجي والمقاومة ، غير أن الثقافة الإسلامية قد تقاسمتها: اللغتين الفارسية والتركية اللتين ظهرتا إلى جوار اللغة العربية ، وكان المسلمون قد صاغوا ثقافة موحدة ، وانغمروا بمصارة الثقافات اليونانية والهندية والفارسية والرومانية التي انصهرت في بوتقة الإسلام وتبلورت في إطاره القائم على التوحيد والنبوة والإخاء والحربة الممدل . ولم يكن الخلاف في الفروعيات إلا محاولات مرنة لتوسيع مجال المعاملات في نطاق الاجتهاد الذي هو أحد طوابع الفكر الإسلامي الذي يقسم بالوسيلة والشمول والتكامل . وقد كتب الفارسي والتركي والهندي بالعربية ، ومن ثم كان هذا من عوامل تقارب المسلمين والثقافتهم ، وحماية للفكر الإسلامي من غلبة عناصر الفلسفات القديمة وتقليداتها التي تخرج الإسلام عن بساطته ومرونته وقدرته على الحركة والتطور مع الزمن . فلما توزعت الثقافة الإسلامية في اللغات الفارسية والتركية والعربية ، غلبت طوابع جديدة عليها ، كان أبرزها الطابع الصوفي الشهير الذي ظهر في الأدب الفارسي ثم سيطر على الأدب التركي ثم بدأ بالانقضاء بينهما والامتزاج ، مخالفاً لمقومات الفكر الإسلامي العربي اللغة ، مباحداً من جوهر الإسلام ومقوماته ، ومن هنا غلب ذلك الطابع السليبي الذي انضم به الأدب العثماني في مرحلة الضعف . وهو ما تلبه له مجددون ومصلحون من بعد أمثال نامق كمال ، ومحمد هاشم كاشغري وحاولوا تغييره بوصفه هاملاً من عوامل الضعف والتخلف . والحق أن كل محاولات الإصلاح العثماني التي جرت في مجال السياسة أو الفكر لم تحقق نجاحاً ما ، لأنها أجرت محاولاتها على السطح ولم تنمق عوامل الضعف ، ولم تحاول التغيير الجذري الذي يجب أن يعتبر أساساً من مفاهيم الإسلام .

(٤) ضمت الدولة العثمانية — في قطاها الأوربي — عناصر وشعوباً مختلفة : اليونان والبلغاريين

والجرمان والسلاف والعرب والرومانيين والألبان والأرناؤوط . وفي قطاعها الاملاى العربى كانت تنظيم التتار والعرب والأكراد والتركان والأرمن والموارنة والسككندان والفرس والعثمانيون والبربر . . وبعض هذه الأجناس والشعوب تدين بالمسيحية وبعضها يدين بالاسلام وقد عاشت شعوب أوروبا خلال هذه القرون الخمسة أو الستة وهى تعتبر آل عثمان غرباء عنهم للاختلاف فى الجنسية والدين واللغة ، وآفة العثمانيين أنهم هجروا عن تذيب هذه الشعوب فى جسم الدولة الكبرى ، فظلت هذه الأمم محافظة على قومياتها . ومن هنا كانت حركة انتفاضها بمجرد ضعف الدولة العثمانية وتراجعا تراجعا سريعا هائضا . وقد أهانها على ذلك أنها نهضت وتجمعت العثمانيون .

٦ — أغضى العثمانيون عن عملية تصفية الغرب للدولة العربية فى الأندلس ، وكان فى استطاعتهم الانجاء إلى أسبانيا وتحرير المسلمين فيها ، وقد طال أمر تصفية المسلمين والعرب فى أسبانيا زمنا خلال فترة تآلى العثمانيين ، بل أن بعض الأندلسيين الفارين قد التقوا بقيادة الدولة العثمانية وشرحوا لهم ما حل بالمسلمين والعرب من نكبات ، غير أن العثمانيين لم يتخذوا أى مبادرة فى هذا الشأن ، ولما علم قادة أسبانيا أمر اتصال مسلمى الأندلس بالعثمانيين سارهم إلى ترحيل المسلمين إلى خارج البلاد وقد بلغوا فى تقدير المؤرخين ٦٠٠ ألف ، وإن استطاع خير الدين بربروس أن يؤازر الأندلسيين بفرض سلطانه على البحر المتوسط ، غير أن ذلك كان فى مجال النار بعد أن تمت تصفية الأندلس ، ولا جرم قد شن بعض الغارات الموقفة على الأسبان فى الثغور وعلى قوافلهم البحرية الفاذية إلى الشرق . وقد أشار المؤرخ الألمانى ليوبولد زانكى إلى موقف آل عثمان فقال « لو هاجم العثمانيون أسبانيا لما تجمرات البندقية على مساعدتها وهى تكاد تكون فى قبضة العثمانيين لاتصال الحدود بينهما ، وقد كان تعرض السلطان للبندقية فى فتح قبرص ، مما حرض فيليب الثانى ملك أسبانيا ائتلاف من خطر تركيا عليه ضم أسطوله إلى أسطول (البندقية) وأسطول البابا فسكان موقعة (ليبانتة) التى أضاعت سيادة تركيا البحرية ، فلما أمنت أسبانيا عقب موقعة ليبانتة من آخر نصير يرحى للمسلمين أقدمت على إجلاد من لم يرض بالتناصر منهم » .

(٣٣)

حركات اليقظة والتجديد

* استيقظت روح الاسلام في كل رقعة من رقع عالم الاسلام فهب أتباع محمد من مراکش
إلا الصين ومن تركستان حتى السكونف وهبوب العاصفة الزعزع لا يعرف مسنقرها ، قدح الزناد في
صحراء شبه الجزيرة ، ثم الشرر يتطاير إلى كل جانب من جوانب العالم الاسلامي . (لوثروب)

* * *

ظل الاسلام قادراً من طول تاريخه - كظاهرة عضوية لا تتخلف - قادراً على الانبعاث من
داخله ، حين تتحرف مفاهيمه ، أو يتخلف عالم الاسلام عن مفهوم الاسلام ، وكانت مقومات
الاسلام الأساسية قادرة على أن تجدد المجتمع الاسلامي وتقوم نظمه في مرحلة إنحدار الدولة العثمانية
قد صدرت عن تجديد مفهوم الاسلام والانحراف عن مضمونه الأساسي بوصفه شاملاً متكاملًا وسطيًا بما.

أهوى بالوحدة الاسلامية العثمانية ، غير أن اليقظة العربية للقضاء على غلبة مفهوم الجبرية
الصوفية لم تنح لها الفرصة الكافية لتحقيق البعث ، كانت قوى الغرب التي ارتدت مهزومة في
الحروب الصليبية خلال قرنين والتي واجهت « المد الاسلامي » خلال خمسة قرون في قلب أوروبا قد
هاودت عملية الغزو من جديد وفق أساليب مستحدثة لا تعتمد على الغزو الجاثم المضطرب ، بل على
منهج علمي قوامه التنظيم الحربي ، والكشف ، والتجارة ، ومحاصرة الموانئ ، وعمليات التطويق
الاقتصادي العسكري .

ومن هنا سارت حركة اليقظة والتجديد الإسلامي مع حركة الاستعمار والنفوذ الغربي ،
وكانت هذه اليقظة تمثل قدرة الأمة العربية على حل لواء مسيرة الإسلام وبمئة وفق مفاهيمه الأساسية
واندفاعه كلوة مقاومة ضخمة إزاء النفوذ الاستعماري الذي كان مندفعاً للسيطرة على عالم الإسلام
وانتخاذ أما كن الدولة العثمانية وتمزيق أواصر وحدة عالم الإسلام ووحدة الأمة العربية كسلاح أساسي
في القضاء على مضامين الفكر الإسلامي التي كانت قادرة على إمداد أهل بالقوة على المقاومة والبناء
والحركة . ومن هنا كانت حركة التجديد واليقظة الإسلامية تعمل في هذه مجالات في وقت واحد .
مجال : تجديد الإسلام نفسه وإزالة عوامل الضعف والجمود . ومجال : مقاومة نفوذ الاخلال بالحرب
وحركات المقاومة . ومجال : بناء حركات إصلاحية في مصر والهند والجزيرة والسودان وجزيرة ليبيا .

ومجال : العمل الوطنى الخالص فى نطاق التنظيمات السياسية الحديثة . ومجال : الوحدة العربية بنفس مضمون الوحدة الإسلامية وهو التصدى لتنفيذ الاستغاري وتوسيع جهة المقاومة واهليتها ضد .

فى كل هذه القطاعات وفى كل مظاهر فوق أرض عالم الإسلام منذ بدأت حركة الغزو الاستغاري الحديث كانت فى أعماقها موجة من موجات اليقظة العربية الإسلامية مهما حمل اسمها أو مظهرها من من معانى أو مسميات جديدة عصرية ، فقد تحوالت هذه الحركات وتطورت من الطوايع الإسلامية الصرفة إلى الطوايع الوطنية والقومية ، ثم إلى الطوايع الديمقراطية والاشتراكية ولم تسكن فى مجموعها إلا أسلحة لها طابع العصر ، وروح التطور ، ولكنها ظلت فى أعماق أعماقها علامات طريق طويل يمكن أن يطلق عليه اسم « اليقظة العربية الإسلامية » .

وفى هذا يقول العلامة والفرد كابتول سميت : إن الحركة القومية هى حركة مقاومة للاستعمار الحديث ، ولم تسكن حركات القومية مطابقة للإسلام فحسب ، بل هى جزء لا يتجزأ من فكرة بعث الإسلام ، فنضال الأندلسيين للمسلمين للتخلص من الهولنديين ، وكفاح السوريين ومسلمي الغرب للتخلص من الفرنسيين ، كل ذلك كان جزءاً من حركة المسلمين لبناء مجتمع إسلامي فى العصر الحاضر ، بل أن طرد الأتراك الليونانيين ١٩٢٢ والإيرانيين للقضاء على منطقة نفوذ الروس والانجليز كلها خطوات نحو إحياء الإسلام ، فكل المسلمون مسلمون إجتماعياً وسياسياً ، والصفة الإسلامية غالبية على كل الحركات الوطنية حتى فى الحالات التى يكون القادة فيها قد تأثروا بالغرب تصبح هذه الحركات إسلامية بالنسبة للجمهور والاتباع ، وبالجملة فإن الإسلام فى العصر الحاضر قد احتضن كل النزعات والحركات القومية .

وعندنا أن الغزو الاستغاري الجديد كان هو التحدى الكبير الذى لوى حركات اليقظة والبعث الإسلامية وأعطاه طابع التحدى ورد الفعل والمقاومة لتنفيذ الغربى الذى لم يكن تسليماً سياسياً أو عسكرياً فحسب ، ولكنها كان سيطرة كاملة المقدرات والقيم فى مجال الفكر والمجتمع والاقتصاد والسياسة ومن هنا فقد كانت مواجهته للفكر الإسلامى بفكر آخر من أكبر تحديات حركة التمدن الإسلامى .

(٢)

بدأت البيقظة العربية الاسلامية كقوة حية بدولة للقوة الممانيّة الاسلامية التي ضعفت وأصابها التخلل في منتصف القرن الثاني عشر ١١٥٣ هـ - ١٢٤٠ م جريا على ناموس حتمية التجدد وتصحيح المفاهيم ، وهي الظاهرة التي لم تتخلف خلال تاريخ الاسلام كله ، سواء بالدعوة الفكرية على يد المصلحين أم بالحركة السياسية على يد القادة وبناء الدول ، وقد برزت ظاهرة التجدد هذه المرة في قلب الأمة العربية ومن محوريين في وقت واحد : محور « قاهرة الأزهر » ومحور جزيرة العرب حيث انبعث الاسلام أول مرة .

أما في القاهرة فكانت تحمل طابع التحرر من ظلم الأمراء والولاة ، وهو من أبرز مفاهيم الاسلام وكان ذلك على أيدي العلماء الذين يزوروا لأول مرة كقوة قائمة بمد أن كان النفوذ الاجتياحي كله في يد زعماء الصوفية ، وفي الجزيرة كانت الدعوة تحمل طابع التحرر من الجبرية الصوفية بإبراز مفهوم الاسلام الأصيل : التوحيد . وفي خلال ستين عاماً منذ ظهرت دعوة التوحيد بقيادة الامام محمد بن عبد الوهاب في نجد حتى وصول الحملة الفرنسية إلى مصر كانت القاهرة تروج بحركة العلماء في مقاومة نفوذ الأمراء باسم مفهوم الاسلام ، وفي أوائل القرن الثالث عشر الهجري كانت البيقظة الاسلامية التي قادتها الأمة العربية سنة ١٢١٣ هـ - ١٢٩٨ م قد اتخذت تعمق وهيبة في المجالين : تحرير العقيدة بالتوحيد وتحرير الأمة بالحرية ، ولم يكن مفهوم التوحيد في الاسلام إلا خلعاً للعبودية والقلة لمن سوى الله وحده .

ومن هنا كانت الدعوة إلى التوحيد نفسها سلاحاً أساسياً لمقاومة الاستبداد ، ثم امتد المعنى واتسع بمقاومة النفوذ الاجنبي والاستعمار ، وكان هذا المفهوم قد نضج خلال ستين عاماً حتى بدأ أثره واضحاً في مقاومة أول غزو استعماري مباشر ، بعد مرحلة الكشف والاستعمار المبطن بالتجارة في شواطئ أفريقيا والجزيرة العربية والهند وأرخبيل الملايو وهي مرحلة (١٦٠٠ هـ - ١٢٩٨ م) .

وكان وصول الحملة الفرنسية إلى مصر إيذاناً ببدء مرحلة الغزو العسكري السافر لعالم الاسلام والتركيز بنوع خاص على « الأمة العربية » بحسبانها القوة الجديدة التي تحل لواء البيقظة في سبيل مقاومة (١) جبرية الصوفية التي كانت طابع المرحلة السابقة من الاسلام الظلم (٢) مقاومة استبداد الأمراء ونفوذ الغرب المتزايد وباسم مفاهيم الاسلام الأصيلة التي حملها العلماء ، كانت مقاومة مصر

للحملة الفرنسية ١٧٧٩ ، وللحملة الإنجليزية بعدها ١٨٠٧ وللاولى العثمانى خورشيد ، ثم لظالم محمد على من بعد ، وكان عمر مكرم رمزاً على هذه المرحلة كلها ومعها عديد من العلماء .

(٢) ثم تطورت حركة اليقظة الإسلامية وتأقلت في طوابع مختلفة ، كان أبرزها حركة السنوسى في طرابلس ثم حركة المهدي في السودان وهاجر كنان مستمدتان أساساً من مفهوم الاسلام ، وتعتبران استمراراً لحركة التوحيد . وقد كانت الحركة السنوسية بمثابة رد فعل للنفوذ الاستعماري بعد احتلال فرنسا للجزائر وهو أول استعمار مركز على الأرض العربية ، وقد واجه المسلمون ذلك بميلين متوازيين : (١) العمل العسكري الحربي بقيادة الأمير عبد القادر وقد استمرت أعمال المقاومة سبعة عشر عاماً . (٢) العمل التربوي الاسلامي بقيادة الامام محمد على السنوسى للقيام بحركة إسلامية شاملة لمواجهة الاستعمار الغربي للمتخضر للتقضاخ على العالم العربي . ثم كانت حركة محمد احمد للهدى (١٢٨٧ — ١٨٧٠) حركة سياسية تحريرية للتخلص من النفوذ للسيطر وقد قضى عليها الاستعمار البريطاني بعد احتلال مصر .

(٣) ثم انبثقت من قلب هذه الحركة موجة أخرى هي حركة الجامعة الإسلامية التي قادها جمال الدين (١٢٨٨ هـ — ١٢٧١ م) والتي بناها بعد ذلك السلطان عبد الحميد واصطدمت في آخر أيامها بحركتي الجامعة الطورانية التركية والوحدة العربية . (٤) ومن خلال حركات اليقظة ظهرت ثورة الهند (١٨٥٧) وثورة فارس (١٨٩٥) وثورة مصر بقيادة عرابي ١٨٨٢ . (٥) حركة الإصلاح الدستوري والاجتماعي ويشمل في دعوته خير الدين التونسي ١٢٧٨ — ١٨٦٠ م وحركة مدحت في الدعوة للدستور التركي ١٢٨٤ — ١٨٦٨ . وحركة اسماعيل اللويلحي في الدعوة للدستور المصري ١٢٩٧ — ١٨٧٩ .

ولم تلبث حركة اليقظة العربية الإسلامية أن تبلورت في منهج على فكرى ثقافى في حركتين متجاورتين : حركة محمد عبده وحركة عبد الرحمن الكواكبي ، وقد توسعت حركة محمد عبده إلى آفاق المغرب كله وتبلورت في الحركة السلفية التي قاومت النفوذ الاستعماري الفرنسي ، وهكذا حفل القرن الثالث عشر الهجرى بحملات متتابة وموجات متوالية من هوامل اليقظة في مختلف ميادين المقاومة والتجديد والإصلاح . فإذا أضفنا إلى هذا حركة تطوير الفكر بالترجمة والتأليف التي قادها رفاعة الطهطاوى وهلى مبارك وحسن المطار وحسن الطويل لعرفنا إلى أى مدى أمكن تعميق حركة اليقظة . وأبرز ما انسمت به هذه المرحلة :

(١) حركات مقاومة الاستعمار مقاومة عسكرية في الجزائر (الأمير عبد القادر) ، وفي مصر (هراي) وفي السودان (التعايشي) وفي القوقاز (شامل) وثورة المسلمين في الهند . (٢) حركة فكرية تحولت إلى دولة في نجد (١٤٧٠ - ١٨٩٣) . (٣) حركة سياسية في مصر أقامت إمبراطورية عربية (مصر والشام والجزيرة) .

وقد استطاع النفوذ الأجنبي المتدفع في حركة الغزو الاستعماري الإدانة من هذه الحركات وفرض نفوذه العسكري والسياسي ، غير أن الملاحظ بوضوح أن المسلمين والعرب لم يسلموا إلا بعد قتال مرير وبعد أن استنفذوا كل وسائل المقاومة ، وإذا كانت حركة المقاومة العسكرية توقفت ، فإن حركة البقعة العربية الإسلامية وهي في أحد شقيها حركة مقاومة بالكلمة لم تلبس ، حتى بعد سقوط الوحدات المختلفة لعالم الإسلام في قبضة نفوذ الاحتلال ، فقد تعمدت حركة جديدة من المقاومة من طريق الفكر وتصحيح مفاهيم الإسلام والكشف عن جوهره ، ومحاربة النفوذ الاستعماري من خلال القيم الأساسية للإسلام والفكر الإسلامي العربي .

(٣)

وإن مفهوم حركات البقعة والتجديد في تاريخ الإسلام كله تتمثل في هذه القاعدة « إن الإسلام مهدد دائماً بالاضمحلال ، لما يتطرق إلى أسسه من بدع تغطي وجهه الحقيقي ، ونحجب مفهومه الأساسي وأهدافه وقيمه العليا . وأنه لا بد من تطهير مجرى الإسلام أولاً بأول والحيلولة دون انحرافه عن مفاهيمه الأساسية وعن جوهره المتمثل في : « الشمول والتكامل والوسطية » ووفق هذا المفهوم بدأت حركة التوحيد وثابتها حركات تصحيح المفاهيم والمقاومة والجامعة الإسلامية والوحدة العربية .

١ — قاد حركة التوحيد : الإمام محمد بن عبد الوهاب وكانت أبرز أهدافه .

(١) ضياحة شعار الإسلام في كلمة التوحيد دون ضواها (٢) تنقية الإسلام من البدع والأردان

التي خلقت به (٣) التحرر والاستقلال ورفع يد الاستغلال والظلم عن دين العرب (٤) إيجاد وحدة سياسية إسلامية . ويقدر الباحثون أن « دهوة التوحيد » كانت رد الفعل الطبيعي لانحراف حركة الصوفية عن مفهوم الإسلام ، وأنها كانت محاولة لتصحيح الجوهر بعد أن غلبت الصوفية في فترة الانحدار والضعف مفهوم « الجبرية » والإسلام لظلم والاستبداد . وليس شك أن الحركة الصوفية استطاعت أن تحقق في مرحلة الوحدة الإسلامية النهائية نتائج ضخمة في كسب مجموعات كبيرة من

الوثنيين ونحوهم إلى الإسلام . حيث استطاعت أن تعد الإسلام الفكري لا السياسي إلى أجزاء واسعة في شمال وغرب ووسط أفريقيا وجنوب شرق آسيا ، غير أن هذه الجماعات الإسلامية الجديدة كانت مفاهيمها قاصرة على المفهوم الروحي الخالص وهو شطر الإسلام وليس الإسلام كله .

وقد كان أحق ما أبرزته دهوة التوحيد أمران هامين هما جامع مفهوم الانبعاث في الإسلام (أولاً) باب الاجتهاد مفتوح وأن لكل مسلم الحق في أن يجتهد لفهم دينه . (ثانياً) ضرورة القيام بفريضة الجهاد .

وقد ركز الإمام محمد بن عبد الوهاب على اعتبار أن الكتاب والسنة هما دستور الإسلام الوحيد ونادى باتخاذ أسلوب الفطرة في فهم الإسلام بعيداً عن تعقيدات للتكديس والفلاسفة والصوفية . ويرى بعض المؤرخين أن « دهوة » التوحيد التي أطلق عليها « الوهابية » والتي تحولت إلى « حركة » حين اتصلت بأمير سعود ، لم تحقق لها أن تحيط دهوتها بأسلوب من البراعة السياسية ، وللرونة ، لاستطاعت أن تسكب القلوب إليها ، وهندنا أن طابع هذه الدعوة مستمد من بيئتها وتكوين دعائها النفسي والاجتماعي ، وأنها في مواجهة مد عنيف من الجبرية والضعف والاسلام الذي فرضته الصوفية ، قد اقتضت — شأن كل الحركات والدعوات التي تقوم في مواجهة تحد كبير — أن تصل نفس للدي من التطرف في الجانب الآخر ، وهذا سر ما وصفت به من طابع عسكري أو تشدد ، أو عدم للرونة في قبول وجهة النظر الأخرى ، أو للساومة ، أو ماجرت إليه من تصنيف للمسلمين بحيث اعتبرت هدداً كبيراً منهم ممن يجب محاربتهم ، وينصل بهذا ما دعاها إلى القصور عن طابع المعاصرة في الحرب والتسليح أو ميدان الصناعة أو غيرها ، وعندنا أن أهميتها لم تسكن في مجال « الحركة » وإقامة الدولة بقدر ما كان في بحث النفس العربية وإيقاظ العقل الإسلامي وإعادة النظر في مفهوم الإسلام ، ونحوه من الجزئيات والانحرافات والبدع وتصفية العقيدة وتطهير الفكر الإسلامي من الانحرافات والأوهام وذلك هو أثرها البالغ المبني في كل حركات البقطة والتحديث والإصلاح الإسلامي التي تلتها . وبالجملة فإن دهوة التوحيد (الوهابية) كانت ثورة على الاستبداد والضعف والانحلال الذي آل إليه عالم الإسلام ، وأول مواجهة عربية حقيقية لحل لواء الدعوة الإسلامية بعد ضعف الدولة العثمانية عنها وقد استمدت مفهومها من نفس الأصل التي أقام عليها (ابن تيمية ٧٢٨هـ) وتلميذه ابن قيم الجوزية دهوتها قبل أربعة قرون ، وكانت دهوة ابن تيمية قد ضعفت ولكنها لم تتوقف ، فقد ظل العلماء يعتقدونها ، ويتوالى ظهورها ، جيلاً بعد جيل ومن السابقين ل محمد بن عبد الوهاب : همام النجدي سنة ١٠٩٦ في نجد وإسماعيل الصنماني في صنعاء (وهو مؤلف كتاب تطهير الاعتقاد)

وقد ترك محمد ابن عبد الوهاب بحق أثرآ في بقطة الإسلام أكبر مما كان يتطامح إليه ابن تيمية . وقد دخلت الحركة الوهابية فعلا في صراع مع الشيعة وللنصوفة وصل إلى القتال المسلح على حدود العراق.

الحركة الصوفية

ظلت الحركة الصوفية منذ القرن الثامن الهجري توسع آفاق الإسلام وكانت حركة ابن تيمية ومن بعده ابن القيم في تصحيح مفاهيمها ، متصلة مستمرة في هديد من تلاميذها ، وإن ظلت خافتة الصدى إزاء استقلال الأمراء والولاة للحركة الصوفية بوصفها وسيلة إلى تأصيل التواكل والتسليم والقبول بجزرية الظلم ، وقد بلغ أمر الصوفية قننه في الانحراف عن مفاهيم الإسلام حين انضم الفقهاء والعلماء إلى المنظمات الصوفية وانصهروا فيها ، غير أنه منذ منتصف القرن الثاني عشر الهجري بدأت يقظة العلماء والفقهاء ، وقد اشتد تأثير مفهوم ابن تيمية لجوهر الإسلام سيطرة على نفوسهم ، وأخذت كتابات ابن تيمية نجما من جديد على أقلام بعض أتباعه حتى كانت صيحة محمد بن عبد الوهاب أقوى هذه الصيحات ، ويرى « جب » أن الحركة الصوفية قد أكبث الإسلام حيوية كبيرة ، غير أن غلبة مفاهيم الأدب الفارسي والأدب التركي المستمد منه والقائمة على طوايع صوفية مفرقة في الانحراف نحو الخلل ووحدة الوجود ، قد أبعد مفهوم الصوفية عن شمول الإسلام وقصره على جانب القلب وحده ، ومن ثم كان لا بد كرد فعل لا يتحلف في تاريخ الإسلام ، أن تبرز حركة لتصحيح المفاهيم والسكشاف عن جوهر الاسلام وحقائقه وفق أسسه الأولى ، بمثابة في حركة التوحيد التي حل لواثها محمد بن عبد الوهاب ، وأهمية هذه الحركة ليس في تأسيس دولة يقدر أهميتها في خلق نقطة تحول جديدة عن محور الروحية الصوفية الذي ركز المسلمون عليه أكثر من خمسة قرون إلى مفهوم الاسلام الأساسي : متكاملا شاملا جامع بين العقل والقلب ، مهاجما أشد الهجوم مفهوم « الجبرية » الذي لا يتعرف الاسلام به ولا يقره ، والذي كان مصدراً من مصادر الضعف الذي عرض عالم الاسلام لأزمته المتمثلة في تدمير الغرب للوحدة الاسلامية المعنانية . وتطويق عالم الاسلام كله وتخزيقه بالاحتلال والسيطرة . ومن هنا كانت أهمية « حركة التوحيد » في أنها تمثل طلائع البقطة العربية الاسلامية قبل وصول الحملة الفرنسية من ناحية ، وإيقاظ عالم الاسلام لمواجهة الغزو الغربي ، وقد كان أثرها واضحا في حركات : شريعة الله وسيد أحمد ضد سلطة المغول والسيخ والبريطانيين وحركة أحمد خان (الهند) والسنوسية (طرابلس الغرب) والمهدية بالسودان وحركة جمال الدين في الهند وفارس ومصر ، وحركة محمد عبده وصحيفة المنار ورشيد رضا . كما امتد نفوذ حركة

التوحيد (محمد بن عبد الوهاب) إلى قلب الأقطار البعيدة مثل نيجيريا وسومطرة وكان لها دورها في تأريث الحركات الثورية . وكان اتجاه الحركات الإسلامية كلها واضحا في مواجهة النفوذ الغربي ومقاومته وفي نفس الوقت ، وفي ضوء مفهوم التوحيد المجدد ظهرت حركات ذات طابع صوفي ، كانت بعيدة الأثر في نشر الإسلام وتربية الشخصية الإسلامية وبنائها كشخصية مثقفة ومحاربة في نفس الوقت ، وكانت الحركة السنوسية تمثل هذا المفهوم على خير وجه كما تمثل الحركة المهدية . وكان لنشاط الطرق النيجانية والقادرية والمرغنية الصوفية في مجال التبشير بالإسلام أبعد الأثر ، فقد قامت بدور كبير خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر في كل من الجزائر ومراكش ، وفي صحراء أفريقيا الغربية ، وقامت في الهند حركات مماثلة تحت قيادة الفرق الصوفية . غير أن بعض هذه الفرق الصوفية قد انحرفت من بعد مرة أخرى ، في مواجهة الاستعمار الفرنسي الذي حاول استغلالها فسكانت الحركة السلفية المغربية حركة مقاومة لها .

السنوسية (١١٤٧ هـ - ١٨٣٤ م)

تمثل « السنوسية » الحلقة الوسطى بين دهوة التوحيد وبين الجامعة الإسلامية ، وتجميع في نفس الوقت بين الدعوة والحركة ، وترتبط بين التوحيد والتصوف وقد انبعثت السنوسية كرد فعل لاحتلال فرنسا للجزائر وكان محمد بن علي السنوسي جزائري الأصل ، فدفعته بالصدمة المذهلة إلى الطواف بالعالم الإسلامي بحثا وراء محاولة جهادية إسلامية للمقاومة ، ثم استقر رأيه على العمل في الصحراء على دعامتين أساسيتين . (أولا) بناء أجيال من شباب المسلمين بالتربية الإسلامية والعسكرية في نفس الوقت . (ثانيا) نشر الإسلام في مجاهل أفريقيا . وقد رحمت السنوسية مفهومها على أساس أن تحرير عالم الإسلام سياسيا من الغزو الغربي يجب أن يسبقه « إبعاش روحي ومعنوي عميق للمسلمين » توطئة لتحقيق وحدة الشعوب الإسلامية وقد قامت على أصول ثلاثة : الدين والاجتماع والسياسة . قد انتشرت السنوسية في السودان الغربي وأواسط أفريقيا ، وقد كان الإمام السنوسي مجتهدا مزج بين المذاهب (الأربعة) السنية المعروفة ثم أضاف إليها ما استنبطه من الصنن والمذاهب وأجملها في مذهب واحد . وقد بلغ عدد الزوايا السنوسية ١١٩٧ هـ - ١٨٨٤ م مائة منتشرة بين برقة وطرابلس وفزان وطريق مصر وطريق واداي وشبه الجزيرة العربية والجزيرة بتونس ومراكش ، وتوسع نفوذ السنوسية في أفريقيا الغربية ولما ولي محمد المهدي بعد وفاة والده ١٨٩٥ هـ عن الدهوة ، ودهم نفوذها . فلم السنوسيين استعمال الأسلحة التي كانت تهرب من ميناء

طبرق ، ومن هنا بدأ نفوذ السنوسيين يزحف الاستعمار الأوربي ، ويهدد نفوذه في قلب أفريقيا :
 واتسع نطاق الحركة سياسيا فبلغ من الحدود المصرية شرقا إلى شواطئ الأطلسي غربا من خلال
 ليبيا وبرقة وطرابلس وفزان وصحراء الجزائر ومنطقة تشاد وكان للسنوسيين من بعد دور ضخم
 في مقاومه الاحتلال الإيطالي سنة ١٩١١.

الجامعة الإسلامية

ظهرت الجامعة الإسلامية كرحلة متقدمة لدعوة التوحيد ، ولملت كمحاوله سياسيه للتجمع
 لمواجهة الغزو الاستعاري ومقاومته كوحدة ، وكان مفهوم جمال الدين الأفغاني للجامعة الإسلامية مفهوما
 تقديميا قائما على استخلاص أكبر قدر من الحضارة لمواجهة الاستعمار بنفس أسلمته ، والإقبال على
 العلوم الأوربية وأساليب الحكم المصرية ، وتطوير الإسلام من الشوائب ، ونضامن المسلمين وتوحيد
 كلمتهم والنضيق على استبداد الأمراء بالحكم الدستوري والشورى واستكمال أسباب القوة المادية
 ونبد الخلافات الجلسية والمذهبية ، وقد كانت دعوة جمال الدين الأفغاني أقوى موجة من موجات
 مفهوم البقطة العربية الإسلامية ، وكان إيمان جمال الدين بأن الأمة العربية هي التي تستطيع أن تحمل
 لواء البقطة هو مادفه إلى أن يترك الأفغان والهند وفارس وأن يختار مصر لبث دعوته ، وقد تابعه
 مجموعة ضخمة من المفكرين الذين برزوا أوائل القرن الرابع عشر : محمد عبده ورشيد رضا ومصطفى
 الغلاييني وشكيب أرسلان .

وقد حاول السلطان عبد الحميد أن يدمج دعوة جمال الدين بعد أن تهرورت الأجزاء الأوربية
 من الدولة العثمانية وانفصلت عنها ، وحين التقى جمال الدين والسلطان عبد الحميد تبين مدى الفرق
 بين الفكرة التي يحملها الأفغاني في سبيل غاية محدودة ، والفكرة التي يحملها السلطان في سبيل دعم
 الدولة العثمانية فقد واجبه جمال الدين بمشروع يرمي إلى إنشاء خديويات على غرار خديوية مصر تصبح
 مستقلة ذاتيا وتابعة لسلطته ، فاذا تحقق ذلك أمكن أن تتم خطوة تلقائية تالية لذلك ، بأن تنتظم
 إيران وأفغانستان والهند تحت لواء السلطة ويصبح الإسلام قوة منيعة يرهب الغرب جانبها وتستطيع
 أن تواجه الزحف الاستعاري . ويتحقق قيام جامعة إسلامية لا تضم تركيا والعالم العربي وحده بل
 تضم العالم الإسلامي كله .

ولا بد لنجاح للمشروع من استعراب الأتراك وجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية « لو استعرب
 الأتراك لرأسوا ذلك الملك وهدلوا في أهله » غير أن السلطان عبيد الحميد لم يكن حين دعا إلى
 مشروعه ليستمثف مثل هذا العمل وذلك فقد انطوى مشروع جمال الدين .

وقد صور جمال الدين مفهومه لإيقاظ الإسلام في عبارات واضحة صريحة حين قال : « العالم النصراني على اختلاف أمته وشعوبه هرط وجنسية هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم والإسلام على الخصوص ، لجميع الدول النصرانية متحدة معا على ذلك الممالك الإسلامية ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، إن الروح الصليبية لم تبرح كاملة في صدور النصارى كون النار في الرماد ، وروح التعصب لم تنفك حية متلججة في قلوبهم حتى اليوم كما كانت في قلب بطرس الناسك من قبل . فالنصرانية لم يزل التعصب مستقرا في عناصرها ، متغلغلا في أحشائها ، ومنتشيا في كل هرق من هروقتها ، وهي أبداً ناظرة إلى الإسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الديني للمقوت تنتحل الدول النصرانية إهذاراً لها في كسرها وهجومها وعدوانها على للممالك الإسلامية وإذلالها وإكرامها بقولها أن للممالك الإسلامية هذه إنما هي من الانحطاط والتدليل بحيث لا تستطيع أن تكون قوامه على شئون نفسها ، وفوق جميع هذا فهي النصرانية عينا لم تفنأ تعمل هذا من ناحية وتندرج بألوف الدرائع من نواحي أخرى حتى بالحرب والحديد والنار للقضاء على كل حركة حاولها المسلمون في بلادهم وديارهم في سبيل الإصلاح والنهضة ، جميع هذا يوضح أن العالم الإسلامي يجب أن يتحد اتحاداً دفاعياً عاماً مستمسك الأطراف وثيق العرى ليستطيع بذلك القيام به كيانه ووقاية نفسه من القضاء للقبل والوصول إلى هذه الغاية الكبيرة إنما يجب عليه اكتناء تقدم الغرب والوقوف على قدرته وقدراته . وبالجمله فإن جمال الدين كان يرى أن ضعف المجتمع الإسلامي هو هلة تأخره ، ومن أجل هذا طاف بالبلاد الإسلامية (الهند ، إيران ، أفغان ، مصر ، تركيا) يلهب حماس المسلمين وينذ كرم بأيجاد للماضى ، ويدعو إلى أمرين : مقاومة النفوذ الأجنبي والقدرة على كسب علوم الغرب وثقافته . وكان طابع المقاومة للجبرية واضحاً في كلماته حين دعا إلى أن يغير المسلمون ما بأنفسهم حتى يغير الله ما بهم وذلك بالعمل وشجب الجلود . وتمثل حركة محمد عبده إمتداداً طبيعياً للعمل السياسى الذى قام به مع جمال الدين الأفغانى ومنطلقاته منه إلى مفهوم جديد ، ربما جاء نتيجة لأن أهداف جمال الدين الأفغانى لم تتحقق ، وربما لطبيعة تكوين محمد عبده ، ذلك هو تبلور إيمانه في حقيقة واحدة ، هي أن التربية والعلم هي الحال الوحيد لليقظة والمقاومة الاستمرار . وقام مفهوم السكواكي لليقظة الإسلامية على أساس أن العرب هم القوة الوحيدة لجمع الكلمة وأن يقظة الإسلام انبعثت أساساً من الأمة العربية ، فقد أكدت كتابات السكواكي مفهوم قدرة الأمة العربية على حمل لواء يقظة الإسلام ، وإذا كان جمال الدين قد هاجر إلى مصر بوصفها قلب الأمة العربية والعالم الإسلامى كله في هذه الفترة ، وإذا كان جمال الدين يدعو إلى تجميع المسلمين في وجه الغزو الأجنبي أساساً فتكون قادرة على أن تحمل

لواء المقاومة والنجم ورفع راية الإسلام والدفاع عنه وتصحيح مفاهيمه . وقد هاجم السكواكي
التصوف الزائف الذي حله بعض دعاة الجبرية، ممن كانوا يبنون في الناس روح الاستسلام والاستكانة
للعناكم المستبد وللفوز الغربي ، وكان يرى أن انحمار الدولة العثمانية وأزمة عالم الإسلام في هذه المرحلة
تنبأت أساساً من فرض « جبرية » ليست من الإسلام أساساً ، استطاعت أن تشل العزائم ، وقد افقد
كان إيمانه منصباً على إيقاظ مقومات الإسلام الأصيلة وهي : الحرية والقوة والوحدة والعلم ، وكان
أبرز ما دعا إليه السكواكي مقاومة الاستبداد والمستبدين . وقد حمل السكواكي في كتابه « أم القرى »
أسباب الضعف والتأخر ، وقال إن مرجعه إلى ضعف الدولة العثمانية في السنين سنة الأخيرة وحمل
على « الأمراء المستبدين ، والعلماء المدلسين وجهه المتصوفين » ويرى السكواكي أن موجة الاستعمار
الغربي الحديث قد انصبت بأكبر قدر منذ فاطمة القرن التاسع عشر (الثالث عشر الهجري) على
العالم العربي .

الحركة السلفية

ومن خلال مفاهيم الإمام محمد عبده التي تبلورت بعد الثورة العرابية وبعد هودته من المنفى
(١٨٨٦ تقريباً) وبعد انفصاله عن السيد جمال الدين الأفغاني وعلى أساس الخطبة التي حملت لواءها
« المنار سنة ١٨٨٩ » وقادها تلميذه « رشيد رضا » تكونت مدرسة في شمال أفريقيا ، وقد تمركزت
هذه المدرسة في المغرب الأقصى الذي لم يتجلى للشيخ عبده زيارته حين زار تونس والجزائر . ويرجع
العلامة هلال الفاسي جنود هذه الحركة إلى ابن حنبل وابن تيمية والشاطبي ، وإلى دهوة الإمام
محمد بن عبد الوهاب التي حملت لواء « تجديد عقائد التوحيد وتخليصها من شوائب البدع والعودة
إلى الإسلام في معنيته الأولى : الكتاب والسنة . ولقد قامت الحركة السلفية في المغرب وفي الجزائر
كرد فعل لما نشأ من انتشار الشاذلية في بلادنا مع سوء الفهم لصوفيتها الحقيقية ، إذ ترتب على ذلك
ازدهار شأن طائفة من المشايخ والمرابطين ، أصبحوا يملكون زمام الأمر في الأمة ويسيطرون في الأنحاء
التي يرون ، ورأى الأتراك أن يستغلوا لاستمرار سلطتهم في الجزائر ، أما في المغرب حيث لا نفوذ
للسلطان العثماني فقد أمكن خروج هذه الدهوة ، فقد دعا السلطان مولاي سليمان العلوي إلى السلفية
الأولى ومقاومة الطرق وتسميتها . ويرجع العلامة الفاسي تحول الانقباض إلى القوة العسكرية والعمل
السياسي كنتيجة لهزيمة المسلمين أمام قوات الاستعمار في الجزائر مما دفعهم إلى التفكير في :
« التجديد العسكري والاجتماعي » .

فقد كتب أحد علماء المغرب كتاباً أسماه كفاف الغمة في أن الحرب للنظامية واجبة على هذه الأمة ، وقال : أن الأوروبيين تطوروا في أساليبهم العامة بينما نحن لازلنا نواصل الأساليب العتيقة في جهادنا وفي تدبيرنا . وكان أول من تصدى للشردعوة اليقظة والإصلاح وهي ما يطلق عليها في المغرب الدعوة السلفية : الشيخ عبد الله السنوسي ، أحد علماء القرويين الذي سافر إلى المشرق واتصل بأقطاب الدعوة وصدع بدعوته داخل الجامعة القروية ثم تنفذ عليه «محمد بن العربي المالوي» ثم ظهر الخضر الشنقيطي وأبي شعيب الدكالي ، وقد كان لقروية الوثقى التي أصدرها الأتقاني وعبد في باريس ، ثم المنار أثرها البعيد المدى في تأريث مفاهيم تحرير العقيدة وارتباط ذلك بمقاومة النفوذ الأجنبي ، وقد اتخذت الحركة السلفية في المغرب خطوات أشد حسماً وعتقاً عندما استغل الفرنسيون بعض مشايخ الطرق ، مما أدى إلى الحكم على رئيس الزاوية السكتانية بالإعدام وتنفيذه ، وصدرت رسائل وكتابات هنيئة في مهاجمة السكتانيين وغيرهم من رجال الطرق ووسعت الحركة نطاقها بمقاومة الشيوخ الذين كانوا يستغلون الدين والتصوف لأغراضهم الشخصية ، واستطاعت هذه الحركة من بعد ومع الزمن أن تجعل محل التصوف ممثلة قوة الإسلام وسلامة مفاهيمه .

(٤)

اليقظة في عالم الإسلام

لم تكن حركات اليقظة التي ظهرت في القاهرة ونجد هي أولى حركات اليقظة في عالم الإسلام ، فقد شهدت « الهند » الإسلامية في خلال القرن الحادى عشر دعوة أحمد عبد الأحد السرهندى الذى ظهر فى حكم « جلال الدين أكبر » .

وقاوم دعوة أكبر إلى ما ادعاه من دين جديد أطلق عليه « الدين الإلهى » وكان السرهندى من تلاميذ الطريقة النقشبندية ، وقد استطاع أن يواجه هذا الانحراف ويقاومه ، وأن يقاوم حكم ابنه وأن يبث دعوة الإسلام الصحيح فى رجال دولته وجيشه ، وأن يستنفرهم لخدمة الإسلام كما قاوم طائفة الصوفية الذين تأثروا بفلسفة البراهما وهاجم فكرة « وحدة الوجود والحلول والاتحاد » التي كانت قد تغلغلت فى التصوف والأداب ، وقضى على فكرة استقلال التصوف عن الشريعة ، وهاجم كثيراً من العقائد والأفكار والمعادن التي تسربت إلى المسلمين ودعا إلى التصوف الاسلامى الخالص من مناب القرآن كما هاجم أباطيل العلماء الخاضعين للأمراء ودحض ما ابتدوه ونسبوه إلى الإسلام ونصح للأمراء والحكام وحارب المظاهرات والبدع (توفى سنة ١٠٣٤ هـ — ١٦٢٥ م) .

وكانت حركة شاه ولي الله المتوفى (سنة ١١٧٦ هـ - ١٧٦٢ م) نملاً لمفاهيم حركة التوحيد التي حل لواثها محمد بن عبد الوهاب ثم ظهر أحمد عيد الرحيم الدهلوى ١١٧٦ هـ ، الذى دها إلى تصحيح مفهوم الاسلام والانصال المباشر بالكتاب والسنة ، ونشر علم الحديث وبيان أساليب الاسلام واسسه فى تنظيم الحياة والمجتمع ، وأبرز آثاره كتابه « حجة الله البالغة » وقد ظهر الدهلوى بعد ذبوع دهوة التوحيد (الوهاية) وقد تأثر بها ، ثم ظهر الامام أحمد بن عرفان الشبى وبدأ دهوته ١٢٣٦ هـ وقد دها الناس إلى الدين الخالص والتوحيد واتباع السنة ومحاربة البدعة ، وتمكن أصحابه من إنشاء دولة فى (بشاور) طبقوا فيها نظام الاسلام وجمعوا بين العبادة والجهاد واستشهد ١٢٤٦ هـ .

وقد كان لهذه الحركات أثرها فى ثورة الهنود المسلمين على الانجليز (١٨٥٧ م - ١٢٧٤ هـ) هذه الثورة التى جالدها فيها المسلمون النفوذ البريطانى ، وفى أعقاب انتصار البريطانيين تحولت شركة الهند الشرقية إلى احتلال بريطانى مافر ، وكان لهذا الحدث أثره البعيد المدى فى نفوس المسلمين بعد استكمال السيطرة البريطانية على الهند وتكوين الامبراطورية البريطانية ، هذه السيطرة التى أبعدت المسلمين حتى هذه الفترة عن مكان القيادة وعزلتهم تماماً عن الحكم والتعليم ، وقد تمت الفئات الأخرى عليهم ، مما أثار روحاً من اليأس فى نفوس المسلمين وأضفى على مستقبلهم لونا من فقدان الثقة ، وقد زاد فى هذا الجو المكفر ما عمدت إليه بريطانيا مع دفع مجموعات من المبشرين فى القرى والمدن فى حماية سلطانهم ليشنوا حملة ضخمة على الاسلام : « شريعة وهقيدة » وهى نبي الاسلام ، بالإضافة إلى الدهوة إلى المذهب الطبيعى والمادية والالحاد ، وكان الحال الضخم لسحب الأرض من تحت الاسلام بالتركيز فى مجال التربية والتعليم ، فقد حرص الاستعمار البريطانى على إنشاء مدارس تحمل لواء الهجوم على الاسلام والأديان والقيم الاسلامية الفكرية والتاريخية والاجتهادية ، بهدف خلق أجيال جديدة من المسلمين مادية له ، وقد واجهت حركة البقطة هذا الموقف بفتح المدارس العربية الاسلامية والمعاهد الدينية الاهلية ، التى استطاعت أن تسكفج خطر الغزو الفكرى الغربى .

واستطاع المسلمون تخريب دهاة للاسلام ومرشدين يقاومون تيار الالحاد والتعزيب الضيف ، وكان فى مقدمه العاملين فى هذا الميدان مولانا محمد قاسم نانوتوى الذى أنشأ مدرسه ديوبند ومولانا سمادى على التى أسس مدرسه مظاهر العلوم فى سكتنو ١٣١٢ هـ بزمامة مولانا محمد على المونسكبى واستطاعت أن تخرج علماء موقنون يجمعون بين الثقافة الالهامية والغربية ، وقد ركزوا على العبوة النبوية والتاريخ الاسلامى كسلاح دفاع فى مواجهه حملات دهاة التشوية والمبشرين وفى

مقدمة لإعلام هذه المدرسة : شبل النعماني وسليمان الندوي ومعهود الندوي الذي أصدر مجلة الضياء العربية ١٣٥١ - ١٣٥٤ . وقد كان أبرز مفاهيم حركة الباطنة الإسلامية في الهند إن الأمة العربية هي وهاء الاسلام ولسانه وأنها القادرة على حمل رسالة العمل الاسلامي في هذه المرحلة بعد ضعف الدولة العثمانية .

وقد ظهر في هذه المرحلة السيد أحمد خان مؤسس كلية عليكرة ، داعيا إلى التعليم المصري الذي حجب الاستعمار الانجليزي عن المسلمين عمداً ودفع إليه خيرهم ، وكالت كلية عليكرة (١٢١٣) تطورا لتيقظة الاسلامية على نحو المصالحة مع النفوذ البريطاني ومنه أيضاً انطلقت دهوات أخرى باسم الاسلام أخذ عليها انحرافها عن شمول مفهوم الاسلام وتكامله . وقد هد كثير من الباحثين حركة أحمد خان من حركات الاصلاح الإسلامية ، مفضين عن تحريفاته في تفسير القرآن ، من نقي المعجزات واعتبارها خوارق فهم طبيعية ، وتقريره بأن النبوة غاية إنسانية يصل إليها المرء بالرياضة النفسية والمجاهدة مما مهد لظهور المذهب القادياني في الهند وقيام غلام أحمد بدعوته . وفي أواخر القرن الثالث الهجري ألقى الأنجليز بثقلهم في أولى محاولات التغريب وإثارة الشبهات (١٨٨٠ - ١٢٩٨) بتوسيع نطاق الدعوة التي أطلقوا عليها « نيتشر » وحث وحدات أوده وبنجاب وبنجال والسند وحيدر آباد مساجلات ضخمة في هذه المفاهيم ، وقد واجه جمال الدين هذه الحركة وألف بالفارسية كتابه المعروف الذي ترجمه الشيخ محمد عبده « الرد على الدهريين » وقال أن الدهرية نزعة ظهرت في بلاد اليونان في القرنين الثالث والرابع قبل المسيح وأن هدف هذه النزعة نحو الأديان ووضع أساس الاباحة والاشراك في الأموال .

(٣٤)

الإسلام والغرب

لم يتوقف اتصال الاسلام بأوروبا منذ بزوع فجره ، حين اتصل بعالم الغرب عن طريق الأندلس وجنوب فرنسا وصقلية ، ثم اتصل مرة أخرى بالحروب الصليبية ، ثم اتصل عن طريق القسطنطينية والبلقان بعد أن وسع الاسلام آفاقه إلى أسوار فينا . ومن هنا فقد امتد اتصال الاسلام بأوروبا سياسيا وثقافيا دون توقف . ويمكن القول بأن الضياء الذي ألقاه الاسلام إلى العالم منذ بزوع فجره ، قد تطور واتسعت آفاقه في مجال العلوم والطب والفلك كاستناد الحضارة الإنسانية ، وكان دور الاسلام

في هذا المجال إيجابيا وقويا ، فقد أضاف إضافات أساسية إلى حركة العلوم . وطبعها بالطابع الإنساني وجعلها حقا مباشرا للبشرية بعد أن كان طابعها ارسنقراطيا ، ولقد أعطى الإسلام للعالم إلى ذلك طابع الأخلاقية والخير والإخاء وتكريم الانسان والاستعلاء على الغلظ والغدر وأعطاهما تربية الضمير .
 وحين كانت أوروبا تمر بأقسى مراحل التآجر ، كان عالم الاسلام يزخر بحضارة واسعة الأفاق ، عميقة الأثر ، في مجال العلم والحضارة والفن والمهارة . وقد التقى الغرب بحضارة الاسلام في معارك الصليبيين حين هز الأضعف حضارة الأقوى ، فكان ذلك مقدمة لاقامة الجسور الكبرى التي نقلت الحضارة والفروسية وقيم الفكر الإسلامي إلى مجتمعات حضارة الغرب وثقافته . وقد اتصل هذا التأثير وبلغ غايته حين انضم مجتمع الأندلس بجوامعها ومماهده العلمية وبخزائنه كتب وآثار حضارته وثقافته إلى الغرب انضماما نهائيا ، وأجلى العرب والمسلمين عنه وحردهم من آثار علمهم ، هنالك نقلت أوروبا جذور الحضارة الاسلامية والثقافة العربية إلى لغاتها ، ومنذ ذلك اليوم كانت كل خطوات النهضة ذات اتصال وثيق بالفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية ، بل كانت كل الخطوات التالية استكمال لما آتاه المسلمون والعرب وحققوه في مختلف ميادين العلم والفن والفلسفة والأدب والمهارة . وهكذا لا يموت التقدم العقلي الإنساني بل يلتقل حين تضعف الدول وتضطرب السياسة . ومثل في هذا مرحلة من أدنى مراحل حركة الحضارة الانسانية التي نشأت على ضفاف النيل والفرات . ثم انتقلت إلى يونان ورومان ، ثم تحولت مرة أخرى إلى عالم الاسلام ، ثم تحولت مرة أخرى إلى أوروبا بعد مرحلة خصبة امتدت أكثر من ألف عام ، منذ سقوط روماني القرن الخامس إلى أن بدأ عصر الرينسانس في القرن الخامس عشر ، غير أن الأثر الاسلامي للحضارة والثقافة قد ظل قويا بعيد الأثر في البقعة الأوروبية في مختلف مجالات الحضارة والثقافة ، مهما حاولت أوروبا أن تنسكه أو تزيل مظاهر آثاره ، فقد ظل بارزا في معالم الفلسفة وفي مجال الطب والفلك والكشف البحري لا يمكن أن ينسكه . بل في مجال الفكر للمسيحي نفسه وإذا كان الفكر الاسلامي قد توقف في عالم الاسلام نتيجة لتسكن التاريخ وظواهر الكون ونوميس الزمن ، فإنه قد تحول في أوروبا من خلال النهضة ولم يستطع المؤرخون للنصفون إنكار نتائجها . وقد كان عمل ابن رشد بعيد الأثر في الفكر الفلسفي الأوربي إلى حد يمكن أن يقال منه أنه كان نقطة تحول ، وأن مفهوم الإسلام للحرية والمكرامة الانسانية والمساواة ، كان بعيد الأثر من بعد في كل كتابات الفلاسفة أمثال روسو وديدرو وفي الحركات السياسية كالثورة الفرنسية وغيرها وكانت دعوة الفكر الاسلامي إلى « تحرير العقل » بعيدة المدى في انهيار نفوذ الكنيسة والحد من سيطرتها على الحياة ، بل أن حركة لوتر وكالفن

كانت أثراً من آثار الفكر الاسلامي ، ومن قبل كانت حركة إبطال عبادة الصور ورفعهما من المعابد في بيزنطة نتيجة لمفهوم الإسلام ، حتى ليصل بعض المؤرخين في هذا المجال إلى القول بأن الصراع بين السكينية والحرية العقلية في القرون الوسطى كان صراعاً بين السكينية والفلسفة الإسلامية بأسرها ، وقد كان الرهبان الفريسيون أنصاراً أقوياء للفكر الاسلامي وقد أشار كثير من الباحثين إلى أن دهوره الإصلاح في أوروبا لم تبعده عن الإسلام إلا قليلاً ، وذهب بعض طوائف الإصلاح في المقامد إلى ما يتفق مع عقيدة الإسلام (رسالة التوحيد) . وقد ظل العلماء في أوروبا منذ القرن الخامس الهجري والحادى عشر للميلادى يعملون على نقل العلم العربى والفكر الاسلامي ، وقدمت الثقافة الاسلامية مادة ضخمة في مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع ، وكان ترك ابن رشد أثره الفاسق فقد ترك الغزالي طابعه العقلى على الباحثين الغربيين فاستغلوا براهيته في مسائل اللاهوت ، كما أثر النصوص في الفكر الغربى (ج مور : تاريخ الأديان) كما ترجم القرآن السادس (الشافى عشر للميلادى) وكان لابن حزم أثره البالغ المدى في الفكر الغربى وقد بقيت أراؤه وأسمه الخلاف حولها إلى ما بعد وفاته بنحو قرن وخاصة آراءه في اليهودية والمسيحية ، وقد أشار [كتاب تراث الإسلام ج ١ ص ٥٤] إلى هذا المضمون حين قال « استغرق تأثير الإسلام كل مرافق الحياة في أسبانيا في القرن العاشر حين سقطت طليطلة وانتشر هذا التأثير حتى شمل بقية أوروبا ذلك أن (طليطلة) كانت قد أصبحت شيفافشيسا مركز الثقافة الاسلامية في القرن الحادى عشر بعد أن خرب البربر قرطبة . وكان توماس الأكويني بالغ التأثير بكتابات الغزالي وابن رشد ، وكان للقرآن بعد أن ترجم بالغ الأثر في صيحة لوتر بعد أن قرأ ما كتبه ابن رشد وابن سينا والغزالي عن نبي الإسلام « محمد » نما دفعه إلى أن يقول عن المسلمين : أن نشاطهم الدينى مثل يحنذى ، وكذلك حكومتهم الرشيدة ، وقوانينهم وصدق أخلاصهم ، وهم يتركون الناس يعتقدون الدين الذى يميلون إليه ولا يكرهون أحداً ولا شك كان حادث الإصلاح البروتستانتى المسيحى من الأحداث البارزة في تاريخ الأديان ، فقد ارتبطت بأصول الإسلام وعلوم الإسلام ، وقد أشار أمين الخولى في رسالته [صلة الإسلام بالإصلاح المسيحية] إلى أن التأثير الاسلامى كان في أوروبا قويا واضحا وبخاصة في البيئة الجرمانية ، ومن هنا كان أثر الإسلام الواضح في تحرير العقل الأوروبى ، وفى مقدمة هذا الأثر : إلغاء وساطة السكينية بين الله والناس ، والثورة على الأصنام والصور ومخطيئها .

(٢)

في تقدير كثير من الباحثين أن الحضارة الإسلامية انتقلت إلى أوروبا من مصادر مختلفة ، غير أن الجزء الأكبر قد انتقل عن طريق « الأندلس » ويقدر بأربعة أضعاف هذه الحضارة ، فقد كانت موطن استقرار للحضارة والثقافة الإسلامية ، وتزاوج واختلاط بين المسلمين والعرب من ناحية وبين الأوربيين من ناحية أخرى خلال ثمانية قرون ، والواقع أن الحضارة الإسلامية والفكر العربي الإسلامي لم ينتقل من عالم الإسلام إلى أوروبا ، ولكن الأرض التي كانت تحملها الحضارة هي التي نقلت وذلك باسترداد الفرنجة والأسبانيين وحدات المملكة الإسلامية « الأندلس » جزءاً بعد جزء خلال فترة لا تقل عن ثلاثة قرون ، ولعل أبرز ما نقلت الحضارة إلى أوروبا « المساواة » ، كافي القانون الإسلامي يطبق على الجميع ، يقف الفقير والغني أمام القاضي . ومن هنا كانت هذه أبرز الأفكار الإسلامية الأساسية التي قامت عليها حركة النهضة وفلسفة الثورة الفكرية التي كان لها أكبر الأثر في أوروبا . ومن أعظم ما نقلته النهضة عن طريق الأندلس « الفلسفة الإسلامية » بطابعها المختلف على الاختلاف من الفلسفة اليونانية أو الهندية أو غيرها وأهم ما عثله الفلسفة الإسلامية : المقارنة والتوفيق بين الإيمان والعقل وبين العلم والدين . فقد كان أبلغ ما وصل إليه مفكرو الإسلام وفلاسفته استمداً من مفاهيم الإسلام نفسه ، التفریب بين مجرى الإيمان والعقل وبين الدين والعمل والتأليف بين أجزائها بعد أن كانت الفلسفات السابقة تفصل بينهما ، وقد بلغت الحضارة الإسلامية في الأندلس مباحاً هاليا وضخماً بالمقارنة بينها وبين أوروبا ، فقد كانت قرطبة وعدد سكانها نصف مليون نسمة بها ثلثائة حمام وسبعون داراً للكتب وفيها من الطرق المرسوفة المضادة ليلاما يبلغ في جلته أميالاً كثيرة ، في نفس الوقت الذي كانت لندن وباريس في حالة تأخر شديد ، وفي قرطبة أنشئت الجامعة الإسلامية الكبرى التي استقدم لها عبد الرحمن الثالث العلماء من المشرق ، وأنشأ بها ست وعشرون مدرسة مجانية ونقل بها مئات المؤلفات من المشرق ، غير أن الفرنجة لم يلبشوا أن انزحوا مملكة طليطلة الإسلامية من المسلمين عام (٤٧٨ هـ - ١٠٨٥ م) ومن ذلك بدأ ريموند رئيس الأساقفة ترجمة الفلسفة والعلوم العربية ، وظلت هذه الحركة مزدهرة فترة لا تقل عن مائة وخمسين عاماً وقد أنسمت حركة الترجمة في القرن السابع الهجري (١٣ م) وعن طريق هذه المؤلفات العربية الإسلامية المترجمة تجمعت مصادر الفكر الغربي الحديث مستخلصة من حضارة الفكر الإسلامي والمعارف والثقافة العربية وقد درس في معاهد الإسلام في طليطلة كثير من أعلام

الفكر الغربي وعن طريق عقلية تمت حركة مماثلة ، وقد شملت هذه الحركة العمارة البحرية والفلك والتنجيم والرياضيات والطب والزراعة والتجارة والصناعة والفلسفة والادارة والموسيقى والألعاب والفروسية . وهكذا انتقلت العلوم الإسلامية إلى أوروبا عن طريق بالرمو (عقلية) طليطلة (الأندلس) بالترجمة ، وانتقل إلى اللغات الأوروبية بواسطة هذه الترجمات وأمثالها عديد من المصطلحات والألفاظ العربية الصغيرة ، ويختلف آثار ابن رشد والفارابي والخوازمي ، وابن سينا والرازي وما تزال مصطلحات الفلك حتى اليوم عربية ، وكان للمسلمين دورهم العظيم في مجال البصريات والرياضيات والفلك والموسيقى والطب .

(٣٥)

الغرب والإسلام

ذلك كان دور الإسلام في أوروبا فإذا كان دور أوروبا في الإسلام ، الحق أنه كان دوراً مليئاً بالعقوق والكراهية والنصب ، فإن الغرب لم يلبث أن استيقظ على فكر الإسلام وحضارته حتى استأنف الغارة على عالم الإسلام وبدأ مرحلة جديدة من مراحل الغزو ، أشد عنفاً من الحروب الصليبية ، وكان البرتغاليون والأسبانيون أبعد الناس تأثراً بالفكر والثقافة العربية الإسلامية والحررون لذلك التراث الضخم ، هم حملة لواء حملة العقاب لعالم الإسلام وشواطئ المغرب أولاً ، وأصحاب فكرة « تطويق عالم الاسلام » بالانتفاخ حوله . وقد غفل الكتاب والباحثون والمؤرخون طويلاً في آثارهم ومؤلفاتهم التي عرضت لحركة الكشف الجغرافية حول شواطئ العالم الاسلامي أو في قلب أفريقيا من بعد ، غفلوا عن أنها حركة استعمارية وليست علمية ، وأنها كانت تخفي وراءها مطامع الحروب الصليبية القديمة ، وأنها كانت تستهدف السيطرة على عالم الاسلام ، مورداً للخدمات ومصدراً للإنتاج ، ولا يمكن تفسير أعمال هنري الملاح أو ماركوبولو ، وكولبس إلا في ضوء مرحلة جديدة من مراحل استرداد عالم الاسلام نفسه بحسبانه في تقديرهم كان ملكاً للأباطورية الرومانية ، وأن تصفية الاسلام والعروبة من أوروبا بالقضاء على دولة الأندلس ، كان في نظر الغرب يستتبع السيطرة على المغرب وصر والشام بوصفها كانت تحت نفوذ عالم الغرب قبل الاسلام ، وهو مفهوم استعماري منعب ، بعيد عن الفهم التزيه لتطور التاريخ وحركته ، يقول جورج كيرك « لقد كان هدف هنري الملاح هو استمرار الصليبيين بواسطة التغلب على دار الاسلام حربياً وتجاريّاً وانتزاع تجارة الذهب وغيره من أيدي المسلمين والاتصال في جنوبي

الصعراء بحون نجاشي الحبشة المتعاون معه على مهاجمة المسلمين من الجنوب ، ومن هنا بدأت في أوائل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وخلال القرن العاشر حركة يقودها البرتغاليون والاسبانيون ، في الاستيلاء على موانئ شاطئ أفريقيا (مرا كاش والجزائر) : سبتة وطنجة ومليلة والمزني الكبير ، ثم اتصفت هذه المحاولات باحتلال البرتغاليين للبحرين ومسقط بتصد محاصرة الأساطيل العربية في البحر الأحمر والخليج الفارسي .

وكان البرتغاليون قد وصلوا إلى رأس الرجاء الصالح ١٤٨٧ واستطاع القونسو البوكر ك إقامة دولة في الشرق واستولى على مدينة هرمز ثم سيطر البرتغاليون على الخليج الفارسي خلال القرن السادس عشر ، وأبحر فاسكو دي جاما إلى موزمبيق ، وفي عام ١٥٠٥ خرج البرتغال أسطول تعدده ٢٠ سفينة (١٥٠٠ بحارب) فاحتلوا سفالة وكوه ومباسا ، وبلغوا مسقط وهرمز عام ١٥٠٩ ، وفي عام ١٥١٩ احتلوا السواحل الأفريقية وأتزهروها من أيدي العرب .

غير أن هذه الحركة لم تصل إلى ما كانت تطمح فيه فقد أوقفتها القوة الإسلامية العثمانية النامية التي استطاعت أن تنقذ هليها ، فقد ظهر العثمانيون في مياه الخليج ١٥٨٥ وقابلهم أهل الساحل بحماس شديد ولا سيما أهل مباسا ، كما دخلت دولة المماليك مع البرتغال في حروب بحرية ، ثم خلف الفرنسيون والهولنديون والانجليز ، البرتغال واسبانيا وخطوا خطوات واسعة كان أبرزها إستيلاء هولندا على أرخبيل الملايو وفرنسا وانجلترا على أفريقيا واستأثرت إنجلترا بالهند ، كما ناض الانجليز البرتغاليين وأرسلوا سفنهم إلى بلاد فارس عام ١٦١٦ واستقبل الشاه عباس أول بعثة تجارية انجليزية . وقد استطاع العثمانيون انفاذ العالم العربي من الغزو البرتغالي الاسباني الذي استهدف خلق التجارة العربية ، وحين حاولوا السيطرة على ساحل المغرب الإسلامي للاغارة عليه وضربه ، هناك سارع العثمانيون بالسيطرة على المغرب كله ما عدا مرا كاش ، واستطاعوا مواجهة الاسبان في حوض المتوسط وجزائره وسواحه وأدالوا منهم وبذلك استطاعت القوة البحرية العثمانية أن تنقذ هلي النفوذ البرتغالي الاسباني وأن تحفظ شاطئ البحر الأبيض المتوسط للعروبة والاسلام ، غير أن الاستثمار لم يلبث أن استأنف حركته باسم بريطانيا وفرنسا وهولندا للسيطرة على البحار الإسلامية منذ ١٦٨٣ .

واستطاع العثمانيون أن يسيطروا على ساحل شرق أفريقيا وشمال المحيط الهندي في مطلع القرن الثامن عشر (الثاني عشر الهجري) فأرهب ذلك الأوروبيين وأزهج انجلترا وهولندا ، واستطاع

أحمد بن سعيد عام ١٧٤٠ أن يقف في وجههم في عمان ، هنالك فقد البرتغاليون الأمل في استرداد هذه المنطقة .

وقد كانت عمان بعد سقوط الأندلس أكبر قوة عربية ودامت نهضتها من عام ١٠٠٠ إلى ١٢٥٠ هـ وقد استولت على نفور البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج الفارسي وأفريقيا الشرقية إلى رأس الرجاء الصالح وفي بضعة أجيال صار أهل عمان سادة البحار المعظمى الثلاث ، وسار لهم أسطول ضخم هاجم الأسطول البرتغالي وأجلاه عن جميع النفور الهندية والفارسية والأفريقية ، واقتد كان الأسطول العثماني مؤلفاً من ثلاثمائة قطعة من بارجة و فرقاطة ونسافة وحراقة ، قبل أساطيل المماليك والدولة العثمانية ، ولم يصبر الانجليز على هذه الدولة البحرية التي كانت تهدمهم في أملاكهم في آسيا وأفريقيا فعملوا في مدى ثمانين عاماً على إضعافها والقضاء عليها وضرب الأسطول البرتغاني مدنها بالنابل (ك . حياة للشرق) .

وقد بدأت حملات هولندا إلى جزر الهند الشرقية عام ١٥٩٩ واستطاعت أن تركز نفسها من بعد ، أما شركة الهند الشرقية الانجليزية فقد بدأت عام ١٦١٢ وفي حوالى عام ١٧٨٠ تركز الاستثمار الهولندي في أرخبيل الملايو وتركز الاستثمار البريطاني في الهند . ولا شك كان هدف الاستثمار الغربي أساساً هو القضاء على الإسلام كقوة لوحدة والمقاومة كخطوة تقف أمام توسع النفوذ العسكري والسياسي والاقتصادى في السيطرة على المنطقة .

يقول الدكتور حسين مؤنس : أن أوروبا لم تسكف عن التفكير في الإسلام والأخذ بنارها من الحروب الصليبية حتى هداها الفكر إلى حركة الالتفاف الجنوبي ، وفي القرنين ١٢ و ١٤ (السابع والثامن الهجرى) سمعت إلى تنصير المفل حتى تمحصر الإسلام بين دولتين مسيحيين . ثم كيف انفصلت الأسباب بينهما وبين الحبشة النصرانية للقضاء على مركز المقاومة الإسلامية في مصر ، ثم كيف بدأت تتجه إلى الغرب للوصول إلى الهند وللوصول إلى بلاد الإسلام ، ويقول باركر مؤرخ الحروب الصليبية : كانت البعثات التبشيرية التي أرسلت إلى بلاد المفل ترجو من وراء رحلتها أن تحقق أمل الصليبيين وتستعيد بيت المقدس إلى الأبد ، بيد أن هذا الحلم الخادع قد تهدم عن آخره ، نعم ، تلاشى ذلك الحلم الخادع الذى كان يرسم لاصحابه في الخيال صورة آسيا وأوروبا المسيحية تمحصران الإسلام بينهما فلا تصبح بعد ذلك إلا عقيدة متضائلة محصورة في فئة قليلة من الناس في ركن اسبانيا وفي جانب من شرق البحر الابيض : ذلك أن خانات فارس دخلوا الإسلام ١٣١٦ م

وأسلم أهل وسط آسيا في منتصف القرن الرابع هجرى (الثامن الهجرى) . وتزعمت على عرش الصين أسرة منج الشهيرة بين سنتي ١٣٦٨ — ١٣٧٠ وأقفلت أبواب الصليبيين في وجه التجارة الأجنبية فكانت النتيجة انقطاع السبيل بالمسيحية وانسأها بعيداً في رقعة الإسلام الذي أدرك شأواً بعيداً من الانساع بظهور الأتراك العثمانيين ، ولكن أملاً جديداً ترائى للقرب الذي لا ييأس ، وكان هذا الأمل الجديد سبباً في أكبر إنقلاب عرفه التاريخ ، ونساعل الأوروبيون : إذا كان طريق البر قد أقفل فلم لا تسلك أوربا طريق البحر ، لماذا لا تبحر إلى الشرق وتهاجم الإسلام من الخلف وبذلك تستعيد بيت المقدس ، كان هذا أمل الملاحين الذين حلوا الصليب على صدورهم ، واعتقدوا أنهم برحلتهم إلى بحار الهند يعملون لتخليص الأراضي المقدسة ، هكذا كان مفهوم القرب للفوز الجديد والمرحلة الجديدة للحروب الصليبية ، التي أطلق عليها اسم « الاستعمار الحديث » . وقد كان اختلال بريطانيا للهند وهولندا الجاوة وأرخبيل الملايو هو الخط الأول لتطويق عالم الإسلام ، وكان البريطانيون والهولنديون قد ابتدئوا فكرة استعمار عالم الإسلام بطريقة تأسيس الشركات التجارية فأسس البريطانيون شركة الهند الشرقية عام ١٦١٢ .

وأسس الهولنديون عام ١٦٠٠ م الشركة الشرقية وأسسوا شركة الهند الغربية عام ١٦٢١ م فامتلكوا غينيا وسورينام وركاب وسيلان عام ١٦٥٣ وجزائر ملقة وفي ١٦٨٠ استولوا على جاوه وكان الحضارة (أهل حضرموت) قد هاجروا قبل ذلك بأربعمئة عام إلى جزائر الهند الشرقية ونشروا فيها الإسلام . وبعد أن تمت حركة التطويق فجمولت شركتى هولندا وانجلترا إلى استعمار صريح . لم يلبث الغرب أن ركز ثقله على تمزيق قاعدة الإسلام : « الامبراطورية العثمانية » وقد ظل هذا العمل مستمراً من ١٦٨٤ إلى ١٨١٨ م خلال مائة وأربعة وثلاثون عاماً وتنافست في ذلك فرنسا وروسيا وبريطانيا واستهدفت في نفس الوقت القضاء على كل قوة جديدة وفي مقدمتها القضاء على القوة الشابة في مصر التي قادها محمد علي وإبراهيم . واستطاعت بالضغط أن تفرض في الداخل نفوذها عن طريق الامتيازات الأجنبية ، وفي الخارج باقتطاع الوحدات الداخلة في نطاق الدولة العثمانية واحدة بعد أخرى حيث تقاسمتها روسيا (حين هربت القوقاز وبسطت سلطانها على أوطان آسيا) وبريطانيا وفرنسا ، وتمثل في هذه الحركة الضخمة « أزمة الاسلام الكبرى » للسلطة للحروب الصليبية والوجه الجديد لها والتي لم تتوقف أكثر من ثلاث قرون تضامات - ولا نقول توقفت - في أواخر القرن الثاني هجرى (السادس الهجرى) ثم استأنفت عملها من جديد في منتصف القرن السادس هجرى (العاشر الهجرى) . وقد تمثل ذلك في عدة خطوات : (١) تطويق العالم الاسلامي .

(٢) السيطرة على الهندوأورخبيل للملايو . (٣) تمزيق الدولة العثمانية من الداخل . (٤) اقتطاع أجزاء من الدولة العثمانية . (٥) تنازع السيطرة على فارس . وكان من أبرز الحركات الاستعمارية الجديدة ما اتجه إليه الغرب من العمل على شق قناة تربط البحر الأبيض بالبحر الأحمر . يقول الدكتور مصطفى الحفناوى : إنه فى سنة ١٤٩٨ م حدث تحول خطير فى التاريخ الانسانى ، ذلك أن للملاحين البرتغاليين (فاسكو دى جاما) استمراع أن يصل إلى الهند طوافاً حول رأس الرجاء الصالح واستعان فى ذلك بمجماحة من الملاحين العرب أبرزهم (أحمد بن ماجد) . وكانت قد رفعت إلى ملك فرنسا هام ١٢٤٩ (١٦٤٧ هـ) وثيقة تطالب بشق قناة برزخ السويس لتكون ملكاً للعالم الغربى كجزء من خطة الحروب الصليبية ، ثم توالت المشروعات التى تستهدف إنشاء طريق فى برزخ السويس ، وفى ١٥ مارس ١٩٧٢ رفع الفيلسوف ليبنتز إلى لويس الرابع عشر مذكرة قال فيها « أريد أن أتحدث فى مشروع غزو مصر ، ولا يوجد بين أجزاء الأرض بلد غير مصر يمكن السيطرة فيها على العالم كله وعلى تجارة الدنيا بأسرها ، أنسكم حين تغزون مصر ستقضون على الأمبراطورية التركية القضاء للبرم ، إذا غزوتهم مصر ستظفرون بعين الارتياح والرضا لهجومكم على المسلمين الخ » ثم كان مشروع المركز دى سنبلوى بشق قناة فى برزخ السويس تصل النيل بالبحر الأحمر ، وقد كادت الدبلوماسية الفرنسية أن تغفر بموافقة السلطان العثمانى ، غير أن الحركة القومية المصرية التى قادها العلماء وقفت دون المشروع سداً منيعاً . وفى نفس الوقت توسعت حركة النفوذ الاستعماري فى قلب الدولة العثمانية من طريق الارساليات والسكريات الدراسية التبتيرية ، وعن طريق خلق طليعة متفقة من غير المسلمين تحمل لواء الحملة على تركيا ويكون من نفوذها البالغ إنشاء الصحف فى مصر والمغرب وأوربا لهجوم عليها وتركيز الحملة عليها بوصفها « صورة الاسلام » بحسبان كل أخطاء الدولة العثمانية هى « أخطاء الاسلام » نفسه ، وكان هذا من التوجيهات الضخمة التى اصطلحتها الاستعمار كسلاح خطير فى وجه « اليقظة العربية » التى حاولت أن تحمل لواء نمو الاسلام وحيويته .

الإسلام والغرب

مرت العلاقة بين الإسلام والغرب في ثلاث مراحل :

(الأولى) مرحلة المعطاء : قدم الإسلام إلى الغرب كل حصيلة من الحضارة والعلم والثقافة فكانت مبعث النهضة الحديثة في أوروبا في القرن الخامس عشر (التاسع الهجري) .

(الثانية) مرحلة الجحود من الغرب ، فقد أنكر فضل الإسلام ، وازدري بأثر الثقافة الإسلامية ، واستعملها سلاحاً لضرب الإسلام وهاله ، والقضاء عليه كقوة ، واستغل مختلف قوى العلم في السيطرة والعظم مغلفاً فكره بالتمصّب والاستعلاء الجنسي ومقاومة فكر الإسلام ودينه ومقوماته .

(الثالثة) مرحلة التحول : وهي مرحلة دقيقة تشمل في آراء عديد من الباحثين المنصفين — غير المستشرقين والمبشرين ودعاة التغريب المنصلين بدوائر وزارات الاستعمار والمستعمرات — هؤلاء الذين يحسون بالحاجة إلى مقومات جديدة للفكر الانساني بعد أن بلغ الفكر الغربي غايته في الانحياز للماديات ، فقد تكشف للعلماء والباحثين المجريين عن الغايات الاستعمارية ، أن العقل الانساني قد كبر وتضخم بينما روح الانسان قد ضعفت ، ومن هنا كان تطلع الباحثين إلى الثقافات الانسانية ، وكان الرأي على أنه إذا كان الفكر الغربي (الأوربي) قد بلغ إلى مرحلة المادية الحالية ، فإن الفكر الشرقي مطبوع بطابع الروحية الخالصة ، بينما ينسجم الإسلام وفكره بطابع الشمول والتكامل والوسيلة في الجمع بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة . ومن هنا برز تيار جديد في الفكر الانساني يحمل لواء النطلع إلى الإسلام كحل نهائي وحاسم للمضلات البشرية وكوسيلة لتقضاء على الأزمات وحل الخصومات والخللات المتراكمة في عالم الغرب . هذا التيار قد حقق بعض النجاح ولكنه لا زال ضعيف الأثر والحركة بالنسبة للتيار الضخم الذي يتصدره الاستعمار في سبيل إثارة الشبهات والقضاء على مقومات الإسلام وذلك في سبيل العمل على خلق وحدة فكر عالمية قوامها الفكر الغربي — ينصهر فيها الفكر الاسلامي ويذوب ، ولقد استطاع الإسلام أن يواجه هذا المخطط وأن يتحداً ، ويدبل منه ، وليس أدل على قلرة الإسلام في مرحلة اليةظة أنه في خلال الحسين سنة الأخيرة من القرن الرابع عشر (هـ) قد صارع الفكر الرأسمالي والماركسي والصهيوني جميعاً ، واستطاع أن يقاوم القوى الاستعمارية الجبارة ذات السلطان والنفوذ ويواجه الأسلحة والقوى المختلفة التي حاولت أن تؤثر في مقوماته أو تقضي عليها ، ولا شك سينتصر الإسلام

في أزمة الفكر الأمي وسيخرج من حنة الفكر الرأسمالي (الغربي) وللاركمى والصبيوني ظافراً منتصراً مؤكداً ذاته وقيمه بحسبانها أصالح القيم لعالم الإسلام والانسانية .

(٣٦)

إنتشار الاسلام

اتسمت هذه الفترة بأن جمعت بين : حركتين : (١) حركة ينظف داخلية استهدفت تجديد الإسلام وتصحيح مفاهيمه و (٢) حركة انتشار للإسلام ذاتيا خارج دائرة عالم الإسلام ، وقد عمل المسلمون على نشر الإسلام في بلاد غربي إفريقيا وجزائر الهند الهولندية ، وجزائر الفيليبين . وصمد لهذه الحركة عدد كثير من التجار والحجاج والعلماء على اختلاف الأجناس . وكان للبشرى السنوسيين دور ضخم ، هؤلاء الذين أخرجهم زوايا الصحراء ، وهم يمدون بالآلوف ، فقد قاوا بحولات واسعة في غربي إفريقيا ووسطها ، وصف للورخون والباحثون نتائجها خلال القرن الثالث عشر (١٩ م) بأنه هجينة من المجانب الكبرى وكتب أحد الباحثين ١٩٠٦ يقول : إن الإسلام ليفوز في أواسط إفريقيا فوزا خطيرا حيث الوثنية تختفي أمامه اختفاء الظلام في فاق الصبح ، وليس ظفر الإسلام في إفريقيا مقصوراً على الوثنية فحسب بل على الأديان الإفريقية الأخرى . ولم يتوقف هذا التوسع الذاتي للإسلام عند إفريقيا وحدها بل امتد إلى بلاد النهر في روسيا وفي الصين (قبل أن يصاب فيهما بأزمة القضاء عليه خلال القرن الرابع عشر) وقد أشار زويمر إلى أن مصدر انتشار الإسلام هو : فريضة الحج والطرق الصوفية : وليس هجيباً أنه خلال هذه المرحلة — حين كانت اليقظة العربية الاسلامية محل الوحدة الاسلامية المثمانية التي آلت إلى الضعف ، والتي كانت في نفس الوقت تواجه أعظم تهديداً لها ، وهو النفوذ الاستعماري الغربي الزاحف في غزو جديد ، نجد الإسلام يشق طريقه ذاتيا في قلب إفريقيا وغربها بسرعة مذهلة ، ويحقق انتصارات جديدة في أرخبيل الملايو وشمال شرق آسيا . فقد سجل الإسلام على طول تاريخه كله هذه « الظاهرة » من التحدى ورد الفعل ، فحيث تظهر قوة تحاول أن تقضي منه ، يظهر الإسلام وهو يكسب أرضا جديدة ، وحيث تبدو علامات الضعف والانهيار في وحدة من وحداته ، تظهر علامات البعث واليقظة في وحدة أخرى ، فلا يسيطر الاواء أبداً ، فإذا ضعفت اليد التي تمسكه ، امتدت يد أخرى فابقته صرخوا ، ظهر هذا واضحا في « الغزو الصليبي والغزو اللاتيني » . كما ظهر حين بدأت القوة الاسلامية المثمانية تضعف حيث حلت

محلها بقطة عربية إسلامية عارمة . وحيث يواجه الإسلام في هذه للرحلة غزوا غربيا جديدا ، يسيطر على مقدرات عالم الإسلام في الهند وأرخيل الملايو ، والعالم العربي ، يندفع إلى مناطق جديدة في إفريقيا وجاوة .

وتبدو صورة التوسع الإسلامى في قلب إفريقيا في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع الهجرى يرميها كاتب نيلر في تقريره الذى ألقاه في مؤتمر الكنيسة الانجليزية (١٨٨٧ م) والذى نشرته جريدة التيمس ١٨٨٧/١٠/٧ يقول : إن الإسلام اليوم يمتد من مرا كش إلى باقا ، ومن زنجبار إلى الصين ، ويخطو في داخل إفريقيا خطوات كبيرة وتمتدقه أمة كثيرة وقد خطى بنفسه وثبت أقدامه في الكونغو وزامبيزي وأصبحت أوغندا — أقوى البلاد السودانية وأشدها بأسا — إسلامية بأجمعها ، أما في الهند فإن التمدن الغربى الذى يهدم أركان الوثنية قائما يهد الطريق للدين الإسلامى لا غير ، وسكان إفريقيا بأجمعهم أكثر من النصف منهم مسلمون ، وليس هذا بأول تقدم للإسلام يلزم بياناه ، والبحث عن سره انتشاره ، بل هو عدم الخلط والخطبى في أصوله وتبنياته ، الأمر الذى جعل له مكانا ثابتا في قلوب أهل وكل من يدين به ، أجل : فقد اعتنق الإسلام أمة بهذا فبرها في إفريقيا صفقة واحدة ، ولم ترند إلى الوثنية قط ، والإسلام أفاد التمدن أكثر من أى دين آخر ، فقد نشر راية المساواة والأخوة ، وهذه الأدلة تذكرها نقلا عن تقارير الموظفين من الانجليز ، وهذه النتائج التى تنتج عن الإسلام ، فانه عند ما تدين به أمة من الأمم السودانية (الأفريقية) تخنق من بينها في الحال عبادة الأوثان ، وتحرم أكل لحم الانسان ، وقتل الأولاد ، وواد الأطفال ، وتصرب عن السكامة وتأخذ أهلها بأسباب الإصلاح وحب الطهارة ويصبح هندم قرى الضيف من الواجبات الدينية ، وشرب الخمر من الأمور المنهوعة ولعب الميسر والازلام محرمة ، والرقص الفبيح ومخالطة النساء إختلاطا دون تمييز ممنوعة ، وتصبح هفة المرأة هندم من الفضائل ، فالإسلام هو الذى يعمم النظافات ويقمع النفس عن الهوى ويحرم إرافة لدماء والقسوة بالاعتدال في تعدد الزوجات والعدل في الاسترقاق ، وزيادة عن ذلك فالإسلام حفيظ بالسكبة عن الشركات الدينية التجارية ، وفي غنى عنها بالمره ، والتجارة الأوروبية تميل وسائل المسكرات وتسوم الشعوب خسفا ، وإذلالا ، والإسلام ينشر لواء المدنية القائمة بالاحتشام في الملبس والنظافة والاستقامة وهزة النفس . ويكشف الرحالة جوزف تومسون في تقرير له نشرته التيمس ١٨٨٧/١١/١٤ جوانب أخرى من حركة إنتشار الإسلام ذاتيا في إفريقيا فيقول : إذا بلغنا غربى إفريقيا والسودان الاوسط

تجد الاسلام كجسم قوى تدب فيه روح الحياة والنشاط ، وتنحرك فيه عوامل الحماسة والأقدام ، كما كان في أيامه الأولى ، فترى الناس تدخل فيه أفواجا أفواجا ، وتقبل عليه بأقبال عجيب يشبه أيامه السالفة ، نرى فيه أشعة لوره منبعثة من شوارع سيراليون ، وأخذته في إنارة بصائر القبائل للمنحطة في وهاد الجهالة الآكلة لحوم البشر عند منبع النيجر . وقد كانت أعظم فتوحات الإسلام في أواسط السودان وغربه ، كانت على يد جماعة سليبي الطوية منخفضة الجناح ، وفي الأزمان الحاضرة كان القائم بأمره تاجرا ذاهمة وإقدام يدهي (هو إذا أولوية) كان ذاك الراعي يجهد نفسه لنشر لواء ديانته من بحيرة تشاد إلى الأقيانوس الانلانتيكي ، ونتج من ذلك أن اشرقت شمس الإسلام في سماء هذه الجهة بأجمعها ، وظهرت في أواخر القرن الماضي عدة فئات من المسلمين لم يكن يعوزهم إلا رئيس يحمي زمامهم ، ويدفع عن هذه البلاد غائلة الوثنية ، فلما قبض لهم في بدء هذا الجيل رجلا يسمونه (فوديو) لم يرض غير زمن قليل حتى ساد الاسلام وامتد جناح سلطانه بسرعة غريبة في بلاد شاسعة وانتشرت سلطته على القبائل للتبريرة فأصاب فوزاً عظيماً . إن زعيم الإسلام في هذه السنوات هو التاجر السوداني (الأفريقي) الذي كان يعتمد في مهمته على تقواه ، ويستعين بها على أعماله ، وكان يتوغل في كل قبيلة على مسافة بعيدة من بلده ويخاطب بالوثنيين المنبررين ، وكان يبيت معهم ويأكل معهم في طعام واحد ، وكان أينما حل أو ضار لا يألو جهداً في توسيع نطاق ديانته وإظهار مزاياها الخالية من الالتباس ، والوعظ بها بين الناس ، وفي الحقيقة أن الفرائض والسنن التي ينص بها لا يتيسر فهمها على أخيه الوثني ولا تخرج عن قوة إدراكه ، هذا التاجر كان يقيم تارة معهم شهراً وطوراً ستة أشهر أو سنة وفي خلال هذه المدة تراه موضع التمتع والاستحسان لنظافة ملابسه ولذلك ينسكب الناس الذين حوله على تقليده واتباع طريقته وليس في ديانته شيء يشكل عليهم معرفته ، وعلى هذا انفرست بذور اللدنية في عدة قبائل همجية ونما الاسلام بينها نمواً هائلاً إلى حد بلغ فيه المدى في هذه البلاد وملاً الآفاق .

(٢)

ما زال الاسلام يشق طريقه في قلب القارة الافريقية بالرغم من القوى للضادة التي تحمل لوائها هيئات التبشير باهتماماتها الضخمة وقواها السياسية والعسكرية وترجع أسباب تفوق الاسلام إلى أنه أكثر بساطة ، وأبعد عن التعقيد من الأديان الأخرى ، فهو خلو من الاسرار للذهبية أو تعذيب الضمير ، فلا اعتقاد بآله واحد وبمحمد نبيا هما الشرطان الأساسيان في الإسلام ، فضلاً عن أن الاسلام

يجيز تمدد الزوجات واقتناء العبيد والجوارى وهو من هذه الناحية ملائماً للنفسية الأفريقية، كما اقترن الإسلام في أفريقيا بمقاومة الاستعمار وشعب التمييز العنصرى ، يقول نعيم قدامح : أن الاستعمار في غرب أفريقيا كان نهاية للحقبة للزدهرة التي توهجت فيها الثقافة الإسلامية في ظل الدولة الإسلامية التي قامت في تلك الأصقاع ، وقد اتهمت نيران جيوش الاستعمار في أمكن أفريقيا العربية كثيراً من المدارس والمكتبات وأتى المستعمر على كل أثر على هند ماطم التيار الحضارى العربى الإسلامى القادم من شمال أفريقيا ومصر ، ولما اشتد اضطهاد الاستعمار للأفريقيين بصورة عامة ، وجد كثير منهم أن الإسلام هو الذى سيخلصهم من ظلم المستعمرين ، ولذلك تضاعف عدد معتقيه فى مدى نصف قرن ، واقترنت الدهوة للدين الحنيف بمجهود فردى لإعادة أبحاد الثقافة العربية الإسلامية ، وقد بدأ الاستعمار الفرنسى فى غرب أفريقيا منذ ١٢٧٤ ١٨٥٧ م يقضى على الإسلام واللغة العربية ، فهو لم يحاصر اللغة العربية فى شمال أفريقيا والجزائر وحدها بل حاصرها أيضاً فى قلب أفريقيا ، فافترضت المدارس الإسلامية لأنها لم تستطع الحصول على إمانات ، ولم تبق إلا الزوايا للتعليم القرآنى ، وقد كان تعليم القرآن هو المنطلق الأول فى التعليم العربى هناك . وإن كان الذين تعلموا فى الأزهر قد أنشأوا عدداً من المدارس الإسلامية عندما عادوا إلى بلادهم ، غير أن المستعمرين سرقوا الكتب الإسلامية ونقلوها إلى بلادهم وأغلقوا المدارس فسادت الجهالة بين المسلمين بينما توسعت مدارس التبشير والاستعمار ، على الرغم من ازدياد عدد الذين اعتنقوا الإسلام فى تلك الفترة ، وتضمن بصورة واضحة .

وفى المناطق التى احتلتها الانجليز حالوا بصورة هامة بين المسلمين والتعلم ، إذ كانوا يشترطون على المسلم أن يغير اسمه إلى اسم « لاتينى » ويشترطون حضور الصلوات الكنسية ودراسة التاريخ الاستعمارى ، ووجد للمسلمون أن أمامهم أحد طريقين ، أما أن يعمدوا إلى تغيير ديانتهم ليدخلوا مدارس المستعمرين ، وأما أن يحتالوا على المستعمرين فيتعلموا ثم يعودوا إلى دينهم ، بعد أن تشبعوا بأراء وتوجيهات الاستعمارين .

وقد صور توماس أرتولد إنتشار الإسلام فى أفريقيا فقال . كانت الأساليب السلمية هى الطابع الغالب على نشر الدهوة الإسلامية فى أفريقيا ، كان التاجر المسلم عربياً كان أم أفريقياً يجمع بين نشر الدهرة وبيع سلعته ، حتى إذا دخل قرية وثنية سرعان ما يلتفت الأنظار بكثرة وضوئه وانتظام أوقات الصلاة والعبادة التى يبدو فيها وكأنه يحاطب كأننا خفياً وما يتحلى به هذا الرجل من سمو عقل وخلق كان يفرض احترامه وثقة الأهالى الوثنيين به . ويدهش للورخون والباحثون من أن الإسلام قد

انتشر بصورة ضخمة في أفريقيا في نفس الوقت الذي ولد الاستثمار أقدمه في قلب أفريقيا ومعنى
يفسر حملات التبشير والشبهات حول كل ماهو إسلامي . وبالرغم من ذلك فقد واصل الإسلام فتوحه
وكان للصوفية وأبناء القارة الهندية من التجار المسلمين الذين هاجروا إلى أفريقيا دور فعال . ويرجع
ذلك إلى بساطة الإسلام وسماحته ، وقدرته على ملاقات الفطرة أو التقاليد أو العادات المحلية دون أن
يصادمها ، وهو ما أطلق عليه بعض الباحثين « الاندماج » أو « الامتزاج الصحي » وقد كان لمبدأ
« المساواة » بحسبانه المبدأ الأساسي في الإسلام أثر مباشر وعلى في ترحيب شعوب أفريقيا به
والمساهمة إلى اعتناقه ، وإبرز ما ينسجم به في نظر الأفريقيين هو أن الدين يتحولون إلى الإسلام
يعطون نفس الحقوق التي يتمتع بها أي عضو آخر في المجتمع الإسلامي حتى قيادة الجيوش وتولى أعظم
مناصب الحكم .

ويرجع « هوبيرديشان » : الفضل في نشر الإسلام بين قبائل الزنوج في أفريقيا إلى نشاط
الدعاة من أرباب الطرق الصوفية « فقد وجد فيه الزنوج الطمأنينة بفضل نظامه الاجتماعي ،
وما يتمتعون في ظله من يسر وأمن في أسفارهم للتجارة » ويركز على أن إنشاز الإسلام تم بمجهود
الطرق « القادرية » : التي نشأت في العراق وتوسعت في جنوب أفريقيا والسنغال و « التجانية » في
فاس وتتميز بشدة مقاومتها الوثنيين ، وقد كان لآحركة « الأحمدية » دورها في نشر الإسلام في
أفريقيا ، كما كان المرابطون المغاربة وأهلهم من أتباع الطريقة القادرية والتجانية — دورهم في
نشر الإسلام ومد نشاطه من السنغال إلى غينيا والسودان حتى سواحل البعاج ومستعمرة النيجر .
ويرجع ذلك في نظر هوبيرديشان إلى : أن الإسلام دين فطرة سهل التناول لا تعقيد فيه ، سهل
النسيكيف والتطبيق في مختلف الظروف ، ويقول : لقد بدل الإسلام مظاهر البغاع التي دخلها
وأشاع النظافة التي يتميز بها المسلم عن بقية الناس « لباس فضفاض » و « تحريم لحم الخنزير » وينقسم
الإسلام في أفريقيا بطابع صوفي ، وربما اختلطت به بعض العادات الوثنية التي لا تزال باقية .
ولعل أبرز أثر للإسلام في أفريقيا إختفاء أقيح الرزائل وهي أكل لحوم البشر وتقديم الإنسان قربانا
ووأد الأطفال أحياء ، لقد حول الإسلام المرأة إلى لابسين ، والذين لم ينقلوا قط إلى الطهارة ،
وأهان على اندماج القبائل فأصبحت أمما ، وفتح باب ازدياد المعرفة والثقافة . وقد أمر الإسلام
الأفريقيين بالنشاط والمزعة والاحياء على النفس وقضى على الحروب الصليبية . ولعل أبرز ما أهان
على انتشار الإسلام في أفريقيا ما صورده أحد الباحثين الأجانب حين قال : أنه من السهل على
الزنجي أن يصير مسلما ، فيكفيه أن ينطق شهادة لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ليندفع حينئذ

في مجموعة اجتماعية هائلة وسلسلة من تماضد على مضافة الآلاف الكبيرة من الكيلومترات ، وأن الزنجي المسلم سيجد هندا أخيه في الدين دائماً الطعام والحصير لقوم ، هذا بالإضافة إلى روحه التحريرية لفرد والجماعة وقد حاول الاسلام ضرب حركة إنتشار الاسلام بإثارة الشبهات حوله واتهامه بأنه قائم على مفهوم الفينييات والتواكل ، غير أن اندفاع الاسلام بهذه الصورة بالرغم من كل قوى التبشير التي تواجهه قد تكشف عما يتميز به جوهره من بساطة تعاليمه واسجاعامه وطبيعة الفطرة الاسلامية المتحررة من التعقيدات ، ولا شك أن انتشار الاسلام في هذه المرحلة من مراحل الفوز الاستعماري يبين عن جوهر الاسلام وقسوته على التعمدى ورد الفعل . وفي أرخبيل للابو استطاع مصارعة البرتغال والهولنديين والفرنسيين والإنجليز واليابانيين .

(٣٧)

بين العرب والترك

حين أخذ نجم العثمانيين والترك في الارتفاع ، تألق نجم «العرب» كقوة جديدة للاسلام وان لم تكن القوة هذه المرة في مجال الحرب والتوسع ، أو المقاومة العسكرية ، ولكنها كانت قوة فكرية مبدئية تمثل « مرحلة جديدة » من مراحل حركة تاريخ الإسلام ، ولقد كان من الضروري على هذه القوة الجديدة أن تتحرر من سلطان الأتراك السياسي والفكري وكان عليها في نفس الوقت أن تواجه نفوذ الاستعمار السكاسج للندفع للسيطرة على ميراث الدولة العثمانية التي كانت تمر بمرحلة « الرجل للربض » والحق أن الخلاف بين القوة الإسلامية الجديدة المتألفة وبين القوة الاسلامية التي أدت وصالها واستكملت دورة التاريخ كان مركزاً في مفهوم واحد هو مفهوم (إعادة صياغة الإسلام) صياغة جديدة في مجال يستدرك فعل على عوامل الضعف والتأخر التي متى بها المسلمون نتيجة الانحراف عن تكامل مفهوم الاسلام الجامع بين العقل والقلب ، وغلبة التصوف كمفهوم روحي وجسداني له طابع الجبرية والتواكل .

ومن هنا كانت الیقظة العربية الإسلامية تقوم على حركات متوالية ، متتابعة ، تمثل في مجموعها تطور الفكر الاسلامي في مجال التجديد والاصلاح والتحرر من عوامل الجود والتخلف والضعف ، وكانت الدعوة إلى التحرر من (الجبرية الصوفية) هي في نفس الوقت دعوة لتحرر من نفوذ الاستبداد السياسي والجود الاجتماعي .

وفي مجال التاريخ الإسلامي بدأت « حركة اليقظة » بعلامتين كبيرتين : تقدم العلماء مرة أخرى لحل نوايا للناسحة للحكام والأمراء وقيادة الحركات للمطالبة بالإصلاح والعدل الاجتماعي ، وكانت أبرز هذه الصور ، قد انبثقت من الأزهر في القاهرة ، لمواجهة ظلم الأمر : إبراهيم ومراد ، وفي نفس الوقت كانت الدعوة إلى « التوحيد » التي حل محمد بن عبد الوهاب في قلب الجزيرة العربية دعوة إلى التحرر من مفهوم المعبودية السياسية والروحية والاجتماعية كافة . ومن هنا بدأ الصدام بين هذه القوة الجديدة الشابة وبين الدولة العثمانية التي كانت خاضعة لنفوذ الصوفية الجبرية ، غير أن قوة جديدة في مجال السياسة لم تلبث أن ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر بقيادة محمد علي في مصر ، وكانت تحمل طابع القوة العسكرية ، وتستهدف إقامة إمبراطورية تحمل محل القوة العثمانية للنهارة ، وبذا أصبح على المسرح في ذلك الوقت قوى أربع :

* النفوذ الغربي للممثل في الغرب للندفع للسيطرة على العالم الإسلامي وتقسيم ميراث الوحدة الإسلامية العثمانية . * الدولة العثمانية في مرحلة ضعفها بين مؤامرات الاستعمار ومحاولات الإصلاح . * القوة السياسية الحربية ممثلة في مصر ومحمد علي * القوة الإسلامية السياسية ممثلة في دعوة محمد بن عبد الوهاب والأمراء السعديين . ولما كان الاستعمار للتصارع على مناطق النفوذ ، متفقا في القضاء على الدولة العثمانية وتمزيق ممتلكاتها وتقسيمها فيما بينه ، فقد استطاع أن يوهز إلى الدولة العثمانية أن تضرب القوتين ببعضهما ببعض ، وقد حدث ، فاستعان السلطان بقوة مصر العسكرية الحديثة في القضاء على قوة الجزيرة العربية ، ثم استطاع الانتصار من بعد أن يقضى على قوة مصر وبذلك انفسح أمامه الطريق مرة أخرى لتحقيق غايته في السيطرة على العالم الإسلامي وتقسيمه إلى مناطق نفوذ له . غير أن القوة الإسلامية التي انهارت ، ظلت قوة فكرية متألفة . وكان مفهومها هو لباب مختلف حركات الإصلاح والتجديد الإسلامي من بعد . وكان القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر للبلاد) مجالا خصبا لموايل اليقظة التي بدأت قبل وصول الحملة الفرنسية إلى مصر بستين عاماً ، من هنا بدأ وجه الغرب من جديد في أولى خطوات الفوز الاستعماري الغربي الحديث (١٣١٦ هـ - ١٧٩٨ م) والتي امتدت خلال القرن الثالث عشر باحتلال : الجزائر ومصر وتونس والخليج العربي ، وذلك مقدمة للسيطرة التامة على العالم العربي قبل الحرب العالمية الأولى وخلافا . وكانت الهند وأندونيسيا قد سقطتا في قبضة النفوذ الاستعماري في منتصف القرن التاسع عشر وبذلك تم السيطرة على العالم الإسلامي بعد ثلاث قرون من حركة تطويقه وفي عام ١٩١٨ ، تمت الحلقة الأخيرة بانتهاء الحكم العثماني على العالم العربي بعد أن سقطت وحداته تحت نفوذ الاستعمار الغربي .

(٢)

مراحل الخلاف،

مرت العلاقة بين العرب والعثمانيين في عدة أدوار : (الدور الأول) للرحلة التي بدأت (٨٩٢٣ - ١٥١٧ م) وذلك باندماج العرب والعثمانيين في وحدة إسلامية شاملة ، بعد أن ضعفت القوى العربية وقوى للمالك والسلاجقة حين بدأت الوحدات العربية تتعرض للهجوم الغربي وخاصة في مناطق البحر الأبيض المتوسط وهي المناطق التي واجهت الغزو والحصار الاقتصادي بالانتفاخ حول رأس الرجاء الصالح ، وقد امتدت هذه المرحلة حتى ظهرت محاولات الانتفاخ في وحدات عربية مختلفة على الحكم العثماني : خاصة في مصر (على بك الكبير) وسوريا (ظاهر العمر) لبنان (فجر الدين المعني) ثم ظهرت حركة عربية إيدولوجية ذات طابع فكري إسلامي هي دعوة التوحيد : التي كانت تحمل في مضمونها لواء المقاومة والانتفاخ لطابع الحكم العثماني الذي بلغ غايته في الضعف والجلود ، ومن هنا بدأت اليقظة الإسلامية تنبث من قلب المنطقة العربية ، وبدأت القوة العربية تستعيد مكانتها كقوة إيجابية في مواجهة عوامل الانهيار لتحمل لواء اليقظة والنهضة في العالم الإسلامي كله ، وكان ذلك إيذاناً بأن الوحدة الإسلامية العثمانية ، قد وصلت إلى نهاية المد ودخلت مرحلة الجزر ، وأكملت دورتها في مراحل النشكون والتألق والانحدار : وقد وقع هذا في (١١٥٣ - ١٧٤٠ م) في نفس الوقت الذي بدأت فيه الدولة العثمانية تتحول من موقف الهجوم إلى موقف الدفاع بالنسبة لوحدها في قلب أوروبا والبلقان ، غير أن اليقظة العربية ظلت فترة طويلة في مرحلة « الشرنقة » . (الدور الثاني) المرحلة التي بدأت في أول حكم السلطان عبد الحميد ، والتي كان يقودها دعاة الحرية على المفهوم الغربي ، وفي مقدمتهم « مدحت » والتي استطاعت أن تقيم نظاماً سياسياً جديداً (١٢٩٣ - ١٨٧٦) قوامه الدستور ، بيد أن هذه الحركة لم تستكمل عناصر البقاء ، ولذلك فإنها سرعان ما انهارت ، ودخلت الدولة العثمانية في دور صراع فكري خلال مرحلة استمرت حتى عام ١٣٢٦ - ١٩٠٨ حينما استعادت الدستور العثماني مرة أخرى . في هذه المرحلة كان « جمال الدين الأفغاني » قد بدأ دعوته إلى الجامعة الإسلامية التي نؤرخها بوصوله إلى القاهرة عام ١٨٧١ وذلك بحسبان أن مذهبه الفلسفي كان قد تمهد بعد سنوات الكفاح التي قضاها بين فارس والهند وتركيا ، وبحسبان أن مصر - في تقديره - قلب العالم الإسلامي وأشد مناطق الأمة العربية حساسية ويقظة ، هي أصلح موقع لاطلاق دعوته التي تمثل تطوراً للحركة اليقظة العربية الإسلامية التي

تقدمه بأكثر من سبعين عاماً ، وفي ضوء حركات التحرر والإصلاح في الدولة العثمانية والوحدات العربية وخاصة فيما يتصل بحركة مدحت وأتباعه الاتحاديين في قيام دستور نيابى وتقييد سلطات الولاة والامراء ، وهو ما شارك فيه من بعد عندما وضع دستور فارس ، وعندما أشار على سيد « المابين العثمانى » من قيام نظام الولايات ، وما ناقشه مع توفيق وهباس من حكم مصر .

ومن هذه الدهوة ظهرت حركة السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى كانت تعمل من أجل « وحدة المسلمين » ولقد تبين من بعد صلة الاتحاديين باليهود الدائمة وبمخططات الاستعمار بينما استطاع السلطان العثمانى أن يجعل من دعوة « وحدة العالم الإسلامى » سلاحاً يواجه به النفوذ الغربى المضطرد الغزو لعالم الإسلام ، وقد جاءت حركته في أحقاب تحرر الأجزاء الأوربية من الدولة العثمانية ولاشك كان للحركة أثرها ومفعولها وامتنادها بعد سقوط عبد الحميد عام ١٩٠٩ فقد ظل نصرائها يحملون لواثها إلى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ ثم تطورت بعد إلى منهج آخر وأسلوب جديد .

غير أن الخلاف كان واضحاً بين دهوة الجامعة الإسلامية التى يدعو إليها جمال الدين الذى توفى عام ١٨٩٧ وبين حركة الجامعة الإسلامية التى قادها السلطان العثمانى من ناحية وبين حركة الجامعة الطورانية التى كان قيادها في أبهى الاتحاديين ، غير أن هذا الصراع لم يتكشف إلا بعد عام ١٩٠٩ فقد استطاع الاتحاديون أن يفرضوا نفوذهم عام ١٩٠٨ وأن يحققوا إصدار الدستور في نفس اليوم ، هذا العام الذى يمد من الأرواح الحاشمة في تقدير المؤرخين لحركة اليقظة ، فقد استقبل في هذا المستوى في مختلف أجزاء عالم الإسلام ووحداته العربية بالذات باهتمام كبير ، غير أن هذا الجو من التفاؤل لم يلبث أن تضائل بعد إسقاط عبد الحميد ١٩٠٩ . فقد كشف الاتحاديون عن هدفهم في إعلان الدهوة « إلى الجامعة الطورانية » وأخذوا في تنفيذ مخطط تفريك العناصر في الدولة العثمانية وواجهوا الأمة العربية بأقسى ألوان الاضطهاد ، حين أصر العرب على الحفاظ على كياناتهم القومية ولقبتهم العربية ، ووقعت سوريا بالذات في خلال الحرب العالمية الأولى تحت نفوذ أحد قادتهم أحمد جمال باشا الملقب بالسفاح الذى قاوم الوحدة العربية أهتف مقاومة .

(الدور الثالث) ومن هنا بدأ الانقسام بين الوحدة العثمانية العربية المتشكلة باسم الإسلام في الدولة العثمانية ، كانت الحركة العربية في أول أمرها حريصة على بقاء الوحدة العثمانية العربية ، على أساس قيام نظام لامركزي يحفظ لوحدات العربية كياناتها ولغتها ، غير أن أصرار الاتحاديين

على تحريك العناصر ، والدعوة إلى الجامعة الطورانية التي تعارضت في أسلوب الدعوة مع مفهوم الإسلام ومع مقومات الجامعة العربية ، هناك انفصلت الوحدة ، وبرزت الدعوة إلى الوحدة العربية مافرة ، غير أن الأحداث العالمية كانت بعيدة الإثر في تحديد موقف العرب والترك ، حين قامت الحرب العالمية وانضم الأتراك لألمانيا وأغرقت بريطانيا العرب بوهود مكتوبة على إقامة الدولة العربية بعد الحرب شريطة مساعدتهم لها ، هنالك بدأ الصدام بين العرب والترك في الجزيرة العربية وفلسطين وسوريا ولبنان على النحو الذي تحقق معه النصر للحلفاء (الانجليز والفرنسيين) في الحرب العالمية ، وهزيمة ألمانيا وتركيا ، غير أن بريطانيا لم تلبث أن غدرت بالعرب وتكرت في هبدها لهم وتماهدت مع فرنسا على تقسيم الشام (فلسطين وسوريا ولبنان) والعراق . وانتهت الحرب باحتلال انجلترا للعراق وفلسطين واحتلال فرنسا لسوريا ولبنان مع صدور وعد بلفور بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين وفي نفس الوقت احتل (الحلفاء) العاصمة العثمانية وأجزاء من الدولة ، هنالك برزت حركة التغريب التي قادها (مصطفى كمال) ومنحت عربونا لولائها إجلال الحلفاء واليونان من (آسيا الصغرى) وهي القسم التركي الباقي من الدولة العثمانية بعد انزعاج الوحدات العربية منها . (الدور الرابع) حققت الحرب العالمية الأولى للاستعمار الغربي الوصول إلى استكمال عملية الغزو التي بدأها عسكرياً منذ بدأت حملة نابليون ١٨٠٨ ووقف اللورد الذي (القائد البريطاني) في بيت المقدس وقال كلمته الخامسة : « الآن انتهت الحروب الصليبية » ومن ثم بدأت مرحلة من مراحل « الاقليمية الضيقة » في مختلف أجزاء العالم الإسلامي تحاول أن ترجع هذه الوحدات إلى ماضيها قبل الاسلام لندعو إليه من جديد ، ففي مصر ظهرت الفرعونية ، وفي سوريا ولبنان ظهرت الفينيقية وفي العراق ظهرت الأشورية ، وفي المغرب ظهرت البربرية ثم بدأ نمزق مصري وفكري وديني بين العناصر المختلفة ، قوامه مسيحي ومسلم ، وكردى وهربى ، وشيخى وسنى ، ومارونى ودروز ، وبدأت حركة الاقليمية الضيقة تسنعل وترتفع صيحاتها حتى يحال بين هالم الإسلام وبين التجمع في وحدة فكرية ، واتصل ذلك بالغة العربية التي جهدت ، وباندفاع اللغتين الفرنسية والانجليزية إلى السيطرة الثقافية في العلم الإسلامي كله ، كما اتصل ذلك بالثقافات والبطولات وتاريخ وأجداد الدول المحتلة لتصبح أجزاء أساسية في مناهج التربية والتعليم ، وذلك لحجب الطابع الإسلامي الذي كان مسيطراً على الفكر قبل هذه المرحلة ، وبدأت الوحدات صراها داخلياً عنيفاً مع المحتلين ، أخرجها إلى مرحلة طريفة حتى هادت إلى املاك أسلحتها وقواها في الوحدة والإيمان بترائها ومقوماتها .

أما تركيا الإسلامية - فقد انجذبت نحو الحضارة الغربية أنجاها قويا وحاداً ، فألفت كل مظاهر الحياة الاجتماعية والفكرية والسياسية الإسلامية ، وانتقلت من النقيض إلى النقيض ، وكان ذلك كرد فعل للعوامل الضخمة التي أوقمت الدولة العثمانية في الاضطراب والتفكك والمزمنة في الحرب العالمية ، وكاستجابة لنتائج مرحلة طويلة استمرت أكثر من قرن ونصف قرن ، ومن طبائع الأشياء أن تتحرك القوى المتضاربة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار لمرحلة اندفاع أولى ، ثم تعود مرة أخرى إلى التوازن والتعادل بعد أن تمر بمرحلة الانفجار أو التنفيس ، فقد شجبت تركيا الإسلام واللغة العربية كلية وحجبت نراثها الإسلامي والعربي النقيض كله ، وبدأت تكتب لغة تركية جديدة منفصلة عن اللغتين العربية والفارسية ، واستعملت الحروف اللاتينية ، وقلّدت الطابع الديني كلية في الحياة الاجتماعية واندفعت في التحرر إلى أقصى مدى ، في الزى ، وفي البيت ، وفي المدرسة ، وربطت نفسها بعالم الغرب ثقافياً وسياسياً وعسكرياً واجتماعياً على نحو أحدث هزة ضخمة ، ثم تابعتها إيران ، وجرت مثل ذلك محاولة في أفغانستان ، وواجهت الأمة العربية هذه التجربة مواجهة لا حد لدقتها ، فقد كانت « حركة التغريب » التي يحمل لوائها الاستعمار والتي تهدف إلى فصل المسلمين والعرب من مقومات فكرهم وكيانهم (التي هي إسلامية أصلاً) بوصفها من عوامل المقاومة للفتور والاستعمار والنفوذ الأجنبي ، كانت تحاول أن تتخذ من حركة تركيا تجربة ناجحة وتدعو إلى تقليدها ، وقد أحدث ذلك هزة نفسية بالغة في مختلف مقومات الفكر العربي الإسلامي ، غير أن العرب بحسبانهم حلة لواء « حركة اليقظة » التي بدأت قبل ذلك بأكثر من قرنين ، وعمقت آثارها في البيئة العربية استطاعت أن تقاوم . لقد ربطت حركة اليقظة الإسلامية العربية بين تحرير الفكر الإسلامي من التقليد والجود ، وبين مقاومة النفوذ الاستعماري الزاحف ، وقدست كل الأسلحة لمقاومة الشبهات الفكرية والاجتماعية ، ومن هنا هجرت حركة التغريب عن ضرب الإسلام في المنطقة العربية .

(الدور الخامس) : بدأت حركة الوحدة العربية تحمل لواء مقاومة النفوذ الاستعماري ، بعد أن تمزقت جبهة الوحدة الإسلامية العثمانية التي التفت حولها كثير من المفكرين العرب والمسلمين بحسبانها قوة قائمة فعلاً ، تعمل على دفع الفتور الغربي ، فلما رزق الاستعمار « عالم الإسلام » ، قامت حركة الوحدة العربية كعلامة على العمل الواقعي لمواجهة الفتور وتوسيع جبهة المقاومة . وقد بدأت فكرة العروبة مرتبطة بالأساس الفكري بالإسلام ، غير أن الاستعمار الذي قوم أي وحدة ، حاول أن يشير في أعماق هذه الدعوة الشبهات والتمزقات وذلك حين ظهر تيار يرمي إلى نقل الوحدة العربية من

مفهوم الفكر العربي الإسلامي ومن أرضيته الطبيعية إلى «مفهوم القومية الوافدة» منفصلة عن أرضية الإسلام، منفصلة عن مقوماتها الأساسية : من العقائد والقيم، وكانت مؤامرة الاستعمار في محاولة خلق صراع بين أهل الإسلام لتضرب الروابط بين العرب والوحدة الإسلامية من ناحية ولتجزئة الفكر العربي الإسلامي، بإثارة خصومات سياسية وفكرية بين مختلف العناصر.

(٣)

الحرب الصليبية الجديدة

يمكن أن توصف الفترة التي بدأت بإعلان دعوة التوحيد (١١٥٣ هـ - ١٧٤٠ م) إلى نهاية الحرب العالمية الأولى (١٣٣٧ هـ - ١٩١٨ م) بأنها مرحلة متكاملة في مجال اليقظة الإسلامية فقد تطورت فيها حركة اليقظة وتبلورت وتداخلت في عديد من الموجات والدعوات التي حل لواؤها : محمد بن عبد الوهاب والشوكانى، والسنوسى والمهدى والبرهنى والدعلوى، وجمال الدين ومحمد عبده والسكاكبي ورشيد رضا. كما تمثلت في ثورات متوالية على الانجليز في الهند (١٨٥٧) وعلى الفرنسيين في الجزائر (١٨٣٠) وعلى الانجليز في مصر (عرايى) ١٨٨٢ وعلى الانجليز في السودان (١٨٩٨) وعلى الروس في القوقاز وعلى الانجليز في فارس وتمثلت في هذه الحركات العسكرية والسياسية والفكرية مختلف أساليب : اليقظة والمقاومة وتصحيح المفاهيم والوحدة السياسية والفكرية والاصلاح الاجتماعى. ويمكن القول بأن (اليقظة الإسلامية) قد واجهت مرحلة جديدة بعد الحرب العالمية الأولى لها طابعها وتحدياتها المختلفة ومن هنا ويمكن القول بأن هذه الحركة حققت نتائج بالغة الأهمية في مقدمتها :

* بعث أجداد العرب والمسلمين، والرد على مختلف الشبهات التي حل لواؤها المبشرين ودعاة الاستعمار والتفريب * هز عالم الاسلام وبعث «خط جديد» قائم على تكامل الاسلام وشموله : بالربط بين العقل والقلب، ومستمد من امتزاج مفهومى الغزالي وابن تيمية للاسلام * حاولت التوفيق بين الاسلام وحاجات العصر، وأعطت الأعمال السياسية والوطنية طابع الاسلام * رسمت مفهومها في أبسط صورة : العمل بكتاب الله وسنة رسوله مع مسايرة مقتضيات العصر، بحيث لا تقبل نظرة إلا إذا أقرها التوحيد وصادق عليها الاسلام، وفهم الاسلام على أساس أنه يعتمد على القيم ونواحيس السكون وتطورات الزمن في العبادات والعبادات * غلب الطابع السياسى على حركة اليقظة في بلاد

العرب وضل الجانب العقلي الاجتهادى على الحركة في الهند وجمعت المغرب بين الانجاسيين * ناضل السلفيون في المغرب ضد رجال الطرق الموالين للاستعمار وضد الفزاة الأجانب * مزجت حركة البيقطة الاسلامية بين مقاومة الانحلال الداخلى ومقاومة السيطرة الأجنبية * تصفيه التتاسير الجزئية والخطاينة التى وضعت في فترة الضعف * إعادة الحرية الفكرية * الدعوة إلى دراسة الكتب العلمية القروية وإن كان مؤلفوها غير مسلمين ، أو كان فيها ما يخالف القرآن المرد عليها * الدعوة إلى استنصاء الشريعة شرحا وتطبيقا .

إذا قلنا أن مرحلة الغزو الغربى على عالم الاسلام في العصر الحديث بدأت مرة أخرى بعد أن توقفت الحروب الصليبية بقرنين أو ثلاثة . فاعلمنا يكون ذلك القول بمثابة نظرة جزئية ، إلى الحروب الصليبية التى إنتهت فعلا في المشرق عام ٦٩٠ هـ ١٢٩١ م ، أما بالنسبة لعالم الاسلام كله فيمكن القول بأن الحروب الصليبية لم تتوقف وإنما دخلت في دور جديد من ثلاث مراحل :

(١) مرحلة تطويق عالم الاسلام التى بدأت بمحملات البرتغال وأسبانيا بعد تحقيق هدف من أضخم أهداف الغرب وهو تخليص أوروبا من سيطرة المسلمين والعرب — هذا في نفس الوقت الذى كانت أجزاء البلقان قد وقعت تحت سيطرة المسلمين والترك منذ ٧٥٩ هـ — ١٣٥٧ م أى قبل سقوط غرناطة بما يقرب من قرن ونصف قرن — وقد كانت الأندلس منطلق حملة تطويق الاسلام حوالى عام ١٦٠٠ تقريبا إلى شواطئ المغرب وشواطئ إفريقيا ، وقد امتدت هذه المرحلة حتى ١٧٩٨ وقد قاومت الوحدات الاسلامية خلالها مقاومة كبرى وانتهت بقيام استعمار اقتصادى براسطة شركتين إحداهما هولندية فى أرخبيل الملايو وبريطانية فى الهند ، ثم بدأت رحلة الاحتلال العسكرى (حملة نابليون ١٧٩٨) وانتهت هذه المرحلة ١٩١٨ (نهاية الحرب العالمية الأولى) سيطرت هولندا على أندونيسيا عام ١٨٠٠ واحتلت بريطانيا الهند ١٨٥٧ واحتلت بريطانيا الأمة العربية عام ١٨٣٠ الجزائر ، وعام ١٨٣٩ عدن ، وعام ١٨٨١ تونس وعام ١٨٨٢ مصر ، وعام ١٨٩٧ السودان ، وعام ١٩١١ ليبيا ، وعام ١٩١٢ المغرب ، وعام ١٩١٢ سوريا وفلسطين والعراق .

ويمكن القول أنه بانتهاء الحرب العالمية الأولى كان العالم الاسلامى كله قد سقط فى قبضة الاستعمار الغربى ما عدا : إيران وأفغانستان وإن كان الاستعمار معهما ومع أجزاء من الجزء العربيه معاهدات ، وبذلك انتهت عملية الغزو الاستعماري الغربى الحديث ، الذى ظل ممتداً فى بعض أجزاء المغرب والأندلس منذ الحروب الصليبية وأما يتوقف . وفيما بعد الحرب العالمية الأولى بدأت مرحلة متأزل ممتدة هى مرحلة الاستعمار الفسكرى (الغزو الثقافى والتفريب) والاستعمار الاقتصادى لعالم الاسلام ،

وقد تمثلت في هذه المرحلة استمرار عملية المقاومة في مختلف أجزاء عالم الاسلام : هذه المقاومة لم تتوقف ، منذ بدأت عمليات الغزو العسكري والسياسي ، غير أنها اختلفت في فترة ما بين الحربين هنا في المرحلة السابقة لها ، فقد غلب عليها الطابع السياسي والدبلوماسي ، حيث امتنع الاستعمار أن يقيم حكومات موالية له ، وظلت القوى الوطنية تقاوم بالسكامة والتجمع وبالثورات .

وأبرز ما تنقسم به مرحلة ما بين الحربين : « طابع الثورات » بينما كان طابع المرحلة التي سبقتها يتمثل في « حروب المقاومة » وقد تفاوتت هذه الثورات طولاً وقصراً ، وكان أكثرها شبيهاً بحروب المقاومة : ثورة الريف التي قادها الأمير عبد الكريم الخطاطبي (١٩٢٦) . وثورة عمر المختار في ليبيا ١٩٣٠ أما أجزاء العالم العربي فقد اندلعت فيها الثورات متوالية ومتصلة لم تتوقف : مصر ١٩١٩ ، العراق ١٩٢٠ ، والسودان ١٩٢٤ ، سوريا ١٩٢٤ ، فلسطين ١٩٣٥ . أما الهند وأندونيسيا وتركيا وإيران وأفغانستان فقد توالى الثورات ، والانقلابات ، بالإضافة إلى ثورة تركستان ، وفي خلال هذه الفترة أثيرت في تركيا وإيران وأفغانستان محاولات تمحول وتغيير قامت تحت سلطان التجديد والتغريب ، غير أن العالم العربي كان أقل تأثراً بهذه الحركات وظل أكثر أصالة في مفهومه الاسلامي للتفصيل بماضيه وقيمه ، وكانت تركيا أقوى هذه الوحدات الاسلامية جرياً وراء تيار التغريب وقد اتخذها الاستعمار « نموذجاً » للتجربة التي نجح عالم الاسلام من آثارها الهادفة إلى القضاء على طابعه الاسلامي ، والتوغل في عملية التحول والتغريب ، والانفصال عن مضمون الاسلام الفكري والاجتماعي والسياسي .

وتمثل مرحلة ما بين الحربين ، أدق مراحل للمقاومة والصراع ، ليس في مجال المقاومة العسكرية أو السياسية تجاه الاستعمار ، بقدر ما كانت في مجال مقاومة التغريب والتبشير والشموعية في مجال هدم مقومات الفكر الاسلامي في نفوس المسلمين وإثارة الشبهات حول الاسلام والقرآن والنبى محمد والتاريخ والتراث واثقة العربية . وقد ركز الاستعمار في هذه المرحلة تركيزاً ضخماً على « الأمة العربية » باعتبارها بدت وكأنها الطليعة الجديدة لقيادة الاسلام ، وبوصفها قلب عالم الاسلام وأقوى القوى للدافعة عن السنة والمفاهيم الأساسية التي كانت دهوة اليقظة في خلال أكثر من ١٧٧ عاماً قد استنطاعت من خلال حركات متعددة تمحول طوابع التوحيد الاسلامية والاجتهاد وتحرير العقل إلى إقامة كيان فكري ضخم قادر على المقاومة لم يكن من اليسير القضاء عليه أو تدميره .

وفيما بعد الحرب العالمية الثانية امتنع الاستعمار أن يركز دوائمه العسكرية والثقافية

في العالم الاسلامي ، وينتقل عن قواعده العسكرية ومن ثم بدأت بعد الحرب حركات جلاء واستقلال لمعظم وحدات العالم الاسلامي تحت ضغط القوى الوطنية التي حملت لواء المقاومة .

ومن أبرز انتصارات الاسلام استقلال أندونيسيا وقيام دولة الباكستان الاسلامية منفصلة عن الهند ، ومن أظهر هزائمه ، وأقصى ما أظهر من حركات الاستعمار في هذه المرحلة ، عملية زرع دولة صهيونية في قلب الوطن العربي في فلسطين (١٩٤٧) وقد كان رد الفعل في مواجهة إسرائيل هو ذلك التحول السياسي والعسكري والاجتماعي الذي شهده العالم العربي والذي تمثل في أكبر وأخطر مواجهة لإسرائيل ، وإذا كان لنا أن نستعرض في كلمة سريعة موقف الاسلام . فلنا إن مرحلة الحرب العالمية الأولى حققت تقسيم العالم العربي وتجزئته الدولة العثمانية بعد انقضاءها لألمانيا وهزيمتها ، ثم انتفاض تركيا على الاسلام وإلغاء الخلافة ، كقداسة لحركة غزو ضمخ لغة والدين والتراث .

أما بعد الحرب الثانية فكانت أبرز الأحداث . قيام إسرائيل وبروز نقطة هربية جديدة قوامها الوحدة العربية لمواجهة الاستعمار والصهيونية معاً . ثم بروز اتجاه تقارب بين العرب وعالم الاسلام بعد فترة من الوحشة والانقسام ، هذا فضلاً عن تقارب في الفكر الاسلامي ارتقى فوق خلافات للذاهب ، وحاول الارتقاء في مواجهة الغزو الغربي ومن خلال إيمان بالحفاظ على مقومات الاسلام كقوة مدافعة في وجه حملة الاستعمار العربي ويمكن أن يطلق على مرحلة ما بين الحربين طابع مرحلة الغزو الفكري والتغريب للقضاء على المقاومة وإحلال طابع محاسنة الاستعمار والالتقاء به ، غير أن هذه الفترة قد زخرت باهلام تابعوا دعاة اليقظة العربية الاسلامية على الطريق وبلوروا أسلحة مقاومتهم مع تطور العصر ، ومع ظهور شبهات جديدة ، ومحاولات جديدة للغزو الفكري والتغريب . في هذه المرحلة برزت مؤسسات هربية واسلامية ضخمة في مختلف أنحاء عالم الاسلام اتخذت من تصحيح مفاهيم الاسلام وإجلاء جوهره سلاحاً لمقاومة الاستعمار والاحتلال والتغريب ومقاومة حركات التبشير والشيوعية وكان من أبرزها :

- * مؤسسة الإصلاح والتجديد في مصر وقوامها رشيد رضا وعبد الدين الخطيب وفريد وجدي وتلاميذهم .
- * ندوة العلماء في لاهور وقوامها شبلي نعمان وسليمان النددي ومؤسسات أخرى قوامها مولاي محمد علي وسيد أمير علي .
- * مؤسسة النجف وقوامها الإمام كاشف الغطاء ومحمد جواد مغنيرة .
- * إيتباع دهوة التوحيد في العراق (الألوسي) وفي سوريا (المعري والقاسمي والبيطار)

* السلفيون في المغرب وفي مقدمتهم الدكالي ، ومحمد العربي الماوي وتلاميذهم . * حركة التجديد في الجزائر بقيادة عبد الحميد بن باديس وبشير الأبراهيمي * حركة التجديد في أندونيسيا :

وفي خلال هذه المرحلة لم تتوقف حركة المقاومة . في قطاعاتها الثلاث : الاجتماعية والسياسية والفكرية ، ويمكن أن يقال أن الاستعمار قد واجه عالم الإسلام بأقصى حملات الغزو وحملات الدم التي لم تتوقف ، وقد رد عليها عالم الإسلام بالمقاومة والثورات المتوالية ، وقدم فيها المسلمون في مختلف الوحدات شهدائهم وأبطالهم الذين رفضوا الاستسلام ، وواجهوا القوى الغاصبية ، بالأجساد المثرصة وتلقوا رصاص الغزاة في صدورهم ، ففي ثورة الهند المسلحة على الإنجليز ١٨٥٧ ، وفي ثورة الجزائر ١٧٣٠ — ١٨٤٧ بقيادة الأمير عبد القادر التي استمرت سبعة عشر عاما ، وفي ثورة تركستان بقيادة شامل في مواجهة القوى الروسية ، وثورات المسلمين في جزائر الهند الشرقية في مواجهة الاستعمار الهولندي وفي العالم العربي بمختلف أجزائه لم تتوقف الثورات ، بل نوات فترة بعد فترة ومرحلة بعد مرحلة ، قادم السنوسيين في ليبيا سنوات طويلة استمرت من ١٩١١ إلى ١٩٣٢ تقريبا ، وهرقت مصر ثورة هرابي ١٨٨٢ وثورة ١٩١٩ وثورة ١٩٥٢ .

(٤)

حرص الاستعمار في مرحلة الغرب والغزو الفكري على تمزيق جبهة الإسلام بالتفرقة بين العرب والترك ، ثم بين الترك والفرس ، ثم تمزيق جبهة العرب ، ثم استغلال الحركات القومية في شجب مفاهيم القوميات الإسلامية والعربية الجندرية والقضاء على الرابطة الإسلامية الجامعة لعالم الإسلام بوحدة الفكر . ومحاولة إذابة المسلمين والعرب في بوتقة حضارة الغرب وفكره ، والسيطرة عليه سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، وقد سعى الاستعمار إلى ذلك بعدة وسائل اتخذ لها خططا حاسمة (أولا) تجميد اللغة العربية في العالم الإسلامي كله ، وإيقاف ثقافتها ، ومحاولة إحياء اللغات القومية وتغليب لغة المستعمر (الفرنسية أو الإنجليزية عليها) ودفع اللغات القومية إلى طريق جسد بد بكتابتها بحروف لاتينية كما حدث في تركيا وأندونيسيا (ثانيا) فرض المدارس الأجنبية ومدارس الإرساليات بمنهجها ولغاتها والقضاء على المدارس الوطنية وإيقافها ، واعتبار لغة الاستعمار هي اللغة الأولى ، مع فرض تاريخ الغرب وإبطاله ومذهابه وثقافته أساساً ، وذلك للقضاء على مقومات الفكر الإسلامي وتاريخ الإسلام وإبطاله . (ثالثا) التبشير بالديانات التي تمثلها ثقافات المحتل ، وذلك عن طريق المدارس والمستشفيات والصحف والأندية والمسكبات والإذاعات ومختلف الوسائل

(رابعاً) تغيير العقائد وأنظمة الاجتماعية والقوانين ، وتجهيد الشريعة الإسلامية وأحكامها وأنظمتها وإحلال القوانين الأوروبية المستمدة من بينات الغرب وأديانه وحاجاته على القيم الإسلامية والعربية الأساسية . (خامساً) فرض مظاهر الحضارة الحديثة في الفنون والمجتمع وأدوات المهور ، والقصاص المكشوف ، والمسرحيات ذات الطوايع المنحلة ، وذلك بهدف القضاء على مقومات المجتمع وأخلاقياته وبث روح الإنحلال في الشباب ، وتمزيق وحدة الجماعة والقضاء على كيان الأسرة (سادساً) إذاعة الدهوات التنريدية المنحرفة والمذاهب الهدامة ، وضرب الفكر الإسلامي بقضايا وأفكار وأراء تقوم على الألحاد والإباحة والتحلل بما يقضى على مقومات الإسلام والفكر الإسلامي وأخلاقياته والتبيل من الدين والروحية والقيم الإنسانية والمعنوية .

(سابعاً) ضرب العروبة بالإسلام ، ومحاولة دفع تيار العروبة إلى منهج منفصل من مقومات الفكر العربي الأساسية في اللغة والتاريخ والتراث ، وذلك لتفسيخ مقومات الوحدة العربية بحسبانها عاملاً هاماً في تركيز مفاهيم الفكر العربي الإسلامي وجذوره ، وفي هذا يقول الأستاذ محمد هـ العنتبى لقد حرص الاستعمار منذ الحروب الصليبية على القضاء على البعث العربي في أية صورة من صورته ، باعتبار أن ذلك في رأى الغرب بالإضافة إلى أنه يشكل في ذاته خطراً جسيماً على سياسته : فإنه متى تحقق كان المقدمة التي تجر ورائها حتماً وتلقائياً « البعث الاسلامى » فإن بعث القومية العربية في نظر ساسة الغرب هي الطاقة القومية التي متى انبعثت ، كان من الحتم أن تدفع المسلمين أمامها إلى التجمع من جديد على الصورة القوية التي لا يمكن أن تتحقق إلا في ظل القومية العربية دون سواها من الحركات الإسلامية ولم يفرق الغرب بين القومية العربية والتجمع الاسلامى ، أو بين العروبة والاسلام ، ففى العروبة تمثل أمام ساسة الغرب : « الاسلام » فلهذا فإن الغرب يتهيب دائماً خطر التجمع الاسلامى ويراه كامناً فى العروبة حينما كانت لافى الإسلام حينما كان ، (ثامناً) إقامة قواهد عسكرية ذات طابع عنصري تحمل فلسفة خاصة تكون هاملاً أساسياً في ضرب حركات التحرر وفي الحلولة دون القيام الوحدة العربية التي هي حامل أساسى في تحقيق جانب القوة للإسلام ، وقد حرصت دول الغرب مجتمعة على تعميق هذه القاعدة وإبلاغها أقصى مدى من القوة ، دون تقدير لتفريد العرب أهل المنطقة (تاسماً) إثارة الاتهامات الباطلة والشبهات المضللة حول الإسلام واتهامه بأنه سبب انحطاط الشعوب الإسلامية ، ومحاولة بناء ادعاءات كاذبة حول هذا المعنى مستمدة من مرحله الضعف التي مر بها عالم الإسلام فى أواخر عصر الدولة العثمانية . والواقع أن الاسلام محبوب بالمسلمين ، وأن انفصال المسلمين عن مفاهيم الاسلام كان العامل الأساسى في ضعفهم وهزيمتهم أمام الغزو الغربى .

(٥)

الاسلام والغزو الاستعماري الحديث

انسمت مرحلة « البقطة الإسلامية » ، بطابع الإسلام بكل مقوماته ، واستكملت ملامحها على النحو الذي استكملته للراحل للنضلة للتلاحمة ، حلقة وراء حلقة ، لا يفصل بينها شيء ، فكل منها يضم ما قبله ، ويهيء لما بعده ، فحيث يبدو عامل الضعف في وحدة من وحدات عالم الإسلام ، يبدو عامل البقطة في وحدة أخرى ، وحيث ينحرف مفهوم الإسلام ، يظهر المصلح المجدد الذي يكشف عن جوهر الإسلام فيصحيح المفاهيم ، وحيث تسيطر فكرة جزئية محاولة أن تمثل الإسلام ، يشرق من جديد ضوء الإسلام في تسكلمه وشموله ووسطيته ، وحين يقوم الظلم أو الجور أو الانحراف والتحلل في مجتمع يبرز الآمرون بالمعروف ، والناصحون للولاء ، والدعاة الحق ، وهكذا يعطى الإسلام بنقاء جوهره وقدرته على الحركة والحياة ، قوة مجددة على الاستمرار والفاعلية والحياة ، وإعادة تشكيل نفسه وصياغة مفاهيمه على النحو الذي يجري مع كل زمن وفي كل عصر لا يتخلف ولا ينحرف وتلسم هذه المرحلة بسمات واضحة :

(أولاً) قدرة الإسلام على مواجهة الغزو الاستعماري والكشف عن أصالة جوهره وإيجابيته بمد أن تعرف على أسباب تأخر مجتمعه وتخلقه ، وقد تبين أن التخلف لم ينتج عن الإسلام نفسه فالإسلام بفاعليته وديناميكيته الحية قادر على إعطاء القدرة الدائمة على المقاومة والقوة والحياة ، إنما نتج التخلف من انفصال المجتمع الإسلامي عنه ، بينما كانت قيم تراث الإسلام ، وحدها من أكبر مصادر النهضة التي ظهرت في الغرب ، حيث العدو الذي ظل يستند للسيطرة والانتفاض .

(ثانياً) أبرز الإسلام في هذه المرحلة قادة فسر وقادة عمل ، واستطاعت حركات المقاومة أن تستمد وقودها من الكلمات المضيفة التي جهر بها قادة الفكر واستمدوها من القرآن والسنة أصلاً ، فقد كانت قدرة الإسلام الجوهرية تتمثل خلال الأزمات الكبرى في التماس هوامل النصر من المناج الأصلية : القرآن والسنة النبوية (حديثاً وصيرة) وأن تمر من مراحل الفكر الاسلامي كله مستمدة من « الأصول » و « الجذور » بوصفها أصدق إمداداً ، وأعمق أنراً ، وأقرب إلى العزائم ، وأبعد عن الزلل أو الرخص .

(ثالثاً) برزت في هذه المرحلة قوى مقاومة عسكرية قادرة ، لا تقل في إيمانها بالاسلام والدفاع عنه عن قوى السلاجقة والبربر والماليك وقد تمثلت هذه القوة في الجزائريين بقيادة الأمير عبد القادر والقوغازيين بقيادة شامل ، والمصريين بقيادة عمر مكرم وأحمد هراي ، والسودانيين بقيادة المهدي والتماشي والخنودة في ثورة ١٨٥٧ بقيادة ابن هرغان وغيرها ، وكذلك العثمانيون والسواحليون والأزارقة في مواجهة البرتغال والأسبان والانجليز ، وكذلك السنوسيون بقيادة السيد أحمد الشريف وبين المغاربة جملة على شاطئ المتوسط وبين الفرنجة ، كما قاوم الجاويون هولندية .

كانت هذه الحروب غير متكافئة حيث دارت مع المسلمين والعرب وهم في آخر مراحل الضعف ، بينما كان الغرب في أول مراحل القوة ، واستمرت هذه الحروب طويلاً ، حتى يمكن أن يقال أنها لم تنته ، وفي الجزائر استمرت سبعة عشر عاماً وتوالت ، وفي كل هذه المعارك لم يكن النصر فيها الاستمرار — رغم هدم التسكافو العسكري والحربي — ، نصر ميدان بل كان نصر قدر وتآمر ، وقد كتب المسلمون في هذه المرحلة صفحة مشرقة لا تقل كفاءة عن صفحات مرحلة الغزو اخطارجي التي سبقت عصر الوحدة الاسلامية العثمانية ، وبالقطع كان هذا الغزو الجديد إستعداداً لها . وبسيطرة الاستعمار الحديث على عالم الاسلام تمزق السكيان الموحد ، حيث سيطرت حكومات جديدة أقامها الاستعمار وبدأت بينها وبين القوى الوطنية معارك مقاومة ، وبذلك دخلت وحدات عالم الاسلام في مرحلة جديدة هي مرحلة المقاومة بالكلمة ، وهو الدور الوطني الذي إزداد اتساعاً بعد الحرب العالمية الأولى . وقد تنوعت وسائل الاستعمار الذي أخذت صورة احتلال مسلح ، وسيطرة كاملة على المقدرات الاقتصادية والسياسية والعسكرية مع تنفيذ برنامج كامل في مجال التربية والتعليم والنفقة والصحافة تهدف إلى قتل مصادر القوة في المجتمع والأسرة وتمزيق القوى المنوية وبث روح من الاتحاد والاباحة والتشكيك والانهلال في القوى الشابة ، حيث سيطرت هذه القوى المحتلة بمختلف وسائل القضاء على القوى الاقتصادية والمنوية واستغلت الامتيازات الأجنبية لانتزاع الأراضي وتحقيق أكبر قدر من الضغط والافساد وإتاحة الفرصة للارسلالات الأجنبية وبعثات التبشير ، وتمزيق الوحدة الوطنية ، وإثارة الخلافات بين المذاهب والأديان وابتناء الدهوات المنصيرية القديمة كالفرهونية والأشورية والبابلية والفينية ، والبربرية ، وغيرها وفرض قوى ضخمة للسيطرة على مجارى الفكر بحيث يتحقق الجهد بهذه الدهوات مع إثارة الشبهات حول الاسلام ورسوله وقيمه وتاريخه وحول القرآن واللغة العربية والتراث مع ارتفاع هذه الأصوات وجهازاتها عن طريق الصحف والمجلات الضخمة المسنودة بمالهم ونفوذهم ، بينما لا تستطيع أن ترقى كليات المقاومة والرد على هذه الشبهات إلى نفس المستوى في التعبير أو الذبوع .

ومن هنا مهد الاستعمار في هذه المرحلة إلى مرحلة أكثر عنفا وشراسة في تدمير القيم الأساسية للإسلام بوصفه العامل الضخم الذي أعطى المسلمين القوة على مقاومة الغزو الأجنبي واستطاعت قوى الغزو الأجنبي والنفوذ الأجنبي واستطاعت قوى المبشرين والمستشرقين أن تعد حملة ضخمة بدأت سنة ١٨٣٠ (وهو نفس العام الذي احتلت فيه الجزائر) بإذاعة الشبهات التي أنارها خصوم الإسلام في عصوره المختلفة بعد إهانة صياغتها من جديد كوسيلة للتشكيك في قدرة الإسلام على الحياة واستغلت هذه القوى ما وجه إلى المسيحية الغربية من اتهامات في أوائل عصر النهضة للهجوم به على الإسلام على بعد الفرق بين مواجهة الإسلام للحضارة وموقفه من العلم وموقف غيره من الأديان .

وفي الهند حيث كان المسلمون يحكمون الهند قبل الاحتلال البريطاني أبعدت بريطانيا المسلمين من مجال الثقافة ومراكز القيادة السياسية وقدمت غيرهم وحجبتهم جيلا كاملا عن التعليم ، حتى هب قادتهم لمقاومة هذا الانحياز بإنشاء المعاهد والجامعات ، وفي الجزائر حاولت فرنسا أن تقضى على اللغة العربية قضاء نهائيا وأن تعتبر الجزائر جزءا من فرنسا ، وفي مصر عد الانجليز إلى نشر اللغة الانجليزية وإضعايف اللغة العربية ، كما كانت الخطة الرئيسية للاستعمار الفرنسي والانجليزي الذي سيطر على القارة الأفريقية كلها في هذه الفترة هو حجب اللغة العربية وتجييدها وإيقافها عن النمو والانتشار ونشر لغته ، واعتبارها أساس الثقافة والتعليم ، وكما فرضت بريطانيا في الأجزاء الإسلامية بالهند اللغة الإنجليزية ، ثم شجعت اللغة القومية « الأوردو » قضاء على اللغة العربية كذلك فعلت هولندا في أندونيسيا حيث فرضت الحروف اللاتينية على الأندونيسية بعد أن كانت حروفها عربية .

معالم أساسية في تاريخ الإسلام

من خلال تاريخ الإسلام تبدو حركة الإسلام في محورين :

(١) محور الأماق على مشارف العالم كله بالانتشار الذاتي . (٢) محور الأبعاد على مدار التاريخ من خلال النفس الإنسانية مع دورة الحضارة . وقد حقق تاريخ الإسلام من خلال المحورين عملا ضخما متصلا بحيث كانت هناك معالم أساسية تواتر عملها خلال مرحلة التاريخ ، كان من الضروري متابعة تطورها للكشف عما استطاعت تحقيقه خلال أربعة عشر قرنا من عمر الإسلام .

(٣٨)

« السنة والشعبة »

هناك خلافان في تاريخ الإسلام وقعا في المجتمع الإسلامي :
(أولاً) الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين حول مفاهيم الاسلام وهو خلاف واضح الجذور ،
إذ أنه مهما استمر بصورة أو أخرى أو مذهب آخر فقد كان بطبيعته يختلف مع أصول الاسلام :
« التوحيد ، النبوة ، فرضية العبادات ، والمعاملات ، والمعاد والقبلة والقرآن » . وهذا الخلاف يفرق
بين الاملاَم وغيره .

(ثانياً) الخلاف بين المسلمين أنفسهم : « وقد انصب ذلك على الفرقيات وهي ماسوى الأصول
الثابتة للاسلام ، وقد أطلق عليه بعد اسم « المذاهب الفقهية » : التي استقرت في خمس مذاهب :
المالكية والحنفية والشافعية والحنبلية والجعفرية . وهو خلاف مقبول لأنه يتصل بالمسائل الفقهية
وحدها ولا يرقى إلى الأصول الثابتة . وقد قامت في صدر الاسلام فحول ومذاهب سياسية أساساً
له مذاهبها الفكرية التي تمحدها مواقفها من القيادة السياسية التي وليت الحكم في الاسلام بعد
الخلفاء الراشدين الأربعة . وتمثلت في الأغلب في الدولة الأموية والدولة العباسية .

والمعروف أن القوى الثلاث الكبرى التي تصدرت للقيادة السياسية في عصر الراشدين كانت
تتمثل في الأمويين ، والهاشميين — والهاشميون يمثلون (١) العلويين (من آل سيدنا علي بن أبي
طالب رضي الله عنه) — (٢) والعباسيين (من آل العباس بن عبد المطلب) ، وقد كان العلويون
هم القوة الوحيدة في القوات الثلاث التي لم تنصهر للحكم أو التي حرص الأمويون على إبعادها مع
الهاشميين جملة ، ثم حرص العباسيون على إبعادها أيضاً . ولم يكن الخلاف قائماً أول الأمر حول مفهوم
أحقية أهل البيت في القيادة السياسية بوصفهم أهل النبي ﷺ ، وإنما كان الخلاف قائماً حول
تحرير مفهوم الاسلام في الحكم بوصفه شورى يتولاها أى مسلم مؤهل لذلك ، ولو كان عبداً حبشياً
وقد كان الإمام علي في مقدمة رجال القيادة السياسية التي كونها النبي ، وكانت له بقولاته ومواقفه
وخلقه وفقهه ، حتى قيل « قضية وأبا حسن لها » غير أن النظام السياسي الذي وافق عملية بناء عالم
الإسلام قد أحدث عدداً من التحديات الخطيرة كان في مقدمتها مقتل الخلفاء الثلاثة : عمر ، وهشام ،
وعلي ، وفي عهد هشام وقع الخلاف بين المسلمين اضطرهم إلى إقرار نظام ررأى بدور في فلاك الإسلام . ولكنه

لا يمثل مفهوم الاسلام في الشورى ، ومضى هذا النظام واستمر . وفي خلال ذلك كان تبلور المسلمين المسلمين في مجموعتين كبيرتين . أهل السنة والشيعة ، ولم يكن اختلاف بينهما جذريا ولكنه كان في الفروع . كانت الأصول الأساسية للإسلام قائمة شاملة لا خلاف فيها ، وإن اتسمت الشيعة بسمه هي ذلك الحب القوي لآل البيت والارتباط الروحي والفكري بالنبي وأهله ، ومن هنا كانوا « دعاة العاطفة والحب والولاء » وكانت تلك علامة بارزة في فكرهم جميعاً .

وقد تحقق للشيعة الصدارة في مجال القيادة السياسية في دول كثيرة فيما وراء النهر « الساسانية والبيوتية والصغارية » ثم قامت الدولة الفاطمية الباذخة باسمهم في المغرب ومصر ، ثم قامت في القرن العاشر الهجري الدولة الصفوية في فارس وما زالت فارس تمثل الدولة الشيعية في عالم الاسلام الحديث .

وقد كان تاريخ الإسلام حافلاً بالخطافات والمساجلات الفكرية وبالصراع السياسي بين السنة والشيعة ، وقد حرص الغزوا والخارجي الممتد منذ الحروب الصليبية إلى اليوم أن يغذى هذا الخلاف وأن يعمق آثاره حتى لا تلتئم وحدة عالم الاسلام ، وكانت حركة التغريب حريصة على الدس والإيقاع بين السنة والشيعة ، وتفريق كلمتهم وإذكاء الخصومة بينهم ، وقد تنبه السنة والشيعة ، جميعاً لهذه المؤامرات وعملوا على تضيق شقة الخلاف ، وإلى التقارب . والحق أن الخلاف بين السنة والشيعة لا يزيد عن أن يكون خلافاً بين المذاهب الأربعة ويمكن القول بأنه ليس إلا خلافاً بين المذاهب الأربعة والمذهب الجعفري :

أما مصدر الشبهة التي ما تزال سلاحاً في يد التغريب والشعوبية وخصوم الغرب والإسلام جميعاً فهي ما يحمل التاريخ من فرق انشبت إدهاءاً إلى الشيعة وهي « فرق الغلاة » .

ومن الحق أن يكون الباءت يظن في التفرقة بين الشيعة والغلاة ، هؤلاء الذين هاجمهم أئمة الشيعة أنفسهم وحذروا مما يدسونه . فانحطاً الأكر الذي يحترز منه ، هو القول بأن « النشيع » كان مأوى إليه كل من أراد عدم الإسلام ، إذ الواقع أن الشيعة كانوا أساساً ملتزمين مع أهل السنة في الأصول ، وإن اختلاف لم يقع إلا في المسائل الفرعية التي ليست إلا رحمة والتي هي نوع من الاجتهاد من اجتهاد فأصاب فله أجران ومن اجتهاد فخطأ فله أجر واحد ، وقد أكدت النصوص الصحيحة أن الشيعة بعدت عن التنازع والخلول والتجسيم ، وأنهم قاوموا أقوال الغلاة وحتموا ألا يقبلوا حديثاً إلا ما وافق الكتاب والسنة ، وقد دعا الإمام علي بن موسى الرضا صراحة إلى رفض ما يخالف القرآن وقبول ما يوافق القرآن والسنة .

فكل فرق الغلاة : كالرافضة والباطنية وما انفصل بأفكارهم من الحاد كالقول بتحريف القرآن وكتبان بعض آياته ، ومن راجت فيهم الباطنية البهائية ، هؤلاء ليسوا من الشيعة الاصلاء الذين عرفوا بالزيدية والأثنى عشرية (الإمامية) وقد دعا جمال الدين الأفغانى كما دعا كثيرون إلى جمع كلمة للمسلمين والتأليف بين فرقهم التي يجمعها الايمان بالقرآن ومحمد والتوحيد وقالوا إن السباسة كانت السبب الأول لهذا التفرق الذي البس بعد ذلك لباس الدين .

(الشيعة الإمامية أكثر فرق الشيعة عدداً وانتشاراً ويسمون الأثنى عشرية ، وتبلغ الإمامية سبعين مليوناً من العراق وإيران والهند وباكستان وروسيا وتركستان وبخارى والأفغان ولبنان وسوريا والحجاز واليمن والصين والتبت والصومال وجاوة والألبان وتركيا والبحرين والكويت) .

والحق أن الشيعي والمولى والدرزي والاسماعيلى والسنى كلهم منضون تحت كلمة الاسلام ، واختلف بينهم في الفروع لا يفرقهم ، لما أتاح الإسلام من حرية المذهب الذي لا يؤدي إلى تزيق وحدة المسلمين ، وقد علم الإسلام أتباعه أن يكونوا على يقظة كاملة في مواجهة خصوم الإسلام ، وأن لا تكون خلافتهم المذهبية مبيلا إلى الفرقة ، ومن هنا قلبس في وسع أحد أن يحكم بالكفر على أحد من أهل القبلة والحق أن مذاهب الشيعة (آل البيت) الجمفرية وما تفرع منها : وأعلامها الامام جعفر الصادق وسيدنا زيد واسماعيل بن جعفر هي عصارة العقل الإسلامى في اجتهاده وتحقيقه وهي وحدة متكاملة مع ما قدمه مالك وأبو حنيفة والشافعى وابن حنبل والأوزاعى والظاهرى وغيرهم من الأعلام وما تزال تمثل سرقة فكرنا وفقهنا في مواجهة التطور والحضارة .

ويجمع الباحثون المنصرون للتقريب بين السنة والشيعة على أن : الإسلام هو إتباع القرآن . والأخذ بما صح من كلام النبي وأقواله وتقريراته ومآداه ففروع مذهبيه واجتهادات الأئمة ، وكل ما توخوه في اجتهادهم إنما قصدوا به أن يصيبوا مقاصد الاسلام ، ومن الخطأ التعصب لإمام دون إمام . وأن المغلاة في العصبيية لإمام من الأئمة واجتهاداته هي خروج على روح الاسلام المتسامح والرافضة غير السنة والشيعة : والراض هو ترك ما جاء به الوحي والرجوع إلى أساطير الوثنيات ، ودسائس اليهود ويشير الكثيرون إلى الدور الذي لعبه « هبة الله بن سبأ » زعيم الرافضة الذي دخل الاسلام وهو يحمل في أحماق وراثياته إسرائيليات وأساطير كثيرة ، ظهرت في عقيدته الجديدة ، وقد اندس الرافضة (السبئية) أتباعه بين الشيعة وبين أهل السنة وبافت هذه الفرق الرافضة ٧٣ فرقة وهي غير الشيعة أصلاً : كما أن هناك شبهة لا يلفت إليها السكندريون في الفرق

بين الإمام « جعفر الصادق » وبين الرافضى « جعفر بن حرب » فقد اختلفت الرأى على بعض الباحثين فلم يفرقوا بين الإمام الجليل ، والرافضى ، وقد فند البغدادى هذه الشبهات فى كتابه « الحرب على جعفر بن حرب » متقصيا خرافاته وأباطيله ، كما تناوها أبو منصور البغدادى فى (الفرق بين الفرق) ولا شك كان سيدنا جعفر الصادق منارات الاسلام والرافضة اسم أطلقه الإمام زيد على الفرقة السنية التى اندست بين جاله ، ومن هنا جاء الخطأ المتصل فى الصاق الرافضى بالشعبة الوحدىن المحبين لآل البيت .

وجلة القول أن الفروق المذهبية بين الجعفرية والمذاهب الأربعة السنية لا تسكاد تذكر وهى تتمثل فى مسائل فرعية دها إليها الاجتهاد فى الرأى . ومن جهة أخرى فإن حب آل البيت والرسول الكريم إنما يمثل حقيقة سنية وشيعية واحدة ، وربما كان الخلاف فى الدرجة ، ويقول العلامة الشيعى « جواد مغنية » إن الشريعة لها أصول مقررة ، وأن الخلاف والجدل بين المذاهب حصل فيما يتفرع عن تلك الأصول وما يستخرج منها ، وإن فى كتب الشيعة الإمامية اجتهادات لا يعرفها أهل السنة ولو اطلعوا عليها لقوت فقههم بالشيعة ومفكرها وكذلك الشأن بالقياس إلى كتب السنة وعلماء الشيعة ويصور العلامة جواد مغنية موافق الشيعة من الغلاة فى قول : الغلاة هم المتظاهرون بالاسلام الذين نسبوا إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب والأئمة من ذريته الألوهية والنبوة ووصفهم بما تجاوزوا فيه الحد وخرجوا عن القصد فهم ضلال كبار .

ويشير العلامة مغنية إلى أن كتابات المستشرقين كانت دائماً من هوامل الوقعة بين السنة والشيعة وآية ذلك كتاب المستشرق روتلدس « عقيدة الشيعة » والهدف من إيقاع الفتنة بين المسلمين ، فقد دهم هذا الدس بشق الأساليب ، وفى مقدمة ما أثاره من شبهات ما أمهأه : تحريف الشيعة للقرآن ، وقال مغنية : إن الإمامية دافعوا عن القول بتحريف القرآن وأنكروه ، وكل الخلاف بينهم وبين السنة فيه : إن السنة تقول أنه كلام الله والإمامية تقول أنه محدث وإيس بقديم ، وقال مغنية : إن الشيعة الإمامية إذا أودوا أن يستخرجوا حكماً شرعياً لمسألة تعرض لهم ، بحثوا فى نصوص الكتاب والسنة وأقوال العلماء بأذنين الجهد ، فإذا وجدوا نصاً خاصاً أوجاهوا وقفوا عنده وإذا لم يجدوا جلسوا إلى العموميات والنواهد السكائية التى وردت فى نصوص الكتاب والسنة

(٢)

لقد كان « النجف الأشرف » على طول تاريخ الاسلام مركزاً هاماً من مراكز الثقافة الإسلامية شارك الأزهر والزيثونة والفرويين الحفاظ على الاسلام واللغة العربية والتراث الاسلامي و« الشيعة » أعلام عظام خدموا الاسلام وكانوا من كبار رجاله : أمثاله عمار بن ياسر وسليمان الفارسي والأحنف بن قيس وسعيد بن المسيب والفرزدق والسكيت وابن الرومي وأبي تمام والبحترى ومهيار الديلمي وأبي هاني الأنباري وأبو فراس الحمداني والطبراني والثريفي الرضي ، هم اليوم من أعلام الفكر الاسلامي والسنة والشيعة والدرور جميعاً أهل كلمة التوحيد وليس اختلاف في أساسه خلافاً في نظرية الحكم وفي الفرعيات ، وهو دليل على عظمة « الشريعة الإسلامية » وقدرتها على الظلوع والامتداد وهو خلاف محصور في بعض مسائل لاصلة لها بأصول الاسلام وقواعده . وإذا كان الشيعة قد اتسموا بكبار آل البيت ، فإن أهل السنة يحبون آل البيت ويقدرون فضلهم وقد اقتربت النظرة حول حب الرسول وآل البيت بين مختلف المذاهب الإسلامية ، بين مفهوم « التوحيد » بصورته الأولى وبين « النصف » إلى الحمد الذي قرب الصلة بين السنة والشيعة قرباً كبيراً .

ولا تنير الخلافات القديمة حول فضل الإمام على ودرجته في الخلافة وحول خلاف السيدة فاطمة مع أبي بكر حول ميراث النبي في فدك ، وهي ليست من المسائل الرئيسية التي تنصل بأصل من أصول الاسلام ، وهو خلاف طبيعي في هذه المرحلة من حياة الاسلام ، أما الخلاف حول مسألة الترجمة أو زواج المنعة أو مسألة الامامة ، فهي اجتهادات في الفرعيات ومثلها خلافات كثيرة بين مذاهب السنة نفسها ، وهي لا تحول دون « وحدة المسلمين » في الأصول العامة ، والواقع أن أهل السنة والشيعة لا بد أن يلتقوا بمبدأ عن الأطراف وأن يتعارفوا ، وقد تحقق جانب كبير من هذا حين ضم الأزهر دراسات المذهب الجعفري إلى المذاهب الأربعة ، ويقول الدكتور سليمان دنيا في مواجهة الخلاف بين السنة والشيعة .

« إن مذهب التشيع أشبه بشعر الدولة الإسلامية وهو أشد بقاء المملكة الإسلامية كلها قرباً من العدو ، وهو لهذا السبب المنفذ الذي يحاول أعداء الاسلام الدخول منه إلى بلاد الاسلام لغزوها ،

فواجب حماية هذا الثغر أشد من واجبات غيرهم ممن يوجدون في أماكن نائية عن العدو فإن لم تكن حماية هذا الثغر نقطة منتبهة اقتحم العدو الثغر واقتحم قلب الدولة الإسلامية عن طريقه .
ويقول : إن أئمة الشيعة قد أعلنوا براءتهم من الغلاة ، وعن أمير المؤمنين على رضي الله عنه قوله « إياكم والغلو فينا ، قولوا . إنا عبيد مرزويون وقولوا في فضلنا ما شئتم ، وقوله : اللهم إني بريء من الغلاة كبراءة عيسى بن مريم من النصاري ، اللهم أخذهم أبدا ولا تنصر منهم أحدا .
ويروى عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهم أنه قال : « أدنى ما يخرج الرجل من الإيمان أن يجلس إلى خال فيستمع إلى حديثه ويصدق . » ويقول : إن أبي حدثني عن أبيه عن جده عليهم السلام أن رسول الله قال : صنفان من أمي لا نصيب لهما في الإسلام : الغلاة والقدرية .

وقال : إن أهل السنة وإن كان من رأيهم عدم القول بمصمة الأئمة ، فإنهم مع هذا يحملون للأئمة حبا يجري في دماهم ويتمكن من سويداء قلوبهم ، فإن هؤلاء الأئمة من الصلاح وحسن السيرة إلى جانب إلتحاقهم إلى الدوحة الشريفة الطاعرة ما يجعل أهل السنة يكتنون لهم كل حب وإجلال وأكبار .

(٣٩)

« العرب مادة الإسلام »

منذ بزغ الإسلام ارتبط بالأمة العربية أوثق ارتباط . وقد كان التقاء الإسلام بالأمة العربية التقاء بعيد المدى في نمو الإسلام وتوسعاته وفي بناء الأمة العربية ذاتها فالأمة العربية هي التي حمت الإسلام إلى العالم أجمع ، وكانت اللغة العربية — لغة القرآن — هي أداة فكره وثقافته وحضارته .
والإسلام هو الذي نقل العرب إلى الطور النهائي من أطوار تكوين الأمم ، إذ جعلها أمة ذات حضارة وفي نفس الوقت ذات رسالة إنسانية عالمية . ومن هنا فإن تصور الإسلام منفصلا عن العروبة والعروبة منفصلة عن الإسلام هو تصور مبتور ناقص وغير قادر على إعطاء الحقيقة في بناء الإسلام وفي كيان الأمة العربية ، وفي مجالين كبيرين كاللغة والتاريخ لا يمكن فصل الإسلام عن العرب فقد ظلت اللغة العربية هي قوام الثقافة الإسلامية حتى في فترات الضعف وفي مراحل اتساع القنين الفارسية والتركية وظل تاريخ الإسلام هو تاريخ العرب في بطولاته ومواقفه وتوهماته وإثارة البعيدة المدى .

فالفكر الديني كونه اللغة العربية بالارتباط بالإسلام ، كان حصيلة مشتركة للمسلمين والعرب جميعاً ، بحيث لا يمكن أن يوصف بأنه فكر عربي خالص أو فكر إسلامي صرف ، وكذلك الحضارة ويمكن القول بمعنى بأن الفكر : فكر عربي إسلامي والحضارة حضارة عربية إسلامية . ومكونات هذا الفكر هي : « اللغة العربية والإسلام » ، وقادة الفكر سواء كانوا عرباً وغير عرب فهم مسلمون أساساً صدرت مقدراتهم الفكرية من مضمون الإسلام ومقوماته الأساسية وبيئته ، وكان لإبطال التوسع وبناء الدول كقادة الفكر ، قد استمدوا مجال بطولاتهم ومقوماتها التي بهرت الدنيا من مقومات الإسلام . وقد ورث الأسلاف ثقافات الأمم والأديان والحضارات السالفة من فارسية ورومانية ويونانية وهندية وفرعونية ، هذه الثقافة التي انصهرت في بوتقته وتشكلت من جديد على أساس مقوماته ومفاهيمه .

ولقد كان للعرب دور بناء الإسلام وتوسعاته ، هذا التوسع الذي بدأ في نظر الباحثين والمؤرخين غربياً ، ولكنه في الحق لم يكن كذلك ، فإن طابع الإسلام وإيديولوجيته ، هي التي عمقت إيمان العرب الذين رباهم محمداً ، فحملوا لواء الإسلام وآمنوا بمفهوم الإسلام « حب الموت لأجل الحياة » كانوا — أي العرب هم أصحاب القيادة السياسية خلال مرحلة طويلة ، استمرت متصلة حتى نهاية الدولة الأموية ومشاركة مع العناصر الإسلامية حتى نهاية الدولة العباسية وفي ظل الدولة الأموية في الأندلس ، وكان لهم دورهم في مقاومة الغزو الصليبي والتتري والفرنجي حيث شاركوا مشاركة ضخمة مع السلاجقة والمماليك والبربر ، ثم اختفوا من مسرح القيادة خلال عصر « الوحدة الإسلامية العثمانية » غير أنهم سرعان مابرزوا في مجال القيادة خلال دور الیقظة العربية الإسلامية ففي الحق كان « العرب مادة الإسلام » طوال تاريخ كله ، وكانوا حملة ، مفهوم الإسلام البسيط الوسط البعيد عن التعصب الفلسفي والغيبية الصوفية .

ويؤكد كثير من الباحثين بأن « عروبة العرب » ظلت حية خلال تاريخ الإسلام في مختلف جماعات وادي النيل والسودان وفي مختلف الدول في أفريقيا : الجعيدية ، وبنو حود ، والأهلبية والفاطمية وبنو مزين وبنو هلول والدولة السعيدية وبنو شابة والدولة الشريفة ، وفي الشام : الننوخيون والدنادشة وبنو المعظم وبنو حمدان وبنو مرداس ، وبنو السبب ، وقد ظلت الجزيرة العربية تقذف موجاتها طوال هذه العصور ، فقد كانت كذلك قبل الإسلام ثم كانت موجة الفتح الإسلامية هجرة واسعة النطاق لتبائل عربية بأكملها استقرت في البلاد المفتوحة ، ثم توالى الهجرات من بعد فلم تتوقف .

غير أن العرب في كل مكان من حدود الصين إلى حدود فرنسا قد انصهروا في الأجانب والأمم ، وقام الاسلام بأضخم عملية بلورة بين المسلمين عرباً وفرنساً وفرنجة وتركاً ، وهي عملية طبيعية لم يكن للعرب فضل فيها ، بل كان الاسلام — الذي لم يكن العرب مستعمروه أو فاتحوه ، بل لاشروه وودعاه — هو الذي دفعهم إلى الامتزاج بالمصاهرة والنسب والاندماج في الأجناس والأمم امتزاجاً كان على مستوى الاجناس وعلى مستوى العقول .

فقد امتزجت ثقافات هذه الأمم المختلفة التي كانت معهم قبل الإسلام بالاسلام نفسه وانصهرت فيه ، ونحى الإسلام ما لم يتفق مع روحه وطابعه ومقوماته ، وبلورها على النحو الذي أصبحت به ثقافة إسلامية خالصة ، وأن ظلت بعض آثار للذاهب والثقافات القديمة تقاوم ونجد من يقديها من أجل مقاومة الاسلام وتمزيق وحدته ، وكذلك تبلورت التقاليد والعادات والطبائع المحلية كلها في إطار الاسلام وتعاليم القرآن ، ولم يقف الزواج والمصاهرة عند المجتمع بل واقتحم مجال الفكر أيضاً .

٣ — وسارت اللغة العربية مع الاسلام ، فقد أخذت لغة قريش تسود غيرها من اللهجات العربية فهي التي نزل بها القرآن ومن ثم أخذت مكان الصدارة ، في الكتابة والأدب والتخاطب وظهرت اللغة العربية على كل اللغات الافريقية ، وأصبحت هي بالدرجة الأولى لغة الثقافة والتعامل ، ثم كان إبرازها لثقافة الإسلاميه عاملاً في قيام الامتزاج الثقافي والاجتماعي الذي أزال كثيراً من الفروق العقلية والاجتماعية في مختلف وحدات عالم الإسلام ، وعندما ضعفت اللغة العربية عن أن توحد عالم الإسلام ، وغلبت اللغات الفارسية والبربرية والتركية كان الإسلام هو الرابطة الحقيقية ، وعندما ضعفت الوحدة القوية زادت « وحدة الفكر » قوة واختفت الخلطات المذهبية وتقاربت المفاهيم بين السنة والشيعة والفقهاء والصوفية ، ومن هنا يمكن القول أن الإسلام كان الإطار الفكري والعقلي للحضارة والثقافة الاسلامية .

(٢)

لا سبيل لفصل تاريخ العرب عن تاريخ الإسلام منذ بزوغ فجر الاسلام إلى قيام الدولة العثمانية وفي خلال التاريخ عندما نحلى العرب عن الصدارة السياسية ظلوا أصحاب القيادة الفكرية ، فقد وجد الفكر الاسلامي في « عالم العربية » أكبر عوامل نموه وأقوى عوامل الحفاظ على جوهره ، وقد كان الاسلام بمفاهيمه ولغته هو الذي حال دون ذوبانها حتى في أشد فترات الضعف . وقد انبثقت نقطة عالم الإسلام في العصر الحديث من قلب الأمة العربية وغل عالم الاسلام بنظر إليها كمرکز قيادة .

وبالرغم من اندماج « الأمة العربية » في الوحدة الإسلامية العثمانية فقد ظلت محتفظة بطابعها الإسلامي للبعيد عن التعقيد الفلسفي أو الصوفي ، بينما تحول الإسلام في مفهوم الثقافات الأخرى إلى جبرية صوفية ، ونصوص تقليدية وبالرغم من توسع اللغة التركية بوصفها لغة الدولة وامتدادها على آفاق الأمة العربية فقد ظلت اللغة العربية خلال مرحلة الوحدة العربية الإسلامية (٩٢٣ — ١٣٣٦ م) هي السائدة ، بل إن الإسلام الذي دأب به الأتراك كان عربى الطابع ، وكانت نصف كلمات لغتهم وأسماء رجالهم وأسماهم عربية .

وبذلك كانت التقاليد التي طبّقوها في حياة البيت والمجتمع إسلامية ذات طابع عربى ، بل أن اللغتين الفارسية والتركية كانتا تكتبان بالحروف العربية ، وقد ألف بالعربية كثيرون في فارس وتركيا وظل القرآن والحديث ينلّ بآدائه وحروفه العربية ، وكان لقوة حيوية اللغة العربية وامتزاجها بالإسلام أبعد الأثر في الثبات والصمود عندما أراد الأتراك إزالتها ، بل استطاعت هي أن تطيعهم بطابعها ، وكان الإسلام هو الإطار الأكبر الذي تعلق العرب فيه بأملهم القومية حين انهارت الخلافة الإسلامية باختفاء السلطة العثمانية . والمعروف إن مجموعات كبيرة من عناصر الترك : التتر والتركمان والشركس والكرد لم تلبث أن دمجها الإسلام في الأمة العربية ونسبت لغاتها ومقوماتها العنصرية ، واتخذت « الثقافة العربية » أساساً لفكرها ونبع منها شعراء وكتاب . هذا فضلاً عن أن هجداً كبيراً من العلماء والمؤلفين في مجال الفلك والرياضة والفلسفة واللغة والتفسير من غير العرب أتقنوا اللغة العربية وألّفوا فيها كما كتب كثير من أعلام الترك باللغة العربية .

(٣)

الإسلام فكرة والعرب جنس

ومن هنا كان الإسلام أهم . وقد اهتمت الإسلام أجناساً كثيرة غير العرب بوصفه إنسانى النزهة ، عالمي التركيب ، وقد كان دور العرب فيه دور الطلائع القادرة على توسيع رقعة ، وهو وإن صيغ الفكر الإسلامى بصيغته العربية نتيجة لأنها قدمت للأمم والشعوب في وهاء اللغة العربية غير أن موجة اللغة وموجة الإسلام لم تلبس أن انفصلتا ، فتوقفت اللغة العربية عند حدود محدودة : هي « الأمة العربية » وغلبت اللغات الأصلية على الفرس والترك والمند فلم تستعرب هذه الأمم ، وإن كتب بعضها بالحروف العربية . ولذلك فقد ظل الرباط الأساسى والأوسع والأشمل هو « الفكر

الإسلامي ، المستمد من القرآن والسنة ولقد أتيح للوحدات غير العربية أن تترجم القرآن إلى لغاتها وأن تؤخذ وتصل بلغاتها ، وأن تقيم ثقافات قومية مرتبطة بلغاتها أساساً ، وإن ظل الإسلام جوهرها غير إن دار الإسلام ظلت داراً واحدة لا تفصلها حدود أو سدود ، وكان أهلها يفتقرون في رحابها دون قيد ، كما تحررت كثير من هذه الوحدات من حكم العرب لها وأقامت حكمها كما فعل البربر ، والفرس والترك : الذين سيطروا حاكين على بعض مناطق هرية ثم استطاع الأتراك أن يصلوا إلى مركز الخلافة . بل وقد كان دور غير العرب من المسلمين بعيد المدى في مجال الفكر والثقافة : فلسفة وفقه وعلم وطبعية . بل لقد استطاع الإسلام أن يزيل العرب من الحكم عندما سيطرت عليهم مفاهيم العصبية الفعلية بدلا من مفهوم المساواة الإسلامي ، وإن كان الإسلام قد أحدث حركة استعراب ضخمة ، في مختلف المناطق التي وصل إليها حلة الاسلام ، وإن كان الاسلام لا يلزم أحداً باهتناق ديننا فقد تعربت جماعات كثيرة دون أن تصبح مسلمة ، وساهمت بدور واضح في مجال الفكر العربي الاسلامي ، جنباً إلى جنب مع المسلمين . ويمكن القول أيضاً في هذا المجال أن « القرآن » هو الذي حفظ العربية طوال أربعة عشر قرناً من التفرق إلى لمحات محلية ، فقد مرت بعالم الاسلام فترات ضعف قاسية كادت أن تؤدي بالفصحى ، وتمزقها « لولا أن وقف القرآن سداً منيعاً أمام هذه الأخطار الجسيمة » وقد جرت محاولات غربية وشعبية متعددة في هذا المجال غير أن « القرآن » وقف حائلاً دون تحقيق ذلك ، فقد ظلت المعاهد الاسلامية كالآزهر والزيتونة وغيرها حافظة للفصحى حتى مرت « أزمة الضعف » واستطاعت اللغة أن تنبعث من جديد في عصر اليقظة الاسلامية العربية قادرة على مواجهة الحضارة . وبفضل « القرآن » استطاعت اللغة العربية أن تسيطر في كل الوحدات ، وأن تزيل اللغات الاقليمية حتى أن العرب النصارى إضعاروا إلى ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية وصارت صلواتهم في كنائسهم بها . ويرى المستشرق جب : أن اللون العربي الذي التصق بالاسلام أتى من القرآن العربي . وأن القرآن كان المرجع الأخير فيما يخص اللغة العربية وقواعدها ، وأن الاتجاهات القومية العربية تؤكد على أن اللغة العربية هي حجر أساس الوحدة العربية . غير أن اللغة العربية قد توقفت عند حد محدود ، بينما استطاع « القرآن » أن يوسع نطاقه في فارس وتركيا والهند وأفريقيا وأرجيل الملايو . إذ استطاع أن الإسلام أن يشق طريقه إلى هذه المناطق في القرون الأخيرة ، دون أن تنتشر اللغة العربية ، وتولدت في هذه الوحدات لغات مختلفة تفهم الاسلام والقرآن ، كما انتشر الاسلام في آسيا الصغرى وفي بلاد البلقان دون أن تنتشر اللغة العربية .

وكذلك لعب الاسلام دوراً هاماً الى توسيع نطاق «العروبة» فإن انتشار اللغة العربية على يديه قد وسع نطاق «الأمة العربية»، وكذلك صار «الاسلام» القوة الواقية التي أكسبت «اللغة العربية» حامل للنهضة ضد هوامل النفوذ والتفتت وصانت بذلك الأمة العربية من الانحلال (ساطع الحصري).

ولكن الاسلام ولسانه العربي «القرآن» قد طبع للمسلمين جميعاً بطابع عربى وفقاً للمساعدة الأساسية التي رسمها محمد ﷺ: «لبست العربية بأحدكم من أب وأم، وإني ما هي الا انسان فمن تكلم بالعربية فهو عربى» بمعنى أن من إتخذ «اللسان العربى» منطلقاً له فهو عربى مهما اختلفت الأصول التي انحدر منها والدماء التي تجري في عروقه: وقد غلبت خلال القرن الرابع عشر الهجرى «دعوة» نسبت إلى العرب كل للقومات والتراث الحضارى والفكرى المشترك بين الاسلام والعروبة، ودأب كثير من كتاب الغرب على العمل ببحث لفصل بين الأمة العربية وبين الاسلام كفكر وثقافة وحضارة، محاولين تصور حضارة عربية وثقافة عربية وتاريخ عربى منفصلاً عن الإسلام كأساس أصيل لها. وبالرغم من دور العرب الضخم في بناء الحضارة الإسلامية فإنه من الظالم أن ينكر دور الأجناس غير العربية التي شاركت في التاريخ والحضارة والثقافة والتراث، والواقع أن كل من كلفى «عرب وإسلام» قد حلت إحداها محل الأخرى دون فهم دقيق، والواقع أن التاريخ العربى لا ينفصل عن التاريخ الإسلامى، إلا في فترات دقيقة لا نستطيع وحدها أن تمثل قائماً بذاته:

والحق أنه إذا ذكرت «العرب» في مجال الحضارة والفكر، ذكر ذلك الأصل الذى قامت عليه الحضارة، وذلك الفكر ولكن هو «الاسلام» فالعرب أمة والإسلام فكر وحضارة وبمجمع ودهوة إنسانية عالمية، والعرب هم الأمة التي حلت لواء الاسلام وشقت به الطريق إلى أقصى المشرق والمغرب ولكن الفكر الذى حملة العرب في الرحلة الطويلة كان «إسلامياً» في جنوده مستمداً من مفاهيم واضحة أصيلة، هذه المفاهيم هي التي دفعت العرب إلى النهضة والحضارة شاركتهم في ذلك عقليات للمسلمين من مختلف الأمم من غير العرب، ولذلك فإن نسبة الحضارة والفكر إلى العرب وحدهم ليست صحيحة تماماً إلا إذا قصد إلى أن اللغة العربية كانت وعاء هذه الثقافة.

بل إنه يمكن القول بأن البقعة العربية الحديثة «ظاهرة إسلامية»، فإن الاسلام هو الذى أيقظ العرب مرة أخرى ودعاهم إلى التماس الحرية وللقاومة بسلاحه. ويرى بعض الباحثين ومنهم (الفريد كاتول مبيث) إن الاسلام هو الدين الوحيد في العالم الذى ملأ نفوس معتقية خرواً وإعجاباً

وهم ينظرون إلى أمتهم بوصفها « أمة » التي اختارها الله لظهور دينه ، وهي الأمة التي يتبعها كل من أراد أن يتخذ الاسلام ديناً له ، ولستأ نحن مع الذين يرون أن قوة الاسلام تتشثل في عصر « الجاهة الاسلامية » أو أنها تتهى بسقوط يمداد أو دولة الأمويين في الأندلس أو فتح العثمانيين لمصر سنة ١٥١٧ .

بل الرأي عندنا أن تاريخ الاسلام متكامل ، في هروبه وإسلاميته وفي قوته وضعفه ، وأن هذا الجزء من تاريخ الاسلام الذي نما بعد الحروب الصليبية إنما هو امتداد طبيعي لمنصر إسلامي قوى استطاع أن يحمل لواء الاسلام حتى عاد العرب ليحملوه من جديد ، غير أننا نذكر أن الاسلام ظل في موجة العثمانيين أقل عمقاً منه في أيدي العرب . وفي مرحلة الغزو الغربي الحديث كان الاستعمار حرباً على أن يقضى على هذه الموجة العربية الجديدة المنصدة حتى تضعف عن حمل لواء الاسلام ، أو تحويلها إلى النزعات الإقليمية أو الوطنية أو القومية لصرفها عن المفهوم الأوسع ، غير أنها استطاعت أن تلتفم بكل هذه النزعات المستحدثة وصاغت من جديد وفق مفهومها الاسلامي وقد استطاعت هذه الموجة أن تكافح من تحت مدافع الاستعمار ومن بين ضرباته ، وأن تحقق نصراً في (١) مجال الحرية الوطنية والوحدة العربية (٢) مجال انتشار الاسلام (٣) مجال تصحيح مفاهيمه وقد فرض على الاسلام سلاح الضغط الاقتصادي والقوة العسكرية والشعبية والسيطرة على التعليم والصحافة ، وخلق طبقة من المثقفين الذين اعتنوا مبادئه واتخذوا أمولوه في الحياة وفكره وقيمه ، غير أن أغلب هؤلاء — ماعدا صئاته ، قد أحسوا بأنهم خدعوا فعادوا أقوى مايكونون دكاها عن قيم العرب والاسلام . وقد برزت في خلال القرن الرابع عشر الهجري (٢٠ م) حركات ايجابية كالفت في سبيل الحرية واليقظة واستطاعت أن تواجه عوامل الغزو الفكري والتفريب التي تمثلت في هوات شعبية متعددة المظهر متحدة المهدف تخاضع العربوة والإسلام مما وهي تسعى إلى هدفين : (١) القضاء على الشعور القومي والاعتزاز بالتاريخ الاسلامي (٢) القضاء على الاسلام باعتباره الاطار المقامدى للوحدة العربية في مجال نشاطها وحركتها وحيويتها .

والحق أن الاسلام في مختلف دورات التاريخ قد احتضن « الوحدة العربية » بكل قوة ونماها وانحس منها منطلقاً له ، وقد استطاع الاسلام القيام بهذه المهمة ولا يزال ، والأمة العربية أعمق وحدات الاسلام هتيدة وأقدرها على فهمه فهما صحيحاً ، والهدتاع عنه والهدوة إليه . ولاشك كانت حركة « اليقظة » في مفهومها الاسلامي القدرة على مقاومة محاولات الغزو الاستعماري والتفريب والشعبوية جيماً .

(٤٠)

« انتشار الاسلام ذاتيا »

يقسم الاسلام بسنتين واضحتين: الأولى « هي توسعات الاسلام وانتشاره عن طريق التحركات العسكرية التي كانت تحمل طابع المبادرة بالقضاء على مدبري خطط العدوان للقضاء على الاسلام الوليد في شبه الجزيرة وتمثل هذه « المرحلة الأولى » في حركة توسع امتدت شرقا وشمالا وغربا ، فاستطاعت أن تبلغ في عصر الخلفاء حدود الهند وأفريقيا ، ثم كانت « وجهتها الثانية في عصر القيادة السياسية الأيوبية وقد بلغت إلى حدود الصين شرقا وحدود فرنسا غربا ، بعد أن اقتحم المسلمون أوروبا وأقاموا دولة الأندلس العربية المسلمة ثم توالت موجات ذات طابع محلي تتمثل في تحركات محمود ابن سبكتكين في الهند وما جرى من محاولات للتوسع في إيطاليا وقلب أوروبا للقرية ثم كانت حركة القيادة السياسية العثمانية في قارب أوروبا من ناحية البلقان . « الثانية » توسعات الاسلام ذاتيا وهي الحركة التي اتصلت في تاريخ الاسلام كله ولم تنصل بأعمال قادة عسكريين أو سياسيين ، وإنما كانت من عمل التجار والعلماء والصوفية » وقد كسبت هذه الحركة توسعات تزيد عما حققته أعمال التوسع السياسية الأولى .

غير أن هناك حقيقة أساسية يجب أن لا تغيب عن الباحث عن حركة انتشار الاسلام هي أن الوحدات التي سيطرت عليها القيادة السياسية الاسلامية لا يمكن أن توصف بأنها أصبحت مسلمة بين عشية وضحاها ، فقد كان الاسلام حربيا على ألا يفرض عقيدته على أحد من سكان الأرض الاسلامية وأن يترك لأهل هذه الوحدات الحرية المطلقة في ممارسة أديانهم ، بل وحماية مقدساتهم وإتاحة الفرصة الكاملة لهم للأمن الشامل في مجال العقائد والمجتمع ومختلف عوامل التعامل ، ومن هنا فإن « انتشار الاسلام » في هذه الوحدات إنما يتم بالاقناع وبمطابق الحرية ، فقد قامت على أثر سيطرة القيادة السياسية الاسلامية على هذه الوحدات ، جماعات من العلماء والفقهاء للدعوة إلى الاسلام وشرحه والرد على ما يمرض له أصحاب الديانات والمذاهب الأخرى وما يطلبون تفسيره وما يشبهه خصوم الاسلام من شبهات ، ومن هنا فإن تصق الاسلام وتقبله واعتناقه لم يتم بمجرد السيطرة السياسية على هذه المنطقة الفسيحة من حدود الصين إلى حدود فرنسا وإنما تم ببطء شديد وبناء على إقناع كامل . وقد بقيت وحدات إسلامية على طابعها السابق للإسلام فترة تتراوح

بين قرن وثلاثة قرون (الشام وفارس) ولم يتم انتصار الإسلام في المغرب إلا في القرن الخامس الهجري على يد المرابطين ، ومن هنا وبالإضافة إلى حقه التجارة والدعاة في للناطق التي لم يفرض الإسلام عليها سلطانه السياسي يمكن القول بأن الإسلام قد انتشر ذاتياً . وقد استطاع الإسلام بقوة الذاتية أن يحقق فتوحاً بعيدى للدي كان من أهمها : دور عمر بن عبد العزيز ، وهو دور خطير وبعيد للدي ، وهو يمثل في أكثر من عمل : (١) الكتابة إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم وكانت سيرته نبراساً لهم فاسلموا وتسموا بأسماء العرب . (٢) ولي بلاد المغرب أحسن الولاة حيرة : اسماعيل بن عبد الله ابن أبي المهاجر فسار في البربر أحسن سيرة ، وكتب عمر كتاباً لهم يدعوهم إلى الإسلام فقبلوه . (٣) كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام فأسلم كثير منهم . (٤) خفف أقال الخراج على النصارى وأوقف الجزية عن دخل الإسلام . وقد كان لدخول الأبرار في الإسلام في العصر العباسي وبالأخص في خلافة المعتصم بعد اتخاذ بعض أجناسهم أهوان له ، أثر كبير في كسب جماعة ضخمة كان لها أبعاد الأثر في تاريخ الإسلام خلال عشرة قرون كاملة فقد استطاع الإسلام بواسطة دعائه أن يجذب إليه أولئك المناهين ويحلمهم على اعتناقه ويرجع الفضل في ذلك إلى حماسة الدعاة من المسلمين الذين كانوا يلاقون من الصعوبات أشدها المناهضة منافسين عظيمين هم : المسيحية والبوذية . كما اجتذب الإسلام إلى مجال اعتناقه هداً من الصليبيين وكان هؤلاء قواداً وأمرأ وقد سجل توماس أرنولد أن سنة من أمرأ مملكة القدس اعتنقوا الإسلام بغير أن يضطرم أحد ، كما أسلم عدد كبير من الأسبانيين بعد القضاء على الدولة الإسلامية في الأندلس . وقد بدأ الإسلام توسعاته في أفريقيا باعتماد البربر أهل المغرب الأصليين للإسلام ، وكان عقبة بن نافع قد بلغ واحة الكوار في الجنوب ، حيث أكد له سكانها أنه لا يوجد بشر جنوب منطقتهم فلما نزحت جماعة من العرب والبربر إلى جهة بحيرة « تشاد » وفي القرن الثاني الهجري — حيث مفترق جنوب الصحراء — نتج عن هذا الاتصال الأول من الصحراء بين العرب والمسلمين وبين السودانيين اعتناق عدد من ملوكهم الإسلام وتأسس عدد من الممالك المزدهرة : كاتم ، سترأى ، غانا وتوالى اعتناق الملوك الأفارقة للإسلام مع المبادلات التجارية بين غانا والمغرب الأقصى على أيدي قبائل الطوارق ، ولم يلبث هؤلاء الملوك أن جلبوا هداً من العلماء والفقهاء ليعلموا شعوبهم أصول الإسلام . وتوالى تأسيس الرباطات التي أسفرت من بعد عن ظهور (المرابطين) في القرن السادس الهجري بعد أن انتشر الإسلام في قبائل منهاجه فأسسوا مملكتهم الإسلامية الممتدة من أسبانيا إلى السنغال . دفعت دولة المرابطين الإسلامية بقوة بين رعايا أميراطورية غانا الأفريقية الوثنية الكبرى

التي امتدت رقعتها فشملت مناجم الذهب في السنغال الأهل ، وفي القرن السابع الهجري (١٢ م) كانت (تمبكتو) مركز الثقافة الاسلامية ، ثم صادف التوسع قوة دفع جديدة عندما تأسست دول (سوكوتو) وأخضعت أغلبية السودان الغربي لها بمساعدة الأخوة الصوفية المراكشية مريدى الطريقة التيجانية . وفي السودان الأوسط على محاذاة بحيرة تشاد دخل الاسلام في أوائل القرن الخامس الهجري (١١ م) أما السودان الشرقي المتأخر لحدود مصر الجنوبية فقد ظل على نصرانيته مدة طويلة بعد أن أصبحت مصر ولاية إسلامية في القرن الأول بعد الهجرة وفي القرن السابع الهجري (١٣ م) اعتنق النصارى والوثنيين من أهل الاسلام دين الاسلام من اقتناع ، ونتيجة لزوح قبائل جديدة من المسلمين والعرب من مصر . وقد دعى البيت الحاكم في السودان الشرقي « الفونج » في القرن ١٢ — ١٨ هـ ثم اتسع نطاق الاسلام في أفريقية الغربية على أيدي الملوك والتجار وبواسطة الحج إلى مكة واستقدام العلماء وإدخال اللغة العربية والقرآن ، ومن أبرز الملوك في هذا المجال : كئكان موسى أعظم ملوك مالي (١٤١٢ — ١٣٣٥) وأسيكا محمد (١٤٩٣ — ١٥٢٨) . وفي القرن الثالث عشر (١٩ م) نشط الاسلام بعد فترة ركود استمرت ثلاثة قرون وتأسست هذه امبراطوريات إسلامية بإفريقية الغربية من أهمها امبراطورية (عثمان دان فوديو) وامبراطورية ماسينا وعلى رأسها الشيخ أحمد وامبراطورية الحاج عمر وقد جاهدوا جميعاً لادخال أفواج كبيرة من الوثنيين في الاسلام ثم ظهر « ساموري » في مالي فقاوم توغل الاستعمار الفرنسي وحارب الغزو الأجنبي ١٨٩١ — ١٨٩٦ م وفي عهد الناصر ابن قلاوون (٧٤١ هـ) أسلم ملك دنقلة فانتشر الاسلام بين سكان البلاد من المسيحيين على أيدي التجار .

ودخل الاسلام الحبشة عام ٧٠٢ هـ ثم توسع في القرن الحادي عشر حتى بلغ المسلمون ثلث سكان البلاد . ومنذ اعتنق الاسلام نصارى التوبة دخله السنغاليون والسواحليون في زنجبار وقبائل الصحراء ثم ازداد انتشاره في السودان حيث أسست ممالك إسلامية قوية . وفي القرن الحادي عشر الهجري نهض الاسلام نهضة قوية على أيدي الدهاة ومشايخ الطرق ، وكانت الدهاة المسيحيون : الكاثوليك والبروتستانت قد نشطت في أفريقية أواخر القرن الثاني عشر الهجري (١٨ م) غير أن الاسلام اندفع بقوة ، من أبواب الزوايا الصوفية في المغرب وبلاد فارس ومراكش واخترق بلاد الادار بمجبهة السنغال وكانت زوايا اتباع الشيخ عبد القادر الجيلاني في تمبكتو وزوايا التيجانية (أحمد بن محمد التيجاني) (٧٢٨) التي اتسعت حول مجرى نهر النيجر وزوايا السنوسية (محمد بن علي السنوسي) في الجنوب وغدامس منجبة فهو بحيرة تشاد ومن أهم مراكزها وادي وبورنوا . ومن

خريجي الأزهر امتد خط آخر إلى كردفان ثم إلى أوغنده وكان لتجار المسلمين الذين كانوا يقطنون المسافات بين مصر وطرابلس ودارفور أثر كبير ، وكان أقوى نفوذ للتجار الذين يذهبون من زنجبار إلى إقليم البحيرات الكبرى ثم عبر نهر الكونغو إلى بلاد البانتو ، أو من ساحل أفريقيا الشرقى داخل البلاد إلى مدغشقر .

أرخبيل الملايو

يرجع انتشار الإسلام في جنوب شرق آسيا إلى التجار العرب الذين وصلوا هذه البلاد في القرن الأول للهجرة ، واستطاعوا أن يوسعوا تجارتهم حتى كانت تجارة جزيرة سيلان كلها في أيديهم خلال القرن الثاني ، ثم واجت تجارتهم مع الصين وراجا هظبا . وكانت « كانتون » أكبر مركز لهم ، وظلت لهم السيطرة التجارية حتى القرن التاسع الهجري حين ظهر البرتغاليون وتطلعوا إلى هذه الآفاق . وقد أسس المسلمون مستعمرات تجارية في أكثر من موقع في جزء أرخبيل الملايو وكانت لهم مستعمرة على ساحل سومطرة الغربي ويرجع الأثر الحقيقي في الدعوة للإسلام في هذا القطاع إلى الدعاة المسلمين الذين وفدوا إلى أرخبيل الملايو من جنوب الهند والذين حلوا الإسلام إليها مما أثرت جذوره في جاوه وسومطرة . كما كان لإصهار التجار المسلمين إلى سكان البلاد أثره البعيد فقد كونوا بذلك النواة الحقيقية للجهاد الإسلامية التي ظلت أعدادها تتزايد ، مما طبع المنطقة بطابع إسلامي واضح ، ثم امتدت الدعوة إلى الإسلام التي حملها وجاهد في سبيلها كثير منهم إلى سومطرة وسيام وبرنيو . ثم انتقل تيار الإسلام من سومطرة إلى شبه جزيرة الملايو ، فأصبحت إحدى معاقل الإسلام . وفي جاوه الشرقية استطاع المسلمون القضاء على الامارة الهندوكية وامتدوا منها إلى جاوة الغربية في القرن العاشر الهجري ، ويمكن القول بأنه منذ منتصف القرن السابع الهجري استطاع « ضوء الإسلام » أن يكسب جولة جديدة في ربوع الأرخبيل الأندونيسي وشبه جزيرة الملايو وحزائر الفيليبين . وقد قاوم الاستعمار الهولندي في مطلع القرن العاشر الهجري حركة توسع الإسلام القذاتية ، وبذل جهوداً ضخمة لتعطيل جهود الدعاة المسلمين واستئصالها وطمس الصلات التي ربطت بين مسلمي أندونيسيا وسن قوانين صارمة وفرض ضرائب دخول فادحة على المهاجرين القادمين إلى أرخبيل الملايو من الهند أو جزيرة العرب .

وقد حفظ تاريخ انتشار الإسلام في أرخبيل الملايو أسماء كثير من المجاهدين الأعلام الذين قاموا بدور ضخم في سبيل الدعوة إلى الإسلام وجعلوا من منازلهم معاهد ومدارس لا يواها المرء بين والعلاب

والقيام بشكائهم ومعاشهم وتعليمهم عقائد الاسلام والواجبات والمبادئ ثم بت المتخرجين في مختلف النواحي والقرى ، لاقامة المعاهد والمصليات لتعليم القرآن والأحكام . وقد أهان على انتشار الاسلام في أرخبيل الملايو أمران هامان : الأول : كان أغلب سكان هذه المناطق على الفطرة فوجدوا في بساطة الاسلام وسماحته ما جعله متقبلا لديهم . الثاني : مرونة الدعوة وصدق إيمانهم وصبرهم وقوتهم الحية . وقد استطاع الاسلام بمسماحته أن يتقبل في مرونة ويسر طابع أفراسهم وأنشيدهم وأغانهم وأضاف إليها مفهومه ، ثم استطاع أن يحول أبطال الأساطير إلى أبطال من قادة الاسلام ، كما حول الصور المجردة إلى معاني إنسانية . ويرى بعض الباحثين أن بساطة الاسلام استطاعت أن تسيطر في مواجهة الدعوات المتعددة التي كان ينشرها معتنقو ديانتى شيوا ووشنوا ، وما كان بين البوزيين والحيثيين وبينهم من خلاف وخصومات ، وقد أتاح هذا الجو المضطرب الفرصة لنشر الاسلام بسماحته وبساطته التي تتمثل في الايمان المطلق بالله ، والمساواة بين البشر وحرية العقل والرأى في الحياة العملية بما ألقى حواجز القوت أو المنصب أو النسب بين الناس . وقد كان عمل التجار العرب في مجال الدعوة إلى الاسلام بارها ودقيقا ، فقد نالوا تقدير أهل البلاد بتعلم لغتهم وعاداتهم ، وقد بدأوا أولا بضم النساء اللاتي تزوجوا منهن إلى الاسلام كما جعلوا كل من يتصل بهم يعتنق بالاسلام ، ومن ثم أخذوا يندمجون في هامة السكان ولم ينفصلوا عنهم بدافع الغرور أو الكبرياء وأخذوا يواصلون نشر دينهم مستخدمين في ذلك ذكائهم الفائق وحضارتهم العظيمة وأظهروا مقدرة فائقة في تفسير الأصول والعادات المتعلقة بدينهم بحيث يفسر أمره لمن يراود جنهم إليه .

(٢)

سور هاملتون جب حركة إنتشار الاسلام على أنه تم بسلسلة من القفزات السريعة « في مدة لا تتجاوز القرن إلا بقليل بين عامي ١٠ — ١٢٣ هـ (٦٧٢ — ٧٥٠ م) استطاعت جيوش الخلافة أن توسع رقعة الحكم الاسلامي من أواسط آسيا شرقا حتى مرا كش وآسيا في أقصى المغرب ، وظل الاسلام محصورا في هذه الرقعة إلى قرابة القرنين ونصف القرن ، امتد بعدها حتى شمال غربي أفريقيا وآسيا الصغرى وآسيا الوسطى وشمال الهند وكان ذلك بين عامي (٤٠٠ — ٥٠٠ هـ) حوالي ١٠٠٠ و ١١٠٠ م وبعد قرنين آخرين كانت هناك موجة أخرى من التوسع إندفعت صوب شبه جزيرة اللبلقان ومنحدرات روسيا وسيبيريا وبقي أرجاء الهند إلى أندونيسيا ، وهكذا أضحت خريطة

العالم الإسلامي في مطلع القرن التاسع للهجرة (١٤٠٠ م) من الاتساع كما هي الآن باستثناء زوال الإسلام من شبه جزيرة ايبيريا وصقلية ، متغلقة في بعض المناطق على نطاق ضيق لاسيا في أفريقيا ، وتستطيع أن تضيق إلى عرض هاملتون جب القول بأن الإسلام قد وسع رقعته وما زال في أرخبيل الملايو وفي وسط أفريقيا وغربها على نحو هو موضع الغرابة من الباحثين والمعلقين الذين ينصرون أنه سيتضاءل قوة في خلال القرن الخامس عشر الهجري . والحق أن انتشار الإسلام في خلال ، وجاته للنوالية قد كشف مقدره أشبه برد الفعل أزاء تحديات الغزو الخارجي ، حتى يكاد استمرار هذه الظاهرة وتواليها أن يكون أشبه بقانون هلي ، أو ناموس طبيعي . يقول : توماس أرنولد : عندما تضيقت قوة الإسلام السياسية ظلت غزواته الروحية مستمرة دون انقطاع ، وعندما ضربت جموع المفلول بغداد (٦٥٦-١٢٥٨) وعندما طرد فرديناند ملك قشتالة وليون المسلمين من قرطبة ١٢٣٦م في هذين الوقتين كان الإسلام قد استنوت دعائمه وتوطدت أركانه في جزيرة سومطرة وكان يشق طريقه إلى تقدم ناجح في جزيرة الملايو . (٢) يقدر جملة الذين أسلموا في البلاد التي كانت تحت سلطان القيادة السياسية الإسلامية بمائة مليون بينما يبلغ الذين أسلموا بانتشار الإسلام ذاتياً أكثر من خمسمائة مليون وهم من أسلم في الهند والصين وأرخبيل الملايو ووسط أفريقيا . (٣) شارك في نشر الإسلام مختلف عناصر المسلمين : بربر وفرس وترك وزنوج ، وعلى مختلف مذاهبهم : سنة وشيعة ، ولم تكن المساجلات التي دات بين المسلمين حائلة دون الدعوة إلى الإسلام والجهاد في سبيل نشره ، وقد حلول كثير من الباحثين الكشف عن السر في انتشار الإسلام على هذا النحو من القوة وخاصة في القرنين الأخيرين الثالث عشر والرابع عشر في مواجهة حملات التبشير الغربية المزودة بالمال ، وأن تم هذه القدرة في التوسع على يد التجار والعلماء والصوفية . وليس هناك من سبب أصيل سوى أن الإسلام دين الفطرة وأن بساطته وسماحته قد ثقلت قلوب هذه الجماعات البدائية البسيطة من الوثنية إلى تقبله ، فضلاً عن أنه بالمقارنة مع غيره ، لبس فيه اسرار مذهبية أو تعذيب للضمير ، كما أنه من المرونة بحيث يتقبل العادات والاداب الاجتماعية والإيجابية ، ويميز تصدد الزوجات واقتناء الجوارى والعبيد ، وأبلغ أثر يتركه في نفوس معتنقيه هو المساواة والإخاء وشجب التفرقة العنصرية واعطاء معتنقيه صفة الحرية والكرامة .

وقد اعترف هو يرديشان مؤلف كتاب الديانات في أفريقيا السوداء (وكان حاكماً للاستعمارات الفرنسية) بأن انتشار الدعوة الإسلامية - في غالب الظروف - على حد عبارته - لم يعم على القهر والتسلط ، بل قام على الإقناع ، لأن الذين قاموا به كانوا شيوعاً متفرقين ، لا تحو لهم قوة

أو تحميمهم دولة ، وإنما كان الإخلاص هو دافعهم إلى إظهار محاسن الاسلام ومناحته ، وقد يسر انتشار الاسلام — في تقدير المؤلف — أنه دين فطرة سهل التداول خال من التعقيد ، وأنه لا يفرض على المسلم طقوساً مبهمة ، بل لا يتطلب سوى النطق بالشهادتين ، لذلك كان التجار المسلمون يحملون بنور الدعوة في هدوء ويسر .

(٤١)

مفهوم البطولة في تاريخ الإسلام

يزخر تاريخ الاسلام بأحداث البطولة ، وهي تمتد عبر مراحل المنصبة ، دون توقف ، وهي في صورها القريبة لا تنفصل في مفهومها عن صورها الأولى ، وكلها تستمد وجودها من مفهوم أساسي واضح ، هو القيام بدور خلاق في سبيل دفع الأمة الاسلامية إلى الأمام نحو الحرية والقوة والمجد ، وتنسم البطولة الاسلامية بطابع على إيجابي ، وحيث يكرم البطل إنما يكرم عمله أساساً ، وليس شخصه أو ذاته ، تقديراً للحظوة التي حققها ، والدور الذي قام به ، ومن هنا كان «البطل» دائماً خادماً لجمعه وفكرته وأمنه ، يؤمن حق الايمان بأن عمله مقدور في ميزان العمل الصالح على تعاقب الأجيال ، ومن هنا فهو لا يتطلع إلى الجزاء المادي أو المغم والشهرة . وقد عرف تاريخ الاسلام أبطالاً قاموا بأدوار على قدر عظيم من الأهمية دون أن يكشفوا عن شخصياتهم ، أو ييؤخوا بأسمائهم وقد سجل التاريخ هذه المواقف تحت أسماء مجهولة ، ومن هؤلاء «صاحب النقب» هذا البطل الذي استطاع أن يفتح ثغرة في سور دمشق ، بعد أن حاصرها المسلمون طويلاً وحاولوا مرات متعددة أن يثلثوا الجدار دون أن يتمكن واحد من أبطالهم إنعام هذا العمل ، فقد كان لا يكاد يتطابق أحدهم نحو الهدف حتى تنقشه السهام والنبال ، فترغمه على العودة مرة أخرى دون أن يصل إلى السور ، غير أن هذا البطل الذي لم يعرف التاريخ اسمه ولم يكشف هو عن شخصيته ، وقد اندفع فجأة — بعد أيام طويلة ظل القائد يحرض خلالها المسلمين على الاندفاع نحو السور — اندفع على رأس فرسه وسهام العدو تنوشه من كل مكان دون أن يتوقف أو يرتد حتى بلغ الجدار فأحدث فيه ثقباً ثم اخترقه إلى داخل السور وكبر ، فكبر المسلمون وهبوا إليه ، فلما انتهت الموقعة ، طن قائد الجيش محمد بن مسلمة أن «صاحب النقب» سوف يتقدم إليه دون جدوى ، هنالك نادى في الجيش أن يتقدم ، فلم يتقدم أحد ، ووعد ثم هدد ، وبينما هو جالس في خيمته تقدم منه رجل ضامر نحيل ، فقال له : أيها القائد :

هل تريد أن تعرف صاحب النقب . قال : نعم ، قال : أنا أدلك عليه ، إذا أعطيتني العهد أن لا تسألني عن إسعي ، فقال القائد : محمد بن مسلمة : لك عهد الله أن لا أسألك عن إسئلك ، قال : أنا هو : وانطلق خارجاً من خيمة القائد . ومعنى هذا أن « مفهوم البطولة في الإسلام » لم يكن الإعلان والشهرة ، والنظم إلى الحظ العاجل ، والأجر السريع ، ولكنه كان إيماناً صادقا من أعماق النفس بأن الله وحده هو الذي يجزى على العمل . ويذكر تاريخ الإسلام بطولات كثيرة مجهولة ، قام أصحابها بالعمل ، دون أن يكشفوا عن هويتهم التماساً لرضا الله وحده ، وانصرافاً عن مطمح الظهور والإعلان والشهرة ، وكان هذا هو مفهوم « الزهادة » التي تتمثل في إخفاء العمل وتحريره لوجه الله وإخلاصه للحق وحده . ويجمع الإسلام في معنى البطولة قطاعات عدة : بطولة المنكر والمصلح — وبطولة القائد المحارب — وبطولة بناء الدول وخدام الحضارة . والبطل في الإسلام خادم لقضية وهدف ، ولا يقل عمل المصلح الذي يصحح المفاهيم عن المحارب الذي يرد العدو ، ويتساوى مداد العلماء بدم الشهداء ، وفي مجال الحرب تتمثل البطولة — ليس في أعمال القتل وحرق المدن — بل في البراهمة في كسب المارك بأقل تضحيات ممكنة .

والبطولة أساساً : بطولة بناء ونمو وامتداد ، تتمثل في مجال العقل مع إضافة الجديد ، وقدرة العالم على توسيع آفاق الروابط بين الفكر والحياة ، والمرونة في تحقيق التجديد والاجتهاد ، وتنكشف في قدوة للعاملين في مجال الحضارة والبناء والتعمير ، وفي مجال المربين وبناء الأجيال ، وفي للعاملين على إضافة كشوف جديدة . وتتركز البطولة الإسلامية في العمل نفسه ، لا في « الفرد » من حيث هو من أسرة معينة أو بلد معين .

فليست بطولة عمر بن الخطاب أو خالد ابن الوليد أو صلاح الدين مستمدة من ميراثه الفردي أو العائلي ، بل مستمدة من مفهومه وعمله . وكانت مفهوم البطولة دائماً هو دفع الجماعة إلى الأمام ، وتحريرها من الاستعباد وتخليصها من أسار الغزو ، وإتاحة الفرصة أمامها ، للحركة والتقدم . ولقد كان تاريخ الإسلام قائماً دوماً على القدرة المتجددة في أن يبتعث البطل الذي يقود المعركة ويواجه الازمة ، وكما تجمعت التحديات في وجه المسلمين برز القائد الذي يحمل الأواء ويقود الجماعة في معركة مقاومة ، وكانت الأحداث والأزمات دائماً قادرة على أن تدفع الأمة إلى الوحدة ، والتجمع والتشكل والتضحية حتى يتحقق النصر ، ولقد هرف عن تاريخ الإسلام هدواً من التوسعات ولكنها كانت كلها مقدمات للنصر المظفر والمزينة الساحقة للعدو . فقد كانت الجماعة دائماً قادرة على مواجهة الخطر

مهما بلغ من الشراسة والمنف بالناسك والنجم والتضحية . ولقد رسم القرآن الكريم صورة للبطولة جعلها دائماً في مواجهة المسلمين ، لتكون العبرة قريبة إلى نفوسهم ، وكل الأبطال الذين عرضهم (القرآن) أبطال مقاومة لا يستسلمون أمام الظلم ولا يخشون رؤوسهم للعدوان ، ولا يخافون ، بل يقفوا دائماً موقف الصمود والمقاومة مرفوعي الرؤوس ، فقد كانت رسالتهم دائماً هي رسالة «التقدم والبناء» ومن هنا هجرت دائماً قوى العدوان ، عن أن تقتلهم أو تقتصر عليهم . وكانت المقاومة عندهم إيمان في أعماق النفس وسلاح في اليد ، يعملان معاً في اقتناع كامل بأنهم أصحاب رسالة . لقد كان البطل دوماً في مفهوم الاسلام « استجابة » لحاجة الأمة والمجتمع ، ينبعث في وقت الأزمة ، ثم هو بعد ذلك يصنع الأحداث ويقود أتباعه إلى مرحلة جديدة من مراحل العمل ، على وجه موجة من موجات التقدم . لقد كان الرسول ﷺ هو « النموذج الاسلامي الأهل للبطل » وكانت صورته دائماً وتجربته وعمله ، موضع القدوة والمثل طوال فترات التاريخ الاسلامي ، ومراحل ، وما تزال حتى اليوم موضع القدوة من كل بطل وقائد . فهو الذي إذا اشتد للبأس اتقى الناس به ، فما يكون أقرب إلى العدو منه ، وهو الذي وجده الناس عائداً من مصدر الصوت على فرس هري عندما خرجوا يلتئمسون الخيل ، وهو الذي وقف في « حنين » كالطود بعد أن تفرق أنصاره على أثر هجرة مفاجئة من العدو ، ينادي الناس « إلىّ إلىّ .. » وهو الذي كان يفرق دائماً بين موقفه في النار ولا قوة معه ، ويلتئم نصر الله ، وموقفه في بدر ومعه القوة ، وحيث توجد القوة فهو وجل من أن يكلفه الله إلى القوة ، فهو يلتئم نصر الله مجرداً ، وهو البطل الذي لم تذهله الأحداث ، والقائد الذي لم يهزم قط ، وقد علم خلال السنوات الثلاث هجر في مكة جيلاً من القادة واللغاوير ، وربما هي للبطولة والتضحية والايمان فكتبوا صفحات بارعة من المجد ، وظل ذلك الزميل موضع إعجاب الأجيال المتصلة المتوالية . ومن ثم اتصلت في تاريخ الاسلام روح البطولة والتضحية وللوت من أجل الحياة ، وكانت مقاومة الظلم ، هي أبرز صفحات الكفاح في مواجهة كل باغ وظالم ومعتد ، على أرض الاسلام ، ولقد استمد المجاهدون الأبطال من الرسول أبرز مفاهيم البطولة ولعل السر في تقدير الفرنجة لصالح الدين قربه من مفهوم النبي وأسلوبه ، بل لعل هذا كان هو مصدر النصر الذي كسبه لصالح الدين . وقد تمثلت البطولة العربية الاسلامية في الشجاعة والمروءة والأريحية والكرامة والآباء ، مع قوة الارادة ورجاحة الرأي ، في ميادين الحرب والعلم والحضارة على السواء . وقد جمع للمسلمون بين بطولة الفسك وبطولة الحرب ، فقد كان العلماء كلهم قادة معارك ، يحملون السلاح في مواقف الجهاد : ابن تيمية والعزيز بن عبد السلام ، حتى المتصوفة تركوا زواياهم واندفعوا يحملون السيوف ويقاتلون في معارك مقاومة

للفلول والصليبيين ، ويحرضون المجاهدين ويمثلون قلوبهم شجاعة واندفاعاً . ومن قبلهم الحسن البصري شارك في مواقع الغزو ، كما شارك القاضي أسد بن الفرات . وبطولة الاسلام تقوم أساساً على إنكار على الذات ووفق قيم الأخلاق والأريحية : « لا تجيز على جريح ، ولا تقتل صبيّاً أو هجوزاً أو امرأة أو تتعرض لعابدين صومعته » . ولقد كانت بطولة العلماء في الدعوة إلى الاستمسك بالقيم ، وإذا عنتها في الأمة ، خاصة في فترات المحن على أنها أعظم أسلحة النصر ، فإذا استطاع للفلول أو الصليبيون أن يهدموا أو يمسكوا شبراً فإنهم لا يستطيعون أن يمسكوا النفوس الحرة ، ولا أن يهزموا القوى المذخورة في أعماقها ، ومن هنا كانت بطولة المؤمنين تدفع في طريقها كل ظلم ، وتحطم كل عدوان ، وكانت قادرة دائماً على رد العدو وسحق الغزو .

وقد كانت بطولة العلماء دائماً في أن يبنوا في نفوس الأمة أن تكون متأهبة لخطر العدو الذي يتحين الفرصة ، ويترقب لحظة النفلة ، وبطولة بناء الدول إنما تتمثل في بناء الجيوش وتأهيلها لتكون على أهبة العمل ، ليس عدواناً ولكن إلتقاء لعدوان . وأهدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ومن ذلك قول الرسول : « إلا أن القوة الرمي ، إلا أن القوة الرمي ، من رمى بسهم في سبيل الله فهو له عدل محرر » وقول عمر : « هلموا أولادكم السباحة والرمية وركوب الخيل » . ولقد كانت للمركة مع العدو هي معركة للمسلمين جميعاً ، يشارك فيها الرجل والمرأة والشاب ، وفيها تخرج الزوجة بغير إذن زوجها وإطعام بغير إذن سيده . ومن خلال القيم التي ترسختها البطولة الإسلامية وجد المسلمون دائماً القوة على العمل ، ومن هنا كانت محاولة الغزاة والمقصوم تدمير هذه المقومات أو صرف الناس عنها . ولقد حول الإسلام مفهوم الفروسية والقنوة من الجهد الفردي والقبلي إلى مجد الأمة والدفاع عن مبدأ ورسالة . ويرسم تاريخ الإسلام للبطولة مخططاً واضحاً قوامه « الموت من أجل الحياة » فنرى عمر ابن الخطاب يرسل إلى أبي عبيدة بن الجراح يستقدمه وقد خشي عليه وباء الطاعون فنرى أبا عبيدة يرفض ويقول : دعني يا أمير المؤمنين بين جندي ، ويخشي عمر ما عرفه الناس من بطولة خالد والمثنى الخارقتين فيعزلهما في أوج نصرهما عن مكان القيادة في الجيش ويقول : خشيت أن يوكل الناس إليهما وأردت أن يعلموا إن الله هو الصانع ، فلما علم بعض الناس هذا الخلاف أو عز إليه بالشادة ، فإذا خالد يقول : أما وعمر حتى فلا . . . أننا نسمع ونطيع لقادتنا ، وينذهب عتبة بن نافع فاتحاً حتى يصل المحيط الأطلس على شواطئ المغرب فيفرس حافر فرسه فيه ويقول : « والله لو أعلم أو وراء هذا البحر أرضاً لذهبت فاتحاً في سبيلك » ويرى أبو محجن الثقفي ميمنة جيش المسلمين في معركة « القادسية » تنسكسر ، وهو مقتل في محبسه فيطلب إلى زوج سعيد

ابن أبي وقاص أن تطلقه وبما عهدا على أن يعود إن لم يستشهد ، وينظر سعد محاربا يقاتل فيززل كالصواحق ويدعش العدو ، ثم يعلم بعد المعركة أنه أبو محجن الذي اعتقه لأنه شرب خمرآ ، فيرسل في طلبه ويقول : والله لن أضربك الحد أبداً مهما شربت الخمر ، فيقول أبو محجن : وأنا والله لن أضربها أبداً ، فقد كنت أضربها ألفه حتى لا تقول العرب أنى أخاف الحد ، وأنا اليوم أتركها رغبة في أن يقولوا : « خاف الله » ولقد حفل تاريخنا بهذه الصور ، بطولة في خلق ، وإنكار للذات مع طلب الموت ، وجمع بين بطولة الحرب وبطولة الفكر ، على نحو صورة الجندي المجهول في رده على سؤال المقوقس « رأيت قوماً للوت أحب إليهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، أميرهم كواحد منهم ، ما يعرف كبيرهم من صغيرهم ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف منهم أحد » .

(٢)

بطولة الحرب

في تاريخ الإسلام نكشف البطولة في ثلاثة أبعاد : (١) بطولة الحرب والمقاومة ورد الغزاة : (٢) بطولة الفكر وتصحيح المفاهيم . (٣) بطولة بناء الدول في مجال الحضارة . وهي بهذا تسكاد تسبطر على تاريخ الإسلام كله الذي يجري في هذه الأبعاد الثلاث ، والواقع أن الإسلام قد رسم « أيدولوجيا جديدة » لها طابعها الخاص ، تنقسم بالإيمان بالله وقوامها الجهاد في سبيل كفته وإقامة حياة الأفراد والجماعة على أساس العمل المتقدم البناء في مجال الإنشاء والحضارة ، ومن ثم فإن من خلال هذا المفهوم تتمثل النظرة إلى الحياة والمال والموت والجزاء . ومن ثم برزت « البطولة » التي تمثلت في شخصيات نموذجية أهدت حياتها لتحقيق رسالة الإسلام في الدعوة إليه والدفاع عنه وتصحيح مفاهيمه ورد عادية خصومة من قيمة وهن أرضه ، ومن هنا كان مفهوم « الجهاد » الذي لا يتوقف عند الحرب وحدها ، والذي يتسع نطاقه حتى يشمل مجال النشاط الإنساني كله ، ما دام هدف الحياة الإنسانية الأساسي هو تحقيق رسالة الإسلام ودعوته . هذا هو التغيير الخطير الذي أدخله الإسلام على مفاهيم الأمة التي بزغ فيها ضوءه ، وهي أمة مهيأة بالفطرة لتحمل رسالة هظمي كهذه الرسالة ، ولما كانت حركات التاريخ كلها تتمثل في أمم وجماعات تكون بطبيعتها معدة إهداداً نفسياً وبشياً ووراثياً لحل رسالة معينة ، ومن خلال هذه الجماعات تبرز بطولات الأفراد التي تخطو بالعمل خطواته المتوالية ، فإن الأمة بطبيعتها تسكونها وبشيتها ووراثياتها ، وهي تعيش في هذه الجزيرة الضيقة المنعزلة

من حضارة الرومان وحضارة الفرس ، والتي بعثت من معابر الفزاة ، وحركات الغزو ومعارك القتال وتيارات الحضارة والفكر وللذاهب والأديان ، إنما كانت معدة إهداداً خاصاً لتأني رسالة ضخمة إنسانية عالمية ، تحمل لوائها ، بكل هذه العوامل النفسية المكونة لجماحتها وأفرادها ، وقد التقي مفهوم الإسلام بطوائع العرب فتحقق بذلك تحول خطير في قيم العرب وفق مقاصد الإسلام ، وقد حدث هذا التحول الخطير في دقة ويسر ، واستطاعت أهوام لا تزيد عن نيف وعشرين عاماً هي حياة الرسول محمد بن عبد الله منذ بعثته إلى وفاته ، أن تحقق هذا التحول . فقد عرف العرب بالشجاعة والكرم والقوة والعزم والمفاظة والصبر والصمود والبذل ، وتلك كلها صفات يرضيها الإسلام ، غير أنها قبل الإسلام كانت موجهة في سبيل الغاية الفردية والمجد الشخصي والفخر وفي سبيل الاستغالة والاستعلاء والظلم ، فكان أن حولها الإسلام إلى مفهوم إنساني رفيع ، وجعلها أداة في سبيل تحقيق هدف ، ووسيلة من أجل غاية عليا قوامها الإنسانية والتوحيد والعدل والحق والحرية وأحاطها بسياج متين من الضوابط ، فعدل أنجاسها ، وبالتالي عدل أنجاس النفس الإنسانية العربية وجعل عزيمتها الصارمة قوة لا حدها في سبيل إذاعة كلمة الله في الآفاق ، وتحطيم كل قوة تحول دون توسعها ، ما دامت قوة هدوانية أو أداة تسلط أو ظلم ، وفق مفهوم القرآن : «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا» ومن هنا ترى النماذج الخطيرة التي كانت تعد من جبايرة الجاهلية تصبح أبطلالاً يبرز اسمها التاريخ ، ويصل أثرها إلى أبعد مدى في أعمال عمر ابن الخطاب خالد بن الوليد في مجال بطولة الحرب وعمر بن العاص ومعاوية ابن أبي سفيان في بطولة بناء الدول ، وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود في مجال الفكر .

وهكذا رسم الاسلام ٥٠٠ سنة على ، استبطن معالم القوة والبطولة في الشخصية العربية وحولها إلى هدف أعلى ، فبرزت تلك النماذج من البطولة من خلال سنوات التدريب والاعداد . في مدرسة «الأرقم بن أبي الأرقم» التي عاش فيها المعلم الأكبر «محمد» بعد هذه النماذج وبعد من خلالها أمة كاملة لا تلبث بعد قليل أن تتسلح في الأرض فتبلغ في سنوات قليلة لا تزيد عن مئة الف سنة في عهد النبي إلى حدود فارس وإلى حدود أفريقيا مكتسحة الامبراطورية الفارسية ، وما تسيطر عليه الدولة الرومانية من أرض الشام وأفريقية . وهذا هو سر ذلك النصر في معارك التوسع وسر تأني الناس في مختلف هذه الأقطار للمسلمين ، فاتحين لهم صدورهم ، بوصفهم مخلصين من الظلم ، داهين إلى العدل والحق والحرية ، لا يفرضون دينهم ، واسكنهم يدهون إليه بالافتناع والحجة . ومن هنا نرى ذلك التحول الغريب في المفاهيم ، رجل يقدم ماله كله ورجل يقدم نصف ماله ، وابن يهارب

أباه ، ورجل يترك بنيه وأهله وماله مهاجراً ، ورجل يقسم ماله وما يملك بينه وبين مهاجر إليه ، ونرى أيضاً اختلاف الموازين المادية بحيث تكون القوة العددية هي مصدر الانتصار ، تتغير هذه « القيمة » ويصبح النصر في الأغلب للقوة العددية الأقل ، وفي مختلف معارك المسلمين والعرب خلال مائة عام كان النصر للقوة الأقل أمام القوات الضخمة التي يتضاعف عددها مرة ومرتين وهشمرات ويرجع المر هنا ليس إلى عدد الجيوش ، وضخامة القوى الحربية ، يقدر ما يرجع إلى العقيدة التي يحملها هذا الطرف أو ذاك ، كانت قوات المسلمين دوماً هي الأقل — عدداً وحدة — ولكنها كانت تحمل مفهوماً « معنوياً » ضامناً بعيد المدى في كسب المعارك وذلك هو مفهوم « البطولة » على المعنى الذي أهداه بها الإسلام والقرآن ومحمد . فالمسلمون يقاتلون في سبيل غاية عليا هي تحقيق كلمة الله ونشر الانسلام والدفاع عنه ، وهم لا يطمعون في نفعة مادية بالدرجة الأولى ، وهم في أعرق أعماقهم قد خرجوا على مفهوم واضح في نفوسهم ، هو النصر أو الشهادة ، وفي حال الشهادة يحس المسلم أنه أكبر نصر ، فهو قد قدم روحه في سبيل القتل لأنه وطد نفسه على أن يموت ، فلا بد أن ينصر الكلمة التي آمن بها أولاً ، ومن هنا فإنه ينتصر ولا يموت ، تحقيقاً لما نون صادق وهو « أطالب الموت توهب لك الحياة » وليس معنى هذا أنه لم يقتل من المسلمين كثير ، بل قتل الكثيرون ، وليكنهم ماتوا شهداء ، مؤمنين بأنهم قد أدوا حق الله في سبيل إيمان آمنوا به وعقيدة ملأت نفوسهم . وقد هاش هذا المعنى في نفوس المسلمين طويلاً ولا زال ، حياً نابضاً بالحياة فهم يتمثلون في كل خطوة ، ذلك المعلم الأول والقائد الأول « محمد رسول الله » ، ما نزل صورته الواضحة الدقيقة المبنوثة في كتب السنة ، في مختلف تصرفاته ، تواجدهم وتلاً قلوبهم بالشوق إلى المتابعة والتأسي ، فقد كان ﷺ هو التطبيق العملي لفكرة الإسلام ومقاصده وأهدافه ، وكان تجسيداً كاملاً لتمام الإنسان الحق ، والأصوة الحسنة للمسلمين ، كان خلقه القرآن وقد وصفه الحق بقوله : « وإليك لملى خلق عظيم » . هذا النموذج الرائع ، قد كون جيلاً ، من القادرين على احتمال أقصى صنوف العذاب والجهاد ، والحرب ، بصبر وجلد ، منهم بلال الذي كان يخرج كل يوم إلى الهاجرة بشعوب ، وعمار بن ياسر وأبوه وأمه ، ومنهم كثيرون وجههم الرسول في السرايات والغزوات ، ووصفهم بأنهم صبر على الجوع والعطش ، ومنهم من يقاتل بسيف ورمح ، ومنهم من كان يصرع هدوءه بضربة واحدة وقد تمت البعولة في هذه المرحلة في مواجهة « الردة » التي أصبحت الجزيرة العربية هليها بعد اختار النبي للرفيق الأهل وفيها عداثيف وقريش ارتدت سائر العرب . وكان موقف الصديق رائماً ، فقد أصر على المقاومة ورفض الاستسلام ، وأنفذ أحد عشر جيشاً في يوم واحد فاستطاع أن يستأصل الردة في معارك

متعددة أكبرها « معركة اليمامة » وسرعان ما أبرزت هذه المعركة الأساسية في ميزان بقاء الاسلام بطولات في مقدمتها بطولة البراء من ماله ، فقد زحف للمسلمون حتى ألبثوا المرتدين إلى حديقة أطلق عليها فيما بعد « حديقة الموت » وفيها مسيلة مدهى النبوة ، فقال البراء يا معشر المسلمين القوني عليهم في الحديقة ، فليل له : لا تفعل . قال والله لتطرحن عليهم فيها ، فاحتمل حتى أشرف على الحديقة من الجدار فافتحم مقاتليهم هند باب الحديقة حتى فتحها للمسلمين . وغير الإسلام القيم والمفاهيم لدى المرأة ، كما غيرها لدى الرجل ، فقد جاهدت المرأة في الحرب وقائمت ، وقدمت حليها وشعرها ، وفي معركة اليرموك قاتلت النساء في جولة . فخرجت جويرة بنت أبي سفيان ومعهما زوجها قاتلا قتالا شديداً .

وبدا أثر التحول في فكر المرأة ومفاهيمها ، متمثلاً في النساء اللاتي قدمن الأبناء ثم قدمن الأبناء والأزواج ، راضين متقبلين شهادتهم بالرضا إيماناً بالمقيدة والمهدف والغاية غير جزعهن للصير من بعد ، قالت امرأة من النخع ليلها الأربع الذين شهدوا القادسية : « والله أنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة ، انطلقوا فأشهدوا أول القتال وآخره » . وينمثل هذا التحول في موقف أخلصاء من مقتل أخيها قبل الإسلام ومقتل أبنائها بعد الإسلام ، وكيف استقبلت هذا وذاك . ويبدو هذا التحول في مواجهة المسلمين لفيلة في حرب الفرس ، والبحر في فتح المدائن ، وكيف استطاعوا التغلب على كل عقبة يدفعهم إيمان جارف ، وحسب للموت ، ومنهم من فزأ خمسين غزوة شاتيه وصائفة كما فعل هبة الله بن قيس الحارثي . وهسكنا بنت بطولة الحرب والمقاومة في صورة من أدق صورها مستمدة قوتها من مفهوم الإسلام نفسه ، وإذا كانت بطولة الحرب قد توقفت ثمة في العام ١١١٤هـ بصورة عامة فإنها ظلت حية تتمثل في حركة المقاومة التي لم تتوقف في جبهات الحدود الإسلامية البيزنطية والحدود الأندلسية الأوربية والأسبانية ، وفي حدود العالم الإسلامي من الشرق ، فقد امتدت معارك المقاومة منجمة ، على مراحل وفترات ولكنها كانت وفق خطة لم تتغير هي الإدالة من العالم الإسلامي أو الحيلولة بينه وبين التوسع ، ثم برزت ثلاث معارك ضخمة هي : الحروب الصليبية في المشرق ، وحروب الفرنجة في الأندلس والمغرب ، والغزو المغولي للتتري ، وفي خلال هذه المعارك تجددت مفاهيم الاسلام في المقاومة بصورها وسماتها في الوقت نفسه ، وبرزت نماذج جديدة من البطولة الحربية ، وتشابهت صور نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي مع صور خالد بن الوليد ومعد بن أبي وقاص ، وتلمس الآخرون أخلاق الاسلام ومفاهيمه وحاولوا أن يكونوا على مستوى الرهيل الأول حماية للزمار ومقاومة للعدو وهذلاً وسماحة ، وقد كان سر نجاح خطة نور الدين وخلفه صلاح

الدين الأيوبي هو إعادة بناء « مدرسة تربية الصغير والخلق » كقوة روحية ذاتية دافعة إلى النصر ، وكانت بطولة الزهاد والصوفية المرابطين في الثغور من أبرز وجوه المقاومة في هذه المرحلة . وكانت مفهوم الاسلام هو « السلاح الأول » في معارك رد عدوان التتار والصليبيين مما ، وكان لجولات الظاهر بيبرس ويوسف بن تاشقين ومحمد بن نورمت والمنصور بن أبي عامر في المشرق والمغرب أثرها في رسم صورة البطولة الحربية في صورة المقاومة في هذه المرحلة ، غير أن البطولة في مجال المقاومة تختلف عنها في مجال التوسع ، فلا شك كان لتخلف المسلمين عن مفهوم الاسلام في خلال القرنين السادس والسابع عشر الهجري من الشرق والشمال والمغرب جميعاً ولو انهم المسلمون مفاهيم الاسلام وقيمه في حياتهم لما استطاعت قوة عادية أن تغزوم ، تلك هي مفاهيم « الوحدة والقوة والابحاث » .

« بناة الدول »

وفي مجال بناة الدول والحضارة نرى عشرات من نماذج عالية في المهمة والقوة والحيوية من القادة والأمراء والحكام الذين صنعوا حياة مليئة بالعمل والبناء والانشيد ، على نحو رائع وعجيب ، وهو ما يدحض كل ما وجه إلى الاسلام من أنه يحض على الرهبانية أو الزهادة أو إنكار الدنيا وكرهيتها . ويؤكد مفهوم الاسلام في أنه روح ومادة ، وقلب وعقل ، ودين ودنيا ، وبناء وعبادة . فهؤلاء الأبطال : في مجال الدول معاوية والرشد والناصر والمنصور وظام الملك . هؤلاء يجمعون بين سمات العلماء وسمات الحكام ، فهم بارهون في الثقافة لا يقلون فيها عن العلماء المتخصصين ، ثم هم بناة يشيدون الحضارة في مجالات البناء المختلفة ، المساجد للعبادة والجامعات للعلم ، والقصور للسكنى ، والأبراج والقلاع للحرب ، والمراصد للفلك . ولم ينف الأمر عند هذا ، بل بنى هؤلاء الأبطال مدناً كاملة . بنى يوسف بن تاشقين (الدار البيضاء) والكمال بن أيوب (المنصورة) وعبد الله المهدي (المهدي) وجوهر القائد (القاهرة) وأحمد بن طولون (القطائع) وإبراهيم بن الأعمش (العباسية) والمصمم (سر من رأى) والسمح بن مالك الخولاني (قرطبة) والمنصور (بغداد) وعبد الرحمن الناصر (الزهراء) والمنصور بن أبي عامر (الزهراء) وأبي يوسف بن تاشقين (منارة أشبيلية) والمهدي (الرصافة) والحجاج (واسط) وسليمان ابن عبد الملك (الرملة) وهبة بن ناغم (القيروان) وسعد ابن أبي وقاص (الكوفة) وسيف الدولة (قلعة حلب) .

تكریم العلماء

وقد أضاء هؤلاء الأبطال مسلكهم بالجامعات والمعاهد والمنشآت العظيمة ، وجعلوا بلاطهم محط رجال الشعراء والأدباء والعلماء ، وكان تكريم العلماء مناط بإيمانهم ، فالرشيد يصب الماء على يد أبي معاوية الضرير ويقول له : هل عرفت من صب الماء على يديك ، فيقول لا : يقول الرشيد : إنا فعلناه لكراما للعلم . وقد أقاموا المجالس ليقدموا إليها العلماء ويناقشونهم وبساجلهم في مختلف فنون الفكر والثقافة . وكانت مجالس المأمون مشهورة مذكورة ، حافلة بكل مفكر ونايفة ، وليس الشعراء وحدهم الذين كانوا يجالسون نبهاء الدول ، وكذلك مجالس سيف الدولة التي كانت تجمع في بلاطه بين الفارابي والفيلسوف وأبي فراس الحمداني وابن نباتة الفاروقى والمثنى والسلافى ، وابن خلوية النحوى . وكان محمود الغزنوى يستضيف العنبي المؤرخ والبيرونى العالم والفردوسى صاحب الشاهنامة . أما ألب أرسلان فقد أظهر تقديراً عظيماً لنواحي الثقافة والفن ، وقد رتب معاشاً كبيراً لعمر الخيام الفيلسوف الذى تركه في مجاله العلمى آثاره الخالدة وإن نسب إليه الشعر وحده ولم يذكره أحد في مجال العلم الذى كان عمله الأكبر . أما ملك شاه فقد عقد مؤتمراً من الفلاسفة في مرصده الفلكى وطلب إليهم أن ينقحوا التقويم . وكان نظام الملك وزير ملك شاه من المفكرين والباحثين .

كانت أيامه خلال ثلاثين عاماً أيام أهل العلم والبحث وقد أنشأ المدارس والجامعات وكان إلى ذلك باحثاً ومؤلفاً وله كتاب في سياسة الدولة وقد جهد (بناء الدول) في إنشاء الجامعات والمساجد والقصور حتى بلغوا في ذلك الغاية ، بنى الناصر مدينة الزهراء في أربعين عاماً يتوسطها قصر الزهراء الذى يقوم على ألف ومائتى عمود من الرخام ، ويزينه أربعة آلاف عمود من المرمر ويضم بين جدرانها أربعمائة غرفة ومقصورة ، وقد جند لها وأوقف على عمارتها عشرة آلاف رجل وجلب لها من روما والقسطنطينية وأفريقيا أعمدة الرخام الملون ، وقد كانت شوارع قرطبة مضاعة بالقناديل في حين أن لندن لم يكن بها قنديل واحد عمودى إلى ما بعد صبعائة سنة ، وقد كان كل إنسان في قرطبة قادراً على أن يسافر في الليل عشرة أميال على ضوء مضاييح الشوارع وبين صفين لا ينقطعان من المبانى وكان في قرطبة وحدها مائة وسبعين جارية تعمل في نقل المؤلفات لطلاب الكتب النادرة . وإذا ذكرت المساجد ، ذكر مسجد قرطبة وجامع الزيتون وجامع القيروان والجامع الأموى الذى بناه الوليد بن عبد الملك واستمر بناؤه عشر سنوات وبلغت نفقاته خمسة ملايين و ٦٠٠ ألف دينار وعمل في بنائه ١٧ ألف عامل ، قال الوليد : إذا كان أهل دمشق يفخرون بأربعين معاشهم وهوانهم وهوانهم

وحاماتهم فقد أحيت أن أزيدم خامسة في هذا المسجد وقد رصع محرابه بالجواهر وصور فوقه بالفسيفاء .

ويعد مسجد قرطبة أروع مثل للعمارة العربية ، فله تسعة عشر دوراً وتسعة عشر باباً ينسج بيت الصلاة والعبادة لما يقرب من أربعين ألفاً ويمتد من بيت الصلاة أكثر من ستمائة هكتار وله مشددة ضخمة . وبني المنصور ببغداد وأمضى أهواؤه برأب البناء بنفسه ، وكان في بغداد ستون ألف حمام وحيال كل حمام خمسة مساجد ، وكان في دجلة ثلاثين ألف زورق .

(الجامعات والمدارس) : أما في مجال المدارس والجامعات فقد بنى نظام الملك المدرسة النظامية التي تخرج منها أبو اسحق الشيرازي وأبو حامد الغزالي ، وبني المستنصر : المدرسة المستنصرية التي بلغ ما أوقف عليها من العقارات أكثر من سبعين ألف مثقال سنوياً . وأسس المأمون مدرسة ببغداد وسماها بيت الحكمة . وبني « المعز لدين الله » الأزهر ودار الحكمة في القاهرة ، وبني هبة الرحمن الثالث في قرطبة ٢٧ مدرسة مجانية . وبني نور الدين وصلاح الدين في دمشق والقاهرة عشرات المدارس والمكتبات وكانت جامعة قرطبة مدرسة الفقه والرياضيات والكيمياء والطب والعلوم الشرعية والفلسفية والفلك وفي مجال العلم بنى أول إرساد منظم استخدمت فيه آلات دقيقة الصنع ، في جند سابور ودمشق وبغداد وجبزت تلك المراصد بآلات فيها مقياس الارتفاع والاضطراب والساعة والساعة الشمسية وفي بغداد كانت المبرمجين والفساخ وبجانب أبي حنيفة ودكاكين الوارقين . وكان للحكم الثاني مكتبة في قرطبة فيها ٦٠٠ ألف كتاب و ٤٤ فهرساً تردها الكتب من بغداد ودمشق وخراسان والاسفانة وبها ٨٠ مدرسة يرد لها الطلاب من جميع أنحاء العالم درس بها البابا سلفستر الثاني ، وكان الحكم بطلا محارباً ، وحاكماً قديراً . وكان إلى ذلك عالماً بالأدب والتاريخ ضليعاً في معرفة الأنساب محباً للعلماء يستقدمهم من البلدان النائية فيدارهم بهم العلم . أما المأمون فقد أتحف ملوك الروم بالهدايا سائلاً أن يصلوه بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا إليه بعدد كبير من كتب أفلاطون وأرسطو فاختار مهرة الترجمة لنقلها إلى العربية ، وقرب العلماء والعقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل الفقه والأخبار والمعرفة والأنساب والشعر وكان فصيحاً مفوهاً واسع العلم . ومن قبل ذلك هبة الملك بن مروان الذي نزل الدواوين من الفارسية إلى العربية وضبط الحروف بالنقط والحركات . وهو أول من حك الدنانير في الإسلام وكان يحادث العلماء والشعراء وقد بلغ في ذلك أنه ما ذكر أمامه حديث ولا شعر إلا زاد فيه . أما عمر بن عبد العزيز فقد نشر الإسلام بالدمعة إليه وبالقدرة

الصالحه وحل المشاكل ودفع الجزية ، وناقش الخوارج وأقنعهم بالحسنى ، وهكذا يبدو كل واحد من
بناة الدول وهو عالم مثقف ، يناقش العلماء ، يجمع إلى بطولته في ميدان القتال ، حصافته في مجال
الحكم ، إلى تفوقه في مجال تكريم العلماء وبناء المدارس والجامعات والمساجد والمعاهد والمراسد ،
إلى صاحب مجلس علم ، إلى ناصر للإسلام بالافتتاح إلى مؤمن للتجارة والطرق ، فأتبعها الطريق للرحالة
العرب يجولون بين أطراف رحالم الإسلامى دون جواز سفر ، مكرما أصحاب الأديان الأخرى ، دافعا
لهم إلى كبريات المناصب . مستقبلا لشعراء الدول الأجنبية ، على نحو غاية في الهيبة والعظمة . ويذكر
هذا المجال المرض الذى أقامه الخليفة للقنصل لاستقبال رسل الأمبراطور قسطنطين ، فقد
مشى في موكب الاستقبال يومئذ مائة وستون ألف فارس وسبعة آلاف راجل وسبعمئة حاجب
ونحو مائة أسد .

وقد بلغت الثروة غاية الغايات فكان الرشيد يقول للسحابة المسارة « أمطرى حيث شئت
فسأتينى خراجك » وكانت موارد عبد الرحمن الناصر اثني عشر مليون ديناراً من الذهب ، يقول
دورانت أنها كانت تفوق إيرادات حكومات البلاد اللاتينية مجتمعة . وهكذا تتمثل البطوة في جانب
« بناة الدول » بطولة الأفراد الممتازين يخرجون من قلب مجتمعاتهم ثم هم يغيرون المجتمع ويزيدونه
قوة وحيوية .

ولاشك كانت البطولة في ميدان البناء والحضارة والإنشاء والحكم أكبر مسئولية من بطولات
الحرب والمقاومة ، فهم تتطلب الجهد الدائب للبدول في كل لحظة على مدى الأيام والسنوات ، في
نفس الوقت الذى تحصن فيه الحدود وتؤمن النفور ومع إثارة روح العمل الخلاق في مجالات التجارة
والصناعة والأدب والفن . وقد ظل تاريخ الإسلام دوماً حافلاً بهؤلاء البنائين الدول ، يتوالى ظهورهم
في وحدات عالم الإسلام ، مرحلة بعد مرحلة ، ووحدة بعد وحدة ، يحملون القواء ويحمون الحضارة ،
حتى إذا ضفت قوة الدفع بمدعم للنشء الأول ، أو الثانى لكل موجة ، ظهر قائد جديد يحمل
القواء ، وكان ظهور الدولة المختلفة في أجزاء عالم الإسلام حامل تنافس وقوة ، ولم تكن حامل ضعف ، فقد كان
الأمراء يقدّمون على تكريم العلماء وبناء الجامعات والمساجد ، وكانوا يحاولون أن يكونوا على
مستوى مقر القيادة السياسية في بغداد أو دمشق أو قرطبة .

(٤٢)

« المرأة في تاريخ الإسلام »

إن أدق وصف لموقف المرأة قبل الإسلام هو ما هبر عنه « هرب بن الخطاب » حين قال : « والله ما كنا في الجاهلية نعد النساء شيئاً حتى أنزل الله لمن ما أنزل وقسم لمن ما قسم » . وهذا في قالب الجزيرة العربية ، أما في أوروبا فقد انعقد « مجمع ما كون » (٥٨٦م) لبحث هل للمرأة إنسان وكانت قرارات المجمع تتلخص في أن للمرأة ليست إلا خادمة للرجل . في نفس هذا المقصر قال رسول الإسلام « محمد » كلمته الخالدة : « إنما النساء شقائق الرجال » وبذلك منح للمرأة للساواة ، وقال : « الجنة تحت أقدام الأمهات » وبذلك كرم الأمومة ووضع ركيزة بناء الأسرة .

وأبرز ما يمثل مكانة للمرأة في الإسلام : ١ - شمول الخطاب القرآني للمرأة والرجل .
٢ - أعطائها الأهلية الكاملة للارث والهبة والرؤية والدين والتملك والتعاقد والاكتساب دون أنه يكون ذلك مرتبطاً بموافقة الرجل وإذنه .

(٣) القدوة بين الرجل والمرأة في النجعات والتكاليف العامة من زكاة وحجيج وجهاد وصوم وصلاة . وبذلك برزت « شخصية المرأة المسلمة » في المجتمع وهي ذات كيان واضح مستقل ، له خصائصه بالنسبة للرجل في حدود القاعدة الأساسية : « ولهن مثل الذي هلهين بالمعروف والرجال هلهين درجة » . ومن هنا بدأت مشاركتهن في المجتمع الإسلامي الجديد خاضعات بحاس النبي ، شاركات في الحرب ، ومهاجرات ، وحافظات للقرآن ، راويات للحديث ، شاعرات وخطيبات ، وقد دخلن المساجد وشهدن حلقات العلم والصلوة الجامعة ، وكان الرسول يعد لمن في مجالسه وفي الصلاة أما كن خاصة .

واشتهر نفر من النساء غير قليل براوية الحديث حتى أن طائفة من الأحاديث المختلفة قد رويت هن « عائشة » . « وأم سلمة » وغيرهما من الصحابيات ، بل لقد رويت بعض الأحاديث سلسلة عن نسوة دون أن يكون بينهن رجل وروت « عائشة » وحدها من النبي ألفين ومائتين وثمانين أحاديث وشاركت للمرأة في غزوات النبي وبرزت أسماء كثيرة : « أم هانئ » « وأم هارمة » . « نسيبة بنت كعب » : « للزانية » . « وصفية بنت هبيل اللطب » ، وفيهن من غزت مع رسول الله سبع غزوات

« كام عطية » ، وكن يخلفن الرجال في رحالهن ، وكن يقاتلن ويصنعن الطعام ويداون الجرحى ويقمن على المرضى ، ومنهن من شهدن العقبة الكبرى ، « كام عسارة » أول مبايعة للنبي وثانية اثنين شهدتا العقبة الكبرى ، وكان لهن في فتوح الروم والفرس مواقف مشهودة .

قال إدوار جييون : — إن الشجاعة التي أظهرت منها المرأة المسلمة في موقعة اليرموك وفي غضون حصار دمشق لأهظم مما يتناولها التقدير . ووصف المؤرخون بطولات « خولة بنت الأزور » السكندرية و « الخنساء » التي استشهد أولادها الثلاثة في موقعة واحدة فاستقبلت استشهادهن بإيمان صادق . بينما كان لها موقفها العاصف في الجاهلية عندما مات أخوها صخر . وكما غير الإسلام مفهوم المرأة الإنساني في أمر الحياة والمجتمع والأسرة فقد أعطى الإسلام للمرأة حرية الفكرية حتى استطاعت امرأة أن تواجه « عمر » وتعارضه في المسجد الحرام حين دعا إلى تحديد المهور ، وعدم زيادتها عن أربعمائة درهم ، فقامت من قالت : ما يحل لك هذا والله يقول : « وآتينكم إحداهن قطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » وأجاب عمر في صراخه للمهود : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

وفي أيام لدولة الأموية زاحمت المرأة للسلمة الرجل في مجال الثقافة والعلم ، وشاركت في مجال الفقه والحديث والأدب والبيان وأحاطت بجميع فروع العلوم وأنفذتها ، وفي هذه المرحلة قامت النساء بتربية البنات وتنشئتهن فكن يعلمن في البيوت : القراءة والموسيقى والآداب الاجتماعية وأسرار اللغة العربية . وامتد دور المرأة المسلمة في تربية البنات وتنشئتهن وفي رواية الحديث حتى بدت عوامل الاضطراب في المجتمع الإسلامي ، هنالك انجبت للمرأة إلى التصرف وهكتفت على العبادة ، وإن لم يعد تاريخ المرأة المسلمة نماذج مختلفة على خلال العصور في مختلف الحواضر يعقدن الحلقة في للمساجد ويحدثن في الفقه والحديث . وقد سجل « العقد الفريد » المناورات التي نسبت إلى معاوية والوفادات من أنصار على كأروى بنت عبد المطلب ، وسودة بنت عمار وأُم سنان بنت حشمه ورامية الحجونية وهي تسكفهن صراحة وجراً وكانت عمره بنت دريد بن الصمة . وهائشة بنت طلحة التيمية زوج مصعب بن الزبير ، وكلتاها تهب هبة الملوك ، وقد أفرد ابن حجر في كتابه (الإصابة في أعلام الصحابة) مجلداً خاصاً أسماه (كتاب النساء) وهو الجزء الثامن في ٢٩٢ صفحة من القطف الكبير ، سجل فيه أسماء و تراجم ١٩٤٥ سيدة من راديات الحديث الصحابييات ، وحوى الإصابة لابن حجر والنصوة اللامع للسخاوي وأعلام النساء لسكينة هداً ضخماً من البارزات في مجال الفكر والثقافة والتصوف على طول العصور ، بين هابذة ومحدثة وأديبة وراوية ، ومن ربات الرأي والمقل والنفوذ والسلطان .

وليس في صدر الإسلام وحده بدأ شأن المرأة للسلمة عالياً ، بل في مختلف العصور ، فإذا كان « مرحلة بناء الإسلام » قد شهدت أمثال عائشة وزينب بنت جحش وأم سلمة وفاطمة وهكرشة بنت الأطرش وأم الخير بنت جريش والزرقاء بنت هدي ، وبكاره الهلالية وهند بنت زايد فقد توالى أسماء البارزات تظهر ، فظهر من بعد أصحاب الندوات أمثال عمره الجحفية ، وخرقاء وعمره ابنة أبي وهب وعائشة بنت طلحة ومكينة بنت الحسين ، وكل جمعاً يعقدن المجالس ، ويمضين إلى الحرب لابسات الحديد ، يساعدان أخوتهن وأزواجهن في الدفاع عن المعامل والمصالح ، كما هرفت المرأة بالطبابة في صدر الإسلام بعد أن نسي الإسلام من السكينة ، وإذا كان الإسلام قد نهى عن الخلوة بالنساء إلا أن ذلك لم يمنع المرأة من الخروج إلى مجالس العلم والمساجد وفي فتح العراق لإشهرت خزاعة بنت خالد بن جعفر ، خاضت مع سعد ابن أبي وقاص المارك وحضرت فتوح الحيرة .

ثم كان عصر الانصار والتبليد (١٣٢ - ٤٩٠) وإلى ما قبل الفزو الخارجي حافلاً بالتمناح المتعددة الشرائع . فاطمة بنت خليل الدمشقي محدثة سمع عليها العلامة السخاوي كتاب الشرائع القروية ، فاطمة بنت هبة الله تجلس في مجلس أمير المؤمنين المهدي ، فاطمة تولت مشيخة رباط الظاهرية في مكة . ولعبت دور للمرأة دوراً ضخماً في المجال السياسي ، كان للخيرزان فضلاً في حياة المهدي فإن معاهد التعليم كانت منسوبة إليها وكان لزيدة زوج الرشيد دور هام ، وفضلها في توصيل المياه العذبة بين مكة ومي وجر للياه إلى بيروت ما زال مذكوراً وكان لزيدة مائة جارية يحفظن القرآن . وأنشأت أم للفتقد مستشفى خصصت لنفقتة السنوية سبعة آلاف دينار وكانت الولاة بنت المستسكى في القرن الخامس للهجرة نجاس الرجال ونحاورهم ولعبت « ست الملك » دوراً هاماً في التاريخ ، فقد تولت الملك قرابة أربع سنوات ، وعرف عنها العدل والإنصاف ، وأنشأت والده السلطان الأشرف « بركة » مدرسة مجانية ، وعمرت فاطمة بنت المحدث « المقرئ » الدمشقي مدارس ومارسيتين وتنكياً وأوقفت لها الأوقاف ، واشجرة الدر في حرب الصليبيين ومقاومة الغزاة دور جسيم في الفترة التي حفلت بالفزو الصليبي والتتري وكان عالم الإسلام حافلاً بتمناح من النساء العالمات ، في مختلف وجداته : أم الواحد وأم السلام في بغداد ، كريمة بنت محمد حاتم في مكة ، خديجة بنت محمد في بغداد ، وفي القرن السابع والثامن نرى عائشة بنت أحمد ابن هبة الله وفي نيسابور عائشة بنت الحسن في أصبهان ، فاطمة البغدادية أم الفضل ، لينة بنت أبي الفرج في دمشق ، رقية بنت العفيف في الحجاز ، فاطمة بنت علاء الدين (سمرقند) فاطمة بنت أحمد الرافعي (العراقي) زينب بنت الشمري (نيسابور)

وفي القرن السابع والثامن نرى هائشة بنت أحمد بن عبد الله وفي نيسابور هائشة النيسابورية ، وفي القرب : هائشة الشريفة ، وزينب بنت اسحق النعمانية التي تزوجها يوسف بن تاشفين . وفي مصر سارة بنت الشمس البالي المصري ، وفي دمشق شمس الملوك شهدة بنت أحمد المصري ، وشهدة الدينورية ، ولدت في بغداد وروى عنها (ابن الجوزي) كتاب التصديق بالنظر إلى الله عز وجل ، وشهدة المصرية ، وشهدة بنت عمر الحلبي ، وهناك من هاجر في طلب العلم أمثال سارة الحلبي وصفت بأنها شاعرة أدبية وطبية ماهرة كانت تتعاطى كثيراً من الصناعات ، وكتبت الخط الجيد ، أصلها من الشام ، وفدت على تونس ثم ارتحلت إلى الأندلس ومراكش ، ورأست الأدباء والشعراء وتأطرتهم وظهرت على بعضهم .

وإلى القرن الثالث هجر المجرى لم ينقطع ظهور مسلمات في مجال العلم والفقه أمثال قرة العين بنت صالح القزويني المتوفية ١٢٣٠ هـ كانت محدثة وأدبية وشاعرة وعالمة بصيرة بالكلام ، حافظة للقرآن عالمة بتفسيره وتأديبه ، عارفة بأسرار التنزيل تعقد الحفلات والجمعيات وتخطب وتعظ الناس ، عرفت بركة لهجتها فاشترأت لها الأهناق . وقد شاركت المرأة المسلمة في العلوم وخاصة حركات السكواكب ، فقد روى أن هائشة بنت طلحة وفدت على هشام بن عبد الملك وسمرت عنده مع شيوخ بني أمية فلم يذكروا شيئاً من أخبار العرب وأيامهم إلا شاركهم فيه ، وما طلع نجم أو غاب إلا ذكرت اسمه . قال لها هشام : أما الأول فلا أنكره أما النجوم فمن أين لك ، قالت تعلمتها من خالتي هائشة أم المؤمنين . وكان للمرأة في مجال الشعر دور ، فقد ظهرت مئات من الشواهر : صمد بنت زيادة . وولادة بنت المستكفي . وعليه بنت المهدي ودنانير وهائشة الباهونية ورايعة المدونية وأحصى المؤرخون في الأندلس في عصر ملوك الطوائف ستون ألفاً من الشاعرات وكان أكثرهن في غرناطة . وقد ذكر صاحب نفح الطيب أن النساء المسلمات لم تخل لهن مشاركة في العلوم ، وكانت مهنة المعلمات والطبيبات ، ومن الطبيبات الشهيرات : أخت الحفص بن زهر ، وابنتها وقد نوه باقتدارها صاحب طبقات الأطباء ولاسيما في الأمراض النسائية وقيل كان في الأندلس ستون ألف حافظة للقرآن الكريم ترفع كل واحدة قنديلاً فوق باب بيتها بالليل تميزاً لها عن غيرها .

أما وقع للمرأة المسلمة في فترة الضعف فإنه لا يجب حسابه على مقاييس الإسلام ولا ينطبق على قيمه ومقاهيمه ، هذه المفاهيم التي اضطرت المرأة أن تحتجب عن المجتمعات وتمنع بدارها ، وتمكف عن العبادة والتصوف بعد أن ساد المجتمع الإسلامي بعض عوامل الانحراف ، ومن الحق

ان لا يحاكم « الإسلام » إلى فترة الضعف فإنها لا تغل تعاليمه وما من امرأة من انخفاض لمركزها ، لم يكن إلا نتيجة التخلف عن تطبيق تعاليم الإسلام وقيمه ، كان انفصال المجتمعات عن مفاهيم الإسلام وهو ذلك الجو العاصف من توسع نطاق الاماء والجواري على نحو لا يدانيه جو من الشبهة والشكوك والاضطراب مما دفع المرأة إلى التخلي عن مكانها في المجتمع ، فلما أرادت نهوض قبل أوائل هذا القرن كانت « قيم الإسلام » هي الأساس الذي اعتمدت عليه في هذه النهضة ، فرأته الطهطاوي قبل قس أمين بأكثر من ستين عاماً ، اعتمد دعوته إلى تحرير المرأة ، ليس على مفاهيم الغرب وإنما على مفاهيم الإسلام أساساً فلم يكن ما رآه في الغرب دافعاً له على الاقتباس بقدر ما كان داعياً إلى إعادة النظر في مفهوم الإسلام للمرأة والعودة إليه بعد الانفصال عنه ، وكذلك فعل « قاسم أمين » الذي ضمن كتابه نصوصاً كثيرة من القرآن الكريم والسنة قبل أن الشيخ « محمد عبده » هو الذي اختارها وأضافها . والواقع أن المسلمة بعامة والعربية بخاصة لا تستمد قواعدها نهضتها من فكر الغرب وإنما تستمدّها من انبعاث قيمها الأساسية التي « القرآن » رسمها ودعا إليها « الإسلام » بفتح الطريق أمام المرأة على أساس من مقومات الكرامة والخلق وبناء شخصية المرأة على أساس الإيمان والتربية دون أن يضطرب بها الطريق ، فلبست المرأة في مفهوم الإسلام أداة ولا متعة ، وإذا كان الغرب قد أخرجها من أجل ظروفه الاقتصادية أو الحرب فإن اليقظة العربية الإسلامية اليوم ترى أن بناء شخصيتها على مفهوم الدين والخلق هاملاً هاماً في قدرتها على مواجهة الحياة العاملة بنجاح وعق . إن المرأة المسلمة حين اندفعت طوال تاريخ الإسلام في مجال العلم والعمل كانت تحصل منها قيم الإسلام نفسها ولم تنخل عنها ، وبذلك استطاعت أن ترسم صورته من أشرف الصور لدور المرأة في الحياة الإنسانية والمرأة المسلمة تستطيع أن تجد مكاناً عظيماً ضخماً إيجابياً في نهضة العصر ما استمكنت بتلك القيم ، ووازنت بين حاجة بناء الأمرة وحاجة العمل لنفسه ، ودورها الطبيعي الفعال في تكوين كيان الأمة .

(٤٣)

« عوامل التأخر ودوافع التقدم »

نخص كثير من عوامل التحلل والضعف في عالم الإسلام في زمان قفاط : (١) الخلافات السياسية والمصبية وتنازع الرئاسة والجاه مع التحذير الشديد الذى جاء به الإسلام فى ذلك والتزهيد فى الإمارة ولقت النظر إلى هذه الناحية التى هى سوس الأمم ومحنة الشعوب والدول . (٢) الخلافات الدينية والمذهبية والانصراف عن روح الدين كمقائد وأعمال إلى ألقاف ومصطلحات ميتة لا روح فيها ، ولا حياة ، وإهمال كتاب الله وسنة رسوله والجمود والتمسب بالآراء والأقوال والولع بالجدل والمناظرات والمراء . (٣) الانقياس فى ألوان الثرف والتعجم والإقبال على المنعة والشبهات ، حتى أثر من حكم المسلمين فى كثير من المعصور ما لم يؤثر عن غيرهم . (٤) انتقال السلطة والرئاسة إلى غير العرب من الفرس نارة والديلم تارة والماليك والأترك وغيرهم ، من لم يتذوقوا طعم الإسلام الصحيح ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن الكريم لصعوبة إدراكهم لمعانيه .

(٥) إهمال العلوم العلمية والمعارف السكونية وصرف الأوقات وتصلب الجهد فى فلسفات نظرية عميقة وهولم خيالية سقيمة ، مع أن الإسلام يحثهم على النظر فى السكون وإكتهاء أسرار الخلق .

(٦) الغرور بسلاطنتهم والانخداع بقوتهم وإهمال النظر فى التطور الاجتماعى للأمم من غيرهم حتى سبقتهم فى الاستعداد والأهبة وأخذتهم على غره ، وقد أمرهم القرآن باليقظة وحذرهم مغبة الغفلة .

(٧) الانخداع بدسائس التملق من خصومهم والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم والانقطاع فى تقليدهم مما يضر ولا ينفع مع النهى الشديد من التشبه بهم والأمر الصريح بمخالفتهم والحفاظة على مقومات الأمة الإسلامية والتحذير من مغبة هذا التقليد .

ويرى كثيرون أن أبرز مرحلة الضعف هى غلبة « عقيدة الجبرية » التى نشرتها الطارق الصوفية وقد حاول السكثيرون تناول عقيدة القضاء والقدر الإسلامية وتصويرها على أنها تعبير عن « حتمية » لا مناص منها ولا يمكن التحرر من أحداثها ، ولذا فلا محل لبذل المحاولات للخروج من أبه نكبة تنزل بنا ، يضاف إلى هذا انحطاط المدارك وميلها إلى تصديق الخرافات والأباطيل وقعدان المعية البرهان وتحكيم العقل وغلبة مفاهيم العاطفة والفيثيات . ويرى « أثيان دينية » أن السبب الأول فى تدهور المسلمين هو الخروج من مبادئ السماوة التامة الشاملة التى بذل الرسول كل جهد خلال سنى حياته فى فرضها والتى كانت سبب انتصاراته وانتصارات الخلفاء الأول . والسبب الثانى هو التخلي عن إحدى للميزات الأساسية للإسلام وهى التوافق التام بين العقيدة وبين ضرورات للنفاق . فقد

أخذت حاسة الروح الإسلامية العلمية شيئاً فشيئاً ، مكتفية بالنتائج الباهرة التي حصل عليها المسلمون . ويرى شكيب أرسلان أن أهم هوامل تأخر المسلمين هي :

(١) ترك المسلمين هزائم القرآن التي قام بها مسلمهم . (٢) إغراض علماء المسلمين عن العلوم الطبيعية وقدمهم أعظم قوة مادية . (٣) الإكتفاء من الرين بالرسوم الطاهرة والاهو بالقشور عن اللباب (٤) اليأس من رحمة الله وفقدان الثقة في النفس . (٥) استخذاء المسلمين أمام الأوربيين وفقد أكرهم هزة الإسلام القومية . (٦) موطاة المسلمين للأوربيين على إخوانهم وخدمتهم إياهم . (٧) فقد روح التضحية التي سادت بها الأمم الأوربية . (٨) عدم اقتداء المسلمين بالأوربيين في تأليف الجمعيات والشركات . (٩) فساد الأخلاق عامة وأخلاق الأمراء خاصة . (١٠) فساد العلماء الذين هم القوة المراقبة للحكومات . (١١) تفوق الأوربيين في العدد وطمعهم في مجاورتهم لجميع بلاد الإسلام وثباتهم وصبرهم وصبرهم على خطط مرسومة يتبعونها منذ مئات السنين . (١٢) تخييم الجهل على الأمم الإسلامية . (١٣) عدم تجديد برامج التعليم واستيلاء الجلود على الفقهاء . (١٤) كثرة الكلام عن الآخرة مع أن الإسلام دين دنيا وآخرة . (١٥) الدهايات الاستعمارية التبشيرية .

ويلخص عبد الرحمن الكواكبي ضعف المسلمين في عدة هوامل : (١) العقائد التي اقترنت على الإسلام وفي مقدمتها العقيدة الجبرية . (٢) الجهل . (٣) تحول الحكومات الإسلامية من نيابية ديمقراطية إلى ملكية مطلقة . (٤) جبل أمراء المسلمين . (٥) حرمانهم من الحرية وفقدان الحرية من أسباب موت النفوس وضعف الهمم وتعطيل الشرائع وإخلال القوانين . (٦) إهمال الدين ، لأن يدهو لعدم القل لغير الله . (٧) انحلال الرابطة الدينية ، والإسلام مبني على أن لا ولاء فيه لغير المسلمين . (٨) تشويش الدين والدنيا على العامة بسبب العلماء المدلسين . (٩) الانحلال الذي أصاب السلطة القانونية لسبب فسادها أو بسبب تغلب الأهواء الشخصية عليها . (١٠) اقترع علماء المسلمين في مجنهم ودراساتهم على العلوم الدينية وعلى قليل من العلوم الرياضية وأهملوا ما هذا ذلك من العلوم الرياضية والطبيعية حتى جهلوا وصارت نسباً منسياً . (١١) شعور المسلمين باليأس وهدم القدرة على مبالاة أهل الغرب . (١٢) عدم وجود تربية قومية تنشئ شعباً له رأى هام لا ينقسم على نفسه ولا يتخذ نل أمام هده . (١٣) الفقر مصدر كل شر وهيب فنه جهلنا وفساد أخلاقنا وانقسامنا . (١٤) عدم وجود الجمعيات المختلفة من سياسية وغيرها . (١٥) تكبر الكبراء وميلهم إلى العلماء المتحاملين الذين يتواضعون أمامهم ويتذللون لهم . (١٦) الدين بوضعه الحالي ، فقد نشأ الدين من أصل صحيح يسير على معتنقيه ثم طرأ عليه التأويل ودخل فيه التحريف والزادات .

لماذا تأخر المسلمون

هذا هو السؤال الذي ألجأ إلى المفكرين والباحثين خلال الأوهام المائة الأخيرة وحاول الكثيرون الإجابة عليه كل من وجهة نظره ، ومن الزاوية التي يراها العامل الأهم من عوامل الضعف والتأخر ، والحق أن عوامل التأخر طبيعية ولا بد من وقوعها اعترافاً بسنن الكون وطبيعته التواميس ، ودورة التاريخ ، والأمم شأنها شأن الكائنات الحية تنشأ وتنمو وتقوى وتضعف وتزوي ثم تعود مرة أخرى إلى الحياة . وقد جاءت مرحلة الضعف في تاريخ الإسلام بعد دورة ضخمة طويلة المدى استغرقت أكثر من عشرة قرون ، ثم لم تلبث أن انحصرت بعد قرن واحد حتى لم يكن أن يقال أن عالم الإسلام لم يمر إلا بمرحلة قصيرة قبل أن يقتب من جديد ويأخذ في عوامل اليقظة والقوة ، أما أنه لم يصل بعد إلى مكانه الطبيعي مرة أخرى حتى الآن فإنما يرجع ذلك إلى عوامل جديدة ضاغطة مازالت تحول بينه وبين استعادة مكانته ، هذه العوامل تتمثل في القوى الأجنبية التي استطاعت خلال فترة الضعف أن تصع قيوداً تغلقت في المجتمع الإسلامي والفكر الإسلامي إلى حد النخاع وبات التحرر منها أمراً بالغ العسر ، ومن هنا يمكن القول أن « مرحلة اليقظة الإسلامية » لم تسكن في الحق إلا محاولة لفك هذه الأغلال وتطهير هذه القيود ، ومن هنا طال الصراع بين عوامل التأخر ودوافع التقدم ، وتأخر عالم الإسلام طويلاً عن الأخذ بمعدراته التي تمكنه من التماس مكانه الطبيعي .

وعندنا إن أبرز عوامل التخلف إنما جاء من الانفصال عن القيم الأساسية للإسلام ، هذه القيم التي تدعو إلى القوة والايمن والوحدة ، فحين تخلف عالم الإسلام عن هذه القيم حل بالضعف والتفكك والتخلف عن ركب الحضارة ، واستطاعت القوة الأخرى المواجهة أن تسكب الجولة وأن تسيطر على مقدرات العلم التجريبي التي حققها الإسلام ، وأن تدير بها إلى مبادئ الكشف والاختراع ، وكانت القوة العسكرية والحربية والبحرية هي العامل الأول في انتصار الغرب على المسلمين والسيطرة على عالم الإسلام واحتلاله ونطويقه .

ولقد ظلت الحرب سجالات بين أوروبا وعالم الإسلام منذ بزغ ضوء الإسلام ، وكان عالم الإسلام في موقف المقاومة الصمود بعد مرحلة التوسع الأولى ، وقد ظلت الموجات الإسلامية البدوية المتوالية ممثلة في السلاجقة والبربر والمماليك . ثم في الأتراك العثمانيين تقاوم الغزو الغربي حتى ضعفت قوة العثمانيين في القرن الحادي عشر الهجري (١٧ م) واستطاعت أوروبا أن تزحف لتطوق عالم الإسلام

ثم لا تلبث في القرن الثالث عشر (١٩ م) أن تطبق عليه في حركة احتلال ضخمة . والحق أن عالم الإسلام في خلال تاريخه الطويل كان يمر دوماً بمثل هذه الأزمات : أزمات التخلف والضعف والاضطراب ، نتيجة انفصاله عن قيم الإسلام الأساسية ، ولكنه كان لا يلبث أن يعود إلى القوة والوعدة ويجدد كيانه ، وأنه كان قيناً بأن يفعل ذلك في هذه الأزمة لولا أن القوة المواجهة كانت قد بلغت قدراً من القوة ، واستطاعت أن تستثمر نتائج المنهج العلمي الإسلامي في أسلحة جديدة لمواجهة الإسلام والتوسع الإسلامي بعد مرحلة الدولة العثمانية التي سيطرت على أوروبا خمسة قرون . ومن هنا لم تكن « أزمة التخلف » قضية منفصلة عن القوى الغازية المضافعة التي كانت تحمل معها مفهوماً جديداً هو : القضاء على مصادر القوة في عالم الإسلام بحيث لا يستعظم — إلى أمد ما — التحكم من السيطرة على بقائه خيفة الزحف على أوروبا مرة أخرى ، ولم تكن هوامل القوة هذه إلا مثلة في الإسلام نفسه ، ومن هنا كانت الحرب : حرب فكر وتقريب وتبشير وشعبوية تنير هواصل الشبهات والشكوك والانتقاص من الإسلام واللغة العربية والتاريخ والتراث على نحو منظم ومن خلال أجهزة قادرة ميطرة يملكها الاستعمار في مقدمتها المدرسة والصحافة والكتاب ، هذا في اعتقادي هو العامل الأساسي في استطلاة مرحلة التخلف ، وعجز المسلمين عن استرداد القوة القادرة على أن تقيمهم مرة أخرى على طريق التقدم ، واقد حاول الغربيون أن يفسدوا اسباب تأخر المسلمين إلى الإسلام نفسه ، وإلى مبادئه في محاولة للقضاء على مقاوماته وتغريب عالم الإسلام في مفهوم الفكر الغربي القائم على جماع الوثنية والمادية ، وجرى على هذا المنهج كثيرون من أتباعهم ، وخفوا أن المسلمين استطاعوا بالإسلام بناء حضارة باذخة ، وحققوا نهجاً مدوياً في مجل العلم التجريبي والقانون والفلسفة ، وكانت هذه الحصيلة الضخمة هي حجر الأساس في بناء الحضارة الغربية الحديثة ، وأن الإسلام هو الذي أمد الفكر الإنساني بأصول للمنهج العلمي والاتجاه نحو الكشف بتحريره أتباعه بالنظر اليه السكون واكتناه أسراره ، وتحرير نفوسهم من أغلال الوثنية وإطلاقها بالتوحيد ، وبناء النهضة على أساس الإيمان والخلق وصياغة مفهوم الإنسان على نحو يجعله سيداً لا يكون تحت حكم الله ، قد أتاحت له كل طيبات الأرض ودقائقها خالصة له .

ولاشك أن دوافع التقدم هي التحرر من هوامل التأخر

وبعد فإن هناك قضيتان كبيرتان : من أبرز قضايا تاريخ الإسلام ما عرضنا في هذه الدراسة بالاجمال في حاجة إلى تفصيل واسع ودراسة عميقة ، هما (أولاً) علاقة الإسلام بعالم الغرب وهي علاقة بدأت منذ بزوع فجر الإسلام وعلى حدود الدولة البيزنطية وقد استمرت هذه العلاقة في مد وجزر قروناً متصلة حتى

حسمها السلطان محمد الفاتح بدخول القسطنطينية ثم دخول العثمانيين أوروبا وإقناعهم فيها بضمة قرون
ثم انحصارهم عنها ، (الثانية) علاقة الدولة العثمانية كبرى دول الاسلام في القرون الخمسة الأخيرة
مع العرب منذ انماز العرب إلى حناج الدولة العثمانية في الشام ومصر والمغرب من رضا وقبول
وفي مواجهة أخطار الحروب الصليبية التي أخذت تتجدد مرة أخرى بعد انتهائها .

هاتان القضيتان نقناولهما بالتفصيل في رسالتين تاليتين في هذا الجلد .

(٤٤)

فلسفة تاريخ الاسلام

مقومات الاسلام الأساسية هي مصدر القوة في حركة تاريخه وهي مصدر الضعف إذا تخلف
الاجتمع الاسلامي عنها . وتاريخ الاسلام منذ ظهوره إلى اليوم مؤثر في التاريخ الانساني متفاعل
معه ، لم يتوقف أثره . وحركة الاسلام في التاريخ هي حركة نحو الحرية والتوحيد والعدل :

وتتمثل أبرز نواويس تاريخ الاسلام وقوانينه في قدرته على مواجهة التحدي ، والتجديد من الداخل
ومرونته الفائقة في تصحيح مفاهيمه وتجديد فكره . فهو مفتوح على الثقافات والحضارات ، قادر
على الأخذ والعطاء والحركة في مرونة وحيوية دون أن يفقد مقوماته الأصلية .

(أولاً) : أمثل فلسفة التاريخ الاسلامي في هذا النحو : مبدأ تاريخ الاسلام «جماحة» لها منهج تستمد
من « الاسلام » وقد سارت به من قلب الجزيرة العربية حتى بلغت به أطراف العالمين تتدفق في
مجرى ممتد (قوامه منهج واحداث وقادة) ظل يعمق وينسجم . هذه الجماحة «كوت المجتمع الاسلامي»
وبنت « الحضارة الاسلامية » وفق مقومات فكر أساسية ، قوام فكرها دعوة إنسانية للعالمين :
إلى الحرية والعدل والحق والمساواة . في طريق هذه الحركة إلى غايتها ، واجبت مرتين (أولاً)
معارضات قوية ، وقوى مصادمة تحول بينها وبين طريقها للرسوم . (ثانياً) : هذا المجرى يعنيه بين
الحين والحين ركام يعوقه ويسد مجراه ، وتلك سنة الحياة : قوة من بعد ضعف وضعف من بعد قوة .
« ومنهج » هذه الجماحة هو منطلقها ، فإذا تخلفت عنه بلغت موقف الضعف والتخلف ، وانتصر عليها
معارضها ، فإذا عادت إلى مقوماتها واستمسكت بها انتصرت بعد هزيمة ، وقويت بعد ضعف ،

وصفحات التاريخ الإسلامى خلال أربعة عشر قرناً تجري على هذا النحو : تتدفق فى مجرى ممتد قوامه « منهج : وأحداث : وقادة » وفق ناموس واضح لا يتخلف . ولقد كانت القيم الأساسية للإسلام هى مصدر القوة واليقظة ، فإذا انحرف المجتمع عنها بدأت مرحلة الضعف والتخلف فإذا أهدأ الأمة قائد أو مفكر إلى هذه القيم برزت نهضة جديدة وتجدد شباب التاريخ . (ثانياً) : هذه رؤيا جديدة للإسلام من خلال التاريخ الإنسانى ، يتمثل خلالها « تاريخ الإسلام » فى صورة مجرى طويل ممتد بدأ منبجعه هند بحيرة وأسمه هى الجزيرة العربية ، ثم مد فروعه أحدها إلى المشرق حتى بلغ الصين والآخر إلى المغرب حتى بلغ الأندلس والثالث إلى الجنوب حتى بلغ قلب أفريقيا . ومازال هذا المجرى يعمق ويقسح حتى شمل القارتين « آسيا وأفريقيا » وأدخل فى أوروبا من طرفها فبلغ نهر الدوار من ناحية الغرب وأسوار فينا من ناحية الشرق ثم هو منذ بزوغ فجره إلى اليوم ، وهو بالغ الأثر فى حركة التاريخ وفى تطور الإنسانية ، غير منفصل عن العالم فى مسيره ومصيره ، تأثيراً وتأثراً .

والإسلام فى مفهومه الصحيح « منهج حياة » ، وإطار واسع لأيدلوجية شاملة متكاملة يرتبط فيها الإنسان بالله وبالسكون والحياة . ليس الإسلام فى حركة التاريخ هو الدولة الإسلامية أو الحضارة الإسلامية أو الأمة العربية ، إلا بقدر ما يتصل ذلك بالإسلام نفسه . والإسلام يبدو من خلال تاريخه فى صورة « كائن حى » له جناحان : فكر وحضارة متجددان ، يمر بمراحل القوة والضعف ، حركته الدائبة وخطوه للتصل الدافع إلى الأمام ، شأن السكان الحى ، كلما تقاض طرف منه استرد قوته فى طرف آخر ، وكلما أصابت أحد أجزائه هزيمة أتيج له الانتصار والامتداد فى الجانب الآخر أبرز ظواهره ، ظاهرة التجدد والتغيير وتصحيح المفاهيم « من خلال إطاره الجامع » يتصل ذلك فى كلا جناحيه : جناح « الفكر » بتجدد بظهور أعلام الفكر وقادة الرأى وجناح « الحضارة » بتعدد بظهور بناء الدول وصناع الأحداث : « المفكرون » يبدون الجوانب العقلية ويبدون صياغة للنهج ، ويدحضون شبهات الانحراف « والقادة » يبنون الجهة الداخلية ويردون القوى الخارجية وحركة التاريخ الإسلامى تجمع دوماً بين الخط المستقيم والدائرة فهو من خلال الخط المستقيم يتجه نحو التقدم إلى الأمام ، ومن خلال الدائرة يتحرك ولا يقف ، وأحياناً تبدو حركة التاريخ أمامية ورائية فهى رجعة إلى الوراء قليلاً من أجل التقدم إلى الأمام : لم يجدد « الإسلام » أمام حركة « التاريخ » خلال المصور أو تطور الحضارات وللدنيات ولم يتوقف عن مدها فى إيجابية وقدرة على السير بخطوة التاريخ نفسها بل ربما سبقها خطوات .

ومن أبرز سنن التاريخ الإسلامى : القدرة على الخروج من دائرة الضعف والتخلف بالتماس

جوهر القيم الأساسية . فكما ضعفت حياة « المجتمع » وانحرفت ، ظهرت « قوة شابة دافعة » تحمل
 القواء وكلها تحول منهج « الفكر » واضطرب ظهر مصلح مجدد يرد إلى الجادة ، وهكذا طاش تاريخ
 الاسلام بين « التحدى » ورد الفعل ، تنوره الأحداث قوة وضغاً ، ولسكنها لا تقضى عليه ، تهاجمه
 القوى من الخارج فتؤثر فيه حثيثا ولكن لا يلبث أن يتأصك في مواجهتها ، فيتنصر عليها ويذيبها في
 بوتفته . وتصارعه القوى من الداخل فتبرز مقوماته مجددة مرة أخرى وقادرة على إعادة صياغة
 الحياة . والاسلام في التاريخ حركة أوسع من الأمة العربية أو الدولة الاسلامية أو الحضارة الاسلامية ،
 وأعمق من الحدود التي تربطه بالسياسة أو تنصره على الحضارة والثقافة ، أو تقف به عند قيام الدول
 وسقوطها أو الفتوحات والحروب ، وإنما تتمثل فيه كل هذه القطاعات وتشابك . فالاسلام في الحق
 هو حركة التاريخ نحو الحرية ، تحرير الانسان من ريقه الظلم ، وإقرار حقوق الأفراد والجماعات
 وتحريرها من الاستعباد ، وبذلك فهو انطلاقة إنسانية بعيدة المدى في كل الأمم والشعوب التي اتصلت
 به ، سواء من دانت له أو أصاغت فكرته ومقوماته . لقد كان لبزوغه في محيط الأمة العربية معنى
 واضح الدلالة ، هو اصطفاء هذه الأمة لحل رسالته ، ومن ثم فلا سبيل لفصل تاريخ العرب عن تاريخ
 الاسلام منذ فجر الاسلام إلى اليوم ، فنذ بزغ الاسلام ارتبط بتاريخ العرب أوثق رباط ، لقد ظهر في
 الأمة العربية أولا وفي حياة الرسول دانت الجزيرة العربية له ، فكانت البعيرة التي امتدت منها
 روافده وفروعه ، كما انبثقت منها للوجات للتوالي المختلفة التي تحركت شرقا وغربا وشمالا ، لحملت
 الأمة العربية إلى العالم أجمع وكانت اللغة العربية أداة فكره وثقافته وحضارته . فالفكر الذي كونه
 الأمة العربية من خلال جوهر الاسلام ، كان حصيلة مشتركة للمسلمين والعرب جميعا بحيث لا يمكن
 أن يوصف بأنه فكر عربي محض أو فكر اسلامي خالص وكذلك الحضارة ، بل هو فكر عربي
 اسلامي وحضارة عربية اسلامية شارك فيها الجميع واصبحت فيها مختلف الثقافات الانسانية :
 فارسية ومصرية ويونانية ورومانية وهندية ، تبلورت جميعا في إطار الاسلام وفق مفهومه ومضيقه ،
 شارك في هذه المرحلة العرب وغير العرب ، شاركوا في الحضارة والفكر والحكم . وقد رسم
 الاسلام مفهوم الوحدة بين معنويه والمرتبطتين به على أساس الفكر لا على أساس الجنس ، ووسع
 دائرة الأخاء الانساني وأسقط المصيبة والتفرقة العنصرية ، وجعل أساس التمييز والتفوق والفاضل
 مستمدا من العمل لا من الفرق ، ومن الشخصية لا من الوراثية .

٣ - تكامل مفهوم التاريخ الإسلامى

وقد التفت كثير من كتاب الغرب إلى مفهوم «تكامل» التاريخ الإسلامى واستقلالية منطقته : يقول ولغرد كائنول سميت « إن للمسلم بحس إحساساً جاداً بالتاريخ » على نحو يختلف عن فهم البوذى والمسيحى والماركى . « فالرجل الهندى لا يابى بالتاريخ ولا بحس بوجوده ، لأن التاريخ هو ما يسجله البشر من أعمال فى عالم المادة وعالم الحس ، والهندى مشغول أبداً بعالم الروح ، عالم اللانهاية ، ومن ثم فكل شيء من عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ولا وزن ، والتاريخ بالنسبة إليه شيء ساقط من الحساب ، أما للمسيحى فيعيش بشخصية مزدوجة ، أو فى عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط . (١) للثل الأهل غير قابل للتطبيق . (٢) والواقع البشرى للطبق فى واقع الأرض منقطع عن للثل الأهل المنشود ، هذان الخطان يسيران فى نفس متجاورين أو متباهدين ولكن على غير اتصال . « التاريخ فى نظره هو نقط ضعف البشر وهبوطه وانحرافه » . أما الماركى فهو مؤمن بمحتمية التاريخ بمعنى أن كل خطوة تؤدى إلى الخطوة التالية بطريقة حتمية ، ولكن لا يؤمن بهذا العالم إلا بالذهب الماركى وحده ، وكل شيء هباء باطل ، والماركى يتبع مجلة التاريخ ولكن لا يوجهها ، ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها . « أما المسلم فإنه بحس إحساساً جاداً بالتاريخ . إنه يؤمن بتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، يؤمن بأن الله قد وضع نظاماً عملياً واقعياً يسير البشر فى الأرض على مقتضاه ويحاولون دائماً أن يصوغوا واقع الأرض فى إطاره ، ومن ثم فهو دائماً يعيش كل عمل فردى أو جماعى ، وكل شعور فردى أو جماعى ، بمقدار قربه أو بعده من ذلك النظام الذى وضعه الله والذى ينبغي تحقيقه فى واقع الأرض لأنه قابل لتحقيق . « والتاريخ فى نظر المسلم سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله فى الأرض ، ومن ثم فكل عمل وكل شعور ، فردياً كان أو جماعياً ذو أهمية بالغة ، لأن الحاضر هو نتيجة الماضى ، والمستقبل متوقف على الحاضر ، وما من دين استطاع أن يوحى إلى المتدين به شعوراً بالمرّة كالشعور الذى يخاص المسلم من غير تكلف ولا اصطناع وأن اعتزاز المسلم بدينه يعم المسلمين على اختلاف القومية واللغة ، وكون الإنسان مسلماً باهتاً من بواهب الحمد تسمعه من جميع المسلمين ، وأن القربى لا يفهم الإسلام حق الفهم إلا إذا أدرك أنه أسلوب حياة تصطبغ به معيشة المسلم ظاهراً وباطناً وليس مجرد أفسكار أو عقائد يناقشها بفسكره . ويقول العلامة تريتون فى كتابه : الإسلام : عقيدته وعبادته : إذا صح فى القول أن التفسير المادى للتاريخ يمكن أن يكون صالحاً فى تحليل بعض الظواهر التاريخية الكبرى وبيان أسباب قيام الدول ومقوطلها ، فإن هذا التفسير المادى يفشل فشلاً ذريعاً حين يرغب فى أن يعلل وحدة العرب وغلبنهم على غيرهم وقيام حضارتهم واتساع

رقعتهم وثبات أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا إلى العلة الصحيحة لهذه الظاهرة الغريبة ، فأروا أنها تقع في هذا الشرع الجديد إلا وهو « الإسلام » .

ويقول البيان وايد غراى في كتابه « تفسيرات التاريخ » : إن وجهة نظر المسلمين لتاريخ نظارة بنائه ، فهم يرون أن البشرية إذا اهتمت تعاليم الوحي القرآنى فإن إرادتها حينذاك تنطبق وإرادة الله ، ولا يعود يوجد من يعصى أوامرهم ، ويعم الإخاء بين البشر ، ومن صفات المؤمن أنه صابر ويعلم أنه لا مرد لإرادة الله . ويشاهد بوجه هام تيارين يتنازهان السيطرة على أفكار فلاسفة التاريخ المسلمين : المفهوم الحركى والمفهوم القدرى ، وكلها تظهر بوضوح في تفسير تقلبات القوى الاجتماعية ، وعلى العكس من ذلك كان الفلاسفة الهندود قد قطعوا كل صلتههم بكل ما هو وفقى وفورى وقدسوا تعاليم انهمازية وانعزالية ، وبالنسبة لبوذية والهندوليس التاريخ إلا وهما . وإذا كان مفهوم المسلم لمنطق التاريخ يختلف عن مفهوم غيره ، فإن وجهة التاريخ الإسلامى قد سارت في طريق يختلف عن وجهة التاريخ الأوروبى . من حيث حركته انحصبة السريعة في التوسع ومن حيث أثره في الأمم والشعوب التي اتصل بها ويصور هذا المعنى هاملتون جب في عبارة دقيقة ، حين يقول أن التاريخ الإسلامى سار في وجهه مما كسبه لتاريخ الأوروبى على نحو يشير الاستغراب ، كلاهما قام على إقراض الإمبراطورية الرومانية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولكن بينهما فرقاً أصيلاً ، فبينما خرجت أوروبا على نحو متدرج لا شعورى ، وبعد عدة قرون من الفوضى الناجمة عن غزوات البرابرة ، إنشأ الإسلام ابتداءً مفاجئاً في بلاد العرب وأقام بسرعة تسكاد يمز على التصديق في أقل من قرن من الزمان . إمبراطورية في غربى آسيا وشواطئ البحر الأبيض المتوسط الجنوبية والغربية ، وأقام نظاماً سياسياً شمل جميع المناطق المتسمة ومن ضمنها فارس ، وواجه مهمة أخرى هي إدخال هذه المناطق في نظام ثقافى دينى مشترك قائم على مفهومه العالمى الشامل ، فكان عليه من أجل تحقيق ذلك أن يقاوم تأثير المفهوم العالمى السابق (المسيحية) في غربى آسيا والنصف الجنوبى من حوض البحر المتوسط ويضمه إلى أعين حد ممكن ، ويعلمم الزرادشتية والديانات التنزية في فارس وبين النهرين وأن يقيم حاجزاً في وجه انتشار البوذية في أواسط آسيا .

٤ — قانون التاريخ الإسلامى مستمد من طابعه

ولقد اُتسم تاريخ الإسلام بسبب جملة له طابعه ومفهومه :

ذلك أنه لما كان الإسلام هو دين وفكر ومجتمع وحضارة ، فإن « التاريخ السياسى » فى تاريخ الإسلام هو أقل هذه الجوانب أهمية وعظمة ، حيث تبدو الجوانب الضخمة الخافضة بالأبعاد فى تاريخ الإسلام الفكرى والعلمى والمقى ، وفى مجال الدراسات العقلية والفقهية والفلسفية الاجتماعية ، وأبرز جوانب التاريخ الإسلامى تتمثل فى القادة والأعلام وللفكرين الذين بنوا القاعدة العريضة للفكر الإسلامى مستمدة من « القرآن » ، أولئك للصلحون والمجددون ، وحلة لواء اليقظة وتصحيح المفاهيم الذين حفل بهم تاريخ الإسلام خلال مراحل وأدواره المختلفة . فى هذا المجال نجد طبقات الأطباء والحكام والنحاة والرواة والأدباء ، وطبقات الأدباء والفلاسفة والمؤرخين الاجتماعيين وتاريخ أعيان كل عصر ، فليس تاريخ الإسلام إذن تاريخ سياسى لحسب ، وليس التاريخ السياسى إلا جناح من أجنحته ، بل وبما أقلها خصوصية وعمقها وأثرا فى حركة التاريخ ونموه وتجدده ، ولكنه تاريخ شامل قوامه تاريخ فكر متحرك فى مجالات الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق والتربية . ومن هنا تسقط تلك الشبهة التى يرددها دعاة التغريب من اقتصار تاريخ الإسلام على حياة الخلفاء والملوك ، بل تتناول مختلف مظاهر حياة المجتمع والحضارة ، وقد حفلت كتب الأنساب والطبقات والوفيات وموسوعات الأصفهاني والحصرى والجاحظ وأبى حيان التوحيدي بإضافة ، بأخبار المجتمع بسائر طبقاته ومختلف قطاعاته وفى مفهومى أن التاريخ فى جوهره ليس سرد وقائع وحروب ودول تذهب ، وأحداث سياسية بل هو تطور شامل متصل وحركة اجتماعية يهدفها مفهوم وعقيدة فى مختلف ميادين الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية .

وهكذا أن دراسة تاريخ الإسلام فى هذه المرحلة من حياتنا ضرورة لا سبيل إلى تجاوزها ، لفهم الأحداث وتطور المجتمع ، وللمعرفة مكاننا فى العالم الإسلامى والأمة العربية من الحضارة المصرية ، فإن نظرنا إلى الأحداث لا تصدق إلا إذا قامت فى ظل مفهوم شامل وفى إطار تاريخ الإسلام نفسه ، كما أن اتصالنا بالغرب اليوم يجب أن يقوم على مفهوم مرحلة ، هى رد فعل لمرحلة سبقتها ، بحسبان أن هذه الحضارة المصرية الغربية ليست منفصلة عن عالم الإسلام وإنما قامت قواعدها على المنهج التجريبي الإسلامى وعلى بناء صافة علماء العرب وللسلمين ، فنحن حين نتصل بها اليوم لا يكون غرباء من جنودها ، فهى ملك البشرية كلها التى صاقتها وشاركت فى تكوين جوانبها المختلفة ، لقد

قدم الفكر العربي الاسلامى لهذه الحضارة علومه وفلسفاته ومعامله وجامعاته وبنى قاعدتها العريضة في
الاندلس فهو متصل بها غير منفصل عنها حين يقتبسها اليوم .

وأبرز ظواهر تاريخ الاسلام : تكامله وشموله وترابطه ، والحق أن تاريخ الاسلام ليس دوائر منفصلة
ولكنه نسيج كامل ، فالحدث السياسى لا يفهم إلا بإدراك تفاعله مع الأوضاع الثقافية والاقتصادية
 والاجتماعية ، أنها خيوط واحدة تكون « نسيج التاريخ » ، كل خيط له قيمته وأثره ، للتمثل في
مدى النحاه مع سواه . والتاريخ الاسلامى تاريخ حضارة مكتملة الدائرة ، وليس تاريخ شعب أو قومية
 معينة ، والقوميات كلها حلقات يطبعها طابع موحد ، وهو تاريخ مضمون إنسانى قوامه الحرية والعدل
 والتوحيد والمساواة ، وتاريخ العرب كافة لا ينفصل عن تاريخ الإسلام كفكر كلى شامل ، هذا
 الشمول يضم مختلف أوجه النشاط الإنسانى : الاقتصاد والدين والعلم والفلسفة والاجتماع .
ومن هنا فإن نظرة الباحث الغربى قد تقصر ولا تصل إلى أعماق هذه المفاهيم ، نتيجة تأثره بمفهومه
 الغربى الخالص للتاريخ ، وهو غير مفهوم المسلمين والعرب للتاريخ ، والباحث الغربى بعيد بفطرته
 ومفاهيمه عن روح الفكر الاسلامى وقيمه ومناهجه التى قامت عليها أعمدة التاريخ الإسلامى ،
 ومن حيث أنه يحكم فيه الخاصة مرتبط بمفاهيم قوامها تراث يونانى ورومانى مسيحي غربى ، أضيفت
 إليها فلسفات مادية موهلة في الانفصال عن الروح ، بل خاصة اللاديان والتوحيد والقيميّات الخاصة
 حادة ، وهى نظرات تقوم من خلال فكر « يؤمن بتجزئة الكون والطبيعة ، والفصل بين العلم والدين »
 أما مفهوم الفكر الدين الإسلامى الذى قامت عليه الحضارة الإسلامية ، وسار عليه مسار التاريخ
 الإسلامى فقام على أساس التوحيد ووحدة الكون وانسجام قوى الطبيعة واتساقها ، وهو النظام
 الوحيد الذى يوفق هنا الانسجام لأنه يجمع بين الروح والجسد فى نظام الإنسان ، والعبادة والعمل فى
 نظام الحياة ، والدنيا والآخرة فى نظام الدين والسماء والأرض فى نظام الكون . « أحمد نصيف الجنابى
 مجلة الأعلام ١٩٦٦ » .

ومن هنا يجىء الخلاف فى النظرة ، نتيجة للخلاف الجندى بين للقيم الأساسية للفكر الغربى
 والفكر الإسلامى ، وهو خلاف بعيد المدى . ويبدو من غير الطبيعى دراسة تاريخ الإسلام أو
 الحضارة الإسلامية أو المجتمع الإسلامى منفصلاً عن الإسلام ، بحسبان أنها جميعاً تقوم فى ظل مفاهيمه
 وقيمه . والتاريخ فى الحق هو حركة الزمن ، من خلال المجتمع ، ولقد كان التاريخ الإسلامى منفصلاً
 بالجرى الرئيسى لتاريخ الإنسان مؤثر فيه متأثر به ، وكانت تحدياته دوماً هى تحديات الشهادة

والقوى الخارجية وتحريف النص ، وتقوم التاريخ الإسلامى حول فكرة ودعوة وثقافة ، على أساس فكره لمطاطبها المميز ، الذى تلتقى فيه جميع مظاهر الحضارة والمجتمع بحسبان أن « التوحيد » هو الفكرة العامة التى تحتضن جميع مظاهر الفكر الإسلامى .

« الفكر » هو أساس التاريخ الإسلامى ، والعامل للوحد بين المسلمين ، وأساس كيان المجتمع الإسلامى الذى ما زال قائماً ومستمراً ، والذى أخذ هديداً من صور الوحديات السياسية الكبرى: كالخلافة أو الدول الكبرى أو الدول القومية ، هذه التشكيلات السياسية فى مختلف صورها ينظمها روح واحد وفكر واحد وثقافة موحدة الجذور ، هى الرابط للشترك الأعظم بينها ، مهما اختلفت أقطارها ودولها وأنظمتها ، وهى جميعاً تستمد أصلاً من القرآن الذى يمنحها القلب الذى تتشكل فيه كل أقطارها ومفاهيمها وتطوراتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . والإسلام هو جامع للثقل العليا التى أمدت الحضارة البشرية فى خلال ألف وأربعمائة عام بصياغة جديدة مميزة للقيم تجمع بين العقل والقلب وللاادة والروح والدنيا والآخرة .

٥ - البطل فى تاريخ الإسلام

وأبرز ما يتسم به تاريخ الإسلام وضوح وقائه وملامح شخصياته وتفاصيل حياته، وضوحاً يكاد يكون كاملاً مع تعدد هؤلاء القادة فى مختلف المجالات وتفاصلهم فقد كان تاريخ الإسلام دوماً عملية تفاعل بين المجتمع والفرد الممتاز من بناء الدول أو قادة الفكر . وإذا كانت حركة التاريخ تتمثل فى أمور ثلاثة : « منهج وأحداث وأبطال » فإن البطل دائماً هو المحرك الأساس للأحداث ، والقادر على تجديد المنهج إذا انحرف المجتمع عن مفهومه الأصل ، قد طغقت القوة الشعبية الإسلامية الجامعة قدرة على تخرج القادة والمجددين والمصلحين ، وهى التى قدمت نماذج حية ، متصلة لم تتوقف ، فى مختلف المراحل ، وفى مختلف الوحدات ، والمجالات ، قادة ومفكرين ومصلحين ، كلهم يمتدنون قدوتهم من بطل الأبطال « محمد رسول الله » ﷺ ومن مفهوم « القرآن » وقد أعطت هذه القوة القادرة الأبطال والمجددين فى وقت الحاجة إليهم . لقد ظلت صورة الرسول محمد بنى الإنسانية وفى مختلف شتمائه وتصرفاته وحركاته وأعماله ، قدوة لكل قائد ومفكر وبناء من بناء الدول فى تاريخ الإسلام كله ، لم تحجب هذه الصورة مطلقاً ، ولم يتخلف قائداً أو مفكر دون النظر إليها والتماس الطيرة ، كما ظلت صورة الرهيل الأول من الأبطال والأعلام مثلاً ومصدراً وقد تمتثل البطولة فى (١) المجددين: مصححي المفاهيم . (٢) الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر . (٣) علماء الرياضيات والفلك .

(٤) بناء الدول. كان البطل دائماً هو قائد البقطة ، ، مثلاً في بناء الدول وفي للفكرين وللصلحين وهم جميعاً يستمدون قوتهم من المجتمع نفسه ، ويكونون استجابة لوجوه الحاجة إليهم ، حين يلتبسها في قوة جديدة شابة ، ثم يبرز البطل بعد ذلك محققاً للأهداف مستمداً قوته من أمل المجتمع وحاجته ثم لا يلبث أن يمضي خطوة أوسع فيقود الجماعة إلى مرحلة جديدة أكثر قوة وإيجابية . وقد كان أبرز التحديت الداخلية التي واجهها الاسلام : « محاولة تحريف النص » أو القضاء على مقوم من مقومات الاسلام ، هذه المحاولات المنحرفة ، قد استطاع المصلحون والمجددون دوماً القضاء عليها ، وإبراز مفهوم الاسلام على حقيقته والكشف عن جوهر الاسلام وإعادةه إلى مكانه الحق بعيداً عن التجزئة والانحراف والجود ، شمولاً وتكاملاً وتوحيداً ، فقد أعاد المصلحون الفكر الاسلامي إلى الاتصال المباشر بجوهر الاسلام بعد أن بلغوا متاهات الجبل في ظل غزو العقائد والمذاهب المختلفة وحرروا الاسلام من شكلية الصناعة والحرفة .

والحق أن تاريخ الاسلام في جميع مراحل — حتى في أشد عصوره تخلفاً وضعفاً — لم يخل من للصلحين الأحرار الذين كانوا يتوالون مرحلة بعد مرحلة ، فقد ظلت الجماعة الاسلامية قوية صلبة لم تتحطم ، وظلت تخرج القادة والمجددين وللصلحين ، وظل جوهر المجتمع الاسلامي حياً ، نعم أعطت الجماعة الاسلامية هؤلاء الأبطال والمجددين وقت الحاجة إليهم .

وقد كان تاريخ الاسلام يمثل أطلعات المجتمع الاسلامي ومصالحه ، ممثلة في بطولة ، كان الأبطال الذين هم استجابة لمجتمعهم ، يدفعون هذا المجتمع إلى الأمام خطوة ، حتى يمكن القول بأن موجات التاريخ الاسلامي كانت تمثل اندفاعات موائية لقوى ممتازة فائدة على طريق تحقيق حتمية الاسلام ، والممتازون في تاريخ الاسلام كانوا استجابة لحاجات عصرهم ، توافوا إليه مع الضرورة التاريخية ، ثم كانوا من بعد دافعين له إلى الطريق الصحيح الذين يكون قد انحرف بالموجة السابقة لهم ، والحق أنه لا يمكن بدون القادة أن تكون الأحداث ذات فاعلية ، ولا يمكن تصور التاريخ بدون قادة ، « والتاريخ باعتباره مجموعة حوادث ناتجة عن فعاليات البشر يزودنا بتتبعه عملية هامة هي أن حوادث التاريخ ليست مستقلة عن إرادة البشر » .

كانت مهمة القادة في تاريخ الإسلام هي دفع العجلة ، ذلك أن حركة التاريخ كانت تجري في مجال مفهوم الاسلام وأيدلوجيته وقيمه ، وأن قائداً مهما بلغت براعته أو ذكاؤه لم يكن يعمل إلا في إطار الإسلام .

والحق أن تاريخاً ما ، من نواحيخ الأمم والأديان والحضارات لم يضع قاداته وحكامه وملوكه على مائدة الفسريخ ، ولم ير ضهم النقد إبتداء من الخلفاء الراشدين أنفسهم كتاريخ الإسلام .

(٦)

حركة التاريخ الاسلامى وغائته

حركة التاريخ الإسلامى منذ فجره إلى اليوم ، حركة تقدمية متكاملة ، تتمثل فيها القدرة على الحركة والصمود والاستمرار وتعبيق المجرى ، ومقاومة كل محاولة للتوقيف أو التوقيف ، ويتمثل فى تاريخه طابع القدرة على الانفتاح الدائم الواعى على الحضارات والثقافات ، وهو إذا ماتوقف سياسيا بالفرز والخراجى من داخل عالم الإسلام ، شق له طريقا فى الأرض الجدياء ، وأضاف أمما جديدة تعتنقه وتؤمن به ، فهو حركة دائمة فهو التقدم والبقاء وإشاعة الروح الانسانى ، ومنذ أن ظهر الإسلام إلى اليوم وكل حدث عالمى مرتبط به على نحو من الانهاء .

وغائية التاريخ الإسلامى تتمثل أنه منهج الفند للانسانية فالاسلام دهوة إنسانية إيجابية قادرة على الحياة والتأثير فى مجرى الزمن والأحداث والحضارات ، فى نظره هالية منسقة الأفاق وهى قادرة دوما على أن تقدم للبشرية الحل الإيجابى لأزماتها وقضاياها ومشاكلها . وغائية الإسلام فى مجراه التاريخى هى الوصول إلى عوم الرسالة بحسبانه القوة الوحيدة القادرة على تحقيق الوحدة الإنسانية ، والمعدل وللساواة والحرية .

أبرز ظواهر تاريخ الإسلام

١ - المقاومة : أبرز مظاهر حركة التاريخ الإسلامى تتمثل فى مقاومة القضاء عليه وشجبت كل محاولات التآمر والانتقاض بالانتصار على القوى الغازية أو تدويرها فى بوتقة . وحركة للمقاومة فى تاريخ الإسلام تمثل جزءاً هاماً فى كيانه وطبيعته الأساسية ، ومنها يتمثل مفهوم الجهاد بوصفه : اليقظة والاستعداد الدائم المستمر فى مواجهة العدو ، والمثل الأعلى فى الجهاد : « الاستهانة بالموت والحرص عليه ، بحسبانه مصدراً للحياة » وإعداد القوة أساساً لإرهاب العدو لا للحربة . وقد هاش الإسلام تاريخه كله ، حياة مقاومة مستمرة لم تنوقف ، متصلاً بالأحداث والأزمات والمعضلات البشرية ، وقد قام الإسلام فى مختلف أدواره على « التحدى ورد الفعل » منجها إلى تحقيق الوحدة الإنسانية

على أساس العدل والابتنان والحرية ، قادراً على إزاحة القوة المانعة من الوحدة ، أو المفهوم الصحيح ، وكانت تعقت كل عملية خارجية مرحلة بقطعة وقوة وتجمع واندفاع نحو المقاومة . ٢ - التفاعل : ومن مظاهر حركة التاريخ الاسلامي . قدرته على التفاعل المستمر فهو في طريقه الطويل لم يفصل عن التيار الانساني وسار في الخط الايجابي المتفاعل المؤثر .

٣ - تصحيح الانحراف : ومن ظواهر حركة التاريخ الاسلامي قدرته على تصحيح انحرافه انحرافه فهو يعيش سلسلة متصلة من حركات التجديد والإصلاح وتصحيح المفاهيم . وقد كان فكر الإسلام قادراً ولا يزال أن يعدل المجتمع عن الطريق المنحرف إلى الطريق الصحيح ، وكما وقفت موجة ونجمرت اندفعت موجة أخرى إلى الأمام تحمل نفس الهدف بصورة أخرى . ٤ - الاستمرار : ومن ظواهر تاريخ الإسلام القوية « الاستمرار » فلم يكن من اللفت للنظر قيام هذا المجتمع الضخم وهذه الحضارة الكبرى في هذا الوقت القصير ، بل العبرة بقدرتها على البقاء والاستمرار والامتداد والتأصل ، ولولا هذه القوة القادرة لما استطاعت أن تصمد أمام حملات الغزو الخارجي التي استمرت تنقض عالم الإسلام ولما كانت قادرة على تمزيق هذه الجماعة لولا صلابته مضمون الإسلام الذي حفظ لها قدرتها على الاستمرار ، ولقد كان المجتمع الاسلامي قادراً بقوة فكره ووضوح مفاهيمه الأساسية على أن يرتفع على الصعوبات التي كان يتعرض لها كالفزوات والسكرات . واستطاع في إبان حركات الغزو أن يتجمع ويتوحد ويدفع من أعماقه قوى جديدة قادرة على أن تكون على مستوى للمركة ، وهو في مختلف أزماته لم تطل به فترة الوجوم والذهول ، وسرعان ما يستجمع نفسه ويتحدى الضربة ويقاوم بشدة وينخلص من ركوده ويسترد حيويته . ٥ - الاتصال : ولم تكن الوقائع في تاريخ الإسلام منفصلة إحداها عن الأخرى ، بل متصلة دوماً ، لم يكن هناك انفصال بين اللوجات للتوالي ، بل كانت كل موجة استجابة لتحدي سابق لها ، أو تحدياً لمرحلة ضعف ، أو مداً لحالة جزر ، لقد كان الحادث الواقع في تاريخ الإسلام استجابة لحادث سابق في سلسلة متصلة من التحديات والاستجابات . ٦ - وحدة الفكر : ووحدة الفكر هي أبرز علامات حركة التاريخ . قد انتظم مختلف وحدات التاريخ الاسلامي ودوراته وموجاته فكر واحد وثقافة واحدة ، هي الرابطة المشتركة الأعظم بينهما انخلت أقطارها ودولها وأنظمتها ، هذا الفكر هو روح الجماعة والحرك الاسامي والقالب الذي تتشكل فيه مختلف أفكارها ومفاهيمها وتطوراتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ولعل أبرز ما يحتل في الفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية هو « الأصالة » فقد قاما على أسس جديدة لاصلة لها بالحضارة الميريانية والفارسية أو اليونانية ، قوامها التوحيد والنبوة والمساواة والعدل .

٧ — التكامل : طوابع الشمول والتكامل والوسيلة والحركة والوحدة هي أبرز مظاهر حركة التاريخ الاسلامي فإذا بدت عملية تجريؤ قابلتها حركة تكامل ، وإذا بررت حركة تراخي قابلتها حركة بقطنة . وقد ظلت عملية التجريؤ والتكامل في الفكر والتراخي والبقطة في المجتمع مستمرة لا تتوقف .

وحركات القوة والضعف والتراخي والبقطة حركات طبيعية ، غير أن عامل الأزمة الحقيقي كان مثل دائماً في الغزو الخاضعي ، وقد جاء دوما نتيجة فقدان الوحدة والقوة والبقطة وحراسة النفور والحركة مع الزمن والتطور مع الحضارة وكل الأجزاء التي سقطت إنما سقطت بفعل « قوة خارجية نتيجة التخلي عن القوة العسكرية والحربية وكان الانحلال الخلقى والاجتهاد في المجتمع عاملاً قوياً من من عوامل ضعف المقاومة والعجز عن الدفاع . غير أن عملية غزو خارجية الإلام كانت تتبعها عملية رد فعل وتحدي ، حيث تبرز قوة جديدة شابة تحمل لواء البقطة والوحدة والتجمع والاندفاع نحو المقاومة . وقد ظهر ذلك واضحاً في تاريخ الاسلام بظهور السلاجقة والأتابكة والأيوبيين والمماليك والبربر والعثمانيين .

مفهوم التكامل

« التكامل من أبرز طوابع تاريخ الاملايم : وتاريخ الاسلام — شأن الاسلام نفسه — لا يفهم إلا على أساس الشمول والتكامل . فهو وحدة متصلة الحلقات مهما تعددت جوانبه ، وهو « كل متصل » لا يتفصل أبداً مهما بدا من مظاهر التعدد والانقسام . فالتاريخ العياي والتاريخ العسكري ، التاريخ الاقتصادي ، والتاريخ الاجتماعي ، والتاريخ الثقافي ، كل متكامل لا يفهم أبداً مهما بدا الانفصال ظاهراً فيه ، كل جانب من هذه الجوانب يتصل بالآخر ويعتمد عليه اعتماداً تاماً ، وهي جميعها تشكل الاطار العام للحضارة . ولم تكن حركة التاريخ الاسلامي قاصرة على الأمة التي حملت لواءه ولا الدولة التي قامت باسمه ، ولكن ذلك التيار الضخم الحى المنحرك المتدفق الذي يبرز من وراء كل ظواهر المجتمعات والحركات والثقافات والمذاهب ، فالإسلام ليس هو الدين وحده ، ولكنه ذلك الطابع الذي يصبغ الحياه كلها فكراً وثقافة ومجتمعات ، ويعطيها مفهوماً شاملاً متكاملًا : قوامه الروح والمادة فردية واجماهية والعقل والقلب . والواقع أنه لا سبيل لنظر إلى تاريخ الاسلام إلا « كوحدة تامة » منذ بزوغ فجره إلى اليوم حيث تشمل صورته شاملة وكاملة في مجالين واسعين (أولاً) ياء الفكر (ثانياً) بناء الحضارة . وما مجالان متكاملان لا يتفصلان ، فقد سار بناء

الحضارة وتطور الفكر في خط واحد في مواجهة تحديات واضحة ، هي تحديات الجود والانحراف ومقاومة القوى الخارجية والداخلية في آن .

وتاريخ الاسلام بمثابة الاطار الواحد الذي تتكامل عناصره وتنسق فيه الوقائع والحقائق ، بحيث لا يمكن أن ننظر فيه إلى موقف أو حدث زمني نظرة منفصلة عن سابقتها أو ما بعدها ، كما لا يمكن أن ننظر إليه نظرة إقليمية جزئية ، فهو متصل الحلقات والراحل ، كل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها وكل مرحلة متولدة من المرحلة السابقة لها ، وليس مصدر الخطأ في المواقف والوقائع إلا ناتج من النظرة الزمنية أو الإقليمية الجزئية .

وتبدو مظاهر التكامل في تاريخ الاسلام في أمرين : « كل موجة » من موجات اليقظة أظهرت قوة جديدة بدوية تولت مقاليد القيادة السياسية ، لم تتخلف قوة واحدة عن العمل ، جنساً كانت أو مذهباً : العرب ، لافرس ، السلاجقة . البربر ، كذلك السنة والشيعة . و « كل عاصمة » جاء عليها دور اليقظة والقوة : بغداد ، قرطبة ، لقيروان ، دمشق ، فاس ، القاهرة ، حلب ، أصفهان ، هزنة ، الرى ، بلخ ، وكل عاصمة أخرجت علماء وقادة .

وكانت حركة التاريخ تتمثل في ظهور القوة في وحدة من وحدات عالم الاسلام ، في نفس الوقت الذي تظهر فيه مرحلة الضعف في وحدة أخرى ، ثم لا تلبث أن تضعف الوحدة القوية ويتجدد كيان الحضارة والمجتمع في الوحدة الضعيفة . ومن أبرز مظاهر التكامل : أن تاريخ الاسلام كله حفل بالقوة والحركة وظهور الأعلام والمصلحين . ولم تكن عظمة الاسلام قاصرة على مطالبه الأولى وحدها ، بل لقد ظلت مضطردة في تاريخه كله وفي كل مراحلها ، وظل مفهوم الاسلام قادراً على الحركة طوال التاريخ وليس فقط الصف الأول ولا القسادة الأول ، ولا الرعييل الأول هو وحدة الذي كان يمثل مفهوم الاسلام في المجتمع والحكم ، ولكن على مدى المصور ، كانت تظهر الشخصية ذات الطابع الاسلامي في كل مجال ، مجال بناء الدول ، مجال الدعوة والأئمة والقادة .

ومن أبلغ مظاهر التكامل في تاريخ الاسلام أن قوة وحدها من قوى المجتمع لا تستطيع أن تمثل عصرها ، فلا يمكن أن يقال أن الفقهاء وحدهم أو الشعراء وحدهم هم صورة العصر ، ولكن القوى المختلفة كانت جميعها تتفاعل وتتحرك : العلماء والأمراء ، والفقهاء ، والصوفية ، والشعراء . الخ .

سنن الضعف والقوة

تتمثل سنن الضعف والقوة في تاريخ الإسلام في الاقتراب أو الابتعاد عن قيمه الأساسية ، فلم يضيف الإسلام في مرحلة من مراحل تاريخه إلا حين تخلف مجتمعه عن مفاهيمه وانحرف نحو مفاهيم أخرى ، أو انحرف عن تكامل مفهوم الإسلام ووسطيته ، بالانحراف عن : القوة أو الوحدة أو الإيمان .

وتبدو سنن الضعف الطبيعية في دورات التاريخ ، فكما وقفت موجة وتجمدت وضعت من العمل اندفعت موجة أخرى إلى الأمام . غير أن ظاهرة الغزو الخارجي الواضحة في تاريخ الإسلام من خلال حركات انقضاء شديدة ، فهي مغزوة أساساً إلى التخلف عن مفهوم الإسلام نفسه من حيث الغفلة عن القوة ، أو تمزق الوحدة ، أو غلبة الترف والانحلال في المجتمع . ولكن سرعان ما كان المسلمون يستردون حريتهم عندما يلتزمون بقيمهم الأساسية ، فهي القسادة درما على إزاحة « القوة الفازية » ودحرها أو تصفيها أو امتصاصها ، وقد استطاع الإسلام على طول تاريخه وما زال قادراً على مقاومة كل قوة حاولت القضاء عليه أو السيطرة : (الصليبيون ، التتار ، الفرنجة ، الاستعمار) وكما قاوم كل قوة تحاول تغيير مفهومه أو صوره في مفاهيم فكر أو حضارة أخرى . ففي الداخل حتى تطور الحركة الفكرية ودفعها إلى الأمام ووصلها بالحضارة والمعمر وصحيح كل انحراف طرأ عليها . لقد ظل الإسلام يمد المجتمعات والحضارات في عالم الإسلام بطابعه وظل قوة قادرة حية على الحركة والتفاعل ، وظلت فيه خلافة بنائه متولدة قادرة على مواجهة التحدي والغلب عليه . أما نزاعات التاريخ الإسلامي المحلية فهذه لا بد منها في كل مجتمع حتى ، أنها لم تسكن تؤثر على خط السير الحضاري إلا إذا مزقت حامل الوحدة ، ولم يكن ضعف المجتمع الإسلامي ، بعد قوة ، إلا ظاهرة طبيعية لسكل مجتمع ، غير أن قاعدته الإسلامية وقدرته كانت دوماً قادرة على بقاء الحياة في المجتمع الإسلامي بعد هبوطه وانحداره ، بالتمسك بمفهوم الإسلام مستمداً من القرآن . ويتمثل في تاريخ الإسلام في القدرة على الاستمرار ، والقدرة على تميق مجرى الحياة ، ومقاومة كل محاولة لتوقف .

وقد ظل جوهر المجتمع الإسلامي حياً بالرغم من مختلف وجوه الاضطراب والانحلال ، فاستطاع إخراج القادة والمصلحين والمحدثين جيلاً بعد جيل وموجة بعد موجة ، ومن هنا تنأ كد الظاهرة التي يكشف عنها تاريخ الإسلام كله وهي : أنه لم يتخلف المسلمون عن الحضارة والقوة إلا حين تخلفوا عن التمسك بقيمهم ومفاهيمهم . وقد ظل تاريخ الإسلام حافلاً باستمرار التجدد والتوسع ، فهو في كل يوم يكسب أرضاً جديدة ، وفي نفس الوقت يتجدد باقصاء عناصر الانحراف والتجزئة والزيوف عن

معدنه والكشف عن جوهره الأصل وقيمه الأساسية . وقد تفوق المسلمون عندما استنطاهوا « صهر » ثقافات الأمم وفلسفاتها في قوالب فكرهم وفي إطار التوحيد وأفهد المسلمون عندما استنطاهت هذه الثقافات والفلسفات أن تسيطر على قيمهم الأساسية وتضعف فاهليتها .

وقد ظلت « المقومات الأساسية » ثابتة بالرغم من قدرة الفكر الاسلامي على الحركة ولا تزال هي العوامل الأكيمة في بناء النهضة ، فإذا انصرف عنها المسلمون أهدروا ودخلوا في مرحلة الأزمة والغزو الخارجي . وهذه المقومات هي : التوحيد ، الوحدة ، النبوة ، القوة ، الاجتهاد ، الجهاد ، العدل ، الحرية . فالاسلام أساساً : دين وفكر وحضارة ومجتمع ، في منهج قوامه : هديّة ومعاملات وأخلاق ، فالمجتمع الاسلامي صيغ أساساً والدين جزء منه ، وقامت فيه القيم على أساس الانقاء بين العقل والقلب ، والدنيا والآخرة ، والروح والمادة والجماعة والفردية فإذا تخلخل أساس من هذه الأسس حلت مرحلة التخلف ، وإذا التفت هذه المفاهيم بدأت مرحلة « البهظة » .

تحرك التاريخ في إطار الإسلام

كان المجتمع الاسلامي دوماً يتحرك مع التاريخ ولا يتحرك ضد التاريخ لأنه لم يحقق المثل الأعلى الذي رسمه الاسلام وما زال منطلقاً إلى تحقيقه . لقد تحرك المجتمع الاسلامي في إطار الاسلام واسكنه لم يطاول مفهوم الاسلام . فالاسلام في ذاته مقومات أساسية كلية مرنة ، وليس خطوطاً محدودة مرسومة أو ثابتة ، أو بالأحرى « ثابت الاطار منطور المضمون والمفهوم » ، تتمثل الصور في تعددها مشتقة منه ، دائره في فلسفه ، قريبه منه آنا أو بعيدة آنا آخر ، وهي بقدر اتصالها به والتماهيها منه وأخذها منه تكتب له الحياه ، فإذا تخلفت وبعدت وتخللت بدا ضعفه وبدا اضطرابها . وقد كانت الدول والمجتمعات تنفاوت في اصطباغها به وفي تحركها في إطاره ، وهذا هو السر في بقاء الاسلام مع تغير الدول .

(٧)

تاريخ الاسلام والتاريخ الانساني

تاريخ الاسلام — لاشك — شطر من التاريخ الانساني متصل به لا ينفصل عنه وإن كان له طابعه المتميز في منطقه ومنطقه ومفهومه . كما أن « تاريخ الاسلام » مادة أساسية وجزء أصيل من « تاريخ الانسانية والعالم » فهو متفاعل مع هذا التاريخ مؤثر فيه حتى ليكن أن يقال أن تاريخ الغرب كله منذ ظهور الاسلام هو تاريخ الصراع مع الاسلام .

وهو متصل بالأمم والحضارات والثقافات مفتوح عليها ، يأخذ منها ويعطى ، ولقد ظل تاريخ الإسلام متصل بالتاريخ العالمى مؤثراً ومتأثراً وظلت النظرة إلى الإسلام من خلال العالم والنظرة إلى العالم من خلال الإسلام متصلة ، وإذا أمكن أن يقال أن هناك عالين : عالم الإسلام وعالم الغرب ، أمكن القول بأن الصراع لم يتوقف بينهما من بزوغ الإسلام إلى اليوم ، وهو الصراع بين فكرين مختلفين أساساً ، فقد كان الشرق منذ مطالع فجره ، وهو أرض النبوات والرسالات ، والإيمان بالله ، وكان الغرب أرض الفلسفات الحرة للمنطقة ، التى تؤمن بالصراع بين البشر وبين الآلهة ، فلما فزت المسيحية أوربا ظل مفهوم الغرب قائماً على أصوله الأولى لم يتغير إلا قليلاً ، فهو لم يقبل المسيحية على سماتها وبساطتها ولكن أدخلها فى إطار من وثنية اليونان وقوانين الرومان ثم بنى بها جميعاً حضارته الحديثة ، وظل على موقف الخصومة للإسلام ، يصارعه من بينة ومن الأندلس ، ويفزوه بالحروب الصليبية ثم يطوق عالم الإسلام ويسيطر عليه بحركة الاستعمار الحديث ، والإسلام فى خلال هذا التاريخ كله يقاوم الغزو ويتمدد فى أرض جديدة ويعمق رسالته فى العقول والقلوب فى حركة دائبة ولم تتوقف ولم يزدعها الصراع إلا قوة وصقلاً . ظل تاريخ عالم الإسلام رمزاً على الصمود فى وجه الدزو الخارجى فى حملاته المتصلة التى تحاول أن توقفه عن الانتشار وترده عن الامتداد ، فهو لا يلبث أن يصف نحت ضغط العدوان المسلح حتى يسترد قوته وأرضه ، ثم هو من الناحية الأخرى ينوسع ذاتياً ويضيف ملايين جديدة إلى معتنقيه دون حرب أو قتال . وأما تاريخ فكر الإسلام فقد ظل قادراً على التجدد ، مميذاً لصياغة مقوماته وفق روح العصر ، لا يتوقف عن الحياة والحركة وقد عجزت الحملات المتوالية عن القضاء على عالم الإسلام أو إضافته إلى الحضارة الغربية إضافة التامع .

كما عجزت حملات الغزو الفكرى أن تحطم مقوماته أو تضيف إليها ما ليس منها ، أو تؤكد الشبهات أو الشكوك المثارة ، بل على العكس من ذلك ، كان هذا التحدى هاملاً هاماً فى تنقية العقيدة وتصحيح المفاهيم والنماذج الأساسية للإسلام مستمدة من القرآن ، قاضية على الانحرافات والاضافات والبدع والهجرية ، مما أصاب الفكر الإسلامى فى مرحلة الضعف ، نعم استطاع الإسلام أن يصحح مفاهيمه وأن يبرز نقياً وأن يكشف عن جوهره قادراً على لقاء مختلف تطورات الحضارة ودعوات الفكر على نحو من الاستقلال ووضوح الشخصية والقدرة القادرة على الهضم والاسمجة والاقباص من مختلف الثقافات والحضارة بما يزيده قوة وحيوية . وقد واجه حملات الغزو العسكرى فى الشرق ، النار والصليبيين فى الشمال والغرب فى الغرب ، ثم واجه حملة الاستعمار الحديث ، ومعها حملات التفريب والتبشير والشعوذة وقد حاربت الإسلام قوى كبرى ثم زالت وانتهت بزوال

البرتغاليين والأسبان وانصهرت المقول والنتار وانحسر ظل بريطانيا وفرنسا . ويمكن القول أن في تاريخ الإسلام اتجاهين أساسيين : اتجاه الانتشار والتوسع واتجاه التطبيق وتاريخ الإسلام لا يزال يمثل تاريخ الانتشار الذي بعد الانتشار في المرحلة الأولى بالتوسع . أما اتجاه التطبيق فلا يزال في مراحله الأولى . فالمجتمع الإسلامي لم يستطع بعد أن يحقق مفهوم الإسلام كما لا في إطاره . مفهوم الإسلام بالنسبة للأجناس والألوان هو المساواة التامة الصريحة ، غير أن الموالى لم يجدوا تطبيقاً لهذا المفهوم وهذا سر ثورتهم ، وظهرت نزعة التفاضل بين الأجناس والصراع بينهم وهي مما لم يقره الإسلام . ودعا الإسلام إلى العدل الاجتماعي غير أن الطبقات الدنيا لم تجد طوال هذا التاريخ ما يحقق لها هذا العدل ، وظلت الطبقات الحاكمة يعمزل عن الشعوب ودعا الإسلام إلى الاعتدال ، غير أن الترف اجتاحت الطبقات العليا مما نتج عنه رد فعل في ظهور مؤامرات الانقراض وحركات الزهد والانزوال من المجتمع أقول هذا وأنظر إلى العصور : الأموية والعباسية والعمانية وقد بدت بشائر التحول في البيضة العربية الإسلامية الأخيرة .

والخلاصة

(أولاً) حركة تاريخ الإسلام في مختلف مراحله تنجس نحو الحرية والعدل والتوحيد والمساواة بهدف « تحرير الإنسان من ريفه الظلم والاستعباد » وتحرير فكره من القيود والتقليد والمحاولات التي تريد أن تقصه عن التوحيد والحرية والعدل (ثانياً) هاش تاريخ الإسلام نظرية التحدى ورد الفعل في مجالين : X مجال قيام بناء الدول ودعاة التحديد وقادة الحركات الإصلاحية كما ضعفت القوى العاملة أو انحرف مجراها . X في مواجهة كل حركة غزو خارجية حيث تظهر قوى جديدة قادرة على رد الغزو . (ثالثاً) كانت حركة التاريخ الإسلامي حركة دائرية لولبية : (تجمع بين الخط المستقيم والدائرة) الخط المستقيم الذي يوحى بالتقدم إلى الأمام ، والدائرة التي توحى بالحركة اللولبية ومعناها حركة أمامية وحركة وراثية راجعة إلى الوراء قليلاً من أجل التقدم إلى الأمام (رابعاً) التطور حركة تقدم وتراجع ، ونهضة ونسكسة . التاريخ الإسلامي كالسكن الجاهلي له صفه أساسية هي قدرته على نزع الأعضاء الضعيفة في كيانه واستبدالها بأعضاء أقوى وفي دفع عوامل المرض والفناء . (خامساً) مؤامرات الإسلام هي عامل القوة في تاريخه . التوحيد ، الوحدة ، القوة ، الاجتهاد ، الجهاد ، الإيمان ، العدل ، الحرية ، فإذا ضعفت انحدر ، فإذا جاد إلى جوهر مناهيمه دخل مرحلة القوة . وبالجمله فإن تاريخ الإسلام :

(أولاً) قاوم القوى الداخلية للنحرقة . (ثانياً) واهم بين الفكر الإسلامى والتطور .
(ثالثاً) قاوم القوى الخارجية الغازية . (رابعاً) صهر خصوم الإسلام فى بوتقته . (خامساً) كسب
أرضاً جديدة بعد مرحلة النوصم (سادساً) دفع الحضارة البصرية إلى الأمام خـلال ألف عام .
(سابعاً) أعطى المرحلة الأوربية من الحضارة د للنهيج التجريبي (أساس العصر الحديث .

أبرز وقائع تاريخ الاسلام

١	٢	٣	٤
١ — ٦٢٢ الهجرة	١١٤ — ٧٣٢ بلاط الشهداء	١٣٩ — ٧٥٥ عبد الرحمن الداخل	٢
١١ — ٦٣٢ وفاة النبي	٤٧٨ — ١٠٨٥ سقوط طليطلة	٤٥٦ — ١٠٦٣ الب أرسلان	٣
١١ — الراشدون إلى	٤٧٩ — ١٠٨٦ الزلافة (هزيمة الأسبان)	٥٠١ — ١١٠٧ محمد بن تومرت	٤
٤٩ — الدولة الأموية إلى	٦٦٤ — ١٠٧١ موقعة ملاذكرد	٥٤١ — ١١٤٦ نور الدين زنكى	٥
١٣٢ — ٧٤٩	٤٩٣ — ١٠٩٩ الصليبيون فى القدس	٥٦٢ — ١١٧١ صلاح الدين	٦
١٣٣ — ٧٥٠ الدولة العباسية	٥١٥ — ١١٧١ هزيمة فرنسا فى دمياط	٦٦٥ — ١٢٦٦ الظاهر بارس	٧
٢٩٧ — ٩١٠ الدولة الفاطمية	٥٤٢ — ١١٤٧ الحملة الصليبية الثانية	٨٥٥ — ١٤٥١ محمد النافع	٨
٣٤٥ — ٩٥٩ الدولة السلجوقية	٥٨٦ — ١١٩٠ الحملة الصليبية الثالثة	٩٠٨ — إسماعيل الصفوى	٩
٣٤٩ — ٩٥٢ الفاطميون فى مصر	٥٨٣ — ١١٨٧ خطين (استعادة بيت المقدس)	١١٥٣ — ١٧٤٠ محمد بن عبد الوهاب	١٠
٤٨٣ — ١٠٩٠ دولة الرابطين	٥٩٣ — ١١٩٦ معركة الأرك		
٥٤٥ — ١١٥٠ دولة الموحدين	٦٥٩ — ١٢٥٨ سقوط الخلافة فى بغداد		
	٦٥٩ — ١٢٦٠ عين جالوت وهزيمة الممولى		

« تابع » أبرز وقائع تاريخ الإسلام

١٢٢٠ - ١٨٠٥ محمد علي	٦٩٠ - ١٢٩١ نهاية الحروب الصليبية	٦٤٥ - ١٢٥٤ المماليك في مصر
١٢٥٩ - ١٨٤٣ محمد بن علي السنوسي	٨٥٧ - ١٣٥٤ المماليون يحتلون القسطنطينية	٦٩٩ - ١٣٠٠ الدولة المماليكية
١٢٨٧ - ١٨٧٠ المهدي في السودان	٨٩٨ - ١٤٩٢ سقوط غرناطة ونهاية الأندلس	
١٢٩٣ - ١٨٧٦ السلطان عبدالحميد	١٠١٨ - ١٦٠٩ ترحيل المسلمين من الأندلس	
	١٢١٣ - ١٧٩٨ الحملة الفرنسية	
	١٢٤٦ - ١٨٣٠ احتلال الجزائر	
	١٢٩٩ - ١٨٨١ احتلال تونس	
	١٣٠٠ - ١٨٨٢ احتلال مصر	
	١٣٣٠ - ١٩١٧ احتلال طرابلس	
	١٣٣٦ - ١٩١٨ تقسيم الدولة العثمانية	
	١٣٤٣ - ١٩٢٤ نهاية الخلافة العثمانية	

(الرسالة الثانية)

عالم الاسلام وعالم الغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

اليوم : وللمسلمون يستشرفون مرحلة جديدة من حياتهم من طريق القوة والنهضة فإن أولى الأمور التي تحتاج إلى اهتمام حقيق هو معرفة موقعهم من القوى العالمية التي اتصلت بهم منذ أول يوم وما زالت توالى اتصالها على نحو أو آخر ، وأن يجري استعراض هذا التاريخ في إنصاف ودون تعنت بالليل والبرهان ، حتى لا تحول الدعوات المختلفة ولا التيارات الوافدة أن تظلل نظرهم بأى لون أو اتجاه وليعلموا أنهم « أمة » لها طابعها وذاتيتها وكيانها الخاص أقامها الله تبارك وتعالى في هذه المنطقة الحساسة من العالم وأعطاهامقادير الثروة والقوة لتحمل رسالته إلى العالمين وليظل أهلها قادرين على أن يكونوا جند الله الغالب : المجاهدون للرايطون اليقظون الواهون الذين يأخذون حذرهم دائماً ، فإذا غلبهم متسلط أو غاز استداروا إلى منهجهم الأصيل فعرفوا أنه هو المصدر الوحيد القادر على إعطائهم النصر وأن أى منهج آخر لا يستطيع ذلك ، إذن فلا بد من هذه الدراسة في هذه الفترة الدنيئة التي بمنحن فيها للمسلمون بالمال والطاقة والتفوق للبشرى ، لينبشوا إزاء قيمهم وعقيدتهم تحول للقدرات اللادية دون الحفاظ على وجودهم القادى وكيانهم الخاص وطابعهم الإسلامى ، وأن يكونوا إلى ذلك قادرين على نقل أحدث مستحدثات العلم والتقدم والحضارة اللادية لتكون « مواداً خاماً » يصنعونها داخل إطار فكرهم وقيهم وبذلك يصنعون الحضارة القادمة : (حضارة القرن الخامس عشر الهجرى) : الذى أوشك أن يهل هلاله والذى يتطلع إليه المسلمون كعلامة على عصر جديد تعود السكرة فيه مرة أخرى إلى أيدي العرب والمسلمين . إن أخطر ماواجه الحضارة الغربية الحديثة وأسلمها فى وقت قريب إلى الأزمة الخائقة والصراع بين القوى مع ما امتلكتته من أسباب التقدم المادى هو أنها « كسرت » الإطار الدينى والأخلاقى : الذى هو الحاجز الحامى لكل نهضة من التمدد والتصدد ، ومضت تواجه الحياة بغير سناد يحمى ظهرها ، أو نور يضيء طريقها ، وبذلك صرعتها المادية الغالبة وانحرفت بها الطريق إلى تأكيد أهواء النفس وتقليب التعرف والمقدرات والشهوات فانتهت بها إلى تلك الأزمة الحادة التي يتحدثون عنها ويبعثون لها من علاج ، وهى أزمة الإنسان الحديث وصراعه ونمزه وغريته وضياحه ، كل هذا الذى قاساه ويقاسيه من أهوال هو نتيجة غيبة

المعنويات وتجاهل أشواق الروح وتصدع النفس وتمزق الكيان الإنساني وفقدان الهوية والمهدف والقصور عن فهم الرسالة والأمانة والغاية والمصير الإنسان المتخلف في هذه الأرض . فليحذر المسلمون اليوم وهم على الطريق إلى امتلاك أدوات الحضارة الحديثة وتراتها التكنولوجية والعلمية والميكانيكية أن تسوهمهم هذه الحضارة أو تحتويهم ، في إطار هذا الفهم المدمر القاصر ، وعليهم أن يبدأوا من نقطة التوحيد في الفكر ومن اللغة العربية فينقلوا إليها كل معطيات العلم ، ومن الإيمان بوحدة البشرية والأخاء الإنساني والعدل والرحمة باعتبارها هي معطيات الإسلام الإنسانية وليجعلوا من هذا كله إطاراً يتحرك فيه فيخضعون العلم للأخلاق والتقوى ، ويجعلون مقدرات البشرية للناس جميعاً وليست لفئة مستعبدية أو مهيمنة على أقدار العباد ، وبذلك يحققوا إرادة الله في بناء المجتمع الإنساني الحق الذي تنطلق إليه الدنيا جميعاً بعد أن عاشت في الظلم والاستبداد عصرها طويلاً شتبت به وليطعم المسلمون الدنيا جميعاً على أنهم يمثلون منهاجاً قادراً على إسعاد البشرية حقاً ، ووردها إلى طريق الحق والعدل وتحريرها من الجوع والخوف وتأمينها من الفلق والحرمان .

(٢)

ولاريب أن أخطر التصريحات التي صدرت في العصر الحديث : ذلك التصريح الذي أعلنه الدكتور بيرون في المؤتمر الدولي للعلوم التاريخية الخامس الذي عقد في مدينة (أوسلو) عاصمة النرويج في ١٤ آب ١٩٢٩ حين قال : إن ظهور الإسلام كان خاتمة المصور القديمة وبداية إيقاظ الإنسانية في أول عصورها المتوسطة حيث بدأت أوروبا الغربية مدنية جديدة وحياة جديدة يجب معها اعتبار هذا الحادث العظيم هو بداية العصر الوسيط . فإزالتنا تقصر عن فهم هذه الحقيقة ، والتركيز على هذه العلامة المبهمة على مفترق طرق التاريخ ونجرب وراء مناصبي الغرب الذين يتجاهلون ظهور الإسلام كأعظم حادث تاريخي في العالم كله . لقد تقدم الإسلام بعد ذلك شرقاً وغرباً حتى فتح الهند والصين وقسم كبيراً من فرنسا في سرعة مذهلة أدهشت علماء الغرب حتى أطلقوا على هذه الحادثة التاريخية « المعجزة العربية » ثم كان « العلم » هو أعظم ما قدمته الحضارة الإسلامية إلى العالم الحديث . وقد سجل بريغولت في كتابه (بناء الإنسانية) هذه الركيزة الشائكة في الوجود الإسلامي العالمي حين قال :

لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة الإسلامية وأن ما يدين به علمنا لم المسلمين ليس ما قدموه لنا من كشوف مذهلة لنظريات مبتكرة بل يدين هذا العلم إلى الثقافة الإسلامية بأكثر من هذا :

إنه يدين لها بوجود نفسه ، فضلاً عن ذلك فإن الغربيين لم يقننوها لميراثهم القديم من الحضارتين اليونانية والرومانية إلا بعد ما كشف عنه المسلمون وجلوه وتقوده .

(٣)

ومنذ اليوم الأول لظهور الإسلام فقد شكل لونه المميز على خريطة العلم ، عالم مستقل له طابعه المفرد ونظريته الكاملة المتجددة بالتوحيد والإيمان بالله والإلتزام الأخلاقي في تفسير الكون والحياة للمسلمين قبلتهم الواحدة التي لم يجحدوا عنها نهوى إليها قلوبهم وحقولهم بالإيمان والفكر ، بالقلب والعقل جميعاً ، ومنذ ذلك اليوم لم يكن لهم قبلة أخرى ، وما تزال الكعبة البيت الحرام ومستظل مركز القادسية في أرض الإسلام . ومنذ اليوم الأول لظهور الإسلام حاولت القوى المختلفة ضربه والآداة منه ثم لما هجرت عن ذلك ، حاولت احتوائه وإذابته وصهره في بوتقة الأممية ، ولكن مازال الإسلام قادراً بتركيبه الرباني وتشكله القائم على الفطرة والحق والعدل أن يقاوم كل محاولات ضربه : سواء عن طريق الحروب الصليبية أم لغزو الاستعماري أم الاحتلال الصهيوني أم محاولات الماركسية والمادية الوجودية والفرويدية وغيرها .

والواقع أن هناك حقيقة كبرى على شبابنا وأجيالنا الجديدة والمتجددة أن يكون موضع نظرها وتقديرها دائماً بحيث لا تغيب عنها ، تلك هي أننا (نحن المسلمون) نعيش في ظل تحد قائم كبير ، في منطقة داخلة بالطاقة والثروة والتفوق البشري ، كانت ولا تزال ومستظل - مصدر مطامع الغرب وتطلعاته إلى الغزو والسيطرة ورغبة في استنزاف الثروات وامتصاص الموارد ، وأن هذه المطامع جاءت في ثوب الحروب الصليبية لاستعادة قبر السيد المسيح مرة ثم عادت في ثوب تمسدين البشرية باسم الاستعمار الغربي ثم عادت ثالثة باسم أرض الميعاد ، عاشت هذه الأمة موضع طمس الطامعين والغزاة قروناً طويلة ، يشهزون فرصة ضعفها لينقضوا عليها ولقد هزمت موجات الغزو واحدة بعد أخرى ، وما تزال القدس هي خط الدفاع الأول عن القنبلة المقدسة : ولقد قاوم العرب وقاوم المسلمون هذا الغزو في حطين وفي عين جالوت وفي الزلاقة وفي الأرك واستجاشت أرض الإسلام بالقوى الإسلامية المتجددة الظافرة التي تحملت القواء واستشهدت في سبيل تثبيت الحق ونحرير الأرض وحماية الدين . واليوم يواجه عالم الإسلام ثلاث قوى : الاستعمار والصهيونية والشيوعية ، والمسلمون في موقف الدفاع يشنون دائماً ويستمدون قوتهم من هقيمتهم التي كانت مصدر النصر لهم في كل أزمة وموقع ،

وسوف لا تستطيع القوى الفائزة أن تنزهمهم من حصنهم هذا الحصين : وهم لا يبادون الغرب ولا يطمعون في السيطرة والاستعلاء ولكنهم طلاب شحاحة ورحمة وخير .

يقول الفريد كانتول سميت : أن الغرب كان ولا يزال بخلاف القوة للعنوية السكينة في عالم الإسلام المتجانس الذي نجمه وحدة التوحيد الخالص ، يخاف هذه القوة ويخشأها ويعمل منذ سنوات بعيدة على سحقها والقضاء عليها وعزيقها وبث الخلاف والفرقة والعمران والخصومة والتناحر بين أجزائها ، ولعل حاجة الغرب في مقاومة هذه القوة هو الذي دفعها إلى الالتقاء والتوجد والتجمع كتلة واحدة . ولم يستطع الغربيون خلال هذه المدة الطويلة أن يكسبوا ود المسلمين بل حصلوا على شعور جاهي بالكرهية ، تقول وقد زاد هذه الكراهية قوة أن الغرب استعمل عمليات التبشير والتفريب والغزو والثقافة وسيلة الإذلال إلى جوار السيطرة الاقتصادية والمادية وكان شعور القوة والعنف والحقد والتعصب إزاء كل ما هو هربي أو إسلامي ، وتجمع الغرب كله لإخراج المسلمين من أوروبا ، تضافرت القوى من ناحية الأندلس وتضافرت من ناحية البلقان ، وجاء رجالهم بعد ثمانمائة عام ليقولوا : اليوم انتهت الحروب الصليبية .

(٤)

لم يتوقف الإسلام من الانتشار منذ بزوغ فجره وبلغ عدد الذين اعتنقوه اليوم ألف مليون على أقل من التقديرات منها ٩٠٠ مليون مسلم دخلوه بالانتناع والإيمان وبقوة الإسلام القتالية وبفضل مبادئه التي تحمل التوحيد والكرامة ، وقد وجد الإسلام من المؤمنين والمستعبدين قبولاً حررم من كل عوامل الظلم والعبودية وما زال الإسلام يقنمهم آفاق العالم ويصل إلى كل ركن وفي مؤخر لندن الإسلامي (مايو ١٩٧٦) أعلن أن عدد المسلمين في أوروبا يبلغ حالياً ٢٥ مليوناً و ٢٠٧ ألف نسمة تقريباً وأن عدد المسلمين بالدول الأوروبية غير الشيوعية يبلغ نحو ثلاثة ملايين و ٩٣٠ ألف نسمة بنسبة ١٨٧ في المائة من عدد السكان أما عدد المسلمين بالدول الأوروبية الشيوعية فيقدر بنحو ١٩ مليوناً و ٢٧٧ ألف نسمة أي بنسبة ١٨ ٪ من مجموع السكان ولا يدخل في هذا العدد مسلمو الجمهوريات الآسيوية التابعة للاتحاد السوفيتي . وهكذا نجد أن الإسلام الذي لفظته أوروبا من الأندلس ومن البلقان يعود ملماً ويصل إلى كل مكان ، ليس في أوروبا وحدها ولكن في الغرب كله . وفي أمريكا لا يطلع الصبح يوماً إلا على مسلم جديد وقد سقطت تلك القاعدة البالية التي كانت تقول في الغرب : إن على المسلمين أن يتهوا من أوروبا بالهجرة أو بالتنصير من ناحية الأندلس أو ناحية

البلقان . ويقول الأستاذ ابراهيم بولسكى : منذ هرفت أوروبا الاسلام فاصبته العداء وهرفت أن في وجوده خطر على ثقافتها ودينها أما الآن فهي مستعدة لأن تفهم الاسلام وتقبل وجوده بعد أن هرفت أنها تعتمد في وجودها الاقتصادي على الدول الاسلامية ، ولقد استطلع المسلمون أن يتغلبوا على دعاية الغرب وزعمه أن الاسلام كان شيئاً في الماضي وانتهى ، وينظرون بلمفة ذلك اليوم الذي سينتصر فيه الاسلام ، لقد كان الاسلام صاحب الجولة الأولى في العالم مرتين وتشير كثير من الدلائل إلى قرب حولة ثالثة بإذن الله ، أن من يعيش في الغرب يستطيع أن يعيش انحطاط المجتمع الغربي وسمو المجتمع الاسلامي والمسلمون في غرب أوروبا يقيمون الاسلام كقوة فكرية وقوة حضارية وكنظام اجتماعي لا يقاربه نظام ويفسده وتشير الأبحاث الاقتصادية الغربية إلى أن العرب في طريقهم إلى حدث جديد في حياتهم وهي الثروة والطاقة التي سوف تمكنهم من التنمية ومن مواجهة الأخطار وإمكانيات القوة والثراء ، ونضيف إلى هذا أن الفكر الغربي قد انبثق هن تيار جديد يريد أن يفهم الاسلام ويرى أنه السبيل الوحيد لصالح البشرية وأن الغرب لن يجد المجتمع السليم إلا إذا اعتنق « أسلوب العيش الاسلامي » وقد ورد كثير من هذا المعنى من بينهم « برناردشو » وغيره وهناك من أشار إلى أن الاسلام وحده هو القادر على حل مشاكل البشرية المعاصرة ومعضلاتها الحاضرة وهناك من يرى أن الغرب حامل بالاسلام وسوف يبلده قريباً .

ويكتب « مونجيري وأت » في جريدة التيمس تحت عنوان .

« الاسلام قوة في انتظار كلمة »

أشار فيها إلى الاسلام الذي ينطلق الآن ويقتظر زهامة إسلامية عملاقة تسلمح بتعاليم الاسلام انخالصة ، فإذا قدر لهذه القيادة أن تظهر فسيصبح الاسلام أحد القوى الأساسية الكبرى في العالم ويؤكد ما ذهب إليه مششرق آخر هو (هاملتون جب) باحتمال ظهور الاسلام وإهادة بناء نفسه كقوة عالمية . ومن قبل قال لامارتين ، في كتابه (تاريخ تركيا :) في الاسلام قوة كاملة أصيلة نابعة من أن هذا الدين فهو وحده الذي استطاع أن يفي بمطالب البدن الروح معاً دون أن يمرض المسلم لأن يعيش في هداب الضمير الذي يعيش فيه الغربيون ، إن المسلمون بالقرآن وحده شيء يختلف عن الأديان الأخرى لأنه لا يعبد الأشخاص ولا ريب أن التوحيد والتنزيه هو موضع القوة في الاسلام المؤمن . ويقول الأستاذ برنتون في كتابه « الاسلام » : إن الاسلام يعطى كلا من العالمين — الدنيا

والآخرة — حقهما وفي وسع المسلم المعصرى أن يمد النظر في الاسلام كله دون أن ينقطع عن الماخى وله أن يراجع أحكام المعاملات والشريعة لأن باب الاجتهاد مفتوح ولا يزال. والمسلمون يجتهدون اليوم ليثبتوا أن الانسانية الصادقة والآداب القويمة والعقل السليم تلقى أرفع تعبيراتها في شريعة الاسلام وأحكامه .

(٥)

واجه المسلمون الحروب الصليبية في الشام ومصر وحروب الفرنجة في الأندلس والمغرب وعرفوا في المعصر الحديث الاستعمار والصهيونية والشيوعية وهي قوى جبارة تواجه الاسلام والمسلمين وقد صمدوا السكل ذلك والنمسا من مفاهيم الاسلام وإصلاحاته القوة على المواجهة والمراعاة في سبيل كلمة الله وحماية هذا الكيان الذى تشكل باسم الله على الحق إلى العالمين . وسوف ينتصرون على الأخطار التى تواجههم اليوم ما استمسكوا بكتاب الله نبراساً وضياءاً وتطبيقاً في حياتهم الاجتهادية ، وسوف يخرجون من الأزمة كما يخرج الذهب من النار أشد نضاعة وضياءاً ، ولعل هذه الدراسة تكشف لهم عن عامل الصمود والقوة الفادرة على دحر أعدائهم وغزواتهم واقتحام مكانهم الحق في هذا الكواكب ، هذا العامل الأصيل الوحيد هو لن يكون القرآن منطلق حياتهم وقانون مجتمعاتهم وإطار وجودهم كله والله من وراء القصد .

(١)

الاسلام يقتحم أوروبا من جبهتي الأندلس والبلقان

١ - الموجة الأولى على جبهة بيزنطة

كانت رسائل النبي ﷺ إلى الملوك بعد صلح الحديبية الذى عقده مع قريش علامة على دخول الدعوة الاسلامية في مرحلتها العالمية تأكيذاً لطبيعتها التى كشفت عنها منذ إنشائها : « يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » . وجهت هذه الرسائل إلى هرقل بصرى الروم وإلى المواقس حاكم مصر وإلى الحارث النخعي وإلى كسرى الفرس وإلى نجاشى الحبشة: حملها اليهم سفراء من الدولة الإسلامية في المدينة نذيراً وإبلاغاً وعلامة على طريق الدعوة الاسلامية . وفي خلال السنوات الباقية من حياة الرسول وقبل النعاقه بالرفيق الأعلى تنامت الحركة العسكرية على حقن الزجاجة : ذلك الطريق الطويل

بين الجزيرة والروم والذي كان يفزع منه العرب من قبل في صيحتهم المشهورة: «هل جاء الروم» أنفذ النبي ثلاث حملات: الأولى عام ٦٣٩م مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل إلى حدود الروم إنحازوا إلى قرية مؤتة وقد وصفت بأنها حلة ذات طابع استعلاحي كقصة لهذا الوجه وقد أرسل لهم هرقل مائة ألف مقاتل في بعض الاقوال وفي هذه المعركة قتل زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب واستطاع خالد بن الوليد أن يعود بالجيش وفي عام ٦٤٠م خرج الرسول بنفسه إلى حدود الروم في غزوة تبوك حيث صالح أهل حراء وأذرح ومضا . وصالح يوحنا ابن روثبة صاحب أيلة في خليج العقبة وكتب له عهداً بأن أهل أيلة لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ودفع يوحنا مقابل ذلك ثلاث مئة دينار جزية يدفعها كل عام وعاد النبي إلى المدينة بعد أن أقام في تبوك أسبوعين وفي عام ٦٣٢م أهد النبي جيشاً جديداً لمهاجمة الروم ، بقيادة أسامة بن زيد الذي ضط أبوه في معركة مؤتة وقد لحق النبي بالفيق الأهلى ورآه أسامة منصوباً أمام المسجد ، وتحرك الجيش بعد وفاة النبي نفراً ووصل إلى أيلة (العقبة) وجبال الترك وسلم وغنم وعاد في أربعين يوماً ، ونهض في السنة نفسها خالد بن سميد إلى بلاد الروم وأدخل في بلاد الشام حتى اقترب من دمشق وعاد إلى المدينة : كل هذا كان أرهاصاً بالرجه والهدف وللنطلق .

وفي خطاب الرسول إلى هرقل قيصر الروم : قال الرسول عليه الصلاة والسلام : (أسلمت لم يؤتلك الله أجرك مرتين فإن توليت فعليك أثم الاريسيين . وقد فسرت عبارة (الاريسيين) بأنهم أتباع أريوس الذي رفض تأليه الرسول هدى ودخل معركة حامية مع الدولة الرومانية من أجل هذا المعتقد وقد عاش الاريسيون مصطهبوزوم معروفت على عقيدتهم تيوارثونها حتى مجيء بعثة الرسول ﷺ . والدولة البيزنطية هي الدولة الأوربية الآسيوية التي اصطدمت بالفتوح الإسلامية في حوض البحر المتوسط ، كانت تسيطر على أغاب شواطئ البحر المتوسط وجزره وعاصمتها بيزنطة أو القسطنطينية وتشمل أملاكها الممتدة إلى سواحل البحر الأيالية شبه جزيرة البلقان والجزر الملحقة بها وآسيا الصغرى ومن الشرق تتبعها سوريا وفلسطين ومن الجنوب مصر وشمال أفريقيا ومنذ ذلك الوقت نشأ ما يسمى بالجبهة البيزنطية . نشأت بعد فتوح الشام ومصر المسلمين على الجزيرة العربية التي كانت خاضعة لدولة الروم بينما تنقلص النفوذ البيزنطي إلى الشمال وأصبح من الشام والمراق وكان أهلها قد خضعوا للروم وقاسوا الأقل من نظام الذيمرية ولذلك فقد رحبوا بالفتح الإسلامي الذي خلصهم من العبودية . غير أن الروم ما كادوا يرون الدولة الأموية تنفصل ببعض الأمور حتى أخذوا في مهاجمة الساحل السوري ، ولكن ممران ما قطع عليهم معاوية خط الرجعة

لفزا صقلية عام ٩٩٩ وبدأت طلائع جيش المسلمين تصل إلى القسطنطينية عام ٩٧٤ لمهاجمة عاصمة الروم من البحر وتوالى الحصار في الربيع والخريف وسمى بعد ذلك بالشوأن والصوائف ، واستمر أوبع سنوات موائية ، مما اضطر الروم إلى توقيع صلح مع المسلمين مدته ثلاثون عاماً ، غير أنه لم يلبث إلا قليلاً حتى زحفت جيوش الروم عام ٩٨٣ عبر الحدود الجنوبية فدكت حصون ملاطية وأجالت العرب عن مرهش ٩٨٣ ومازال الروم ينقضون العهد ، وعندما أرسل عبد الملك دقائمه الأولى ٩٩٢ وعليها الآية الكريمة : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » ، رفض الامبراطور قبول الدنانير ونحرك في جيش لجب إلى الحدود الإسلامية حيث اصطدم مع جيش المسلمين ٩٩٣ وخسر الروم أرمينية وعاد المسلمون إلى الصوائف ككرة أخرى .

ولما اضطربت الأمور بعد وفاة الرشيد احتبل البيزنطيون الفرصة حيث شجعوا طائفة الخرمية اتباع بابك الخارجين على الخلافة العباسية ، فلما جاء المأمون عمد إلى مواجهة الخطر البيزنطي ، فهاجم الجزء الشرقي من آسيا الصغرى وأستولى على بعض الحصون وأثار جو هاضفا من المقاومة اضطر الامبراطور البيزنطي إلى طلب الصلح ، وتوفي المأمون (٢١٨ / ٨٣٣ م) أثناء حروبه لفزو الروم ولما آلت الخلافة إلى المنعم بعد وفاة أخيه المأمون حاول الامبراطور البيزنطي الاتصال ببابك الخرمي لمعاوته في ثورته على الخلافة العباسية ، وأرسل بابك بحرض الامبراطور على غزو الدولة الإسلامية فزحف البيزنطيون إلى بلاد أرمينية ثم أغاروا على حصن (زبطره) وخرّبوا المدينة تخريباً تاماً ، هددت دول المنعم على أن يفصل بعمورية ما فعله الرومان يزبطره . وكانت عمورية تعتبر مفتاح القسطنطينية فخرج المنعم في ثلاثة جيوش عبر بهم طرطوس واقتحم بهم أبواب قليقلية وكان هو على رأس جيش في ٣٠ ألفاً (عام ٨٣٧) فوصل عمورية بعد سبعة أيام ولم تلبث قواته بعد أن حاصرتها لثني عشر يوماً أن اقتحمت المدينة وأدالت منها وهي المعركة التي قال فيها أبو تمام قصيدته المشهورة . « السيف أصدق إنباء من السكتب » . كذلك جهز المنعم أسطولاً لفزو القسطنطينية في أربعمائة سفينة .

ثم جاءت تلك المرحلة الذهبية : حينما أسس سيف الدولة مملكته في حلب عام ٨٣٩٧ والتي دامت إلى ٩٠٠٣ م فقد امتشق سيف الدولة حسام الإسلام في وجه الروم إن أن توفي ٩٦٧ حيث تحول القتال الرئيسي بين الروم والمسلمين من جبهة أرمينية إلى خط قتال جديد امتد من قليقلية إلى ديار بكر ، وكانت الحدود بين الدولتين تبدأ من نقطة مجهولة على الفرات فوق سمساط . وظلت المعارك متصلة ، وكلما وجد الروم من أحوال الدولة الإسلامية ضعفاً أو تفككاً حاولوا اقتحام الحدود

الإسلامية والاندفاع في أرض الشام ، بل أن بعضهم وصل إلى دمشق وطبرية حتى جاء ذلك النصر الحاسم الذي حققه المسلمون في (ملاذكرد) عام ١٠٧١م حيث استقر المسلمون في أرمينيا نهائياً ، وتطلّوا إلى الرها وانطاكية . وكان أرسلان قد استولى على آنى الأرمينية عام ١٠٦٣ ودخلت جيوشه بلاد الروم من الشرق والجنوب عام ١٠٧٧ فاحتلت قسطنطينية وقيصريّة . ومنذ [ملاذكرد] دخل المسلمون آسيا الصغرى واستقروا فيها وكان ذلك مقدمة لفتح القسطنطينية من بعد . وكما كانت ملاذكرد مقدمة للحروب الصليبية ، فقد كانت أوروبا ترى في الدول البيزنطية السبيل الحجاز الذي يحول بين الإسلام وبين اقتحام أوروبا فلما هزمت الروم في هذه المعركة الفاصلة ، كان ذلك إيذاناً بالتماس أسلوب آخر في مقاومة الإسلام .

(٢)

الجولة الثانية على جبهة الأندلس

حاصر المسلمون أوروبا من ناحية القسطنطينية وارتدوا عنها ، ولم يتوقف بعد ذلك الصراع بين أوروبا وبين الدول الإسلامية على حدود الشمال ، ثم اقتحم المسلمون من أوروبا من المغرب ، حيث أخذت طلائع الزحف الإسلامي تعبر مضيق جبل طارق إلى أوروبا إلى شبه جزيرة أيبيريا التي سرعان ما استسلمت للقوة الإسلامية التي سيطرت على أغلب أجزاء الأندلس إلا من جيوب قليلة كانت مصدر للانتفاض من بعد على الدولة الإسلامية . دخل المسلمون أوروبا عام ٩٢ هجرية (٧١٠م) وفتح الفتح يوسع نطاقه حتى توقف نمة بمعركة بلاط الشهداء ١١٤ هجرية (٧٣٢م) ولكن لم يلبث أن امتد بصورة أو أخرى على شواطئ فرنسا وموانئ إيطاليا دون أن يحقق السيطرة على أوروبا . ولم تكن معركة بلاط الشهداء (تور وبواتية) التي انتصر منها كارل مارتنل في تقدير المؤرخين والباحثين على بعد إلا بمثابة تعويق للخطوة الحاسمة التي خطاها الإسلام لتحضير أوروبا ومهما بدا في أول الأمر من أنها عمل قومي في مدافعة العرب الزاحفين غير أنه النظرة المنصفة قد كشفت عن أن ذلك العمل قد أوقف سعي الحضارة ، شهد بذلك : كلود فارير ومارك ستنوف وجيمس بريسبي وهنري دي شامبون وهم من مختلف الأجناس الأوروبية . يقول كلود فارير : لقد أناخت على الانسانية بعد التسمئة للميلاد كارثة ألهما أسوأ ما شهدته القرون الوسطى ففي ٧٣٣م حدثت فاجعة ربما كانت من أشد المفاجئ التي انقضت على الانسانية في القرون الوسطى وكان أن غمرت العالم الغربي مدة سبعة قرون أو ثمانية ، هذه هي معركة بواتية : برايرة الحاربيين من الأفرنج بقيادة شارل مارتنل ،

تجلبط من جرائها العالم الغربي سبعة قرون أو ثمانية في الهمجية ، قبل أن تظهر النهضة : هذه السكارة هي النصر المائل الذي أحرزته في بواتيه جماعات المركاس المتوحشين يقودها شارل مارتل على فرق من الغرب ، في مثل هذا اليوم للشثوم تفقرت أوروبا ثمانمائة سنة ، وكان يمكن أن تصل إليه فرنسا لو أن الاسلام النشيط الحسك المازق الرحب التسامح — إذ أن الاسلام هو هذا كله — استطاع أن ينتزع وطننا فرنسا من فطاش لأتيجدها إسما .

ويقول جيمس برستد : إن النصر الاسلامي في أسبانيا كان أكبر عامل من عوامل المدنية في أوروبا ، وإن انخزال المسلمين في أسبانيا كان بمثابة انهزام المدنية أمام الهمجية . ويقول مارل سمثوف لو لم يوقف شارل مارتل العرب عن السير في فتوحهم ١١٠ هـ فإن الثقافة العالية التي امتاز بها من كان يدهوم الصليبيون بالسكفار والوثنيين إحتقاراً لهم كانت أثرت قبل الوقت في أوروبا الغربية وفي المدينة الأفريقية الرومانية .

ويقول هنري دى شامبون : لولا انتصار جيش شارل مارتن الهمجى على تقدم العرب في فرنسا لما وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى ولما أصيبت بفظائمتها ولولا ذلك الانتصار البربرى على العرب لنجت من وصمة محاكم التنقيش ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية الإنسانية ثمانية قرون .

ولقد أقام الاسلام في أسبانيا (الأندلس) دولة باذخة ودخل الاسبانويون في دين الله أفوجاً ، وأعند الاسلام من عام ٩٢ هجرية إلى سقوط غرناطة عام ٨٩٨ هـ ، وفي خلال هذه القرون الثمانية واجهت الاسلام والمسلمون حرباً لم تنوقف ثم تجمعت للقوى الأوروبية كلها لتعمل على تدمير هذا السكبان السامق الذي حمل لواء الحضارة والعلم إلى القارة الأوروبية .

أما أن الأندلس الإسلامية هي التي قدمت إلى أوروبا الحضارة والعلم فذلك أمر لم يعد مجال الاختلاف الآن . فقد صدرت عشرات الكتب الأوربيية المنصفة التي قدرت هذا الفضل الذي ظل منكوراً فترة طويلة ، فقد حمل المسلمون من أقصى الأرض إلى أقصاها علومهم وخبرتهم ونجربتهم فكانت جامعات الأندلس تحمل خلاصات العلم في أرقى مراحلها ، ولذلك فإن مؤامرة اقتطاعها وأخراج أهلها المسلمين منها والسيطرة على هذا الميراث الضخم كان بمثابة أضخم مؤامرة على الاسلام والمسلمين . فقد تجمعت أوروبا البابوية بكل قوتها لتسحق هذا السكبان الاسلامي الذي بلغ أرقى درجات المدنية والذي كان مناراً للغرب كله حيث لم استطع عوامم فرنسا أو انجلترا أو ألمانيا أو إيطاليا أن

تصل إلى مثل ذلك القدر من الرق الحضارى أو العلمى حينما كانت الأندلس مؤمل العلماء والباحثين من كل أطراف أوروبا .

لقد كان فتح أسبانيا مقدمة لتحضير أوروبا كلها والوصول إلى دمشق من طريق روما فالقسطنطينية وكانت فكرة موسى بن نصير أن يعبر - بعد السيطرة على الأندلس جبال البرانس - إلى فرنسا (أرض غاليا) ومنها يسير شرقا إلى فتح روما ثم إلى فتح القسطنطينية ، وظلت هذه الفكرة ماثلة في نفوس خلفاء موسى بن نصير: السمع بن مالك الخولاني الذي غزا ولاية سبتائية التي تطل على البحر للتوسط جنوب فرنسا ، فقد هرب جبال البرانس ونزل أرض غاليا (فرنسا) كما يحدثنا محمد عبد الله هناك منعظا نحو الغرب حيث مجرى نهر الحارون . حتى وصل إلى (طولوشا) فعاصرها واستولى عليها ، وجاء من بعد هتبسة بن سليم الكلبي الذي سار على الساحل حتى وصل إلى نهر الرن ففتح بذلك إقليم بروفانس واستمر في السير على النهر شمالا مستوليا على ليون حتى وصل (أوتان) في أهالي نهر الرن ثم جاء النافقي الذي أهلك الجهاد في سبيل الله في الأندلس وفي أفريقيا ، فجاءه المنطوهون من كل مكان حتى تجمع لديه جيش كبير هرب به جبال البرنيه إلى أوبونه ثم إلى مجرى الحارون وواصل الزحف حتى وصل بوردو عند مصب النهر ثم اندفع شمالا في السهل الواسع الذي يحده نهر الوار وجنوبا نهر الحارون ، هنالك أحست أوروبا أن الزحف الإسلامى كاد أن يحقق إنطلاقه الحقة ، ومن ثم تجمعت التجهيزات بقيادة شارل مارنل في معركة تور وبوتيه المشاه (بلاط الشهداء) وكان المسلمون قد وصلوا إلى مسافة سبعين كيلوا مترا من باريس : قال جيبون : لو انتصر العرب في تور وبوتيه لكان القرآن ينل ويفسر اليوم في كسفورد وكبريدج . ولم يتوقف المسلمون بعد هزيمة بلاط الشهداء ١١٤ هـ الموافق ٧٣٢ م واسكنهم حاولوا مرة بعد مرة ، وحاد شارل مارنل مرة أخرى فطاردهم إلى حدود سبتانة وانتزع منهم إقليم بروفانس ، أما سبتاية فقد انتزها منهم شارلمان وبذلك لم يبق للعرب من أملاك فارواه جبال البرانس .

وفي ذلك الوقت استولى المسلمون على سقلية عام ٨٢٧ م وحزرا البليار ٩٠٢ م وقورسيقه وسردينية وأمنوا شرق البحر للتوسط وسيطروا عليه .

ومن ثم شهد البحر الأبيض نشاطا بحريا إسلاميا في المياه الإيطالية وجنوب فرنسا حيث هاجموا السواحل الجنوبية لفرنسا ودخلوا سويسرا ، واستولوا على أربيس ثم فتحوا أفينون وانتحموا وادى نهر الرن حتى ليون وهاجموا إقليم روما وثابولي وأغاروا على نيس وفي خلال أربمين هاما

كانت بضائهم واضحة في مختلف هذه المناطق الساحلية وقد ظل جنوب إيطاليا بأيدي المسلمين الذين أقاموا في أمارة باري حتى عام ٨٨٦ م . ونجول الأسطول الاسلامي من خليج نابولي إلى خليج سالرنو ، هذه الجولة على البحر المتوسط من (٦٥٢ إلى ٩١٦) م يصورها ول ديورانت يقول : أدرك زعماء الاسلام بعد فتح الشام ومصر أن ليس في مقدورهم أن يداخروا عن سواحل بلادهم من غير أسطول وسرھان ما استولت سفنهم الحربية على قبرص ورودس وهزمت المائز البيزنطية ثم احتلوا قورسة وسردينة واقريطش (كريت ومالطة) وبدأ عام ٧٨٢ النزاع القديم بين بلاد اليونان وقرطاجنة مرة أخرى من أجل الاستيلاء على صقلية فأرسل الأخالبة أمراء القيروان الحملة قلوبا الحملة وتقدموا إلى فتحها فسقطت الروم ومسينا وسرقوسة وتارمينا ، وأصبح للمسلمين السيادة على البحر المتوسط (من ٦٥٢ إلى ٩١٦) وأخذوا يتقدمون إلى المدن القائمة في جنوبي شرق إيطاليا حيث شرعت أساطيل المسلمين ومعظمها من تونس وصقلية تهاجم الثغور الإيطالية في القرن التاسع الميلادي فاستولى المسلمون عام ٨٤٩ على (باري) القاعد البيزنطية الكبرى في الجنوب الشرقي من إيطاليا ، وفي العام التالي انتفضوا انتفضاً سريعاً على إيطاليا وفي عام ٨٤٩ نزل ألف وثمان مائة من المسلمين في استيا وواصلوا الزحف حتى أشرفوا على أسوار روما وبذل العرب ٧٤٩ محاولة أخرى للاستيلاء على العاصمة المسيحية في الغرب فقاتلهم الأسطول الإيطالي المتحد وهزمهم ، ولكن غارتهم لم تنقطع وظلت إيطاليا الوسطى في أيديهم جيلاً من الزمان فأغاروا ٨٧٦ وهدموا واضطر البابا أن يؤدي لهم جزية سنوية ٢٥ ألف منقوص : حتى هزم العرب على نهر كرجليانو عام ٩١٦ وانتهى بذلك عصر الفتوح الاسلامية في إيطاليا وهو العهد الذي دام مائة عام كادت فيها أن تصبح ملكاً للعرب ولو أن روما سقطت في قبضتهم لزحفوا على البندقية ولو أنهم استولوا عليها لأطبقت على القسطنطينية قوتان اسلاميتان عظيمتان وبعد فقد كان مسرح الحوادث خلال القرون الثلاثة الأولى من عمر الاسلام حافلاً بالأحداث فإننا نجد أن الحكم الاسلامي قد استقر في الأندلس ، بينما كانت جبهة البحر المتوسط تواجه هذا الصراع الشديد ، وقد مضى الاسلام يسير على أطراف الدول الرومانية وإن لم يتمكن بعد من الوصول إلى القسطنطينية حتى جاء القرن الخامس الهجري الحافل بثلاث من أعظم الأحداث حيث بدأت النفرة الأندلسية تنسج فتحات قرطبة في أيدي المرصبا ، وحيث جاءت ملاذ كرد هادمة لآخر حصون الدول البيزنطية ومقدمه اساقم بعد عشر من سنة من تحرك جموع بطرس الناسك إلى عالم الاسلام .

(٣)

أوروبا قبل اقتحام الإسلام لها

كانت أوروبا في أول أمرها وثنية وكانت اليونان موئل الفلسفة الهيلينية قبل للمسيحية بستة قرون في هذه الفلسفة التي برزت في عصور موابية وتبلورت في رجالها الثلاث : مقراط وأفلاطون وأرسطو ، وكان هذا الفكر كله من نتاج المشرق ثم تشكل بصورة جديدة في أرض يونان ولم يكن هذا الفكر بعيداً عن مبادئ النبوة وتراث الأديان الخنيفية منذ دين إبراهيم وما عرفت بابل واليهودية وتراث الجوسية : ذلك الزكام المضطرب الذي اختلط فيه وحى السماء بالفكر البشرى. وقد ورثت الدولة الرومانية هذا الفكر اليوناني الملهي الذي هو تراث أوروبا الذي ما زال ممتداً خلال الامبراطورية الرومانية والذي جددته أوروبا في عصر النهضة وعبرت عن أنها امتداد له وما تزال تؤمن بذلك حتى اليوم ، هذا التراث الذي يقوم على الوثنية وعبادة الفرد قامت عليه الحضارة الرومانية التي عمرت أكثر من ألف عام التي سيطرت على سواحل البحر الأبيض وكانت الشام ومصر بلاد المغرب كلها تحت سلطان الرومان ، وقد ضمت الامبراطورية الرومانية جميع مراكز الحضارات القديمة باستثناء فارس والمهند عندما بلغت أقصى اتساعها على عهد الامبراطور ترجان ٩٨ - ١١٧ بعد الميلاد فقد امتدت الامبراطورية الرومانية عندئذ من المحيط الأطلسي غرباً حتى العراق شرقاً فشملت في الغرب بلاد بريطانيا وغاليا وليبيريا وإيطاليا فضلاً عن شمال أفريقيا من المحيط الأطلسي حتى طرابلس وشمل الجزء الشرقي من الامبراطورية : البلقان وآسيا الصغرى وأعلى بلاد النهرين فضلاً عن الشام ومصر وبقية . وقد امتد نفوذها الفكري إلى ما وراء حدودها السياسية واستوعبت شعوباً عريقة ذات حضارات قديمة كالمصريين واليونان .

وقد عاشت الامبراطورية الرومانية حتى عام ٤٧٦ بعد المسيح وقامت المسيحية طويلاً بعد ظهورها حتى اعتنقها ديناً رسمياً للدولة عام ٣٢٥ بزعامة قسطنطين الذي وضع حداً للاضطهاد الذي عانته المسيحية منذ هجرت إلى الدولة الرومانية . ولقد بدأت أوروبا تدخل المسيحية بعد هذا التاريخ واستمرت حركة التنصر خلال القرون الثالث والرابع والخامس والسادس حتى ظهر الإسلام وهجر إلى الأندلس وفي الوقت الذي كانت أسبانيا تدخل في الإسلام كانت هناك أجزاء من أوروبا ما تزال تدخل في المسيحية ، فقد بقيت أمم شرق أوروبا إلى القرن العاشر حتى تنصرت . يقول توينبي : أن الأمم الأوروبية تنصرت في القرن الثالث والسادس من ميلاد المسيح وبقيت كذلك في غفرتها طوال

عشرة قرون ثم تيقظت من نحو أربعة قرون فقط بينما نهض الاسلام بمعتقديه وأقام حضارته الباهرة منذ القرن الأول للهجرة فلم يكن الاسلام سبب تأخر المسلمين ولم تسكن المسيحية سبب تقدم أوروبا فقد كانت الأمم الأوربية مثل الاغريق والرومان من أرقى أمم الأرض قبل اعتناق المسيحية . ولقد هاشت الامبراطورية الرومانية ثلاثة عشر قرناً حتى استولى القوط الغربيون عليها عام ٤١٠ ثم أعقبهم الوندال ثم البيروليون الذين قوضوا أركان الامبراطورية الرومانية ها ٤٧٦ . ولقد كان دخول المسيحية إلى أوروبا بعد عبورها من المشرق مقدمة مرحلة جد خطيرة من تاريخها ، لقد اضطرت أن تنصير في إطار الدولة الرومانية ولم تستطع أن تنشئ مجتمعا جديداً ، واضطرت أن تقبل من أديان الوثنية وعقائدها ما يمكنها من البقاء حتى صدق عنها قول توينبي : أنها كانت تركيباً متألفاً جسوراً للاهوت اليهودي والفلسفة الاغريقية .

ثم كان « الفكر الغربي » بعد دخول المسيحية ، تركيباً من الفلسفة اليونانية والقانون الروماني واللاهوت المسيحي ولكن الأمر الذي هو موضع التقدير : أن المسيحية نقلت أوروبا من الوثنية ومن العبودية ومن الاستعلاء والظلم والقتل والقسوة - فترة من الزمن - إلى معرفة الله وإلى الرحمة وإلى السباحة غير أن هذا التحول لم يلبث أن تطور إلى طابع من طوابع الزهد والاهتساف في الصوامع والربانية والانصراف عن الحياة والعزلة عن الحركة على نحو فلسفي كاس يكره المرأة ويحتقرها ويرفض العمل والاتصال بالناس ، وقد ظل هذا الطابع يحكم الغرب حتى هب الاسلام إليها فألقى إلى الفكر الغربي مفاهيم المسئولية الفردية والعمل والتجريب والتحرر من الرضاية بين الله والانسان ورفض صكوك الفران وعبادة الصور .

ولاريب أن هذا التحول من الوثنية اليونانية إلى اللاهوت المسيحي ، كان خطوة واسعة وعميقة نحو التحول الخطير الذي أحدثه الاسلام الذي قبلت أوروبا فكره ونشأه وتحفظت إزاء عقيدته هذا الأمر الذي كان بعيد الأثر في نشوء الحضارة الغربية الحديثة التي قامت أساساً على التجريب الاملاي ولذلك فإن رأى جيبون لم يكن يمثل النظرة المنصفة أو الصادقة .

وإنما يمثل النظرة المتعصبة ، حين يقول أن المسيحية كانت المول الهدام لكافة القيم الاقتصادية والعسكرية والسياسية «للامبراطورية الرومانية» وأن اعتناق قسطنطين للمسيحية قد هجل بالخطا الامبراطورية وإن كان قد اعترف بعد بان دين قسطنطين المنصر قد عمل على تهذيب وحشية الفاتحين . ولاريب أن أن المسيحية كانت هاملاً هاماً في تهذيب شعوب أوروبا وكانت قاضية على قدسية

الامبراطور ، وطريقا إلى إزالة هرش العبودية والنظام العبودي غير أن المسيحية لم تستطع أن تحرر المجتمع الأوربي تحريراً كاملاً لأن الصورة التي اقلت بها إلى الغرب لم تكن صادقة أو سليمة ، وإنما كانت خاضعة لتفسيرات لم تستوعب حقيقة الدين المنزل ، فضلاً عن سيطرة مفاهيم الأديان الوثنية الموجودة في البيئة الرومانية بعد تسربها إليها وقبول الدهشة لها رغبة في كسب الجماهير الوثنية بتقديم مفهوم قريب من اعتقاداتهم ولو أن المسيحية المنزلة عبرت إلى أوروبا صحيحة السكائن تمهيداً طبيعياً لاعتناق أوروبا للإسلام : عقيدة ونظاماً .

يقول جيون : أن تعاليم المسيحية (التي يرى أنها كانت هاملا على سقوط الامبراطورية الرومانية) كانت مشبعة للهمم الاقتصادية بدعوتها إلى الكفاف أو الرزق اليومي في أبسط أشكاله ، ناهيك عن التطاحن بين الفرق المسيحية من جهة وبين بعضها والسلطات ، والحق أن هذه المفاهيم من الكفاف والرهانية لم تكن من أصول المسيحية المنزلة فضلاً عن هذا التطاحن الذي لم يكن من أصول الدين : أي دين . وهناك إجماع على أن الفضل يرجع للمسيحية في تهذيب بربرية أوروبا .

والحق أن أوروبا قد عاشت صراها شديداً بين الامبراطورية الرومانية والفكر الملقى من جهة وبين المسيحية من جهة أخرى ويقدم لنا (ول ديورانت) هذه الصورة لهذه المرحلة :

« إن إدخال المسيحية أو على الأقل إسائة إستعمالها كان له بعض التأثير في انحطاط الدولة الرومانية وسقوطها ، فقد نجح رجال الاكليروس في التبشير بأنها تدهو إلى الصبر وإيثار الجبن والواقع أنها لم تشجع الفضائل التي تبث على النشاط في المجتمع ، ودفعت بقايا الروح الحسرية في الأديرة وإلى جانب كبير من الثروة العامة والخاصة التي أوقفت لمطالب البر والورع الموهبة وكانت رواتب الجنود توزع في إسراف على جماهير من الرجال والنساء لآخر فيهم وليس في استطاعتهم سوى أن يشربوا بمزاي الزهد والتعفف وفضائل العفة والطهارة والإيمان والحساسة والفضول ، وكذلك فإن نوازع الحقد والضغينة أشعلت نيران الخلاف اللاهوتي وشغلت الكنيسة بل الدولة باطلاقات الدينية التي كان النزاع حولها في بعض الأحيان دموياً ودائماً لا نهياً حدثه . لا ريب أن أوروبا سقطت خلال هذه الفترة في مرحلة الزهادة والأديرة ، التي كانت بعيدة الأثر في جهود المجتمع الغربي ونساده حتى جاء الإسلام فخر أوروبا من هذا التحدي الخطير . أما الامبراطورية الرومانية فإنها سقطت بعامل التحلل والتفرف وبواهب الرخاوة والتخلف التي كانت السبب المباشر الذي أهجر أهل روما عن صد غارات القبائل الهمجية على حدود دولتهم كما يعبر عن ذلك المؤرخ جيون حين يقول :

إن الترف والتخنث الذى تبعه هاشيب مقوط الأمبراطورية ، وذلك أن الفساد الذى نشأ فى البلاط وشاع فى المدن نقت السموم فى معسكرات الفياالى مما أوجد هدم القدرة على النبات فى مواجهة الشدائد التى أصابت الفياالى الرومانية التى كان نفثى الترف فيها هو السبب المباشر فى تدهور الأمبراطورية وسقوطها . هذا بالإضافة إلى فقدان العدالة فى توزيع الضرائب الضيق الذى عاناه الشعب من جراء قسوة الأغنياء والمياسير ، والإمراء . أن هذه هى علامات سقوط والأم والحضارات ولكن المسيحية — التى تحولت إلى دين عالمى لم يكن ذلك من خصائصه — هجرت عن إعطاء أوروبا مفهوما كائلا سواء فى العقيدة أو العلم أو المعرفة لأنها كانت فى أصلها الأصيل ديناً مكللاً لرسالة موسى وخاصة بنى اسرائيل ، وهى بالجانب الأخلاقى فيها — وحدة — استطاعت أن تعلم القبائل الهمجية العدالة والرحمة والصدق والعدالة على حشد قول جييون ، ولكنها هجرت أن تحول دون سقوط أوروبا فى هذه الزهادة والرهبانية والإقامة فى الأديرة واحتزال الحياة وقد امتدت هذه الفترة حتى أوائل القرن الخامس هشر الميلادى ولم يخرج أوروبا من هذه التجربة الخطيرة إلا الإسلام الذى آذن بدهوته إلى تحرير إرادة الفرد ، والدعوة إلى العمل ، والتجريب الذى كان الإسلام رائد منهجه إلى البشرية كلها .

ولقد كان مقوط الأمبراطورية الرومانية فى الغرب عام ٤٨٦ مقدمة لسيطرة المسيحية ، التى لم تلبث أن أقامت فى روما كنيسة الكاثولسكية الكبرى التى حكمت أوروبا حتى عصر النهضة وكانت حاملة لواء الحرب العنيفة المقدسة التى شنتها على الإسلام فى جناحيها الأول ممتدا إلى الأندلس لاجلاء الإسلام منها ، والثانى للمتحدى إلى الشام بالفتو الذى قادته الحروب الصليبية مدى قرنين كاملين . فقد كانت البابوية الرومية هى التى تحمل لواء هذه المعركة الممتدة شرق البحر للمتوسط وغربه .

لقد انتقلت القيادة من قصور الأباطرة السياسية إلى أروقة اللاتران (الكنيسة) إذ غدا البابا أهم شخصية رومانية باقية فى إيطاليا ، كما سيطرت الكنيسة على مختلف نواحي الثقافة مما كان له أهمق الأثر فى حياة المجتمع الأوروبى ، ومن ثم بدأ بدأت مرحلة (المصور الوسطى) المظلمة فى غرب أوروبا وقد حددها المؤرخون بالفترة الواقعة بين ذلك العام (٤٨٦ م) وبين نهاية القرن التاسع الميلادى ومطالم القرن العاشر .

وقد أخذت المسيحية تنشق طريقها فى العالم الهلبنى لتقيم نظاما اجتماعياً ونفسياً مخالفاً لما كانت عليه الحضارة الهلنبية والرومانية : كانت الديانة الهلنبية تؤمن بتعدد الإلهية فإذا بالمسيحية تدهو إلى

فكرة جديدة قوامها التليث والخطيئة والصلب التي ستكون بعد من أكبر التحديدات في وجه الفكر الأوربي ، يقول توينبي : أنه بالرغم من أن للمسيحية قد اكتسبت الهلينية سعراً طاهياً كان كفيلاً بأن بأسر النفوس الهلينية ، فإنه لم يكن في وسع المسيحية ذاتها بعد حملة تشق طريقها في العالم لو لم تتخذ لنفسها «نبأاً هليينياً» مثلما فعلت الديانات التي قصدت لمنافستها ، وهذا اعتراف من المؤرخ الكبير بأن المسيحية اهتمت بتفسيرات من خارج أصولها الأولى .

ومن الحق أن هذه الأفكار الثلاثة التي بثتها المسيحية الغربية وهي [التثليث والخطيئة والصلب] كانت تحفل بها الأديان البشرية العديدة التي تملأ العالم إذ ذاك وخاصة الديانة الهندوكية والديانة المندية التي كانت تعيش في قلب أوروبا . كانت اليهودية قد تأثرت بالديانات البشرية البابلية وغير كما تأثرت المسيحية بالهلينية وسيطرت عليها الفلسفة اليونانية مما تشكل بعد من خليط عجيب يسم (الأفلاطونية الحديثة) التي شارك فيها اليهود والمسيحيون متأثرين بأرسطو وأفلاطون . ولعل الأمر الوحيد الذي استطاعت المسيحية أن تحول أوروبا عنه هو فكرة عبادة القديس ، وكان الهلينيون يؤمنون : أما المسيحية فقد أقنعت الهلينيون أنه ليس في استطاعة الإنسان أن يؤله نفسه ويقول من القصص واسكن المسيحية لم تستطع أن تتحرر تماماً من عبادة الإنسان حين أقامت قاعدة التثليث وجعلت لسيد المسيح رسول الله الإنسان جانباً الهياً يعبد .

وقد ظل طابع الفكر الهليني مسيطراً على المسيحية التي حاولت التمايش مع مجتمع الحضارة الرومانية ولذلك فإن أوروبا لم تنقل ثقلاً واسعة بعد أن تمسحت لأن القانون الروماني ومفاهيم الثقافة والاجتماع الهلينية ظلت مسيطرة ، لقد صارت المسيحية الوثنية ثلاثمائة سنة تقريباً حتى استقرت ولسكنها لم تكن إلا مفهوماً مغايراً للمسيحية وخليطاً مضطرباً ، لم يستطع أن يقضى على الوثنية أو العبودية الرومانية قضاءً نهائياً ومن ثم لم تعد المسيحية إلا عنصراً من عناصر ثلاث ، وقد عاشت المسيحية مرحلة مضطربة قبل الإسلام ، ثم جاء الإسلام وهب إلى أوروبا من الشرق ومن الغرب وآثاراً ثارت كثيرة في نفس الوقت الذي كانت أوروبا تمتشق الحسام لتحول بين الإسلام وبين السيطرة على الغرب كان الفكر الإسلامي يؤثر ويغير في أعماق أفكارها ومجتمعاتها فإنه ما كادت أمم الغرب المسيحية تستعيد طليطلة الاسلام عام ١٠٨٥م حتى أخذت تستوهب الفكر الاسلامي وتتمهر فيه فقد بدأت ترجمة المؤلفات العربية إلى اللغة القشتالية ومنها إلى الانجليزية والفرنسية واستمرت زهاء قرن كامل ، وهيت بالدرجة الأولى بمؤلفات العرب في الطب والفلك والنجوم والرياضيات والفلسفة،

وقد قامت هذه الحركة في طليطلة تحت إشراف الأسقف (ريمون) وجاءت وفود من روما ومنهم جيرا الكريموني الايطالى الذى لمع اسمه في روما ١١٤٩م وبعد الأب الحقيقى للحركة العربية في أوروبا فقد ترجم أكثر من سبعين مؤلفاً عربياً وقد اشتهرت حركة الترجمة من العربية إلى الأسبانية واللاتينية فأمة في أسبانيا إلى أن سقطت غرناطة في يد المسيحية عام ١٤٩٢ وبسقوطها طرد العرب نهائياً من أسبانيا وأرغم من بقى على التنصر وقد لقي التراث الإسلامى اضطهاداً بالغا من بعد أن حجزت كتب الطب والعلوم أضرمت النيران في كتب المسلمين ولم يعد الغربيون يذكرون المسلمين بأى فضل أو أثر . وكان هذا التراث الإسلامى هو الذى هز أوروبا من أعماقها وذلك معاقل الوثنية الرومانية واليهودية المسيحية وفتح الطريق تماماً أمام ما يسمى بمصر النهضة . يقول ول ديورانت : أحدثت هذه التراجم كلها في أوروبا اللاتينية ثورة عظيمة الخطر كما أحدثت تطورات خطيرة في النحو وفقه الفقه ووسعت نطاق المناهج الدراسية وأسهمت بنصيب في إنشاء الجامعات . وكان هجر المترجمين أن يجدوا مفردات لاتينية تؤدي المعانى التى يريدون نقلها إلى تلك اللغة هو الذى أدى إلى دخول كثير من الألفاظ العربية في اللغات الأوروبية ، هذا وقد أدخل المسلمون إلى أوروبا أخطر ثلاث ركائز كبرى للحضارة : (١) الجبر (٢) علامة الصفر (٣) النظام العشرى في الحساب هذا إلى علوم الطب .

(٤)

أوروبا في الإسلام

وقفت أوروبا ممثلة في الكنيسة المسيحية موقفاً صارماً عنيداً وركزت تركيزاً شديداً على مقاومة وجود الإسلام وذلك بالمقاومة والعدوان عن طريق الحدود البليغز نظرية الإسلامية من ناحيته والوجود الإسلامى في أسبانيا وظلت أوروبا تمس بالأثر العميق الذى تركه استيلاء الإسلام على المناطق العربية التى سيطرت الدول الرومانية عليها أمداً طويلاً ، ثم ظلت أوروبا المسيحية تنظر بحذر إلى نمو الإسلام وتستشعر الخطر في داخل الفكر الغربى نفسه ، يقول تويجى : « عندما كانت حضارة الغرب تنحصر إلى الهاوية في القرن السابع المسيحى ظهرت الحضارة الإسلامية الفنية ، أصابت الغرب نوبة هستيرية لظهور هذا الخطر الجديد وأشد ما خشيه الغرب من الحضارة الإسلامية الناشئة أنها كانت تستند إلى مثل أعلى فوق المسادة لا يتنفع في دفعه ما لدى الغرب من أسلحة مادية » ومن هنا كانت تلك الحملة الضخمة التى قادتها البابوية ودهت إليها ملوك أوروبا لمؤازرتها في مواجهة الإسلام وصدته عن أوروبا ،

أولا بالقضاء على وجوده في أسبانيا وفي نفس الوقت باقتحام حدوده من دولة بيزنطية ككرة بعد أخرى، ثم بإعلان الحروب الصليبية. ولقد كانت البابوية من الناحية الرسمية هي التي تنطق بلسان الدين للسيحي وكانت للكنائس والأديرة أملاك ضخمة واسعة، وكان عدد من الأساقفة ينعقدون من أمر النبلاء فكان يديرون أملاك الكنائس على النمط الذي يدير به أمراء الإقطاع أقطاعاتهم. كان لكل أسقف ولكل صاحب كنيسة جامعة فرسانه وأتباعه الذين يقدمون ولاءهم ويقسمون منه قطائعهم وكان أخطر رجال البابوية جريجوار السابع والبابا أرويان الثاني والأول دور الخطين في تحول القتال بين المسلمين والمسيحيين في أسبانيا إلى حرب صليبية شاملة شاركت فيها أوروبا على اختلاف أقطارها وكان لها آثارها البعيدة في حياة أسبانيا الإسلامية، أما الثاني فكان له الدور الأول في انتقال الحروب الصليبية إلى شواطئ البحر المتوسط من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب وهذا الدور وحده يمثل أصدق تمثيل للنفوذ السياسي للكنيسة داخل الحياة الأوروبية ذاتها. وقد كان للبابا جريجوار السابع الذي تولى البابوية ١٧٠٣ م نفوذه الخطين حتى قيل: إن انتصار البابوية قد تجاوز كل تصور، لقد بدت الكنيسة وكأنها الحاكمة بأمرها في الدنيا. ومن قبل جريجوار السابع كانت خطة حرب الإسلام في الأندلس قد تم إقرارها ففي عهد البابا اسكندر الثاني ١٠٦٣ اندفعت موجة من فرسان الشمال وخاصة من النورماندين إلى أسبانيا وانتزعوها (حصن بريشير) من أيدي المسلمين بعد مذبحة هائلة. أما جريجوار فقد تجاوز التمهيد إلى الدهوة الصريحة بوجهها البابا نفسه إلى الأمراء يحضهم على المشاركة في الحرب للقعدة ويملن مقدما سيادتهم على الأراضي التي ينتزعوها من المسلمين وقد كان من مرة ذلك سقوط مدينة طليطلة (٦ مايو ١٠٨٥) بعد حصار هامين وهو الحدث الذي كان مقدمة لنصفية الأندلس: الفردوس الإسلامي. في القرن العاشر للسيحي والإسلام ما يزال غضا لم يكمل العقد الخامس بعد، مدت أوروبا كلتا يديها بالمعدن على الإسلام في قرطبة بأرض الأندلس وفي الحروب الصليبية على جبهة للشرق ١٠٩٦. وقد تناول كثير من الباحثين موقف البابوية من مجتمع الغرب الأوربي حيث يقول مؤلف تراث العصور الوسطى (كوب — جا كوب) أن البابوية بلغت أوج سلطانها في زمن البابا أنوسلت الثالث الروماني للمعز برومانته المريقة، الذي رفع شأن البابوية وسلطانها إلى أعلى هليين، إذ فرض الكنيسة الرومانية فرضا على القسطنطينية وكنيستها الأرثوذكسية وأزل الحرمان الديني بافيلترا وفرنسا وبدأ أعظم الحروب الصليبية الأسبانية نجاحا ضد دولة المسلمين وعمل على إثارة ملوك أوروبا لمساعدة الفونس الثامن ملك قشتالة في حملة صليبية أوربية ضد اللوحدين أصحاب أسبانيا الإسلامية، هذه الحملة الصليبية التي انتهت بهزيمة الموحدون

في موقعة لاس نافاس دى تولوز عام ١٢١٢ م وبذلك خضعت الملكية في أوروبا البابوية ، وحيث أصدر قراراً بحرمان البارونات من رحمة الكنيسة وأخذ يمين الأباطرة ويعزلهم وفقاً لشروط ملائمة للكنيسة وقد وصفت بابوية أنوفست الثالث بأنها ثيوفراطية استبدادية ، وذلك لاعتقاده العرفي بأن البابوية خليفة المسيح في الأرض وأن البابا ملك في الأرض وأن البابا ملك في أمور الدين والدنيا وله السلطة المطلقة في كل شيء ومن حقّه أن يكون اختيار الأباطرة وفقاً على مشيئته . كذلك فإن البابوية أعلّنت حرباً بمساعدة ملك فرنسا ضد إيطاليا وأسبانيا عام ١٢٨٢ هذه الحرب حرّمتها عن مواصلة الحرب الصليبية في الأراضي المقدسة وأهّقت مشروع تحالفها العسكري مع المغول للأطباقي على العالم الإسلامي من أجل تخليص الدولة الصليبية وقد كان لانشغال البابوية في مهمة السياسة الأوربية المصارعة في إيطاليا أثر كبير في إنبيار الدولة الصليبية نهائياً ١٢٩١ وقال اللورد اكنون أن البابوات في القرنين ١٣ ، ١٥ وصنعوا نظاماً للاضطهاد المنظم ، هذا الاضطهاد وهو أبرز الواقع البابوية في العصر الوسيط وأنه لا يمكن تجاهل الشدة ووجود حجرة التمييز والقائمة التي يشد إليها من يحرقونه . لقد اكتسبت أوروبا هتفها من ميراثها الروماني القديم الذي جاءت المسيحية لتزيله فكّات في نشرها المسيحية كذلك عنيفة مدمرة وكّات في صراعها بين الفرق قاسية دموية ، فقد كان الملوك يسوقون أمام فتوحهم الرهبان لنقل للناس إلى مناهبهم بالقوة ، ونزوى في ذلك قصص عديدة منها ما حدث في فرنسا على يد البارون (سيمون رى مونفور) الذي توجه بأذن البابا على رأس لفيق من البارونات الفرنسية ومهم فرقة من الرهبان إلى مقاطعة لانج روك لاستئصال الديانة الجوسية فأغرقوا الإقليم كله في أنهار الدم والنار حتى أهلكوا من كان فيه من الجوس ، أين هذا من سماحة الإسلام الذي لم يجبر أحداً على الدخول فيه ، ويفسر هذا الاتجاه الأوربي بعد المسيحية ما ذهب إليه القاضي عبد الجبار حين قال : ما تنصر الروم ولكن النصارى تروموا ، إذ بدأت في روما نصرانية لا يعرفها السيد المسيح وهي التي تولد عنها من بعد صكوك الغفران وكرسي الاعتراف ، أما بالنسبة للإسلام فقد كان الموقف هنيئاً . فنذ أن توحشت أوروبا أو انضمت جزء كبير منها تحت قيادة شارلمان عام ٨٠٠ ميلادية أهدت أوروبا لتسكون قلعة صليبية تمنع انتشار الإسلام يقول برناردشو : لقد عمد رجال الاكليروس في العصور الوسطى إلى تصوير الإسلام في أحلك الألوان ، والواقع أنهم يسرفون في كراهية محمد وكراهية دينه ويمدونه خصماً للمسيح ، أما أنا فأرى واجباً أن يدعى محمد منقذ الانسانية وأعتقد أن رجلاً مثله لو تولى زمامه العالم الحديث لنجح في حل مشكلاته . والواقع أن أوروبا لم تقبل مزاحمة الاسلام لها وهي التي وضعت قاعدة لم تتخلف قوامها أن على المسلمين أن ينهوا من أوروبا بالهجرة أو بالتنصير أو بالإبادة .

(٢)

كانت خلعطة للمسلمين أن تركوا تلك الثغرة الواقعة في الشمال الغربي من شبه الجزيرة والتي تعرف باسم (إقليم جليقية) دون السيطرة عليها ، يقول ول ديورانت : أن العرب لم تطمع في امتلاك هذا الإقليم لفقره وورده فأنحاز إليه البقية الباقية من نبلاء القوط المغلوبين ورجال الدين ونمت فيه بذرة الدولة الأسبانية التي ما تزال باقية حتى الآن . وقد ظلوا يترقبون الفرص لتوسيع رقعتهم فلما كانت الحروب الأهلية بين عرب الأندلس من ناحية وبينهم وبين البربر ؛ انهمز هؤلاء النصارى الفرصة ووصلوا بملكهم إلى ضفاف نهر دويره واحتلوا مدينة ليون وجعلوها عاصمتهم وأصبحت مملكتها تسمى مملكة ليون ، وظل أمرها على هذا الحال وهي تنقسم رويداً رويداً في المنطقة التي خلت بزوح البربر إلى الجنوب أو هودتهم إلى أفريقيا على أثر انهزامهم أمام العرب حتى إذا ما وصلوا إلى عصر ملكهم الفونسو الثالث نجد هذه الإمارة تحتل مدينة سموره ، وقد أصبحت حصن إمارة ليون لمواجهة المسلمين عند غزوم لبلاد النصارى وقد عاجبها المسلمون وخربوها مراراً حتى سميت (سمورة الخراب) أما من ناحية الشرق ونعني به الممالك النصرانية التي قامت وظهر أمرها فيما يلي الثغر الأندلسي الأهل فيما بين نهر أبرو ونهراته وجبال البرانس . فقد نشأت كلها في الجبال نظراً لاشتداد الخطر العربي من الجنوب ومن الجبال امتدت في البسائط شمالها وجنوبها أي أن جبهتها الشمالية كانت مناخية (لأوروبا النصرانية) وجبهتها الجنوبية مناخية (لأسبانيا الإسلامية) وهذا الاتصال بين الإمارات النصرانية جعلها أقرب إلى تيار الحضارة كما جعلها على صلة بالبابوية والعلم الكاثوليكي وقد ظلت هذه الممالك تتقدم في أرض الأندلس . ومنذ سقوط الخلافة الأموية وقيام عصر ملوك الطوائف استجمع نصارى الشمال قوتهم للوثوب حيث وحد الأذفولس (القولسو السادس) تحت أمرته (استوريا — ليون ، قشتالة) وقد ظل يستولى على الحصون والقلاع واحداً إثر الآخر حتى وثب وثبة حاسمة استولى بها على طليطلة الإسلامية عام ١٠٨٥ م . وبينما كانت البابوية تغذي هذه للأمر في أسبانيا الإسلامية كانت تغذي مؤامرة أخرى على سواحل الشام ، حيث بدأ عصر الحروب الصليبية التي توالى على المشرق الإسلامي خلال قرنين كاملين . سقطت (طليطلة) عام ١١٧٨ م واقتحم الصليبيون القدس ١٢٩٢ م وبينهما خمسة عشر طاماً وكان ذلك بداية عصر من التمرد الخطير قوامه الصراع بين الإسلام وأوروبا للمسيحية على كل من الجهتين في وقت واحد . حيث بدأت في أسبانيا ما أطلق عليه حركة الاسترداد Reconquista التي امتدت إلى سقوط

غرناطة ٨٨٩٨ م ١٤٩٢ م . وكانت موازية لها في الشرق الحروب الصليبية التي انتهت ١٢٩١ م ١٢٩٠ م بالهزيمة الساحقة للمغرب بينما جلى آخر مسلم عن الأندلس إلى المغرب بعد ذلك بقليل . وكان هذا مقدمة لما بعده ، فقد سيطر العثمانيون واستطاعوا أن يحتلوا القسطنطينية قبل سقوط غرناطة بقليل عام ١٢٥٤ م ٨٥٧ م وأن يزحفوا ليحوم البحر الأبيض المتوسط من المتوسط من الغزو الماكس الذي بدأت البرتغال وأسبانيا بعد إجلاء المسلمين عن الأندلس والذي استمر ثلاثمائة عام تقريباً على جبهة (الجزائر تونس . المغرب) والذي أطلق عليه حرب الثلاثمائة عام والذي لم يلبث أن تحول إلى الاحتلال الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠ كمقدمة للاحتلال الأوربي لمصر وتونس والسودان وغيرها بعد أن كانت هولندا وبريطانيا قد سيطرتا على جزر الملايو والهند قبل ذلك وهكذا نجد أن المعركة لم تتوقف ، وأن أوروبا منذ ظهور الاسلام وهي تبحث لمقاومته في أوروبا ثم هي لا تلبث أن تسدع وراء الاسلام إلى أرضه لتطوقه وتشدد الحصار ثم تسيطر عليه مما لا تزال إثارة قائمة إلى الآن .

(٥)

اجنحة المعركة : من الأندلس إلى الشام

(على جبهة الأندلس)

بدأت المعارك على الجبهتين : جبهة الأندلس وجبهة في الشام في وقت واحد . أما في جبهة الأندلس فقد سقطت طبلطة الاسلامية في يد القوط ٤٧٨ م (١٠٨٥ م) بعد ثلاثة قرون إلا قليلاً . فكانت نذيراً للوجود الاسلامي كله في الأندلس بالمؤامرة عليه ، مما دفع ملوك الطوائف إلى الاستنجد بمسلمي المغرب حيث هب يوسف تاشفين إلى الأندلس وهاجم الفرنجة في معركة (الزلاقة) الحاسمة التي كبدت الفرنجة خسارة فادحة وكتبت للأندلس عمراً جديداً امتد نحو قرنين من الزمان ويقول ول ديورانت : كانت غارات المسلمين على أسبانيا عام ٧١١ م قد دفعت من لم ينلبوا من القوط والسويغي والبرابرة الذين اعتنقوا الدين المسيحي والسكان من سكان شبه الجزيرة إلى جبال الكنتبريان في الشمال الغربي من أسبانيا وطاردتهم المسلمون في هذه الجبال ولكن قوة صغيرة هزمتهم عند (كفاذ نجا) ٧١٨ م وأسست المملكة الأسبانية وعلى أثر هزيمة المسلمين في (تور) امتدت الحدود من أستوريا إلى جليقية ولوزينايتا وبسكاليا ثم ضمت ليون . وإلى شرق أستوريا ، وفي جنوب جبال البرانس مباشرة تقع (نبره) وقد أفادتهم جبالهم منعة في حماية استقلالهم من المسلمين والفرنجة

والأسبان . وفي الفترة ما بين ٩٩٤ / ١٠٣٥ م استولى ملك (نيرة) على ليون وقشتالة وأرغونة حيث قامت مملكة أرغونة التي استطاعت أن تدفع المسلمين إلى الجنوب وقد سميت قشتالة نسبة إلى قلعها (كاستل) التي كانت تواجه الأندلس الإسلامية وتقفى حياتها في التأهب للحرب ، ثم كان سقوط خلافة قرطبة ١٠٣٦ فرصة ثمينة اغتنمها الفونسو السادس (الأذفش) ملك قشتالة فاستولى على طليطلة بمعونة المعتمد ملك أشبيلية ١٠٨٥ واتخذها عاصمة للملكة وعامل للمسلمين معاملة سيئة . يقول : كان القتال بين الممالك المسيحية في الشمال والدولة الإسلامية في الجنوب إلى أن ظهرت مملكة قشتالة التي خلقت أسبانيا خلقاً فاضطلعت بالحرب وخاصة في القرن الثاني عشر كما اضطلعت بتوحيد أسبانيا بعد ذلك في القرن الخامس .

هذه المملكة المسيحية الصغيرة التي لم تمت ، والتي نمت خلال فترة لا يزيد على قرنين والتي حملت لواء الغزو ضد المملكة الإسلامية الأسبانية وكان دورها في سقوط طليطلة نذيراً بالخطر الدائم على الإسلام، هذا الخطر الذي أحس به ملوك الطوائف . وتقابل هذه الفترة مرحلة تركزت فيها الجهود للقضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس هي فترة الحملات الصليبية للتوالية على بيت المقدس وسواحل الشام ومصر . وفي العام التالي مباشرة لسقوط طليطلة (وفي ١٥ ربيع الأول ٤٧٩ هـ) عبر يوسف تاشفين قائد المرابطين وحاكم المغرب إلى الأندلس في جيش ضخم فنزل بأرض الجزيرة الخضراء ، قرب مدينة بطليوس في بسيط فسيح بالزراعة حيث اشتبك في واحدة من أعظم المواقع الفاصلة التي جرت بين المسلمين والأسبان قتل فيها معظم جيش العدو ويقدر بمائة ألف شخص وكسرت شوكة الأسبان . وكان الأسبان قد أجمعوا أمرهم على طرد المسلمين من شبه الجزيرة الأندلسية بعد أن عمزت وحدة الحكم فيها وظهر ضعف ملوك الطوائف وكانت المعركة في ١١ رجب ٤٧٩ (٢٣ أكتوبر ١٠٨٦) حيث سلم الملوك على يوسف بن تاشفين باسم أمير الملوك الذي كره عائداً إلى مراکش تاركاً لهم القنائم وفي ٥٨٠ هـ جاز إلى الأندلس جوازه الثاني برسم الجهاد حيث حاصر حصن لبط مليبيا نداء استنجد أهل بلنسية ومهسية ولورقة وبسطه ، وترك جيشاً لحماية النغور ومطاردة العدو ، ثم جاز الأندلس جوازه الثالث ٨٤٨٣ هـ حيث نازل طليطلة فخامرها والفونس بها فهتكها وقطم عمارها وخرّب ناحيتها لإنقاص ما فعله فعله جيش الفونس بالمسلمين . وفي هذه المرة لم يأت أحد من ملوك الأندلس ، فلما شفى نفسه من طليطلة سار إلى غرناطة وكان صاحبها قد ظاهر الفونس فأخذها من يده ، وهي مائة . ولم يلبث أن صفى ممالك الطوائف . بعد أن رد أسباب الخذلان والمزجعة إلى حياة الهم والاستمرار التي كان يحياها ملوك الطوائف ، قال ابن خلدون : توافق ملوك الطوائف على قلع المدد عن حساك أمير

المسلمين فساء نظرم فيهم وافتاء الفقهاء وأهل الشورى بخلعهم وانزع الأمر من أيديهم . وتابعت دول الموحدين ما بدأت دول المرابطين من الجواز إلى الأندلس وتلبية نداء المسلمين ، فقد قاد الخليفة المنصور بالله بن يعقوب بن يوسف حملة كبرى إلى الأندلس ٥٥٨٠ م (١١٩٥ م) وانتصر على الأسبان في موقعة الأرك ، وأهبطها انكسار المسلمين في موقعة العقاب ٥٩٠٦ م (١٢١٢ م) . لم يتوقف المغرب المسلم عن مناصرة مسلمي الأندلس ومقاومة الحملة الصليبية على شاطئ البحر المتوسط فقد قام الحفصيون في تونس بمقاومة الحملة الصليبية الثامنة التي قادها لويس التاسع الذي انهزم في معركة المنصورة قد كلفه الأفرقة في تونس حياته كلها وقامت قوات الجزائر بدورها الحاسم في معركة على أرض قرطاجنة مما أدى إلى هزيمتها ٥٦٦٩ م (١٢٧٠ م) . وكان ذلك مقدمة لما قامت به قوات الجزائر في مقاومة القراصنة الأوربيين الذين ما فتشوا يهاجمون السواحل الجزائرية وموانئها وقامت مدينة بجاية بدور كبير في حركة المقاومة لرد العدوان الأوربي واقتحام مراكز القراصنة في موانئ أوروبا نفسها كإسبانيا والبندقية وجنوة وصقلية . ولم يبق للمسلمين بعد هذه المعارك إلا مملكة غرناطة التي استمرت منذ ٥٦٣٣ (١٢٣٥) إلى ٥٨٩٨ م (١٤٩٢ م) ، هذه الدولة الوحيدة التي بقيت قائمة ما يزيد عن القرنين ونصف القرن حتى كانت معركة السنوات العشر (٥٨٨٨ — ١٤٨٢ م) إلى (٥٨٩٨ م ١٤٩٢ م) التي شنها الملك الكاثوليكي فرناندو والملسكة إيزابيلا صاحبي عرش مملكتي قشتالة وأراجون تؤيدهما بالمال والسلاح والرجال كل القوى المسيحية في أوروبا لإطاعة لأمر البابا الذي فرض على الدول ضريبة دهاها (ضريبة الصليبية) وفي هذه المرحلة ظهرت البطولة المضحية التي استبانت في سبيل الحفاظ على ما بقي من أرض الإسلام بقودها موسى بن النسان الذي وقف ضد الاستسلام قائلا : أي باعث نبأ إلى الياس فإن دم الأبطال عرب الأندلس فأهني هذه الديار يجري في هروقتنا وهندنا قوة وافرة وجيوشاً معودة مجربة في الوقائع لا ترتاب في إقدامها ولدينا عشرون ألف شاب يمكنهم أن يدافعوا عن دورم وأسوارم ، ومن ألحق أن مملكة غرناطة لم تستسلم ولكنها قاومت بكل ما عملك ، لم يتوقف المسلمون لحظة عن البذل والتضحية في سبيل وجودهم ولكن سلطات الحكم كانت قد تمزقت وغلبها الخلاف ودمرها الترف .

يقول واشنطن أرفنج : أن هذه الحرب (حرب تحكيم مملكة غرناطة) حقبة عظيمة الشأن في تاريخ الدهر بما تخللها من باهر الثبات والإصرار فإن النكبات توالى فيها على المغاربة (أهل الأندلس) عشر سنوات دون انقطاع فأخذت مدائنهم الواحدة بعد الأخرى وأنت رجالاتهم قتلا واسرا ، فقد قاتلوا عن كل مدينة وبلدة وحصن وبرج ، بل عن كل صخرة كأنعام ينتظرون الفتح ،

ولم يجدوا مكاناً يثبتوا فيههم أقدامهم ولا جداراً يمكنهم رمي السهام من ورائه إلا واعتصموا به
ينازعون المدو وطنهم المحبوب حتى لم يبق إلا عاصمتهم مقطوعاً عنها كل مدد غير طامعة في أى غوث
يتنزل عن أسوارها ، أمة بقضها وقضيضها لم يزالوا يدافعون عنها كأنما هم يترقبون معجزة . « وبني
فردنيانندو مدينة كاملة تجاه مدينتهم إشعاراً لهم بأنه لن يرجع عنها أبداً ، وبدأ لشبان والمجاهدين
تحت قادة موسى الشبات والموت إلى آخر رجل نحت سنابك الخليل إذ لم يبق هنالك إلا أحد أمرين :
الاستسلام أو الهلاك المحقق في معركة لإنقاذ الشرف . ولكن أهل غرناطة (٥٥٠ ألف نسمة)
خافوا فضيحة النساء وانهاك حرمة البنات ونشبت الشمل وفقدان المال فقرروا الاستسلام بعد مقاومة
بطولية ورضوا أن يكونوا من رعايا الدولة الأسبانية مقابل احترامها بدينهم » . ١٠

وقالت عائشة الحرة لولدها آخر السلاطين أبو عبد الله :

« أهلك مثل النساء ملسكاً لم تدافع عنه دفاع الرجال » .

ولم يكن سقوط غرناطة هو خاتمة المطاف ولكنه كان بدأ معركة ضخمة من أقصى معارك
مقاومة الإسلام ، فقد جرى تدافع الأسبانين على أذلال البقية الباقية عن المسلمين سنوات طويلة
لإخراجهم من الإسلام ثم لإخراجهم من بلادهم . ثم كانت الحملة الصليبية الأسبانية البرتغالية على
هلى المغرب : هذه المعركة التى استمرت ثلاثمائة سنة وامتدت ما بين نهاية الأندلس وبدأ الاحتلال
الفرنسى . (١٤٩٢م — ١٨٣٠م) وقد جرى فيها تطويق العالم الإسلامى كله . يقول الأستاذ أحمد
توفيق المدنى : أن الأسبان الذين تمكنوا من تخطيط مملكة الأندلس شائعة التى شغلت فى التاريخ
٧٨٢ سنة بقوا يقنذ كرون ولم ينسوا أبداً ثلاثة أمور : ١ — أن جنود الفتح الإسلامى لأسبانيا قدمت
من بلاد المغرب . ٢ — عندما كانت الممالك الإسلامية الأندلسية تنهار تحت ضربات الأسبان الفناكة
ونحت هوامل الفتنه والاققسام جائتها النجدة بما يشبه الفتح الجديد من بلاد المغرب العربى وفى شخص
بن تاشفين والمرابطين وفى شخص عبد المؤمن بن هلى والموحدين : ٣ — أن المسلمين الذين اضطرتهم
الانتصارات الأسبانية إلى ترك أوطانهم أمواهم وممتلكاتهم إنما لجأوا إلى بلاد المغرب العربى المختلفة
يستغيثون أهلها ويبحثون فى صفوفهم دهوة الجهاد المقدس ووجوب إرجاع بلاد الإسلام ، من أجل
هذا كانت حملة الأسبان على بلاد المغرب .

(٢)

عندما قبل المسلمون وهود (فرنياندو - إيزابيلا) هل وفي هؤلاء المسلمين ؟ لقد هذبوا
بما هادوا أبو عبد الله عليه « إذ ما كاد للملك الأندلسى يفادر غرناطة حتى قارب الأسبان المسلمين
ظهر الجن فأسلمت المدينة إلى حكم الرعيان حتى نصر الزاهب فرناندو في يوم واحد ثلاثة آلاف
من سوقة المسلمين بدهوى أن أبائهم كانوا من النصارى . أما السكدينال (جيمينين) فقد أقنع الملك
والمملكة بنقض العهد وأهلن : « أن على مسلمى غرناطة ، أما اعتناق المسيحية أو مغادرة البلاد
فخرجوا هائمين لا يحملون من متاعهم إلا الثنر اليسير يلتجئون إلى جبال البشرات » التى بقيت
في أيدي المسلمين ويبحتون عن مركب ينقلهم إلى بلاد الإسلام ، حيث التقى التاريخ بالبطلين
المعلاقين التركيين : هروج وخير الدين على رأس عمارة القرصان التى كانت تقاثل الدول النصرانية
الحاربة للإسلام فأقننا من تلك الحقنة القاتلة ما يزيد على العشرة آلاف نسمة ، وبقي المستضعفون
وأجبروا على التنصر وأقفلت مساجد المسلمين « وحولت إلى كنائس » . وأهدت للمسلمين
حاكم التفتيش الزهية « التى هى صبة في وجه أوروبا والغرب ووصمة عار في وجه المسيحية وأصبحت
مدن أسبانيا كلها محارق فظيمة تستحيل فوقها رماداً بقايا المسلمين » . وقد خلقت الحقنة شعباً يبلغ زهاء
المليونين أطلق عليه باسم (الموريسكيون) هم بقايا الأمة الأندلسية المغلوبة وهم من أزعمهم أسبانيا
على التنصر بعد أن سقطت في يدها [غرناطة] آخر القواعد الإسلامية بالأندلس ونحوها - كما يقول
الأستاذ محمد عبد الله هنان - بفعل الضغط والاضطهاد من أمة مسلمة إلى طائفة نصرانية كاثوليكية
أطلق عليها اسم الموريسكين MORISCOS أى العرب المنتصرين ، وقد لبث هؤلاء يرزحون تحت
الخنير الأسبانى المرهق زهاء مائة عام وهم يماونون أروع ما يعانيه الشهداء من حروب الاضطهاد والمذلة
تطاردهم السلطات المدنية والدينية ولا سيما حاكم التفتيش الشهيرة بأقصى أنواع المظالمة وترغمهم
تباهاً على ترك عاداتهم وتقاليدهم الإسلامية ولغتهم وأسمائهم وثيابهم العربية ، حتى تقضى بذلك على
تراثهم الدينى والحضارى وعلى أخص مقوماتهم المادية والمعنوية . وبالرغم من أنهم كانوا في الظاهر
نصارى يشهدون القداس وينكلمون القسطنالية فقد كانوا في سرائرهم مسلمين متعلقون أشد التعلق
بمعتقداتهم الدينية الأصلية ويزاولون شعائر دينهم من الصلاة والصوم وتلاوة القرآن خفية . وكانت
أسبانيا تنظر إلى وجودهم في أرضها بعين السخط العميق وتمتدحهم هنسراً دخيلاً بغيضاً يحجب التخاص
منه : « وقد عمدت الحكومة الأسبانية تحت ضغط الكنيسة إلى التخاص نهائياً من المسلمين

الموريسكيين وقررت إجلاتهم من أراضيها وذلك عام ١٦٠٩ في عهد الملك فليپ الثالث حيث صدر مرسوم النفي للنهائي مشيراً إلى إخفاق كل الجهود التي بذلت لتنصيرهم أو ضمان ولائهم وتقرر نفي مجوهمهم إلى بلاد البربر (المغرب) وأن يرحلوا في خلال ثلاثة أيام مع أولادهم من المدن والقرى إلى الثغور التي تعينها لهم الحكومة ولهم أن يأخذوا من مناهم ما يستعملون حلة على ظهورهم وبدأ خروجهم وفقاً لهذا القرار من مختلف الثغور الأسبانية في رجب ١٠١٨ هـ ، أكتوبر ١٦٠٩ م في مناظر قاسية من البؤس والمهانة والجوع وقد ألفت السفن بهؤلاء المنفيين إلى ثغور المغرب المختلفة ، نزل بعضهم بنطوان وسلا والرباط ووهران وتلمسان وطس والجزائر والثغور التونسية ويقدر عدد من غادر أسبانيا من الموريسكيين المنفيين نحو ستائة ألف هلكت منهم جموع كثيرة من الجوع والمرض . يقول الأستاذ هنان : أن مائة عام من التنصير المنصوب والإرهاق المستمر لم تفقد جذوة الإسلام في نفوسهم .

(٣)

ولارب خسرت أسبانيا خسارة كبرى باخراج المسلمين الذين لم يسكنوا هرباً مهاجرين ولكنهم كانوا أسبانيين لهم جذورهم التي استمرت في التربة ثمانية قرون فقد كان المسلمون في أسبانيا أحقق الصناع وأمر الفلاحين وأكبر أصحاب دعوس الأموال ولذلك كان لاضطهادهم وتقيلهم وتشفيت شملهم أكبر الأثر في انهيار الصناعة والزراعة ، فضلاً عن انحطاط الشفافة والأخلاق والتسامح الديني ، بعد أن غلب التعصب الشديد ، حتى أن يتابع الفكر جفت بعد طرد المسلمين وتدهورت الصناعة . ولا ريب أن أكبر دليل على قوة العقيدة الإسلامية في أسبانيا هو ما إبداه المسلمون من المقاومة الباسلة تجاه الموقف الذي قابلهم به الحكام النصارى . وقد بدأ هذا التعصب بعد سقوط غرناطة في يد المسيحيين منذ ١٤٩٢ م حتى صفيت الأندلس عام ١٦٠٩ م في خلال ذلك جرت عمليات التنصير وأحرقت المساجد واضطربت النار في المخطوطات والسكتب النفيسة . ولما صدر المرسوم الذى يحوزهم بين التنصير والرق نارت ثائرنهم وقد منعوا من الهجرة خارج أسبانيا واشتملت حينئذ الثورة في (فالانس) وصعد المسلمون إلى الجبال . وهاجموا القرى وبدأ القتال حامياً ، وتأمرت قوى أوروبا مجتمعة على ضرب المسلمين . وكانت القراصنة المسلمون يتوغلون داخل أسبانيا وينظفون هجرة المسلمين إلى أفريقيا الشمالية . والذين لم يستطيعوا المهاجرة أدوا مكرهين أقل ما يستطيعون أدائهم من أمور الدين الذى فرض عليهم فإذا هادوا إلى بيوتهم أقاموا عقود زواجهم وفق سنن الشريعة الإسلامية .

واستطاع المسلمون دفع أموال باهظة في سبيل مفادرة أسبانيا وكانوا يتوجهون نحو تركيا هرباً
البندقية ، أو إلى أفريقيا ، ونظمت حركة سرية لتحرير الآلاف من المسلمين على يد البحارة للغاربة
وقد أجرت أسبانيا محاولات كثيرة لحجزهم لأنهم كانوا يؤدون دوراً في ازدهار اقتصاد البلاد ولذلك
فقد أصبحت غرناطة بالخراب والفناء بعد ذهاب المسلمين غير أنهم قرروا عام ١٦٠٩ طرد جميع
المسلمين وبدأت هجرة المسلمين الجماعية حتى شهر مارس ١٦١٠ حيث هاجر نصف مليون مسلم وتقول
بعض الروايات أن عدد المخرجين من المسلمين واليهود واللوريثيين ما بين سقوط غرناطة ١٤٩٢
حتى الجلاء الأخير ١٧١٤ يبلغ من ثلاثة إلى خمسة ملايين وأن الذين خرجوا في مستهل القرن السابع
هشر بلغوا مليوناً من المسلمين ، غير أن هؤلاء الذين نفوا عادوا إلى الإسلام بالرغم من مرور أكثر
من قرن على تنصيرهم ولم تنطفئ جذوة الإسلام في صدورهم من بالرغم من العسف والأرهاب الشديد
والتعذيب المستمر وقد هاجروا فارين بدينهم تاركين وراءهم أموالهم وممتلكاتهم . ومنذ سقطت
غرناطة ١٤٩٢ وإلى عام ١٧٩٢ وفي خلال ثلاثمائة سنة بدأت حرب جديدة اجتاحت للغرب كله
وشاطئ البحر المتوسط وقد تركزت بقوة على الجزائر وكانت جولة خطيرة من جولات مقاومة الغرب للإسلام .

(٤)

ماذا كان موقف الغرب بعد سقوط الأندلس : المرة الثانية بعد هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء
١١٤٥ و ٧٣٢م تنقهر الحضارة الإسلامية في أوروبا عام ٨٩٨ و ١٤٩٢م بعد أن دام سلطان الإسلام
أسبانيا ثمانية قرون ، ثم انحسر عنها بعد أن ترك معطيات العلم والتجريب والتراث الإسلامي كله .
وكانت معاملة أوروبا للمسلمين قاسية بينما كانت معاملة المسلمين للصليبيين في الشام والقدس حين انسحابهم
كريمة ورعية وبينا أغرق الإسبان صراكب المسلمين قام صلاح الدين بفرض نفوذه على صراكب
أوروبا لإهانة الصليبيين : يقول ناجي معروف في كتابه عن الحضارة (بتصرف) : لقد كان المسلمون
نبلاء سمحاء من أهل الأديان ومع معابدهم ، فقد حافظوا على بيع النصارى وكنائس اليهود ولم يخربوها
سواء في أسبانيا والبرتغال إلى سائر جزر البحر الأبيض المتوسط وباقي البلاد النصرانية التي استولوا
عليها أما الأسبان والبرتغاليون وغيرهم فقد مهدوا إلى نحو آثار المسلمين فأنهم حاولوا إلا يبقوا
أمام الأجيال القادمة شواهد تدل على رقي حضارة المسلمين المغلوبين وليبرروا ما قالوا به من أعمال
وحشية في تنصير المسلمين وقتلهم وأحراقهم أو نفيهم ولبشيدوا ولبغضوا بالظفر الذي أحرزته
النصرانية على الإسلام . بهذه الصلة أدرك رئيس أساقفة أسبانيا الكاردينال (أكرينس) أن حرق

الكتب العربية سوف يحرق آثار العرب الفكرية والثقافية من أسبانيا فعمد إلى حرق ٨٢ ألف كتابات هربى في ساحة غرناطة بعد سقوطها عام ١٤٩٢ بسنين قلائل . ويعلق جوستاف لويون على هذا فنقول : لقد هدم الأسبان أكثر المساجد الإسلامية العظيمة وأزالوا معالمها وحولوا كافة المؤسسات الإسلامية إلى مؤسسات مسيحية على الرغم مما تنطق به الكتابات العربية التي لا يزال بعضها في جامع طليطلة وجامع قرطبة وجامع أشبيلية وغيرها من المنشآت الإسلامية التي تتخذ اليوم كنائس عظيمة أرادوا بعد أن قرروا تنصير الملايين من المسلمين بالحديد والنار ألا يرى المنتصر أنراً إسلامياً سواء أكان مسجداً أم مدرسة مما يذكره بأجداد الإسلام ، ومن الناحية الأخرى غالوا في تصميم الكنائس وأبراجها وفي زخرفتها وحليها وملئها بالتماثيل والتماوير لتبهر عقول هؤلاء المسلمين المنتصرين وأبنائهم وليوحوا إليهم أن هذه الكنائس المسيحية خير من المساجد الإسلامية ولقد بلغ التمهيب بهم والإسراع في تعمير التنصير ومحو كل أثر الإسلام درجة كبيرة بحيث أهدروا كثيراً من القوانين الصارمة تباهاً خلال قرن وربع منذ سقوط غرناطة (١٤٩٢ حتى ١٦١٤م) وكانت شروط تسليم غرناطة تتكون من ٩٧ شرطاً وكانت على تسامح مع كثير من العرب غير أن الأحرار لم ترق لهم الشروط فظلوا يلحون على الملكة الكاثوليكية (فرناندو وإيزابيلا) طالبين إليهما السعي في سحق طائفة محمد في أسبانيا وأن يخبر الذين أن يزيدون البقاء في البلاد بين التنصير وبين بيع أملاكهم والعبور إلى المغرب وأثبتت الكنيسة العنف والشدة في تنفيذ هذه السياسة وحرقت نصوص المعاهد نصاً نصاً .

(٥)

ولقد كشفت التاريخ عن نتائج هذا العمل الخطير في كثير مما سجله الكتاب والشعراء ، يقول الشاعر الأسباني فلا سبازا : « ونحن الأندلسيين على الرغم من لباسنا الحديث وأهلنا لغة أسلافنا العرب ما نزال حقة أولئك البدو الذين تعودوا في وحشة الصحراء أن يخاطبوا الله وهم تعود أمام خيامهم المنسوجة بشعر الإبل ، وكما أننا انزعنا بعض السكس من جل كنائسنا وهدمنا نحن لما منحه لإسم الله الأقدس المحفور بالحروف السكوفية . وكذلك فوخذنا بشرتنا الأوربية الصفراء ، لبرز لنا من تحتها بشرة العرب الحمراء أن قوميتنا الأوربية ما هي غير الفرض الظاهر » أما العربية فهي حقيقتنا الخفية ، أن كل ثوارتنا الأوربية القديمة والحديثة لم تسكن في الغالب غير أثر للروح العربية التي تظفر من أفنا محتجة نافذة ، لا بد أن ابن الصحراء المنجرد الحر الذي تعود

الهواء للطلق تحت نور الشمس (لافى كوة مظلمة لا يقوى على الحياة خلف القضبان للعراسة فى الأقفال المظلمة) للثقل جوها بكثافة القواعد للمنطقية وللمناهج الغوية . ويمضى المستشرق الأسبانى فيلاسبارا فيمبر هن وجهة نظر الجيل للعاصر كله حين يقول : لقد حجب الغرب أنوار المسيحية وبذل ما فى المسيحية من موااة وحول فلسفتها إلى أحاج ومعميات ، أن جميع اكتشافات الغرب العجيبة ليست جديرة بكفكفة دمة واحدة ، ولا خلق ابتسامة واحدة ، وليس أجدر من أمم البحر المتوسط المحتفظة بالثقافة العربية والقائمة على إزائها بوضع حد نهائى لندهور الغرب المشعوم إلى هوة التوحش الاقتصادى ، ليس فى طاقاتها نحن الأندلسيين المعتنقين بإيمان ثابت دين المسيحية أن نحمد دين أسلافنا فلئن كان الأول مستقراً فى ضماثرنا فإن الثانى (أى الإسلام) ما برح مستقراً فى نظرة قوميتنا المزدانة بالبدائم ، تلك هى الأندلس التى أخرج منها المسلمون إخراجاً المسلمون من أهلها الذين اعتنقوا الإسلام ناعائاً عام ، وأجلى العرب عن لقمهم وجامعاتهم وعلومهم التى ورثها الغرب وعاش قرناً كاملاً يترجمها إلى لغات اللاتين لتكون أرهاص النهضة وأساس الحضارة .

(٦)

اجنحة المعركة : من الشام إلى الأندلس

(على جبهة الشام)

لم تتوقف المعركة البابوية المسيحية ضد الإسلام عند جبهة الأندلس الإسلامية وحدها داخل أوروبا ، ولكنها تابعت المؤامرة بالزحف على أرض الإسلام نفسه وذلك عندما تنادت إلى الحروب الصليبية باسم استخلاص قبر المسيح ، هذا الزحف المتصل الذى لم يتوقف خلال قرنين كاملين فى حملات ليست هى الحملات الصليبية المعروفة وحدها . ترجع فكرة الحروب الصليبية إلى وقت بعيد ، أبعد كثيراً من تاريخها المعروف فقد كانت أوروبا ترقب نمو الإسلام وتقدمه فى قاق شديد وتحاول بقدر ما تستطيع أن توقف هذا الزحف الذى امتد على جبهة القسطنطينية حيناً ، لم يتحقق له دخول أوروبا ، ثم حين اقتحم الإسلام أوروبا من المضيق الذى أطلق عليه من بعد اسم فاتح أوروبا « جبل طارق » وظلت الدولة البيزنطية حصن المسيحية والغرب فى جبهة الشرق فلما تهاوت هذه الجبهة لم تجد أوروبا بداً من الاندفاع إلى اقتحام عالم الإسلام من خلال هذه الثغرة . يصور الأستاذ

محمد هب الله عنان هذه المرحلة فيقول : كانت تعاليم محمد تنذر في فاتحة القرن الثامن بامتلاك إيطاليا وغالياً ، والوثنية بالامتداد إلى ما وراء نهر الرين ، وأخذت الجيوش تندفع ظافرة إلى الأمام لتكتسح كل قوة تعالها مؤملة على قول الشاعر الإنجليزي سوزي أن تخضع أوروبا النصرانية إلى صولة الإسلام حتى يصبح الغرب المقهور كالشرق يطأطأ الرأس إجلالاً لمحمد ، ولكن سيل الإسلام ارتد أمام جيوش الفرنج في سهول تور ، واعتبرت أوروبا النصرانية (شارل مارتل) حاميتها ومنقذها من قبضة الإسلام ومن نير القرآن المبدي وأسبغ شارلمان على الفكرة لونا واضحاً فطارد القبائل الوثنية نحو الشرق وفرض النصرانية على مكسونيا وبوهميا ولو مبارديا ورد المسلمين إلى ما وراء جبال البرنية . وكانت النصرانية تقنع بالدفاع عن نفسها يادى الأمر ، فلما تفككت عرى الدولة الإسلامية واحتالت في القرن العاشر إلى ممالك وأمارات واضمحلت شأن القبائل الوثنية في شرق أوروبا ، استطاعت النصرانية أن تتحدى الدول الإسلامية وبدأت بين النصارى والمسلمين سلسلة من الحروب والمعارك وقد بدأت النزعة الصليبية في أسبانيا بمقاومة المسلمين لأسبانيا للنصرانية نحت لواء المرابطين ثم الموحدون من بعدهم ، فقد أثار هذا الانفجار ارتياح الإمارات النصرانية وبمث إلىها نزعة مضاعفة من التعصب الديني ، وكان واحداً من العوامل التي أزكت نار الصراع المستعربين أسبانيا النصرانية وبين المسلمين ، وهذه نفسها هي التي حوالت فكرة الحروب الصليبية نحو الشرق .

(٢)

تعد معركة ملاذكرد العامل المباشر للحروب الصليبية : يقول ديورانت في (قصة الحضارة) أول سبب مباشر للحروب الصليبية ، هو زحف الأتراك السلاجقة وكان العامل قبل زحفهم قد كيف نفسه لقبول سيطرة المسلمين على بلاد الشرق الأدنى . وكان السلاجقة قد ظهروا عام ٩٠٦م واحتنقوا الإسلام على مذهب السنة ونزحوا من بلاد القزغير في التركمنان وحلوا منطقة بخارى ووصل طغرل إلى أطراف خرمان ، ثم كان على أبواب بغداد عام ١٠٨٥م وأصبحت بلاد غرب آسيا عبارة عن مملكة إسلامية موحدة في السلاجقة ، وكان ذلك في حد ذاته نواة السيادة التركية على العالم الإسلامي فيما بعد ، هذه القوة الإسلامية الجديدة التي جددت شباب الإسلام ، واستطاعت أن تواجه التحدي البيزنطي في صمود وأصالة وسار قاذتها طغرل بك وألب أرسلان وملك شاه لرد هدوان البيزنطيين على الأراضي الإسلامية فحققوا انتصارات حاسمة كان أكبرها في موقعة ملاذكرد ٤٦٣هـ

الموافق ١٠٧١ التي أسر فيها الامبراطور رومانوس الذي كان قد خرج على رأس جيش ضخم من (الروم والعصالية والفرنح) في أعظم قوة جردتها الدولة الرومانية الشرقية على الاسلام، واتجه إلى (ملاذ كرد) وهي بلدة حصينة على فرع نهر (مرادسو) فحارب حولها الحصار وقد خاض المسلمون المعركة بقيادة ألب أرسلان في عدد لا يتجاوز ربع قوة همدوم : وقد أختار قائد المسلمين الاشتباك مع الروم يوم الجمعة فصل بجنده ظهراً ولبس البياض ونحط استعداداً للموت وأعلن أنه إن هزم فإن ساحة الحرب تعدوا قبره وزحف على رأس قواته نحو الروم .

وقد ثبت المسلمون وحاربوا في براعة وجلد وبسالة ، فلما رأى رومانوس مالحق بجيشه من الضعف حاول الارتداد ليتأهب للقتال في اليوم التالي ، غير أن المسلمين حلوا بينه وبين ذلك فضفقوا بقوى ضخمة على صفوف العدو المتخاذلة المتراجعة ، فأحدثوا ثغرة تدافع منها الفرسان المسلمون ، واقتحموا قلب القوة الرومية وأصلوها سهماً قاتلة : ثم انقضوا على جيش الروم من كل ناحية فحصدوه ، وأسرو رومانوس ، وتمت هزيمة الروم ٤٦٣ هـ ونقل القيصر الأسير إلى حيث التقى بالسلطان ألب أرسلان الامبراطور :

ماذا كان يفعل لو كان هو المنتصر . وقال رومانوس : أنه كان يقتل السلطان ويمثل به .

قال أرسلان : ولكني هزمت على المعزو هنك والفداء . فأتى الامبراطور نفسه بألف دينار وخمسة ألف ، وقد أطلقه السلطان وأطلق معه البطارقة وشيخه فرسخاً ، وأرسل معه جنداً يحفظونه ومعه رآيه مكتوب عليها « لا إله إلا الله » وقد ملق على هذه المعركة المؤرخ رينشارد بنوهول فقال : لقد كان الغزو الاسلامي بقيادة ألب أرسلان في نطاق لم تشهد الامبراطورية البيزنطية أوسع منه منذ أكثر من ثلاثة قرون ، وقد منى الروم بهزيمة منكرة تمزقت بها أوصال جيشهم ، وأخذ المسلمون الامبراطور البيزنطي أسيراً ، ومن ثم كانت واقعة (ملاذ كرد) من الوقائع الفاصلة في تاريخ الشرق والغرب إذا كانت ضربة قاصمة للامبراطورية البيزنطية لم تهرأ منها فسكات عاملاً حاسماً في إندفاع الحروب الصليبية ولو أن ألب أرسلان سار في طريقه — بعد هذه المعركة — إلى البوسفور لما وجد شيئاً من المقاومة ولقوض أركان الامبراطورية البيزنطية . وهذه معركة ملاذ كرد استوطن السلاجقة حضاب آسيا الصغرى وأصبحت في حوزة المسلمين ، ثم استولوا على (نيقة) ٤٧٧ هـ وبقي سلطانهم في هذه البلاد حتى قضى عليه المنول ٦٥٥ هـ قبل سقوط بغداد بعام واحد وتوفي السلطان ألب أرسلان بعد معركة ملاذ كرد بعامين وخلفه ملكشاه واستمرت غزوات السلاجقة (لأراضي الدولة الرومانية الشرقية حتى طوقوا آسيا الصغرى من الجنوب وسعوا ساطعاتهم عليها .

وكان للملاذ كرد أعمق وقع في أربا ، فقد بدأ بالغرب أن سبل التوسع الاسلامى تنذر بإقحام الدولة الرومانية الشرقية والاندفاع إلى أوروبا ، هناك تعالت الصيحات وجرى أعداد مخططات الحروب الصليبية التى أمنت بجانبها إلى المشرق والمغرب غير أنه لم يمس على (ملاذ كرد) أكثر من خمسة عشر عاما حتى استطاعت القوى الاسلامية في المغرب والأندلس بقيادة المرابطين أن تسحق قوى الفرنجة الغازية في موقعة الزلاقة . كذلك فإنه لم يمس على ملاذ كرد خمسة عشر عاما حتى جاءت جموع بطرس الناسك زاحفة تقنحم عالم الاسلام وتصل إلى بيت المقدس . وكان بطرس النامك قد زار بيت المقدس وأدهشه ما رأى من ضعف بلاد الاسلام فماد إلى الغرب ونبه أذهان البابوية إلى ضرورة انتهاز الفرصة السانحة (فإن بلاد المسلمين في حالة يرئى لها من الضعف ولا بد من الاسراع بمحملات عسكرية لاستخلاص الأراضى المقدسة من أيديهم) ثم ذهب إلى فرنسا وأخذ يطوف ببلادها داهيا في حماس شديد إلى الإسراع بحرب المسلمين وقد حمل بطرس النامك إلى أربان الثانى من سمعان بطريق أورشليم ما سماه برسالة استفائة . ولقد ذهب البابا أربان الثانى إلى أبعد من ذلك فقد دعا إلى الحرب للافوز بمدينة واحدة فحسب ، (بل للفوز بأقاليم آسيا بمحملتها مع فناها وخزائنها التى لا تحصى) . حيث قال : فسيروا نحو القبر المقدس وخلصوا الأرض المقدسة من أيدي الناصبين وملكوها أنتم من دونهم فهذه الأرض كما قالت التوراة تفيض لبنا وعسلا . وقد سارت هذه الجحافل إلى المشرق تحمل صيحة منمصة . ياشمب الفرنجة : جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أبناء مخزنة تعلن أن جيشا لعينا أبعد مايسكون عن الله قد طغى وبغى في تلك البلاد . بلاد المسيحيين وخرابها بما نشره فيها من أعمال السلب والحرق وهم يهدون المذابح في السكنائس بعد أن يدنسوها برجسهم . »

وما كان ذلك صحيحا لا في جملة ولا في تفصيله فقد كان السلاجقة من أكرم الحكام وأكثرهم إيمانا بمفهوم الإسلام في معاملة أهل الذمة . وقد ظل أربان عامين كاملين ينتقل في بلاد أوروبا داهيا إلى الحروب الصليبية حتى وصلت إلى أنطاكية ١٠٩٨ الحملة الصليبية الأولى ثم وصلت جموع الصليبيين (١٠٩٣ ١٠٩٨ م) فيما أطلق عليه الحرب الصليبية الأولى .

وهكذا اكتملت الحلقة في ضرب الاسلام في جناحيه : جناحه في الأندلس وجناحه داخل العالم الإسلامى من طريق البحر المتوسط والشام وقد اقنحم الصليبيون الأسوار وقتل من المدافعين نحو ٧٠ ألف مسلم ، وبدأ إنشاء مملكة بيت المقدس الصليبية ثم أكل الصليبيون احتلال طراباس

عام ١١٠٩ وأنشأوا فيها الإمارة الصليبية الرابعة ثم ملك الصليبيون الساحل كله وجزءاً كبيراً من أراضي الشام وفلسطين شمالى القدس وأعلى الفرات .

(٢)

منذ اليوم الأول لوصول الصليبيين تدهأت القوى وتفاوت الأقطار وخرج المسلمون من كل مكان للعواجهة . يقول الدكتور حسين مؤنس في كتابه عن الحروب الصليبية « وظهر قادة الكفاح المنظم وبدأ حرب التحرير سلسلة من الأبطال ، من شرف الدولة مودود إلى صلاح الدين وحطمت حصون المعتدين ، ولم يتقدم الصليبيون من شمال آسيا الصغرى إلى جنوب القدس إلا على أجساد الشهداء ألوط بعد ألوف من العرب قتلوا مدافعين عن أنطاكية وطرابلس ومعرة النعمان وصور وصيدا والقدس وغيرها ، ولم يسكنف المنطوية من الاغارة على طواير القوات الصليبية في الطريق فخطفوا رجالها وروموهم بالسهام المصمية وبرزت جماعة الفدائيين المقاتلين الذين يسميهم مؤرخونا بالتركمان : والتركمان هم الذين علموا العرب والمسلمين فن القتال على الحفر العميقة والرمي بالسهم وراء كل صخرة أو شجرة ، وفي كل بلاد العراق والشام ظهرت جماعات المستنفرين بخطبهم في المساجد وعلى قوارع الطرق والأسواق يهيبون بالناس أن يحملوا السلاح وينفروا لتحرير البلاد ، وذهبت جماعات إلى بغداد وحاصرت قصر الخليفة العباسي وأرغته على الظهور فقاتلوه قتالاً شديداً ، وظهر رجال أفذاذ وعملوا على توحيد الصفوف وتكوين قوات عسكرية للجهاد والتحرير منهم نجم الدين أبلقاري بن ارتق صاحب ماردين ونور الدين بلطاك وآق سنقر البرسقي ، وكان عماد الدين زنكي عام ٥٣٩ هـ أول من تمت على يده أول خطوة حاسمة من خطوات التحرير وهي القضاء على إمارة الرها الصليبية في أعلى البحار ٥٢٩ هـ وتوفي عماد الدين ٥٤٩ هـ / ١١٤٧ م وخلفه نور الدين محمود ، ابنه الذي أمضى ٢٢ سنة في اللبدان حطم فيها قوات الصليبيين نهطاً وقضى على الحملة الصليبية الثانية ووحّد الشام والوصل في جبهة النضال ، وقضى على الفاطميين في مصر وضم مواردها إلى معسكر الجهاد وتوفي نور الدين شوال ٥٦٩ هـ ١١٦٤ م وجاء صلاح الدين الذي حقق نصر (حطين) ربيع الثاني ٥٨٣ هـ - يوليو ١١٨٧ واستعاد بيت المقدس وقضى نهائياً على مملكة بيت المقدس وقد هز استعادة المسلمين بيت المقدس الغرب كله فتوالى الحملات ولم تتوقف .

ليست هناك حملات صليبية تسمع كما يقولون ولكن هناك تدفق مستمر متفاوت الهجوم ولما هجرت الحملات أن تحقق شيئاً . استدارت إلى مصدر للقاومة الحقيقي ، يقول جرن بول رو (بينا

كانت الحملات الصليبية الثلاث التي استهدفت القدس قد تبديدت قواها على الشاطئ الفلسطيني ، تغير الاتجاه فقرر البابا أنوسنت ١١٩٨ أن ركّز القوة الإسلامية ليست في فلسطين بل في مصر وكان صلاح الدين قد استولى على الحكم خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر (السادس الهجري) وأسس سلطة قوية ، وهزم البابا على أن يوجه الضربة إلى صلاح الدين ، غير أن الحملة الصليبية الرابعة انحرفت عن هدفها واستأثرت بالقسطنطينية وتبذت الفكرة الحملة الصليبية الخامسة التي حاصرت دمياط ، ودخلتها ١٢١٧ ، لقد ذهب للمسيحيون إلى مصر للقضاء على القوة الإسلامية وكان على لويس التاسع ألا يعتمد على نفسه فلما فشل في مصر وأمره المصريون حاول أن يضرب الإسلام في مكان أقرب إلى أوروبا وهكذا رأس آخر حملة معدودة من الحملات الصليبية . نعم : على شواطئ مصر انكسرت الحملتان الصليبيتان الخامسة والسادسة ١٢١٥ ١٢١٨م — ١٢٤٩ ١٢٤٧م . تقدم الصليبيون في الأولى حتى استولوا على دمياط ، ونجّمت قوات المجاهدين من شتى نواحي مصر في شرق الدلتا وفي مقدمتهم اتباع الطريقة الشاذلية وكان رجال أبي الحسن الشاذلي يقاتلون في سبيل الله في نواحي الغرب الأوسط وعندما انتشرت الطريقة في مصر أصبح رجالها من المصريين من رجال الجهاد ، هؤلاء هم الذين قطعوا جسور النيل ليقروا قوات الصليبيين وأمام طوفان الماء بدأ الصليبيون يتراجعون نحو الشمال حيث كان المجاهدون هناك في انتظارهم فتخطفهم من كل جانب . أما في الحملة السابعة التي قادها لويس التاسع فإن « الذي قضى على الصليبيين هو ثبات المجاهدين في شمال شرق الدلتا ، لقد تولى المعركة بعد ذلك بيبرس البندقداري ، رئيس المماليك ، ومماليك الصالح أيوب ، الذين قادوا الهجوم المنظم بعد أن كان المتطوّهون المصريون قد انهكوا قوى العدو أنهاكاً تماماً ، وعندما فتح المصريون جسور النيل مرة أخرى تقرر بصورة نهائية مصير الحملة الصليبية السابعة ، فاضطر الأعداء إلى التسليم ووقع لويس التاسع في الأسر ، وتشجع بيبرس بهذا النصر ، وكان همه بعد أصبح سلطاناً هو القضاء على بقايا الصليبيين في الشام وفي يده سقطت إمارة أنطاكية (١٢٦٩ هـ ١٢٦٨م) أما سيف الدين قلاوون فقد استولى على طرابلس في نفس السنة وسقطت هناك في يد الأشرف خليل ابن قلاوون (١٢٩١ ١٢٩٩م) وبسقوط هناك تمت تصفية العدوان الصليبي .

(٤)

هذه المعركة الضخمة بين الشاطئين : الشرق والغرب ، بين أوروبا المسيحية وبلاد الإسلام حيث تدفقت الملايين في حقد وغضب وطمع إلى بلاد المسلمين كيف عادت وقد رأت أن سماحة المسلمين وحضارتهم وثباتهم وإيمانهم وكيف كان أثر ذلك في الغرب كله ، وكيف اهتزت له الكنيسة

فقاومته وقضت على كل من يتحدث بخير عن الإسلام ، هذه الجولة الضخمة أنها من أكبر مواقع الصراع الذي شنته أوروبا المسيحية خلال قرنين كاملين لم يتوقف ، بل توالى يوماً بعد يوم ، كان هذا الشاطئ الإسلامي هو مرعى بصر هذه القوات ، التي لم تسكف حتى بعد انتهاء الحروب الصليبية يقول جان بول ريو في كتابه الإسلام في الغرب : لقد اهتمنا أن نتحدث عن ثغاني حملات صليبية الأولى بدأت منها ١٠٩٦م والأخيرة انتهت عام ١٢٧٠ غير أن هذا التقسيم لا يبدو متجاوباً كثيراً مع الواقع ويمكننا أن نزيد هذا المدد إذا أخذنا بعين الاعتبار جميع الدفعات التي وجهت إلى الشرق ، وما أن أنشئت مملكة لاتينية في القدس حتى باتت من الضروري الدفاع عنها وبالتالي إرسال التعجيدات المتتالية لحايتها . وقد لوحظ سريماً بأنه حتى يكون الاحتلال مسيطراً فإنه يجب القضاء نهائياً على القوى الإسلامية . د أنها محاولة بقاء الدولة اللاتينية الصغيرة في الشرق بمثابة رأس جسر للعالم المسيحي في عالم الإسلام باللغة الإزهاج بالنسبة له لأنها في قلبه نفسه وما دامت الحرب مستمرة فإن الضغط الإسلامي الرئيسي لا يمكن إلا أن ينصب عليها قبل غيرها . يجب ألا ننحصر من الاعتقاد القائل بأن هذه الحملات الثماني الشهيرة هي وحدها تشكل حروب المسيحية الخارجية ، أن هذه الحملات في الواقع ليست سوى مرحلة هي أكثر المراحل تأثيراً ، وحقبة هي أشد الحقب عنفاً في تاريخ هذه الحروب ، لقد كان أمل هذه المغامرة ضئيلاً بالنجاح فقد قذف بتلايين الأوربيين إلى شواطئ الشرق ومهمتهم تغيير المعتقدات الشرقية ومن أجل الوصول إلى ذلك كان عليهم أن يخربوا هذا الشرق ، وقد تصلب الأوربيون في هنادم طيلة قرنين من الزمان وملكية قبر المسيح أصبحت رمزاً للنصر والثبات أكثر منها قضية إيمان . تلك هي وجهة نظر كاتب غربي اليوم : لقد تصلب الأوربيون هنادا ولكنهم هادوا مهزوين ، وإن كانوا قد استفادوا كثيراً حين تلقوا معطيات الفكر الإسلامي والعلوم التجريبية فكانت هذه الحروب هزيمة عسكرية ونصراً فكرياً وحضارياً ، لقد كشف المسلمون عن جوهر طبيعتهم الصاعدة القوية في الحرب قتالا ، وفي معاملة أهل الكتاب سماحة وكرماً وحفظ التاريخ ولا يزال يروى صفحات السباحة والبطولة معا ، وكيف هامل صلاح الدين الصليبيين بعد استعادة بيت المقدس .

فن مركز القوة رفض صلاح الدين أن يقتصر بمن قتلوا سبعين ألفاً في معركة دخول بيت المقدس وأكرم العائدين وسمح لهم بحمل كل ماخرجوا به وفرض على المراكب الإيعاضات وغيرها إعادتهم إلى بلادهم ، وأكرم كل من ورد من حججاج المسيحيين وشرع في مد العظام

لهم وعندما مرض رينشارد أرسل إليه الأطباء والأدوية والثلج ، وقال أن ديننا لا يسمح لنا إلا بحسن المعاملة .

(٥)

لقد غيرت محاكمة الإسلام موقف الصليبيين تماماً . وسجل المنصفون منهم تقديم لصالح الدين ، وكشفوا عن الفارق البعيد بين المغيرين للمتصبيين وبين أصحاب البلاد المناضلين في ميادين الحرب دفاعاً عن بلادهم ودينهم ، الرحمة بعد انتهاء الحروب ، يقول هذا ريك فان لون للأورخ الهولندي : أن الصليبيين بدأوا القتال وهم يضربون أشد البغض للمسلمين وأعظم الحب للشعوب النصرانية في الدولة الرومانية الشرقية ، ولكنهم حين هادوا كانت قلوبهم قد تغيرت تماماً .

(٦)

نظرة الغرب إلى الاسلام أبان الحرب الصليبية

لم يكن الواقع في أرض القدس هو مأسورة الذين حملوا لواء التحريض على الحروب الصليبية . بل كان الواقع عكس ذلك تماماً . ولم يكن الواقع كما صورته المائدون من الحروب الصليبية هو ما حاولت الكنيسة أن تقنع به أهل الغرب ولكنه كان عكس ذلك تماماً . ولذلك فقد كان لابد من تكيم كثير من الأقوال وهزل كثير من المائدتين من المجتمع حتى لا يتبين أن كل هذه الحركة الضخمة التي استمرت قرنين من الزمان لم تكن إلا مؤامرة وهمية خطيرة ، فاما قبل الحروب الصليبية فقد كان الكتائب الفرنسي « برنادي وست » في القدس وكتب في مذكراته يقول : إن السلام سائد فوق تلك الربوع بين النصارى والمسلمين حتى أنني كنت مسافراً وهاك بعيري ، أو حماري الذي ينقل أمتعتي على الطريق وتركها كلها في مكانها دون حارس أو رقيب وسرت إلى أقرب مدينة لأطلب لى بعيراً آخر لوجدت بعد رجوعي أنها باقية على ما هي لم يمسه أحد « ولكن البابا جريجوريوس السابع عام ١٠٧٥ م لواء الحملة المسلحة إلى القبر المقدس ، وبدعوى أن الأتراك أسروا وقتلوا وهدمت الكنائس وانتشرت شائعة بأن شعباً من مملكة القرم قد اكتسح أراضى النصارى وأباد سكانها بالسيف والنار ونهب منازلهم . ولم يكن شيء من ذلك كله صحيحاً .

الغاية : هي إثارة مواطني المسيحيين لكي يسيروا إلى مقاتلة المسلمين ، وعلى حد تعبيرهم

كلوتون منرو المؤرخ الأمريكي : هذه الفظائع المنسوبة إلى المسلمين كانت ممزوجة بكثير من الأفاوية لتوافق روح العصر وخاصة الرسالة الملتفة للمنسوبة إلى الإمبراطور الكيسوس الأول ، وقد لجأ الغربيون إلى أنواع أخرى من الدعاية ضد المسلمين — يقول كلارنوتون منرو — فقد أنهموم بعبادة الأصنام ، في كتب ذلك العهد انتشر كثير في الغرب الاعتقاد أن بأن المسلمين يعبدون محمداً كآله ، وإنه كان لهم آلهة وأصنام أخرى قد ، ووجد في الكتب الراجعة إلى عهد الحروب الصليبية أنها كثير ما تذكر هذا الاعتقاد بالوهية محمد عند المسلمين . والمعروف أن الهدف من هذا هو شجب الأثر الذي أحدثه الإسلام في مجموعات القوى المدفوعة إلى الحرب وقد ظهر من بعد ما يعارضه تماماً إذا كشفت هذه القوى إن المسلمين إنما يعبدون الله الواحد القهار ، كذلك فقد أشار الباحثون الغربيون إلى أن الدعاية التي روجها للتعصبون بأن المسلمين جبناء : هي شبهة تبددت تماماً بعد أن قدموا إلى أرض الإسلام حيث وجدوا أن المسلمين لا يعبدون الأصنام وأنهم مثل عال في البطولة ، صبر في الحرب قادرين على سحق أعدائهم ، وقد اعترف بشجاعة المسلمين ومهارتهم الحربية وفروسياتهم وكرم أخلاقهم هديد من المؤرخين في مقدمتهم جـ بـ رت . ويقول البعـ نـ حـ تـ بـ كتاب (GS8TA) المجهول : أتى سأنسكلم من الحقيقة التي لم يجرؤ واحد على إنكارها : وهي أنهم لو نبتو في دين المسيح وفي المسيحية المقدسة لما كان باستطاعة أحد أن يجد محاربين أقوى وأشجع وأمر منهم . ويقول المؤلف (دانا كارلنوتون منرو) الذي نقل عنه : لم يقف تأثير احتكاك الصليبيين بالمسلمين عند حد الإحجاب بشجاعتهم بل تجاوزوه إلى نجاحات أخرى عليهم ، فقد احتك الصليبيون في سوريا وفلسطين احتكاكاً دائماً متصلاً بأهل البلاد في الأعمال الزراعية وبناء القلاع وقلمنا كانوا يميزون بين المسلمين وهرطقة التصاري ويقول : وقد أسر كثيرون من الأفرنج ظلوا في القيد أمداً طويلاً ، وكانوا هادة يعاملون معاملة حسنة ويمنحون قسماً وافراً من الحرية بحيث أصبحوا يعرفون المسلمين عن كتب والتجارة التي كانت من ضروريات الأمارة الصليبية كانت من عوامل التعارف بالمسلمين وكانت نساء الأفرنج قليلات فأدى ذلك إلى التزاوج بين الفريقين ، وكان المسيحيون يؤثرون استشارة أطباء المسلمين لتقديمهم على أطباء للمسيحيين ، وهكذا نرى أن الحروب الصليبية بعد أن انتهت كشفت زيف الدعاوى التي وجهت إلى الإسلام والمسلمين وتبين أنه لم يكن هناك حدث خطير يستدعي هذه الحملات المتصلة خلال قرنين من الزمان ، إلا التعصب والمظالم ثم كشفت أيضاً زيف الادعاءات الموجهة إلى عقيدة المسلمين وأخلاقهم ، ولما هاد الصليبيون كان الأمر غاية في القسوة بالنسبة للكنيسة صاحبة الدعاوى الباطلة ولذلك فقد أخذ الدعاة أمولياً جديداً يصنفه الدكتور

(دانا كارلتون منرو) حيث يقول : بدأت الدعوة ضد الاسلام تأخذ شكلا جديداً فيطرس المحترم رئيس دير كاينى فكر فى إتخاذ خطة جديدة هى تنفيذ تعاليم الاسلام إذ أن الغربيين كانوا يتوقنون إلى الوقوف على تعاليم أعدائهم المسلمين ومعتقداتهم ، فقد يكون وصل إلى الغرب خبر البعض من المسيحيين الذين اهتمقوا الدين الإسلامى ولكن يظهر أن التأثير الأكبر كان لسفرة قام بها بطرس المذكور إلى أسبانيا عام ١١٤٩ م ، فهناك شاهد (تقدم المسلمين وقوتهم) فعزم على معرفة محتويات القرآن لتنفيذ تعاليمه فاستخدم مسيحيين ثلاثة وجعلهم يشتغلون بالإشتراك مع رجل عربى فى ترجمة القرآن تحت إدارة كاتبة ، وقد كلفته هذه الترجمة كمية كبيرة من الدرهم . ولكنها لم تسكن مع الأسف ترجمة صحيحة بل كانت فاسدة جدا على أنها هى الترجمة الوحيدة التى عرفها أهل الغرب حتى أواخر القرن ١٧ ، وقد طلب بطرس من برنارد البكرفوس أن يضع رداً على القرآن فأبى فاضطروا هو نفسه إلى القيام بهذا العمل وبدأت تظهر كتب حوالية فى اللغات الأوروبية المختلفة عملت على إشاعة المعتقدات الفاسدة عن محمد والإسلام وهى التى تنلى بها مصادر القرن الثالث عشر والقرون التى تعاقبت .

وهكذا نجد أن الغرب قد حشد نفسه لمقاومة دخول الإسلام إلى الغرب وبدأ يثير الشبهات حوله ويقوم بمحملة مضادة هى ما تولى الاستشراق أمره لتزييف مقاهيم الإسلام لدى المسلمين وقد كان من آثار الحروب الصليبية : إندلاع حرب السكلمة والتبشير وبناء ذلك الجهاز الضخم من الإرساليات التى زحفت على بلاد الإسلام واستقرت فى لبنان ومنها أمتدت الى استنبول والقاهرة وكل بلاد المسلمين ونذكر فى هذا الصدد وصية لويس التاسع الذى هزم فى المنصورة ودها الغرب إلى إتخاذ حرب السكلمة مع المسلمين بديلاً عن حرب السيف ، ولكن هل استطاعت تلك المحاولات أن تعزل الغرب عن فهم حقيقة الإسلام وأخلاق المسلمين وخاصة تلك الصورة الزاهية : صورة صلاح الدين الأيوبى : الحقيقة أنها لم تستطع فإن كثيراً ممن زاروا بلاد الاسلام فى هذه الفترة قد كتبوا فصولاً ضافية مازالت مرجعاً تاريخياً ، ومما يذكره المؤرخ الغربى الذى نقل عنه (دانا كارلتون منرو) ذلك البحث الذى كتبه BURCHARD برشارد نحو عام ١١٧٥ ونقله (أرنولد أف لبيك) فى تاريخه ، وكان برشارد قد بعث بعثة من قبل الأمبراطور فردريك باربارسا الى صلاح الدين ، وهنا يصف لنا معتقدات المسلمين وصفا حسناً ويطرى روح التسامح عندهم ، فيذكر أن فى الأسكندرية عدة كنائس مسحية وأن كل قرية فى مصر لا تخلو من كنيسة ، ويشهد أن كل انسان حر فى إتباع دينه الخاص ، وأن أكثر المسلمين يكتفون بزوجة واحدة ، وهو يخبر عن مداومهم على الصلاة وعلى اعتقادهم بأن الله هو خالق كل الأشياء ، وأن محمداً هو رسوله الأقدس ، وصاحب الشريعة

وأن العذراء المباركة خلقت من نفحة روحه وبقيت هنراء بعد ولادة المسيح ، وأن ابن العذراء هو نبي وقد نقله الله لنفسه بأهوجية إلى السماء . وللمسلمون ينكرون أنه ابن الله وأنه تعمد ، وصلب ومات وقام ، ويؤمنون بأن الرسل هم أنبياء ويقدمون الكثير من الشهداء وللؤمنين ، ونحدث عن صلاح الدين فقال : إن صلاح الدين كان محبوباً في الغرب لسلوكه الرعوف وكرمه بعد استيلائه على أورشليم الذي يخالف تماماً سلوك الصليبيين عام ١٠٩٩ وقد أثار دهشة الصليبيين وعجبهم ، وكان كما هي العادة عند المسلمين شديد التسامح وقد سمح أن يكون المسيحيين اللاتين راهبان وشمامسة في كل من أورشليم وبيت لحم والناصرية وأن يقوموا بطقوس دينهم بكل حرية ، وكان مشهوراً بتأدبه وقد أشأت بينه وبين ريشارد قلب الأسد علاقات ودية عديدة وقد وصلت حكايات رأفته وكرمه إلى الغرب ، وقد أشار ليفر في كتاب له : إن المسلمين اهتموا بالمسيح نبياً وليس إلهاً ، وينكرون آلامه وموته واتحاد الطبيعيتين الإلهية والإنسانية فيه والثالث الأندلس ، وقد ظهرت في هذه الفترة كتابات كثيرة يجادل بها اللبشرون الغربيون دعوة المسلمين إلى دينهم في محاولة لاستغلال بعض نصوص القرآن ، ومن ذلك ليفر ، هذا ، وجو كست ، ويرجع الباحث الأمريكي هذا الاتجاه إلى الاستعانة بالكتاب الذي كتبه ولیم الصوري عن المسلمين ، وقد حاول بعض المبشرين المسيحيين في هذه الفترة استغلال بعض نبوءات كاذبة عن قرب نهاية الإسلام ، ومنها تنبؤ صرح الخلافة الإسلامية في بغداد - على يد هولاء كرو - أنهم علموا ما حدث بعد ذلك من توسع وثبات الإسلام وقيام الدولة العثمانية واتساع الإسلام في أفريقيا وجنوب شرق آسيا لتندموا على هذه الأوهام . ويقول (دانا كارلتون مئرو) : أنه بالرغم من كل هذه المحاولات فقد بقيت نظرية أكثر أهمية على ما هي عليه ، وهي ما كانوا يشعرون به من أنه من المستحيل إسماة المسلمين إلى الدين المسيحي وقد أثار مخاوفهم كثرة المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام ، حتى أن البابا جريجوريس العاشر عام ١٢٧٤م عمل على وجوب تحريم مدي يد المعونة من أرند من فرقة الداوية وفي معاهدة عقدت مع المسلمين ١٢٧٣م أرغم الإفرنج على التعهد بحماية حقوق المرتدين عن الدين المسيحي : وكان البابوات يعملون لحرب صليبية جديدة وينشطون الدعاية ضد الإسلام . وبالجملة فإن محاولات الغرب في مواجهة الاسلام ، هذه المحاولات القائمة على التعصب والحقد والبغى فقد فشلت جميعها وتبين للغرب نور الاسلام وعظمته ألحقه في ذلك التعامل لمدي قرنين كاملين بين المسلمين والمسيحيين الغربيين الذين جاءوا تحت لواء الحروب الصليبية مغرراً بهم وقد نكشف لهم فساد ما نقل إليهم عن الاسلام نفسه وعن أخلاق أهل فوجدوا الحقيقة الكبرى : سلاماً وإيماناً ورحمة .

(٨)

أجنحة المعركة : بين الجزائر وأشبانيا

بعد أن سقطت الأندلس [وقد بدأت بسقوط (طليطلة) ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) وانتهت بسقوط (غرناطة) (١٤٩٢ م)] وكانت الحروب الصليبية قد انتهت بهزيمة الغرب (٩٩٦ هـ ١٢٩٩ م) ونشأت الدولة العثمانية في نفس أعوام هزيمة الصليبيين، وارتفعت في سماء المجد حتى فتحت القسطنطينية ٧٥٤ هـ ١٣٥٣ م أي أن آخر معاقل الاسلام في الأندلس سقطت بعد استيلاء المسلمين على القسطنطينية بأقل من أربعين سنة، في هذه الفترة التي أخذت الدولة العثمانية تتسع وتنبو كانت هناك حركة خطيرة تراوحت دولتي الاستعمار الأوليان : أسبانيا والبرتغال بعد أن تحررتا من النفوذ الاسلامي، هذه الحركة ترمى إلى الانتقام من الاسلام في الشاطئ الجنوبي وكان التركيز الأكبر على الجزائر حيث دارت معركة ثلاثمائة عام، وهي الجولة التي سبقت احتلال فرنسا للجزائر من بعد والتي استمرت ثلاثين ومائة من الأعوام لم يكثف الغرب باسترداد الأندلس وإذلال أهلها المسلمين من قتل وتعذيب وتهجير خلال تلك السنوات الطويلة للتخلص من المسلمين نهائياً في شبه جزيرة أيبيريا ومن أهل البلاد أصلاً، ولكنهم أرادوا ملاحقة هؤلاء المسلمين في بلاد المغرب والانتقام منهم ومن أهل المغرب الذين هربوا مرتين إلى الأندلس لاستنقاذ الملكة الأندلسية نعم (كما يقول الأستاذ أحمد توفيق المدني) : لم تكثف أسبانيا النصرانية أو تقعن بسحق الأندلس المسلمة واستعادة آخر نقطة للإسلام في أسبانيا بل رأت عبادة ظفرها أن تطارد الاسلام بكل ما وسعها وأن تمحو كل رسومه وآثاره من صحيفة حياتها وأن تدفن ذلك الماضي الجيد إلى الأبد، والمعروف أن البرتغال هي التي أخذت بادرة ما أطلق عليه من بعد اسم الاستعمار والكشف الجغرافي وتبعتها أسبانيا وكانت الضربات الأولى موجهة إلى موانئ الجزائر وامتدت إلى تونس والمغرب وليبيا . وقد حملت منذ اليوم الأول روح التعصب والحقد الصليبي وكان قادتها الأول من أطلق عليهم اسم المكتشفين بالفي الكراهية للإنسانية ومندفعين في الانتقام والعسف، وكانت كل محاولات اكتشاف رأس الرجاء الصالح والدوران حول أفريقيا تستهدف انتفاض السكان الاقصادي لعالم الاسلام حتى يكون عاجزاً عن الجهاد والمقاومة، وكانت تحاول أن تحقق ما أطلق عليه اسم تطويق عالم الاسلام من الخلف، حيث كانت الدولة العثمانية إذ ذاك مهيمنة على شرق البحر المتوسط كذلك فإن خطة الغرب المقاومة كلها للإسلام : فسكراً وسياسة، إنما كانت تحاول أن تحول بين أهل أوروبا وبين فهم الاسلام فهما صحيحا

ثمة بأنه من البسر بحيث يدخل في القلوب بغير استئذان، ولذلك كانت تلك الحركة العنيفة التي نفعم إلى صلات محاكم التفتيش وهي القضاء على قوة المستنيرين المائدين من الشرق بعد فشل الحروب الصليبية والذين أعلنوا بكل قوة أن ما أذاعته أوروبا عن الإسلام كاذب، وإن معاشرتهم للمسلمين كشفت عن ضخامة ورجمة وخلق رفيع، لقد قضوا على هذا الرهيل حتى لا يشكك الأوروبيون في أكاذيب الصليبيين التي هي مبرر حملاتهم على الشرق، كذلك كانت السياسة الإسبانية تعمل على «أن تهبج آثار العصر الإسلامي وتخفيها عن كل باحث ومنطلق كأنما كانت تخشى أن تؤثر روح التفكير الإسلامي في تفكير أسبانيا النصرانية وهي لم تدخر وسعاً في مطاردة هذا الروح وقتله»، وقد ظل هذا الانجاء زمناً حتى جاء الوقت الذي ظهر فيه الحق فكشف النقاب عن الحقيقة التي تبرز كرامة الإسلام وسماحة المسلمين. وفي نطاق هذه الخطة كانت تلك الحملة المذهورة على الشاطئ الإسلامي للبحر الأبيض والتركيز على الجزائر بالذات، فبدأ هذا الزحف مبكراً حينما استولت البرتغال على ميناء سبتة سنة ١٤١٥ م، ثم دار البرتغاليون حول رأس الرجاء الصالح واكتشف كولمبس القارة الأمريكية بعد شهور من سقوط غرناطة بأيدي النصارى الأسبان ١٤٩٢ وفي ١٤٩٧ سار فاسكودي جاما فاستدار حول رأس الرجاء الصالح، ووصل إلى (موزمبيق) و (مالندي) حيث الحكم العربي الإسلامي، ثم شق طريقه إلى (قالبوط) ثم عاد إلى لشبونة سالكا نفس الطريق الذي بدأ من قبل. وأنشأ البرتغاليون المستعمرات على ساحل أفريقيا الشرقية، ونمكسوا ما بين ١٥٨٢ — ١٥٠٩ من إنهاء السيطرة الإسلامية على شرقي أفريقيا والمحيط الهندي وإقامة ثلاث مستعمرات رئيسية «كاو — موزامبيق — سوخالو».

ثم بدأ تنافس الدول الأوروبية واضحاً بعد زمن قصير من تحرك البرتغال فتحركت فرنسا ١٥٢٩ وإنجلترا ١٥٨٠ (وهو نفس العام الذي بدأت البرتغال تفقد فيه مستعمراتها بعد ضمها إلى أسبانيا) ثم جاءت هولنده ١٥٩٥، وكان لانكشير الإنجليزي قد وصل إلى الهند عام ١٥٩١ سالكا نفس الطريق البرتغالي القديم حيث أسست شركة الهند الشرقية ١٦٠٠، وقد قام البرتغاليون باستعمار شرق القارة الأفريقية في أقل من عشر سنوات، ثم هبت الدول الأوروبية تنازعهم السيادة الأوروبية في آسيا وأفريقيا، ولم تلبث البرتغال وأسبانيا أن سقطتا وانسحبنا من ميدان الإمتعار، وكان أخطر أحوارها هو حرب الجزائر التي استمرت ثلاثمائة عام أذاقها فيها المسلمون صنوف العقاب والمقاومة، فلم يمكنوها أن تحقق شيئاً مما كانت تأمل فيه.

(٢)

خرج الشرق الإسلامي من الحرب الصليبية مضعضم القوى ، وكانت المعركة في الأندلس على أشدها ، وهي معركة لم يكنف فيها الغرب بالسيطرة على أسبانيا بل امتدت للقضاء على المهاجرين ومعاقبة الشاطئ الإفريقي العربي الإسلامي الذي عاونهم وساندتهم والانتقام منهم ، وكانت هناك المحاولات للتصلة لهاجمة الشواطئ الجزائرية ، وموانئها حيث تكونت في موانئ أوروبا قواعد للقرصنة في أسبانيا والبندقية وجنوة وصقلية . وقد هاجمت هذه القوى معظم سواحل المغرب الأقصى واحتلت مدن وهران ومستغانم والقلمة المقابلة لمدينة الجزائر وموانئ من تونس وصرا كش ، وكان ذلك مقدمة لخطة شاملة للسيطرة على الإسلام ، وشن الغارات على المهاجرين من الأندلس ومدها إلى مواطنهم الجديدة في شمال أفريقيا ، ولقد اشترك في مقاومة هذه الحملة الخفصيون في تونس والزناتيون في الجزائر والمرينيون في المغرب الأقصى ، وقد جاء دورهم في الجهاد بعد دور الموحدين والمرابطين . ومن ثم بدأت الجزائر تدخل المعركة الكبرى التي جاءت بعد سقوط الأندلس بعشرين عاماً تقريباً والتي بدأت ١٥١٤ وظلت ملتهبة الأوار حتى تهاوت بالهزيمة الكاملة عام ١٨٣٠ (٩١٨-١٢٤٦هـ) كانت يد الإستعمار المسيحي الأوربي قد طمعت في السيطرة على المغرب وأخذت تدق أبوابه بشدة ، وكان الأسبان قد سيطروا على مدينة تطوان عام ١٤٠٠ م ، حيث حطموها وقتلوا نصف سكانها وساقوا الباقي أهلها أسرى إلى أسبانيا وامتدت يد البرتغال إلى مدينة سبتة ١٤١٥ ، وإذا كانت المعركة قد توقفت في الشرق فإنها ثقلت في المغرب وأتسع نطاقها ودخل المسلمون في هجرة أريد بها « السيطرة » على الإسلام من هذه الناحية ، سيطرة قائمة على مفهوم التبشير والغزو الفكري أساساً وإذا كانت موانئ الشاطئ المغربي (الجزائر وتونس والمغرب) قد سقطت بين أيدي البرتغال (سبتة وطنجة وأصيلا وأزمور والصوريرة وأسني) والأسبان (صحرة باديس الحربية ومدينة سيية وبلة أفي إلى يومنا هنا) فإن ذلك لم يحدث إلا بعد حروب ومعارك قاسية عنيفة أبلت فيها المجاهدون المغاربة البلاء الحسن بما عرف عنهم من قوة إيمان . وإنتفاء لخطر اتحاد إسلامي موسع في أفريقيا ضد الصليبيين الإسبانيين أرسل فريناند ١٥٠٩ بعد سقوط غرناطة وأثناء اشتداد الحنة وفداً إلى العاصمة الصليبية المالك بطلب عقد معاهدة صداقة ، كذلك فإن الراهب (خيخيفس) الذي قاد الحملة الصليبية على الجزائر كان يدهي أنه يعمل جهاداً في سبيل الله ، وكان البابا في روما قد أصدر أمره إلى جميع البلاد المسيحية الأوربية أن تضع كل إمكاناتها البشرية والمالية تحت تصرف ملوك أسبانيا من أجل

إخضاع بلاد الشمال الأفريقي للحكم والدين المسيحي أخيراً وكان ذلك كله رد فعل الخوف الذي ملا قلوب الغربيين والأسبانيين على الخصوص بعد إخراج المسلمين من أفريقيا من أن ترحف موجة جديدة على رأسها قائد مثل يوسف بن تاشفين أو هب المؤمن وكان الأسبان يخافون أن يعيد عليهم المسلمون الكرة من جديد ، وكان ظنهم أن يعتسلم لهم المغرب فريسة طيبة وخاصة الجزائر ، ولكن الأمر لم يكن كما تصوروا فإن الأمة الإسلامية التي كانت قادرة دائماً أن تستجيب من أعماقها بالقوة القادرة على المقاومة والردع في الوقت المناسب سرعان ما أخرجت هروج وخير الدين فتغير وجه التاريخ ونحوات المواقع من هزيمة إلى نصر ، وسجل التاريخ للجزائر دوراً بطولياً في هذا العصر وفي إبان شراسة الاستعمار البرتغالي والأسباني لا يقل قوة عن دورها من بعد في مواجهة الاستعمار الفرنسي : فقد حشدت الجزائر كل منسوزها الروحي والمادي ضد العدو المهاجم ، وأقامت دولة الجزائر : دار الجهاد ١٥١٦ التي ظلت تقاوم إلى ١٨٣٠ . « وظهر هروج وخير الدين في الميدان ودخلا في الأسطول العثماني ، وبقي هروج أسيراً في يد قراصنة مملكة البندقية وعندما أطلق صراحه بعد تعذيب وتنكيل قرر أن يكرس حياته لمقاومة القراصنة واستمال إليه أخاه خير الدين حيث كان الصراع على أشده بين القراصنة الأسبان ومسلمي شمال أفريقيا والقادرين من الأندلس فشاركوا في تهريب الناجين والفارين منهم إلى شمال أفريقيا وبلاد الشرق واتفقا مع الأمير الحفصي بتونس أن يكون ساحل تونس وميناء حلق الوادي بالقات مؤثلاً ومركزاً لقوتها البحرية لقاء خمس مايفضونه من الأعداء ومن « جيجل » بعد افككاها من الإيطاليين أخذوا يشن الغارات على القراصنة ، وكرروا المحاولات ضد الأسبان في ثغر ريجايه ، وقد استطاع هروج وخير الدين ومن وراءهم الجموع المجاهدة الكثيفة من الاستيلاء على الجزائر وطرد الأسبان ووسعا مجال السيطرة حتى تلمسان وأقرت الدولة العثمانية هذا الوضع وقد دخل المغرب الإسلامي في الدولة العثمانية من رضا وطواهي واستطاع خير الدين من بعد الحلة الأسبانية الكبرى على الجزائر ١٥١٩ أسر ثلاثة آلاف جندي من مدينة جيجل وواصل نشاطه سبع سنوات متصلة فاستطاع أن يسيطر على الملاحة في المتوسط وإخضاعها لسيطرة الأساطيل الإسلامية ، كذلك فإنه استطاع اقتحام قلعة الأسبان المواجهة لمدينة (برج القنار) وضربها عام ١٥٢٩ م وتوالت حملات الأسبان ولكنها هزمت شر هزيمة . ثم اختير خير الدين بعد ذلك عاماً قائداً للبحرية العثمانية ولما حاولت أسبانيا وألمانيا وإيطاليا الوقوف في وجهه لنفوذ العثماني والسيطرة على بلاد شمال أفريقيا زحف خير الدين في قوات كافية ودخل إلى تونس ١٥٣٤ وقد زحف شارل الخامس بعد ذلك في أربعمائة سفينة ، و ٢٨ ألف جندي واحتل حلق الوادي

والتخذ جامع الزيتونة اسطبلًا ولم يلبث خهر الدين أن رد عليه بهجوم مفاجئ على جزر البلبيا وامترق منها ٦ آلاف شخص وعاد بهم إلى الجزائر وتولى قيادة البحرية الجزائرية (حسن أغا) الذي واجهه القرصنة الأسبانية، حيث أعاد شارل الخامس ١٥٤١ السكره وقاد حملة بحرية في ٣٦ ألف جندي و١١٦ سفينة وقد سجلت الجزائر انتصاراً عظيماً على أكبر حملة في القرن السادس عشر وضد أكبر دولة ولم يرتدع شارل الخامس وحاول تنظيم حملات انتقامية منذ عام ١٥٤٣ ولكنها فشلت كلها كما فشلت حملته في نفس العام على تلمسان. ولم تفلح مؤامرة شارل الخامس (الذي كان امبراطور أسبانيا) في الإنصال بالإمبرالي العثماني خير الدين حيث عرض عليه الاستقلال لبلاد المغرب تحت حمايته، ولما أحس الأسبان بمساعدة فرنسا لهم، نزّلوا ضد العثمانيين في تونس ولكن درغوث التركي تمكن من النزول في تونس ودخل في صراع عنيف مع قوات أسبانيا في البحر المتوسط وكانت طرابلس في يد فرسان القديس يوحنا منذ عام ١٥٣٥ تسلموها هدية من الامبراطور الأسباني شارل الخامس، وكان الأسبان قد استولوا عليها ١٥١٠ فلما استعجبت طرابلس بالسلطان العثماني بعث إليهم نجدة بقيادة مراد أغا، فلما استعصت عليه طرابلس جاءته نجدة من سنان ودرغوث الذين قدما جميعاً إلى طرابلس وفسكوها من الفرسان وطردهم نهائياً ١٥٥١ م وجمع درغوث قوات بحرية كبيرة وحاصر جزيرة مالطا وتصارع من جديد مع فرسان القديس يوحنا وامتنعدهم وهكذا نجد أن المغرب المسيحي ممثلاً في البرتغال وأسبانيا قد انطلق انطلاقة هنيئة حادثة إزاء المغرب كله ولكن الدولة العثمانية كانت مع مجاهدي المغرب هونا على ضرب هذه المؤامرة ولما رأى البابا أن القوى الإسلامية صامدة وقادرة على رد الاهداء بقوة، ألف حلفاً مسيحياً ضد الدولة العثمانية اشتركت فيه البندقية وأسبانيا، وقد التفت قوات هذا الحلف بالأطول العثماني في معركة (ليبانتو) الشهيرة عام ١٥٧١ على مدخل خليج كورنث باليونان وتغلبت، ولكن الأتراك أهادوا تونس أواخر ١٥٨٣ ضربوا الحصار على حلق الوادي حتى أرغوا الأسبان والأير الحفص على الفرار إلى تونس ثم لاحقهم هناك والنحو معهم في معركة فاصلة وهزمهم ولم يتوقف الأمر بعد على البرتغال والأسبان بل أخذت الدول الأوروبية جميعها تتصارع على الشاطئ الإسلامي الأفريقي، وبدأ عصر القرصنة الأوروبية المسيحية وقد واجه للمسلمون في تونس وطرابلس والجزائر هذا الخطر باتخاذ قوات بحرية للدفاع عن كياناتها وشواطئها ضد الحملات والحروب الصليبية التي كانت تشنها الدول الأوروبية، وقد واجه المغرب الإسلامي التحدي الصليبي (كما فعل أهل المشرق بالحروب الصليبية) بأعنف الوسائل التي تمكنت في إنشاء أساطيل وإعداد قوات بحرية ضخمة تمحدث أطباع

دول وممالك أوروبا وظاهر الأسطولين الفرنسي والانجليزى على أنقاض التركى والأسباني وكانت هذه بداية مرحلة جديدة .

(٤)

ولقد كانت القرصنة الأسبانية البرتغالية أشد ما تكون هولاً وفضاهة ، تفنك بالمسلمين فتسكا ذريعاً ، وتعمل على استدلال رقابهم ، لولا أن الأتراك العثمانيين كانوا قد وطدوا في المشرق أقدامهم ، وشيدوا أسطولا هنيئاً وأشهر رجال البحر هروج وخير الدين وكانا قد تطوها بنقل المسلمين من الأندلس إلى سواحل المغرب ، ثم تعاقدوا مع الأمير الحفصى التونسى على أن يجعل قاعدة أعمالهم البحرية في جزيرة (جربة) وأصبح النفوذ الأسباني يزداد في البحر والأسبانيون يتسكالبون بكل جرأة على المسلمين ، ثم أرسل الجزائريون إلى بربوس خير الدين يستنجدون به فقدم وجعل مدينة الجزائر عاصمة مملكة ، ولما أرسل خير الدين إلى السلطان يشعره بدخول الجزائر تحت لوائه أمد السلطان الجزائر بجند وأسطول وأصبح الأتراك يقفون وجهاً لوجه أمام الأسبان المعتدين . وأذاق بربوس الأسطول الأسباني أمر العذاب ودمره شر تدمير في عدة مواقع كبيرة وامتد ميدان المعركة بين المغرب والإسلام من تلمسان إلى البحر المتوسط وكان للحكم التركى أثره الكبير في إنقاذ الجزائر - والمغرب كله - من شر الاحتلال الأسباني وكانت ولاية الجزائر تتمتع باستقلال داخلى تحت سيادة الباب العالى الاسمية وأقامت الجزائر في مواجهة القرصنة الأوروبية وهاد من الجهاد الذى يسفر عن الحرب مع الدول البحرية التى لم تربط علاقاتها التجارية مع حكومة الجزائر ، وكانت تحسن معاملة الأسرى المسيحيين وتسمح لهم بإقامة معالمهم الدينية علناً في نفس الوقت الذى كانت أسبانيا تقوم فيه بحرق المسلمين أحياء . ولقد انكسرت الدول الأوروبية وخاصة الأسبان أمام الجزائر مراراً ومرات ، وحاولت أسبانيا أن تنال مع الجزائر ، ولكنها كانت أعظم مدينة حصينة بالبحر المتوسط كله ، وكان بها من المواقع الضخمة ما يفوق في رمية وقوته مدافع أوروبا وكان الأسطول الجزائرى مؤلفاً من ٧٢ قطعة بحرية يحمل كل منهما ٣٠ مدفعاً إلى ونحو من ١٤٠ سفينة من ذات العشرين مدفعاً .

(٥)

ولقد حاول الغرب في العصر الحديث وهو يكتب التاريخ أن يزيّف كثيراً من الوقائع ، ومن ذلك محاولة الإدعاء بأن المسلمين كانوا يمارسون القرصنة على النحو الذى هرف عن الغرب لنفسه والواقع أن ما كان يمارسه الغرب في مواجهة أساطيل المسلمين وفي وجه هجرة الأندلسيين ، إنما يسمى بالقرصنة كذباً وتمويهاً ولكنه في الحقيقة يسمى باسم لصووية البحر Course أما القرصنة Firaterie في مفهومها الصحيح فهى نوع من أنواع الحروب البحرية التى تقع بين الدول المتعادية التى كانت الغاية

منها ضرب اقتصاديات العدو بالاستيلاء على البضائع الصادرة منه والواردة إليه وأسر من يعمل فوق ظهر تلك السفن المعادية وقد كانت الحكومات تسلم أوراقا رسمية للقراصنة تكسبهم بذلك صبغة مشروعة تميزهم عن لصوص البحر وتجعلهم شبه جنود ومتطوعين أحراراً يعملون فوق البحر ، كذلك فالمعروف أن القراصنة لا يعملون إلا مدة الحرب فحسب ولقد انشطت القرصنة الاسلامية بهذا المفهوم داخل القيود المشروعة وفي نطاق القرصنة العالمية في ناحيتين : (الأولى) ناحية الشرق حيث كانت السلطنة العثمانية أيام هتفوان قوتها تحارب كل الدول الأوروبية الواقعة على ضفاف البحر المتوسط فألى جانب أسطولها الضخم الذى كان يذبح البحر وتمثلت الجزر والموانئ وينقل الجنود والعتاد ، أنشأ المجاهدون الأتراك أسطولا للقرصنة النظامية يحارب من حارب سلطانهم ويسلم من سلمه ، وعظم شأن هذه القرصنة فأصاب تجارة وأرزاق الدول المعادية في الصميم . واشتهر من قراصنتها أبطال عملاقة لعبوا في التاريخ الاسلامي أدواراً سجلت أسماءهم في سجل الخالدين أمثال هروج وشقيقه خير الدين وأمثال قالش على وطورغود ، وسنان وإسراهم . (الثانية) في بلاد المغرب الاسلامي حيث نشأت القرصنة الاسلامية أول ما نشأت ببلاد الأندلس وكانت مدينة (المرية) مركزها الأكبر ، فكانت بأعمالها الواسعة في البحر المتوسط وفي المحيط وفي مضيق جبل طارق تشارك في ذلك الصراع الاسلامي المسيحي الرهيب وتتصدى لسفن الأسبان وحلفائهم . وذلك بينما كان للأسبان والبرتغال قراصنة في ذلك الحين من أولى القوة والبأس يتعرضون في كل البحار سير السفن الاسلامية وخاصة على سواحل المغرب الاسلامي وإزدادت هذه القرصنة على السواحل المغربية جرأة وهدوانا عندما حم القضاء بمسلمي الأندلس وأخذت بقيامهم وفلولهم تخترق البحر ، قارة بدينها وشرقا وبقايا متاهها وأموالها إلى سواحل الشمال الأفريقي فكانت سفن القرصنة الأسبانية والبرتغالية تستحوذ على السفن الاسلامية وتسي من فيها من رجال ونساء وتأخذ ما مهم من متاع ، وقد اشتد هضم المسلمين في المغرب بمن جاءهم من مهاجري الأندلس الشفريين العارفين بالملاحه وفنونها الماهرين في صناعة السفن فأخذت المدن الساحلية تنشيء سفن القرصنة دفاها وتقاتل العدوان بالمثل وصارت سفن المسلمين تخرج من سلا ، ووهران وشرشال والجزائر ودلس وبجاية وحيجل ، تخرج جريئة إلى سواحل أسبانيا تقاتل فيها العروان بمنله فتخرب معالم العدو وتأخذ ما استطاعت أخذه من خيراته ، وأرزاقه ، وتسي ما استطاعت سبي من رجاله ونسائه وتمتد يد الاهانة والمساعدة للمنكوبين البائسين من رجال الاندلس ، وكان لمدينة وهران في منسبل القرن ١٦ (١٧ سفينة) قرصان بلغ قوتها وجرائمها حاجت سواحل الشى والبيكانى وأخذت منها الغنائم والأسلاب ثم صارت ست منها إلى مرسى مدينة مالقة الأسبانية فاقتحمها وأحرقت داخلها كل السفن المعادية التي كانت بها .

يقول الأستاذ ف. ١٠. بروديل : أن القرصنة لم تسكن في غرب البحر المتوسط بالشئ الجديد فتمتد قرون عديدة كان المسلمون ، وكان المسيحيون يقومون بأعمال القرصنة في البحر ، ولا يحق لنا أن نغفل التاريخ ، فإن القرصنة المسيحية كان هدهم كبير جدا خلال القرنين ١٥ ، ١٦ بهذا البحر المتوسط خفت وطأة القرصنة المسيحية بعد ذلك ، لكن القرصنة الإسلامية زادت ضراوة في الشمال الأفريقي بعد إبعاد مسلمي أسبانيا واضطراهم إلى الإلتجاء لهذا الشمال .

(٦)

ولا ريب أن القرصنة قد انطلقت من أوروبا ومن أسبانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وألمانيا ، وبريطانيا والدنمارك والسويد وبلجيكا وغيرها من الدول الأوروبية ، أما الدفاع فبدأ من المغرب الإسلامي ، إبتداء من ١٥١٠ بتدخل هروج وأخيه خير الدين بعد أن كانت القرصنة الأوروبية المقرونة بالصليبية شائعة ذائعة سائدة في البحر المتوسط ، هذه القرصنة بدأت في أوروبا بالهجوم وكانت احتلالا صليبيا وكانت أيضاً قرصنة بقصد الأغراض الدينية ، بقصد السلب والنهب ، ولم تسكن من المغرب الإسلامي إلا دفاها عن النفس ، وقد أثقلت هذه الحركة الجزائرية كنبير من الأندلسيين من أسبانيا ، وإذ ذاك فقط قويت البحرية الجزائرية إبتداء من عام ١٥٣٠ ووصلت سفنها إلى سواحل إيرلندا وإنجلترا والدنمارك ، وفي القرنين ١٧ ، ١٨ أصبحت قوية فعلا وقلبت الموازين وسادت البحار طول القرون التالية حتى عام ١٨٢٧ كانت البحرية الجزائرية مجرد دفاع عن الشواطئ والسيادة ضد حركة صليبية جديدة خطط لها على مستوى عالمي ، وبدأ تنفيذها « فرديناندو السكاتوليكي » على سواحل المغرب والجزائر ونائب ملك صقلية على سواحل تونس وطرابلس . وكانت القرصنة الصليبية الأوروبية تمتد وتبسط نفوذها وتنطلق بعيداً ، فعلا ذهبت بعيداً إلى الفلبين وإذ امتدت أسبانيا حتى الفلبين امتدت هولندا إلى أندونيسيا فلما جاءوا إلى الجزائر هزموا شارل الخامس شر هزيمة ، وقامت حملات أوروبية أخرى عديدة وخاصة فرنسية إبتداء من عهد هنري الرابع قامت بها البحرية الأوروبية ولكنهم نكصوا كلهم على أعقابهم مدحورين أمام شواطئنا تاركين وراءهم أسلحة وعتاداً وأمري في المراك التي لا تكاد تحصى كما في الأسبان والبرتغال في المغرب بهزيمة شنيعة في معركة وادي المخازن المعروفة .

(٧)

ولا ريب أن قيام الامبراطورية العظمى في التاريخ الاوروبى ١٥٢٠ م وهى امبراطورية شارل الخامس أو شرلسكان كانت أكبر من حل أحقاد الصليبيين الغربية على المسلمين ، وكان شارل قد جمع بين يديه أسبانيا والنمسا وبلجيكا وهولندا وصفاية وطيطة ومردينيا وناپولى وجزءاً من ألمانيا وأغلب البلاد الأمريكية المعروفة ، وأصبحت هذه الامبراطورية تنف أمام الامبراطورية العثمانية ودولة الجزائر ، وقد لقيت الاندحار فوق أرض الجزائر وأنهار الامبراطور مكسيميليان نعت ضربات الأتراك العثمانيين الذين تحالف معهم ملك فرنسا فرنسو الأول . ومما وقع فيه شارلسكان : احتلال عاصمة ألبانيا ١٥٢٥ وانتهاك حرمانها بواسطة جنوده من ألمان وأسبان واحتلال تونس ونهبها وانتهاك حرمة سكانها ١٥٣٥ .

(٩)

أوروبا والغرب بين المسيحية والاستعمار

١ — أوروبا للمسيحية

هزت المسيحية : دين الله المنزل بالحق على عيسى بن مريم إلى أوروبا الرومانية الوثنية التى كانت تعيش سنوات انحلال الامبراطورية العنيدة ، وكان ذلك على يد « بولس » الذى ظهر في السنة الثامنة بعد المسيح ، وكان من أكبر أخبار اليهود المعروفين باللم والدكاء ، وكان في أول أمره من أعداء للمسيح وأشد المنكرين على تعاليمه مع أنه لم يجتمع به قط ، ثم هاد فادهى ابن المسيح هبط عليه وهدمه الحقائق وأمره بإعلانها فظهر للناس في طوره الجديد . ولد في طرطوس بآسيا الصغرى ، اسمه الأصلي (شاول) روماني الجنسية درس في القدس وكاف من رئيس الكنائس اليهودى بالذهاب إلى دمشق لمقاومة المسيحية قال : أنه في طريقه رأى نوراً ساطعاً يدهوه إلى الإيمان بالمسيح وقد أدهى أنه نأى للمسيحية من المسيح نفسه لاهن طريق الحوارين . وقد ثار عليه اليهود بعد اندماجه في المسيحية وقبض عليه في أورشليم فسجن عدة سنين قبل أن يرسل إلى روما ومن هنا أدخل للمسيحية إلى عالم الغرب وهو في نظر كثير من المؤرخين الغربيين : للتؤسس الحقيقى للمسيحية الحالية فقد وضع قواعد جديدة اختلفت بها عن الرسالة المنزلة وأمامنا وثيقتين أحدهما للعالم الغربى (بىرى) والأخرى لافيلسوف (وبار) يقول بىرى [جاء شاول وهو يهودى روماني من الغربيين أحد طبقات اليهود

العلما لم يرى عيسى ولا سمحه يبشر الناس ، وقد لعب شامول هذا دوراً كبيراً أثقذ به للمسيحية بعد أن أوشكت أن تدخل عالم النسيان الذي ضم كثيراً من أشمال هذه الحركات ، وكان شامول في هذه أكبر أهداء للمسيحية أوقع بأهلها ألواناً من الاضطهاد والقتل والتنمذيب واسكننا فحاذنحول إلى للمسيحية واستخدم فجاربه ومكائنه لينفع المسيحية وينفع بها . وكان عيسى يهوديا وقد ظل كذلك أبداً ولكن شامول كون المسيحية على حساب عيسى ، فشامول الذي سمي فيما بعد بولس — هو في الحقيقة ، مؤسس المسيحية وهو يمتاز بأنه صاحب دراية في السياسة والابتكار ، أدخل بولس على ديانته بعض تعاليم اليهود ليجذب له العامة من اليهود ، أدخل صوراً من فلسفة الأفريقى ليجذب له أتباعاً من اليونان فبدأ يذبح أن عيسى منقذ ومخلص وسيد استعاطع الجنس البشرى بواسطته أن ينال النجاة ، وهذه الاصطلاحات التي قال بها بولس كانت شيرة عند كثير من الفرق اليهودية فأنجازوا إلى ديانة بولس ، ومهد كذلك ليرضى المستنصرين اليونان فاستعار من فلاسفة اليونان فكرة اتصال الإله بالأرض عن طريق الكلمة (فيلون) أو ابن الإله أو الروح القدس — بدأ بولس ديانته في أنطاكية حيث نشأ لأول مرة التمييز الشهير المسيحية Christian وبدأت تنشر هذه الديانة في المدن حيث تكثر الحاجة والفقير . فبولس هو المؤسس الحق في الديانة المسيحية وقد طور فكرة « المسيح » من الناحية اللاهوتية والناحية الإنسانية وجعلها تتناسب مع فكرة الإنقاذ القديمة فقدم آداباً مستحدثة في طابع قديم مألوف ، وبهذا فصل دعوة عيسى عن اليهودية . ولم ينفر بولس من الطقوس الوثنية بل على العكس اقتبس كثيراً من هذه الطقوس ليضمن نشر ديانته بين الوثنيين وليبعد ديانته عن أن تذوب في اليهودية ومنها أنه جعل عطلة الأسبوع يوم الأحد ، وأهل يوم السبت وهو اليوم المقدس عند اليهود كما غير أيام الأعياد .

وعيسى أصبح ابن الله حملت به أمه المنراء حملاً غير طبعى واحتلت صورة العذراء والمسيح مكاناً مقدساً احتلته قديماً صورنا حورس وأوزيريس ووضعنا في كل الكنائس . وعلى الرغم مما أخذت المسيحية من الوثنية لم تصبح للمسيحية وثنية في روحها بل ظلت منهكة بحفظها الدينى الذي ورثته عن اليهودية كما حافظت على ابتعادها من الناحية الجسدية الشهوانية . أما الفيلسوف (ه . ج . و) فيقول : كان القديس بولس من أعظم من أنشأ للمسيحية « الحديثة » ، وهو لم ير عيسى قط ولا سمحه يبشر الناس ، وكان اسم بولس في الأصل شامول وكان في بادئ الأمر من أبرز وأنشط المضطهدين لفته الحواريين القليلة العدد ، ثم اعتنق المسيحية فجأة ، وغير اسمه فجعله بولس وقد أوتي ذلك الرجل قوة عقلية عظيمة كما كان شديد الاهتمام بحركات زمانه الدينية فقرأ على علم

عظيم باليهودية والليبرالية ، وديانة ذلك الزمان الذي تمنعها الاسكندرية ، فنقل إلى المسيحية كثيراً من أفكارهم ومصطلحات تعبيرهم . ولم يهتم بتوسيع فكرة هبسى الأصلية وتنميتها وهي فكرة ملكوت السموات ولكنه علم الناس أن هبسى لم يكن المسيح لليهود فقط ، بل أنه ابن الله نزل إلى الأرض ليقدم نفسه قربانا ويصلب تكفيراً عن خطيئة البشر ، فوته كان تضحية مثل ممات الضحايا القديمة من الآلهة في أيام الحضارات البدائية من أجل خلاص البشر (مع ملاحظة أن الاسلام لا يقر هذا المفهوم ويقرر أن هبسى رسول الله وليس ألهاً ولا أبى إله وأنه لم يصلب كما لا يقر نظرية الخطيئة) وقد استعارت المسيحية أشياء كثيرة من هذه الديانات كالفيس الحليق وتقديم الذنور والهبيا كل والشموع والتراتيل والقائيل التي كانت لعقائد متراس والإسكندرية بل تبنت أيضاً حتى هبارتها في هباتها وأفكارها اللاهوتية ، وراح القديس بولس يقرب إلى عقول تلاميذه الفكرة القاهية إلى أن شأن هبسى كشأن أوزيريس : كان رباً مات ليبعث حياً ولينجح الناس المخلود .

من هذين الوثيقتين التاريخيتين اللتين كتبهما رجال مسيحيون من خبرة مفكرى الغرب نرمم الصورة التي هبرت بها رسالة السيد المسيح — التي جاءت ختاماً لرمالات أنبياء بنى إسرائيل — هبرت إلى الغرب ، وكانها ديانة مستقلة ، وديانة دهوة ، وقد تهررت تماماً من أكثر صلاتها السماوية وارتباطها التاريخي ، وانصهرت في مجتمع مشكل مكون له حضائوته وثقافته وقانونه ونظامه فكان من المسير عليها أن نجد مكاناً إلا بعد مشقة شديدة . وقد وجدت في سنوات انتقالها الأولى معارضة شديدة ، ولكنها لجوهرها الربانى استطاعت أن تخلق طريقها إلى النفس الإنسانية الغربية الوثنية التي كانت غارقة في الشهوات والآثام فوجدت للؤمنين بها الدين واجبوا بعد ذلك أشد أنواع الاضطهاد والتنقيب حتى اعترف (قسطنطين) بها كديانة للدولة عام ٣٢٣ م وكان عهد دقلديانوس ٢٨٤ م من أقسى عهود التنقيب والاضطهاد . ولقد كانت فكرة بولس قائمة على استرضاء كل العناصر الوثنية وللتدينة وغيرها حتى تنفذ المسيحية إلى المجتمع الذي كان في ذلك الوقت يعيش حياة مريرة من العبودية القاسية ، والفساط الحاكم الشنيع ، وحيث يسيطر الحكم ويتأملون ، ويعيش المجتمع كله حياة القتل والحرقان ، وعندما دخلت الدولة الرومانية في عهد قسطنطين المسيحية تحوت الصورة غمة : فقد حمل الناس على الدخول في المسيحية بالسيف فدخل الناس في الدين حاملين معهم عقائدهم الوثنية الموروثة التي عز عليهم أن يتحرروا منها لشدة إلصاقهم بها فخلطوا بينها وبين دينهم الجديد فكان هذا أول ما طرأ على الديانة من الانحراف ومن هنا فقد أصبح أتباع المسيحية فريقان : فريق الشرقيين الذين نزلت فيهم الديانة والذين يؤمنون بأن المسيح عليه السلام نبي مرسل من ربه ، وفريق الغربيين

الرومانيين الذي شكل فكرهم بولس ، والذين يقولون بألوهية المسيح وقد وقع الصراع بين الفريقين وكان حقيقاً فقد كان (أريوس) وأتباعه يعارضون المذهب الروماني ويعلمون موقفهم واضحاً بالفرقة بين الألوهية وبين النبوة وقد عقدت مجتمعات متعددة لمناقشة هذا الخلاف وحسمه وقد حسم أخيراً لحساب المذهب الروماني فلاريب كان لدخول المسيحية إلى الغرب مصدراً من مصادر التغيير ، ولكنهما وقعت في برائن الفلسفة اليونانية فاحتدم الجدل بين النلاسة والنصارى وبين النصارى وأنفسهم ، وكان الخلاف حول طبيعة المسيح ، ولم يكن للنصارى الأول من العلم ما يمكنهم من مقاومة الفلسفة اليونانية فنقلب العنصر المسيحي اليوناني على العنصر المسيحي المركب من بسطاء اليهود فاختلطت وتغلّبت مسائل الفلسفة اليونانية على تعاليم الديانة المسيحية . وقد ظلت فكرة (أريوس) مسيطرة زمناً ، القائلة ببشرية المسيح ، وأنه ليس بآله ، وكان المذهب الأريوسي شرقياً وقد ظل سيطراً ، حتى عام ٣٩١ عندما ثار الأساقفة الغربيون ونادوا بمذهب ألوهية المسيح ، وأصدر الملك تيودور سيرس (الذي جاء بعد الملك قسطنطين) قراراً بأن يتبع النصارى كلهم مذهب البابا القائل بألوهية المسيح ومن يخالف ذلك هرطقياً مرزولاً ومسنوجباً لأشد العقوبات . وكان الأسقف أنفيلوك هو الذي أقنع الإمبراطور تيوسودوس بهذا الاتجاه ومن ثم استقرت فكرة ألوهية المسيح . ويرى توينبي : إن المسيحية هي نتاج لامتزاج الحضارتين اليهودية واليونانية . ويقول : إن المسيحية لم تستطع أن تصبح دولة عالمية موجودة ، آنذاك ، هي الإمبراطورية الرومانية ، واستغرق تمسيح هذه الإمبراطورية من الكنيسة الكاثوليكية ثلاثمائة سنة .

ويقول العالم المسيحي (أرنست دي دينسين) في كتابه :

ISPAM OR TRUE CHRISTIANI

إن المسيحية انتقلت من ديانة بسيطة توحيدية إلى ديانة وثنية تتركب من الأفكار البوذية واليونانية على يد بولس : وإن العقيدة والنظام الديني الذي جاء به الإنجيل ليس هو الذي دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله ، إن مرد النزاع بين المسيحيين اليوم وبين مفهوم الإسلام ليس إلى المسيح بل إلى دهاء بولس : ذلك المآزق اليهودي والمسيحي وشرحه للصحف المقدسة على طريقة التجسيم (Essenie) والتمثيل ، وملئه الصحف بالنبوءات والأمثلة ، أن بولس في تقليده لأسطفانوس راعي المذهب الإنساني قد ألصق بالمسيح التقاليد البوذية ، أنه واضع ذلك المزيج من الأحاديث والقصص المتعارضة التي يحتوى عليها الإنجيل اليوم والتي تعرض المسيح بصورة لا تتفق مع التاريخ أصلاً ، ليس

المسيح هو يولس ، والذي جاءوا بعده من الأحبار والرهبان هم الذين وضعوا تلك العقيدة والنظام الدينى الذى تلقاه العالم المسيحى كأساس العقيدة المسيحية والأرثوذكسية خلال ثمانية عشر قرناً . ويرد الكثير من الباحثين الغربيون : الفسكرة الأساسية فى المسيحية : « التثليث » إلى الفلسفة الأغريقية ، ويقولون : إن اللاهوت المسيحى مقتبس من نفس المعين الذى كانت فيه الأفلاطونية الحديثة ، لذلك يوجد بينهما مشابهاة كثيرة ، ومن هنا فقد صار للمجتمع الغربى بعد المسيحية : اضطراب فكرى شديد لذلك التداخلات بين الدين الحق المنزل وبين الفلسفات ، وفى هذا يقول لورد ما كولى : « لم يسلم تابعوا المسيح من النصارى » أن يصيبهم فى إيمانهم مثل ما أصاب اليونان والفرس وغيرهم من قبلهم ، فتمثل الإله لهم فى صورة آدمى مثنى بينهم وشاركهم فى أغراضهم وما يعتريهم من الانحلال والاضمحلال ، كما كان يبكى على القبور وينام فى البيوت ثم صلب حتى سال دمه على أهواد الصليب فظهروا بذلك للعالم فى لباس جديد من الوثنية ثم كان لهم من القسيسين والرهبان بعد ذلك لغيف من الآلهة على مثال ما كان لليونان فكان القديس جورج لديهم إله الحرب كما كان المربخ هند التونان وكذلك اتخذوا العنداء وسيسليا وغيرهما إلهة للجمال وفنون الأدب كما كانت الزهرة وسبع كواكب أخرى إلهات لدى اليونان ، وبعد ، فهل استطاعت المسيحية على هذا النحو المقابر أن تمنح المجتمع الغربى كلمة السماء : ألقى أن المسيحية حين وصلت إلى أوروبا ، وصلت إليها نظاماً روحياً وإرشاداً خلقياً فقد كانت روما تقوم على القانون الرومانى على الحياة والمجتمع ، ومن هنا فهى لم تستطع أن تتجاوز دائرة العقيدة ، كذلك فإن المسيحية حين اهتمت بمفهوم الرهبانية هارضت العمل الدنيوى ممارضة شديدة وجعلت الحياة الإنسانية قاصرة على العمل للأخرة ، وفى كلا الأمرين هجرت الدعوة الوثنية التى هجرت إلى الغرب أن تمنح مفهومها حقيقياً لرسالة السماء .

(١٠)

الامبراطورية الرومانية

استولى القوط الغربيون على روما عام ٤١٠ ثم أعتبهم الوندال ثم الميروليون الذى قوضوا أركان الامبراطورية الرومانية عام ٤٧٦ وقد ضمت الامبراطورية الرومانية بين حدودها جميع مراكز الحضارات القديمة باستثناء فارس والهند عندما بلغت أقصى اتساعها فى عهد الامبراطور تراجان — ١١٧م وقد امتدت الامبراطورية الرومانية هندئذ من المحيط الأطلسى غرباً حتى الفرات شرقاً فشملت

في الغرب بلاد بريطانيا وغاليا وأبيريا وإيطاليا بالإضافة إلى شمال أفريقيا من المحيط الأطلس حتى طرابلس ، وشمل الجزء الشرقي من الامبراطورية : البلقان من آسيا الصغرى وأهالي بلاد النهرين فضلا عن الشام ومصر وبرقة وقد امتد نفوذها السياسي إلى ما وراء حدودها التي تسيطر عليها واستوعبت شعوباً ذات حضارة قديمة كالمصريين واليونان . ويرد للمؤرخون قيام الامبراطورية الرومانية إلى عام ١٤٦ قبل الميلاد ومنذ العام ٣١ قبل الميلاد أصبحت الدولة الرومانية امبراطورية . ومن أهم أحداث التاريخ أن للمسيحية ظهرت في عصر الامبراطورية الرومانية وكانت منعقة الشام وفلسطين التي ظهر فيها السيد المسيح تحت سيطرة الرومان وقد تعقب الأباطرة الرومان المسيحية بالقاومة والأضطهاد الشديدين منذ البداية إذا كانت المسيحية منافسا خطيراً للوثنية التي كانت تدب بعبادة الامبراطور ، وبعد فترة دقلديانوس أشد ما واجهه الكنيسة المسيحية ، فقد قدم كثير من الشهداء أرواحهم فداء لرسالة السماء ولكن المسيحية هادت فانتصرت عام ٣٢٥ . وفي عهد قسطنطين الأكبر ٣١٣م الذي اعترف بالديانة المسيحية كإحدى ديانات الدولة المتعددة في ذلك الوقت ولم تلبث المسيحية أن انقسمت إلى أريوسيين واثناسيوسيين ، وقد اعترف قسطنطين بالمسيحية بذهبيها مع عبادة الامبراطور ، التي كانت تعتبر مصدراً أساسياً لقوة الأباطرة ونفوذهم وقد أقام قسطنطين قوته السياسية على دعائم رئيسية هي : [العبادة الامبراطورية + العقيدة الأريوسية + العقيدة الاثناسيوسية] وقد احتفظ بالعبادة الوثنية القديمة وبرجالها ومعابدها وطقوسها كما احتفظ كآسلافه الأباطرة بلقب الكاهن الأعظم . ويقول المؤرخون : « لقد التقى قيصر والمسيح في المجدل فانتصر المسيح على قيصر » ولا ريب أن المسيحية قد كسرت حدة الوثنية واليهودية التلودية ومهدت للتوحيد الخالص خلال سنة قرون كاملة وقد اتخذ قسطنطين : القسطنطينية عاصمة له عام ٣٣٠ وكان من أثر ذلك أنه عندما اجتاحت الغزاة أوروبا سقطت دولة روما عام ٤٧٦ وبقيت الدولة الرومانية الشرقية في القسطنطينية حامدة للمسيحية حتى اقتحمها محمد الفاتح عام ١٤٥٣ حيث سقطت القسطنطينية نهائياً في أيدي المسلمين وبعد سقوط الدولة الرومانية في أوروبا قامت بدلا منها دولة الكنيسة وظهر سلطان البابا سياسياً وديلياً وأصبح له نفوذ الواسع على ملوك أوروبا وأخذت أوروبا تتجمع في وحدة فكرية مسيحية تحت لواء الكنيسة ، وفي نفس الوقت ظهرت الرهبانية واكتسحت المجتمع الغربي كله وبالمسيحية انتقل الغرب من مرحلة أخرى في الفكر والعقيدة والثقافة . كانت الفلسفة الرومانية قائمة على عبادة الفيصر ، وإطلاق الذات والشهوات ، واستملاء السادة وعبودية العبيد ، فلما جاءت المسيحية هدمت هذه الأسس الثلاث وسارعت بإسقاط المجتمع الروماني فجلة فإن الاعتراف بالمسيحية

عام ٣٢٥ وسقوط روما عام ٤٧٦ مالا يزيد من قرن ونصف قرن تحول فيها المجتمع الغربي تحولاً خطيراً وانتهى ذلك الإطّار اليونانى الرومانى الذى قام على الإلحاد والإباحية والعبودية ودخلت أوروبا حينئذ فى مفهوم جديد قوامه عبادة الله ومحريم الإنسان والدهوة إلى الأخلاق غير أن هذه العوامل الثلاثة لم تستكمل وجودها فقد شاب الدهوة إلى عبادة الله إنحراف التفسير الذى قدمه بولس وشاب الدهوة إلى تحرير الإنسان روح النسل والرهانية التى نقلت المجتمع الغربى من التحلل الخطير إلى العزلة التامة .

يقول ووبرت بلر فى كتابه تاريخ العالم الحديث : لقد انتشرت المسيحية فى البداية بين الفقراء المحرومين من بهاء الحياة الأغريقية وزهو الحياة الرومانية أو من المستعبدين الذين لم يكن لهم إلا أن يرجو المسرة على الأقل فى العالم الباقى ، ثم أخذت تنتشر شيئاً فشيئاً بين أفراد الطبقات الأخرى ، ولم يخل القرن الخامس حتى أصبح جميع العالم الرومانى يدين بالمسيحية رسمياً ، ودخل فى المسيحية المنسكرون والرجال الذين أخذوا على عاتقهم توحيد المعتقدات المسيحية مع الفسك الأخرى الرومانى التقليدى وفلسفته التى مر عليها ألف عام وأهمية المسيحية فى دخولها أوروبا ، أنها جلبت مفوماً جديداً للحياة البشرية ، فإذا قاد الاغريق الإنسان إلى عقله فإن المسيحية دلته على روحه وعلمته أن الارواح منسأوة فى نظر الله وأن كل نفس بشرية مقدسة وطاهرة وإذ عرف الاغريق جمال الروح استبدل المسيحيون القناعة الذاتية بثمرات الاعمال البشرية التى كان يؤمن بها الاغريق والوثانيون بأن أخذوا يعلمون الناس الخشوع والتواصل لله ويشير ووبرت بلر إلى أن المسيحية أحدثت بذلك ثورة ، إذ إليها يرجع الفضل — لا إلى الفلسفة الفعلية — فى تبديد الكثرة من الآلهة والآلهات الصغرى والمظلمى وأبطال ضحايا الدماء ومملىة التضحية بالنفس ، واختفت بفضل المسيحية هفائذ الوثنيين فى آلهتهم المحلية ، أو القبلية أو القومية ، وأصبح على جميع العالم أن يعتد بآله واحد فخلص من الآثام بعناية إلهيه واحدة نتجه إليها القلوب ؛ وكان من شأن المسيحية أيضاً : أن كشفت أن الامبراطور فى الدولة الرومانية ليس كما كانوا يصورونه أهلى من كل مخلوق على وجه الارض .

ويقول : لم يكن فى نظر الوثنيين فارق واضح بين الآلهة والناس فبعض الآلهة ينصرفون كالناس وبعض الناس أكثر شهباً بالآلهة من غيرهم ، فالامبراطور كان يعد فى الحقيقة إلهاً ، « الآلهة قيصر » وقد اقيمت العبادة لقيصر على أنه ضرورة لإدامة الدولة التى كانت هى العالم نفسه ، وقد رفض

المسيحيون ذلك بشدة وامتنعوا عن قبوله ، وقد هرض القديس أوغسطين : العقيدة بصورة منظمة وواضحة في كتابه مدينة الله (٤٢٠ م) على ضوء قول المسيح : « أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله » كان العالم عالم القيصر ، وكان عهد القديس أوغسطين قد أشرف على الإنهيار فقد نهب البرابرة الوثنيون روما نفسها ٤١٠ م ، وقد كتب أوغسطين كتابه في ظل هذه الحادثة ليطلع الناس بأنه وأن كان العالم تلاش فإن هناك عالمًا آخرًا أكثر خلودًا وأهمية ، وقال أنه يوجد في الحقيقة مدينتان : المدينة الأرضية والمدينة السماوية ، فمدينة الإنسان زائلة ومدينة الله هي الخالدة ، والمدينة الأرضية هي ملك الدولة والأمبراطور ، وملك السلطات السياسية والخاضعين للسياسة ، وقال : أن الإمبراطور إنسان والحكومة ليست أزلية ومطلقة التصرف . وهي خاضعة في الواقع بطريقة ما إلى قوة روحية عليا ، وأن هذه القوة تقع في مدينة الله ، ولا ريب أن هذا التحول في مفهوم المسيحية قد اتسع في القرون التالية وأحدث تأثيراً بعيد الأثر خرج بالدين الإلهي عن وضعه الصحيح ، وخاصة في مفاهيمه التي تتصل بالصلب والخطيئة والتثليث : وما أشار إليه روبرت بالمر : من قوله : (إن الله نفسه تأسى الآلام بهيته الإنسانية على الصليب) تعالى الله عما يقولون علواً عظيماً . ولا ريب أن لهذه المفاهيم أثرها في ذلك التحول الخطير الذي هزته أوروبا في عصر النهضة خروجاً من الفكر اللاهوتي كلية إلى الفكر الوثني اليوناني والروماني وتجديده . واعتباره أساساً للنهضة وللحضارة الغربية القائمة ويرى أدهار جيبون أن المسيحية هي أبرز عوامل سقوط الإمبراطورية الرومانية لأنها جاءت بتعاليم جديدة لا يتفق مع القيم التي ورثتها روما عن الوثنية اليونانية والعصور القديمة كلها ، وأن الانهيار الذي قدمته المسيحية أدى إلى أضعاف الروح الحربية وامتد تأثيره إلى جميع مرافق الإمبراطورية بما يمكن الجرمان من هجمتهم التي زلزلوا بها أركان الإمبراطورية .

(١١)

الكنيسة

تؤلف الكنيسة جزءاً لا يتجزأ من العقيدة المسيحية . ولم يكن معنى كلمة الكنيسة church مقتصرًا على دور العبادة المسيحية فقط بل تفيد الكنيسة أيضاً المجتمع المسيحي بأسره بملاقاته المادية والمعنوية إذ يرتبط أعضاء ذلك المجتمع بالسيد المسيح رأس الكنيسة الأواحد من طريق الإيمان ، ولما كان الدين المسيحي يرتكز بصورة عامة على ما جاء في العهد القديم والجديد ، وعلى ما تناقلته

الأسنة مما لا يكتب وتدور العقيدة فيه حول الخطيئة الأولى (*originalen*) خطيئة آدم حينما همى ربه فموجب بالسقوط إلى الأرض وتعرض لغضب الله فموجب بالأمراض والموت ثم شمل الغضب (في مفهوم هذه النظرية) ذرية الإنسان ، وهكذا أصبحت خطيئة آدم متوارثة في نسله وإن مهمة كافة الأنبياء والرسل الذين جاءوا قبل المسيح كانت الإعداد لإتقاد البشرية من الخطيئة والتمهيد لظهور المسيح ، لما كانت الديانة تقوم على هذه النظرية فإن الكنيسة هي الركن الركيز في عملية الإتقاد وهي تعتمد في هذه العملية على رموز دينية يشار إليها بالأسرار السبعة *sacraments* لأنها صلات الوصول الخفية إلى توطد الرابطة الروحية بين المسيح وأتباعه . ومن طريق ممارسة تلك الأسرار تحتضن الكنيسة الفرد المسيحي من المهد إلى اللحد وجملت هذه الأسرار سبعة حددتها المسيحية نفسها ولأن حياة الإنسان والروحية كحياته الجديدة تتطلب هذا العدد ، ومن أبرز المتطلبات الروحية (التعميد) (*Baptism*) هو السر الذي قصد به إزالة الخطيئة الأولى ومنسجح الولادة الروحية الثانية ويتم ذلك عن طريق الماء عادة بالرش أو الغسل أو التعميد . وكان هذا من أهم أعمال الكنيسة وكذلك فيما يتعلق بالتوبة التي تمارس بالاعتراف أمام الكاهن وقد اتبعت الكنيسة في تقسيماتها الإدارية الأنظمة التي ورثتها عن اليونان ، وقد صور المؤرخون الكنيسة الكاثوليكية في العصر الوسيط بأنها أشبه بحكومة ملكية يقف البابا على قمتها وهو السيد المطلق في الشؤون الروحية وهو المشرع الأعلى ، وليس هنا من مجلس مهما سمحت منزلته له حتى أن يشرع قوانين ضد إرادته وإن كل تشريع يعتمد على موافقته ، ويمكن للبابا إلغاء أى قانون مهما كان قديما لم يشر له في الإنجيل ، ويساعد البابا مجلس من الكرادلة ويتم الإشراف البابوي من روما على سائر الجهاز الإداري في العالم المسيحي بعدة أساليب . وللكنيسة مجموعة شرائع قانونية استندت على مقررات المجالس الدينية العالمية منذ مؤتمر نيقا ٣٢٥ م وما بعده وعلى قرارات البابوات ويمكن للبابا أن يصدر عقوبة التحريم يقاطع بموجبها المصادرة بحقه دينيا ودنيا وقد يصدر للبابا عقوبات التحريم ضد مدن وأقطار بأكنائها وقد بلغت الكنيسة الغربية درجة كبيرة من القوة في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر توضحت في سياسة البابا أنوفنت الثالث وظهور فرقتي الفرنسيسكان والفرانسيكان ونشاط الاديرة القساوية ومحكم التفتيش . وفي عهد أنوفنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) بلغ نفوذ الكنيسة أعلى مرتبة ، فقد تمكن من فرض سطوته على هذه ملوك في أوروبا وأصبحت مملكتهم تابعة للمعنى الاقطاعي البابوي (إنجلترا - البرتغال - الأراكون) وقد أشير إلى أن البابا وريث صلاحيات كل من القديس بطرس وقسطنطين الأكبر وأعلن أن السلطة السياسية ، وقد كانت

البابوية من الناحية الرسمية هي التي تنعاق بلسان الدين المصيحى وكان رجال الدين في الغرب يمثلون نسبة عددية ضخمة بالقياس إلى السكان في تلك العصور وكانت الكنائس والأديرة أملاك وامة وكان عدد من الأساقفة ينحدرون من أسر النبلاء فكانوا يديرون أملاك الكنائس على النمط الذى يدير به حراء الإقطاع إقطاعاتهم ، وكان لكل أسقف ولكل صاحب كنيسة جماعة فرسانه وأتباعه الذين يقدمون ولاءهم له ويتسلمون منه قطائعهم ، وكان للكنيسة طموحها السياسى الوامع وأثرها القوى فى الحياة العامة .

ومن أكبر أعمال الكنيسة . تلك الحرب التى أثارها على المسلمين فى أسبانيا وفى المشرق . وبعد البابا جريجوار السابع والبابا أوربان الثانى هما أبرز رجال هذه القضية والبابا جريجوار السابع دوره الخطير فى تحول القتال بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا إلى حرب صليبية شاملة شاركت فيها أوروبا على اختلاف أقطارها وكان لها أثاره البعيدة فى حياة أسبانيا الإسلامية . فى عهد سلفه البابا إسكندر الثانى ١٠٦٣ اندفعت موجة من فرسان الشمال وخاصة النورمان إلى أسبانيا وانتزعوها حصن (بريشتر) من أيدي المسلمين بعد مذبحة هائلة ، أما جريجوار فقد تجاوز التمهيد إلى الدعوة الصريحة بوجهها البابا بنفسه إلى أمراء المسيحية بضمهم على المشاركة فى هذه الحرب المقدسة ويمن مقدما سيادتهم على الأراضى التى ينتزعوها من المسلمين ومن ثمرة ذلك مرقط (طليطلة) فى ٦ مايو ١٠٨٥ بعد حصار دام سنين ، الحدث الذى استفاد بسببه المرابطون من المغرب الغربى ووقع معركة الزلاقة المشهورة . أما البابا أوربان فقد كان له دوره أهام فى انتقال الحروب الصليبية إلى شواطئ البحر المتوسط وتحريره تلك الجاهات بإدماة غير صحيح على اقتحام عالم الاسلام بأنهم استنقاذ بيت المقدس ثم كانت الكنيسة بعد ذلك هى التى تضع علامة الصليب على صدور جنود الغزو الأسيانى والبرتغالى وتمطى هذه الجماهير الضخمة مبررات الغزو الإلامى لأراضى الإسلام باسم التبشير ، وخاصة ما بحث من شراذم إلى أفريقيا وجنوب شرق آسيا على نحو ربط بين التبشير والكنيسة من ناحية وبين الاحتلال والاستعمار الغربى كله . وبذلك صك تاريخها بأنها اختارت لنفسها خدمة الطبقات والقوى الحاكمة فى عصر الإقطاع وخدمة الاستثمار فى عصر الرأسمالية . ويصور نفوذ الكنيسة فى هذه المرحلة الكتاب الغربى (ج كويب أجا كوب) فىقول : لقد أمتد نفوذ الكنيسة فى العصور الوسطى إلى ما هو أعمق من الهيمنة على المجتمع ، مع التسليم بأن رجال الدين فرضوا لأنفسهم حقوقا ولاء أهل كنيستهم ، وهى حقوق لا أصل لها فى الروابط الطبيعية بين رجال الدين وأهل كنائسهم ، لاصلة لها بالجدارة الشخصية المفروضة من رجال الدين ، وقامت

هذه الحقوق على الاعتقاد الدينى بأن مملكة المسيح آتت فى هذا العالم ، ولقد دلم أهل القرون الوسطى للكنيسة ولرجال الدين بواسطة الاعتراف والكفارة والتناول السكى فى العشاء الربانى ، ثم هير رجال الدين دائماً بالنفاق والإرشاد والفجور ، وأن ما تأخذ على كنيسة المصور الوسطى مما نسبته مساوىء أو خرافات هى فى الواقع جزء من الفن الذى دفعته الكنيسة لوصولها إلى مرتبة العالمية ولقد أقبل الفرد برغم فطرته الوثنية على المسيحية ودان لها بالنتيجة ولم تلبث الكنيسة أن صبحت حياته كلها صيغة تامة ، إذ أحس الناس أن الكنيسة هى التى تفسر لهم طريق الحياة لألف سر الكنيسة لم يكن جزءاً من الحياة فحسب ، بل هى معنى للحياة ، ولقد حاولت الكنيسة أن تسيطر على الدنيا ولم تسكف أبداً عن التأثير فيها ولكنها لم تستطع أن تجعل الدنيا والكنيسة مملكة واحدة هى مملكة الله وقد نادى الكنيسة بأن المسيحية هى تدمير العالم وأنها الحركة الحية المباشرة الإلهية ، هذه هى الصورة كما يرسمها أصحاب الولاء ، أما أصحاب الخلاف فإنهم يرسمون صورة أشد قتامة ، وبالجملة فإن الكنيسة غاصت فى السياسة والمطامع الدنيوية وقل اهتمامها بالدين ، وفى عصور الغرب المظلمة بسطت نفوذها ، على الملوك ، وكانت هناك جهاتان منفصلتان : رهبان الأديرة للنصرفين إلى الصلوات والمعتزين بالحياة والقدس الذين كانوا يشتغلون بالسياسة ، ولقد كان من الطبعى أن تواجه الكنيسة رياح التغيير فتقسم على نفسها وتعيد النظر فى كثير من مفاهيمها ويصل الصراع الدموى بين البروتستانتية والكاثوليكية إلى أشده .

(١٢)

تمزق الوحدة الأوروبية

دخل الغرب الأوروبى مرحلة جديدة بوصول الاسلام إلى الاندلس وكان لمركة بلاط الشهداء أثرها فى صد التوسع الاسلامى من السير إلى غايته ولكن الوجود الإسلامى لم يقاها من أوروبا بل تمكن فى مواضع كثيرة فى فرنسا وإيطاليا ، ومن الاندلس أمتد الفكر الإسلامى إلى عالم الغرب وكانت حركة لوتر ومن بعده حركة كالفن من تمار التأثير الإسلامى ، وبدأت هذه الحركة عام ١٥١٧ حيث أحدثت تغييراً جزئياً فى مفهوم المسيحية وإن ظلت الاصول العامة التى قدمها بولس قاعة لم تغيرها الحركة البروتستانتية ، أنكر لوتر حق البابا فى بيع صكوك الغفران بل وأنكر عليه حق منح الغفران بأى وجه من الوجوه وحطم احتكار الكنيسة لقراءة الإنجيل وتفسيره فترجعه إلى اللغة الألمانية ودخل لكل مسيحى حق مطالعة الإنجيل ومن هنا تطلق الكنائس

البروتستانتية على نفسها اسم الكنائس الإنجيلية ورفضت حركة البروتستانتية فكرة العشاء الرباني وعبادة الصور والتماثيل وأنكرت على الكنيسة غفران الذنوب. وكانت قد سبق لوثر كثير من المصلحين أمثال وكليف في إنجلترا وهوس في بوهيميا فلما ظهر لوثر في القرن السادس عشر جمع كل ما قبله من مسائل الإصلاح الديني وقام بالدهوة إليه وجاهر بالمعاداة للكنيسة فنبهه خاق كثير وانتشر مذهبه في كل جهة من ألمانيا ومن ثم وقع الخلاف والحرب بين الكاثوليك والبروتستانت وقد منحت البروتستانتية القسوس حق الزواج ولم يعد هناك رهبانية واستبدلت جميع الكنائس البروتستانتية اللغة اللاتينية باللغات المحلية كالإنجليزية والفرنسية والألمانية. ودعت البروتستانتية إلى التخلي عن الإعراف الإجباري وما يتبعه من غفران يتحقق على يد الكليروس لذنوب للمعترف وخطاياهم، وكذلك التخلي عن فكرة الاعتراف وعن عبادة القديسين وعبادة مريم العذراء وأهلن البرتستانت أنهم لم يمدوا يطلبوا مساحتها من السماء، وأهلنوا أن المصدر الوحيد الحقيقي للعقيدة المسيحية هو الكتاب المقدس كما أنكروا استحالة مادة القربان إلى فم المسيح ودمه وأهلن لوثر أن كل شخص باستطاعته أن يقرأ الإنجيل وهو حر في تفسيره حسب فهمه له وإدراكه إياه، ورجا أن يبحثوا عن الحقيقة المسيحية في الإنجيل نفسه، ورفض القول بأن طبقة الكليروس تمتاز عن العامة وأنس الكرادلة على حياة البذخ والرفاه التي يحبونها كما دعا إلى إنهاء الرهبنة ودعا إلى عدم إنشاء أديرة جديدة وإلغاء الحج إلى روما.

وقد كان لظهور مذهب لوثر أثره في الكنيسة الكاثوليكية التي أجرت كثيراً في محاولات الإصلاح وقد شقت حركة لوثر « البروتستانتية » طريقاً وحرراً من للعصاة والأخطار والدماسس وعقدت عديداً من المناقشات السياسية بين حكام المقاطعات وممرعان ما اكتسحت جميع ألمانيا وانتشرت في إنجلترا وامتدت إلى النمرك والسويد وفي سويسرا ظهر كافن ١٥٢٦ م وأنخذ من البروتستانتية مذهباً رسمياً لجينيف وانهقدت الكاثنتية مع القوثرية من حيث الاهداد على الكتاب المقدس وحده في جميع المسائل الدينية وفي خلال عشرين سنة كان نصف العالم المسيحي في أوروبا الغربية قد خرج على كنيسة روما وفيد ولاءه للبابا وقد كانت البابوية هي مخرج المسيحية الشاخ في أوروبا وهو القوة الوحيدة في غرب أوروبا التي استطاعت حماية التراث الروماني بعد سقوط الامبراطورية الرومانية، وهي القوة التي أثارت الحروب الصليبية وحرخت أوروبا على تلك الموجات المتلاحقة نحو هالم الإسلام منذ القرن الحادى عشر وعلى مدى قرنين كاملين، أصبحت في القرن السادس عشر تزيكي روح الانقضاء الصليبي بين شعوب غرب أوروبا إزاء الوجود الألماني في البلقان وقد كان من

جاء ظهور البروتستانتية اندلاع الحروب الدينية في أوروبا في الصراع بينها وبين الكاثوليكية، وقد استمرت هذه الحروب من أواسط القرن السادس عشر إلى العقد الثالث من القرن السابع عشر وقد أضحت البروتستانتية عام ١٥٣٥ حركة منظمة ذات عقيدة وبرنامج واضحين وقد أمكن للوتر بعد أن أطلع على ما كتبه نبي الإسلام محمد وما قرأه من كتابات ابن رشد وابن سينا والفارابي أن يقول من المسلمين « أن نشاطهم الديني مثل يحندي وكذلك حكومتهم الرشيدة وقوانينهم وصدق أخلاقهم وهم يتركون الناس يعتقدون الدين الذي يميلون إليه » وبشير المؤرخون إلى أن مظالم الكنيسة وتعاونها مع الأمراء والإقطاع هو الذي مكن لمارتن لوتر في دعوته فقد انعقد أمل الناس عن طريقها في التحرر من لبر المظالم التي فرضتها الكنيسة ولذلك سرعان ما انتف الناس حول لوتر وكالفن . غير أن الكنيسة الكاثوليكية ألم تلبث أن شلت حرباً شديدة على «معتني البروتستانتية» : واشتعلت الحروب الدينية هادرة كاسحة جارفة ومضت بأصحابها في ضراوة بالغة وفي لدد من الخسومة واحتطالت هذه الحرب أحقاباً متعاقبة واشتت الخراب والدمار في كثير من الأقاليم الأوروبية وأصبح الجو العام في أوروبا (من نهاية القرن ١٥ إلى منتصف القرن ١٧) وعلى وجه التحديد عام ١٦٨٤ : هو الجو الديني المحموم التزممت شعاره المغالاة في التعصب الديني والمذهبي ووسائله المشروعة وغير المشروعة ومضت الحروب الدينية تخبص أرض أوروبا بالدماء وأفراح الموت تقام هلنا في الميادين حيث يحرق أحياء المتهمون بمخالفة المذهب الديني الرسمي للدولة تنفيذاً لأحكام صارمة من محاكم التفتيش، والقوانين تنشر على اللأ متضمنة أسماء الكتب وسائر المطبوعات المحظور تداولها أو قراءتها، أو اقتنائها والهيئات الدينية القديمة يماذ تنظيمها ومنظمات دينية جديدة تؤسس وجمع ترائت المسكوني يمد وتطول اجتماعاته على مدى ثمانية عشر هاماً (١٥٤٥ - ١٥٦٣) وأحلاف دينية عسكرية تتكون وكان يطلق على كل منها « العصبة المقدسة » .

(٢)

وتعد موقعة « سان برتلي » من أبرز هذه الممارك الدموية الخطيرة التي وقعت عام ١٥٧٢ من الكاثوليك ضد البروتستانت الفرنسيين ، وكان من نتائجها فقدان فرنسا لزهرة رجالها من أهل العلم والصناعة ، وسبب هذه المجزرة كما بصورها مؤرخ معروف : هو الخقد الديني في أقصى أشكاله ، ذلك أنه لما ظهر المذهب البروتستانتي في ألمانيا واستد إلى سائر ممالك أوروبا أصاب فرنسا منه قسط وتبع طريقه كل من كان نائفاً على سلوك الكنيسة الكاثوليكية إذ ذاك وكان من أكبر ما أثر الناس على

فيه ذلك القرن الذى ظهر فيه فجر العلم من أفق البشرية هو حرية البحث فلم يرق في عين الملكة كاترين دوميدشى أم ملك فرنسا شارل السابع أن تنشر البروتستانتية في بلادها فمزمت على إحداث مقتلة هامة تكون سبباً في إفناء البروتستانت الفرنسيين وتقطع دابرهم جميعاً وكانت يد الكنيسة الكاثوليكية في تدبير هذه المسكيدة الفظيعة أقوى حامل فيها ودافع إليها ، في ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ وهو عيد إحدى حوارى عيسى عليه السلام أمروا الكنائس فدقت أجراسها وكان ذلك إشارة للجنود والمتطوعين من الأهالي المتحمسين الذين باتوا ليلهم ينتظرون تلك الإشارة أمراً صريحاً في البدء في الفتك بالبروتستانت فدعموا بيوتهم وفي أيديهم المشاهل نفقء عليهم الطريق في الليل الدامس مقودين بأمراء البيت الملوكى وكبراء العائلات الفرنسية وأخذوا يقتلون بأولئك الأبرياء مرتكبين من القسوة والوحشية ما يندر مثله في تاريخ البشر ، وكانوا يعطون بطون الحوامل ويخرجون الأجنة ثم يلقونها للكلاب والخنازير ، وكانوا يعطون الأطفال الذين في المهد للخنزير الذين في من العشر سنين من أولاد الكاثوليك ويأمرونهم بقتلهم جرأ من أعتاقهم في أسواق باريس ، ولم يزالوا كذلك حتى سالت شوارع المدينة بالدماء وهجت الأصوات إلى السماء وليس نهر السين حلة أرجوانية وحدث ذلك في كثير من مدائن فرنسا ، ثم حدث أن دقت أجراس الكنيسة مرة أخرى فظن أتباع الحق الدينى بأن ذلك أمر ثان باستئناف القتال فأنحوا على إخوانهم قتلاً ونهباً وتميلاً بأشد مما فعلوا بالأمس واستمرت الحجرة إلى يوم الثلاثاء وما بعده واستحالت إلى مذابح فردية طوال شهر سبتمبر وأكتوبر وأحصوا هدد القتولين قبلوا ٢٥ ألفاً وكان من نتيجة المقتلة أن تزمزت النفوس العطية من فعل الكنيسة وكثر ضدها الهجوم والقول والهجر ومال الناس إلى تقرير قاعدة في حرية الضمير وحرية البحث وهما قاعدة المذهب البروتستانتي فكان أنصار الكاثوليكية بسوء سلوكهم في تأييد مذهبهم أكبر مؤيدي مذهب أعدائهم في بلادهم ، وجاءت من بعد ذلك حرب الثلاثين عاماً بسبب الخلاف الدينى في بوهيميا واتسمت إلى أن دخلتها معظم الدول الأوروبية بدرجات متفاوتة وكانت ألمانيا هي المسرح الأصيل لهذه المأساة . وبعد البابا كملورى التاسع — ١٥٤٩ المقتول هن إيجاد محاكم التفتيش التى ملأت قلوب الناس رهبا في العصر الوسيط ، وقد اعتمدت البابوية في محاكم التفتيش على الدومنيكان الذين شبهوا أنفسهم بكلاب الله في اصطيد المرافقة للمحافظة على الكنيسة ، وقد اعتمد محاكم التفتيش على التعذيب لإجبار المتهمين على الاعتراف وتفرعت بالقوانين اليونانية وظلت محاكم التفتيش تعمل ثلاثة قرون وكانت مصدراً لانفراط عقد الوحدة المسيحية الغربية ، وقتل ديوان التحقيق في أسبانيا وحدها على قول (ريتاخ) نحو مائة ألف إنسان.

وقد حملت الكنيسة مسئولية فظائع صانت بارتلى ومذبحة « الالبجواء » وهي طائفة دينية انتشرت في القرن الحادى عشر بجنوب فرنسا وقد أمر البابا أنيو سان الثالث بإبادةها من آخرها فأبيدت وقتل في حرب الكاثوليك مع البروتستانت (١٦٠ ألفاً) وقتل كذا الدومينيكي الأسبانى وحده سنة آلاف إنسان بالنار ومن ثم واجهت أوروبا صراها عنيفا استمر طويلا من اختلاف للمذاهب ثم واجهت اختلاف القوميات منها حرب للمائة عام وحرب الثلاثين عاما . والحرب بين فرنسا وإنجلترا وبيز فرنسا وألمانيا وقامت سلسلة من الثورات ابتداء بالثورة الفرنسية والثورة الشيوعية من بعد .

(٣)

تمزقت وحدة أوروبا بظهور البروتستانية وكان ذلك مقدمة لتحويلها من للمسيحية كلية وعودتها مرة أخرى إلى الوثنية اليونانية والعبودية الرومانية وكان عصر النهضة علامة هذا التحول فقد كانت النهضة الأوروبية في الواقع نورة على الكنيسة حيث لم ينجح الإصلاح الدينى الذى قام به لوتر إذ ظلت للمسيحية في الكنديستين متمسكة بالصليب والتناثيث والفداء ، وكان من أخطر تحويلاتها الآثار العميقة التى أحدثتها اليهودية فيها وهي تتمثل في قبولها تبرير الربا لإرضاء اليهود الذين يعملون فيه ويقول ايف كوفيجار : أن اضطهاد المسيحيين والتنكيل بالشهداء في المصور الأولى كان يرجع إلى وشايات يهودية في عالم كانت اليهودية فيه صاحبة الميل والميلان تبسط أجنحتها وتنعم بالسعادة والنفوذ كما أوضح ذلك ملوسيل سيمون في كتابه (إسرائيل الجرثومة) إذ ذكر أن نزهة مناهضة السامية في أسفار الكهنة للمسيحيين القدامى كانت تقابل تعاليم العداء للمسيحية في التلود وقد أشار الباحثون وللأورخون للنصفون أن تعاليم للماسونية كان لها أثرها في تحول الغرب للمسيحي من الدين وأن اليهود كان لهم دورهم في الحروب الصليبية وكانت الماسونية التى أقامتها اليهود في الغرب واحتضنتها البروتستانية أساسا هي محاولة عميقة بعيدة المدى لتحويل الكنيسة والدين وقد فشلت المسيحية بظهور البروتستانية والتحدى اليهودى في اعتبار الكنيسة وحدة عالمية تضم جميع المسيحيين ، ولم تصبح الكنيسة هيئة عالمية جامعة بين رجال الدين والعلميين على السواء وفشل ما نادى به في المصور الوسطى بأنها تفسير العالم ، وظهر جيدا كيف أمكن إحتواء الفكر المصيحى وكان لموقف الكنيسة من الحرب مع البروتستانية من ناحية ومع العالم الإسلامى من ناحية ، أكبر الأثر في أفولها ثم جاء تنازلها عن أصول الدين في تبرير الربا من أكبر ما عرض لها من أخطار .

(٤)

وبدور ول ديورات كيف انخرفت المسيحية في تبريرها الربا فيقول : كانت العقيدة الدينية المسيحية في الربا أكبر العقبات في نمو النظام المصرفي وتقدمه ومصادرها في معارضة الربا : طعن أرسطو على الربا وقوله إنه عمل غير طبيعي إذ هو توليد المال للمال ، وطعن المسيح على الربا ومعارضة آباء الكنيسة للأعمال التجارية والربا في روما ، أما القانون الروماني فقد شرع الربا وكان بروتس وغيره يتنازعون ربا فاحشا على أموالهم ، وكان أمبروز قد هارض النظرية القائلة بأن من حق الإنسان أن يفعل بما له ما يشاء . ولما هاد القانون الروماني إلى الوجود في القرن الثاني عشر شجعت هودته (أريزموس) والشراح في بولونيا على الدافع عن الربا وقد أيدوا حججهم بما جاء في قانون جستنيان ولكن مجلس لاتران الثالث ١١٧٩ جدد هذا التحريم وظل هذا قانون الكنيسة حتى عام ١٩١٧ وكانت ثروة الكنيسة في الأرض لا في التجارة وظلت قرونا طويلة ولما كان جميع المرايين يهود ، فقد تبين أن حاجات التجارة أقوى أثرا من خشية السجن أو الجحيم ذلك أن اتساع نطاق التجارة والصناعة تطلب استخدام المال المتعطل واضطرت الكنيسة إلى كره منها أن تسكيف نفسها فتقدم القديس تومس أكويناس حوالي عام ١٢٥٠ بحجة عظيمة بمبدأ كهنوتي جديد من الربا قال فيه أن من يستثمر ماله في مشروع تجاري يحق له شرها أن ينال نصيبا من ربحه إذا شارك فعلا في التعرض للخسارة وفسرت الخسارة بأنها تشمل التأخر من أداء الدين عند تاريخ معين بشروط ثم جرى التوسع في هذا الاتجاه من بعد فقالو بشرعية أداء عوض الدائن نظير ما يعطيه من الخصاصة لعدم انتفاعه برأس ماله . وأقر بعض المشرعين من رجال الدين حق الدول في إصدار سندات ذات فائدة وبعد عام ١٤٠٠ ألغت معظم الدول الأوروبية ما وضعه من قوانين لتحريم الربا ولم يكن تحريم الكنيسة إلا كلاما مهمل يتفق الناس جميعا على إغفاله .

(١٣)

الفكر الغربي المسيحي

لم يخلف السيد المسيح أي نص مكتوب ولا أي نص محفوظ ، والأناجيل الموجودة كتبت بعد المسيح بسنوات طويلة وتشكلت على نحو مختلف إختلافاً واسماً عن مفهوم المسيحية المنزلة ، فشتان بين عقيدة المسيح وعقيدة الكنيسة . ومتد دخل اليونانيون أصبحوا هم حلة العلم في الدين المسيحي

وبدخولهم فيه دخلت الفلسفة اليونانية في التعاليم المسيحية ومن ثم احتدم الجدل بين الفلاسفة والنصارى وبين النصارى أنفسهم ، وكان الخلاف الأكبر حول طبيعة المسيح وتركيبه من لاهوت وناصوت ، وتغللت الفلسفة اليونانية على « تفسيرات » المسيحية وكان أهم خلاف ذلك ، الذى قاده (أريوس) وكان يقول أن للاب والأبن جوهرين متميزين وأن الثانى خليفة الأول وليس هو بأله ودعا قسطنطين إلى جمع مؤلف من أساقفة النصرانية لحسم الخلاف وكان على رأى ألوهية المسيح وبذلك استعمل نفوذه فى إقرار هذا الاتجاه فى مجمع نيقية عام ٣٢٥ ولكن الخلاف استمر طويلا حتى حسمه الملك نيودسيوس الذى أمر بأن يقيم النصارى كلهم مذهب البابا (أسيوس) القائل بألوهية المسيح ومن يخالف أمره بعد هراطقيا .

يقول العلامة أبو الحسن الندوى : أن المسيحية امتخت فى ههنا الباك (منتصف القرن الأول المسيحى) بتحرير لا يوجد له نظير فى تاريخ الميانات فى ههنا الأول فقد انتقلت من ديانة بسيطة توحيدية إلى ديانة وثنية تتركب من أفكار اليونانية والبوذية وذلك على يد داعيها الكبير وبطلها العظيم بولس (١٠ - ٦٥) وكان هذا الانتقال أشبه بقفزة من روح إلى روح ومن وضع إلى وضع ومن نظام إلى نظام لا يشارك الثانى الأول إلا فى الاسم وبعض الطقوس ويتحدث عن ذلك هالم مسيحي هو (أرنست دى ينسين) فى كتابه :

ASLAM OR TRUE CHRAISTINTY

إن العقيدة والنظام الدينى الذى جاء به الإنجيل ليس الذى دعا إليه السيد المسيح بقوله وعمله ؛ وإن مرد النزاع القائم بين المسيحيين واليهود وبين اليهود والمسيحيين ليس إلى المسيح بل إلى دهام بولس ، ذلك المازق اليهودى والمسيحى وشرحه للمصحف المقدسة على طريقة التجسيم (ESSENIE) والتثليل وملته هذه المصحف بالنبوءات والأمثلة . إن بولس فى تقليده لأسطفانوس داعى المذهب الإنسانى قد ألصق بالمسيح التقاليد البوذية ، أنه واضع ذلك المزيج من الأحاديث والقصص المتعارضة التى يحوى عليها الإنجيل اليوم ، والى تعرض المسيح فى صورة لا تتفق مع التاريخ أصلا ، ليس المسيح بل بولس ، والذى جاءوا بعده من الأقباط والرهبان هم الذين وضعوا تلك العقيدة والنظام الدينى الذى تلقاه العالم المسيحى كأساس للعقيدة المسيحية الأثوذكسية خلال ثمانية عشر قرنا . وبقيت المسيحية قرونا طويلا ولا تزال يحمل روح بولس وتحافظ على تراثه ، ولم يظهر فى العالم المسيحى فى هذه المدة الطويلة من ثور على هذا الرض الطارىء الدخيل على المسيحية ويحاول نقلها إلى وضعها الأول الذى تركها عليه سيدنا المسيح ومضت أجيال أثر أجيال ولم يظهر الرجل المنتظر

لتجديد المسيحية ونجريدتها من الأجزاء الأجنبية حتى كالي القرن الخامس عشر المسيحي فظهر مارتن لوتر في ألمانيا وقام بإصلاح محدود قاصر ينحصر في مسائل جزئية وعارض بمض عقائد ألحت عليها الكنيسة النصرانية ولم تكن إصلاحاً جوهرياً شاملاً ولا ثورة ضد اتجاه المسيحية المنحرف الطويل ثم لم يخلفه رجل في العالم للمسيحي يرفع صوته ضد الخرافات الكنيسية وإعتدائها ويقوم بمثل الدور الذي قام به لوتر على ضعفه ، وظلت الكنيسة تمشي في الدرب الذي اختارته أو بالأصح فرض عليها وضعف تأثير الكنيسة وانجمل سلطانها في العهد الأخير وقامت دولة للمادية في أوروبا وأصبحت الديانة الحقيقية التي خلفت المسيحية وخلفت كل ديانة في هذا العالم الغربي فلم يظهر في الأوساط المسيحية من يحارب هذه للمادية ويميد للمسيحية إلى مركزها في الحياة ، أو يوجد الثقة بين للمسيحيين بدياتهم وينشئ فيهم القوة الروحية الخلقية التي يقاومون بها إغراءات للمادية الفاهرة ويتظاهرون بحياة فاضلة تقوم على العلم والأخلاق والعقائد المسيحية ويواجهون معضلات العصر وأزماته ويحاولون حلها في ضوء الدين ، وبالعكس من ذلك ترى المفكرين وللاؤلفين للمسيحيين في أوروبا يائسون من مستقبل المسيحية ومصابون بمركب الثقة أمام للمادية اللادينية . ا. هـ . وهكذا نجد أن الفكر الغربي قد أخذ بشكل بصورة جديدة فيها كثير من ميراث اليونان والرومان وفيها من للمسيحية الوافدة على الغرب بتفسيراتها التي قدمها يولس ، ثم كانت آثار الفكر الإسلامي وقد بدأت في الأندلس وجامعاته وأخذت تنتقل رويداً رويداً إلى قلب أوروبا وكان لها أثرها الواضح في دعوة لوتر . وبذلك اجتمع للفكر الغربي عناصر مختلفة وربما متضاربة هي حصيلة الفكر الفيلسفي القديم وميراث اليهودية ، وآثار مدرسة أثينا ومدرسة الاسكندرية ، وما جاء به الإسلام ولكن الفكر الغربي سرعان ما شكل نفسه مستمداً من الفكر اليوناني مفاهيمه الاجتماعية في الإيجاب بالذات والأجساد العارية وفلسفة الإباحية المسرفة ، وأخذ من الإسلام للنهج التجريبي الذي بنى عليه عصر النهضة وعصر العلم ، وقام الصراع بهذا التشكيل الجديد مع للمسيحية والفكر للمسيحي الكنسي الذي كان قائماً على الرهينة وإنكار الذات الحياة وللرأة ، والذي كان في نفس الوقت معارضاً لما حاول العلم أن يقدم من مفاهيم وأساليب ، تتعارض وماتملمة في طواياها السكتب القديمة ، ومن هنا بدأ ذلك الصراع العنيف الذي دفع الفكر الغربي دفعا قويا إلى معارضة الفكر المسيحي ، بل والفكر الديني عامة وكان لموقف الكنيسة في تأييدها للامراء الظالمين والإقطاع ، ثم معارضتها للعلوم أثر بعيد في ذلك التحول الخطير ، فقد واجه العلم أموراً كثيرة ، وأراد أن يفهمها من طريق العقل فمجزهن ذلك كالأمرار الدينية السبعة وما يتصل باللاهوت والناسوت . وكان للفكر اليهودي القديم أثر

بميد في هذه المعركة ، فقد أحكت السيطرة على هذا الفكر لإخراجه من إطار الدين بصفة عامة ، وذلك حين اندفعت مجوهرات من رجال المحافل للمناوئية إلى تصدير الفكر الغربي والدهوة إلى الإلحاد ومعارضة الوحي والدين وإنكار الخالق تبارك وتعالى وكان هذا هو التمهيد لمحاولة اليهودية التي تحققت بالثورة الفرنسية والمعروف أن اليهودية هي التي نشرت المذاهب الفلسفية في العالم لزعزعة أساس القواعد الدينية في صدور المفكرين وللعامة السواء ، ومن أجل ذلك عمد اليهود على إقامة أدلة فلسفية تتناول النصوص الصريحة ، وخاصة فيما يتعلق بالألوهية والبحث والجزاء ، وهذا ما استطاعت الفلسفة إغراق الفكر للمسيحي الغربي ثم نقله تواراً إلى الفكر للشالي البديل من الدين المسيحي فالفكر المادي المعارض لكل ما ينصل بالألوهية أو النبوة أو الرسالات السماوية وقد شكلت أوروبا والغرب منطلقها الفكري على أساس أن الدين « لاهوت » أو عبادة أو علاقة بين الله والبشر فقط ، أما ما يتعلق بالنظام الاجتماعي فإنه لاصلة له بالدين ، وقد جاء ذلك نتيجة أن الدين المسيحي عندما دخل أوروبا كان هناك النظام الاجتماعي الروماني قائماً والقانون الروماني نافذاً ولم تسكن المسيحية نفسها ديناً له شريعة وإنما كانت مجموعة من الوصايا ترتبط أساساً بالدين الذي أنزل على موسى والذي يضم الشريعة ، غير أن محاولة فصل المسيحية عن الدين الموسوي ، واستئصالها ، وإدعاء إنها دين عالمي ، كل ذلك أوجد الخلاف بينهما وبين دين الله الحق الجامع بين العقيدة والشريعة والأخلاق ولقد كان لذلك الصراع الشديد بين الكنيسة والمجتمع الأوروبي أثره البعيد في تعميق هذا الاتجاه وكان لليهود أثرهم الواضح في تنحية الدين المسيحي عن نطاق المجتمع والسياسة حتى يفسحوا لأنفسهم مكاناً في المجتمع الغربي تحت اسم الوطنية والقومية يقول محمد هاشم الهاشمي : إن أوروبا فصلت الدين عن الدولة نتيجة لتاريخ طويل من تيجير الكنيسة التي فرضت الظلم والتخلف باسم الدين فألجأتها إلى الأيدولوجيات فاستبدلت أوروبا بالدين فكراً وقبلاً ولقد أسلمت الشعوب المسيحية قيادتها إلى الأيدولوجيات لأن الدين المسيحي لم يستطع أن يمدحها بالبناء الفكري الكامل الذي يستطع أن يفسر الأوضاع الاجتماعية في المجتمع وأن يمنحها الأمل والمثل الأعلى في مستقبلها ولكن في الإسلام « الامر غير ذلك » ويقول توينبي : إن المسيحية اهتمت بالإنسان نفسه مفصولاً عن المجتمع .

(٢)

بين حركة لوتر التي يطلق عليها اسم « الإصلاح الديني » وبين الثورة الفرنسية أقل من قرنين ونصف القرن (١٥٤٦ - ١٧٨٩) تحول فيها الفكر الغربي تحولاً واسماً عيقاً ، فقد انتقل الغرب من الرهبانية إلى الكشف والعلم ، وتحرر من قيود الكنيسة والدين ، وعاد إلى الفكر اليوناني والفلسفة اليونانية بمجدها ويوجه حياته وفقاً ويرى أن للمسيحية عامل دخيل وافد قدم إلى الغرب فطبعها بطابع النساك والزهادة . وجاءت الثورة الفرنسية لتضع الغرب كله على طريق جديد ، كان النصر فيه لليهود أنفسهم الذي حررتهم الثورة من القيود التي وضعتها للمسيحية أمامهم والتي جعلتهم من درجة أقل وحظرت عليهم للمناصب الرئيسية في الدولة والتعامل والزواج . وقد أشارت بروتوكولات صهيون إلى الغاية من الثورة الفرنسية وما تلاها في ثورات في أوروبا ، وكان هدفها الانتقام من النظام الاجتماعي والسياسي الذي جمع أوروبا تحت لواء الكنيسة ، ولم تكذب الثورة الفرنسية أن تعلن حتى سيطر عليها جماعة من اليهود حازوا شهرة فائقة في سفك الدماء وحفظ التاريخ أسماء (كرونون — دينوكراشة — فوشيه — كلودبرادبوا) وغيرهم ممن عرفوا بالوحشية والفعلطة ، وقد استطاعت هذه القوة أن تحقق الهدف الخفي وراء الثورة :

١ — إعدام الشخصيات المرموقة في المجتمع الفرنسي . ٢ — اختلال الكنائس والاعابيد وسلب ما تنخر به من تحف وأموال . ٣ — تعليق الرؤس على أبواب الكنائس ومداخل للبادين . ٤ — قتل النساء وبقريطون الحبال . وفي ظل هذه الجازر للتصلة التي كانت تتجدد دوماً ولا تتوقف تمكن اليهود من السيطرة على مقدرات فرنسا المالية والفكرية والاجتماعية وبالرغم من إنكشاف دورهم في التحريض على الثورة والقيام بها فإن فرنسا ما زالت تحتفل بها كل عام وقد أطلق على الثورة الفرنسية نفس الشعار الذي عرفت به للماونية (حرية — أخاء — مساواة) وتمتد هذه الثورة هي الثمرة الأولى والكبرى للنظام الماسوني كله ، وقد تبعها بعد ذلك ما أطلق عليه حركة التنوير وهي علامة على عصر المادية والإلحاد ومعارضة الدين بعامة وخير ما يقول أنصار الثورة الفرنسية أنها قررت الحرية الدينية ، وقضت على الامتيازات الطبقية وهو ما قصد اليهود إلى تحقيقه في مواجهة المجتمع المسيحي وكذلك كان لها أثرها البعيد في القضاء على الوحدة الأوروبية التي قامت على أساس الدين وتحولت أوروبا من بعد إلى صراع عنيف بإسم القوميات العنصرية والعصبيات القوية وتحت اسم للنظام الديمقراطي بما يحقق لليهودية العالمية تفكلاً أكبر وسيطرة أوسع وكان ذلك

مقدمة للاستعمار ، الذى رافق حركة الانقلاب الصناعى . ولا ريب أن الثورة الفرنسية فى هدفها الخفى ، قد استغلت التعاليم الإسلامية ، فى تحرير الفرد من العبودية ، والذهوة إلى المساواة ، وحرية العقيدة والشورى والعدل ، ولكنها استغلت كل هذه المفاهيم لنفايات بعيدة استطاع اليهود بها السيطرة على الأحزاب والأنظمة والبرلمانات وكانت سيطرتهم الواسعة على الفن والآدب والفكر والصحافة وكان معنى تحرير الإنسان فى الثورة الفرنسية هو تحرير اليهود ، وكان معنى القضاء على الاستبداد هو تقليص نفوذ الكنيسة والمسيحية ، وبالثورة الفرنسية والثورات التى تمت بعدها فى أوروبا كلها استطاع اليهود السيطرة على مقدرات أوروبا الاقتصادية وتوجيهها الوجهة التى يهدفون إليها وكان نابليون ثمرة من ثمار الثورة الفرنسية ، وقد وقع فى براثن اليهود وسخر الدستور ، الفرنسى لمآربهم وصدق على جميع القوانين التى قدموها إليه ، ولما جاء نابليون إلى المشرق دعا اليهود فى العالم كله إلى التقدم لتحضير هذه المناطق واستغلال ثرواتها ، وكان هصر نابليون مقدمة لإثراء روتشيلد وبلجرواد ولوب وباروخ ولازار وفاربورج وملكمان وم ملك الذهب فيها بعد ، الذين سيطروا على معظم مناجم أوروبا واستطاعوا تحريك المواد الخام فى العالم أجمع ، وقد ملكوا زمام الثورات وأشعلوا بيرة نار الحروب منذ عهد نابليون إلى اليوم ، ويقول القس جوزيف لومان فى كتابه (نابليون الأول واليهود) : « أن القوانين التى أصدرها نابليون صهرت المصالح الفرنسية فى المصلحة اليهودية والبست الثورة والمصير الفرنسى القفطان السام الذى النصب بالجسم الفرنسى ولم يعد فى الإمكان نزعها إلا إذا نزع منه الجلد والحمم الفرنسى فأصبح ما تملكه المؤسسات اليهودية فى فرنسا ٩٢٪ من الصناعات المعدنية الثقيلة ، و ٩٨٪ من أموال البورصة و ٩٥٪ فى المائة من مصانع أجهزة الصناعات و ٩٠٪ من التحف الأثرية و ٧٥٪ من مؤسسات الترانزيت والوساطة ، والمؤسسات التجارية التابعة لهم فى باريس وحدها تسيطر على ١٥ ألف وكالة منتشرة فى جميع أنحاء فرنسا ، وفى أبان الحرب العالمية الأولى كانوا يملكون نحو ٢٣٨ مصنعا للأسلحة بمولها يهودى واحد هو (باروخ) وقد جنى اليهود أرباحا مذهلة خلال الحربين العالميتين تزيد على ٤٠٠ مليار فرنك من الذهب فى فرنسا وحدها هربوها إلى أمريكا وهذا استقراء يكشف عن الدور اليهودى فى حياة الغرب فيما بعد نتيجة سيطرتهم على الفكر والمجتمع الأوروبى الذى هو مدين فى عصره الحديث لرجال نشأوا فى الحافل الماسونية ومعهم هدف واضح هو وضع الفكر الغربى المسيحى كله فى قبضة اليهودية التلويدي و احتوائه ، وكان رواد هذا الانحياز : فولتير وديدرو وروسو ، وجاء من بعدهم بوك ونيشه وليبنز وليسنج وكنت ورينان وكلهم خدام للهدف الأساسى ، الذى يوجه النقد للدين

عامة والمسيحية خاصة ، ويدعو إلى العلمانية والمادية والإباحية والفكر الحر القائم على الإلحاد .
 والتحرر الكامل من الأخلاق والقيم الدينية ، وهذا هو ما أطلق عليه (عصر التنوير) وبذلك
 بعثت أوروبا وبعد الفكر الغربي من الأسس التي قامت بها على حياتها الأساسية وتحررت تماماً من
 كل قيم الرحمة والسباحة والأخاء التي جاءت بها المسيحية وسيطرت عليها مفاهيم التلود القاسية العنيفة
 التي سيطرت على أوروبا خلال عصر الاستعمار في مواجهة البشرية كلها وإلى هذا الاتجاه يشهد المؤرخ
 أرنولد توينبي : يشير إلى تحول المسيحية إلى فكرة الإله الضبور ، ويحاول أن يبحث . يقول : ما هو
 السبب في تقبل المسيحية مرة أخرى الفكرة العقيمة اليهودية الأصل عن الإله الضبور . ويقول : إن
 هذه الردة قد كبدت المسيحية خسارة روحية جسيمة منذ ذلك الحين ، كان الفن الذي دفعته المسيحية
 في كفاحها المرير : كفاح الحياة أو الموت مع عبادة تبصر أن تقبلت فكرة إله اليهود الذي من سماته
 الغضب والقسوة والبطش وعدم التسامح ويقول : إن المسيحية الجديدة قد وأمت بين فكرتين
 متناقضتين : الأولى فكرة البطش وعدم التسامح والثانية : فكرة المحبة والتسامح التي تقوم عليها
 دعائم المسيحية الأصلية « ١٠٠ » .

وقد جاء هذا الإستسلام نتيجة صراع طويل سيطر فيه اليهود التلوديين على الفكر الغربي :
 السياسي والاجتماعي وأقاموا العلمانية أساساً للتعليم والثقافة والجامعات وأهلنوا شأن أمثال نيتشه
 الذي قال أن للسبحية ما هي إلا أكاذيب اليهود التي اختلفوها في عهد يهوديتهم
 وذلهم ليقبلوا بها الحقائق ويسبقوا على أنفسهم وعلى من كان في مثل حالهم من العبيد للضطهادين نمونا
 طبعوها بطابع الإنسانية وما هي في الحقيقة غير نموذجه على التاريخ ، ولقد هاجم نيتشه الأخلاق
 للمسيحية التي تدعو إلى الرحمة والإنسانية واعتبرها أخطر ما دخل إلى أوروبا مما يتعارض مع طبيعتها
 التي لا تعرف إلا العنف والقسوة . وقد كشفت أوروبا فعلاً عن هذا الفناء المسيحي ورجعت إلى
 طبيعتها عندما اتصلت بالشعوب في مجال القزو والاستعمار فارتكبت أشد الألوان الاضطهاد والإذلال
 للأمم ولم تنظر نظرة إنسانية إلا إلى الجنس الأبيض الأوربي وحده أما مساواه فقد اعتبرته
 مما لا يستحق الكرامة الإنسانية وعادت إلى مفاهيم اليونان والرومان التي نفى عليها الإسلام بعد
 أن بشرت بها المسيحية :

(١٤)

اثر الإسلام في الغرب

لا ريب كان تأثير الإسلام في المسيحية عميقاً ، وفي الفكر الأوربي خطيراً ، فهو الذي قدم التحول الحقيقي للفكر والحياة والمجتمع والحضارة . والحق أنه لا هلاقة مطلقاً بين حضارة أوروبا الحديثة وبين المسيحية لأنها جاءت بعدها بألف عام وبعد قرون من ظلمات العصر الوسيط وإنما هو الإسلام الذي أعطى أوروبا مفاتيح الحضارة بالعلم التجريبي الذي ورثته أوروبا في الأندلس من طلمطلة إلى قرطبة خلال أكثر من ثلاثة قرون ويزيد وصدق القائل : إن المسيحية أدخلت أهل أوروبا الأديرة وأخرجهم الإسلام منها بل إن التقدير الحقيقي للموقف يؤكد أن الإسلام هو الذي نقل البشرية كلها إلى العصر الحديث وليس صحيحاً ما ذهب إليه المؤرخون الأوربيون الذين يخضعون لعنصرينهم على اعتبار حادثة اجتياح الشعوب الجرمانية لدولة روما الغربية حداً فاصلاً بين العصور القديمة والعصور المتوسطة ومن عجب أن تنساق مدارسنا الإسلامية وراهم في هذا الخطأ التاريخي للفادح واستمرار مؤلفي السكتب التاريخية العرب في اتخاذ هذا الحادث حداً فاصلاً في تاريخ الإنسانية متابعة وجرياً وراء الغرب ، وإذا كان الغربيون قد عجزوا بتعصبهم القومي والحلي أن يعترفوا بأن ظهور الإسلام هو الحادث الإنساني العظيم الذي غير مجرى التاريخ ، وأنه هو الحد الفاصل ، فإن هنري بيرين مؤلف كتاب (محمد وشارلمان) قد أعلن ذلك في صراحة ووضوح حين قال : إن الإسلام هو القوة الهائلة التي حولت مجرى التاريخ الأوربي وأن العصر الوسيط والنهضة الحديثة عمرتان من تمار الإسلام ويقول هنري بيرين أن القول بسقوط الامبراطورية الرومانية هي القوة التي أدت إلى هذا التحول في التاريخ الأوربي هو محض خطأ فإن هذه الشعوب كانت من هوان الشأن وضيق الحياة إلى درجة تجعلها تنظر إلى الرومان نظرة العبد إلى السادة فما كان يخطر لها بل ما كانت ترغب أبداً في أن تنأوى روما وتقضى عليها ، أما المسلمون فكانوا يعتقدون أنهم أقوى وأسمى من الرومان في جميع أساليب الحياة ولا سيما الناحية الدينية التي كانت مجت قوتهم ومصدر تشريعهم فلم يجربوا عن منازل الرومان ليتضوا على سطوتهم وسيادتهم . لقد ظلت الدولة الرومانية قائمة وظلت حضارتها باقية بعد أن اجتاز الوندال حدودها واستقروا في نواحيها وكل ما حدث أن انتقل مركزها الرئيسي من روما إلى بيزنطة وأصاب حياتها العقلية والمادية شيء من الركود والكساد ولكن لم تسكد تهب ثورة الإسلام وتسير ركائبه إلى أراضي الرومان حتى تلاشى ما كان لهم من المعالم والآثار ، وقامت دولة جديدة وظهرت حضارة

جديدة حاصرت أوروبا من الجنوب ، فاضطرت ملوكها أن يواجهوا أنظارهم إلى الجزء الشمالى من أوروبا حيث قامت المعارك التى كيفت طريق أوروبا فى العصر الوسيط وأبان العصر الحديث . أما الجزء الجنوبى من أوروبا فلم تقع فيه فى تلك العمود إلا موقعة (بواتية) التى انتصر فيها شارل مارتل على جيش الأندلس ، فلولاً ظهور الإسلام لظلت الأبراطورية الرومانية قائمة وإن انتقل مركزها من الغرب إلى الشرق ولغال البحر الأبيض بحراً رومانياً ولما قامت الثورات القومية التى خلقت أوروبا الحديثة ولا الثورات الفكرية التى تخضت عنها الحضارة الراهنة ، ا . هـ . وذلك الذى يقرره هنرى بيرين فى كتابه (محمد وشارلمان) هو الحقيقة التى أصبحت اليوم على كل لسان وقلم ، يقول ابريك بيتان فى بحثه : أثر الإسلام فى المسيحية : لقد اجتذبت الأندلس ومدارسها فى أسبانيا والبرتغال ومؤلفاتها ومكتباتها العالم المسيحى فكان من درسوا فى مدرسة طليطلة كثيرون ، ظل كتاب (الزارى) : (الحاوى) المؤلف من عشرين مجلداً المرجع الوحيد المعترف به فى جامعات أوروبا حتى القرن السابع عشر ، أعظم تقدم علمى حققه المسلمون فى علم البصريات . وعندما اكتشف المسيحيون أن الإسلام شئ آخر غير مجرد إلحاد مسيحى أخذوا فى مقاومته بطريقتين : الأولى . تشديد الهجوم المضاد على الدين الإسلامى . الثانية : هى الحملات الفعلية لحاربة الشعوب الإسلامية . ولقد أحدث الفكر الإسلامى حين اقتحم أوروبا ثورة ضد الكنيسة وتعاليمها التقليدية ، وكانت أكبر الآثار هى معارضة ما كانت الكنيسة تنادى به من أنها الصلة الوحيدة بين الله والإنسان وبأنه لا يصل إلى الله دعاء أو صلاة أو استغفار إلا عن طريق الكنيسة ورجالها ، ومن ثم أمتد القول بأنه لا وساطة بين الله سبحانه وبين الإنسان . يقول أحمد عطيه الله : هذه التعاليم التى كانت غريبة عن طبيعة التقليد الأوروبى حتى ذلك العصر والتى اقترن ظهورها بما سبقها من حوادث اضطهاد المسلمين فى أسبانيا وتشنيت البقية الباقية من سلاطهم ومن اليهود الأسبانيين الذين نزحوا جميعاً من الأندلس يحملون معهم ما يحفظون من تراث الثقافة الإسلامية قاصدين به فرنسا وهولندا وسويسرا وألمانيا . ويرى كليدس وب : إن أثر الإسلام فى المسيحية كان فى الأهل فى ناحيتين متعارضتين .

الأولى : تقوية روح الاتحاد بين الشعوب المسيحية . بعد أن ظلت رديحاً طويلاً من الزمن على خلاف فقد وحدة جهودها واتحدت كلماتها مثلثات من السنين بعد أن أهدت أنها تواجه قضية مشتركة فى الوقوف ضد الإسلام . الثانية : عن طريق الآراء والأفكار التى اقتنستها مدارس أوروبا المسيحية فى القرن ١٢ إلى القرن ١٦ من علماء المسلمين من أمثال ابن سينا والغزالي وابن رشد ولولا تأثير هذه الأفكار الإسلامية لاتخذت تطورات الفاسفة واللاهوت فى العالم المسيحى طريقاً آخر ،

وبصور هذا التاريخ أثر الإسلام في المسيحية الأوروبية حقيقاً بعيد الأثر في تحرير الإنسان من قيد اللاهوت العنيف ، فقد نقل الفكر الأوربي مسئولية الإنسان أمام الله بصفة مباشرة ، كذلك حرته في تفسير الكتاب للقدس ، على ضوء ما يبلّيه عليه ضميره ، وقد كان لهذا التحول آثاره البعيدة السياسية منها أنه خلّص على الأفراد حقوق السيادة في المسائل الدينية التي كانت تعدّ أسرى الشئون وأقدسها ، وإذا كان الإنسان حصل على سيادة نفسه في الدين ، فلا أقل من أن يطلب هذه السيادة في الشئون الزمنية واهتبر كل فرد نفسه مكافئاً ، ونظر إلى الإنسان من ذلك إلى بحث أصول السيادة بجميع مظاهرها مما ترتب عليه أن امتنع الأفراد عن دفع الضرائب التي فرضتها عليهم الكنيسة وبرزت فكرة المساواة الطبيعية والحرية الطبيعية إلى الظهور من تركيزه على دعامته العلمية ودنيته وقانونية ، ومن ثم بدأت فكرة الدولة محل محل فكرة الكنيسة المقدسة ، وكان ذلك مقدمة لفكرة القومية . والحق أن عطاء الحضارة الإسلامية لم يكن في العلم بقدر ما كان في القيم الإنسانية : « القيم الإجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية » فقد قدم الإسلام للفرد منهجاً رائعاً في بناء المجتمع على أساس العدل والرحمة والأخاء الانساني .

ولكن الغرب لم يقبل مفهوم الإسلام تقبلاً كاملاً فقد كانت ثقافته وطبيعته الخاصة وفكره الوثني اليوناني الروماني المعروف الذي لم يلبث أن تجدد وانبعث وهو ليس فكراً مسيحياً رحباً أو عادلاً بالضرورة ، بل فكر تلودى عميق الجذور في الغرب منذ أن امتزجت الفلسفة اليونانية بالفكر اليهودي التلودى في مفاهيمه الخافدة على الانسانية الراهبة في امتصاصها بالربا وقتلها بالسيطرة واستغلال مقدراتها وتركها تموت جوعاً ، هذه هي الروح التي سيطرت على الغرب بعد عصر النهضة ، فقد استطاعت أن تأخذ الخيط من المجتمع الاسلامي وتحمل لواء العلم التجريبي ، ولكنها وجهته وجهة أخرى سيكون لها آثارها البعيدة المدى في تطور الحضارة والمجتمع ، لقد أدخلت تفسيرات للمسيحية أهل أوروبا الأدبرة وأخرجهم الاسلام منها إلى آفاق من الكشف والاختراع ، فقد ظلت الأرض ثابتة بين يدي الآلهة أطلس مدة أربع عشر قرناً إلى أن أتى كوبرنيكس (تلميذ المسلمين في الأندلس) في أواخر القرن الخامس عشر وحركها بين يديه ، ذلك لأن الاعتقاد بدوران الأرض حول الشمس وهو ما قدمه المسلمون للبشرية كان أسهل من الاعتقاد بأن السكون يدور حول ذرة صغيرة في الفضاء ، وكانت اعتقادات اليونان التي انتقلت إلى أوروبا للمسيحية هي أن الآلهة أطلس هو الذي يحمل الأرض بين يديه وكذلك حرر الاسلام أوروبا من العنف الذي عرفته في نشر للمسيحية فقد قابل الغرب بالتسامح وأجاز له أن يقبل الاسلام أو يحتفظ بمقائده ، وسمح له أن ينتفع بالعلم والمعرفة

دون شرط أو قيد ، ويدكر في هذا ما حدث في جنوب فرنسا على يد البارون (سيمون دى موفور) الذى توجه بإذن من البابا على رأس لفيف من البارونات الفرنسية ومعهم فرقة من الرهبان إلى مقاطعة لانج رول لاستئصال الديانة الجوسية فيها فأحرقوا الإقليم كله في أنهار الدم والنار حتى أهلكوا من كان فيه من الجوس ، وباسم الإصلاح الدينى قامت الحرب في شمال ألمانيا عنيفة دامية ثلاثين عاماً ، وكان الملوك الأوربيون يسوفون أمام فتوحهم الرهبان لنقل الناس بالقوة إلى مذهبهم . هكذا قارن علماء الغرب بين الاسلام حين جاء بالسباحة والرحمة والأخاء الإنسانى فوقف في وجه كل هذه المحاولات وعلم الغرب الارتفاع فوقها .

(٢)

وقد أكد للأورخون الغربيون المنصفون أن دخول الإسلام أوربا هو بداية المصور المتوسطة ونهاية المصور القديمة وليس حادثة اجتياح الشعوب الجرمانية لدولة روما الغربية . وقد أشار إلى هذا المعنى (هنرى بيرين) المؤرخ الفرنسى المعاصر في كتابه باللغة الإنجليزية (محمد وشارلمان) بمد أن منع الأوربيين تعصبهم القومى والمحلى في صدر نهضتهم عن أن يعترفوا بأن ظهور الإسلام هو الحادث الإنسانى العظيم الذى هجر مجرى التاريخ ، وكان حقاً أن يعتبر الحسد الفاصل بين القرون الأولى والقرون المتوسطة . (ومن عجب أن كتبنا التاريخية للدرسية مازالت منساقة وراء فكرة التفریب في أن حادثة الشعوب الجرمانية هي بداية العصر الوسيط وليس الإسلام) .

وقد أشار هنرى بيرين في إصاف ونزاهة ، إلى أن الإسلام كان هو القوة الهائلة التى حولت مجرى التاريخ الأوربي ، إلى الحد الذى يمكن أن يقال معه بأن العصر الوسيط والنهضة هما ثمرة من ثمرات ظهور الإسلام ، وحين يرى أغلب المؤرخين أن الشعوب الجرمانية التى كانت نميش على نفوذ الإمبراطورية الشالية هي التى اجتاحت حدود الرومان وقضت على دولتهم ، يقول هنرى بيرين إن هذه الشعوب كانت من هوان الشأن وضيق الحياء إلى درجة تجعلها تنظر إلى الرومان نظرة للعبد إلى السادة فما كان يخطر لها بل ما كانت ترغب أبداً في أن تناوى روما وتقضى عليها ، أما المسلمون فكانوا ينتقدون أنهم أرقى وأسمى من الرومان في جميع أسباب الحياء ، ولا سيما في الناحية الدينية التى كانت مبعث قوتهم ومصدر تشريعهم فلم يهجموا من منازل الرومان ليقضوا على سطوتهم وسيادتهم ، وهذا هو الفارق بين الشعوب الإسلامية والشعوب الجرمانية ، فأولئك كان يعدون أنفسهم هيالاً على الدولة الرومانية ، وعولاء كانوا يرون أنفسهم أحق بسيادة العالم من الرومان الذين

ضعفوا وشاخروا ولقد كان أمراء الجرمان يفخرون بما يمنحه إياهم أباطرة الرومان من الأوسمة والألقاب . أما رجال الاسلام فكانوا بأنفون من هذه الرشى ، لأنها تقدم عن هم أدنى منهم ديناً وخلقاً وأصلاً ، وكانت القبائل الجرمانية ترى نفسها من سلبية من أسباب الحضارة : من العقيدة الدينية الراقية فكانت تتخذ حضارة الرومان ودينهم تشبهاً وتقليداً أما الشعوب الاسلامية فكانت ترى نفسها جديدة بأن تمنح الرومانية دنيا جديداً يرشدكم إلى مدينة أخرى .

ولهذا فقد ظلت الدولة الرومانية قائمة وظلت حضارتها باقية بعد أن اجتاز الجرمان حدودها واستقروا في نواحيها ، وكل ما حدث أن انتقل مركزها من روما إلى بيزنطة وأصاب حياتها المادية والعقلية شيء من الركود والفساد . ولكن لم تسكن تهب ربيع الإسلام وتسير كتابه إلى أراضي الرومان حتى تلاشى كل ما كان لهم من المعالم والآثار ، وكأنها كانت رماداً ذرته الرياح وقامت دولة جديدة وظهرت حضارة جديدة حاصرت أوروبا من الشرق والجنوب فاضطرت ملوكها لأن يوجهوا أنظارهم إلى الجزء الشمالى من أوروبا حيث قامت المارك وحدها الوقائع التي كلفت تاريخ أوروبا في العصر الوسيط . أما الجزء الجنوبي من أوروبا فلم تقع فيه في تلك العهد سوى موقعة (باتيه) التي انتصر فيها شارل مارتل على جيش الأندلس ، فلولاً ظهور الإسلام اظلت الامبراطورية الرومانية قائمة ، وإن انتقل مركزها من الغرب إلى الشرق وظل البحر الأبيض بجرراً رومانياً ولما قامت الثورات القومية التي خلقت دول أوروبا الجنوبية ولا الثورات الفكرية التي تمخضت عنها الحضارة الراهنة .

وهكذا نجد أن الإسلام هو الذي أخرج أوروبا من الظلمات بعد دخول المسيحية إليها بأكثر من سبعة قرون أو بعد اهتمنت الاسلام رسمياً بسنة قرون ، وأن المسيحية حين دخلت أوروبا حملت على تحرير الغرب من الوثنية منتقلة به إلى الإيمان بالإله الواحد ، غير أن تفسيراتها المضطربة هجرت على أن تحقق ذلك ، فلما جاء عصر العلم وجدت نفسها في مواقف المعارضة والخصومة ، فلما جاء الاسلام أعطى الغرب العلم والعقل وتحرير الفرد من قيود الكليروس ، وهزيمة الرهبانية والاندفاع إلى العمل غير أن الغرب لم يستطع أن يحرر نفسه من الوثنية فاستمرارها ، فشكل مجتمعاً مادياً يتقدم من ناحية العلم التجريبي الذي أورثه المسلمون إياه ودمر نفسه لأنه عارض التوحيد والمعدل والأخلاق . ولقد عاشت المسيحية في أوروبا خمسة عشر قرناً قبل أن تقوم النهضة التي كانت من أثر العلوم والانسانيات الاسلامية . ولم تلبث أن صرختها القوميات والأيدولوجيات والعنصرية والوثنية ، في مختلف صورها الحديثة ، وعالت فكرة تقديس الدولة ومعجبتها ، والنظر إلى الإنسان على أنه حيوان حيث حاولت أن تطبق عليه

للناهج للمادية ، مع أنه نفس وجسم ومادة وروح ، وليس مادة خالصة . ونحن حاولت أوروبا أن نقضى على التفسيرات التي جاء بها بولس المسيحية ، اندفعت إلى نهاية الشوط فقاومت الدين بصفة عامة واستعملت بالعلم وحاولت أن تجعلها عقيدة ودنيا مع أنه يعجز عن أن يعطى الاجابات إلا في مجاله المحدود ، ولو أن الغرب أنجبه إلى الاسلام لوجد فيه سعادة المجتمع وسلامة النفس وسلامة الترابط بين قيم الروح والنفس وحسن التوازن بين الممنويات مع الماديات . واسكن القسوى اليهودية التلمودية الصهيونية دفعت الغرب إلى طريق الوثنية للمادية ، واستطاعت بسيطرتها على الفكر الغربي أن تحولته عن المسار الطبيعي وأن تحنويه وأن تفرض عليه مناهج التلمود مصاغة في أيدولوجيات ومذاهب ونظريات منها التفسير المادى للتاريخ والتحليل الفرويدى والنظرية للمادية والجودة وغيرهما من نظريات هدمت المجتمع الغربى والنفس وأثارت أزمة الانسان الحديث بعد حربين أجهتتهما الصهيونية فأكلت أكثر من مائتى مليون غربي وفتحت الأبواب للفزع والتدمير لتتمكن من السير إلى الطريق المرسوم الذى رسمته بروتوكلات صهيون بتدمير العالم وأحتوائه قبل السيطرة عليه .

ولقد كشف كثير من الباحثين الغربيين : ذلك الأصرار الغربى الشديد على مدافعة الاسلام والحيلولة دون اعتناقه ، والدعوة إلى إيقاف الاسلام عند البواب غير دون أن يقنعهم أوروبا ورده عن طريق الانداس ثم رده عن طريق البلقان مرة أخرى ومناهضة فكره حتى لا يدخل أوروبا ولا يقنع أهل الغرب مع إثارة الحملة عليه بالكلمة والاستعمار والاستغلال والسيطرة حتى يظل عاجزاً عن الحياة أو عن القدرة على القيام بحملة جديدة في أفق الغرب يقول السكونت كاتيانى : المستشرق الايطالى فى كتابه (تاريخ الاسلام الكبير) : إن الديانة الإسلامية هى أقوى دين فى العالم بعد المسيحية ، والمسلمون يعملون بقوة إيمانهم على صد تيار المسيحية فوق حزام ذلك تشاد بين هاتين الديانتين ، وما زالت آثاره باقية الى عصرنا الحاضر وسبقنى كذلك قروناً ما دامت أوروبا المسيحية تعجز عن نشر ثقافتها بين المسلمين رغم الوسائل تمتلكها .

ومن المؤسف أن تذهب الكنيسة إلى أن ظهور الإسلام كان ضربة قاضية على للمسيحية بسبب اعتنائى كثير من أتباعها هذه تماماً الديانة الجديدة على حين أن الأمر عكس ذلك تماماً ، فقد أدت الديانة الإسلامية عن طريق غير مباشر خدمات جلى للمسيحية إذ لم لو تظهر الديانة الإسلامية وقدر للمسيحية الأرثوذكسية الجامة التي يعتنقها الأروام والروس والتي لم يقم أى دليل على نهوضها - أن تبقى مهيمنة منذ ذلك التاريخ إلى اليوم وحالت دون سطوع مدينة العرب والمسلمين فإذا كان يكون مصير غربي آسيا

وأوروبا في القرون الوسطى للظلمة ، أو لم تحمل النهضة البرونستانية التي ظهرت على الأثر دون تدهور الأرثوذكسية في هوة الانحطاط بيد أن هذه الخدمات التي قام بها الإسلام نحو للمسيحية قد كادت أن تطمس معالمها من جراء النضال المستمر بين أتباع هاتين الديانتين فحجب وجه الحقيقة وورث الأبناء والأحفاد الحقد الشديد ، ويقول كاتينافى : إن الوثائق الحقيقية التي بين أيدينا عن مؤسس هذا الدين (الإسلام) ندر أن نجد أمثالها في الديانات الأخرى فتاريخ عيسى وما ورد بشأنه في الإنجيل ناقص لا يشقى العليل ، أما حياة محمد فإن لدينا منها قسماً مهماً حقيقياً بحيث يحمل المؤرخين المعاصرين على الاعتقاد بأن لمحمد شخصية بارزة في تاريخ البشرية وأنه مشروع كبير أحدث أعظم انقلاب في الأخلاق والسياسة بعد المسيحية .

(١٥)

الاستعمار

بدخول الغرب عصر العلم والصناعة بدأ عصر الاستعمار والسيطرة على مناطق الغابات والأسواق في آسيا وأفريقيا ، وقد كان هذا العصر في حقيقة مفهومه : إحكام السيطرة على العالم الإسلامى للقضاء عليه ونحطيمه واحتوائه فكرياً وعقائدياً وقد جاء عصر الاستعمار بعد أن استولى الغرب على مصادر العلم الإسلامى في الأندلس بإخراج المسلمين منها كلية ، واستغلال حركة الفزوة بمهاجمة الشواطيء الإسلامية في الجزائر والمغرب وتونس ، والاتجاه نحو الدوران حول أفريقيا تحت اسم حركة الكشف الجغرافى التي كانت في صميم أمرها حركة صليبية تستهدف القضاء على النفوذ الإسلامى في مختلف موانئ أفريقيا وآسيا . وكان العمل الاستعمارى كله يصدر عن خطة أطلق عليها تطويق عالم الإسلام وحصاره وقد بدأت الخطة منذ أوائل القرن السادس عشر واستمرت حتى أمكن السيطرة على العالم الإسلامى كله في نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ ، أهق أن حركة التوسع الاستعمارى امتدت أربعة قرون كاملة حتى أمكن السيطرة على عالم الاسلام ، هذه التي تعمقت بعد ذلك ، ونحو لت من الاستعمار العسكرى والسياسى إلى استعمار فسكرى واجتماعى وتربوى على النحو الذى أريد به « إحتواء » العالم الإسلامى كله وصهره في بوتقة الأهمية العالمية للقضاء على الإسلام نفسه ، وتعد حركة الاستعمار الحديث في تقدير الغرب مرحلة تالية للحروب الصليبية التي انتهت قبل ذلك بنهاية عام بالمزعة الساحقة للغرب حتى إن اللورد القنبي عندما دخل بيت المقدس لم يستطع أن يحبس شعوره وشعور الغرب كله حين قل : الآن انتهت الحروب الصليبية ، بل أنه ليتمكن القول أن الحروب الصليبية التي انتهت في جهة المشرق

عام ١٢٩١ استمرت ولم تتوقف في الجبهة المغربية فإنه بعد أن سقطت الأندلس في يد الغرب بدأت معركة استمرت ثلاثمائة عام بين الغرب وبين شواطئ الجزائر والمغرب ، ومنها امتدت حركة الغزو الاستعماري (البرتغال وأسبانيا) إلى سواحل أفريقيا ، و (هولندا) إلى جزائر الملايو . ثم جاءت المرحلة الأشد خطورة بظهور فرنسا وبريطانيا واندفاعهما إلى السيطرة : الأولى على الجزائر والأخرى على الهند ، وقد امتدت هذه المرحلة حتى استنطاق الغرب في الحرب العالمية الأولى (١٩١٨) وضع يده بالكامل على أغلب مناطق العالم الإسلامي حيث سقطت القدس مرة أخرى في يد الاستعمار البريطاني الذي سلمها بعد ذلك إلى الصهيونية العالمية .

وهكذا نجد أن حركة الانقراض الغربي على عالم الاسلام لم تتوقف منذ بزوغ فجر الإسلام ، وانها استمرت بصورة أو أخرى على جبهات بيزنطية ، والشام ، والبحر المتوسط والأندلس ، وغيرها ، وإن كان الاسلام قد حقق توسعات ممتدة في الأندلس وجنوبي فرنسا وإيطاليا ، ثم في الإستيلاء على القسطنطينية والبلقان . وكانت حركة الغرب كلها في حقيقتها محاولة مستمينة لوقف زحف الاسلام سواء الى أوروبا نفسها أو الى الاجزاء المختلفة من العالم ، وكانت الى ذلك حريصة على أن تفسد رأى الغرب في الإسلام نفسه وذلك عن طريق إثارة الشبهات حوله ، والحيلولة دون وصول مفهومه صحيحاً إلى أهل الغرب ، ولذلك عارضت التيار الذي ظهر بعد الحروب الصليبية والذي كشف الغرب سماعة الإسلام وسماعة أهله والذي كذب « الافتراء » الذي كان مصدر الحروب الصليبية كلها خلال مائتي عام وهو القول بأن المسلمين يضطهدون النصارى أو أنهم يسيطرون على بيت المقدس ويحولون بين المسيحيين وبينه . ولقد حملت حركة الاستعمار الحديث لواءين في وقت واحد . ١ - لواء إثارة الشبهات حول حقائق الإسلام ومفاهيمه حتى لا تصل إلى الغرب . ٢ - لواء التبشير المسيحي في عالم الإسلام لتحويله عن الإسلام .

(٢)

بدأ التوسع الاستعماري منذ سقوط طنجة في قبضة البرتغاليين عام ١٧٤١ وغرناطة في قبضة الأسبان عام ١٤٩٢ وامتد باسم السكشوف الجغرافية ، حين سيطر فاسكودي جاما على زنجبار عام ١٥٠٥ واحتلال البرتغال لمسط عام ١٥٠٩ وسقوط مالقة بالملايو في قبضة البرتغاليين عام ١١٥١ واستراخان وجزيرة القرم عام ١٧٧٣ والقوقاز عام ١٨٥٩ واستيلاء بريطانيا على الهند ابتداء من عام ١٨٣٢ وستافورة عام ١٨٣٩ ثم كان احتلال البلاد العربية التي بدأت بالغزو الفرنسي اصر عام ١٧٩٢

والسيطرة على الجزائر عام ١٨٣٢ وهكذا شاركت فيه أسبانيا والبرتغال وفرنسا وإيطاليا وإنجلترا وهولندا . واقد كان هذا الاستعمار باسم الصليبية الغربية التي لم تنس هزيمتها . يقول دكتور حسين مؤنس : إن أوروبا لم تكف من التفكير في الاسلام والأخذ بثأرها من الحروب الصليبية حتى هداها الفكر إلى حركة الالتفاف الجنوبي ، وفي القرنين الثالث عشر والرابع عشر (السابع والثامن الهجري) سمت إلى تنصير المغول حتى تحصر الاسلام بين دولتين مسيحتيتين ، وكيف اتصلت الأسباب بينهما وبين الحبشة النصرانية للقضاء على مراكز المقاومة الاسلامية في مصر ثم كيف بدأت توجه إلى الغرب للوصول إلى الهند والوصول إلى بلاد الاسلام . . ويقول باركر : مؤرخ الحروب الصليبية : كانت البعثات البشيرية التي أرسلت إلى بلاد المغول ترجو من وراء رحلتها أن تحقق أمل الصليبيين واستعيد بيت المقدس إلى الأبد ، بيد هذا الحلم الخادع قد تهدم من آخره . نعم تلاش الحلم الخادع الذي كاد يرسم لأصحابه في الخيال صورة آسيا وأوروبا المسيحية تحصران الاسلام بينهما فلا يصبح بعد ذلك إلا عقيدة متضائلة محصورة في فئة قليلة من الناس في ركن أسبانيا وفي جانب من شرق البحر الأبيض ، ذلك أن خانات فارس دخلوا الاسلام عام ١٣١٦ وأسلم من آسيا الوسطى في منتصف القرن الرابع عشر (الثامن الهجري) وتربع على عرش الصين أسرة منج الشهيرة بين سنتي ١٣٦٨ — ١٣٧٠ وأقفلت أبواب الصين في وجه التجارة الأجنبية ، فكانت النتيجة انقطاع السبيل بالمسيحية واتساعها بعيداً في رقعة الاسلام الذي أدرك شأنا بعيداً من الاتساع بظهور الأتراك العثمانيين ، ولكن أملاً جديداً تراءى لغرب الذي لا ييأس ، وكان هذا الأمل الجديد سبباً في أكبر انقلاب عرفه التاريخ ، وتساءل الأوروبيون : إذا كان طريق البر قد أقفل فلم لا تسلك أوروبا طريق البحر . لماذا لا تبحر إلى الشرق تهاجم الاسلام من الخلف وبذلك تستعيد بيت المقدس ، كان هذا أمل الملاحين الذين حملوا الصليب على ظهورهم واعتقدوا أنهم برحلتهم إلى بحار الهند يملكون لتخليص الأراضي المقدسة . . وقد كان احتلال بريطانيا للهند وهولنده لجاوه وأرخيبيل الملايو . كان هو الخط الأول لتقويض عالم الاسلام وكان البريطانيون والهولنديون قد ابتدءوا فسكرة استعمار عالم الاسلام بطريقة تأسيس الشركات التجارية فأسس البريطانيون شركة الهند الشرقية عام ١٦١٣ وأسس الهولنديون الشركة الشرقية ١٦٠٠ والشركة الغربية عام ١٦٢١ وامتلكوا غينيا وسورينام وركارب سيلان عام ١٦٥٣ وجراثر ملقة وفي عام ١٦٨٠ استولوا على جاوه وكان الحضارمة (أهل حضرموت) هاجروا قبل ذلك بأربعمائة عام ونشروا فيها الاسلام ، وبمسد أن تمت حركة التطويق تمحلت شركتي هولندا وإنجلترا إلى استعمار صريح ، ولم يلبث الغرب أن ركز ثقله على تمزيق قاعدة الاسلام :

« الدولة العثمانية » وقد ظل هذا العمل مستمرا من سنة ١٦٨٤ الى سنة ١٨١٨ خلال مائتي وأربعة وثلاثين عاما وتنافست في ذلك فرنسا وروسيا وبريطانيا واستهدفت في نفس الوقت القضاء على كل قوة جديدة واستطاعت بالضغط أن تفرض في الداخل نفوذها عن طريق الامتيازات الأجنبية وفي الخارج باقتطاع الوحدات الداخلة في نطاق الدولة العثمانية واحدة بعد أخرى حيث تقاسمت روسيا (حين هيرت القوقاز وبسطت سلطانها على أواسط آسيا) وبريطانيا وفرنسا وتدخل في هذه الحركة الضخمة ، « أزمة الإسلام الكبرى » المسكلة للحروب الصليبية والوجه الجديد لها والتي لم تنجمد في جهة المشرق أكثر من ثلاثة قرون يوم تضاءلت - ولا قول توفقت - في أواخر القرن الثاني عشر (السادس الهجري) ثم استأنفت عملها من جديد في منتصف القرن السادس عشر (العاشر الهجري) .

وقد تمثلت في عدة خطوات :

- ١ - تطويق العالم الإسلامي . ٢ - السيطرة على الهند وأرخييل والملايو . ٣ - تمزيق الدولة العثمانية من الداخل . ٤ - اقتطاع أجزاء من الدولة العثمانية . ٥ - تنازع السيطرة على فارس .

(٢)

ولم تكن حركة الكشوف الجغرافية إلا حركة استعمارية صليبية : ويؤكد هذا المعنى واحد من كبار هؤلاء المكتشفين (ولفنجنسون) حين يقول في إحدى تقاريره : إن نهاية الاكتشاف الجغرافي هي بداية العمل التبشيري ، وهذه كلمة صريحة تكشف خلفية الحركة كلها عندما يقول : وهذه حقيقة كلية : إذ أن من الحال أن تكتشف أراضى جديدة دون أن تنبه شوق دعوة أهلها إلى الإنجيل . وتشير حركة الكشوف الجغرافية إلى الرحلات الاستكشافية للاستعمار والتبشير التي قام بها : ماركو بولو ، فاسكو دي جاما ، ولفنجنسون ، وصمويل بيكر ، وغردون ومنهم من سافر إلى فارس وأفغانستان وبكين : (ماركو بولو - ١٣٢٤) ومنهم من أبحر حول أفريقيا ومنها إلى الهند (فاسكو دي جاما - ١٤٩٧) . ومن المصعب أن كتب التاريخ والجغرافيا المدرسية تهف هذه الحملات الاستعمارية بأنها من أعمال الكشف والبطولة . وإن أربابها أسسوا الدول ونشروا أنوار الحضارة وهو ما ليس صحيحا من الوجهة العلمية البحتة فإن هذه البلاد كلها كانت مكتشفة من قبل وقد أوردتها مؤرخوا ورحالة المسلمين قبل أن يصل إليها هؤلاء بعثات الصليبيين . وذلك أنه

منذ القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) انتشر المسلمون فى آسيا حتى بلاد الصين حيث حلوا فى موائلها التجارية ومدنها الداخلية وقد عثر فى بلاد أنام (الهند الصينية) على مخطوطات عربية تثبت أن جالية مسلمة كانت تعيش فى تلك البلاد فى القرن العاشر الميلادى وكذلك وصل العرب ما انقطع من الروابط بين الشرق والغرب بعد إندثار الدولة الرومانية وبقيت الطرق البحرية والبحرية مفتوحة لتجارة بين البحر الأصفر والبحر الأبيض ومن الجدير بالذكر أن البرتغاليين لم يكتشفوا الهند فقد كانت هذه البلاد معروفة فى أوروبا منذ العصور القديمة ، ومنذ معركة حطين وطرد الصليبيين من البلاد الإسلامية ، أصبح العرب هم همزة الوصل بين آسيا وأوروبا فمن عجب أن تصور السكتب المدرسية التى يقرأها أبنائنا أن هذه البلاد ظلت مجهولة حتى اكتشفها الأوروبيون ، وهو غير صحيح كذلك من العجب أيضاً أن تسكال لهؤلاء البحارة أوصاف الجند والبطولة ، بينما كانوا غاية فى البطش والإعتداء والظلم للعرب والمسلمين ، فضلاً عن أنهم أحتلوا هذه السواحل عنوة فى أسلوب غاية الشراسة والظلم وإذا كان لنا أن نقول الحق فإن هذه الحملات الاستعمارية التبشيرية هى بمثابة صفحات سوداء فى تاريخ الغرب وحضارته ، وإن هذه هى طلائع الاستعمار الذى لم يلبث أن سيطر على العالم الإسلامى كله ولم تسكن هذه الرحلات عملية الطابع وإنما كانت استعمارية الهدف ، بحثاً عن الذهب والاعتماد والتوابل لإتباعها من أصحابها الذين كانوا يمررون بمرحلة إغفاء قصيرة بعد نضال طويل وحين نستعرض أعمال هؤلاء الرواد نجد أن الصفة الجامعة بين هنرى المسلاح وفاسكو دى جاما . والبورك ، هو تقديم على المسلمين والعرب أما هنرى المسلاح فقد حمل فى ريعان شبابه على مدينة سبنة التى أنطلق منها طارق بن زياد إلى الأندلس ، ثم تصدى لمدينة طنجة المسلمة فرد على أهقابه فأدرك حينئذ أن عليه أن يقابل الإسلام من خلف أفريقيا والشرق الأدنى فأسس مدرسة بحرية صليبية نذر أصحابها أنفسهم لقتال المسلمين فى حرب صليبية لاهوادة فيها وأعطاه البابا نيقولا الخامس حق الفتح والاستيلاء على جميع البلاد التى فى طريقه إلى الهند وقد رفع لواء النصرانية فى البلاد النائية وأعاد إلى حظيرة الكنيسة أهدائها الألفاء كما جاء فى خطاب البابا فى تسكريمه إياه ومع ذلك فهو يوصف فى كتبنا المدرسية بالبطولة بينما هو واحد من خصوم أمتنا فقد كان ابتداء من عام ١٤١٩ يرسل كل عام بعثة جديدة إلى سواحل أفريقيا الغربية تقاتل أصحاب البلاد وتسيطر عليها . كذلك فقد انصف فاسكو دى جاما بكرهه المسلمين كرها شديداً ، ومن موافقه الإجرامية أنه فى رحلته الثانية إلى آسيا وقبل وصوله إلى شواطئ الهند أطلق مدافعه الثقيلة على مراكز هؤلاء تنقل الحجاج إلى مكة فأحرقها بعد أن نقل أموالهم وأستعهم إلى أسطوله

وبعد أن خطر على رجاله إنقاذ الفرق منهم وفيهم النساء والأطفال حتى هلكوا جميعاً إلا عشرين طفلاً بعث بهم فاسكودي جاما إلى البرتغال حيث حملوا على احتناق النصرانية . بينما يفعل هذا نلقن أطفالنا أنه حل لواء الكشف في أفريقيا وآسيا والحقيقة أن فاسكودي جاما لم يكتشف شيئاً لأن البرتغاليين لم يلبسوا ديار قد بلغ رأس الرجاء قبله بعشر سنين ولأن عبور المحيط الهندي من سواحل أفريقيا الشرقية إلى آسيا كان معروفاً من البحارة العرب والهنود منذ قرون وفاسكودي لم يصل إلى مدينة كالسوتا كما تقول الكتب المدرسية المقررة ولكنه وصل إلى مدينة أخرى تسمى (كاليسوتا) تقع على ساحل كيرالا أو اللالابار في الجنوب الشرقي من شبه جزيرة الهند وتبعد بأكثر من ألف ميل عن كالسوتا التي تقع على مصب نهر السكونج في الشمال الغربي من الهند . أما البورك : فقد كتب إلى ملكه يفخر بأنه ذبح جميع مسلمي مدينة غوا وجعلهم أكداساً في للساجد ثم أحرقتها ، وفي عام ١٥١١ انتهى بفته إلى (ملاقا) التي كان يحكمها سلطان مسلم فأعمل النار في سفن المسلمين وخطب خطابه المعروف الذي يقول فيه : « يجب علينا أن نقتلع الإسلام من جذوره ابتغاء مرضاة السيد المسيح وأن نستولى على تجارة ملاقا حتى يحل الدمار بمسكة والقاهرة » هذا الرجل السفاح تذكره كتب التاريخ المدرسية بأنه فاتح مظفر ، وكان البورك قد احتل جزيرة سقطرة على مدخل البحر الأحمر ومدينة هرمز على مدخل الخليج العربي واستولى على مدينة غوا في الهند التي أصبحت عاصمة النفوذ البرتغالي في آسيا واستولى على ملاقا وبذلك وضع يده على بحار الصين وأصبح المحيط الهندي كله بحيرة برتغالية واستولى على جزر الهند الشرقية ووصل إلى كاتلون على ساحل الصين ، وقد استطاع أن يحقق ذلك لأن هذه المناطق كانت تمر بأغفانة طويلة وقد استيقظ الغرب وحمل نتائج العلم الإسلامي والمنهج التجريبي ليضرب به المسلمين في عقر دارهم أما ولغجستون الذي جاء ١٨٣٧ إلى لندن ليحصل على درجة مبشر فقد رحل إلى جنوب أفريقيا حيث بدأ عمله ، وقد نسب إليه أنه قام بأول كشف جغرافي في هذه البقاع ، وقد أعلن عن نفسه أنه إنما يشق طريقاً للدين المسيحي في هذه البلاد ليسكون منطقاً لتجارة الأوربية ومن هجب أن يلقى مثل هذا المبشر تسكريماً من مثل الدكتور محمد كامل حسين الذي يقول عنه أنه شخصية فذة لأنه قاد عدداً كبيراً من رجال الإرساليات في جنوب أفريقيا . وقد وصف صمويل بيكر بأنه مكتشف منابع النيل الأبيض وهذا من خداع الاستشراق ، ذلك لأن منابع النيل الأبيض لم تكن مجبولة عام ١٨٦١ وأن الذين قاموا إليها هم رجال الحملة المصرية ، كذلك ولغجستون حين وصل إلى بحيرة تنجانيقا كان ذلك بمساعدة السيد حامد بن محمد المعروف باسم (تيبوسيب) أشهر تاجر في تلك الأصقاع . وأنه لما انقطعت أخباره عن العالم المثمن لم يتمكن (استانلي) من

الوصول إليه بمساعدة السيد حامد كذلك . وحول هذا المعنى يقول الدكتور القاسم : الحقيقة أن هذه الرحلات التي قام بها المسيحيون الأوروبيون في باطن أفريقيا وعندها أهل أوروبا متأثره بقوية ووضع أصحابها في صف أعظم الدهر ، كان العرب من سباح وتجار ودرابش قاموا بأضعاف أضعافها منذ قرون ولكن بدون فخر أو وضوء بل بكل بساطة لا يرى الواحد منهم في الذهاب إلى بحيرة تشاد أو إلى السكوتفو من الغرابة أكثر مما يرى في الذهاب من تونس إلى (غدامس) ولما وصل الأوروبيون إلى تلك الأقطار ظنوا أنها مجهولة عند كل العالم ولم يجدوا في مجاهلها مكاناً إلا وفيه هرب أو آثار للعرب واللغة العربية . وجاءت البعثات التبشيرية البروتستانتية بعد البعثات الكاثوليكية كما جاءت الألمانية وغيرها في شبه صراع عجيب للاستيلاء على الأرض وكانت الفترة من ١٧٥٠ إلى ١٩٠١ نهضة إسلامية كبرى في أفريقيا اتسع فيها نطاق الدعوة الإسلامية على أيدي الدعاة المسلمون فلما جاءت حركة التبشير الكاثوليكي والبروتستانتى بدأ صراع شديد انحصر فيه النفوذ الإسلامى عن كثير من المناطق وتوسع التبشير في بناء مراكز وقواعد عديدة وكان الإستعمار أثره الكبير في دهم التبشير المسيحي وإيقاف الزحف الإسلامى .

(٣)

وتبعت هذه الحركة ، حركة أخرى أشد عنفاً ، تلك هى حركة تهجير ملايين الأفريقيين إلى أمريكا في مأساة من أشد المآسى التي واجهت الإنسانية كلها وكان ضحيتها الأفريقيين هؤلاء . يقول مونتيسكيو : إن شعوب أوروبا بعد ما أبادت سكان أمريكا الأصليين وهم الهنود الحمر لم ترو بداً من استعباد شعوب أفريقية لكي تستخدمها في إستغلال هذه الأقطار الشاسعة . ويقول المؤرخ كاثال : إن شعوب أفريقيا السوداء هي التي دفعت ضريبة جنون حب المال عند الأوروبيين . لقد أفتى المستعمرون الأوروبيون شعب البلاد الأمريكية لاستهلاك الأرض الزراعية ثم اقتتلوا الأفريقيين من بلادهم ليصبحوا رقيقاً في زراعة الأرض . ويقول المؤرخ جوليان : إن البرتغاليين قد قاموا باكتشافاتهم بعد الحروب الصليبية بدافع انتقامى من التنافق الإسلامى وبدافع استعمارى اقتصادى لإيجاد المستعمرات التي هيئت لتسكون مراكز للمواصلات لضرب التجارة العربية في أفريقيا الشرقية والهند لهذا فهنا أول من روج هذه التجارة في القرن السادس عشر ، وقد احتكرها البرتغاليون مدة ليست بقصيرة ثم لحق بهم الأسبان والهولنديون في القرن ١٧ وجاء بعد ذلك الفرنسيون والإنجليز في القرن ١٨ ، لقد كانت مناطق تجارة الرقيق الأفريقى تمتد حذاء سواحل أفريقيا الغربية من موريتانيا حتى السكوتفو على ساحل يزيد طوله عن خمسة آلاف كيلو متر .

وقد ساهمت معظم الدول الأوروبية في غزو أفريقيا والمتاجرة بشبابها لأن المستعمرين في أمريكا وجدوا أن الأفريقيين يستطيعون أن يعملوا بدلا من الهنود الهالكين بسبب تشابه المناطق الاستوائية في أمريكا وفي أفريقيا السوداء . وقد احتكر الغرب تجارة الرقيق على سواحل أفريقيا الغربية ١٥١٧م بمعدل ٤ آلاف عبد في كل عام ، وفي عام ١٦٩٠ اعتبرت بريطانيا تجارة الرقيق عملا شرعياً ، فنقل الإنجليز إلى أمريكا في القرن الثامن عشر نحو (٣٨ ألفا) أفريقي بينا نقل الفرنسيون (٢٠ ألفا) والبرتغاليون والهولنديون (١٤ ألفا) وعمل في نقل هذه السكتل البشرية المئات أسطول ضخمة مؤلف من ٨ آلاف مركب . وقد دخل إلى جزيرة هايتي أم مرا كثر نجمة العبيد منذ عام ١٦٧٠م أكثر من ٨٠ ألف زنجي بينا لم يكن فيها عام ١٧٧٦ إلا نحو ٢٩٠ ألف وكان أغلبهم يموت خلال السنين الأولى من شدة العمل المهرق ، وقد أدخل الأسبان الرق إلى الجزيرة لأول مرة عام ١٥٠٢ . وفي القرون الأربعة التي تم فيها النقل (١٦ — إلى ١٩) قدرت بنحو ٢٩ مليوناً يرافها البعض إلى ٨٠ مليوناً وإلى ١٥٩ مليوناً ، وقد لقي عدد كبير من هؤلاء حتفه قبل وصوله إلى أمريكا بسبب الظروف السيئة التي تعرض لها النقل وقدر عدد المفقودين بنسبة أربعة أخماس المجموع ، فقد كان يصل عبد واحد ويموت أربعة في الطريق ، وكانت مطاردة الشباب الأفريقي تستمر سنة أشهر يموت خلالها عدد كبير ، وإذا أمر الأب على اصطحاب طفله يقتله التاجر الأوربي إذا كان عمره أقل من ثلاث سنوات ، وعندما يصعدون إلى المركب يقيدون بالحديد لئلا يقدفوا أنفسهم في البحر ، وبما أن الزوج كانوا حرا فإنهم كانوا يهلكون من البرد عندما يتغير المناخ ، ويتناول الرقيق جرابة بسيطة من حساء القردة البيضاء ، وعندما تصل الباخرة إلى مرا كز التوزيع في جزر (الأنتيل) يسجن الأفريقيون في أما كن ضيقة ينتظرون أن يدفع الثمن الأحسن ، وقد تدوم عملية السفر والانتظار أكثر من عام ويقدر عدد الذين يموتون في جزيرة هايتي سنوياً بثلاثين ألفاً يرهقون بالعمل القاسي ، ولا يبالي بهلاكهم تبعاً إذ كانوا يحصلون منهم على ربح يعادل أثمانهم ، وقد سجلت صور قاسية من التعمرات الوحشية التي قام بها القراصنة الأجانب نحو النساء الأفريقيات بتنعير المسلم من الرقيق ، وقد أبدت الكنيسة هذه الإجراءات الظالمة .

وهكذا نجد صورة الإستعمار قائمة مظلمة بعيدة عن كل هوامل الحضارة أو الرحمة أو التقدم الحقيقي ، وقد جاء ذلك من مصدر أصامي أخذ بمنك الفكر الغربي وهو الاستعلاء بالجنس واللون على جميع شعوب العالم الملوثة .

(٤)

اندفع الغرب بعد أن حصل على الأصول العامة للمنهج العلمى التجريبي الإسلامى متفوقاً على أصحاب المنهج نفسه ، فكانت الانتصارات التى حققها البرتغال والأسبان على المسلمين فى جبهة الأندلس والمغرب ، ومن بعد على المسلمين فى جبهة البلقان وتركيا ، ومنذ اليوم الأول لسقوط قرطبة بدأت الجولة الأخرى المضادة التى زحفت إلى السواحل الإسلامية فى أفريقيا حتى وصلت إلى الهند ، ومنذ ذلك اليوم بدأت مرحلة الإستعمار الأوروبى فى عالم الإسلام من أجل الإنتقام والسيطرة والاحتواء مسبقة على الغامات والأسواق . ولقد حاول الإستعمار الغربى أن يبرر حملته على عالم الإسلام باسم دور الرجل الأبيض مما أطلق عليه حل أمانة « نمدن » البشرية ، وقد جاءت النتائج بعد ذلك لتكشف عن دور من أشد أدوار التاريخ ظلاماً وتجيئراً وإذلالاً لبني البشر ، الذين لم يقبلوا بهذه المحاولة التى استهدفت احتوائهم ، فكانت الثورات فى كل مكان واستنحاش عالم الإسلام من أعمائه بقوة مبادئه لمواجهة هذه الحملة الصليبية الجديدة المتخفية تحت اسم الإستعمار والاحتلال ، وقد ارتبط الإستعمار السياسى والعسكرى والاستعمار الثقافى ، بل أن الخطط الأولى كانت باسم التبشير والإرساليات ثم بدأ خلق أجيال موالية لفكر الغرب تعد أهدادا دقيقا لتولى قيادات البلاد الإسلامية فى مختلف المجالات فنحفظ للاستعمار نفوذه الإجتماعى والثقافى حين يسحب من الصورة العمامة . وهذا هو ما عرف من بعد باسم التغريب والفرز الثقافى الذى خطط له لويس التاسع منذ وقت بعيد إبان الحملة الصليبية السابعة على للصورة ، ولقد كان للاستعمار كتاب وفلاسفة (ولا يزال) يدافعون عنه وبشروح أغراض ومراميه وهم يحاولون وصفه بأنه رسالة عالمية مقدسة : رسالة المدنية والحضارة ، لرفع مستوى الشعوب والأمم وقد نكشفت وقائع التاريخ عن حرص الاستعمار على إدامة تفنيت الأمم بالإفليميات وجعلها وتبعيتها والحيلولة بينها وبين العلم الحقيقى أو اتخاذ طريقها إلى الوحدة .

وقد تبين بما لا يدع مجالاً للشك بأن الأوروبى لم يقصد إلى الشرق كمدن بل كستعمار ، حرص أول ما حرص على نقل التراث الإسلامى ومرفقته وحرمان أهله منه ، وكانت تلك جولة واسعة حرص فيها رجاله على جمع أكبر قدر منه ونقله إلى الغرب بالإضافة إلى نقل الغامات والموارد المتعددة ، كذلك عمد الإستعمار إلى أسلوبيين مختلفين فى السيطرة ، ففي مناطق الاستعمار الفرنسى عمد إلى الاستيطان : فاستقدم عدداً كبيراً من الفرنسيين وطنهم فى الجزائر وتونس والمغرب ليسيطن بهم على الأراضى وإنتاجها بعد طرد أصحابها الأصليين ، كذلك عمل بناء قلاع ومعازل حربية للدفاع عن المرافق ومساكن البر والبحر وحراسة مخازن التجارة ، وعمد إلى الحصول على الموارد الأولية والحاصلات الزراعية بإيجس الأمان لاهراض الصناعة وإعادة بعضها لبيعها بأضعاف غنى . كذلك عمل

على إنشاء مؤسسات اقتصادية ومصارف ربوية لتوظيف ذهب أوروبا التي طفت به خزائن بنوكها في أواخر القرن الماضي ، أو فتح الأسواق لبيع مصنوعاته السكالية والتي تدر فناطير الذهب على الرأسمالية هناك ، هذا بالإضافة إلى الاستيلاء على الأراضي الوطنية ونزعها من أهلها الذين تعاملوا معه بنظام الربا ، ثم عمد إلى أفراض الأمراء وحكوماتهم لتسكيلهم بالنفوذ الغربي والسعي للسيطرة بإقامة الامتيازات على مختلف الموارد الطبيعية كالمناجم والبترول وتسخير موارد البلاد لصالح اللرابيين مع الوقوف في وجه أى تصنيع حتى تظل البلاد أسواقاً مضمونة لتصرف منتجات لا تكتسبها وبوركشير وليون وباريس ولندن .

ولقد واجه العالم الإسلامى هذا الزحف بقوة المقاومة ، التي استمدتها من روح الإسلام ، حيث وقفت الشعوب العزلاء من كل سلاح لتقاتل بالأجساد المفرصة ، مما دفع الاستعمار إلى تغيير جلده مرات ومرات في سبيل البقاء بالادعاء بأن الشعوب عاجزة عن أن يدير شئونها بنفسها بينما كانت تدير شئونها في كفاية تامة قبل وصوله بعشرات السنين . لقد كان هدف الزحف الاستعماري الغربي ، الذي هو بمثابة الحلقة التالية للحروب الصليبية العمل أماماً للقضاء على الدولة العثمانية التي كانت قد أصبحت بمثابة الصخرة العاتية في وجه السيطرة الغربية والصهيونية والتي نجحت حولها الدول الإسلامية في وحدة جديدة تحت اسم الجامعة الإسلامية لمواجهة الزحف الغربي الضيف . ولاريب أن الدولة العثمانية هي القوة الإسلامية التي نشأت بعد الحروب الصليبية وحت العالم الإسلامى من الفزو الغربي خمسة قرون كاملة .

(١٦)

الدولة العثمانية : سبعة قرون من الدفاع عن الاسلام

(١)

العثمانيون حول اسوار فينا

انزع المسلمون آخر معاقل الصليبيين في الشرق ١٩٦١-١٢٩١م بعد أن استمرت هزوة الغرب الصليبية على أفق المشرق الإسلامى قرابة قرنين كاملين وكانت قد بدأت ٤٩٠٥ - ١٠٩٦م ظلت تندفق خلالها جهامات الغرب دون توقف على شواطئ الشام ومصر في محاولة السيطرة على

رأس الحربة في بلاد المسلمين ، وعلى مرعى المدافع من مكة والمدينة وقد أثارت الحملة الصليبية القوى الإسلامية ووحدها وحررتها من ضعفها وأنهرافها الفكري ورددتها إلى أصالة الإسلام فالتفت مناهجه وأساليبه وأهلنت الجهاد المقدس ، وهاشت مرحلة المراقبة والقتال والدفاع والمواجهة على مدى ذلك الزمن جون توقف ، وقد انتهت الجولة الغربية بهزيمة ساحقة . وكان رد الفعل الإسلامي قويا وكاسحا ، فقد انبعشت من قلب عالم الإسلام قوة جديدة مرهان ما سيطرت على آسيا الصغرى سنة ١٢٩٩ أى بعد خروج الصليبيين من الشرق بثانى سنوات ، تدفقت قواتها المسلمة إلى أوروبا فعبرت الدردنيل عام ١٣٦١م وظلت تنوغل في قلب الغرب حتى حاصرت أسوار فيينا ثلاث مرات في خلال مائة وخمسين عاماً بعد ذلك وبقى نفوذ الدولة العثمانية في أوروبا ستائمة سنة (١٢٩٩ — ١٩١٧) أوقعت خلالها الغرب في عالم الغرب ، وسيطرت على بلغراد والحجر والنمسا وبولونيا وجزائر رودس ومالطة وقبرص ، وامتد ملك الإسلام باسم العثمانيين من بودابست على الطونة إلى أسوان إلى شلالات النيل ومن الفرات إلى بحر الزقاق (بوغاز جبل طارق) وكان ذلك كله بحكم باسم الله . ويملى من كلمة الله . وكان في حوزة الأسطول العثماني ما يفوق أربعائة مركب حربياً ، وكان سليمان القانوني الذي دخل أبواب الحجر وحاصر فيينا يقول : إن خيولنا ليلا ونهاراً مسروجة وسيوفنا مسلولة وكان يكتب تحت عنوان (بناية الله عزته وقدرته وبمعجزات سيدنا أمرة الأنبياء محمد) وقد دخلت ضمن المملكة الإسلامية العثمانية كل مدينة شهيرة في العالم القديم ما عدا رومه : (دخلت أثينا وأسبارطة والأساتنة وأنطاكية وبابل ، ونيينوى ، وبغداد ، وأورشليم ، ودمشق ومكة ، والمدينة ، والاسكندرية ، والقاهرة ، وممفيس ، وطيبة وقرطاجنة) وكانت فرنسا تلقب سليمان في مراسلاتها بالسيد الأعظم أو امبراطور العالم الكبير ، وبعجز (شارلسكان) سيد الغرب إذ ذاك عن منافسة سليمان القانوني ولم يجد سبيلا إلا استرداد ما دخل في حوزة السلطان من بلاد الحجر ، وبعد فتح القسطنطينية هو ذمة الموقف بالنسبة للغرب فإنه لم يمض أكثر من أربعين عاماً حتى سقطت آخر معاقل الأندلس عام ١٤٩٢م . بدأ السلطان محمد الفاتح بمهاجمة الأسوار الغربية وكانت تمتد من القرن الذهبي إلى بحر مرمره ، ثم رأى على ضخامة مدافعه أنه لا يستطيع التغلب عليها لمناعتها وعظم سمكتها فعول على مهاجمة المدينة من أضعف جهاتها وهي الجبهة المشرقة على القرن الذهبي ، وكان الروم قد احتاطوا لذلك ومدوا سلسلة عظيمة على مدخل القرن حتى لا تدخله سفن الأعداء لتهاجم الأسوار فلم يبق ذلك من هزم العثمانيين واحتالوا على نقل سفنهم إلى القرن الذهبي بطريقة صعبة لا تزال من أعجب ماحدث في التاريخ وذلك أنهم مهدوا طريقاً برزاً بين البسفور والقرن يبلغ طوله نحو ألفي وخمسين ميلاً ووضعوا عليه

هو أرض ضخمة من الخشب الذهبي تندرج عليها أسطوانات طويلة من الخشب (بكر) وسيروا فوقها ثمانين سفينة صغيرة من أسطولهم الذي كان بالسفوف فحرت عليها السفن الريح تدفع في شراهم كأنها تبحر على الماء حتى بلغت القرن الذهبي فنزلت فيه بلا عناء وكان السلطان محمد أثناء نقل هذا الأسطول بضال حامية المدينة بالحاح على ضربها بالمدايع من باقي الجهات الأخرى . ودخل المسلمون القسطنطينية وسقطت دولة الروم الشرقية ، وسار محمد الفاتح إلى كنيسة أبا صوفيا فصلي فيها ظهر ذلك اليوم باسم الله أكبر ، صلاة الفتح في ثمان ركعات .

ماذا كان رد فعل فتح القسطنطينية : التي حاصرها للمسلمون قبل ذلك مراراً ثم ارتدوا عنها ؟ وماذا كان موقف الغرب ؟ يقول البارون كلرادفو في كتابه (مفكرو الإسلام) : إن هذا الفتح لم يقض لحمد الفاتح انقضاء ولا تبسر لمجرد ضعف الدولة البيزنطية بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل ويستخدم كل ما كان في عصره من قوة العلم فقد كانت المدافع حديثة العهد فأعمل في تركيب أضخم المدافع التي يمكن تركيبها يومئذ . وانتدب مهندسا بحريا ركب مدفاً كان وزن الكرة التي يرمى بها ٣٠٠ كيلو جرام وكان مدى مرماه أكبر من ميل ، وقيل أنه يلزم لهذا المدفع سبعائة رجل ليتمكنوا من سحبه وكان يلزم له نحو ساهتين من الزمن لحشوه ، فلما زحف محمد لفتح القسطنطينية كان تحت قيادته ٣٠٠ ألف مقاتل وكان أسطوله المحاصر للبلدة من البحر مكوناً من ١٢٠ سفينة حربية ، وقد سحب جانباً من الأسطول من البر إلى الخليج وأنزلوه على الأخشاب المطلية بالشحم ، سبعمائة سفينة أنزلها البحر من جهة قائم باشا ، المهم هو الكرة والإيمان بها والفرد القائم عليها .

(٣)

ومن نصر إلى نصر توالت خطوات الدولة العثمانية في قلب أوروبا (١٤٥٣ — ١٨٦٣) خلال قرنين ونصف بعد ذلك لم يتوقف فيها الزحف والنصر ، يقول : شكيب أرسلان : لقد بقي هؤلاء السلاطين مدة سبعمائة سنة كاملة يذبون عن الإسلام شرقاً وغرباً وجاء وقت كانت فيه أوروبا بأجمعها ترتعد فرقا من صولة آل عثمان وكان خوفهم يصل بأهل أوروبا إلى أنهم إذا جاء أسطول عثماني إلى طولون أو نيس أبطل الأهالي هناك قرع الأجراس في كنائسهم وكان أهالي فينا لا يبيتون ليلة إلا وهم معتقدون أنهم في اليوم التالي رهايا لإبن عثمان (بين محاصرة فينا الأولى عام ١٥٢٩ والثانية عام ١٦٨٣ مائة وأربعة وسبعين سنة) وبقيت الحجر ملكا لإبن عثمان مائة وخمسين سنة وبودابست عاصمة

إسلامية . وجاء زمن كان الأسطول الثانى هو الأسطول السادس فى البحر المتوسط ، وكانت ربح تقصف فى البر ومن شاء أن يرى التاريخ الجسم فليذهب ويشاهد جوامع القسطنطينية ومدارسها ويشاهد نخامة تلك الأبنية التى مضت عليها القرون يزلزالها ونوازلها وهى باقية كالأهرام ولم يحتفل آل عثمان بشيء من المباني احتفالهم بالمساجد الشريفة التى صيروها حلة الأسنانة وبهاثما ومفخرتها فى أهين السياح الأجانب وهناك من المبرات لهذه العائلة فى الاسنانة وتركيا وفى بلاد العرب وفى الحرمين الشريفين نبع خاص لا يحصى الأتلام ولا تحصى الأرقام وقد بقى الإسلام مئات السنين فى كفاة آل عثمان وكان الترك والله لا يستحى من الحق هم سيوفهم المسلوقة . ولم يقتصر فضل الترك على الجهاد بالسيف بل كان لهم من الجهاد بالقلم ومن شاء فليقرأ كتب التراجم ولا سيما (الشافعى النعمانية فى علماء الدولة العثمانية) فيعلم كم خرج من هذه الأمة من غول العلماء وأساطين الحكماء وكم لهم من موقف شريف إلى جانب الفقه والحكمة . وقد كان تشكيل الدولة العثمانية فى جوهره « حربيا » كما يقول كبرى فى كتابه موجز تاريخ الشرق الأوسط وقد بلغت الدولة العثمانية أقصى اتساع لها عام ١٥١٧ حين ضمت إليها سوريا ومصر . وكانت الدولة العثمانية دولة إسلامية بمعنى الكلمة فى تقدير كل المؤرخين والباحثين ، وكانوا يعبرون عن القومية بكلمة الملة وكانوا يقولون على الدوام أن الدين والملة شيء واحد ، وكانت جيوش الدولة تخوض الحروب بحماسة دينية شديدة وكانت هباتهم المشهورة : أما غزى وأما شهيد . وقد أشار شفيق غربال إلى هذا المعنى فقال : كان إيمان المسلمين فى شن الحرب فى البر والبحر فى أوروبا لعمرة الإسلام ونشر لبنوده فى الارض والقاب عن بيضته ولنصرة الإسلام نشأت أمارة عثمان ولاجلها حقق أرخان أداة النصر (العسكر الجديد) وفى صبيها استشهد مراد فى ساحة قوصوه وفتح محمد القسطنطينية وتطلع إلى كرسى المسيحية الأخر فى رومه ولصون الاسلام سلك جيش مسلم أوفر المسلك فى الجبال إلى تبريز والصحراء إلى القاهرة وحفظ هذا التراث أنفق سليمان أحسن العمر فى ميادين القتال ، وحال دون امتداد النفوذ الأوروبى إلى سواحل البحر المتوسط وجزره واعترض تقدم الأوربيين فى اتجاه البحار العربية ، وكانت نظم العثمانيين الأول وما اختطه سلاطيتهم الأول لشئون الحرب والسياسة على جانب عظيم من المرونة والقدرة وكان اجتماع الخلافة والسلطة فيما سببا لعل بقائها أكثر مما تقدمها من الدول الإسلامية ، فقد كانت الدولة العثمانية أول دولة إسلامية غير عربية جمعت بين الخلافة والسلطنة وواقعها المسلمون عليه . والعثمانيون لم ينز هو البلدان العربية من أيدي العرب أنفسهم بل من أيدي المماليك، وكان العرب يطمعون فى وحدة تحفظهم من تهديد الغزو الغربى الذى بدأ وشيكاً بعد انتهاء الحروب الصليبية

على جهة المشرق ، وقد حى الحكم العثماني الأقطار العربية والإسلامية من العدوان الخارجي أربعائة سنة والعرب هم الذين وضعوا النظام القضائي الإسلامي على أساس الشريعة الإسلامية الإمبراطورية العثمانية وكان لهم أثر بارز في الإدارة الداخلية فيها ، وشيخ الإسلام كان يمثل السلطة التي يحق لها الفتوى الإسلامية ، وكان الإسلام هو الجامع الأوحد بين العرب والترك في رابطة متينة استمرت أربعة قرون وكان العرب كسلميين يعتبرون شركاء للترك وكانوا مثلهم في الحقوق والواجبات بدون تمييز عنصري وكانت الوظائف العليا سواء العسكرية أو المدنية مفتوحة للعرب ، وكان العرب ممثلون في مجلس المبعوثان وأصبح كثيرون منهم رؤساء وزارة ومنهم كان شيخ الإسلام .

يقول برنارد لويس : كانت الإمبراطورية العثمانية منذ تأسيسها حتى زمن سقوطها دولة نكرس قواها في سبيل تقدم شوكة الإسلام وحمايته ضد أي اعتداء خارجي ، وقد ظل العثمانيون طوال ستة قرون في حرب مستمرة ضد الغرب المسيحي ، أولا : لمحاولة فرض حكم إسلامي على جزء كبير من أوروبا وهي محاولة رافقها النجاح . وثانيا لشن حرب دفاعية تنقف في وجه الهجوم المعاكس الذي قام به الغرب وكانت الإمبراطورية العثمانية في نظر الرجل العثماني بمثابة الإسلام ذاته .

(٣)

مضت عمليات الفوز في أوروبا وأوغلت فيها في وقت كانت موجة الإسلام تنحسر من الأندلس بسقوط غرناطة في أيدي الأسبان عام ١٤٩٢ م وقام الاتراك بتعويض الخسارة ، وأنتهزت مآقل أوروبا تحت مطارق العثمانيين الذين انتقلوا من نصر إلى نصر ، وتوغلوا في قلب القارة الأوروبية ، وفتحوا جبهة بحرية في حوض المتوسط ، حيث انتزعوها أهم جزره : رودس ، قبرص ، كريت ، الجزر الابونية ، وكذلك القواعد العسكرية التي كانت قد اتخذتها أسبانيا والبرتغال على الشاطئ الشمالي لأفريقيا . ثم نقل الاتراك جبهة القتال إلى الحوض الغربي المتوسط حيث كان الأسبان قد أشعلوا حروبا صليبية بالغة العنف والضرارة ضد القوى الإسلامية في شمال أفريقيا وخاض الترك معارك بحرية ضد الأساطيل الأوروبية المتحالفة . واستطاعت الدبلوماسية العثمانية أن تجتذب فرنسا إلى جانبها تقبلا لان المعونة وقدمت فرنسا للعثمانيين ميناء طولون الحربي لتأوي إليه الوحدات البحرية العثمانية ، وكان أبرز الصليبيين : شارل الخامس أو فيليب الثاني . وقد قام الاتراك بعمليات حربية ظافرة حتى وصلوا أسوار مدينة فيناعاتمة النمسا واعتنق الاسلام بفضل العثمانيين جماعات من السكان في أقاليم البلقان ووسط أوروبا وبفضل الأتراك العثمانيين لا تزال تعيش حتى اليوم أقليات إسلامية في بولندا وبيلاريا وبوغوسلافيا وألبانيا وما يؤخذ على العثمانيين أنهم لم

يشتمقوا الإسلام في نفوس أهل أوروبا، ولم يحملوا منه محورا تنحجم حوله الشعوب التي دانت لهم عسكريا وسياسيا .

ومن الحق أن يقال أن الدولة العثمانية هي بديل الاندلس ، فإنه عندما أخذ نجم المسلمين يأفل في بلاد الغرب الأوربي كان نجمهم يشرق ويسطع في الجانب الآخر من القارة الأوروبية (بإفريقيا والمغرب والبلانبا والبندقية) هذه الدولة التي نمت في بلاد الاناضول ثم تدفقت سيللا إسلاميا هارما على الغرب خلال أكثر من قرن ونصف في مرحلة المد الأولى حتى توفقت هند أسوار فينا بعد أن حاصرتها أكثر من مرة .

ومنذ برزت دولة بى عثمان ٦٩٩ هـ — ٩٣٠٠ م فقد استنطاعت أن ترفع رايه الاسلام ، وبالرغم من الضربة العنيفة التي وجهت إليها من التتار فإنها سرهانا ما استعادت قوتها وهادت إلى امتلاك إدارتها وقد كانت ضربة تيمورلنك هام ٨٠٤ باتفاق بين فرنسا والبابا يؤيد ذلك الكتاب الذي حمله إليه وقتشد الراهب (فرنسيفوس) من ملك فرنسا شارل السادس الذي كتب جوابه تيمور بعد أن قضى على آل عثمان وقد أرسل ملك أسبانيا يئىء تيمور على إجهازه على آل عثمان ، وقد دلت وثائق تاريخية كثيرة ظهرت في السنوات الأخيرة على أن الصليبيين اتصلوا بالفاطميين المغول وحرضوهم للحملة على المسلمين (وكانت أم هولاكو وزوجته مسيحيتان) وكانت لحظة هي وضع العالم الإسلامى في كسارة البندق بين الصليبيين والتتار ثم الإجهاز عليه ، ومن ثم انطلقت البعثات من البلاطات الأوروبية الدينية والسياسية لخطب رد التتار وتعمل بمكر شديد على تحويل أنظارهم عن أوروبا إلى القضاء على عالم الإسلام ، وكانت الحملة على بغداد باتفاق وتحالف كقعدة للقيام بحملة مشتركة ضد الدولة السوروية المصرية (جان بورو — الإسلام فى الغرب) ولكن المؤامرة بين المسيحية الغربية والوثنية المغولية فشلت ونجحت دولة الاسلام لتعود معركة طويلة بعد ذلك إلى الغرب أمنتت أكثر من قرنين ونصف ولقد حاول هولاكو فى نطاق هذه المؤامرة — أن يتجه إلى مصر ولكنه فشل بعد أن هزمت الحملات الصليبية . نقول أنه بالرغم من هذه الضربة العنيفة فقد استيقظت الدولة العثمانية سرىما وانجهمت إلى أوروبا فبا بين ١٣٠٠ — ١٥١٦ ومن خلال حكم تسع سلاطين نشرت جناحها فوق ربوع آسيا الشرقية . وكانت الفكرة الأساسية هند الدولة العثمانية خلال القرون الوسطى وما بعدها أن الاسلام كله فى حالة حرب مستمرة مع المسيحية كهنا لا يستثنى من ذلك إلا الأمم والدول الداخلة تحت الطاعة والتي تدفع الجزية وقد وجه العثمانيون جهدهم لفتح أوروبا ونشر لواء الاسلام فوقها وتمسكوا خلال القرنين الأولين من دخول بلاد البلقان

وبلاد البحر والكثير من بلاد النمسا وجنوب البلاد الروسية حول البحر الأسود وقنوا أمام جدران مدينة فينوا ولولا لطفة المغول وحربه وقهره السلطان بايزيد عام ١٤٠٣ وما عتب ذلك من فترة خلل هطلت الفتوحات الإسلامية خمسين سنة لبقت الدولة مبلقا عظيما قبل أن توحد أوروبا جهودها وتستمد لمقاومة المسلمين . ويمكن القول أنه منذ عام ٩٠ هجرية والإسلام يقتحم أوروبا من الغرب حتى إذا تدهأت أركانه في أسبانيا اقتحم أوروبا من الشرق ، وفي الأولى استمر ثمانية قرون وفي الأخرى ستة قرون هي عمر الإسلام نفسه (بل إن غرناطة لم تسقط إلا بعد أن استولى محمد الخامس على (اسلام بول) : القسطنطينية العظمى عاصمة مملكة الروم الشرقية بأربعين سنة . ولقد كانت خطوة الدولة العثمانية في الارتباط مع العرب خطوة هامة ، فإن البلاد العربية كانت تعاني من محاولات خدر أوربية بعد أن انتهت الحروب الصليبية وكانت لها نزال مشخنة بجراح قرنين كدامين من المقاومة ومن هنا كانت تنظر إلى الدولة العثمانية كنصير كبير ومظلة ضخمة يحمي تحتها أهل لا إله إلا الله دون نظر إلى المفاهيم التي ظهرت من بعد مما يسمى قوميات أو استعمار . والواقع أن العثمانيين لم يتعرضوا للبلاد العربية التي كانت تحت سلطان الأتراك المماليك إلا بعد أن ظهر تحالف السلطان قانصوه القوري مع الشاه اسماعيل سلطان فارس ، لمحاربة الدولة العثمانية ، هذئذ أقيمت جيوش العثمانيين إلى الشام ومصر وبذلك أصبحت الأبراطورية العثمانية تمتد من مدينتي فينا وبودابست في قلب أوروبا إلى طرابلس الغرب وأحيطت أوروبا بالخطر الأكبر واستمدت لمقاومة جيوش الإسلام المكسحة ، وهنا وقف العثمانيون وجها لوجه أمام دولة أسبانيا التي كانت مهيمنة على أوروبا الجنوبية .

(١٧)

مرحلة المقاومة الدفاعية في وجه الهجوم المضاد

انتهى المد الإسلامي عند أسوار فينا وبدأت مرحلة المقاومة منذ هزم العثمانيون في معركة ليبانت البحرية عندما نجحت الدول الأوروبية تحت اسم الإتحاد للسبحي للقضاء على الاسطول التركي ، وقد اشترك في هذه المعركة : إساطيل البابا وأسبانيا والبنديقية ومالطة والسافو المتحدة . ويمكن القول أن مرحلة المقاومة بدأت منذ ذلك التاريخ عام ١٥٧١ م وإن كان العثمانيون قد حققوا هديداً من الانتصارات بعد ذلك حتى معاهدة كالور فيتر ١٦٩٩ التي توصف بأنها ختام مجد آل عثمان . هذه المرحلة التي تبدأ من هذا التاريخ وتستمر حتى الحرب العالمية الأولى يمكن وصفها بأنها « شن حرب

دفاعية ، لتوقوف في وجه الهجوم المضاد الذي قام به الغرب ، وقد انتهت في خلال عصر السلطان عبد الحميد إلى (حرب دفاعية سياسية) بعد أن تخلت الدولة العثمانية من أجزائها الأوربية ، فقد كان الموقف مشابهاً تماماً للموقف الغربي من أسبانيا ومحاولة تطويق البلاد المغربية بعد استعادة الأوربيين لها ، كذلك فإن الخطة كانت تستهدف بعد تحرير الأجزاء الأوربية من الدولة العثمانية العمل على تقسيم الامبراطورية وتجزئتها ، كانت هذه الخطة قديمة جداً ومتصلة حتى أن الوزير الإيطالي « جوفارا » أحصاها في مائة مشروع هي مائة مؤامرة على تجزئ الدولة العثمانية والقضاء عليها وقد بدأت هذه المؤامرة منذ وقت باكرواستمرت ستة قرون متتابعة ، فمذ فتح محمد الفاتح القسطنطينية بدأ الغرب مؤامراته ضد الدولة العثمانية ، ولقد استغل الغرب كل أصاليب الحرية والتسامح الإسلامية في العمل على ضرب هذا السكان والانتقام منه ، ولقد واجه الغربيون المسلمين بالعداوة والتعصب بالرغم من تسامح المسلمين وإتاحة الفرصة لهم لإقامة شعائرهم وتعاليمهم الحر . وقد شهد كثير من مؤرخي أوروبا المنصفين بذلك يقول : (لامنس ورامبوا) إن محمداً فاتح القسطنطينية كان كأكثر سلاطين الأتراك وللغول بعيداً عن كل اضطهاد ديني . وكانت حكومة الأتراك لا تعارض أحداً في دينه وكان الأتراك لا يمسون امتيازات الكنيسة ، ليس هذا وحده شهد به المؤرخون الغربيون ، بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك . إلى أن هزيمة الدولة العثمانية في الأخير كانت نتيجة تسامحهم مع النحل غير المسلمة : وإن هذا التسامح كان مدخل للمؤامرة على الدول العثمانية ولطمها وسداها . يشير إلى هذا للمعنى دوجو طاراً في كتابه (مائة مشروع) إن من أعظم أسباب انحلال الدولة العثمانية هو مشربها في إعطاء الحرية المذهبية والمدارسية التامنين للأمم المسيحية التي كانت تبث دعاتها القومية ، وتبأسك وتنمض وتسير سيراً قاصداً في طريق الانفصال عن السلطنة العثمانية ، بل أنهم ذهبوا إلى أبعد ما أشار إلى دوجو طاراً ، لقد عملوا على « تفريب تركيا » حتى تكتسب من اليسار إلى اليمين حتى لا يكون الإسلام مجاوراً لأوروبا ، وتكون فاصلاً من عالم الاسلام وبين أوروبا ويرجع كثير من المؤرخين أن مؤامرات العودة إلى منطقة بيت المقدس والسيطرة على العالم الاسلامي بدأت بعد انتهاء الحروب الصليبية مباشرة ومنها الزحف على شمال أفريقيا ومعركة الثلاثمائة عام مع الجزائر بالإضافة إلى الحملات التي وجهت إلى مصر وسوريا ، فضلاً عن أولئك الذين طالبوا ملوكهم بالسيطرة على المنطقة الجامعة بين البحر الأحمر والبحر الأبيض .

وكان الرهبان ومستشاري الملوك يقومون برحلات سرية إلى هذه المناطق ليحرضوا ملوك الغرب على معاودة الحرب ، ولقد كان البابا جريجورس الثاني عشر قد أعلن فعلاً الحرب الصليبية

مرة أخرى على المسلمين في ٩ نوفمبر ١٤٠٧ إلا أن هذه الخطة فشلت بعد أن استولى الأتراك على القسطنطينية وقبرص . ويركز اللورخون على معركة (ليبانت) التي هزم فيها العثمانيون لأول مرة ويزورها علامة على انتهاء مرحلة للد الإسلامى العثمانى فى الغرب وبدأ مرحلة الهجوم للضاد . ولقد كان السلطان سليمان القانونى — ١٥٦٦ أضخم اسم فى أوروبا جاء بعد فتح القسطنطينية : ذلك الحدث الفذ الذى اعتبره أغلب المؤرخين « مبدأ العصور الحديثة » قائم هذا الفتح باقحام ولايات البلقان مما نعرفه اليوم بأسماء (رومانيا ، بلغاريا ، اليونان ، يوغسلافيا ، ألبانيا ، بلاد المجر) وكان البحر الأسود كأنه بحيرة عثمانية وأسطولها يحجب هباب البحر الأبيض متحديا أساطيل البندقية والبابا والأمبراطور شارل الخامس (شارلسكان) الذى كان أقوى ملوك أوروبا : امبراطوراً للنمسا وأسبانيا والأراضي المنخفضة ، هذا التوسع لم تصحبه الدعوة إلى دخول هذه الأمم فى الإسلام ولذلك فإنه سرعان ما انهار عندما صعدت بيضة الأتراك الحربية وحين بلغت الدولة ذروتها العسكرية والحربية ، لم تجد أسس التقدم العلمى والاجتماعى والفكرى مساندة لبقائها ، فقد استطاعت أسبانيا متحالفة مع البابا والبندقية أن تنزل بها هزيمة قاسية وتحطم أسطولها فى موقعة (ليبانتو) عام ١٥٧١ التى يعتبرها الغرب من المواقع البحرية الحاسمة ، ولكن هذه الموقعة لم تقض على الدولة العثمانية التى سرعان ما استعادت قوتها وحقت انتصارات جديدة وتوسعات كبرى وكان استقلالها على قبرص قطعاً لأحد سواحل البندقية بل أنه بعد بضعة شهور من معركة ليبانت خرج من القسطنطينية ٢٥٠ مركباً حربياً كاملة المدد والمعدد وشمرت تتحدى أساطيل العدو والتقى الأسطول القهر فى قلب البندقية فانسحبت من تحالفها وأمضت الصلح مع آل عثمان ولم تمض أكثر من مائة عام حتى غزت فينا مرة ثانية عام ١٦٨٢ وكانت الأولى عام ١٦٢٩ وقد أخفقت المحاولة إخفاقاً ذريعاً وبددت شمل جيشها وأجبرت على أن تفلو عن بلاد المجر جميعاً فقد تألبت أوروبا على الدولة العثمانية ونجمت قوى النمسا وبولونيا والبندقية ومالطة والبلبار وروسيا وأطلقوا على نجمهم الحلف المقدس وزحفوا عليها من كل صوب .

هذا ما أطلق عليه الحلف المقدس من الأمبراطور وبولنده والبندقية واستمرت الحرب مشتعلة سنين عدة فى البر والبحر ، حتى قبلت الدولة العثمانية معاهدة عام ١٦٩٩ وهى معاهدة كان لها أثر كبير فى تاريخها ففيها لأول مرة رضيت بالتنازل عن مناطق واسعة من أراضيها ، لقد أخذ الغرب موقف المهاجم منذ ذلك التاريخ وأخذت الدولة العثمانية موقف الدفاع . وبدأ العثمانيون مرحلة المقاومة فى صلابة وهناد وجاء محمد كوبريالى الإلبانى الصدر الأعظم فاستطاع أن يوثق هرى

البراطورية من جديد ويمكن ومن بعده خلفائه القيام بدور ضخم هدد دول جنوب شرق أوروبا وأنتك خطوط الدفاع في الغرب . ولقد انحصرت معركة الدولة العثمانية مع الغرب في منطقة البلقان . بينما سار الغربيون في قوة للسيطرة على العالم الإسلامي وتطويق . والسيطرة على المحيطات : إلى المناطق الإسلامية في الهند وأندونيسيا وأفريقيا الاستوائية ، على النحو الذي يصوره توينبي . « كان الغربيون يتطلعون بقوة في السيطرة على المحيط وفي السيطرة بالتالي على العالم ، وهكذا لم يكتفوا بسبق المسلمين إلى اكتشاف أمريكا واحتلالها بل توغلوا كذلك فيما كان تراث المسلمين الخاص : أندونيسيا والهند وأفريقيا الاستوائية ، وأخيراً بعد ما طوقوا العالم الإسلامي وألقوا عليه شباكم انطلقوا إلى مهاجمة عهدهم القديم في عقر داره ، وقد افتتح هذا الهجوم المركزي الذي شنه الغرب الحديث على العالم الإسلامي النزاع الحاسم بين المدينتين » . ويمكن القول أن معركة المقاومة التركية والتي استمرت حتى أوائل الحرب العالمية الأولى قد كشفت عن ضعف الأتراك العثمانيين في مجال القوة المادية والتقدم العلمي الذي أحرزه الغرب والذي كان قد تدافع ليقاوم بأسلحة جديدة منها المراكب التجارية بينما كانت العثمانية لا تزال على أساليبها القديمة ومن ثم وقعت في هزائم ضخمة وتكبّدت خسارة كبرى . وكانت المرحلة الأولى هي تخليص الأجزاء الأوروبية من النفوذ العثماني وكانت المرحلة الثانية هي سيطرة الاستعمار الغربي على الأجزاء الإسلامية بدءاً بالجزائر ومصر والسودان وتونس حتى سقطت آخر هذه الأجزاء وهي الشام والعراق خلال الحرب العالمية الأولى ، وفي هذه المرحلة الأخيرة برز دور السلطان عبد الحميد في مقاومة الاستعمار ورفع لواء الجامعة الإسلامية في وجه الاستعمار ومعارضة المؤامرة الصهيونية على أراضي فلسطين . وقد كانت المقاومة في هذه المرحلة سياسية ولكنها لا تقل خطراً عن المرحلة العسكرية السابقة لها ، فقد بذل السلطان جهداً وبراهة واقتداراً في السياسة وفي ضرب دول الغرب بعضها ببعض مما أجل عملية السيطرة الكاملة على المنطقة سنوات طويلة .

(٢)

كانت الخطوة التي وضعها الغرب على المائدة منذ استولى محمد الفاتح على القسطنطينية وتوغل سليمان القانوني إلى أوروبا مكونة من شقين هما : أولاً : رد الإسلام عن أوروبا . ثانياً : قمع في بلاده حتى لا تقوم له من بعد قائمة توسع نحو الغرب . قال جود فروا كورت في كتاب عنوانه الصليب والهلال : إن الإسلام قد عمل ما لم يقدر أن يعمل ، بل ما لم يجروؤ أن يعمل دين آخر ، ذلك بأن

الصليب تغلب على كل شيء أمامه وجاء الإسلام أخيراً فتغلب عليه ، ومن هنا نشأت تلك الخطط التي أطلق عليها الوزير الروماني « مائة مشروع لتقسيم تركيا » :

يقول : إن المسلمون كانوا أزعجوا أوروبا وضمقت لهم أسبانيا مع عظمتها ، وفي أواخر القرن الثاني عشر أمتد سلطان العرب (وهم لا يقرلون للمسلمون تعصبا) من الهند إلى الأطلانتيك وصارت حضارة بغداد والبصرة أعلى وأرقى من حضارة أكس لا شابل وباريس وكان الفرنج تحت قيادة شارل مارتل هم الذين أوقفوا المسلمين في بواتيه وأنقذوا النصرانية ، فن ذلك الوقت لم يعرف المسلمون أوروبا إلا تحت اسم بلاد الأفرنج ، وقد بدأت الحرب الصليبية فأخورت فتح الأتراك القسطنطينية مدة ثلاثمائة وخمسين سنة ، ودخل الأتراك أوروبا عام ١٣٥٦ فصبوا مضيق الدردنيل وفتحوا أدرنة عام ١٣٦٠ ، وفي فترة ما بعد الحروب الصليبية كان للفكر الغربي لا يفتأون يهيجون خوطر الشعوب الأوروبية ويحرضونهم على عمل مشترك يقومون به لهدم الإسلام ولا سيما في فلسطين ، وجاءت الدعوة إلى التوقف عن مقاتلة المسلمين بالسيف ومقاتلتهم بالنجارة بما يسمى حرب الإسلام بمشروع كارلوس الثاني ملك صقلية ، وتوالت للشروعات بعد هودة حكا إلى المسلمين عام ١٢٩١ وكانت كل الخطط تستهدف توحيد الغرب في وجه الإسلام . يقول (البابا ما كسيميليان) أن السلطة التركية قد تبسطت تبسطا هائلا بسبب بذلتنا إلى حد أننا أصبحنا لا نقدر أن نقف في وجه أعدائنا إلا إذا اجتمع ملوك المسيحيين بأسرهم لصد هذا العدو بمناصبته القتال برأ وبجرأ ، ولما كنا على ثقة بأنه لا يوجد في المسيحيين ملك يقدر أن يقاوم سلطان الترك منفرداً بقوته كان لا مندوحة من أن ندهوم جميعاً .

وتشكل الحلف المقدس تحت زعامة البابا لمقاتلة الأتراك : ٢٥ مايو عام ١٢٧١ وأطلق عليه الحلف المسيحي الثالث عشر : مكونا من البابا بيوس الخامس وفليب ملك أسبانية وجمهورية البندقية ، هدفه إعلان الحرب الهجومية والدفاعية على الأتراك لاسترداد جميع للواقع التي (اغتصبوها) من للمسيحيين ومن جهتها تونس والجزائر وطرابلس . ولما هزم العثمانيون في ليبيا : أرسل البابا ينير المسلمين على تركيا وكتب إلى شاه المعجم يقول : أنه لن يجد فرصة أحسن من هذه الفرصة من أجل الهجوم على العثمانيين ، ولكن هذه الرابطة لم تلبث أن انحلت وصالحت البندقية الباب العالي . ولكن خطط التآمر والاتقاض لم تتوقف ، وفي ظل هذه الحلات الموجهة من الغرب إلى العثمانيين نشأت الأجيال للتوالية في أوروبا على هذا الحقد وهذه الكراهية وتجددت للشروعات التي ترمي إلى محو تركيا والإسلام بأسره ، وكان نابليون قد درس تقسيم السلطنة العثمانية مع الروس وكان يرى أن يستولى على القسطنطينية وقدم تاليران إلى نابليون في ١٧ أكتوبر عام

١٨٠٥ مشروعا بتقسيم السلطنة ، وتمددت المطامع والخطط حتى قال فندال : أنه لم يكن في ذلك الدور رجل سياسة إلا وعنده برنامج بتقسيم لسلطنة العثمانية ، محتفظ به لوقت الحاجة . وتوالت منذ ذلك الحين الحروب على الدولة العثمانية في محاولة لاستخلاص الاجزاء الأوروبية ، وفي عام ١٨٣٠ بدأت الضربات توجة إلى الاجزاء العربية حيث احتلت فرنسا الجزائر وهدمت روسيا إلى السيطرة على الاجزاء المجاورة لها فوصلت إلى أدنه وأجبرت الباب العالي على قبول شروطها عام ١٨٧٨ هنالك عقد مؤتمر برلين : أخطر محاولة لتزيق الدولة العثمانية أو « نهب » أملاكها كما صوره كثير من المؤرخين .

يقول أرنولد توينبي : أنه بعد فشل الاتراك أمام فيينا عام ١٨٩٣ كان يجب أن يتم الهجوم المماكس الغربي على العالم الإسلامي في يوم وآخر ، وقد أجاب العالم الغربي على استيلاء الاتراك على المسيحية والأرثوذكسية الشرقية في القرنين الرابع والخامس عشر بتأمين سيادته على البحار لتطويق البلاد الاسلامية هوضا من مقاتلتها وجها لوجه وكانت فكرة بمالة المسلمين العسكرية تفرض الحذر على الغربيين وتشدد هزائم المسلمون أنفسهم لتجعلهم واثقين من أنفسهم بأن وراثته أوروبا عداوة اترك ما كانت إلا لانهم كانوا آخر كتيبه من كتائب الإسلام منذ ثلاثة عشر قرناً صدمت جدار الحصن المنيع الذي اعتصمت به أوروبا المسيحية منذ طادت أدرابها مهزومة في معركة صليبية ثم نفدت منه وترك كلمة الله تعلو فوق شواحق جباله .

(٣)

كان مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ أول محاولة لغرس السكين في جسد الدولة العثمانية فإن بسمارك الذي كان سيد الغرب في هذا الوقت بعد أن هزم فرنسا وضمها إلى بروسيا ، وبعد أن سلم نابليون الثالث سيفه لملك بروسيا وانهارت الامبراطورية للفرنسية الأوروبية عام ١٨٧٠ وحيث أقتطعت الإلراس وجزء من اللورين من فرنسا ، وتضعفت قوة النمسا وانهزمت الامبراطورية النمساوية البحرية أمام قوة بروسيا ، انبعثت من جديد فكرة التحالف الأوروبي المقدس ومحاور اقتطاع أملاك الدولة العثمانية خاصة الاجزاء الأوروبية منها في البلقان وآسيا الصغرى ولذلك فقد جمع بسمارك بين إرضاء مطامع روسيا والنمسا بإعطاء الأولى الاشراف على شرق البلقان والاخرى غربي البلقان على أن تذهب انجلترا إلى شرق البحر المتوسط وإلى مصر وأن تستعيز فرنسا عن الإلراس واللورين وموريا وتونس

وكانت فكرة بسمارك تستهدف تقسيم أراضي الدولة العثمانية لارضاء الدول الكبرى في أوروبا بمحاظنة على تفوق ألمانيا في القارة الأوروبية ووجد في وضع هذا الحل الدسالة الشرقية وسيلة يسترضى بها الدول الكبرى ، وقد حضر المؤتمر الذي عقدته ألمانيا ، والنمسا ، والمجر ، وفرنسا ، والمملكة المتحدة وإيطاليا وروسيا وكانت أهم الشروط تمحور بر بلغاريا والبلقان والجبل الأسود والبوسنة والمهرسك والعرب ورومانيا ، وأن يتنازل الباب العالي لروسيا في آسيا عن أراضي أردهان وفارص وبالطوم وأن يعلن الباب العالي رغبته في منح حرية الاعتقاد الديني وإلا يجب أن ينف الاعتقاد الديني عقبة في سبيل الحقوق السياسية والدينية وتعترف بحق القنصل في حماية رعاياهم ، وهكذا كان مؤتمر برلين أقوى ضربة وجهت للدولة العثمانية من حيث :

أولاً : تفعيم ممتلكات الدولة في البلقان بين الدول الأوربية . ثانياً : دهم نفوذ الامتيازات الأجنبية في الدول العثمانية ، حيث وسعت نفوذ القنصل ، ذلك النفوذ الذي سيعمل على قتل كل حركة إصلاح سياسي واجتاهي واقتصادي أو تشريعي في الدولة العثمانية وسيعمل على تدهورها النهائي . ثالثاً : فرض حماية الدول الأوروبية على شعوبها للسيحبة للقيمة في الامبراطورية وتأليبها على الحكم العثماني (انجلترا البروتستانت فرنسا الكاثوليك ، روسيا : الأرثوذكس ، هكذا كانت معاهدة برلين ١٨٧٨ هي الخطوة النهائية لتحزيق الامبراطورية العثمانية وهذه هي للرحلة التي بدأ فيها القتال بسلاح السياسة وهو السلاح الذي استعمله بيراهة السلطان عبد الحميد خلال الأربعين سنة من حكمه : لقد ثارت الأجزاء الأوربية وعمدت إلى الانفصال ولكن الخطر كان في تدافع روسيا وانجلترا للسيطرة على الأجزاء العربية في مصر والسودان والجزائر وتونس وتدافع روسيا للسيطرة على الأجزاء الإسلامية الآسيوية وهذه هي طبيعة للرحلة التي بدأت ١٨٧٨ واستمرت أربعين عاما حتى نهاية الحرب العالمية الأولى والتي انتهت بتصفية الأجزاء العربية الإسلامية من الدولة العثمانية والسيطرة الفعلية على العالم الإسلامي كله ، وقد ظهرت حركة الجامعة الإسلامية في محاولة من السلطات عبد الحميد لتجميع المسلمين كرد فعل لهذا المؤتمر والأخطار التي تجمعت منه وخاصة الحرب الروسية التركية واتساع أطماع فرنسا وانجلترا ، فقد كانت الدعوة إلى اتحاد المسلمين خارج الدولة العثمانية معها نحت لواء اخلافة من الحركات القوية التي هزت عالم المسلمين تدافعا إلى الوحدة والمقاومة ، كما هز عالم الغرب وآثار مخاوف لاحد لها ، مما دعا إلى العمل السريع على أقصاء السلطان عبد الحميد وهدم محاولته وكان السلطان عبد الحميد قد اتخذ سلاح السياسة وتأليب العلاقات بين دول أوروبا وسيلة للحيلولة دون تجمع الغرب على العالم الإسلامي

وتركيا ومن ذلك عمله في كسب نفوذ ألمانيا بعد بسمارك ، ووضع مشروع سكة حديد بغداد والعمل على ربط برلين باستانبول ببغداد لمقاومة نفوذ إنجلترا في الشرق الأدنى والأوسط ، وقد كان لهذا الاتجاه أثره في مخططات إنجلترا ومطامعها ، مما ادعاها إلى العمل السريع للقضاء على الدولة العثمانية بانتزاع العرب وهم شطر الدولة إلى صفهم وخداهم والقضاء بهم على الدولة العثمانية في الأجزاء العربية (الحجاز — الشام) وكانت الصهيونية من وراء هذا الاتجاه كله ، باختيارها صاحبة رهوس الأموال الربوية العامة في مجال التجارة ومن حيث مطامعها في السيطرة على فلسطين التي حال السلطان عبد الحميد دون تحقيقها .

(١٨)

محاذير العزو الفكري

لا نستطيع أن نفهم مؤامرة الغرب على الدولة العثمانية دون أن نكشف عن ذلك الجانب الخفي الذي صورته كثير من المؤرخين بأنه كان عاملا هاما من عوامل هزيمة الدولة : ذلك هو استغلال الغرب سماحة الدولة العثمانية في إعطائها أهل الأديان الأخرى حرية العبادة وإسباح الحارق أمامهم في المساواة الاجتماعية وكان مصدر هذا ومنطلقه منح الامتيازات للدولة الأجنبية ، بمعنى السماح لكل مذهب بحرية ممارسة طقوسه وعبادته وإعلان حرمة الأديان وإعطاء كل طائفة الحق في إنشاء مدارس خاصة بها ، فإن معنى ذلك ، وخاصة بعد أن أهدنت كل دولة في مؤتمر برلين إنها تحمي رعاياها مذهب من المذاهب للمسيحية داخل الأمبراطورية ، كان معناه كما صورته المؤرخون الغربيون أنفسهم ، أنه عامل أدى إلى انهيار الجسور الأخيرة التي ضمت المملكة العثمانية فقد فتح الباب واسعا لإزاء الطوفان الثقافي الذي نبع من الغرب ودفع على هيئة تيارات قوية عبر المسالك التي فتحتها أوروبا إلى الشرق . ومن أهم من أشار إلى هذا المعنى وأولاه حناية كبرى (بول شنتير) مؤلف كتاب (الاسلام قوة الفذ العالمية) حين قال : لقد بدأت حقيقة تاريخية تنساب فيها الموجات ذات الأثر الفعال الذي سيقرر مصير العالم الاسلامي بالنسبة لاستمرار التطور ، فلأول مرة في تاريخ الاسلام ، يصو بين المسيحي والمسلم في قانون مدني في دولة إسلامية ، لقد قصد الباب العالي بهذه التسوية عام ١٨٥٦ أن يلعب بها دورا في الأرجوحة السياسية في عالم الصراع بين القوى الكبرى ، غير أنها ، كلفتها

كثيراً ، فقد انتقصت من سلطاته المطلقة وأضعفت هيئته داخل المملوكة وفي أوساط المواطنين المسلمين ، وتحت ضغط القوى الغربية اندفع فيضان التجديد إلى أبعد من هذا ، ففي أواخر العقد الخامس فوجئ الشعب باصلاحات في القضاء وفي الأجهزة للبلية ولم يتوقف عند هذا الحد بل واصل تقدمه فحصل لبنان على نظام جديد منح المسيحيين امتيازات جعلت كهم راجحة حل كفة غيرهم ، وهكذا يرى شتير إن اضطرار الدولة العثمانية تحت ضغط الدول الأوروبية إلى السماح لكل الطوائف بحرية النشر وحرية التعليم لم يحقق أثراً إصلاحياً بين المواطنين بقدر ما فتح أبواباً أخرى أمام النفوى الغربية للسيطرة وإن تجرية تركيا التي بدأها السلطان محمود بالاستعانة بالمناهج الغربية كانت وبالاهلها . ويقول إن : (العقل الأوربي الذي استعانت به تركيا ليساعدها في تنفيذ البرامج الإصلاحية كي تستطيع الدفاع عن نفسها وتتمكن من الوقوف ضد الهجوم عليها لا يستطيع أحد التخلص منه أبداً ، أهمل الامتيازات ونال من الغرض ما يمكنه من تثبيت أقدامه فوق هذه الأرض) .

وقد ظل دعاة التغريب يخادعون المسلمين والعرب في كل مكان بهذه الفكرة المسمومة ، وذلك قولهم : « إن الطريق الوحيد لمحاربة الغرب هي استعمال أسلحته » ، ولقد كانت تركيا قد أثبتت بتجربتها فسار هذه النظرية ، ومع ذلك فإن الدول الإسلامية والعربية لم تفت من نفس الحجر صرات دون أن تفيق إلا منذ سنوات قليلة وبعد هزيمتها الساحقة عام ١٩٦٧ بل إن خطة السلطان محمود في اصلاح الجيش طبقاً لنظام الأوربي عام ١٨٢٩ م هي التي فتحت الطريق أمام الشباب العثماني إلى أن يقع فريسة القوى التغريبية تحت اسم حرية وإخاء ومساواة وما إليها من مبادئ الثورة الفرنسية وفلسفة كانت وغيره ذلك لأنهم ، ذهبوا إلى أوربا خواء من مفهومهم الإسلامي ومن أرضية فكرهم الأصل فوجدوا الجو مهيباً لغزوم والسيطرة عليهم تحت أجنحة المحافل الماسونية التي كانت تقربهم وتلقفهم لتحطم بهم الدولة العثمانية والخلافة والجامعة الإسلامية ، وقد أتاحت هذه الفرصة ، فرصة الإفتتاح الثقافي الغربي ، إلى قيام الجمعيات السرية والمحافل الماسونية تحت نفوذ الامتيازات وفي المناطق البعيدة عن الرقابة ، وأفرخت قوى التآمر على الدولة العثمانية والجامعة الإسلامية في داخلها ، وخاصة في سالونيك ، وعندما تنبه السلطان عبد الحميد إلى هذا المخطط الرهييب كان الوقت متأخراً ، كان جماعة مدسحت ممن سمو الأحرار كانوا قد زادو نفوذهم في داخل الجيش ، وكانت جماعات منهم قد تركزت في فرنسا وغيرها ، وبدأت الحرب أزاء دعوة الخليفة إلى تجميع المسلمين في كل مكان تحت لواء الخلافة ، هذا الخطر الذي هدد الغرب وأفرجه فأمرع بالتآمر على السلطان وانزاعه من مقعده

وكانت الصهيونية قد حاولت معه محاولتها المأثرة في الوصول إلى فلسطين ووقف في وجه المؤامرة سامداً وهو يعلم أنها مستطيع به . يقول شميث : إن السلطان محمود آمن بأن أوروبا لا يمكن أن تغرب وترد إلى ديارها إلا بسلاح أوربي ، وهذا ما يقوله توينبي أيضاً ولكن : هاب عنهما وغاب عن السلطان محمود ، ومن يرى هذا الرأي من زعماء المسلمين أنه لابد من بناء العقل والنفس الإسلامية المؤمنة وفق مفهوم الجهاد في الإسلام والدفاع عن عرينه ، قبل أن نمسك بهذا السلاح الذي لا يستطيع أن يكون إلا سلاحاً إسلامياً ، ولكن الذين ذهبوا للتدريب على الأسلحة الأوروبية ذهبوا وتلقبهم خواء من إيمانهم بأنهم ، لقد ذهبوا وهم جاهلون مدى حقد الغرب عليهم وآمره على دولتهم القضاء عليها كقدمة لضرب الإسلام نفسه .

وفي الوقت الذي عاشت فيه أوروبا أكثر من مائة سنة يحج الروح الصليبي المنتهض أمام الإسلام ذهب العثمانيون التقدميون إلى الغرب وهم عزل من كل سلاح ، ذلك بأنهم لم يكونوا قد آمنوا بأنهم ولا هقيبتهم بالقدر الكافي الذي يحميهم من الاحتواء الغربي لحساب الصهيونية العالمية والاستعمار . وقد نسوا أنهم كانوا يرهبون أوروبا أكثر من أربعة قرون ، وهام قد جاهدوها مقدولين للسلاح الحديث والصناعة العسكرية ، وكيف يمكن للغرب أن يعطيهم أسرارها وهو الذي سبقهم فيها ليضربهم بها ، فلم يعقل أن يعطيهم إياها ليقفوا على أقدامهم مرة أخرى ويواجهوا الغرب ، إن هذه هي النقطة الوحيدة الفاصلة بين هزيمة العثمانيين وانتصار الغرب أصبحت موانع تركيا لا تصل إلى الغاية إلا إذا قذفت بألوف القذائف ، أما الغرب فقد تمكن من أن يهزمهم بأقل من ذلك ، لقد استطاع أن يطور أسلحته فتكون بميدة المدى ويطور حاملاته فتكون قادرة على العمل السريع ، ومع هذا التطور « هقيبة » هي مقاومة الغزو الإسلامي ، أما الأتراك في هذه الفترة فقد استقاموا إلى الانتصارات الماضية والتاريخ القديم وأخذوا يدخلون مرحلة الضعف . وهذه هي المفارقة : القوى التي سقت الغرب كذؤوس المنلة ، تعود مستجدية ، وتضعف حتى تسمح لأعدائها بإدخال ثقافتهم لفتح الطريق لنفوذ خطير ، تحت اسم ستاحة الإسلام ، كيف يمكن للسماحة الدينية في أمور الأقليات أن تكون وسيلة لضربها من الداخل . إن الاتجاه إلى إقامة علاقات مع أوروبا — كما يقول بول شميث في معالجته الخطيرة لهذه القضية — كان يحمل في طياته محاولة للدفاع ضد التيار الغربي فقد كان الأمل بواسطة هذه المعاهدة أن نمسك الدولة العثمانية بزمام التأثير الغربي الذي يزداد كل يوم وأن تراقبه لتكون على علم بخطواته ومسالكه التي يتخذها للوصول إلى أغراضه وذلك حتى يمكن إبعاده عن النقطة التي يصبح فيها خطراً

على وجود السلطة الحاكمة لتركيا القديمة . يقول « فهم الباب العالي كيف يلعب بهذه السياسة بين القوى الأوروبية المختلفة ويوقع بينها على مدى عشرات السنين وتحت ظل هذه العداوة التي وقعت بين الدول الأوروبية » ولكن ثبت خطأ هذه التجربة التي أرادها السلطان بنقل الحضارة الغربية إلى تركيا فلم يكن لدى البلاد مقومات استقبالها وهنالك عناصر التفاهل معها ودخل النفوذ الأجنبي من هذا المنفذ ولم يلبث أن انسم وسيطر عن طريق الإرساليات التي أنشأها هذه الجماعات الكاثوليكية والبروتستانتية والأرثوذكسية التي كانت في الواقع تمثل الغزو الفكري لفرنسا وإنجلترا وروسيا فقد عمت الدول الثلاث إلى إعلان حمايتها للعناصر الأجنبية ووضعت في موضع ممتاز يجعل لها القدرة على حرية الحركة دون رقابة من الدولة العثمانية وبذلك فتح طريق آمن للقنصل لضرب الدولة من الداخل . كانت الخطة هي استقطاب الأقليات وهي بطبيعتها خصيصة للدولة الإسلامية تحت دھوة طامحة لإحلال المنصرية التركية مكان الوحدة الإسلامية وقد اختير لها اسماً قديماً هو « الطورانية » وحل في تركيا دماء إلى إعادة بث تاريخ الأتراك قبل الإسلام ، هذا بالإضافة إلى الجماعات التي سافرت إلى فرنسا وصيغت في إطار الثورة الفرنسية ، وكانت هناك الحفائل الماسونية التي تنمو في سالونيك القادرة على احتضان هذه الجماعات وخاصة جماعة الاتحاد والترقي التي أفرخت حزب تركيا الفتاة . وفي الطرف الآخر أثبتت الفتنة في لبنان ، بين الدروز والموارنة على نحو دفع الدول الغربية إلى التدخل وإقامة كيان مستقل بإشرافها تنفصل فيه إنسان عن الدولة العثمانية انفصالاً يمكن الدول الأجنبية من إهدادها لرسالة التبشير والغزو الثقافي حيث سيطرت عليها قوتين : قوة فراسية وقوة أمريكية ، بدأت العمل فور خروج القوات المصرية من الشام ، وكانت الإرساليات الأمريكية قد زحفت نحو استانبول ونحو القاهرة وأقامت قواعد في ظل الامتيازات وباسم تعليم الأقليات النامية لها ، هذه الخطة التي تمت وأصبحت في عهد السلطان عبد الحميد هام ١٨٦٠ تشكل خطراً معقداً ، قوامه :

- (١) اليهود الدوغة في سالونيك ومحافلهم الماسونية . (٢) الإرساليات التبشيرية في فرووها المختلفة وما تحنويه من شباب المسلمين والعرب . (٣) جمعية الاتحاد والترقي وإحتواء الحفائل الماسونية لها . (٤) الأقليات الأجنبية وتعاونها الداخلي والخارجي .

(١٩)

مخطط المؤامرة

كانت المؤامرة استعمارية صهيونية شيوعية ، أو صليبية يهودية ماركسية ، تجملت فيها كل القوى المعارضة للإسلام والراغبة إلى تمزيق عالم الإسلام واحتوائه . ففي الوقت الذي كانت دول الغرب (الحلفاء) تضرب المسلمين الأتراك بالمسلمين العرب ، كان السكسب للغرب لا للعرب ولا للمسلمين ، ولم يكتبه العرب الذين ضربوا أخوتهم المسلمين لذلك إلا متأخراً جداً ، كان الهدف إفساح المجال لتقدم الصهيونية في فلسطين ، وعندما دخلت القوات العربية القدس خلفاً للأتراك كان الورد النبي أسبق منهم إلى القول بأن الحروب الصليبية قد انتهت ، وأن هدماً جديداً ، ليس هو الدولة العربية الموهودة وإنما هو الاحتلال والانتداب والصاية والتقسيم ، كانت كل خطوات هر تزل قد امتدت في حركات لورنس ، الذي كان يخدع العرب ويلبس لباسهم وينكلم لغتهم ، والذي كان يستخدم الاستعمار الغربي ظاهراً ولكنه كان في أعماقه يعمل الصهيونية ، لذلك فإن المؤرخة الصهيونية التي هلت يوم دخل الإنجليز القدس عام ١٩١٧ كانت تعرف ما هو متفق عليه بين الاستعمار والصهيونية وهو أن القدس متسلم إلى أيدي اليهود بعد قليل ، وإن كانت قد سلمت رسمياً بعد خمسين عاماً ، عام ١٩٦٧ ولقد كان النجاح في إسقاط الدولة العثمانية وتمزيقها إنما يعني « إسقاط الدولة الإسلامية القائمة على الشريعة الإسلامية » وإقامة القوميات التي ينظمها القانون الوضعي والعلمانية ومناهج التعليم التي أهدتها الارصاليات مسبقاً ، وحين دخل الاستعمار البريطاني مصر والسودان ، ودخل الاستعمار الفرنسي الجزائر وتونس ، فقد انطوت صفحة النظام الإسلامي بها جميعاً لأول مرة منذ ظهور الإسلام وحل به القانون الوضعي والمصرف الربوي والديمقراطية الغربية بفاهيمها ومناهج التعليم العلمانية . ولذلك فقد كان إسقاط الدولة العثمانية حلماً من أحلام الغرب :

الغرب بمختلف قواه استعمارية وصليبية ، وماركسية ويهودية وصهيونية ، وهو حلم تحقق على مراحل ثلاث : (١) إسقاط السلطان عبد الحميد . (٢) تمزيق الدولة العثمانية بعد الحرب الأولى . (٣) إسقاط الخلافة الإسلامية ، على مرتين : الأولى بفصل السلطنة عن الخلافة ثم إسقاط الخلافة بجملة . وكان ذلك يعني « تدمير » ذلك العقد الذي يربط الأمم الإسلامية وبزيل تلك القيادة ، فتصبح هذه الأمة بدداً و « تمسكين » الاستعمار من إلتهاها جزءاً جزءاً ، ولقد كان تمسكها

الغرب على الغنينة واضحاً ، وكانت الدهوة التي بنها التفريغ في تركيا لبعث العرق الطوراني ، مقدمة لمثلها على الجبهة العربية لازاحة الاسلام وإحياء المنصرية باسم العروبة الجاهلية أو العروبة العلمانية ، وكان الهدف من هذا كله هو تدمير القوة الباقية باسم الاسلام والجامعة للمسلمين تحت لواء الخلافة ، والقضاء على النظام الاسلامي كمنهج مجتمع وإثارة المصبيات والقوميات والاقابيميات في مختلف أنحاء العالم الاسلامي . وقد أمكن تحقيق خطط كبير في أبعاد خمسة شملت العالم الاسلامي كله تمثلت في : أولاً : تحويل الدولة العثمانية والمسلة الحاكمة بكشاپ الله والجامعة للعرب والترك المسلمين إلى دولة منصرية وذلك بإثارة الدهوة الطورانية التي وكانت ثمرتها جماعة الاتحاد والترقي التي أسقطت بالاشتراك مع الماسونية والدعوة الخليفة عبد الحميد وأعدت الدولة الدخول في مرحلتها الجديدة التي برزت في صورتها السكاملة بعد الحرب بقيادة أتاتورك وبذلك انتقلت دولة الخلافة إلى دولة علمانية تحكم بالقانون السويسري . ثانياً : أوقعت الخلاف بين عنصرى الدولة الاملاية : العرب والترك ودفعت الاتحاديين إلى التساط على العرب والعمل على تتركهم ودفعها دفعاً للتخاض من رابطة الوحدة الاسلاميه مع الترك وإقامه المشاق لهم لتعميق الخلاف والخصومه وكان قائم هذه المعركة (لورنس) لحساب الاستعمار الغربى ظاهراً ولحساب الصهيونية أساساً . ثالثاً : مكنت الصهيونية من أن تحقق حلمها في الوصول إلى القدس بعد ثمانية عشر قرناً وبعد أن أخرجها الرومان عام ٨٠ ميلادية وهدم الهيكل ، استطاعت جماعة الدعوة المقيمة في سالونيك إهداد خطه طويلة المدى بالدخول في الاسلام والعمل على احتوائه من الداخل وإقامه الحافل الماسونية لتدمير الخطط السرية لضرب الخلافة والدولة الاسلاميه والسيطرة على كل الحركات الوطنية والقومية واحتوائها حتى تمكنت هذه القوة من عزل الخليفة وفتح الطريق إلى القدس بواسطة أوليائهم الاتحاديين . رابعاً : لتحقيق الغاية الكبرى بإدخال الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى دون أن يكون لها أى مصلحة أساسيه في صف الألمان وهزيمتها وتزيقها وإهدادها لاسقاط الخلافة وإقامه نظام ديمقراطى غربى يستأصل الاسلام ، ولقد كان القضاء على الوحدة الاسلاميه في كل صورها وأشكالها هدفاً أساسياً للإستعمار والصهيونية والروس قبل إعلان البلشفية وبعدها . خامساً : تحقق للدولة الروسية تنفيذ وصية بطرس الأكبر بالسيطرة على أجزاء واسعة من العالم الاسلامي والزحف في اتجاه المياه الدافئة والوصول إلى قلب العالم الاسلامي .

(٢٠)

أولا : الطورانية وتعميق خلاف القوميات

نحويل الدولة العثمانية المسلمة الحاكمة بكتاب الله والجامعة للعرب والترك المسلمين إلى دولة عنصرية ، وذلك بإثارة الدعوة إلى الطورانية ، التي كان ثمرتها جماعة الاتحاد والترقي التي أسقطت بالاشتراك مع الماسونية والدعوة الخليفة عبد الحميد وأعدت الدولة للدخول في مرحلتها الجديدة التي برزت في صورتها السكالة بعد الحرب بقيادة أتاتورك وبذلك انتقلت دولة الخلافة إلى دولة علمانية تحكم بالقانون السويسري ولقد استخدم الغرب في أحداث هذا الانقلاب العسكري المظاهر رابطة العنصرية وآثار حولها الإعجاب الشديد لتحل في النفس التركية بدلا من رابطة الاسلام واستخدم في سبيل ذلك كل وسائل الإغراء والكذب والإدعاء واصطنع لها حاشاة من الروس والدولة العثمانية مليئة إذا ذاك بالعناصر ، فاستخدم يوسف أقجورة ، وأحمد أغايف ، وضياء ألب ولقد كانت سياسة روسيا العنصرية التي أعلنها بطرس الأكبر والتي تستهدف استعمار الولايات الآسيوية ، وطرد المسلمين من أوروبا وسحق الدولة العثمانية قد ولدت هذا التفرق من الحاقدين الذين استغلهم هذه الحركة التي أدارها الاستعمار والصهيونية من وراء ستار المحافل الماسونية . فانفجرت في الدولة العثمانية حرب العنصريات القومية ، وجرى إعلانها على رابطة الإسلام وحرضهم هؤلاء على العودة إلى التاريخ القديم البائد السابق للإسلام : تاريخ طوران فجده هؤلاء وبعثوه ونشروه أما العثمانيين فاستجاب لهم بعض المندوبين وقد اتصل هؤلاء بالقوى الغربية تحت اسم الموم العصرية والثورة الفرنسية وأسماء حرية وأخاه ومساواة ، ودانت صيحة الجنس والدم هلوا شديداً حتى يقول ضياء ألب : إن الشعوب الذي يجري في دمي هو صدى ماضي ، وأن أعمال أسلافى الحميد أتمس آثرا في الدم الذي يجري في عروقي وفي قلب أتيليا وجنكيز خان وهما ، معجزة جندي ومظهر عظيمة مسارية لمظيمة الإسكندر وقيصر . كانت هذه الخطوة هي نقطة البدء في الفصل بين الإسلام وبين الجفسيات والقوميات ثم كانت مع تركيز شديد من عوامل الفصل بين العرب والترك وبين العروبة والإسلام وإهلاء صيحة الأجناس والعروق والدماء على رابطة المقيمة والفكر والثقافة الجامعة للعرب والترك تحت لواء الاسلام وحضارته . إن القوى الأجنبية لم تسقط الدولة العثمانية عن طريق التآمر وأساليب التهديد قرونا طويلة كما عجزت عن مواجهتها بالحرب وكان في تقديرهم أن

عربا صليبية عسكرية قد لا تنجح، ولقد كان السلطان عبد الحميد قد حسب لهذه الخطوات كلها حسابا دقيقا، لذلك فقد كان الغزو الشفائي من طريق إعلاء العنصرية والدماء والتفريق بينها، هو الأسلوب الذي حقق لهم غايتهم، ولقد أوتيت الدولة العثمانية من وراء قوى لم تحسب حسابها ولم توضع في ميزان التقدير الصحيح فقد كانت سالونيك وكانت المحافل الماسونية غير خاضعة للدولة وفيها باضت وأفرخت هذه المؤامرات والدهوات، كان السلاح الذي استغل استغلالا كبيرا هو سلاح المصير: سلاح القوميات في الوقت الذي كانت أوروبا كلها تغلي بالنمرات القومية، وفي البلقان عندما أثارت الدول الأوروبية النعرة القومية ونجحت، وجدت أنها تستطيع أن تتخذها أسلوبا لضرب وحدة الترك والعرب الإسلامية، وكانت سالونيك تغرب الدرة في مركز قيادتها، وفي بيروت كانت تضرب الجبهة العربية كلها، ولما تولى الاتحاديون الحكم عمقوا المؤامرة فأعلنوا تفريك العناصر، وتفريك العرب فكان لذلك أثره العميق عند العرب الذين حاولوا أن يرفعوا راية المروية في مواجهة هذا الخطر وبذلك استطاع الاستعمار والتفريب أن يدخل القوتين في نطاق الصراع العنصري: صراع الدم والعرق. وتنافع المستشرقون يؤلفون ويسكتوبون من تاريخ طوران: وما للقبائل التركية القديمة من تاريخ ولغة وخصائص وحياة اجتماعية ومن أبرز هؤلاء الذين تصدر للعمل: غولوسكي وقره جون وماوان هارتان.

كان هدف الداهيين لبث العنصرية الطوارنية: هو تدمير الوحدة العثمانية ولذلك فإنه بعد إعلان الدستور مباشرة عام ١٩٠٨ كتب حسين مجاهد في صحيفة طنين أن الأمة التركية كانت وستظل الأمة الحاكمة في السلطنة العثمانية فلا مجال للاعتراف بمقوق مساوية للعناصر العرقية الأخرى: أي العرب وهذا ما دفع العرب إلى الارتقاء في أحضان الاستعمار الغربي وقد جاء هذا بعد سياسة عبد الحميد الحكيمة التي كانت تعمل على تقريب العنصر العربي. ولا ريب كانت حركة الوحدة الإسلامية هي الخطر الأكبر الذي أريد القضاء عليه، فقد كانت الحاحز الأكبر دون تمزيق الدولة العثمانية وتنفيذ الاستعمار لمخططاته، وتقسيم التركة، ومن ثم كان التركيز على البلاد العربية وفصلها عن الدولة العثمانية مقدمه لتوزيعها. وفي سبيل إعلاء شأن الطوارنية، أخذت هذه القوى النازية تبحث وتنتقب عن آثار الحثيين والتمول وجعلوا ينبرون من كل أثر عربي أو غريب من دماءهم ولعنتهم، ويعلمون أنهم كالمصريين والإغريق والرومان والقسماء العرب شعب ذو حضارة قديمة وآثار خالدة متأخرين بأنهم ينسبون إلى جنس كيز خات ونيموراك وهو لا كور.

ومضت حركة المنصرية في طريقها فعمد الاتحاديون الطورانيون الجدد إلى تطهير اللغة التركية من كل ما هو عربى وإلى نحو الجنسية العربية وإدماجها في الجنسيات الأخرى وجعل الجنسية التركية مستقلة عن الإسلام . ويشير أحد الباحثين : « إلى أن أبولوجية النزعة الطورانية هي من صنع المستشرق المجري (فابري) بين (١٨٦٨ - ١٨٧٤) وتبناها الإنجليز فعملوا على تسكين كتلة منصرية من الأتراك العثمانيين وأتراك الشرق ليحيطوا بها النفوذ الروس المتزايد في آسيا الوسطى ثم غير الإنجليز سياستهم وأبدوا سيطرة الروس على أتراك آسيا . وكتب (هنرى نورمان) أثناء الحرب الكبرى عام ١٩١٨ أن اتحاد الترك ، إذا تم تحت إشراف الألمان فإن أتراك إيران وهم أهل قتال مع أتراك قفقاسياً فإذا وثقوا علاقاتهم بالعثمانيين فإن ذلك يكون خطراً على مركز الإنجليز في الهند . يقول الباحث : « وقد كانت فكرة الجامعة الطورانية وافدة من الخارج وصعبة التحقيق لانعدام الوحدة الجغرافية والاجتماعية في موطن الترك . كانت الطورانية التي دافع عنها بعض الترك وخاصة ضياء كوك ألب أجنبية النشأة فإن جماعة من المجريين أرادوا التوقف في وجه التيارين القوميين الذان يحدان بهما وهما تيار الجامعة الألمانية وتيار الجامعة الصقلية أبتدعوا لذلك فكرة التوارنية (الترك واللؤلؤ) بينا الشرائط الجغرافية والاجتماعية لا تساعد على إتمام الاتحاد بين هذه العناصر ، وكانت المحاولة في إقامة امبراطورية تركية متجانسة يعتمد الحكم فيها على النظام المركزي ويقوم مقام الامبراطورية العثمانية القيدالية ، كان تحقيق هذا الحكم يقتضى تبريك الشعوب الخاضعة له ولذلك عملوا على تمثيل هذه الشعوب فاصطدم الاتحاديون بالعرب وفي سوريا تعرض العرب بدورهم لسياسة التبريك فلما قاوموها إذاهم يسامون صنوف العذاب والتنكيل على يد الاتحادى المنصب : أحمد جمال باشا الذى أهدم العرب وعمل على تشوية بطولاتهم في كتابه (حقيقة المسألة السورية) فقد زعم أن للمسألة ليست مسألة القومية العربية واسكنها نعمة الخيانة العظمى .

ويرد الباحثون هذا التيار الذى حرص الاتحاديون على السير فيه إلى ما قام به المجلس العلمى الفرنسى سنة ١٩١٦ في التنويه بكتاب ظهر عام ١٨٩٦ من تاريخ الترك والمغول في آسيا ابتداء من نشأتهم إلى عام ١٤٠٥ لتوفى كاهون (وهو يهودى) وكانت هذه التحية من المجلس العلمى الفرنسى إشارة توجيه إلى الاتحاديين الذين أولوا اهتماماً كبيراً بالكتاب واقتنوه دستوراً لخطتهم الطورانية ، وقد كان ظاهر الدعوة أن الأتراك يريدون إحياء الروح التركى القومى مستغلاً من الإسلام وهم يعتمدون على عبارة مضللة للمستشرق فبرى اليهودى الجبرى الذى قال : لا وطن في الإسلام . لقد كان الهدف خطيراً وبعيد المدى في تمزيق وحدة الفكر الإسلاميه القائمة على جماع

القوميات تحت لواء الإيمان بالله وتحت جامعته لا إله إلا الله التي هي أعلى من كل رباط قومي أو جنسي وكان الهدف أن ينفصل الدين عن الدولة ، وكان الهدف أن ينفصل الترك عن العرب ، وأن تقوم دهوات لكل جنس تحت لواء الجامعة الإسلامية للمطالبة بكيان خاص وعلى الاستمرار أن يثير هذه الأجتناس ويجرّضها لتضرب بعضها بعضاً ولقد استعمل هذا الاتجاه من بعد ووصل الغاية ويمكن لقومية دخيلة هي القومية اليهودية وكان ذلك تمزيقاً لوحدة هذه الأمة وتفرقة لسكنتها وتوزيعاً لاجرائها بين اليهود والفرنسيين والإنجليز . وقد كان لهذه الحركة أثرها في إحياء التاريخ القديم السابق على الإسلام ليس تاريخ الطورانية وحدها ولكن الفروانية والبابلية والفينيقية والآشورية وغيرها ، بعد أن مات هذا التاريخ ووقع الانقطاع الحضاري أكثر من أربعة عشر قرناً ، ولقد كان من أثرها أن اتجه العرب إلى الدهور لعروبهم فالتسوا مناهج القومية الغربية القائمة على عوامل معارضة لمفهوم العروبة للارتبط بالاسلام وإعلاء شأن القوميات والاقليميات في العالم الاسلامي كله ، أي أنه بهذه الحركة دخل العالم الاسلامي مرحلة الصراع بين الوحدة الاسلامية والعنصرية والقوميات والاقليميات . وبذلك انفصلت دولة الخلافة الاسلامية وناج الاسلام عن اللغة العربية وعن أجداد الاسلام بحثاً عن أجداد قديمة بالية تتصل بطوران وجنكيزخان وغيره من المحربين ، ويقول باحث إنجليزى أن الحركة ترمى إلى جعل روح التركي القومية مستقلة عن الاسلام وذلك بناء على القاعدة التي وضعها فبري — اليهودي المجري المعروف وهي أنه لا وطن في الاسلام وحجتهم أنه كان من حال الاسلام تحت تأثير العوامل والتقاليد العربية الفارسية واليونانية والبيزنطية جعل الترك أمة شرقية لها عمران خاص ، وهكذا هلت نعمة تعيد تفسير التاريخ القديم كله تفسيراً جديداً وتجدد الحديث عن البيانات الوثنية التي كانت القبائل التركية تعتنقها في بلاد آسيا إلى حدود نهر جيحون ، ولقد ظلت الدعوة تتردد بين يهوديين : أحدها (ليون كاهون) مؤلف كتاب الترك ، والمغول في آسيا حتى ١٤٠٥ وبين نظرية فبري ، وكان فبري قد زار القسطنطينية مراراً واتصل بالسلطان عبد الحميد وكتب ممجداً إياه فلما خلع عبد الحميد بدأ يردد هذه الآراء المسمومة . فاستجاب لها المتفقون هناك لأنه منذ ١٨٩٠ وهو موضع ثقة الدولة والصحف ولقد بث الاتحاديون في هذه الآراء روح العداء للإسلام ونفخوا فيها وأخذ كتابهم يجرّضون العرب على الخلاف أمثال جلال فوزي وأحمد شريف وغيرهم وعلت الدعوة إلى اتحاد بلاد العرب كاستمرار في نظام التنريك الجديد في ظلال الدعوة الطورانية كما دعت إلى أن يتكلم العرب بلغة الأمة التي تحكمهم ، ومضى هذا التحريض الذي كان من وراءه الاستعمار والصهيونية حتى يقع الخلاف ويعمق ، وقد كان ذلك فعلاً ما حدث بعد ، حين خلق جمال باشا السفاح زعماء من العرب والترك

الاسلاميين، خلاف عميق مصدره الدماء والأجناس والقوميات العنصرية، وبما اضطرب العرب من بعد إلى الارتقاء في أحضان الاستعمار البريطاني. وقد أشار الباحث الانجليزي (أغسطس ١٩١٦) إلى أن فيري أمضى ثلاثين سنة، يغير تركيا إما أن تنغرب (أي تصير غربية) أو إما أن تهلك، ولما كانت لا تستطيع الثانية فلا مناص من الأولى ثم يقول: أن أحرار الترك اقتبسوا بعض الشيء من الغرب ولكن أخذوه من النظام البروسي (الألماني) المقضى عليه بالنهات وقد انتهى سلطانهم وندت آخره ملكهم يوم رفضوا ضمان الحلفاء لأملأكم. والمعروف أن الاتحاديين هم الذين زجوا بالدولة العثمانية في آتون الحرب العالمية دون أن يكون لها فيها ناقة ولا جمل، وكانوا مصريين على أن تقف في صف ألمانيا حتى تكون خصبة للغرب (فرنسا وإنجلترا) التي تحق لها النصر من بعد حتى يتم الاجهاز على الدولة العثمانية جملة وإعلان عهد بلغفور للهود عام ١٩١٧ قبل نهاية الحرب العالمية. وغاية ما فعل الاتحاديون أنهم ذوبوا العالم الاسلامي في آتون الصراع القومي والعنصري على نحو ما زال ممتداً من ذلك الوقت ١٩٥٩ إلى اليوم وما تزال هقايله وآثاره واضحة في الخطط التي اتخذها ساطع المصري وميشيل عفلق وغيرهم وأنهم أيضاً فتحوا الباب واسماً للصهيونية العالمية للسيطر في فلسطين وبيت المقدس وهذا ما لا تزال تبعته قائمة وممتدة حتى اليوم.

(٢)

حقق الاتحاديون الشطر الأكبر من آمال الغرب في هدم الدولة العثمانية، ثم نجحوا مرة أخرى بعد الحرب باسم الكياليين لاسقاط الخلافة. لقد كانت مهمة الاتحاديين التي صاغتها روسيا القيصرية وإنجلترا وفرنسا والصهيونية العالمية الأولى هي تقويض دهايم الأمة الاسلامية بإثارة الثغرات العنصرية داخلها وتفتيتها إلى قوميات حتى تستطيع أن تقسم تركة الرجل المريض وقد نجحت هذه المجموعة: جاويد وطلعت وجمال ليقوموا بعملية التزيك والمناذاة بالقومية الطورانية وجاء رد الفعل من الجانب الآخر فقام خريجو معاهد الارشاليات وأغلبهم من المارون الذين رباهم التغريب فحملوا اللواء نفسه ودهوا إلى القومية العربية وبقى قوم من المؤمنين برسالة الامة الاسلامية ووحدها والذين يرون أنه لا سبيل إلا سبيل الاسلام نفسه معزولون عن الحركة محجوبون عن القيام بدور ومنهم (شكيب أرسلان ورشيد رضا) وفي نفس الوقت كان سايكس وبيكو (الفرنسي والبريطاني) يجتمعون لوضع خطط تقسيم تركة الرجل المريض، وكانت الصهيونية تسمى للحصول على وعد بلغفور وقد تحققت ذلك كله في نفس الوقت الذي كان العرب تنتزهون أنفسهم من الوحدة العثمانية لينشكروا خلف فيصل

ولورنس لضرب القوى العثمانية حيث استطاع الاستعمار أن يوقع بين هنصري الإسلام فما أن لاحت بوادر النصر بدماء العرب المنتصرين والترك المهزبين حتى سارع اللورد القنبي فدخل « القدس » وأعلن سيطرة بريطانيا عليها وأعلن أن ذلك هو نهاية الحروب الصليبية . وكانت مؤامرة ضخمة بالغة الخطورة ، وكان قد حنر منها ذلك الفريق الذي هزل عن ركب الأحداث .

كانت اليهودية تعرف أنها لن تحصل على شيء ذي بال إلا بعد أن تكسر طوق الوحدة الإسلامية وهو التعبير الذي عبر به (حاييم وايزمان) في مذكراته حين قال : أنه هو الذي حال دون أن نجني المؤسسات الصهيونية لنفسها أي ثمار إيجابية من وراء طول سعيها ولذلك فقد استفرغ اليهود كل مالهيم من جهد وهروض وتهديد وأرسل النري اليهودي « قرصو » برقية من إيطاليا لانتزال بعض كتب الترك تحتفظ بالصورة الأصلية لها : « أنت رفضت عرضنا ، ولكن هذا العرض سيكلفك أنت شخصياً وسيكلف مملكتك كثيراً » عندما أجبته السى إلى « كسر طوق الخلافة » على حد تعبير حاييم وايزمان واعترافه ، حتى إذا تحطم ومزق الشمل تحققت الغاية اليهودية من أيسر سبيل .

أما أخطر ما حدث فهو (سحق الدولة العثمانية) على النحر المثير الذي سجلته معاهدة « سيفر » فإن ثانياً نصوصها تكشف ذلك الحقد الأسود وتلك الخالب الدموية .

أولاً : تنخفض الدولة العثمانية من ٦٦٣٥٠٠ ميل مربع و ٢٠ مليون نسمة في سنة ١٩١٤ إلى ١٧٥ ألف ميل و ٨ مليون من السكان . ثانياً : ألا يبقى للترك في أوروبا غير القسطنطينية مع شقة رقيقة لحايتها . ثالثاً : السماح لليونان بالاستيلاء على الجبهة الأوربية من الدردنيل وإدارتها . رابعاً : السماح لليونان بالاستيلاء على أزمير . إلى أن يقرر مجلس عصبة الأمم ضمها إلى اليونان نهائياً . خامساً : منح الأرمن : استقلالهم وتأييد دولة الأناضول منهم . سادساً : ألا يكون للتركيا أسطول بحري أو جوى وأن تخفض جيشها إلى شرطة فقط . سابعاً : أن تعود الامتيازات الأجنبية إلى حالتها بعد إلغائها في أوائل الحرب . ثامناً : أن تؤدى تركيا غرامة باسم تعويضات وغيرها من الأعباء المالية والاقتصادية .

ثم وقعت انكلترا وفرنسا وإيطاليا اتفاقاً لحماية مصالحهم الخاصة قسمنا فيه ما بقي من تركيا إلى مناطق نفوذ وتمت الموافقة على معاهدة سيفر (١٠ أغسطس ١٩٢٠) ووضعت أسسها موضع التنفيذ منذ شعل اليونانيون في تلك السنة خط (مورخه — عشاق) على نهر المندريس حيث ساعدتهم

الاطاليون بجيوشهم عند الجناح الأيمن . ثم سقطت (درنه) وأنزل الأسطول البريطاني قوة بحرية معها جيش يوناني في رودستو وفي تراقيا وباندومه في آسيا مصغرى ثم استولى اليونان بمعاونة إنكلترا على أفيون قره حصار وكوتاهية ووصلوا زحفهم إلى نهر صقاربه وكوك ، وهكذا بست روح الانتقام والقدر الغربي في أقصى صورها ، ولم تستطع تركيا من بعد أن تنخلص من هذه القيود وتستعيد وجودها كدولة محددة إلا بعد أن دفعت الثمن غاليا في تلك المعاهدة السرية التي وقعتها خلفاء الاتحاديين : مصطفى كمال ، وعصمت اينونو ، وهو التنازل عن الإسلام ديناً ولغة وقانوناً ونظاماً اجتماعياً الخ . وكان أبرز ما تمثله هذه المرحلة هو : تحول الولاء عن الإسلام إلى القومية والوطن ، ولقد فرح الغرب وأهلن شتماته بالدولة العثمانية عندما سقطت حتى قال كبير الإنجليز (لويدي جورج) نوفمبر عام ١٩١٤ أنى لفتنيط إذ حلت الفرصة لدهوة الأتراك لتأديتهم حساباً أخيراً بعد سلسلة الخنازى الطويلة التي إقترفوها ضد الأسبان : وقال ولسون : أنه قد تم طرد الإمبراطورية العثمانية من أوروبا لأنها غريبة تماماً عن المدينة ، وهذا كله مشابه ومساو لما قاله الورد النبي في القدس .

(٢١)

الفصل بين العرب والترك

ثانياً : أوقمت الخلاف به عنصرى الدولة الإسلامية : العرب والترك ، وتعرض الاتحاديين على التسلط على العرب والعمل على تزيينهم ودفعها دفعاً للتخلص من رابطة الوحدة الإسلامية مع الترك وإقامة المشاق لهم لتعميق الخصومة والخلاف .

وكان قائد هذه المعركة لورنس لحساب الاستعمار الغربي ظاهراً ولحساب الصهيونية أساساً وكان كسر الوحدة بين العرب والترك بمثابة آخر حلقات مطامع الاستعمار والصهيونية والروس لابتلاع العالم الاسلامى ، وكان التركيز على العرب بالذات هاما بوصفهم أصحاب الرسالة الأولى ، وقلب العالم الاسلامى وقوته الفكرية والروحية وفيها بيت الله الحرام معقل الدهوة الاسلامية . وكانت المحاولة بالنسبة لفصل العرب عن الترك وفصل المصريين عن العرب قديمة منذ محاولة نابليون الأولى . فقد كانت الحملة الفرنسية هى أول تجربة من الغرب لاقتحام عالم الاسلام في المشرق بعدد الحروب الصليبية والادعاء بأنها الحركة التي ايقظت العرب والمسلمين في العصر الحديث مع أنها جاءت بعد حركة الإمام محمد بن عبد الوهاب بأكثر من خمسين عاماً . وقد أدعت الحملة الفرنسية أنها حملة تمدن

ورسالة حضارة ، ولكنها كانت في الحقيقة د غزوة استعمارية ، تكشف عن صراع المطامع بين فرنسا وبريطانيا : أيهما تسبق إلى هذه المنطقة ، وكان عنصر التنصب والحقد على الإسلام فيها قائما وواضحا بالرغم من محاولة إخفائه حين أدهى نابليون الإسلام ، ولاربيب أن واقعة دخول الخيل الأزهر لتعمر دهوى نابليون وتكشف هواه . فقد حول نابليون القاهرة إلى بارات لجنوده السكاري ، والماهرين واصطنع طبقة من الخوذة أمثال المعلم يعقوب وأحدث الفقرة بين المسلمين والمسيحيين وأهل النعرة الدينية لدى القبط .

ولكنه وجد معارضة تامة هنيئة قاسية أزهجت لباله وأيامه كلها حتى هاد مهزوما فقد قاومت مصر بثورتين متتاليتين وهشرات المحاولات في القضاء على الجنود الفرنسيين وإذلالهم وسد الطريق أمامهم من الاسكندرية إلى القاهرة وجرمانهم من الماء والزاد وتقدم مسلم عربي غير مصري ليقول القائد العام بعد نابليون باسم الدفاع عن وطن الإسلام ، وقبل تنفيذ حكم الإعدام فيه رافع الرأس لأنه آمن بما فعل ، ولقد هامله الفرنسيون أسوأ معاملة ونفذوا حكم الإعدام فيه عن طريق الخنازوق ، وبذلك كشفوا عن حمجية وتمصص وحقد بعيد عن كل ما يدعون من عاف حضاري ، ولقد فتحت الحملة الفرنسية الطريق إلى الاقتباس الغربي على غير أسس صحيحة ، فكان لذلك آثاره من بعد الاحتواء التغريبي الذي أوقعه الغرب بالمسلمين والعرب والمصريين ، لقد قبل المسلمون تسول الحضارة ، وكانوا يستطيعون أن ينقلوها في إطار فكرهم وعقيدتهم ، ولكن كانت لتولى محمد على الحكم في هذه الفترة وهو ممن لا يعرفون تيارات التغريب أو من لا يأنهون لأنرها في الإسلام ولا لأنرها في مصر ، أسوأ الأثر في الطريق الذي اختطته مصر ، حين خلعت المطامع الشخصية على الغاية الكبرى ، وبدا كان محمد على يريد أن يدمر الدولة العثمانية لحساب الغرب ، فلما لم يستطع قضى على الحركة الإسلامية الوليدة في شبه الجزيرة ، ولو تعاون معها في إطار الدولة العثمانية لتغير موقف عالم الإسلام ولكن الاستعمار كان يظا لضرب القوى المساعدة بعضها ببعض ، فإنه أومم العثمانيين بأن الحركة الإسلامية الوهابية تعارضه ، وحرص محمد على باسم الدولة العثمانية للدالة منها وبذلك وقعت المعسكرات الثلاث في الصراع الذي قضى عليها جميعا ولو أنها تعاونت — وهي المسئلة — في طريق واحد لتغير الموقف .

لقد استطاع محمد على أن يحرز بعض أدوات التقدم العلمي ولكن لم يلبث أن نجحت الدول الأوروبية في تقارين لسلحته ، حتى لا تكون قوته حائلادون تنفيذ خطة الغرب في تمزيق الدولة العثمانية أو ترك قوة إسلامية هربية جديدة لتنمو ، ولقد أحصى على محمد على أنه عمل لحساب فرنسا في أكثر

من موضع وموقف . كانت الدولة التي كونها محمد على تمتد من كريد إلى الخليج الفارسي ومن جبال طوروس إلى أهالي النيل الأبيض ولكن خطة محمد على لم تسكن واضحة في شأن إهانة محمد الإسلام ، وإنما كانت مطالبة الخاصة هي أبرز وجهاته ولذلك فقد تهدم سلطانه رويداً ، حتى فقد كل شيء في سنوات قليلة لا تزيد عن عشر سنوات ، صحيح أنه لم يطعم في السيطرة على الدولة العثمانية ولكنه لم يصنع شيئاً بقدراته في سبيل تمييز هذه الدولة وحمايتها من المؤامرة التي — يجري تنفيذها من أجل تمزيقها . كان — كما يقول المؤرخ محمد رفعت — الغرض الذي كان يعمل له هو تثبيت أقدام أسرته من بعده في حكم مصر ، ولقد كان ميله إلى فرنسا عاملاً هاماً في تأليب بريطانيا وإذا كان محمد على لم يقدم على دخول القسطنطينية وخلع الخليفة فإنه كان يعلم مما جرت مناقشته بين الدول الأوروبية أبان عام ١٨٣٣ ، وما اتفق عليه من رأى في المحافظة على كيان الدولة العثمانية وخاصة في أوربا ضماناً للسلام والصفاء بين الدول . وقد كتب السكوت تسار رئيس حكومة روسيا إلى المندوب الروسي في القسطنطينية : « يجب أن لا يصل محمد على القسطنطينية ويقلب نظام فيها فإن هذا لا يتفق مع مصالح حكومة القيصر وأغراضها فإن محمد على إذا وحد ملكه في الأستانة كان في حصن منيع ووحدة لا يستهان بها أمام روسيا بدلاً من جوار ضيف منهزم » . وهكذا نجد أن الغرب كان يعمل على الحد من مطامح محمد على والحيلولة دون تحقيق أمل كبير يحمي الدولة الإسلامية أو يؤدي إلى أن ينمط العالم الإسلامي من جديد ، ولقد تضامنت بريطانيا مع فرنسا في حمل السلطان على إيقاف محمد على وقصره في مصر ونزع نفوذه من كل الأجزاء الحجازية والشامية التي كانت معه وكانت تلك نهاية محاولة طامعة لم تسكن تستهدف عملاً يرمي إلى إهانة محمد الإسلام وذلك بخلاف ما وقع بالنسبة للحركة التي قادها الإمام محمد بن عبد الوهاب والتي نمت واتسعت ، وحقت نتائج هامة فكانت أبرز القوى عام ١٩٢٤ بعد إسقاط الخلافة . أما محمد على فقد فتح أبواب مصر أمام النفوذ الغربي والفرنسي بالذات على نحو شديد الخطر والأثر ، عندما جاء استعمايل ففتح باب الأستانة وهشش المرابون اليهود في أرض السككاته وتسلبوا عليها .

(٢)

كانت الحملة الفرنسية على مصر هي الطريقة الأولى على الجدار العربي للدولة العثمانية ، حيث فتح الباب للنفوذ الغربي في مصر وأخطر ما فيه كان حفر قناة السويس وما اتصل بها من مؤامرة اليهود المرابين في السيطرة على مقدرات مصر يقول دكتور محمود صالح رحمه الله وأجزل منوبته :

إذا رجعنا إلى تاريخ مصر المالي نجد أن اليهود هم المسئولون عن القروض المشؤمة التي سببت بؤس المصريين وقرر الألمان واستغلالهم فقد استغلوا اضطراب الحال الداخلة في مصر بعد حروب محمد علي فاستولوا على اقتصاديات البلاد وقد بلغت ربوبات القروض إلى ٣٦٪ وإلى ٤٨ في المائة كما يذكر مؤلف تاريخ مصر المالي وهنا أغش ما سمع من الفوائد الربوية وقد اضطر تآمر اسماعيل على رهن إيرادات السكة الحديد وجمارك والضرائب الشخصية وفي عام ١٨٧٥ اتفق دزائيلي اليهودي رئيس وزراء بريطانيا مع روتشيلد الرعالي اليهودي ، على شراء أسهم قناة السويس الذي كلفت مصر ٢٠ مليوناً بمبلغ ٤ ملايين والأموال التي أقرضها اليهود لإسماعيل وقد بلغت ٥٤ مليوناً حسبت على مصر ٩٦ مليوناً ، وقال جابريل شارم . أن اسماعيل قد اقترض في ٢٨ عاماً التي تولى فيها الحكم ٣ مليارات من الفرنكات أي ١٢٠ مليون جنيه ولكن نصف هذا المبلغ بقي في يد المرابين وأصحاب البنوك المضاربين . وهكذا أتت القرب على الدولة العثمانية من جدارها العربي في مصر فأعدت للاستعمار البريطاني سنوات ، وفي خلال ذلك كانت فرنسا تضرب الجزائر والجزائر تقاوم ثمان سنوات حتى استولت (١٨٣٠ — ١٨٤٨) وتدققت إيطاليا على طرابلس الغرب وفرنسا على تونس ، في خطة مزدوجة : إعطاء فلسطين لليهود العالمية وتقسيم العراق والشام بين فرنسا وبريطانيا ، هنالك كان لابد من إقامة الاقتتال بين المسلمين : العرب الترك في المناطق التي كانت الدولة العثمانية تسيطر عليها من أرض الجزيرة العربية إلى الشام والعراق ، وتلك كانت مؤامرة ضخمة خدع فيها العرب وقتلوا إخوانهم المسلمين الأتراك ثم سلبوا القدس بعد ذلك إلى الأورد القوي الذي قال بعد النصر : إني الحروب الصليبية قد انتهت وقال : أن بيت المقدس قد عاد إليهم في كفالة الاستعمار البريطاني .

كان الهدف هو فصل العرب عن الترك وإحلال نفوذ حاكم الحرمين مكان الخليفة ، وحاكم الحرمين هو الشريف مكة ولذلك فقد تركزت المحاولات على أن تقوم بريطانيا بمساعدة العرب بإخراج العثمانيين من الجزيرة العربية ومن الشام والعراق . وقد استطاع الانجليز إقرار الاتفاق مع الشريف ووعدوه بدولة عربية عند انتهاء الحرب على أن يعلن الانفصال عن الدولة العثمانية . وكان لورنس هو الموجه الحقيقي لهذه الخطوات بخلفياته الاستعمارية والصهيونية وخطاهه العجيب في اصطناع لباس البدو ولجنتهم ، وقد جمع فيصل بن الشريف حسين بين ٧ ، ٨ آلاف من الرجال البدو وقدمت لهم بريطانيا أسلحة وأطعمة ومئات من القميرات وبدأت حملة إخراج القوات التركية من الجزيرة العربية ، بمساعدة لورنس والمراكب الانجليزية ، وقد ظلت هذه القوات تتقدم حتى

دخلت بيت المقدس ودمشق ، دخلت القوات العربية دمشق بقيادة الورد القني ودخل الحلفاء القدس ، ووقف القني على أبواب درها في ١٦ أيلول ١٩١٨ وقد انهزم الجيش التركي السابع والثامن ودخل الحلفاء دمشق قبل أن يصل فيصل إليها وأداروا شئونها واعتبر الحلفاء أنهم محرروها لحقيقيون ، وقد استمرت هذه الحركة عامين تقريباً .

ثم تبين أن الشام والعراق قد قسمت بمقتضى معاهدة سايكس بيكو بين فرنسا وبريطانيا وأن وعد بلفور قد أعطى بريطانيا الحق في أن تسمح لليهود بالإقامة والهجرة إلى فلسطين وإن وعد بريطانيا للعرب بإقامة حكومة عربية كان وهذا باطلاً وزائفاً وكان خداعاً . وقد أكتفت بأن ولت أبناء الشريف حسين حكومات سوريا والعراق وشرق الأردن وخسدهم لورنس العرب وانكشفت بعد خطته الإجرامية لحساب الاستعمار ولحساب الصهيونية في وقت مما حتى وصف بأنه العميل المزدوج . . . يقوله البروفسور هوجارث الأستاذ بجامعة أكسفورد وأعظم خير بريطاني في شئون الشعوب الآسيوية والعربية: لم يعد مراعاة أن لورنس كان مكلفاً بتنفيذ خطة مرسومة بكل دقائقها وبكل تفصيلاتها ، خطة تستهدف تخريب العرب على الثورة ضد الحكم التركي وللإسهام بالتالي في تقويض الامبراطورية العثمانية . وهي خطوة ضرورية لفرض السيطرة البريطانية على فلسطين وافتتاح الباب على مصرعية لإقامة دولة إسرائيل .

وبالنسبة للعمل المزدوج ، فإنه كان على علم بأبعاد دوره وكان يعرف منذ اللحظة الأولى أن الجيش العربي بقيادة فيصل سوف يشارك بالقسط الأوفر في فتح فلسطين ، وقد دخلها بالفعل قبل جيش القني لكي تسلم قبا بعد غنيمية باردة للصهيونية العالمية .

« وكان لورنس يعلم أن السياسة البريطانية وقد شارك في وضعها تتعارض تمارضاً مباشراً وكاملاً مع مفهوم العرب للحرية ومع طراز الدولة التي وعدوا بها وحاربوا من أجلها ، ولقد كانت التقارير السرية منذ بداية الثورة تكشف عن إخضاع العرب للسيطرة البريطانية والعمل على تعميق انقسامهم وتباينهم ، ففي تقرير (١٥ يناير عام ١٩١٦) أن نشاط حسين يبدو مفيداً لنا لأنه يتفق مع غاياتنا العاجلة وهي نهطهم (السكتلة) الإسلامية وهزيمة الامبراطورية العثمانية وتقويض بنيانها ولأن الدولة التي سوف يقيمها حسين خلفاً للأتراك ستكون طيبة لنا مثل ما كانت تركيا قبل أن تصبح حليفة للألمان ، وإذا هومت هذه الدولة بالأسلوب الصحيح فإنها ستبقى في حالة تخبط سياسي ، ومما سجله لورنس في وثائقه وكتبه : « إذا انتصرت بريطانيا في الحرب فيسكون وهودها للعرب كالورقة

للينة ، ولو اننى كنت فاضحاً شريعاً لسرحت رجالى ولمنهم من المخاطرة بأرواحهم للخل هذا ، ومع ذلك فإن الأمانى العربية كانت أدانتنا السياسية لكسب الحرب فى الجهة الشرقية . ويقول : « لقد غامرت بالتضليل الإيماني بأن هون العرب كان لازماً لإحراز نصر رخيص وسريع فى الشرق ، وخبر لنا أن ننصر وأن نخلف وهودنا من أن نمنى بالهزيمة » وكان فى تقدير لورنس أنه إذا وافق حسين الشريف نسل الرسول على المساندة البريطانية والثورة ضد الأتراك لكان ذلك رداً على مناداة سلطان تركيا بالجهاد ضد الحلفاء وهى دهوة خليفة بإشغال ثورة ملايين المسلمين من رعايا الممتلكات البريطانية والفرنسية والروسية . ويقول فى تقرير آخر ١٩١٦ : « لابد من القضاء نهائياً على سيادة السلطان التركى ، ذلك أن قدرة بريطانيا على أن تنصب خليفة جديداً لا تعدو قدرة اليابانيين على اتباع الكنيسة الكاثوليكية ، وحتى سلطان مصر لا يستطيع أن ينصب نفسه للخلافة لأن فعلته ستكون مثاراً للريبة بسبب علاقته معنا ، أن أكثر المطالبين بالخلافة رجحانا بعد السلطان هو شريف مكة . وقد فصل لورانس القول فيها قرره من اختيار فيصل دون آل شريف مكة جميعاً فقال : هب الله زكى وزيد بارد ووجدت فى فيصل القائد ذا الحمية المطلوبة ، أما حسين فإنه إذا قرر أمراً فمن العبث أن يحاول للرد إقناعه بالدول هذه . ويقول : (هوجارت) أن فيصل كان يمتدأ على استقلال لورنس لتحقيق الاستقلال العربى ، بينما كان لورنس موقن من قدرته على استقلال فيصل لأحداث الانقسام فى السكتلة الإسلامية ولتدهيم نفوذ بريطانيا فى الشرق الأوسط ، وبذلك تسكملت عناصر المسألة وكان من الضرورى أن تنجلي هن كارثة . ويقول : أن الواقع قاطمة فى أن لورنس كان يحتقر العرب والوثائق كلها تثبت أنه لم يعرف سوى المقت الأسود للأمة العربية ، فهو يرتدى ثياب العرب ويتحدث لغتهم ويسلك سلوكهم لا لشيء إلا ليكون أقدر على التغلغل فى الوسط العربى : يقول لورنس : إذا كنا نريد أن نكون فى سلام بجنوب سوريا وأن نستولى على جنوب العراق وأن نسيطر على المدن المقدسة فلا مندوحة من أن نهكم نحن دمشق أو تحكمها دولة أخرى غير إسلامية تكون صديقة لنا) ويحاول لورنس أن يرسم خطة ما بعد إيقاع الفرقة بين العرب والترك : أن حسين شريف مكة يفكر فى أن يأخذ لنفسه ذات يوم مكان الحكومة التركية فى الحجاز ، وإذا كنا نستطيع أن نرقب الأمور بحيث يكون هذا التغيير مصطبغاً بالعنف ، فإننا نكون قد محونا خطر الإسلام إذ سوف ينقسم المسلمون على أنفسهم وفى قلب الإسلام وسيكون خليفة تركى وخليفة فى الجزيرة العربية وسيعود الإسلام ضئيل القدر شأن البابوية أيام كان البابوات يعبشون فى (أفينون) » ويقول : لقد كان لورنس ماضياً فى خديعة العرب بينما بريطانيا وفرنسا كانتا توقعان معاهدة (سايكس - بيكو) وهى وثيقة مرذوعة ونمرة الجشم فى أشنع صورة وهى تستغند فلسطين من

عملية التقسيم « ليكون لها نظام دولي خاص بها وإقناع الصهيونيين بأن الفرصة قد أتت لتحتل أراضيهم في إقامة وطن قومي لليهود » وقد عملت فرنسا وبريطانيا على إخفاء الاتفاقية حتى سقط النظام القيصري في روسيا في نوفمبر ١٩١٧ وأذاع البلاشفة الاتفاقيات ولما علم الشريف حسين بأخبار الاتفاقية قال : إن الوعد البريطاني كالذهب مما جلوته بشدة فإنه يستطع دائماً ويقول هوجارت : وسوف يأتي يوم قريب يدخل فيه فيصل على رأس قواته إلى القدس ثم إلى دمشق ، ويهتز وجدانه لتحرير العاصمة العربية بعد أربعة قرون من الاحتلال التركي ، وعندها يعلم أن وهود بريطانيا لم تسكن ذهباً وأن سوريا ستكون فرنسية طبقاً للاتفاقية . ولقد مهدت الدماء العربية طريق اللورد ألني إلى القدس ودمشق وفقد الجيش العربي حشرين ألف رجل وتشير إلى أن المراسلات التي أجراها الشريف مع مكماهون عام ١٩١٥ - ١٩١٦ تم تبين أن لا قيمة لها لم تنص على دخول فلسطين في المنطقة العربية وقد نشر مؤلف كتاب (الحبوات السرية لفرنس في الجزيرة العربية) وثيقة بريطانية بقيت سرّاً مدة ما يقرب من خمسين عاماً هي محضر اجتماع عقدته لجنة مجلس الوزراء للحرب الشرقية في لندن (١٩١٨/١١/٢٨) برئاسة اللورد كرزون : قال كرزون أن وضع فلسطين كما هو يلي :

إذا كان لنا أن ننجز التزاماتنا فهناك الوعد العام لحسين في أكتوبر عام ١٩١٥ وبموجبه تدخل فلسطين ضمن المناطق التي ألزمت بريطانيا نفسها بأن تكون عربية ومستقلة في المستقبل . ويقول المعلقون : أن الوثيقة لا يمكن أن تكون أكثر قطعا فقد كانت بريطانيا تعلم يقينا إنما وعدت العرب أولاً بفلسطين كجزء من منطقة عربية مستقلة . أما لورانس فقد كان يعمل في اتجاه آخر يقول هوجارت : فنجد أن صدر وعد بلفور عام ١٩١٧ فهو فهو يسمى ملعاً في تبديد مخاوف العرب بتقبل الموقف . وقد عبر في تقاريره عن ثقته في التأثير على فيصل . « سأحدث مع فيصل لصالح اليهود وسيكون موقف العرب مشوباً بالمطع خلال الحرب على الأقل » أما الشريف حسين فإنه لم يقبل إقامة دولة يهودية في فلسطين . ثم تقضت بريطانيا وهودها للعرب : لن تكون دولة فلسطين عربية ولا مستقلة ، ستكون منحة بريطانيا للحركة الصهيونية لإقامة دولة إسرائيل ، وبوصي هوجارت حكومته باستعمال القوة ضد العرب ولم نجف بعدها دماهم المراقبة في سبيل الحلفاء ، وقد تقرر أخيراً بأنه لا مناص من أن تفرض بريطانيا تمهدها للصهيونية بواسطة القوة . كذلك فقد ضمي لورانس لتدبير لقاء بين فيصل ووايزمان زعيم الحركة الصهيونية في فندق كارلتون في لندن ، وكان لورانس قد تقابل مع وايزمان للمرة الأولى في فلسطين عقب سقوط القدس في أيدي الحلفاء وأعجب به إعجاباً فائقاً .

ويقول هو جارت : أن مباحثات كارلتون بين فيصل ووايزمان ، كانت حلقة الختام لمباحثات سابقة بين فيصل والصهيونية بدأت قبل انتهاء الحرب ففي ٤ يونية عام ١٩١٨ قصد وايزمان إلى العقبة ليقابل فيصل ويقول له : « إذا كنت تريد أن تشيد مملكة عربية قوية وغنية فإننا نحن اليهود ، قادرون على معاونتكم ونحن وحدنا ، وسنكون جيرانك ، ولن نشكل خطراً عليك لأننا لسنا دولة قوية وإن نكون . وكانت المفاوضات مع فيصل كالمباحثات مع السلطان عبد الحميد والإتحاديين من بعد تستغل الحاجة إلى المال ، وفي اجتماع كارلتون « فيصل — وايزمان — لورنس المترجم » نحدث وايزمان عن وجود اتفاق يرمي إلى إرضاء الأطراف الثلاثة : (١) بريطانيا : تحصل على الوصاية . (٢) الصهيونية : تحصل على حق الدخول والتوطن . (٣) فيصل : الحصول على أموال يهودية للتنمية ومساعدة في مؤتمر السلام ثم ثارت هجيات وحاول وايزمان أن يضمن الوثيقة هبارتي : الدولة والحكومة اليهودية وأمر فيصل على استبدال العبارتين بفلسطين وحكومة فلسطين ، كما أمر على إضافة لمصطلح باللغة العربية في أسفل الصفحة الأخيرة من الاتفاق : هنا نصه : وإذا استتب الأمر للعرب فسوف أنفذ ما جاء بهذه الاتفاقية وإذا طرأت تغييرات فلن أكون مسئولاً عن عدم تنفيذها .

وبدأ تبين في ترجمة هبارة : « شريطة أن يحصل العرب على الاستقلال » بين صيغة فيصل وصيغة لورنس وبضعف النص العربي لمصطلح أكثر : « فلن أكون عندئذ مقيداً بكلمة واحدة مما جاء في هذه الاتفاقية التي تعتبر لاهية وبلا أثر أو مفعول » .

وقد أشار المؤلف إلى أن لورنس أضاف جريمة التزوير إلى قائمة جرائمه وغايتة أن يحصل على توقيع فيصل بأى ثمن . والمهم أن تقدم بريطانيا وثيقة اتفاق بين العرب والصهيونية إلى مؤتمر السلام وما دامت بريطانيا تحكم فلسطين والطريق مفتوح أمام الهجرة والصهيونية فإن مهمة لورنس تكون قد تمت . هـ . هنا موجز للمؤامرة بقلم كاتب عربي ، ومشارك في الإحداث نفسها ، تكشف عن مدى الخطورة التي استهدفتها محاولة تمزيق وحدة المسلمين : العرب والترك وإيقاع الخلاف بينهم والتحكين للصهيونية في فلسطين والاستمرار في الأجزاء الأخرى والتهديد للقضاء على الخلافة الإسلامية بعد القضاء على الدولة العثمانية الإسلامية . ويكشف لورانس في مذكراته للعبارة القوية التي يجب أن تكون موضع تقدير المسلمين والعرب : من طابع الاحتقار الذي يضيفه على الأحداث لأن العرب قبلوا التبعية للعرب :

« إن العرب قد اتفقوا الكثير من الأخطاء الفظيعة بسبب قبولهم نصائح أوروبية لم يكن في

مستطاعهم أن يدركوها . كان على المستشارين أن يعلموا أن العرب إذا ما ركبوا متن عقيدة وسلوا زمام أمرهم إلى نبي مدجج بالسلح وأركلوا إليه توجيه جهودهم غير المحدودة فإن في استنطاعة الأيدي الماهرة أن تصل بهم ليس إلى دمشق فحسب بل إلى القسطنطينية أيضاً . ولم يكن لورنس هو وحده الذى يعمل للاستعمار والصهيونية في البلاد العربية ، في سبيل تعميق الخلاف بين العرب والمسلمين : وإنما كان هناك قبلي وكلايتون وغيرهم . وقد استنطاع الباحثون السكشاف عن مخططات الاستعمار والصهيونية في وثائق كثيرة سرية تسربت في السنوات الأخيرة : قوامها القضاء على الإسلام وتمزيقه وتدمير الدولة العثمانية بأيدي العرب أنفسهم الذين حملوا لواء دهوة العنصر والدم إزاء أخوتهم في رابطة لا إله إلا الله فقاتلوهم ، لقد حاول هؤلاء أن يقنعوا العرب بأن انتفاضهم على الدولة العثمانية يفتح الباب واسعا أمام الإستقلال ولكن الذى حدث هو العكس تماما ، وضاع الدهاء العربي في آتون للؤامرة وبعد أن تمزقت الوحدة العربية التركية تمزقت الوحدة العربية إلى إقليمية تتصارع . وقد أشار زهدى الفاتح إلى النتائج الخطيرة : التى تتمثل في أن لورنس مشى على خطأ هرتزل . لقد قال هرتزل : إن أهدافنا الرئيسية : تفنيت الوحدة الإسلامية ودحر الامبراطورية العثمانية وتدميرها . ولقد كانت القوى الاستعمارية الصهيونية قد أعدت خططا سابقة للحرب العالمية الأولى لدراسة هذه المناطق العربية التركية ، والاستعداد للحرب فيها ، تدل على ذلك وقائع متعددة عن جواسيس أمثال لورنس وردوا هذه المنطقة تحت اسم التنقيب عن الآثار ، وقد ذهب لورنس نفسه إلى سوريا ١٩١٠ فيها أطلق عليه رحلة علمية للبحث عن الآثار في ترقيش (جربلس) بآسيا الصغرى . وقد ظلت مهمة هذه البعثة سرا دفيناً إلا أن أفرادها كانوا يعملون في مناطق مهمة للغاية عسكريا واستراتيجيا ، هذه البعثات لم تنف هذه المناطق بل تعدتها إلى أرض الحرم للسكى أيضا حيث أدهى واحد من هؤلاء أنه مسلم وأمضى هناك سنوات للبحث وتقييد الأماكن ، وقد قام بهذا الدور العسكرى الذى يوصف بأنه بحث عن الآثار : فيلبى الذى أمضى في الجزيرة العربية سنوات . ولقد كانت معاهد الإرساليات في لبنان هي بمثابة : الركائز الحقيقية للاستعمار والصهيونية تستقبل هذه البعثات وتساعدنها ، وقد توجه لورنس وهو جارت إلى البحر لزيارة السكرملى وقرى البرموك ومن درها اشتقلا قطار خط الحجاز إلى الشام فخص وحلب ، حتى وصلا إلى ترقيش وقد أوتاب الأتراك ، في أمر لورنس وهكذا عندما عاد لورنس ١٩١٦ كان يعرف كل شيء دون حاجة إلى دليل ، فقد ارتاد للمنطقة قبلا واحتفظ بدلائل وافية لها ولعل أهم دراسة قام بها لورنس وهو جارت

وغيرها هي ما حرص اليهود على دراسته ومازالوا يوالونه حتى اليوم وهو : تجربة الحروب الصليبية وكيف هزمها المسلمون لتفادي الوقوع فيها وقموا فيه ، ولذلك فإن لورنس كان يعمل على إبعاد أطروحة من الحروب الصليبية يحاول أن يكذب فيها حقائق التاريخ مما عرف المسلمون من أثر في علوم الهندسة الحربية في الغرب بعد الحروب الصليبية والإساءة بعكس ذلك ، وقد كتب فعلاً أطروحة تحت عنوان (قلاع الصليبيين) مشيداً فيها بما أسماه فروسية العصر الصليبي . « راح بتخيل فيها نفسه فارساً صليبيّاً ولكن لحساب الصهيونية . ولقد كانت رؤيا لورنس واسعة : وكانت أبعاد للوقوف الإستعماري والصهيوني واضحة أمامه ، وكان قادراً على معرفة الأبعاد بين : (١) الدولة العثمانية التي مزقت . (٢) العرب الذين خدعوا ولن تقوم دولتهم . (٣) القضاء على الخلافة . (٤) معارضة القوة الإسلامية الحديثة في شبه الجزيرة « الوهاية » ذلك في حدود هباته التي جمعها زهدى الفلاح وحلقها : وأخطرها هذه الوثيقة : « أهدافنا الرئيسية : نغتنب الوحدة الإسلامية ، ودحر الإمبراطورية العثمانية وتدميرها ، وإذا هرفنا كيف نعامل العرب وهم الأقل وهيا للاستقرار من الأتراك فسيبقون في دوامة من الفوضى السياسية داخل دويلات صغيرة حاكمة ومتنافرة غير قابلة للتماثل ، إلا أنها على استعداد دائم للتشكيل قوة موحدة ضد أية قوة خارجية » . هذه الوثيقة تحت عنوان « سياسات مكة » يناير عام ١٩١٦ تكشف الأفق الذي يراود بعالم الإسلام كله . الهدف « تعاون العرب الذين خدعوا بالفكرة القومية لخدمة الأهداف الغربية (البريطانية) وكان ماكس نوردو الزعيم الصهيوني (خليفة هرتزل) قد أعلن في أوائل القرن إلى إمكان استغلال (القومية) كسلاح لضرب العرب أنفسهم بحطام الامبراطورية العثمانية والقضاء على الاثنين معا في فلسطين خاصة ، فيدخل اليهود هذه الأخيرة طارئة من السكان » كان (ماكس نوردو) يهدف إلى استغلال حركة القومية لتفريغ فلسطين من المسلمين : يقول « إن الحركة التي استحوذت على قسم كبير من الشعب العربي يمكنها أن تتخذ بسهولة وجهة سير نحو فلسطين أيضاً ، وهكذا تصبح أرض أبنائنا من جديد » .

وهكذا نجد أن القوى الاستعمارية والصهيونية قد فرضت النصرانية باسم القومية في أرض العثمانيين وأشعلتها تحت اسم العنصرية حتى ضرب الاتحاديون العرب وعملوا على تزييمهم مما دفع العرب إلى التماس نفس السلاح فلما أصبحت القومية بديلاً للوحدة الإسلامية أصبحت قوة تمكن الاستعمار والصهيونية من تحقيق أهدافها . وإذا كان الاستعمار قد قف على القوة الجديدة في

مصر وقضى على الدولة العثمانية ، وفتح الطريق أمام الصهيونية إلى فلسطين فإنه كان حريصاً على أن يدهم مطامع الصهيونية والاستعمار في مكة والجزيرة العربية ولذلك فقد أثبت الدعوة إلى خلافة عربية وإلى جعل الخلافة الإسلامية وفقاً على شخص ينحدر من الرسول العربي الكريم وتحويل مكة إلى كرسى بابوى على غرار روما ، وكان الشريف حسين هو البديل للخليفة الثاني . ولقد سمى هرتزل نمو هذه الغاية غاية استرجاع الخلافة من أيدي الأتراك ، وتحويل مكة إلى كرسى بابوى إسلامي ، وأن يرتبط بين هذا بين حركة القوميين الذين يقومون فكراً بنجيب غازوري ، الهدف ، كما يقول زهندي الفاتح هو « القضاء على أية محاولة لإحياء السكان الإسلامي » وإبدال السكان القائم ببديل ضعيف مهين ، ولقد كان لورنس ممثلاً للصهيونية والاستعمار الغربي معاً في محاولة مساعدة العرب على إقامة دولة قومية علمانية متخلفة عن الإسلام في سورية ، لقد تحول الوعد بدولة عربية إلى تعيين أبناء الشريف ملوكاً على دويلات مفككة سواء في العراق أو في شرق الأردن ، أو سوريا . لقد كان لورنس وأهبا للهدف وهو الذي يقول في أحد الوثائق التي كتبها : « مهما تمخضت عنه هذه الحرب فنجد أن تكون نتيجتها القضاء وإلى الأبد على السيادة الدينية للسلطان التركي » . أي القضاء على كل ما تمثله الامبراطورية العثمانية من نفوذ إسلامي ، ومكانة يرتبط بها أغلب المسلمين في العالم كله . وبصور لورنس في وثائقه السرية خطورة الدولة السعودية التي يخشى أن تكون قوة جديدة بعد سقوط الدولة العثمانية « إذا أصر عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود في تبني الوهابية فإننا يجب أن نشن بفرق الجيش الهندي الإسلامية حرباً لاستعادة مكة وقهر الحركة الوهابية ، لقد اقترحت عام ١٩١٨ أن نفعل ذلك بمشردبابات » وهكذا نجد أن لورنس في إطار الاستعمار والصهيونية العالمية قد عمل كثيراً .

(٢٢)

تحقيق حلم الصهيونية في الوصول إلى القدس

ثالثاً: تمكنت الصهيونية من أن تحقق حلمها في الوصول إلى القدس، بعد ثمانية عشر قرناً، وبعد أن أخرجها الرومان عام ٨٠ ميلادية وهدم الهيكل، استطاعت الدعوة للقيمة في سالونيك إعداد خطة طويلة المدى بالدخول في الإسلام والعمل على احتوائه من الداخل وإقامة الحاخام للسامونية لتدين الخلط السرية لضرب الخلافة والدولة الإسلامية والسيطرة على الحركات الوطنية القومية واحتوائها حتى تمكنت هذه القوة من هزل الخليفة وفتح الطريق إلى القدس بواسطة أوليائهم الانحاديين .

عندما طرد اليهود من أسبانيا عام ١٤٩٣ أصدر السلطان بايزيد الثاني أمراً يقضى بحسن معاملة اليهود في الدولة العثمانية وقد أمر لهم السلطان محمد الفاتح عام ١٤٧١ م بالاستقرار في استانبول وعين لهم حاخام باشى خلع عليه سلطات واسعة وأصبحت فلسطين وممتلكات الدولة العثمانية ملجأ لليهود للطرودين من أسبانيا والبرتغال والمبارين من الاضطهاد في البلاد للمسيحية الأخرى ، وقدر عدد اليهود في فلسطين في القرن السادس عشر بعشرة آلاف نسمة ، وفي منتصف القرن الثامن عشر جاء يهود من برلندا وروسيا إلى فلسطين (صفد وطبرية) وفي آخر هذا القرن وجه نابليون ندائه إلى اليهود في آسيا وأفريقيا بعد حملته على مصر ، الذي وهدم فيه بإعادة اليهود إلى القدس وإعادة بناء هيكلهم من جديد إذا ساعدوه في غزو فلسطين . ولكن يهود الدولة العثمانية لم يعمروه أى اهتمام ، ويقدر المؤرخون اليهود أن نداء نابليون كان هو الحافز الذي حفزهم فيما بعد للتفكير في مشروع تأسيس دولة لهم في فلسطين ، وعندما تم الانسحاب للمصري من الشام عام (١٨٥٠) بذل بالارستون مساهيه لدى السلطان العثماني لإعادة اليهود إلى فلسطين ولما فشل في ذلك أصدر تعليماته المصرية إلى القناصل الإنجليز بالدولة العثمانية بمنح الحماية البريطانية لجميع اليهود الأجانب وهكذا بدأ الاستثمار يتعامل مع الصهيونية العالمية .

وأعلن بيسارك في ألمانيا عام ١٨٧١ م أنه اتخذ الإجراءات لرفع كافة القيود عن اليهود مما يؤدي إلى حل للسألة اليهودية في المجتمعات المسيحية التي نشأوا فيها ، غير أن اليهود قاوموا سياسة (الاندماج) لأنها في نظرم تقضى على ميزاتهم التي يتفردون بها وقد كان التحول الذي شهده المجتمع الأوربي من التعصب الديني أوائل القرن ١٩ إلى القومية العنصرية في العقود الأخيرة منه (وكان من أثر ما أحدثه اليهود بالثورة الفرنسية لإقامة قوميتهم العنصرية) . وقد كانت خطة مقاومتهم للاندماج في الجمعيات القومية ، مقدمة للتنادي بالقومية اليهودية ، وجرى الاتجاه نحو قومية يهودية والبحث عن وطن خاص لليهود وجاءت أحداث ١٨٨١ التي رافقت اغتيال قيصر روسيا لتؤكد هذا الاتجاه بعدها وقد كان القيصر يحاول محاولة الاندماج أيضا السكندر الثالث الذي اغتاله اليهود لإيقاف محاولة الاندماج ، وتلا مقتله هجرة واسعة من روسيا وأوروبا الشرقية نحو الغرب ووصل إلى فلسطين جماعات منهم ، وشهدت فلسطين موجات أخرى في أعقاب فشل الثورة الروسية عام ١٩٠٥ بسبب الاضطهاد الذي وقع لليهود أثر فشل الثورة . وقد وقفت الدولة العثمانية من الهجرة اليهودية موقفا حاسما ، بعد السماح لليهود بالاستيطان في فلسطين وإن سمحت لهم بالاستيطان في ولايات الدولة الأخرى ، وتدل صحائف التاريخ ومراجعاته إلى أنه في عام ١٨٨٧ بدأت تتحرك من أنحاء العالم جوع من اليهود

مشجعة إلى القدس لجوارها بهدف إعادة تأسيس مملكتهم القديمة وفي ١٨٩٦ سمى هرتزل للاتصال بالسلطان محاولاً اتخاذ نظام هثناني يهودى يساعد السلطان بموجبه اليهود فيعطهم مساحة من الأرض مقابل استعداد اليهود لدعم مالية الدولة والتأثير على الرأي العام الأوروبى ليقف إلى جانب السلطان. هرتزل من فلسطين بمبلغ عشرين مليون ليرة تركية .

وقد رد السلطان بعد شهر من مسمى هرتزل (بونية عام ١٨٩٦) : « إذا كان هرتزل صديقك بقدر ما أبت صديقى فأنصحك أن لا يسير أبداً في هذا الأمر ، لا أقدر أن أبيع ولو قديماً واحدة من البلاد ، لأنها ليست لى بل لشعبى ، ولقد حصل شعبي على هذه الأمبراطورية بآرافة الدماء وقد غدوها بعد بدمائهم ، وسوف نعطها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا ، الأمبراطورية التركية ليست لى وإنما للشعب التركى ، لا أستطيع أبداً أن أهبط أحداً أى جزء منها ، ليحتفظ اليهود ببلانينهم فإذا ما قسمت الأمبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل ، أننا لن نقسم إلا جثتنا ولن أقبل بقتريج أجسادنا لأى غرض كان » . وحاول هرتزل أن يستميل السلطان ، بوسيلة أو أخرى ، ولكن السلطان تشبث بموقفه للمعارض للهجرة اليهودية خصوصاً بعد انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول فى بال (أغسطس عام ١٨٩٧) وزاد من اهتمامه بشئون منصرفه القدس وقد أبرق السفير النمساوى فى وشنطون (أبريل عام ١٨٩٨) إلى يلدز بأن هدف الصهيونية فى فلسطين وإقامة حكومة مستقلة فيها وأن بين يديه أشرة عبرية تبين مطامعهم وبعض يهود أمريكا موالون لفكرة ، وزادت الأنباء مخاوف السلطان فأصدر قراراً (بونية عام ١٨٩٨) بمنع اليهود الأجانب من دخول فلسطين دون تمييز بين جنسياتهم .

وحاول (هرتزل) فوسط القيصر الألماني لمكانته لدى السلطان دون جدوى وقد تمكن من مقابلة السلطان بعد أكثر من خمس سنوات (١٨ مايو عام ١٩٠١) على أساس أنه رئيس لليهود ومصحفى وليس كصهيونى ودار الحديث حول مشاكل الدولة الاقتصادية وتصفية الدين العام وما يمكن لهرتزل أن يقدمه من مساعدات مالية ، واستمرت الاتصالات عن طريق (هرتز المايد) حول عروض منها لإنشاء شركة أراضي تسمح المناطق غير المستقلة ، لتسكن من إسكان الأهالى ، وطلب هرتز المايد من هرتزل أن يقدم تعهداً بأن من يدخل من اليهود الأمبراطورية يصبح من الرعايا النمساوين ، ورفض هرتزل ، وطالب بهجرة غير مقيدة ، ولم تحقق هذه الحادثات شيئاً فقد أصر السلطان على موقفه وإن كان قد أفسح لهرتزل ليعرف طبيعة ماهنده إلى آخر الشوط ، وظل السلطان طيلة حكمه (١٦٧٦ — ١٩٠٩) عقبة كأداء فى وجه المشاريع اليهودية وبخاصة وصول الصهيونية إلى فلسطين ، وإذا فشلت

الصهيونية مع السلطان وأصلت مساعيها مع جمعية الإنقاذ والترقي التي جاءت إلى الحكم بعد حركة ١٩٠٨ ، وتمكنت من تحقيق قسط يعتد به من النجاح بفضل اللساعي التي بذلتها عناصر في الحكم من يهود الدعوة الذين تسنروا بالإسلام ولعبوا دوراً بارزاً في الثورة على السلطان ، لذلك رحبت الأوساط الصهيونية بالثورة وأصبح لها نفوذ في جمعية الإنقاذ والترقي . وفي عام ١٩١٣ كان أربعة من يهود الدعوة يحتلون مناصب رفيعة في الحكومة العثمانية منهم : جاويد بك اللالية — يساريا أفندي وزير النافعة ، مازلياج : التجارة والزراعة وكان حسين جاهد رئيساً لتحرير جريدة طنين . واستمرت عملية شراء الأراضي من قبل اليهود وحقن اليهود في ثلاث أشهر أكثر مما حققوه في ثلاث سنوات ، وأجرت حكومة الإنحاديين مفاوضات سرية مع الحركة الصهيونية لبيع الأراضي الأميرية في فلسطين وسوريا واستعجبت سلطات الإنحاديين لرغبات الصهيونية تحت وطأة حاجة الخزينة للناس إلى المال . وفي مارس عام ١٩١٤ ألفت حكومة الإنحاديين القيود المفروضة على ملك لليهود للأراضي في فلسطين وبذلك اخفقت تماماً القيود التي فرضتها حكومة السلطان عبد الحميد للوقوف في وجه الهجرة اليهودية بل وأظهرت حكومة الإنقاذ والترقي عطفها البالغ على الحركة بإلغاء جميع القيود على الهجرة اليهودية وامتلاك الأراضي . وهكذا دخلت السيطرة الصهيونية مرحلتها الحاسمة . وقد جرت هذه الخطوات من خلال تنظيم صهيوني ضخم وواسع عرف بحكومة العالم الخفية ، حسبما أشار كثير من الباحثين منهم (شيرين وسبيريه وقيبلش) في كتابه (حكومة العالم الخفية) ومنهم وليام غاي كار في كتابه (أحجار على رقعة الشطرنج) . وينطلق للؤاف في كتابه عن افتتاح كامل بوجود هيئة يهودية لها صفة عالمية قدر هدد أفرادها في أوائل القرن العشرين ثلاثمائة حبر يهودي يرأسهم أحدهم ، يعملون وفق خطة قديمة مرسومة للسيطرة على العالم فهم عبارة عن حكومة خفية تحكم الشعوب بواسطة عملائها ولا تتوانى عن قتل أو تعذيب كل مسئول يحاول أن يقف في سبيل تنفيذ مخططاتها ، ولها من القدرة والنفوذ ما يمكنها من إيصال أي حقير إلى الزهامة ، وتعظيم أي قائد يعارضهم ، ويؤكد (م . كونيدي البلسلي) إن القوة الخفية التي تتحرك من خلف اللاسونية هي الحكومة السرية للشعب اليهودي .

وإن هذه المحاولة لتجديد لظموهم القديم بعد أن سحقت دولتهم مرتين ٥٨٧ ق . م . يختصر (٨٠٠ ميلادية الرومان) وأن اليهود أبان الأسر في بابل قد اخترعوا فكرة الوعد ورسخوا في أذهانهم خرافة (شعب الله المختار) ليحافظوا على وحدة الشعب وصفاته العنصرية ويعيدوا إليه

نقته في نفسه وقد بدأت في العصر الحديث من خلال محافل للماسونية بالصهيونية والذي لا يختلف عليه الماسون مع غيرهم هو تسلسل الصهيونية إلى الماسونية واستغلالها وحقى بصحيح الحاضر ، فليس هناك اختلاف على علاقة الماسونية . ولكن فئة كبيرة من الناس تجزم بأن الماسونية بجميع محافلها تدار عن طريق التسلسل من قبل قيادة يهودية لا يدخلها غير اليهود وقد تبين من بعد أن الصهيونية احتفلت عام ١٩٦٤ في فلسطين المحتلة بوضع الحجر الأساسى لأكبر محفل ماسونى في العالم قال الحاخام الإسرائيلى بالحرف الواحد : (يحتفل اليوم بوضع الحجر الأساسى لأكبر محفل ماسونى في العالم ومبغىء الطريق أمام الماسونية لتحقيق أهدافها والهدف هو العودة بكل الشعوب إلى أول دين محترم أنزله الله على هذه الأرض وما هذا ذلك فهى أديان باطلة ، أديان الفرقة بين أهل البلد الواحد وبين أى شعب آخر وسيأتى يوم قريب يتحطم فيه الدين المسيحى والدين الإسلامى ويتخلص للمسلمون وللمسيحيون من معتقداتهم الباطلة .

ويتصل بهذا ما أشار إليه الحاخام ، أما نوثيل راثيوفينش ، في تصريح له عام ١٩٥٢ من أن الحرب العالمية الثالثة صيوقدها اليهود للتخلص من الأنظمة القائمة في العالم الإسلامى وإقامة الدولة اليهودية العالمية . وهكذا نجد صورة التآمر الصهيونى والاستعمارى فى السيطرة على الإسلام : سواء أكانت الصهيونية هى التى تستغل الاستعمار أم أن الاستعمار يستغلها ، فالواقع أن هناك مؤامرة مشتركة بين مختلف العناصر إزاء هذا العالم للوحده ، الذى يحاول أن يقم المجتمع الربانى وأن مايجرى فى هذا العصر ليس إلا موجة جديدة من موجات ذلك التآمر القديم الممتد فى موجات متوالية وبصور مختلفة على مدى التاريخ ، يشترك فيها اليهودية الحاكمة على الإسلام والغرب الطامع فى مصادر الثروة والنفوذ والمختلف مع المسلمين فى العقيدة ، ولقد كان اليهود حربا على الإسلام أينما حلوا يؤلبون الأقوام عليه ، وكان الإسلام حامياً لهم فى كل مكان يلوذون به ، فى الأندلس وفى الدولة العثمانية وقد كان اليهود من وراء كل المؤامرات التى عرفها عالم الإسلام وخاصة فيما يتعلق بالسيطرة المالية والاقتصادية ويرجع ذلك إلى خضوع عالم الغرب لهم فى هذا المجال .

يقول والتر رانتو : (الوزير الألمانى الذى اغتيل ١٩٢٣) تحت عنوان العامل الخفى فى سياسة الدول الغربية : أن العالم التمدن بأسره اليوم يخضع فى حياته الاقتصادية لطائفة من الممولين كادت فى بعض الدول أن تستولى على السلطة بأكملها فهى فى الواقع تسن القوانين وهى تقرر الحرب والسلام . إن سيطرة كهذه لمن أسوأ أنواع السيطرة فإنها خالية من كل فكرة عالية أو نزعة سامية ولا دافع لها .

إلا المصلحة المادية ولا خرض إلا امتلاك الثروة والسلطة . وتحت تأثير المال والاقتصاد والسيطرة على أجهزة الصحافة استطاع اليهود تجميع كبار الشخصيات لغايتهم الزائفة التي أقاموها بالباطل . وقد وصفها أحد كبار اليهود (مورجنو) سفير أمريكا في الاستانة بأنها : أعظم تضليل ظهر في التاريخ اليهودي .

وإلى اليهود توجه التهمة بأنهم زعماء الحركات الثورية والانتفاضية ورؤساء الأحزاب المتطرفة وأركان النظام البلشفي ، وأنهم ثانياً ملوك الصيرفة والمال يسيطرون على أسعار الأشياء وعلى تقلب العملة والأشياء المسالية ، ويذهب بعض المتطرفين إلى أن هناك اتفاقاً سرياً بين المساليين اليهود ودعاة الانقلابات يقضى بأن يبد الأولون الآخرون بالمال لإحداث الفتن والفلافل بغية استئثار هذه الحالة والاستفادة منها فإث من الأمور المقررة إن حالة الاضطراب كنيرة الملاحة لأرباب مصيرفة والمضاربة . ومن راجع تاريخ الثروات التي جمعها الأسر لليهودية الشهيرة (كآسرة ورنشيك) يرى أن منشأها هو الحصول على معلومات سياسية ذات شأن والاستفادة منها قبل انتشارها بين الجمهور وأنهم يعملون على إضعاف الرابطة الوطنية والقومية ، وقد انتشر اليهود بعد الثورة الفرنسية حيث حطموا التقيد الذي وضعته الكنيسة هائهم واستفادوا من المساواة الاجتماعية وأصبح لهم نفوذ وسطوة وقفزوا للسيطرة على قيادة الأهلام والصحافة والسينما والمسرح والفنون والآداب وقد عمل اليهود في العصر الحديث في هذه ميادين للأعداد لظلمتهم ، فكان مما عملوا له أن زيفوا دوائر المعارف بحيث تنفق مع غايتهم ، وأذاخوا عن طريق الصحافة والأدب والفكر وقد سيطروا عليها تماماً أن ما يسمونه بالمدينة المسيحية : مدينة أوروبا الحالية على وذلك الزوال وبالطبع متقوم مقامها مدينة أخرى ، هي المدينة اليهودية نتيجة للسيطرة المالية على مختلف أمور العالم . وقد كان لليهود نجاحهم الواسع في إيقاد نار الحرب العالمية الأولى ثم الثانية التي لم يربح منها غير اليهود الذين أعاتوا بقروضهم الجهنين المتقاتلتين ، ثم سيطروا على علوم النفس والاجتماع والاقتصاد وقدموا فيها نظريات هدامة بغية تدمير القيم التي قدمها الإسلام والمسيحية في العالم .

وقد استطاعت الصهيونية أن تستغل جميع وسائل الأهلام وفنون الحرب الخفية والسافرة لتزريق شمل المسلمين وكان احتلال فلسطين هادفاً إلى شطر الوحدة بين أجزاءه وهذا ما حاوله الصليبيون في المصور الوسطى وهو هدف مقصود لذاته ، وتزريق شمل العالم الإسلامي ومنع قيام الوحدة .

وكذلك العمل أساساً على الحيلولة دون قيام وحدة الفكر فيه (وسندرس في الفصول القادمة أثر الصهيونية في الفكر الغربي والفكر الإسلامي) وكذلك السيطرة على موارد العالم الإسلامي ، وإنشاء القوى الهدامة : للماونية والبهائية بخدمة أهدافها والسيطرة على الأسواق المملوكة وعلى البنوك العظمى وعلى وسائل الإعلام ، كذلك سيطرت على معظم زعماء العالم بوسائل التهديد بالإغتيالات أو فضح أسرارهم الخاصة أو شراء ضباطهم عن طريق الشركات الكبرى ومن ذلك الانقلاب العثماني الذي أسقط الدولة الإسلامية الكبرى ورد الخلاف بين الترك العرب إلى العصبة الطورانية طريقاً إلى فدايين وعزيقا للبلاد العربية بل إن مخططات لإرساليات التبشير للمسيحي في العالم الإسلامي كانت في قسم كبير منها وهو القسم الذي ينفع « البروتستانتية » تسيطر عليه الفكرة الصهيونية ويستهدى في مناهجه على ضوء التلويحية فكراً والصهيونية هدفاً . وقد أشار كثير من الباحثين إلى المخطط الصهيوني للإستيلاء على العالم تتضمن دهوات مختلفة :

(١) الحكومة العالمية . (٢) لغة الأمبرانتو . (٣) الهيبة وقلق الشباب . (٤) سيطرة اليهود على مقدرات الدول الكبرى العالمية . وتشير كثير من الأبحاث السياسية أن الصهيونية قد تمكنت في الغرب من احتواء الامبريالية الغربية وسخرتها من أجل تحقيق أهداف إسرائيل ، وما يزال نفوذ الصهيونية نافذاً في البيوت التجارية وتجارة السينا السوداء ، والجمعيات والمنظمات ، ومصادر الإعلام في الصحف والتلفزيون وصالات عرض أفلام الجلس ، وأنها من وراء استنزاف ثروات البشرية في مجال الترف والانحلال حتى تحرم منها الأمم صاحبة الحق في الانتفاع بها مع ترك الملايين من أبناء تلك الأمم جوعاً وحرارة . وما يزال دهوة اليهود العالمية في كل عصر وبيئة والتي يجدونها في هذا العصر تحت أسماء عصرية ومذاهب أيولوجية براقية ، هي الربا والأباحية والتفرقة العنصرية واستغلال الشعوب يستخدمون في سبيل ذلك ما أسموه علوم الأثروبولوجيا والنفس والعلوم الاجتماعية ودهوات الانفجار السكاني والأباحيات وغيرها ، لتبقى هذه المجموعة القليلة من المسيطرين على مقدرات الحياة البشرية هم وحدهم المالكين وبقى العالم بعد ذلك عبيداً لهم وخدماً ، المحاولة ترمي أساساً إلى تهويد العالم فكراً وإحلال مفاهيم (للادبة) في عقول وقلوب الناس إلهاماً لحيوانية الإنسان وإذلالاً لإنسانيته ومنعاً دون قيام المجتمع الرباني وما يزال الصراع بين هذا الفكر البشري الوثني الأباحي المادي وبين الفكر الرباني للمصدر الإنساني الطابع وسيظل ، حتى يتم الله نوره وحتى يتم آياته ويقين للناس أنه الحق . لقد سجل اليهود وجهتهم في صراحة تامة : « إثارة حلة الأحقاد والكراهية في الشرق ضد الغرب وأيضاً في الغرب ضد الشرق ولن نسمح بأي حال بوجود دول

ما تقف على الحياء أو غير منحازة بل سنعمل بكل ما في وسعنا من مرا كزنا في كل معسكرات القوى الكبرى على إرغام الدول التي تفكر في الحياء أو هدم الانحياز أن تلجأ طواحية أو كرها إلى مصكر قائم ، وهذا ييسر لنا العمل في جبهتين متواجهتين نعلم ما بداخل كل منهما وأن تعارضت بطبيعة الحال مصالحهما ، وهذا وحده هو السبب المباشر السكافي لإشعال الحرب العالمية الثالثة عندما تندفع هذه المصالح في اتجاهات متضاربة متعارضة . برتوكولات صهيون : وهذا يتفق مع ما ورد من قولهم : سوف نستثمر كل أموالنا لتنفيذ هذا العداء للتبادل بين الشرق والغرب مع استمرار استئثار عطف العالم على اليهود في الوقت الذي ندهم فيه إسرائيل اقتصاديا وعلميا وبشريا على حساب من حولها من العرب الذي يجب أن نشغلهم بالفتن الداخلية حتى لا يتفرغوا أبداً ولا يشعروا بما نفعله من في إسرائيل ، وعلينا أن نبقى إسرائيل بعيدة ما أمكن عن نار الحرب العالمية الثالثة حتى تكون قادرة على ممارسة إقامة الحكومة العالمية في روما بعد انتهاء الحرب . وعلينا أن نضمن لها موازنة البقاء بأن يبقى ارتباطا مع الولايات المتحدة من جانب معين وعلى ارتباطها بالاتحاد السوفيتي من جانب آخر . وفي السنوات الأخيرة بدت ظواهر جديدة : أصدرت الكنيسة الكاثوليكية وثيقة حثت فيها على وضع حد لمعاداة السامية وأهربت بصورة مباشرة عن موافقتها على وضع حد لمعاداة السامية وأهربت بصورة مباشرة عن موافقتها على إقامة دولة إسرائيل . كما أصدرت قراراً بتبرئة اليهود من محاولة قتل السيد المسيح عيسى بن مريم . كذلك تبين مدى العلاقة الجذرية والصلابة العضوية بين الصهيونية والشيوعية فقد تسربت وثائق كثيرة تكشف عن مؤامرة السيطرة المزدوجة عن طريق وضع العالم بين كسرة البندق ، من حيث سيطرة اليهود على العالم الغربي الرأسمالي وسيطرتهم على وليدتهم للاركية الليبيرية المطبقة في روسيا والصين وغيرهما .

كذلك تبين أن فكرة الفصل بين اليهودية والصهيونية هي خدعة ماكرة ، وأن الرأي الصحيح هو أن الصهيونية هي الواجهة السياسية لليهودية ، تلحق إليها حركة العمل وتلصق إليها الخطأ في حالة التراجع أمام العالم . كذلك إنكشفت العلاقة بين الصهيونية من ناحية وبين العلوم الحديثة التي تحاول سحق المجتمع البشري . (١) علاقتهم بالماركسية . (٢) وعلاقتهم بالعلوم الأجنبية (دوركايم) . (٣) وعلاقتهم بالتحليل النفسي (فرويد) . (٤) وعلاقتهم بالوجودية (سارتر) (٥) وعلاقتهم بالبهاية (عباس البهاء) وبالجملة فإلى الصهيونية ترد متغيرات كثيرة في العالم الحديث نكشف عن جانب من مخطط الغرب كله في مواجهة الإسلام ذلك أن الصهيونية ترى نفسها الوريث الوحيد للاستعمار الغربي على اعتبار أن الشيوعية هي شطرها الآخر . وقد استهدفت تحقيق غايتها

في السيطرة على فلسطين أساساً لتنطلق منها للسيطرة على العالم كله ، وفي مقدمة هذه المنهيات والنهولات : الثورة الفرنسية والانقلاب الشيوعي والحربين العالميتين الأولى والثانية ثم بعد ذلك دهوات الوطنية والقومية والفكر الماركسي والوجودية ، والمادية والصراع الطبقي ، والطوائع الأباحية العالمية المتصلة بالمرى والفساد والأفغان والسبنا والفن والمسرح الذي هو عندهم بديل دور العبادة ولقد كانت الماسونية مدخلهم إلى العالم كله ، وإلى هدم الأديان والتقاليد والأخلاق والقيم حتى قال جورج زيدان في كتابه تاريخ الماسونية العام : « إن الماسونية كانت مصدراً لكثير من التعاليم التي أصبحت من أقوى دهايم التمدن الغربي الحديث » .

(٢٣)

إسقاط الخلافة

(رابعاً) أمكن تحقيق الغاية الكبرى بإدخال الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى دون أن يكون أى مصلحة أساسية ، في صف الألمان وهزيمتها وتجزئتها وإعدادها لإسقاط الخلافة وإنشاء نظام ديمقراطي غربي يستأصل الإسلام ، فقد كان القضاء على الوحدة الإسلامية في كل صورها وأشكالها هدفاً أساسياً للاستعمار والصهيونية والروس قبل البلشفية وبعدها . إذا كانت الوحدة الإسلامية هي المائل الخطير الذي وقف في وجه الزحف الاستعماري وتقسيم ميراث الدولة العثمانية وكان الإسلام هو الذي قاوم الاستعمار في كل مكان من العالم الإسلامي ، ولذلك فقد عملت قوى الغرب على تخطيط الوحدة الإسلامية بإعداد ثلاثة أعمال متصلة :

(١) إسقاط السلطان عبد الحميد . (٢) هزيمة الدولة العثمانية وتقسيمها . (٣) إلغاء الخلافة الإسلامية والحيلولة دون قيامها . وقد سعى الغرب إلى ذلك سعيًا حثيثًا واستخدم كل الوسائل وأهمها بث روح الوطنيات والقوميات في كل أجزاء العالم الإسلامي حتى يشغلها بالبعد التاريخي الإقليمي الخاص بها ويعزلها عن فكرة التجمع الأفقي الشامل ومن شأن ذلك في تقديرهم أنه يقضي على النظام الإسلامي نفسه كنظام مجتمع ومنهج حياة وبذلك سيطرت القوانين الوضعية وهزلت الشريعة الإسلامية تماماً إلا من مناطق قليلة جداً في العالم الإسلامي .

وجرت الدعوة إلى إعلاء الرابطة العنصرية والديوية والعرقية والفوقية والجنسية ووصف الرابطة

الإسلامية بأنها هامل من هوامل التمعصب والتأخر - والهدف من ذلك هو حل هروءة الاسلام وكانت
فكرة الجامعة الإسلامية قد ظهرت كرد فعل للمحاولات الخطيرة حين أخذ الاستعمار يقطع أجزاء
من العالم الإسلامي ويستولى عليها وكانت للحركة بقيادة السلطان عبد الحميد أثر كبير ، لأنها بيد
حاكم له سلطانه ونفوذه ، كما أنها كانت تمثل قوة قائمة ، يمكن أن يجمع المسلمين جميعا من خارج
الامبراطورية العثمانية إلى ظلها . وهذا هو ما تحقق فعلا وأخذ يؤتى أكله لولا مسارعة الاستعمار
والصهيونية إلى (إجهاض) هذه الحركة بعزل السلطان عبد الحميد والتآمر عليه فقد اهتز القرب
لفكرة الجامعة الإسلامية التي دها اليها عبد الحميد اهتزازاً شديداً وهاجها كرومر ودرا كور وزعماء
الفكر الغربيين خوفاً من آثارها البعيدة وألبوا عليها فرنسا وإنجلترا . ولقد حدد الاستعمار
والصهيونية مرحلتين لتنفيذ المخطط :

المرحلة الاولى : وهي [مرحلة الاتحاديين] : الذين حكموا بعد السلطان عبد الحميد وهؤلاء
حجبوا الخلافة ونفذوا مشروهاً قائماً على « التتويه » بحيث ترى دهوة ظاهرة إلى التجمع تحت لواء
الخلافة ، وفي نفس الوقت تجرى دهوى الطورانية من خلفها وتجرى دهوة العرب إلى دهم الوحدة
العثمانية في نفس الوقت الذي يقتل فيه العرب على المشائق حتى لا يقوم لقاء جزئي الأمة الإسلامية
(العرب والترك) سنوات وسنوات لقد عبد الاتحاديون الطريق أمام الخطوة الأخيرة : وكانت
أعمالهم الثلاث الكبرى من أم الأعمال . (١) فتحوا الطريق أمام الصهيونية إلى فلسطين ،
(٢) سلخوا طرابلس القرب للاستعمار الإيطالي (٣) أدخلوا الدولة العثمانية الحرب العالمية
دون أن يكون لها فيها ناقة ولا جمل في صف الألمان . ثم عمدوا إلى تفريك العرب وآثارهم على
الدولة وتحريرهم على الاتصال والإلقاء بأنفسهم في أحضان الحلفاء وهو ما حدث فعلا . ولما انتهى
دور الاتحاديين وحلوا مسئولية خراب الدولة العثمانية بما كبدها إياه خلال الحرب العالمية وما بعدها
اختفوا ظاهرياً ليظهروا في صورة جديدة تحت لواء مصطفى كمال . وكذلك كان الاتحاديون ثم
الكماليون : نسفاً واحداً . ومخططاً واحداً ووجهة واحدة فسبت نفسها على العمل تحت أسماء
(تيازي وطلعت وجمال) ثم تحت اسم (مصطفى كمال ، عصمت أيونو) من بعد وهم ماسون ،
ودعوة ، وأتباع ثقافة الثورة الفرنسية ، والمملون لشأن جنكيز خان ، والسكرهون للاسلام والقرآن
والعرب ، والمؤمنون بتعطيم الوحدة الإسلامية ، والتفريق بين العرب والترك ، والداعون إلى
القضاء على الشريعة الإسلامية ، والخلافة ، وقد نفذ الاتحاديون المرحلة الأولى فيها فلما انتهت
الحرب الأولى بهزيمة الألمان والدولة العثمانية بدأ العرب بصنع السكيز في الزبد لتقطيع الأوصال

والانتقام على النحو الذي ظهر في معاهدة سيفر عام (١٩٢٠) وبدأ الاتحاديون بإسليم السكاليين في تمزيق وجه الدولة العثمانية من الداخل ونقل الأتراك إلى الغرب نقلاً كاملاً . تمهيداً للقضاء على الخلافة الإسلامية بعد القضاء على الدولة العثمانية التي كانت القوة الحامية للإسلام أربعمائة سنة . وقد بدأ السكاليون بالفصل بين السلطنة والخلافة وجعل الخلافة روحية محضة . وكان هذا خطوة في سبيل إعلان إسقاط الخلافة على سبيل التدرج .

وقد كشف للفكرين للسلمون مدى ما يحمله هذا الخطر للمهد لإلغاء الخلافة . فقال شيخ الإسلام « مصطفى صبري » : أن الأمانة الكبرى التي يمبر عنها بالخلافة تتضمن حكومة تنفيذية الشريعة الإسلامية ، فتجريد الحكومة من الخلافة والتفريق بينهما يخرج الحكومة عن أن تكون إسلامية ، وهي تهدف إلى قطع علاقة الدين بإجراءات الحكومة حتى لا تمتد يده إليها ويبقى ملقى من العمل ، وبصور ذلك بأنه محاولة من الاتحاديين وأخلافهم لفتح الحصن من داخله ، وهكذا أقام السكاليون خلافة بغير سلطة لمدة عام وبضعة أشهر ، وقالوا إن الخلافة اندمجت في الحكومة . « وكيف تندمج الخلافة النبوية في حكومة أهانتها واحتقرتها كل الاحتقار وابطلت المحاكم والأحكام الشرعية وهدت ربط الحقوق بها ربطها بالخرافات وأعلنت الإلحاد ورفضت أن يكون دين الدولة : الإسلام . » — ١ . هـ ويشير شيخ الإسلام مصطفى صبري إلى أن معاهدة سيفر القاصية قد هدلت من بعد في مؤتمر لوزان وخففت آثارها بعد أن دفعت تركيا السكالية الثمن في تلك للمعاهدة السرية التي تناثرت أخبارها . (وأنا أقلها هنا مما أوردته مفتي فلسطين محمد أمين الحسيني في مذكراته) . قبول تركيا شروط الصلح الذي عقده الحلفاء معها في لوزان عام ١٩٢٣ وللمرونة بشروط كرزون الأديمة وهي : (١) قطع كل صلة بالإسلام . (٢) إلغاء الخلافة . (٣) إخراج أنصار الخلافة والإسلام من البلاد . (٤) اتخاذ دستور مدني بدلاً من دستور تركيا القديم (٥ . ١) يقول شيخ الإسلام مصطفى صبري : ما سر نجاح عصمت باشا في مؤتمر لوزان وارتقاء ذلك النجاح إلى كونه نجاحاً نجاح دولات لم تغرب الدول الكبرى عن حوزة شمولها ولم تقتصر على اليونان فقط حتى عا الحسابات المتينة الأمتيازية فقط وكان هاتق الدولة العثمانية يحمل ألقابها منذ عهد بعيد مع أن عصمت باشا لم يظهر بسلاحه على الانجليز في ميدان الحرب وميدانها ولم يضيئ الأرض بما رحبت كما ضيئها على اليونان وكيف همهم ظفاره في مؤتمر لوزان ، لقد امح مستشار وزارة الخارجية البريطانية إلى هذا السر العميق في برلمانهم بعد ما أتم مؤتمر لوزان عمله وعاد ، قال بعض النواب عن المعاهدة

إنها انهمام سياسي لم يسبق مثيله في تاريخ الإنجليز نجاه الأتراك ولو غلبونا في الحرب العظمى ما استفادوا بأكثر مما منحوا في هذه المعاهدة .

قال المستشار : « عليك بوزن المسألة من حيث الفرق بين دولتي الترك القديمة والجديدة فهي اليوم دولة ملية متحدة » يعنى : مقصورة في هذه الدائرة المحدودة ومنقطعة عن تملقاتها النفسية العميقة لأقطار العالم باشتغالها على الخلافة الإسلامية الكبرى . وقد باحت جريدة (وقت) التركية عن السر العميق الذى ذكرناه آنفاً وكانت الجرائد الإنجليزية تسكتب : أنه مادام شكل الحكومة فى تركيا جامع بين الخلافة والسلطنة فإنه لا يمكن تطبيق قاعدة سيفر باسم حقوق الأقليات فهي نتيجة طبيعية لذلك الشكل من الحكومة : أى الحكومة الحائرة للخلافة ، أى أن الفن هو إسقاط حكومة الخلافة الشرعية وإقامة حكومة لائنية وكان هذا هو المربون الذى قدمه مصطفى كمال للغرب ، وهذا من أبلغ كيد الغرب (والحكومة البريطانية بالذات) الإسلام وللخلافة ولو حدة المسلمين ، يقول شيخ الإسلام مصطفى صبرى . إن بريطانيا تترامى مغلوبه أمام مصطفى كمال حتى تعظم فتنته فى إبصار المسلمين وبصائرهم والرجل من لا تجد الإنجليز مثله أو جدت فى طلبه من حيث أنه يهدم من ماديات الإسلام ومن أدبياته فى يوم ما لا تهدم الإنجليز نفسها فى عام فلما ثبتت كفايته وقدرته من هذه الجهات فوق كفايته وقدرته فى طرد اليونان من الأناضول استخلفته لنفسها واستحبت من بلادنا فما غادرتها حتى استخلفت من يعادينا والإسلام أكثر منها . ويقول : كان مسعى الإنجليز فى أرضنا إعادة أرواح الاتحاديين فى أجساد السكاليين ليمضوا فى إفساد دولتنا . ويربط بين الاتحاديين والسكاليين فى عبارة رائمة هي قوله « هدم القبرية بين السكاليين والاتحاديين » . « انسموا إلى نهاية الحرب الكبرى بعنوان الاتحاد والترقى وانساقوا خلف أشخاص مثل (طلمت وأنور وجمال) وبعد الهدنة جمعوا شملهم المشتت فى حاشية مصطفى كمال ففسدوا بالقوى المالية والسكاليين وجمعية مدافعة الحقوق وحزب الخلق وناسوا باسم الاتحاد وتناكروا وهم هم بأهليتهم ولم يدع واحد من الفريقين شيئاً من التنازير والتنازير بينها بل هابأجمعهما حصراً كل جهدهما فى معارضة المخالفين إلى حزبي الحرية والأئتلاف ومخاصمتهم أشد الخصومة (ك : التنكير على منكرى النعمة والخلافة) . وأشار إلى أن حزب الاتحاديين هو الذى أشقى الأستانة فى معاهدة لوزان وتركها مع المضايق من غير دفاع ودخوله الحرب الكبرى هو كل خطيئة ، وأشار إلى ما أورده الصحف التركية من سخرية من براءة السكاليين من الاتحاديين وأفعالهم ، وهم شركاؤهم فيها بل هم أنفسهم للتناسخون عنهم ، وقال أنه لا فرق بين السكاليين والاتحاديين من حيث المبدأ فكلاهما منفق على

نزع السلطة من الخلفاء والسلاطين ومنعها لصناديده تحت ستار منحها للأمة وكلاهما لا دنى يترأى
لناس تارة بوجه طورأى منمصب الجفنية وتارة بتقدمات البلشفية وتارة كالجاهد فى سبيل الإسلام
وكلاهما مفرض فى دعوى الحرية بلفظه وقائلها بفعله وكلاهما مولع بالحرب والقهر وطرائق المرح والمزج
غير باذل من كل ذلك هن نفسه وماله. « إن النهضة السكالية مرتبة ومدبرة لإحياء مبادئ الاتحاديين
إلى لإحياء أشخاصهم الذين كانوا قد ماتوا عندما أمانوا الدولة العثمانية السكبرى فى الحرب العالمية ،
وإن الاتحاديين الذين هدموا الأباطورية العثمانية على ما أعترف به لدى السكاليين ، لو لم يكن
السكاليون منهم ومنهم فى أفعال الهدم على ما بينا ثم لم يزيدوا عليهم يهدم الخلافة الإسلامية أيضاً
كان لهم حق التنبجج على الاتحاديين وكلا الحزبين فى الحقيقة من جنس واحد ، وكلاهما غير مستند إلى
القوة المشروعة التى تستند إليها الأحزاب السياسية وهى القوة الغير مسلحة ، أهى بها قوة الشعب
والانتخاب المبني على المحبة العامة بل منبع القوة فى كليهما عبارة عن الجبش » .

(٢)

وهكذا مهد الاتحاديون لإلغاء الخلافة وأخروا مصطفى كمال لأداء هذا الدور الخطير : إلغاء
الخلافة الإسلامية بعد أربعة عشر قرناً ونفى آل عثمان من تركيا وإلغاء المحاكم الشرعية والمدارس
الدينية والأوقاف واللغة العربية وقالت الصحف التركية إن الحكومة السكالية إنما ترمى فى حركتها
الأخيرة إلى وداع الشرق وكل ما فيه من التقاليد القديمة التى يمثلها دين الإسلام ، وتقول الصحف
التركية على ما نقل مثلاً فى ٢٨ شباط ١٣٤٩ : « إنا نازمون أن ندوس بأقدامنا وأقدامنا ونسف كل
موانع وحوائل فى طريقنا التى تذهب بنا من الشرق الذى ودعناه إلى الغرب الذى يمتناه ، حتى أن
التقرب لا يقتصر على شئوننا الرسمية وقوانيننا بل سنسكون أدهفتنا وعقلميتنا أيضاً غربية بحنة ،
ولا حاجة لنا بعد الآن إلى مقام الخلافة والوزارة الشرعية والمحاكم الشرعية والأوقاف والمدارس
الدينية ، إنا نودع هذه الأشياء الخلق اللاتى تمنعنا من الرق والتعالى . أن كبير الذنب للحروف
العربية لأنها هى التى أخرتنا وجعلتنا وراء الأمم فى العلم والتعليم فيجب علينا أن نخط بحروف
لاتينية » . وقال مصطفى كمال فى خطبة المجلس الوطنى (١ مارس هام ١٣٤٠) :

حتم علينا ننتفض فى تغيير بيتنا بكل جريمة على كل تأثير ولا نتردد فى الاندفاع إلى الرقيات
الشرقية والطريق الذى نمتى عليه فى الحقوق المدنية وحقوق الأسرة لا يكون إلا هن طريق المدنية

والحضارة (الغربية) وكون الأمم مربوطة في الحقوق بالخرافات ومدارات المصالح كابوس يمنعنا من الاستيقاظ ، لكن أمة الترك تأتي أن يركبها الكابوس .

وتقول الصحف التركية : أن الخلافة والسلطنة زالتا زوال كلدان وأشور وبابل ومصر القديمة وزال معهما « الدين » الذي يمنح الحياة والاستقلال بتلقية الباطل فخان لنا بعد هذا إقتباس الحقوق الحديثة المنشقة من حقوق رومية ، ويقول أناتورك : مبدأى هو إلغاء الخلافة لا لأجعلها لنفسى فأنى رجل لا يتزل إلى قبول المناصب القديمة البالية ، إرتقينا ونجونا مما رميناه اليوم من كناسات التاريخ وجيفه . وهكذا دخلت تركيا السكالية مرحلة جديدة كان عنوانها : قائد لا يفتى من الحر ، يمرض النساء على الرقص فى المراقص ، ويكتب فى المراقص ، ويكتب بالحروف اللاتينية ويفلق المساجد ويستبدل القبة الطربوش ، ويكره النساء على السفور ونزع الحمار ويقول : أرقصوا أزواجاً أزواجاً .

وكم أراقت دماء السكاليين من خور ، وقالوا : تقربنا وأثبتنا اعتمادنا للغرب فى مدة قليلة ، وهلت كلأت الجمهورية ، الوطنية ، والإلحاد ، اللاتسكية . ويقول شيخ الإسلام : مصطفى صبرى : أنى أخاف ان تسعد تركيا وترقى بهذه الارادة الحديثة اللاتينية رقباً دنيوا وإن كان ذلك فى غاية البعد والاستحالة فيفتن بها المسلمون الذين قلما سلموا من أن يعجبوا بها وهى توغل فى سبيل الافلاس والاندراس ، وتكون فتنتها عليهم أكبر مما تقدم واشتم (ربنا لا نزع قلوبنا بعد إذ هدقنا وهب لنا من لذلك رحمة) . وخير ما تقدمه لروح مصطفى صبرى : هو تصريح توينبى الذى « غير » فيه تركيا بأنها تقربت ١ وأنها لم تستطع أن تقدم للحضارة أى إضافة علمية أو تكنولوجية وإنما كانت تابعة زادت الغرب تبعا من حل مشكلاتها ولقد خدع المسلمون والعرب حقا فى أول الأمر ولكن الحقائق تسكشت من بعد أن شطراً من أمة الاسلام ، ذاهبون فى التيه سنوات فما هادوا حتى قضى على ذلك الطاغوت الذى كان مثلاً أعلى لبعض الزعماء والقادة . وفى كتاب شيخ الاسلام : مصطفى صبرى التكبير هو منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة) بيان هن نقطة التحول هذه التى لها خطرهما على الاسلام والعالم الاسلامى والعرب جميعاً والتى كانت مقدمة لمعبد من الحركات السياسية والاجتماعية الموهلة فى طريق التغرب . يقول شيخ الإسلام : التزمت فى كتابى هذا لإثبات أمرين : كون السكاليين أعداء الدين وكونهم أعداء الحرية مستبدين ومضطهدين ، والحق أن مصطفى كمال ألغى محارم الاسلام خالية من رجال الحراسة والفراسة فركض عليها بجعلها كما قال (تابط شرا) .

وصادف سهل الأرض لم يكده الصفا

به كدحه والمسوت خزيان ينظر

قام حزب الحروب أهلى حزب الاتحاد باسم جديد كمالى قومة جلوزت قامته الأولى وآثار قيامه العقوبة لى كل من خالفه فى دخول الحرب وسائر الميسادىء السياسية والإجتماعية من الأحزاب والرجال » ويقول : أن الأمة التركية المسكينة المسلمة واللى تفدى دينها بجهنمها منذ إحصار قرون : أصبحت اليوم بين « الإلحاد والسيف » وهو لا يستبعد كل الاستبعاد أن يعد آل هنان مسئولين من هذه الحالات لأنهم لم يهتموا ولم يجتهدوا فى درء الانحدادية السكالية ، ولم ينصروا الذين جاهدوم حق الإهتمام وحق الاجتهاد وحق النصره بل التزموا الحيايد وحسبوا أن المداورة والحيايد تنفع نجاة فنتهم التى تأبى إلى أن تهلك الحرث والنسل وإلى أرى أنما لكل مسلم تراخى فى مناوأتهم ومخاذاقتهم والمجاهدة فى استئصال شأفتهم التى تعترض دين الإسلام » ويشير إلى الخدعة التى خدع بها الاتحاديون المسلمين ليؤيدوم وكذلك حيث ساعدوم العالم الإسلامى بمئات الألوف من الجنبيات التى أفقتوها على هم الخلافة والدين . وقد خدع المصريون والعرب بخطوات الاتحاديين أولانم السكاليين وخاصة عندما كان يرفع مصطفى كمال أبان حرب الأناضول المصحف ويدهو المسلمين إلى تأييده فى جهاده ضد اليونان ، ولكنه سرعان ما كشف عن خالبه الحمراء الدامية التى أطبق بها على حق الإسلام منذ ما يمتد جميع المؤرخين أنه كان خطة مدبرة تم على خطوات منذ عام ١٩٠٩ حتى أسقطت الخلافة عام ١٩١٤ يشير إلى هذا شيخ الإسلام مصطفى صبرى ثم يعقب قائلا : فلفنح عالم الإسلام حينه وليأخذ حذره من الملحدين الذين دبت هقاربهم ونجحت فى بلادنا تجاربهم فلا ينقده هذا المسلك الذى سلكه : ينام وينخدع بهم إلى ماشاء الله وشاموا ثم نذبه بعد ما كانت السكائنة ولات حين جدوى لذلك الإرتباء ، وليصبر من أولئك الملاحدة كيف يجتهدون فى إنجاح مبادئهم ساهرين خير ساهرين ولتعلم إن المدى والضلال ليس من الفسكاهات التى يرغب فيها الانسان حين ماشتهى وهوى ويعرض عنها إذا لم يشته وأنى قد أطلت النقد والشد على الاتحاديين والسكاليين فى أوانه لاسمع المسلمين فيتداركوا الخطر قبل نمامه فلم يستجيبوا لى ولم يصدقونى .

وكان شيخ الإسلام للدولة العثمانية مصطفى صبرى قد هاجر من تركيا إلى مصر بعد أن استنحل أمر الاتحاديين وأخذ يقود حملة فى الصحف المصرية ويكتب الكتب لينبه المسلمين إلى الخطر قبل أن يقع بذلك أنه عندما بدأت الخلافة تتأرجح وقف كتاب الشعوبية المصريين يؤيدون السكاليين ويهللون لهم وجاء مصطفى صبرى ليكشف هذا الزيف : قائلا إن الذين يقومون بهذا العمل ليسوا هم الأتراك المسلمين وإنما هذه فئة بفت هليهم وعلى الخلافة الإسلامية وأحييت اللادينية على الإيمان والجنسية على الإسلام فإن تعالت العرب وفضلت جنسيتها على إسلامها فسأصرهم أيضاً .

وعسكنا أدخلت تركيا (بمركة الاتحادين السكاليين) العالم الاسلامى فى أخطر مراحل التحدى بين الإسلام والغرب وهى مرحلة استبدال الرابطة الاسلامية الجامعة بالرابطة الجنسية القومية وإحياء اللادينية بدلا من الدين . هذه النار التى امتشرت فى المشرق بعد وعت العالم الإسلامى كله مازال من التحديات الخطيرة والفتن الكبرى التى أوقدها الغرب فى دولة الخلافة .

(٣)

كانت كل القوى تعمل على التخلص من الخلافة الإسلامية باعتبارها رابطة المسلمين ومصدر وحدتهم وكان للصهيونية العالمية دورها فى ذلك بما يصوره عبد الله النحل فى كتابه (الأفنى اليهودية فى معاقل الإسلام) يقول : تميز صراع الأفنى اليهودية مع الخلافة الإسلامية بطول مدته وبأن القذات كانت قاتلة ، أدت إلى هدم هذا المرح الشايع الذى كان المسلمون يلتفون حوله ويعتبرونه رمز وحدتهم وقوتهم وهزتهم وحرصهم ، وجهت الأفنى النظر إلى الأستانة للشروع فى عمليات بث السموم قبل عشرات السنين من ظهور هر تزل نبي اليهودية والصهيونية منذ تسكنا اليهود فى تركيا بأعداد كبيرة على أنز طرد من أسبانيا فى القرن الخامس عام ١٤٩٢ بدأت اللداهات منذ عهد السلطان مراد الثانى ومن بعده السلطان العظيم محمد الفاتح عام ١٤٨١ م الذى اغتاله طيبية اليهودى يعقوب باشا المعروف باسم (ميا. نروجا كوب) بالسلم كما ثبت أن اغتيال السلطان سليمان القانونى وأحفاده الصغار قد دبرته (فورباتو) اليهودية ، استمرت مؤمرات اليهود فى دوائر الحكم العثمانى أكثر من أربعمائة عام . وقد جاء ذلك نتيجة ظور الدعوة (المردون) وهم الذين تظاهروا بالإسلام بعد وصولهم من أسبانيا ونجمهم فى سالونيك ، كذلك فقد عمدت الصليبية الحاكمة على الإسلام بعد ما رأت إمداد رقة الإسلام ولاسيا بعد سقوط القسطنطينية على يد السلطان الفاتح وزحف الاسلام حتى أبواب فينا وأن وضعت الصليبية الحاكمة نفسها فى خدمة اليهودية العالمية لتسخرها رأس الأفنى اليهودية فى مساهمتها على تحقيق خطط المدمم والتخريب .

ومن أجل ذلك تمالفت قوى الصليبية الأوروبية مع دول حديثة هى بلغاريا ورومانيا والنمسا وفرنسا وروسيا واليونان وإيطاليا لمحاربة الدولة العثمانية وحرمانها من الهدوء والاستقرار والتفرغ لبناء وقد أدى الضغط الصليبي المدمر إلى تضيق رقة الاسلام فى أوروبا كما أدى إلى تقطيع أوصال السلطة التى كانت تمتد من تركيا شمالا إلى حضرموت جنوبا ومن إيران شرقا إلى طنجة غربا فضاحت الجزائر عام ١٨٣٠ مصر دولة تاج السلطنة عام ١٨٨٢ ومن بعدها تونس وليبيا والمغرب .

وقد أشار عبد الله التل إلى أنه كان من أخطر عمل الأقوى اليهودية بعد رفض السلطان عبد الحميد مطالب الصهيونية هي تلك الدعاية الفاجرة التي صورت الحكم في عاصمة الخلافة في أبشع صورة ، من قلب الخفافيق وإبراز المساوىء وطمس للمحاسن ، وقد نجحت تلك الدعاية المضللة على أوروبا وفي العالم بأسره ، وأبرزت وحشية الأتراك وطمست وحشية البلغار واليونان والفرنسيين والإنجليز والروس كذلك حركت فريزة الطمع الإستعماري لا يتلأح أجزاء غنية من تركة الرجل للرياض وقد صورت الدعاية اليهودية (مدحت باشا) اليهودي الماكر على أنه بطل من أبطال العالم وممته أبو الأحرار ومخترت صحف أوروبا وإذا هتفا لتمجيد مدحت باشا حامل لواء الإصلاح والحرية في السلطنة العثمانية وهو في حقيقة أمره يهودي متأمر على الإسلام والمسلمين وألة مخربة مؤذية ، وقد تعالت صيحات اليهودية العالمية حين عزله السلطان عبد الحميد وفناه إلى الطوائف واستنارت سفارات الغرب في الاستانة محتجة على قسوة السلطان عبد الحميد ومطالبته بالعفو عنه ، وحين أشعلت الأيدي الصهيونية الصليبية فتنة عام ١٨٩٠ وما صاحبها من مذابح بين الدرروز والنصارى في سوريا ولبنان فجمعت الدعاية اليهودية في رمى للمستولية على الأتراك للمسلمين تمهيداً لحصول الصليبيين على امتيازات في ديار المسلمين بمحجة حماية النصارى ، ونجحت الدعاية اليهودية في إيقاظ صدر المسيحيين في أوروبا كلها حين زورت وقائع التاريخ المتعلقة بحرب البلقان وبخاصة الحرب مع البلغار وجعلت شعوب أوروبا تتنادى لهزيمة نصارى البلغار مع أن الحقيقة تشير إلى عكس ذلك فقد كان البلغار يبدؤون دائماً بالعدوان ويظهرون أحقادهم الدفينة ضد الإسلام ويبعثون بالمسلمين « ا . ا . » وهكذا نجد أن الإستعمار الغربي (والبريطاني خاصة) كان ينفذ مخططاته ، وأن الروس كانوا ينفذون مخططاته ، وأن الصهيونية كانت من وراء كل المخططات تنفذ مخططاتها السري الذي تعتبر به نفسها وريثة الإستعمار الغربي كله .

(٤)

وإذا كانت القوى كلها متصارعة فيما بينها على ميراث (دولة آل عثمان) فإنها كانت متفقة على إزالة الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية ، وكانت تعمل على استخدام « الدعوة » وم اليهود الذين أقاموا في سالونيك منذ طردوا من أسبانيا وأعلنوا إسلامهم تقية وخداها ، في هذا السبيل ، يُدأَم : مدحت وختمهم مصطفي كمال . ومنذ بدأ مدحت حركة الاتحاد والترقي وحشد لها من رجال الحافل الماسونية والدعوة الكثيرين وتمددت المراحل حتى حكم الاتحاديون فيما بين عام ١٩٠٩ — ١٩١٨ ثم جاء السكاليون لينتموا هذه الرسالة بالقضاء على كل لون إسلامي أو عربي في تركيا ، ولقد احتفل الفكر الغربي بمصطفي كمال أتاتورك احتفالا شديدا وألف عنه مئات الكتب وأشادت به أهواء

للأورخين وأعتبرته واحداً من أفذاذ الأتراك لأنه قضى على الدولة العثمانية والخلافة وخدع المسلمين أول الأمر حتى مكن لنفسه ثم فصل بين السلطنة والخلافة ، وقد حكم تركيا منذ عام ١٩٢٢ حتى عام ١٩٣٨ حكماً ديكتاتورياً حقيقياً ، خلال خمسة عشر عاماً دون منازع أو معارض ، غير فيها كل شيء ، وأزال الواجهة الإسلامية لدولة الخلافة تماماً وذوب النظام التركي كله في أتون العلمانية والأممية العالمية .

ففي ٣ من آذار عام ١٩٢٤ ألغى منصب خليفة المسلمين وبعه ألغيت جميع مؤسسات التعليم الدينية في هاصمة الإسلام ثم أهلقت المدارس والمعاهد الدينية الإسلامية وأصبح تعلم أصول الإسلام جريمة يعاقب عليها القانون التركي وألغى من بعد الحاكم الإسلامية في جميع أنحاء البلاد (الشخصية والشرعية على السواء) وبهذا قضى مصطفى بكال على أهم الأصول وللظاهر الإسلامية في تركيا ، ومن العجب أن العالم الاسلامي لم يحرك ساكناً إزاء هذا العدوان ، بل وجد في صحف مصر من يؤيد خطواته ويدعو إلى مثله في البلاد العربية ، ومضى أتانورك يغير وجه البلاد بصورة جذرية من نظام الأسرة ، وتمدد الزوجات إعلان سفور للرأه وخروجها إلى الحافل وللراقص ، تحریم لبس الطربوش أو العمامة ، إقرار نظام الزواج للذني ، وضع قوانين جديدة مقتبسة من القوانين السويسرية والألمانية والإيطالية تحل محل للشرعية الإسلامية ، إلغاء مادة الدستور التي تعتبر الإسلام ديناً للدولة ، إدخال الحروف اللاتينية بدلا من الأحرف العربية ، ثم أصبح التعامل بالدين الاسلامي جريمة تواجه بأشد العقوبات .

ولكن تركيا تغيرت كثيراً بعد وفاة أتانورك وأخذت تستعيد مسارها الاسلامي في بطء شديد وهي الآن بعد خمسين عاماً من إلغاء الخلافة تبدو وقد انتعشت روحها الإسلامية كذلك ، فإن العالم الاسلامي لم ينس هذه الشميرة الاسلامية وقد عملت كل الحركات الاسلامية على النهض عليها والدعوة إلى تجديدنها ، ومنذ ذلك اليوم وإلى اليوم أقام المسلمون عشرات المؤتمرات التي تدعو إلى الوحدة الإسلامية في مصر وبا كستان والحجاز ودها كتيروفي إلى استبدال نظام الخلافة بنظام التضامن الاسلامي أو عصبة الأمم الشرقية ، وما تزال القوى الاستعمارية تحاول دون تحقيق الخطوات الحاسمة للوحدة الاسلامية ، وهي تحاول أن تجد لها بدائل في دعووات القوميات والوطنيات والاقليميات : ثم ماذا بعد سقوط الخلافة :

بعد القرب إلى إلغاء الخلافة كأقضى ما يمكن أن يوجه إلى العالم الاسلامي من ضربات ، لتزيق وحدته وجعله قطعاً متفرقة لا تلتئم مرة أخرى ، بعد أن أثار فسكرة القوميات الطورانية ، العربية ،

ودعوات الفرهانية والفيليقية ، وكلها محاولات لتفريق الصف وتمزيق وحدة العالم الاسلامي وتعميق الخلاف بين العرب والمسلمين وبين العرب أنفسهم ، ولقد كانت توقعات الغرب أن القضاء على الخلافة سيكون خطوة للقضاء على الإسلام نفسه ، وأصبحت التجربة التركية الجديدة موضوعه أمام المسلمين والعرب كنتجربة ناجحة وصفها لاملس المستشرق المنصب بأنها الطريق الوحيد للنجاة من السقوط كان الظن كما وردت في كتابات الكثيرين أنه بعد سقوط الخلافة فإن الإسلام لن يعيش ، ولسكنهم دهشوا عندما استبدل المسلمون والعرب بالخلافة وحدات جديدة وموانعرات لديهم الأخوة الاسلامية ولم يحدث شيء مما أثير من التوقعات فقد قبل المسلمون التحدي أما الآخرون فقد كانوا على وهم عندما شبهوا الخلافة بالبابوية في العالم المسيحي وقد أشار إلى ذلك لافنس حين قال يحدث إلغاء الخلافة شيئاً من العقبات التي كانت يتوقعها داخل الإسلام وخارجه ، ذلك أن هؤلاء كانوا على وهم من تأثير الخلافة في العالم الاسلامي إذا كانوا يشبهونها من بعض وجوها بالبابوية في العالم المسيحي ، وقد هاش العالم الاسلامي فترات كثيرة في حياته الطويلة دون خليفة وعاش مع وجود هذه خلفاء ، وهكذا بعد مرور ست سنوات على القرار السكالي بإلغاء الخلافة (آذار عام ١٩٢٤) ترى الإسلام يعيش وهو لا يكاد يشعر باضمحلال تلك المؤسسة العليا غير أن الكثيرين فسكروا في تأليف هيئة يرلوها منزلة الخلافة .

(٢٤)

وصول روسيا إلى قلب العالم الاسلامي

(خامسا) تحقق الدولة الروسية (تنفيذ وصية بطرس الأكبر) بالسيطرة على أجزاء واسعة من العالم الاسلامي والزحف في اتجاه المياه الدافئة . وكان بطرس الأكبر المتوفى عام ١٧٢٥ م قد أوصى بما يحقق لروسيا انتزاع حصنها من تركة الإسلام المنته في الدولة العثمانية بما قاله على النحو التالي : « ينبغي الاقتراب من الأستانة والهند بقدر الإمكان لأن من يستولى على الأستانة قد أصبح قادراً على أن يستولى على الدنيا بأسرها فلا بد من موالاة الحرب مع الدولة العثمانية والدولة الايرانية » (للمسلمين) وتحصين البحر الأحمر وضبطه لبناء السفن الحربية ويجب الاستيلاء على بحر البلطيق والاسراع في إذلال إيران وإخضاعها للمرور فيها إلى خليج المعجم وبذلك نستطيع إعادة تجارة المالك الشرقية القديمة بطريق سوريا والوصول منها إلى بلاد الهند مخزن الدنيا بأسرها فنستغنى من ذهب الكائرا .

وقد بذل الروس أبان عصر القيصري جهداً ضخماً في تنفيذ هذه الوصية فأرغوا الدولة العثمانية وواصلوا الحملات عليها وكانت أشدها قبل وبعد مؤتمر برلين وهي التي استطاعت روسيا أن تحصل فيها على القرم، والأجزاء الأخرى. وقد توارثت الدولة البلشفية نفس الخطة وسارت فيها وقلوبت المجاهدين وضربتهم بنصف وضمت هذه الأراضي الإسلامية كلها إليها تحقيقاً لوصية بطرس الأكبر الذي لم يغيرها انتقال الدولة من القيصرية إلى الشيوعية. بل لعل الشيوعية كانت أشد مطمحا فقد أعلنت منذ اليوم الأول الثورة عام ١٩١٧ من خطة لجذب الدول الإسلامية إليها وتأييدها في مقاومة الاستعمار الغربي، كحداولة لإخراج المسلمين من فك الأسد إلى ناب الدب والمعروف أنه منذ عام ١٧٣٩ شرعت الدولة الروسية تناوئ الأتراك العثمانيين وتعندى على بلادم وأخذت منهم (أو كرا كوف) و (أزوف) ثم أمنت يدها إلى بلاد القرم عام ١٧٨٣. فضلا عن أنها هاجمت ولايات الدانوب جملة مرات، وكانت تركيا نفسها فريسة جندها الثأرين المتمردين. وجاءت معاهدة برلين فأجازت لروسيا امتلاك قارس وباطوم، وهادت أطماع روسيا تتجدد مرة أخرى بعد أن أوقعتها فرنسا وأتجارا بدخولها ضسدها في حرب القرم (١٨٥٤ — ١٨٥٥) إلى الظهور باعتمادها على السلطة الألمانية في حرب عام ١٨٧٧ ومنذ حرب القرم عام ١٨٤٠ كشفت روسيا عن مطامعها ونيتها القديمة مجددة وصية بطرس الأكبر في انزاع مناطق هامة من الدولة العثمانية، وكان الهجوم الروسي — كما قال بعض المؤرخون — ناقوسا دق على الباب العالي وأيقظ الشعور لديه بأن يعيش فقط على حساب النزاع القائم بين القوى الأوروبية فمنت مرة أخرى لإرادة الاعتماد على النفس في الدفاع. فلما جاءت البلشفية: جددت أطماع بطرس وسارت في نفس الطريق وقد كان هدف روسيا الشيوعية هدم النفوذ الغربي في الأقطار الإسلامية وحرمان الدول الاستعمارية مما في يدها من منافذ تجارية ومصالح اقتصادية وقد ساعدها على ذلك مجاورتها لعدة شعوب إسلامية كبرى (الترك والفرس) فضلا عن المسلمين الداخلين تحت حكمها. ولذلك فإنها سرعان ما عقدت معاهدات مع تركيا وأفغانستان وقارس لدى أوسع، وكانت روسيا هي المصدر الأكبر لهجرة اليهود إلى فلسطين بعد وسعد بلفور وكان ذلك العون أكبر أهمية من العون المادي الذي كانت تقدمه بريطانيا ثم أمريكا وفرنسا.

ولا ريب كان للارتباط بين الشيوعية والصهيونية أثرها الكبير في الخط الذي سارت عليه روسيا من ناحية وإسرائيل من ناحية أخرى، وخاصة عندما انفتح الطريق أمام روسيا الماركسية في السيطرة على البلاد الإسلامية، وقد عمدت الشيوعية إلى تنفيذ خطها غاية في القوة والخطر في العالم الإسلامي في هذه المرحلة التي بدأت بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم وهو: (أولا) التفرقة بين

الصهيونية واليهودية ، وإبراز أن الصهيونية والاشتراكية لا تدين للصهيونية بولاء أو تبعية .
(ثانياً) مقاومة الإسلام عن طريق التكتيك غير المباشر ، ولقد دعا جارودى فيلسوف الحزب الشيوعي الفرنسي في كتابه (ماركسية القرن العشرين) إلى غزو الإسلام من الداخل ومحاولة تفجير الشبهات والخلافات في داخله وهو ما عمد إليه الشيوعيون في العالم الإسلامى . (ثالثاً) وصف خصوم الشيوعية بالرجعيين عن طريق لون هاصف من الارهاب الفكرى . (رابعاً) محاولة إغراء كل من فقد إيمانه بدينه ووطنه وميراثه وفقد كل مناهة فكرية وقدرة على التصدى والمجادلة . (خامساً) تطويع الدين : الادعاء بأنه لا يوجد تعارض بين الماركسية وبين المادية . وقد أشارت الصحف الغربية إلى ما أسخه المخطط الروسى الآسيوى عن طريق الإسلام : فقالت أن أوروبا اليوم أمام خط أصفر جديد ، هذا الخط هو اتحاد روسيا وأقطار الشرق على دول الغرب وتنظيم قواها وتدريبها إلى أن يجيء اليوم الذى تجمع فيه جموعها لمهاجمة الغرب وليس هذا صحيحاً فى جملته ولكنه من وجهة النظر الإسلامية : إحكام خطة المؤامرة على العالم الإسلامى وعزقة بين القوى المختلفة الطامعة .

ولقد عمد مصطفى كمال فى حركته التى مزق بها الدولة والخلافة إلى الاستمانة بالدولة البولشفية التى أمانته على ذلك وساعدته كما ساعدته دول الغرب وفى مقدمتها إنجلترا وكان لقرىها حامل هام فى هذه المعونة : وقد عقد مصطفى كمال مع لبنين معاهدة حماية لضمان سلامة الأراضى التركية من العدوان وإعادة السيادة إلى جميع الأراضى التى كانت فى يد الدولة العثمانية . أما الروس فقد تحرروا فى السيطرة على الأجزاء التى احتلوها من اللطالية بها وأقاموا أربع جمهوريات تحت النفوذ الشيوعى : «أذربيجان — جورجيا — أرمينيا — داغستان» وعقد الروس مؤتمراً فى عام ١٩٢٠ فى مدينة باكو أطلقوا عليه اسم مؤتمر الشعوب الشرقية ، حضره ١٨٩١ مندوباً منهم مندوبين عن الأتراك والفرس والأرمن والأكراد والهنود العرب وجاء فى هذا الخطاب قول الروس : إن الشيوعية الدولية ستعمل على تحرير جميع الشعوب الإسلامية ، ودعت هذه الشعوب إلى التعاون معها ثم قامت بعد ذلك بقليل بتلك الإغارة الدموية على الجمهوريات الإسلامية الخمس فقالت أهلها واستولت عليها بالقوة فى أسلوب وحشى أشد وحشية من أسلوب الاستعمار الغربى ، ذلك لأن الذين كانوا يحكمون روسيا فى أول ههدها البلشفي كانوا من اليهود الصهيونيين الذين يخططون لمدى أوسع ، وكانت روسيا هى المصدر الأكبر لهجرة اليهود إلى فلسطين بعد وعد بلفور وكان ذلك المعونى أكبر أهمية من المعون للادى الذى كانت تقدمه بريطانيا ثم أمريكا وفرنسا . ولا ريب كان للارتباط بين الشيوعية والصهيونية أثرها الكبير فى المخطط الذى سارت عليه روسيا من ناحية وإسرائيل من ناحية أخرى ،

وخاصة عندما انفتح الطريق أمام روسيا الماركسية في السيطرة على البلاد الإسلامية، وقد عدت الشيوعية إلى تنفيذ مخطط غاية في القوة والخطر في العالم الإسلامي في هذه للرحلة التي بدأت بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم وهو: (أولاً) التفرقة بين الصهيونية واليهودية، وإبراز أن الشيوعية والاشتراكية لا تدين للصهيونية بولاء أو تبعية. (ثانياً) مقاومة الإسلام عن طريق التكنيك غير المباشر، ولقد دعا جاردى فيلسوف الحزب الشيوعي الفرنسي في كتابه (ماركسية القرن العشرين) إلى غزو الإسلام من الداخل ومحاولة تفجير الشبهات والخرافات في داخله وهو ما عمد إليه الشيوعيون في العالم الإسلامي. (ثالثاً) وصف خصوم الشيوعية بالرجعيين عن طريق لون عاصف من الإرهاب الفكرى. (رابعاً) محاولة إغراء كل من فقد إيمانه بدينه ووطنه وميراثه وقد كل مناعة فكرية وقدرة على التصدى والمجادلة. (خامساً) تطويع الدين: الادعاء بأنه لا يوجد تعارض بين الماركسية وبين المادية.

(سادساً) التقليل من شأن القيم الدينية بدهوى أنها مفاهيم حنيفة انتهت مهمتها منذ زمن بعيد لم تعد قادرة على مواجهة مشاكل التخلف. (سابعاً) ركوب التيار القومى والوطنى. (هن الدكتور دسوقى أبانة مع التصرف). ولقد حاولت الشيوعية بعد أن دخلت في العالم الإسلامى إتخاذ لون من الخداع بالدعوة إلى الحياد المصطنع بالنسبة للدين مع حجب مفهوم الأصيل للدين بأنه أفيون الشعوب، وما أرادت الشيوعية القول به هو (الدين لله والشيوعية للجميع) وهذا قول مضموم، إذ أن الدين لله والجماعات لله والأمم لله وليس هناك شئ خارج عن هذا النظام الربانى الذى رسمه للبشرية، وقد ارتفعت شعارات كاذبة مضللة تقول أنه لا تعارض بين الشيوعية والإسلام، وهى تحاول «تحييد» الدين الإسلامى وإبعاده عن دائرة المقاومة للغزو الماركسى، والإسلام لا يمكن تحييده، كما جرت المحاولة لتحديد الأديان الأخرى، ذلك لأن الإسلام ليس ديناً بمعنى العبادة أو اللاهوت فحسب، بل الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع شامل كامل جامع والدين بمعنى العبادة جزء منه ولذلك فإن كل هذه المحاولات تريد أن تخدع من لا يفهمون الإسلام فهم أصحابها، أما الإسلام فإنه قادراً دائماً على إعطاء البشرية في كل عصر وكل بيئة حلولاً كريمة سمحة لسكل قضاياهم ومشاكلهم وتحدياتهم ومعضلاتهم على نحو أصدق وأعمق وأكثر حيوية وسلامة من كل مناجات به الأبطالوجيات واللاهوت والمذاهب البشرية المحدودة المضطربة التى سرعان ما يملوها الاضطراب ويحاول أصحابها تعديلاً بالحنف والاضافة. ولقد كانت التجربة الشيوعية مع العالم الإسلامى مزرية وماكرة وقائمة على التآمر ومزبلة بالخطط الجنونية التى ترتبط بين الشيوعية والصهيونية، ظهر هذا في كل الارتباطات

التي حدثت في أفريقيا وأندونيسيا ومصر البلاد العربية ، وبرز واضحاً في مراكش ١٩٥٦ — ١٩٦٧
— ١٩٧٣ في مصر والعالم العربي : لقد كان الهدف هو تمكين إسرائيل من التقدم والسيطرة على
أجزاء من العالم العربي ، والعمل على تدمير وحدة العرب وخطط ترابط العالم الاسلامي ، والقضاء على
الفكرة الاسلامية نفسها إثارة الشبهات من كل طريق للحيلولة دون تحقيق قيام مجتمع إسلامي أصيل
وفق المنهج الاسلامي .

(٢٥)

قوى الصهيونية والاستعمار والشيوعية في معركة الصراع حول عالم الاسلام

(١)

الاستعمار والصهيونية

كانت القوة الربوية اليهودية ممثلة في رؤوس الأموال موجودة في إطار الاستعمار الغربي الزاحف
على العالم الاسلامي ، وكانت واضحة في القروض قدمت إلى حكم مصر وتونس وفي الاغراءات التي
وجهت إلى الخليفة العثماني بهدف سيطرة الصهيونية العالمية اقتصادياً على كل ما تحتله الدول الكبرى
من أرض وما تستولى عليه من مقدرات . وفي أول محاولة للاحتلال الغربي للعالم الاسلامي وهي محاولة
نابليون كانت خطة القاء والارتباط بين الاستعمار والصهيونية واضحة جلية . ولا ريب أن قيام
اليهودية العالمية بإشمال نوا الثورة الفرنسية كان مقدمة السيطرة على مخططات المطامع الاستعمارية التي
كانت قائمة منذ وقت بعيد وممثلة في القيام بحفر قناة السويس ، فلما سيطر نابليون تكاتف اليهود
على الاستمارة به في تحقيق أغراضهم وجددوا عرض مشروع استعمار العالم من طريق إنشاء قناة
السويس وقدموا عروضاً بأموالهم التي يضعونها تحت تصرف فرنسا مقابل أن تمنحهم فرنسا الأرض
الفلسطينية : وقد أحجب نابليون بالخطة وكتب لهم يدهوم إلى النجم (وأن يجمعوا الأموال
فبيتأهوا ذلك الربع من مصر الذي يجاور برزخ السويس والبحر الأحمر) . أما نحن الذي يقدمونه
لنابليون — بعد الأموال — فهم أن يكونوا أداة تخريب واضطراب فإذا استأخوا من هذا
الطريق الدخول إلى هتر آسيا فإنهم إنما يحملون معهم الصناعة والفنون والعلوم الأوربية ، هذا وأنهم

يشهدون إليك هنمرا استعماريًا متبنا ثابت الأركان قد يكون ضروريا كما تقوم في آسيا مستقام
الامبراطورية الآخذة في الانحلال : امبراطورية النماليين ، ويقدم أهم الغمائنات لبث الفوضى وإشمال
الفتن وإحلال الأزمات للقضاء على الأتراك جملة واحدة ، وعندما رفع بلاراس للشروع إلى نابليون
استصوب الفكرة واستعان بملء اليهود وخائنهم على صياغة النداء وقد جاء فيه « أن الأمة التي
ينظر أهداؤها إلى موطنكم الوراثة كغنيمة تقاسم وفق أهوائهم بضرية قلم في دواثرها تستعملها
حربا لا هودة فيها ولا مثل لها في التاريخ للدفاع عن كيائها فتتأثر لقتل الذي لحق بكم منذ ألف هام
تقريبا — فإن هذه الأمة — (أي الفرنسية) تقدم لكم الآن على الرغم من جميع العقبات ، مهد
إسرائيل ، يورثة فلسطين الشرعيين ، إن فرنسا تنادى بكم الآن للعمل على إعادة احتلال وطنكم
واسترجاع ما فقدتكم ، أسرها فإن هذه اللحظة لن تموض قبل آلاف السنين .

وهكذا منذ بدأ الاستعمار خطواته الأولى في السيطرة على عالم الاسلام كانت الصهيونية هي الأداة
والعمون والرفيق بل والشريك : الغرب الاستعماري المسيحي بخططه واليهود بأموالهم ومؤامرتهم
الاجاسوسية ليكروا أداة التخريب والفوضى . ولكن نابليون هزم عند أسوار هكا ولم يدخل
فلسطين وتراجع اليهود عن خططهم وإن كانوا قد سجلوا هذه الصيحة الباكورة التي جاءت بعدها
خطط عام ١٩٠٧ عندما تقدموا للاستعمار البريطاني على أنهم الجسم الغريب للمأزل بين المسلمين والعرب
بين آسيا وأفريقيا ثم كانت خططهم الناجحة مع بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى والتي كسبوا
بها وعد بلفور بعد أن هجروا عن السيطرة على السلطان عبد الحميد فمزقوه ، وسيطروا على خلفاء
الاتحاديون الذين فتحوا لهم باب فلسطين :

وإذا كان الغرب لم يستعبد العالم الاسلامي إلا عن طريق القروض والربا والبنوك فإننا نجد أن
الصهيونية كانت وراء كل هذه المحاولات المالية والمغريات لإقراض أصحاب الثروات حتى إذا سقطوا
في أيديهم انتزعت منهم أراضهم وأملأهم ، وقد مرت هذه التجربة بمصر بمصر العصر الاحتلال
البريطاني وقدرت الاحصائيات أن المصريين الذين فقدوا ثرواتهم نتيجة المراهنة والمعاملة مع القروض
اليهودية قد حقق في خلال عشر سنوات اقتراع أكثر من ثلاثين في المائة من ثروة المسكيات
المقارية وهي نسبة عالية تدل على مدى الظلم والمسف في أمور الأقراض وإجراءات اقتراع المسكيات
وفي السيطرة على أفريقيا كانت الصهيونية وراء الاستعمار وكانت الخطوة التي اتخذتها الصهيونية لأن
تسكون الجسم الغريب الذي يفصل بين آسيا وأفريقيا بعد المؤتمر الذي عقدته وزير خارجية بريطانيا

عام ١٩٠٧ تدل على مؤشر الأحداث بعد ، وفي الحرب العالمية الأولى كانت قروض اليهود لفرنسا وإنجلترا عاملاً هاماً في انتصارها على الألمان ، وقد كان تعريض بلفور الذي قدمته بريطانيا لحلم بمثابة هربون لهذا الدور الذي قاموا به والذي حقق النصر للحلفاء . ولقد كانت الصهيونية في كل مراحل الاستعمار الحديث أداته الفاعلة وقوته الضاربة وخاصة في المجال الاقتصادي وفتح المصارف وتوظيف ذهب أوروبا الذي كان يملكه اليهود في القروض وكذلك فتح الأسواق وبيع منتجات الترف الغربية لاقى تدر فئاظير الذهب الرأسمالية هناك وقد حرص الاستعمار بالإتفاق مع الصهيونية العالمية على السيطرة على الدول عن طريق أقراض أمرائها وحكوماتهم لتكبيهم بالنفوذ الأجنبي ، ومنها شق قناة السويس واستثمار المناجم وآبار البترول وتسخير موارد البلاد لصالح المرابين مع الوقوف في وجه أى تصنيع حتى تظل البلاد سوقاً مضمونة لتصرف منتجات الغرب .

ولقد كان من أقوى ما وصل إليه النفوذ الصهيوني مع الاستعمار هو الاستسلام له في عهد بلفور وإقامة الوطن القومي في فلسطين وتأييد روسيا وأمريكا لاسرائيل منذ الساعة الأولى لإعلانها وحماية قيامها بعد ذلك وإلى أبعد مدى . وكانت الصهيونية وواء الاستعمار في الصراع مع الدولة العثمانية وإسقاط السلطان عبد الحميد وسحق الدولة العثمانية نفسها وهزيمتها وإسقاط الخلافة للوصول إلى فلسطين ، وعندما دخل القورد القديس عام ١٩١٧ وأعلن انتهاء الحروب الصليبية كان اليهود يعلمون أنهم سيتسلمون القدس من الاستعمار .

(٢٦)

الشيوعية والاستعمار

كان الروس قبل الشيوعية جزءاً من خبطة الاستعمار التي شاركت بأكبر ما تستطيع من قوة للطامع في هدم الدولة العثمانية والسيطرة على أجزاء واسعة منها والقضاء على كل محاولات التحرر والاستعادة التي جاهد المسلمون بها في سبيل إقصاء نفوذ الروس عن بلادهم ، وكانت أروع صور المقاومة هي صورة الشيخ شامل الذي قام بحركته عام ١٨٠٣ في مقاومة الروس وظل يكافح ويناضل على رأس جيوشه وتابعيه البواسل المجاهدون كانوا الذين نحت لوائه من مختلف القبائل والديار الإسلامية ، وقد أمضى تسعة وثلاثون عاماً متواصلة في ميدان الجهاد، كبد الروس خلالها مئات الآلاف من القتلى وغرهمم بإتفاق الملايين الوفيرة من الأموال وكانت مقاومته ترمي إلى تحرير أمة تبلغ أربعين مليون نسمة من

يد الإستعمار الروسى الجائر . وقد جاء هذا الاتجاه من الروس تطبيقا لوصية طامعة من ديارس الأكبر الذى كان يهدف فيها إلى القضاء على الدولة العثمانية والنفوذ الاسلامى فلما جاءت البلشوية وسيطرت على روسيا أرادت أن تسير فى نفس الطريق : طريق الطموح إلى السيطرة على أجزاء خطيرة من عالم الإسلام وهم له أشد حداوة من القيصرية ، ولكنهم خدعوا المسلمين بأساليب أدهوا بها أنهم ينصرون حركات التحرر من الإستعمار الغربى فقد أصدر ستالين ولينين فى ١٧ ديسمبر عام ١٩١٧ منشورا يطمئن الشعوب الاسلامية على دينها وعاداتها وأديانها وعاداتهم وثقافتهم ومعاييرهم العلمية والقومية مصونة من كل اعتداء ، أعتقدوا أن البلاشفة يدافعون عنهم وعن حقوق الشعوب التى تعيش فى روسيا كلها ، أعملوا على الانقلاب وجندوا الثورة وساعدوا حكومة البلاشفة أيها الرفاق ، أننا حين نرفع علمنا هذا إنما نعلمن للشعوب المستعبدة فى روسيا شعار الحرية والاستقلال أيها المسلمون نحن ننتظر منكم معاوتكم المادية والأدبية ،

ولم يكن هذا إلا خداعا : مثل خداع نابليون ثم دخول الأزهر بالخيول . ومثل خداع الانحاديين الأتراك للعرب وللسوريين ومثل خداع لورنس للعرب . كل هذا كان يجرى فى وقت واحد ، ذلك أن البلشفيك لم يكونوا أقل غبرا وخسة فى أبريل عام ١٩١٨ أصدر لينين أمرا يزحف الجيوش الروسية على البلدان الإسلامية دون سابق إنذار فأخذت تمحصد المدن والقرى وتفكك بالشعب الأهزل الأمن دون تمييز ولم ينته عام ١٩١٨ إلا وجمهوريات (إيدل أورل) و (القوقاز) و (التركستان) قد غدت تحت حكم البولشفية المباشر ، وفى عام ١٩٢٠ أتمت موسكو احتلال شبه جزيرة القرم وفى عام ١٩٢١ هجم الروس على جمهورية بخارى وشرعوا فى تطبيق أنظمتهم الشيوعية فأنفوا المملكات وصادروا الأموال والثروات وأنفوا التعليم الدينى واضطهدوا رجال الدين والزعماء والقادة وحولوا المساجد إلى دور القوم ومكانب لرجال الحزب الشيوعى . ولقد هوجمت شبه جزيرة القرم من البحر بستين ألف مقاتل ، واجتاز الجيش الشيوعى أراضي القرم لأول مرة ، وقد قاومهم السيد جعفر صيد أحمد ورجاله وصدوا هجومهم المتدفقة وسقطت العاصمة بسقوط رئيس الجمهورية جليلي جهان ووقع المفتى الكبير أسيرا فى يد الأعداء وهو يدافع عن العاصمة بجرأته العظيمة وقد ساقوه إلى الموت ومزقوه إربا ومثلوا بجثته أشنع تمثيل .

وكان الروس يرون أن شبه جزيرة القرم هى مفتاح السيطرة لروسيا الجنوبية والبحر الأحمر وأن انتهوا من هذا الاستعمار الدموى ، حتى أخذوا يتجهون نحو إيران وأفغانستان وتركيا يقدوا معها

معاهدات . وكانت دهوام اغتادها إلى تحرير البلاد الإسلامية من الاستعمار الغربي ومساعدة الشعوب الإسلامية على تحقيق هدف الاستقلال ، هذا هو مدخل الشيوعية إلى العالم الإسلامي . ولقد كانت روسيا تستهدف وهي وليدة الصهيونية أن تضع العالم الإسلامي بين فكي السكاشة ، أما إلى الاستعمار الغربي الذي تسيطر عليه الصهيونية ، أو الشيوعية التي هي جزء من الصهيونية نفسها ، جاءوا بسحر كلمات منمقة وعبارات خادعة ووهود خلافة ، وقد انماز إليها البعض بمحكم الضغط الحربي وفريق استهوانه الوهود السكاشة . وبدأت مرحلة من الصراع بين روسيا البلشفية من جهة والدول الاستعمارية من جهة أخرى أخرى استمر طويلا وإلى وقتنا هذا ، ويقول الباحثون أن هذا فصلا حديداً من مأساة قديمة قامت بها انكساراً وروسيا تلك التي شغلت تاريخ الشرق الأوسط من القرن الماضي ، حتى أوائل هذا القرن والتي أسفرت عام ١٩٠٧ عن اتفاق لم يطل أجله بين تلك الدولتين لتعيين المناطق الواقعة تحت نفوذ كل منهما . وقد تبين أن هدف روسيا البلشفية هو السعي لهدم النفوذ الاستعماري الغربي في القارة الآسيوية وحرمان الدول الغربية ما كان في يدها من منافذ تجارية ومصالح اقتصادية ، وهو في مواجهة عالم الإسلام ليس إلا استبدال استعمار بإستعمار أشد قسوة منه . وهو من هذا الطريق أخذت الشيوعية تفسر أفكارها في العالم الإسلامي ، وفي فلسطين وسوريا ومصر ظهرت أفكار شيوعية بعد الحرب العالمية الأولى عن طريق الصهيونية وأثرها اليهود في البلاد العربية وقد نشأت أحزاب شيوعية سرية في هذه المناطق كان هدفها :

- (١) تقويض الاستقرار الاقتصادي والسياسي والاجتماعي . (٢) خلق جو من عدم الثقة بين العرب أنفسهم لمنع أي تسكفل بإسم الإسلام والتركيز على الدعاية على الخطر الصهيوني
- (٣) إذكاء المداوة بين الشعوب العربية وحكوماتها . (٤) إظهار الانحدار السوفيتي بظهور الحليف للعرب . ولقد كان لتحالف الذي قام أبان الحرب العالمية الثانية بين الاستعمار والشيوعية أثره في قدرتها على تكوين خلاياها داخل الأحزاب السياسية في البلاد العربية والإسلامية بما تحقق منه بعد انتهاء الحرب العالمية من آثار خطيرة كانت تستهدف إسقاط البلاد العربية كلها في قبضة الشيوعية الدولية . ولا ريب أن (الماركسية والشيوعية والبلشفية) قد خدعت العالم الإسلامي كله حين أذهت أنها سواء أكانت نظاماً أم دولة تستطيع أن تساعد البلاد في كفاح الاستعمار الغربي والصهيونية وذلك بإدعاء الانحدار السوفيتي مناصرة حركات التحرر ومعاداتها للصهيونية والاستعمار فقد استطاعت روسيا أن تخفي حقيقة صلتها بالاستعمار وصلتها بالصهيونية وتخضع العرب والمسلمين بالتحالف معهم كصديق حميم لهم وعدو لأعدائهم ، وقد احتاج ذلك إلى وقت طويل حتى يكتشف

العرب والمسلمون أن الشيوعية أهدى أهواء الإسلام والعالم الإسلامي وأن الاتحاد السوفيتي لا يستطيع أن يحارب الصهيونية وهو وليدها . وحين يكشف أن الماركسية في أصلها هي دعوة صهيونية وأن كبار مؤسسيها هم اليهود الذين هم أشد دعاة الإسلام وأهله لا يكفي هذا إزاء القلوب الخلف والعقول الصم لتحذر ، ولكنها لم تكشف الحقائق إلا يوم وجدت نفسها في ميدان القتال وقد صمت الشيوعية الماركسية السوفيتية أن لا تمسكهم من ضرب الصهيونية في فلسطين ، واحتالت لتعطى خططهم وتفسدها بعشرات من الحيل .

(٢٧)

بين الشيوعية والصهيونية

لم تعد الصلة بين الشيوعية موضع جدل كثير بعد أن تسربت في السنوات الأخيرة عشرات الوثائق التي تكشف هذه الحقيقة وتؤكددها ، ولقد كشف هذه الحقيقة (فرانك برايتون) منذ سنوات طويلة في كتابه (الصهيونية والشيوعية) الذي يقول بالحرف : « إن الحقيقة الراهنة هي أن الصهيونية والشيوعية صنوان منبعهما واحد وهمايتهما واحدة وجوهرهما واحد والفئة التي تقوم عليها من وراء الستار واحدة وما اختلفت في الظاهر سوى ترتيب مؤقت اقتضاه النجاح في السعي إلى الغاية الواحدة حتى إذا تحققت بالنجاح السكامل اتحدتا معاً لتسيطر على العالم . ولاهجرة بهذا الفارق الظاهر بين الشيوعية والصهيونية فيكون اليهودي شيوعياً أو صهيوبياً أو كليهما معاً . وكثيرون منهم كذلك - لا يلغى كونه يهودياً وليست الصهيونية والشيوعية سوى مظهرين لقومية واحدة : هي القومية اليهودية التي لا تفنأ تناوىء سائر العالم غير اليهودي ويقول (فرانك برايتون) : الصهيونية والشيوعية مختلفان ظاهراً في ثلاث أمور :

- (١) التسمية : ففي الصهيونية تخصيص ، وفي الشيوعية تعميم ليختار المرء بينهما بحسب مزاجه .
- (٢) مراكز النشاط : مركز نشاط الصهيونية ما اصطلاح على تسميته بالغرب وتزعمه أمريكا (واشنطن) ومركز نشاط الشيوعية الشرق وتزعمه روسيا .

(٣) الأسلوب في العمل : الصهيونية تتاجر بالمال وتدعم أهدافها عند الزوم والشيوعية تتاجر بالدعاية بدعها المال عند الإقضاء ونجمع المصادر للوثوق بها جميعاً على أن الثورة الشيوعية قامت بتدبير اليهود وتخطيطهم ، وكبار زعماء الشيوعية : ماركس ولينين وستالين وفورشيلوف

وبولوتوف كل هؤلاء وغيرهم من أصل يهودى أولهم زوجات يهوديات . وأن أهداف الصهيونية العالمية ، هى نفس أهداف الماركسية الاشتراكية ، أو الشيوعية الليلية ، كلاهما يسعى للسيطرة على العالم وتسخير اليهود : شعب الله المختار .

ويقول أفريكان هيررو (كبرى المجلات اليهودية فى أمريكا) بتاريخ ١٠ سبتمبر عام ١٩٢٠ إن الشيوعية فى روسيا كانت من تصميم اليهود وإقامات نتيجة لتدبير اليهود الذين يهدفون إلى خلق نظام جديد للعالم ، وأن ما تحقق فى روسيا كان بفضل الأقلية اليهودية التى خلقت الشيوعية فى العالم . وسوف نعم للشيوعية العالم كله بسوا عديم ، ويقول موسى « الزعيم الإسرائيلى » : كل يهودى يعلم فى أعماق نفسه من كان أعظم وأحرصهم على صداقة ، أنه الجـمهورية السوفيتية . ، ويقول : لا أستطيع أن أتصور يهودياً يقوم بدور العدا للاتحاد السوفيتى ومثل هذا اليهودى غير طبيعى وتشوبه لكل الحقائق .

ومن القرائن القوية والأدلة القاطعة على صلة الماركسية والشيوعية الوثيقة بالصهيونية العالمية واليهود أن كارل ماركس نفسه هو نفسه الحاخام الأكبر واليهودى الذى يمثل فى كل حياته جميع ما تنطوى عليه النفسية اليهودية من أحقاد وكراهية ورغبة فى الانتقام من البشرية كلها .

إذا نظرنا إلى خطوات الثورة الشيوعية الأولى وجدنا هذا السبب واضحاً وقائماً فى مختلف أوضاعها ، فإن مجلس الثورة الذى حكم روسيا بعد عام ١٩١٧ كان مكوناً من عشرة من الأعضاء من بينهم ستة من اليهود ، وأن لينين وستالين من أصل يهودى وكان ستالين متزوجاً من يهودية وأن أربعة من أعضاء مجلس السوفيت الأعلى من اليهود وأن أنصار الشيوعية فى العالم معظمهم من أنصار الصهيونية وأن ٤٩٪ من المائة من أعضاء الحزب الشيوعى الأمريكى من خلاة الصهيونية ، ولقد كانت روسيا السوفيتية هى أولى الدول بعد أمريكا التى اعترفت بقيام دولة إسرائيل . ولقد عرف اليهود لروسيا هذه المسكرمة وأهلنوها على لسان الكثير من زعمائهم .

ولقد رد اليهود لروسيا هذا الجليل ، بأن سلموها أسرار القنبلة الذرية التى كانت أمريكا وحدها هى التى تعرف أسرارها بعد الحرب العالمية الثانية ، هذه القنبلة التى كانت سبباً مباشراً لإنهاء الحرب مع اليابان بعد إلقاء اثنتين منهما على المدينتين اليابانيتين فى هروشيما وناجازاكي .

(٢)

وقد كشفت الوثائق التي ظهرت في السنوات الأخيرة آثاراً أبعد غوراً من حيث عمل الشيوعية لتحقيق أهداف الصهيونية في تدمير العالم والسيطرة عليه . ويشير الدكتور محمد هزت نصر الله في كتابه الثورة الاشتراكية ، إلى أن الشيوعية التي هاجمت جميع الأديان « وخاصة الإسلام » قد غضت الطرف عن اليهودية وصمحت لها بأن تمارس نشاطها الديني في الاتحاد السوفيتي وقال في تقرير ذلك لينين في تمريخ له في ٨ أكتوبر عام ١٩١٧ : « إن حجر الزاوية في رأى كارل ماركس والمجلدات في الدين هو قولها المأثور (إن الدين أفيون الشعوب) لقد كان رأى الماركسية على الدوام في الدين والمعاهد والكنائس والمساجد وكل نوع من أنواع المؤسسات الدينية أنها صدى للرجعية والبرجوازية لا هدف للأديان إلا الدفاع عن سياسة الاستغلال والتخدير وتشريع تعصبات الملوك التي يتخذها الرأسماليون نحو الطبقات السكادحة ، أما الممارسات اليهودية وإن كانت لا تختلف عن باقي الأديان ولكن بقاءها لليهود البؤساء أمر ضروري للمحافظة على يهوديتهم حتى ينالوا حقهم ، ذلك لأن اليهود إذا نبذوا دينهم حينئذ يقيمون في الأقوام المجاورة لهم ويمرور الزمن يفقدون إسمائيليتهم ، وللمحافظة إسمائيل كجموعة كاملة ومنحددة ، فالدين أمر ضروري لحياة الشعب اليهودي المختار ربنا ينالوا حقوقهم . ويقول الدكتور محمد هزت نصر الله : إن هذا التجاوز الشيوعي للدين اليهودي واستثنائه من مخطط محاربة الأديان يبرهن على أن الشيوعية إنما تعمل لتحقيق الهدف الصهيوني في السيطرة على العالم ابتداء من فلسطين العربية المسلمة ، فإذا كانت الحرية الدينية محرمة على المسلمين والمسيحيين ومباحة لليهود ، فإن الأجيال المسلمة والمسيحية القادمة ستصبح بلا دين ولا تعبد غير المادة وذلك بخلاف الأجيال اليهودية التي تستطيع عندئذ أن تسيطر على الشعوب النائمة التي كانت مسلمة أو مسيحية فيما مضى .

وهكذا يعترف لينين باليهود كشعب مختار ، ويكشف عن هذه الصلة المضمرة بين الماركسية والصهيونية ولعل هذا هو الذي دفع الحكومة السوفيتية في بداية حكم لينين عام ١٩١٧ إلى إصدار مجلة قرارات كان أهمها إعلان التأييد السكالي لحق اليهود في وطن قومي لهم في فلسطين ، يقول الدكتور نصر الله ، وإذا سألنا ما هي حقوق اليهود في الجيوب — ماركسيا وصهيونيا — تنفيذ مرامي وأهداف الأيدولوجية اليهودية القائمة على فكرة « الشعب المختار » والدافعة بالتالي لاعتبار : أولاً : أن الأرض وما فيها ميراث لبني إسرائيل ، تلزمهم مشيئة الرب بأن يستولوا عليها . ثانياً : أن كل

شريعة غير شريعة بني إسرائيل فهي فاسدة . ثالثاً : أن كل سلطة على وجه الأرض غير سلطتهم هي مفتعلة . رابعاً أن كل شعب حر ، غير شعبهم ، قابض على ذروة من السلطة غاضب . خامساً : أن الرب حرم عليهم الشفقة والرحمة . وهكذا أصبح حل المشكلة اليهودية بمنزلة أن يسيطر اليهود على جميع الناس ويرى كل مردها (كاول ماركس) كما يجب أن يسمى نفسه : أن المشكلة اليهودية لا تنحل نهائياً إلا بالتحويل الاشتراكي للعالم بأسره ، وإذابة الأديان والقوميات في بوتقة الماركسية أو الاشتراكية العلمية أو التقدمية الثورية ، (مما ما شئت) ذلك أن المشكلة اليهودية قائمة تحت ضغط الاعتقاد القائل بأن اليهود هم « شعب الله المختار » وبما أن التقدمية الثورية فكر وحركة وهدف يعمل لاختضاع المجتمع البشري كله إلى (قيادة طليعية) اشتراكية ماركسية واحدة ترتبط بها كل الحركات الماركسية في العالم ، يرى اليهود أنهم أصلح البشر بصفة كونهم شعب الله المختار لاحتلال مراكز القيادة الطليعية التي هي الاسم المعمرى لعقيدة الشعب المختار اليهودية . ولقد استطاع المسكر اليهودي أن يؤسس الحركة الماركسية لنتم السيطرة اليهودية على العالم بالتحويل الاشتراكي وأن يؤسس الحركة الصهيونية لتتولى عملية تخدعة العالم (وخاصة الولايات المتحدة وأوروبا الغربية) بأن هذه الحركة لا صلة لها بالشيوعية العالمية وأنها تعمل لصالح الاستعمار الغربي وخدمة استراتيجية الدولية العامة وبذلك تتمكن من إحراز عطفه ومساعدته على إقامة الوطن القومي اليهودي ، ثم الاندفاع — بعد تحقيق ذلك ، — للانقضاض على الغرب وتحقيق السيادة اليهودية العالمية بالسيطرة — ماركسية وصهيونية — على العالم كله ، وهكذا يتحقق النصور اليهودي للعقيدة اليهودية ، وما هذا اخلاف الظاهر بين الاتحاد السوفيتي — قاعدة العمل الماركسي — والصهيونية سوى « التكتيك المرحلي » الذي تتطلب خطة السيطرة اليهودية في الوقت الراهن . وطبيعي أن السيطرة اليهودية لا يمكن أن تتم إلا بعد تهديم العالم الاسلامي وإضعاف الشعوب الإسلامية .

(٣)

تجمعت في السنوات الأخيرة دلائل كثيرة تكشف تعاقب الماركسية والصهيونية : يقول الدكتور أحمد هوف : إن لينين كان من مخططي الصهيونية ومن واضعي بروتوكولات حكماء صهيون وأنه حضر مؤتمر الحكماء عام ١٨٩٧ في سويسرا وأن الثورة الدولية ليست من طبقة البروليتاريا بل من طبقة اليهود وأن أول رئيس في دولة روسيا هو الزعيم اليهودي : كليمنيف وتلاه الراهب اليهودي مغرولوف وتبعهما زينويف

وقال : إن الدين يحكون روسيا الآن لبسوا الروس ولكن حقه من اليهود الارهابيين العالمين وما زال الشعب الروسى يمشى فى فقر وحرمان يقضى قادة السكرملين السيارات الأمريكية الفارهة ويمبشون هبشة القباصرة . ويقول هاريمان لوهر اليهودى فى كتابه الصهيونية ودورها فى السياسات العالمية : أنه منذ ظهور الحركة الصهيونية فقد ظهرت داخلها اتجاهات كثيرة تحاول توحيد فكرة الصهيونية والى اشتراكية وفى عام ١٩٠٠ ظهرت هذه الاتجاهات مع أول جماعة صهيونية أنشئت فى روسيا وهى (عمال صهيون) ففى داخلها ظهرت هذه تيارات اشتراكية متنوعة مختلفة ، وقد ظهر أول وأهم هذه التيارات على يد (سيركين) وبورشوف ولقد حاول هذا الأخير الجمع بين الماركسية والصهيونية . والمعروف أن التخطيط الاستعماري الصهيوني قد ختم تقسيم ميايدين العمل وفرض على الشيوعية أن تعمل فى قترات متفاوتة خلافها مع الصهيونية وقد عملت الشيوعية على كسب خصوم الصهيونية بإعلان هذه تصريحات نسب بعضها إلى لينين وإلى غيره من بعده نصف الصهيونية بأنها حركة رجعية هدوانية عنصرية وذلك فى سبيل « حجب » الرابطة العضوية بينهما ولتطمين أولياء الأنظمة الرأسمالية الغربية الذى تسير الصهيونية فى خطهم .

(٤)

ومن خداع الصهيونية تلك التفرقة الوهمية بين اليهودية والصهيونية يقول : الكاتب اليهودى (دافيد بن أهارون) فى كتابه الصراع بين اليهودية والصهيونية : إن وجود إسرائيل هو تحقيق أمل قديم وأن هذا الشئور أو الأمل ينبعث من الدين اليهودى نفسه ، ويرغم ذلك فإن هناك قلة من اليهود يؤمنون بأن وجود الدولة اليهودية أمر يناقض التقاليد اليهودية ويجب نكرانه وعدم الاحتداد به ، إن معظم اليهود يلتصقون بالمبادئ الصهيونية بنفس الطريقة التى عبد بها يهود التوراة المعجل الذهبي أيام النبي موسى عندما خرج بهم من مصر إلى صحراء سيناء . إن الأقلية من اليهود الذين يمشون فى معظم أرجاء مدينة القدس يطلقون على أنفسهم « حراس المدينة » ويؤمنون بعمق فى كتابات الحاخامات التى كتبت هب القرون . إن حراس المدينة الذين يحيطون بالقدس إحاطة السوار بالمعص من الصيانة المنصيين لا حق لهم فى امتلاك مدينة بها مقدسات أديان أخرى من حق أصحابها أن يحجوا إليها كلما أرادوا ذلك . ولقد خلق اليهود لأنفسهم مشكلة فوق مشاكلهم التى عانوا منها خلال الألفية سنة بتأسيسهم دولة إسرائيل التى لم تترف علىها رايات السلام مادام يديرها جماعة من الزعماء الذين احترقوا السياسة وأحلوها محل الدين الذى تلاشت تعاليمه بمضى السنين وأصبح من مبادئهم الاختصاب والنهور والإخلال بالنظم العامة وعبادة القوة وحجب السيطرة والظهور .

(٥)

وقد كان بين الصهيونية والدولة الروسية صلات قديمة وعميقة وبعميدة الأثر في التاريخ منذ قضي الروس على دولتهم المسماة دولة (الحرر) وبيتوا الانتقام لهم وذلك بالأعداد الخاطين متسكاملين ما : الشيوعية الماركسية والصهيونية وتشير الوقائع إلى أن المؤتمر الصهيوني في بال عام ١٩٠٢ أصدر واحدة من أخطر البروتوكولات هي : « إن آخر حصن للعالم وآخر ملجأ من العاصفة هي روسيا فإيمانها مازال جيا (بالمسيحية) وأميراطورها مازال قائماً كحاميها المؤكد » . يقول الأستاذ هلي منبر مراد : وكان الهدف هو التخلص من هذا الأميراطور وتدمير ذلك الحصن تآ كيداً لما قرره الحفل الماسوني الأمريكي في نهاية القرن التاسع عشر وهو الذي يدير الماسونية السكونية وكل أعضائه من كبار اليهود ، فقد تقرر اتفاق مليار دولار في سبيل قيام ثورة في روسيا تطيح بالأميراطور ونهى الدولة الشيوعية غير عابئين من تضحية أعداد ضخمة من يهود روسيا ، فالشيوعية هي جناح أيدلوجي للصهيونية العالمية ، وإن الثورة الشيوعية في حقيقة نها هي ثورة لليهود ضد القيصيرية وما يظهر أن فكر اليهودي الذي يجبر بالمداء السافر للشعوب ، وما أن نجح المخطط الصهيوني بقيام الثورة الشيوعية حتى كان اليهود هم القاعمون بالاغتيالات السياسية .

وبعد أن انتهت الحرب العالمية الأولى التي قدم فيها زعماء اليهود المساهدات المالية الضخمة إلى الحلفاء في سبيل انتصارهم على ألمانيا وصدر وعد بلفور المشترط بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين رداً للجميل كانت القوات البريطانية بقيادة الجنرال ألنبي قد استولت على فلسطين وبدأت هجرة اليهود إلى فلسطين وساعدتهم الإدارة البريطانية على شراء الأرض لتوسع في إقامة المستوطنات اليهودية والمستعمرات وكانت الشيوعية التي استقرت في روسيا والتي تزعمها اليهود تعمل على مساعدة اليهود الروس للهجرة إلى فلسطين ، لذلك لم يكن غريباً أن يدفع يهود أمريكا روزفانت لمديد الدعوة إلى روسيا الشيوعية للقضاء على هتلر غير الشيوعي في الحرب العالمية الثانية لأنه هدو اليهود الأول وما أن تخلصت بريطانيا من إدارتها في فلسطين عام ١٩٤٨ حتى أمان قيام دولة إسرائيل وكان الاتحاد السوفيتي هو ثاني دولة تسارع إلى الإعراف بإسرائيل بعد الولايات المتحدة كما كانت الأسلحة التي أرسلت إليها من تشكوسلوفاكيا والدول الشيوعية في أوروبا لها أكبر الأثر صعود القوات الإسرائيلية في وجه الدول العربية التي كانت تسمى لشراء الأسلحة من مخلفات الحرب العالمية بعد أن امتنعت دول الغرب عن بيع السلاح لها .

(٢)

التقاء الشيوعية والغرب تحت ظل الصهيونية

يقول كودين كوهين : أن اسم ترونسكي ورتشيلد يمثلان نموذجات العقلية اليهودية : ترونسكي علم الشيوعية ووروتشيلد علم الغرب الرأسمالي . وتكشف التحولات الأخيرة من تلاقى الشيوعية والرأسمالية تحت ظل الصهيونية وطمعتهما ، بل أن هناك تقارباً واضحاً اليوم بين المذهبين : الديمقراطية الليبرالية الغربية والماركسي الشيوعي ، وقد بدأت تقوم القناطر بينهما في كتابات سارتر وماركوز وغيرهما وذلك مقدمة لانصهار الأول منهما في الثاني ، وقد جرت محاولات عديدة لربط الفرويدية الغربية بالماركسية قام بها (سارتر نفسه قبل ماركوز) وهناك محاولات متعددة لهذا اللقاء ، لعل أخطرها هو أن الفلسفة المادية هي الجذر الأصل الآن لكل الفكرين الماركسي والليبرالي وأن التفكير المادي التاريخي الذي قال به ماركس هو أساس من أساس الفكر الغربي الليبرالي . وأن هذا التحول إنما يجري لتحقيق الرؤيا المستقبلية التي تعد بروتوكولات صهيون لها من كل طريق :

(١) من طريق الأدب والفن والشعر الجديد . (٢) من طريق المدرسة الاجتماعية ونظريات النفس والأخلاق . (٣) من طريق التكامل بين الماركسية من ناحية والفرويدية والوجودية من ناحية أخرى : ونحن نرى الصورة تتحرك في أفق الفكر الإسلامي العربي اليوم بعد أن اتسع نطاق الدعوات الماركسية والوجودية والفرويدية بها وكذلك مذهب المدرسة الاجتماعية دوركايم وكل دعاة هذه المذاهب من اليهود الصهيونيين ولهم علاقات واضحة وعميقة بالحركة التي قام بها هرتزل ، بل أن الخططات التي تقوم بها الرأسمالية الغربية في محاصرة بعض الأقطار الشرقية واضطهادها بنفسها إنما تهدف إلى أن تلتقي هذه الدول بنفسها في أحضان الشيوعية ولو كانت الرأسمالية الغربية تريد أن تحررها من الظروف الاجتماعية أو الاقتصادية التي تمر بها لأنفقت هذه الأموال لأعلى حريها بل على سلمها ، وتجربة أندونيسيا وفيتنام والشرق الأوسط وغيرها يمكن أن تدرس في هذا المجال . كذلك فإن المسيحية الآن تستخدم لخدمة أهداف الصهيونية اليهودية وأن القوارات التي أصدرتها الجامعات المسيحية سواء الكاثوليكية والبروتستانتية إنما هي خطوات على نفس الطريق وأن كل حركات التبشير المسيحي الآن في العالم الإسلامي محتواه بالنوراة والوحد المقدس وهو ما يمتنقه البروتستانتية وتقوم به ، بل أن الجماعات والإرساليات الغربية الموجودة في العالم الإسلامي (وفيها صمم بعض البلاد العربية) وخاصة التابع منها للبروتستانتية فإنها تعمل في خدمة الصهيونية ومن أجل المدافع عنها

والمعروف أن اليهود قد وضعوا آراء النلود في نظريات ومناهج ومذاهب عالمية ، في إطار الملمانية والمادية ، وذلك لخداع العالم كله عن هوية هذه المذاهب وفرضها على الجماعات والصحافة والنظم الاجتماعية .

(٢٨)

عالم الغرب اليوم إزاء الإسلام

(١)

تمزق الفكر الغربي

إن القوى الطامعة في السيطرة على العالم اليوم تقف في وجه الإسلام من ناحيتين : تقف في وجهه من ناحية نمائه واتساعه وانتشاره وتمكنه من الحصول على ثرواته وقوته واستعادة مكانه الطبيعي فوق سطح الأرض فتحاول ما تستطيع تمويق هذه النهضة ووضع الحواجز والمعوقات في طريقها وتبديد هذه الثروة بتوجيهها وجهة الاستهلاك والترف والفساد . والحيلولة دون انطلاقة التفوق البشري والنمو السكاني بإذاعة دهوات الانفجار السكاني والتهديد بأن النمو البشري سوف لا يجد مادة العيش ، وانتشار دطيات تهديد القتل والإعزاز عليها بحافطة الملازياء أصحاب الملايين على ثرواتهم ، ومكانتهم ، وحتى تظل الأمة الإسلامية فقيرة عاجزة عن السيطرة على مقدراتها الطبيعية التي تستجيب بها أرضها وبلادها ، ونهب هذه الثروات وترك الفئات لأهاها . كذلك فإن هذه القوى الطامعة في السيطرة تسد الطريق على الإسلام حتى لا يزحف سواء إلى أقطار آسيا وأفريقيا حيث الحشد البشري الضخم الراسم المتمطش إلى الدين الحق وإلى أوروبا والأمريكيتين اللتين تنطلقان إلى منهج حياة وأسلوبية جذابة ترضى النفس الإنسانية وتحقق الأمن النفسى بمد أن هجرت هذه المناهج والأيدولوجيات عن أن تحقق لها شيئاً . وليس سوى الإسلام قادر على هذا العمل وهو بالقوة (الله) الحق الذى يمثل ارتباطاً بالفطرة والعلم ونوايس الكون والحياة والمجتمعات وبالله بإرادة الله الذى سيرى البشر آياته حتى يعلمون أن دينه هو الحق . والغرب يعلم تماماً أن منهج التجريب الاسلامى هو الذى صاغ الحضارة الغربية ومع ذلك فقد عاش الغرب قروناً متطاولة يقتصر لهذه الحقيقة ولا يجد أهله القدرة على الاعتراف بها واليوم وهو يرى الحياة الاجتماعية الغربية وقد فسدت واضطربت وأن

المناهج والأيدولوجيات التي وضعها خلال أربعة قرون لم تحقق شيئاً ، يعلم أن الإسلام يستطيع أن يعطيه إن شاء الأمن النفسى والمجتمعى الأمتل ولكن ما زالت الحوائل تحول بينه وبين إقرار هذا الرأى والاعتناع به ، وإنا لنجد عشرات من الباحثين قد أشاروا إلى حيرة الغرب وعجزه ، ومنهم من أشار إلى الإسلام هو الأمل المرتجى ولكن القوى الطامعة فى السيطرة ما تزال تمس فى الإسلام منافساً خطيراً لها ولذلك فهم يضره فى فكره وتثير عليه حرباً قاسية من طريق الاستشراق حتى لا يصل إلى أهل الغرب على نحو صحيح ، وتقو على أهله فى بلادها ، والمهاجرين إليها من بلاد الإسلام ، حتى لا يشكوا صورة تأخذ بالباب أهل الغرب الذين يتعلمون الآن إلى منقذ .

وما تزال اليهودية الصهيونية التلمودية تمنحوى الفكر الغربى المسيحى والفكر النفسانى جميعاً وتسيطر على الإنسانيات المتمثلة فى علوم النفس والأخلاق والاجتماع ، فإذا كان علماء الغرب المسيحيون قد قاموا على هذه المعطيات العلمية التجريبية فى مجال الطبعية والكيمياء والفلك وغيرها ، فإن التلموديون اليهود الذين لم يشتركوا فى هذا الإنجاز إلا بقدر ضئيل ، هم اليوم يحاولون من طريق العلوم الإنسانية والسموم التي يقدمونها من خلالها أن يسيطروا على الفكر البشرى كله وأن يحنوه لإفساد المجتمع الغربى إفساداً يحول بينه وبين القدرة على تائق أى علماء جديد . إن الغرب (باستثناء المنصرى على المسلمين العرب وبتعبه على الإسلام وبسيطرة اليهودية التلمودية) يعمل على محاصرة الإسلام والعالم الإسلامى بأكثر من قوة من قوى التغريب والغزو ممن يسيطرون على مراكز القوة فى العالم وفى قلب الإسلام ومن ذاك تجد أن الحركة إلى البقطة ومنها إلى النهضة تسير فى ببطء شديد حتى لنسكاد تنحصر طريقها وإنما كلما انطلقت إلى هدف جرت المحاولة لتعطيله أو إخماده قبل أن يحقق غايته .

ولقد كان من أكبر ما حل لوائه الغزو التلمودى الصهيونى إثارة مشاعر الغرب على الإسلام بالقول بأنه الدين الوحيد الخطر على العالم الغربى فهم لا يخشون البوذية ولا الهندوكية ولا اليهودية . إذ إنها جميعها ديانات قومية لا تريد الامتداد خارج أقوامها وأهلها وهي فى نفس الوقت أقل من المسيحية رقياً أما الإسلام فهو كما يسمونه - دين منحرك زاحف وهو يمتد بنفسه بلا أية قوة مساهمة وهذا وجه الخطر فيه . ولقد حرص الغرب بقواه الثلاثة (الاستعمار والصهيونية والشيوعية) على مواجهة حركة البقطة منذ يومها الأول ، حتى لا تقوى على حمل لواء الإسلام ولكن هذه المواجهة استطاعت أن تسكف من تحت مدافع الاستعمار ومن بين ضرياته وأن يحقق تقدماً فى مجال

الحرية الوطنية والوحدة وفي مجال انتشار الاسلام وتصحيح مفاهيمه . وإذا كان الغرب قد أعلن بأنه لا يقبل مزاحمة الاسلام في أوروبا وقاومه من الجبهتين على هذا النحو من العنف . فإن الغرب كان حريصاً إلى النسل إلى عالم الاسلام تحت اسم السيطرة والفسط . يبدو هذا واضحاً في قصص أولئك الذين عمدوا منذ وقت بعيد إلى النسل إلى العالم الإسلامي فمنهم من نسل إلى الحرم المكي ومنهم من نسل إلى الأزهر ، ومنهم من عمل في مجال الآثار ، كل هذا ليضموا هذا العالم الإسلامي تحت نظرم وتقديرهم ويفيموا وسائل غزومهم على أسس ثابتة ومعلومات يأخذونها من أهل الأوطان بغير حق ، أو أن ينقلوا هذا التراث من المساجد القديمة والزوايا ليسيظروا به على الفكر الإسلامي فيلشروا منه ما يشاءون ويحببوا ما يريدون ، ولقد روت الصحف قصص كثيرين من هؤلاء منهم برخارت الذي وصف بأنه أولى أوربي مسيحي يدخل إلى الحرم المكي آمناً مطمئناً ويشارك المسلمين حجهم وصيامهم وصلاتهم وقيامهم ثم يخرج من مكة ليسكتب أول وصف من شاهد عيان للأماكن الإسلامية ينشر في العالم الأوربي عام ١٨٢٩ تحت عنوان « رحلات في بلاد العرب تصف الأماكن المجازية التي يعتبروها المحمديون مقدسة » وواضح من طريقة العرض كما يقول الأستاذ محمد جابر الانصاري الذي نقلنا عنه : إن برخارت لم يكن مسلماً صادقاً على الاخلاق وأنه كان ينظر بالاسلام طوال الوقت نخباً لفرسه الذي جاء من أجله . وإن سوء ظن الوالي التركي به كان في محله ، برخارت أول من مهد الطريق لذلك الزميل الطويل من المستشرقين والمستشارين الذي أدعوا حب الاسلام كستار يخفي أغراضهم .

وبعد أن أنهى برخارت زيارته للأماكن المقدسة توجه إلى مصر حيث أعطى رجال القنصلية البريطانية ما أرادوه من معلومات وأخذ منهم ما أرادوه من مال بناء على تعاليمات لندن للتخطيط لا اكتشافه الثاني وإذا كانت رحلته الأولى قد تمت في إطار الاهتمام البريطاني ببلاد العرب وأما كتبها بعيدة عن بذور الاهتمامات اليهودية المسيحية الأولى بفلسطين وبارض التوراة والنبي والميعاد ، فقد قرر برخارت اكتشاف الطريق الصحراوي الذي سار فيه موسى وقومه من بني إسرائيل عندما خرجوا من أرض مصر وذهبوا — عبر صحراء سيناء — إلى فلسطين بحثاً عن أرض الميعاد . وقد أنهى برخارت هذه المهمة في حزيران عام ١٨١٦ ويتساءل الباحث هل كان يخطط بلاوعي للطريق العاكس الذي سوف ينسبه الاسرائيليون من أرض الميعاد إلى مصر في حزيران عام ١٩٦٧ . وفي عام ١٨١٧ شرع برخارت في الإعداد لرحلته الثالثة في جنوب الصحراء الكبرى لاكتشاف منابع نهر النيجر . وهكذا نجد جولته زهر المستشرق اليهودي من بعد يقدم القاهرة ويجاور في الأزهر

ويكتب أسوأ ما كتب مسشرق عن الاسلام ونجد لورنس يقدم في تقييد البحث عن طريق موسى
ثم يكون بعد ذلك حامل لواء المركة الفاصلة بين العرب والترك حيث عرض المسلمين العرب على
الاقتتال لحساب الصهيونية العالمية .

يقول محمد جابر الأنصاري : ليس مهما ما قاله برخارت وما فعله بل المهم أن نرى كيف كان
العرب يدرس أمورنا من كتب ، ويصل إلى قدس أقداسنا رغبة في معرفة مواطن القوة والضعف
ورغبة في إدراك الحقيقة ، لا حبا في الحقيقة . ولكن من أجل استئناسها المصالحه ، بل أنه لم يبدأ
زحفه السياسي إلا بعد أن درس ونقب وأكتشف وقيم . هكذا نجد أن العرب لا يكف عن العمل ،
ولا يكف عن هرولة كل أسباب التقدم على جبهة الاسلام ، وعلامات هذه المؤامرة قائمة في كل
الخطوات ، فطرييون الذين هزموا في الحروب الصليبية ينتظرون ثمانية قرون ليجيء من يقول :
هانحن قد هنا بإصلاح الدين أو يقول الآخر : الآن انتهت الحروب الصليبية : ولا يعني هذا في
الحقيقة إلا أن يقول : هذه هي الحرب الصليبية التاسعة التي انتصرت بعد هزيمة لويس التاسع .

(٢)

وفي مواجهة كل توسع إسلامي نجد المحاولات المبررة من أجل القضاء على كل ما يحصل الاسلام
عليه من تقدم نجد تلك الخطط الماكرة التي تقوم بها حركة التبشير في عالم الاسلام وفي أفريقيا وجنوب
شرق آسيا بالذات حيث ينمو الاسلام هناك نمواً كبيراً ونحاول الكنيسة الكاثوليكية في أفريقيا
محاولات واسعة في سبيل توقيف نمو الاسلام . يقول لوردنيس اليكو في بحث له : في عام ١٩٥٥
ذكرت صحيفة نيويورك هيرالد تريبيون أن السلطات التبشيرية في روما كانت تأمل في تحويل شعب
أفريقيا السوداء إلى المسيحية في مدى خمسة عشر عاماً ، أما صحيفة لأكرو وهي صحيفة كاثوليكية
فرنسية فقد خفضت هذه الفترة إلا أن الأحداث في عالم المستعمرات بما في ذلك أفريقيا فقد تطورت
بأسرع مما كان متوقفاً . ويذكر الباحث أنه في القرن الأول من العصر الاسلامي (السابع الميلادي)
أخرج الاسلام المسيحية من شمال أفريقيا كلها بسرعة ، ولعله يرى أن هلى المسيحية أن تستعيد
الآن هذه الأرض . ولكن الباحث يؤكد أن هذا العمل لن يتحقق لأن الرسائل تعمل تحت
لواء الاحتلال وأن الاسلام يعمل تحت لواء التحرر وأن الصال ضد الاستعمار يشن دائماً من تحت راية
الاسلام ، وأن القساوسة والأساقفة دائماً يصاحبون القوا الأحنينية الفازية حتى أن الكاثوليكية
في أفريقيا ينظر إليها على أنها دين المستعمر ، ويقول بييجيرو في كتابه ثورة الشعوب الملوثة هام

١٩٥٦ : أن هناك أنجاسا عاما للنظر إلى المسيحية كأمر بقايا الاستعمار وأن المبشرين بشار كون البيض الآخرين مصبرم وقد أشار أرتاردت أنه في عام ١٩٥٤ وجد في جنوب أفريقيا ١٢٨٦ كنيسة ينتمى إليها ٧٦١ ألف شخص وقال أحد الفلاحين الأوربيين المستوطنين لأهالي البلاد : ذات يوم كانت الأرض من نصيبنا وكان الأنجيل من نصيبكم أما اليوم فقد انعكست الآية . ويقول : لقد تشكلت السياسة الإستعمارية للكاتوليكية في القرن الخامس عشر كجزء لا يتجزء من سياسة الغزو التي كانت تتبعها أسبانيا والبرتغال . وإن أفريقيا قارة مستعمرة وفي مدى ثلاثة قرون قام مجتمع الدعوة العقيدة وهو جهاز الإرساليات ، التابع للكاتيكات بنفطية القارة بشبكة من الإرساليات ، هذا المجتمع الذي يعمل لحسابه ٣٠٠ ألف شخص يتلقى الإعانات من الدول الأوربية وبذلك إقطاعات شائعة . وفي كثير من المستعمرات نجد أن الكنيسة هي أحد ملاك الأرض السكبار ويفتقر ما يصل إليها ١٤ مليون دولار سنوياً برغم أنه لا يوجد في أفريقيا ما يزيد على ٢٠ مليون كاثوليكي . ويقول لويس جيليه عضو المجتمع العلمي الفرنسي : لقد أعلنت الكنيسة العداء على الإسلام وأهله ومعت في ذلك زمانا طويلا ، وكان رهبانها والقائمون بالأمر فيها يملكون العلم كله بقيمة الإسلام والحضارة الإسلامية والعالم العربي وكانهم كانوا يمدون السكر ذلك لونا من التقوى والتدين . فن ألوان هذا الأفكار حملة رهبان الدومنيكان على ابن سينا وابن رشد وتصويرها في هيئة تعبر عن انتصار القيس توما الأكويني عليهما ، والمراد بذلك القول بانتصار المسيحية على الإسلام وموقف الكنيسة في هذا يفيض بنكران الجليل والجرأة على الحق . ويقول لورينشي إلبكو : إن الحرب العالمية الأولى كانت السياسة الاستعمارية تنفي بالنسبة للكاتيكات غزو المستعمرات وزرع المسيحية كأن الاحتلال الأوربي يعتبر شيئا خالداً وكان تحويل السكان المحليين إلى المسيحية وهو أمر لم يجعله صعباً إلا منافسة الإسلام — ينظر إليه على مسألة زمن .

ونجد في الجزء الثالث من كتاب رأس المال الذي كتبه ماركس وصف الأملوب المستعمر الذي اتخذته الكنيسة الكاثوليكية في تجنيد الرجال الذين يعملون لحسابها ، وأشار الباحث إلى النظرة الماركسية المادية التي احتضنتها الكنيسة من طريق (بارس لومومبا ، وكوامي نكراما) وهم أول من أطلق شعار العناني : علينا أولاً أن نجهد المملوكات على الأرض . ويشير بيير روندو في كتابه « مصير النصرى في الشرق » إلى أناس حماية الأقليات وطرد الغريبيون أقداهم في عالم الإسلام ، وأن الإسلام لم يضطهد أهل السكتار وأنه أدل على تسامح المسلمين من السماح لهم بالاحتفاظ بنبياتهم ومعابدهم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي في الوقت الذي أقرت في الكنيسة في غرب

أوروبا ينحطيم كل وجود للمسلمين في أوروبا . ويقول موديس كرزويه : في موسوعته : تاريخ الحضارات العام : ظهر الاسلام للمسيحي والزنجي والآسيوي بسمو تعالجه ولا سيما بنظرته إلى الله بعيداً عن الحلولية والثنية والاشراك وأن نظرية التعمد قد وقفت دوماً حجر عثرة لدى العقول وحالت دون اعتناق الناس لها أو دون استمرار من أحد العقول بها . وعلى العكس من ذلك جاءت عقيدة الاسلام تنطلق عقوبة على مفهوم وحدانية الله فالله هو الكائن الحى الأبدى الأزلى سرمدي ، وهذا الشعور بوحداية الله تعالى في تعاليم الاسلام وسيطر على حياة المؤمن وهيمن على الفن .

وبينا نجد عشرات من المفكرين المستنيرين يفهمون الاسلام الآن في أوروبا وبالرغم من تلك الآراء المصافة التي تواجه التفسيرات الغربية للدين نجد القوى المصادمة للحق تجدد من حمايتها الاسلام ولا تنوقف عن إثارة الشبهات حوله . ومع ذلك فانا نجد مثلاً (أونا، ولو) في بحثه عن المسيحية يحاول أن يكشف وجهة نظر العقل المستنير في ضوء العلم لبعض التفسيرات التي وضها الرهبان والأخبار والتي لم تكن أساساً من الدين المنزل على سيدنا عيسى ومع ذلك فهناك قضايا كثيرة في حاجة إلى بحث ومنها قضية « الخطيئة الأولى » وهناك مسألة الصراع بين الكنيسة الغربية والقوى الشيوعية للنامية المسيطرة على أجزاء كثيرة من أوروبا ، ومن وجهة نظر الاسلام فإن السيد المسيح هو رسول الله وكليمه وخاتم رسله إلى بني إسرائيل جاء مكملًا لرسالات أنبياء بني إسرائيل : توراة موسى ، وزابور داود ، وانجيل عيسى ، كلها متصلة ببعضها وأن المسيح عيسى بن مريم لم يصلب ولم يقتل ولكن رفعه الله إليه ، وإن خطيئة آدم ليست خطيئة لأحد سواه ، وقد تاب الله عليه منها ، وعفاه عنه ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، والمسلمون يؤمنون بوحدة الدين من نوح إلى محمد ووحدة الرسالة « قولوا آمنا بالله وما أنزلنا إلينا » وإن سيدنا عيسى جاء مصداقاً لما بين يديه من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعده اسمه أحمد .

والمسلمون يؤمنون بكل أنبياء الله وبشكل كتبه المنزلة . ولا يقر الاسلام فكرة (الأبوة) ويفصل بين الألوهية والنبوة وبين النبوة والبشرية وقد أشار أرنولد توينبي (ج ٣ مخنصر دراسة لتاريخ ص ١٦٧) إلى تحول المسيحية إلى فكرة الإله الفيور وتساءل لماذا قبلت المسيحية الغربية هذه الفكرة اليهودية الأصل ولقد استطاعت الصهيونية في العصر الحديث احتواء الفكر الغربي المسيحي وكان أخطر ما استطاعت في ذلك هو الايمان بفكرة محرقة هي : وهذا الله لليهود وهو في الحقيقة وهذا الله لإبراهيم عليه السلام ولأنبائه من بعده (اسمايل وإسحق) وأنه ليس قادراً

على أبناء اسرائيل وحدهم كما كتب ذلك اليهود في توراتهم التي حرفوها أبان مجي بابل . ومن ذلك ما يذكره توينبي : من أن إله اليهود : هو (يهوه) من سمائه الغضب والقسوة والبطش وهدم التسامح ويعنى توينبي أن الغربيين تحت ظل تفسيراتهم الخاطئة للمسيحية قد وأموا بين فكرتين متنافستين : الأولى فكرة البطش وهدم التسامح اليهوديتان ، والثانية فكرة المحبة والتسامح التي يقوم عليها دهايم المسيحية الإسلامية وأن الوجه الذي عرفه الناس عنها في ظل الاستعمار والتبشير الذي انطلق خلال هذه السنوات المائة الأخيرة وهن طريق الربا والمصارف هو الوجه الاول الدخيل الذي اخذت به الصهيونية العالمية أنقى وأصفى ما في المسيحية من عناصر . وإذا كان الغرب قد بدأ من العسكرية الإسلامية الأصلية : فكرة التجريب فإنه قد تحول كثيراً إلى المفهوم الاجتماعي والسياسي للتلود الصهيونية وفرضت عليه فكرة العلمانية يقول الكونت كاثياني : من المؤسف أن تذهب الكنيسة إلى أن ظهور الإسلام كان ضربة قاضية على المسيحية بسبب اعتناق كثير من أتباعها هذه الديانة الجديدة على حين أن الأمر بعكس ذلك فقد أدت الديانة الإسلامية عن طريق غير مباشر خدمات جليلة إلى المسيحية إذ لو لم تظهر الديانة الإسلامية وقدر للمسيحية الأرثوذكسية الجامعة التي يعتنقها الأوروبيون والروس والتي لم يبق أي دليل على نهضتها — أن تبقى مهيمنة من ذلك التاريخ إلى اليوم وحالت دون سطوع مدينة العرب والعجم ، فماذا يكون مصير غربي آسيا وأوروبا في القرون الوسطى المظلمة أو لم تحمل النهضة البروتستانتية التي ظهرت على الأثر دون تدهور الأرثوذكسية في رهوة الانحطاط . بيد أن هذه الخدمات التي قام بها الإسلام نحو المسيحية قد كادت أن تطمس معالمها من جراء النضال المستمر بين هاتين الديانتين فحجب وجه الحقيقة عن الآباء وورث الأبناء والأحفاد الحقد الشديد .

ويقول الكونت كاثياني أن النضال هو من ناحية واحدة ، أما ناحية المسلمين فكلها سلام ورحمة وتكريم للمسيح وأمه ودينه المنزل واعتراف ونجواز عن كل خلاف ، أما النضال فهو من الذين لا يريدون للإسلام في أهل ولا في أرضه أن يبقى ، أولئك دعاة الاستعمار والصهيونية والشيوعية . وأن المسلمون راغبون إلى التلاقى في مواجهة أخطا المادية والشيوعية والإلحاد ولسكنهم يرون أن عوامل التبشير والغزو الثقافي لما تنوقف من الجانب الآخر . وقد أشار العلامة أبو الأهل المودودي إلى مثل هذه المعاني حين خوطب في مساهمى الالتقاء بين الأديان فقال أن المسلمين مازالوا يتأذون مما يشنه على الإسلام بعض العلماء والكتاب والمبشرين والمستشرقين على سيدنا محمد ﷺ وعلى القرآن والإسلام ، وهي حملات تقوم على افتراءات واتهامات تدمى القلوب وتمس الكرامات .

بينما يراهم المسلمون كل المراماة جوانب الأدب والتكريم في شأن مريم وعيسى عليهما السلام ويعتبرون من وجهة العقيدة الإسلامية كل كلمة تنال من كرامتهما أو تنافي مكانتهما كقراً وأنتم لا تهابوا ولا مثالا واحداً أن مسلماً قد ارتكب ما ينافي الأدب في شأن سيدنا المسيح وأمه الصديقة عليهما السلام ونحن إن كنا لا نعتقد في آلهية المسيح ابن مريم ، إلا أننا نؤمن بنبوته عليه السلام لإيماننا بنبوة محمد ﷺ ولا يكون أحد مسلماً حتى يؤمن بالمسيح وغيره من الأنبياء عليهم السلام كما أننا لا نعتبر القرآن فقط كتاباً منزلاً من الله تعالى بل نعتبر كذلك التوراة والانجيل مما أنزل الله . ولا يتفكر أحد من المسلمين في إهانة هذه الكتب المقدسة . وإن المسلمين اليوم وإن كانوا لا يقررون بكون الكتاب المقدس في صورته الحالية وحياً منزلاً من الله بأجمعه بيد أنهم يعتقدون بدون ما ريب أن فيه ما نزل من الله تعالى ولذلك فإن أخواننا المسيحيين لم يجدوا مجالاً للشكوى من أننا قد ارتكبنا إهانة أنبيائهم أو كتبهم المقدسة (والخطاب هنا موجه إلى بابا روما) والعكس من ذلك فإننا لا نزال ننال منهم منذ قرون ضروباً من الأذى فيما يشن كتابهم وخطبائهم من الهجوم العنيف على نبينا الكريم وعلى كتابنا المقدس وعلى ديننا الحنيف ، ذلك لأن هذه الدعاية غير الصحيحة تذر في قلوب عامة المسيحيين أنفسهم بذور الكراهية والاحتقار للمسلمين .

كذلك فإن ما تقوم به البعثات المسيحية والمبشرون المسيحيون الغربيون منذ مدة طويلة في نشر الديانة المسيحية في العالم الإسلامي هي أيضاً مما يأخذ المسلمون على أخوانهم المسيحيين ، ذلك لأن المبشرين المسيحيين لم يقتصرُوا على التبشير فقط بل جاوزوا هذا الحد واختاروا الوسائل الأخرى التي ليست من وسائل التبشير في حقيقة الأمر بل هي من وسائل الضغط السياسي والأطماع الاقتصادي والمدم الخلق والعقائدي والتي لا يقر من فيه مسك من العقل بكونها وسائل نزيهة للتبليغ عن الدين . أنهم في معظم الأقطار الأفريقية حرّموا المسلمين من التعليم بمعاونة من القوة الاستعمارية وأغلقوا أبواب دور التعليم على وجه كل من لا يعتنق الديانة المسيحية أو لا يختار لنفسه الاسم المسيحي بدلاً من اسمه الإسلامي على الأقل . وأن الأقلية المسيحية ذات النفوذ التي خلقت بهذه الطريقة هي التي تسيطر اليوم من النواحي السياسية أو العسكرية والاقتصادية على كثير من الدول الأفريقية التي معظم سكانها المسلمين . وأشار الأستاذ المودوي إلى سبب آخر يحول دون تلاقى الإسلام مع الغرب : فقال إن هناك شعوراً عام يسود المسلمين نحو العالم المسيحي هو أن العالم المسيحي يكن حقاً شديداً بالنسبة للإسلام والمسلمين والتجارب التي تمر عليها من حين إلى آخر تؤكد هذا الشعور وتعمقه . ومنها ما شوهد أخيراً في الحرب التي اندلعت بين العرب وإسرائيل فإن الارتياح الذي أعرب عنه معظم البلاد

الأوربية والأمريكية بمناسبة إنتصار إسرائيل على العرب ترك في قلوب المسلمين وفي سائر الدنيا آنراً أليماً وجرحاً لا يندمل ولا تسكاد نجد بلداً من البلاد الإسلامية إلا وتراه يعتبر ما أبداه العالم المسيحي من سرور وارتياح علنا يوم انتصار إسرائيل على العرب ظاهرة الحقد والعداء الذين يضمروها المسيحيون في قلوبهم للإسلام والمسلمين . بل أن العالم المسيحي هو المسئول عن العدوان السافر الغاشم على فلسطين ، بل هو الذي خلق وطناً جديداً للشعب الأجنبي في داخل وطن آمن مطمئن وهو الذي ساعد على جعل هذا الوطن المصطنع دولة مستقلة وهو الذي أمد هذه الدولة العدوانية بالدون المالى والسلاح الحربى وجعلها تتمكن من تطبيق خططها التوسعية وما قد ترى العالم المسيحي يفرق في غمرة الفرح والابتهاج والافتزاز لما حقق لهذه الدولة من انتصارات ، إلخ .

(٣)

وإننا نجد أن الصهيونية التلودية التي سيطرت على الفكر الغربى في أوروبا وأمريكا قد استطاعت أن تجند كل المؤسسات الغربية لغايتها فالكنيسة البروتستانتية تؤمن بنبؤة إسرائيل الباطلة وترى لها حقاً في العودة إلى فلسطين ، عن طريق ما استطاعت الصهيونية أن تعمل في سبيل فرض هذه السيطرة على دوائر المعارف ومناهج المدارس . بل إن خطط التبشير المسيحي الغربى في العالم الإسلامى إنما تجرى في إطار الاحتواء الصهيونى فهي ليست دهوة للسيحية وحدها ولكنها في الحقيقة دهوة لإحياء الفكر التلودى : بمبادئه ونظرياته ومفاهيمه . ويقف كثير من كتاب الغرب في وجه هذه المحاولة الخطيرة لاحتواء الفكر الغربى المسيحي وخاصة بتطويقه بمفاهيم العلوم الانسانية في النفس والأخلاق والاجتماع عن طريق المدرسة الفرنسية (دور كايم ، ليفي بريل) وغيرهما . وعن طريق الماركسية والوجودية والفرويدية (سارتر ، فرويد ، ماركس) وكلها نظريات وأيدولوجيات لا تمثل الفكر المسيحي الأصيل وإنما تمثل الفكر الوثنى المادى الذى ارتبطت فيه التلودية الصهيونية بالفكر الهيلينى اليونانى القديم .

ونجد في كتابات أونوموتو في كتابه احتضار المسيحية أو كتابات كولن ولسون عن اللامتنى وغيره محاولة لدفع هذا الخطر ومحاولة لإيجاد تيار فكرى مسيحي مختلف ومعارض للفرد التلودى والفكر الغربى بل أن تلك الدراسة الضخمة التي قام بها (نوجي) إنما كانت دقاً من المسيحية الغربية باعتبارها هي التي أنشئت الحضارة الحاضرة ، في وجه حملة (شبنجلر) وماركس اليهوديين عليها والذين أعلنوا سقوطها وهزيمتها . ويقرر أومانو : إن المسيحية لا علاقة لها بالأنظمة السياسية

والاقتصادية. وإن المسيحية عاجزة على أن تحمل مشاكل الفقر والغنى أو توزيع الثروات ويصادى أونومانو جميع الأنظمة البلشفية ويناصر أهداء الثورة الروسية ، ويرى أن البلشفية قد استبدلت ماوكس باليسخ ودستويفسكى ببولس والأخوة كرامازوف بأعمال الرسل ويرفض كل محاولة لتقريب بين الكاثوليسكية والانجهايات العلمية كالوضعية المنطقية ويرفض الاستشهاد فى سبيل المبادئ السياسية لأن ذلك إيمان بالأصنام ويرى أن المسيحية تهنض عندما تتحول إلى حياة إجتماعية أو حركة سياسية أو مدنية والمسيحية هذه لا يمكن إيصاها الآخرين : فهى شىء فردى محض ، كما يستحيل أن تدخل الدين فى سياسة الحزب أو المعرفة الانسانية فى علم الاجتماع أو علم الآثار ويرى أن الدين أقرب إلى التجربة الصوفية والأسطورة الشمية ويرى أنه من المستحيل أن تتحول إلى قانون أو تشريع ويركز على أن الدين (أى المسيحية) أساساً يقوم على مصالحة الفرد لا مصلحة الجماعة . ومجتمع المسيحية يتكون من مجموعة من الأفراد المتمزجين . ويتهم أونومانو الدين على المبادات ويفصل عنه المعاملات وبراء علاقة بين الانسان والله لا بين الانسان والانسان الآخر . وعنده أن الديمقراطية المسيحية خرافة وإن الاشتراكية المسيحية خرافة ، وإن المسيح لم يتحدث من المملكة الفردية إثباتاً أو نفيًا . ويرفض أونومانو أن يتحول الدين إلى حضارة . وبالجملة فإنه يرى أن المسيحية مجرد تجربة صوفية لا صلة لها بالأرض ولا حتى بالسماء ، وبالمثل الأهلى للمسيحى عند انادونو هو لراهب وهو يرى أن الدهوى تفصل الدين عند الدولة فى القرن العشرين فى البلاد المسيحية دعوة تقديمية بعد أن استقل الدين لمصلحة الطبقات المتميزة من أمراء وبلاة وأشراف .

هذا موجز محاولة « أونومانو » وهى تعارض الفكر الغربى القائم الآن وتغزله عن المسيحية تماماً ، وتؤكد فكرة الانشطارية التى أقامتها التفسيرات المسيحية فى الغرب بين الدين والدولة ، وهى ما حاول تلبعض نقلها إلى أفق المجتمع الاسلامى . ويرى الدكتور الفاروقى فى كتابه الملل المعاصرة : إن اليهود كانوا من وراء هذه الخطة فهى التى حققت لهم الخروج من الجيتو : يقول : هلينا أن نذكر أن تحرر اليهود لم يأت إلا نتيجة لنمو الممانية فى التنظيم السياسى والاجتماعى إذ أن إقصاء الدين من السياسة والاجتماع والاقتصاد أدى إلى اعتبار المنفعة العامة والانتاج والخبرة والأهلية كأساس لجميع المعاملات والتنظيمات ومن هنا جاء قبول اليهود على أساس كفاءتهم الشخصية لا على أساس الدين بل على أساس وجودهم فى الوطن . ويقول الدكتور الفاروقى : إن المسيحى الأوروبى قد قسم حياته إلى دوائر ، وجعل بينها سدوداً تمنع أى اتصال وتجرى الحياة فى هذه الدوائر بموجب قوانين خاصة لا علاقة البتة للدائرة الواحدة بما يجرى فى الدوائر الأخرى فالمائلة والأخلاق

الشخصية والدين والاقتصاد والسياسة والاجتماع ، كل واحدة منها تؤلف ملكوتاً مستقلاً فالويل كل الويل إذا سمح الغربي لمبادئ الدين أن تمتد حدودها للتأثير في الاقتصاد والواقع ليست العلمانية سوى الإقرار بأن هناك مبدأ يشمل حياة الإنسان بكاملها كما هو الحال في النظرة الدينية فأصبح لكل دائرة من دوائر الحياة مبدأ الخاص .

وهكذا نجد أن الفكر الغربي قد تبلبل تحت تأثير الاحتواء الصهيوني فانشطر أشطاراً ، وغلبت عليه اللادينية ، وسيطرت للنهاب للماركسية والفرويدية والوجودية وللادينية والإباحية على درجات وحلقات . وقد جاء ذلك نتيجة صراع طويل للدي بين اليهودية والمسيحية في أفق الفكر الغربي وكانت للفكر المسيحي محاولات لدفع أخطار اليهودية النملودية يتمثل في عشرات من التصريحات وفي مقدمتها ما كتبه مارتين لوتر في كتابه (كذب اليهود) الذي ألفه قبل عام ١٥٤٦م وهو يمثل مدى اتساع الصراع بين للمسيحية واليهودية في أوروبا ، وقد رد هذا الصراع إلى سيدين . (أولاً) : التناقض الذي لا حل له بين النظرة اليهودية والنظرة للمسيحية في موضوع السيد للمسيح فاليهود لم يؤمنوا به وما صدقوا برسائله بينما الإيمان به والتصديق برسائله هو أساس الريانة للمسيحية . (ثانياً) : من ناحية دينوية رغم إمكانية ربطها بمعتقدات اليهود الدينية وهي ناحية حساسة . وفي مقدمة القضايا التي كانت موضوع الخلاف : قضية الربا والاستثمار اليهودي بالحياة للمالية في أوروبا إذ يظهر أن حب اليهود للمال واهتمامهم عليه كمصب أساسى لمسيرتهم الحياتية نحو تحقيق أهدافهم بالنساط ليس قضية هابرة ولا مبالغ فيها وليست حديثة العهد . وقد كشفت هذه الدراسة عن عشرات الأدلة لمعاملة المواطن العادى في أوروبا من الجشم اليهودى الذى كان مجسداً إذ ذاك في الربا وحده وما تنزل قضية اتهام اليهود بالتحريض على صلب المسيح وتبرئتهم من هذا التحريض موضع دراسات عن طريق المحافل الكنيسية والمؤلفات والكتب لم تتوقف منذ ذلك الوقت البعيد . ولقد استغلت النملودية اليهودية الصهيونية في أوروبا : نيتشه وريتان وعشرات غيره في الهجوم على المسيحية وعلى السيد المسيح ، وحاول الفكر المسيحى رد هذا الهجوم بتفسير نيتشه مثلاً تفسيراً مسيحياً في المحادثة التي قام بها المسيحى (ياديرز) حين حاول أن يجعل من كتابات نيتشه تفسيراً مسيحياً واحياً ، وأن هدف نيتشه كان هو إنقاذ المسيحية من ألد أهدائها . ولست أدرى كيف يمكن تحرير إعلان نيتشه كان مريضاً مرضاً عضواً في المنع أدى به إلى الشلل ، وإلى الجنون .

وبحاول توينبى في كتابه « المسيحية من أديان العالم » أن يواجه أخطار الاحتواء اليهودى النملودى الصهيونى الذى وقعت المسيحية الغربية والفكر المسيحى الغربى في براثنه حين يقول : أن

أعظم إنجاز قدمتها النعودية هما : هدين للمسيحية وهما الشيوعية والقومية : يقول أن الشيوعية والقومية هما العدوين اللذان إذ هما شكلان مختلفان اوضع فامد إلا وهو عبادة الإنسان لنفسه ، وقال إن العالم كله متفرب ، وسئل تويمبي ماذا تسكره في القومية قال : التمسب الذي يصيح بكثير من القيم الإنسانية ويشير للفن والحروب : والمعروف أنه عندما اخذت العلماء التجريبيون في أوروبا مع الكنيسة وتفسيراتها للأرض والسكون ، قامت محاكم التفتيش بمعاينة العلماء واضطهاد هؤلاء الذين بلغوا ثلاثمائة ألف في بعض التقديرات وقد أحرق منهم ٣٢ ألف أحياء وكان منهم العالم الطبيعي برونو والعالم جاليلو .

وبدأ العداء بين العلم والدين وكان في الإمكان حصره في دائرة التقديرات المنلوطة والسكن اليهودية النعودية عمدت هذا الخلاف وجعلته نهائيا ، وأثارت على الكنيسة حملة عاصفة وطرحته الفكر المادي ، القائم على سيادة الحصن الحصين وسيطرة العقل على الدين وأخذت تحتوى كل النظريات العلمية لتفسرها في دائرة الإلحاد كما فعلت بالنسبة لنظرية دارون حين قامت مفهوم التطور من المجال البيولوجي إلى مجال الاجتماع وحين طرحت مفاهيم التفسير الاقتصادي والتفسير الجنسي للتاريخ وبرز أ كبر عمليين : ماركس : الذي يقول : إن تاريخ العالم هو تاريخ البحث عن الطعام . فرويد : الذي يقول : إن الفرائز هي التي تحكم الإنسان والروح لا وجود لها .

وجاءت برونوكولات صهيون لتؤكد هذا الاتجاه وتفسره حين قالت : لقد رتبنا نجاح دارون وماركس وتيتشة بالترويج لأرائهم وإن الأثر الهدام للأخلاق الذي تنشئه هلوهم في الفكر (غير اليهودي) واضح لنا بكل تأكيد . والواقع أن الدين الذي دخل المعركة ليس دين الله ولكنه تفسيرات بولس وإن صراع العقل مع الدين هو صراع الفكر البشري مع تفسيرات الكنيسة وإن دوافع هذا الصراع كله هي السيطرة الصهيونية النعودية على المجتمع والفكر الأوروبيين الغربيين مقدمة للسيطرة على البشرية كلها .

(٢٩)

فساد المجتمع الغربي

إذا كان الفكر العربي قد اضطربت طريقه فلا بد أن يكون من نتيجة ذلك فساد المجتمع الغربي نفسه . لقد وجد الغرب في التفسيرات التي أُلقيت إليه من العقيدة مالا يرضى النفس المتطلعة إلى الاقتناع والابتنان وجاءت نهضة العلم فوقت أمام كثير من المسلمات لتنظر إليها نظرة العقل فلم يجدوها مرضية للنفس أو مؤامة لفطرة فكان عليها أن تضطرب بين وثنية الأغريق ، وتلودية اليهود ، وإباحية الجوسية وغيرها من آثار الفكر البشري المضطرب ، وكان الإسلام قد جاء ليعطيها المفهوم الأميل والطريق الناصع ، ولكنها قبلت الفكر التجريبي الإسلامي ورفضت مفاهيم العقيدة في النفس والأخلاق والمجتمع ، فضلت طريقها ولم يحقق لها التقدم العلمي مما كانت تنطلق إليه من سلامة المجتمع أو الأمن النفس . ثم جاءت ثمناصر عالم الإسلام وتحتويه ، بعد أن سيطرت عليه إقتصاديا وعسكريا وسياسيا ، وحملت معها كل هذه النظريات والأيدولوجيات لتضرب به هذه القوة المؤمنة بالله التي تميش عقيدتها ومنهجها رغبة في إحتوائها ومحاصرتها وتفويضها في آثون الأمية والعالمية بحيث تقضى على مقدراتها وقيمها جميعا . وكان على المسلمين والعرب أن يعلموا أن الحضارة الغربية التي بدأت بالتجريب الإسلامي قد انتهت اليوم بشيء من التوتر والتفرق والعنف والإباحة التلودية ، ما يهدد بسقوط الحضارة ويضع المجتمع الغربي كله في نفس الوضع الذي عرفه من قبل بمجتمع الحضارة الرومانية في أبان عظمتها مقدمة لاندحارها وتخطيمها وإتهيارها . وحق أن يقول كريس موريسون رئيس أكاديمية نيويورك للعلوم :

لسوف تنتهي هذه الحضارة بدون العقيدة والدين ، ولسوف يتحول النظام إلى فوضى وسوف ينعدم التوازن وضبط النفس والتماك وشوف يتفشى الشر في كل مكان ، إن الحاجة ماحة أن تقوى صلتنا وهلاقتنا بالله . وما يقوله كرلى موريسون اليوم كاله منذ بضعة وثلاثين عاما (بيتان) رئيس جمهورية فرنسا في بيانه الذي خاطب به الأمة الفرنسية موضحا أسباب هزيمتها في الحرب الثانية حين قال : لقد أنت الهزيمة من الانحلال فدمرت روح الملات وأهوا ماشيدته روح التضحية وإلى أدهوكم قبل كل شيء أن نهتموا بأخلاقكم (٥ يوليو عام ١٩٤٠) وينسائل الكس كاريل : هل يستطيع العلم أن ينقذ الحضارة ؟ ويجب فيقول : إن معارفنا العلمية في الزمن الحاضر غير وافية فنحن نعرف

كثيراً عن الحياة ولكن لانعرف كثيراً من أنفسنا . عاجزون عن الملازمة بين نفوسنا وبين هذا العالم الميكانيكى الذى خلقناه ، والباحث على ذلك خطأ قديم عندما فرقوا بين السكم والنوع وعلى الأول طرقتى العلم المبني عليه وكان انتصاره باهراً ، لقد حصرنا مهمهم فى السكم وأهملوا السكيف . فحاستهم فى سبيل الوزن والقياس حولت الإنسان إلى عوالم الطبيعة والرياضة والسكيمياء وكان خطأ جاليلو فى التفريق بين خواص السكم وخواص السكيف وخطأ ديكارت فى الفصل بين الأشياء المادية والأشياء الروحية والاهتمام بالجسم دون العقل هذا الخطأ حول الحضارة إلى الطريق التى أنضت إلى انتصار العلم وأنحطاط الانسان وأن منفذو العالم يجب أن يتوفروا على دراسة الانسان من ناحية السكم والتنوع وما عليهم دراسة العقل الانسانى وهو المجهول العظيم . أن تقدم العلم فيما يتعلق بالغذاء والصحة وشفاء الأمراض قد تم على حساب الفهم العقلى والعقل لا ينحصر فى أساليب التفكير بل يمتد إلى الدين والتصوف والجمال والروحانية ، ولقد صدرت فى أوروبا وأمريكا فى السنوات الأخيرة مئات الكتب أو عشرات الألوف وكلها تتحدث عن السر والظفاد والسحر والقوى الماثلة التى يحرك الانسان دون أن يكون له سلطان عليها إلا إذا عرف سرها يقول الكاتب : إن هناك مشكلات كبرى تعظم وتمزق الضمير والوعى فى أوروبا وأمريكا . إن هذه الشعوب تتمزق وأن الحياة قاسية ولا مفر من الاستمرار فيها وهناك من يهرب منها ومن بين أشكال الحرب : الإدمان والإسراف فى الأكل والشرب والجنس والجريمة وإن الانسان فى أوروبا وأمريكا رغم كل هذا التقدم العلمى لا يزال حائراً أو أن يجهد العلم قاضياً على راحته وعن إسعاد ورغم مئات الملايين ، وألوف الملايين فى كل مكان فإن الانسان يشعر أنه وحده وإن وحدته تنأ كد كلما وجد الناس من حوله ، إن الإنسان الحديث هذه إحساس أنه ليس مالمسك لنفسه ، وأنه مسلوب الإرادة ، إن قوة أخرى تتحكم فيه وإن هذه القوة قد أوجده .

وهكذا يضطرب الإنسان الغربى لأنه فقد الدين الذى كان يملكه وعجز عن أن يصل إلى الحق لأنه لا يستطيع أن يتجاوز عقبة الهوى والشهوات والمطامع ، (أفلا أقبح العقبة) إلى الحق الواضح فى الإسلام . ومع ذلك فهو يريد أن يحتوى الإسلام وأهله وأن يفسد هذا الدين الحق بالشبهات والسموم التى مازال يثيرها لا يتوقف حتى يضع المسلمين فى مناطق الأمية والعالمية والعلمانية التى سقطت فى هونها وعجز عن إخراج نفسه منها . وهو يدعى أنه يستطيع أن يعلى ، وماذا يعلى ، هذه التكنولوجيا التى كان للمسلمين فضل بناء أساسها وقواعدها ، وهى ملك العالم كله ، أما أسلوب العيش الذى يرضاه لنفسه ، وهذه المفاهيم المادية الوثنية العبودية التى يحرك بها الحياة والحضارة فإن الإسلام يرفضها جميعاً .

إن العالم الغربي الذي فقد دينه وهجز عن معرفة الدين ، يواجه ضربات عنيفة حاصفة تهزّه من أعماق كعبانه ، يقول الأستاذ إيفان حزدول عضو المجتمع العلمي السوفييتي في ضخمة إنذار : إن الإنهيارات العصبية لم تزل تتزايد في العالم والدماغ البشري سائر نحو التمعطل العام ، ومعظم العلماء ينسبون إلى الحياة العصرية أسباب الاضطرابات النفسية فإذا كانت هذه الحياة في صحتها ودخاتها وتكوينها لا تسبب الجنون فإنما تسبب الإنسان العصري الجنون . يقول الدكتور الذرنسي لاروش : إن الشر الأكبر في مجتمعاتنا الحالي ليس هو الضجة بمحداتها ولا التلوث الصناعي بل إنما هو إنكسار التوازن بين أفراد المجتمع ، لقد كسر المجتمع الحالي أشكال التوازن القديم وأصبح يتطلب من الناس مزيداً من المعارف ومجهوداً متواصل الانسجام مع المتغيرات الجديدة كما أنه عزل الفرد عن أسرته وعن قريته الأصلية وحصره في بيت صغير المساحة فصلا عن أن هذا المجتمع صرف الإنسان عن تغذية عقله ونفسه ولم يحمه من للتناقضات المستعصية على ذهنه ، هذه المظاهر الجنونية مرض عصبي ، وأن العوامل الاجتماعية المتعلقة تزيد هذا المرض خطورة ونسب الظروف المناسبة لظهور الاضطرابات العصبية واختلال التوازن ، أما علاقات المجتمع الغربي فليست في حاجة إلى كبير بيان . (١) الانتحار وباء بين شباب أمريكا : صرح ريتشارد سيرين أستاذ علم النفس بجامعة كاليفورنيا بأن انتحار الشباب الأمريكي يتزايد بصورة وبائية وأن السبب يرجع إلى تعاطي المخدرات . (٢) في تقرير للأمم المتحدة عن خطر مدمي المخدرات وجد أن عددهم يصل إلى الألف مليون نسمة (نصف سكان الأرض) يمينا من السمادة المزهومة ، وأن أشد المخدرات فتكاً هي التي ظهرت بفضل تقدم العلوم والتكنولوجيا وأهمها حبوب الملووسة .

(٣) ٣٠ مليون حالة إجهاض في العالم كل سنة (٤٠ في المائة اقتصادية) و ٣٦ في المائة نفسية . وأن إنجلترا سمحت بعمليات الإجهاض مما جعل أكثر نساء الغرب يسافرن إلى بريطانيا ودهت بحلة نوفيل أويسرفانود الفرنسية إلى السماح بالإجهاض في فرنسا ونشرت بكل جرأة اعترافات سيدات شهيرات مارسن الإجهاض . وتقول الصحف أن ٣٠ في المائة كل سنة يتم إجهاضهن بما يعادل ربع المولودين . (٤) أفردت الصحف الغربية بحثاً مستقبضة عن تجارة الجنس وعن أرباحها ، وتحدثت نيوزويك عن الأفلام السينمائية والخلاعة والكتب والسجلات المصورة والصورات النمسية والملاهي الليلية فضلا عن البغاء التقليدي وقالت أن أرباح هذه التجارة تبلغ مليار دولار في السنة ، وأن مدينة نيويورك أصبحت عاصمة هذه التجارة الراجعة في مدة سنتين انتقل عدد صالونات التمسيد من أربعة إلى ستة وأربعين علماً أن هذه التسمية ليست سوى (تورية) للدعارة ومحابلة على القانون

وأن ثمن هتاية ثلاث مسمدات تبلغ مائة دولار وبعض صالونات التمسيد تستقبل كل يوم مائة رجل ولا تعمل في نهاية الأسبوع . وأشارت إلى أفلام الخطيئة الخلاهية . وإن فلم ديت نروت «الخنجرة» العميقة در على أصحابه ٣ ملايين دولار ولم يتسكف أكثر من ٣٥ ألف دولار . ٥٠ - لندن ٢٣ -
 ي ب . (الأهرام ٢٤ مايو ١٩٧٣) أن عمليات الإجهاض المشروعة للفئات الأدنى تقل أعمارهن من خمسة عشر سنة قد ارتفعت في بريطانيا بنسبة الثلث في العام الماضي وبلغ عدد حالات من الإجهاض من بين هذه الأعمار إلى ٢٢٩٦ زيادة ٦٥٤ عنها عام ١٩٧٠ وكشف التقرير الذي أصدرته إدارة الإحصاء البريطانية إن بين هذه الحالات ٣ فتيات لا تزيد أعمارهن عن (١١ سنة) وإن ثمان من الفتيات أقل من سن ١٥ سبق لمن الإنجاب . ٦ - أشارت الصحف إلى تسريح ٣٧٠٠٠ خبير نووى بسبب الأمان من خبراء الأسلحة النووى لأسباب تتعلق بإدمان السكحول والمخدرات لأنهم كانوا يتعرضون بسبب تصرفهم غير الطبيعية إلى الإنذار ٩ - صدرت مجلة جديدة في أمريكا أسماها (بلاى جيرل) وصاحبها ميدة جميلة أسماها (نوى هوت) (المجلة مخصصة للنساء فقط فهي تنشر صور الشبان وهم هرايا تماماً وتكتب المقالات والدراسات حول تصرفات الرجل وميوله وأفعاله وكيفية الإيقاع والاحتفاظ به تحت قبضة المرأة . صدرت هذه المجلة لتزد على مجلة (بلاى بوى) الشهيرة بلشر صور أجمل نساء الدنيا .

٩٠ - مسرح أوبرا كوينهاجن عاصمة الدنمرك عرض باليه (أشعار الموت) المأخوذ من قصة (بوجين أونسكو) وتدور حول أطماع الإنسان ونزخته إلى الدمار - ٢٢٠ راقصاً وراقصة يقفون هرايا تماماً لاتستر أجسادهم حتى ولا ورقة التوت . (١٠) دراسة أجرتها جامعة جونز هويسكتر في بلنيمور حول الجنس والزواج بالنسبة لفتيات الأمريكيات أقل من عشرين سنة (ما بين ١٩٥٠) أجريت التجربة على ٤٦٠٠ فتاة يطبق عليهم هذا الشرط . تبين أن ٣٠ في المائة من الفتيات دون دون العشرين قد مارسن الجنس بدون زواج وأن ثلث هذا العدد قد أدت ممارستهن للجنس إلى الحمل غير المشروع .

(١١) وأشارت الصحف إلى نصريح الدكتور روما فولد الذي قال فيه أنه يوجد ٤ ملايين مرضى بالزهري في العالم كل عام وأن أغلب هؤلاء في أوساط الشباب وأن للأمراض الزهرية خطراً بيانياً متصاعداً منذ الخمسينات وأثناء الخمس سنوات الأخيرة ، ارتفع معدل الإصابة بالأمراض الزهرية إلى ٢٠٠ في المائة من الرجال وخمسة عشر عند النساء ويترافح السن بين ١٨ ، ٢٤ سنة (١٩٧٥) .

(١٤) ٨٥٪ من طلبة الجامعة في أمريكا يتعاطون الماريجونا ، ٤٠ ألف شخص دون سن ٤٥ سنة يمانون من النوبات القلبية يتوفى منهم ١٥ ألف . (١٣) سرطان الصدر خطر يهدد للمرأة : هذا ما أعلنته صحف الغرب فقالت أن ٢٥٠ ألف امرأة تموت سنوياً بسبب سرطان الصدر ، وأن العدد يرتفع في أوروبا الغربية وأمريكا . وأن امرأة تموت بسبب سرطان الصدر من بين كل ٢٥ امرأة تفارق الحياة بسبب أو بآخر .

ويقول أحد الباحثين : لقد كانوا قديماً يقيمون المذابح ليحرقوا عليها أجساد البشر لإرضاء للآلهة ولسكنهم الآن يضحون باللايين على مذابح آلهة الوثنية الحديثة . آلهة الريح الفانك وصنم الحجر الأعظم ، وكان الرزيلة البشع وشيطان السرعة الخفيف ، أن العلم يقدم إمكانيات هائلة لتقدم البشرى ولكن أين هذا : إلى الحروب الجهنمية الحديثة ، ومسكرات الاعتقال والإبادة والغازات السامة والنايلام . وهذا الذي يقاضيه المجتمع الغربي يرجع إلى انحرافه الفكري . وقد جاء الإسلام ليقيم له الهدى فرد ، وقسا فحمل على الإسلام وعلمه وحاول تنويره في آتون الإباحية والإلحاد والفساد والوثنية التي يعيش فيها ، واليهودية التلمودية في هذا التحول الخطير الذي يسير فيه المجتمع الغربي أثر كبير وواضح فهي وراء كل هذه المحاولات لتدمير المجتمعات البشرية ، أنها من وراء دائرة للمعارف التي تصدر في مختلف اللغات الأوروبية ونحو ٣ آلاف مليون كلمة لشرح الجنس والهيبر وعقارات الملوحة ، وهذه الدائرة مقصود بها تدمير الشباب والأطفال ولذلك فقد قصرت عليهما وتقع في ٢٠ مجلد ويحتوي على ٦٥٦٥ صفحة والتي قام بها ٧٥٠ مؤلفاً وخبيراً متخصصاً في مختلف المجالات . والقصد هو احتواء الأطفال قبل أن يكونوا شباباً يبعث هذا المعلومات الجنسية للكاشفة والفاسدة لهم الأطفال ، وتوجيههم إلى الإباحيات : تحت اسم الحب والمحدرات وعقار الملوحة . وإلى جوار المكتتب نجد الأفلام : القائمة على الجنس والجريمة مما وقد بلغت إلى درجة عالية من الفساد والانحلال . ويشير الأطباء إلى أن انتشار الأمراض الزهرية في المسالم وخاصة في أوساط الشباب والتي تبلغ ثلاثة ملايين إصابة في كل عام لا تعود إلى فقدان الوسائل الطبية والوقائية بقدر ما نكن في التدهور الأخلاقي والانحلال الذي تشهده المجتمعات الغربية . فإذا أجبنا إلى مجال العلم والتكنولوجيا وجدنا أخباراً مذهلة للانحراف العلمي ، في مقدمة هذا تلك الاختراعات الحديثة وأهمها « الغاز العصبي » الذي وصف بأنه أخطر من القنبلة الذرية والقنبلة الهيدروجينية ، وكذلك اختراع ما سمي بأشعة الموت باستخدام أشعة الفينر ، وهو من القوة بحيث تستطيع أن تدمر أى صواريخ صادية على ارتفاع ١١٢ كيلومتراً كما تستطيع تدمير الصواريخ والدبابات البعيدة المدى .

وهكذا يصل العلم إلى أقصى مراحل تدمير البشرية . كذلك في مجال البيولوجيا : حلت صيحة بعض الذين لم يفهموا المادية إلى التحذير من الأخطار التي ينجرف إليها علماء الأجنة يقول الوردريتش كالدار أشهر خبراء علم الأجنة : أن هؤلاء العلماء يجرون في تطوير أبحاث إنتاج الإنسان المختبري على النحو الذي يفسد المجلس البشري ويزج بالعالم في آتون عصر أسوأ من عصر المخاوف القديمة ، أن هذه الطريقة التي ترمى إلى ذراعة شريحة من جلد إنسان في أنبوب سوف تؤدي إلى إمكانية إنتاج عدد لا يحصى من الأشخاص الصناعيين الذين ينشأون في كل شيء أكثر مما تنشأه النواظم وهم بذلك أشبه بعرائس المصنع أو الإنسان الآلي وسوف نجتمع بينهم القدرة على قراءة أفكار بعضهم البعض ، بهذا يكون انتاجهم بداية لوفاء خاصية التفرد الذاتي وهذا مجرد تصور لكثرة تحقيق بالبشرية . . وهكذا نجد العلم في يد الغرب يخرج عن رسالته وهدفه من حيث يكون « مدمراً للإنسان » خراً ومرجواناً ومخدراً ، و « مدمراً » للبشرية من حيث هو ذرة وقذال وأشعة الموت والعار العصبي ومدمراً للإنسانية من حيث هو إفساد للمجلس البشري نفسه . ولا ريب أن تحليل هذه الإحصائيات والأخبار يؤدي إلى حقيقة هامة : هي نجاح النظريات والأيدولوجيات التي طرحها ماوكس وفرويد وصارتر ودور كايم (هؤلاء اليهود) في هزيمة المجتمع الغربي وتدميره وذهابه إلى أقصى غايات الانحراف والتمزق ووصول العلم إلى درجة اللعاب بالنار الخطير الذي يهدد البشرية كلها بالتدمير .

وهذه هي أزمة الغرب الساحقة التي تضع النهاية له ، ولكنه مازال يقاقل وهو في لحظاته الأخيرة حتى يحاول دون أن يصل الإسلام إلى قلوب أهل الغرب فأزمه الغرب الآن هي أزمة عقيدة وإيمان ودين ونفس ، فقد خرج من مفهوم المسيحية المنحرف إلى مفهوم اليهودية الضال فطابع التلمودية واضح الآن في مختلف مناهج ومفاهيم النفس والاجتماع والأخلاق حيث تسيطر النظرية المادية والفكر التلمودي والآلي والإباحة والوثنية . ولقد كان الفكر الغربي ومازال يقوم على الاستعلاء العنصري والكبرياء الكاذب الذي يدهي أن فكرة العالم وأن تاريخه هو تاريخ العالم وأن رأيه هو الرأي الذي نخضع له البشرية . وأنه صاحب الدم الأبيض الذي لا يهزم وهكذا يظن المفهوم المادي (الإقتصادي الجنسي) على تفسير الحياة الواقعة وتفسير التاريخ ولقد أصبحت مفاهيم التلمودية الصهيونية مصاغة في نظريات ومذاهب وأيدولوجيات ومفروضة على العالم المدزق بين الديمقراطية الغربية والماركسية الشيوعية وقوامها النظرة المادية في الفكر والتفسير المادي في الإقتصاد وممار وصلات تحاول أن تخضع الرأسمالية الغربية الليبرالية للماركسية الشيوعية حتى يسلم العالم كله للصهيونية التلمودية .

وقد تجددت مفاهيم الغاية والعبودية القديمة إلى عرفها الرومان والقيامرة والأكامرة والفراغة
غير أن الحضارة الغربية الحديثة لم تعد تلك إمكان حل أزمتها الخائفة ، بعد أن هكمت الغربية وفسد
المواء ، فهي تقفز من حل إلى حل ومن منجج إلى منجج محاولة الخروج من الأزمة دون جدوى
منذ أن تركت الدين حين عجز في ظل تفسيرات السكينة عن العطاء للنفس والروح وحالات القوى
والاساطير التلمودية بين الغرب وبين أن تأخذ مفهوم الإسلام وخصرته في مناهج التلمود فإذا
افلت منها نقلته إلى البوذية والنفوسية والسحر . لم يكن هو الدين « ولكن تفسيرات الدين »
ثم فشلت الفردية لأنها استغلت وظلمت وفشلت الجاهلية لأنها سحقته الإنسان ، وفشلت القومية
لأنها كانت عدوانية لمن جاورها ، وفشلت العالمية لأنها عجزت عن الاخاء الإنساني وكان الخطأ
في غياب الاساس الثابت : والمنطلق الاصيل ، كلمة الله الواحدة التي تربط جميع الخليوط ، وتقيم
العلاقة بين السكون والحياة والإنسان والمجتمع والدنيا والآخرة ، إلى أين يتحرك التطور وإلى
أى مدى ؟ أين وجهة الحضارة وإلى أى مدى ؟ أين غاية العلم وماهى رسالته ؟ لابد من وجود
الاساس الثابت حيث تبدأ منه الحركة وعنده تنتهى : نقطة البداية والنهاية بعد الحركة الواسعة يجب
أن نمرد إلى أصل ليس من عند الانسان وليس من صنعه .

وهذا أمر لا يعطيه إلا الدين الحق . أن الغرب الذى احتوته التلمودية قد حاول أن يقول بأن
الدين مرحلة في حياة الأمم وأن الأمم قد تجاوزت هذه المرحلة وأن الدور الذى احتاجت فيه
البشرية إلى الدين قد انتهى وأن البشرية أصبحت راشدة بالعالم وليست في حاجة إلى وصاية
الدين وهذا هو « الخطر » الذى أوقع الغرب في أزمة الحضارة والإنسان . وليس هذا القول مفهوما
صحيحا والإسلام لا يرى هذا رأى وإنما كان هذا هو رأى الغرب في دينه أو في التفسيرات التى
حملت إليها من حقيقة الدين ، والواقع أن الدين ليس مرحلة فحسب في حياة الأمم ولا في حياة البشرية
ولكنه عنصر أصيل وكيان عضوى في تركيب الانسان — عقله وروحه وحياته — لا سبيل إلى
إفصاله عنه أو انتزاعه منه ، لذلك فإن الدين لم يموت ولن يموت وأن الفكر الغربى حين حاول أن
يتجاهل الدين (بمعناه الحق) وببجاءه فإنه يواجى الآن أخطر أزوماته . وإن بيرية أوربا في هذا
الصدد لا تفيد البشرية بل تسمى إليها ونحن نرى أوربا بعد أن تركت الدين مازالت تضطرب ذات
اليمن أو ذات الشمال دون أن تصل إلى شيء . ومن ثم فإن الغرب يأفل الآن ويسقط ولا سبيل له
حياة إلا إذا عرف الاسلام طريقه في الحياة .

(٣٠)

الإسلام في دور الفلك

(١)

ألف مليون مسلم

لا ريب أن الإسلام يتألق الآن في دورة الفلك وإن علامات كثيرة تكشف هذا الدور الخطير الذي يتحرك إليه في المجال المالى والبشرى والإنسانى وتمثل هذه العلامات في عدة حقائق هامة : أبرزها أن تعداد المسلمين يصل الآن إلى ألف مليون مسلم وأن الإسلام يعود إلى أوروبا مرة أخرى في قوة وثاتها أن امتلاك المسلمين للطاقة والثروة والتكنولوجيا من شأنه أن يركز بناء هذا المجتمع الجديد أما آخر هذه العلامات فهي التفوق البشرى . وتقف القوى للعادية للإسلام (الاستعمار والصهيونية والشيوعية) في وجه هذا التقدم الظاهر وتحاول هدمه أو تخزيقه أو إجهاضه أو احتوائه . وترى المحاولات التي ترسمها مخططات الغزو الثقافى والتغريب بالاشتراك مع القوى الثلاث : الاستعمار والصهيونية وللذاهب الهدامة جاهدة في عصر ما بعد التضامن الإسلامى والمآثر من رمضان على ضرب النفس الإسلامية العربية في صميمها عن طريق : (أولاً) إثارة روح اليأس والقلق والتشكيك في قوة المسلمين ومكانتهم وتاريخهم ودورهم للترقب في أداء رسالة السلام والإيمان . (ثانياً) التهوين من شأن مقدراتهم الحقيقية وتربطهم وانحصاراتهم وانطط الجديد الذى يسرون فيه في مواجهة الاستعمار والصهيونية . (ثالثاً) زعزعة الثقة في ذاتيتهم الخاصة وشخصيتهم المفردة التي بناها الإسلام منذ أربعة عشر قرناً والتي ظلت صامدة وقادرة على مقاومة الفزاة دون أن تمنحنى أو تنهار . هذه هي الأهداف الجديدة المضافة إلى الأهداف القديمة التقليدية التي ترمى إلى انتقاص الشريعة الإسلامية وتاريخ الإسلام وحياة الرسول والقرآن ، وهي نجارة الاستئتران والتهشير المتجددة التي لا تتوقف . ولعل أكبر ما يثير الاستعمار والصهيونية والمذاهب المادية اليوم هو ذلك النمو المتزايد لقوة البشرية الإسلامية ، التي تجرى محاربتها بالدعوة إلى تهديد النسل ، أو عقد المؤتمرات لتخويف المسلمين من هذا « الانفجار » السكانى الذى يحدث في عالم الإسلام بينما يواجه في عالم الغرب تهص مخيف وتقلص متزايد . ومصدر الخوف هو أن تقل الحصيلة التي تصدر من أراضي المسلمين إلى الغرب عندما ينمو عدد المسلمين أنفسهم أصحاب الثروة الحقيقية . أن الغرض من هذه الصيحات هو أن يظل

المسلمون قلة وأن يظلوا فقراء ، وأن تبقى ثروات المنجنيز والنجاس واليورانيوم والكوبالت وغيرها من الثروات التي تنقل من قلب أفريقيا إلى الغرب والتي وصفها أحد الزعماء المسلمين الأندونيسيين يوماً حين قال : أن ما نهب من أندونيسيا يمكن تصوره بأنه يمثل جسراً من الذهب الخالص يصل ما بين أندونيسيا وهولندا . واليوم تكشف الإحصائيات عن زيادة في عدد المسلمين ، تستشرف الآلاف مليون ولكن الإحصائيات التي تنشر والتي تصل دائماً من دوائر الغرب والتي تقوم أساساً على فكرة مسبقة بانخفاض أعداد المسلمين هذه الإحصائيات تصر على أن المسلمين لا يزيدون عن ٧٠٠ مليون . وتقول التقديرات أن سكان العالم وصلوا عام ١٩٧١ إلى ٣٧٩٦ مليون نسمة بزيادة قدرها ٧٤ مليون نسمة في العام الواحد (الكتاب السنوي للأمم المتحدة) هذا الرقم يمثل معدل زيادة سنوية تقدر بنسبة ٢٪ ، لو استمرت بهذا المعدل فيستضاعف سكان العالم عام ٢٠٠٠ على ما هو عليه الآن ، فيصبح ٧٤١٤ مليون نسمة .

ويقول التقريرين أن شخصاً من كل شخصين في العالم : هو آسيوي ، وأن ٢١١٤ مليون شخص يسكنون القارة الآسيوية وأن الآسيويين يمثلون ٥٦٧ في المائة من مجموع سكان العالم . كما يسكن أفريقيا ٣٥٤ مليون شخص ، أي ٩٥ في المائة من المجموع السكاني لسكان العالم . أما أمريكا الشمالية ففيها ٣٢٧ مليون شخص أي ٨٨ . أما أمريكا الجنوبية فيسكن فيها ١٩٥ مليون شخص أي ٥٣٪ . وفي أوروبا يسكن ٤٦٦ مليون شخص أي ١٢٦٪ . وفي الاتحاد السوفيتي ٢٤٥ مليون شخص أي ٦٦٪ . وأقل نسبة في العالم من السكان ١٢٨ مولود لكل ألف شخص (أوروبا والغرب) . وأعلى نسبة في العالم من السكان ٢٥٣ مولود لكل ألف شخص (آسيا وأفريقيا) . ا . ه . أما أفريقيا فإنها قارة للإسلام في القرن الخامس عشر الهجري الذي يبدأ بعد قليل ويمثل بالنسبة للإسلام مرحلة جديدة غاية في القوة والتوسع ولا ريب أن للتوسع الإسلامي يواجهه ويظهره نمو في الثروة الإسلامية التي تتكشف في كل يوم وفي كل بلد والتي هي ملك المسلمين وهناك لم في مظاهر حريتهم واتجاههم الواضح إلى بناء قوتهم المادية الآن في وجه التحديات الاستعمارية والصهيونية والشيوعية الزاحفة وتدل أحدث الإحصائيات عن تعداد المسلمين أنهم موزعون على ١٩٢ بلداً في العالم منها ٧١ بلداً يمثل المسلمون فيه أكثر من ٥٠ في المائة بالنسبة لتعداد السكان : ١٧ بلداً يشكل المسلمون فيها مائة في المائة ، ٢٢ بلداً تبلغ نسبتهم ٩٠ في المائة ١١٠ بلداً تبلغ نسبتهم ٨٠ في المائة ٣ بلدان نسبتهم ٧٠ في المائة ٦ بلدان نسبتهم ٦٠ في المائة ١٢ بلداً يمثلون ٥٠ في المائة و ٣ بلدان نسبتهم ٤٠ في المائة و ١١ بلداً يمثلون ٣٠ في المائة و ٢٠ بلداً نسبتهم ١٠ في المائة فما فوق

و ١٦ بلداً منهم ١٠ في المائة . وهكذا نجد أن الإسلام قد زحف زحفاً سليماً إلى مختلف أجزاء العالم بفارائنه الخس وانخذ لنفسه فيها مقاماً ، وأن أوروبا قد قاومت الإسلام أكثر من ألف عام حين طارده من الأندلس أكثر من مائة عام حتى أجلت آخر المسلمين عنها ثم طارده من البلقان خمسين سنة قد هادت اليوم مرغة إلى قبول جاليات إسلامية كبيرة في إنجلترا وفرنسا وإيطاليا تمثل (وجوداً) واضحاً (وحضوراً) متميزاً للمسلمين بمعاهدم ومساجدم وكنائهم الداني - وفي أمريكا نجد صورة رائمة حين يقول الدكتور محمد عبد الرؤوف أنه لا تطلع الشمس في نيويورك إلا على مسلم جديد ويكون المسلمون السود بها جالية ضخمة .

وبالرغم من كل أسباب الاضطهاد والتنضيق التي يواجهها المسلمون في الغرب فإنهم ثابتون يستمدون قوتهم من إيمانهم . وفي العالم الإسلامي تحارب الأقليات الإسلامية وتضرب بمنف وخاصة في الفلبين وأريتريا والصومال ولكن القوى الإسلامية ما تزال تنمو وتتميز ويكشف الإسلام دوماً عن حبه للسلام وخير الإنسانية وأنه لا يريد إلا الأخاء البشري الصحيح وإن الدراسة الصحيحة لأحوال المسلمين تكشف حقيقة واضحة جداً هي : أنه منذ ظهر الإسلام وامتد إلى الآفاق فإنه بدأ يقنم أوروبا من ثلاث جهات ، من الجبهة البيزنطية وجبهة الأندلس ، وجبهة صقلية ، ثم زحف إلى الأمريكيتين ومنذ وصل إلى هنالك فقد اعتقر وما زال ينمو وتعداد المسلمين اليوم إنما يمثل حقيقة واضحة هي أن : المسلمين الآن أكبر عدداً من الكاثوليك ومن أهل الصين . وأن أرض المسلمين ما تزال تتميز بالتفوق البشري بالإضافة إلى الطاقة والثروة ومصادر الإنتاج وما يزال العالم الإسلامي مؤثراً قوى الأثر في موازين القوى السياسية والتجارة والاستراتيجية العالمية ، وفي الاقتصاد العالمي وسيظل .

ومن شأن عالم الإسلام اليوم أن يمتلك قوته الذاتية وإرادته الحقة ، لأنه مؤهل لرسالة الإسلام ينشرها في العالمين . ويقدم لكل شعوب الأرض منهجاً صحيحاً سليماً لبناء المجتمع الإنساني بعد أن فشلت وهجرت عن تحقيق ذلك كل المناهج والأيدولوجيات .

(٣١)

عودة الإسلام إلى أوروبا

أقلت أوروبا أبوابها مرتين أمام الإسلام : في بوغاز جبل طارق وفي الدردنيل وطومت الإسلام في الأندلس (شبه جزيرة ايبيريا) وفي البلقان . ولقد أصر الغرب على أن يرفض مزاحمة الإسلام له في أوروبا ووضع تلك القاعدة التي ظلت وقتنا طويلاً سائدة وهي : أن على المسلمين أن ينتهوا من أوروبا بالمجرة أو بالنصير من كلا طرفيها . ولكننا ننظر الآن فنجد أن الإحصائيات تذكر أن في أوروبا وحدها خمسة وعشرون مليوناً من المسلمين . وأن الإسلام يزحف على أوروبا كما يزحف على الغرب كله في قوة . يقول دكتور خورشيد أحمد : جاء الاندفاع الإسلامي الأول من الجنوب غير أن هذه اللوجات تراجعت بعد أن وصلت إلى حدود ألمانيا وحدود فرنسا ، أما أسبانيا فظلت جزيرة إسلامية متألقة في أوروبا على مدى ستة قرون ، وكان لها أثر في بقية أجزاء القارة الأوروبية غير أن هذا الأثر ظل جزئياً وغير مباشر ، ثم جاء عصر الحملات الصليبية التي قامت على أساس من الجهل والتعصب وتشويه الحقائق وأسفرت عن سفك الدماء والدماء . ثم تمت بدور عدم الثقة ونحوها إلى غاية من الأشواك ، ومنذ ذلك الحين ظل العالم الإسلامي وطالم النصرانية متباعدين ، وما تزال الغلال المشثومة نعيم فوق الروس . ومع ذلك ظلت الاتصالات الفردية وآثار الإسلام الثقافية تنتشر . وقد وصلت رسالة الإسلام إلى شعوب أوروبا الشرقية عن طريق التجار المسلمين بل عن طريق القديس وقموا في الأسر أبان الحروب الصليبية وكان دخول الإسلام أول مرة في أوروبا الشرقية نتيجة لعمل قاض مسلم وقع في الأسر وأخذ إلى بلاد البشناق (بين الدانوب الأسفل والدون) في بداية القرن الحادي عشر ولم يذنه ذلك القرن إلا وكان شعب البشناق كله قد اعتنق الإسلام : وانقد ساد الأثر الفكري الإسلامي للفترة كلها وما يزال محسوساً حتى الأزمة الحديثة ، ولكن هذا الأثر لم يتمكن من إزالة التعصب ضد الإسلام كما لم يمكن من تمهيد الطريق لتفهم أفضل لرسالة النبي وتبدأ المرحلة الثالثة مع امتداد الامبراطورية العثمانية وبسط سلطاتها على أجزاء من شرق أوروبا ولكن هذا المد أخذ ينحسر ابتداء من القرن ١٩ حين بدأت حملة جديدة ضد العثمانية في تلك الفترة كان العمل التبشيري النصراني قد وسخت أقدامه في بقية أنحاء العالم وكانت الدول الغربية تتخذ لنفسها مستعمرات في البلاد الإسلامية ، وكذلك أهدت دراسات نصرانية في مهاجمة الاملاهم ونبيل

منه فكانت عاملاً كبيراً في خلق تمصبات جديدة ونشر فشاوة من المعلومات الخاطئة عن الاسلام ولعب نمو الدراسات الاستشرافية دوره في هذه الاساءة الفكرية والثقافية وتدهورت العلاقات بين الاسلام والدول الأوروبية . أما المرحلة الحالية في العلاقات مع الدول الأوروبية بعد بدأت مع انحصار الاستثمار وظهور حوالى أربعين دولة إسلامية مستقلة . وحاصت جهات من المسلمين في أوروبا ٣ أو ٤ في المائة من مجموع السكان الأصلي . كانوا يشكلون قبل الحرب العالمية الثانية ٦٦ في المائة من سكان ألمانيا ١٥٪ من موطنى يوغسلافيا ٢٤٪ من سكان قبرص ١١٪ في مالطة . ثم جاءت موجات كثيرة من الهجرة إلى إيطاليا وفرنسا وهولندا والمملكة المتحدة كان أهلها من البلاد التي استعمرتها هذه الدول في الماضي ونالت ألمانيا نصيباً من العمال الضيوف الذين جاءوها من تركيا ونجم من هذه الهجرة جاليات إسلامية كبيرة في عدد من الدول الأوروبية كذلك فقد وفد إلى أوروبا عدد ضخم من الطلاب . وتدل التقديرات أن عدد المسلمين حالياً في أوروبا يبلغ حوالى ٢٥ مليوناً منهم نحو خمسة ملايين من الدول الأوروبية غير الشيوعية والباقي في أوروبا الشيوعية بما في ذلك المناطق الأوروبية في روسيا وهذه التقديرات مبنية على دراسة (الأديان الحية في العالم : كراتش) . وهناك بيان يرد المسلمين إلى ٢٣٧ مليوناً بما في ذلك روسيا بينما يبلغ عدد المسلمين في روسيا الآسيوية وحدها بين ٣٠ و ٣٦ مليوناً .

وفي الدول غير الشيوعية يظهر أن أكثر من ٢٠٪ من عدد المسلمين يتألف من أطفال وشباب يدرسون وفق أنظمة تعليمية مختلفة . وتحليل السكان المسلمين في أوروبا يبين وجود ثلاث مجموعات رئيسية : (١) المسلمون المحليون . (٢) جاليات إسلامية كبيرة مهاجرة تعيش في دول معينة . (٣) عدد كبير من الطلاب المسلمين والعمال الضيوف . ويقول التقرير : لقد حاول المسلمون في كل مكان تقريباً أن يلبشوا المساجد وأنواها من المرا كز الإسلامية وكذلك فقد أنجنت بعض الترتيبات لتوفير تعليم إسلامي للأطفال المسلمين والمشكلة هي كيفية توفير الحماية والحفاظ على الشخصية المعنوية والثقافية للمسلمين الذين يتعرضون لمناخ غير ملائم لهم خلقياً وثقافياً وفي الآيات المتحدة تشير التقديرات : إلى وجود جاليات إسلامية كبيرة من الفئات التي تنحدر من أصل لبناني وتركى وسورى وباكستاني وهندى ويوغسلافى وأنه توجد ثلاثمائة منظمة إسلامية فضلا عن وجود ظاهرة الإسلام المقسمة دوما بين الزوج الدين يكونون مجتمعاً يبلغ تعدادة ثلاثة ملايين مسلم ويقول الأستاذ محمد عبد الرؤوف مدير المركز الإسلامى في نيويورك أنه لا تطلع الشمس من سبيل إلا على مسلم جديد .

(٢)

(٢) لقد الفت ظاهرة هودة الاسلام إلى أوروبا نظر كثير من الباحثين في مقدمتهم جان بول رو الذي يقول في كتابه الإسلام في الغرب : لقد قضى إخراج العرب من أسبانيا عام ١٦٠٩ على وجود المستعمرات الاسلامية الدائمة في أوروبا الغربية وخلال ثلاثة قرون لم تر أوروبا الغربية في مدنها وقراها خصوصها القديما . ومع فجر القرن العشرين وبسبب عوامل متعددة بدأ هؤلاء يعودون ببطء ، هل هي هودة عرضية هابرة أم هي بداية موجة إسلامية جديدة . ويقول : إن هودة الاسلام إلى أوروبا هي موجة جديدة لن يقدر على وقفها أو الحد منها أية عقيدة أو مبدأ أو دين . وقال إن وجود الاسلام في الغرب برئدى حالياً طوابع أربعة مختلفة :

(أولاً) : إقامة مؤقتة لطلاب جامعا يسكنون دراستهم الملبية في جامعات أوروبا الغربية أو دبلوماسيون يمثلون بلادهم لدى العواصم الأوروبية . وليس للطلاب ولا الدبلوماسيون نشاط . (ثانياً) : هجرة محدودة للاجئين سياسيين . (ثالثاً) : الأيدي العاملة . (رابعاً) : بعض الأوروبيين الذين اعتنقوا الاسلام . وفي حوالى عام ١٩١٣ في إنجلترا أعتنقت بعض عائلات انجليزية الاسلام وأسست جماعة ماسكة في « وكننج » منطقة سواى وبعد ذلك في فرنسا والنمسا وإيطاليا وألمانيا قام بعض الأفراد واقنعوا بما حصل في إنجلترا . ويقال إن هذا العمل فردى وليس له أثر توسعى لا في العائلة ولا في البناء غير أن الاعتناقات الحديثة التى حصلت عليها في ألمانيا مازالت قريه منا وجامع برلين مديره وحلم ألماني هو الإمام هيوم وقد أحسن وفادى هند زيارته عام ١٩٥٣ وكان متفائلاً بشأن مستقبل الاسلام في ألمانيا وقال إن المسلمين يجتمعون في عدة مدن في هامبورج ، ترفلين ، لاندشت ، شوترنجين ، ولم تسكن في أوروبا الغربية أى دهورى إسلامية منظمة أو أية لغة تبشيرية ثابتة شبيهة بتلك التى ترسلها للجان أوروبا المسيحية إلى ديار المسلمين . (١) وتقول السكابة الغربية كالبرى :

فرضت الأديان على من يدينون بها معتقدات ثقيلة يصعب القيام بأعبائها بعدها من مدى الإقحام على حين كان الإسلام عجيباً في سهولته صريحاً في فروضه وهذا كان سبباً آخر في سرعته انتشاره بين الشعوب التى اضطربت أخلاقهم كل الإضطراب بما أصابها من الشك المضى لعقائدها الدينية . وكان هذا ولا يزال السبب في سرعة انتشار الإسلام المتواصل بين الأمم في آسيا وأفريقيا

لنفوذهم إلى أرواحهم دون حاجة إلى التناول في شرحه والتسكف في الدعاية له . أولئك الذين يرون أن حظ الإسلام أوفر من حظ المسيحية يعترفون بأن الخوارق في الدين المسيحي ترفى وتسر وتذهل الخيال ولكنها معقدة وليس في الإسلام شيء من ذلك . الإسلام الذى يقول أن الحساب ان يكون في هذا العالم وأن السعادة هذه يجب أن تتحقق على الأرض لتكون مقدمة للسعادة الأبدية . (٤) ويقول هوبير دنشان : صاحب كتاب الديانات في أفريقيا السودانية أن انتشار دهوة الإسلام في غالب الظروف لم تقم على القسر وإنما قامت على الاقتناع الذى دعا إليه دهاة متفرقون من المرابطين لا يملكون حولا ولا طولا إلا إيمانهم العميق بدينهم وكثيراً ما انتشر الإسلام بالفسرب البطيء من قوم فسكان إذا ما اهتمت الاسترقاطية وهى هدف الدهاة الأول تبعها بقية القبيلة . وقد يسر انتشار الإسلام أنه دين الفطرة بطبعه سهل التناول لا لبس فيه ولا تعقيد في مبادئه وأنه سهل التكليف والتطبيق على مختلف الظروف أن وسائل الانسحاب إليه ليس من أى دين .

ويقول الأستاذ أبرم ولسكى (المدير العام لرابطة موريشيا) أن الاسلام سيصبح قريباً أحد أديان أوروبا ويصور الدور الذى يقوم به المسلمون الآن في أوروبا بعد أن كونوا فيها جاليات ضخمة نجتمعها مراكز وهيئات على مستويات مختلفة ، ومن بينها المعهد الاسلامى في إنجلترا الذى سيكون له دور حاسم في مستقبل المسلمين في إنجلترا وغرب أوروبا . ويقول : أن المسلمين الذين استوطنوا غرب أوروبا يشعرون أنهم مجموعة تختلف عن بقية المجموعات التى تسكن في هذه المنطقة ، هذا الشعور مبور في المنظمات والجمعيات المختلفة التى يكونها المسلمون لخدمة أغراض مجموعهم ولربطهم برباط كى لانمحي ثقافتهم الاسلامية وتجد هذه الظاهرة في المملكة المتحدة وإيرلندا . كما نجد أن المسلمين عشرات الجمعيات كونوها لخدمة ثقافتهم الدينية . ويقول أبرم ولسكى : أن أوروبا تعرف الاسلام منذ ثلاثة عشر قرناً ويوجد على الدوام مسلمون في روسيا وهولندا واليونان ويوغسلافيا ودول البلقان بجانب ألبانيا وتركيا وحمادولتان مسلمتان ولكن المسلمين في كثير من هذه الدول يجدون ممانعة قاسية . وكان الغرب على مر الدهور يريد تخطيط الاسلام ومحو الوجود الاسلامى ولكن هيئات له ذلك فدين الله لن يزول من الأرض .

ومنذ أن هرفت أوروبا الاسلام ناصيته العداء وهرفت أن في وجوده خطر على ثقافتها ودينها أما الآن فهى مستعدة لأن تفهم الاسلام وتتقبل وجوده بعد أن عرفت أنها تعتمد في وجودها الاقتصادي على الدول الاملامية . إن انتقال المسلمين إلى أوروبا جعل الأوربيين يتقبلون التعايش مع المسلمين مثال ذلك الباكستانيون في بريطانيا والأتراك في ألمانيا والمغاربة في فرنسا ، وهذه

الهجرة إلى أوروبا مستمرة وفي إزدياد وسيصبح الاسلام بإذن الله أحد أديان أوروبا . في بريطانيا الآن حوالي مليون مسلم وفسدوا إليها في ١٥ سنة الماضية واستوطنوها وشجعهم على ذلك الديمقراطية والحسرية لبيكونوا جميعاتهم الإسلامية وصارت مجموعتهم متحدة وتمييزة عن بقية المجموعات .

ولقد استطاع المسلمون أن يتغلبوا على دهاية الغرب وزعمه أن الإسلام كان شبتا في الماضي وانتهى، و ينتظرون بلطف ذلك اليوم الذي سينتصر فيه الإسلام ، لقد كان الإسلام صاحب الجولة الأولى في العالم مرتين وتشير كثير من الدلائل إلى قرب جولة ثالثة بإذن الله ويعمل المسلمون الآن للحفاظ على الثقافة الإسلامية والفكر الاسلامي لكي لا تنمحى شخصيتهم المسلمة المتميزة وهناك حقيقة مؤسفة أن بعض المتنفذين والشباب انهمروا في تيار الحضارة الغربية ساعدهم على ذلك جهلهم بالخطاات الثقافية الغربية وسمو الثقافة الاسلامية . أن من يعيش في الغرب يستطيع أن يعيش إنحطاط المجتمع الغربي وسمو المجتمع المسلم ، والمسلمون في غرب أوروبا يقيمون الاسلام كقوة فكرية وقوة حضارية وكنظام اجتماعي لا يقاربه نظام و يقيمون فاصلا بين الحياة في ظل الاسلام وبين الحياة في ظل فوضى الغرب وتفسخه . أن المجموعة المتميزة في بريطانيا لها دورها في تبصير العالم الاسلامي بما يعتقده الغرب في كثير من نواحي العقيدة الاسلامية وتشكل مجموعة المسلمين في بريطانيا أكبر مجموعة إسلامية موجودة في قطر أوربي ورغبة أفراد هذه المجموعة في الثقافة الإسلامية ستجعل لهم دوراً بارزاً في نشر الفكرة الإسلامية ويتمثل النشاط الاسلامي في ألمانيا ، وإيطاليا ، وفرنسا ، والنمسا في بناء المساجد وإنشاء الجمعيات وإنشاء الصحف ووضع الكتب وكذلك يقوم بهذا النشاط اتحاد الطلاب المسلمين في أمريكا وكندا . ويتحدث الدكتور محمد حميد الله في كتابه « نمو الاسلام في أوروبا » فنقول :

يكاد يكون اليوم في كل قطر أوربي من الرعايا للمسلمين عدد ولا يزال للأقليات والأكثرية من أصل أصيوي وأفريقي ويشغل في كل من ألمانيا وبلجيكا وسويسرا وإيطاليا وبنمها من البلدان آلاف للمسلمين كعناصر مساعدة ونجذب كل من إنجلترا أو فرنسا القسم الأعظم منهم . وحتى بدء القرن العشرين كان لا يوجد مبشرون من المسلمين ومع ذلك في بدء الحرب العالمية الأولى يوجد في ووكينج قرب لندن جالية من المسلمين الهنود وقد شيدوا جامعا وأخرجوا مجلة باسم المجلة الإسلامية التي مضى عليها أكثر من خمسين عاما . والسنينيون مؤسسات عديدة في كل من إنكلترا وألمانيا

وسويسرا وأخيراً يوجد مهندون للإسلام عن اهتدوا إلى هذا الدين الخفيف عن طريق النفاة الصوفيون . أن كتابات جونيون وتلاميذه أفضت إلى تشكيل مجموعات إسلامية في كل من باريس وجنيف وأما كن أخرى ، ويظهر أن المسلمين في يوغسلافيا لهم الآن الحرية في النشر والدفاع عن دينهم. ويوجد الآن في جميع الجامعات الأوروبية الكبرى كرامى لتدريس الإسلام لكثير من الفروع كاللغات والدين والتاريخ والفن والاقتصاد والاجتماع ويزداد عدد المسلمين في المعاهد الثقافية الأوروبية وهم يزدادون دوماً بصورة خاصة في فرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا وحتى في البلدان الشيوعية يقرب العدد من ٥٠ ألف طالب ويقول : أن أوروبا متفتحة للإسلام أكثر مما كانت عليه في القرون الوسطى ، ورغم هذا من ذلك فهناك بعض العقبات التي يلزم تذليلها ولا بد من الإشارة بأن كثيراً من المؤلفين المسلمين يكتبون باللغات الأوروبية إذ يفسرون القرآن وينشرون بعض الكتب عن الإسلام ، وبذلك يزيدون الثروة الأدبية وأن الفهرس الإسلامى المعروف (ايندكس إسلاميكوس) هو باللغات الأوروبية وقد ساهم في تأليفه كثير من الكتاب المسلمين ، ويصير هذا الفهرس في أوروبا من الأسفار القيمة والجديرة بالثقة .

ولاريب أن هذه الملامح السريعة تستطيع أن تعطى اتجاه الريح . ولكن هناك ما هو أهم من ذلك : هو نشأة تيار جديد في الفكر الغربى يحاول أن يفهم الإسلام ويرى أنه السبيل الوحيد لصلاح البشرية وأن أوروبا لن تستطيع أن تجد المجتمع السليم ألا إذا اهتمت بأسلوب العيش الإسلامى ، ردد هذا كثيرون في مقدمتكم برناردشو وغيره وهناك من أشار إلى أن الإسلام يحل مشاكل البشرية المعاصرة ومعضلاتها الحاضرة ومن يرى أن الغرب حائل بالإسلام وسوف لا يجد محبصاً من التماسه منهجاً لمجتمعه وحياته هاجلاً أو آجلاً .

(٣٢)

الإسلام في الأفق

إن صورة الإسلام في الأفق تتمثل في عدد من العناصر والخطوط العامة بحيث لا تخفى على الرأى أبداً وبحيث لا يستطيع أهل الانتقاض من أقدار الأمم والحضارات إنكار ضوءها ووجعها . وهي تتمثل اليوم في ثلاث عناصر ضخمة :

(١) التفوق البشرى . (٢) إمتلاك الطاقة والثروة . (٣) إمتلاك التكنولوجيا .

تحدث كل الأبحاث التي تقابس المجتمعات والأمم اليوم عن «العرب : القوة الجديدة» نقول إحدى هذه الأبحاث : الزمن تغير فجأة وعلى غير انتظار تبدلت نظرة العالم إلى العرب بعد طول معاملة لهم على أنهم دول متخلفة ، لأول مرة منذ زحفت جيوش الإسلام من الجزيرة العربية في القرن السابع للميلادى لشر رسالة محمد في العالم تمكن العرب من تحقيق سلسلة من الأعمال الناجحة عسكريا وسياسيا واقتصاديا . وإن الوجود العربى استمداد ثقله القديم وتفجرت قدرات الخلق للفنى والأدبى في كل بلاد العرب . لقد رسم الأوروبى صورة مشوهة للإنسان العربى تعطيه صفات البدائى الممجى غير للتحضر ، هذه النظرية ترجع أساساً إلى المصور القديمة عندما وصلت للجيوش العربية إلى أوروبا وفتح الأوربيون أيهم على جندى غريب أثار الخوف في نفوسهم وشعروا مع قدومه بما يمثل من خطر على ثقاليدهم ، إن هذا الجندى نفسه هو الذى حمل معه إلى أوروبا : « العلم » الذى كان العرب سباقين إلى كشف أسرارهِ . جاءت حرب أكتوبر تضيف إلى العربى سمات جديدة بما أحدثته من تأثيرات على شخصيته . والسؤال للطروح في الغرب الآن : كيف سيستخدم العرب قوتهم الهائلة الجديدة ؟ عندما اقتحمت جيوش مصر حصون إسرائيل ، هبر الاسرائيلى الذى تجاوزت خطرته كل حد ، استطاعت أن تضرب نفوقه القتالى السابق . وقد وضع أقدام العرب على هتبات الطريق نحو مستقبل مشرق ، والعرب ملتزمون بمواصلة نضالهم في سبيل التحرر وسيكون النضال طويلا وبشكل الوسائل وفي كل المجالات . هذه صورة لما يراه الغرب عن الإسلام وأهله اليوم وفي أغسطس عام ١٩٧٤ كتب الأستاذ أحمد بهاء الدين : إن الغزو التركى اقبرص أعاد إلى الأذهان دفعة واحدة ذكرى قرون غابرة : الإسلام يطرق أبواب أوروبا . المبانىون ضد الأفرىق ، ولم تتورع جريدة انجليزية ذات يوم أن تستخدم في عنوانها الضخم كلمة « البرابرة » كل قصص الحكم العثمانى في البلقان من جديد . للسألة الشرقية من جديد ، أوروبا مشكلة العالم العربى الإسلامى ، في تلك السلسلة التاريخية والمتصلة الحلقات هبر التاريخ ، مدأ وجزراً ، بين شرق وجنوب ، البحر الأبيض من شماله وغربه ، هل عاد الشرق يطرق أبواب الغرب ، بعد دورة من الزمان ولكن بجيوش هذه المرة من لال الغزير .

(٢)

وتقول جريدة نوفيل أو بسرقاتور في ٣٠ سبتمبر ١٩٧٣ : أن غزوة العالم العربي الإسلامي لغرب الصناعاتي تحدث هزة أعنف من الهزة التي آثارتها ولادة العالم الشيوعي . وتقول : أن غزوة العرب غزوة مالية أو أي شيء آخر إلا أن تكون إسلامية فما الذي يحمل الغربيين إلى النظر للعالم العربي بالمنظار الإسلامي ، ما الذي يجعلهم يرفضون أن يصدقوا أن الإسلام لن يفعل فعله في توجيه مقدرات « الغرب » وبالتالي في مقدرات العالم كله . ماذا يمكن أن يفعله البترول للإسلام وما يمكن أن يفعله الإسلام بالبترول ثم ما يمكن للإسلام والبترول أن يفعله بالعالم فعلا وهل يمكن أن يحل مشاكل التنمية الاقتصادية والتضخم وأزمة السيولة النقدية وكيف حصل هذا كله ، هذا هو ما يخيف العالم الصناعاتي الرأسمالي . وتحدث الصحف والأنباء عن الأزمة الاقتصادية التي تعاني منها أمريكا وخاصة في مجال الطاقة والتضخم للمالي الذي يؤثر على قوت الشعب اليومي ، وتحدث عن إنتاج الدول العربية من البترول وهو يمثل ٦٠ في المائة من الإنتاج العالمي . وأن ١٣٠٠ مليار دولار هو دخل دول البترول العربي عام ١٩٨٥ في الشرق الأوسط ، وتساءل الصحف عما إذا استمر دخلها من البترول بمعدلاته الحالية فما هو التهديد الاقتصادي الحقيقي : إن الدول المصدرة للبترول ستحقق دخلا صافيا يصل إلى ٦٥٠ مليار دولار خلال خمس سنوات ثم يتضاعف هذا الدخل عام ١٩٨٥ وستكون دول الشرق الأوسط قادرة على شراء كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر العسكرية لتدعيم نفوذها . هذا هو ما يشغل الغرب إزاء الثروة الإسلامية الضخمة وامتلاك الطاقة إلى أمد طويل وتشير الصحف الغربية إلى ما نسميه : قلق عالمي لزيادة دخل دول البترول العربية الإسلامية وأثر ذلك في الاقتصاد العالمي وخاصة فيما يصاحب ذلك من تفوق بشري في عالم الإسلام بينما يوجد انهيار ضخم في تعداد السكان في الغرب . وقالت مجلة نايم الأمريكية (١٩٧٣/٣/٢٩) إن الثروة البترولية في الدول العربية في طريقها إلى إحداث تغيير في « تاريخ العرب » وتزويدهم بسلاح لم يتوافر لهم منذ هزود الحروب الصليبية وهو سلاح قوى يمكنهم من استخدامه في التنمية ، وفي مواجهة الإخطار وإن الدول العربية تمر الآن بشوكة في البترول تنتج لها إمكانيات القوة والثراء ، وأن العرب الذين يبلغ عددهم مائة مليون شخص بدأوا يدركون فجأة أبعاد السلاح الاستراتيجي الذي يمكنهم به وقالت أن استهلاك الولايات المتحدة من البترول يزيد بنسبة ٨٧

سنويا وأن الدول العربية تسيطر على ٦٠ في المائة من احتياطي البترول العالمي وإن دخلها الذي وصل إلى أربعة آلاف مليون و ٤٠٠ مليون دولار وسيصل إلى ٤٠ ألف مليون دولار عام ١٩٨٠ وهذا الرقم يزيد عما حققته الشركات الصناعية الضخمة من البترول وعددها ٥٠٠ شركة ، وقال ولیم فولبرايت : أنه قديماً في يوم تقرر فيه إحدى دول الغرب احتلال دول النفط في الشرق الأوسط بالقوة أو ترك ذلك لأصدقائها الأقوياء عسكرياً في المنطقة كإسرائيل : الصحف (أبريل عام ١٩٧٣) .
واشرت الصحف اليومية في لندن ذات صباح هناوين ضخمة من كلمتين لا ثالث لهما :

« العرب قادمون »

وقالت : ذلك لأن العرب يملكون القدرة على شراء أكبر شركات الولايات المتحدة وهلات الصحف لجرد أن فريقاً من أثرياء العرب قد حملوا معهم إلى لندن بضع مئات لللايين من الجنيهات الاسترلينية لشراء الأراضي والمباني في قلب العاصمة البريطانية (١٩٧٤/٩/٢٠) . ونساءلت الصحف : عن الدوافع التي جعلت للمال العربي ولم تمض سنة هجرية بعد معركة العبور يحول إتجاهه صوب بلاد الغربة . وفي وسط هذا التخليط للنضارب من النظرات وللشاعر نجد العرب يتجهون إلى تأصيل فكرهم الأسامي بالدهوة والعمل على إنشاء البنك الإسلامي وإعداد منهج أصيل للاقتصاد الإسلامي وتوجيه المال الإسلامي وجهة البناء والانشاء وينحدث الفكر الإسلامي اليوم عن التكنولوجيا ودخولها إلى العالم الإسلامي وتحركها في إطار الفكر الإسلامي نفسه ويمجى الحديث حول قدرة المال الإسلامي على شراء العلم نفسه وليس الآلات ، حتى يصبح علماً هربياً إسلامياً يتحرك في إطار اللغة العربية ، خاصة وأن البلاد الإسلامية أخذت تشكل قوتها العسكرية في مواجهة إسرائيل وكل خطر أو غزو استعماري أو شيوعي ، وقد أثبتت حرب رمضان أنه لم يعد لإسرائيل على العرب ذلك التفوق التكنولوجي الذي كان معروفاً قبل عام ١٩٧٣ . كذلك فإن البحث يدور حول مجتمع الغرب الذي أسرف في الاستهلاك وأسرف في رفع مستوى معيشته وفي ترفه وبذخ ووضع للاقتصاد العالمي قوانينه التي تحكمه وهو يريد الآن من الدول الإسلامية أن تدفع الثمن له في أزماته كما كانت تدفعه في أيام رخائه وازدهاره . وتقول الأبحاث : أن الدين اخترعوا قوانين السوق والعرض والطلب ليس من حقهم أن يتذمروا إذا دارت حجة هذا القانون مرة لغير صالحهم ، وإن تركوا المسافة تنسع بينهم وبين دول العالم النامية بل شعوبه البطاعة ، وأن العرب لا يريدون أن يدمروا قواعد الاستقرار الاقتصادي في ولائهم يريدون فقط حقوقهم ، أنهم يدركون وأجهم نحو المجتمع الدولي ولكن هل المجتمع الدولي أن يدرك واجبه نحوهم ، ذلك أن المجتمع الدولي ليس محتاجاً لحل مشاكله إلا لبعض

التعشيف وهو مهما تعشيف فيضطر في نعمة ، إذا قيس إلى سائر العالم بأكله ولكنهم لا يريدون التعشيف ويبعدون عن الحل على حساب الآخرين . وتشير الأبحاث إلى تأمر الغرب على نروة الإسلام . وتقول : أن الخطر للمستحدث بالنسبة للعالم العربي هو الاحتواء الأجنبي والوصاية والتهديد بالمصادرة والاحتلال وأن للعالم العربي ما زال أسير للمؤسسات المالية العالمية حيث تستقطب الحضارة الأجنبية الجزء الأكبر من الأموال العربية وفي الغالب لا تدخل هذه الأموال في الاقتصاديات العربية بل تبقى خارجها .

(٢٣)

التفوق البشري

من أبرز مظاهر تألق الإسلام في الآفاق : تلك الظاهرة الضخمة التي تتأكد في مجتمع الإسلام وهي : التفوق البشري ، ومدى الخطر الذي يحسبه الغرب لهذا التضعف والحلة القاسية للبيئة بالتأمر على هذا الخطر خاصة في الوقت الذي يضعف فيه النمو البشري في الغرب ويتضاءل . ويطلقون على هذا التفوق البشري كلمة « الانفجار السكاني » . والظاهرة كما أبرزها التقارير والاحصائيات : إن العالم يضم الآن ٣ مليار من السكان ترتفع إلى ٧ مليارات نسمة في نهاية القرن الحالي وقد زاد الجنس البشري سبعة مائة مليون في السنوات العشر الأخيرة في كل عام يولد بالعالم ١٢٧ مليون طفل ويصل إلى سن التعليم ٩٥ مليون طفل وإن الدول النامية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية هي أكثر الدول تأثراً بهذه الزيادة إذ أن ثلثي سكان العالم يعيش في هذه المناطق وأن خمسة أسداس الزيادة للنتظرة في عدد السكان تكون أيضاً في هذه المناطق وقد أصبح الوافدون يزيدون من الراحلين في الشهر الواحد بما لا يقل عن سبعة ملايين نفس فالعالم يستقبل كل يوم ٢٠٠ ألف نسمة زيادة صافي بعد الخسائر وقد استغرق العالم ثلاثة آلاف عام بأكلها قبل أن يضاهف تعدادها ولكنه الآن يتضاعف تلقائياً كل خمسة وأربعين عاماً .

ولاريب أن لنا نحن المسلمين عبرة في دراسة هذه الأرقام . فمن يؤمن أن السكون كله لله وإنه هو الخالق وإن ظاهرة التفوق البشري هذه ظاهرة طبيعية في طريق اكتمال صورة السكون والأرض على النحو الذي أشار إليه القرآن لتأخذ الأرض زخرفها وزينتها وتخرج الأرض مذخورها من معطيات الحياة في قاع البحار وفي قلب صخور الجبال وفي جوف الأرض ، وأن للمسلمين في هذه المائتي ألف

طفل يوميا أكثر من ٢٩٩ ألف طفل وهذا يدل على أن ظاهرة التفوق البشرى تمثل جيشانا ضخما في عالم الإسلام بما يدل على تفوق ظاهر لهذه القوة المؤمنة بالله ، بينما نجد أن الانحسار السكاني واضح الدلالة في عالم الغرب . وفي إحصائيات أخرى أن عدد سكان العالم الآن هو ٣٧٠٠ مليون نسمة وأنه إذا سار معدل المواليد على حالته الآن فإن العدد سينضاف خلال ٢٦ سنة ، أى في نهاية هذا القرن م يكون قد ارتفع إلى ٧٤٠٠ مليون ساكن وأن هذه الزيادة ستكون من نصيب الدول النامية في آسيا وأفريقيا أى أنه من بين ٢٢٤ طفلا يولدون في الدقيقة الواحدة ٢٠٢ طفل للدولة النامية و ٢٢ طفلا لدول المتحضرة . وهكذا نجد انحساراً شديداً في مواليد الغرب ونمواً شديداً في مواليد الإسلام ومن هنا نجد تلك الحركة الضخمة التي تصورها الصحف وتلوكمها دون أن تفهم ما وراءها ، وهي محاولة الغرب لضرب هذه القوة وتدميرها حتى لا ينمو في سنوات قريبة « ذلك العملاق » الذى سيقود البشرية في اتجاهها الصحيح . ومن هنا نجد المجتمع الغربى يرفض تحديد النسل ويفرضه على عالم الإسلام ويعلن البابا بيوس الثانى هشراً رأيه صراحة في تأييد المسيحية لكثرة النسل وبواجهه المسلمون مع حملة تحديد النسل ذلك التحدى الخطير ، تهدى نمو الصهيونية في فلسطين ونمو المسيحية في أوروبا وفى أجزاء كثيرة من العالم الإسلامى ، بينما يطالب المسلمون بخفض تعدادهم وهنا تنكشف المؤامرة . أن الخطة مدبرة ضد المسلمين بالذات ذلك أن غير المسلمين يخشون تكثر المسلمين ويحاولون إيقاف هذا التزايد بكل وسيلة : ومن هنا كانت الدعوة إلى تحديد النسل والحد من تعدد الزوجات . وبينما يطلب ذلك إلى المسلمين تترك الصين ليتزايد سكانها بمعدل ١٤ مليوناً كل سنة ويجرى تهديد العالم الثالث بنضوب الثروات وذلك كذوبة كبرى فإن الخطر كله كامن في سوء توزيع الثروة والعالم الثالث يملك أغلب ثروة العالم وإفقاره إنما يجيء من نهب هذه الثروة وتصديرها للأمم المتفرقة الاستعمارية المسيطرة التى تأخذ أكثر من طاقتها والتى تقوم على سياسة الاستهلاك المدمرة .

(٢)

نتحدث الأبحاث عن ظاهرة الانحسار السكاني في الغرب ونصفها بأنها ظاهرة خفية وخطيرة تقلق الخبراء الاجتماعيين والسياسيين ورجال الأعمال وهي ظاهرة هبوط نسبة المواليد بين الشعوب الغربية والأمريكية بالذات ، فأمريكا نتجبه نحو حالة الصفر في النمو السكاني فهي تقف الآن في النقطة التى يكون فيها عدد المواليد مساوياً لعدد الوفيات . وتتحدى الأبحاث عن هذا الخطر المائل الذى يهدد الولايات المتحدة والدول الغربية على بعد بضعة أجيال : مما يؤدي إلى انخفاض القوة العاملة وما يؤدي إلى ركود الإنتاج في حين أن الدول الفقيرة تعاني نمواً هائلاً في السكان .

وتقول الأبحاث أن عدد سكان أمريكا ٢١٢ مليون نسمة وإن النمو السكاني في أمريكا يصل إلى درجة الصفر ٢٠٢ عندما يبلغ السكان ٢٦٠ مليون نسمة ، وإشارك الولايات في هذه الظاهرة (السويد ، ألمانيا الغربية ، اليابان ، هنغاريا ، رومانيا) وإن نسبة المواليد في هذه الدول في هبوط مستمر منذ الحرب العالمية الأخيرة . وأن المبوط كان هائلا في السنوات الأربع الماضية : في السويد ، وفنلندا ، النمسا ، بلجيكا ، الألمان ، أما هنغاريا وبريطانيا قد بلغت درجة الصفر في النمو والقلق ناجم من أن القوى العاملة سوف تنضال في المستقبل مما يؤدي إلى ركود الانتاج ومن أجل ذلك شددت بعض دول أوروبا في قضايا الاجهاض وفرضت عقوبات . ومنع السوفيات تداول الحبوب المانعة للحمل وأعطوا أجازات أطول للزوجة الحامل . ويتوقع الخبراء أن أكثر دول أوروبا ستصل درجة الصفر في النمو السكاني في بداية القرن الواحد والعشرين ، ويرى بعض الخبراء أن نمو السكان إلى درجة الصفر سيؤدي إلى ركود اقتصادي اجتماعي . ويرجع الخبراء هبوط النصب في المدى البعيد في الدول للخطورة إلى مجموعة عوامل يطلقون عليها التمتعير أو التحديث (موردنا برشين) ويقول الخبراء أن موانع الحمل والاجهاض قد خفضت للمعارضة الأخلاقية لضبط النسل وإن ثلث النساء الكاثوليكيات عارضن موانع الحمل بالرغم من أن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ترى أن موانع الحمل أمر خاطئ غير مستحب كذلك فإن اللوجة الجديدة للأئونة قد ساعدت على جعل نسبة المواليد منخفضة حيث شجعت للمرأة على تمديد دورها كربة بيت وأم ، وقال : الدكتور جسون بلدز : إن للمرأة لم تشعر بأن عليها خلق الأطفال لتصبح إنسانا بشريا ، ويرى كثير من النساء أن مساهمتهم في المجتمع أو تحقيق اكتفاء ذاتي أكبر يكون ببقائهم في أعمالهم بدلا من البقاء في البيوت مع الأطفال وأن للمرأة تصبح شيئا مهما إذا كانت أما أو ربة بيت (٦٩ مليون امرأة عاملة تؤلف ٤٦ ٪ من القوى العاملة في الولايات المتحدة) .

ويشتر التقرير إلى خطورة امتناع الشباب عن أنجاب الأطفال : يقول بول ايرليس في كتابه (القبيلة البشرية) عام ١٩٦٨ وكتاب آخر (حدود النمو) إن العالم يواجه كارثة إذا تناقص النمو السكاني وقال ولفريد ليكرمان : إن الإنسان قد استخف بحجم اللوارد الطبيعية الهائلة في العالم . وهناك إشارة إلى أن التضخم الاقتصادي يعد عائقا في إنجاب الأطفال . وأنه بوجود دخلين في البيت غدا في مقدور الكثير من الأزواج التمتع بالأمور الترفيهية .

(٣)

وهكذا نجد الخطئية الواضحة لموقف الغرب إزاء التفوق البشرى في عالم الإسلام ، أنه موقف الرغبة في إيقاف النمو حتى لا ينجز للمسلمون غمرات أرضهم وقدراتهم التي تصدر إلى الغرب والتي يسيطر عليها عدد قليل من أصحاب اللابن أغلبهم من الذين يمتلكون ويدرون ثروة البشر كلها . ومن هنا كان ذلك الإلحاح الذي نواجهه في الصحف لا يتوقف على ما أسموه الانفجار السكاني وقد استدرجوا إلى الكتابة في ذلك عدد من الذين لا يعلمون ومنهم الافرام الذين ينظمون في اللامونية عن طريق أندية الروتارى واليونز وغيرها فضلا عن هذه الحشود من العلماء الذين تجميعهم مؤتمرات الوالدية في تحديد النسل وتمر الغذاء العالمى . وقد أكدت عشرات المصادر والدراسات إن الخوف من نمو السكان في البلدان النامية والمتخلفة هو الذى يلقى مادة الغرب فإن هؤلاء ميصبحون قوة عديدة تضر بالبلاد الأوربية وآية ذلك فى العمل لهذه الغاية تلك المبالغ الضخمة التي تصرفها للؤسسات الدولية فى إقرار هذا العمل فى البلاد المتخلفة فى تونس وحدها تصرف ٢٠ ملياراً من الفرنكات سنوياً على تأسيس مستشفيات التعميم .

ويشير الأستاذ خورسيد الأستاذ بجامعة كراتشى عن سوء نية الاوربيين والتخطيط الاقتصادى لإدامة احتلال الدول المتقدمة للشعوب النامية . « إن آسيا والعالم الإسلامى أكبر مناطق الارض اليوم إزدحاماً بالسكان وما عدد السكان فى البلاد الغربية بالقياس إليها إلا قليل : أنه هذا التفوق السكاني سوف يقضى على الاسس التي أعادها الغرب لسيادته السياسية فى العالم منذ القرون الخمسة الماضية وعلى ذلك التفوق الفنى والعلمى الذى كان له على الشرق والذي به استطاع أن يقيم احتكاره السياسى على العالم إلى أبعد الأبعاد على الرغم من قلة مكانه ، لقد آمن الاستعمار أن الغرب بوسعه أن يحتفظ باحتكاره السياسى على العالم إلى أبعد الأبعاد على الرغم من قلة مكانه ، ولكن الأوضاع الحالية والحقائق الجديدة فى العالم قد فتدت هذا الخيال الخطأى وأماطت اللثام عن وجه الحقيقة وأنه لأجل التناقض المتطرد فى عدد سكان البلاد الغربية فقد ظهرت بوادر الانهطاط والأفول فى السياسة رغم الشعور بعد الحرب العالمية الأولى خاصة بأن خطة تحديد النسل ضررها أكثر من نفعها من الوجهين السياسية والإجتماعية ، ومن ذلك أن فقدت فرنسا مكانتها العلمية شيئاً فشيئاً وأعلن المارشال بيتان عقب الحرب العالمية الثانية اعترافه بأنه من الأسباب الأساسية الرئيسية التي عمات لنهوين قوة فرنسا وإزاحتها عن مكانتها العالمية . قلة عدد الأطفال والسكان . وقد بدأت آثارها المبيثة

تحدث في حياة إنجلترا وغيرها وأوجست خيفة من آثارها السويد وألمانيا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا وشعرت بحاجة ماسة إلى إهادة النظر في خطتها بشأن عدد السكان ولذا فهي تبذل الآن جهوداً متتابعة لزيادة عدد سكانها بدلاً من تقليله ، إلا أن الغرب لن يستطيع مع كل هذه الجهود أن يزيد عدد سكانه إلى حد يستطيع معه أن يحتفظ بمكانته السياسية ويبقى متربعا على كرسى السيادة العالمية بل الذي لا شك فيه أنه سيعود عاجزاً في المستقبل عن مقاومة الشرق والعالم الإسلامي مهما بذل من جهوده لزيادة عدد السكان في أقطاره .

وأشار الدكتور خورشيد إلى أن عدد السكان في بلاد الشرق أكبر بدرجات من عدد السكان في الغرب وأن هذا معناه أنه ليس في الإمكان بقاء شعوب الشرق محكومة مغلوبة على أمرها بمسد تدربها على الآلات الميكانيكية وتصنيعها في العلوم الفنية ، بل سيكون من النتيجة اللازمة لهذه النهضة كباقي القطرة أن تفقد سيادة الغرب على العرب أزهي أيام حياتها وأن تبرر القيادة العالمية في أماكن فيها زيادة السكان ولها في نفس الوقت خبرة فنية وتكتيكية حربية فكل ما يصنعه الغرب اليوم للاحتفاظ بسيادته العالمية في مثل هذه الأوضاع خطير للغاية وأن أي محاولة لحد من زيادة السكان في الشرق عن طريق تحديد النسل ومنع الحمل مسألة فاشلة تماماً . نعم أن هناك محاولة خطيرة بمحاولها الغرب ليوثق النمو السكاني والتفوق البشري في عالم الإسلام وكذلك لإيقاف القدرة على استعمال التكنولوجيا والسيطرة عليها في مقدمة ذلك خطة تحديد النسل ومنع الحمل كحل ناجح ، أو تحويل إرادة المسلمين والعرب لتوجيه مقدراتهم وثرواتهم ومقدرتهم الاقتصادية والمالية إلى طريق الإستهلاك والترف . ويقول الدكتور خورشيد « إن هنيان أمريكا وكل ما تبذل من النصائح والموادظن من مشكلة السكان إنما هو نتيجة إلى حد كبير لشعورها بذلك النتائج والمؤثرات السياسية المتوقعة على أساس تغير الأحوال في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية . ويقول آرثر كورنيل : أنه لما تعجب الناس في البلاد المتقدمة إهجاباً فطرياً أن يقل عدد سكان الناس في البلاد غير المتقدمة ذلك أنهم يرون في زيادتهم المطرودة خطراً داهياً على مستواهم الرفيع في المعيشة وعلى سلامتهم السياسية . وقد أشار ميك كارل إلى هذه المؤامرة الخطيرة لانقاص سكان العالم الإسلامي ، قال : إن أهل الشرق سوف لا يلبثون إلا قليلاً حتى يظلموا على حقيقة هذا الدجل ثم لا يفتفرونه لأهل الغرب لأنه استثمار من نوع جديد يهدف إلى دفع الأمم غير المتقدمة ولاسيما الأمم السوداء إلى مزيد من الدل والخسف حتى تتمكن الأمم البيضاء من الاحتفاظ بسيادتها وأن القوة الغالبة لا تكون في المستقبل إلا البلاد التي تمنع بزيادة السكان وتنحلي في نفس الوقت بالعلوم الفنية وأن محاولة أمم الغرب

(٣٤)

مستقبل الإسلام

يقول المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي في كتابه (الإسلام والغرب والمستقبل) : تستطيع أن تميز بعض البدايات الإسلامية التي يمكن أن يكون لها في المستقبل القريب أثرها البالغ إذا ما أتت لها أن تعمل عملها في الحياة الاجتماعية ، ذلك أن هناك مصدران للخطر تواجهها الحضارة الغربية هما : الشعور بالانصراف وآفة الحر وأن الروح الإسلامية في مكانتها لست من هاتين الآفتين تستطيع أن تسد خدشات اجتماعية وأخلاقية جلية . إن انطفاء جذوة النزعات الانصرافية بين المسلمين يعتبر ظاهرة من أعظم المنجزات الأخلاقية في الإسلام ، وفي العالم المعاصر تسد الحاجة صارخة إلى نشر هذه الفضيلة الإسلامية ومع أن التاريخ يظهر عموماً أن الشعور بالانصراف لم يكن ظاهرة عامة بل حالة شاذة في طبيعة العلاقات بين الأجناس البشرية المختلفة فإن من سمات العصر الحاضر أن يكون هذا الشعور بارزاً وبارزاً بشدة لدى الشعوب القوية التي استطاعت أن تقطع لنفسها - ولو مؤقتاً - حصص الأسد من ميراث الأرض خلال التنافس الذي قام بين الدول الغربية في القرون الأربعة الأخيرة . ويشير توينبي أن أخطار النزعات الانصرافية الهدامة التي بلغت أوجها في أفريقيا الجنوبية ، أو في العالم الجديد عبر البحار قد أخذت تعصبها عنصرياً ما زال في تزايد ، وعنده أن القوى التي تدافع عن فكره القسامع العنصري إذا ما أعانتها قوى أخرى ومن المعقول أن تكون روح الإسلام هي تلك القوة المدخرة التي قد تقرو مصير تلك المشكلة لصالح القسامع والسلام .

ويتحدث عن آفة الحر ومالها من أثرى بين الشعوب البدائية في المناطق الاستوائية التي فتحها الغرب وصارت ميداناً لمشاريعه ويقول : إن الإسلام يستطيع أن يلعب دوراً في هذه المناطق الاستوائية التي فتحها الغرب ، ثم يقول : هنا يستطيع أن يرى أثرين فالحق يمكن أن يمدحها الإسلام في مناطق وقعت تحت سيطرة مجتمع غربي رعى بشباكه كل العالم كله . ولا ريب أن المؤرخ توينبي قد ظلم الإسلام ظملاً شديداً مرتين ، مرة حين تنسك لحضارته ودورها الضخم في بناء مستقبل البشرية كله ومرة أخرى حين أراد أن يقرر دوره في المستقبل على حل مسائل الانصرافية والحر ، ولا ريب أن يكون توينبي قد صدر في بحثه كله عن ذلك الاتجاه المسيحي الغربي الذي احتل به كل مفهوم والذي حصره دون الأنصاف أو التقدير لكل ما استعجش به البشرية من قوى جديدة ، ذلك أنه كان يريد الدفاع عن الحضارة الغربية : حضارة الليبرالية الفردية التي صنعها

المسيحيون الغربيون ، وأن يقف في وجه التحديات التي قدمها مدروكن وشبنجلر من سقوط الحضارة الغربية وانهارها وقرب أفول نجمها .

ولا ريب أن أرى توينبي في مستقبل الاسلام هو رأى الغرب المسيحي الرأسمالي الطامع إلى استدامة السيطرة (مع الاحتفاظ بوحدة نظره إلى الصهيونية التي يستمدّها من نظراته المسيحية المعادية لليهودية) وذلك فهو يرى أن أسلوب العيش الغربي في العالم الإسلامي هو الطريق الوحيد وإن على المسلمين أن يأخذوا العلم والتكنولوجيا الغربية وأسلوب العيش معها وهذا هو الزيف الذي هجر توينبي عن أن يتحرر من السقوط فيه وهو بشر ولا شك يؤمن بمسيحيته وحضارته وغربته . ولا يتصور مستقبلاً للبشرية غير هذا الغرب وهذه الحضارة وهو يريد أن يطعمها بكل ما في الديانات أو الفكر الإنساني من أسباب تمرد في عمرها وتجعلها خالدة إلى الأبد وهيئات ، ولذلك فهو يحذر من بقعة الخلافة الإسلامية ، ويحذر من نزعم المسلمين لقيادة العالم ، ويحذر من فريق ثالث ليس هو المتابع للغرب أو المحاصم للغرب . ويقول إذا سبب الوضع الدولي الآن حروباً عنصرية يمكن للإسلام أن يتحرك ليلعب دوره التاريخي مرة أخرى ثم يقول : « وأرجو أن لا يتحقق ذلك » وهناك اعتذاره عن جرائم المستعمرين وإغفاله دور الماسونية واليهود (الدوغم) في إسقاط الخلافة ودهم حركات التنوير وهذا ما لاحظته الأستاذ مسح خوري في بحثه عن توينبي وبالجملة فإن رؤيا توينبي هي رؤيا مسيحية مستمدة من تفكيره الغربي المسيحي وإن نظراته للإسلام قد صدرت من روح التحيز الذي لا يستطيع التحرر منها ونحن نؤمن دائماً بأن الناس وجهة نظر الواحد لا قبلها أبداً في استقراء الأمور وأن الطريق الصحيح هو أن نواجه قضاياها في ضوء العقيدة الإسلامية والإيمان بها ومعرفة أبعاد التحديات التي تواجهها . وقد استطاع المسلمون عام ١٩٧٣ م - ١٣٩٣ هـ كسر قيد ظل يحول بينهم وبين التحرك زمناً طويلاً بعد أن أدالوا من الصهيونية في معركة العاشر من رمضان وتلك علامة على طريق جديد في حاجة إلى عمل كبير حتى يتحقق له من النتائج ما يكفل دهم هذا المنطلق الجديد ، وأن الخطوة التي قام بها الفكر الإسلامي منذ بدأ مرحلة البقعة توشك أن تسلم العالم إلى مرحلة جديدة هي مرحلة النهضة . وإن مواجهة الصهيونية العالمية التي اتخذت رأس جسر لها في فلسطين هو بمثابة العمل الذي تتركز فيه القوى وتنصر فيه التحديات التي حلها الاستعمار والشيوعية خلال أكثر من مائة عام ، وإن هذه القوى الثلاث تتكامل اليوم لتحول بين ضربة جديدة لعزيقه ، وما تزال قضايا بنگلاديش والفلبين ولبنان وجنوب السودان والتحديات التي تواجه مسلمي أفريقيا والملايو

تشكل أخطارا وتهديات ذات أهمية خطيرة في الخطوة التي تحاول الصهيونية العالمية القيام بها في وجه التقدم الإسلامي الزاحف بقوة المختلفة : الطاقة والاقتصاد والتكنولوجيا والنفوق البشري، وتجري المحاولات في كل هذه النقاط لإحداث الترقق والانحدار والحيلولة دون تحقيق الغاية المرجىة.

(٣٥)

التحدى الكبير القائم في وجه المسلمين

إن التجارب العديدة التي تمر بالمسلمين ، وخاصة تلك التي مرت في السنوات الثلاثين الأخيرة جديرة بأن تلفت أنظارهم إلى حقيقة ماثلة يجب ألا تغيب عن الأذهان لحظة ، ويجب أن تقوم كل مخططاتهم ومشروعاتهم ومصلحتهم على ضوءها ، ويلزم أن تكون عنصرأ أساسيا لكل مخطبتهم ومشاكلهم ، بل وجدهم ولهموم . ذلك هو ما يسمى بالتحدي الكبير الذي ينتهي ، هذا التحدي الذي أسلم الشعوب إلى المزعجة والتخاف حين فقدت الإحساس به ، وغفلت عنه وحين غلب عليها ذلك الإحساس بالأمن وتلتوطف من مواجهة التحدي والغفلة عن الحذر الدائم إزاء إخطار الأعداء المتربصين . لقد كان هذا الأمر وهذه الغفلة عن أدوات المقاومة والحفاظة على شئور الأمة وأطرافها باليقظة والسلاح والمراقبة وتلك الاستنامة عن الأخطار هي مصدر كل ما واجهته من مباحنة على طول تاريخها سواء من الدولة البيزنطية أو الحروب الصليبية أو حملات الفرنجة أو زحف التتار أو تطويق الاستعمار للعالم الإسلامي في العصر الحديث أو هجرة اليهود إلى فلسطين . أن المراجعة لوقائع التاريخ الإسلامي تثبت أن مصدر الأزمات الكبرى كان هذا الأمن ، وهذه الغفلة عن الأسلحة والاستنامة عن الأخطار . ولقد كان « الحذر » عنصراً أصيلاً وأصلاً كبيراً مما علم الله سبحانه ونصالي المسلمين في القرآن حين دطام إلى إقامة الأمة الوسطى وهو جزء لا يتجزأ من كيان هذه الأمة ووجودها فإذا غفلت عنه فقد آن لعدوها أن يصمرها بالفرز والتسلط والاحتلال .

ولقد كانت أكبر معارك المسلمين هي في مواجهة هذا الخطر ، وكان الأمن الذي عرفه المسلمون في بغداد عام ٦٥٦ هو مقدمة الفرز الذي قام به التتار وكان الأمن الذي عرفه المسلمون في تلك الفترة التي تصل بين حدود الدولة الرومانية وبين بلاد المسلمين وهو مقدمة الفرز الصليبي ثم العربي ، وكان

التراخي في الرابطة في الثور الاسلامي على البحر الأبيض في مواجهة أوروبا هو الذي يمكن للدراكب الصليبية من الوصول إلى موانئ الشام وكان الأمن الذي عرفه المسلمون في الأندلس هو مقدمة انقضاء الأسيان والبرتغال عليهم والقضاء على وجودهم فيها . ولذلك كان الأمن الذي عرفه المسلمون في أبن الدولة العثمانية . هذا الأمن ليس أمنا صادقا ولكنه أمن زائف لأنه يقوم على تجاهل واقع العالم من حول المسلمين ، والنكوص من الوصول إلى أدوات التقدم والفرق في الترف والمعدات والأهواء ، والانقسام والصراع بين الحسكام . ولقد ولدت أجيالنا في ظل الاستعمار الذي سيطر على العالم الاسلامي منذ أكثر من مائة عام ومازانا نعيش هذا الخطر ، ولقد خيل إلى البعض أن خروج جيوش الاحتلال وتحرير الأوطان هو مقدمة لمرحلة من الأمن جديدة ولذلك فإن محاولات التلميح من الخطر كانت مصدر الضربات التي أصيبت بها العرب والمسلمون في السنوات للتوالي هزيمة ونكسة وهزوا وتسلطا وسيطرة على فلسطين وبيت المقدس . وما يزال الاحتلال الاسرائيلي لفلسطين وبيت المقدس يمثل قبة التحدي والخطر الذي لا يسمح للمسلمين والعرب مطلقا أن يحسوا بالأمن ، ذلك لأن هذا الخطر ليس محددًا بمكان ولكنه خطر مصحوب بالتوسع والمطامع في بلاد كثيرة ومواقع غاية في الخطورة والحساسية وهو ليس خطراً سياسياً عسكرياً فقط ولكنه خطر فكري وثقافي واجتماعي ، متصل أشد الاتصال بالقاتية الاسلامية وكنينة الأمة العربية وبالنظام الاسلامي والشريعة الاسلامية وبالغة العربية والتاريخ الاسلامي جميعاً ذلك أنه يستهدف استلاب السكان النقي الاسلامي المتمثل في العرب أولاً وفي الفكر الاسلامي أساساً وذلك أمر خطير يستدعي أن تظل الأمة بكامل قواها وأفرادها وكفائاتها ومقدواتها قائمة بقظة لا يطرف لها جفن أو تنام لها عين إلى جيل أو جيلين آخرين .

ولذلك فإن من أشد ما يدخل على المسلمين الآن أن ينصروا أنهم يستطيعون أن يعيشوا حياة الأمن ، أو أن يتوقف الخطر . مادامت هذه الجبهة مفتوحة عليهم جميعاً وأخطارها قريبة من كل أوطانهم . فإذا آمنوا وأقاموا مجتمعاً فيه طابع الرفاهية والترف فإن ذلك سيكون منذراً باجتياحهم من قوى هدية تقربهم بهم . ولذلك فعلى المسلمين والعرب أن يوطنوا أنفسهم على أن يعيشوا حياة الخطر والتحدى لا حياة الأمن ، وأن يظلوا قائمين في مواجهة الخطر وفي حالة الجندر ، وأن يكونوا في رباط دائم . وليس هذا غريباً ولا عجيبة ، ولكن الغريب هو حكمه مما حاول خصوم المسلمين أن يلقوه إليهم بالطمأنينة والاستسلام وإلقاء أنفسهم في أحضان عدوهم وقد شهدوا نتيجة التجربة وخطأ النتيجة فإت قواين للتقريب والنزول الثقافي أوقعهم في الهزيمة مرة ومرة ولم ينمق

لهم النصر إلا حين أخذوا بقوانين أمتهم وعتيدتهم والنسوا الأصالة من خلال مفهوم الإسلام . ولا زال الإسلام كذلك وسيظل منذ أن بزغ فجره وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يمثل هذه القوة الصاعدة على أرض الله تسمى رسالته وأمنه في مواجهة كل القوى التي تحاول أن تحتلها سواء جاءت من شرق أو غرب أو شمال أو جنوب ، وذلك موقعها الجغرافي ومركزها الاستراتيجي ومساكنها الاقتصادية ومقدراتها ومعطياتها ونزواتها ، ولأمر آخر ، ذلك أنها تحمل رسالة التوحيد والمدل والأخاء البشرية إزاء عالم يعيش بالأحقاد والصراع والتسلط والسيطرة . ولذلك فقد كانت كل القوى وستظل تحاول أن تنجمع لتحطيم هذا السكياقي أو احتوائه ، ومن هنا كان على أصحاب هذا السكيان أن يكونوا قادرين بأحدث وسائل العصر وأقوى قوى الإيمان بالله على الثبات في وجه الأماصير والصواحق .

ومن هنا جاءت كلمة رسول الله صلى الله عليه وسلم الحاسمة فيما معناه أن هذه البقعة في رباط إلى يوم القيامة . وحين يحاول الباحثون واللفكرون مراجعة التاريخ في سبيل البحث عن سبب التخلف الذي أصاب للمسلمين والمزمنة التي لحقت بهم في الماضي ، نجد أن ذلك يتركز في مصدر واحد هو أقوى من كل المصادر وأبرزها ذلك هو [فقدان الحسنة والاصلاح إلى الأمن] . وشيء آخر هام : هو تهاوى الإرادة الحاسمة في وجه الخطر . ولا ريب إن تخلف المسلمين على مدى العصور قضية مستقلة عن الإسلام نفسه كمنهج ورسالة ، ذلك أن المسلمين قد طبخوا الإسلام في مراحل من تاريخهم فوجدوا عظمة التركيب في الأرض فلما خالفوا عنه وجدوا الأزمة التي لا تنكشف إلا بعدوهم إلى التماس منهج الإسلام . ولا هيب في المنهج لأنه منهج رباني المصدر ، قائم على الفطرة والحق والخير وقد جرت تجربته الناجحة المظفرة وسجلت بصماتها على صفحات التاريخ ولن تكون القيم الإسلامية في تقديمها ونصاحتها مشوشة من التخلف بحال وإنما جاء التخلف من تجاوزها وإهمالها . وسقوط المزمنة وتهاوى الارادة ، هي مصدر آخر إلى جانب الغفلة عن الأخطار الحادثة من كل جانب ، ويرجع ذلك إلى التهاون في بناء الانسان المسلم على الصمود والخشونة والانقطاع عن الشهوات بحيث يكون قادرا على الانتصار على النفس فلا تستهويه المتارف والمغريات فيسقط ذليلا أمامها ، ولا بد أن يعود المسلمون إلى بناء الارادة بالاستعلاء عن الأهواء وبناء الفكر بالنظر إلى مختلف الأبعاد . أن ظواهر التخلف ظهرت في اليوم الذي بدأ فيه المسلمون يميلون إلى الحلول السهلة ويسترخون وينجأون بالخطير الحديقي ويستسلمون في حياة الوقوف في وجه التحدي والمراعاة الدائمة في الثغور والانحراف عن تطبيق القرآن شريعة أمه ومنهج حياة ، وهم أمة الرباط إلى يوم القيامة كما حدث الصادق المصدوق .

لقد فقد المسلمون التحدى فسقطت المزيمة وهفلوا عن المجاهدة حين قدموا روح الصلاة ، وطابع
الايام واكتفوا بالمظاهر ، وهذا الدين لا يصلح له إلا من يأتيه من جميع أطرافه . عند ذلك
دارت الدائرة . يقول المؤرخ أرنولد توينبي : أن الغرب وضع الحبل في رقية العالم الاسلامى منذ
القرن الخامس وكان يتهيب أن يشده وظل خائفا ثلاثة قرون ، ثم بدأ له أن المسلمين في نوم عميق
فشد حبله وسيطر . وعلى المسلمين أن ينظروا إلى الطامعين ، وكيف أنهم يعيشون في حالة للتحدى
التي لا تنتهى ، وهم على الباطل فما بال أهل الحق وفي حوزتهم تلك الأمانة التي سلمها لهم الأجداد ،
كيف يلقون الله وقد فرطوا فيها وكيف يحكم عليهم التاريخ ، هؤلاء في باطلهم لا يستسلمون فكيف
يستلم المسلمون ويفرطون فيها يملكون وهم حملة أصدق رسالة وأصحاب حق ، وهم الموكلون بتبليغ
هذا الدين إلى العالمين . ولماذا لا يشبتون على حقهم ولا يصمدون في واجبه الأمامير الموحج ، ولماذا
لا يصمدون ببناء إرثهم بإقامة صرح التربية الاسلامية ، ولماذا لا يفهمون تغيرات الأمم والمجتمعات
وقد أعطاهم كتابهم نوايس السكون والأمن والحضارات . أن مسئولية المسلمين في هذا العصر
جد خطيرة وحساب التاريخ لهم جد عسير .

(٣٦)

الاسلام في دورة الفلك

ترددت في الغرب منذ وقت بعيد أفكار تقول : د أن الحضارة الغربية في طريقها إلى الانهيار
وأنة لكي يطول أمد إنهارها يجب القضاء على الوريث الوحيد الذي هو الأمة الاسلامية التي تحمل
بدينها وراثتها وتربطها وموقعها الاستراتيجي كل مؤهلات القدرة على حمل لواء الحضارة على نحو
أكثر صلابة وعدالة وإنسانية ومن أجل هذا وجهت الخطط للعمل على تثبيت هذه الأمة حتى لا تتمكن
من القدرة على إمتلاك إرادتها والسيطرة على العالم . هذا المعنى الذي انتهت إليه أبحاث مؤتمر علمي
جمع صفوة من الباحثين الغربيين الذين درسوا تاريخ الحضارات القديمة وخاصة الحضارة الرومانية
والفارسية وغيرها ، وما يزال يفرض على مخططات الغرب وجهة معينة في كل ما يتعلق بأمر الاسلام
والمسلمين ربما لا تبدو واضحة لدارسي الأحداث الفرعية يوما بعد يوم حيث يجسد علامة استفهام
كبرى أوحلقة مفقودة ، وهذا العمل هو من مخططات الصهيونية والاستعمار والماركسية وهي القوى
الثلاث التي تتمثل في قوة قائمة من وراء المذاهب والحكومات والنظم تحاول أن تفرض نفوذ
أصحابها على واجهة السياسة العامة الظاهرة .

ومن وراء هذه القوى تكمن الدعوة إلى محاولة تقليص للمسلمين بوسائل مختلفة من بينها إضفاء نسلمهم وتهديده حتى لا يكونوا نفوذا بشريا خاصة وأن الغرب الآن قد وصل إلى مرحلة الانهيار والضعف ثم محاولة تبديد الثروات الاسلامية حتى لا تشكل قوة تجمع ونحشد في مواجهة الغزو الاستعماري والصهيوني . وعن طريق « التنفيع » والغزو الثقافي حتى لا يلتقي المسلمون على أساس واحد من الفكر والإيمان والاعتقاد . ونحن حين نبحت في كتابات رجال الاستشراق والاستعمار نجد (توجيهات صريحة واضحة في هذه الأمور جميعا ، كلها تملأ الخوف من الوحدة الفكرية الاسلامية وهناك محاولات نحاول أن نجد صيحات الخوف من الجامعة الاسلامية والوحدة والخلافة) . ومن أجل هذا يجري العمل في محيط الفكر للطروح في أفق العرب والمسلمين على دهنهم إلى أشياء كثيرة كلها زائفة . وأخطر ما يدعون إليه فرض تصور بضرورة التلازم بين الأخذ بعلموم وتكنولوجيا العصر وبين اتباع أسلوب العيش الغربي بكل عله وأمراضه . وأي عقل يمكن أن يقبل ذلك : هذا جهاز غربي المصنع من أحدث الأجهزة سواء كان عقلا إلكترونيا أو آلة سينا أو راديو أو مركبة فضاء كيف يمكن أن يطلب إلى أن أحل داخله فكرا غربيا أنه (أداة) ليست سوى منطلق لما أريد أنا أن أقوله من طريقها أو أحله عليها . ما العلاقة بين للطبعة أو السينا أو التليفزيون وبين آراء الغرب ومفاهيمه وسوممه ، أن هذه الأدوات إنما استفد منها لتحمل للناس فكرا وتاريخنا ووجهة نظرنا فهي أداة فقط مفصولة تماما عن فكرها . ونحن ننقل أحيانا مترجمات الغرب وأفلامه ورواياته ولكننا نعرف دائما أن ذلك هو فكر ومثل وأساليب مجتمع غير مجتمعا ، نظامها لكي نعرف أساليب عيش الآخرين ولكننا لا نطبقها حيث لنا أساليبنا وتقاليدها وقيمنا . وكيف يمكن أن ننقل أسلوب عيش الغرب والغرب الآن يسير في مرحلة التحرق والانفلال والانهيار الاجتماعي سواء في أسرته أو مجتمعه أو أخلاقه أو أدبه أو فلسفته وكيف يطلب إلينا أن نقبل ذلك ، ولو كان الغرب في مرحلة القوة والتماكب اليوم لما كان لنا العذر أيضا في أن نأخذ أسلوب عيشه ولا أن يبهزنا منهجه ، فإن جذور الخلاف ووجهات النظر وطريقة التفكير بيننا وبينه هي جد مختلفة من الأعماق . وما نحن بطبيعة ديننا وتركيبنا الثقافي والاجتماعي مؤهلون للاندماج أو الانطواء أو الانصهار في المجموعات البشرية الأخرى مع تقديرنا للجامعة الإنسانية التي تربطنا ولكننا مؤهلون في الحقيقة لأداء دور مختلف : صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ، فهذه الجملة للؤمنه التي أنشأها الاسلام منذ أربعة عشر قرنا ليست في الحقيقة إلا « جهازا » جديدا إنما « أهد » ليقيم للبشرية رسالة الله وليؤدي على وجه الأرض كلمة الحق ولنقيم مجتمع الانسانية السعيدة التي عجزت الايديولوجيات للتعديده عن أن تصل إلى شيء منه ، هذه الأمة إنما تمتد لذلك ، ودورها قائم ، وأن

جمل ذلك الكثيرون الذين يرون أنه لا فائدة لنا إلا أن ندمج ونصهر في الحضارة القائمة بخيرها وشرها وما يحمد منها وما يعاب ، وما هكذا كانت دهوة قرآننا ورساله نبينا ، وإنما كانت هذه الرسالة لقيادة البشرية إلى الخير والحق . ولا ينقص من هذا الهدف الكبير الضخم الذي لم تنضج بعد الأمة الإسلامية لأدائه وحمل أمانته ، لا ينقص منه ما نرى من « أزمة » وتخلف ونمق ، ما تزال هقاييله بعيدة المدى وما يزال الضوء الكاشف للفجر الجديد بعيد ، ولكن من يعرف أن هذا السكون يجري أمره على سنن وقوانين لا تتخلف . (ولن نجد لسنة الله تبديلا ولن نجد لسنة الله تحويلا) . يعرف أن للمسلمين لا يخرجون على هذا القانون مهما كانوا مؤهلين لقيادة البشرية ، ولا بد أن يخضعوا لسنن الله وأن يقابلوها ويتوافقوا معها حتى يصلوا إلى وضع القوة والتمكن : وهذه الحضارة القائمة إنما هي بمثابة حقل التجارب الذي يوضع بين أيدي المسلمين حينئذ ، ليقفوا على مافي التجربة الغربية التي أمتدت منذ أن أسلم المسلمون ميراثهم في الأندلس إلى اليوم . وإيروا ما هي إيجابياتها وسلبياتها ولينمكنوا من بعد من تحقيق إرادة الله وتطبيق حدود الله فلا تكون الحضارة صراعا ولا ترعا ولا ينحيا ولا ظلما ولا سيطرة ولا فرورا فإذا أحسن المسلمون فهم فخيرتهم الأولى وتجربة الغرب اليوم واستقاموا على الطريقة أسلم الله إليهم قيادة البشرية في مستقبلها الغريب وإلا فإن سنة الله سوف تلحقهم مرة أخرى .

إن الأمة الإسلامية المؤهلة لقيادة البشرية وذات المعتقد الأصيل الأصل لا يمكن أن تخضع وهي تستطيع أن تأخذ من العلوم ما تشاء على أنه مواد خام وأن تصهر ذلك في بوتقة (لا إله إلا الله) متحررة من أخطأ العيش ومن أوهام الوثنية وأخطار المادية وفساد الأباحية وهي تعرف الآن معرفة تامة ماذا يريد بها الغرب ؟ وماذا يعد لها ، وتعرف أن الحضارة المصرية على شفا الهاوية ، بالإلحاد والنمق والتحلل . وسوف تنسكر كل القيود وتنحطم كل المؤامرات التي تدبر لتأخير دور المسلمين وإطالة أمد الحضارة المنهارة (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر) يحدث هنا عندما يصبح المسلمون مؤهلين لحل الأمانة قد فعلوا أنفسهم من الشهوات والمطامع وأصبحت الدنيا في أيديهم وليست في قلوبهم وليعلموا أن ما يعطيهم الله من تفوق بشري وثروة مال وموقع استراتيجي إنما هو في عداد المسؤولية والحجة المقامة عليهم يوم الحساب بأنهم قادرون على إقامة الحق ودك الباطل .

لاريب أن المسلمين اليوم هم المؤهلون لهذا الدور الذي يقترب حينئذ ولكنهم في حاجة إلى استعداد كبير لحل الأمانة ، وإلى فهم عميق لضرورة تحويل الحضارة في اتجاه العمل الإنساني القائم على الأخاء البشري وعلى المساواة بين الناس وعلى هدم العبوديات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ،

وعلى أن تكون ثروة المسلمين في ميلل إسماء البشرية كلها وليست خدمة حفنة من أباطرة الاستعمار والصهيونية المسيطرين الآن على مقدرات الشعوب . أن كل الدلائل والعلامات تدل على أن حضارة المجتمعات الغربية سوف تنهار وتندك معاقبتها وسوف ترد أصولها ومقوماتها العلمية إلى أيدي المسلمين — جزاءا وفاقا — ليحملوا مرة أخرى أمانة الحضارة الحقة فهل سيكونون على طريق القرآن ونهج الاسلام . ليست المسألة أكثر من مسألة وقت حتى يمتلك المسلمون في أيديهم تلك الأسرار العلمية بقوة ويحولونها إلى أحضان لغتهم التي هي لغة القرآن وأن التحدي الصهيوني ما هو إلا مقدمة لهزيمة المسكر والتأمر التلويدي مهما بدأ الآن وكان الصهيونية قادرة على الحركة .

وسوف تعيش حضارة الاسلام الصاعدة حضارة التوحيد إلى جانب حضارة الغرب الفارسية حضارة الوثنية فلا عيب أن تتجاوز الحضارات ولكن البشرية سوف ترى نموذجاً فريداً . الحضارة الاسلامية ليست عدوانية ولا غزائية ولا مستعمرة ولا منسلطة ولكنها سوف تحمل معطيات العلم والتقدم للبشرية كلها وليس لجنس ولا لامة ولا لطبقة . ومهما حاول دهاقين السياسة الغربية من استثمار وماركسية وصهيونية في تأخير هذا الضوء عن ظهوره في مواعيد المقابلة فلن يستطيعوا .

(بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) .

صدق الله العظيم

الرسالة الثالثة

من الوحدة الإسلامية العثمانية
إلى : العرب والترك (والعروبة والإسلام)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدخل

تفسير جديد للتاريخ الإسلامى المعاصر

انكشفت فى السنوات الأخيرة حقائق كثيرة كانت خافية وأذيت أسرار كثيرة ظلت فى على السكتان أهواماً وأجبالاً ، وقد كان لظهور هذه الحقائق والأسرار أثرها البعيد فى مجرى الفكر العالمى ، وكان لها بالعبق أثرها العميق فى حركة التاريخ الإسلامى المعاصر جميعاً . ذلك أن وقوع العالم الإسلامى تحت سيطرة النفوذ الأجنبى فى القرون الأخيرة قد خلق حالة من حالات الخطر وأنشأ أزمة بالغة الأهمية بالنسبة لحركة البقطة العربية الإسلامىة التى كانت قد بدأت عملها منذ منتصف القرن الثامن عشر قبل أحداث كثيرة وقعت فى أوروبا وفى الشرق ومنها الثورة الفرنسىة والحلة الفرنسىة على مصر ومخططات النفوذ الاستعمارى التى عمدت إلى تمزيق جبهة العالم الإسلامى بتقسيم أفريقيا وآسيا ، ووضع حاجز بشرى بينهما فضلاً عن أطماع الصهيونية العالمية فى الزحف إلى فلسطين والسيطرة على بيت المقدس ، ولقد كان النفوذ الاستعمارى فى مجال الفكر والثقافة والتاريخ والأدب واللغة قد أهد خطة كاملة لضرب الإسلام واللغة العربىة والعروبة جميعاً من أجل تثبيت دعائمه ، وفى هذه المرحلة توالى قوى النفوذ وتمددت وحاول كل منها أن يسيطر على السابق وأن يفرض سلطانه على هذا العالم الإسلامى الذى هو فى نظر الجميع : مصدر النروة الاقتصادية والاستراتيجية ، وقد كانت قوى الاستعمار بما فيها فرنسا وإنجلترا وروسيا ومن ورأهم الصهيونية العالمية كلها تستهدف تقسيم العالم الإسلامى أساساً والقضاء على الدولة العثمانىة باعتبارها القوة الأساسىة القادرة على تجميع المسلمين ورفع علم الوحدة أو التجمع أو التضامن الإسلامى ومن هنا فقد كان المخطط يحوى على عملين أساسيين : العمل الاول : هو بث الشبهات حول القيم الإسلامىة العربىة فى مجال التاريخ واللغة والعقيدة جميعاً

وذلك من طريق مؤسستين أساسيتين : إحداهما (مدرسة الاستشراق) التي كانت تدرس وتضع وتحاول تجميع الشبهات والتناقضات وتزيعها على أنها حقائق وذلك من أجل تدمير معنويات هذه الأمة في نفوس أبنائها وخلق جو من اليأس والفرق وصولاً إلى أن إثارة الشبهة بأن الإسلام والقرآن واللغة العربية هي جميعاً مصدر ما وصل إليه العالم الإسلامي من ضعف وتخلف وأن الطريق الوحيد هو الانصهار في بوتقة الغرب العالمية والدوبان فيها . (العمل الثاني هو إغلاء شأن أوروبا والغرب والحضارة ، والفكر الغربي والجلس الأبيض باعتبارها جميعاً تمثل القوة المسيطرة على مصير العالم د وأن زعماءها وأبطالها ولغاتها وفكرها هو : المصدر الوحيد للنهضة التي يحاول أن يلتصقها العالم الإسلامي . ومفهوم هذا الحفظ هو أن بفلسخ المسلمون والعرب من تراثهم وقيمهم ولغتهم ، وأن يندوبوا في داخل بوتقة الفكر الغربي المسيحي الطابع الوثني الأفريقي الجوهر المضطرب في داخله وأحماقه بين فلسفات الفردية والجماعية والليبرالية والرأسمالية والشيوعية والذي لم يستطع أن يصل خلال خمسة قرون كاملة إلى منهج اجتماعي أو نفسي يعطى الإنسان المعاصر ذلك التطامع إلى الآفاق العليا من إيمان وهدى فقد بدأت النهضة الغربية من مصادر الإسلام والمنهج العلمي التجريبي الإسلامي أساساً ثم تحولت إلى مناهج الوثنية اليونانية مع إطار من المسيحية فزجت كل ذلك وصاغت منه منهجاً مضطرباً ، قوامه الليبرالية الرأسمالية ثم أنتق منه منهج الجماعية الماركسية الذي تمثل في الشيوعية السوفيتية وقام بينهما الصراع الطويل الذي ما زال مستمراً ، ثم قامت الصهيونية العالمية مسيطرة من وراء المنهجين والجنتمين في سبيل الوصول إلى وراثة النظامين وإقامة الدولة اليهودية العالمية الكبرى .

وقد واجه العالم الإسلامي صراع القوى الثلاث لأن هذا الصراع دار على أرضه أساساً ثم واجه الفكر الإسلامي صراع المذاهب الفلسفية والاجتماعية المختلفة وكان موقفه منها موقف المتردد في قبول ما فرض عليه بقوة النفوذ الاستعماري أولاً ، ثم تحول من ذلك إلى وهي بموقفه ، ومفاصلة بين مفاهيمه الأساسية العميقة ذات الجنود البعيدة للهدى في التربة الإسلامية العربية والنفس العربية الإسلامية والتي بنها القرآن ، وروحها الإسلام ، وأذاها محمد منذ خمسة عشر قرناً ، وبين هذه القيم المضطربة والمتصارعة التي تختلف عن مفاهيمه في أعماق أحماقها وفي أصل جذورها : « التوحيد » . ولقد كانت البقطة العربية الإسلامية التي البعثت من أعماق الأمة العربية مجددة لها ومجددة للعالم الإسلامي وفكره جميعاً قد بدأت قبل الغزو الاستعماري الغربي ، وكانت حفية بأن تنشق طريقها إلى الامام في قوة لتعريف هدفها من البعث الإسلامي على النحو الذي حققته الحركات المتوالية في تاريخ الإسلام غير أن اندفاع الغزو الغربي الاستعماري في جولاته الجديدة التي أطلق عليها القورد القوي

(الحلقة النهائية للحروب الصليبية) بعد سبعمائة عام لم تتوقف خلالها : هذه الابدقاعة فرضت على حركة البيقظة أن تواجه وتقاوم وتحرر المفاهيم وتصبح الأخطاء وتدافع من منطق الفسكرك تلك الحلقة الضخمة من الشبهات والتحديات . فتضاهف حملها وتعقدت مهمتها ، وخاصة بعد أن استطاع النفوذ الاستعماري أن يقيم دائرة مغلفة لدهوته ، وأن يفرضها على أنها هي وحدها فكر التقدم وقدا ألقاها من خلال معاهد الارساليات ومدارس وجامعات التبشير ومن خلال خريجيها وأبنائها الذين سيطروا على الصحافة في البلاد العربية ثم سيطروا عن طريق اوليائهم وأتباعهم على فأمسكوا في أيديهم القوى الثلاث :

والتعليم والصحيفة والثقافة ، ولقد كانت لمعونة النفوذ الاستعماري لهذه الدائرة أثرها الواضح في إعلائها وإعطائها القوة والسيطرة في مجالات الحكم والسلطان والدولة ، بينما تنقص ظل الدائرة الأصلية المرة التي قامت أساساً من أحماق الأمة حاملة لواء البيقظة الاسلامية العربية . خير أن حركة البيقظة الأصلية ذات الدائرة للمرة لم تلبث أن وجدت الكثير من الأسانيد والوثائق التي بدأت تنكشف أولاً بأول والتي أنارت أمامها الطريق إلى معرفة الخفايا المضللة والتلفيات الخطيرة التي يدبرها الاستعمار والصهيونية من أجل القضاء على مقومات هذه الأمة التي لم تستسلم من قبل لغزو ولم تنل الطامع ، والتي كانت مقوماتها قادرة على أن تمنحها القوة لرد الغزو ونحطم القسطنطين الذي استمر على مدى حقبة التاريخ الاسلامي ومراحله والذي تحرك في صور متعددة من الحروب الصليبية إلى حروب الفرنجة إلى الغزو الاستعماري الحديث . ولقد تسكف للغزو أثر هزينة الساحقة في الحروب الصليبية وانسحابه مدحوراً بعد مائتي عام من المؤامرة ، أن هذه الأمة لا تغلب عن طريق الحرب ، لأن مفهومها في الجهاد والمقاومة والتبذ على السواء ، والتجمع في وجه الخطر نحت لواء القرآن كل ذلك كان حائلاً قوياً دون فرض سيطرة طويلة المدى ، ومن هنا : خطاط الاستعمار وقدر وقدره ودير حتى وصل إلى نقطة بدء خطيرة : هي العمل أولاً على تدمير مقومات هذه الأمة التي تستمد منها من الاسلام والقرآن ، فإذا تحطمت هذه المقومات استسلمت هذه الامة للغزو وهاشت حاضنة ذليلة للغرب ، وفقدت سمات شخصيتها ، ومعلم ذاتيتها وطابع حضارتها . ومن هنا كان الغزو الفسكري من أبرز أعمال الاستعمار عملاً في التبشير والاستشراق والارساليات وجابماتها والسيطرة على التعليم والصحافة والثقافة ومن هنا أيضاً كان أبرز أعمال حركة البيقظة كشف هذه المخططات ومعرفة هذه الخفايا وفضحها والتحذير منها وتصحيح المفاهيم التي حاول التغريب أن يفرضها وبذيعها ويدافع عنها ويحجبها . ويدخلها في مناهج التعليم والثقافة ، ويضعها في قوالب من النظريات العلمية والدراسات

الناربخية حتى تصبح مقررة في النفوس ، توصلنا إلى عملية هدم هذه للقومات ذاتها ، وفرض عقلية غربية مخالفة على مناهج الفنة والتاريخ والفكر جميعاً ، بالإضافة إلى فرض نظريات القانون والنفس الغربية والاجتماع ، ومن هنا فقد كانت مهمة المصلحين المبرزين في هذه المرحلة ، هي تصحيح المفاهيم وكشف مخططات الاستعمار والتبشير والشعوذية والتغريب .

وقد كشفت السنوات الاخيرة الكثير من المخططات ، ولكننا كانت تظهر بين حين وآخر ثم تختفي غير خلفه ورائها شيئاً ، ولما تباعدت بينها الفترات ، لم يكن في الامكان أن تحدث في الفكر الاسلامي العربي أثراً واضحاً : ولذلك كان لابد من الربط بينها وعرضها على نحو متكامل شامل ، حتى تستطیع أن تبدو في صورتها الحقيقية حيث تمثل تحدياً واضحاً يمكن مواجهته والنظر فيه ، إذا كان الاستعمار يعمد إلى أسلوب التفتيت أو الذرية في إخفاء هذه المخططات واحداً بعد آخر ، أو التهور من شأنها ، أو ضرب بعضها ببعض ، اعتماداً على أن العرب والمسلمين لا يجمعون الظواهرات المفرقة ولا يمتنون بالنظر نظرة متكاملة . وأمامنا الآن قدر كبير من هذه الظواهرات يمكن أن تشكل مخططاً كاملاً واضح المعالم في غزو الفكر الاسلامي والقمضاء على وحدة العالم الاسلامي ، هذا المخطط هو ما قدره الاستعمار فعلاً (بالاشتراك مع الصهيونية العالمية) أو بواسطتها في الاغلب وما نفذ فعلاً وكان منطلقه فيه هو تمزيق الرابطة العضوية العميقة الجذور بين (المروية والاسلام) وذلك من طريق ضرب العرب والترك داخل الدولة العثمانية لتزيقها وفرض دهوات الطورانية والافليمية والفرعونية والقبليقية والقومية الضيقة المغلفة وفق المفهوم الغربي الوافد .

وقد امتد هذا المخطط فكرياً واستطاع من طريق النفوذ الاستعماري أن يحقق نتائجها فعلاً ، على الوجه الذي رسمه الاستعمار والصهيونية والتغريب . وكان علينا أن نعرف أولاً : هل العلاقة بين المروية والاسلام هي علاقة مرحلية أم علاقة طبيعية لا انفكاك منها . إن كل القيم الأساسية لفكر الاسلام وكذلك الوقائع والأحداث التاريخية تكشف بما لا يدع مجالاً للشك بأن العلاقة بين المروية والاسلام علاقة جنسية :

(٢)

الترباط الجذرى بين العروبة والإسلام

إن بين العروبة والإسلام ترباطاً جذرياً عميقاً قديماً ممتداً عبر خمسة عشر قرناً من الزمان التقى فيه (العرق) مع (الفكر) ثم انصهر العرق في دائرة الفكر فأصبح قوة عاملة حملت ألقواء وقادت الحركة . هذا الترباط هو أخطر ما واجبه الاستعمار الحديث ، فقد كان من أخطر العوامل في تحطيم حركة الحروب الصليبية ودحرها ، ثم كان عامل المقاومة الخطير في وجه الغرب الزاحف بمد الحروب الصليبية وذلك بقيام أكبر وحدة إسلامية عربية بين العرب والترك ، وهي وحدة وليست استعماراً ، وقد بلغت هذه الوحدة أقصى مداها وقوتها ، حين تجمعت في حركة الجامعة الإسلامية التي قادها السلطان عبد الحميد ووقف بها في وجه الاستعمار فكانت أكبر التحديت التي واجهت الاستعمار الغربي وكادت تقضى على مخططاته لولا تأمره بالسلطان عبد الحميد وتبدير خطة إسقاطه كخطوة أولى لتدمير هذا الترباط الجذرى بين العروبة والإسلام الذى تشكل في جهة شاملة تقف في وجه الاستعمار وتهدد بالمقاومة الشاملة ، ليس في حدود الدولة العثمانية وحدها ، بل في نطاق العالم الإسلامى كله الذى يدين بالخلافة الإسلامية .

لقد كان هذا الترباط هو أكبر أزمات التاريخ الإسلامى للعاصر ، والفكر العربى الإسلامى الحديث ، وهو أحق « بؤرة » النقاء وأعظم قوة دكر النفوذ الأجنبى حربة مليها ، وجند لها قواة في مجال السياسة وذلك عن طريق تمزيق الدولة العثمانية والوحدة العربية التركية وإلغاء الخلافة الإسلامية ودحر حركة الجامعة الإسلامية التي كادت تجمع تحت لواء الخلافة (العالم الإسلامى) كله ، القائم خارج نطاق الدولة العثمانية . ولقد كانت الدولة العثمانية هي نقطة الارتكاز الحقيقية في الدعوة . ومن هنا لقد كان من أخطر ما استهدفه الغزو الثقافى ودهسوات التغريب والشموعية من طريق مؤسسات التبشير والاراساليات وحركة الاستشراق هو فهم هذه العروة ، ودحر هذه القوة ، وتمزيق هذه الوحدة ، ومحاولة القضاء على هذا الترباط الجذرى بين العروبة والإسلام ، ولقد كان من الضرورى لكن يتم ذلك في مجال السياسة والجغرافيا والاستراتيجية ، أن يبدأ أساساً في مجال الفكر والدعوة والصحافة والمدرسة والثقافة .

وقد حمل لواءه أول الأمر دهاة من الأجانب الغربيين ثم تولى بعدهم أبناءهم ونلاميذهم من العرب

والمسلمين . وقد بدأ ذلك واضحاً في دهوات هديدة متفرقة ولكنها تشكل في مجموعها هدفاً واحداً وتكون أيديولوجية متكاملة : (أولاً) الدعوة الطورانية : في تركيا استمداداً من جنكيزخان . (ثانياً) الدعوة إلى الوحدة العربية (المحصورة أولاً في الشام) انفصالاً عن الخلافة ثم في الشام والحجاز (ثالثاً) الدعوة إلى خلافة عربية بدلاً من خلافة إسلامية . (رابعاً) الدعوة إلى المصامييه . (خامساً) الدعوة إلى الاقليمية الضيقة وهزل مصر عن الأمة العربية . (سادساً) هزل المشرق العربي عن المغرب العربي . (سابعاً) دعوة المحاور الثلاث : الصحراء (الحجاز والأردن) والمشرق (الشام والعراق) وأفريقيا (مصر والمغرب العربي) . (ثامناً) الدعوة إلى الفيلبية في لبنان ، والكيان اللبناني . واقد كان خطط الفصل بين العروبة والإسلام مرسوماً على درجيين : (أولاً) إنشاء جيل يحمل لواء الدعوة في تركيا وهم الاتحاديون الذين تربوا في أحضان المحافل للاسونية خمسين عاماً . (ثانياً) إنشاء جيل يحمل الدعوة في العالم العربي وهم خريجو الارساليات في بيروت وهم الذين اضطفاهم الاستعمار لحل لواء الصحافة في العالم العربي كله وفي مصر بالذات . وقد بدأت الخطوات على الوجه الآتي : (أولاً) الايقاع بين اللوارة والدرور لعزل لبنان وإقامة كيان خاص به كإنتم ١٨٦٠ . (ثانياً) رفع لواء الدعوة إلى العروبة انفصالاً عن الترك ، والدعوة إلى الخلافة العربية لعزل سوريا عن الدول العثمانية .

(ثالثاً) إسقاط السلطان عبد الحميد حامل لواء الجامعة الإسلامية التي كانت أخطر رد فعل واجه الاستعمار من حيث تجميع العالم الاسلامي خارج الدولة العثمانية تحت لواء الخلافة الاسلامية والبيرق النبوي . (رابعاً) إعلاء شأن الاتحاديين في تركيا لتمزيق الوحدة بين العرب والترك داخل الدولة وذلك بتعليق المشانق للعرب واتهامهم بالظلمة . (خامساً) إعلان الدعوة الطورانية وتتركب العناصر بما فيهم العرب ، حتى يضطر العرب ، إلى إعلان الدعوة إلى الانفصال . (سادساً) إدخال تركيا العثمانية الحرب العالمية للقضاء عليها وتمزيقها . (سابعاً) تقسيم الأجزاء العربية بين الحلفاء . (ثامناً) تحويل تركيا إلى الغرب كلية بعد الحرب العالمية الأولى للانفصال عن العرب والاسلام . وقد تم هذا في مجال السياسة بعد أن مهدت له القوى الاستعمارية في مجال الفكر بالدعوة إلى فصل هوية الترابط الجندري بين العروبة والاسلام ، التي هي قوام وحدة العالم الاسلامي والترابط الحقيقي المحدد لموقف العرب من العالم الاسلامي ، ومن الاسلام ومن المسلمين ، ولموقف المسلمين من العرب والاسلام .

تلك هي أضخم التحديات التي واجهت العالم الاسلامي الحديث من أجل السيطرة النفوذ الاستعماري في موجاته الثلاثة المتوالية المتداخلة المتصلة :

(١) الاستعمارية الغربية الرأسمالية . (٢) الشيوعية الماركسية البلشفية . (٣) اليهودية الصهيونية الاسرائيلية . ومن هنا كان على الباحثين أن يكشفوا هذه المخططات من خلال التقارير الرسمية للاستعمار والصهيونية ، ومن خلال الوثائق التي رفع عنها الستار في خلال السنوات الأخيرة . وهي وثائق كثيرة متعددة يمكن إذا تجمعت ، أن تشكل صورة كاملة لخطة الغزو ، ومبدأه ، وغاياته . ولا شك أن كشفها وتصويرها على نحو متناسق من شأنه أن يعين المفكرين المسلمين والعرب في التعرف على هذه التحديات ومواجهتها . كما يعين كذلك على تفسير الأحداث الواقعة والمستمرة والخطوات التي تجري بها السياسة الغربية الاستعمارية والصهيونية العالمية وكل القوى الطامعة في غزو العالم الاسلامي والسيطرة عليه . ولا ريب أن ترابط الاسلام والعروبة (سياسيا وفكريا) هو أخطر قوة واجهت المؤامرة العالمية : (١) أما الترابط السياسي فيتمثل في (الوجود الاسلامي العربي) القائم في الدولة العثمانية فعلا ، بالإضافة إلى الخطة التي حل فواعها السلطان عبد الحميد من أجل تجميع المسلمين خارج الدولة العثمانية تحت لواء الخلافة الاسلامية كقوة موحدة لمواجهة النفوذ الاستعماري الصهيوني الزاحف .

٢ — أما الترابط الفكري فيتمثل في الدعوة إلى تحرير العقيدة الإسلامية وهي الخطة التي هرفت (بحركة اليقظة العربية الإسلامية) والتي دعت الى تصحيح مفاهيم الإسلام وبمنه والناس ينابيعه الإسلامية بوصفه منهج حياة ونظام مجتمع قائم على أساس التوحيد يخالف في ذاتيته كل المخالفة للدهوات وللذاهب والفلسفات الوثنية ، ولقد عمدت المؤامرة العالمية للسيطرة على الإسلام والعالم الاسلامي (وتضم هذه المؤامرة الاستعمار الغربي وروسيا والصهيونية) ووحدت خطتها في سبيل ضرب هذه الوحدة الأساسية (وحدة العروبة والإسلام) من طريق مؤسسات الصحافة والسينما والأزياء ، وكلها تتخذ مادة عملها من مخططات الاستشراق والغزو الثقافي والتفريب ممثلة في اذاعة عشرات من الفلسفات والدهوات والمذاهب لتدمير مقومات الفكر الاسلامي وقيمه الأساسية واغراقه في تيه من التيارات والشبهات التي لا حدها . ولقد جرى العمل من أجل تنفيذ مخططات المؤامرة العالمية في مجالين :

(١) في ضرب الوجود الاسلامي العربي الموحد القائم في لدولة العثمانية فعلا (٢) وفي حركة الجامعة

الإسلامية وذلك بإثارة مذاهب الجامعات القومية في تركيا وفي سوريا وفي لبنان وفي مصر وهي المناطق المرتبطة بحركة الوحدة الإسلامية . ولذلك فقد كانت الدولة العثمانية هي أكبر أهداف المخطط الاستعماري بوصفه الكيان القائم الجامع ، والوجود المجسد للرابطة الإسلامية ، والحامل لواء التجمع الإسلامي في وجه الغزو الاستعماري . وهذا هو العمل الضخم الذي قامت به المؤامرة العالمية أولاً . وقد تم هذا العمل على مراحل وفق خطة دقيقة مرسومة قوامها : (أولاً) بناء تشكيلات : داخل الدولة العثمانية أحدها في سالونيك يحمل لواء الدعوة الغربية للتجزئة والانفصال وإهلاء شأن الجنس التركي وربطه بمجذوره القديمة السابقة للإسلام والتي أطلق عليها من بعد اسم (الدعوة الطورانية) . والثاني في بيروت يحمل لواء التجزئة والانفصال باسم العروبة أو الأمة السورية أو الدعوة الفيليقية . والثالث في القاهرة يحمل لواء مصر للمصريين ثم الدعوة الفرعونية . وكانت الصهيونية العالمية من وراء هذا المخطط كله من أجل فتح الطريق أمام اليهود إلى فلسطين ، ومن ثم كانت لها فلسفتها ومخططاتها وشبهاتها في محاولة إفساد حقائق التاريخ العربي والإسلامي وجغرافيته من أجل إقرار فكرة ضخمة هي أن اليهود كان لهم وجود تاريخي في فلسطين وأنهم حين يدهون إلى اليوم أنما يجرون مع تيار التاريخ ، وكان ذلك العمل من أخطر أهدافهم .

(٣)

الدولة العثمانية

أ كبر أهداف الاستعمار والصهيونية

ان كثيراً من الأخطاء والشبهات قد وضعت في وجه التاريخ الإسلامي المعاصر من أجل الوصول إلى تقرير أمور يراد بالتركيز عليها تنفيذ مخطط بعيد المدى في تمزيق وحدة العرب والإسلام كوسيلة لتمزيق وحدة العالم الإسلامي وانتزاعه من قيمه ومقوماته . ولقد كان من أكبر ما ركزت عليه الشبهات والحلات : دور الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي وهلاكها بالعرب ، ولقد انبثقت كتابات الغرب في هذا المجال عن أسلوب غير علمي وغير منصف ، فقد كانت قضية الدولة العثمانية بالنسبة لأوروبا من العوامل الخطيرة في تشكيل المقل الغربي الحديث ، ومن هنا فقد صدرت هذه الكتابات وكماها تعصب وحقارة دون أن يستطيع أصحابها إلا القليلون منهم مواجهة البحوث العلمية والتاريخية مواجهة أصيلة صادقة .

ذلك أن الغربيين نشأوا يحملون مع لبن الرضاع تلك الكراهية المنمصة الحاكمة للدولة العثمانية التي حطمت آمال أوروبا خمسة قرون في السيطرة على العالم الإسلامي، وحالت دون تحقيق مؤامرتهم في إعادة الغزو بعد هزيمتهم في الحرب الصليبية. والثابت تاريخياً أن الغرب الأوربي (ملوكا وكنيسة) لم يتوقف بعد الانسحاب النهائي عام ١٢٩١ م حتى قامت الدولة العثمانية ١٢٥٦ وفي خلال بضعة وسعين عاماً، لم يتوقف عن محاولات الغزو وإعادة السيطرة على العالم الإسلامي وخاصة في مناطق الساحل الشرقي للبحر المتوسط، فلما برزت الدولة العثمانية تغير للوقوف تماماً وقام ذلك الصراع العنيف بين أوروبا والدولة العثمانية الزاحفة في قلب أوروبا حتى أسوار فينا، وامتد هذا الصراع خلال خمسة قرون ونصف للقرن حتى انتهى عام ١٩١٨. من هنا يجيء التفسير الصحيح للحاقة والحقد والكراهية التي تقسم بها كتابات المؤرخين والباحثين الغربيين حين يتصل الأمر بالحديث عن العلاقات بين الدولة العثمانية وأوروبا، ومن هنا تنكشف تلك الصفحات الخفية التي كتبها (دجوفارا) في كتاب (مائة مشروع لتقسيم تركيا). Cent Projets de Pasloge de le Turquie.

وهو من الوثائق الهامة التي كشفت النقاب عن حقائق خطيرة في الثلاثينات من هذا القرن، وصححت في نظر الباحثين العرب والمسلمين الكثير من المواقف الخفية وأزالت تلك الدهشة التي اعترت الأذهان فترة على أثر تصريح اللورد الكني في القدس بعد أن احتلها الإنجليز عام ١٩١٨ حين قال: «الآن انتهت الحروب الصليبية». ذلك أن أوروبا والكنيسة كانت تخطط منذ ذلك الوقت البعيد للعودة إلى العالم الإسلامي والأخذ بثأر هزيمتها في الحروب الصليبية، والاستيلاء على هذه المنطقة تحت اسم (الدفاع عن بيت المقدس): هذا الحلم العجيب الذي ظل يراود الساسة والكنيسة منذ عام ١٢٩١ أي بعد ستة قرون ونصف، والذي يبدو واضحاً في هذه المشاريع المائة التي ظل الساسة يرمونها سنوات طويلة، والتي كان وجود الدولة العثمانية حائلاً دون تحقيقها حتى في أشد فترات ضعفها. ومن هنا يتكشف ذلك المخطط البعيد المدى الذي بدأ سقوط السلطان هيد الحيد ١٩٠٩ وتسليم الدولة للأتباع المحافل الماسونية وتلاميذ المدارس الاستعمارية الغربية والذين دفعوا الدولة بغير مسوغ إلى الاشتراك في الحرب العالمية بما حقق نمزفها وسيطرة أوروبا مرة أخرى على الشام والعراق وبيت المقدس، مهدداً تسليمه إلى الصهيونية. وبذلك تحقق ما أسار إليه اللورد الكني حين وقف في القدس مذكراً بالحالات الصليبية ومكملاً لها ولقد أشار (دجوفارا) في كتابه إلى هذا المعنى حين قال أن معظم هذه المخططات كانت تقول «هلمنا أن نقوم بحرب دينية نستخلص بها القمم المقدس وتوضع بلاد يسوع تحت حراسة أمير مسيحي وحاية الدول العظمى».

وقال : إن كتاب النصرى والمفكرون منهم لم يكونوا يتوقفون عن تهيج خواطر الشعوب الأوربية وتحريضها على القيام بعمل مشترك لدحر الإسلام ولا سيما فى فلسطين . وقد شملت هذه المخططات الحرب والقتال كما دعا البعض إلى قطع الطريق على مناجر المسلمين وإعداد الأساطيل لهذا الحصار البحرى وتوالت المشروعات التى كان يرسمها البابوات وملوك أوروبا وكانت فى أغلبها تدهو إلى الاستعانة بالأرثوذكس فى الشرق ليكونوا مع الكنيسة الكاثوليكية يدا واحدة فى وجه الإسلام ، غير أن هذه المشروعات جميعا لم تجد سبيلا إلى التحقيق ، ذلك أن الدولة العثمانية كانت قد سيطرت على البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ولم يمد فى استطاعة أوروبا الزحف من هذا الطريق . وهنا نشأت تلك الفكرة بتطويق عالم الإسلام من طريق الالتفاف حول أفريقيا والوصول إلى الهند ومحاصرة الإسلام من الخلف ، ووضع الحبل حول عنقه تمهيدا لشده فى الوقت المناسب حسبما يعبر أرنولد توينبى فى كتابه [الغرب والعالم] . وهنا يبدو مدى دور الدولة العثمانية فى حماية الإسلام والعالم الإسلامى خلال خمسة قرون ويزيد بالوقوف فى وجه الغزو الأوربى الزاحف . فقد جمعت الدولة العثمانية شتات الشرق الإسلامى بعد أن ضعفت دولة المماليك فى مصر ولم يكن هذا التجمع فى حقيقته استعمار أو سيطرة أو احتواء حسبما يريد الكتاب أو يصفوه خطأ أو تعصبا لأوروبا وللإستعمار نفسه . ذلك أن كلمة الاستعمار هى اصطلاح خاص ينطبق على تلك الحركة التى قامت بها أوروبا بالزحف على دول العالم الإسلامى والسيطرة عليها فحاربا ثم سياسيا وما صاحبها من مخططات التنبؤ والغزو وغيرها . أما الدولة العثمانية فلم تفعل ذلك ولم يكن هذا أسلوبها ، وإنما كان بين العرب والترك أسرة ضخمة هى الإسلام وهى كبرى الروابط إذ ذاك والمقدمة على غيرها ، والسابقة لدهوات القوميات والعناصر والأجناس التى عرفتها أوروبا فى القرن التاسع عشر . ولقد كان التقاء مصر والشام والمغرب كله بالدولة العثمانية هو التقاء الترابط الفكرى والروحى الذى يدهو إلى تجميع الشتات للوقوف فى وجه الخطر الأوربى الزاحف .

وقد امتدت هذه الصلة قرونا ومع ذلك لم تحمل فى يوم من الأيام صورة الاستعمار ، ولهذا فإن محاولة تصوير هذه الرابطة بكلمة الاستعمار التركى إنما هى من عمل النفوذ الغربى الذى يحاول أن يصور الرابطة بين العرب والترك على أنها رابطة سيطرة واحتلال واستنزاف للقوى وهذا ما ليس معلوما بالطبيعة فى تاريخ هذه الرابطة فقد كان العثمانيون يدهون لكل قطر حرية نظامه وحكمه ويكتفون بالرابطة العامة تحت لواء الخلافة . وتكشف كل كتابات النصفين زيف دهوى الغزو الثقافى والتغريب ، بل إن الذين هاشوا هذه الفترة وهم أقرب الناس إلى فهم هذه الحقائق يؤيدون

صدق ماذهب إليه . وفي هذا يقول العلامة محمد جميل بهم أنه بعد « انسحاب الصليبيين وضمف الممالك تطلع العالم الإسلامى إلى قوة حاوية ومنقذة تقف في وجه الغزو الغربى الذى كان يصير على متابعة الحروب الصليبية في للشرق وفي للغرب جميعاً ، كان العالم الإسلامى ينطلق إلى منقذ ينقذه من الهاوية التى سقط فيها فلما خرج آل عثمان إلى ميدان السكفاح وظهرت بوادر نجاحهم في حروبهم ضد الامبراطورية البيزنطية خلق المسلمون آمالهم الآمال وأنجسوا بقلوبهم إليهم . وقد خلفت الدولة العثمانية العرب على سيادة البحار فندا البحر الأسود بحيرة لتركيا وقد بسطت السلطنة سيادتها على البحر الأحمر وخليج فارس فضلاً عن أنها أصبحت سيادة البحر المتوسط على أثر انتصار أسطولها في (جواربرة فيزا) عام ١٥٣٧ على أساطيل الدول الأوروبية والبابا (بجتمعة) . ومن هنا نعرف كيف أن الدولة العثمانية كانت منقذة العالم الإسلامى وليست مستعمرة له بمفهوم الغرب الذى يحاول تصوير هذه العلاقة بأنها شبيهة بالاستعمار الأوروبى ولذا فإن القول بأن العرب انتقلوا من الاستعمار التركى إلى الاستعمار الأوروبى بعد الحرب العالمية الأولى قول مضلل . والواقع أن العثمانيين قد وقفوا وقفة صلبة عنيدة في وجه الزحف الأوروبى ، وأظهروا احتراماً لمعلمهم في الدين (العرب) وأعطوهم حرية واسعة . ولقد ظل العثمانيون ينظرون إلى العرب على أنهم لواء الإسلام ، وأصحاب اللغة العربية التى نزل بها القرآن ، ولم يظهر إلى وقت طويل جداً ذلك الفصل بين الإسلام والعروبة الذى كان من مؤامرات الاستعمار الغربى والصهيونية العالمية ، وهذا مايسوره الدكتور يوسف هز الدين حين يقول : « إنهم لم يكونوا يفرقون بين العروبة والإسلام لأنها كانتا شيئاً واحداً متلازماً لا يمكن الفصل بينهما وقد بقى هذا الوعى العربى متصلاً بالإسلام فترة من الزمن لأن العرب هم أهل الإسلام ولأن محمداً رسول الله إلى الناس أجمعين عربى الأرومة ، ولأن القرآن دستور المسلمين عربى اللغة ، وتلك مقومات وأسس نرضى الشعور الإسلامى والعربى للامة العربية .

ولقد كان بين العالم الإسلامى والترك رابطة إعجاب بفتوحهم في أوروبا ، وكان بين العرب والترك حرية فكرية ، حيث اختلط العرب بلغتهم وعاداتهم وتقاليدهم وقد استمرت هذه الروابط أربعة قرون (١٥١٧ - ١٩١٨) وشملت العالم العربى كله ما عدا مراكش ولاشك أن أية مراجعة لتوابع التاريخ بعد تصفية الإمارات الصليبية في فلسطين تكشف عن أن الالتقاء بين العرب والدولة العثمانية كان أمراً طبيعياً وضرورياً ذلك أنه لم يمض غير قليل من الزمن حتى بدأت حركة لتحريم الانقياد مع الممالك مهددة بتوقيع قرارات الحرمان من السكنى على كل من يخالف هذا الحصار بما قاموا به من حسن معاملة تجار الأفرنج . لذلك هاد الصليبيون إلى إحياء فكرة مهاجمة مصر عسكرياً وقد

انجبت خطتهم إلى الأسفلاء على الاسكندرية والرحف منها على القاهرة ومن ثم قامت الحملة التي قادها بطرس الأول ملك قبرص ضد الاسكندرية عام ١٣٦٥ واضطرت للإنسحاب بعد بضعة أيام ثم بدأت الصليبية الأوربية حركة ضخمة للسلب والنهب والأسر في حوض البحر الأبيض ، وبدأت غارات القراصنة بالتعاون مع القبارصة وفرنسا الاستعمارية في (رودس) على السواحل والنفور للصرية والشامية والتربص بسفن التجار المسلمين في عرض البحر ومن ثم قام المماليك بالفزوات الانتقامية ضد رودس وقبرص والأسفلاء على قبرص . وبعد أن برزت الدولة العثمانية وبدأت خطراً داهماً على أوروبا حاولت الصليبية الاجهاز على العثمانيين والمماليك . غير أن سيطرة الدولة العثمانية السريعة على البحر الأبيض المتوسط ودت الصليبيين إلى العمل من طريق البرتغال وأسبانيا للوصول إلى الهند والحشة وذلك بهدف انتزاع تجارة المسلمين ، وهنا بدت تلك الدعوة الواضحة التي أذكتها روح الجهاد والوحدة والتنضام بين المسلمين في جميع الجهات بمصر والشام والانتقاء بالدولة العثمانية في قوة موحدة مما أحبط مشروعات الفرنج الصليبيين وخططهم ، وبذلك أعادت الدولة العثمانية مرتبطة بالعرب الوحدة الإسلامية وجمعت بلاد الشرق الإسلامي إلى لواء الخلافة من جديد ووجدت الشعوب الاسلامية قوة تهمها وترد عنها الفزوات الأوربية الصليبية ، وحققت وحدة سيامية كبرى بعد تفكك العالم الإسلامي بسقوط الدولة العباسية ، مما أوقف النفوذ الغربي من التوغل في البحار العربية وبالتالي أنقذ الشرق العربي من الخطر الاوربي .

ولقد كانت الدولة العثمانية قوة إسلامية جديدة أخذت تزحف على أوروبا من الشرق بعد أن توقف للمسلمين من الاندلس وقد أزعجت أوروبا ازهاجا شديداً وكشفت على قدرة للمسلمين مرحلة بعد مرحلة في آفاق التاريخ على صد العدوان الزاحف ودحر الغزو الغربي المتربص الذي لم يتوقف منذ ظهور الاسلام حتى اليوم ولا شك أن الدولة العثمانية كانت فخراً للمسلمين خلال هذه القرون الخمس وأن النظرة إليها يجب ألا تكون جائرة ولا متحيزة من حيث النظر إلى مراحل الضعف الاخيرة وإنما يجب تصحيح الامر بمراجعة موقف هذه الدولة في نظرة كلية شاملة تكون أقرب إلى إحقاق الحق وإلى الاسلوب العلمي المنصف ، أما هذه النظرة الجائرة التي تتردد في مؤلفات كتابنا بالتركيز على مرحلة الضعف وهي لا تزيد عن مائة عام في مرحلة مديدة طولها خمسة قرون ونصف ، فهي نظرة أوربية متعصبة ، تابعتنا نحن فيها خصوصاً وخصوصاً الدولة العثمانية وكننا أسلمة لهم ومخالب قاط . من الحق أن يقال كظاهرة هامة أن تاريخ الدولة العثمانية لم يبق النظرة العلمية أو الانصاف العلمي

وأن معظم ما كتب عنه كتبه المفروضون من خضوم الدولة العثمانية ومن أتباع الغرب الذين لا ذوا بالإرساليات التبشيرية ومعاهدها وكانوا حرباً على العرب والمسلمين ، ويؤيدنا في هذا الدكتور عبد العزيز الشناوى الذى يقول :

« إن الظاهرة الواضحة هي أن تاريخ الأتراك العثمانيين في هذه المرحلة من تاريخ أوروبا [مرحلة التوسع العسكرى الإقليمى الذى قام به العثمانيون في أوروبا] لم يأخذ من تاريخ أوروبا من مؤلفات معظم المؤرخين الأوروبيين الحجم أو الحيز الذى يناسب الدور الكبير الذى يقوم به العثمانيون سواء في الميادين العسكرية أو في المجالات السياسية . « وقصر المؤرخون الأوروبيون اهتمامهم على الكتابة في إفاضة عن الدولة العثمانية حين دخلت دور الاضمحلال شأن كل الامبراطوريات التى هرفها التاريخ . وطالب لم أن يسهبوا في تاريخ حقبة الاضمحلال وأن يبرزوا في كتاباتهم القرب الذى أطلقه السادة الأوروبيون على الامبراطورية وهو : [رجل أوروبا المريض] هو أن ينسجوا حوله مزيجاً من الحقائق والأساطين للإساءة إلى الباب العالى وإلى الدولة وإلى رعاياها المسلمين بوجه خاص ، ونعتوا الدولة بأنها نقمة على الحضارة والإنسانية وغير ذلك من نفوت أملتأ عليها روح التعمصب ، ووصفوا رعايا الدولة المسلمين بأنهم جماعة من التبريرين ، ومما لا مرأ فيه أن الأتراك العثمانيون يحتلون مكانة كبرى في تاريخ أوروبا ، سواء أراد جمرة المؤرخين الأوروبيين أو لم يريدوا وجاء حين من الدهر كان العثمانيون هم القوة العسكرية الأولى في أوروبا ، وكانت تمنو للسلطان العثمانى جباه ملوك أوروبا وأمراءها . « أما الأوروبيون الذين عاصروا هذه الفترة الذهبية من تاريخ الدولة فقد ربطوا بين الإسلام وبين العثمانيين ، واعتقدوا أن العثمانيين هم الرمز الحى لمجد الإسلام في مطلع العصور الحديثة ، فباسم الإسلام استولى السلطان محمد الثانى على عاصمة الدولة البيزنطية واستبدل باسمها القديم وهو القسطنطينية اسمها فريدا هو (استانبول) أى دار السلام وحول كارتدائية القديسة صوفى إلى مسجد يمد أن أدى فيه صلاة الظهر جماعة مع قواد جيشه ، وباسم الإسلام حمل العثمانيون البحر الأحمر « بجرأ إسلامياً » مغلفاً في وجه السفن غير الإسلامية وأصبح محرماً عليهم الابحار فى مياهه فيما وراء نهر (نجا) في بلاد اليمن منما من تسلل البرتغاليين إلى الأراضى المقدسة الإسلامية فى الحباز ، والذين كانت قد احتوتهم أحلام اليقظة فاعتقدوا أن فى استنطاعتهم نبش قبر الرسول ﷺ ثم التوغل شمالاً فى مياه البحر الأحمر حتى السويس وعلى ذلك اتجهت حملة برتغالية بقيادة لويه سوايز إلى جده .

وقد فشلت هذه الحملة لأنها تعرضت لريح صرصر هانية وارتطبت سفن الحملة بعضها ببعض

ونحطمت قبل أن تبلغ غايتها وقام البرتغاليون بعد ذلك بهجوم بحري على ميناء السويس ولكنهم فشلوا أيضا في تحقيق أهدافهم ، ثم جاء التشريع النماني ليحول بين البرتغاليين وبين ما كانوا يشتهون ، وظل هذا التشريع نافذاً حتى نهاية القرن السابع عشر ثم سمح للسفن غير الإسلامية بأن تعد رحلاتها في البحر الأحمر حتى جده و بقيت المنطقة الواقعة بين جده والسويس منطقة محرمة على السفن المسيحية . حتى أذن عام ١٧٦٨ لهذه السفن أن تعد رحلاتها البحرية حتى ميناء السويس وما تزال كتب التاريخ : تصور هذا الترابط بين العرب والترك على أنه استثمار وقد واجه النمانيون في حروبهم تسكتلات دولية حتى أنه لما سمعت فرنسا وهي في محنتها إلى التحالف مع الدولة النمانية في عهد السلطان سليمان وتلاقت مصلحة الدولتين على محاربة شارل الخامس أمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، وأنكر الرأي العام الأوربي على فرنسا هذا التحالف بين دولة مسيحية ودولة إسلامية وأطلق عليه التحالف المدنس احتفظ النمانيون بروح الإسلام : العزة والكرامة والشم والياء وصلابة الضربة والتصميم على إحراز النصر ، ولم يتخلفوا عن هذه الغفلة إبان الفترات التي بدت فيها النذر الأولى لاضمحلال دولتهم . وتعلت معركة ليبانت البحرية في أكتوبر ١٥٧١ سورة صحيحة لدى اقتدار الدولة النمانية في مواجهة حدث من أخطر الأحداث ، حيث نكلت الصليبية الأوربية المتمثلة في البابوية وأسبانيا والبندقية وجنوه وسافوي وتوسكانيا وفلورنس ومانتور وبارم وغيرها بالبحرية النمانية ، فضلا عن فرسان القديس يوحنا الذين اتخذوا من جزيرة مالطة مقاما ومعقلا ومركزا للاتقضا على السفن الإسلامية وهي في أهالي البحار . وقد انطلق العثمانيون في همة ونشاط محوم يسيرون بناء قواتهم البحرية ، واستطاعوا قبل عام أو بعض عام أن يعادوا جولاتهم في البحر المتوسط ، وينحشروا بالدول التي وقفت موقفاً معاديا في معركة (ليبانت) بل أخذ الأسطول الجديد يبحر في المياه الإقليمية الإيطالية دون أن تجرؤ إحدى الدول أو فرسان يوحنا على التعرض لأي من وحدات هذا الأسطول ، واستطاع النمانيون أن يفرضوا عام ١٥٧٣ على جمهورية البندقية صلحا كان مهينا بالنسبة لها وبعد ثلاث سنوات من معركة ليبانت أي عام (١٥٧٤) انتزع العثمانيون تونس من أسبانيا وأعادوا هذا الاقليم إلى رحاب السكتلة الإسلامية .

هذه الصفحة لاشك هي من مفاخر تاريخنا الإسلامي المعاصر . ولا قدرة لنا على تفسير الأحداث والوقائع التي واجهنا حتى الآن من الصراع بين الاستثمار الغربي والعالم الإسلامي بفهم هذه المرحلة وتبينها . وقد كانت هذه المواقف كلها إسلامية أساسا .

د فباسم الإسلام استولى العثمانيون على جزر البحر المتوسط التي كانت قواعد عسكريا

صليبية . « وباسم الاسلام فتح السلطان محمد الثانى القسطنطينية . « وباسم الاسلام قاد السلطان سليم للشرع سنة عشر حملة عسكرية فى جوف أوروبا ووصل بها إلى أسوار فينا . « وباسم الإسلام تقدم العثمانيون لمساعدة المسلمين فى شمال أفريقيا فى كفاحهم ضد الأسبانية » ويرى الدكتور الشناوى : أنه قد استقر فى أذهان الأوربيين إن أى نصر تحققه القوات العثمانية سواء فى البر أو البحر إنما هو نصر للإسلام ، يقول « وحلى ذلك فإن الحروب الصليبية التى شهدتها الشرق الإسلامى لم تكنه بسقوط حكما آخر معقل الصليبيين فى يد المسلمين فى عهد السلطان خليل بين فلارون فى ١٨ من مايو ١٢٩١ بل استمرت متجددة منتقلة فى نفوس الأوربيين فى العصور الحديثة وأن احتلت مبادئها وشخصياتها والدول التى شاركت فيها والأسلحة التى استخدمت « ويصل الدكتور الشناوى إلى ما وصلنا إليه من أن « الانتصارات العسكرية الرائعة التى أحرزها الأتراك العثمانيون على الأوربيين قد أضفت هالة من الجدى فى أرجاء العالم الإسلامى ونظر المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها إلى الدولة العثمانية على أنها دولة الإسلام الكبرى يستظلون بظلها الظليل . وهذا ينشئ نفعاً قاطعاً ما أطلق عليه الاستعمار التركى أو الغزو العثمانى ، فى محاولة لإثارة نفوس العرب المسلمين على أشقيائهم الأتراك المسلمين ولحساب الصهيونية العالمية والاستعمار العالمى . وتكاد المصادر الموثوق بها تجمع على هذه الحقيقة التى تقول بأن العثمانيين كانوا حماة الشرق العربى من الخطر البرتنالى الصليبي الاستعمارى الذى كان قد استفحل أمره ، وأنهم حين وصلوا إلى حدود الشرق العربى ومنافذه البحرية دفعوا عنه خطر البرتنالين ، واتخذوا من اليمن بصفة هامة وهدن بصفة خاصة مراكز استراتيجية للقضاء على النفوذ البرتنالى فى البحر الأحمر والزاحف من المحيط الهندى ، كما أنهم جعلوا من البحر الأحمر بحراً إسلامياً فلبياً لا تدخله السفن غير الإسلامية لأنه يطل على الأماكن المقدسة فى الحجاز . ومن الحق أن يقال أنه عندما تراجع نصوص هذه العلاقات بين العرب والعثمانيين فى هذه المرحلة فى كتابات أمثال ساطع الحميرى وسليم سر كيس والبستانى وجرجى زيدان وأصحاب المقطع والمنعطف نجد تحاملاً واضحاً ومحاولة خفية لمدارة صفحات النصر والقوة والمظلة وهم لا يصورون هذه الظروف التى فرضت على العرب الالتحاق بالدولة العثمانية ولكنهم يصورون الأمر كله على أنه احتلال واستعمار .

ولقد دافع الكثيرون عن هذه الشبهات والاتهامات التى حاول بها أولياء الصهيونية والنفوذ الاستعمارى والسكرابين بحكم التنصب واغلاف الدولة العثمانية أن تنير الشبهات حول سلاطين آل عثمان - يقول الأمير شكيب أرسلان : لقد بقى هؤلاء السلاطين يذبون عن الإسلام شرفاً وخرباً مدة سبعائة سنة كاملة ، وجاء وقت كانت فيه أوروبا بأجمعها تترمد فرقاً من صولة آل عثمان وكان خوفهم يصل بأهل أوروبا إلى أنهم إذا جاء أسطول عثمانى إلى طولون أو نيس أبطل الأهالى هناك قرع الأجراس

في كنائسهم ، وكان أهالي فينا لا يبيتون ليلة إلا وهم معتقدون أنهم في اليوم التالي رعايا لابن هُمان وبقيت الجمر ملكا لابن هُمان مائة وخمسين سنة ، وبودابست هاصمة إسلامية ، وجاء زمن كانت الأسطول العثماني هو الأسطول السائد في البحر المتوسط وكانت ربح الإسلام تعصف في البحر كما تعصف في البر وبقي الإسلام مئات السنين في كفالة آل هُمان وكان الترك هم سيوفه المسلحة ، ولم يقتصر فضل الأتراك على الجهاد بالسيف بل كان لهم من الجهاد بالقلم مالا ينسكرون شاه فليقرأ كتب التراجع ولا سيما (الشقائق النمائية في علماء الدولة العثمانية) فيعلم كم خرج من هذه الأمة من فحول العلماء وأساطين الحكماء . هذه هي حقيقة الدور الذي قامت به الدولة العثمانية وهو يكشف في وضوح مفهوم العلاقة بين العرب والترك وأنها لم تكن « استعمارية » بحال ، كما يكشف كيف زادت الدولة العثمانية من العرب الغزو الغربي وأخرته أربعة قرون ، وكيف أصبحت الدولة العثمانية هدفاً ضخماً من أهداف الاستعمار يرمى إلى إزالتها وتدميرها وحياسة المؤامرات للقضاء عليها وتزيقها وتقسيمها بين الدول الأوروبية . وهذا كله ولا شك يعطى ضوءاً على المرحلة القادمة من البحث : مرحلة الوحدة الإسلامية التي حمل لوائها الخليفة عبد الحميد وهي كبرى الحركات الإسلامية في هذا العصر .

(١)

الوحدة الإسلامية تحت لواء الخلافة العثمانية

كبرى الحركات الإسلامية

لا ريب أن هذا العمل الخطير الذي رفع لواءه السلطان عبد الحميد قد هز قواعد الاستعمار الغربي والصهيونية ، وقلب مخططاتها وتقديراتها مما دفع قوى الغزو إلى التكتل لإسقاطه أو أخضاعه فقد شكل بهذه الدعوة حاجزاً ضخماً ظل يقوى وينماصك حتى أوشك أن يكون صدىً منيعاً لا قبل للاستعمار الغربي باقتحامه ، هنالك لم يجد الاستعمار سبيلاً لمقاومة هذه الحركة إلا بالتآمر للقضاء على قائدها وحشد الخصوم من داخل الدولة العثمانية وخارجها لدمره وعزله . ومن المعجب أن هذه الصفحة ما زالت مطوية حتى الآن ولم تكتب على نحو مفصل وقد مضى عليها أكثر من مائة عام ، وأن قضية هذه المؤامرة ما زالت محجوبة ، ووثائقها ما زالت خفية وما يعرف في هذا الصدد وما يذاع وما يملأ كتب التاريخ المقررة في المدارس والجامعات في العالم الإسلامي كله إنما هو الزيف والكذب والتضليل الذي يمثل وجهة نظر الخصوم ، والسلاح القوي لتزيق الرابطة الجنسية بين المروبة والإسلام والحيلولة دون النقاء العرب بالمسلمين تركا وفرنسا وهنوداً وغيرهم وهي من أقوى خطط العدو المنتصب المتمثل في الاستعمار والصهيونية . فما زالت الكتب التي تدرس بالمدارس ، والحق

تنتشر في محيط الثقافة ، وما تزال الصحف والمجلات والأبحاث التاريخية جميعاً تحمل هذه الأخطاء : « الاستعمار العثماني » . « الاستبداد العثماني » . « السلطان الأحمر » . إلى غير ذلك من العبارات الموحية التي وضعها الاستعمار والصهيونية والشيوعية والتي تشكل جميعها : (المؤامرة العالمية للسيطرة على الإسلام والمسلمين والعرب) والتي أريد بها حجب الحقائق التاريخية وإخفاء الخطأ الخطيرة التي دبرت خلال أكثر من ثلاثين عاماً من أجل القضاء على حركة الوحدة الإسلامية تحت لواء الخلافة العثمانية . ولقد كان المخططون المؤامرة ، المنظمون لتاريخهم الزائف المكشوف قد وجدوا في رجلين من أكرم رجال العرب والمسلمين مقلباً لهذا العمل وهما : جمال الدين الأفغاني وهبند الرحمن الكواكبي . وقد كان التركيز يرمى إلى جعل جمال الدين الأفغاني بديلاً لسلطان هبند الحميد ومواجهاً له ، بل أنه بعض النصوص كانت تحاول أن تصور جمال الدين وهو صاحب الفكرة الأساسية للجامعة الإسلامية وأن الخليفة العثماني هبند الحميد هو الذي تلقى منها ثم حاول أن يطويه تحت جناحه ثم انتهى الأمر به أن دس له السم في فمكه وقضى عليه .

وكل هذا زيف لم يثبت بالبرهان أو الدليل أو بالوثائق الصحيحة ، ومن أجل هذا أهمل إلى حد كبير ، أكبر من الواقع ، قدر جمال الدين الأفغاني ، وكان أكبر الماملين لتسجيل فكرة وإذاعة آرائه هم الماسونيون ، وفي مقدمتهم (محمد الخزومي باشا) صاحب كتاب (خاطرات جمال الدين) الذي يكاد يكون المرجع الوحيد لأفكار جمال الدين والذي كان رئيساً لحفل دمشق في سنوات ما قبل الحرب ، ولقد كان هذا التخطيط يهدف إلى إهلاء شأن رجال آخرين من أصحاب الولاء للماسونية والصهيونية (سواء دروا بذلك أم جهلوا) من أمثال مدحت ، وغيره وهدماً لرجال كان لهم دورهم الكبير في الحركة إلى جوار السلطان من أمثال أبو الهدى الصيادي وغيره ، ولقد ظلت تكال لعبد الحميد عبارات الحق والكراهية في مؤلفات العرب وكتبهم وأبحاثهم إلى وقت قريب جداً ، ربما إلى عام ١٩٦٥ عندما ظهر أول تصحيح علمي وثائقي لهذه المفترقات وهو كتاب الجنرال جواد رفعت الذي صدر في بغداد وهو الكتاب الذي كشف بعض هذه الحقائق ثم تنابعت الأبحاث وظهر كثير مما كان مستوراً من حفظه أصحابه في صدورهم وخاصة من لا يزالون أحياء منهم في الشام وغيرها ولقد تواترت هذه الحقائق وانشرت في السنوات الأخيرة وخاصة بعد نسخة ١٩٦٧ على نحو بشكل تياراً واضحاً قوياً من شأنه أن يصحح زيف تلك الكتابات الخاطئة والمبطلات التي تواترت على مدى هذه الأرواح السبعين منذ اعتزال السلطان هبند الحميد ١٩٠٩ والتي ما تزال تتردد على ألسنة غربيين العرباليات التبشيرية من خصوم الإسلام والعروبة ودهاة التفرقة بينهما ، ولا شك أن

بروز هذه التيارات واندفاعه اليوم ممثلاً للحق الذي ظل حبيصاً هذه السنوات الطويلة يؤكد ما قاله الباحثون جميعاً من أن التاريخ قادر على النصفة وإحقاق الحق ودحض الباطل على المدى الطويل ، وأنه لا يمكن مطلقاً لا كذوبة مضلة مهما أحيطت بالسبك والإحراج البارع أن تستمر طويلاً إلا في غفلة الحق ، فإذا انكشف الحق وتنبه الناس له انهارت تلك الأباطيل وهضمت كالغصاة الساطع بدحض الغلام .

واليوم نرى أن كتبنا التاريخية التي تعلم في المدارس والجامعات ومن ورثها كتب التاريخ والثقافة العامة والأدب والدراسات القومية وغيرها إنما تحمل خطأ كبيراً يوجه مسار البحث العلمي كله ناحية مضلة بما يحول دون تبين وجه الحق في المراحل المتصلة من هذا التاريخ ، وبما يحقق لأصحاب المؤامرة الكبرى — في تدمير الإسلام والتفرقة بين العرب والمسلمين — استمرار زيفهم ، ولذلك فنحن ننادي بتحرير هذا النص وكشف زيفه ونعتبره أكبر خطأ في تاريخ الإسلام المعاصر وأخطر مضلة ترتب عليها أبعد الأثر في الإنحراف عن فهم الوقائع والحقائق . ولعل من أخطر الوثائق التي تناولتها الأيدي في السنوات الأخيرة وكانت بعيدة المدى في هذا السبيل ذلك النص الذي أدلى به السلطان عبد الحميد في الرد على مؤامرة الصهيونية حين طلعت في أن تدفع للدولة العثمانية ملايين من الجنيهات من أجل السماح لها بالإقامة في فلسطين وكيف رفض السلطان عبد الحميد ذلك في هزة وإباء ، وفي قوة وصمود ثم كيف أخفى هذا النص سنوات طويلة حتى لا يعرف أحد عظمة هذا الرجل وببله بما يتعارض بما وجه إليه من إتهام .

ولقد كان هذا الرفض الفاطم بعد أن توالى الإغراءات والمطامع عاملاً حاسماً في مجريات الأحداث حيث وجهت جميع الخطط للقضاء عليه وتخطيط هرشه وخلعه من ملكه ، وكان هو يعرف جيداً مدى خطر ما ذهب إليه ومدى أثر ذلك في القوى التي تحركها الصهيونية من داخل البلاد ولكنه قبل النتائج في يقين وصدق لأنه كان يعرف أنه على الحق ، وأن خصومه إذا استطاعوا أن يخفوا هذه الحقيقة زمناً وقد أخفوها صبعين عاماً فإنها لابد أن تظهر يوماً وأن تدحض كل الزيف الذي أحيط به تاريخه وسلوكه وهذا هو اليوم الذي نحن فيه . ومن المصعب أن خصوم الإسلام والمسلمين كانوا يعرفون هذا النص ويعلمون هذا الموقف ولكنهم حين يذكرونه ، كانوا يرضونه في شيء كثير من التوهم فيقول محرر الهلال مثلاً (ورفضت الدولة العثمانية مطالب الصهيونية) أو ما شابه ذلك من العبارات بينما لم يكن الموقف على هذا النحو من البساطة ولكنه كان مهدداً خطيراً للسلطان ومكانه ودعوته إلى حل لوائها . وحين يحاول خصوم العرب والإسلام أن يكتبوا تاريخ السلطان عبد الحميد

ويدهون أنهم يصطنعون المنهج العلمى فى البحث فإلى ماذا يرجعون من مصادر ؟ : ليس لهم من هذه المراجع غير : بروكلمان ، الماوتلن ، جورج أنطونيوس ، الموسوعة الأمريكية ، توينبى ، سليمان البستاني ، محمد أنيس ، ونحن نعرف أن كل هؤلاء خصوم لعبد الحميد بوجه من الوجوه ودعاة المخطط التاريخى للظالم المفروض على مناهج الدراسات العربية ، وأن مصادر هؤلاء جميعا إنما تقدم اتجاهاتهم ومذاهبهم ، وأهواءهم ، وهل ينتظر من أوروبى أو غربى أو ولى من أولياء الفكر الغربى ما يمكن أن ينصف لعبد الحميد الذى كان فى نظرم ممثلا للدولة العثمانية التى أخضعت الغرب خمس قرون ، والذى حمل لواء الإسلام فى مواجهة زحفها للسيطرة على العالم الإسلامى وأحدث فى سنوات قليلة فى سبيل الوحدة الإسلامية الأعاجيب . لقد انفقت كل الأطراف الاستعمارية : الروسية والغربية والصهيونية على مقاومة هذا الخطر ، وهى توسيد تاريخ يظل حاملا لهذه المفاهيم أمدا طويلا حتى يتقرر فى النفوس موقف الكراهية والامتنان لرجل قوم ودافع ووقف فى وجه الخطر وهو يعرف حجمه ومداه ، على النحو الذى يحقق وقوع الخلاف بين المسلمين والعرب واستمراره وتمسكه على النحو الذى يحول بكل وسيلة دون إنقاذ المروبة والإسلام ، هذا اللقاء الذى يمثل الخطر الجاثم فى وجه الغرب كله من أجل نفوذه الاستراتيجى والاقتصادى القائم ، وخوفا من المستقبل القريب أو البعيد ، أما كتاب العرب المعتمدون لهذه المراجع فهم تابعون لفكر الغربى الزاحف بشقيه ولم هوى فى كراهية هذه الوحدة وهذا الالتقاء .

(٢)

ماهية الحركة التى حمل لواءها السلطان عبد الحميد

لكن نعرف حقيقة هذه الحركة يجب أن نتصور بوضوح واقع الدولة العثمانية والعالم كله خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر وقد بلغت الدولة العثمانية والعالم كله أشد مراحل الضعف وقد تجمعت الدول الغربية على وضع المخطط للقضاء عليها وتمزيقها وإفلالها . وقد كانت روسيا وبريطانيا وألمانيا وفرنسا جميعا بالإضافة إلى البابوية تشارك فى رسم هذه المخطط وفى اقتراح الأجزاء الأوربية من الدولة واسترجاعها . والاستعداد لتقسيم الأجزاء العربية فى الدولة وهى الشام والعراق والجزيرة العربية . وكانت مخططات الصهيونية العالمية تركز تركيزا شديدا على الدولة العثمانية من أجل الوصول إلى فلسطين وتحقيق حلمها فى إقامة هيكل سليمان . فلما ولى السلطان عبد الحميد

الحكم : خليفة المسلمين وساطاناً للدولة العثمانية ، وأجه الموقف على نحو مختلف عما واجه به سلاطين آل عثمان الذين سبقوه ، وكانت مواجهته حادة حاسمة . وكان إحساسه بالنبعة كبيراً وكان ذكاؤه وسعة فكره وإلمامه بالتيارات المختلفة بالغاء ، ومن هنا فقد جرى من الأحداث في طريقها المرسوم شوطاً ثم لم يلبث أو وضع خطته المحكمة التي رأى أنها الطريق الوحيد لمواجهة هذا الغزو الاستعماري الزاحف ، والمتشكل داخل الدولة العثمانية في مؤسستين خطيرتين : إحداهما المحافل الماسونية في سالونيك وتركيا الفناء التي سميت بعد (الاتحاد والترقي) والتي ضمت مجموعة من المثقفين ثقافة غربية ومن أصحاب الولاء الفكري الغربي وخاصة الفرنسي ومن الذين أغروا عن طريق المستشرقين وكتاب الغرب بأنه لا سبيل أمام الدولة العثمانية لتصل إلى التحرر والقوة إلا بالتأسس مناهج الغرب إلتاماً كاملاً وطرح أصولها وفكرها ومنهجها الإسلامي القديم والتخلص منه إلى عهد رجعة ، غير أن هذه الجماعة لم تستطع أن أن تقف وحدها ، فاضطرت إلى التماس العون من المحافل الماسونية ومن ثم احتوتها الحركة الصهيونية وسيطرت عليها ووجهتها الوجهة التي ارتضتها في القضاء على الدولة العثمانية وكان السلطان عبد الحميد قد حدد هدفه في مواجهة النفوذ الغربي على هذا النحو :

إن الوسيلة الأساسية لمواجهة النفوذ الاستعماري هو تجمع المسلمين في كل مكان تحت لواء الخلافة الإسلامية الذي تحمله الدولة العثمانية الجامعة في كيانها بين العرب والترك . ومن هنا فقد كان على السلطان العثماني الذي هو خليفة المسلمين أن ينادي المسلمين في جميع أنحاء الأرض أن يقفوا معه في صف واحد في مواجهة النفوذ الغربي ومن هنا كانت صيحته المعروفة للشهيرة التي هزت الغرب كله : « يا مسلمي العالم اتحدوا » . ومن هنا بدأ الخطر الذي واجهته الدول الأوروبية والاستعمار والبابوية والصهيونية العالمية في عنف وأخذت في التماس كل وسائل التآمر والغدر في سبيل تحطيم الخلافة والقضاء على القائم بها ، ولكن السلطان عبد الحميد استطاع أن يصمد لذلك وقتاً طويلاً ، ذلك أنه وكان قد بدأ هذه الحركة عام ١٨٧٩ على وجه التقريب فقد ظل يحمل هذا اللواء في قوة في مواجهة هواف السياسة الأوروبية ثلاثون عاماً كاملة دون أن ينزول أو يضعف . لم يكن السلطان عبد الحميد يملك من القوة العسكرية ما يستطيع أن يواجه به أوروبا والغرب المنجم المتآمر العنيد ، ولذلك فقد اتخذ من هذا الأسلوب الخطير ، أسلوب التجمع باسم كلمة (لا إله إلا الله) ونحت لواء الخلافة قوة هارمة خشبت بأسها أوروبا وحسبت لها ألف حساب ، فقد كان للمسلمون اللواون للسلطان تحت النفوذ الغربي يحشدون في عديد من الأقطار التي احتلتها بريطانيا وفرنسا وخاصة قارة الهند يمثلون قوة روحية ذات

أهمية خطيرة . ولقد مضى السلطان في تنفيذ مخططة في قوة وسرعة بحيث شملت الدهوة كل الآفاق الإسلامية وذاعت في كل مكان وحلت معها عملاً إيجابياً نافعاً ، قوامه للدارس وللشأن في كل صقع من البلاد الإسلامية . وكان قد أنشأ مدرسة للدهاة الذين سرهان ما أنبثوا في كل أطراف العالم الإسلامي إلى الهند والصين وجزائر المحيط ، ومصر وأفريقيا وتركستان وأفغانستان وبلاد العرب وأطراف المملكة العثمانية . كما عقد مع الأمراء المسلمين في شتى هذه البقاع مراسلات وعقود وعق رابطة الود والإخاء الإسلامي فيما بينهم وبين الخلافة ، حتى قيل أنه لم يبق مسلم واحد لم يعرف طرفاً من هذه الدهوة . وقد جعل السلطان عبد الحميد أمامه أمرين هائليين :

الأول : هو أن يكون العرب هم ساقية هذه الدهوة وحلة لوائها ومن هنا فقد أخذ من كل قطر عربي مشيراً له لجمع حوله علماء وأمراء من الجزائر والشام ومكة ومنهم أبناء الأمير عبد القادر الجزائري وغيره من أمراء المسلمين . الثاني : هو إنهاء الخلاف الذي أوجبه الاستعمار بين السنة والشيعة أو بين الأتراك والفرس وقد استخدم لذلك علامة كبيرة هو السيد جمال الدين الأفغاني وأجرى صلحاً مع شاه فارس وصنى أمر الخلافات القديمة كلها .

ولم يتوقف عند هذه الحركة الفكرية وحدها وإنما جعلها واجبة لعمله الكبير الذي بدأه في بناء القوة الحربية والعسكرية وتقوية جيوشه وأساطيله وقد استفهم بمئة ألمانية ، ولم يلبث أن أنشأ معاهد عسكرية دخلها عدد كبير من الشبان الممتازين من شباب العرب من العراق وسوريا ومصر ، وقد مضت الخطة إلى غايتها للرجوة فاشند عصب المسلمين بالترايط ، وتوحدت فكرتهم بالعمل الجامع ، وكان دهاة الفكرة الإسلامية ينشرون ثقافة جديدة قوامها مواجهة الاستعمار الغربي الزاحف والخطر الأوربي القيصري الصهيوني جميعاً وتركزت الآمال حول السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين وترايطت الدول الإسلامية وأهلها حول عاصمة الخلافة على نحو بلغ غاية القوة « فكانوا يذكرون اسمه في خطب الجمعة ويدنيون له بالولاء والطاعة والوحية ويتحدثون باسم خلافته على المسلمين كافة » وكلهم من رهايا دول أوروبا في الهند وجزر الهند الشرقية وشمال أفريقيا ، وكان هنا أخذ السلطان يفاوض الدول الكبرى ويساومها بل يهددها أحياناً ملوحاً بسلاح الجهاد الديني . وكان للصحافة الإسلامية في العالم الإسلامي دور كبير في حل بذور هذه الدهوة والإشارة إلى الإصلاحات التي أقامتها في مختلف البقاع من إقامة المعاهد والمساجد والمستشفيات وغيرها واستطاع السلطان عبد الحميد أن يجمع تحت لواء الدهوة أبرز المسلمين في مجال الفكر أو السياسة وفي مقدمتهم : خير الدين التونسي

وجمال الدين الأفغانى وأبو الهدى الرضاى (الصباى) وأبناء الأمير عبد القادر الجزائرى . وأقام من العرب فرقة خاصة ضمها إلى الحرس السلطانى وولى كثيراً منهم مناصب رئيسية فى الدولة وفى مقدمتهم أحمد عزت العابد .

وكان من أكبر أعمال السلطان عبد الحميد فى هذا الصدد : إنشاء سكة حديد الحجاز التى تربط بين دمشق والمدينة وكذلك ربط سكة حديد الحجاز بسكة حديد بغداد وقد وجد هذا العمل تقديراً بالغاً من المسلمين فى كل مكان وتبرعوا له بأكثر من ثلاثة ملايين من الجنيهات الذهبية فكان من أخطر المشروعات التى سجلت بالقضاء على السلطان إذ كان نذيراً بتغيير الاستراتيجية الغربية الاستعمارية ، وقد استهدف هذا المخطط أساساً القضاء على دسائس الانجليز ومؤامراتهم فى البحر الأحمر والجزيرة العربية وكان من أخطر مواقف الحركة الإسلامية الواحدة هو معارضة أهداف الحركة الصهيونية فى السيطرة على فلسطين والعالم الإسلامى كله ومواجهتها . ومن هنا انطلقت الصحافة الأوربية وتابعتها الصحافة العربية التى ظهرت فى مصر والتى قاد حركتها خريجو الارشاليات التبشيرية من أمثال : سليم سر كيس ، وفارس نمر ، ويعقوت صروف ، وفرح انطون وغيرهم للتشهير بالسلطان عبد الحميد ومعارضته وإشاعة الاتهامات المختلفة حول شخصيته وإثارة هوامل الفتنة بين قيادة الحركة الإسلامية وبين العناصر المختلفة فى الدولة العثمانية وخارجها وكان من أقوى من هاجم حركة السلطان عبد الحميد فى مصر اللورد كرومر الذى حمل على الجامعة الإسلامية حملة ضارية ودعا الدول الأوربية فى مخبرض سافر إلى التجمع للوقوف فى وجه هذه الدهوة .

يقول دكتور توفيق برد فى كتابه : (العرب والترك) وفى الحقبة شعر الأوربيون بمخطر هذه السياسة على نفوذهم وأنبرى رجال لهم شأن فى تاريخ الاستعمار كالمسيو هانوتو ولورد كرومر واللورد غراى إلى مهاجمة الجامعة الإسلامية واعتبارها بؤرة التعصب الدينى وأنه ليس المقصد منها سوى تحدى قوات الدول للسيحية وذعم الأوربية إلى مراقبتها مراقبة دقيقة والحذر منها ، وقد حملت جريدة للقطم فى مصر لواء مهاجمة هذه الدهوة ، كما هب أقطاب العرب والترك يدافعون عن الجامعة الإسلامية ، يتغون عنها صفة التعصب الدينى ، وقد تضمن رد محمد عبده الذى وجهه إلى كرومر دفاعاً عن السلطان عبد الحميد إذ وصف دولته بأنها أكبر دول الإسلام .

ورد البرلس صباح الدين على ما رده اللورد غراى فى مجلس الموم البريطانى على صفحات جريدة التيمس (١٣ أغسطس ١٩٠٦) من قول لورد غراى أن الجامعة الإسلامية ليست أساطورة من أساطير بل تسمى بالغة الاجتهادية : « رد فعل الشرق ضد الغرب » هذه الأعمال التى لم تسكن

على الدوام تحمل الطابع السلمى . وقد شهد كثيرون بأصالة هذه الحركة وقوتها وأثرها : فيرى (الدكتور برو) أنها كانت كرد فعل للحركة الاستعمارية الأوروبية الطاغية كما أشار إلى أن قاذنها كانوا من الدعاة المبرزين « وقد أذكرى ناز هذا الشعور » ، من أفاضل العلماء أمثال : جمال الدين ومحمد عبده ومصطفى الغلايينى ورشيد رضا ، (الدين قاموا) باستغلال هذا الشعور فى سبيل توحيد سيطرة السلطان فى الداخل وتقرير مكانة الدولة فى الخارج ولذلك فلا عبرة بما حاول بعض السكتاب المتغربين فى القاهرة من الغرض من أهمية هذه الحركة أو نجاحها أو القول بأن هذه الحركة كانت الدعاية للشخصية للسلطان عبد الحميد ، والمعروف أن أية حركة لابد أن تركز على حامل لوائها كأساس لها فليس هناك ما يعاب أن يذكر الدعاة السلطان أو يجمعوا القلوب حوله أو يؤيدونه فى موقفه الصامدة إزاء الغرب ومخططاته وتجمعه فى وجه الدولة العثمانية والإسلام والسلطان ولقد كان السلطان عبد الحميد ، سياسيا قديراً ، وقرماً من أرقام السياسة الدولية ولولا ذلك ما استطاع أن يصمد فى وجه هذه الرياح العاتية إذ كان قادراً على التعرف على مختلف التيارات والمؤامرات . وكان يفهم أبعاد الخطر الداخلى الذى يؤججه الاستعمار عن طريق حزب تركيا الفتاة وكيف تسيطر عليهم الماسونية العالمية وتوجههم لصالحها كما كان يعرف نقاط الضعف فى الدول الغربية وأوجه الخلاف بين بعضها البعض فيستغلها ويستفيد منها . ولست أستطيع أن أصور هذا المعنى بأعظم مما صوره جمال الدين الأفغانى : الذى التقى بالسلطان ساعات ومرات ودراسة شئون العالم الإسلامى ومخاطر السياسة الأوروبية ومخططاتها فهو القائل : « رأيتة يعلم دقائق الأمور السياسية ، وصرامى الدول الغربية وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك مخرجاً وسلاً ، وأعظم ما أدهشنى ما أهدى من خفى الوسائل وأمضى العوامل ، كى لا تنفق أوروبا على عمل خطير فى الممالك العثمانية وبريها هيئانا محسوماً أن نجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن أن تتم إلا بخراب يعم الأمم الأوروبية بأسرها » . وقال : إن ما رأيتة من بقظة السلطان وشدة حذره وإعدادة العدة اللازمة لإبطال مكاييد أوروبا وحسن نوياء واستمداده لتهوؤض بالدولة قد دفعنى إلى أن أمد يدى له فبايسته بالخلافة والملك . إلخ . ولقد أكد كثير من المؤرخين والباحثين فى إنصاف : إن السلطان عبد الحميد كان آخر الحصون التى دافع بها الإسلام عن وجوده العالمى وبعد انهياره تمت مؤامرات الغرب وربيبته الصهيونية . ومن الحق أن يقال أن الحركة التى حمل لوائها السلطان عبد الحميد فى تجميع المسلمين تحت لواء الخلافة الإسلامية كانت أنجاساً طبيعياً وأمثلاً لكل النفوس ولذلك فقد حققت نجاحاً كبيراً ، أزعج الاستعمار والصهيونية إزعاجاً شديداً على النحو الذى دفعهم إلى تدميرها من الداخل واستهداف القضاء على حامل لوائها أصلاً كوسيلة للقضاء عليها وتدميرها .

(٣)

التحديات في مواجهة الحركة

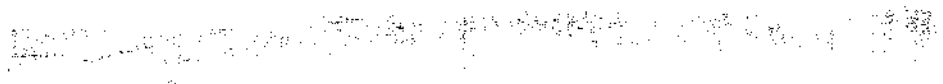
كان السلطان عبد الحميد يعرف القوى التي يواجهها ، ويعرف المؤامرة التي تدبر له نتيجة حل لواء الدعوة إلى الوحدة الإسلامية في مواجهة الاستعمار الغربي والصهيوني وكانت أخطار القوى التي تواجه السلطان هي من داخل الدولة العثمانية وتمثل في ثلاث فئات : ١ - فئة المثقفين الغربيين الذين سيطرت عليهم المعاهد الغربية . ٢ - حركة الارصاليات الأجنبية في لبنان ٣ - حركة الحافل الماسونية في سالونيك . وكان السلطان يعرف أن كل هذه القوى إنما تعمل للتخلص من مشروعه الخطير بالتخلص منه هو شخصياً على أنه هو حامل اللواء . ولذلك فقد عمد السلطان إلى مواجهة ذلك بعمل كامل دقيق لمراقبة هذه التحركات ومعرفة اتجاهات المؤامرة ، ومقاومتها ، وليس من المقول مطلقاً أن يقف السلطان (أو حكومته) مسلوب الإرادة أمام عمليات النجس الخطيرة التي تقوم بها كل هذه الدول : البريطان والروس والفرنسيين ومن ورأهم الصهيونية العالمية ولذلك ما نرده كتابات خصوم الغرب والاسلام وما تروجه من القول بأن هناك شبكة نجس ضخمة داخل المملكة العثمانية كان من الأمور الطبيعية إزاء هذه الحالة وإزاء مجتمع منسدد الأديان والأجناس والنفوذ الأجنبي عليه سلطان كبير ومن شأن ذلك أن يحرك الكثير من المؤامرات .

فضلا عما كانت تثيره الدول الغربية من اتهام للعرب — بالتآمر على السلطان بالدعوة إلى الخلافة العربية — وهم القوة الجديدة التي اتخذها السلطان أداة لدعوته الكبري ، وإذا كان السلطان قد عارض أهداف حزب تركيا الفتاة فقد كان عالماً بأنهم واقفون تحت نفوذ الماسونية العالمية وهي أداة الصهيونية العالمية ، ولقد كان عبد الحميد عالماً بأهداف الصهيونية وقامها لمخططات الحافل الماسونية وكان وقوفه في وجه الاتهاديين وتركيا الفتاة ومعارضتهم وتخطيط مخططاتهم ليس نابعاً من كراهية لهضة تركيا ولكنه كان عمقاً في النظرة إلى ما وراء ذلك من تبعية وولاء وعجز في مواجهة براعة المستعمرين الغربيين ومراوغتهم في إخفاء أهدافهم وراء مظاهر براقة زائفة من الدعوة إلى التحرر والتقدم وغيرها ، وليس دليل أصدق بمد نظر السلطان عبد الحميد مما وقع فعلاً ، ومما قام به الاتهاديون من بعد من تسليم كامل للدولة وتبعية كاملة لمخططات الاستعمار والصهيونية جديماً مما كشف عن أصالة

عبد الحميد وبعد نظاره وتقدير موقفه الحاسم في وجه النفوذ الاستعماري نفسه بالدعوة إلى الوحدة الإسلامية وفي نفس الوقت بمقاومة هذه التبعية التي كانت تحمل مظهرآ براقا هو « الإصلاح » على طريقة الغرب ، بينما كانت تحمل في أحقادها إيمانا بالفناء في الغرب كله . ولقد استطاع الغرب مرتين خداع المسلمين والعرب : خدعهم بالانحاديين حتى أنهم الدول العثمانية وخدمهم بالذين وثقوا بيهود مكهاون ولورنس حتى أنهم البلاد العربية . إن مقدرة عبد الحميد على فهم ما يحيط به كانت أكبر مما يظن كثيرون ، فقد كانت اتصالاته الواسعة ومعلوماته عن مخططات الغرب الاستعمارية وتطلعات الصهيونية أكبر مما كان معروفا في الأفق السيلسي العام إذ ذاك . ومن خلال لحات خفيفة يستطيع الباحث اليوم أن يستوعب مدى هذه الأخطار التي كانت واضحة أمامه ، والتي كانت تدفعه إلى براعة الحركة واختيار الطريق الأصح ، بالرغم مما يبدو على السطح من أن ما كان يدهو إليه الانحاديون وتركيا الفتاة هو أكثر بريقا وأزهي في العيون .

ذلك أن الدعوة إلى الحرية والتقدم كانت هدفاً حقيقياً لكل مصلح ، ولكل حاكم يريد الإصلاح وكان عبد الحميد من القلة القليلة الصادقة في طلب الإصلاح واستنفاد للتركة المنقطة التي ورثها ، ولم يكن له هو يد فيها وما تجرى به الأنلام من اتهامات قسلاطين قد تصديق وقد تجبور ، ولكن للوقوف بالنسبة للسلطان عبد الحميد لا يدخل في نطاق النظرة العامة ، ويجب أن يفرد بالنظر ، فلم يستطع خصوم السلطان عبد الحميد أن يحصوا عليه اتهامات واحداً بالخيانة أو الاختلاس أو معاونة غاصب ، أو السماح لدخيل ، أو للراهنه بالوطن والأمة والدولة ولم تسكن له في جانب للطامع الشخصية ومجال الفذات والشهوات مسكان ما ، وكل ما استطاع خصومه أن يقولوه عنه . هو أنه كان ذكناً ثوراً أو حاكماً مستبداً وأنه خلق حركة ضخمة من حركات رصد تنقلات المدوحي ما كان يطلق عليها « التجسس » وتعرف في العصور الحديثة باسم استخبارات هواهي الأمن وهي من أزم ضرورات الأمم وأشدّها أهمية في حاية مصير الدول .

وليست عبارة التجسس أو استخبارات الأمن بالأمر الذي يضير قائداً طموحاً له مخططاته في وجه العدو يعيش في دولة مفتوحة على الغرب المتآمر الطامع في إسقاط المملكة وتقسيمها وتدمير مقوماتها ، وبين أجناس متعددة يستغل النفوذ الغربي فيها كثيراً من أصحاب الديانات والمذاهب ويلتقط الكثير من المسلمين الأتراك الذين يصلون إلى معاودة العسكرية أو المدنية في أوروبا ليجندم ضد دولتهم وضد المخطط الضخم الصاهق الذي أزهج أوروبا جيمها وهو « لواء الوحدة الإسلامية »



وقد اخذنا النفوذ الاستعماري لذلك بديلاً أطلق عليه اسماً خامساً له بريق وإف كانت الوثائق والأحداث قد كشفت عن زيفه من بعد واقعه بمخططات الماسونية واليهودية العالمية وهو ما أطلق لأول مرة على الثورة الفرنسية التي صنعها اليهود : [حربة ، إزاء ، مساواة] كما تكشف من بما لا يدع مجالاً للشك أن الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد كانا هدفين أساسيين للنفوذ الغربي والصهيونية العالمية . وأما هنا نص خطير أورده الدكتور محمد علي الزغبى في كتابه (الماسونية في العراق) لا يحتاج إلى مراجعة كبيرة للاقتناع به وهو : « كان اليهود يرون السلطنة العثمانية وهي شبح مخيف للخلافة الإسلامية ، خطراً على مستقبلهم وقد زار هرثزل السلطان وعرض عليه عروضاً مغرية ثم قرر الحفل السكوني خلع عبد الحميد وكلف فرسان تركيا الحكماء المنتسرين بالإسلام (الدعوة) بتنفيذ القرار فنفذوه سنة ١٩٠٩ .

ولقد قادت الصهيونية هذه الحملة على السلطان عبد الحميد تمهيداً لعزله ، في محاولة لخلق رأى عام ضده في كل مكان وخاصة بين الأتراك من ناحية وبين أهالي الشام بإحداث وفيهم جانب كبير من خصومه وخصوم الدولة والذين أثيروا من ناحية جمع كلمة المسلمين في العالم كله وتصويرها على أنها خطر على وجودهم . أما الاتهامات التي وجهت للسلطان من قتل واستبداد وغيره فقد انكشف زيفها حين أعلنت الحقائق التي أخفيت بمد زمن وتبين أنها لم تكن إلا من صياغة المتأمرين . يقول الدكتور سعيد الأفغاني أحد كتاب سوريا والذي كان في زيارة بلاد الأتراك عام ١٩٥٠ وفي لقاء مع المسئولين بها : « لما ذكر أحدنا الألوف من الأحرار الذين لا يحصون ممن أغرقهم السلطان عبد الحميد في مياه البوسفور انبرى رئيس الهيئة في رقة ولطف طالباً اسمية شمرة فقط من هذه الألوف التي لا نحصى قلما أخرجنا قال : يا إخوتي : لم يثبت غرق إنسان واحد في البوسفور ، لكن كتباً وبحوثاً ظهرت في السنين العشرين أزالته من نفس كل ما كان رسخ فيها منذ الصغر عن عبد الحميد حتى ما حفظناه من قصيدة حافظ :

شبح الحوت من لحوم البرايا وجميع الجنود نحت البنود

والواقع أن هذه الروايات لم تكن وقائع حقيقية بقدر ما كانت عبارات يرددونها أمثال جرجي زيدان وصروف وفارس نمر وسليم سركيس وهم جميعاً من أبناء المحافل الماسونية الذين يتحركون وفق مخطط مرسوم ، أما الحقيقة فقد ظلت مخفية لأنها لم تجد سبيلاً إلى الكشف عنها أو إذاعتها خلال هذا الوقت الطويل . وقد عرف اليهود بالقدرة على افتراء التاريخ بذكائهم وأساليبهم في المشر والمصدقة على النحو الذي استطاع تسميم أفسكار جيلين أو ثلاثة من أجيال المسلمين والعرب ،

فكتبوا هذا التاريخ المفلوط الذي جعل من إخراج عبد الحميد علامة نصر وفرح للسذج قصيري النظر . ولقد استطاع عالم مؤرخ غربي منصف هو المؤرخ « فبري » المجرى أن يكشف هذه الحقائق ولكن صوته ضاع إذ ذاك في وسط الزحام ، وغطت عليه هشرات من الأكاذيب المصرفة في والبال براقه ، والتي كثر ترددها وتعدد واستمر دائماً بعشرات من الصور حتى أصبحت في نظر بعض الناس هي الحقائق ؛ يقول فيها يتعلق بالرقابة : ١ — قيل لي أن للسلطان ألف جاسوس ، وأخبرني آخرون أن له ألف وستائة جاسوس ينقدم الأموال الكثيرة كل شهر ، وأنهم منبثون بين أهالي الاسنانة كلهم من وطنيين وأجانب بل في مخادع النوم وغرف البيوت فلما سمعت هذا الكلام بمحت طويلاً واستقصيت طويلاً ثم رجعت وقد أيقنت أن كل ما سمعته اختلاق ومبالغة وغلو .

٢ — ويقول في اتهام السلطان بالتمصب ومعاداة المسيحيين من قومه وغير قومه : « الحال أنه اتخذ كبير أطبائه من المسيحيين وجعل وزير ماليته دولتو أخو بيان المسيحي الأرمني ، وعهد بكثير من مهام سلطته إلى غير المسلمين من رعيته . وهو أول سلطان من سلاطين آل عثمان خرق الحواجز القديمة ودعا رعاياه المسيحيين هذا ملوك أوروبا وسفرائها وكبرائها ووجهائها إلى ضيافته والجلوس معه على مائدته . وبالإضافة إلى ما فعله لتعليم شعبه وتنوير أذهانهم وتشقيف عقولهم . وإذا استمر الأتراك سائرون على المنهج الذي نهج لهم سلطاتهم ، بلغوا مبلغاً يذكر يوطد أساس ارتقائهم العقلي والاقتصادي . وأن من يقرأ ما كتبه فبري عن حياة السلطان يصل إلى الحقيقة التي أخفاها أهداء السلطان طويلاً عن حاكم يعطى أمور الحكم أهمية بالغة في صمود وصدق يقول : « إنه يقضى يومه من الصبح باكراً إلى أن يقنأ للنساء منها بقضاء أشغال الدولة ، ومهام السلطنة ناظراً في كل قضية مهمة وغير مهمة مستوعباً كل تفاصيلها حتى يكاد يفنى محنته ويعاونه صير الحكومة . ولقد دخلت يوماً فوجدته جالساً على ديوانه عن يمينه عدد من الجرائد التركية وترجمات من الجرائد الأجنبية قد تراكم بجانبه كوما هالياً وعن يساره ما يضاهاها من أوراق الحكومة المعروفة حملها جلالته لمراجعتها والتوقيع عليها . ثم يمرض لمفاهيمه في السياسة العالمية :

« لا أرى أسد من كلامه حيث قال لي يوماً إن أوروبا قد خرقت أرضها ومهدت تربتها أهواماً وهصوراً حتى جاءت بما تراه فيها من مصادر الحرية والمنشآت الحرة ، والآن تطلبون إلى أن أقلم قبيلة من منابت الحرية التي فيها وأغرسها في أراضى آسيا الوهرة الفاحشة . دعوني أتعهد هذه الأرض قبلاً بما يحسنها فأقلم أشواكها وأرفع أحجارها وأقلم تربتها ، وأحضر الألفية لإروائها ثم أقبل تلك القبيلة إليها وأكون أول من يطيب نفساً ، ويقر هيناً بنائها ونضارتها .

ونفى استخدام الجواسيس وقال : ان كل ما سمعه من هذا القبيل اخلاق أو مبالغة وغلو وأصل تلك الأقوال كلها أن رجلا من أهل البلاط يستخدمون الجواسيس مرآ ويرصدون العيون خفية لإجراء دسائسهم ومكائدهم الشريرة وتنفيذ مآربهم الفاسدة ، وجلالته عالم بمكرهم ودهائهم ، ولكن كشف حيلهم وإظهار دسائسهم ومكائدهم ليس بالأمر السهل عليه كما ينوهم الأوروبيون في بلادهم . ا. هـ .

ولم يكن « فبري » وحده هو الذي أنصف عبد الحميد ولكن كثيراً من الباحثين الذين لم يعمون تحت طائلة النفوذ الأجنبي والصهيونية أنصفوه فقد وصفه الأستاذ (أدون جرنور) الأمريكي وكان من أساتذة جامعة بيروت الأمريكية وصفا لا يوصف به إلا أهاظم الملوك وأعداهم فقال : أنه جواد كريم يتم بغير رهينة وليس بين الملوك من يجاربه في الجود على ذوى البأساء ، وقال (ده سوهمس اليوناني) . أنه سائر على خطة محمد الفاتح وسليمان القانوني وقد هضد العلوم والفنون وهو وديع أنيس كريم مستنير زكي الفؤاد هالى الهمة كثير الاشتغال بمهام السلطة سديد الاحكام فيها . وقال صموئيل كولس منبر أمريكا في تركيا عنه : إنه ملك بكل معاني الكلمة ويستحق أعظم مدح على ما يبديه من المقدرة في سياسة بلاده والنوفيق في شتمها المختلفة الأجناس والمذاهب . وفى تقدير شخصية عبد الحميد لم يستطع حتى أشد خصومه ضراوة أن ينكروا عليه عظمته فيقول الدكتور شبلى شميل بعد هزل السلطان :

« لا ريب أن عبد الحميد من أشهر مشاهير هذا العصر وسيمد له التاريخ صفحة كبيرة فقد استطاع أن يعيش كل فترة حكمه سلطانا مطلقا ، ويقول الأخلاقيون أنه تمكن من ذلك لأنه على جانب عظيم من الدهاء والذكاء حتى أجاز على رعاياه وسائر الأمم فوز أغراضه . بل هو في نظر البعض أعظم داهية في هذا العصر ، ولا ينكر عليه أن قواه العقلية مترابطة في مراميها متناسقة في استنباطها ثم قال : عبد الحميد يعتبر اليوم في قوة فهمه أعظم ممثل للذكاء في الشرق القطرى الذى قضت عليه التريبة العلمية الحديثة . وفى سلوكها أعظم ممثل للسياسة القديمة الشرقية المكتسية من تربية الشرق الاجتماعية والتي كان آخر ممثل عظيم لها في السياسة » . ولم يستطع جرجى زيدان وهو من أتباع المحافظين اللاسونية أن ينكر مكانة عبد الحميد السياسية بالرغم من تردده عبارات الاستبداد والتجسس وقتل الألوفا مما كشفنا زيفه : فقال أنه من الرجال الذين واجههم غلادستون وبسارك ، ولقد كان عبد الحميد في ذكائه السياسى ومخلص الوجهة لا تقاذ الحول العمانية وحمايتها ورفض نفوذ الصهيونية

في فلسطين والحيلولة دون تحقيق مشروعات الاستعمار بنمزيقها إنما يقف في وجه هذه للأزمة العالمية الخطيرة التي كانت ترى في بقاء الخلافة الإسلامية والدولة العثمانية عقبة في وجه تنفيذ مخططاتها ، فإذا ما أخاف إليها السلطان عبد الحميد مشروعه في الوحدة الإسلامية الذي وجد قبولاً لا حده في نفوس المسلمين خارج الدولة العثمانية وحقق نجاحاً باهراً ، كل هذا أزعج القوى الاستعمارية ودفعها إلى التمعجل بالتخلص من عبد الحميد بالذات بوصفه قائد هذا الاتجاه وحامل هذا اللواء . وقد جرت للوأمة عليه عن طريق إثارة العناصر من ناحية والابقاع بينه وبين العرب ، وإغراء مجموعة من الأتراك أنفسهم لحل لواء تحرير الدولة العثمانية ، عن طريق دهوين (١) الخماس المناهج الغربية كاملة في الحضارة والثقافة ممّا (٢) إذاحة النعرة الجنسية بالدهوة الطورانية وترتيك العناصر . هذا هو المخطط الذي كان السلطان عبد الحميد يقاومه ، ويمارضه ويحول بينه وبين إفساد مخططة ودهوته التي كانت قد حققت نجاحاً كبيراً وأوشكت أن تؤتي ثمرتها المرجوة . ولقد كانت سعة أفق السلطان عبد الحميد وذكائه وبرودة أعصابه هي التي مكنته من السيطرة بالأصرار والقوة هذه السنوات الطويلة ودر كل مناورة أو مؤامرة . ويصور هذا المعنى الجنرال جواد رفعت وهو ضابط تركي من أصدق الأتراك إيماناً بالإسلام وبمخاض الحقيفة في ذلك الركام الضخم من الأكاذيب التي لفقها النفوذ الاستعماري والصهيونية فيقول : أن الشخص الوحيد في تاريخ الترك جميعه الذي عرف حقيقة الصهيونية والسبائانية وقد أضرارها على الترك والإسلام وخطرهما الحديق تماماً وكافح معها مدة طويلة بصورة جديدة لتحديد شروطهم هو السلطان العثماني الثالث والثلاثين السلطان عبد الحميد الثاني فقط ، إن هذا السلطان التركي العظيم كافح هذه للمنظمات الخطرة مدة ثلاثة وثلاثين سنة بذكاء وهزم وبإرادة مدهشة جداً كالأبطال والكفاح لمدة طويلة كهنه مع هؤلاء تعتبر فوزاً عظيماً نجاح شبيكتهم للبنبنة في جميع أنحاء العالم ومنظلاتهم التي أحدثوها في الأرض ووسائل وأسلوب دهاياتهم واقتراءاتهم الكاذبة الشنيعة من هنا قاوم رحة الله في كفاحه هذا إلى آخر حياته وأن شرف الكفاح لمدة طويلة كهنه مع هذه المنظمة الحقودة لحساب الأتراك والإسلام لم يكن ميسراً لأحد في التاريخ سوى السلطان للذكور فقط . ولقد كذبت الأحداث ما زيفوه من اتهام حول رباطة جأش السلطان ، فقد ثبت في موقفين حاسمين كيف تصرف السلطان في شجاعة فائقة : أما أحدهما فحين ألقيت عليه قبيلة وهو في طريق هودته من صلاة الجمعة واعتزت الجموع وثبت السلطان على نحو هن للراقبين والاشعراء .

أما الحادث الثاني فندع خصاً من خصوم السلطان يرويه ، وهي المؤلفة (للاونان) صاحبة كتاب (عبد الحميد ظل الله على الأرض) تقول :

« في ١٩٠٤ في حفل الاستقبال السنوي في قصر ضوليفشة حيث كان (السلطان) يستقبل ضيوفا من أنحاء العالم وقع زلزال شديد فتحطمت النوافذ وانشقت أرض القصر، ونهاوت التربات من السقوف، فقفز الوزراء والباشوات من النوافذ واستولى الذعر على كل الموجودين، ما عدا عبد الحميد الذي ظل واقفاً منتصباً رابط الجأش وسط الغرفة المتأرجحة ». هذا وقد عمد كل الذين كتبوا عن عبد الحميد أن يصفوه بالضعف والمرض والوهن وأنه على وشك الموت وقد كذبت الاحداث كل ما قالوا فقد هاش بعد هذه ١٩٠٩ إلى عام ١٩١٨ عشر سنوات كاملة، ولو كان كما يقولون كما هاش كل هذه السنوات التي كان خلالها في أقصى درجات البهظة والوهن والوقوف على الاحداث ومراقبتها .

(٤)

عبد الحميد والصهيونية

إن موقف السلطان عبد الحميد من الصهيونية لا يزال من أشرف المواقف وأبرزها في حياة هذا الرجل الذي ظلم التاريخ الزائف المعاصر طويلاً، حتى انطوى أكثر من خمسين عاماً قبل أن ينكشف الستار عن بعض الحقائق التي تبرىء ذمة هذا الرجل، وتضفي في مكانه الحق في مواجهة أخطار الصهيونية وقوتها الخطيرة : للماسونية، وهذا بالإضافة إلى مؤامرات النفوذ الأجنبي الاستعماري من روسيا وفرنسا وبريطانيا الطامحة في تمزيقها وانزاع أجزاءها الأوروبية والعربية جميعاً، ولقد ترددت روايات كثيرة حول موقف عبد الحميد من الصهيونية، من لقاءات متعددة، أو محاولات متوالية لأغراء السلطان أو تهديده أو التوسط لديه من أجل إتاحة الفرصة للصهيونية لإقامة معسكرات لهم في فلسطين وتقديم عروض مغرية سخية للدولة وخطبة الخليفة نفسه، وكلها تجمعت على الموقف البالغ التقدير والشرف والكرامة من السلطان إزاء هذه المغريات مما أغلق الباب نهائياً أمام الصهيونية وأقدم كل أمل فيه وأياسهم منه نهائياً فسكان قرارهم بالقضاء عليه، هذا القرار الذي نفذ رجال الماسون الأتراك الذين كانوا يتجمعون تحت أسم تركيا الفتاة أو الاتحاد والترقي وكانوا أدان في يد الصهيونية العالمية، في نفس الوقت الذي كانت الصهيونية والاستعمار تقدم لتولي زمام الادور في تركيا، خدعة وتآمراً على تصفية هذه الامبراطورية الضخمة تصفية نهائياً على مرحلتين : مرحلة ما بين ١٩٩٠ و ١٩١٨ عن طريق الاتحاديين، وفيها استولى الاستعمار على البلاد العربية وفيها بعد ذلك على أبدي السكاليين بالغناء الخلافة وفصل تركيا نهائياً عن العالمين العربي والاسلامي والحاقها

باوريا ، والابقاء هليها مضغوطة حتى لانكون هاملا من هوامل الخطر في وجهه أوربا .
وهناك لقاعان ترددا كثيراً في كتابات للورخين والباحثين : (أولاً) انشاء اليهود الثلاثة
(مزراحي قراصو دجاك — ليون) الذين قدموا إلى قصر يلدز ، وقدموا عرضاً بوفاء ديون الدولة
العثمانية وبناء أسطول لحماية الامبراطورية العثمانية وتقديم قروض بخمسة وثلاثين مليون ليرة ذهبية
دون فائدة لإعاش مالية الدولة ، وذلك مقابل إباحة دخول اليهود إلى فلسطين في أي يوم من أيام
السنة للزيارة والسباح لليهود بإنشاء مستعمرة ينزل بها أبناء جلدتهم قرب القدس . (ثانياً) لقاء
تيودور هرتزل ومعه الحاخام موشى ليو (حاخام اليهود في الدولة العثمانية إذ ذاك) وقد استقبلهما
السلطان ومعه منهما ما هرشاء وكان يدور حول السماح لليهود بشراء بعض الأراضي التي ليست
بملوكة لأحد في فلسطين على أن يدفع بدلها نقداً ومع الزيادة وبالذهب . ويقول مستر كريس أن
هرتزل قدم فكرته وهي أن الصهيونيين يتعهدون لقاء نزول اليهود للضطهدين في أنحاء العالم
بفلسطين أن يدفعوا المدين العثماني البالغ ٢٢ مليون ليرة إنجليزية ويتعهدون كذلك ببناء أسطول
كامل للدفاع عن أراضي الدولة العلية .

(ثالثاً) وهناك محاولة أخرى قام بها السفير اليهودي غوش ، وهي سابقة في التاريخ على المقابلة
التي قام بها اليهود الثلاثة أشار إليها الصحفي البريطاني كريبي في مقابل أرسل به إلى جريدة أقسام
التركية . وقد تمت هذه للمقابلة (١٩٠٠ / ١٩٠١) قال د كان الدكتور هرتزل في ذلك العهد رئيس
تحرير القسم الأدبي من جريدة (نيوفري) في فينا فأرادني أن أسمى له في مقابلة السلطان عبد الحميد
بعد أن بسط لي بحزن شديد كيف أن غليوم الأول والبرنس دي بيلوف خدماء لما رافقاهما في رحلته
الامبراطورية إلى فلسطين ، فقد وهذه هذا الأخير أن يقدمه إلى السلطان ، فلما وصلوا إلى الاستانة
اكتفى البرنس بأن عرفه إلى حزب باشا العابد .

وقد أشارت مجلة المشرق : إلى هذه للمقابلة . فقالت : « لما كان اللورد غوشي الإسرائيلي سفيراً
بالاستانة عرض على الحكومة السلية أن تجعل تلك النواحي (ملقاد ومؤاب وهجر الأردن) التي
مساكنها نحو ستمائة ألف هكتار مستعمرة لليهود تحت نظارة الباب العالي يسومونها كما يشاؤون ،
بشرط أن يدفعوا لمولانا السلطان مبلغاً عظيماً من الدراهم لا يقل عن بضعة ملايين من الفرنكات .
غير أن الدولة السنية لم تلب دعاء غوشي وأغنياء اليهود فذهبت آمالهم أدراج الرياح وكانت هائتهم
أن يهدوا الطريق لأبناء جلدتهم لإنشاء مملكة مستقلة بالأراضي المقدسة كما كانت قبل للشيخ » .

وفي هذه للرحلة بالقات ، وكان ذلك خلال حكم السلطان عبد الحميد ، تحدثت صحف الأستانة مواجهة أنظار الحكومة والأهالي إلى هذا الخطر ، ونشرت جريدة معلومات (ونقلت منها جريدة نمرات الفنون) عدد صفر ١٢٣٤ ١٣٥ حزيران ١٨٩٩ م تحت عنوان (اليهود في سوريا وفلسطين) « . . لليهود ميل شديد تقادم فيهم لمجاورة القدس ، لأن تلك الأقطار كانت مهداً لاحتلاء مجدهم في الأزمنة الغابرة ، وقد جذبتهم معتقداتهم الدينية إلى مجد أسلافهم ، فقام الكثيرون على المهاجرة إلى أنحاء القدس ونوطن فريق منهم في تلك الجهات وصار لهم قسم كبير من الأراضي وما زال الكثيرون يرهبون في الهجرة وشراء الأراضي وهذا مما يضر بصوالم الدولة والأمة معاً ، إذ تصبح القدس في يوم من الأيام بين اليهود فقط ، وقد سمعنا أن الدولة شرعت بالخطر فأصدرت أمراً إلى منصرف القدس ، حظرت فيه بيع الأراضي الأميرية إلى أولئك للمهاجرين كما نصحت الأهالي بأن يحافظوا على أراضيهم ولا يبيعوها لليهود . . وبمنا أن نعرف بعد ، ماذا كان موقف السلطان عبد الحميد وإجابته الحاسمة لمثل هذه المحاولات للتسكرة ، لقد وقف السلطان عبد الحميد ، أشرف موقف ورفض رفضاً باتاً كل ما عرضه اليهود بل رفض وساطة أميراطور ألمانيا وهو نصير تركيا في ذلك الوقت في وجه خصومها الفرنسيين والإنجليز والروس . وهذا ما قاله السلطان عبد الحميد رداً على ذلك بالنص :

« ليحتفظ اليهود بأموالهم والدولة العلية لا يمكن أن تختبئ وراء حصون بليت بأموال أهواء الإسلام . » . « لست مستعداً لأن أتحمّل في التاريخ وصمة بيع بيت للقدس لليهود وخيانة الأمانة التي كلفني للمسلمون بحمايتها . » . « إن ديوان الدولة ليست طاراً لأن خيرها من الدول هي الأخرى مدينة مثل فرنسا . » . « إن بيت المقدس قد افتتحه للمسلمون أول مرة بخلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولست مستعداً أن أتحمّل في التاريخ وصمة بيعه لليهود وخيانة الأمانة التي كلفني للمسلمون بحمايتها . » . وقد أورد هرتزل في مذكراته التي طبعت بالألمانية في تل أبيب سنة ١٩٢٤ (يراجع للنص) قصة هذه المحاولات وقال بعد فشل المحاولة الأخيرة : « أن السلطان بعث له رسالاً عاليًا ومعه خطاب جاء فيه : بلغوا الدكتور هرتزل ألا يبتذل بعد اليوم شيئاً من المحاولة في هذا الأمر (التوطن بفلسطين) فإنني لست مستعداً لأن أتحمّل على شهر واحد من هذه البلاد لتذهب إلى الغير فالبلاد ليست ملكي بل هي ملك شعبي ردي ترأبها بدمائه فليحتفظ اليهود بعلايتهم من الذهب . » . كانت هذه العبارات الشريفة للفاطمة الصريحة كفيّة بأن تدفع الصهيونية العالمية وأداتها للفاشية إلى تنفيذ الخطة التي انتهت بمزل عبد الحميد بعد مؤامرة قتله التي فشلت . وما تزال هذه العبارات نبواً مضبثاً ، وتاجاً لامعاً ، وشرفاً ما بعده شرف يتوج جبين عبد الحميد ويرد عنه كل ما وجوه حوله من إشاعات

وشبهات من أجل تخطيطه في نظر العالم وتصوير نهايته على أنها كانت من صنع قومه وأهله وشعبه ،
حسباً فهم الناس وردد الكتاب في مؤلفاتهم دون وهي — وقد كنا خدعنا مثل غيرنا بالوقائع
المزيفة قبل العقد السادس من هذا القرن حيث ظهرت بروتوكولات صهيون وانكشف الستار عن
مخططات مؤامرة قلب الدولة العثمانية وإنزال السلطان عبد الحميد بالذات كخطوة أولى لتنفيذ هذه
الجريمة البشعة التي سنوإلى رسم حلقاتها في هذا الكتاب ، لنكشف الستار بذلك عن المؤامرة العالمية
لتدمير الرابطة العضوية بين العرب والإسلام بمد أن ظهر عدد كبير من الوثائق والمقررات والأسانيد
التاريخية التي تلقى الضوء على الحقائق التي كانت مخبوءة في المواقف الغامضة التي سيطرت عليها
الماوسونية اليهودية وحجبتها ردحا من الزمن عن الصحافة والأقلام حتى أتيح لها بشكل أو بآخر أن
تفسر وأن تصل إلى الناس وأن تشكل في مجملها خطاً واضحاً بعيد الأثر في إعادة تفسير التاريخ
الإسلامي المعاصر وإلقاء الضوء على كثير من الفجوات والغوامض ، وكشف الحقائق التي يجب أن
تكون بين أيدي الباحثين في فترة من أدق فترات حياة العالم الإسلامي والأمة العربية ، ولقد كان
واضحاً أن النفوذ العربي بالاشتراك مع الصهيونية العالمية كان يعمل منذ وقت بعيد على تدمير الدولة
العثمانية ، ولكن اختلاف الدول الأوروبية على التنازع وارتفاع نفوذ بعضها على البعض ، وحرص
بريطانيا على ألا تحصل روسيا على نصيب الأسد كان يؤخر هذا الإيجاز ، غير أن الصهيونية العالمية
هندما أحست بأن طريقها إلى بيت المقدس وبناء هيكل سليمان وهو العمل الذي ترتب له مراراً على
نحو دقيق ومتصل من خلال المنظمات الماسونية إبتداء من عام ١٧٩٠ تقريباً بدأت بإنشاء أول محفل
ماسوني في بريطانيا الزاحفة إلى العالم الإسلامي للسيطرة عليه ، وعندما قل عبد الحميد كلمته الخاسمة :

« قولوا لذكر هرتزل لا يتصل بي مرة أخرى » كان ذلك حكماً من السلطان عبد الحميد على
نفسه بأنه أصبح صريع الماسونية العالمية وضحية من ضحاياها ، وقد كان يعرف هو الكثير عن هذه
المخططات ولكنه لم يبال ذلك عندما جاء وقته من أجل (شرف الكلمة) وبراءة التاريخ الذي سجل
له في هذا الوطن أروع صفحة وأنصم كلمة . لقد حددت الصهيونية العالمية موقفها تماماً من السلطان
عبد الحميد ونفذته على مراحل ، المرحلة الأولى : تلك الصفحات العاصفة من الدهاوة ضده وتصويره
وتصويره بصورة المستبد القاتل الذي يلقي بضحاياه في البسفور وأطلقت عليه اسم السلطان الأحمر
إشارة إلى الدم والقتل وظلت تنشر ذلك في كل مكان واختيرت مصر مقراً أساسياً لهذه الدهوة
فقامت المقطم والحلال وروايات الحلال ومجلات سركيس وفرح أنطون وغيرها بالحديث عن الاستبداد ،
واستدلت كفتابات عبد الرحمن السكاكي في وقت كان الخلاف قد وقع عن السلطان والخديو عباس ،

ثم امتدت هذه الحركة إلى باريس ولندن وحمل لواءها للمسيحيون اللبنانيون . وفي مقدمتهم : صابونجي ومراش وعازوري حيث أنشأوا الصحف في العاصمتين وظلوا يحملون عليه ويسربون كتاباتهم إلى البريد العربي والتركي ليصل إلى أيدي المسلمين والعرب في بلاد المملكة العثمانية . وقد رد الباحثون للنصفون هذا الإتهام ، وما بذلوه في سبيل إشاعة الكره ضد السلطان في كافة أنحاء العالمين الإسلامي والمسيحي إلى نص وارد في البروتوكولات للمادة الخامسة : يقول : « وجوب تلقيق الوقائع بحق الأشخاص المحترمين لدى الناس المحسط من كرامتهم وكسر اعتبارهم ومن هنا كافي ذلك المحطط الواسع الدقيق في تلقيق الوقائع ، للوهمة من قضايا القتل والإعدام والإحراق والاغراق » مما لا يزال يصدقه الكثيرون لعدده سنوات دون أن يتعرض له أحد بالنصحيح أو التكنذيب . (ثانياً) استيعاب للمنظمات والجمعيات السرية وخاصة منظمة الاتحاديين (تركيا الفتاة) ودعها عن طريق أموال الدعوة في سالونيك وفتح أبواب المحافل للاسونية الداخلة في حماية القنصليات ضمن قوانين الامتيازات الأجنبية المعهودة حتى يكونوا في مأمن من السلطات التركية ودفع هذه للمنظمات إلى العمل في الخارج أيضاً .

(ثالثاً) محاولة تدمير مؤامرة إغتيال السلطان التي قام بها بعض الأرمن . ويروي جواد رفعت هذه المحاولة فيقول : أن للاسونية الصهيونية عثرت على يهودى معروف بأعماله المهدامة في الثورة الروسية ، فانفقوا معه واستطاع هو أن يمتز على بعض الأرمن ، الذين أخروهم بأن اغتيال عبد الحميد سيحقق لهم قيام (أرمينيا الكبرى) فألقوا قنبلة على موكب السلطان وهو في طريقه لصلاة الجمعة فأدت إلى استشهاده رجلين من رجاله ونجا السلطان الذي كان قد تأخر بضع دقائق . ولقد ترددت في كتابات جرجى زيدان ومرروف والكاكبة أولاً ولكن وغيرهم عبارات تفيض بالخرى عن ما وصفوه بضعف السلطان وخوفه وتوجسه وغير ذلك مما لفقوه ليبرروا به ما قالوه من إتساع نطاق الرقابة وإجراءات الأمن ولكن ماذا كان موقف السلطان حقيقة من مثل هذا الحادث الذي وقع في مواجهة المراقبين والسفراء ومندوبى الصحف وكالات الأنباء : لقد دهش الجميع لمدى رباطة جالس السلطان وخزمه ، وجراته ، فقد وقف صامداً دون أن تبدو على وجهه أى علامات الاضطراب وبصور ذلك جواد رفعت فيقول : « إن الشجاعة وبرودة الدم اللتين أظهرها السلطان في أثناء وقوع الحادثة قد حيرتا كافة رجال السلك السيامى الأجانب الذين كانوا يشاهدون المراسم من دائرة القشريفات ، وأظهر لأملاً عاطفية كذب الدعاية الصهيونية القائلة بوجود « التوجس في السلطان » والمعروف أن الصهيونية العالمية عندما هجرت في مجال الاغتيال ، رتبت خطتها على أساس تدبير انقلاب عسكري فيه

كثير من الخداع والتأمر . وفي مواجهة الموقف اتخذ السلطان هذه إجراءات حاسمة : (أولاً) أمر السلطان باتخاذ إجراءات حاسمة بشأن الوجود اليهودي في فلسطين والقدس ، ووضعت حكومة الاستانة قانون (الجواز الأحمر) وكان خاصاً بكل يهودي يدخل فلسطين بقصد السياحة أو الزيارة كما منعت امتلاك اليهود للأرض أو استيطانهم فيها . وأرسل السلطان إلى (منصرف القدس) ليقوم بالتجري من اليهود في فلسطين ولا سيما في القدس ، ولا يبقى في الأرض المقدسة أحداً من الطائفة اليهودية غير الذين قدموا إليها بقصد الزيارة العابرة ، وألا يسمح هؤلاء باللكوث فيها إلا بمقتدار الزمن المحدد لهذه الزيارة . (ثانياً) هرز السلطان دهوة إلى الوحدة الإسلامية واتخذ من العرب هصبية له ، وقد اعتمد في هذا المشروع أساساً على خير الدين التونسي وجمال الدين الأفغاني ثم قرب إليه فريقاً من مشايخ الأمصار العربية من أمثال : أبو الهدى الرفاعي من سوريا ، محمد ظافر من الجزائر ، أحمد القيصري من المدينة ، فضلاً عن أشراف مكة وعدد كبير من العلماء والأشراف كما عهد إلى بعض أبناء زعماء المسلمين والعرب بالمناصب السكبرى في العاصمة : أحمد هرز العابد ، شفيق المؤيد ، شفيق الكوراني ، سليم ملحمة ، نجيب ملحمة ، شكرى الأيوبي وكل هؤلاء من سوريا ولبنان وطالب النقيب وأحمد الزهير من العراق . كما وضع عدداً من ضباط العرب في درجات عالية ، وكان في عداد ياورانه : فريقان من العرب هما محمد وعي الدين ولدا الأمير عبد القادر الجزائري وفؤاد باشا المصري كما اتخذ من أبناء المروية حرساً خاصاً له ألبسه اللهاثم الأخضراء وأنزله حول قصره وصاهر السلطان العرب فزوج أميرتين من أسرته من شابين رقاها إلى رتبة (دامار) أى صهر ، هما عبد الحميد بن شريف على حيدر وصالح ابن خير الدين التونسي ، وإنشأ مدرسة المشائو التي فتحت أبوابها للعرب والمسلمين في كافة الأقطار .

(ثالثاً) أسرع في تمام الخط الحديدي بين دمشق والحجاز . وكان هذا العمل من أخطر أعماله بعد الدهوة إلى الوحدة الإسلامية الجامعة تحت لواء الخلافة ، فقد هز الدوائر الاستعمارية الصهيونية . وكان قد تكشف له أن اليهود ربما سيخرجون جنودهم إلى عراق البحر الأحمر مثلاً كجدة ويثيوبون بسد قناة السويس يوماً ما لسبب عدم نزوله على رغبتهم ، من أجل ذلك اهتبر أن إنشاء الخط الحديدي الحجازي ، عملاً استراتيجياً هاماً لمواجهة هذه الاحتمالات لكي لا توثق يد الخلافة في حالة قيام الانجليز بمثل هذه المحاورة . وهو من ناحية أخرى عامل هام في تمكين المسلمين بين أداة فريضة الحج ، وتأمين المواصلات مع البقاع المقدسة . (رابعاً) كان من الطبيعي أيضاً أن ينظم السلطان إدارته على نحو معين ويوسع دائرة استخباراته ليعرف إلى أي مدى تتحاول الصهيونية العالمية والاستعمار توجييه

الضربة إليه وخاصة بعد محاولة اغتياله وليس في هذا من بأس على السلطان ولا على الدولة إزاء هذه المؤامرات الضخمة التي انكشفت بعد ذلك والتي لم يكن في الإمكان الكشف عن أسرارها فتناس . أما بالنسبة للعمليات التي وجهت إلى شخصية السلطان عبد الحميد فقد بايت بالفشل جميعها . فلم تكن مكاة عبد الحميد في نظر العالم الإسلامي موضع ريب أو شك بالرغم من كل ما أثير حوله من شبهات وحيلات ، فقد كان أمل المسلمين وكانت خطته التي أهلتها قد لقيت رضا وتقبلا لا حد له ، لأنها جاءت متسجمة مع طبيعة النفس المسلمة والمزاج المسلم ولم تكن متعارضة معها على النحو الذي جاء بعد دهوات الاقليمية والتعصب الجفسي والمذهبي ، ولذلك فإن الذين يقولون إن عبد الحميد كان يسبح ضد التيار كانوا مخطئين ، لقد كان يسبح في الاتجاه الصحيح ، ولم يكن من اليسير أن تتم محاولة تطويقه لو أنه قضى على خصومه في الداخل ، الذين كانوا سلاح الصهيونية في القضاء عليه ، أما بالنسبة للدول الأوروبية فقد كان قادراً على أن يحطم كل خططهم وقد حطمتها فعلاً وضرب بعضهم ببعض الآخر وبلغ في ذلك ما وصفه جمال الدين الأفغاني بدقة حين قال : « أعظم ما أدهشني ما أحدثه من خفي الوسائل وأمضى العوامل كي لا تنفق أوروبا على عمل خطير في الممالك العثمانية ويربها هيئاً محسوساً أن تجزئة — السلطنة العثمانية لا يمكن (أن يتم) إلا بخراب يعم الممالك الأوروبية بأسرها ، ومعنى هذا أن جمال الدين الأفغاني وهو السياسي الداهية قد عرف من محادثاته مع عبد الحميد كيف كان هذا الرجل يواجه خطر النفوذ الأجنبي وليست ثقة المسلمين في السلطان عبد الحميد ، وضع شك فقد شهد بها خصومه وأنصاره على السواء ، وهي الصخرة التي حاول الاستعمار والصهيونية تحطيمها خلال حياته وبمدها دون جدوى .

ولقد حاولت جريدة التيمس أن توجه للسلطان عبد الحميد بعد إنشاء الخط الحديدي بعض مموها حين قالت . كان عبد الحميد يرى أن إنشاء هذا الخط ، من شأنه أن يعزز المنصب الذي كان يدهيه لنفسه من أن الزعيم الروحي للمسلمين ، وكان يخاضعه شعور قوى في نفسه أن إنشاء هذا الخط الحديدي استراتيجيية عظيمة ، لا سيما إذا اتصل هذا الخط بالخطوط الحديدية للؤدية إلى بلاد الأناضول وقد هلق هذا الاستاذ زين زين فقال : ما كان للسلطان أن يخاضعه شكوك ومخاوف من رعاياه العرب مادام الأمر يتعلق بالخلافة ، فلم يكن يخاطر في بال انفايلية الإسلامية العربية أن تعمل على تفويض أركان الخلافة لأن ذلك كان بمثابة تفويض لأركان الإسلام ذاته . وقال : لقد كان قادة الفكر العرب ينظرون إلى للمؤامرات والدسائس التي كانت تهر كها الدول الأوروبية ضد الامبراطورية العثمانية نظرة شك وخوف من أن يؤول الأمر إلى تجزئة الامبراطورية العثمانية واققسامها فيما بينها

كما قد يؤدي إلى زوال الخلافة وبالتالي إلى انفصال العرب عن الامبراطورية الإسلامية . ولقد هزت خطة عبد الحميد الدوائر البريطانية بالذات حتى ليقول سفير بريطانيا لدى الباب العالي في تقريره عام ١٩٠٧ عن خطة الجامعة الإسلامية التي حمل لواءها السلطان عبد الحميد عشر سنوات (من ١٨٩٧ — ١٩٠٧) . يمكننا أن نقرر بأن بين حوادث السنوات العشر الأخيرة على الأقل يوجد عنصران بارزان في الموقف السياسي العام : (أولاً) خطة السلطان الماهرة التي استطاع أن يظهر بها أمام ٣٠٠ مليون مسلم في ثروت الخليفة الذي هو الرئيس الروحي في الدين الإسلامي وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الديني وغيرته الدينية ببناء سكة حديد الحجاز ونتيجة لهذه السياسة أصبح حائزاً على خضوع رعاياه خضوعاً أسمى (ثانياً) علاقة عبد الحميد بالامبراطور ألمانيا (غليوم الثاني) الذي زار تركيا ١٨٩٨ وكان له دوره في بناء خط سكة حديد الحجاز . والواقع أن السلطان استطاع بدعائه السياسي البارع أن يحطم الحلف الأوربي المقدس الذي تجمع من (روسيا وفرنسا وإنجلترا وألمانيا) على الدولة العثمانية ، وذلك بأن عقد صلات المودة مع الامبراطور غليوم فتعظم ذلك الحلف ، وبدأ خطر جديد يمتدح من بريطانيا على القيام بعمل مع حلفائها ضد السلطان والدولة العثمانية . ولا شك أن هذه الأعمال المتعددة :

أولاً — حركة الجامعة الإسلامية . ثانياً — إنشاء الخط الحديدي . ثالثاً — الاتفاق مع امبراطور ألمانيا . رابعاً — رفض مطلب الصهيونية : كانت بميدة المدى في التمجيد والقضاء عليه رغم كل ما أحاط به نفسه من خطط وحماية خاصة إذا أضيفت إلى ذلك ، تلك الكلمة التي كان عبد الحميد يحتفظ لها للوقت المناسب والتي ترددت الشائعات حولها كثيراً في حديد من أحداث السفراء والدبلوماسيين وهي ، رفع لواء النبي والدعوة إلى تجميع المسلمين حوله : يقول العلامة محمد جميل بهم وهو من معاصري هذه الفترة : كنا نسمع أثناء وجودنا في المدارس أن السلطان (عبد الحميد) سيشرع العلم النبوي في اليوم العصيب فيزحف المسلمون وراءه من كل صواب ، كما أشار إلى ما لبيت مال المسلمين من فريضة على حجاج بيت الله ، ولا بأس أن يكون أداء تلك الفريضة بتقديم الجواهر والأحجار الكريمة وكلها ومن أوامر الخليفة يوم يضطر لإخراج العلم النبوي ودعوة المسلمين للجهاد وكل هذا كان يزداد الاستمرار ويزدهجها ، حتى إن انكثرا وفرنسا اللتين كانتا تحكيان أكبر عدد من المسلمين شعرت بحرج الموقف إزاء التفاف العالم الإسلامي حول الخليفة وحسبت له ألف حساب ولا سيما حينما أيدته ألمانيا للعدو الدودة لهذه الدو وخاصة عندما منح الخليفة ألمانيا امتياز الخط الحديدي الذي يصل الأستانة ببغداد وينتهي بمخليج فارس . لقد كانت خطة

السلطان عبد الحميد ومشروعه بإنشاء الجامعة الإسلامية من الأعمال الكبرى التي تمثل فلسفته ومفاهيمه وأيدولوجيته التي عاش لها حياته في الخلافة والسلطان ، وعلى الرغم من أهمية الخطوات التي اتخذت والتحديات التي واجهها هذا المشروع فقد خرس كل الكتابات التي قدمها الذين أرحموا السلطان وكشروا عنه ، من استعراضها أو مجرد الإشارة إليها لأنها من الأعمال المشرفة التي يجب حجتها وإنكارها فإدراكها عرض لها بعضهم تناولها من حيث هي عمل معارض للمصر أو للعناصر في المملكة أو من جهة اعتراض فرنسا وإنجلترا عليها كأنما كان على السلطان أن يرضى هذه الدول المتآمرة على الدول العثمانية والمسلمين بتقبل أهواءهم ووجهات نظرهم والتسليم لهم . ومن الحق أن يقال أن السلطان عبد الحميد يسلّم حتى آخر لحظة وهو يعلم كل المؤامرات التي تحاك من أجل قتله أو انتزاعه من مكانه ، خير أن الكاتبة المذكورة الماوتلن في كتابها (عبد الحميد ظل الله على الأرض) وبالرغم من تجاهلها البغيض شأن أبناء جنسها إزاء الاسلام والعرب والدولة العثمانية قد هرست للجامعة الإسلامية مشروع عبد الحميد في بضع صفحات من كتابها على ذلك النحو المعروف من الكتابات الأوروبية ذات الموى والتمصب ، فقالت أن نداء عبد الحميد للوحدة الإسلامية كان ضد أمم الأرض الكبرى ، وضد تيار المادية الغربية الجارف ، وقالت إن مذهب الجامعة الإسلامية ذاته لم يكن جديداً فقد كانت هناك الوهابية والمهدوية .

وقالت إن برنامج الجامعة الإسلامية تضمن طبع آلاف النسخ من القرآن الكريم جرى توزيعها في أنحاء البلاد ، وأن الدعوة كانت بمثابة تكليف مبادئ الإسلام بحيث يتفق مع الاعتراض السياسية . « ولا شك أن الكاتبة تجهل مفهوم الإسلام الحقيقي ولذلك فهي تتخطب فيها تقبول . وتقول الكاتبة أن السلطان عبد الحميد وصف تركيا بأنها « نافذة الإسلام » النافذة التي سيشتع منها النور الجديد ، فقد كان رمزاً للإسلام والشرق ، وقد وعد بقيادة المسلمين إلى مستقبل أفضل ، وكان أول من فجر بعد مائتي عام من الهزيمة والتمهقر على تمسدى العالم الغربي . « وقاله السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٠ حسباً أوردته الكاتبة : « يجب أن لا ندع الغرب يبهتنا فإن الخلاص ليس في المدينة وحدها » لقد أدى تعلقه بهذه الآراء التي كان يرددها باستمرار إلى أن يؤمن بها الناس وبه ، وقد أخذت تصل إليه آلاف الخطابات والوثائق الرسمية من كل أطراف العالم حيث كان يعيش المسلمون وفيها يعلن مئات الملايين ولاهم للسلطان وتعلقهم بحركة الجامعة الإسلامية . وتقول : لقد كان يرى أن واجبه الأول هو إقناع آسيا بتفاهة المدينة الأوروبية وإنشاء عصر جديد من عصور الاستقلال في الشرق وأشارت إلى أن الدعوة الجديدة إلى الحركة الإسلامية استغفلت مطالب طائفة للانفاق على

تفلات الدعاة ، وعدد من المبشرين الكبير ، وللأسافات الكبيرة التي كان عليهم أن يقطعوها للوصول إلى الجاهات الإسلامية للتفرقة وقسب كان السلطان ينتظر اشتداد ساعد حركة الجامعة الإسلامية فيستطيع أن يتحدى أوروبا وأن تعاونه مع الألمان قد جر عليه خصومة فرنسا وإنجلترا .

(٥)

عبد الحميد وجمال الدين

حاولت المحطات الصهيونية والاستعمارية أن تتخذ من شخصية جمال الدين الأفغاني موقفاً مقابلاً للسلطان عبد الحميد فكان مما رددته : أولاً : أن جمال الدين الأفغاني هو صاحب فكرة الجامعة الإسلامية وأن السلطان عبد الحميد اقتنص الفكرة وحولها لحسابه لتأكيد وجوده ونفوذه . ثانياً : أن السلطان عبد الحميد كان حربياً على أنه يجذب إليه كل شخصية لامعة من شأنها أن يتجمع الناس حولها حتى ينفرد هو بالسلطان ، ثم يمتجر هذه الشخصية أو يقتلها . وكذلك وصفت علاقة جمال الدين بالسلطان عبد الحميد ، فقيل أن السلطان ظل يفرى جمال الدين بالحضور إلى الأستانة فلما «استسلم» جمال الدين أقامه السلطان في قفص من ذهب وحال بينه وبين الاتصال بالناس وليس في ذلك كله الذي روى شيء من الحقيقة ، فإن محمد الخزومي باشا يذكر في كتابه (خاطرات جمال الدين) أنه كان مصاحباً للأفغاني طوال مدة إقامته في الأستانة وإلى آخر لحظات حياته وأن كثيراً من أصحابه كانوا على اتصال به دون انقطاع والواقع أن هناك خلافاً واضحاً بين شخصية عبد الحميد وجمال الدين من هذه وجوه :

(الاولى) من حيث أن الأول سلطان حاكم والثاني ، صالح فيلذوف . (الثانية) من حيث أن السلطان كان غاية في ضبط النفس وهدوء الأعصاب والقدرة على مواجهة الأمور بالحكمة بينما كان جمال الدين الأفغاني دموياً لازاجاً عنيفاً ، يشتغل لأقل الأمور ، ويشير الغبار من أجل أبسط المسائل ، ولا يصبر ولا ينتظر . وتكشف عن هذا كله تلك الأحداث التي وقعت بين السلطان والسيد جمال الأفغاني ومما يرويه في هذا الصدد محمد الخزومي في كتابه خاطرات جمال الدين «خف جمال الدين يوماً وطلب من السلطان لأحد الأخوان المصريين للوجودين في الأستانة ممن كان يردد على السيد — رتبة وزيادة راتب ، فوعده السلطان بأداء ذلك فأتى جمال الدين وبشر الرجل بمحصول طلبه .

مضت أيام ولم تصدر الإرادة السلبية بما طلبه فكاتب السلطان يذكره ويسلمجزء وعده، ولسكن حيثما
انتظر، فأحتم جمال الدين غيظاً وأكبر الأمر، وطلب خطاً أن يؤذن له بالمتول — وهذه أول
مرة طلب بها الإذن بالمقابلة، وإذا كان السلطان هو الذي يدعو جمال الدين إليه. فواصل الطلب
بالاستئذان حتى أصرح الحاجب (القرنا) يدعو السيد الحضور فسار وهو يكاد يتميز من الغيظ،
رخصتنا سوء العاقبة، من تهور جمال الدين مع السلطان لمطلب تافه ودخل على السلطان فاستقبله
حسب هادته بوجه طلق بشوش، وجمال الدين بوجه هبوس قعارير. فاستجوبه السلطان قائلاً:
خيراً إن شاء الله، ماذا حدث مع حضرة السيد قال: لا شيء، إنما أتيت لاستسمح جلالتك أن تليقني
من ييمقي لك لأنني رجعت منها، فانتفض السلطان واعتز لهذا النبأ وقال: يا سيد: هل أفتسكرت
بما تقول: قال: نعم، يا بصتك بالخلافة والخليفة لا يصلح أن يكون غير صادق الوعد، بيد جلالتك
الحل والمقد، وبإمكانك أن لاتمد، وإذا وعدت وجب عليك الوفاء، وقد رجوتك بالأمر الفلاني
ووعدت بأنك تمضيه ولم تفعل. هتدئد سكن غيظ السلطاني وبهت برهة مطرقاً يبرز رأسه، يميناً
وشمالاً ثم قال: سبحان الله يا حضرة السيد.

إن أمراً ظفمًا مثل هذا، يملك على تهجم على نقض ييمقي لأجله ١: أما كان يحسن بفضلك،
أن تلتبس لي هندياً بكثرة مشاغل السلطنة وتذكرني قبل نقض البيعة، ساعك الله وأحسن جزاءك
ثم أصدر أراذله حالاً بما طلب جمال الدين وآتته كثيراً وبأسطه — قال جمال الدين: الحق يقال أنني
شعرت بتسهرى، وعرفت خطي كأني عرفت للرجل كبير فضله وسمة صدره، وهند جروجه
تقدم الحاجب من جمال الدين وناولته كيساً من الحمل الأحمر، فيه دنانير، فتردد جمال الدين وقال:
يا حضرة البيك، أن نعم السلطان من قصر وفرش وخدم وحشم، ومركبة لم تترك مجالاً لمثل هذا
المال. قال القرين: يا حضرة السيد، هطاء السلطان لا يردده إنسان. فأتانا جمال الدين ويده السكبي
وقص علينا ماجرى وقال: هه هذه الدنانير، فإذا هي خمسمائة ذهب همتي. تسكني هذه القصة
وهي من مصادر أولياء جمال الدين للكشف عن الفوراق الهائلة الضخمة بين النفسيتين والعقليتين،
ومدى المراس الصامد المعجيب في عهد الحميد ومدى العنف المندفع في جمال الدين. من أجل ترقية
نطلب من رجل تشمله ما أوردناه من الأمور والأخطار، يخلع جمال الدين بيعته ١. ثم يستردها بعد
كلمات قليلة ومباسطات:

أما الأمر الآخر فهو محاولة الربط بين دعوتين: إحداهما لجمال الدين والآخر للسلطان عن الجامعة

الإسلامية ، والواقع أن جمال الدين لم يتحدث عن الجامعة الإسلامية إلا قليلا وأن دعوة جمال الدين الحقيقية والتي أُنقذ فيها أغلب وقته وأحاديثه كانت عن مواجهة الاستعمار وتكريس أهلام بريطانيا والدعوة إلى الحرية والدستور والنظام النيابي والتقريب بين الأديان الثلاثة وتحرير الإسلام من الإضافات والبدع والالتقاء بين السنة والشيعة والتقارب بين أجزاء العالم الإسلامي ولكنه ما كان قد أعد برنامجاً كاملاً للوحدة الإسلامية على النحو الذي كان عبد الحميد قد اضطاع به ولم يعرف من جمال الدين مشروعا في الجامعة الإسلامية منفصلا عن الخلافة العثمانية ولم يرد عنه أي نص في هذا الأمر ، وقد سجل ذلك السيد رشيد رضا بوضوح كاف في كتابه عن (تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده : نقلا عن تراجم مشاهير الشرق لجورجي زيدان) إن الفرض الذي كان يصوب نحوه أعماله والمحور الذي تدور عليه أعماله توحيد كلمة المسلمين وجمع شتات المسلمين في سائر أقطار العالم في حوزة دولة واحدة إسلامية تحت ظل الخلافة العظمى . وقد بذل في هذا المسمى جهده وانقطع عن العالم من أجله فلم يتخذ زوجة ولا نفس كسبا . واستدرك رشيد رضا على جورجي زيدان فقال : الصواب أنه كان له في حياته مقصدان (أحدهما) علمي : هو تنبيه المسلمين إلى الإصلاح الديني والعلمي بالسكتات والخطابة (وثانيهما) سياسي اجتماعي وهو ما يبينه الأستاذ الإمام (محمد عبده) في ترجمته وهو ترقية دولة إسلامية ، أي دولة كانت وحسبك أنه بدأ عمله في إمارة تابعة لدولة أخرى وهي الإمارة المصرية فقد كان يرمي إلى تمدينها وتعزيزها حتى تكون في القوة والعلم والمدنية كالحسن البلاد الأوربية ثم تملق أوله بالسودان ثم بلاد إيران ثم بالدولة العثمانية .

وهذا يكفي في إفاء ذلك التضارب التي حاولت المصادر الأجنبية والصهيونية أن تاتي ظله على للوقوف بين السلطان عبد الحميد الذي طغقت تصوره بصورة المستبد الظالم بينما أهلت شأن جمال الدين حتى لقد نسبت إلى السلطان قتله والتملص منه وهو ما لم يكن من الوقائع المضبوطة المصادقة بجمال والواقع أن جمال الدين الأفغاني كان حلقة في دائرة الحركة إلى الوحدة الإسلامية الكبرى التي رفع لواءها السلطان عبد الحميد وأنه قام بدور ضخم كان له أبعد الأثر في دعم هذه الوحدة فقد حل جمال الدين لواء التقريب بين السنة والشيعة ، وبين الدولة العثمانية والدولة الفارسية وبينهما تاريخ طويل من الخصومة ، كان للاستعمار الأثر الأكبر في تأريته ومولاته حتى لا يتجمع المسلمون على وحدة كاملة ، وقد كان لدور جمال الدين أهميته الضخمة ، وأشار إليه كثير من المؤرخين والكتّاب ، وذكرته الدكتور الماوتلن في كتابها عن عبد الحميد ، كما ذكره على أصغر شحم في كتابه (إيران في عهد الدولة القاجارية) .

فقد استطاع جمال الدين أن يقرب الوشائج بين الدولتين وبين السلطان والشاه، وكان لمراسلات جمال الدين مع عدد من قادة إيران وأمرائها أثر بعيد في إزالة النلوج المتراكمة في طريق الدولتين الإسلاميتين الكبيرتين وكان مما يقوته جمال الدين : (أن السم القديم يجب ألا يسرى في جسد آسيا القوي وعلى السنيين والشيعية أن يتحدوا لمقاومة أوربا في محاولتها قهر العالم) .

وقد كان من أعظم ثمار هذا العمل في نطاق وحدة العالم الإسلامي أن زار شاه العجم الباب العالي عام ١٩٠٠ وحضر الاحتفالات التي أقيمت بمناسبة مرور خمسة وعشرين سنة على ولاية السلطان عبد الحميد ووصفت الماوتلن هذه الحادثة بأنها غيرت مجرى التاريخ بالنسبة للإسلام والشرق وأنها تحذير لتلك الشعوب الأوروبية التي أخذت تتجه الآن شطر آسيا بعد أن أتمت إخضاع أفريقيا، لقد أنهى تصافح السلطان والشاه الخلاف الذي كان منذ مدة طويلة ينخر في عظام العالم الإسلامي .

غير أن الأمور لم تجري رخاء، فقد كان هذا العمل بعيد الأثر في نظر مخططات السيطرة الغربية الصهيونية، ولذلك فإن اللقاء بين السلطان والسيد لم يدم طويلا .

وكان السلطان قد وجه إلى السيد جمال الدين وهو في لندن كتاباً أرسله عن طريق رسم باشا السفير التركي في لندن فاهتسر السيد عن قبول الدعوه ثم جاءه خطاب آخر من السلطان فنادر السيد لندن إلى الاستانة عام ١٨٩٢ وكان قد زارها للمرة الأولى ١٨٧٠ قبل أن يلى السلطان عبد الحميد الحكم عام ١٨٧٦، ومن الحق أن يقال أن جمال الدين كان في هذه الآونة قد وصل إلى مفترق الطرق فقد طارده برطانيا في كل قطر إسلامي وفشلت مخططاته في مصر والسودان وإيران وهجزت طبيعته العنيفة الدوية عن أن تمارس الحكم وكانت مشروعاته وتحركاته توصف بالطاردة على الملوك والأمراء وقد وصفه محمد هبده : أعرف تلاميذه به أصدق وصف حين قال : « إن الحدة فيه تهدم ما تبنيه الفطنة » . ولذلك فإن دعوة السلطان عبد الحميد كانت في الحق هي نسبه الأخير أو أوله الأخير في تحقيق دعوته من خلال مشروع السلطان عبد الحميد للوحدة الإسلامية الكبرى .

ولسكن طبيعة الرجلين المختلفة، عنف جمال الدين، وحذر السلطان عبد الحميد، كلاهما، كالأمن العوامل التي هجلت بوقوع الخلاف والنفرة بينهما . وأمل حادث مقتل الشاه ناصر الدين في فارس وما أشير إلى صلة جمال الدين به قد زاد في الحذر من ناحية السلطان . وكان السلطان قد رجا جمال الدين أن يكف عن الطعن في ناصر الدين بعد أن وقع الخلاف بينه وبين الأفغان في فارس .

لقد تلقى السلطان عبد الحميد جمال الدين بقدر كبير من الاحتفاء والاكرام شهد به مؤرخه

(محمد المخزومي) واستهل جمال الدين هذه العلاقة بتصوير عجيب للسلطان قال فيه أنه لو وزن مع أربعة من أوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء وسياسة ودهاء .

وقال : رأيت من السلطان ارتياحا لقبول كل ما ذكرته له من محاسن الحكم الدستوري ، ورأيت أنه يعلم دقائق الأمور السياسية ... الخ ثم قال : إن ما رأيته من يقظة السلطان وشدة حذره ، وإعداداته العدة اللازمة لإبطال مكائد أوروبا وحسن نواياه واستعداداته للهوض بالدولة - الذي فيه نهضة للمسلمين عموما - قد دفعني إلى مديدي له فبايعته بالخلافة والملك ، لأنني أعلم علم اليقين أن الممالك الإسلامية في الشرق لا تسلم من شرار أوروبا ولا من السعي وراء إضعافها ونجزتها ثم ازدهارها واحدة بعد أخرى ، إلا بيقظة وانتباه عومي ، وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم .

وقد كان السلطان يدهو إليه جمال الدين بين حين وآخر ويفيض في الحديث معه ، وكان جمال الدين صريحا غاية الصراحة ، ومن أهم ما عرضه جمال الدين الدين على السلطان : (أولا) التخلص من الحاشية . والخاصة جميعا ، أقص الخائنين من خاصتك ، خفف الحجاب عنك واظهر الملأ ظهوراً يقطع من الخائنين الظهور ، وأهتقد أن نعم الحارس الأجل . (ثانياً) تقسيم المملكة إلى خديويات ، وقد عرض السلطان على السيد مشيخة الاسلام فاهتذر عنها . وكان يقول : ما سلبات وزيراً بآخر إلا ورأيت من مساوي الخلف ما أسفت معه على السلف ولا مناص مع الصبر ، ويقول : لا بد من كارثة تحدث فنشغل أوروبا هنا ونفتنم بها فرصة نصلح فيها أمرنا ونلم شعثنا . (ثالثاً) استبدال التركية بالعربية لغة الدين الخفيف : وقال إنه إذا تم هذا فإن الامبراطورية العثمانية كدولة إسلامية والسلطان كخليفة المسلمين يزادان قوة ومنعة ونفوذاً في العالم العربي والإسلامي .

(٦)

المؤامرة على الدولة العثمانية

- ١ -

الدوامة

لما كانت الدولة العثمانية هي أخطر أهداف الاستعمار والصهيونية ، وكان إسقاط السلطان عبد الحميد رآفق لواء الجامعة الإسلامية هو الحلقة الأولى في مشروع هدم الدولة العثمانية والقضاء الخلافة ونزيق وحدة الاسلام والعروبة ، ولما كان موقف السلطان عبد الحميد بالحزم والقطع على رفض مشروع هرتزل ، وإيجاد الباب نهائياً في وجه الصهيونية العالمية للوصول الى فلسطين ، فقد كان على (قوى المؤامرة العالمية على الاسلام) أن نزيج السلطان من الطريق وتخطم مشروعه للضم بدم الوحدة الاسلامية وتفتح الطريق أمام تصفية الدولة العثمانية عن طريق القوة التي خلقتها ونمتها خلال أكثر من ثلاثين عاماً ، داخل المحافل الماسونية ، في سالونيك ، وبواسطة اليهود الدوامة : قوى الباع الراسخ والنفوذ الاقتصادي والاجتماعي القوي ، هؤلاء هم (الاتحاديون = تركيا الفتاة) الذين احتضنتهم الصهيونية العالمية . ومن ثم فقد كان دور الصهيونية العالمية عن طريق ربيتها الماسونية واضحاً في ازاحة السلطان وتسليم الحكم الى الاتحاديين . وقد كشفت الصهيونية دورها بوضوح في هذا الموقف اذ كان يمثلها (مزراحي قراصمه) هو أحد الثلاثة الذين قدموا الى السلطان في ٧ آذار ١٩٠٩ قرار التنازل عن الولاية الشرعية ، وكان مزراحي نفسه على رأس وفد اليهود عام ١٩٠٢ الذين كانوا يطالبون بالسماح لهم بالدخول الى فلسطين ، وفي ذلك اشارة واضحة الى قوة الصهيونية وأثرها في تنفيذ مخطط ازاحة السلطان ثم ازالة الدولة العثمانية ، وازالة الخلافة الاسلامية من بعد ومن هنا كان علينا أن نلقى الضوء على هذه الحلقة الخفية من المؤامرة العالمية على الاسلام .

كان من أخطر ما منبت به الدولة العثمانية ذلك الجيب الخطير من اليهود المندثرين باسم الإسلام في مقاطعة أزمير وفي مدينة سالونيك بالذات : هؤلاء الذين أطلق عليهم من بعد كلمة (الدوامة) -

أى المرتدون . ولقد حاول بعض الباحثين رد (ظاهرة الدوغمة) إلى أيام السلطان بايزيد الثانى (١٤٦١ — ١٥١٢) وربطوا بأحلام اليهود من أسبانيا للسلمة بعد سقوطها فى يد الفرنجة . فقد ردها المؤرخ جواد رفعت إلى الخاخام اليهودى (ساباتائى سيوى ولد مردخاى) المولود فى مردخاى فى أزمير ١٦٦٥ م والذى كان قد أعلن أنه المسيح الذى ينتظره اليهود وحوكم ، وأعلن إسلامه نقيّة كما أسلمت طائفته وسموا بالمرتدين (الدوغمة) وبدأوا يعملون لهدم الإسلام وتمزيق وحدة المسلمين ، وقد ضبط بعد ذلك يمظ باللغة العبرية ويدهو دهنه فنفى إلى أسبانيا فاستقر فى (سالونيك) ومنذ ذلك الوقت أصبحت (سالونيك) مقراً للمرتدين الذين أصبحوا من بعد مثفى الشعب التركى وقادة الفكر فيه فضلاً عن سيطرتهم على التجارة والصنائع والمعارف . وكان السلطان بايزيد قد سمح لليهود الذين هاجروا من أسبانيا بالإقامة فى بلاده بحسبان أنهم يملكون ثروات ضخمة ، وظل لليهود المتسمرين بالإسلام خلال ذلك الوقت الطويل يرمون خطتهم للسيطرة الكاملة على الدولة العثمانية وقد نجح لهم ذلك فعلاً ، على نحو ما يشير (جواد رفعت) أنهم من كانوا يسيطرون على الطباعة والتجارة والمؤسسات الخصوصية للمعارف ، وأنه (كان لهم دور كبير فى جميع الحوادث الجارية فى بلادنا وبالأخص فى تاريخنا القريب) كما أشار جواد رفعت إلى أن السلطان عبد الحميد هو الذى كشف خطر هؤلاء المرتدون السبائانيين وكان قد أصدر أوامره بأن يبقى هؤلاء المرتدون فى صلاتيك ، والحيلولة دون إفساح المجال أمامهم فى الاستانة . ولما لم يستطع الدوغمة التأثير على السلطان عبد الحميد عادوه هداوة شديدة وقاموا بالدعاية ضدّه لدى الشعب والجيش ، وقال إن الدور الذى قام به قره صو وجاويد فى حادث خلع السلطان كان كبيراً جداً ، وأن الدوغمة هم الذين قاموا بالدور الهام فى تأسيس ونوسيع جمعية الاتحاد والترقى المرتبطة بروابط متينة بالتشكيلات الماسونية التى أسست بمال وذكاء اليهود .

ويقول جواد رفعت : هؤلاء المرتدون يحملون اسم الإسلام وهم ليسوا بمسلمين وأنهم أعداء الفكرة القومية فى الوقت نفسه يتمسكون بقوميتهم ويمتسرونهم إلى أقصى حدود الترك وهم يستعملون الإسلام كقناع لجرد سلب الأتراك ووضع اليد على مقدراتهم . ويمكن القول بأن الدوغمة قد شكلوا أنفسهم فى حزب الاتحاد والترقى ومن بعده فى حزب السكاليين . وأنهم سيطروا سيطرة كاملة على المناصب والفكر . وبشوا صومومهم فى سبيل تمزيق وحدة الإسلام والعربية ، وكافهم لهم دورهم المخطئ فى الدعوات القومية والإقليمية مما ذخرت به البلاد العربية بعد الحرب العالمية الأولى . وتؤكد أكثر المصادر على أن الدوغمة قد أحدثوا أثراً كبيراً فى تاريخ الدول العثمانية

ولذلك فإن تاريخهم لا يمكن أن يدرس منفصلاً عن مخططات الصهيونية العالمية فهم قطاع من أهم قطاعاتها . وإذا كانت القوة الخفية اليهودية قد استطاعت أن تغير من مجريات الأمور في العالم كله فإن أبرز أحداثها يتمثل في أعمال ثلاثة كبرى : الأول : أعمال الثورة الفرنسية في فرنسا ثم أعمال ثورات أوروبا كلها من أجل كسر القيد الذي كان مفروضاً عليهم بعزلهم عن تسلم المناصب الكبرى والعامية . الثاني : أحداث الانقلاب الألماني ١٩٠٩ باعتباره الخطوة الأولى في تحقيق هدفهم الأكبر الذي عاشت للمنظمات الماسونية تجميع حوله غير اليهود ولا تملأهم عليه إلا بعد أن يصلوا إلى الدرجة (٣٣) وهو بناء هيكل سليمان في مكان المسجد الأقصى والصخرة وقد كان تجميع اليهود في سالونيك بالذات وفي منطقة أزمير كلها وكان إعلانهم الإسلام بمثابة جزء هام من هذا المخطط الذي جرى تنفيذه من بعد خطوة بعد خطوة . الثالث : أحداث الثورة البلشفية ١٩١٧ على الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا وكانت من أقوى مراكز المسيحية في العالم الغربي وكان لتجميع اليهود في المناطق المكننة من القرم على البحر الأسود إلى بحر البلطيق في الشمال أكبر الأثر في تحقيق هذه الحلقة الثالثة من مخططات الصهيونية . ولا شك أنه كان الدعوة الذي نظدوا أنفسهم في سالونيك وما حولها داخل إطار المحافل الماسونية وكانوا يبلغون حوالي ٥٠ ألفاً — كان لهم دور كبير في خطة الانقلاب الألماني وتدمير الدولة العثمانية وإزالة الخلافة الإسلامية من بعد ، فهم الذين حلوا العباء الأكبر في تنمية وحماية (الاتحاد والترقي) وكانت أبرز شخصياته منهم ، وكانت موارده ومصارفه مما كانوا ينفقونه عليه فضلاً عن أنه تشكل داخل محافظتهم الماسونية الموضوعة تحت الحماية الأجنبية والتي لا تخضع لرقابة الدولة . والدعوة هم الذين أحدثوا حادث (٣١ مارس ١٩٠٩) الذي أنهى حكم السلطان عبد الحميد ، إذ ثبت دخول الضباط المرتدين في صفوف الجيش بزي الجنود وتحريرهم الجنود للقيام بالثورة ، فبعد إعلان المشروطية عام ١٩٠٨ دخل هؤلاء الاسنانة على هيئة قوافل وأخذوا التجارة الداخلية بيدهم في مدة وجيزة .

وقد أكد أكثر من باحث هذه الحقيقة التي تقول بأن قيادة النفوذ السياسي في تركيا من خلال المنظمات السرية (الاتحاد والترقي) وخلال حكم الاتحاديين وبمده كانت بيد (الدعوة) . وقد أشار الكاتب الفرنسي المسيحي (سبيير هيس) في كتابه جمهورية إسرائيل العالمية التي طبع في بيروت ، بعد أن رفضت المطامير الأوروبية الأمريكية طبعه بسبب سيطرة الصهيونية العالمية هناك قال : إن الدعوة ويعني بهم اليهود الذين أسلموا كثيرون ، منهم مدحت باشا حاكم ولاية القنوب الذي كان ابن حاكم هنغاري وهو الذي أنشأ للدارس اليهودية في الشرق الأدنى وكاز

قادة حزب الاتحاد والترقي من الدعوة وكذلك مصطفى كمال والدكتور ناظم وفوزي وطلمت ونعوم وغيرهم . وأشار الأمير شكيب أرسلان في تعليقاته على كتاب (حاضر العالم الاسلامي) إلى هذه الحقيقة فقال : إن قادة المسلمين أنفسهم أدركوا حق الإدراك أن تركيا الفتاة تدبر مقيعتها هضبة من الجحدة الغربيين غالبهم ليسوا من المسلمين إلا إسماعيل هم من زنادقة اليهود في سالونيك طائفة يقال لها (الدعوة) أي العائدون المنيبون أصلهم يهود من مهاجري أسبانيا ولما كانوا المثل البعيد في الحصافة والذكاء كان أثرهم في حركة الانقلاب الدستوري مهماً فكان منهم أناساً يعدون أركاناً في جمعية الاتحاد والترقي . وقد أشار جبران شامية إلى الدور الذي قام به واحد من أبرز الدعوة (مصطفى كمال) في وضع نهضة تركيا الحديثة على أساس العلمانية والتخلص من الاسلام .

وأشار إلى ذلك (أسامة هيتاني) فقال : أن الدعوة يعترفون كثيراً بأناتورك ويعتبرونه واحداً منهم وحجتهم في ذلك أن أناتورك أسفر عن نيائه ضد الاسلام حين تولى الحكم ورسمت أقدامه فيه ، فقد ألغى التعليم الديني وأغلق عدداً كبيراً من المساجد وهدم أحدها في (هيبلي أفا) لأن العازفين على الموسيقى أوقفوا هزفهم احتراماً للأذان . وأشار إلى هذا المعنى (محمد هزة دروزه) في كتابه تركيا الحديثة : أن الدعوة بدأ في تحويل عطلة الأسبوع من الجمعة إلى الأحد وإبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية وإلى هذا المعنى أشار صالح جودت في مجلة للمصور على أثر زيارته لتركيا عام ١٩٦٣ حين قال : إن سلطان الدعوة على الصحافة والجيش والتعليم والسياسة في تركيا السكالية مازال واضحاً ملموساً رغم أن كمال أناتورك مات منذ أمد بعيد وكان رشدي أراس وزير خارجية تركيا قد أدلى إليه بمحديث قال فيه : إنه مسلم من أبوين مسلمين ولكنه مع ذلك لا يرى بأساً أن يعلن أنه ينحدر من صلب أجساد يهود وأنه يعطف على الصهيونية وأهدافها . ومن المعروف أن الدولة التركية كان لها دور خطير في حماية قيام إسرائيل في العالم العربي . وقد أشارت دائرة المعارف الإسلامية إلى الدعوة فقالت إنه لا يزال في سالونيك إلى اليوم نحو ألف أسرة يبلغ عددها عشرة آلاف نسمة (١٩٣٠) ولا شك أن هناك علاقة وثيقة بين الدعوة والصهيونية العالمية ، وبين للاصونية التي هي أحد أجهزة اليهودية العالمية وبين الاتحاديين وذلك يكشف بوضوح عن الدور الذي قام به الاتحاديون بعد إسقاط السلطان عبد الحميد من فتح الطريق للصهيونية إلى فلسطين حتى استطاعت أن تتجمع فيها بأعداد كبيرة في تلك الفترة القصيرة ما بين ١٩٠٩ إلى ١٩١٨ .

(٢)

إن أعظم ما استطاع الدعوة في الدولة العثمانية أن يفعله هو قيادة الفكر السياسي نحو الدستور وللشرعية والجامعة الطورانية والجمهورية وإلغاء الخلافة من بعد . وكان أبرز ما حملته قيادة الفكر السياسي الصهيوني على طريق الماسونية إلى الأتراك هو النفور من الدين هامة ، والشكر للإسلام ومحاولة وصفه بأنه مصدر التأخر الذي وصلت إليه تركيا والدعوة إلى الجامعة الطورانية كبديل للجامعة الإسلامية ، وإحلاله شأن المجلس التركي ومحاولة الإغراء ببطولات جنكيزخان وهولاكو لإحلالها محل بطولات خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص . وهذه الفلسفة في هي جامها التي سادت الفكر التركي وبدأت تسيطر في أواخر عهد عبد الحميد على مجموعة من المثقفين الذين أخرجتهم الماسونية باسم الحرية والتقدم هي الخط الواضح الصريح المستمد من بروتوكولات صهيون ومن أهداف الصهيونية العالمية .

ولقد كان طموح هؤلاء الشبيبة العثمانية كما يسبحهم البعض يتطامع إلى الغرب ، إلى أوروبا ولكنه بتوجيه الماسونية الصهيونية كان يركز على الفلسفة الغربية التي وضعتها الصهيونية كنواة لتوجيه الفكر الأوروبي والغربي والعالمي جميعاً . وقد انفصل عن نفوس وعقول هذه الجماعات ، القدرة على الموازنة والربط والموازنة بين الماضي والحاضر ، والتقديم والجديد ، والواقع والوفاة وجهلوا الخطة المثلى لتجديد الأمم حين تتقبل من الجديد ما يزيد واقعها قوة ولا تقبل منه ما يحول شخصيتها وكيانها من واقعها الأصيل ، لقد كانت مهمة الماسونية في الدولة العثمانية أن تخلق قيادة فكرية من الدعوة تستطيع من بعد أن تسيطر على العقلية التركية والفكر السياسي والأجهاى التركي وتمزله حينئذ عن مصادره الإسلامية وتلقى به في شباك الفلسفات الغربية الوثنية التي صاغها اليهود على النحو الذي يمكنهم من تدمير النفس الإنسانية والأمم والدول جميعاً . لقد انهج المثقفون الأتراك إلى أوروبا ، والفكر الأوروبي وأعجبوا بالنورة الفرنسية وطربوا أشد الطرب لشعارها البراق (حرية - إخاء - مساواة) ولم يكونوا عالمين خفايا هذه الثورة ولا ما يحيط بها ، وكيف استطاع اليهود أن يمجولها مثلاً عالمياً للأمم والشعوب الراحية في التحرر ، ثم كيف سيطروا من قبلها ومن بعدها على صياغة الفكر الأوروبي وإخراجه من القيم التي ورثها من المسيحية الشرقية ومن مقدرات الإسلام التي كان لها أبعد الأثر في تحريره ونعائه . ولقد استطاعت الصهيونية فيها بعد الثورة الفرنسية أن تسيطر على الفكر الأوروبي وتحوله عن قيمه المسيحية والإسلامية لتدفعه إلى الإلحاد والإباحية بخطة وميدة .

وقد سجل هذا جواد رفعت حين تحدث عن تطلعات الأتراك إلى أوروبا : « الراقم أن الأوربيين قد أخطوا زمام أمورهم إلى اليهود منذ قرن واحد ، فاليهود يخططون مناهجهم السياسية والاقتصادية ويوجهونهم كما يشاءون ، فلذا كانت تلك الدهاليات تصدر من المنابع اليهودية في ذلك الوقت » . وبسبب جواد رفعت ثلاثة من أهلام الدعوة بالذات كانوا يسيطرون على الحركة الماسونية في تركيا (قاره صو - منير سالم - جاويد) وكانوا يروجون دهمي تقول أن الدول الأوربية تجري محادثات لتقسيم تركيا ، يقول : أن منير سالم وقاره صو وجاويد أسانذة الماسونية صحرأ عيون الأتراك الثوريين المحبين لفرق فرداً فرداً بالماسونية ، وذلك بمسد ترويجهم تلك الشائعات فأخذهم تحت قيادتهم وأدخلوا كافة زعماء انقلاب المشروطية (١٩٠٨) ورؤساء جمعية الاتحاد والترقي ومؤسسيها في المحافل الماسونية .

ويؤكد جواد رفعت ما عليه اليوم إجماع المؤرخين من أن خطة الانقلاب التركي المسماة بالمشروطية كانت من أجل النخلص من الإسلام في الدولة العثمانية أساساً ، وينقل نصاً ما نشرته مجلة (بيوك دوهو) عدد مارس ١٩٤٨ وتقول « أن المشروطية كانت أنراً من آثار اليهود والماسونية والمتردين ، ومنظمتها التي صغرت أرواح قسم من طائش مقدونيا واستثمرتها فإن تلك الشنقة المتكونة من العواميد الثلاثة المسماة (باليهودية والماسونية والارتداد) كانت لأجل شق الإسلام فقط فستعرف المؤرخون الحايديون يوماً ما ، بأن هيد الحميد الثاني كان هدفاً لحركة المشروطية ، قد ذهب ضحية كفاحه كفاحاً منظماً ضد اليهودية والإمبريالية والامتيازات ، لصون الإسلام والشعب التركي من الانقراض والوطن من الاستعمار » . ويعلق جواد رفعت على ذلك فيقول : أت الذين يطالعون التاريخ ويسبرون غور قضية الصهيونية ويسيشفون أسرارها من بين طيات صحائفه المظلمة يقدررون حقيقة تلك الإدعاءات حق قدرها أن السلطان عبد الحميد كان يعرف كل تلك المؤامرات الدائرة حوله وكان يعلم بقرب الانقلاب والثورة ضده ولو كان قد قام باستعمال نفوذه وقوته لكان بإمكانه أن يحول دون وقوع هذه الحركة أو كانت الحركة تكلف الثوار غالباً حيث أن السلطان بقي في كرسي سلطنته غير أنهم تمكنوا من إيصال الاتهاديين إلى الحكم بواسطة الماسونية الذين كانوا يؤيدون الاتهاديين ويفضل مساهمة الاتهاديين لم تمكنوا من وضع أسس الامبراطورية الصهيونية في فلسطين حيث أنهم باشرأ حال مجيء الانحصاديين إلى الحكم بتأسيس المستعمرات اليهودية في فلسطين في مدة وجيزة .

(٧)

مخططات اليهودية العالمية

إن هدف الماسونية الحقيقي هو خدمة اليهودية العالمية وتأمين سيطرتها على العالم والماسونية أهداف محددة هي فتح الطريق وإزاحة القوى المسيطرة من أمام اليهودية العالمية في طريق السيطرة على العالم من طريق الوصول إلى بيت المقدس وبناء هيكل سليمان . ولذلك فإن أبرز هملين قامت بها الماسونية هما : (الثورة الفرنسية والانتقال العثماني) : الأول في أوروبا لإزاحة القيود التي كانت تكبل اليهود في (الجبلين) ونحول بينهم وبين السيطرة على مراكز القيادة في الدول والأمم وقد تحقق ذلك تماماً بهذه الثورة والثورات الثنوالية التي قامت في أوروبا بعدها والتي فرضت النظام الذي بعزل الصفة الدينية عزلا كاملا وبجل بدلا منها صفة للواطنة . ومن هنا فإن منطق الفلسفة الصهيونية اليهودية أساساً هو : عزل الدين عن الدولة . فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية قد وضعت مراسم حاصصة لعزل اليهود عن المجتمعات الأوروبية نتيجة لعوامل كثيرة ، فاستطاعت الثورة الفرنسية صنع أيديهم أن تدمر هذه الحواجز ، وذلك بعد أن حملت أفلام كتاب للماسونية للكبار : (فولتير وديدو وروسو) هذه المفاهيم إلى الفكر الأوروبي وغزوه بها سنوات طويلة تمهيداً لتنفيذها . وبالثورة الفرنسية حققت اليهودية العالمية هدفها وتمكنت من استيعاب الفكر الغربي للمسيحي واحتوائه ، وبث مفاهيمها وفلسفتها في إطلوائه وإخراجها من قيمه للمسيحية والإسلامية التي قام عليها وردة إلى الوثنية الإغريقية إلى الإلحاد والإباحة بمختلف صورها وفي مجالات الأدب والفن والاجتماع والاقتصاد والسياسة . أما العمل الثاني فهو الانتقالب العثماني الذي أزاح من طريق اليهودية العالمية أكبر قوة تقف في وجه السيطرة على فلسطين ونحول دون تمزيق وحدة العروبة والإسلام وتدمير مقومات الفكر الإسلامي وغزوه من الداخل بمفاهيم تكفل الفصل بين الدين والدولة ، بين الإسلام والمجتمع ، وبين العرب والمسلمين بعشرات المذاهب والمفاهيم المليئة بالشبهات حول اللغة والتاريخ والقرآن والسنة والقوميات والإقليميات وغيرها .

وكان رد (حبيون) في كتابه (المخططات الامبراطورية الرومانية) سقوط روما إلى نفوذ اليهود وكانت بوبيا زوجة نيرون يهودية مرتدة . ولقد كانت الماسونية هي المدرسة الفكرية الحقيقية التي حملت وراء تحميتي هذه الأهداف . وكانت اليهود قد سيطروا على الدولة الرومانية بعد القرن الثاني

للميلاد ووضعوا في أيديهم كل مقدرات المجتمع ، وكانت أبرز أعمالهم تجارة الرقيق . وخلال العصور الوسطى التي امتدت من ٥٠٠ إلى ١٣٠٠ بعد الميلاد كان التاجر اليهودي مسيطراً على أوروبا بأسرها ، وقد شملت هذه السيطرة الإشراف على طرق التجارة الشرقية المؤدية إلى بلدان المشرق ، غير أن الكنيسة الكاثوليكية لم تلبث أن تنبذت إلى هذا الخطر فأصدرت سنة ١٢١٥ قيوداً ضخمة على حركة اليهود كانت الغاية منها كبح جماحهم ، فحتمت هذه القرارات على اليهود الإقامة في أحيائهم الخاصة وحرمت عليهم تهرباً تاماً استخدام النصارى أو الاشتغال بأكثر من نوع واحد من التجارة وقد شن كثير من الأوربيين حملات عنيفة على الخطر الذي تعرض له أوروبا المسيحية من النفوذ اليهودي وفي مقدمة هؤلاء الكتاب الأوربي الأشهر (سليك) الذي هاجم روماني عصره لحاكتهم اليهود ثم بدأت حركة لإجلاء اليهود عن أوروبا في القرن الثالث عشر كحل وحيد وحاسم للمشكلة فأجلوا عن إنجلترا وفرنسا وطردهوا من أسبانيا والبرتغال . ومنذ عام ١٥٠٠ حتى ١٥٦٠ م كانت أوروبا الغربية بأسرها باستثناء بعض المناطق في إيطاليا وألمانيا قد تخلصت من اليهود ، وكان اليهود في هذه الفترة قد نجحوا في الإمبراطورية النمانية ويرى الكثيرون أن هذه الفترة التي عاشتها أوروبا بدون اليهود هي فترة عصر النهضة التي ازدهرت فيها العلوم والفنون ، والتي بدأت خطاها من شمال إيطاليا — ويؤكد فرنك لي برتون أن عصر الانبعاث في الحضارة الأوربية لم ينحلق إلا بعد أن انتزعت الأمم الأوربية السيطرة التجارية من اليهود . غير أن اليهود لم يلبثوا بعد ذلك أن عادوا إلى أوروبا ، وأقاموا في أحيائهم الخاصة في هوامم المدن الكبرى « الجيتو » الذي لم يكن مفروضاً من الدول على اليهود بقدر ما كان ضرورة أساسية تمنحها الفلسفة اليهودية . فقد كان الجيتو مجتمعاً مستقلاً بكل معنى الكلمة فيه حافظ اليهود على ثقافتهم ودينهم وتقاليدهم من الانصهار في المجتمعات المسيحية (وفيه غذوا حقد القديم على الحضارة المسيحية قدم عهد نشأة المسيحية) والواقع الذي تسجله المصادر التاريخية أن اليهود قد رفضوا الاندماج في الثقافة المسيحية والحضارة المسيحية ، وقاموا حتى استطاعوا بعد ذلك أن ينفذوا إليها ويسيطروا عليها ويحتويها فكرم التلويدي على النحو الذي عرف بعد الثورة الفرنسية .

ومن هنا فقد حق أن يقول بعض الباحثين « أن هناك قوتان تعطرهان من أجل السيادة العالمية هما : المسيحية واليهودية » . ويرجع ذلك إلى قدرة اليهود على الاحتفاظ بفلسفتهم الخاصة المنفصلة عن المسيحية والتي تقوم على مفاهيم التلويدي والنوراة المستحدثة . وقد بدأ بعد عودة اليهود إلى أوروبا أن هناك صراعاً ضيقاً بين شعبين ، وبين ثقافتين . وكانت الماسونية هي المنظمة الدينية والترابوية

الجامعة لهم وهي التي مهدت لهم استيعاب الفكر والثقافة الأوروبية واحتواء المفاهيم والقيم المسيحية والتأثير فيها وخاصة عن طريق إقامة المنظمات الماسونية — أولاً في الدول البروتستانتية التي كانت ترفض مفاهيم اليهود وتفسيراتهم للعهد القديم بنبوءة العودة إلى فلسطين وإقامة هيكل سليمان . إن اضطهاد اليهود في أوروبا إنما يرجع أساساً إلى سيطرتهم على المال والاقتصاد وتعاملهم بالربا واحتكار دعوس الأموال وقد قرنت اليهودية بالأرباح غير المشروعة حتى أن شكسبير خلط هذه القضية الخطيرة في رواية تاجر البندقية . ومن هنا كانت كراهية المجتمع الأوروبي وحقد هليم . وقد وقع الصراع بين اليهودية والمسيحية في أوروبا على نحو آخر . فقد كان اليهود ينظرون إلى المسيحيين على أنهم مهتدون ، ومن هنا فقد عمدت الكنيسة إلى فصل تقاليدھا على التقاليد المشتركة مع اليهود ، وهذلت توقيت أعياد الفصح والقيامة . كما منعت الكنيسة الاختلاط الاجتماعي باليهود ومواكبهم ومشاربتهم وذاع القول بأن اليهود يذبحون أطفال النصارى قرباناً . ومن ثم فرضت الكنيسة نظاماً خاصاً لليهود في المعاملات التجارية والحقوق المدنية ونوع المهنة ، وكانت مذاهب فلسفية تفصل بين الآرية والسامية وهي تدهو اليهود بالعزلة عن الحضارة الغربية . يقول تشمبرلان : أن اليهودي غريب عن الحضارة الغربية وأن روحه لا تلائم روحها وعندما يفيض له فإنه يتحكم فيها وقد يتفنى عليها حقداً . وأشار كثير من الباحثين في مجال هذا الصراع إلى أن اليهودية تضطرم قسوة وهنقا وجوداً وهي هل تقيض المسيحية الرحيمة المحبة التي أعطت البشرية فكرة التسامح . وجرت المحاولات لإثبات أن المسيح وهولس الرسول ليسا من العرق اليهودي وأهلزت الأبحاث من شأن الشعب البتوتوني وقالت أنه أرسطةطراطية البشرية وأن المدينة الأوروبية من نتاجه ، ودها يجل وغيره إلى هضم العناصر الغربية في المجتمع الأوروبي أو أبادتها ، وحل الجرمان على الدماء الغربية (نخه وقابجر) ومجد نبذته القوة وهاجم اليهودية والمسيحية وقال إن كلاهما دين الضعفاء والصعاليك .

كانت هذه العوامل دافعاً قوياً لليهودية العالمية إلى احتواء الحضارة الغربية والسيطرة عليها وتفريضا من مقوماتها المسيحية والإسلامية التي قامت عليها وإلحاقها إلحاقاً كاملاً بالوثنية الإفريقية وإحياء مفاهيمها المختلفة من الجنس والعصبية والإلحاد والإباحة وكانت الماسونية هي المدرسة الكبرى لهذا الفكر ، حتى يمكن القول بأن مختلف النظريات الفلسفية التي ظهرت في السنوات المائة الأخيرة بأقلام كبار الأسماء اللامعة في الفكر الغربي لها جنورها وأصولها في المقررات الماسونية .

(٨)

الثورة الفرنسية

كشفت الوثائق التاريخية عن حقيقة الثورة الفرنسية ، ودورها في تنفيذ مخططات للماسونية من أجل تخطيط القبول التي فرضتها البابوية أمام اليهودية العالمية فقد تبين « أن الثورة الفرنسية ترجع إلى جهود الجمعيات السرية الخطيرة ولا سيما محافل البناء الحل (للماسونية) وأن هذه الهيئات السرية قد لعبت من وراء الستار دوراً عظيماً لاضرام نارها . وقد أشارت بروتوكولات صهيونية إلى ذلك صراحة حين قالت في البروتوكول الثالث : « تذكروا الثورة الفرنسية التي اسمها السكهرى ، إن أسرار تنظيمها التمهيدى معروف لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا » . ولقد ألقى مسيو جوترو (Gautherot) في عام ١٩١٢ محاضرات عديدة في باريس كشف فيها هذه الحقيقة وقال : إن الثورة الفرنسية كان ضابط أزمته للماسون وأنهم هم الذين دبروا كل فصولها ولعبوا كافة أدوارها . وما كان قتل لويس السادس عشر سوى تنفيذ لأحد مآربهم التي كانوا اتفقوا عليها في المحافل السرية . وقال : وبعد أن ملأ الماسون فرنسا دمماً ، عمموا الثورة في كل أنحاء أوروبا بواسطة جيوش الجمهورية ، لقد نفخت الماسونية روح الثورة ، وثلث العروش وقلبت الدول واستعانت بالاشتراكيين والفوضويين والنهليست . وقد أحصى الإحصائيون هدد الملوك والرؤساء الذين قتلوا في مائة سنة فإذا هو يزيد على الثلاثين . ولقد كانت سيطرة الماسونية العالمية بالغة على حتى أوروبا كلها على أثر الثورة الفرنسية وذلك لتحقيق ما استهدفته منها ، ففي الاجتماع الذي عقد عام ١٧٨٩ لوضع الدستور الجديد لفرنسا كان هناك ثلاثمائة عضو ماسوني .

وإن أهم ما حققته الثورة الفرنسية هي أنها رفعت قيد المسيحية والكنيسة وأطلقت اليهود ليحتلوا أعظم المناصب في مختلف الدول الأوروبية ويسيطرون في الاقتصاد والسياسة والثقافة جميعاً . غير أن عوامل جديدة زادت في اضطهادهم أهمها : الرأسمالية والسيطرة الاقتصادية على المجتمع الأوروبي . وبعد سقوط نابليون استطاعت الطبقة اليهودية من داخل البرجوازية أن تكون الحاكمة الآخرة في معظم بلدان أوروبا ، وبما أن الطبقة الفنية من اليهود كانت جزءاً هاماً من نواة البرجوازية ، فقد استطاعت أن تلعب بقدرة أوروبا وتسيطر على كل حركة سياسية . وهكذا بدأ الصراع من جديد

بين اليهودية والمسيحية في أوروبا . ولقد استطاعت الماسونية التي ألحقت بتنظيماتها السرية أغلب أصحاب النفوذ في ميادين القانون والفكر والسياسة في أوروبا أن تحقق من طريقهم نتائج هامة وخطيرة فسنت القوانين الحديثة للقضاء على التشريعات الكنيسية الأوروبية : ومنها شرائع الطلاق وإضفاء سلطة الوالدين في تحرير التعليم والتربية من الدين وإتاحة الفرصة للأبناء على نبذ أواصر الدين ونشر التعليم اللاديني وإكراه الآباء على وضع أولادهم في المدارس الخالفة لمذاهبهم الدينية . هذه القوانين لم تقدم إلى المجالس النيابية إلا بعد أن صادق عليها أتباع اليهودية العالمية في المحافل الماسونية ثم أتاحت لهم اليهودية الفرصة لأن يلوا مناصبهم في المجالس النيابية وكان قد أقرها مسبقاً . وبالجملة فإنه بالثورة الفرنسية صار الشعب الفرنسي ثم شعوب أوروبا كلها في الطريق الذي رسمته له اليهودية العالمية .

(٩)

احتواء الأديان

يجمع معظم الباحثين في مخططات الماسونية وعلاقتها باليهودية العالمية إلى أن أبرز أعمالها هو رسم المخطط لتدمير المسيحية ويزعمون ذلك قولهم : أن الكنيسة هي عدونا الحاضر وبرتوكولات صهيون تكشف على ذلك في وضوح وفي بشاعة . وأعظم ما ذهبت إليه اليهودية وجملت منطلقه من طريق المحافل الماسونية التي ضمت الألوف المؤلفة من المسيحيين هي تزيف الدين المسيحي ومحاربة التنيل من البابوية . ويكشف إنيليا أبو الروس في كتابه اليهودية العالمية وحررها على المسيحية عن ظاهرة الحرب المنظمة السرية والعلنية على المسيحية لأن في زهرتها نصراً لليهودية وسيطرة لها على العالم ، وقال إن هذا ما تفسره مقررات حكماء صهيون . وأشار إلى الإيماءات التي تشير إليها مسرحية النائب (Le Vicaire) التي يمثلونها على مسرح باريس ونيويورك ولندن منمدين البابا بيوس الثاني عشر بالتعاون مع النازية ، ويقول المؤلف أن مع دوافع الأسمى والخرى أن لا ينور الغرب المسيحي على هذه الإيماءات وأن المسرحية تمر بأرق المآرحة والمسيحيون في الغرب لا يحركون ساكناً ، كما أشار إلى حركات اليهود الدينية المنتهجة لتدمير المسيحية وخاصة حركة «شهود يهوه» ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل البعض يذهب إلى أبعد من ذلك فيشير إلى ما نقله «بولس» عندما أراد تعميم المسيحية وأثره في عقيدة الثلاث التي كانت من عقائد قدماء المصريين وما يتصل

بذلك من خلاف بين أنصار آريوس واثناسيوس حول طبيعة السيد المسيح . ويشير أميل الخورى
حرب في كتابه (مؤامرة اليهود على المسيحية) الى الخلاف الجندى بين اليهودية والمسيحية ، حيث
تقوم المعتقدات اليهودية القومية على أساس : أن اليهود هم شعب الله المختار وأن الرب أعطاهم أرض
الميعاد ووعدهم بملكوته العالم ، ويشير الى أن ما ورد في الكتب القديمة من أرض الميعاد إنما شأن
وهذا من الله لإبراهيم ونسبه وأن ذلك قد تحقق فعلا . وأشار الى المعركة التاريخية بين اليهود
والمسيحية ووصفها بأنها معركة ضارية ، « حيث وجهت اليهودية هوائها الى القبح والذم وتلطيخ
المسيحية بأفبح الصور دون أن تكشف هند الفرصة من الاجود الى القتل » .

وأشار الى أن أخطر ما قامت به اليهودية هو محاربة للمسيحيين بالمذاهب الاجتاهية والسياسية
والاقتصادية التي تهدم الروح المسيحية وتقوض أركان الدول المسيحية وبذلك تحقق اليهودية غرضها
بصورة غير مباشرة دون أن تصطدم بها وجها لوجه . وقال : إن اليهودية قد نجحت بهذه الخطة الى
حد بعيد . وأشار أميل الخورى الى مئات من المجلدات والكتب التي كتبها اليهود وأتباعهم
والتي تطعن في المسيح والمسيحية والقديسين والكنيسة والأمرار . وقال إن معالم هذه السياسة بدأت
تظهر في أواخر القرن ١٨ مع انتشار الروح الثورية في فرنسا وبعد أن انتقلت الجمعيات السرية
الخاصة لنفوذهم من العمل من وراء ستار إلى العمل في وضوح النهار . وكانت الخطة هي (محاربة
المسيحية باسم المبادئ والمذاهب) . وهناك عدد من المؤلفات التي يتصل بهذا مثل : * اليهودي
واليهودية وتهود الشعوب المسيحية : جوخنود ، موسو . * المأساة الماسونية والمؤامرة اليهودية
على العالم المسيحي : كويان البانسل . * الكنيسة الرومانية أمام الثورة : كرتنوجولى . كما أشار
الكاتب إلى نص لكتاب غربي (الس) يقول « إن الكتاب الذين يجري في هروهم دم يهودي
كانوا في طليعة الداهين إلى المذاهب المناهية للدين والآداب والمجتمع . « وفي الثورة الفرنسية لعب
اليهود دوراً كبيراً بارزاً بالنظر لقله عددهم وكانوا ممن نظموا نهب الكنائس » . وأن اليهود ابتداء
من الثورة الفرنسية حتى نهاية القرن ١٩ (١٠٠ سنة) عمدوا إلى نشر المبادئ الهدامة وإشغال
الثورات . « وفي بحث الدكتور بيلمان (تحت عنوان اليهود المعاصرون) يقول : « لقد حاول اليهود
أن يهدموا حضارتنا » .

ويقول بوكهارت : إن الأدب العالمي قد يكون مدينًا لبعض كتاب اليهود ، فإن مؤلفات ما كس
نورده ، فرويد ، هوبنمان ، توماس مان وأخيه هنريش مان ودانيسكي وديزرائيلي ومورو أضافت

ثروة لثروات العقول ولكن شرها أكبر من نفعها وإعما أكثر ، فإن (هينه) أفسد أخلاق باريس و (نوردو) حلل المبادئ والنظم التي تدهم المدنية وأظهر فسادها وتعمقها و (أوزفالد) أنذرنا بترب زوال الحضارة أما (فرويد) فقد خلق الإباحية الحديثة على نمط الوثنية الإغريقية وهدم الفرقة بحيث أطلق هنان الشهوات البشرية ورخص للرجل والمرأة أن يفعلا بجسدهما ما شاء الشبق السكاهن في حنايا ضلوعهما فالتهم تلك الجلوس لا حدة له في رأيه والولد يغار على أمه من أبيه أما الأحلام فلا تفسير لها إلا الاحتلام وهلاقة الجلس فيها شفاء من كل داء . وبرر توماس مان عشق الذكور في قصة (الموت في البندقية) ووصف مرضى الصدر بأنهم حيوانات متعاقبة تتخذ من يأس الشفاء هذرا للتساقط . ولا ريب أن هذه النصوص جميعاً تعطي مفهوماً واضحاً للأثر الذي أحدثته اليهودية العالمية في الفكر الغربي جميعاً واحتوائه وتدميره ، وهو الفكر الذي قلل إلينا نحن العرب والمسلمين منذ أوائل هذا القرن وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى وثقلت عليه المذاهب العسكرية والسياسية والأدبية والاجتماعية في بلادنا وكنا في غفلة عن أخطاره ومستوسه والخططات التي يقوم عليها والأهداف التي أريد له أن يحققها في كل فسر يتصل به وخاصة في الفكر العربي الإسلامي . وقد يدهش كثير من الباحثين حين يرون أن أصولاً أساسية للنظريات التي أفرغت في قوالب العلم إنما كانت في الأصل أهدافاً أساسية لليهود العالمية وقد حملتها الماسونية وألقتها إلى قلوب وعقول أتباعها وروجتها في محافلها قبل أن تحملها أقلام هؤلاء الكتتاب وتروجها في العالم كله . وفي نشرة الشرق الفرنسي (الماسوني) ١٨٩٥ ما يلي : أن العشرة الماسونية تأبى اعتقاد أي حقيقة دينية كانت . وينص الحفل الأكبر في برلين على « أن العلم هو الأساس الوحيد لكل معتقد فهم يرفضون كل عقيدة بنيت على أساس الوحي . وتشير النشرة الماسونية الألمانية ١٨٦٦ بأنه يقتضى على الماسون أن يقيموا أنفسهم فوق كل اعتقاد بالإله أي كان ، وإن قال الماسون بوجود الإله فاعلموا يريدون به (الطبيعة) وقواها المادية فهم يجهلون الله والإنسان كشيء واحد .

ويقول ويستويت : « نشأ الماسونية المنورة » كل شيء هو مادي ، فالله والعالم ليسا إلا شيئاً واحداً وجميع الديانات هي خيالية وغير ثابتة اخترعها ذوو المطامع . وإن نظرة واحدة إلى هذه الوثائق الثابتة منذ هذا الوقت البعيد لتكشف عن روح النظريات والفلسفات الحديثة جميعاً من فرويدية وماركسية وبهاية ووجودية ونسكاد تجمع كتابات الذين كشفوا حقائق الماسونية ممن كانوا فيها ثم تخفوا عنها أن الماسونية ترى أن الديانات خرافات وأن الله عز وجل بلا مسمى وأنه لا يوجد في العالم غير الطبيعة المادية .

ويقول كلافل من أساطين الماسونية : إن معنى الماسونية العظيم بأن تنحو بين البشر كل تمييز بينهم كشراف الأصل والأديان والمذاهب والأوطان وأن الماسونية مدهوة لسحق الرؤس الثلاثة : الدين والسلطة والعسكر . ويشير عبد الله النبل في كتابه (خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية) إنه في خلال إجتاع اليهود في بال بسويسرا ١٨٩٧ دها ممثل جماعة بنائ برث : إلى تخريب المدينة المسيحية والإسراع في نشر الفوضى . ويقول كلاود دوسليكي في كتابه حرب اليهود في العالم .

تحرر كثير من اليهود من قيود أنظمتهم الاجتماعية والاقتصادية ليتمكنوا من الاندماج في الأوساط المسيحية المصرية كإحداث منهم هند الفتح اليوناني على يد الاسكندر المندوني (تأفروا) أي صاروا إغريقاً في أمتهم وعاداتهم وتحننهم وقسوتهم وتقليد اليونان سادتهم في الألعاب الرياضية والتهنك في عبادة الجسد وقد وصلت بهم هذه المصير الحديثة إلى درجة الكفران وانتحال الدين المسيحي ليندمجوا . وقد دلت التجارب الاقتصادية والاجتماعية على أن البلاد الذي ازدهر فيها الربا فقدت النماطف والتراحم من بينها وحلت القسوة فيها محل الحنان والعدل حتى أن الفقير لميت جوها ولا يجيد من يسهفه . وترى الحضارة الأوروبية اليوم صبغت بألوان اليهودية ففتت فيها الأطماع المادية حتى صاروا لا م لهم إلا جمع المال . وكان من أبرز ما أثار اليهود في الحضارة الأوروبية الدعوة إلى تفكك الأخلاق بنسبيل سبل الشهوات في المصاريف وملاعب القمار والملاهي وصنع أشرطة الصور المتحركة ، الحركة للشهوات المنحطة والحث على الجرائم والذات البهيمية ، واختراع أنواع الرقص الخليلم بأنواعه ، الشارلستون والسكرابوكا وإعداد المغاني والغواني والقبان والقناني الراغبين ، وابتداع مسابقات الجمال والأنجبار بها واختيار ملكات الحاسن في الشرق والغرب ، والمادة المادية في كل شيء ، ونشر صحف المحن والفسوق مثل جاذبية الجنس وما لا يجوز تلاوته إلا بين عاشقين والنصارى التي هي أقبح وأخطر من الكتب المحظورة على أذهان الشيبه ونشر الصحف الكاشفة القناع عن أسرار الجرائم تحت ستار التحقيق الجنائي وما هي إلا تحريض خفي لقراءها بطريقة الإيهام التي يجيد اليهود توجيهها نحو الجماعات والأفراد بفضل شيخ الطريقة المفضلة : فرويد وقصص الفسوق التي حذق تأليفها أمثال موريس ديكوبرا وجوزيف كسيل وأندريه موروا وعشرات أمثالهم ولا بد أن نذكر هنا ما سجلته البروتوكولات :

نحن الذين هيأنا لنجاح دارون وماركس ونيشه ولم يمنينا تقدير الآثار السبئية التي تركتها هذه النظريات في أذهان غير اليهود . وقد لاحظ كثير من الباحثين أن علماء اليهود يعملون ما في وسعهم

على هدم الأديان من طريق المذاهب الاجتماعية والسياسية والفكرية والبيولوجية وفي مقدمها ،
مذهب دور كيم ، وماركس ، ومذاهب الوجودية ، والانتطور والسريرية وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد
السياسي وعلم الأديان المقارن . ويدخل اليهود في هذه المذاهب غاياتهم وأهواءهم ويصيفونها في دقة
ومكر ، صياغة علمية لا تقطن إلى زيفها إلا العقول الراجحة ، وتظل موضع الجدل الطويل بين
الباحثين والصراع القوي المستمر بين الأمم والدول ، وهم يسخرون من الجميع . والغاية من وراء
ذلك هو تشكيل الناس في الديانات من طريق النقد وبمد علم دراسة الأديان المقارن من أخطر هذه
العلوم . وتعتمد اليهودية العالمية على نظريات قديمة من الوثنية اليونانية أو على نظريات لم نجد سبيلها
الصحيح ، كالمسيحية وغيرها . فهي تركز في الأذهان أن التنكر الأخلاق الفاضلة هو خير وسيلة
لنجاح السياسي وأن السياسة لا تتفق مع الأخلاق ، وأن على الذي يحكم أن يلجأ إلى الخيلة والنفاق
في السياسة وينص البروتوكول الأول على هذه المعاني : (الخيلة والنفاق هما القاعدة ، لا ترد أمام
شراء الذمم والغدر والاحتيال) وهي تستغل فاسدى الخلق لترويج دعوتهما كانتغل الضمف الإنسانى
فى إخضاع الناس لمبادئ هدامة ، أمام إغراء المال والذات والأطماع . (يجب ألا تعلق أهمية على
ما هو طيب وخلقى) . وهى تعلق أهمية كبيرة فى القضاء على نظام الأسرة ، والقضاء على روابط
الولاء بين أفرادها . والعمل على تشكيل العقول باستخدام التعليم والثقافة والصحافة فى تنشئة أجيال
جديدة لا تؤمن بالفضائل وللثل الأخلاقية العليا وهدم عقائد الأمم الدينية والقومية . والمهدف من
هذا كله هو القضاء على الكنيسة البابوية فى أوروبا والوحدة الإسلامية فى الشرق .

(١٠)

اليهودية العالمية فى العالم الإسلامى

(١)

إن يهود سالونيك (الدروم) هم الذين حملوا لواء الحركة السياسية للضادة لانبجاء الجامعة الإسلامية
والوحدة الإسلامية التى حل لواءها السلطان عبد الحميد بالمعارضة وللضادة والدعوة إلى التخلص من
الإسلام ومن الوحدة العربية الإسلامية وإعلان شأن الجامعة الطورانية . وقد كانت المحافل للمسوية
هى للؤسسة الحقيقية التى احتضنت هذه الدعوة ضمن مخططات اليهودية العالمية للقضاء على الدولة
العثمانية وفتح الطريق إلى فلسطين . كانت إزاحة الدولة العثمانية من طريق اليهودية العالمية هدف من

أضخم الأهداف، وهو المرحلة التالية لما حققته الثورة الفرنسية في أوروبا، وإذا كانت اليهودية العالمية قد حظمت الفكر الأوروبي المسيحي واحتوته لندفها في العاريق الذي رسمته وفق مقررات حكماء صهيون من أجل إقامة الحكومة العالمية اليهودية، فقد كانت الخطورة الثانية هي إزالة الإسلام . ممثلاً في النظام السياسي الذي تمثله الدولة العثمانية التي تضم العرب والترك والتي ترفع لواء الخلافة على مسلمي العالم جميعاً ، وإزالة الإسلام ك مفهوم متكامل قوامه نظام المجتمع ومنهج الحياة ، يربط بين الإسلام والعروبة وبين الدين والدولة .

ومن هنا كانت هذه المعركة من أخطر المعارك التي قامت بين اليهودية العالمية والاشتراكية الغربي من ناحية وبين الإسلام والعالم الإسلامي والدولة العثمانية والخلافة الإسلامية . وكان تجمع اليهود في الدولة العثمانية بعد طردهم من أوروبا وأسبانيا بالذات من الموامل الهامة في الإهداد لهذه الخطوة وخاصة بعد إعلانهم الإسلام وقيامهم في سالونيك على بوابة الغرب وبمبدأ عن النفوذ السياسي التركي، وكان لإنشاء المحافل الماسونية التي تقوم في حماية الامتيازات الأجنبية للدولة الأوروبية ، أثره البالغ في حرية التحرك ، ومن خلال المحافل الماسونية وفي أحضانها نشأت حركة تركيا الفتاة (جمعية الاتحاد والترقي) وصبغت بصيغتها وتبنت مفاهيمها العامة التي تمثل فلسفة اليهودية العالمية في مواجهة الإسلام والأديان عامة وفي مواجهة مفاهيم الاجتماع والسياسة والتربية والأخلاق وغيرها . لقد ظلت جمعية الاتحاد والترقي في نظر الكثيرين هي دعوة حق ومصدر نور وذلك بحكم ما أحيطت به من دهابة مضللة وتهويل ضخم ، ويقدر ما وضعت الأهداف الخطيرة التي تحملها في ثوب براقة وهبارات طلية ونحت أضواء ساطعة باهرة تفتي العيون وتخدع القلوب الفارغة من يقين الإيمان فقد وصفت بأنها ضد الاستبداد ونصرة الحرية ، ومحررة الدولة العثمانية من التأخر والجمود والرجعية وأنها حالة لواء الدستور والحريات . ثم لم تلبث الوثائق والأسانيد والوقائع التاريخية الصحيحة المدفونة التي تسكشف طاماً بعد هام أن أزال هذا الزيف ، وهرت هذه الزخارف وأعلنت الحقيقة كاملة وهي حقيقة مريرة ، لا تملو أن تكون خدعة كبيرة إذا امتطعت الدعوة في ملانك أن تحتوي هذه الحركة وأن تصورها في بوتقة الماسونية وأن تحولها كاملة بخدمة مخططات اليهودية العالمية بعد أن لواء فلسفتها وأهدافها وحقت بأيديها مطامع الصهيونية في إزاحة هذه القوة الضخمة وهذا الكيان الجامع بين العرب والترك وبين العروبة والإسلام .

(٢)

يقول (أرست ر. افردر) مؤلف كتاب تركيا الفتاة وثورة ١٩٩٨ وهو مسؤول تمام للولاية الاتحاديين وأهدافهم معاد كل المعاداة لأهداف الوحدة الإسلامية والسلطان عبد الحميد وترايط العرب والإسلام ، يقول في صراحة عجيبة : لم يمض وقت طويل على للتأمرين في سلايك وهي مراكز النشاط حتى اكتشفوا قائد منظمة أخرى وهي الماسونية ، إذ لما كان يصعب على عبد الحميد أن يعمل بنفس الحربة التي كان يتمتع بها في الأجزاء الأخرى من الأمبراطورية فإت المعامل الماسونية للقدمة في تلك المدينة استمرت تعمل دون انقطاع بطريقة سرية طبعاً وضمت إلى عضويتها هدداً ممن كانوا يرحبون بفكرة خلع عبد الحميد . « لذلك وجدت الجمعية المعنية بالحرية أن المحافظ الماسونية في سلايك تلائم أفراسها بصورة رائعة ، وهي ما يبدو أن الجمعية استعملت تلك الخافل أوريا جميعاً لتكون محلات الاجتماع وضمت كثيراً من أعضائها واستخدمت الفن الذي نماء الماسونية في اختيار المرشحين للعضوية .

وبعض المؤلف في كشف الموقف الغامض الذي ظل خفياً على التاريخ الإسلامي المعاصر وقتاً طويلاً فقد أخته اليهودية العالمية كما أخت بزوتوكولات صهيون أكثر من خمسين عاماً عن العالم الإسلامي والعرب فيقول : « من المؤكد أنه كان سالونيك عدد من اليهود وكان كثير منهم ماسونيون وهذا وضع يثير بالطبع كثيراً من الشكوك وخاصة في نفوس من كانوا يرون في الماسونية محاولة تقوم بها اليهودية العالمية للسيطرة على العالم وقد أدى هذا إلى أن هدداً كبيراً من الكتب تصور فيها ثورة تركيا الفتاة كظهر آخر لهذه المؤامرة الشريرة العالمية التي يقوم بها الماسون واليهود وهكذا نجد مثلاً المؤلفة التي أثبتت أن الثورة الفرنسية ما هي إلى أول نماذج تلك المؤامرة متبعة في ذلك هو نفسها تعلن : « أن حركة تركيا الفتاة نبتت في الأصل من المحافظ الماسونية في سلايك بإدارة (الشرق الأعظم) الإيطالي الذي أسهم فيما بعد بنجاح مصطفى كمال . ويؤكد لنا دارس آخر للحالة في حوالى ١٩٠٠ قرر الشرق الأعظم الفرنسي إزاحة السلطان عبد الحميد وبدأ يجهز لهذا الغرض حركة تركيا الفتاة منذ بداية تكوينها . كما نشر فردريك وختل في مكان آخر من كتابه مشيراً إلى نقاط ولسون الأربعة عشرة واصفاً إياها بأنها (برنامج ولسن الماسوني للسلم العالي) ثم يلاحظ محلل آخر : « يمكن القول بكل تأكيد أن الثورة التركية كلها تقريباً من عمل مؤامرة يهودية ماسونية . ويقول المؤلف بعد أن استشهد بهذه المصادر جميعاً لتأييد رأيه في الصلة بين حزب تركيا الفتاة وبين الماسونية العالمية :

أنهت هذه الصلة بين الماسونية وأعضاء تركيا الفتاة طالما شبه رسمى بعد الثورة مباشرة . وصرح رفيق أحد قادة الاتحاديين بعد نولى الحكم : « حقاً إننا وجدنا منذاً معنوا من الماسونية وخاصة الإيطالية فالهتلان الإطليان قدما لنا خدمة حثيثة ووفروا لنا الملاجئ فكنا نجتمع فيها ككاسونيين فكان العمل السرى يجرى فى سلاتيك فلما بشير الشكوك فى القسطنطينية كما أن عملاء الشرطة حاولوا هبناً دخوله » .

هذا النص اقتبسه المؤلف من التيمس عدد ٢٠ آب (أغسطس ١٩٠٨) للبرهنة على اعتقاده بأن ثورة تركيا الفتاة هى مؤامرة ماسونية وهو يقول على الأثر (أن المبالغة فى دور الماسونية يدخل بين آوة وأخرى كما هو الحال فى الوصف الروائى لتاريخ حياة أتاتورك الذى ألفه اره . وهذا الكتاب يسمى (Grey wolf) الذئب الأزرق ويقول المؤلف أما فيما يتعلق بأعضاء تركيا الفتاة فى أوروبا يبدو أن عدداً منهم ارتبط بالحافل الماسونية لما كانوا فى المنفى والنقص عن رسالة الدكتور أرنست باك (إلى المؤلف) . ويمضى المؤلف فى تأكيد العلاقة الماسونية وتركيا الفتاة فينقل على كتاب *The rise of nationality* لمؤلفه ستيفن واطسن : وهو رجل معروف بإطلاعه على أحوال الشرق الأدنى قوله « أن الأدعنة الحقيقية فى الحركة كانت يهودية أو يهودية مسلمة ، وقد جاءت مساهمتها المالية من الدولة الأغنياء ومن يهود سلاتيك ومن الرأسماليين العالميين أو شبه العالميين فى فيينا وبودابست وبرلين وبرما فى باريس ولندن أيضاً . كما أشار المؤلف إلى شخصية هامة فى هذه الحركة هى (أما نويل كاراسو) وهو يهودى من سالونيك كان أستاذاً أعظم فى محفل مقدونيا ونسب إليه بعض الفصل فى أنه هى بفكرة استدعاء أعضاء تركيا الفتاة للاجتماع فى الحافل الماسونية و (كاراسوا) هذا هو أحد أعضاء الوفد الذى نقل إلى هيد الحميد نبأ هزله عام ١٩٠٩ وكان عضواً فى البرلمان التركى » . هذه شهادة مؤرخ أجنبي له ولاء مع الاتحاديين (تركيا الفتاة) وهى تؤكد الحقائق التى تناثرت السنوات الأخيرة عن حقيقة الدور الذى لعبته بالأشراك مع اليهودية العالمية عن طريق الحافل الماسونية فى تمزيق وحدة العروبة والإسلام .

(٣)

والمعروف أن الاتحاديين تولوا الحكم عام ١٩٠٨ في العام الأخير لحكم السلطان عبد الحميد ، ثم تأمروا على هزله في (مارس ١٩٠٩) وظلوا يحكمون الدولة العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى .
واقعد دبرت الماسونية للاتحاديين استقبالا بارها عندما تولوا الحكم وبعد أن أسقطوا عبد الحميد ، لكن تصرفاتهم وأعمالهم لم تلبث أن كشفت القناع عن وجههم الحقيقي . لقد أعلن الاتحاديون الدستور (المشروطية) وبرهوا في القول بأنه كان ارضاءً لكل العناصر ، وأنه سوى بين جميع الأديان والأجناس ولم يكن الواقع إلا شيئاً واحداً وهو أنه أعطى اليهود حق المواطن في الدولة العثمانية وفتح لهم بذلك الطريق واسماً إلى بيت المقدس ، لقد أعطاهم الدستور العثماني في العالم الإسلامي ما أعطتهم الثورة الفرنسية في أوروبا وقد سجلت ذلك مجلة الكلمة الصادرة في تشرين ١٩١١ . فقالت : إن الدستور العثماني ككل دستور آخر خطته يد الماسونية فقد منح لليهود حق المساواة فلم يلبث اليهود في تركيا أن أخذوا يظهرن للملا ماذا يصنعون بهذه المساواة قبل كل شيء انسلوا إلى الوظائف العالية في المملكة ثم لم يمض وقت طويل حتى ظهر أن مديري دفة جمعية تركيا الفتاة هم (يهود) وبوجه فإن إعلان الدستور في تركيا قد ملأ قلوب بني إسرائيل أجمعين فرحاً عظيماً ، وأخذوا بواسطة أهوائهم يثيرون كوامن البغضاء بين الأتراك المسلمين وبين سائر الشعوب المسيحية في المملكة العثمانية وكلماروا أن نيران البغض بين الطرفين تكاد أن تتمدأ وأرارها بأدروا وزادوها وقوداً . وبما هذه الحقيقة أن جريدة (التيمس) الانجليزية إحدى الجرائد المشهورة لليهود رأيت أن تذكر لليهود بالدور الذي لعبوه في تهيج التنصاري ضد الإسلام وبتأثيراتهم مع الأولين في ذبح الآخرين ، لكن منابيح سوريا ومنابيح الآستانة ولا سيما منابيح أدنه ، ثم تذكرهم بما استعاده اليهود من وراء هذه المنابيح الأخيرة هو أن أراضى الذين ذبحوا أو هربوا من الأرض قد استملكها أحد اليهود المسمر جاويل وأسكنها يهوداً من روسيا على أن تظهرهم الوقح بلبائهم مالبث أن أهاج سكان فلسطين ولا سيما الأعراب المسلمين ضد الدولة العثمانية الدستورية وخصوصاً ضد جمعية تركيا الفتاة التي أمست من جراء استلامها لتنفيذ اليهودى مكروهة في أكثر أنحاء المملكة العثمانية .

هذا ماجعل جريدة التيمس الانجليزية المذكورة آنفاً تبادر إلى تحذير اليهود في كل مكان ولا سيما في تركيا من رخامة هواقب استعجالهم في التظاهر بأمانيتهم اليهودية . ولكن فات هذه الجريدة وسائر الجرائد التي على شاكلتها أن تلك الأمانى اليهودية مهما سعى اليهود واحتلوا بواسطة أهوائهم

على تحقيقها هيئات أن تتحقق ما دامت الأمة اليهودية موصومة بوصمة اللعنة الإلهية ، ا . ه .

(٤)

أما عن تأييد جمعية الاتحاد والترقي لليهود في بلوغ مآربهم داخل الدولة العثمانية من الوصول إلى فلسطين فإن هناك عشرات الأسانيد والوثائق .

يقول هارف الماراف في كتابه (للفصل في تاريخ القدس) : « اندس عدد غير قليل من الدوغة في حكومة الاتحاد والترقي أمثال جاويد بك وزير المالية من (سلانيك) وبساريا أفندي وزير النافعة من رومانيا وأحمد مازلباخ وزير التجارة والزراعة وكان هذا ممثلاً للجمعية الصهيونية وحمدين جاهد (بالتشين) رئيس تحرير جريدة طنين التركية فتغلغل هؤلاء في الحكم حتى أصبحت كلمتهم هي العليا وعن طريقهم وغيرهم من رجال الاتحاد والترقي سنت الحكومة قانوناً يميز للجمعيات أن تمتلك الأراضي في فلسطين ، وسنت أيضاً قانوناً آخر أجازت بموجبه بيع للزراع السلطانية (الجفلك) وكانت مسجلة باسم السلطان عبد الحميد وهي كثيرة بالمزاد العلني وعن طريق هاتين الجمعيتين تمسكين الصهيونيون من شراء أراضي فلسطين قبل وقوع الحرب العالمية الأولى . فهذه واحدة من الحقائق الكبرى التي خفيت على « التاريخ العربي الإسلامي للعاصر ذلك الوقت الطويل والتي كشفت معها ما هو أشد خطراً إذ تبين أن أقطاب حزب الاتحاد والترقي كانوا من يهود سلانيك وقد أخفوا ذلك في مهارة فقامت المناهج المدرسية في البلاد العربية جميعاً على نحو يخفي هذه الحقائق ويظهر غيرها . وهذا ما تنبه إليه العرب في السنوات الأخيرة وما يصوره الأستاذ سعيد الأنصاري الأستاذ بجامعة دمشق : « درس معلوماً في حداثتهم الشيء الكئبد من ظلم السلطان عبد الحميد الخليفة العثماني ولقنونا له تاريخاً أسوداً حافلاً بالإرهاب ونحن صفار ، كما تلقوه هم أيام الانحاديين آخر العهد التركي . ونشأنا على ذلك وبقينا عليه إلى الآن ، هذا التاريخ عند جبهة جيلنا من المسلمات التي لا يمتريها ارتياب . ثم انجلت الأيام لذوى البصائر من خلانه ، فتبين للناس أن حزب الاتحاد التركي الذي ظم ضباطه بالثورة المسلحة على السلطان واغتصبوا الحكم وبقوا على اغتصابه إلى أن تناثرت المملكة العثمانية أشلاء ممزقة ، تبين للناس أن أقطاب هذا الحزب الحقيقيين كانوا من يهود سلانيك وأنهم افترؤا تاريخاً يوافق نزعاتهم وما يلتوون فرضوه فرضاً على الناشئة في المدارس ، تاريخاً كله من صنع أيديهم توصلوا إلى هدف زعموه للناس من رفع الظلم ونشر الحرية والإخاء والمساواة . وتلك كانت شعاراتهم يومئذ فتبعهم المتحمسون من الشيبية أفراداً وجاهات لكن الغرض الحقيقي لم يكن يعرفه

إلا عدد قليل جداً من هذا الحزب أتضح بعد السنوات الطوال لنفر ضئيل من الباحثين ، وكان الفضل في إنكشافه للنسبة الكبرى : نسبة فلسطين فقد شرحت حوادث كثيرة سابقة وصححت نظرات خاطئة .

(٥)

لم يلبث الاتحاديون في الحكم إلا قليلاً حتى حملوا لواء الدعوات المنطرفة فدهوا إلى الطورانية وأذكوا العداوة بين عناصر المملكة العثمانية من أكراد وأرمن وشركس وأرثوؤط ، وكان هذا هو الديناميت الذي بمنزلة أركان هذه الإمبراطورية الضخمة ، وكان الهدف هو اختصاب فلسطين التي لم يكن في الإمكان إلا بتمزيق الإمبراطورية العثمانية . وقد كشفت أعمال الاتحاديين عن هذا المخطط الخطير : مخطط تسليم الإمبراطورية للدولة الأوربية ، ومن أبرز هذه المواقف : (أولاً) تسليم طرابلس الغرب لإيطاليا (إيطاليا التي كان الاتحاديون في حاية محافلها الماسونية) وقد كشفت الوثائق خفايا هامة في هذا الصدد مؤداها أن الاتحاديين كانوا قد قبلوا بالاتفاق مع إيطاليا التنازل عنها ولما لم يستطيعوا إعلان ذلك فقد أضعفوا حاميتها وذلك لتتمكن إيطاليا من احتلالها وقد تقدم في هذا الصدد إلى مجلس المبعوثان العثماني تقريراً يطالب بمحاكمة حتى باشا الذي كان سفير الدولة في روما عاصمة إيطاليا ثم أصبح صديقاً عظيماً (رئيساً للوزراء) للدولة . وكان يسهر أكثر لبياليه في سفارة إيطاليا يقاسم مع الرجال والنساء (المزارم ١٤) . وقد استجاشت الحوافز في العالم الإسلامي كله لمساعدة طرابلس الغرب وكان للعرب دورهم الكبير والمصريين دور هام وقصرت تركيا تقصيراً شديداً في هذا المجال ، ووقفت جميعة الاتحاد والترقي من القصة كلها موقفاً مريباً هو أشبه بالخيانة . (ثانياً) إدخال الدولة العثمانية الحرب العالمية إلى جانب ألمانيا وكان لليهود ومحافلهم أكبر الأثر في الضغط على الاتحاديين بينما كان اليهود إلى جانب إنجلترا وفرنسا يولون الحرب وكانت هزيمة ألمانيا هي نهاية الدولة العثمانية وإعلان عهد بلفور بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين وإعلان اقتداب بريطانيا عليها توطئة لتسليمها لليهود .

ويكاد ينعقد الإجماع على فساد خطة الاتحاديين وعلى تبعيتهم لليهودية العالمية والاستمالة البريطانية — يقول جلال رفعت « إن الثوريين الذين استولوا على الأمانة وخلفوا السلطان عبد الحميد باهوا بلادهم كالأسارى إلى الألمان ، إن أنور وطلمت جعلوا أنفسهم من تلقاء أنفسهم وبرغبتهم آلة للألمان وأن ثورة تركية سببا لتفويض إمبراطورية تركية ، فيمكن القول بعزم إن الثورة التركية كانت

أثراً من آثار إفساد اليهود والماسون حيث أن شباب تركيا الفتاة — الذين كان اليهود يحضنونهم مع الماسونيين الأوربيين الذين كانوا يدبرون الأمور — لم يواجهوا النجاح . إن المبادئ اليهودية والماسونية أثرت كثيراً على منشىء جمعية الاتحاد والترقى ، والذين حافظوا تلك المبادئ والتقاليد حتى بعد الثورة أيضاً حتى أن رئيس المجلس أحمد رضا بك رفض استعمال كلمة (الله) المندرجة في القانون الأسامي عند أدائه اليمين القانوني في المجلس بتأثير تلك المبادئ حيث أنه كان رجلاً مادياً وهناك مسألة جديرة بالتدقيق والتأمل هي أن اليهود المنتسبين لفرقة الاتحاد والترقى أصبحوا أصحاب الكلمة العليا والنفوذ في جمعية الاتحاد والترقى . وأن أعضاء تركيا الفتاة قاموا بتقليد الثورة الفرنسية بمختلف أشكالها . ومن جهة أخرى كانت تركيا الفتاة تقوم بالضرب على النقود كلمات (حرية — إخاء — مساواة) ومن جهة ثالثة تقوم بتطبيق المادة الأولى من اللبروتوكولات اليهودية القائلة (نحن اليهود قنا لأول مرة بتلقين كلمات الحرية والأخاء والمساواة إلى الناس منذ القدم وأن العناصر غير اليهودية شاكرون لنا عملنا هذا ، وفي نفس الوقت وبهذه الأسس حططنا أسس كافة الشعوب غير اليهودية :

وقد أكد هذه الروابط بين الماسونية اليهودية وبين الاتحاديين أكثر من وثيقة وفي عام ١٩١٠ احتفلت المحافل الماسونية ببعض زعماء الاتحاديين وتسجل مجلة المقتطف هذه المناسبة بالنص فتقول : خطب برتو بك بالتركية وقال : أثنى الثناء العاطر على الحكومة الانجليزية والأمسة الانجليزية لأنها ساعدتنا نحن الممانيين في هذا الانقلاب المبارك الذي قوض أساس الاستبداد ووطد أركان الحرية في الممالك العثمانية .

وقال : نحن الممانيون مدينون للماسونية بأكبر دين لأنها هي التي بنت في نفوس أعضاء جمعية الاتحاد والترقى روح الحرية وبها اقتدوا في إنشاء جميعهم التي فككت قيود استبدادهم . وقال : أن الماسونية هي الحرك الأول والمرشد الأكبر للجنة الاتحاد والترقى .

(١١)

دولة الاتحاديين

حكم الاتحاديون من عام ١٩٠٨ إلى عام ١٩١٨ تقريباً ، وكانت هذه المرحلة هي مرحلة التحويل الخطير من تركيا الإسلامية حاملة لواء الخلافة والوحدة الإسلامية إلى تركيا الغربية المنحرفة من روابط الإسلام والإخاء الإسلامي . وقد أعلن الاتحاديون منذ اليوم الأول معارضتهم التامة للمخطط الإسلامي وأنجهروا إلى فكرة إقامة دولة مدنية دستورية على أساس مبادئ الثورة الفرنسية وشعارها : (حرية ، أخاء ، مساواة) . وسارعت الدول الأوروبية بإثارة الأجزاء الأوروبية من الدول العثمانية لفصلها فاضمت النمسا إلى المهرسك والبوسنة وانتزعت اليونان جزيرة كريت والتهمت إيطاليا طرابلس الغرب وأعلنت ألبانيا استقلالها واكتسحت دولات البلقان الجانب الأوربي تركيا وأطلقت يد فرنسا في مرا كس . واستعلت العناصر غير التركية داخل الدول العثمانية نتيجة لتأجيج نيران العصية والجنسية فتحركت هذه العناصر للتأمر وإثارة الاضطراب . ولم تنحفي الحرية التي طالما نحدثوا عن فقدانها من قبل ، بل أن الأمور بدت أشد قسوة فقد أعلن الحكم العراقي في الدولة العثمانية ووضعت الحريات الصحفية والاجتماعية تحت رقابة شديدة بحجة مراقبة من أحموم رجعيين وإبعاد كل من كانوا على ولاء للنظام الإسلامي .

يقول الأستاذ محمد جميل بيهم : الواقع أن التبديل قد وقع ، ولكن على أسوأ حال فبينما كان السلطان عبد الحميد يعتمد على الجامعة الإسلامية التي تضم (٣٥٠ مليون نسمة ونيق) ويؤلف بها قلوب قرابة تسعين في المائة من رعيته شرع الاتحاديون يعملون على جمع شمل الأتراك حولهم حيث كانوا في روسيا وبوغسلافيا وفينا والمجر وبلغاريا وغيرها فيثيرون بذلك حفاظ الدول ذات العلاقة ويخسرون الرعايا المسلمين غير الأتراك . ولقد عمد الاتحاديون إلى إقصاء الضباط العرب عن البلاد العربية وتدخلوا في انتخابات المجلس النيابي عام ١٩١٣ حتى لم يمكنوا العرب من إرسال أكثر من خمسين نائباً إلى المجلس على حين كان عدد نوابهم سبعين . واتخذ الاتحاديون أسلوباً للمساوية في تركيز نفوذهم وهو أسلوب العنف . يقول محمد كرد علي في مذكراته : إنهم أخذوا يعملون على انتقال المعارض لسياساتهم من أرباب الأقلام في الآستانة ، وأحبوا أن يجرؤوا هذه الطريقة في الولايات وكان الدستور الذي وضعه خادماً لنظريتهم في الاستملاء على العرب وغيرهم من العناصر ومقدمة

لما جاء بعد ذلك من هودنهم إلى الجامعة الطورانية . وقد سجل كرد على ما أورده أحمد رضا في هذا الشأن حين قال : إن الدستور الذي تطالب به فيه التفوق للأتراك على أى حال ولا ينال سائر العناصر شيئاً من الحقوق التي تضر بسلامة المملكة . وللمعروف أن مجموع الدولة العثمانية كان (٣٠ مليون) العنصر التركي فيهم لا يمثل إلا ٤ ملايين بينما يمثل العنصر العربي (١٥ مليوناً) والباقي من أجناس مختلفة (اكراد . بشناق ، شركس ، روم ، أرمن) . ولا ريب أن الدستور العثماني كانت صناعته ماسونية وكانت بنوده جميعاً مرسومة في دقة لخدمة اليهودية العالمية وما يروى في هذا الصدد أن الخاخام باشي (رئيس الخاخامات في الآستانة) في يوم الاحتفال بمرور عام على إعلان الدستور في المملكة العثمانية أخذ من شدة فرحه بالحرية الدستورية يدوس برجليه أوراقاً منتزعة من كتاب الإنجيل المقدس . أما فلسطين فقد كانت أكبر هدف في التخطيط كله ، إن الضربة التي وجهت إلى مخطط الوحدة الإسلامية والترابط بين العربية والإسلام كانت تستهدف فتح الطريق إلى بيت المقدس . وكان الاتحاديون قد حلفوا البين في المحافل الماسونية على تحقيق أهداف البنائين الأحرار ، الذين سيعيدوا بناء هيكل سليمان وما كان لهم إلا أن ينفذوا قسمهم . يقول جواد رفعت أن السلطان عبد الحميد كان قد منع بيع الأراضي إلى الصهيونية في فلسطين وكافح طيلة مدة سلطته لعدم إعطاء الامتياز بذلك بكل ما أوتي من قوة في هذا السبيل وهو يأتي في رأس الشخصيات النادرة في التاريخ ، وعند مجيء الاتحاديين إلى الحكم بفضل دسائس اليهود وأموالهم بعد إهلال (المشروطية) برزت إلى الوجود مستعمرات يهودية معمورة ومنظمة جداً في مدة وجيزة في فلسطين وذلك بفضل تعاون الأنهاد والترقي والماسونية حيث استفاد اليهود الذين كانوا يترصدون الفرص منذ سنين (وقد شاهدنا هذه المستعمرات في الحرب العالمية الأولى) . وأوضح مثال لتعاون الاتحاديين مع اليهود الذين كانوا يسمون إلى تمزيق تركيا وتأسيس دولة إسرائيل ، هو تعاون تركيا الفتاة مع الجمعية الإسرائيلية .

(وقد جاء أحمد رضا إلى مصر ١٩١٧ واتصل بهذه الجمعية التي شاركت في الاجتماع الذي عقدته تركيا الفتاة في باريس) . وخلاصة القول أن أساس دولة إسرائيل قد وضع من قبل جمعية الاتحاد والترقي وفي خلال ست سنين ، أحدثت مستعمرات معمورة ، أصبحت كخافز أمامية لليهود في الأرض الموهودة . ويمكن تلخيص السبب الرئيسي في هزيمة الجيش التركي في فلسطين وسوريا ، هذه الهزيمة النكراء التي لا مثيل لها في تاريخه رغم البطولة والخوارق التي أظهرها في كلّة واحدة : هي خيانة اليهود فقط ، كان اليهود في حيفا ويافا والناصرية وطبريا جواسيساً علينا وعلى جيشنا

والرجل الذي كان يدبر هذه الشبكة هو (أرانسون اليهودي) الذي عين والياً هاماً على القدس مباشرة بعد فتحه من قبل اليهود، وإلى هذا المعنى أشار خليفة التولسي في مقدمة كتابه (بروتوكولات صهيون) حين قال : إن موقف تركيا منذ الانقلاب نجاح الأتراك والعرب واليهود لا يقتصره إلا نفوذ اليهود في تركيا فلو بقيت الخلافة العثمانية رغم ضعفها لما أمكن قيام وطن يهودي في فلسطين فتسكب اليهود تركيا لذلك بتسليط بريطانيا عليها أثناء الحرب الأولى . وكادت بريطانيا تعقد الصلح مع تركيا أثناءها ، ولكن اليهود هل رأسمهم وأيزمان وبمساعدة بعض النشاةم الذين حاولوا فحون الصلح بينهم حتى تحرب تركيا وتشعل خلالها وكشف عن أن حاجة بريطانيا إلى اليهود كانت أكبر ، كما كان لهم نصيب كبير في إلقاء الخلافة وكان لنفوذهم هناك أكبر الأثر في طرح تركيا دينها الإسلامي وقوانينها الإسلامية ومحاربة اللغة العربية والتبرؤ من صلاتها بالعرب لأن اليهود ولا سبها الدعوةم المهاجون إلى الجامعة الطورانية لتتخلص من الإسلام واللغة العربية وصلة الترتك بالعرب وكان لهذا أثره في تلوين حكم مصطفى كمال بهذه الألوان وكان حاخام اليهود في مصر من بعد (حام ناحوم) هو الذي فتح لهم باب الهجرة إلى تركيا ليكنوا بالقرب من فلسطين وهو مبعوث مصطفى كمال إلى مؤتمر لوزان .

(١٢)

الماسونية في الدولة العثمانية

ظلت للماسونية تعمل في طي الكتمان في العالم الإسلامي وقتاً طويلاً ولم تكن مخططاتها معلنة خلال تلك الفترة التي نظمت فيها وجودها في سلاطيك لابتلاع الدولة العثمانية ونحطيمها . غير أن خيوطاً قليلة أخذت تظهر بعد أن تولى الاتحاديون الحكم ونحطمت الآمال العريقة السكاذبة الذي حلقتها عليهم العرب والمسلمون المحدوهون بأنها البديل الأحسن من حكم الساطان عبد الحميد . وكان أبرزهم من كشف مخططاتها السيد رشيد رضا في (النار) والأب لويس شيخو اليسوعي في (المشرق) .

وفي حوالى عام ١٩١١ أى بعد اسقيلاء الاتحاديين على السلطة بما عين أخذت تتكشف هذه الخطط ، وقد أشار السيد رشيد رضا في وضوح إلى صلة الاتحاديين بالماسونية إذ قال : أن زعماء جمعية الاتحاد والترقي المشهورين من الماسون وأن الماسونية قد راجت بسعيهم وأنهم أسسوا لها شرعاً هامانياً رئيسه طلعت بك الذي كان ناظر الداخلية وهو الآن رئيس فرقة الاتحاد والترقي في مجلس المبعوثان

وقالت المنار : كان السلطان عبد الحميد هدوا للجمعية الماسونية لاعتقاده أنها جمعية سرية وأن غرضها هو إزالة السلطة الدينية من حكومات الأرض جميعاً وهي تتحفظ بالخلافة الإسلامية وتعرض عليها ، وقد تنفس الزمان للماسون بعد الإطراب العثماني الذي كان لهم فيه أصابع معروفة فأسدوا شرقاً هنانيا (كندا) ولأجل هذا نرى طلعت بك لا يبالي بسخط الأمة ولا برضاها في إدارته التي استغاثت منها المملكة بالسنة ولأياتها كلها إلا ولاية سلايك وسلايك الآن هي مركز السلطة الحقيقية في المملكة وإنما الاستانة مركز التنفيذ، وكان حظ عبد الحميد أن تكون السلطة الحقيقية حيث يكون (هذا إشارة إلى أن عبد الحميد نفي إلى سالونيك) . وأولى الأب لويس شيخو اهتمامه بالماسونية فكتب فصولاً مطوية في المشرق مجلد ١٣ و ١٤ وجمعها في كتاب واحد من بعد كما كتب كثيرون منها من خصوصها والكاشفين من خطرهما أمثال رشيد رضا ومن مؤيديها ودعاتها أمثال جرجي زيدان وشاهين مكاريوس وعسوف وقد أشار جرجي زيدان عام ١٨٩٩ إلى الماسونية في الدولة العثمانية فأكد أن السلطان عبد الحميد كان في ريبة من أمرها وأن مظاهرها لم تخفده ، ولكنه هاد فأشار أن الماسونية مخلصه لجلالته ولسائر الأمة والوطن وقد هلك الأب لويس شيخو على ذلك فأشار إلى أن هذا الإخلاص قد تحقق فملا حيث تفخر الماسونية بأنها هي التي قلبت سلطته . وأنها حين تشرفت برضائه قد عملت على تقويض هرثه .

وقال شيخو : إن هذه المحافل قد أخذت تشتغل في الظلام كما يعرف هادة البنائين الأحرار حتى صار الانقلاب العثماني الأخير فأخذت تباهى وتنسب إليها الحكم الدستوري ، ولم تعرض الماسونية بالإسحاب فأصغنت إلى جمعية الاتحاد والترقي واعتصمت بالجيش وجعلت تلقن مندوبيها في مجلس العموم مآربها لينفذوها على حسب مبتهاها . فجرى ما جرى بسبب هذا الاستعداد ولم يزل الأمر يتفاقم والشر يستفحل حتى سُم العلاء هذه الأحوال . ولعل سائلاً يسألنا : أجمعية الاتحاد والترقي ماسونية ؟ والجواب عن ذلك أن هذه الجمعية في أول أمرها كانت تتركب من ضباط ورجال شتموا من حالة الدولة ولعل الماسونية سمعت في جميع كلمتهم وهم لا يدرون من أمرها ولا سببها وأن هؤلاء الضباط كانوا في حاجة إلى المال والدرهم لتنفيذ ما قصدوه من قلب الهيئة الحاكمة فلما تم الانقلاب الدستوري رفضت للماسونية رأسها وهزت الفوز إلى مساهبها وصورت جمعية الاتحاد والترقي كجمعية ماسونية محضة ، وكان أعضاؤها إذا ساروا إلى هوامم أوروبا يبحثون عن المحافل للماسونية ويسلمون على رؤسائها كما فعلوا في باريس وبودابست . هل أن هذه المظاهرات فتحت أعين العقلاء فأحسوا بما أوقعتهم فيه العشرة الماسونية من التهلكة وبالمخصوص لما رأوا أن بعض زعماء جمعية الاتحاد والترقي

يريدون الضغط على مبعوثي الأمة إلى مجلس العموم لينتسبوا إلى أوامرهم التي يتفقون عليها في محافلهم السرية وكان الدستور آتة في أيديهم . وأشار السيد رشيد رضا إلى هذا المعنى حين قال عن زعماء الاتحاد والترقي : إن هؤلاء الزعماء كلهم من شيعة الماسون يجتهدون في نشرها وجعل رجال الحكومة من أعضائها كما ينشرونها في ضباط الجيش ، وقد يكون هذا تمهيداً للفصل بين السياسة والدين وتجريد السلطان من صفة الخلافة الإسلامية . وإن من لوازم تشيعهم للماسونية قوة نفوذ اليهود منهم وفي الدولة وذلك يفضي إلى فوز الجمعية الصهيونية في استثمار بلاد فلسطين الذي يراد به إعادة ملك إسرائيل إلى وطنهم الأول وإلى ابتلاع أصحاب الملايين من اليهود لكثير من خيرات البلاد . ومن أهم مقاصد هؤلاء الزعماء جعل السيادة والسلطة في المملكة العثمانية للشعب التركي والتوصل بقوة الدولة إلى اضعاف اللغة العربية وإماتها في المملكة وتترك العرب مع بقائهم ضعفاء بالجهل والضغط وذبذبة اللسان ومنع الألبانيين والأكراد من تدوين لغتهم وجعلها لغة هلبية ، وهذا من المقاصد السرية التي لا يعترفون بها على استعجالهم بتنفيذها بالعمل وبكتابة جريدة وطن .

وأشار إلى المعارضة التي قامت في وجه حزب الاتحاد والترقي ، من صادق بك وجهاته في مقاومة مقاصد الجمعيات المؤسسة في السر وكان لهذا للطلب (إهني مقاومة الجمعيات للماسونية) وقع كبير في النفوس ، وانكشف الحجاب عن أهين كثيرين عن فساد للماسونية . وأشار المشرق نقلاً عن مجلة الصباح التي تطبع في طنجة إلى صورة (العين) أي القسم الذي يتختم على كل من يدخل جمعية الاتحاد والترقي أن يقسمه ليتأتى له الاطلاع على أسرار الجمعية فإذا هو شبيه بيمين الماسون في بعض أمورهما فن جملة ما يقسم عليه الداخل قوله : (أقسم بديني وشرقي بأن لا أبوح بسر من أسرارها وأحلف بأن أنعم بالتدقيق جميع الواجبات التي تفرض علي وأطيع طاعة حياء الأوامر التي تقتضي إليها الجمعية وبأن لا أخون مصالحها ولا أخنت بيمينتي وبأنني مستعد بأن أفك بالخلوة حالاً عندما تبلغني الأوامر وبأنني مستعد لتصحبة حياتي وتسليم روحي) . وعرض المشرق للماسونية اليهودية في البلاد العثمانية فقال : إن سالونيك بها من اليهود نيف وسبعون ألفاً فلما أنشئت جمعية الاتحاد والترقي تحت سيطرة الماسونية كانت للضباط وجندهم القوة العاملة ، أما التدبير لتنفيذ العمل وإخراجه إلى حيز الوجود فكان في أيدي الماسونيين الذين تعهدوا بدفع المبالغ المالية اللازمة لذلك المشروع ، ثم نفذ بالفعل فأسرع الماسون وتربعوا مع الضباط في دمت الحكم وقاسمهم الفنائم الحيدية ، ثم تعاظمت بهد ذلك حركة الماسون حتى امتأه منها المحافظون وقاوموها بعزم أدى إلى سقوط جاويد بك وإلى وضع حد لعمل بني إسرائيل وتقلت المشرق وما نشرته الأهرام عن (جريدة الموزنج بوست) التي قالت

تخلقت جمعية الاتحاد والترقي بعد خلع عبد الحميد بأخلاق الماسونية واليهودية ولبست ثوبها ولما خبت ثورة أبريل ١٩٠٩ زالت العناصر اليهودية أهمية أكبر ، فجاءيد بك وزير المالية وطلعت بك وزير الخارجية السابق ورئيس الجمعية وجاهد بك محرر طنين ومسنشار جاويد بك الخوصوى وكاهن ماسون وأولم من سلالة يهودية فاستاء ضباط الجيش والأتراك كثيراً لتفوق بعض الأفراد ، الذين لبسوا أتراكاً حقيقيين والذي تمسب علاقتهم مع يهود أوروبا سهلة لنشر الجامعة الصهيونية ويعتقد الأتراك أن الغرض من الجامعة الصهيونية هو تأليف مملكة في آسيا الصغرى ويتواجدون من المستعمرات اليهودية المنشأة في سوريا ويخافون بأن تكون مراكز لنفوذ الأجانب . وذلك أن الأتراك لاحظوا من أمد طويل أن اليهود ولا سيما الاشكناز منهم أى اليهود (البولونيين) والروسين والألمانيات إنما هم من محبي الدولة الألمانية . لذلك استيقظ حزب الانحياز والترقي وتنبه لحرج الموقف ووجه صادق بك كل همته لمقاومة جاويد بك وزير المالية الذى ساءت الظنون لوفرة علاقته بالمضاربين ولإسباغة النعم على آله وصحبه وغيرهم من اليهود المسلمين . ويعتقدون أن سبب نهوض حركة تركيا الفتاة وعدم سقوطها عدم اعتدال لليهود الأتراك سواء كانوا مسلمين أو يهوداً أحراراً فهم يحاولون أن يحصلوا على نفوذ كبير من غير أن يفنكروا بأن سعيهم بشيخ غيرة الأتراك وحسبهم ، وأعظم غلظه أرتكبوها أنهم رضوا بأن (كاسو أفندى) الماسونى اليهودى يكون من الوفد الذى حل الفتوى إلى عبد الحميد بحلله وقد ارتكبوا بعدها عدة أهلاط والآن صارت الأهلاط تبدو وتظهر . ومرض الأب لويس شيخو إلى المدافعين عن الماسونية في الدولة العثمانية فذكر فيليكس فارس وأمين الريحاني وسليمان مندر وأديب مظهر وأبى حلقه كما ذكر يوسف الحاج وأشار إلى شعارها الذى وضعه أكبر زعمائها « فولتير » : أ كذبوا أ كذبوا فلا بد أن يملق فى العقول شيء من كذبكم وقال أن الماسونية في حينها الحاقدة قد انشئت في انكلترا لتأييد البروتستانتية ومناهضة الكنتلكة ويقول : أن الماسون ويطلق عليهم اسم (الفرسمون) ينقسمون في أمور كثيرة إلا في أمر واحد وهو مقاومة الكنيسة الكاثوليكية وأربابها .

وقال : أن هدفها التحرر من ربة الشرائع وقبود الآداب ونوايس الدين وأنهم يعملون على قنص أركان الهيئة الاجتماعية وخراب صرح المدينة والعمران . وقد صدق جواد رفعت حين قال : إن فرقة الاتحاد والترقي قد ولدت فعلا في المحفل الماسونى (ماكدونيا) المؤسس من قبل (قاره صو) اليهودى السلانيكى . وبعد فهذه هي المقدمات الحقيقية لتزريق وحدة العرب والمسلمين والفصل بين العرب والإسلام ومحاولة تخطيط تلك الرابطة التى كانت على ضعفها في الفترة الأخيرة مصدر قوة ،

والتي أخذت تنمو من جديد حين حمل السلطان عبد الحميد لواء الدعوة لتتجمع باسم الخلافة الإسلامية خير أن القوى الاستعمارية واليهودية العالمية كانت حريصة على أن تحطم هذا المصرح الضخم ، تحطيمها سياسياً يمزق الدولة العثمانية ذاتها واجتباها يمزق الفكر الإسلامي نفسه. ولذلك فقد ارتبطت الحلة على الجامعة الإسلامية بالدعوة إلى القوميات وإعلاء شأن الأقليات ونصرة المجلس والدم والعصية العنصرية فأخذت تغذي دهوات متعددة في وقت واحد في مختلف أجزاء الدولة العثمانية والبلاد العربية وأهم هذه الدهوات : الجامعة الطورانية في تركيا والحركة الفيليقية في لبنان والمصرية للفرهونية في مصر وبذلك بدأ ذلك الانقسام الفكري والمصراع القومي ، يزهزع مقومات الرابطة العربية الإسلامية ويهزها من الأعماق .

وقد حدث هذا في نفس الوقت الذي بدأت فيه اليهودية العالمية تبرز دهواتها الخطيرة القومية الصهيونية وتحاول أن تركز نفوذها في فلسطين بعد إسقاط السلطان عبد الحميد توطئة لما تفقد بعد الحرب العالمية الأولى من مخططات انتهت بعزل البلاد العربية عن الدولة العثمانية وإقامة تركيا الحديثة بدلاً منها وإصدار وعد بلفور لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين .

(١٣)

رجال الاتحاد والترقي

إن أدنى مراعاة لشخصيات رجال تركيا الفتاة والاتحاد والترقي تكشف بوضوح عن حقيقة هذه الحركة واتجاهاتها . ولعل من أبرز شخصيات هذه الحركة : أحمد رضا الذي قاد الحركة سرّاً في أوروبا ورأس بعد الانقلاب مجلس النواب وهو من أبرز الماسون في سالونيك وأوروبا وقد وصفه أرنست راضور مؤلف كتاب تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ بأنه أبرز رجال الحركة فقال أن أمه تمسوا به أما أبوه فكان يعرف باسم (انكليزي على بلك) نظراً لميوله للإنجليز وحبه لهم ، أما من حيث المظهر فكان أبعد ما يكون عن تصور الأوروبيين للأتراك ، وكان من الذين وقعوا تحت سطوة فلسفة أوجست كوت فأصبح من أتباع الفلسفة الوضعية في باريس ، وكان له عليه سلطان بعيد الأثر في حياته وتصرفاته جميعاً ، وقال أرنست في هذا : أن أحمد رضا باعته مؤيداً طليماً للفلسفة الوضعية لم يكن مسلماً صالحاً لأن أوجست كومت لم يكشف فقط بإعادة تنظيم العالم لأتباعه ، بل وضع لهم أيضاً تعاليم خاصة بالدين : لقد كان دين الإنسانية الذي نادى به كومت في هذه الفترة له عدد من الأتباع في

فرنسا يقوم (بيير لافيت) إلى أن مات سنة ١٩٠٥ وفي إنجلترا كانوا بقيادة (فريدريك هاريسون).

وكانوا يقيمون شعائر دينية منظمة ، وقد استطاع أحمد رضا أن يقنع نفسه بأن الإسلام يشبه فلسفة كومت أكثر من أي دين آخر ، وأعلن أن الإسلام لهذا السبب مستمد أكثر من أي دين آخر لتكييف نفسه لفكرة كومت القائلة بالدين العالمي الذي مركزه باريس شأن مبادئ كومت الأخرى . لقد كان للنيل الأعلى له : مزج كافة أجناس الأبراطورية للمسلمين واليهود في أمة واحدة لها حكومة مركزية على الطراز الفرنسي . ويقول : « لقد أطلق أحمد رضا على الأشهر والأسامي أسماء رجال اعتبرهم كومت أهم من في تاريخ العالم فأخذ أم ثلاثة عشر منهم وأطلق أسماءهم على الأشهر وقد استخدم رضا التقويم الغريغوري أيضاً ولكنه تجاهل التقويم الهجري الآسيوي » . هذا النموذج على النحو الذي صورته له المؤلف الأوربي يكشف بوضوح عن الاتجاه التفريبي للسرف في الاتجاه إلى أوروبا وإلى الفكر الغربي » بحيث يخلج أولئك الذين يدعون أن هؤلاء الطلائع إنما كانوا يريدون تحرير الدولة العثمانية من التأخر بينما كانوا يريدون أن يجعلوها أشد غربية من أوروبا نفسها . ويكشف خطاب أحمد رضا على قبر (بطرس لافيت) في باريس عام ١٩٠٦ إلى أي حد بلغ اندفاع زعماء الانحداد والترف إلى التفريب ومحاولتهم الانفصال عن الشرق والإسلام والفكر الإسلامي . يقول :
بني دني الأهرزاء :

إن العرب من أبناء الجيل الثاني في الإسلام كانوا يستفدون أن السفر إلى أقاصي الأصقاع لزيارة مكة والإصغاء إلى ما يلقىه أغلبية من كلمات محمد التي انطلقت نورها قبل مدة واجب مقدس وكانوا يمدون أيضاً هذا الواجب لسماعتهم . وكأنما كان لي من هذه السادة نصيب حتى الملت شرف رؤية خليفة دين آخر في باريس والاستماع له لأنني بواسطة (بطرس لافيت) كنت مظهر سعادة التعرف بأخست كونت وإدراك درجته وقدره . كانت آرائي في دين (البوزينفيرم) عند وصولي إلى باريس مضطربة وناقصة وأن كتاب الدكتور روبينه — اللهم الذي كان مبدأ معارفي — لم يكن بعد قد زلزل ما في نفسي من عبادة المادة بالمادة بدرجة كافية ، ذلك لأنني وإن كنت قد تخلصت من عقائدي الدينية الماضية ولم أكن قد تهيأت حقيقة لقبول دين جديد ، ومن أجل ذلك تأثر اثنان أرثوذكسيان تطبقي التي أقيمتها على قبر أوغست كونت عام ١٨٩١ وقد صرح لي هذان الرجلان بأنها لم يجدا في نفسي أثراً كافياً للتدين في أي لم يكن تديني بدرجة غير كافية فقط بل إنني لم أكن متديناً قط وبعبارة أصبح لم يكن شعوري الديني قد توازن في نفسي .

فن الواجب علينا احترام هذا المجتهد الفيور (بمعنى بطرس لا قايت) لأنه وفق إلى نشر ديننا
المنين ، والتبشير بكل ما تقتضيه عظمته . وتكفي هذه النصوص لتصوير حقيقة ما ذهب إليه
الاتحاديون ، فهم لم يكونوا كما حاولت بعض المصادر أن تدافع عنهم يريدون أن يحرروا أو طائمتهم
أو يحرروا فكرهم وإنما كانوا قد انغمسوا في ولاء خطير لفكر غريب يخرجهم إخراجاً كاملاً من
أفئدتهم وفكرهم وقد خلق على هذه الخطبة مترجماً السيد محب الدين الخطيب فقال : « لم يكن أنصار
الإسلام يقدرّون عام ١٩٠٦ ما سيكون للإخاد والإخاد أمثاله من نتائج في تركيا ، بل كانوا حتى عام
١٩٠٨ يظنون أن الدولة التي هؤلاء بعض رؤسائها هي عصمة الإسلام ومناط عزه ، وعما لا شك فيه
أن البذور التي بذرها هؤلاء هي التي أنشأت فيما بعد كل الأحداث التي تمت في عهد السكاليين ، ومنشأ
ذلك كله أن التعليم كان يخرج متعلمين يجهلون الإسلام ولا يشعرون بالوفاء لرجاله .

وتمطى شخصية أحمد جمال [الذي أطلق عليه من بعد اسم السفاح] وجهاً آخر لزعماء
الاتحاديين ، فقد كان من المشيعين بالهزعة الطورانية ، وقد عين قائداً عاماً في جبهة القتال مع
سلطات فوق المادة لحكم سوريا بأجدها وقد خدع العرب حتى اقتنص زعمائهم فتفى الصغير وشنق
الكبير ، وكان قد بدا حكمه في دمشق على نحو أشد ما يكون مكرراً فتعجب إلى العرب وأثار حماسهم
القوى حتى إذا وضع يده على زعاماتهم ساقهم إلى ديوان المجلس العربي العسكري . وكان قد دبر
المنذبة الأولى في أدنة إذ كان والياً عليها بعد الدستور وهو الذي قتل الجيم الفخير من كبراء الأستانة
المخالفين للاتحاديين ، وقد اختاره الاتحاديون لتنفيذ ما توعدت به سوريا جريدتها طنين من قبل .

(١٤)

تمزيق العالم الإسلامي

(١)

الإرساليات التبشيرية

كانت خطة تمزيق « الدولة العثمانية » هي الحلقة الأولى في الغزوة الاستعمارية التي بدأتها أوروبا منذ القرن الخامس عشر بعد سيطرة محمد الفاتح على القسطنطينية ، غير أن الأمر لم يكن من السهولة والبسر إزاء قوة هذه الدولة الإسلامية الكبرى وسيطرتها ومن هنا فقد انجبت الغزوة الاستعمارية إلى تنفيذ المشروع الذي أطلق عليه : « تطويق العالم الإسلامي » . ويرى إلى الوصول إلى القدس من طريق الهند ، ذلك أن الدولة العثمانية كانت قد سيطرت سيطرة كاملة على شرق البحر المتوسط ومن هنا فقد كانت السيطرة عليها هي آخر للراحل في هذه المعركة المريرة التي امتدت نيفا وأربعة قرون . ومن ثم أصبحت الدولة العثمانية هي الهدف الأخير . وكان تمزيق الدولة العثمانية هو الهدف المشترك بين الاستعمار الغربي واليهودية العالمية الجارية في ركابه والتي يدفعها هدف واضح هو : الاستيلاء على بيت المقدس وفلسطين بعد أن تقوم قوات الاستعمار بتخليصه لها من أيدي المسلمين والعرب . وقد كشف ذلك تصريح الورد القني في القدس عام ١٩١٧ عندما أعلن أن الحروب الصليبية قد انتهت ، ثم جاءت الكتائب اليهودية (برباره توخان) لتقول : إن دخول الجنزال القني إلى القدس حيث نجح فيها أخفق فيه (ريكاردوس قلب الأسد) قد جعل (إسرائيل) الآن قد أصبحت حقيقة واقعة ، وقالت « وكذلك لم يكن بإمكان النبي أن ينجح لولا محاولة رينشارد ، أي لو لم تكن النصرانية قد أقامت في أصل الأساس الذي يحمل النصراري على التعلق بالأرض المقدسة ، وإن من غريب التهكم أن يكون اليهود قد استعادوا موطنهم وإلى حد ما بفعل الدين أعطاهم للأمين » . لقد بدأ الاستعمار خطته في سبيل السيطرة على العالم الإسلامي بتخديم الدولة العثمانية واقتطاعها جزء بعد جزء ، بادئا بالجزائر لفرنسا وعصر لبريطانيا . غير أنه فيما بين عامي ١٨٩٠ و ١٨٨٢ اقتطع جزءا آخر له أهميته الكبرى وهزل عن الدولة العثمانية وأقام عليه مركز خطير لتنفيذ المخطط الاستعماري اليهودي كاملا ، ذلك الجزء هو (لبنان) . فقد عمد النفوذ الاستعماري فيما

قبل عام ١٨٦٠ إلى عزل هذا الجزء من العالم الإسلامي ليكون نواة حركة الغزو العسكري والشماني في الأرض العربية . فقد أثار الصراع بين ساكنيه الدروز والمارون (أو بين المسلمين والمسيحيين) إلى الحد الذي حقق للدول الأوروبية التدخل باسم حماية العناصر . ومن ثم أمكن فرض نظام جديد يجعل من لبنان « كياناً خاصاً منفصلاً عن الدولة العثمانية » . أما الأحداث فقد كانت مفتعلة بشهادة كل المؤرخين المنصفين من خلال النصوص الموثوق بها وفي مقدمتها تقرير سير رينشارد وود ينكشف الهدف الحقيقي لهذا الصراع الذي غذاه الإنجليز مع الدروز وغداه الفرنسيون مع المارون حتى اقتتلوا وهنا لتحقيق الهدف وهو تدخل الدول وعزل لبنان عن الدولة العثمانية وتحريرها تماماً من نفوذها وفتحها على مصراعيها على الغرب حيث أخلت يؤدي دوراً تاريخياً بعيد الأثر في تمزيق العالم الإسلامي والدولة العثمانية عن طريق التبشير والإرساليات الأجنبية والمنظمات الفرنسية والأمريكية والحافل الماسونية . وكتب السيد رينشارد وود الذي كان قنصلاً للدولة البريطانية في دمشق عام ١٨٦٠ هذا في تقريره الذي رفعه إلى دولته ونشر عام ١٨٧٨ قال : « إن الذي يبحث دقيقاً عن أسباب الفتن التي سفكت فيها الدماء في الشرق يعلم أن الباعث الوحيد على حدوثها هو أصبح السياسة الأجنبية التي تنهز الفرص لإيقاد ناز الفتن بين ذوى الأحقاد ومن هذا القبيل واقعة الدروز والموارنة ، وواقعة الصقالبة والبلغاريين فقد تبين أن الاهتداء إنما يبتدىء من جانب النصارى » . وقد تعرض الكثيرون لهذه الأحداث وكشفوا افتعالها أساساً وأبانوا عن مصادرها الخارجية وقد أشار (زين الدين نور الدين) في كتابه (نشوء القومية العربية) إلى أحداث سنة ١٨٦٠ فقال إن الحوادث كانت مفتعلة ، وأنها كانت مقدمة لفصل لبنان عن العالم الإسلامي ، فقد « طالب الموارنة بالانفصال التام عن الامبراطورية العثمانية » .

وعارض الكاتب ما قاله (جان ريمون قنصل فراسا في بغداد) حين ادعى أنها حركة قومية ولم تكن حرباً طائفية . وقال إن هذه الأقوال الجارفة خاطئة ولا مبرر لها ، لأن الحركة المناوئة للأتراك في لبنان في القرن ١٩ كانت بوجه الإجمال مارونية لبنانية ولا يمكن اعتبارها ثورة عربية وطنية في الشرق العربي ضد الحكم التركي فلم تكن غالبية المسلمين الساحقة في الولايات التي يحكمها السلطان ترهب إذ ذاك في الخروج على الحكومة الإسلامية والقضاء عليها ، وأشار إلى هدف الغرب من هذه الحركة وهو جعل لبنان « ممراً رئيسياً يهزمه الفكر الغربي والحضارة الغربية إلى البلدان العربية في الشرق الأدنى » . ذلك أن لبنان كانت « أشبه بمر تعبره التيارات الفكرية الغربية إلى الولايات الإسلامية في الامبراطورية العثمانية » وقد كان معظم المسيحيين يتجهون بأبصارهم نحو

الغرب المسيحي ولا سيما فرنسا على أنها منارة من منائر الحضارة الغربية . ومن هنا فقد ركز الغرب على لبنان في إقامة الإرساليات وللعهاد الغربية التي « حملت لواء ربط البقعة العربية بالغرب والقومية الإقليمية » . وكان المصنف الغربي واضحاً من رواء ذلك هو كما نلخصه (زين الدين نور الدين) :
 أولاً — « أهمية الغربية الغربية في إيقاظ العرب السياسي ، ونشر الأفكار الديمقراطية الغربية عن طريق للعهاد الغربية والبعثات التبشيرية من فرنسية وأمريكية وروسية » . ثانياً — العمل على تنشئة جبل جديد على أسس غربية في الشرق الأدنى ومن هنا قد بدأ اليسوعيون عام ١٨٣١ في سوريا ولبنان معاً وكان الأمريكيون قد سبقوهم عام ١٨٢٠ . وأثمر العمل الواسع : الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأمريكية) ١٨٦٦ وجامعة القديس يوسف اليسوعية ١٨٧٥ . ولم يقتصر عمل هذه الإرساليات على النشاط الديني وحده وإنما أدى إلى :

أولاً — إثارة الشك والريبة في نفوس غالبية السكان من المسلمين في هذه الديار . ثانياً — كان سبباً في إثارة النزاع الطائفي بل إذكاء نار العداوة والبغضاء بينهم . ومن للقرر أن بعض الإرساليات « كان لها مصالح في الشرق الأدنى » ، وكانت ترى أن من واجبها تقرير النفوذ السياسي لدولها في المنطقة ورعاية مصالحها فيها ، مما جعل أفرادها يحاولون بنشاط وهمة حرس محبة أوطانهم في قلوب تلاميذهم الذين يؤمنون مدارسهم . بل أن مناهج الدراسة في هذه الإرساليات كانت تشمل بشكل واضح وشامل : تاريخ الديانات والتوراة ، ودراسة الكتاب المقدس دراسة أساسية . وقد كانت هذه المؤسسات تتنافس فيما بينها على اجتذاب أكبر عدد من الطلاب نحو غاياتها وأهدافها القومية الأجنبية بالطبع . وقد نوه كثير من الكتاب بجهود الإرساليات ودورها الهام الخطير وأشار إليها فليب حقي في كتابه لبنان في التاريخ وقال إنها كانت الحافز الأول في إيقاظ الحياة الفكرية وأنه بواسطتها (كان النصاري من سكان البلاد أول من نال قسطاً من الثقافة الغربية) وأبدى العجب من أن العون للمالي كان يرد اليسوعيين من وزارة المعارف الفرنسية بينما اليسوعيون مطرودون من بلادهم وذلك في عام (١٨٨٢ تقريباً) . وأشار هنري لافتليه في كتابه تاريخ تركيا إلى أهمية هذا العمل فقال : إن إرساليات التبشير التي ارتادت الشرق الأدنى تألفت بانتظام من قبل هنري الثالث وترعرعت ونمت في عهد هنري الرابع ولويس الثالث عشر وبلغت ذروة الانتشار في حكم لويس الرابع عشر (١٦٦٠ — ١٧١٥) الذي ألقى على عائق الحزوبت هذه اللبنة . فإلى على هائفهم مهمة سياسية خطيرة ذلك أنه كان عليهم لقاء إدراك الخطوة ألا يقتصر على التبشير فحسب ، بل كان عليهم أن ينفقوا إليه المعلومات عن عادات البلاد ولغاتها ومحاصيلها ونجارتها وتاريخها ، كما أنهم كانوا يتلقون منه

الأوامر والتوجيهات ولا سيما من وزارة الخارجية التي كانوا يواصلونها بالتقارير والخطوط . وهذا النص وحده كاف في الكشف عن خطورة المخطط وهدفه ودقته في تمزيق العالم الإسلامي والسيطرة عليه فكرياً وسياسياً من طريق مؤسسات ثابتة في أرضه تخدم حماية ضخمة ورعاية مادية كبرى . كما أشار كمال الصليبي إلى « الدور المهم الذي لعبته البعثات التبشيرية الأوروبية في البلاد » في كتابه : تاريخ لبنان الحديث . هذا العمل الذي بدأ عام ١٨٢٠ تقريباً فما كاد ينتهي القرن ١٩٠٠ حتى أصبح لبنان « بلا منازع أكثر أجزاء السلطنة العثمانية تقدماً في مجال التربية العامة » على حد تعبيره . حيث أصبح به ١٣ مطبعة في بيروت وجبيل لبنان يتدفق منها سيل من الكتب العربية في مختلف الموضوعات فضلاً عن ٤٠ نشرة دورية وخمسة عشر جريدة صدرت بين ١٨٧٠ إلى ١٩٠٠ . ويضاف (هنري بجنر) في كتابه سوريا ولبنان منذ نصف قرن : لماذا اختيرت بيروت وليست دمشق مركزاً للمؤسسات الأوروبية ويورد الحجج التي ترجح كفة بيروت . أما عبد العزيز محمد هوض في كتابه (الإدارة العثمانية في ولاية سوريا) فيشير إلى أن « النشاط التبشيري قد تركز في ولاية بسيرت ومتصرفية جبل لبنان ، وقد بلغ مجموع المؤسسات التبشيرية في بلاد الشام عام ١٩١٢ (٣٨ مؤسسة) من دول أوروبية متعددة . كما استطاع الفرنسيون أن يؤسسوا اثني عشر إرسالية في شمال ووسط سورية مستخدمين فيها وهبائاً معظمهم من الفرنسيين ، كما انتشرت كذلك الإرساليات الأمريكية وبدأت تمارس نشاطها منذ بداية القرن ١٩ في جميع أنحاء بلاد الشام من الشاطئ السوري حتى بداية الشام ومن القدس جنوباً حتى حلب شمالاً أكثرها في مدن القدس وبيت لحم » .

وقد وجدت الإرساليات التبشيرية في البلاد العثمانية حرية كاملة للعمل نتيجة للحقوق التي حصلت عليها من الدول الأجنبية من طريق « الامتيازات الأجنبية الممنوحة لها ضمن الحماية الأمريكية أو الفرنسية » ومن خلال هذه الامتيازات استطاعت أن تمارس نشاطاً تبشيراً واسعاً ، ولم تتوقف هذه الامتيازات إلا عام ١٩١٤ حينما ألغتها تركيا بعد نشوب الحرب العالمية الأولى . غير أن الدولة العثمانية واجهت هذا الخطر ، خاصة خطر استحالة نجاح المعلمين الأجانب في كسب الناشئة لتكوين ولاء بينهم وبين البلاد صاحبة الإرساليات . وقد سارعت الدولة العثمانية إلى فتح مدارس كثيرة في المناطق التي انتشرت فيها مدارس التبشير ، واستخدمت عدداً من الوعاظ لتلقين هشائر البدو مبادئ الإسلام والرد على اقتراءات المستشرقين ، كما أقامت المراقيل أمام للبشرين وفرضت عليهم رقابة شديدة . ولكن الأمر كان في (متصرفية لبنان) غير ذلك تماماً فقد كان النظام الذي فرضته الدول عام ١٨٦٠ وبعد عام ١٨٦١ قد كفل الإرساليات في بيروت وما حولها حرية العمل ، واستطاعت أن تفرى كثيرين من شباب المناطق المختلفة في سوريا وفلسطين وغيرها من المسلمين .

(١٥)

لبنان مركز التجمع

لماذا اختيرت لبنان لتكون مركزاً لأخطر تجربة في خطة تمزيق العالم الإسلامي ، لقد كانت لبنان بتركيبها الطائفي وصلاتها مع أوروبا قاعدة خطيرة لهذه الحركة التي كانت بعيدة المدى في تحطيم الرابطة الجندرية بين العروبة والإسلام ولها أبعد الأثر في تمزيق الوحدة العربية التركية وإسقاط السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية والانحلال الإسلامية حتى ليتمكن أن يقال أن هذا العمل الذي احتضنته لبنان وهو « فتح العالم الإسلامي سلمياً » هو الشق الثاني لمخططات الماسونية وهو المكمل لها . لقد وصفت حركة التبشير من قبل القاعين بها بأنها إجراء تؤدي إلى فتح العالم الإسلامي وهي ترجمة حرفية للكتاب الذي ألفه ا . ل شاتليه من مخططات التبشير تحت عنوان :
(La Conquête Monde Musulman)

ويرد الباحثون علاقات فرنسا بالموارنة في لبنان إلى أقدم من القرن السابع هجر ، يردونها إلى عام ١٢٥٠ م . ويسجل ذلك كتاب من لويس التاسع ملك فرنسا أرسله من عكا إبان الحروب الصليبية إلى أمير موارنة لبنان وإلى بطريرك وأساقفة الطائفة : هذا نصه : « إن قلبنا امتلأ فرحاً حينما أقبل علينا ولدكم مسمان على رأس خمسة وعشرين ألف مقاتل يحمل إلينا الشهادة الحسنة على مواطنكم الطيبة . نحن موقنون أن هذه الملة التي تنسب إلى القديس مارون هي جزء من الأمة الفرنسية » . وقد أشار بطرس حبيقة في كتابه (الأحوال الشخصية في الجمهورية اللبنانية) إلى الصلة بين لبنان وفرنسا إبان الحروب الصليبية وقال « وكان لهم منها الهداة والقادة المخلصون في اجتياز طرق هذه البلاد الصعبة التي كانوا ينتقلون لفتحها من حاضرة إلى حاضرة حتى أورشليم » . والمعروف أن (الموارنة) جماعة من السريان السوريين ينسبون إلى الراهب (مارمارون) كانوا يقبمون الكنيسة الشرقية ثم اتبعوا الكنيسة الغربية ، وقد أخذت الجمعيات الكاثوليكية للغربية وفي مقدمتها جماعة الجزويت تحتضنهم وتتولى تعليمهم اللغة الفرنسية عن طريق مئات المدارس التي قامت بإنشائها فازدادوا بذلك ميلاً نحو فرنسا وأصبحوا أداة طيعة في يدها وكان لذلك أثر كبير في حوادث ١٨٦٠ . والمعروف أنه لما انتهت الحروب الصليبية بانسحاب الصليبيين من سوريا كتب اسكندر الرابع رسالة إلى البطريرك مسمان (أو شمعون) ١٢٤٥ م يوصيه فيه خيرآ ، بالافرنج الموزمين في انطاكية الذين فروا إلى لبنان وأن يرعاهم ويحميهم .

وهكذا ظلت العلاقات قائمة وسارية طوال هذه الفترة ، وكانت الدول الأوروبية واليهود يعملون على إضعاف الدولة العثمانية من أجل العودة إلى بيت المقدس ، ثم انتمشت فكرة استرداد بيت المقدس منذ القرن ١٧ . وأخذت فرنسا تنجح إلى تركيز بعثاتها التبشيرية في لبنان ، ويقرر محمد جميل ييم أن فرنسا والموارنة كانوا يهدفان إلى تنصير الدرروز حتى لا تبقى في لبنان قوة معارضة إذا صنعت الفرصة للاحتلال ، والمعروف أن فرنسا كانت قد أعلنت أنها حامية الطوائف الكاثوليكية في الشرق ، وقد شغفت هذه الحماية بإرسال البعثات التبشيرية . وقد أشار فيليب حتى إلى أهمية لبنان في مجال الفرو للعالم الإسلامي والبلاد العربية بالذات حين قال : إن لبنان أول بلد حرر نفسه من يوثقه القديم فإنه أصبح مركز إشعاع فكري ، يشع منه نور الفكر والتحرر إلى البلدان العربية ومع نجاحه مع الحضارة الأوروبية يختلف لبنان عن تركيا في أن تركيا فرضت الحضارة الغربية على أبنائها بقانون كانت تعاقب بموجبه من لا يتقبل الحضارة الغربية . ثم أكد هذا الهدف مرة أخرى حين قال : إن جميع الأحداث والتغيرات التي طرأت عليها (البلاد العربية) من سياسية واجتماعية واقتصادية وروحية وهنكية يمكن ردها مباشرة أو بالواسطة إلى هذا العامل .

والواضح أن حمل الإرساليات التبشيرية قد تركز في المدرسة والجامعة وفي المطبعة والصحافة وإنه حل معه لواء فكرة جديدة حاول بثها والدعوة إليها بشق الوسائل وليست هذه الفكرة في حاجة إلى إيضاح طويل إذا كان قد تقرر أن هذه الإرساليات التي أوفدتها فرنسا وأمريكا كانت تهدف إلى إعداد أرضية فكرية وخلق جيل جديد يجعل الأمور سهلة من أجل تمزيق الدول العثمانية وإحلال فلسفة جديدة بدلا من الجامعة الإسلامية على أن تكون هذه الفلسفة عاملا هاما في تمزيق الرابطة الجنترية بين العروبة والإسلام وخلق دهورات إقليمية أو علمانية عربية ، يكون التركيب فيها على الفصل بين العرب والترك من ناحية ثم بين العرب أنفسهم ، وذلك عن طريق مناهج جديدة عن القومية السورية والسكيان اللبناني والدعوة الطورانية والدعوة الفرعونية والدعوة الفيليقية وهكذا من ناحية أخرى . ١ — أما المدرسة فقد حملت من خلال خطط دقيق نواها : (١) إعلاء شأن التوراة والصلاة المسيحية التي تفتتح بها الدروس وتختتم .

(٢) دراسة الأديان دراسة مقارنة من وجهة نظر الفكر الغربي . (٣) التنسك والتسخرية والتحقير للتاريخ العربي والإسلامي . (٤) رفض القول بأن هناك فلسفة عربية أو فكر عربي إسلامي أساساً . (٥) امتنان القيم الأساسية للإسلام والتاريخ واللغة العربية . (٦) إعلاء

شأن البطولات الغربية والمسيحية . (٧) الفصل بين المروبة والإسلام ، وبين العرب والترك .
 (٨) إذاعة مفهوم قوى علماني للمروبة وإعلان شأن الإقليمية السورية . وأماننا نص خطاب دانيال
 بلس مؤسس الكلية السورية في بيروت عندما فتحت أبوابها ١٨٧١ وهو قاطع في تهديد هذه
 السياسة ، قال : إن هذه الكلية هي لكل الأحوال ولكل أنواع البشر دون أي اعتبار لقول أو
 القومية أو الجنس أو الدين ، فيمكن لأي رجل أبيض كان أو أسود أو أصفر ، مسيحياً كان أو يهودياً
 أو مسلماً أو وثنياً أن يدخل الكلية ، ثم يخرج منها مؤمناً بالله واحد أو بآلهة كثيرة أو غير مؤمن
 بأي إله ، خير أنه يستحيل على أحد من الناس أن يبقى عندنا طويلاً دون أن يعلم ما يؤمن أنه حق
 والأسباب التي تدعونا إلى هذا الإيمان . إن نظام ١٨٦٩ هو الذي أعطى الدول الأوروبية حق
 الإشراف والتحكم والسيطرة داخل لبنان ، الذي يحكمه متصرف مسيحي من غير أهله يماونه مجلس
 مؤلف من طوائفه على أساس للسواة .

ولا شك أنه كان ولاء المارونيين والطوائف غير المسلمين لفرنسا عاملاً هاماً في مقاومة حكم
 الدولة العثمانية وخاصة بعد أن أعلنت خطة الجامعة الإسلامية ، فكان هدف الإرساليات أن تكون —
 وقد استطاعت أن تكون فعلاً — جيلاً لبنانياً يحمل الحق والكرامية للمروبة والإسلام والدولة
 العثمانية واستطاعت أن تقيم هذه الكرامة على أساس فلسفة علمية قوامها استقلال الشام أو سوريا
 العربية منفصلة عن الدولة العثمانية وعن مصر وعن الجزيرة العربية كما صور هذه الدولة المرتجاة ،
 نجيب طازوري في كتابه ، كان المهم في نظرم هو إسقاط عبد الحميد وتمزيق الدولة العثمانية وفتح
 الطريق لليهودية العالمية إلى القدس : ولقد استطاع الاستعمار الغربي من طريق هذا المركز القوى
 هدم الرابطة الجنسية بين الإسلام والمروبة ، ومواجهة الوحدة الإسلامية بفكرة المروبة المحدودة ،
 أو للمروبة السورية وكانت مدارس الإرساليات في مناهجها تقدم هذه الدعوى كما حملتها حركتنا
 التبشيرية والماسونية . وكانت هذه الخطة هي نقطة البدء ، في الفصل بين المروبة والإسلام وبين العرب
 والترك وبين لبنان والأمة العربية وإعلاء نزعة الأجناس والعروق والدماء على رابطة الفكر
 الجامع للعرب والترك واسم الإسلام وحضارته .

٢ — ولقد بدأت هذه الإرساليات خطتها على نحو معين ثم لم تلبث أن خيرته ، بدأت دراستها
 باللغة العربية ثم لم تلبث بعد سقوط السلطان عبد الحميد أن تحولت عنه فقد كان ذلك وسيلة مرحلية
 من وسائل الفصل بين العرب والترك . أما التحول الآخر فهو اقتناع العاملين في الإرساليات « إن

التبشير الديني الذي تميزت به جهود المسلمين في باقى الأمر أخفق لأن هذه الرسالة الدينية لم يكن لها في نفوس الناس الأثر أو الصدى الذي يترقبه المرسلون ، فبدأ التبشير الديني يحتل مرتبة أدنى أخذ المرسلون يدركون أهمية السيطرة على مناهج التربية والتعليم . ومعنى هذا : أنه لكي نستطيع هذه المعاهد والجامعات أن تستوعب المسلمين الذين رفضوا الاتصال بها وعارضوا مراراً في قراءة التوراة وإقامة الصلاة المسيحية كل صباح ، فقد هدلوا مناهجهم وركزوا على التربية والتعليم وانحنوا من الفلسفات المادية وغيرها وسيلة إلى هدم العقائد الإسلامية في نفوس الشباب دون أن يواجهوا بالتبشير صراحة . وقد هاجم رشيد رضا الأثر السوء الذي تركته هذه الإرساليات وقال إنها تهدف إلى تعليم صفار التلاميذ من العرب أن يحنقوا تاريخهم وأن يجدوا كل شيء غريب . وقال : إن المتخرجون من هذه المدارس يحرقون ثورة الأمة إلى جانبها ويقدمون بالفجور والنفوذ الأجنبي من كل جانب فينالون منها جميع المآرب يحقرون لها سلفها ويعظمون في نفسها كل ما هو أجنبي عنها وهم الآلات التي يستعين بها الأجانب على إدارة أمر البلاد لأنهم تربية مدارسهم أو الجيش السلي لشكنتهم لا يتم لهم ما يسمونه (الفتح السلي) بدونهم .

٣ — أما المطبعة فقد بدأت عملها بترجمة التوراة والإنجيل إلى اللغة العامية . قام بالترجمة غالى سميت وكورنيلوس فان ديك وهو أول عمل للإرساليات الأمريكية ١٨٣٤ وراجع الترجمة العربية (البستاني — البازجى — يوسف الأسير) وهم نواة العمل التبشيري والدعوة إلى العربية الإقليمية في مواجهه الجامعة الإسلامية ومن بيروت . وقد حرص المترجمون أن تبقى الترجمة في إطار العامية لا تنمدها وكان أول كتاب أصدرته المطبعة الكاثوليكية هو (سفر المزامير) ١٧٥١ وقد أولت اهتمامها الفائق لطبع ألف ليلة وقصص عنترة والوزير سالم . ولا ريب أن ترجمة التوراة ونشرها على نطاق واسع بين قراء اللغة العربية له هدفه الواضح من مخطط التبشير فضلاً عن تدريسها دراسة واسعة مستفيضة للمسلمين في مدارس الإرساليات وإجراء دراسات التاريخ ومقارنات الأديان كلها حول نصوصها ومضامينها بحيث يفهم الطالب المسلم أنها هي المصدر الأسامي لكل قضايا الفكر والاجتماع . أما المؤلفات الأخرى التي عنيت بنشرها مطابع الإرساليات فقد استهدفت تدمير مقومات الفكر العربي الإسلامي أساساً وذلك بنوسيع نطاق المؤلفات التي يريد المستشرقون والمبشرون أن يجهلوا مصادر الدراسات الأدبية مثل الأغاني وألف ليلة وغيرها . وهذا أيضاً من الأعمال الهامة ضمن خطة التبشير والإرساليات .

٤ — أما الصحافة فقد برز جهد هذه الإرساليات في تخريج كبار الصحفيين الذين ظهروا في هذه الفترة وحلوا وراء الحركة السياسية في مختلف أجزاء العالم العربي وفي مصر بالذات التي جعلتها

حركة التبشير والفتو الثقافي منطلقاً لها فقد تحررت من فؤد الدولة العثمانية منذ ١٨٨٧ وأصبحت تعمل في مجال خدمة أهداف الاستعمار البريطاني ومن ثم استغلت القاهرة لأكبر حركة لمواجهة تمزيق الدولة العثمانية وإسقاط السلطان عبد الحميد ، والفصل بين العرب والترك والقضاء على وحدة العرب والإسلام .

وبمراجعة أسماء الصحفيين الذين خرجتهم مدارس الإرساليات في بيروت نعرف حجم هذا الخطر ومدى أبعاد هذا الفتو الفكري السياسي لحساب الاستعمار البريطاني واليهودية العالمية ومن هؤلاء سليم نكلا ، بشارة نكلا ، سليم مركيس ، فرح أنطون ، حرجي زيدان ، فارس عمر ، يعقوب صروف ، شاهين مكاريوس ، مارون نقاش ، داود بركات ، أما المقطم فهو الجريدة اليومية الأولى التي حملت لواء الدفاع عن الاحتلال البريطاني وحملت في نفس الوقت حملات شعواء على الجامعة الإسلامية والسلطان عبد الحميد ورابطة العرب والترك وكانت أكبر خادم لحزب الاتحاد والترقي والماسونية اليهودية والإرساليات التبشيرية وهي القوى التي عملت على تمزيق العالم الإسلامي .

(١٦)

الدور الذي قامت به الإرساليات

أشار كثير من دعاة الاستعمار الغربي إلى أهمية الدور الذي قامت به الإرساليات التبشيرية فقال (غمينا) في بحثه المعول عن التبشير وأثره في العالم الإسلامي : (إن الكردينال لافيجري والمرسلين التابعين له في سوريا قد أدوا لفرنسا خدمات لا يستطيع جيش أن يؤديه ، نعم خدمات لا يستطيع جيش أن يؤديه أو أسطول ، نحن نريد سوريا كلها من غزة إلى أدلة ومن لبنان إلى الموصل) وعندما أرسل وزير خارجية فرنسا هام هام ١٨٨٧ (٨٢ منحة) لتعليم اللبنانيين في فرنسا قال في خطابه إلى القنصل الفرنسي في بيروت ، « نقتراح أن يكون هدفنا مزدوجاً ، أولاً أن يكون لنا أصدقاء وعلماء في العائلات التي فاز أبنائها بهذه المنح ، وهدفنا الثاني تشويق روساء المعاهد والطلاب على اللغة الفرنسية » .

نحن ينبغي أن نقيم علاقات طيبة مع العائلات ذات النفوذ والعائلات التي يتعلم أبنائها في مدارسنا فإن لم ينشأوا على حب فرنسا فعلى الأقل يكونون من الذين لهم معرفة بلغتنا وتاريخنا . كما أشارت المصادر إلى تلك الرابطة القوية بين مصالح الامبراطورية البريطانية بمصالح جميعات الكتاب المقدس

في سوريا . وقد كشف أحد الباحثين أهمية الدور الذي قامت به الإرساليات في البلاد العربية فيبلغ به ذلك إلى القول بأن هذه الإرساليات قد حققت ما هجرت عنه الحروب الصليبية . يقول : بينما كان الشرق الأدنى مطمحاً لأنظار بناء الامبراطورية كان أيضاً مطمح أنظار جماعة أخرى من الناس تنشده أن تنجز عن طريق (الكلمة) ما هجرت أجدادها الصليبيون عن تحقيقه عن طريق السيف وبعبارة أخرى تلشد احتلال مهد المسيحية وإخضاع العالم كله للمسيح ، إن هذا الحلم المسيحي قديم قدم المسيحية ذاتها وعلى ذلك فقد شهدت السنوات الأخيرة من القرن ١٨ والسنوات الأولى من القرن ١٩ ظهور كثير من الجمعيات التبشيرية التي كرست نفسها لحل الإنجيل إلى جميع البشر ويمكن أن يضاف إلى هذين العاملين عامل آخر هو ازدياد المطاعم السياسية والاقتصادية في تلك كانت دولة الرجل المريض ، ومن المحتمل جداً أن يكون لهذا العامل الأخير علاقة باختبار الشرق الأدنى ميداناً مفضلاً للنشاط التبشيري . ولا بد أن يكون اختيار المبشرين لبيروت ناتجاً من موقعها على ساحل البحر إذا كانت آنذاك الميناء الصالح الوحيد على الشاطئ الشرقي للبحر المتوسط) وبحلولها من الملابس اللازمة لوجود الآباء في المقدسة التي تخضع للامتيازات ونصالح دبلوماسية معينة برهنت فيها بعد على أنها ذات قيمة عظيمة وأهمية بالغة للأمريكيين .

كان في هزمهم إن يتمكنوا في كنائس الشرق الناهضة من كسب (السكفار) إلى دين المسيح غير أنهم سرعان ما وجدوا أن الإسلام لم يكن قد فقد سيطرته على قلوب المؤمنين وصمم المبشرون منذ البداية على استعمال (الكلمة) حيث فشل استعمال السيف وفي سبيل هذه الغاية أخذوا يفتحون مدارس للبنين والبنات بصورة منتظمة وهكفوا على إنجاز هذه المهمة العظيمة وعادت هذه الحقبة بالظهور على العالم العربي كله وبدأت حركة أدبية جديدة كان لها آثار بعيدة المدى . « ثم وصف هذا العمل بأنه « الثورة الفكرية التي غرس بذورها البروتستانت الأمريكيون وحملوا شعلتها إلى آفاق العالم العربي » ثم إن أهم الخدمات : هي انطلاق لبنان في مجال المروية وقيامه بالدور الرئيسي في رفع لواء اليقظة العربية الحديثة ذلك الدور الذي ما زال لبنان الحديث محافظاً عليه . كما أشار إلى ما قامت به البعثات التبشيرية « التي حملت على ظهور لغة قوية دارجة موحدة هي وسط بين اللغة الفصحى واللغة العامية » . وقال : إن هذه المدارس كانت القوى التي استطاع الشباب العربي أن يرى من خلالها مظاهر الحضارة الغربية ويتصل بها .

وأثار الباحث إلى الإرساليات خرجت منذ ١٨٧٠ إلى اليوم ٥٧٠٠ خريجاً من بينهم ١٤٠٠

طبيب ورؤساء وزارات وأساتذة وقضاة وأطباء وسياسيين ومخففين في جميع أرجاء العالم العربي والأقطار المجاورة له . وأن طلاب الإرساليات ٣٣٠٠ طالب يمثلون خمسين جنسية مختلفة وأكثر من أربعين طائفة دينية : « نبيه أمين فارس » . وهكذا تكشف الكتابات الأخيرة التي أطلقت نفسها من التحفظ القديم : الهدف الحقيقي للإرساليات التبشيرية ، هذا الهدف المشترك بين دعاة المسيحية ودعاة الاستعمار ودعاة اليهودية المالية في إخضاع المسلمين والعرب وتدمير مقومات فكرهم ، وإخضاعهم لهذا النفوذ كله مشتركاً . وأمامي مجموعته من آراء الاستعمار والتبشير أن تكشف أهمية الخطط التبشيرية جملة :

« إن هدف بعثات التبشير هو تثبيت الأفكار الأوروبية » . « إن الغرض من التبشير هو قتل الإسلام لاستبعاد المسلمين » . « إن المبشرين هم ساعد جميع الحكومات وعصدها في كثير من الأمور المهمة ولولاهم لتعذر على تلك الحكومات أن تذلل كثيراً من العقبات » . « إن الكثيرين منا قد شبوا على كراهية الإسلام وقد ارتضوا ذلك في لبنان أمهاتهم » . « إن فرنسا تعد العدة في حراكش لإنشاء جيل جديد لا صلة له بالماضي ، هذا الجيل تصنعه وتنشئه على الإيمان بها فيفهمها ويقدرها وبذلك يتم لها من طريقه وضع يدها على البلاد » . « إن هؤلاء الطلاب المسلمين المغاربة الذين يصلون إلى فرنسا يجب أن يصاغوا صياغة غربية خالصة حتى يكونوا أهوانا في بلادنا » .

« إن المغرب يواجه كل أسلحته الحربية والعلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية إلى العالم الإسلامي بفرض إذلاله وتحقيره وإشعاره بالضآلة والخنوع » . « إن هدم الإسلام في نفوس المسلمين له أهمية كبرى في شيء واحد هو قبول الفكر الغربي كصديق دولي وأن ما يجب عمله للقضاء على الإسلام هو إيجاد القوميات » . « إن الغاية التي نرى إليها هي إخراج المسلم من الإسلام فقط ليكون إما ملحداً أو مضطرباً في دينه وعندها لا يكون مسلماً أي لا تكون له عقيدة يدين بها » . « يجب أن يتم تبشير المسلمين بواسطة رسول من بين صفوفهم لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها » . « إن تربية الرهبانيات لبنات المسلمين توجد للإسلام داخل حصنه المنيع حداوة لقاء لا يمكن للرجل قهرها ، لأنه سهل على المرأة والحالة هذه أن تؤثر على أحساس زوجها وعقيدته فتبعده عن الإسلام وتربي أولاده على غير دين أبيهم » . « إذا اتحد المسلمون في امبراطورية هربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطراً ، أما إذا بقوا متفرقين فانهم يظنون حينئذ بدون قوة ولا تأثير » .

(١٧)

الترايط بين التبشير والماسونية

كان أكبر أهداف حركة الإرساليات التبشيرية في — لبنان بعد أن أصبح مستقلاً عن الدولة العثمانية ، وقائماً تحت إشراف الدول الكبرى — هو ضرب الدولة العثمانية ، من هذا الموقع الحصين المفتوح على الشام والعراق والجزيرة العربية وهي الأجزاء العربية التي لم يسيطر عليها الاستعمار الغربي بعد ولمسا كان الشام يضم سوريا ولبنان فهي أخطر هذه المناطق لأنها طريق بيت المقدس وما حوله . وقد كشفت كتابات الكثيرين من خطة الاستعمار واليهودية العالمية في التركيز على لبنان بوصفها مركز الإشعاع الفكري كما وصفها (فيليب حتى) بحق ومضاعفة هذا التركيز بعد عام ١٨٦٠ الذي استغلت أحداثه وقتاً طويلاً لإعلان الحرب على الدولة العثمانية وتأريث العداء في نفوس أهله . يقول جورج أنطونيوس : انتشر التعليم الغربي في بلاد الشام في عهد عبد الحميد على نطاق أوسع جداً مما كان في اليهود السابقة وأدى إلى قيام شبكة من المدارس والكتليات امتدت في أنحاء البلاد ، ولم تعد هذه المعاهد مقصورة على ما تنشئه فرنسا وأمريكا وبريطانيا بل دخلت الميدان البعثات التبشيرية الروسية والإيطالية والألمانية ثم قال : أصبح هذا أداة من أدوات التغافل السياسي بالإضافة إلى أنه وسيلة للثقافة وأسوأ من ذلك كله أنه يسهل لرجال الدين المسيحي ليمتلكوا أسباب القوة السياسية بل كان أحياناً يدفعهم إلى ذلك عدماً ، ومعنى هذا أن مضاعفة الإرساليات بعد ولاية السلطان عبد الحميد وبعد إعلانه عن دعوته إلى الوحدة الإسلامية كان عملاً منظماً يراد به تحقيق الغاية التي نحققت من بعد ، وهي إدخال فكرة جديدة كبديل للدعوة إلى الوحدة الإسلامية وتسريبها عن طريق التعليم الذي تركزت ألوته في بيروت مفتوحاً على أبوابه للمسلمين والنصارى واليهود والبيض والموود كما أعلن ذلك دانيال بلس في خطابه المشهور :

لقد ركزت الإرساليات على خربيجها في صنع فوارة الدعوة المضادة واستغلت في الصورة العامة ثلاثة من الدعاة م : البستاني والبايجي والأسير : وكان الأول والثاني أبرز جهداً في مجال العمل الأدبي والصحفي الذي كان منطلق الدعوة الجديدة ، ثم تركز الاهتمام كله في محيط الكتليات عن طريق أساتذة ذوي إقتدار في هذا المجال ، ثم انبثق من هذا العمل كله جماعة سرية في بيروت .

أما الداهية الأكبر فقد كان (الياس حبالين) الذي كان يدرس للطلاب في الكلية الانجيلية السورية اللغة الفرنسية ، فكان يختصر الدرس مريعا ويتحدث في السياسية فيكلم الطلاب عن وجوب التحرر من الأتراك والتخلص من حكومتهم الظالمة وقد وصفه أبرز كتبه الجاهة السرية وأكثر الطلاب حماسا وهو الدكتور فارس نمر في مذكراته في كثير في المقتطف « بأنه كان رجلا مارونيا ثم انضم إلى مخمل ماسوني ، وكان قد قرأ فولتير » وقال « أن كثيرين من أحرار سوريا الثنايفين يعترفون بالفصل في خدمة الحرية للمرحوم الياس حبالين » الذي « وقف جسده على ارضاهم لبنان الحرية واضرام نار البفص في ضلوعهم لسلطة التركية وشاركه في هذا رجال العشيرة الماسونية في سوريا من مسلمين ومسيحيين فباطلوا سهروا البالي وبنوا الرخيص والغالي لاعداد أبناء سوريا لقبول المبادئ الحرة والنظامات الدستورية » وقال زين زين فيها أورده شفاها عن فارس نمر « وهكذا أصبح طلبة (أي طلاب حبالين) وجميعهم نصارى من أشد اتباعه إخلاصا وولاء فكل واحد منهم يطمح أن يكون (حبالينا) يترأسناذ وراحوا يلشرون أفكاره بين الطلاب . كما كان حبالين في الكلية الانجيلية السورية كذلك كان هناك أيضا سليم عمون ، وكان قرأ رواية اسكندر ديماس (الفرسان الثلاثة) فراح يؤلف جمعية غايتها « تحرير لبنان من الحكم التركي » ويعتقد فارس نمر أن الأفكار الثورية التي كان يأخذ بها عمون وأصحابه في الكلية السورية الانجيلية كانت أفكاراً فرنسية المصدر ، ومن هذه النصوص نستطيع أن نصل إلى ما حققته الكلية مما وصف فيها بعد بأنه أول دهوة لقومية العربية ، وهو قول مبالغ فيه ، فإن هذه الجاهة السرية التي أغراها أساتذة الكلية ودفعوها إنما كانت تدعو إلى شيء واحد فقط هو (تحرير لبنان من الحكم التركي) .

وإن هذه الجمعية السرية التي تشكلت من فارس نمر وشاهين مكاريوس وإبراهيم اليازجي وإبراهيم الخوراني ويعقوب صروف هي التي قادت هذا المخطط التفريبي كله فيما بعد وإلى آخر المدى وخاصة بعد أن انتقل فارس نمر وشاهين مكاريوس ويعقوب صروف إلى مصر وأصدروا المخطط والمقتطف وكانوا اسانا للاستعمار البريطاني والماسونية وحربا حوانا على الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد والوحدة الإسلامية والخلافة وكانوا دعاة توهين الوحدة والترابط بين الإسلام والعروبة في تاريخ امتد إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى . أما إبراهيم اليازجي فهو الشاهر الممد لوضع نشيد الدهوة الجديدة ، ليداع في البلاد العربية كلها ويزاحم بقوة أهداف الجامعة الإسلامية ويحاول أن يقصد بقوة الاستعمار واليهودية العالمية الخطة التي كانت تعمل من أجل توحيد العالم الإسلامي والوقوف في وجهه .

الدفوذ الاستعماري الزاحف . ولقد حاول الكثيرون - وفي مقدمتهم جورج أنطونيوس الذي يعدون كتابه (بقضة العرب) أهم مصدر لهذه الدهوة (وهو كتاب خبيث ماكر مليء بالغالطات ومكتوب من وجهة نظر الاستعمار والتفريب واليهودية العالمية جميعاً) حاول أنطونيوس وجري على خطوه دون وهي أو بقضة أغلب الذين حاولوا التأريخ للوحدة العربية - أن يجعل من هذه الجماعة السرية التي أنشئت في أحضان الكلية الإنجيلية السورية وسمح لها برفع صوتها على منابرها ، نواة للدهوة العربية بينما تدل كل الدلائل على أنها لم تكن إلا محاولة لعزل (لبنان) عن الدولة العثمانية والأمة العربية . ومن مراجعة النصوص المختلفة حول هذه الجماعة يتبين : أن الجماعة كلها من النصارى الذين درسوا في الكلية السورية الإنجيلية ، وهذا هو الهدف الطبيعي الأول للإرساليات التبشيرية التي أخذت تؤتي أكله ويتسع من بعد نطاقه حتى ليقول فارس نمر في إحدى تصريحاته عام ١٩٢٣ أن وضع لبنان تحت الدفوذ الفرنسي إنما تم بين جدران الكلية السورية . كانت مطالبة الجماعة « تحرير لبنان من الحكم التركي » أنشئت الجماعة ١٨٧٦ من الدفعة الأولى في الكلية وكان حبالين هو المشرف الثنائي والداعية الأول . غير أن الجماعة تعثرت ولم تستطع أن تحقق شيئاً إلا بعد أن راوغت في هدفها لتشارك معها بعض الدروز الذين هم فرقة من فرقة المسلمين .

ولما كان ذلك عسيراً إذ أن المسلمين لا يشتركون في عمل ما ضد الدولة العثمانية فقد اتخذت خطوات غاية في المكر والانتهاز . الأولى : طرح كلمة « العروبة » . الثاني : استغلال أعضاء المحافل الماسونية المسلمين الذين تورطوا في هذه المنظمات وأصبحوا لا يستطيعون الإفلات من تحقيق توجيهاً فإوهز دهاء الفكرة وقادتها إلى هذه المنظمات ومن ثم برزت الجماعة في ثوب جديد وفيها مسلمون : هم هؤلاء الماسون . ولكي نكون صادقين في تصوير هذه المرحلة فأننا نعود إلى ما ذكره الدكتور فارس نمر الذي قال : لم ينقض زمن طويل حتى شمر أولئك الشبان النصارى (يقصد نفسه ومن معه) إنهم إذا أرادوا بلوغ هدفهم ينبغي لهم أن يتعاونوا مع المسلمين لكي يكونوا لهم سنداً وهوتاً فقد كان من الختم عليهم أن يظهروا أمام الأتراك جبهة واحدة متراسة . ولم يكن هناك من قسم مشترك بين المسلمين والعرب والمسيحيين العرب سوى « العروبة » فالعروبة كشمارة ، كان في وضعها أن تنير في نفوس العرب شعوراً بالقومية وإن توحد أيضاً بين المسلمين العرب والمسيحيين العرب الناقبين على الأتراك وعلى هذا الأساس اقتنع الأعضاء المسيحيون في الجمعية السرية أن السبيل الوحيد هو تأليف جبهة عربية موحدة تقوم على فكرة العروبة . ولجأ أولئك الأعضاء المسيحيون إلى خطة أخرى وهي إدخال بعض الوجهاء المسلمين في المحافل الماسونية في بيروت وكان بعض الأعضاء البارزين في الجمعية

السرية قد انضم إلى عضوية هذه المحافل الماسونية وكانوا يأملون أن يستميلوا المسلمين بعد أن يكونوا قد انضموا إلى عضوية هذه المحافل الماسونية للانتماء إلى الجمعية السرية ، وفي الواقع انضم عدد قليل من المسلمين إلى المحافل الماسونية ، وهدوا بوجود جمعية سرية ، وقد اتفق الجانبان المسلمون والمسيحيون على محاربة الظلم التركي على أساس العروبة . . وهكذا تصل الى نفس الوضع في الدولة العثمانية : جماعة الاتحاد والترقي تلبق من داخل المحافل الماسونية في سالونيك وجماعة المقطم المارونية (بمحكم ماسيكون) تلبق من المحافل الماسونية في بيروت . ومعنى هذا أن الماسونية أولا وأخيراً هي صاحبة الدهوة إلى الانتفاض والاستمرار بالدولة العثمانية في نطاق الأتراك وفي نطاق العرب . وإذن بالخصط واحد والعمل هنا يكمل العمل هناك . ومن هنا فإن القول بأن هذه الجمعية التي خلفتها جمعية أخرى اشترك فيها بعض المسلمين الذين كانوا في المحافل الماسونية ووصلوا إلى الدرجة التي عرفوا معها هدف الماسونية من تمزيق الدولة العثمانية وفتح الطريق إلى بيت المقدس ، هذه الجمعية لا يمكن أن توصف مطلقاً بأنها نواة الفكرة القومية العربية أو أنها أو محاولة منظمة لبث الحركة العربية القومية كما ادعى جورج أنطونيوس وساطح المحسري ومن ورائهم كتاب اليهود والتغريب والتبشير والاستمراق .

ومعنى هذا أن الحركة كانت إقليمية لبنانية وهي ما عرف من بعد باسم (الكيان اللبناني) وأن طابعها العربي كان تمويها لتصويرها للناس في إهاب حركة عربية جامعة حتى يقال أن الحركة العربية بدأت من الكلية السورية وحمل لواءها جماعة المقطم المارونية . وتبدو الرؤية واضحة تماماً حين توضع الصورة كلها في إطار المحافل الماسونية التي كانت قد نشأت في بيروت على النحو الذي شكلت فيه في (سالونيك) . وقد أشار جورجى زيدان إلى نشأة الماسونية في لبنان فقال أن أول محفل تأسس في مدينة بيروت كان عام ١٨٩٢ تحت رعاية الشرق الاسكوتلاندى وترأسه فنصل جنرال دولة انكلترا وانتظم في سلكه جم غفيرة من أعيان البلاد وأسرها ثم تجدد هذه المحفل ١٨٨٨ وعاد إلى العمل (ويبدو أن ذلك تم في ظل حركة السلطان عبد الحميد إلى الجامعة الإسلامية) . وفي عام ١٩٦٩ تأسس في بيروت محفل آخر تحت رعاية الشرق الفرنسى انضم إليه كثيرون من أعيان البلاد وعلماء ورجال حكوماتها على اختلاف مذاهبهم . وأشار إلى مهاجمة جماعة الجزويت للماسونيين حتى أن العامة فرس في أذهانها الكره والاحتقار بلهاة الماسون « حتى أصبح إسمهم مرادفاً لأدنى صفات الاحتقار هتدم » يقول جورجى زيدان : أما الآن (والكتاب مؤلف عام ١٨٨٩) وقد ازدهرت سوريا وعلى الخصوص مدينة بيروت بالعلم والفلسفة وتعددت فيها المدارس والجرائد وانتشرت فيها حرية الأفكار فقد

أصبحوا ينظرون إلى الماسونية نظرة الاحتقار . وأشار المؤلف إلى المحافل التي أقيمت في دمشق وحمص وحلب وعبّيناب والاسكندرية وأنطاكية . كما أشار إلى أول محفل ماسوني في فلسطين تأسس في مايو (آيار) ١٨٧٣ واسمه محفل ملسان الموكي الأساسي . وقد أشارت مجلة المشرق إلى أن المدارس اللادينية في لبنان « هي إحدى نتائج الأعمال الماسونية ، فالغاية واحدة والوسائل عديدة وقالت إن لدينا من البراهين على ذلك شاهد حي وهو « نوط » يعطى لكل تلاميذ من تلميذ المدرسة على أحد وجهيه رقم من الأرقام وعلى الوجه الآخر الشعار الماسوني (الزاوية والبركار) . وهكذا نلتقي الإرساليات التبشيرية مع الماسونية في الخطة والعمل ، في سالونيك من أجل إسقاط عهد الحميد وتزيق الدولة العثمانية وفي بيروت من أجل إقامة بديل للحامعة الإسلامية على أساس هزل لبنان وتجهيده كنطلق قدهوة الثغريبية الاستعمارية .

(١٨)

ثمار التبشير والماسونية

كانت الدهوة المنطلقة من الإرساليات التبشيرية في بيروت : دهوة إقليمية لبنانية مسيحية (ذات طابع عربي للتويه) وهي التي رفعت شعار العروبة خدعة وعملت في أحضان المحافل الماسونية وهي ليست على أي صلة ما أو ارتباط بما عرف بعد ذلك بالدهوة العربية التي فرضت نفسها في مواجهة النحدي الذي وضعه (الاتحاديون) بالدهوة إلى الطورانية ومحاولة تفرتك العناصر العربية عام ١٩١٦ تقريباً .

أما هذه الدهوة فقد كانت عملاً في طريق تجزئة الدولة العثمانية ، ففي كل قطر دهوة : الاتحاد والترقي في تركيا ، تحرير لبنان من الحكم التركي ، مصر للصيريين في مصر . إذن فلا صلة مطلقاً بين هذه الدهوة الإقليمية الضيقة التي حملتها الكلية السورية في لبنان وبين الحركة التي قامت بها سوريا (وليس لبنان) فيها بعد في مواجهة الدهوة الطورانية . ولبنان لم تكن أبداً مركزاً للحركة العربية لا في ذلك الوقت ولا بعده ، ولم يكن في لبنان أي نوع من الرقابة أو أي أثر لحكم العثمانيين بسد أن انفصلت بنظامها الخاص عام ١٨٦٠ وإنما كان قيام هذه الدهوة يرى أساساً إلى اقتطاف ثمار الإرساليات التبشيرية وتحويل مقاهيها الثقافية إلى عمل ، وإقامة مؤسسة لها طابع الحركة إلى جوار أعمال التعليم في الكليات ومنها يكون الانطلاق إلى البلاد العربية لإخاذه هذه الآراء ونشر هذه

المخططات وهو ما تحقق بالفعل أن تحركت أول دفعة من الإرساليات إلى مصر ، وعلى رأسها أصحاب الجمعية السرية الماسونية الداعية إلى تحرير لبنان باسم العروبة .

ووضح من جميع النصوص الواردة في الكتب التي أشارت إلى هذه الجمعية (وخاصة بقظة العرب لانطونيوس) أن أرضية العمل كانت ممثلة في قصيدة اليازجي (تينظوا وامتنعوا أيها العرب) ودهوة بطرس البستاني في مجلة نفي سوريا إلى ما أسماه (حب الوطن من الإيمان) وللعرب هناك اللبنانيون والوطن هنا هو لبنان . وقد اتفق اليازجي والبستاني على إنشاء الجمعية التي كان من أعضائها إيلي سميت وقان ديك والسكولونييل نشرشل ، وبلغ أعضاؤها خمسون عضواً أكثرهم من النصاري السوريين ، ويقول انطونيوس قلاهن محضر محفوظ في ملفات البعثة التبشيرية الأمريكية أن الجمعية تتكون من قائد ديك واثنين من القسوس ثم أسس اليسوعيون : الجمعية الشرقية على الأساس نفسه وكان المحرك لها الأب (دورونبير) فوضح هنا رهاية للبشرين لماتين الجمعيتين ، بالإضافة إلى حضارة المحافظ للماسونية . وقد حاول هؤلاء المؤرخون أن يصوروا قصيدة اليازجي على أنها النشيد الوطني ، وأنه تحريض لثورة على العثمانيين والتفنى بأجناد العرب ومفاخر آبائهم (ومعلوم فيما بعد أن التفنى كان بأجناد الآشوريين والكلدانيين والفينيقين) وكلمة السوريين في القصيدة إنما تعني للمسيحيين اللبنانيين فقد كان لبنان جزءاً من سوريا . وقد كشف نجيب هازوري أحد خريجي الإرساليات التبشيرية والمحافل الماسونية عن هذا الهدف في كتابه (بقظة الأمة العربية) وهم يوردون اسمه هكذا لينفون بعض إيماءاته وإعما اسمه الحقيقي (بقظة الأمة العربية في آسيا الغربية) وفارق كبير بين الاسم الحقيقي والإسم الزائف ، وقد كشف هازوري هدف دعوته الحملة بأوزار الشبهات حين طالب بملكيتين عربيتين في آسيا واحدة في سوريا الطبيعية والأخرى في شبه الجزيرة العربية مع استقلال ذاتي للبنان . وهكذا تبدو الحركة كلها وهي إقليمية مفرقة في الانفصالية غارقة في التعصب الطائفي . أما ما يعيبه خصوم العرب والإسلام على السكواكي فهو أصح ما جاء في كتاباته ، وأكثرها أصالة وذلك أنه لم يفصل الفكرة العربية عن الفكرة الإسلامية إذ لا سبيل إلى هذا الفصل ، وإلا لم يكن عبد الرحمن السكواكي وإنما كان نجيب هازوري . فقد اعترف بواقع عربي مصدره الإسلام ، وكل ما تحمس لإعلانه فهو إن دعا إلى أن العرب في مقدمة الأمم الإسلامية ، وذلك بفضل اللغة العربية ، طالب بعودة زهامة الإسلام والمخلاف إلى العرب ومن هنا لا وجه للمقارنة بين هازوري والسكواكي ولا سبيل إلى الجمع بينهما في خط واحد . وقد كشف (إدوار عطية) عن حقيقة أساسية في دعوة خريجي الإرساليات التبشيرية حين قال : كان السوريون المسيحيون يكرهون السيادة التركية ويتطلعون نحو التحرر منها لا بقصد تأليف

دولة سورية مستقلة ، لأنهم يكونون في هذه الحالة مضطرين لأن يخضعوا لحكم يشكل فيه المسلمون أكثر ساحقة ، وعندئذ يتعرضون حسب اعتقادهم إلى الاضطهاد والظلم ، وعليه كانوا يتظلمون نحو التحرر من السيادة الإسلامية بمساعدة دولة أوروبية تطرد الترك من البلاد ويحكم سوريا بدلا منهم ، وكان ذلك عندهم إذا تحقق ، لا يمد خضوعاً لسيادة أجنبية طالما أن الدولة الأوروبية المسيحية هي من نفس الديانة التي يعتنقونها .

(١٩)

أعمال الإرساليات

كان عمل الإرساليات من أهم الأعمال التي ركزت النفوذ الاستعماري في العالم الإسلامي وهي الجناح الثاني للوامة الضخمة في السيطرة المشتركة بين الاستعمار واليهودية العالمية ، أما الجناح الأول فهو المحافل الماسونية ، وقد تكشف اشتراكهما معاً في كل المحطات والأعمال . لقد كان أبرز أعمال الإرساليات : فصل الأقليات عن الدولة العثمانية وإثارة الخلاف بينهم وبين المسلمين ، واحتضانهم واتخاذهم سلاحاً للعمل ، وحائلا دون الوحدة . ولقد اندفع أبناء الإرساليات إلى مصر بالذات لإقامة ركيزة أخرى مواجهة لركيزة بيروت تحمل لواء الصحافة وتوجه الرأي العام كله في البلاد العربية على النحو الذي رسمه النفوذ الاستعماري واليهودية العالمية . فقد كان أبناء الإرساليات أكثر اندفاعاً في الدعوة إلى التغريب ، وكانوا يرون بينهم وبين الفكر الغربي صلة وثيقة تلقائية لا تنفصل عنه في أي جهة من جهاته . ولم يكن كذلك المسلمون الذين كانت تفكهم قيمهم الإسلامية الأساسية التي تختلف وقد تتعارض مع الفكر الغربي في مقوماته وأساسه . وقد صور هذا كمال الصليبي تصويراً صحيحاً حين قال : إن المجددين المسلمين في تركيا ومصر رأوا أن على المجتمع الإسلامي للوقوف في وجه الغرب أن يكتشف عناصر قوته وازدهاره ويفتش عنها ، وسرها ما تبين لهم أن مثل هذا الاقتباس لا يتم إلا بالتغاضي عن كثير من جوهر التراث الإسلامي ، ولم يكن هؤلاء المجددون على استعداد لتخلي عن هذا الكنز .

أما المفكرون المسيحيون في لبنان فلم يضطروا إلى إبداء مثل هذا التحفظ تجاه الغرب فيما إضافة إلى وحدة الدين بين الطرفين وما لهما من أهمية كبرى ، كان النصارى في لبنان يعتبرون الغرب حامياً لهم وسنداً لقضيتهم ، وكانوا يرون في امتداد نفوذه في السلطة العثمانية مدعاة للاطمئنان لا تهدياً .

لذلك كانت الحركة الفكرية في لبنان في القرن ١٩ من حيث زعامتها المسيحية على طرف قبض للتطورات المعاصرة في تركيا ومصر والبلدان الاسلامية الأخرى فلم يشعر النصارى اللبنانيون كما شعر المسلمون العثمانيون بمسئولية الحفاظ على دولة في طريق الانهيار (الدولة العثمانية) أو على دين مهدد بالخطر (الاسلام) وهم أيضاً لم يأفخوا عن الأخذ من الغرب المسيحي واهتاد طرقة .

هكذا كان حال المسيحيين في لبنان ، لذلك لم يشعر رجال الفكر منهم في القرن ١٩ بذلك القابض والانكماش الذي خالج صدور زملائهم المسلمين في مختلف الأقطار ومن هنا ظهرت هذه الطائفة أولى ثمار الارساليات التبشيرية وانتقلت إلى مصر لتصدر الصحافة والفكر والثقافة والرأى العام .

- * شبلى شميل : الدعوة إلى الفلسفة المادية ونظرية دارون .
- * فارس نمر : المقطم والولاء البريطاني .
- * جورجى زيدان : تزيف التاريخ الاسلامى والدعوة إلى الماسونية .
- * يعقوب معروف : المعتطف والتغريب .
- * سليم سر كيس : محاربة الدولة العثمانية والاسلام .
- * فرح أنطون : الدعوة إلى الفكر الغربى .

وكانت الخطة الفكرية التغريبية (التى تنطوى فى أحقابها على الدعوة إلى التوراة والاضطهاد الذى أصاب اليهود فى العالم كله وعلى مدى التاريخ) تبدو واضحة فى صحف الهلال والاهرام والمعتطف وللقطم والجامعة ولسان الحال وغيرها وهى خطة موحدة واضحة الهدف ، هذا الهدف الخفى بدقة من وراء كل الدعوات والكتابات وهو تمزيق الرابطة بين المروية والاسلام . ولما كان هؤلاء جميعاً يجتمعون بين أنهم من خريجي « الارساليات التبشيرية » ومن أعضاء « المحافل الماسونية » فقد كانت كتاباتهم مخططة وفق أهداف الاستعمار واليهودية العالمية . وكان العالم الاسلامى والدولة العثمانية والعرب والمسلمون جميعاً خصوما لهم . ولذلك فقد أيدوا الاستعمار البريطانى فى مصر والاستعمار الفرنسى فى سوريا ، وعاونوا الصهيونية العالمية ومهدوا لها الطريق الفكرى فى كتاباتهم كما حلوا لواء الخوصومة المنيفة للسلطان عبد الحميد وآزروا من بعد الاتحاديين وكانوا طوال هذه الفترة يدمسون سموما خطيرة فى كتاباتهم ، وقد أعلن الميثرون فى هديد من اجتهاداتهم « أنهم استفادوا الصحافة المصرية على الأخص للتعبير عن الآراء المسيحية أكثر مما استفادوا فى أى بلد إسلامى آخر » ومن خريجي هذه الارساليات من دعا إلى إنشاء دولة يهودية فى فلسطين ومنهم من دعا إلى أن تكون لبنان وطناً لقتصارى فى الشرق الأدنى .

(٢٠)

الاتحاديون وليس السلطان

أستطاع النفوذ الغربي الاستعماري واليهودية العالمية ممثلا في مؤسساته ومراكز قواه :
« الإرساليات التبشيرية والمحافل المارونية » ومن طريق الجمعيات والصحف والمدارس أن
يمزق ذلك التجمع الفكري المتمثل في الوحدة الإسلامية العربية والرابطة العربية للتركية والتجمع في
كيان سياسي واحد هو الدولة العثمانية ، حاملة لواء الجامعة الإسلامية تحت إسم الخلافة وكان عمل
النفوذ الغربي واليهودية العالمية لذلك مرتباً حلقة بعد حلقة يشتغل أكبر ما يشتغل ، ضعف الثقافة
العربية الإسلامية والغفلة عن إدراك أبعاد المسائل وخلقياتها ، والنظرة البشرية المخاطفة السريعة .
وكان سقوط السلطان عبد الحميد هو الضربة الأولى التي هي نصف المعركة ، إما ماجرى بعد ذلك
فقد كان يسيراً ومهلاً ومؤدياً إلى الغاية في أقصر طريق ، وما عجزت عنه القوى الاستعمارية
واليهودية العالمية خلال أكثر من نصف قرن لصمود السلطان عبد الحميد ، بإمكان تحقيقه خلال
فترة قليلة ما بين عام ١٩٠٩ - ١٩١٨ على أيدي القوة التي أعدها ورباها ووجهها على الطريق
المرسوم ، تلك هي قوة الاتحاديين في الدولة العثمانية تعاونها قوة الإرساليات التبشيرية في لبنان
وتديرها قوة الصحافة المكتوبة بالعربية الصادرة من مصر .

وفي مخطط واحد ، جرت الدهوة إلى الطورانية في تركيا العثمانية والفيليقية في لبنان ، والغرهولية
في مصر ، وفرضت الدهوة الطورانية على العرب أن يحملوا لواء الدهوة إلى العروبة المنفصلة عن
الدولة العثمانية وبذلك أمكن عند نهاية الحرب العالمية الأولى أن يقال إن السكبان السياسيين الضخم
الذي تشكله الدولة العثمانية جامعا للعرب والترك قد إنتهى ، وإن الفكرة الجامعة بين العروبة
والإسلام عند المسلمين أنفسهم قد أصابها التصدع نتيجة للتحديات والإفراعات التي قسمت للفكر
العربي الإسلامي وأصابته بالتفرق . الاتحاديون إذن وليس السلطان عبد الحميد : هم الذين أحدثوا
هذا التصدع والتفرق وخربوا وحدة العروبة والإسلام في الصميم ، وقضوا على تلك الرابطة القوية
الجامعة وأسلبوها إلى دهرات العناصر والأجناس وإلى صراع الدماء والعروق بين عرب وترك .
وبين مصريين وسوريين ولبنانيين وعراقيين . ومن ثم يمكن أن يقال أن فكرة تصعيد دهوة
القوميات في الدولة العثمانية إنما أدخل وأغرى به وأفصح له الطريق لكي يشكل تمزقا صحيحا

في هذه المرحلة : مرحلة السنوات العشر الجفاف التي قاد بها الاتحاديون مصفينة الإسلام والعروبة حتى ارتطمت بالصخرة التي فرقتهما ولم يكن الاتحاديون في هذا إلا أداة النفوذ الاستعماري واليهودية العالمية لفتح الطريق إلى القدس ، وكانت الحافل الماسونية والارسلاليات التبشيرية هي أدوات هذا العمل الخطير ومؤسساته الساهرة في خفة الأمم الحاقدة التي سمحت كل الآبار ودمرت كل المواقع الحصينة في المجالين معاً : مجال الكيان السياسي ومجال الفكر والعقائد .

وقد كانت هذه الأجهزة تعمل وكان كل منها مستقلاً منفصلاً ، ولكن اليد الخفية كانت تديرها جميعاً ، وتسيطر عليها وتوازن بين خطواتها ، سواء في سالونيك وبعدها في الآستانة ، أم في بيروت ودمشق والقاهرة . إن الذين كتبوا تاريخ السلطان عبد الحميد وتاريخ الاتحاديين كانوا بطبيعتهم خير منصفين ، ولم يكونوا على مستوى الحقيقة التاريخية أو للمنهج العلمي ، بل كانوا مفرضين خصوصاً ، ولذلك فإن شهادتهم لا تقبل ، لقد سيطر التبشير والاستشراق والماسونية والإرساليات على رسم تاريخ العالم الإسلامي والدولة العثمانية في هذه المرحلة ، ووضعوه أمام الباحثين ، بل فرضوه فرضاً على للمعاهد والجامعات والمناهج الدراسية وجرى على الألسن والأفلام كأنه حقائق لا سبيل إلى نقضها وقوام هذا المنهج هو إثارة هذه الشهادات والأضاليل .

١ — السلطان عبد الحميد : مستبد قاتل عاش على الجاسوسية والقتل . ٢ — الدولة العثمانية هي التي وضعت العرب في أسوأ الأوضاع الاجتماعية والسياسية وهي التي قتلت رجالها الذين طالبوا بالحرية عام ١٩١٥ و ١٩١٦ . ٣ — محاولة القول بأن سوريا هي التي حلت لواء مقاومة الدولة العثمانية . ٤ — محاولة نسبة الحركة العربية إلى الكلية السورية الإنجيلية وخريجياتها . وكان أبرز من كتب ذلك المستشرقون ، والمبشرون ، وكتاب الغرب ، ثم جرى في خطوهم ساطع المصري وجورج أنطونيوس وأنيس صايغ وفيليب حقي . وهي كتابات مليئة بالهقد والكراهية والتشني من السلطان عبد الحميد والدولة العثمانية فإذا تضرعت للاتحاديين بدت مشقة تلتمس الأهدار ، وإذا كان الإنصاف هو الحكم العلمي الصحيح فإن أخطاء الاتحاديين لا تقاس أبداً بصنائع عبد الحميد ، ولكن لما كان الاتحاديون هم غلب القط الذي حقق الغايات العديدة فقد التمس لهم الأهدار وعرضت أمورهم في رفق وتسامح شديدين . إن تاريخ هذه المرحلة قد زيف تزيفاً شديداً فقد كتبته اليهود والمستشرقون وحجبوا كل الحقائق خلال خمسين سنة كاملة ظلت خلالها المناهج الدراسية خاضعة لهم ، وما تزال المؤلفات التي في الأيدي من كتاباتهم ، وهي كتابات أريد

بها إخفاء الحقيقة من ناحية والتسلط على الرجل الذي وقف في وجههم والتمويه في الإشارة إلى ظلم الدولة العثمانية بينما الظلم الحقيقي الذي وقع على العرب هو ظلم الاتحاديين بنفوذهم الذي هيئته لهم اليهودية المالية والاستعمار فقطعوا الروابط التي استمرت أربعمائة سنة بين الإسلام والعروبة ، وبين العرب والترك .

ولا شك أن هذا يكشف خصوصية هؤلاء الكتاب للعرب والإسلام ، وحقدهم عليه وتعاونهم مع خصوم هذه الأمة على تأكيد وقائم مضلة وإرساء باطل زائف فإذا كان هؤلاء الكتاب منصفون في موقفهم من عبد الحميد فلقد كان أولى لهم أن يكشفوا عن الصفحات السود التي صنعها الاتحاديون والتي بلغت أعنف ما روى من تاريخ العلاقات بين العرب والترك . ولماذا يستعمل مقباسين وأسلوبين ومنهجين في موضوع واحد ، ولماذا يكون الهوى حاكما فلا تقال كلمة الانصاف هنا أو هناك ، إن موقف السلطان عبد الحميد من اليهودية العالمية سيظل طاقة من النور يتوج جبين هذا الرجل ومع ذلك فاتهم لا يعرضون لهذه الواقعة فإذا عرضوها زيفوها وأفسدوها . إن هذه الكتابات الزائفة التي فرضت على العرب والمسلمين أكثر من خمسين عاماً واعتبرت أساساً لناهجهم في التاريخ إنما كانت مضلة ولم تقم على أساس منهج علمي ، ولم تضع الأمور في نصابها ولم تكشف الحقائق كاملة . وإنما قامت على الخنف والنشفي الواضح للأتراك والعرب والعروبة والإسلام جميعاً فلمعرف أن الاتحاديين سقطوا سقوطاً شنيعاً وهم على أخف الأقوال المنصفة بأعوا المملكة العثمانية وأسلوها للاستعمار وهذه حقيقة لا سبيل إلى إنكارها أو تبريرها . وقد دحض كثيرون من المنصفين ما حاولت كتابات التغريب ودعائه اتهام الدولة العثمانية به وخاصة في محاولة تصوير العلاقة بين العرب والترك في الدولة العثمانية في تاريخها الطويل بصورة الصراع . وكذلك فيما يتعلق بالاتهام الذي وجه إلى الدولة العثمانية بأنها كانت سبباً في تأخر العرب .

يقول هار ولد بوون : فيما يتعلق بالتعاطف الجارفة التي كانت تصدر عن بعض الكتاب فائنا نلاحظ أن معظمهم كانوا يجبطون خبط عشواء وإن التعصب كان يخفي الحقيقة عن عيونهم ، إن كثير من الآراء الشائعة فيما يتعلق بتاريخ تركيا ومصر في القرن الثامن عشر آراء خاطئة . ويقرر الدكتور زين هذه الحقائق : أولاً : إن جميع التعاطف والمبارات الجارفة التي صدرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من أولئك الذين يفتنون بهذا الأمر ، والتي تتعلق بالكرهية والشحناء التي كانت تتميز بها العلاقات بين هذين الشعبين : التركي والعربي مبالغ فيها كثيراً

كقول أحدهم مثلاً (إن الأتراك كانوا يفضون العرب ولا يشقون بهم) . فضلاً عن أن مثل هذه الأقوال الجارفة لم تكن لتنتطبق على واقع العلاقات كما كانت عليه في القرن الأول للحكم التركي ، إن معظم الذين ألفوا في التاريخ التركي لم يكونوا يجهلون وفرة الوثائق التاريخية التي يجب أن يطلع عليها الباحث في هذا الحقل وحسب وإن كانوا بصورة عامة على كثير من التحيز والتعصب .

ثانياً : لم يحاول الأتراك تبريك الأهرام البشرية التي دخلت في نطاق امبراطوريتهم وقد كان العرب أكثر هدأ ، والواقع أن الأتراك ظلوا (غرباء) في للناطق العربية التي أصبحت جزءاً من امبراطوريتهم والذين توطنوا منهم في الولايات العربية كانوا أقل ، ومن الإنصاف القول بأن الأتراك لم يحاولوا دمج المنصر العربي أو تركه إلا بعد استيلاء جمعية الاتحاد والترقي على مقاليد الحكم سنة ١٩٠٨ . ثالثاً : كانت الامبراطورية العربية والخلافة العباسية من الانحلال والتجزؤ بحيث أصبح العرب في حالة ضعف ووهن ، حتى ليصح القول بأن الحكم العثماني حتى الأقطار العربية والإسلام من التعدي الخارجي قرابة أربعائة سنة . رابعاً : مما لا شك فيه أن الإسلام كان أهم عامل يجمع العرب والأتراك في رابطة متينة طيلة أربع قرون . خامساً : ليس صواباً القول أن العرب والمسلمين ظلوا طوال أربعائة سنة أمة مستضعفة تحت نير الأتراك أو أن البلدان العربية نهبت خيراتها وخيم عليها الفقر من جراء الاحتلال التركي ، كذلك ليس صواباً القول أن العرب المسلمين لم يكن يسمح لهم أن يتفقدوا سلاحاً أو أن ينضوا تحت العلم العثماني للخدمة العسكرية ذلك لأن جيوشاً عربية وضباط عرب من ذوي المراكز العسكرية العالية كانوا يعملون في الجيش العثماني وقد برهنوا على قدرة ومهارة في المارك الحربية .

سادساً : ليس هناك من دليل تاريخي على صحة ما يشاع في القرون العشرين من أن الأتراك وحدهم المستوولون عن « التخلف » وعن « التأخر الحضاري » الذي ألم بالأقطار العربية ، طوال أربعائة سنة بل يبدو أن بعض البلدان العربية أفادت في القرون الأولى من الانتقاء للتركي . وقد صور هذا الباحث حقيقة العلاقة بين العرب والأتراك وردها إلى الإسلام نفسه وأثبت هجر كتاب الغرب عن فهم الحقائق نتيجة تجاهل هذا المصدر الأصيل . يقول : « إذا كان الأتراك قد استنظروا أن يحكموا هذه المنطقة مدة أربعائة سنة . فإن السبب يعود إلى أن الأتراك مسلمون فقد استمر السلاطين العثمانيون في العمل على نشر الإسلام بعد أن كانت مقدرات الإسلام قد وصلت إلى أدنى درجات الانحلال بعد خراب بغداد ١٢٥٨ للميلاد على يد هولاكو وجيوشه المغولية . فقد استطاع

الأتراك أن يجتاحوا أنساما من أوروبا، مركز المسيحية ، وأن يرفعوا رايث الإسلام هائلة
 أينما وصلوا حتى مشارف فينا، وهذا مما جعل العرب المسلمين يفخرون بعظمة الأتراك ومكانتهم
 العالية ، فقد كانت الامبراطورية العثمانية امبراطوريتهم تماماً كما هي للمغاربة ، هذه الحقائق يجب أن
 تؤخذ بعين الاعتبار إذا ما حاول أحد أن يدرس تاريخ العلاقات التركية العربية ، أو إذا ما حاول
 أن يفهم موقف العرب من الدول الأوروبية ، ولكن مما يؤسف له كثيراً أن هدى كبراً من الذين
 يعنون بتاريخ العرب المعاصر ينقسمون إلى فئتين : فئة لا تعرف هذا التاريخ معرفة صحيحة . وفئة
 تنظر إلى هذا التاريخ من خلال زجاج ملون بالأراء السياسية والقومية العلمانية فينجاهلون عمداً
 وبالتالي يعجزون عن إدراك أهمية العامل الديني في تاريخ العرب ، ذلك العامل الذي كان له أكبر
 الأثر لعدة قرون في تسكين الشرق الأدنى السياسي والاجتماعي ، وفي تقرير مصيره : أهى الإسلام .
 إن السبب الرئيسى للعجز والفشل في فهم الشرق الأدنى العربى هو عدم فهم العنصر البشرى والقيم
 الإنسانية في هذه المنطقة فإذا أراد المرء تقييم الوضع في هذه البقعة من العالم تقيماً صحيحاً فإن عليه
 أولاً أن يفهم : تلك القوة الروحية التى هى مصدر جميع الحوافز وجميع الأعمال التى تصدر عن
 غالبية السكان العرب في الشرق الأدنى وبدون هذه المعرفة يستحيل عليه أن يدرك جوهر القضايا
 والمشكلات العميقة التى تعانىها المنطقة ، إذ أن كثيراً من هذه المشكلات السياسية
 والاجتماعية منها ترتبط ارتباطاً محكماً بالدين فالإسلام كقوة روحية سياسية له أثر عميق
 والاجتماعية فيها ترتبط ارتباطاً محكماً بالدين ، فالإسلام : كقوة روحية وسياسية له أثر عميق يفوق
 أثر القومية العلمانية ، وهذه حقيقة أساسية يجب على المؤرخ ألا يتغاضى عنها وألا يتجاهل خطورتها .
 وقد آن للمؤرخين الغربيين أن يتخلوا عن بعض ما خلقه نفوسهم من أوهام وأخطاء حول حقيقة
 العلاقات بين العرب والأتراك .

(٢١)

الحركة الطورانية

(١)

الجامعة الطورانية

ولقد كان النفوذ الغربي قد هباً « الاتحاديين » فلا منذ وقت بعيد ، من خلال محافل الماسونية للدور الذي سيقومون به لتخزيق الدولة الممناية والنضاء على ترابط الاسلام والعروبة . ولذلك فقد ألقى كثير من المستشرقين في طريق الفكر الممناي مغريات كثيرة لحلة على الانتقال من الوحدة الإسلامية إلى العصبية الجنسية والعرقية وقد ظهرت المغريات على فترات متوالية وكان أهمها : (أولاً) إحاد طبع كتاب من تاريخ الترك والمنول منذ أقدم الأزمنة إلى سنة ١٤٠٥ للميلاد وهو من تأليف كاتب يهودي هو (ليون كاهون) وهو روائي إستغل موضوع قضية خزوات وغارات المنول السكبار مثل جيكيوز خان وتيمور لك فصورهم بصورة الأبطال العظام . وقد أعلان في هذه الفترة في ضجيج كبير أن الأكاديمية الفرنسية قد توجت هذا الكتاب ، فالتفتت إليه الأنظار وحله السفير الفرنسي إلى واحد من كبار أعضاء جمعية الاتحاد والترقي هو ناظم بك الذي قرأه وأعجب به ووضعه أساساً للنهضة الطورانية . (ثانياً) طرح المنشرق اليهودي المنفاري فبري نظرية خطيرة تقول إن الاسلام يناقض مع فكرة الجنسية ، وإن الاسلام هو الذي حال دون نشوء حضارة الأتراك ، ودعا الممنايين إلى الاهتمام بما بينهم وبين أتراك أواسط آسيا من صلة رحم . (ثالثاً) اشترك في هذه القصة مسشرقون آخرون منهم فون لوكرك من حاولوا رسم خطوط الأصول العرقية لترك . ومنذ اليوم الأول لتعلم الاتحاديين للحكم بدأ وضع خطوط هذه الفلسفة موضع التنفيذ وتصدى لذلك رجال من خارج تركيا حملوا لواء الجامعة الطورانية م : ١ - يوسف اشقورا اوغلو : ٢ - أحمد أخايف وقد عملا في الأستاذة وأساسا مجلة المواطن التركي (١٩١١) . ٣ - ضياء كوك الب : الذي أطلق عليه رسول القومية التركية وكان عضواً في جمعية الاتحاد والترقي وأستاذاً للعلوم في جامعة الأستاذة ، وظهر لأول مرة في المؤتمر السنوي للجمعية عام ١٩٠٩ ، أخذ يكتب عن فكرته في صحيفتين وأسس جمعيتين ، وكان مقر عمله سلاتيك .

ومن المعجب أنهم وثلاثتهم روضوا الأصل ولبسوا عثمانين . ٤ — حسين جاهد : رئيس
محرر جريدة طنين التركية : وهناك أيضاً مؤلف كتاب قوم جديد (عبد الله) وجلال لورنى مؤلف
كتاب تاريخ للمستقبل . وبدأت الصحف التركية تمهد للحركة الجديدة وتمتد النفوس لها على نحو منير
فيه تهازل كبير على العرب والإسلام جميعاً ، ومن الحق أن يقال أن الحافل الماسونية والإرساليات
التبشيرية والمستشرقين كانوا جميعاً من وراء هذا العمل الخطير ، غير أن الحكومة الانمهادية كانت
لا تكشف أوراقها تماماً ، وتحاول أو تبدو ظاهراً وهي منقسمة على نفسها إزاء : الجامعة الإسلامية ،
والجامعة العثمانية والجامعة الطورانية حتى لقد اختص كل واحد من رجالها بالدعوة إلى إحدى هذه
الجامعات . ويمكن القول أنها كانت تسير أساساً إلى الهدف بخطى بطيئة ولكنها تخطى ذلك أمام
سكان الدولة العثمانية بهذا التضارب والتعارض . ولقد حاول بعض الكتاب للوالين الانمهاديين أن
يؤخروا ظهور الدعوة إلى عام ١٩١٦ ويربطوها بأحداث الحرب العالمية الأولى ولكن هناك من
النصوص والوثائق ما يؤكد أن الدعوة الطورانية كانت هي السكينة الأولى في حكم الانمهاديين عام
١٩٠٩ . ويشير إلى ذلك دكتور زين زين الذى يقول إنه (بدأ من ١٩٠٩ ظهر ما أصبح يعرف
بالاتحاد الطوراني Pan - Turanianism وهو حركة تهدف إلى توثيق الروابط بين جميع الشعوب
التي تتكلم التركية على نمط الحركة السلافية الانمهادية . وقد بدأت الحركة في الصحافة والجامعات
تهدف إلى تخليص التراث التركي من للتأثرات الفارسية والعربية وخلق صلة قوية دائمة بين أتراك
الأمبراطورية العثمانية والأتراك خارج الأمبراطورية وإعلان تفوق العنصر التركي وسيادته على
الأجناس في الدولة العثمانية .

وقد هب ضيا كوكالب عن فكرته فقال : إن مواطن الأتراك ليس تركيا ولا تركستان : إنه
أرض طوران العظيمة الخالدة . إن تسألنى عن قومي فإن أمتى قائمة منذ خمسة آلاف سنة ، وأن تسألنى
عن نسي وأرومى فذهبي للترك . إذا قطعنا الحراب فليس لنا غنى عن وحدتنا . جئنا كلنا من صلب
واحد ، يجمعنا الدين واللسان . يا ابن الترك لا تقل أنا ، أنت ، هو ، كل هذه إن هي إلا كلمات
زائلة ويجب أن نضمحل وتلاشي أمام طوران الكبير . وقد مضت الأقلام الجندة لفكرة تدهو
الأتراك إلى العودة إلى فضائلهم القديمة وتعود بهم إلى أصولهم وتقاليدهم قبل الإسلام ، وقطع الصلة
بالتاريخ الإسلامى وميراثه وكانت هذه الدعوة تزعم أن الترك هم أقدم أمة الأرض وأنهم الجنس
للغوى الذى كان واحداً في الأصل ويلزم أن يعود واحداً ليس فقط ترك سيبيريا وتركستان الصين
وفارس والقفقاس والأناضول والروم بل للغوى في روسيا وإيران والصين الذين يبلغون ٣٥ مليوناً .

وظهرت أناشيد وطنية وأشعار كلها تمجد الطورانية وتفتخر للإسلام والعثمانية ، وتدهو إلى تغيير الأسماء والألقاب الإسلامية واستبدالها بأسماء طورانية فضلا عن إعادة النظر في التاريخ للدون وإلى إنصاف جينكيز خان وهولاكو وتيمورلنك وأتتلا وخلا كثير من فقالوا نحن أترك كبتنا طوران . وقد كانت الدعوة إلى الجامعة الطورانية تجري على أقلام دهاتيا دهوى متعصبة عنيفة تحمل الحقد والمكرهية لقوميات الأخرى وللعرب والإسلام . وكان الاتهاديون من وراء تأجيج نيران التمعصب القومى والحلمة على العرب وانتقاصهم كما حملت على تشويه المنصر العربى على جميع العناصر فى الدولة العثمانية . ودما ضيا كوك الب وأحد أغايف إلى أن تخضع العناصر المختلة فى الدولة لتركى خضوع التابع المتبوع . كما وصف جاويد اليهودى وزير مالية الاتهاديين : العرب بأنهم العرق الأسود كما ظهرت المنشورات السرية التى نهاجم الإسلام ويقول « إن هذه البدعة الخيالية التى يسمونها الأمة الإسلامية التى ظلت إلى أمد طويل سداً يحول دون التقدم بوجه هام ودون تحقيق الوحدة الطورانية بوجه عام هى فى طريقها الآن إلى التفتك والزاوال . ونشأت فى هذه الحركة ، أنظمة خطيرة أهمها نظام الكشافة التركية التى اتخذت لها شعار (الذئب الأخير) إشارة إلى المواطن الأول للترك . كما شكلت جماعة (ترك يوردس) التى كانت تقاوم كل كاتب تركى أو غير تركى لا يرى رأيهم ولا يعتقد معتقدهم ، ونشر الكتب القومية والأناشيد الخاصة وتدرس التاريخ الطورانى القديم فى المدارس والجامعات .

(٢)

لقد شعر العرب فى الدولة العثمانية منذ اليوم الأول لتولى الإنهاديين الحكم بالتخوف والحذر والشك فقد كانوا موضع رية أشملهم من جميع النواحي ، ذلك لأنهم كانوا جميعاً بلا استثناء من الماسون ، ولأن أبرز أعضائهم كانت من يهود سالونيك (الدونمة) . وذلك يتفق تماماً مع ما كتبه (سنون وسون) حين قال إن الحقيقة البارزة فى تكوين جمعية الاتحاد والترقى أنها غير تركية وغير إسلامية ، فنجد تأسيسها لم يظهر بين زعمائها وقادتها عضو واحد من أصل تركى صاف ، فأفور باشا مثلاً هو ابن رجل بولندى مرتد ، وكان جاويد من الطائفة اليهودية المعروفة باسم دونمة وكان كراسو من اليهود الأسبان القاطنين فى مدينة سالونيك وكان طلعت بلغارباً من أصل قجورى اهتنق الإسلام ديناً أما أحمد رضا فكان نصفه تركياً والنصف الآخر مجرباً إلى جانب كونه من أتباع مدرسة كانت الفلسفية .

وقد كشفت الأيام الحقيقة وأكدها الأحداث ، التي فضحت المخطط اليهودي للماسوني للعد مسبقاً والذي خططه مستشرقون وأجانب وأقموه للصفوة . ومن الحق أن يقال أن الحركة الطورانية لم تكن في حقيقتها إلا ركة لأمرين : الأمر الأول : تهديد العرب ودفنهم إلى ركب مركب القومية والانفصال عن الترك . الأمر الثاني : هو إعادة تركيا للمرحلة التالية وهي خلق تركيا اللاهيلية التي قام على إنشائها كمال أتاتورك . فقد كان الأتراك في الدعوة الطورانية وهو ما تملت منه بعد ذلك الدولة التركية السكالية — هو الهدف الأساسي لإثارة العرب ، ولدفعهم إلى الخروج على الدولة ولذلك ركزت عليه الحكومة الاتحادية فلما لم يحقق الغاية كاملاً ، لجأوا إلى أخطر من ذلك (وأخسر الدواء للكي) فملقوا العرب على المشائقي فكان ذلك هو السكين الحاد الذي شطر الوحدة بين العروبة والإسلام أو بين الترك والعرب شطرين لا سبيل إلى التقائهما إلى أمد بعيد . ولكن العرب كانوا إلى اللحظة الأخيرة غاية في الإخلاص والارتباط بالوحدة الجامعة فكانوا يطلقون شعار الامركية ويدعون إلى ارتباط الترك والعرب تحت خلافة واحدة بل إن عدداً من أبرز كتابهم ومفكرهم ظلوا إلى أواخر الحرب الكبرى الأولى وهم يصرون على الارتباط بالدولة العثمانية لا ينفكون عنها إيماناً بأنه من أخطر الأخطار تركها للتمزق . وكان الشيخ محمد عبده وعبد العزيز جاويز وشكيب أرسلان ممن يقولون بذلك وينسكون به حتى لقد أثر عن الشيخ عبده قوله ، إن الدولة العثمانية هي ثلاثة العقائد . ولكن الاتحاديون كانوا يعرفون ما تريد المحافل للماسونية تماماً وهو كسر هذه الرابطة وتمزيق هذه الوحدة وفتح الطريق إلى القدس بين شطري العروبة والإسلام وفصل الترك والعرب . وفي عبارة توفيق الناطور أحد قادة العرب البارزين في سوريا ما يؤكد ذلك حيث قال « إن فكرة العروبة لم تكن قد تبلورت وقويت ، جل ما كنا نحن العرب نطلبه هو أن نتمتع في الامبراطورية العثمانية بنفس الحقوق والواجبات التي كان يتمتع بها الأتراك وأن تقوم الامبراطورية على ركنين : الشعب التركي والشعب العربي .

وكان مشروع عزيز للصري يقوم على هذا النحو ، وكذلك كانت فكرة محمود شوكت ، وكان ذلك رأى الكثيرين : دولة مزدوجة (تركية — عربية) يرأسها خليفة تركي وتضم الأناضول التركي وهرستان ، غير أن الاتحاديين ما كانوا يقبلون ذلك أو يرضوه ، إنما كانوا يريدون التمزيق الكامل ولذلك أغروا رجلهم (أحمد جمال باشا) بأن يقوم في سوريا بذلك الدور الذي لا يوصف بأقل من المكر والتآمر حين حمل راية الوفاق بين العرب والترك ، وظل يفسح لزعماء العرب حتى وضع يديه

عليهم جميعاً ثم حلقهم على المشائق عامي ١٩١٥ - ١٩١٦ فأنهى كل رابطة يمكن أن تقوم بين العرب والترك ودفع العرب دفْعاً إلى الانضمام إلى صفوف الحلفاء (بريطانيا وفرنسا) بعد أن دخلت الدولة العثمانية الحرب في صف ألمانيا. ولقد أحس العرب فعلاً أن الاتحاديين (وليس الأتراك) كما يرد على أقلام الكتاب الذين يريدون أن يلتمسوا لهم المعذرة ويدافعون عنهم - يقيمون الدليل على رغبته في فرض اللغة التركية على بقية العناصر العربية في الدولة بشكل يقضى فيه القضاء الكامل على لغاتها القومية وأنهم استغلوا كل مناسبة لتنفيذ هذه الخطة في كل مكان من بلاد العرب. لقد دعا جمال باشا شباب العرب في دمشق عقب وصوله إليها عام ١٩١٤ إلى الاجتماع به وألقى فيهم خطاباً تعرض فيه للجامعة الطورانية فقال مموهاً معلّتها خادها ما يلي: « يجب أن نتقوا بأن مشروع الجامعة التركية الذي سمعتم منه وعن وجوده في استانبول وفي الجهات الأخرى الآهلة بالترك لا يتنافى مع الأمان العربية بشكل من الأشكال. » أنتم تعلمون أن هناك في الإمبراطورية العثمانية حركات بلغارية وبولندية وأرمينية كما تقوم هناك حركات عربية، أما الأتراك فقد نسوا وجودهم بتاتاً أو تناسوا إلى حد أنهم كانوا يعدلون من ذكر جنسهم مما أدى إلى وكود الروح الوطنية بينهم حتى بقنا نتوجس خيفة من ثلاثي الشعب التركي تلاشياً تاماً لذلك ونداوا كما لمثل لهذا الخطر الدام خفف رجال تركيا الفتاة بغيره تستحق الإعجاب إلى السلاح، قصد إثارة الروح الوطنية وما يرافقها من الفضائل في صفوف الأتراك ».

غير أن هذا كله كان خدعة ونمويها، ولكن أحمد جمال مضى في الخطة إلى غايتها فقال في اجتماع آخر قولاً أكثر مكرراً في طريق محاولة إدخال بعض العلمانيين إلى خطته التي يكتنمها ويحاول أن يضدع بها على النحو الذي يوقع الوطنيين في الفخ. وبما قاله وردده على ما يرويه هيد الرحمن شهبندر: إنه الصديق الصدوق للعرب، وإنه لا يتنزل إلى قبول العدواة في بلاد لا يطالب أهلها بمحقوقهم القومية. إنه هو الذي قانع سفير ألمانيا بدخول الدولة العثمانية إلى جانب الدولتين المركزيتين وأنه هو الذي أصر على مصالحة فتیان العرب وعلى عقد تلك المعاهدة معهم وأرسل مدحت باشا شكرى إلى باريس لمفاوضة أعضاء المؤتمر العربي ١٩١٣ برئاسة الزهراوي وكان ذلك كله من أحط أنواع التأمر، فإنه لم يلبث قليلاً حتى كشف زعماء العرب وعلقتهم على المشائق بإمام بأحط أنهم. وقد إقتراف بهذا العمل أسوأ خيانة في التاريخ، فيها وحدها قطع كل العلائق وأثار الحفاظ والأحقاء، ونولها ما استطاع تآثر من العرب أن ينور على الترك ويرفع السلاح في وجههم، وهو إلى ذلك لم يتورع من أن يلجأ سراً إلى إنكلترا وفرنسا ليمسأهدها على ذلك حصون الخلافة وتزريق أوصالها هذا فضلاً عن

كفب ما أذاحه جبال وزملاؤه الاتحاديون من أن موقف العرب هو سبب إهزام دولة الخلافة وتقلب الحلفاء على ألمانيا مع أن تاريخ الحرب العامة يدل على غير ذلك تماماً. ولقد طوى الجنرال لودندرون رئيس أركان حرب الجيش الألماني عنق الاتحاديين بالعار حين قال في مذكراته : « إن الحكومة التركية استمرت على موقفها العدائي نحو الأقوام العثمانية الأخرى ومع كل ما بذلته بنفسى من الالتماس والاستعطاف ، فالترك (وهو بقصد طبعاً الاتحاديين) لم يبدلوا شيئاً واحداً لصرم جبال السياسة القديمة التى سلكوها مع العرب. بل أن للارशल هندنبرج زعيم ألمانيا إبان الحرب صور ذلك بوضوح حين قال : كان فى رسع العرب الافلات بسهولة من نطاق السلطة فى الدولة العثمانية خلال حكم الاتحاديين إذ كان هلبهم أن يرفعوا سلاحهم فقط ويتمشوا فى خنادقهم إلى جبهة العدو ومع ذلك لم يعملوا شيئاً من هذه الأعمال ويقول الدكتور شيندر إن هذه العصبة (أى الاتحاديين) قد تأمروا على سلامة الدولة العثمانية فساقوها رغم أنها إلى حرب ١٩١٤ .

(٣)

هناك إجماع على فساد النظام السياسى الذى إقامه الاتحاديون ، وليس أدل على ذلك من عبارة بعض الكتاب (إن سجل السنوات العشر ١٩٠٨/١٨١٨) يبدو لأول وهلة سجعلاً قائماً وإنهم لم يكونوا أكفاء لحل الرسالة التى بذلوا أنفسهم لها وهناك إجماع على أن تفكيرهم كان مضطرباً مشوشاً ، وأنهم وقعوا فى تناقض خطير ، ذلك أن فكرة الطورانية بدعوتها إلى تمجيد المنصورية التركية وإيرازها لروابط القرى بين الأتراك فى الدولة العثمانية وإخوانهم فى الجنس فى آسيا الوسطى تنقض فكرة الوحدة العثمانية التى كانت ترمى إلى توحيد الأجناس المختلفة فى أمة واحدة على أساس المساواة بين الجميع ، لقد عجزت جمعية الاتحاد والترقى عن إدراك التناقض بين الفكرتين أو أنها أدركته فاختارت سبلاً غير مجدية بمحاولة التوفيق بينهما ولم تنجح هذه المحاولة إلا فى إثارة الأجناس الأخرى وخاصة العرب إلى الإعتقاد بأن معناها الوحيد هو حلهم على النخلى عن أمانيتهم الفكرية العربية وأن يبيعوا لأنفسهم أن « يتركوا » من أجل الوحدة .

كما أخذ عليهم ما وصف بأنه خطأ فاحش وهو « إنباعهم نظام المركزية وهو نظام استثماره كاستعاروا كثير اغيره من أفكارم الرئيسية من مبادئ الثورة الفرنسية ولكنهم حين استثماروه أخفقوا فارتا جوهرها بين حال ١٧٨٩ وحال الدولة العثمانية عام ١٩٠٨ . فضلا عن أنهم « تفصلوا » عن مبدأ

المساواة والقوة ، ولجأوا إلى سلطتهم بأساليب كانت أحياناً إستغرافية وتدل على الحق ، لترجيح للمصلحة التركية والاضرار باخوانهم العثمانيين وحكم الدولة على أساس السيادة الجنسية للمعاصر التركي ولقد كنت أود أن تنظر في هذه الأخطاء جميعاً ، وتقارن بين أعمال الاتحاديين وبين أعمال السلطان عبد الحميد ، لتعرف أيهما أصدق إيماناً بالدولة العثمانية وأيها كان خائنها وجلادها ، . وحقيقة أخرى طالما أخفاها مؤرخو الاتحاديين والسلطان عبد الحميد ، هي التوجيه في اللواقف التي يتعرض فيها الاتحاديون للمواخذة فيجعلونها مبهمه أو يصيغونها في صيغة معجمة ، والواقف الذي تكشفه هذه الوقائع جميعاً والذي نستطيع أن نصل إليه أن « الاتحاديين » وليس السلطان عبد الحميد هم الذين كانوا مستبدين ، ظالمين ، هم الذين ساقوا العرب إلى أشد اللهانة ، وحاولوا تحطيم روحهم للعنصرية ، وإذلالهم وتزريكهم ، وهم الذين قدموا في السلاسل ليسلخهم إلى الاستعمار الغربي وسيطرة اليهودية العالمية .

وحقيقة أخرى هي أن المواجهة العربية والردى على التحدى إيماناً كان أصلاً موجهاً إلى أحمد جمال وإلى الاتحاديين أنفسهم وليس إلى الدولة العثمانية أو الأتراك الذين كانت تجمعهم بالعرب أسرة قوة لا تنقسم . وغاية القول أننا يجب أن نفرق في هذه للرحلة بين هذين : عهد السلطان عبد الحميد الذي انتهى عام ١٩٠٨ وعهد الاتحاديين الذي امتد من ١٩٠٨ إلى ١٩١٨ وكان مقدمة خطوة أشد عنفاً وقسوة وهي مرحلة الانقلاب التركي الذي قام به مصطفى كمال في وجه الإسلام والعروبة جميعاً . وكان هذا هو التخطيط الاستعماري اليهودي الذي تم على مرحلتين . والمعروف أن مصطفى كمال كان عضواً في الماسونية وعضواً في الاتحاد والترقي ورفيقاً لقادة ما قبل الحرب (طلعت وأنور ونيازی وغيرهم) ولكنه « حجب » لأمر ما في الفترة الأولى ليقوم بالرحلة الثانية . ولقد كشفت النصوص والوثائق العلنية تبعية الاتحاديين لكل خصوم العرب والإسلام ، ويسجل المفتطف (مارس ١٩٠٩) برقية مرسله من الاتحاد والترقي إلى جريدة التيمس يقول : « على كل ما صدر أعظم أن يتبع سياستنا الصريحة الوداد لانكلترا طبقاً لمشينة الأمة العثمانية كلها . ونحن واثقون مع ذلك أن صداقة انكلترا القديمة العهد العظيمة المستمرة لبلادنا لا ننظر فيها إلى الأفراد بل إلى الأمة بأسرها واثقون أيضاً أنه يمكن لحكومتنا أن تعتمد على ميل انكلترا إليها لكونها أمة صديقة لها » .

(٤)

كانت أولى خطوات الاتحاديين في الحكم بناء منهج سياسي وفكري للدولة العثمانية مستمد من النظرية الغربية العلمانية جرياً وراء الخطة التي رسمتها للماسونية في الثورة الفرنسية وإلغاء للمفاهيم الإسلامية وإحلال مفاهيم غربية خالصة بدلاً منها . ولذلك فقد سارع الاتحاديون بإصدار تصريحات تقول بعزل الدين عن السياسة وقد قال أحدهم : (انه لا محل للجامعة الإسلامية في برنامج تركيا الفتاة فضلاً عن استسلامهم لبريطانيا استسلاماً كاملاً بمد أن أهلنوا أنها آذنتهم في انقلابهم . وقد وصف ذلك فريد وجدي في ذلك الوقت فأشار الى « نكران هذا الحزب للعاطفة الدينية وسميه في تكوين دولة مختلطة بإمال الصبغة الإسلامية . وقد أشار كثير من الباحثين إلى خطة الاتحاديين في ملنة الدولة العثمانية وهي خطة أسروها وعملوا لها في الخفاء حتى يتمكنوا من « توفير الملنة » بأقل ما يمكن من المعارضة وبدون أن يشعر الناس أن الملنة أمر يتعارض مع الإسلام » . وقد جاءت « الحركة العلمانية في تركيا تقليداً للحركة العلمانية في أوروبا ، وقد كانت تستهدف أساساً ملنة « التورية والقضاء » كما عمدوا إلى تخطي العصر الإسلامي والذهاب إلى أبعد مدى في الجاهلية الأولى ، وهي نفس الخطة التي وضعها القنود الأجنبي والتبشير والماسونية في مصر ولبنان وغيرها . وكما ارتبطت دعوة الاتحاديين بالعلمانية والنظريات الغربية ، فقد ارتبطت بقبول الاستعمار الغربي الذي سيطر على بعض البلاد العربية كإقرار الاحتلال البريطاني في مصر وهو ما كان رأى خريجي الإرساليات التبشيرية أمثال الدكتور شبلي شميل داهية النظرية المادية والذي كان في نفس الوقت مماناً للاحتلال البريطاني .

(٥)

فتحت الأبواب بعد سقوط عهد الحميد لكل الأنكار ولكل الدهوات للمعارضة للوحدة الإسلامية والمخلقة الإسلامية والإسلام نفسه ، وأتيحت الفرصة لكل الغلاة وللصوم العرب والإسلام فه أن يذبحوا كل مامن شأنه أن يحقق للاستعمار الغربي واليهودية العالمية مطامعها وأهدافها . وخرجت جماعات خريجي الإرساليات التبشيرية والمهافل الماسونية لتسيطر على الفكر من طريق عدد من الصحف : في مقدمتها أقدام وترجان وجون ترك وحقيقة . وكانت الإرساليات التبشيرية في الأستانة قد تركزت منذ القرن السابع عشر عندما منح للبعثات

الكاثوليكية بالإقامة في أراضي الدول العثمانية ثم تمددت فأصبحت هناك إرساليات للأرمن واليونانيين والإنجليز واليسوعيين والمعازين والبروتستانت وكانت هذه المدارس كلها متمثلة بالحرية في بث مناهجها . وكان هؤلاء الذين قادوا الفكر التركي يصرون من مفاهيم التبشير والماسونية ، وهي ترفض الدين رفضاً أساسياً وتعتمد أنه مصدر للتأخر ، وأن الإسلام هو مصدر تأخر الدولة العثمانية ، ولم يكونوا قد تبينوا حقيقة ما يرددون أو ما ألقى إليهم ، ولو بحثوا لعلموا أن الدين بمفهوم الإسلام لا يكون مصدر تأخر وأن مصدر التأخر هو ما كانوا يطبقونه وأن أسلوب العمل الأمثل ليس هو رفض الإسلام بل تطبيقه على أصوله الصحيحة . وكان هذا هو الفوز الحقيقي للدولة العثمانية . وللمسلمين والمسلمين من فلسفة واضحة مرسومة تنفذها الإرساليات التبشيرية والمهافل الماسونية وكلها تنضج بالكراهية والحقد على الإسلام والعرب وهدفها القضاء على دولة الإسلام الكبرى وإلغاء اختلافه وتزريق الدولة العثمانية وابتلاعها واستمادة ما أحرزه محمد الفاتح والانتقام من سيطرة الدولة العثمانية على أوروبا . كانوا يربطون أنفسهم بالثورة الفرنسية التي صورت لهم على أنها أعظم حدث في العصر الحديث وأنجبهوا إلى الفلسفات الغربية فاهتنقوها حتى كان أمثال أحمد رضا تلميذ أوجست كوت يرفض أن يذكر اسم الله في القسم وقد بلغ ذلك إلى الحد أن هانوتو قال : إن تركيا الفتاة من اللغة الفرنسية .

ومن هنا يمكن القول أن كل هذا الاضطراب الفكري والسياسي الذي حدث وكان على حساب العرب والترك إنما كان نتيجة الإرساليات والماسونية ، وأن أهلاماً كباراً لمحت أحماؤهم هنا وهناك كانوا ضحية خدعة كبرى هربت لهم ووضع لهم مظهر براق أغشى العيون وسيطر على العقول والقلوب . وكان ذلك كله في هيبه مفاهيم الإسلام وفيه التي كانت قد ضعفت في هذه المرحلة ضعفاً شديداً ، مما أخرى القيم الغربية نفخمة الاستثمار واليهودية العالمية بالسيطرة وقيادة اللوقوف كله . ولم يكن ذلك التحول هو نهاية اللطاف في أمر العرب والترك ولكنه كان مقدمة لمرحلة أشد خطورة بعد الحرب العالمية الأولى .

(٦)

واجه العرب خطورة الاتحاديين في قوة وكنبت الصحف تكشف عن خططهم وكان في مقدمة الكتاب السيد رشيد رضا في مجلة للنار وكان هو قد سافر إلى استانبول فأقام كاملاً إبان حكم الاتحاديين وفهم أن خطة تفريك العناصر العربية هي عمل ماض لا يتوقف : « وأنهم لا يرجعون عنه

وأنتهم جازمون بسهولة تغريك بلاد سوريا والعراق في ضنين مفردة وما يصير تغريك الآن في جزيرة العرب يعد من الاستعمارات التي يوضع لها قانون خاص لإدارتها ، وقال إنهم : أرسلاطائية من طلبية الترك إلى أوروبا من أجل دراسة قوانين الاستعمار . وأشار إلى موقف العرب أمام التحدي وبرر اتجاههم للعمل في مجال العروبة وقال : ما أعاد العرب إلى العصبيية بعد أن أبعد الإسلام عنها إلا الاتحاديون بباحث العصبيية التركية . فقد بحث الاتحاديون بعصبيتهم التركية واضطهادهم للعرب تأثير العصبيية العربية وأحيوها بعد موتها . قال : لقد أزال الإسلام من نفس العرب عصبيية الجلفسية وما غلبت عليهم البداوة إلا بما توارثوه من الغرائز والأخلاق لا يخضعون إلا لسلطة رؤسائهم . وقال إن العرب أبقا الشقاق بينهم وبين الترك حتى لا يقضى ذلك إلى زوال الدولة واستيلاء الأجانب عليها ، أما وقد وقع الأمر من قبل الاتحاديين فلا مفر لانقائه وقد حصل ، وخلفه للفتنى لآحياء هذه الجلفسية وهو وجوب المحافظة على اللغة العربية والأمة شرما .

وأشار إلى خطة الاتحاديين في تسليم طرابلس الغرب وبرة إلى الإيطاليين ، فضلا على عقد الاتفاق بينهم وبين الدول الكبرى على الاعتراف لها بالنفوذ الاقتصادي في أعظم الولايات العربية ليقضها عشرات الملايين من الجنيهات . وأشار إلى أن الاتحاديين وضعوا الدولة في الأحكام العسكرية العرفية ، وجعلوا من ذلك وسيلة التنكيل بالعرب والأرمن حسب خطتهم للقررة منذ سنين فصلبوا في سوريا جميع من عرفوا من المطالبين بالإصلاح من تابعي العرب ولفوا من البلاد أرباب البيوتات وصادروا أموال الناس وفعلوا مثل ذلك في العراق ثم تفرشوا بالحجاز ، أ هـ .

(٧)

وكان هناك مفهومان للعروبة في علاقة العرب بالدولة العثمانية (الأول) مفهوم لبناني يقوم على ذلك الشعور الذي نماء الاستعمار والإرساليات في نفوس غير المسلمين بالخوف من أي وحدة إسلامية أو عربية وهو ما يدهو أساسا إلى إقامة كيان خاص في لبنان بعيد عن أي تجمع يحمل للسبحين أقلية . هذا المفهوم هو مفهوم القنبانية ، الخاصة التي يحمل معه تاريخ العرب قبل الإسلام ويحاول أن يعلى من شأن الفينيقيين ودورهم التاريخي وقد أخذ من اللغة العربية سلاحا ومن العروبة مظهرآ حتى يجمع إليه بعض الطوائف الإسلامية كالدرورز وغيرهم . وتقوم فلسفة هذا الاتجاه على المفهوم العثماني الخالص الذي يرفض كل ما يتصل بالإسلام أو تاريخه أو قيمه في نظام المجتمع أو الحكم أو غيره وهذا هو ما اتسع نطاقه من بعد ذلك تحت إلحاح الإرساليات التبشيرية والمخاف الماسونية حتى أصبح

مفهوم القومية العربية التي أريد لها أن تشمل العالم العربي كله وتقضى على المفهوم العربي الأصيل ذي البعور الإسلامية الأساسية وللتنوع على الشعوب للربط بالفرق الإسلامي . وأقد كانت هذه الدعوة المنبعثة من وضع لبنان الخاص وظروفه وتحدياته قد أريد لها تحت النفوذ الاستعماري التناق أن تتم وتشتع وتذاع حتى قامت على مفهومها أحزاب ودعوات حل لواءها غير المسلمين وحملت على أن تسيطر على العالم العربي كله ولا تقف عند لبنان وحدها . وكان من وراء هذا المفهوم للنفوذ الاستعماري الذي كان يخشى مفهوم العروبة الأصيل .

(الثاني) هو مفهوم العروبة للستمد من التحديات التي واجهها العرب بعد اتساع نطاق الحركة الطورانية وتحدياتها إزاء العرب ولتهم وتاريخهم والتي وصلت إلى أسوأ مظاهرها على أيدي الاتحاديين بتعليق الدعاة إلى العروبة على المشائق وقتلهم في ساحات بيروت ودمشق عام ١٩١٥ و ١٩١٦ . وهذا المفهوم بدأ أساساً في دمشق على أيدي طاهر الجزائري وعبد الدين الخطيب ومعهم كثيرون وكان هذه الحلقات قد تشكلت فعلاً في خلال حكم الاتحاديين وبدأت تخطو في ظل حركة اليقظة الإسلامية العربية التي كانت قد بدأت فعلاً قبل ذلك وحملت لواءها جهات كثيرة كالوحديين الوهابيين في الجزيرة العربية والسونية في طرابلس الغرب والمهيدية في السودان وجمال الدين ومحمد عبده في مصر . وكانت بشهادة مؤرخيها تركز على اللغة العربية وتؤكد دور العرب في التاريخ مرتبطاً بالسلام وبالدولة العثمانية . وقد أشار السيد محمد الدين الخطيب والأمير شكيب أرسلان وعبد العزيز الدوري إلى أن هذه الحلقات كانت تدعو إلى دراسة تاريخ العرب وقواعد العربية وآدابها وتهدف إلى بث العروبة من حولها . وكان ذلك عملاً ضرورياً في مواجهة حملات التشكيك التي قامت بها الإرساليات الأجنبية بالإضافة إلى ما اندفع إليه الاتحاديون من تبريك العرب والقضاء على اللغة العربية . وقد كان مفهوم العروبة هذا في الحقيقة هو نقطة البدء الحقيقية للوحدة العربية الحديثة وإن كل ما سبق ذلك من دعوات ومحاولات حملت اسم العروبة أو اللغة العربية وخاصة ما عرف في بيروت وبدأ من المدرسة الانجيلية السورية لم يكن يمثل مطلقاً اتجاهها عربياً أصيلاً .

وأما كان دعوة إلى إقامة السكينة اللبنانية بعيداً عن الدولة العثمانية والعروبة جميعاً وقد اتخذ اسم العروبة والحديث عن اللغة العربية « غطاءً » يفرى به بعض المسلمين وخاصة من كان منهم متصلاً بالحقائل الماسونية . وكان ذلك مقدمة لإبراز نظرية للعروبة موالية للغرب ، تستمد مقوماتها

من أصول غربية وتنمزل عاماً عن مفهوم العروبة الأصيل ذي الجذور الإسلامية . أما الدعوة إلى السكبان اللبناني فذلك أمر له طبيعته وظروفه وواقعه التاريخي لدى بدأ منذ عام ١٨٦٠ وحتى في طريقه إلى اليوم . هذه النظرية التي أقامتها الإرساليات والقوى النغربية والمستشرقين والماسونية ، وقصد بها أول الأمر لبنان ذاته ، من الخطر ومن الاستهانة بالفكر العربي الإسلامي كله أن تفرض وتعمم ويحاول بعض معتقبيها من قوى الولاء الغربي أن يفرضوها نظرية عامة للعروبة تأخذ بها الأمة العربية كلها . وقد أشار فيليب حتى إلى موقف لبنان من العروبة فقال : أما النصارى في لبنان فانهم كانوا يؤثرون القومية اللبنانية بالرغم من أن أعداداً قليلة من المفكرين كانوا يظهرون العروبة .

وهنا يبدو ذلك للنحن الخطير بين تيارين يواجهان العروبة في ذلك الوقت الباكر — خلال حكم الاتحاديين وقبل وأثناء الحرب العالمية الأولى — هو محاولة الدعوة الطورانية التي ترمي إلى أن تزيل عن العرب وجودهم الفكري والفني والتاريخي ، ثم محاولة الدعوة اللبنانية لانبثقة من الإرساليات والحافل للماسونية التي تهدف أن تزيل عن العرب تراثهم مع قيمهم الأساسية التي أقامها الاسلام والقرآن والفكر الاسلامي وأن تضعهم في قالب من نظرية غربية في القومية فرضتها ظروف وتحديات في أوروبا لاتصل بالعرب بسبب ، ويختلف موقفنا منها تماماً فالعرب قد قبلوا بالعروبة إزاء تحديات الاتحاديين ودهوشهم الطورانية وكانت الحركة العربية أساساً منبعثة من دمشق لا من بيروت ، وقد بدأت بعد ظهور الحركة الطورانية لاقبيلها ، واقتصرت على الشام والعراق والجزيرة العربية وكانت في آخر مراحلها خلال الحرب تنطلق إلى دولة تضم هذه الأجزاء وهو ما لم يتحقق ، فالعروبة التي قامت في سوريا العربية منفصلة عاماً عن الدعوة اللبنانية التي أرادت أن تقيم كياناً لبنانياً معبراً عن مختلف تيارات الجامعة الإسلامية أو العروبة التي تشمل أكثر من دولة . وكانت هذه الدعوة اللبنانية دعوة ضرورة عليها ظروف هذا الجزء وتاريخه وكانت امتداداً لوضع فرضه النفوذ الغربي عليه منذ ١٨٦٠ حين هزله عن الشام وعن الدولة العثمانية وعن سوريا وأرادته منطلقاً لخطط واسع للدي في وجه وحدة العروبة والاسلام . فليست الدعوة اللبنانية إلا ضرورة لظروفه الخاصة ، أما محاولة فرض هذا المفهوم على « العروبة » نفسها فإنه ليس طبيعياً ولا يتفق مع مفاهيم وثقافة ومقومات المجتمع كله الذي يقوم في أغلبه على الاسلام وترتبط فيه اللغة العربية بالقرآن ارتباطاً وثيقاً .

ولقد كان الخطأ الوحيد وللقصود هو تفريغ العروبة من مقوماتها التاريخية والثقافة والعنائدية

وجعلها مفهوماً وافداً خالص الاستمداد من النظرية الأوروبية للقوميات والتي تقوم أساساً على الملمانية في القانون والتربية والتي تفصل بين الدين والمجتمع . لقد كان لأوروبا ظروفها الخاصة في هذا الصدد . بل إن القومية نفسها في أوروبا إنما قامت على أساس إزاحة السكبان للوحدة الذي أقامته الكنيسة الكاثوليكية . لقد بدأت القومية في أوروبا في مواجهة الكنيسة ، وكانت نظريات الأجناس والمروق هي الدعوة التي أريد إحلالها محل الروابط الدينية ومن هنا بدأ ذلك الصراع بين الأديان والمروق وقد جعلت اللغة منطلقها . والدعاة إلى القوميات : مبادئها وحقوقها كانوا في الأغلب من أتباع اليهودية العالمية والماسونية وفي مقدمتهم ما كس نوردو الذي استشهد به (ساطع المصري) ووصفه بأنه المفكر الألماني الشهير وحاول أن يخفي حقيقته كفيلسوف يهودي وما استتبع ذلك من اختياره خليفة لمرتزل في جمل لواء الصهيونية بعد وفاة صاحب كتاب الدولة اليهودية عام ١٩٠٤ . ولقد خلا نوردو في تقديس القومية حين قال : إن الذين فقدوا البصيرة هم وحدهم الذين يزعمون أن أن الفكرة القومية هي من الآراء الطارئة التي لا نلبث أن ننسئ . إن أوصى القومى من الأمور التي تحدث بالضرورة وبصورة طبيعية في مرحلة معينة من التطور البشرى في الأفراد وفي الجماهير إنما من الظواهر والحوادث الضيقة التي لا يمكن تأخيرها ولا سيما منها مثل حوادث الجزر والمدن في البحر وحرارة الشمس في موسم الصيف . . ولقد تعددت في أوروبا نظريات القومية ، فأقامها (لجنة) على أساس وحدة اللغة وأقامها (أرست وبنان) على أساس المشيئة وأقامها (ميتالين) على وحدة الأرض واللغة والثقافة والاقتصاد . وقد طرحت هذه النظريات في العالم الاسلامى دون تقدير للفوارق الفكرية والاجتماعية بين أوروبا وبين العالم الاسلامى . فقد كان الغربيون قد حددوا موقفهم من الكنيسة بعد الثورة الفرنسية ، وعزلوها عن مجال التأثير السياسى والقومى وكان ذلك مقدمة لبروز القوميات لتخلق الصراع بين الأمم والدول ، مما يمكن لليهودية العالمية من السيطرة على كل أمة على حدة . وبما يقضى على النفوذ الدينى المسيحى الذي حاولت القوميات استبداله بعلمانية القانون والتربية . ولذلك فلم يقع هناك من الخلاف في شأن مفهوم القومية ما وقع في العالم الاسلامى .

ولقد أشار الباحثون إلى عدم تقييد القوميات في البلاد الأوروبية بالأديان والمذاهب إنما كان نتيجة طبيعية لتعاليم الانجيل التي تفرض فصل الدين عن الدولة ، وفق الفاعدة التي تقول : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، أما في الاسلام فإن ما لقيصر هو لله أيضاً ، وأن العمل بمبدأ فصل الدين عن الدولة بصورة فعلية لم ينتشر في أوروبا إلا بعد أن تقرر مبدأ حرية الاعتقاد بصورة نهائية بعد سلسلة طويلة من الأحداث الدامية والحروب الطاحنة والتطورات الفكرية والاجتماعية الخطيرة .

ولقد كانت طبيعة التركيب الاجنهي والسياسي للعالم الإسلامي تتعارض مع تصور القومية على المفهوم الأوربي ، لذلك لم يتغلغل في نفوس الشعوب الأصوية والأفريقية وكان الاستعمار الغربي هو الذي بشر بها وأراد بها تمزيق وحدة العالم الإسلامي وضرب الأجناس والعناصر والعروق بعضها ببعض كوسيلة لإقرار نفوذه الذي يتمرد بقاؤه في ظل الوحدة الشاملة ، وفي مجال الأمة العربية كذلك نشر مفهوم الأقليات الضيقة حتى يحول دون تجميعها . ولا شك أن مسألة العلاقة بين الدين والسياسة في البلاد الإسلامية أمر جوهرى وجفري وحاسم ولا سبيل إلى إقرار مفهوم القومية الغربية فيه ، فضلا عن أن كل أمة من شأنها أن تشكل مفاهيمها إزاء القضايا التي يطرحها الفكر الغربي من واقعه ومن مصادره الذاتية . وليس صحيحاً ما يردد ساطع الحصرى حين يقول (إن الخلط بين الدين والسياسة استمر في البلاد الإسلامية) فهو تعبير يدل على غفلة واضحه لحقائق أساسية في الفكر الإسلامي لا يجوز أن يتجاهلها الفكر عربى مسلم ، ولكن ساطع الحصرى كان امتداداً لمفهوم الانهاديين في القومية المستمد من الفكر الغربى . لقد كان ذلك مبدأ الصراع في الدولة العثمانية والعالم الإسلامى ، بين الجلسيات والأديان ، وخاصة بين أصحاب الدين الواحد : « الترك والعرب والفرس » وأخذت الدعوات تتصارع بين ثلاث محاور : الجاهلية الإسلامية والعروبة والأقليات . ولقد كانت دعوات العروبة والأقليات في أساسها محاولة لخلق ذلك الصراع الذى يمزق الجاهة فلا يلتئم شملها أبداً . لقد كانت دعوة القوميات القائمة على الأجناس والدماء والأهراق قد شنها اليهود في أوروبا من أجل القضاء على وحدة الكنيسة في أوروبا وإثارة الصراع بين الأمم جميعاً ، ثم لقد نقلوها إلى العالم الإسلامى من أجل تمزيق وحدة فكر المسلمين والعرب . ولقد قال جان نيتو : إن نظرية الأجناس متحفل مكاناً هاماً في تاريخ أضاليل الفكر البشرى . ولقد أشار فيليب حتى إن دعوة القومية التى طرحت في العالم الإسلامى مستوحاة من الفكر السياسى الفرنسى ولا سيما ذلك الفكر الذى تجسد في الثورة الفرنسية . وفي مبادئ الحكم في الجمهورية الثالثة ، ولا شك أن نظرية القوميات بصورتها هذه كانت مخالفة لمفهوم الإسلام .

لقد تقرر ذلك حتى يقول فيليب حتى : « إن الإسلام لا يعترف بمواجز جغرافية وفوارق طيفية والإسلام دين شامل في نظره ودولى فوق الدول والتوكيد في الإسلام قائم على القيم الروحية التى تربط بين المسلمين لا على المسائل الاقتصادية » . ولكن ولأه المرء لدينه قبل كل شئ . ولقد أشار (حتى) إلى مفهوم القومية في الغرب وكيف أنه لا يمكن أن يكون مقبولا في العالم الإسلامى ، حين أشار إلى أن القومية الحديثة في نظر أهلها « أشد رسوخاً في نفوس معتنقيها من ولائهم لدينهم » وقوله « إن

القومية الحديثة لا تستطيع العيش إلا في جو علماني . وإن هذا الصرب من القومية في شكلها المتطرف في العلو يصبح بذاته ديناً يمتنقه الناس . ويعلق (حق) على ذلك فيقول : ولهذا السبب فإن الروح القومية كحركة وأعباء ذات أهداف معينة لم تنجح في العالم العربي ولم تلتشر فيه إلا بعد الحرب العالمية الأولى . والمعروف أن أوروبا قاومت الكنيسة والمسيحية بعد أن وقفنا في وجه النهضة العلمانية أما الإسلام فليس كذلك بل هو مبدع المنهج العلمي التجريبي . والواضح أن الكنيسة حاولت أن تحكم في الغرب وأقامت الدولة البشوقراطية ، ولكن الإسلام لم يعرف حكومة رجال الدين ، وليس فيه رجال دين أصلاً ، لم نفوذ أو مؤسسة تفرض إرادتها . ومن هنا فإن اختلافاً بعيداً بين موقف أوروبا وموقف العالم الإسلامي من القوميات ومن الأديان على السواء ، ولقد كان الإسلام منذ نزوله قائماً على الترابط بين العقيدة والشريعة ، وبين الدين والمجتمع ، ولقد نهى الإسلام عن تعصب الجلسيات والعروقي وإعلاها وأعلى من شأن الأخاء الإنساني العام . وهناك وجه آخر من أوجه الاختلاف بين مفهوم الجنسية في العالم الإسلامي وفي الغرب ، فالقومية في نظر الشعوب الغربية ضيقة شرسة متعصبة مفرطة بالتعصب مغلقة نحو الإنسانية ، تشيع فيها روح الاحتقار الشديد بين مختلف القوميات الغربية بعضها تجاه البعض الآخر ، فهي تتضارب وتتصارع ولا نلتئم بينها في ضوء القرآن وقيمه ومفاهيمه . فهي جنسيات مفتوحة ترتبط بوحدة فكر تملو على رابطة الدماء والأهراق . ولقد هلت روح العنصرية في القوميات العربية بما لم تستطع روح المسيحية أن تحسد منها أو تلتفتها ، ذلك لأن المفاهيم الوثنية التي خللت على الفكر الغربي والحضارة الغربية حتى حدثت من طابع المسيحية الإنساني .

ولقد كانت الروح الغربية أساساً متعصبة وغير منساحية ، فلما جاءت المسيحية حاولت أن تصلحها ، غير أنها لم تستطع ذلك ، ومن هنا هلت في أوروبا صيحات الأجناس : واستعلاء الجنس السامي على الجنس الآري ، وفكرة شعب الله المختار عند اليهود وفكرة ألمانيا فوق الجميع عند الجرمان ولقد أخذ الغربيون هذه المفاهيم من اليونان القدامى الذين يقول فيلسوفهم الكبير أرسطو (الحمد لله الذي جعلني يونانياً لا بربرياً) وعن اليونان برزت تعبيرات (الوطنية ، والعصبية الجنسية) ثم أخذتها القوميات الغربية وطبقها بطابع التعصب ضد القوميات الأخرى ، ومن ثم قامت المذابح والمساكر الدموية وانسمت بالقداسة والوقية ، ومثل هذا لا تجده في مفاهيم المسلمين والعرب ، ولا تتقبله فكرة العروبة ولا ترضاها النفس العربية . وهناك من الآراء ما يحاول أن يشكف عن أن اليسوفيه التي تفلتت في الفكر العربي وسيطرت عليه هي التي أرادت بتعميق القوميات في الغرب القضاء على

روح المسيحية الموحد الجامع وأن اليهودية أفادت بذلك الصراع بين القوميات المسيطرة عليها جميعها وضميرها بعضها ببعض لتكون هي المسيطرة عليها .

(٨)

دعاة الطورانية

كان أبرز دعاة الحركة الطورانية في الدولة العثمانية مهاجرون من الروس ، هم الذين حملوا لواء هذه الدعوة في مقدمتهم اقشورا أوغلي يوسف وأحمد أغايف وأبرزم : ضيآل كوكب الب . وكان الب تلميذاً مخلصاً لدور كيم ، يرى أنه ينبغي على تركيا أن تقتبس من المدينة الغربية على أن تحتفظ بشخصيتها القومية دون اهتمام بالإسلام وحضارته . وكان يتردد بين آراء دور كيم الاجتماعية وفلسفة برجسون الروحية . وقد ظهر في « جو » تحرك الاتحاديين الواضح نحو الغرب حيث أغرق الفكر التركي الإسلامى بسيل من ترجمات الماديين في القرن التاسع عشر : وفي مقدمتهم بختنر وأرنست هيكل وكثرت المناقشات حول آراء فولتير وروسو وكان الاتحاديون بلا استثناء من العثمانية اللادينيين الذين نضجوا في الحافل الماسونية أو معاهد الإرساليات التبشيرية . وكان هسو من أول المنادين بالطورانية كأسلوب للجامعة التركية أو القومية التركية وذلك في تمهيد واسع للبلاد العربية وغيرها من الأمم المرتبط بالدولة العثمانية .

وقد نادى بأن تكون لغة الأمانة العامية هي اللغة العامة بين جميع الأتراك في الشرق والغرب كي تناسس بين عامه الأتراك وحدة أديبه وبدأت الصحف في قازان وباكو تصدر بلغة الأستانه . ومن جماع هذه الآراء يبدو أثر التبعية الواضح في فكر الب واتجاهاته ، فيعطى صورة لما كان النفوذ الاستعماري يدهو إليه في مصر وغيرها ويحمل لوائه ويلسكوكس ولطفي السيد وطه حسين ومسلما موسى وغيرهم . ويمكن أن يقال أن آراءه كانت الإرهامات التي حققتها حركة الاتحاديين الكبرى بعد الحرب بقيادة مصطفى كمال ، فقد دعا إلى إلغاء المشيخة الإسلامية والحاكم الشرعي وإلغاء المعاهد الدينية العلمية وتأسيس مدرسة للأهليات في الجامعة ودعا إلى استقلال أخلاقه وفصلها عن السلطنة وهرفها بأنها الأمانة الكبرى ، وبأنها رئاسة جميع الأمم الذين يصلون بالمسلمين في جميع أنحاء عالم الإسلام وهذا لا شك مفهوم غربي كنسى ، لا يدل على فهم حقيقى للإسلام من حيث أنه دين ودولة ونظام مجتمع كامل . وقد قبع في سالونيك بعد الانقلاب العثماني وأصدر مجلته المسماة (كنج قلمبر)

أى الأعلام الفنية وعاد إلى استانبول عقب نشوب حرب البلقان وهين مدرسا بجامعة استانبول حيث قام بدور خطير في تنظيم الجامعة على نظام الجامعات الأوروبية وأصدر ديوانين من الشعر عرض فيها آراءه الخاصة في المجتمع التركي وفي نهاية الحرب العالمية الأولى نفي إلى جزيرة مالطة ، وبعد الانقلاب الكمالى هين رئيساً للجنة التأليف والترجمة بوزارة المعارف التركية وأصدر مؤلفاته : تاريخ التمدن التركي ، الضوء الذهبي ، وأسس القومية التركية وبعد الب : الأستاذ والمرشد والموجة للأستاذ ساحم المصري الذي تعلم عليه خلال هذه المدة في الأستاذة وسالونيك ، والمعروف أن ساحم المصري كان من أقطاب الاتحاديين وقد تولى بعد الحرب هدة وظائف في التعليم وقد نقل خطط وأفكار وفلسفة كوك الب في القومية التركية الطورانية إلى دراساته التي كتبها عن القومية العربية وبعد كوك الب أول من قال أن المسلمين ليسوا أمة ، لأن الأمة تعرف بلغتها الواحدة . ومن تلاميذه فؤاد كوبرلي أحد الثلاثة الذين أسسوا الحزب الديمقراطي في تركيا .

ولا شك أن كوك الب كان وراء هذه المدرسة الفلسفة الجديدة التي قادها مصطفى كمال ونقل بها الترك نقلاً كاملاً من الفكر الإسلامي إلى الفكر الغربي . وقد كانت التيارات الغربية خلال السنوات العشرة التي تمت مرحلة الانتقال من الجامعة الإسلامية إلى الجامعة الطورانية المعنقدة ، حافلة بالتيارات الغربية المضاعطة إلى الحد الذي كان يصعب على أى صوت من أصوات الفكر الإسلامي أن يرتفع أو يعلو ، أو يكشف الخفايا أو يصحح الأخطاء . فقد اندفعت الأعلام في الاتجاه الغربي المادى اللاديني إلى أبعد حد وذلك من أجل إغابة تلك الآثار الإسلامية التي ارتبطت بها العقلية التركية لتحريرها منها نهائياً .

(٢٢)

الاقليميات الضيقة

في نفس الوقت الذي كانت الدولة الدولة العثمانية تنقسمها الطورانية في تركيا ، والاقليمية في لبنان ، كانت هناك الإقليمية المصرية ذات الطابع الفرعوني فلقد وزعت الدعوة إلى الإقليميات الثلاثة في وقت واحد كبديل للجامعة الإسلامية والرابطة العربية الإسلامية واختير لها هذه الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى ، أو السنوات العشر التي تمتد من ١٩٠٧ في مصر و ١٩٠٩ في بيروت واستانبول والتي أفضت إلى هدها للرسم بعهد الحرب العالمية الأولى فغيرت العقلية العربية

الإسلامية ودفعها نحو تبنى الانفصال والتفرق بين العروبة والإسلام بعد أن سقطت الدولة العثمانية التي كانت بمثابة الكيان الجامع للعرب والترك . والإقليميات الثلاثة كانت تقوم على أسس ثلاث : (أولاً) النظرة القائمة على الإجناس والدماء والأعراق الغالية في الجنسية ، الخاصة للأجناس الأخرى المحقرة لها ، العملية لأجناسها إلى أبعد الحدود وإلى ما تكذبه وقائع التاريخ . (ثانياً) العمل على تخطي أربعة عشر قرناً من الإسلام والعروبة لمعاودة الاتصال بتاريخ قديم بائد من طورانية ، أو غسان أو قريش مع أن الإسلام قد أزال كل آثار هذه الحضارات القديمة التي لم يبق لها كيان يمكن إعادته فضلاً عن تعارضها تعارضاً كاملاً مع دعوة التوحيد . (ثالثاً) كانت هذه الدعوات جميعها في الواقع المعاصر ترتبط بالفكر الغربي الليبرالي ، القائم نظريات زائفة عن الثورة الفرنسية ومفاهيم منغلقة عن الحرية والديمقراطية والقومية تستمد وجودها من واقع الغرب المختلف تاريخياً وحقائدياً عن واقع العالم الإسلامي .

ويكاد يرى الباحث المؤرخ أن الدعوة إلى الإقليميات الضيقة ظهرت كلها في وقت واحد استهدفت إبعاد العالم الإسلامي وخاصة ما كان منه في نطاق الدولة العثمانية إلى مرحلة جديدة هي نهاية المؤامرة الكبرى التي بدأت بعزل السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ والتي انتهت ١٩١٨ بسقوط الدولة العثمانية وتمزقها والتي جاءت عام ١٩٢٤ بإنهاء الخلافة الإسلامية وكانت فترة ما بين عام ١٩٠٨ إلى ١٩١٨ هي فترة خلق هذا البديل الذي طرح في آفاق الفكر الإسلامي تركيا ومصر وبيروت على ثلاث دعوات إقليمية مختلفة الطوايع والمناهج ، بينما كانت الدعوة إلى العروبة في سوريا تمثل كياناً جغرافياً محدداً وتمثل طابعاً إقليمياً أيضاً في الصراع مع الطورانية والأترك ولم تكن ذات مفهوم قومي صريح أو شامل . كان الهدف هو إحلال بديل إقليمي أو قومي محل دعوة الجامعة الإسلامية أو الرابطة العربية التركية التي استهدفتها النفوذ الأجنبي . ولما كانت مصر قد سقطت في براثن الاستعمار منذ وقت مبكر فقد أهدت لكي تكون البوتقة التي صيغت منها كل الأفكار والدعوات والمفاهيم والتي هدئت أوامر التناق والبرمال بينهما وبين مركز آخر أقيم في بيروت . ففي بيروت تركزت الإرساليات التبشيرية وملت لتخرج أولى نمازها ، ومصر كانت البيئة الصالحة لكي يحمل هؤلاء الخطريحيون أضخم رسالة وهي رسالة الصحافة والثقافة . وقد كان صروف ونمر وشبلى شمسيل وغيرهم من أوائل الخطريحيين في معاهد الإرساليات وهم الذين أحلوا لواء الصحافة في مصر ورفضوا شعارات الفكر الغربي من إقليمية وقومية وليبرالية وحولوا ما كانت الحافل الماسونية تقرر كأمول

لدهوتها ، وما كانت المعاهد التبشيرية تدرسه كناهج جديدة لصياغة الفكر العربي على أساسها . وإعداد أبناء اللغة العربية لتقبله ، وكان هذا هو الشطر الثاني للخطة التي تنفذ في سالونيك واستانبول داخل الدولة العثمانية على هذا النحو وبينما كانت تحمل هذه المخططات التي أعدتها الماسونية وإرساليات التبشير دهوات الفينيقية والفرعونية وإحياء التاريخ القديم البائد السابق للإسلام كانت هذه المخططات نفسها تحمل في داخل الدولة العثمانية دهوة الطورانية وإحياء محمد جنكيز خان وهولاكو . ومن هنا كانت الخطة موحدة في الحقيقة على مستوى الدولة العثمانية كلها والبلاد العربية جزء منها ، لرسم مخطط طويل المدى بدأ تطبيقه فعلا بعد الحرب مباشرة واستهدف قيام كيان غريب في فلسطين باسم الوطن القومي اليهودي ، وبه حققت اليهودي العالمية أقوى أهدافها التي بدأتها منذ الثورة الفرنسية وأعدت لها في دقة وأحكام طوال أكثر من سبعين عاماً . وفي مصر كان اللورد كرومر في الحقيقة هو قائد هذه الدهوات التنفيسية ، وهو أكبر هدو مقاتل في وجه الجامعة الإسلامية ، ولذلك فقد مضى في خطوتين واسعتين :

(أولاً) إتاحة الفرصة للخريجي الإرساليات التبشيرية في بيروت بالقدوم إلى مصر والسيطرة على الصحافة : وكان بعضها قد سبق الاحتلال البريطاني كالأهرام ، غير أنه بعد الاحتلال أمكن التركيز والإعداد لفزو البلاد العربية كلها من مصر عن طريق الصحافة . ويمكن القول أن معظم الشخصيات التي عملت في هذا الميدان قبل الاحتلال وبعضه عليها ظل من الشبهة وبجيط بها غرض وشكوك في مقدمة هؤلاء : أديب إسحق وسليم عنخوري ولويس صابونجي ، ثم جاء دور أصحاب المقطم ومعهم سليم تركيس وجورجي زيدان وشبلى شبلى وكان هؤلاء ولاء واضح في مختلف كتاباتهم للاستعمار وكانت دهواتهم إلى التحرر دهوة مشبوهة لأنها كانت تستهدف اقتلاع العرب والمسلمين من جذورهم واحتوائهم كلية في ولاء فكري وسياسي إلى الغرب المستعمر . وقد أشار إلى هذه الشبهة رجل لا يشك أحد في ولائه لهم هو أنيس صايغ . الذي يقول : « لم تنهم أكثرية السوريين في مصر بالعمل في سبيل عقيدة سياسية معينة بقدر ما أهنتهم بالسعي وراء الرزق ومنافسة المصريين ومسابقتهم على مصدر الألفة ومعاونة الأجانب عليهم ومهاجرتهم وهم في صراعهم القومي » .

« ولذلك وصفهم اللورد كرومر في مذكراته بأنهم « منحة من السماء » وأنهم « خيرة البلاد » ووصل بعضهم إلى أعلى المراكز الإدارية وبلغ عددهم في أواخر القرن الماضي ثلاثين ألفاً ، وكان معظم المحاسبين والتراجمه منهم ، ومنهم من اشتغل في الربا .

* وأشار إلى صحيفتي المقتطف والمقطم اللتين أصدرهما فارس نمر ويقوب صروف واسكندر مكاريوس فقال : « كانت الصحيفتان اللتان الناطق لسلمطات الاحتلال باللغة العربية فأيدتا ذلك الاحتلال وهاجمتا الحركات الوطنية بكل ما في لفظي تأييد ومهاجمة من معان ، وكتب هؤلاء الثلاثة يدافعون عن حق الانسكيز بمصر ويصفون حسنات الاستعمار ويعجبون أبطاله . ويطالبون باستمراره ويهدون أهل مصر إلى الرضوخ إليه لأنه يحميهم من داء الوطنية . ولم تمر بمصر حادثة واحدة إلا وقفوا منها موقفاً معارضاً لأمانى الشعب ، فطلبوا سجن الأحرار وعارضوا توظيف الوطنيين ، بل إنهم رحبوا بإعدام الأبرياء أثر حادثة دنشواي وكانت سلمطات الاحتلال تسمى المقطم بطبيعة الحال . وجريدة الأهرام نفسها التي كان لها مواقف وطنية معروفة ، آذرت الاستعمار مدة طويلة فعملت لحساب المصالح الفرنسية ورحبت بالنفوذ الفرنسي في البلاد . وهكذا يكفى لتصوير حقيقة الدور الذي لعبه خريجو معاهد الارساليات التبشيرية اللبنانية في مصر والتي كانت تعمل لاعداد الأرضية » القوة التي يقف عليها دعاة من مصر نفسها ، والتي تشكلت من بعد باسم حزب الأمة والجريدة ومدرسة لطفى السيد الفكرية والتي جاءت استجابة للمقررات التي رسمها لورد كرومر في تقاريره للنخاع الفكري المصري الذي يقوم على فكرة المصرية المنشمية للغرب ، المنحرفة من العروبة ومن الرابطة العثمانية ، ومن الاسلام فكراً واجتماعياً وسياسياً . وقد حمل لواء هذه الدهوة بإصدار الجريدة عام ١٩٠٧ وشكل مدرسة فكرية انضم إليها كثيرون في مقدمتهم سعد زغلول وعبد العزيز فهمي . وتبنت الكثير من الشباب الذين برزوا بعد الحرب العالمية الأولى .

كان هذا الاتجاه ضربة قوية لدعوة الوحدة الاسلامية الجاهمة بين العرب والترك من ناحية والحركة الوطنية التي حمل لواءها مصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويز والتي كانت تضع مفهومها في ضوء الاسلام وتحدد موقفها كجزء من حركة اليقظة العربية الاسلامية الممتدة . غير أن الموالاة الضخمة التي احتضن بها دعوته المرسومة وفق مخططة قد حال كثيراً دون نمو الحركة الأصلية وغلب عليها الفكرة التي رسمها وقتنها والتي كانت منهج العمل السياسي والثقافي والوطني في مصر والبلاد العربية بعد الحرب العالمية الأولى وخلال فترة ما بين الحربين . لقد انطلق كرومر من منطلقين كبيرين عام ١٩٠٧ . (أولاً) من منطلق (الجريدة) ولطفى السيد رسم فكرة الاقلمية الطبقية المنحرفة عن العروبة والعالم الاسلامي سياسياً وعن الفكر الاسلامي ثقافياً . (ثانياً) من منطلق نظارة المعارف وسعد زغلول لاقرار المناهج التعليمية والتربوية التي تقرأ اللغة الانجليزية وتقاوم اللغة العربية ، والاسلام ، والعروبة جميعاً .

وبرزت فكرة (مصر المصريين) واضحة ، مع الحلة العاصفة على فكرة الجامعة الإسلامية ، ويحقق ما طمع فيه كرومر وهو الانتقاء بالمصريين في منتصف الطريق ، وحل لطفى السيد لواء الفكر الغربى في مختلف مجالات القانون والقريبة الاجتماع وتنكر تماماً لكل قيم الفكر العربى الإسلامى . كما أنجبه لطفى السيد إلى وجهة الليبرالية والديمقراطية الغربية وعزز كلمات الأمة للمصرية والوطن للمصرى والشخصية للمصرية ، ودعا إلى تمصير القيم وفى مقدمتها الأخلاق والعادات بعد أن كانت عربية إسلامية . ودعا إلى التضامن بعامل الوطنية والمنفعة القومية لا بعامل آخر من عوامل الدين أو الجنس الأصلى ولس الموضع الذى طالما تحاماه دعاة الإقليمية هو الحديث عن الدين أو الإسلام وقال : إن وحدة الاعتقاد سبب من أسباب التشابهات بين الأفراد وطبل من عوامل التضامن ، ولكى أفكر أشد الإنكار أنها تصلح لأن تكون فى القرن العشرين قاعدة للأعمال السياسية التى يجب أن تبنى على المنافع لا على المعتقدات . وقد أهلى لطفى السيد من شأن المصرية فى مفالة شديدة حتى دعا إلى تمصير اللغة وهاجم هبة المصريين إزاء غزو إيطاليا لطارلس الغرب وكتب سلسلة مقالات تحت عنوان (سياسة المنافع لاسياسة المواطن) .

دعا إلى نبذ هذه المفاهيم العربية الإسلامية ، وقال إنه لا شئ يربط مصر بجاراتها العربيات بل أن مصلحة مصر تناقض مصالح تلك الجارات . وهاجم دهوة شكرى العسلى إلى الوحدة العربية . وحاذى لطفى السيد فى منطلقاته جميعاً ، أهداف لورد كرومر ومنهجه الذى رسمه للفكر السياسى والاجتماعى فى مصر وكان أساس دهوته فصل مصر عن العرب والدولة العثمانية سياسياً وعن الإسلام فكرياً واجتماعياً . ويقف لطفى السيد على رأس الدهوة إلى المصرية الإقليمية المنزعة عن العروبة والإسلام ، وقد تمت هذه الدهوة من بعد واتسع نطاقها فغرة ما بين الحربين .

(٢)

وفى مصر جرى العمل فى كثير من ميدان فيينا كان لطفى السيد يؤكد على العزلة عن العروبة والإسلام . وكان سعد زهلول يؤكد اللغة الإنجليزية : كان هناك رجلان آخرا يميلان . أما أحدهما فهو دنلوب وأما الآخر فهو زويمر . ١ - كان دنلوب يعمل فى مجال التعليم ويقن له أخطر القوانين التى ماتزال آثارها سارية إلى الآن فى العالم العربى كله ، فقد كان دنلوب مبشراً اسكتلندياً وقسيساً وقد اختاره كرومر لهذا العمل فسيطر عليه سنوات طويلة امتدت حتى أوائل الحرب العالمية

الأولى ١٩١٤ وكان قد عين مفتشاً للتعليم ١٨٩٧ ثم أصبح مستشاراً للوزارة خلال سبعة عشر عاماً . وكان المستشار الإنجليزي أقوى من الوزير المصري . وكان يعمل من أجل تحقيق الهدف الذي وضعه كروس في تقاريره ، وهو تمزيق وحدة العروبة والاسلام والقضاء على طوابع العروبة والاسلام في التعليم والثقافة العربية . وكان أبرز ما عمل له هو إزالة اعتقاد الشباب المسلم في كتاب الله ومحاربة شعور الطلبة وإحسانهم الوطني والديني ، وطن روح الشباب وحماسته ، واضعها كل طالب بظهر ميلا أو عاطفة نحو بلاده ، وكان يحرم على الطلبة كل معلم أن يذكر عن مصر وتاريخها ومجدها شيئاً ، كما يحرم على الطلبة الصحف الوطنية وتاريخ الإسلام . وكان يدرس جميع المواد باللغة الانجليزية ، ومنها الرسم والكيمياء والرياضيات والتاريخ بحيث لا يتيح للطلاب فرصة لدراسة اللغة العربية . وقد اضطلع أساتذة اللغة العربية وعلماء الأزهر . وقد أشار لطفي حجة في ذكرياته بأنهم كانوا يعلمونهم أن مصر لم تحسك نفسها أبداً ، وأن الجيش المصري هزم في التل الكبير وأن المصريين ذهبوا في ليلة ١٤ سبتمبر التي كانت قمرية كما تذبح الخراف وفر قائم هراي . وقد أبطل دنلوب مختلف السكتب العربية الهامة التي كان قد ألفها على مبارك وعبد الله فكري قبل الاحتلال لأنها تتحدث عن الاسلام والأخلاق الاسلامية كما دفع كتب عبد العزيز جالوش ونصوصه من المناهج واستبدلها بكتب تحمل خرافات لا فوتين مكتوبة في أسلوب سقيم وهجاء هابطة . كما ألغى الباب الوارد في مناهج التعليم تحت عنوان (العقائد والعبادات الاسلامية) . ولما عورض في هذا العمل قال إن كتب المطالعة يجب أن تكون مجردة خالية من كل ماله مساس بالدين . وقد أشارت جريدة القراء إلى هذه الأخطار التي تهدد الثقافة العربية الاسلامية في مجال التعليم فكتبت تقول : إن دنلوب هو أقوى آلة وضعها اللورد كروس لتعطيل التعليم في مصر وأكبر مقاومة لرق البلاد في باب المعارف .

والمعروف أن دنلوب وكروس قد نقلوا مناهج مدارس الرسائل التبشيرية وطبقها في مدارس المصرية وكان أبلغ اهتمامهم محاربة اللغة العربية والاسلام ووحدة العروبة والاسلام وإحلال مفاهيم إحصاء الاقليات واللغة الأجنبية وبطولات الغربيين وفكرهم بدلاً منها . ٢ — وفي الجانب الآخر كان زعيم كبير المبشرين يعمل في إنشاء خلاياه ومفاهمه في مصر والبلاد العربية جميعاً وذلك بالتأليف والخطابة والدعوة وعقد مؤتمرات التبشير في القاهرة ١٩٠٦ وفي غيرها . وكانت دعوته إلى المبشرين في المدارس والمستشفيات هي عدم مجادلة المسلمين بالإبراهيم العقلية بل الدخول عليهم من الجهة القلبية باستجلاب مواطنهم واسنانة أهوائهم ومواساة فقرائهم . وقد حملت كتاباته الكثير من الشبهات والمغالطات التي أراد بها إثارة الشكوك في نفوس المسلمين والعرب .

وكان زعيم من أكبر دعاة تمزيق الوحدة الجندرية بين العروبة والاسلام ، وتمزيق وحدة العروبة بالاقليسيات وقد اهتم طربا لسقوط السلطان عبد الحميد واعتبر عهد الاتحاديين عصراً ذهبياً انطلقت فيه الاراساليات التبشيرية في البلاد المختلفة دون رقيب كما أتاحت له طبع الكتب المسمومة التي كان يقوم بتوزيعها في كل مكان . وقد امتد دور زعيم ، ودنلوب ولطف السيد بعد الحرب العالمية الأولى وزاد قوة وكان من أهم أهدافه العمل على تعميق القطيعة بين العرب والمسلمين وبين المصريين والعرب وبين الترك والعرب وتشويه مفهوم الاسلام الفكري والاجتهادي والسياسي . وقد كانت مهمة الاراساليات التبشيرية التركيز على هذه المعاني وانحازها منطلقاً لهدفها المشترك مع الماسونية بخدمة أهداف الاستعمار واليهودية العالمية . وقد كان ولهم وبلسكوكس من أخطر العاملين في ميدان الدعوة إلى إعلاء العامة ولبد العربية الفصحى بهدف تقطيع أواصر العرب وإحالتهم إلى إقليمية تصطنع لهجاتها بديلاً للغة العربية . وكان وبلسكوكس إلى ذلك مبشراً ترجم أجزاء من الانجيل إلى اللغة العامة منها كتابه : (الأكل والايمان) . وكان قد أتى محاضرة في أواخر عام ١٨٩٢ في نادى الأريكية هنواها :

لماذا لا توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن ، زعم منها أن قوة الاختراع تأتي من القوة المفكرة ويرثها الانسان من آباءه وقال إن أهم هاتئ يعنى المصريين من الاختراع إنهم يؤلفون ويكتبون باللغة العربية الفصحى ، ولو ألفوا وكتبوا باللغة العامة لصاروا مخترعين واستدل على ذلك بأن الاسكليز كانوا يؤلفون باللاتينية فلم يكونوا مخترعين فلما اختاروا لغة الفلاحين الانجليز وكتبوا بها صاروا مخترعين . وقد واجهت دعوة ولسكوكس هجوماً حاصفاً ، وكان قد سبقه ولحقه إلى مثل هذه الدعوة بعض المستشرقين والأجانب من أمثال ولور وغيره . غير « أن لطف السيد » لم يلبث أن احتضن هذه الدعوة وتبناها ودها إلى تمصير اللغة العربية والتقريب بين العامة والفصحى . وجرى في هذا الانجاء سلامة موسى وكثيرون من بعد . هذه هي الارهاصات الخطيرة التي نجمت في مصر في السنوات العشر السابقة للحرب العالمية الأولى وهي نفس الفترة التي ابلشت فيها الدعوة إلى الطورانية في تركيا وإلى الاقليمية الفينيقية في لبنان ، وفق مخطط واحد تديره يد قادرة مهيمنة من أجل هدف واضح هو تمزيق رابطة العروبة والاسلام في الدولة العثمانية والبلاد العربية . فإذا أضفنا إلى هذا : الدور الذي قامت به المحافل الماسونية في هذه الفترة في مصر وبغروت واسطنبول وضعت أمامنا الصورة على نحو صحيح .

(٢٣)

ما بعد عبد الحميد

ما إن سقط السلطان عبد الحميد حتى تحول الأمر في الدولة العثمانية وفي البلاد العربية إلى شيء خطير ، وزارة في الدولة العثمانية بها ثلاث وزراء يهود بعد أن رفض عبد الحميد ممثل اليهود وشجب مطالبه ومن ثم إنفتح طريق الهجرة إلى فلسطين وأُتيح لسمارة بيع الأراضي العمل في حرية كاملة ونشط اليهود للصرحاء والدعوة والماسون ومن ورائهم للعمل وبدأت الحركة الطورانية تشق طريقها في تمزيق وحدة العرب والإسلام ، وتحدثت لبنان عن دهوة إقليمية في مواجهة الدولة العثمانية والعروبة جميعا ، ومضت مصر في موقفها الذي حل لواءه لطفى السيد في ، معارضة العروبة والدولة العثمانية جميعا . وانفتح الطريق أمام المحافظ الماسونية فانسح نظامها كما إندمجت جمعية الاتحاد والترقي إلى إستيعاب العرب والترك جميعا في سبيل غاية ليست لحساب المسلمين والعرب بالنا كيد ، أما الرسائل التبشيرية فقد إنفتح أمامها الطريق إلى العمل في حرية في جميع أنحاء البلاد العثمانية والعربية وأعلن مؤتمر المبشرين في بيروت ١٩١١ أن إعلان الدستور العثماني قد جعل التنصير المباشر أكثر امكانا وسهولة . وفي الوقت الذي كانت فيه « الجاهة روسيو الأصيل » حملة لواء الطورانية يوسف أجنورده ، وأحمد أغايف ، وضيا كوك الب يعملون في (مجلة المواطن التركي) لتزيق مفهوم العروبة والإسلام ، كان أتباع ويلسكو كس يعملون في القاهرة لتحطيم رابطة المصريين بالعرب والترك جميعا والدعوة إلى مصرية خالصة وبينما كانت جريدة طنين في تركيا تدهو الأمة التركية إلى الاستلاء على العناصر الأخرى ومنها العرب ، كانت [الجريدة] في القاهرة تدهو المصريين إلى الانفصال عن الترك والعرب .

وبينما كانت الطورانية تذهب بعيدا إلى تاريخ جنسكيزخان وتيمورلنك كانت المصرية تذهب بعيداً إلى تاريخ رمسيس ونختمس ، وكانت الفساسة في بيروت تذهب بعيداً إلى تاريخ الفينيقيين ، وقد كشف المبشرون في مؤتمر لسكنو ١٩١١ عن أثر سقوط السلطان عبد الحميد في فتح الطريق أمام مخططاتهم ودهوتهم . فقد أشار دكتور زويمر في تقريره إلى أهمية الانقلابات السياسية التي حدثت في العالم الإسلامي وخاصة الانقلاب العثماني ، فقد « صار التجول في البلاد العثمانية والعربية والفارسية غير ممنوع وأصبح عبد الحميد سجيناً في صلابتك » وقال إن السلطة السياسية على أكثر المسلمين إنتقلت من يد الخلافة الإسلامية إلى يد إنجلترا وفرنسا وروسيا وهولندا وأن هدد المسلمين الذين تحت سلطة الدول النصرانية سيزداد كثيراً . وقال القس نلسن أن حركة الجامعة

الإسلامية قد ضعفت كثيراً بعد خلع السلطان عبد الحميد ولكن لا تزال في الأهالي روح تضامن مع ملازمة للإسلام وقال : إن الألوف من مسلمي الأرض يتجهون في كل سنة إلى مكة ويشربون ماء زمزم كما جرى بحث موقف الإرساليات التبشيرية بعد الانقلابات العثمانية ، وقال استورد كروفورد : إن الأمة العثمانية بمحصولها على بعض الحقوق الوطنية بالمصرية قد أخذت تندرج في مدارج نهضة عظيمة . وأشار إلى دهورى الإرساليات في « تنشيط المسلمين لاقتباس الأوضاع الجديدة وترقيتها على وجه يشبه الأوضاع التي تباهى النصرانية بها . وقال : القسيس نروبديرج : أن بيع كتب التبشير في الدولة العثمانية أصبح الآن مباحاً بسبب حرية النشر التي أعقبت الدستور فيبيع في السنة للناضية للمسلمين ما يزيد على ٩ آلاف نسخة من هذه المكتب المخصصة بانتشار التبشير . وهذا واجب آخر قدمه الاتحاديون لحركة الغزو الغربي والتغريب في البلاد العثمانية ، هذه الحكومة التي حسبها تورده تقارير للبشرين كانت خيراً وبركة وفتحاً جديداً للإرساليات التبشيرية .

(٢٤)

الإسلام والجامعة الطورانية

كيف يسمى الاتحاديون للاشاعة الحضارة الإسلامية . في خلال بضع السنوات الأخيرة في تركيا طلائع حركة جديدة تعرف بنهضة بنى طوران أو الطورانية الحديثة وغرضها هدم للمدنية الإسلامية وإحياء المصيبة التركية على أنقاضها والجمع بين العناصر التركية النثرية والشعوب المنتهية إليها ومنها الأمة البلغارية أما القائمون بهذه الحركة فهم قوم مشهورون بمداونهم للإسلام ولعصمهم له ، وكثيراً ما يجاهرون بأقوالهم وكتاباتهم بذلك بحجة أنه الإسلام يسمى لقتل المصيبة القومية وبحول دون نشوء المدنية التركية ، ولذلك فهم يسمون لجعل الجنسية التركية مستقلة عن الإسلام كل الاستقلال .

ومما يقولونه أن الإسلام لا محل له في المدنية ولا يمكن أن يعيش طويلاً إلا إذا أدخلت عليه عليه تنقيحات عديدة تلائم المذاهب التركية القومية . ويعلق السيد رشيد رضا على هذا التقرير ويقول : وقد أقت في الأستاذة سنة كاملة اخترت فيها الاتحاديين اختصاراً كاملاً ولا أزال أرى في كل من الآيات ما يؤيده ويقنعني بأنني قد سبقته إلى إفراكه ما لم يدركه العثمانيون ولا الأجانب . إن الذين يعرفون مقاصد الاتحاديين الاتحادية من العرب قليلين جداً ولعلهم لم يكثرثوا إلا بعد أن رأوا خواص العرب في سرورية مصلوبين في أعظم ميدان .

إن قراء المنار يطمون أن الجرائد الإسلامية الهندية هي أول من رمى الاتحاديين بالكفر والاحاد
وكانت المنار أول الصحف الإسلامية دفاعاً عنهم ولما كثرت الخلاف رحلنا إلى الآستانة . كان مقصد
الاتحاديين خفياً ثم عرف رويداً رويداً ثم اشتهر وتواترت أخباره في جميع الأمم . ولهذا النهضة
وجهتان : إحداهما أدبية والأخرى سياسية . فغاية الوجهة الأولى تمجيد الشعوب الطورانية ولشر
تاريخها الجيد . وغاية الوجهة الثانية القضاء على العصبية العربية . فجنكيز خان في نظرهم هو نموذج
للملوك ورجال السياسة . والعرب يجب القضاء عليهم وإدماجهم في الترك حتى يندى العالم بتاريخهم
وقاليدهم ، أما لغتهم فلا بد من محوها وإحلال اللغة التركية محلها في كل صقع وناد . والحكومة
الاتحادية الآن تؤيد جمعية (بنى طوران) وتمزجها بالاعانات المالية العديدة وتسمى تلك الإعانات :
إعانات المالية التركية وجميع كبار الاتحاديين أعضاء فيها وهم يبيدون عن الإسلام . ليس هناك من
ينكر فضل الإسلام على العالم وما كان لمدينته من الآثار الجيدة . أما الشعوب الطورانية فليس في
التاريخ ما يدل على أنها حملت عملاً واحداً أفاد الإنسانية بل على العكس كانت جميع أعمالها تدميراً
وتخريباً فالطورانيون لم يستطيعوا شتبا للفتنة بل كانوا حينما حلوا يخربون معالم المدينة « . ١ . ٥ .
الأهرام ١٩١٦/٨/١٤

(٢)

بنى الاتحاديون النظرية التي روجها المستشرق اليهودي الجري « فبري » والتي : تقول إن
الإسلام يناقض فكرة الجنسية فالاتحاديون يقولون إن الإسلام بالاتحاد مع العوامل العربية والفارسية
والرومية والبيزنطية قد جعل الأتراك (مسلمين لبقائتين) وحال دون نشوء حضارتهم . على أن هذه
الدهوى على عكس المعتقد تماماً فإن الأتراك الذين جاءوا أصلاً من حدود الصين وانتشروا في مجاهل
آسيا حتى ضفاف (الأكووس) لم يكن لهم دين معروف أو حضارة راقية لأنهم كانوا قبائل رحل
يؤجرون صيوقهم لكل من يطلب موثقتهم . فالإسلام لم يحل دون نشوء الحضارة التركية إذ لم
يكن للأتراك حضارة هو بفضل الإسلام ، ذلك إن العنصر الطوراني لم يشتهر بشيء من قوة الابتداع
وما تاريخه سوى تاريخ تدمير . ومما تسعى إليه النهضة الطورانية إنشاء إمبراطورية حربية واسعة
الأرجاء تضم تحت ألويتها جميع قبائل التتر والمغول الخاضعة لروسيا أو لدولة أخرى . أما الجنسية
العربية فيجب إبادة وإدماجها في الجنسية التركية لأنها خطر كبير .

(٣)

من جريدة نبراست الانجليزية (يناير ١٩١٧) ظهرت في تركيا حركة جديدة عرفها القوم بإسم (بنى طوران) أى طوران الجديدة إليك بيان الغايات التى ترمى إليها من مساهمها وأعمالها :
أولاً : أن تجعل الأتراك أمة قائمة بذاتها مستقلة عن الدين الاسلامى تمام الاستقلال حتى ينهأ لها أن ترى
فيهم ذلك الشعور القوى الذى ذكره الدكتور (الفرد تونج) في مقال نشره في جريدة (اندرنوخ)
الالمانية على أثر حديث دار بينه وبين زعماء الاتحاديين .

ثانياً : تطهير اللغة التركية من الألفاظ العربية والفارسية من آداب هاتين اللغتين وهذه الجمعية
مطمع آخر ترمى إليه وإن لم نجهر به رسمياً وهو تركيك العرب وإدماجهم في الترك حتى لا تبقى لهم قومية
قائمة بذاتها . وأكبر آمال هذه الجمعية أن تجعل التركي الصناني يعد نفسه تركيا قبل كل شيء ،
أما كونه مسلماً فيعد هنده من المسائل الثانوية التى لاتهم كثيراً . أما هذه الجمعية فانها تقوم بتلك
الأعمال بإيعاز من السلطة الحاكمة التى تؤيدها بكل وسيلة ممكنة وتدفع لها كل ما يلزمها من المال
لأجل بلوغ هذه الغاية . وقد بذلوا غاية الجهد في تدريس التاريخ القومى للطورانيين وأفرغوا كل هناية
للشعر في المدارس الالمانية . وأخذوا بتأليف قوة كبيرة من فتيانهم سموها بالتركية (ايڤجى) أى
قافية الأثر ، أما الأولاد الذين أسماؤهم مأخوذة من العربية فقد استبدلوا بها ألفاظاً تركية محضة .
وطبعوا كتباً وروايات كثيرة أهمها (بنى طوران) وهى الرواية التى كتبها خالدة أديب وقد حبت
فيها تلك الحركة الجنسية . ومن مقتضيات هذه الحركة استقلال المنصرية التركية عن الاسلام .

هذه الحركة مقصورة على جمعية الاتحاد والترقى ومبيلة على نظرات أستاذهم الجرى (فبرى)
لما هلق ذهنه من المزايم القديمة البالية من أن الإسلام يناقى الوطنية وهى أنه لا وطن في الإسلام ،
ويزعم الاتحاديون أن الإسلام باختلافه مع التقاليد والمؤثرات العربية والفارسية واليونانية والبيزنطية
قد حول الترك إلى عنصر شرقى مسلم ليس له مدينة خاصة به ، وقد أجاب أصحاب (قوم جديد)
فقالوا إنه سيبقى لهم أترك حوران والإسلام بصورة جديدة فيكون ديناً وطنياً أهلياً . وعما لا ريب
فيه أن التركي يخاف العرب أشد الخوف وبدأت (الجمعية) في استعمال كل الوسائل لجعلهم أتركا
ومحو قوميتهم تقليداً لما فعله (سولويك هولستين) مع ولايات الدانرك التى انضمت لألمانيا . وقد
صرح بذلك جلال نورى في أحد كتبه فقال : (إن البلاد العربية بأسرها ولا سيما العراق واليمن
يجب تكون تركية في اللغة والجنس وأن تكون لغة الدين هندهم التركية أيضا والاسراع في تركيك
البلاد العربية من أهم الأمور لحفظ وجودنا) .

(٤)

الانحاديون في رأى السيد رشيد رضا (م ١٩١٣) لاني أهراف من أمر هذه الجمعية مالا يعرفه أحد في القطر المصري وقد بلوتها واختبرتها في الآستانة سنة كاملة رأيت من زعمائها ورويت عنهم بالأسانيد العالية للنتصلة منهم مالا يتفق منه إلا القليل من الناس ثم أيدت أحاديث جرائد العالم وحوادث الدهر ووقائمه أول لما سقط عبد الحميد ونزا على الدولة بعده أولئك الاغيلة المنخرجون ما هلمته فيهم من ملاهي خلع وبيو على وسلانيك وباريس ، أفسدوا كثيرا من ضباط الجيش وجعلوا بقوتهم الدستور آلة لتفريق عناصر الدولة وذريعة لحو اسمها من لوح الوجود . وأول ماقرر زعماء هذه الجمعية البدء به من الأعمال هو إزالة كل قوة للمسلمين في هذه الدولة . كان الناس يفهمون من اسم جمعية الاتحاد والترقي أنها جمعية غرضها أن تجعل بين العناصر العثمانية وحدة أساسية اجتماعية بالمساواة بين الترك وغيرهم من الحقوق الشخصية والحقوق العامة كمناسب الدولة ووظائفها . وأن هذا هو المراد من كلمة الاتحاد والترقي الذي يتبعه الترقى في العمران . فلما صار النفوذ في هذه الجمعية لأمثالي الدكتور ناظم وطلعت وجاويد ورحى وجاهد وأضرابهم ظهر للباحثين أن مرادهم بالاتحاد هو أن يدغم العرب والأرناؤوط والسكرد وغيرهم في الترك وتغفى لغاتهم وجنسياتهم فيهم فيكون جميع العثمانيين تركا . . إن نحو جنس من البشر بإدامته في جنس آخر قد صار في هذا العصر محالاً وأن الدولة العثمانية لا تستطيع أن تجعل غير الترك فيها تركا ، لأننى وأنا مسلم أرى أن الإسلام لا حياته إلا بحياء اللغة العربية وأنما حياتها بجعلها لغة الخطاب والعلم عند أهلها . من أوائل مقاصدهم تفريق العناصر العثمانية ومن مقاصدهم إزالة سلطة الدين وقوته في الدولة ، ولكنهم يظهرون للمسلمين أنهم يريدون القيام بالجامعة الإسلامية على أن سيرتهم وأعمالهم تكذب هذه الدعوى وحسبك أن جميع زعماء الجمعية من الماسون وأصول الماسون تنافى الجامعة الدينية . وقالوا إنهم لا ذوا بالاسونية لإحياء كلمة الوطنية ومخادعة الشعوب المسيحية والدول الأوروبية وصدق بعض أهراف المسلمين كلامهم .

وقد نشرت جريدة الطان الفرنسية أنهم يمهرون بانتقاد الإسلام . والدكتور ناظم صاحب النفوذ الأعلى في الجمعية يصرح بأن الدولة لا يمكن أن ترقى مادامت متمسكة بالإسلام . فضلا عن تفريط الانحاديين بحقوق الدولة في خليج فارس والعراق الطرف الشرقى من جزيرة العرب والتزلف بذلك إلى الإنجليز ونقل الصحف عن محمود شوكت وأحمد مختار أنهما قالا :

إن الدفاع عن طرابلس الغرب خيانة لأننا لا نجد طريقاً لذلك ، وقد هب حرب طرابلس الدفاع عن بلادهم ، وهب العالم الإسلامي لمساعدتهم فبدأ جمعية الاتحاد ما لم تكن تحتجب أو أوجت أن تستفيد من هذه الأرمحية الإسلامية وكانت قد باعت طرابلس وبرقة الإيطالية على شرط أن يأخذوها بالفنح السلمي بعد أن يخرج منها العسكر العثماني والسلاح . وهب للمسلمون كافة للمساعدة بالمال ، وقال المبعوثون المناصرون للاتحاديين بتهمومهم بالحياة ويطلبون محاكمة الصدر الأعظم حتى باشا والظمر الحربية محمود شوكت ولما رأوا ذلك أرسلوا بعض الضباط وأمردوم بأموال الإعانة وبما يمكن من السلاح خوفاً من إنكشاف السر .

م ١٦ للثوار سنة ١٩١٣

(٢٥)

بديل للخلافة العثمانية

(لورنس والهاشميون)

كان هدف الاتحاديين الأساسي هو دفع العرب إلى إحضان الغرب وفصلهم عن الدولة العثمانية وقد بلغوا في سبيل ذلك أقصى وسائل التحدى : في مجال الفكر والصحافة عن طريق الانتقاص من تاريخهم ودينهم وجنسهم وفي مجال السياسة عن طريق تعليق البارزين منهم على للشقاق واتهامهم بالخيانة . ولما كان الاتحاديون قد دفعوا الدولة العثمانية إلى دخول الحرب في صف ألمانيا فقد أغرى العرب بالتماس طريق خصومهم البريطانيين الذين يمدون الغربية للوقوف في الأمر وذلك بإغراء الشريف حسين باقامة دولة عربية تضم سوريا والعراق والجزيرة العربية بعد انتهاء الحرب حيث جرت محادثات في ذلك مع مكاهون ممثل بريطانيا في مصر . وكان ذلك آخر حلقة في خطة تحطيم الوحدة العربية الإسلامية ، والرابطة بين العرب والترك ، وهذه الرابطة كانت تمثل بالرغم من ضعف الدولة العثمانية قوة كبرى وجداراً حصيناً في وجه الزحف الاستعماري والغزو الصهيوني . وكانت إثارة دعوى القوميات ونقل غخطاتها الغربية إلى العالم الإسلامي علاماً من أهق أعمال الاستعمار لتزيق وحدة الفكر العربية الإسلامية وإحلال دعوات قائمة على الأجناس والمناصر والدماء والعروق في مجتمعات قامت أعمده منذ وقت بعيد على أنصهار الأجناس في وحدة فكر عربية إسلامية . ومن ثم كانت مرحلة السنوات العشر التالية بعد سقوط عهد الحيد حتى نهاية الحرب العالمية الأولى مسرحاً لدعوات

متعددة : طورانية وإقليمية ذات طابع عربي ، وعربية إقليمية وفرونية وفيلية وكلها دعوات
تشجب الرابطة العضوية بين العروبة والإسلام بما تحمله من تحديات ومن طوايع تقوم في الأغلب على
العلمانية المنكرة لروابط العقائد والفكر والقيم الأساسية التي قام عليها المجتمع العربي الإسلامي منذ
قرون . وكانت المنطقة كلها قد وضعت تحت نظر المستشرقين باسم دراسة الآثار التاريخية القديمة
وذلك لدراساتها استراتيجياً بما يحقق للجيش البريطانية الزحف والاستيلاء والسيطرة بصدد دفع
المسلمين العرب إلى الاقتتال مع إخوانهم المسلمين الترك من أجل إجلائهم وإتاحة الفرصة للجيش
البريطانية والفرنسية من احتلال الشام كله (سوريا ولبنان وفلسطين) تمهيداً لتقسيمها فيما بينهما
وإتاحة الفرص للصهيونية العالمية لإقامة وطن قومي لها في فلسطين كنواة للدولة اليهودية العالمية للترقية
التي كانت تطمح في بناء هيكل سليمان في مكان المسجد الأقصى . وكذلك أتيسح لضباط البريطانيين
لورنس أن يستكشف صحراء العرب وصحراء الشام في دراسة علمية طبوغرافية وتاريخية للبحث عن
الآثار والقلاع الصليبية القديمة ، قبل شهور قليلة من الصدام بين العرب والترك في هذه المناطق بعد
أن أعلن الشريف حسين الانفصال عن الدولة العثمانية وجاء لورنس ليعمل مع العرب من أجل دفعهم
إلى الحرب وهو يعلم تماماً أنهم موضوعون في خدعة كبرى لن يتحقق لهم منها شيء في النهاية وأن
الشريف حسين ووهود بكاهون ، وإغراماته للبدو ، ومخادطاته مع فيصل كل ذلك سينتهي في النهاية
لأن يقف اللورد اللوبي قائد الجيش المتحالفة في القدس عام ١٩١٨ ليقول : الآن انتهت الحروب
الصليبية .

وقد تحقق للاستعمار الغربي واليهودية العالمية أمور عدة : * تمزيق وحدة العروبة والإسلام .
* القضاء على الدولة العثمانية . * تمزيق وحدة العرب والترك . * لقل العرب من ترابط مع
الدولة العثمانية إلى احتلال فرنسا وبريطاني : وقد حل ذلك كله أسماً براءة لامة هي الحركة العربية
والوحدة العربية والدولة العثمانية . وقد قامت الحركة جيمها في ضوء مخططات مشبوهة تفصل الإسلام
عن العروبة وتضع لقوميات طابع العلمانية الغربية وتقيم الصراع العنيف بين العرب والترك وبين
المصريين والعرب وبين الفساحنة والماسحين ، وبين الماشحين والعموديين وهكذا . لقد دخل
العرب الحرب إلى جوار بريطانيا على أمل زائف كانت كل المخططات تمارسه وتكشف عن زيفه ،
وكانت هناك معاهدة سايكس - بيكو بتقسيم المنطقة بين فرنسا وإنجلترا وكان هناك وعد بلفور
بشأن تسليم فلسطين للصهيونية . إن خطة العروبة التي قامت في دمشق قد وجدت نفسها في موقف
ليس معه اختيار لتقبل الانضمام تحت لواء الشريف حسين ولكن كثيراً من زعماء العرب كانوا

مشرزين من حفظان : حتى يقول شكيب أرسلان : لم ينعنا من الاشتراك في الثورة العربية سوى اعتقادنا أن هذه البلاد منصبح نهياً مقسماً بين إنجلترا وفرنسا وتكون فلسطين وعلناً قومياً لليهود ، وهذا التكهن كان عندنا مجزوماً به حتى أننى كنت أقول قبل الحرب : لو ارتفع الغطاء فما حصل بالفعل شيء غير ما كنا نقول ، وكذلك كان رأى ياسين الهاشمي الذي قال لرسول الثوار العرب وهو يدعو للانضمام إلى الملك فيصل ولورنس : « إن الإنجليز غير مخلصين ولا لفصل ولا لوالده فهم بعد أن عاهدوا على إنشاء دولة عربية اتفقوا مع اليهود وأصدوا وعد بلفور ، كما اتفقوا مع الفرنسيين على إعطائهم سوريا وريطرا العراق بالهند . ومن الحق أن يقال أن ما أطلق عليه الثورة العربية بقيادة الشريف حسين لم تكن إلا مناورة ضخمة للقضاء على الدولة العثمانية وكان منطلق المناورة إحلال بديل في نظر مسلمي الهند وغيرهم ، يحل محل خليفة المسلمين العثماني في تركيا ، وقد تفتت الحيلة الماكرة على اختيار « شريف » من أهل بيت النبي ليحمل اللواء ويقف مع بريطانيا ، أو على حد التعبير القائل « إذا كان خليفة المسلمين ، لك البريق النبوي فقد جند الإنجليز إلى جانبهم ابن النبي شخصياً ، وإذا كانت استانبول إنحازت لألمانيا فإن الإنجليز معهم مكة المكرمة قبله المسلمين » نعم ، لم يكن الأمر يهدف إلى تحقيق أي أمل للعرب ، بل لتنفيذ مخطط الاستعمار في تمزيق الدولة العثمانية ، وتصوير الدولة العثمانية والخليفة في صورة هدواية ، فضلاً عن عزل العرب عن الرابطة الإسلامية كقدمة لعزلهم عن الإسلام نفسه . ولم تكن هذه الحركة العربية في حقيقة أمرها انفصلاً باسم العروبة عن الإسلام ، بل كانت على العكس من ذلك امتداداً لمفاهيم الفكر الإسلامي فقد كان إعلان الشريف حسين بالثورة على الاتحاديين (لا على الدولة العثمانية) مطبوعاً بطابع إسلامي ، وليس له أي ظاهر يحمل مفهوم القوميات فهو أولاً : موجه إلى المسلمين هامة وليس إلى العرب ، وهو يبرز الانتفاض على الاتحاديين الذين « جاوزوا حرام الدين منهج الشرع الشريف وفرقوا شمل الأمة العثمانية بمحاولة جعل شعوبها كلها تركية ، وأن الاعتداء على العرب اعتداء على الإسلام فضلاً عن أن قتل اللغة العربية قتل للإسلام نفسه » .

ومن نصوص هذا البيان يبدو الترابط الواضح بين العروبة والإسلام ويكشف عن أن الحركة جاءت من داخل البنية الإسلامية لا من خارجها وأن مبدأ الحركة : « نصر دين الإسلام والمسلمين على إهلاك شأن المسلمين على أساس أحكام الشرع الشريف » . غير أن موقف الشريف حسين كان ضيقاً إلى أبعد الحدود ، لقد كانت الخطة هي أن تكون هناك ثورة حقيقية ، لا أن تكون هناك نقطة انفصال حريية عسكرية دموية بين العرب والترك لتفتح الطريق للجيش البريطاني الزاحف إلى احتلال فلسطين ودمشق وبيروت .

وكان ذلك كله ، مناوره ضخمة لمسعى الهند وأفريقيا باختيار شريف مكة الهاشمي في مواجهة الخليفة العثماني . كانت للؤامرة واضحة : تتركز في فصل العرب عن الترك ثم اغتيال كل منهم على انفراد . لقد كان دور لورنس في هذه الحلقة الخطيرة من العلاقة بين العرب والدولة العثمانية ، وبين العربية والاسلام بالغ الأهمية والخطر ، إذ كان هو نفسه « الخدعة » التي أغرى الاستعمار بها العرب للانقضاض على الدولة العثمانية وإعلان الحرب حتى تقسم فرنسا وبريطانيا هذه الأراضي وتحتلها ويعلمن مندوب بريطانيا في القدس : إن الحروب الصليبية انتهت ، كما يعلم مندوب فرنسا في دمشق : إنهم قد عادوا بإصلاح الدين بعد أن أخرجتهم . ويقول لورانس وضوح وصراحة بالذين في كتابه أعمدة الحكمة السبعة : لقد كان رأيي منذ البداية أننا إذا كسبنا الحرب فإن هودنا للعرب ستصبح « أوركاً مينة » ولو كنت رجلاً شريفاً وناجحاً أميناً لصارحتهم بذلك وسرحت جيوشهم وجنيتهم التضحية بأرواحهم ولأمرتهم بالعودة إلى بيوتهم ، وعدم المخاطرة بحياتهم في مثل هذه الحرب ، أما الشرف فقد فقدته يوم أن أكدت لهم بأن بريطانيا ستحافظ على هودها . غير أن الاندفاع العربي كان وسيلتنا الرئيسية في كسب الحرب الشرقية ، وهى ذلك فقد أكدت لهم أن بريطانيا سوف تحافظ على هودها نصاً وروحاً ، فطمأنوا إلى هذا القول وقاموا بالكثير من الأعمال للدهشة ، ولكنى في الواقع بدلا من أن أشعر بالفخر لهذا الذى فعلته ، كنت أشعر دائماً بنوع من الخجل والارادة . كما أعلن (وايزمان) في كتابه : « التجربة والخطأ » شكره وتقديره للخدمات الجليلة التي أسداها الكولونيل لورانس للقضية الصهيونية « إن علاقته بالصهيونية علاقة إيجابية على الرغم من تظاهره بليل للعرب » . وقد ظل اسم لورانس مع الأسف وقتاً طويلاً يدوى في الصحف العربية على أنه ملك العرب غير المتوج « مصوراً من خلال مناصرة ضخيرة « وعمل بطولى » . لم يكن لورنس إلا ضابطاً في قلم المخابرات البريطانية وضع في قلب مخطط واسع من أجل تمزيق الدولة العثمانية وخدمة النفوذ الأجنبي واليهودية العالمية فقد كان واحداً من الذين أخذوا الاستكشاف الأرض العربية تحت علم الآثار وبمئات التواريخ القديم فقد أرسل إلى هذه المنطقة عام ١٩١٣ متخفياً مكلفاً بدرس الطريق العسكرية التي يمكن أن تستعملها بريطانيا للدفاع عن ميناء فنوغل في صحرائها باحنا من كل الطريق والآثار واللوائى ، وكان البحث العلمى الذى تخفى خلفه يطلق عليه اسم « البحث عن الطريق الذى سار فيه النبي موسى » وكان هذا عميداً للعمل الضخم الذى كلف به من بعد .

وكان لإيمان الانجليز بعد إعلان الحرب العالمية بأنهم قادرون على خداع العرب وفصلهم عن الدولة العثمانية أكيذاً وواضحاً ، وكانت فكرة الاستعمار أن أحسن الطرق لزهرة الامبراطورية

العثمانية وتجزئتها وبالتالي تمزيق وحدة العرب والإسلام هو تحريض العرب على الاستقلال عن تركيا ، وإثارة هوامل القتل لسكبرائهم وزعمائهم بما يقيم بين العرب والترك خصومة دائمة تمتد زمنًا طويلا ، وتؤثر تأثيراً بالغاً في الروابط العربية الإسلامية وفي العلاقة بين العرب والإسلام ، وتبقى ظلها على التاريخ والأدب والفكر العربي كله بما يمتد ذلك العداء والحقد والكرهية التي من شأنها أن تزيد في إثارة البغضاء وإهلاء القوميات والأقليات . ولم تلبث بريطانيا بعد أن أحست بأن الشريف حسين قد تم إغراؤه على الانفصال أن أرسلت لورانس إلى الحجاز معلناً إيمانه الأكيد بحق العرب في قيام دولة لهم . وقد كان هذا الاتجاه بديلاً لأمرين : بديلاً في نظر العرب للحركة العربية التي كانت تقوم في دمشق ، والتي ترى إقامة حكومتين عربية وتركيا تحت لواء الخلافة ، وبديلاً في نظر المسلمين من دولة الخلافة ، وذلك بإبراز حاكم الحرمين وشريف مكة وحفيد نبي الإسلام على أنه في صف بريطانيا والحلفاء ، وذلك لتنطية على فكرة خليفة المسلمين ، وملطان الدولة العثمانية التي انضمت إلى ألمانيا .

وكانت هذه الخطوة عام ١٩١٦ حلقة ثانية في الخطة بدأت بإسقاط السلطان عبد الحميد هام ١٩٠٩ في طريق تمزيق الوحدة العثمانية بين العرب والإسلام وخلق منطلق جديد في البلاد العربية يستمد نفوذه الفكري من فلسمة الإرساليات التبشيرية والمحافل الماسونية ويهدف إلى إهلاك « النزعة العربية » ودحر المفهوم العربي الإسلامي المتكامل . ومع أن الحركة العربية الإسلامية كانت متيقظة إلى هذا الخطأ ، فقد ظلت مدرسة العروبة المرتبطة بالإسلام تدمم خطواتها إلى وقت طويل دون أن تؤثر فيها دهوى العروبة العلمانية على مفهوم القوميات العربية . بدأ يشق طريقه قبيل الحرب العالمية الثانية على أيدي الأحزاب والهيئات التي قادها عرب غير مسلمين والتي اتسمت بارتباطها بالإرساليات أو بالهول الغربية أو النظرية العلمانية التي تنكر الارتباط الجفدري بين حاضر العرب وماضهم عبر أربعه عشر قرناً من خلال روابط اللغة والفكر والثقافة والتاريخ . ولقد كان من أكبر المؤامرات التي حققتها بريطانيا أنها أجهضت الحركة العربية التي قام بها الشريف حسين وفيصل بمجرد إعلانها ، فقد حاصرها الإنجليز ومنعوها من التوسع خارج الجزيرة العربية واكتفت بريطانيا بأن أذاعت إعلان الشريف حسين بأن بلاده انفصلت عن الدولة العثمانية انفصال تاماً ومن ثم وضمت بريطانيا يدها على المنطقة وقامت القوات العربية بمحاربة القوات التركية وإخراجها من المنطقة تحت قيادة فيصل . وكان دور لورانس الذي لبس الملابس العربية وشارك البدو الحياة في خيامهم وطعامهم ، وهو وضع خطط المهجمات الصاعقة على مرافق الطرق والمواصلات التي كان يسيطر عليها الأتراك :

وقد تقدمت الجيوش العربية حتى وصلت العقبة في يوليو ١٩١٧ فأنهت نقطة إنطلاق وظلت القوات العربية تقاتل حتى استولت على دمشق ودخلتها في أول أكتوبر ١٩١٨ وفي أثرها دخلت القوات البريطانية فاحتلت فلسطين وسوريا ولبنان وتسلمت زمام الأمر من القوات العربية . وفي نفس الوقت الذي كان لورانس يخادع فيه فيصل والعرب كانت اتفاقية سايبكس يبيكو توقع بين الحلفاء بتقسيم المنطقة : العراق لإنجلترا وسوريا لفرنسا ، وإقامة إدارة دولية في فلسطين . لقد كشف لورانس عن حقيقة الخفية في كتابه حين قلل من شأن العرب ، الذين لم يكن مؤمناً أساساً بحقوقهم في دولة مستقلة لأنهم في حاجة إلى حماية بريطانية . وهو أيضاً لم يكن مؤمناً بحق العرب في الاتحاد لأنه لم يكن يراهم أمة واحدة ، وقد كان متعاطفاً مع هدف الصهيونية ، وقد اعتبر فلسطين أرضاً يهودية منذ بدأ التاريخ ، وكان مؤازرته للصهيونية واضحة حين دفع فيصل إلى الإجماع مع وبزمان في العقبة ولندن وباريس . كان إنجاح لورانس من خلال مفهوم فلسفي واضح ، أقاله الاستعمار واليهودية معاً هو إعلاء النزعة اليهودية في صراع القوميات ، وكان لا بد وقد انفصل العرب عن الدولة العثمانية من خلق زعامات عربية جديدة في الحجاز وسوريا والعراق . وكان البيت الهاشمي هو للأمل في هذا الإنجاز .

وبينما سيطرت الدهوة للظورانية في استانبول ، واجتاحت تركيا وانصهرت بعد الحرب في حركة مصطفى أتاتورك ، فإن النزعة العربية صيغت على أكثر من وجه ومفهوم ، حتى لا تشكل وحدة فكرية عربية ، فكانت في لبنان دعوته إلى الإقليمية اللبنانية المستمدة من الفينيقية القديمة ، وكان في مصر دعوته إلى الفرعونية وكان في دمشق وبغداد والجزيرة العربية دعوة عربية محدودة فاصرة على هذه المنطقة التي قبل لها الشريف حسين دولة عربية ، ثم تمزقت إلى سوريا والعراق ولبنان وفلسطين والأردن والمملكة العربية السعودية من بعد ، لقد كان الهدف واضحاً وراء المخطط : فصل العرب عن الدولة العثمانية . ثم فصل كل قطر عربي إلى كيان خاص وإعلاء مفهوم إقليمي أو قومي ضيق خاص به بحيث لا تتمكن الوحدة من الجمع بينها ، وخلق كيانات إقليمية لها أهلها وعملتها وحكوماتها وجوازاتها في كل دولة . وقد كشف لورانس من موقفه من الوضع العربي بعد تمزيق الدولة العثمانية وانفصال العرب حين قال : لا أمل في قيام وحدة عربية لا في الحاضر ولا في المستقبل . فالدوريون يطالبون بإقامة مملكة عربية أما المسيحيون الكاثوليك في لبنان فيطالبون بحماية أوربيه .

لقد وضعت التحفظات منذ اللحظة الأولى على لبنان وفلسطين وأبعدت مصر عن الموقف كله :

وفي لبنان أقيم السكان اللبناني امتداداً لدور لبنان التاريخي منذ ١٨٦٠ وفي فلسطين فتح الطريق للصهيونية العالمية لإقامة دولة أطلق عليها أول الأمر خداهاً للعرب « وطن قومي لليهود ». وتوزعت العراق وسوريا ولبنان بين الفرنسيين والإنجليز احتلالاً وسيطرة . وقد كانت نظرة لورانس إلى خلق الزعامات الجديدة في البلاد العربية وفق الاتجاه الذي رسمه الاستعمار صحيحة ، ويبدو ذلك من تصريحات فيصل التي أعلن فيها أن نهضة العرب « تتطلب استعارة أفكار أوروبا ، ومعرفة خبرة أوروبا ، هذه الخبرة لكي تغدو صالحة لنا يجب أن نترجمها من الشكل الأوربي إلى الشكل العربي ولن نجد في العالم من يصلح لأداء هذه المهمة من اليهود الذين يمثلون كل معرفة أوروبا . وكانت سقطه من لم يمكن بملاك وضوح الرؤية في هذا الوقت للبكر ، لقد استطاع النفوذ الاستعماري واليهودية العالمية من ضرب العرب بالترك ، وتمزيق وحدتهم ، ثم تحويل كل منهما إلى طريق جديد ، اصطدمت فيه أصول الفكر الإسلامية العربية بالدعوات الغربية للشحونة بالأخطار .

ووقع كل من العرب والترك في فخ كبير واندفعوا إلى تحول خطير وكان منطلق الانهيار والتحول كله هو ضرب وحدة العربية والإسلام ، وتمزيق هذا السكان الضخم الذي كان يطلق عليه « الدولة العثمانية » بأيدي الترك والعرب أنفسهم ومن خلال تشكيل هذه الطلائع من طورانية وفينيقية وفرونية وحائرة بين المروية والاقليمية . يقول لورانس : وبذلك إتهارت الدولة الاملاية التي ظالما عمل على تدهيمها السلطان ، ويقول : لقد كنت أؤمن بالحركة العربية إيماناً عميقاً ، وكنت واثقاً قبل أن أحضر إلى الحجاز أنها هي الفكرة التي ستعزق الدولة العثمانية شذو مذر . قال لورانس : إن الثورة العربية هي في الحقيقة تقطيع أوصال الدولة العثمانية ١ . ومن هنا يمكن التعرف على حقيقة الانطلاق العربي من هذه النقطة والذي سمي في بعض الأحيان بالثورة العربية الكبرى وجرت الإشارة فيه بدور فيصل ، وبدور لورانس . لك العرب خير للتوج ، ودور الشريف حسين . وكيف تبين من بعد أن الشريف الهاشمي . لك الحجاز كان قد وضع تحت أنظار مسلمي الهند وشمال إفريقيا كبديل أكثر أصالة من الخليفة العثماني . ولم تكن هذه الحركة تمثل فكرة (الوحدة العربية) بأي صورة ويمكن أن يقال أنها كانت تمثل دولة عربية يحكمها الشريف ، فقد استبعدت لبنان وفلسطين ومصر واستبعدت أفريقيا الغربية واكتفت بتلك الأجزاء الآسيوية الواقعة بين سوريا والحجاز . ولعل حقيقة دور لورانس ينكشف في وضوح ويعطى مفهوماً أعمق في النفوس إذا سجلنا من مذكراته هذه العبارة : إنني أكثر ما أكون غرأ أن أدم الإنجليزى لن يسفك في للمارك الثلاثين التي خضتها لأن جميع الأقطار الخاضعة لنا لم تسكن لساوى في نظرى موت إنجليزى واحد ، لقد جازفت بمقديمة

العرب لاعتقادي أن مساعدتهم كانت ضرورية لانتصارنا القليل الن في الشرق ولاعتقادي أن
كتبنا الحرب مع الحنث بوهودنا أفضل من عدم الانتصار .

(٣٦)

تمزيق وحدة العروبة والإسلام

(١)

الإقليميات

الطورانية والفروانية والفينيقية

مهت السنوات المشر السابقة للحرب العالمية الأولى السبيل للإقليميات الثلاثة التي هبت
واستحصت : الطورانية في تركيا ، والفروانية في مصر ، والفينيقية في لبنان . كانت البذور قد
وضعت في التربة من طريق المحافل للناسونية وإرساليات التبشير والقوى الاستعمارية اليهودية العالمية .
فظهرت في تركيا حركة الاتحاديين الداهية إلى الطورانية ، وظهرت في مصر حركة لطفي السيد
وأصحاب المقطم الداهية إلى « مصر المصريين » . وظهرت في لبنان حركة السكيان القبناني الخلفاء
الأزلي الذي لا يرتبط بالدولة العثمانية ولا العرب . وقد ابتضت الدعوات للثلاث التاريخ القديم ،
تاريخ طوران وخسان وكلدان وحاولت أن تربط للمسلمين والعرب به بعد أن انفصلوا عنه انفصالا
جنوبا بظهور الإسلام وسيطرته الفكرية والسياسية والاجتماعية على هذه الأقطار كلها خلال أربعة
عشر قرنا صيغ فيها العقل الإسلامي والنفس العربية جميعاً بالقرآن صياغة جديدة بعثت بهما أماداً
واسعة من الوثنية القديمة والأساطير وحرب البسوس . وقد تصدر الدعوة إلى هذه الحركاب الثلاثة
من لبسوا من أصحاب الأصالة الفكرية أو الدين الغالب أو الوطنية الصادقة فقد كانوا دعاة في تركيا
روما وماسون ودونمة كلهم حرب على تركيا والعرب والإسلام ، وكان دعاة في البلاد العربية من
غريحي معاهد الإرساليات ومن لهم خلف هقائدي وتمصب وحقد على السكياف الأغلب والمخارة
الإسلامية .

(١)

الطورانية الكالية

اعتبر كثير من الباحثين الوضع الذي آلت إليه تركيا بعد الحرب العالمية الأولى من حيث سقوط الدولة العثمانية وتمزقها ، وقيام الدولة التركية التي سيطر عليها مصطفى كمال بمثابة امتداد للحركة الطورانية التي بدأت عام ١٩٠٨ وانتهت عام ١٩١٨ وردد كثير منهم في وصف هذه الحركة اسم الحركة الطورانية الصغرى ، وأما ما وقع بعد الحرب هو الحركة الطورانية الكبرى ونحن نؤيد هذا الرأي ونؤكد . ذلك أن كل ما حدث في فترة السنوات العشرة السابقة للحرب إنما كان تمهيداً لمساجاة بعد ذلك سواء في تركيا أو مصر أو لبنان وذلك في ضوء التحول الخطير الناتج عن إسقاط الدولة العثمانية وتمزيقها وهذا قد تحقق بالفعل نتيجة لدخول الاتحاديين الحرب العالمية في صف الألمان فكانت هزيمة الألمان في الحرب هزيمة لهم وفرصة سانحة لتحقيق حلم طاش الاستعمار أكثر من مائة عام تخطط له مع اليهودية العالمية . وقد كان العمل الذي تم بالفعل هشية هزيمة الدولة العثمانية من شقين : (الأول) احتلال الأجزاء العربية من الدولة العثمانية سوريا ولبنان وفلسطين والأردن والعراق . و (الثاني) السيطرة على تركيا وإذلالها وفرض نفوذ فكري سياسي غربي عليها حتى لا تصبح يوماً عاملاً إسلامياً مهدداً لأوروبا في هذا الموقع ، وقد تحقق العملاق على النحو الذي أرادته الاستعمار وكان المخططات التي نفذها الدعوة والإرساليات التبشيرية والمحافل الماسونية وأثرها الواضح في سهولة تحقيق هدف واحد خطير هو : تمزيق وحدة العروبة والإسلام وتفريقهما من المضمون الإسلامي الحقيقي . كانت الدولة العثمانية هي بؤرة الوحدة العربية الإسلامية ومصدر الجامعة الإسلامية التي ضمت تحت لوائها مسلمي فارس وأفغانستان والهند بالإضافة إلى مسلمي تركيا والعرب ولذلك فإن العمل لإسقاطها وتمزيقها لم يكن يكتفي ، وإنما يتطلب تغيير الذهنية والفكر والاتجاه والخصائص ، إلى نحو يحول بينها وبين أن تكون مرة أخرى منطلقاً للإسلام إلى أوروبا أو مصدراً للخطر أو جراثيمة لنجم إسلامي جديد ولذلك فقد كانت فترة السنوات العشرة للاتحاديين مقدمة لما بعد ذلك وتمهيداً للمخطط التفريبي العنيف الذي نفذته مصطفى كمال بقوة القانون وقد كان مصطفى كمال واحداً من الاتحاديين وزملاء طلعت وجمال وأنور ، ولكنه لم يلعب تحت الأضواء في هذه الفترة ، فقد استبقى ليصبح بعد الحرب امتداداً لهم ونقطة تجمع لهذه القوى لتشكل مرة أخرى حل نحو آخر بعد أن حققت أكبر هدفين وهما : إسقاط الدولة العثمانية وتمزيق وحدتها

العرب والترك التي هي مظهر وحدة العروبة والإسلام . وقد كان أتاتورك واحداً من رجال سالونيك ومحافلها الماسونية ومن أبرز رجال الانحداد والترقي ، مؤمناً بتلك المبادئ والمخططات التي فطنت فلم يكن حرباً عليها ولكن كان أكثر واقعية إذ أنه قصر الدعوة الطورانية الواسعة وكانت مخططات أحمد أغايف ويوسف اشقوره وضيا إلب هي رائدة له بل إن كثيراً مما كان حلاً لدى هؤلاء المهاجرين الروس والذين لم يكونوا تركاً في الأصل قد أصبحت حقائق ، بل إن أتاتورك هذا إلى خطو أوسع من أحلامهم وأبعد مما كانوا يتصورون تحقيقه . وإذا كان الانحداديون قد حطموا الدولة العثمانية وفرقوا رابطة العروبة الإسلام فإن أتاتورك قد حقق عملاً أوحداً في التاريخ الإسلامي أشد قسوة من كل عمل هو إلغاء الخلافة الإسلامية وتحويل تركيا من دولة إسلامية تحمل لواء الجامعة الإسلامية وقيادة الأمم الإسلامية إلى دولة غربية خالصة تنسك لكل ما هو عربي أو إسلامي ، وتولي وجهها شطر الغرب على نحو كامل جلزم غير متردد وفق ثلاث قواعد أساسية .

(١) لغة تركية مستنقاة مصفاة من ما هو عربي تنسكتب بالحروف اللاتينية . (٢) قوانين أجنبية غربية مستنقاة من المصادر المسيحية والرومانية بعيدة كل البعد في منطلقها وأهدافها عن الشريعة الإسلامية . (٣) تنسك كامل لكل مخططات العروبة والإسلام الجغرافية والتاريخية والانتباه إلتواء كاملاً إلى أوروبا وهالم الغرب . ويؤكد أرنست ا . رافور وصديقه أرنست بالك وبمراجعة كتاب أرمسترونج الذئب الأغبر عن حياة مصطفى كمال أنه كان ماسونياً وأن الحفل الإبطالي الذي ساعد الاتحاديين عام ١٩٠٨ على نجاح حركتهم كان معيناً له في نجاح حركته ولعل آية الصديق في ذلك أنه أنقذ الجمعيات الماسونية في البلاد بعد نقله لواء الزعامة والحكم فيها ، فالحاجة إليها بعد أن تحققت كل أهدافها وهو عمل قام به كثير من القادة العرب والمسلمين . ولا شك أن العنف الذي واجه به مصطفى كمال مؤسسات الإسلام وما قام به من دحر لنفوذه في تركيا يكشف بوضوح أنه كان من أخلص رجال المحافظ الماسونية بل يصل إلى أبعد من ذلك عندما يؤكد ما رددته كثير من الباحثين من أن مصطفى كمال نفسه من أصل يهودي ومن الدعوة المقيميين في سالونيك . وأنه قد تخفى بالمسكرو والخديعة في مماركة حتى كسب قلوب المسلمين فأرسلوا له من التبرعات والأموال الشيء الكثير حتى إذا تمكن من أزمة الأمور سحق الإسلام سحقاً والواضح من دراسة تاريخ حياة مصطفى كمال أمور عدة : (أولاً) لم يكن هو قائم معركة التحرير ضد القوات الأوروبية واليونانية وإنما هو الذي سيطر على هذه القوات من بعد وسحب أسماء الأبطال الذين بدأوا هذه المماركة وكان لهم دور كبير في تحقيق النصر من أمثال بكير وغيره . (ثانياً) إن أوروبا قد سلمت

لمصطفى كمال بزمامة تركيا وانسحبت أمامه بعد أن وقع على موافيق رسمية دولية في مؤتمرات الصلح التي عقدت قرر فيها إزالة الإسلام والخلافة وإخراج زعماء المسلمين والحكم بالقوانين الغربية وإلغاء ألفة العربية والشريعة الإسلامية . (ثالثاً) إن هذه البطولة التي حيكمت له أنوثاها ووضعت في هذا الطابع من الروعة والبهاء إنما كانت خدعة النفوذ الاستعماري لتأكيد وجوده وسلطانه ومنحه القوة على تدمير كل المؤسسات الإسلامية حتى لا يبقى منها شيء بخيف أوروبا أو بزعم اليهودية العالمية التي كانت تطمح منذ وقت بعيد إلى أمرين : القضاء على الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة الإسلامية طريقاً للوصول إلى فلسطين .

ولقد دفع مصطفى كمال تركيا دفقاً قويا إلى العلمانية وفصل الدين عن الدولة واضطهد للمسلمين والإسلام أشم اضطهاد وقتل العشرات وهلك جنسهم على أهواد الشجر ، وأُغلق المساجد ومنع الأذان والصلاة باللغة العربية وأعاد مسجد أباصوفيا كنيسة ومنحفا واستبدل بالشريعة الإسلامية قانوناً وضعياً ، واستبدل الحروف اللاتينية بالحروف العربية وألغى تدريس الإسلام في المدارس الجامعات وأقام قومية طورانية هرقية متصلة بالأواصر بالوثنيين السابقين للإسلام .

ولقد كان منفذاً أميناً للمخطط الذي رسمه الاستعمار واليهودية العالمية في مقابل التحرير وهو إزالة الخلافة وفصل تركيا عن العالم الإسلامي والأمة العربية . وبذلك حقق مصطفى كمال في العالم الإسلامي وفي مواجهة العربوية أخطر حركة استغراب West erinisation وفرضها فرضاً على الأمة التركية ولم يحققها تدريجياً أو على نحو المستقبل والتطور والرونة ، فقد كان مدفوعاً من القوى الأجنبية إلى تحقيق ذلك في أقصى مدى ، وإقامة هذا النظام على أساس السلطة الحاكمة والقوانين والادعاءات الدسوس ، وذلك حتى لا توجد ثغرة من بعده لفتح على الإسلام أو التقارب بين العرب والترك . وللعرف أن الاتحاديين قد جمعوا شملهم للشنت بعد الحرب العالمية خلف مصطفى كمال فقسوا بالقوى للملية والسكاليين وجمعية مدافعة الحقوق . وقد واجه الاتحاديون مصيراً قاسياً بعد ذلك الدور الخلف الذي قاموا به فقتل منهم من قتل وفر أغلبهم بدمرة أجنبية عن طويق البسفور وسلموا الأمة إلى الاهداء ولقد جرت محاولات للهجوم على الاتحاديين في عهد مصطفى كمال أو التفرقة بين الطورانية التي حل لواها الاتحاديون وبين القومية التي دها إليها مصطفى كمال ونفذها : هذه القومية المحددة بمحدود الأناضول وهي غير الدهرة الطورانية التي كانت تحاول جمع الشعوب التركية . وهو كلام ساذج قد يخضع البسطاء ذلك لأن جوهر الطورانية والسكالية واحد وهدفه واحد ، بل لقد كانت الطورانية دعوة فكرية مترددة . أما السكالية فقد أعطت نفسها القوة العسكرية التي استطاعت بها أن تفرض

رأيها ، ولا طارق بين الدهويين في أبرز مظاهرها ومخططاتها وهو إعلاء العنصرية التركية وللبالغة في التنفي بالأيجاد ، وكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية ، وتنفيذ نظام سياسي واجتماعي غربي لاديني منفصل عن الاسلام والشريعة والقيم والمعتقدات الاسلامية التي هرفتها الدولة العثمانية أكثر من أربعةائة سنة . والانتفاء إلى الغرب الذي كان هو للناس الفكرى للامجاديين منذ أحدرضا أغايف إلى مصطفى كمال نفسه . ولقد كان انتهاء تركيا إلى الغرب سبة في تاريخها لم تسلم من قلم مؤرخ أو فيلسوف ، فاذا استنطحت تركيا أن تعلى الحضارة الغربية عندما انتمت إليها ، كما أعطتها شعوبها لاشيء ، إلا أنها كانت ولا تزال ذبلا لها ، وقد أشار توبلي إلى ذلك صراحة في موسوعته وقال إن تركيا حين تقربت لم تقدم شيئا إلى الغرب أو جديدا إلى الحضارة وعاشت عالة على القوانين والنظاات الغربية .

ولعل هذه هبرة الدهاة الذين طالموا دهوا العرب والمسلمين إلى التهرب وحاولوا التويه كذبا وادعاءا وتبعية بالقول أن الحضارة الغربية لا تؤخذ وحدها وإنما تؤخذ مع الفكر الغربى وأساليب العيش الغربية ، وإن كل حضارة مثل كل طريقة حياة هي كل لايتجزأ . كذلك أشار توينبي ، وردد ذلك أحمد أغايف في تركيا وطه حسين في مصر . لقد اصطبغت تركيا قسرا بالحضارة الغربية : فكرا ومجتمعا فاذا حققت غير التخلف الذى سيظل طالبا لها إلى أن تراجع عن هذا المخطط الزائف ، وتجد طريقها الصحيح للنض في ضلال الاسلام ، إن العرب المسلمين يستطيعون أن يأخذوا العلم التجربى ويترجموه إلى لغاتهم ويقيموا مجتمعات ذاتية قوامها فكرهم ومفاهيمهم فهم ليسوا في حاجة إلى قوانين الغرب وشرائعه ، ولا إلى مفاهيمه الاجتماعية المنحلة في مجال التوحيد أو النفس أو الإقتصاد أو التربية . خاصة في مرحلتها الحالية التي وصلت فيها إلى أحط درجات الاضطراب والإجاجة إن محاولة إخراج المسلمين من الإسلام باسم خروج أوروبا من الدين مقارنة باطلة فإن المسلمين والعرب قد شكلوا نفسيا واجتماعيا بهذا المركب الجامع بين الدين والحياة ، وهذا الترابط بين الإسلام والدولة وهذا الامتزاج بين العروبة والإسلام فأى محاولة لإخراجهم من طرازم النفس وذاتيتهم هو قضاء عليهم . والعبرة واضحة في الدولة التركية والانقلاب السكالى . لقد كانت الدولة العثمانية تستطيع أن تتجدد وتقف موقف الأمم الراقية دون أن تدمر مقوماتها فلم يكن الإسلام هو مانعها من الرقى ولكن التخلف عن فهم حقيقة الاسلام هي مصدر التخلف . إن كل ما أصاب الدولة العثمانية أو العرب والمسلمين من تخلف إنما يرجع إلى تجاوز مفهوم الاسلام والحضارة الاسلامية في مقوماتها الأصلية وكل ما توصف به الدولة العثمانية أو العرب من ضعف أو جهود أو فساد أن تحجر إنما جاء نتيجة الهوة التي قامت وانسعت بين الأساسية وبين الواقع المخالف .

لقد كانت الكلمة للضلالة التي أخذت مفتاحاً لسكل هذا التحول هي أن الإسلام حائل دون النهضة وأن القانون السويسرى هو مصدر النهضة وقد فعلوا والنتيجة واضحة ليست فى حاجة إلى دليل . لقد كشف كثيرون دور الصهيونية العالمية فى التحول الخطير كاه القدى شتل تركيا والبلاد العربية وأهدافه الأساسية : يقول هيد الله التل : إن اليهود لم ينسوا أن السلطان قد رد هرتزل وأيقنوا أن لا أمل لهم ولا قائمة من السلطان فقررت حكومة اليهود المستورة القضاء على الخلافة وحينئذ نجح لليهود فى تحطيم الخلافة لم يكتفوا بذلك وإنما رسموا لتركيا خططاً للمستقبل وقرروا أن تتخلى تركيا عن الخلافة وعن اللغة العربية وأن تتخلى عن الإسلام نمناً لتأييد دول الحلفاء لها فى ثورتها التحررية التي قادها مصطفى كمال . لقد كان الوسيط القدى أشرف على اتفاق الحلفاء مع مصطفى كمال هو الحاخام حاييم ناحوم الذى كان فى تركيا قبل انتقاله إلى مصر حاخاماً أكبر ليهودها . نعم لقد رسم اليهود الخطط لقيام الدولة التركية على أساسين : [اللا دينية Laïcisme والقومية nationalisme . ليسكون ذلك عازلاً كاملاً دون العرب والمسلمين والإسلام فى القانون والمجتمع والعلاقات الخارجية . امد جاء أوان قطف الثمار : ثمار الإرساليات التبشيرية والمحاغل الماسونية وكان على زعماء اليهود فى تركيا أن يضعوا الخطة ، وكان حاييم ناحوم مع صتراوس ، ومرجانيو صغيرى الولايات المتحدة يعملون من أجل دعم الوجود الاسرائيلى فى فلسطين وفى البلاد العثمانية . ولقد كان هو الوسيط القوى الذى أوفده مصطفى كمال إلى دول الغرب فى مؤتمر لوزان لفتح لتركيا ما أراد للغرب . ونشهد ترجمة الحاخام الأكبر إنه كان مدرساً للادب بمدرسة المدفعية الهندية فى استانبول حيث كان من تلاميذه (عصمت اينواو) رئيس الحكومة السكالية وهدد كبير من ضباط الجيش التركى .

يقول هيد الله التل : يالها من مصادفة عجيبة أن يلتقى فى تركيا المهزومة أساطين اليهودية العالمية وأساتذة الماسونية من أمثال صتراوس ومورجانتو اليهوديين لينعاونوا مع حاييم ناحوم على رسم طريق المستقبل للدولة التي كانت إلى زمن قريب تهمز العالم وتفرع بمجنودها الأبطال أبواب غرب أوروبا ، ونجح أساطين اليهودية العالمية بمساعدة عدد كبير من الأتراك الذين يحملون أسماء إسلامية وهم من يهود الدعوة مثل مصطفى كمال باشا وجاويد بك وحسين جامين بالنشين ؛ نجحوا فى القضاء على الخلافة وفى إلغاء الدين وهدت تركيا دولة لادينية بفضل اليهود الذين نزهوا عنها ثوب المجد الوحيد الذى أوصلها إلى قمة العزة والمجد والسودد ، نزهوا عنها ثوب الاسلام فأصبحت تركيا منذ سنة ١٩١٨ حتى يومنا هذا تتخبط فى دياجير ظلمه حالكة تعجز مئات الملايين من دولارات اليهود عن إثارة الطريق أمامها اليوم وستظل دائماً ما دامت تسيورها اليهودية العالمية - كية مهملة فى الميزان الدولى وفى ميزان

الحياة، ليس لها رسالة إلا خدمة اليهود وهبدم من دول الغرب الكبرى . والحق أنه بنهاية الحرب العالمية الأولى طويت صفحة من تاريخ العرب والاسلام فقد سقطت الدولة العثمانية ونمزقت . وخرجت حكومة تركيا من إطار الاسلام ومزق العالم العربي بين نفوذ بريطانيا وفرنسا ومكن للصهيونية العالمية في إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين .

(٢٧)

الخلافة الإسلامية

كان إلغاء الخلافة الاسلامية هو آخر المراحل التي تطلع إليها الاستعمار واليهودية العالمية من أجل تمزيق وحدة الاسلام والعروبة ، والقضاء على آخر صرح جامع للعرب والترك يحمل لواء الجامعة الاسلامية ويقنادى بالمسلمين في كل بقاع الأرض . لقد كان إسقاط الخلافة عام ١٩٢٤ من أخطر الأحداث في العالم كله ، وسيظل من الأعمال الكبرى ، وسيحمل لاسم مصطفى كمال أكبر التبعات في حكم التاريخ فقد فتح الباب واسعاً أمام صراع الاقليات والقوميات التي تتحرك في فراغ دون أن ترتبط بدائرة أساسية هي دائرة الفكر الاسلامي أو الوحدة الاسلامية الجامعة في مجال الجغرافيا أو في مجال الفكر . غير إن إلغاء الخلافة الاسلامية لم يحقق ما توقعه الاستعمار واليهودية العالمية من تمزق الاسلام أو اضطراب المسلمين والعرب الذين أهرقوا على التوفى أتون الأجناس والعصبيات والعنصرية بقصد تعميق هوامل الخلاف ودعها والحيلولة دون قيام وحدة فكرية أو إجماعية بينهم . ومن الحق أن يقال أن هذه الأحداث التي نالت من أجل تمزيق وحدة العروبة والاسلام إنما جرت تحت سلطان قاهر هو النفوذ الاستعماري الذي تحكم بواسطة مؤسساته المختلفة في الدولة العثمانية وفي البلاد العربية جميعاً . وكانت هذه المؤسسات هي :

(أولاً) الاحتلال البريطاني في مصر . (ثانياً) السكيان اللبناني القائم في حاية دول الغرب في بيروت . (ثالثاً) الانهاديين ومن بعدهم السكاليين في تركيا . (رابعاً) الاحتلال الغربي للدول العربية والتي شمل العالم الاسلامي كله بعد الحرب الأولى . ومن طريق هذه القوى وما تندفعه من فكر سياسي واجتماعي من طريق الجامعات والمدارس والحافل الماسونية والصحف والأنظمة السياسية الواقعة تحت نفوذ الاحتلال والتي تخرج رجالها في الأغلب من الارشاليات التبشيرية والحافل الماسونية فرضت مفاهيم مغايرة لطبيعة الفكر العربي الاسلامي وجرت المتابعة والنكوار واللاحاح مع تنبيتها من الأذهان لتصبح بعد خمسين سنة حقائق لا مفر منها ولا معارضة لها .

لقد ركزت هذه الدهوات التفريرية على الازدراء بالخلافة العثمانية والجماعة الاسلامية وعلى إثارة الصراع بين الاسلام والعروبة ، وبين القومية والوطنية ، وبين الاقليمية والقومية ، وبين العناصر المختلفة ، وبين الأديان وللذاهب وذلك كله لاذابة كل هدف سليم واضح يطرحه حركة اليقظة الاسلامية لسير في الطريق الصحيح إلى معرفة الحقيقة وإلى إتخاذ الأسلوب الأميل لمواجهة الأخطار. لقد كانت الحملة الضخمة أساساً موجبة ضد الاسلام واضحة إيالة في تفصيص الاتهام بأنه مصدر الضعف والتخلف للعالم الاسلامي ، وكانت الحملة الضخمة مركزة على مفهوم الاسلام الجامع بين الأمم والشعوب الداهي إلى الوحدة والأخوة . وكانت حملة أخرى أشد قوة موجبة إلى الشريعة الاسلامية ومهاجمتها وذلك لاحتلال مبدأ فصل الدين عن الدولة في أنظمة الحكم ومفاهيم التعليم وفي أنظمة القانون ، وإستبدال الشريعة الاسلامية بالقوانين الغربية وبذلك يمكن إخراج المسلمين والعرب من قيمهم ومقوماتهم وشخصيتهم ، والتسكين للاستعمار الغربي والتفوذ اليهودي في فلسطين . ونتيجة للضعف السياسي الذي كان يمر به العالم الاسلامي فقد هجر قادة المسلمين عن إعادة بناء الخلافة الاسلامية مرة أخرى بعد أن أسقطها مصطفى كمال وإن ظلت عنصراً أساسياً في مناهج الدهوات الاسلامية وخطة واضحة في برنامج حركة اليقظة العربية الاسلامية . ومازال المسلمون والعرب يبحثون عن صيغة جديدة تحمل لواء الوحدة بدلاً من الخلافة لا تحول دونها قوى التفوذ الاستعماري للسيطر ، ولقد كانت مكة وجامعتها في أيام الحج ، وكان الأزهر من القوى التي ساندت حركة اليقظة العربية الاسلامية بعد سقوط الخلافة وكان إنتعاش الوهابية الجديدة في الجزيرة العربية واليقظة الاسلامية في مصر والباكستان وغيرها من علامات النمويض السريع .

وقد صور الدكتور عبد الوهاب عزام الإثارة التي ترتبت على إلغاء الخلافة في العالم الاسلامي فقال : إن عمل السكاليين من بعد دل على أن إلغاء الخلافة لم يسكن نزوة ثورة ، بل كان الحلقة الأولى في سلسلة مصنوعة والخطوة الأولى في خطة موضوعة : خطة أملاها عليهم الروس والانجليز وأوروبا . لقد كان إلغاء الخلافة في هذه الخطوب للكفهره ، لحل رباط حرمة من التعصب في ربح عاصف بلغت من المسلمين أسوأ مبلغ ، وبلغت أهداهم أبعد غاية ، ولا ينكر هذا إلا جاهل بطبائع الأمم وأحسب أن الانكليز كان يهون عليهم أن يبذلوا ملايين الجنيهات ليلبثوا الغاية التي بلغهم إياها السكاليون بغير بذل ولا كد . ونسكاد نجمع الأبحاث التي عرضت على أن على الخلافة الاسلامية هي مؤامرة اسلامية مدبرة ، وأن هناك ارتباط بين مصطفى كمال والتفوذ الغربي على ذلك وأن مواداً قانونية في معاهدات دولية قد أقرتها تركيا تنص صراحة على إلغاء الخلافة كمن لتحريرها من الاحتلال

اليوناني والبريطاني . ولا شك أن إلغاء الخلافة كان عملاً مرضياً لروسيا وفرنسا وإنجلترا واليهودية العالمية ولأوروبا جميعاً التي ما تزال تذكر تاريخ الدولة العثمانية وفنوحاتها في قلب أوروبا والتي وصلت إلى أسوار فيينا وكان مفهومها أيضاً أنه جزء من مخطط تخريب العالم الإسلامي إلى قوميات وإقليميات تحول دون تجمعه أو ترابطه وبذلك تقسأط في أتون الحضارة العالمية عندما تتحول كل قومية وإقليم إلى تبعية كاملة للفكر الغربي : هذه التبعية التي تكون نقطة البدء فيها فصل العروبة عن الإسلام وفصل الإسلام عن المجتمعات باقاة قوميات هلمانية . وهناك إيمادات واضحة تشير إلى أهداف المخطط الذي رسمه الغرب واليهودية العالمية والذي تغذيه المحافل الماسونية وارساليات التبشير تبدو واضحة في أقوال بعض دهاقين السياسة الأوروبية فالورد كرزون يخاطب في مجلس الأعيان البريطاني بعد محادثاته في مؤتمر لوزان مع الأتراك فيقول : لقد قلت للترك بأن توجيههم وجوهرهم إلى جهة إيران ولأفغان مضربهم ، وأنه ينبغي لهم أن يوجهوا وجوهرهم نحو الغرب ويقيموا أنظمتهم على أساس الحضارة الأوروبية . ويقول (لويد جورج) السياسي البريطاني وهو من كبار رجال الماسونية العالميين معلقاً على إلغاء الخلافة : لقد تحررت الأديان المسيحية من إشراف الحكومات في قارة أمريكا الشمالية كلها وفي المنسلكات البريطانية وفرنسا وقد حذت تركيا اليوم حذو هذه البلدان . وقد أشار مصطفى كمال إلى انجماحه فقال في صراحة : إن وجهتنا هي السير من الشرق إلى الغرب ، اهبطوا أننا لأننا اضطررنا إلى اختيار موطن لنا في الشرق فقد وقع اختيارنا على موطن غربي بقدر الإمكان لما لغرب من علاقة بمنشأنا الأول : فإذا كانت أجسامنا في الشرق فأنظارنا ما برحت متوجهة إلى الغرب : إن فكرة الجامعة الإسلامية لا نصيب لها من الحقيقة .

وقالت جريدة (توحيد أفكار) التركية : أن على الغربيين أن يقيموا الدليل على أن أنظمة الحضارة الأوروبية خير من أنظمة الحضارة الشرقية . وأكد الفيلسوف التركي رضا توفيق تبعية تركيا لفكر الغربي الفرنسي فقال : أن التفكير التركي ينتج إلى الناحية الفرنسية والمدرسة الفرنسية الآن التي هي تفرد الروح التركية لأن الآداب من مبتكرات العقل الفرنسي وسنبق الروح الفرنسية هي التي على الحياة التركية الفكرية وقد عرف القاريء بأن الثورة التركية وليدة الثورة الفرنسية . وهذا كلام واضح يضع النقط فوق الحروف بالنسبة إلى نسب الثورة التركية ، وليدة الانقلاب العثماني للاتحاديين وكلاماً مستمد من مصادر الثورة الفرنسية الأصلية ألا وهي المحافل الماسونية التي حققت بالانقلاب التركي الهدف الثاني من أهدافها السكبار وهو ازاحة الوحدة العربية الإسلامية والرابطة بين الترك والعرب والصله بين الإسلام والمجتمعات باسم القومية البلاديه المستوردة

من النظريات الغربية والمفروضة فرضاً بقوة السلاح وسلطان الحاكم الديكتاتور . ولا شك أن إلغاء الخلافة وإقامة النظام الجديد كان يتركز أساساً على فصل الدين عن الدولة في تركيا . فقد صرح مصطفى كمال أن الدين يجب ألا يعتمدى للمعابد وأن حرية الفكر هي أساس حرية الدولة ولكل أنواع الحرية . وطالب كثير من النواب بإلغاء المواد التي تشير إلى الدين في الدستور التركي وأعلن مصطفى كمال أن المادة التي تنص على أن الإسلام هو دين الدولة لم تعد صالحة لهذا العصر وأنه يجب حذفها من الدستور في أول فرصة . ولا شك أن الدين الذي يشير إليه مصطفى كمال والذي يجب ألا يعتمدى للمعابد ليس هو الإسلام الذي نعرفه والذي يعرفه المسلمون : والذي هو نظام مجتمع ومنهج حياة ، وذلك أن هذه العبارات قد كتبت تحت ضوء أحداث وقعت في أوروبا وصف الدين فيها بهذه الصفات ثم نقلت نقلاً لنقال عن الإسلام . ولقد تدرج مصطفى كمال في إلغاء الخلافة ومادة الإسلام من الدستور التركي على مراحل متعددة ، فألقى الخلافة الزمنية أولاً ثم أقم خلافة روحية على نسق البابوية حتى إذا تأكد من أن هذه الخطوة قد مرت بإسلام عاد فألقى الخلافة في ٣ مارس ١٩٢٤ وكذلك فعل بمادة الإسلام التي ألغاهها نهائياً عام ١٩٢٨ بعد أن أثبتها في الدستور الأول . ولقد كان عبد العزيز جاويز من أقرب الناس إلى أحكام أنقرة في هذه الفترة وكانت له محادثات طويلة مع مصطفى كمال ولذلك فقد جاءت نظراته إلى الأمور بعد إلغاء الخلافة غاية في الدقة والوضوح . وفي بحث له تحت عنوان [القنبلة السكالية تعصيب كبد الإسلام وتركيا] يقول : الدين يزنيون لمصطفى كمال ما فعل إمام فئة من التتار التي دسها روسيا القيصرية بين الترك لقطع ما يصلهم بالإسلام ، جاء هؤلاء المفسدون إلى الأستانة قبل الدستور العثماني فزبنوا للاتحاديين مسألة الضمير والتباعد عن الإسلام .

لقد وسوسوا للاتحاديين بأن سبب تألب أوروبا على تركيا إنما هو الإسلام وقيام الخلافة فيها ثم أخذوا يزنيون لهم أن تعتبر غير البلاد التركية من الأباطوريه العثمانية مستعمرات ملوكه وأن يكون للعنصر التركي وحدة حق الحكم غير مشترك . ما تقوم إلى الطورانية وزبنوا لهم أن ذلك يمكنهم من ضم عشرات الملايين من الأتراك القاطنين في أذربيجان وتركستان . كما استندرجوم إلى محاربه اللغة العربية بعد أن صارت نحو ٧٠ في المائة من اللغة العثمانية وإلى استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية . ثم أشار عبد العزيز حلاويش إلى خلو المملكة العثمانية بعد الحرب من المصلحين المفكرين مما وضع الأمور كلها في يد هذا الفرع « من التتار المارقين فالبشوا أن يعلشوا بيد مصطفى بطشهم بالإسلام وتركيا جميعاً » .

ولكن هل سارت الأمور حقا على هذا النحو الذى صوره عبد العزيز جاویش : أن الخلفيات التى كشفنا عنه فى هذا البحث تعلى صورة أكثر دقة للمخططات البعيدة المدى التى لم يكن فيها أمثال يوسف أشقورة وأحمد أهيايف ورضا الب إلا مجرد أدوات ، بل كان فيها مصطفى كمال نفسه بإرادته كواحد من الدولة وللأسف ، وبما أريد له ورسم من مخططات إقامتها النفوذ الاستعماري واليهودية المالية ؛ كان فيها مصطفى كمال نفسه مجرد أداة ضخمة استغفرت فى شخصيته للبيئة بالمرور والكبرياء والتطلع إلى الزعامة كل خواص الانتقام والهدم والتغيير لتحقيق هدف كبير ، أبعد كثيرا من مقام كتاب التتار أو مصطفى كمال نفسه . ولقد كان من أطماع مصطفى كمال أن يكون خليفة ولكن النفوذ الأجنبي كان يرمى إلى قطع هذه الشجرة من جذورها ، وقد حقق ذلك وبلغ فيه إلى أقصى لدى . وذلك فإن الأحداث التى دارت بين عبد العزيز جاویش ومصطفى كمال فى أمر الخلافة لم تكن من أجل الوصول إلى رأى فيها بقدر ما كانت لكسب جاویش إذا أمكن إلى وصفه ، وهو لم من أهلام الإسلام يكون لرأيه وزن ، ولذلك فإن مصطفى كمال ما كاد يرى اصرار عبد العزيز جاویش على موقفه الصحيح من الخلافة حتى أدارة ظهره ، وصحب كل وهوده فى الانتفاع به فى الأعمال الكبرى فى الدولة . ولقد حاول مصطفى كمال أن يرجع أمر الهزيمة التى منبت بها تركيا إلى الخليفة وهذه مغالطة ضخمة فان الاتحاديين كانوا هم الحكم وهم الذين أصدروا قرارهم بالدخول فى الحرب ولم يستلم الخليفة من رأيهم مخالفة . ويبدو ذلك واضحا فى الحديث الذى دار بين مصطفى كمال وعبد العزيز جاویش والذى سجله هذا الأخير :

مصطفى كمال — ما رأيك يا فلان فى أمر الخلافة وفصلها عن سياسة الدولة ؟

عبد العزيز جاویش — ليس فى الإسلام خلافة بلا قوة كما أنه ليس فى الإسلام خلافة مستبدة .

مصطفى كمال — أوليس أولئك الخلفاء هم الذين كانوا مصدر شقائنا وبلائنا أو ليسوا هم الذين ساقونا إلى تلك الحرب الطاحنة .

عبد العزيز جاویش — إن الخلفاء الذين أقاموا فى السنوات الدستورية لم تطلق أيديهم فى تدبير البلاد ولا كانوا مستبدين بأمرهم بل كانت تجري الأمور فى المملكة لا يحيطون بها علما ، وإذا كان لهؤلاء الخلفاء فى زمن الدستور شيء من الامتيازات القانونية فما ذلك إلا لكون الدستور جعلهم خلفاء على الأصول الرومانية لا خلفاء وفق الشريعة الإسلامية .

مصطفى كمال — كيف ذلك ؟

عبد العزيز جاويز - إن الإسلام أنكر الفروق الطائفية وامتيازات الطبقات والأفراد بعضها عن بعض في الأحكام والتكاليف الشرعية ، بل أقام سائر المعامل البشرية في مستوى من تكاليفه تتعاضد في الأقدام والرؤوس فلا يمتاز في أحكام دين الإسلام رجل عن امرأة ، ولا أمير عن سوقة ولا فقيه عن غيره ، بل كلهم خاضعون للقانون السامى :

« ليس بأمانيك ولا بأمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً فيحز به ولن نجده من دون الله ولياً ولا نصيراً » . وبذلك سوى الإسلام بين الرعاة والرعايا في سائر الأحكام والتكاليف ففقد بمجازاة من يعدون حدود الله ولا تفرقه ولا تفاوت ، فإذا أصاب أمير أو سلطان أو خليفة أى فرد بأذى كان عليه من الجزاء مثل ما على غيره من عامة الناس سواء كان ذلك الأذى هدواً على نفس أو حاجة أو عرض أو مال . فليس في دين الإسلام فوق الشرائع والأحكام أمير ولا خليفة ولا سلطان ولكن تركيا التى قلت أوربا اقتبست من القوانين الرومانية قاعدة أن الخلفاء فوق القانون والشرائع فأصبح الخلفاء بهذا خلفاء رومانين لا خلفاء مسلمين ولو عقل رجال النهضة الدستورية إذ ذاك أذكروا ذلك الفارق البعيد بين دين يقول : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » . ويقول « إن الحكم إلا لله يقض الحق وهو خير الفاصلين » . وبين شرائع قامت في أقوام كانت تعبد للوك والأباطرة وتعتمد مصدر الاشتراع والحكم فرفعتهم إلى مقام الإله الذى هو وحده يحكم ولا معقب لحكمه . أوجب دين الإسلام طاعة أولى الأمر ولكن على شريطة ألا يأتروا بما يخالف أوامر الخلق ، ثم أبان لنا أنه إذا وقع تنازع بين الراعى والرهية وجب أن يتحاكوا إلى كتاب الله وسنة رسوله فلم يبيح لأحد منهما مهما بلغ سلطانه وصولته إن يحكم الناس بما تنهوا عنه وتشتطيه شهوته حتى لقد أجاز للناس الخروج على غير المدول الذين لا يقفون عند حدود الله من السلاطين والأمراء مبيحاً لولى الأمر مقاتلتهم وقتلهم . يقول جاويز : بأن مصطفى كمال لم يصبر بعد وهم ، فهم بالوقوف إيماناً بالانصهار فى فاضرت « ثم أوهز إلى فرقة فى المجلس أن تدهونى الاستقبال رسمياً وجاءنى خطاب من جلال نورى أن أكون بمركزها يوم ٢ يناير ١٩٢٣ وهناك تحدث جاويز فقال : إن سبب شقاء الترك وتأخرهم لم يكن دين الإسلام ولا قيام الخلافة فى بلادهم كما يزعم لهم التنار الواغون ويتوهمه الرهظ للارقون ولكن الأمراض الاجتاهية والجهالة الفاشية الفاعلة فيهم ما تمنعهم من الأوبة القتالة . أراكم تتكلمون من الرئاسة الروحانية والرئاسة السياسية كأنى فى طائفة من الكاثوليك يشكلون سلطات البابا وخلفائه من المساوسة ويألمون لما أصابهم من تعسف هذه الطائفة فى حقولهم ووجدانهم . لقد كنت أنتظر من قوم فبتوا فى الإسلام ودانوا به أن يدركوا ما بين الدينيين من الفروق الواسعة

والصفات التي لا يجتمعان على شيء منها ، ليس في الخلافة ولا في الإسلام ما توهتهم من العيب ولكن
 « كيفما تكونوا يول عليكم » . لقد كانت تقام الأحكام باسم الله الحكيم العدل حتى دب في مظلة الغرب
 من المسلمين فيبب الوثنية الرومانية فصاروا فيما يسمونه بمصر للدابة التي اتبعوا فيها أوربا بشيراً بشير
 وذراعاً بذراع ، فقبلوا وهم أهل دين التوحيد الكامل ما جاءهم من الرومان الذين كانوا يمسدون
 الأوثان ويشركون ملوكهم بتلك الآلهة بل الذين كانوا يعتبرون في أساطيرهم صورة العلي الكبير الذي
 لا يسأل عما يفعل . لقد نحا الإسلام ما كان بين طبقات الحكام وشعوبهم من الفروق والأحكام
 والشرائع كما حارب الطوائف الروحانية بما أنجى الإنسان من شرورهم ومفاسدهم . أبطل الإسلام
 عقيدة إرث الخطيئة وأزال الحجب والحواجز التي أقامت بين الله وبين خلقه فأنها مصرأى باب
 القدس لكل مستفتح ومأنها رضوانه وجنته لكل طالب . بهذه الأحكام الرشيدة أقند الإسلام أتباعه
 من شرور رجال الدين الذين كانوا يحاولون الحيلولة بين الله وبين خلقه ليلجئهم إلى أن يتخذوا
 منهم شفعاء ووسطاء حتى إذا ملكوا معاقل قلوبهم ساموهم العذاب . ويقص هايتنا تاريخ القرون الوسطى
 من هول سلطان الكنيسة ما تقشعر له الأبدان فن حرمنا من الإيمان إلى فادح من اللغرام إلى إحراق
 بالنار إلى استئثار بالفقران إلى استباحة للأغراض إلى إفراط في الشهوات . ولم يكن المسيحيون في
 ذلك السلطان الديني القاهر يدنا من الأمم والملل فقد فعل اليهود من قبلهم شيئاً من ذلك ، كما أن
 البراهمة في الهند لا سيما في القرنين الخامس والسادس قبل المسيح بلغوا من الاستبداد بالأمر في
 العامة ما أمكنهم من رقابهم وأموالهم إلى أن ضجت الإنسانية وبرز للمصلحون . من ذلك السلطان
 الروحاني (كما تدعونه) جاء الإسلام ليخلص القبائل والشعوب ويحرر النفوس البشرية وما كان
 لدين جاء لهذه الغاية أن يغسل الدم بالدم ويمحو الاستبداد بالاستبداد وينسخ الجور بالجور . هل
 اخضع دين الإسلام الخليفة بمصمة من خطأ أو أثم ؟ هل منحة حق الاستئثار بتفسير كتاب أو سنة ؟
 هل خوله النيابة عن الله في خقران ذنب أو طرد من رحمة أو تحكيم في عقيدة أو سيطرة على وجدان ؟
 لم يحدث شيء من ذلك بل أوجب الإسلام على الخليفة إقامة العدل طبعاً لما نصت عليه الشريعة ثم
 جعله مستولاً أمام عامة المسلمين سؤاله أمام رب العالمين فجعل لهؤلاء إذ لم يعدل الخليفة عن الحق أن
 يظلموه وأن يقتلوه .

نعم إن أحكام الإسلام أحكام دينية ولكنها ليست من النوع المعروف في تاريخ الأديان
 (بالشوقرى) فإن هذا النوع معناه أن يكون الحاكم نائباً عن الله في الحكم والاشتراع على الناس
 طاعته وليس لأحد أن يخطئه أو يخالفه بل ولا أن يناقشه ، ذلك لأن الرئيس عندهم موصوم لا ينطق

هن الهوى فكل ما يأتينهم به من شرع ودين من عند الله لا يجارى فيه ولا يجادل فيه ، ذلك ما كانت تفهمه الأمم الغير مسلمة . كلما ذكرت عبارات : السلطنة الدينية ، السلطة الروحانية ، سلطة الكنيسة . ولقد التبس الأمر على غير الواقفين على أسرار الإسلام وأصوله فأخذوا يحاكمون الأمم الأخرى التي لم تسمد إلا بخلها أطواق سلطة الكنيسة للذكورة آنفاً من رقابها . وإننى على ثقة أنه لو كان في الدين النصرانى من الأحكام الهادفة للفروق الطائفية مثل التي جاء به الإسلام لما اصودت صفحات الكنيسة بما فعلت في القرون الوسطى ولما أريقتم قطرة دم في معالجة أطوائها والتخلص من سلاسلها وأغلالها .

(٢)

لاريب أن خطة فصل الإسلام عن العسوبة وفصل الدين عن الدولة كانت من مخططات الاستعراق والاستعمار كمقدمة لإسقاط الخلافة الذي تم عام ١٩٢٤ بعد فصل السلطة الدينية والسلطة السياسية عام ١٩٢٣ وإن ذلك كان مديراً منذ وقت بعيد ولقد جرى الإعداد الفكري لذلك منذ وقت بعيد ، فقد حملت جريدة المقطم لواء هذه الدعوة منذ عام ١٨٩٩ حين أوردت رأى المستشرق جبرائيل شارم الذي دعا إلى فصل الخلافة عن السلطة فيكون الخليفة غير السلطان ، وقوله : إن فصل السلطة الدينية عن السلطة الدستورية في الإسلام يكف أوروبا عن مناوأة الخلافة إذ لا يبقى محل لاستخدام مصالحها السياسية بالمصالح الإسلامية فيزدهر الإسلام وينتشر لزوال كل حائل سياسى من طرائفه وما استشهد به للمستشرق المذكور هو انفصال الكنيسة عن الحكومة في كثير من الممالك الأوروبية انفصالاً كان نتيجة تقدم القوتين الدينية والدستورية تقدماً لم يسبق له نظير .

وقد أحدث هذا الرأى مناقشة وجدلاً طويلاً . وقال أحد الذين تصدوا للمعارضة هذا الرأى الذي طرحه للمقطم . « إنه إذا انفصلت الخلافة عن السلطنة العثمانية سقطت منزلة العثمانيين أمام الدول الأوروبية فلا تعود قادرة على التسلح بسلاح الإسلام فتزول من نفسها وهذا ما لا يرضاه لها إلا أعداؤها . وأن الخلافة لم تنفصل عن السلطنة إلا لما كان الإسلام ضعيفاً مشتتاً وكانت عزوات التتار ينلوا بعضها بعضها وكان الاشتقاق قد تماخض بين الامارات الاسلامية ، ولكن لما ظهرت الدولة العثمانية بظهر القوة واهتزت بثقوتها الجيدة إخضاعها للأمم استنحت لكونها أسمى دول الاسلام هيبه وأعظمها صوة حينئذ أن تكون الخلافة والسلطة في قبضة يدها ، فاذ ما انفصلت الخلافة عن السلطة فيكون ذلك ابتداء موت الدولة العثمانية لأن حياتها تتوقف على تقربها بين الأمم الاسلامية

لتميز شوكتها وشد أزرها . وقال : إن الفصل يقضى على الدولة . والجامعة الإسلامية لا تتم إلا بتقوية دعائم للمالك الإسلامية . وإقامة أخرى خطيرة حول فصل الإسلام عن العروبة والدين عن الدولة والمجتمع تكشف عنه كتابات المقطم في هذه الفترة وإلحاحه على تعميق هذا المفهوم والدعوة إليه ومن نماذج ذلك قوله : يجب على الخاصة منا أن يملوا العامة التمييز بين الدين ودين الدولة لأن هذا التمييز أصبح من أعظم مقتضيات الزمان والمكان اللذين نحن فيهما فإذا لم تدركه هامتنا كان الخطر محيطاً أبداً بمخاضتنا .

لو سألت هامتنا اليوم هذه لوجدتهم يعتقدون أن الدين لا يقوم إلا بالدولة والدولة لا تقوم إلا بالدين وكلاهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، وهذا خطأ مبين لأن الغرض المقصود من الدولة والغاية التي تسعى إليها في زماننا هذا هي غاية دنيوية محضتها وهي تأمين الناس على أرزاقهم . أما الدين فالغاية المقصودة منه واحدة على اختلاف الزمان والمكان وهي صلاح الناس في هذه الدنيا حتى يدخلوا جنات النعيم في الآخرة ، فهو الصلة بين الأفراد الذين يدينون به وبين خالقهم ولكل إنسان دينه ، ولقد واجه المفكرون المسلمون هذه المغالطة الواضحة في تصوير الإسلام في العالم الإسلامي وفق مفهوم الغرب للمسيحية الغربية ، على أساس القول المضلل بأن الإسلام دين لاهوتي خاص بالعلاقة بين الله والإنسان ودحض هذه الشبهة بالقول بأن الإسلام دين ودوة ، ونظام مجتمع ومنهج حياة وأن محاولة تفريقه من مفهومه الأصل حرب عليه يراد بها تسميحه أو ضربه في أقوى مقدراته وأعظمها : والذي يعيننا اليوم بمد هذا الوقت الطويل المار منذ ١٨٩٩ حتى ١٩٢٤ عندما أقيمت الخلافة الإسلامية أن مصطفى كمال أتاتورك لم يسقط الخلافة مرة واحدة ولكنه فصل أولاً بين السلطة السياسية والسلطة الدينية وأقام خليفة روحاني على نمط البابوية . وكان ذلك تطبيقاً لهذه الارهاصات التي سبقته بأكثر من ربع قرن وكذلك قام عالم من الأزهر مثل الشيخ علي عبد الرازق فردد ما ذكرته المقطم ورجاها خريجي معاهد الرسائل التبشيرية في لبنان ودعاة الاستشراق والماسونية وفق مخططات اليهودية العالمية . جاء الشيخ علي عبد الرازق في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) فردد هذه القرية الكاذبة وأدعى أن الإسلام نظام روحي لاصلة له بالملك ولا بالحكم ولا بتنظيم المجتمع أو السياسة . ومن ثم وضع جرثومة خطيرة عاد المستشرقون بعدها ودعاة التفريب والفاطون من المسلمين يرددونها على أنها مذهب إسلامي ما دام قد أهله رجل من الأزهر ومن سن سنة خبيثة فعليه وزوها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة . ولقد تصدى الشيخ مصطفى

صبرى شيخ الاسلام السابق للدولة العثمانية إلى خطة مصطفى كمال بإلغاء الخلافة الزمنية وإقامة الخلافة الروحية بكتاب ضخم هام عنوانه (النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة) تصدى فيه لهذا الانحراف في الفصل بين الدين والدولة ، وتصور الاسلام على هيئة السكينة والبابوية من هزل السلطة المدنية من السلطة الروحية ، كما ظهرت كتب كثيرة بعد إلغاء الخلافة في الرد على ما أثاره كتاب تركيا السكاليه وهى عبد الرازق من تفسير خاطئ للإسلام الجامع بين الدين والدنيا وبين اللاهوت ونظام المجتمع .

(٣)

ولا شك أن إلغاء الخلافة كافٍ من أعظم المنجزات التى حققتها اليهودية العالمية والاستعمار من أجل القضاء على وحدة المسلمين ، وكان مصطفى كمال أتاتورك المتفد لها بعد أن عاشت فكرة تتردد على الألسنة والصحف مبيداً لتحقيقها سنوات طويلة . وقد ذاعت هذه الأقوال عن الفصل بين الخلافة والسلطنة في أيام السلطان عبد الحميد ثم ترددت في أيام الاتحاديين حتى جاء مصطفى كمال فحققها . وقد أشارت جريدة الأهرام عام ١٩٣٤ بعد إلغاء الخلافة إلى هذا المعنى حين قالت : إن ما نراه اليوم من إلغاء الخلافة والاتحاد وطردها آل عثمان ليس ابن ساهته بل نتيجة لمقدمه سياستهم منذ عام ١٩١٠ وقد رد ذلك مصطفى كمال قبل أن يقدم بخطواته تلك في تصريحات متعددة منها قوله : إننا هازمون على أن ندرس بأقدامنا وناسف كل مواقع وحوائل في طريقنا التى تذهب بنا من الشرق الذى ودعناه إلى الغرب الذى يعمناه حتى إن « التفریب » لا يقتصر على شئوننا الرسمية وقوانيننا بل ستكون أدمقنا وعقليتنا أيضاً غريبه بعته ولا جالجه لنا بعد الآن إلى قيام الخلافة والوزارة الشرعية والمدارس الدينية .

وقد كشف مصطفى صبرى العلاقة الوثيقة بين الاتحائيين والسكاليين ، فقال : ان عدم التفرقة بين السكاليين والاتحاديين هو الحق الذى لا شبهة فيه لنا ولا لأحد يتمر فهمان قريب ، وقد تسدوا إلى نهاية الحرب الكبرى بعنوان الاتحاد والترقى ، وبعد الهدنة جمعوا شملهم في حاشية مصطفى كمال فتسموا بالقوى المليية والسكاليين وجمعية مدافعة الحقوق وتناشوا اسم الاتحاد وتناكروا وهم بأهينهم ثم قال : ولا فرق بينهما أيضاً من حيث المبدأ : فكلاهما متفق في نزع السلطة عن الخلفاء والسلطين ومنعها لصناديدهم تحت شارة منحها للأمة ، وكلاهما لا ديني يترأى للناس نراه بوجه طورانى متمصب

الجنسية وتارة بنقحات البلشفة ، وكلاهما مولع بالحرب والقهر وطرائق المرح والمزج وكلاهما خاض في غمرات الظلمة والبغي وإن تميزت حقوقهما بسياسة الشدة التدمير .

ويلم الله وكل واحد في تركيا أن غيرهما (يقصد السلطان عبد الحميد) لم يأت بمشروع من مشاريع ما أتيا به من الشدة والتعسف . وصفوة القول أن السكاليين ليسوا بأخيار الاتحاديين وأن النهضة السكالية مرتبة ومديرة لإحياء مبادئ الاتحاديين بل لإحياء أشخاصهم الذين كانوا قد ماتوا عندما أقاموا الدولة العثمانية الكبرى في الحرب العالمية (الأولى) وأن الاتحاديين الذين هدسوا الأميراطورية العثمانية على ما اعترف به لدى السكاليين لو لم يكن السكاليون منهم ومعهم في أفصال الهدم على ما بينا ثم لم يزدوا عليهم بهدم الخلافة الإسلامية أيضاً . وأشار الشيخ مصطفى صبري إلى الاتحاديين هم الذين أوقعوا نار الحرب في داخل المملكة وبين عناصرها من ألبانها وأكرادها وشراكستها وهربها بل وتركها . وبدلوا في عشر سنين أكثر من عشرة أصدقاء وأعداء لهم من الدول حتى دخلوا الحرب الكبرى من غير ضرورة وغلبوا فيها إلى أن ملأوا الآستانة وهي عاصمة الأميراطورية بأيديهم إلى عساكر الأعداء ، ويكفي في هذا الصدد أن نشير إلى ما أورده حسين لببيب في كتابه تاريخ المسألة الشرقية حين قال : يكفى أن الدولة العثمانية في عهد الاتحاديين بدخلها الحرب العالمية قد فقدت مليون رجل بين قنيل وجريج وأسير . وأنها خسرت خمسة آلاف مليون جنيه ، ويردد مصطفى صبري الحقيقة القائلة بأن خلع السلطان عبد الحميد كان جزءاً من مؤامرة اغتصاب فلسطين وأن ذلك لم يكن ممكناً إلا بانحلال الأميراطورية العثمانية وأن اليهود شوخوا سيرة عبد الحميد وشنعوا به وجلزت فرينهم على المسلمين مع أن الرجل كان يقاوم التنظيم النيابية لأن الداعين إليها كانوا مجموعة من ملاحدة الفرنجة الواقفين في أحابيل الصهيونية العالمية . وأشار إلى أن السكاليين والاتحاديين ليسوا سوى حزب واحد وأنه ليس بينهم خلاف على المبادئ ولكنه خلاف شخصي مبني للتنافس على الزعامة وهم المستولون من ضياع الأميراطورية العثمانية منذ وضعوا أيديهم على الدولة بعد خلع عبد الحميد . ويرى الشيخ مصطفى صبري أن الانجليز تشددوا في معاملة السلطان وحيد الدين حتى أجهزوه ثم تساهلوا ببعض ذلك مع مصطفى كمال ليجمعوا منه بطلا فمظلم فتنته في أبصار المسلمين وبصائرهم ، والرجل من لا تجد الانجليز مثله ، فأوجدت في طلبه من حيث أن يهدم من ماديات الإسلام ومن أدبياته في يوم مالا يهدم الانجليز أنفسهم في عام فلما ثبتت كفايته وقهرته من هذه الجهات استخلفته لنفسها وانصعبت من بلادنا ، وآية ذلك أن مصطفى كمال عنه ما حضرته الوفاة اقترح أن يكون السفير البريطاني في تركيا رئيساً للجمهورية بدلاً منه . ولا شك أن

قبول مصطفى كمال لرفبات القوى الاستعمارية في لوزان في بروكول مري لالغاء الخلافة وهمدم الاسلام هو الذى سهل له كل الأمور حتى أعلن مندوبيهم (رضا نور) أن الفرض من فصل السلطنة عن الخلافة هو إلغاء الخلافة وإبطالها على التدرج . وأشار مصطفى صبرى إلى أنه من طبيعة الاتحاديين والكياليين أن لا يجدوا من الدين « (الاسلام) ما يحول بينهم وبين ما يرون تحقيقه فالدين يمنهم من طغيانهم وعدوانهم ، فهو مانع يمنهم من حريتهم واستعبادهم ، وإن موقف الدين في عاصمة تركيا لسنوات كان غريباً في وطنه عند أبنائه الذين تربوا بلبان المعارف الأوروبية ولا سيما بعد تشككهم إلى شكل سياسى يرى إلى هدف معين ظاهرهم الاتحاديون وباطنهم البناؤون الأحرار .

(٤)

أن إلغاء الخلافة الاسلامية كان أسراً مقررأ منذ اليوم الأول للاقلاب العثمانى الذى قام بإسقاطه السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ ولكنه نفذ على مراحل واتخذت إجراءاته واحدة بعد أخرى حتى تم تنفيذه على يد مصطفى كمال عام ١٩٢٤ بعد أن أسقط الخلافة الزمنية وأقام بدلاً منها خلافة منفصلة عن السلطنة توطئة للأجهاز عليها جملة .

وفي خلال هذه الفترة أفند الكياليون الكثير من التعليقات والتبريرات وفي مقدمتها كتاب (خلافت وحاكيت مليه) الذى نشرته الحكومة التركية بدون توقيع شأنها في ذلك شأن إصدارها من كتاب (قوم جديد) . ولقد اعتمد على هذا الكتاب الشيخ على عبد الرازق اعتماداً كلياً عندما وضع كتابه (الإسلام وأصول الحكم) الذى قصد في للفزى السياسى محاربة المحاولة التى قام بها للالك فؤاد للتناداة به خليفة المسلمين تحقيقاً لهدف بريطانيا التى كانت من وراء معارضة حزب الأحرار الدستوريين ، هذه للمارضة التى أرادت أن تتخذ لها أسلوباً أقرب إلى الطابع العلمى الفقهى فاصطنعت أحد رجالها في هذا الصدد . غير أن هذا الكتاب أثار بادرة خطيرة وفتق فتقا جديدا في تحريف مفاهيم الإسلام والتعرض بالغلط والخطأ لقاعدة ضخمة أساسية من قواعد الإسلام وعنده الأصيلة وهى قاعدة فصل الدين عن الدولة أولى ركائز الإسلام المخالفة به وللتميز من الأديان الأخرى التى أقرت هنا للمنى واعتمدته نتيجة لطابع دينها . فليست الأهمية هنا في القول بالخلافة كنظام ولكن الأهمية في القول بالقاعدة الإسلامية الكبرى التى تعد معارضتها أو محاولة النيل منها أو إلغائها تحريفاً خطيراً متعمداً لأصل من أصول الإسلام . ولقد كان من آثار هذا الكتاب أن وجد

للمشركون وللبشرى ودعاة التغريب تسكأة خطيرة اعتمدوا عليها بعد ذلك فى مباحثهم ، مزقت الجبهة الإسلامية الفقهية للوحدة بالقول بأن هناك رأيين : أحدهما يرى أن الإسلام دين ودولة والأخرى يرى أن الإسلام ديناً روحانياً خالصاً وهو الرأى الزائف للتخرف عن الأصول الأصيلة والذى قال به على عبد الرازق وحمل تبعته وتبعة من سار وراءه أو حاول الاعتماد عليه . وهذا هو السر فى ذلك الاهتمام البالغ والتقدير العجيب الذى يحيط به خصوم الفكر الإسلامى هذا الكتاب الذى ليس من المنهج العلمى أو الحقيقة للنزعة من لدن الله فى شىء وقد أكد العلماء والباحثون خطأ ما ذهب إليه على عبد الرازق ووصف هذا العمل السيد محمد رشيد رضا بأنه هدم لحكم الإسلام وشرعه من أساسه وتفريق لجباهته وإباحة مطلقة لعصيان الله ورسوله فى جميع الأحكام الشرعية الدنيوية من شخصية وسياسية ومدنية وجنائية وتجهيل للمسلمين كافة من الصحابة والتابعين وأنه يخالف لما لا يحصى من النصوص القطعية المجمع عليها للملومة من الدين بالضرورة .

وأن جل مادته من بعض كتب الافرنج التى كتبوها عن الخلافة وأنه مادته مجموعة من كتب لا تمت إلى الفقه الإسلامى بصلة مثل كتاب الأغانى وكتاب العقد الفريد ولم يكن منها صحيح البخارى ولا صحيح مسلم ولا موطأ مالك ولا مسند أحمد ولا شىء من كتب السنن وقد أجمع علماء المسلمين على أن كتاب على عبد الرازق قد جانب الواقع والحق والشرع فى سبعة مواضع : (الأول) جعل الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ فى أمور الدنيا . (الثانى) وأن الدين لا يمنع من أن جهاد النبى صلى الله عليه وسلم كان فى سبيل الملك لا فى سبيل الدين ولا لا بلاغ الدهوة إلى العالمين . (الثالث) وأن نظام الملك فى عهد النبى كان موضوع غموض وإبهام واضطراب وموجبا للحيرة .

(الرابع) أن مهمة النبى كانت بلاغا للشريعة مجردا من الحكم والتنفيذ (الخامس) إنكار إجماع الصحابة على وجوب تنصيب الامام وعلى أنه لا بد للأمة من يقوم بأمرها فى الدين والدنيا . (السادس) إنكار أن القضاء وظيفه شرعية . (السابع) أن حكومة أبى بكر والخلفاء الراشدين من بعده رضى الله عنهم كانت لادينية .

(٢٨)

الدعوة الإقليمية المصرية

كانت مصر ممدة بعد الحرب العالمية الأولى لأن تسير في التيار للمصرى الوطنى لتنفصل عن العروبة والجامعة الاسلامية من الناحية السياسية وعن الاسلام فكرياً وهقيدة من الناحية الأخرى . فقد سقط الحزب الوطنى قبل الحرب وكان يحمل لواء الوطنية المصرية ذات الانحاء العربى والارتباط بالجامعة الاسلامية والخلافة العثمانية وقد واجه هذا الانحاء حلة ضخمة في السنوات السابقة للحرب ومن أجل ذلك كان إنشاء حزب الأمة وصدر الجريدة وتصدر لطفي السيد الدعوة للمصرية التى وصلت إلى أهلى صور الاقليمية بالدعوة إلى تمخير اللغة والتعليم والتى هاجمت الانحاء العربى والفكر الاسلامى هجومياً شديداً حتى وصف لطفي السيد بأنه العدو الأكبر للجامعة الاسلامية والعروبة . كان التخطيط الاستعماري يهدف إلى عزل مصر عن الدعوة العربية التى كانت قد تحركت في سنوات الحرب لاقامة دولة عربية من الحجاز وسوريا وقد اهتمت هذه الدعوة « مصر » خارج نطاق العروبة . وكانت الدعوة الوطنية قد أخذت تولى من شأن الفرعونية كرد فعل على إتهام الاستعمار بمصر بأنها ليست أمة ، وأنها كانت محتلة بالرومان وغير الرومان على تاريخها الطويل كما اتخذت مصر منذ إحتلالها مركزاً لقطوريانيين والأنهاديين خصوم السلطان عبد الحميد وكانت صحافة مصر التى يصدرها خريجو معاهد الارشاليات التبشيرية في لبنان قد قادت حركة فكرية تحمل طابع العزلة السكامة لمصر عن الدولة العثمانية وعن العروبة ، ثم جاءت كشوف الحفريات الفرعونية مادة جديدة لاهلاء شأن الاقليمية للمصرية ذات الماضى الفرعونى .

تولى الحسك في مصر خلفاء حزب الأمة وكان سعد زغلول ولطفي السيد هما أبرز قادة الفكر والسياسة في هذا المجتمع الجديد وما المؤهلين منذ عام ١٩٠٧ لهذه القيادة حينما اختير لطفي السيد لقيادة أكبر مجلة صحفية نحو مصر للمصريين وفصل مصر عن العروبة والاسلام جميعاً وكان سعد زغلول هو ناظر المعارف الذى حمل لواء الدفاع عن اللغة الانجليزية ، وكان كلاماً من أولياء النظرية التى رسمها كرومر في تقاريره وجماعها هقيدة للحكم المصرى المقبل ، لتبنى قادة مصر على أساسها وهى تقوم أساساً على . (أولاً) خلق طبقة من المصريين المنفرجين والمستغربين من الوجهة الأوروبية والمدنية الحديثة ، هؤلاء وصفهم كرومر بأنهم « جديرون بكل تشييط ومعونة وهم في تقدير الخلفاء

الأوربي المصلح ، وم حزب يبنى وطنه ويبني دينه ولكن ليس على صيغة الدعوة الإسلامية وم يساهدون الأجانب على إدخال القذم العربي إلى البلاد .

(ثالثاً) إنهم يعملون على كسب التقدم الدستوري بطرق معتدلة ويدعون إلى تحقيق الأمانى الوطنية بالتفاق يحدث بين الاحتلال وأهليان المصريين وحدهم لأنهم أصحاب المصالح الحقيقية . (ثالثاً) إنهم يؤمنون بما يؤمن به كروم من أن المسلمين لا يمكنهم أن يرقوا في سلم الحضارة والتجديد إلا بعد أن يتركوا دينهم ويلبذوا القرآن وأوامر ظهرياً لأنه يأمرهم بالتحول والتعصب ويبت فيه روح البغض لمن يخالفهم وأن القرآن هو العقيدة الكؤود في سبيل رقى الأمة وإن الإسلام يناهض مدينة العصر (رابعاً) تنمية الوطنية المصرية بعيداً عن دائرة الجامعة الإسلامية والعروبة وفي نطاق الفكر الأوربي الليبرالى في مجال السباسبية والتربية وانشاء حكومة تنفصل فيها السباسبية عن الدين تماماً . وإذا كان النظام السباسبى فى مصر خلال ما بين الحربين قد تشكل من خلال « الوفد المصرى » بقيادة سعد زغلول وانقسم إلى عدد من الأحزاب أو الزعماء المستقلين فإن هذه الأحزاب على ما بلغت من خلاف ومراع كانت تتبنى هذه الأفكار وتفصل فصلاً واضحاً بين مصر والعروبة وبين مصر والإسلام وبين العروبة والإسلام وتقيم منهجها السباسبى على أساس الفكر الليبرالى الغربى العلمانى مع الاحتفاظ ببعض المظاهر الإسلامية التى كانت تستمد وجودها من مفهوم عربى أيضاً — وليس مفهوماً إسلامياً — وهو أن الإسلام دين وعبادة ومساجد وهو مادة فى الدستور تعطى مظهرأ إسلامياً فى الأعياد والمناسبات فحسب . أما فهم الإسلام على حقيقته : نظام مجتمع ومنهج حياة فقد كان ذلك مما انفقت الأحزاب جميعاً على إيماده ، فضلاً عن الانباء العربى أو الوحدة الإسلامية . غير أن حركة اليقظة الإسلامية التى كانت مصر قاهدة هامة من أبرز قواهدا وهي التى كانت تمثل الكيان الاجتماعى للأمة فقد كانت تحمل لواء هذه المفاهيم وتدعو إليها وتؤكد ترابط العروبة والإسلام . وفى خلال هذه المرحلة انسمت حركة التبشير وأحدثت إرتباطاً كبيراً فى أفق المجتمع الإسلامى المصرى كان له ضجيج ضخم ، وكان من العوامل القوية فى إعادة تشكيل الفكر الإسلامى ودفع حركة اليقظة العربية الإسلامية إلى الأمام خطوات .

وقد ركز التبشير تركيزاً كبيراً على مصر بعد الحرب الأولى على أساس إن مصر هى مركز الثقل فى العالم العربى كله وكل ما يثار فيها من تيارات إنما يكون عاملاً هاماً للتأثير على مختلف الأجزاء . وكان لمعاهدة ليران التى عقدت عام ١٩٢٩ بين السكوسى اليابوى والحكومة الإيطالية والى حصلت

القائمان بموجبهما على تعويض ضخم (مئات الألوف من الجنيهات) أعلن أن الجانب الأكبر منه سيوجه إلى دعم الحركة التبشيرية، كان لهذه للماهدة أثرها الواضح فإنه لم تسكد نمى على ذلك شهور معدودة حتى اجتاحت مصر والسودان حملة تبشيرية ضخمة من طريق بعض الممهاد الكبرى للرساليات وبعض مستشفياتها، ولم تلبث أن كشفت الحركة عن أحداث خطيرة وكان الهدف هو إضعاف منويات الشعب بأضفاف عقيدته. وقد تبين من إضعاف مؤتمرات التبشير بعد الحرب الأولى أن خطوات جديدة قد اتخذت وأن تحولاً أخطر قد أخذ طريقه إلى مجال العمل التبشيري، فقد كشفت التقارير على أن هدف التبشير ليس إدخال المسلمين في دين آخر، وإنما هو إخراج المسلمين من دينهم فيصبحوا لادنيين ومادى الفكر بذلك يسرى فيهم الإلحلال وتتحطم مقومات الفكر الإسلامى وقيمه من ناحية التطبيق على الناس، وتغلب طابع التفرغ الذى يقضى على الذاتية الإسلامية والشخصية العربية.

وكان تركيز الاستعمار عن طريق التبشير إلى دعم «الاقليمية» والدفاع عن «الفرهونية» التابعية وإعلاء شأنها وإذاعة تاريخها والدفاع عن «العامية» وضرب اللغة العربية الفصحى بها والدفاع عن النظام الليبرالى الغربى والحضارة الغربية وإثارة الشبهات حول الإسلام وتاريخه وأبطاله والنهوى من شأنه في مجال الحضارة أو الفكر أو الاجتماع وذلك كله لدعم الاقليمية والقضاء على الترابط الجنرى بين العروبة والإسلام وحتى تظل مصر معزولة عن كل حركات العروبة أو الجامعة الإسلامية وتبقى تحت شكلها الفرعونى الموهوم وارتفع في هذه الفترة صوت الصحف الكبرى (كألأهرام والمقطم) والمجلات البارزة كالللال والسياسة الأسبوعية إلى الفرهونية والمصرية والالميمية واجتاحت البلاد حركة ضخمة من حركات التبشير بالتاريخ الوثنى القديم، والفرهونية. ولقد واجه دعاة اليقظة العربية الإسلامية هذه الحركة مواجهة حاسمة: وعملوا في ميدانين متكاملين: (أولاً) الكشف عن فساد دهوة الفرهونية والاقليمية والتركيز على عروبة مصر. (ثانياً) دعم الترابط الجنرى بين العروبة والإسلام وتأكيذ الرابطة الإسلامية بين العرب والمسلمين. غير أن الدهوة الفرهونية لم تلبث أن اصطدمت بالواقع وانكشف أنها لا تستطيع أن تفرض وجوداً فكرياً لأنها لا تحمل تراثاً تاريخياً ولا ترتبط بالمصريين في العصر الحديث بأى رابط من اللغة أو الفكر أو العقائد. وكان لأصالة الفكر الإسلامى في مصر وعق الانتهاء العربى الإسلامى أثره في القضاء على هذه الموجة التى انهارت عندما طلعت أضواء الحقائق. وقد وازت هذه الدهوة في مصر دهوات أخرى في سوريا ولبنان والعراق والمغرب غير أن أكثر هذه الدهوات تمكنا من البقاء هي الفيليقية في لبنان ولذلك أسباب واضحة

هي وجود ركائز من المسيحيين المارونيين الحريصين على أن يجمعوا من هذه الدهوة سناداً فلسفياً للمزلة من الأمة العربية وعن الرابطة الإسلامية الجامعة ولقد كانت لبنان قد ركزت على هذا الاتجاه منذ وقت طويل وعمقته ، فلم تكن موجة الفيليقية إلا غلغلاً مؤقتاً لحقيقة واقعة .

(٢٩)

الفيليقية اللبنانية

إن مخطط تمزيق العالم الإسلامي عامة والدولة العثمانية خاصة قد رسمت له خطة سياسية وخطة عسكرية عقائدية ، اهتمت الأولى على إثارة انخلافات والمؤامرات وتحريك الأحداث على النحو الذي يحقق الفصل والتجزئة على النحو الذي حدث في إثارة فرنسا وإنجلترا للمنصرين المتعاضدين في لبنان منذ مئات السنين وذلك تمهيداً لعزل هذا الجزء من الدولة العثمانية وإعلان نظام خاص به وتأهيله لأداء دوره الخطير في حركة تمزيق الدولة العثمانية والجامعة الإسلامية وما أطلق عليه من تعبیر الوحدة العربية . ولكي يتحقق هذا المخطط ويصل إلى غايته فإن لبنان هي التي تقود حركة الإرساليات التبشيرية ومعاهدها الفرنسية والأمريكية الضخمة على اختلاف ما بينهما من اتجاهات ولكنها تتجمع في بؤرة إبعاد العالم العربي بحد انفصاله عن الدولة العثمانية ليسكون واقعاً تحت تأثير الفسك الغربي ويكون خريجاً هذه المعاهد بمثابة الطلائع والقيادات السياسية والفكرية للبلاد العربية . وقد تحقق ذلك في سرعة غريبة بتخريج جماعة المقطم والأهرام والحلال في مصر وكان لهم دورهم الخطير في عملية التفریب وفي تمزيق وحدة العروبة والإسلام .

وبعد سقوط الدولة العثمانية ١٩١٨ وانتهاء المرحلة الأولى من عمل هذا المركز الحيوى الخطير ، كانت هناك مرحلة أكبر أهمية وخطراً ، استتبعت تحويل لبنان الصغير إلى لبنان الكبير بضم أربع ولايات من سوريا إليه وتشكيله على نحو جديد متوازن ، القوة المليافية الطائفة المارونية وبقية مراکز النفوذ موزعة بين المنة والشيعية من المسلمين على نحو يجعل دائماً ميزان القيادة السياسي والفكرى بأيدي القوى الكاثوليكية المسيحية وأكبرها المارون ، هذه القوى ذات الروابط العميقة البعيدة منذ مئات السنين مع كنيسة روما ومع فرنسا ومع الساحل الأوربي تجارة وثقافة . وكان لا بد أن يصاغ هذا السكيان اللبناني صياغة فلسفية قوية تجعله قادراً على الدفاع عن نفسه في مواجهة الأحداث والدهوات وخاصة في مواجهه النفطة العربية الإسلامية والعروبة بالذات بحيث يظل

متغلغلا على نفسه ازاء الدهوات والحركات قادراً على القيام بدوره المؤهل له والذي بات يوصف بأنه السائر في طليعة البلدان العربية في حل لواء النهضة العربية الحديثة من أوائل القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا . وهو دور لا يقره الكثيرون على هذا النحو ولا يعترفون به قائداً أو رائداً وربما وصف بأنه أقوى مرا كز التوجيه الغربي أو قيادة الفز والثقافى والتغريب وحل جميع جرائم الشبهات والتحديات التى حاولت اشاعة اللبلة والخطأ فى وجه الفكر الإسلامى ، والتاريخ والافة العربية والترات والفقه والقرآن . ولا ريب أن حركة اليقظة العربية الإسلامية ذات الجذور العميقة فى نمو الفكر والثقافة الإسلاميين ونحريرها من الجلود القديم والتبعية الغربية هى صاحبه الدور الأصيل فى العمل فى العالم الإسلامى كله وهى امتداد طبيعى لفكر الاسلامى الذى يستمد مناهجه من المنابع الأصيلة ويرتبط أساساً بالقرآن والتوحيد الخالص .

ومن هنا فإن الكثيرين لا يقرون هذه الدهوى لقيادة لبنان للفكر العربى أو زعامته أو ما يمكن أن يوصف بأنه دور لها فى الطليعة أو النهضة ، الا اذا وصف دور الارساليات التبشيرية ومعايدها وصحفها ودهاتها بأنه هو وحده العمل الذى يقود النهضة العربية الاسلاميه المعاصرة . ولا نذهب فى ذلك الى القول بما يقول به بعض المنحسمين — وربما يكون بعيداً عن الحقيقة — من أن لبنان قد أرادله الاستجار والنفوذ الغربى واليهوديه العالميه أن يكون رأس جسر خطير للفز ومركز حصين للقضاء على اليقظة العربية الاسلامية الحقيقية ومقوماتها وضربها دوماً بالصحف والكتيب والدهوات والمذاهب التى تظهر فى ورقى برافى لامع وضجيج كثير .

ذلك أن الدهوة التى تحملها إرساليات التبشير فى لبنان وتنثرها على العالم الإسلامى كله وتحاول أن تجعلها عقيدة يعتنقها العرب والمسلمون من خلال احتضانهم للدهوات القومية واليهودية والديمقراطية وغيرها ترمى إلى هدف واحد هو عزل العربيه عن الإسلام وتعميق الهوة بين المجتمع العربى الإسلامى وأقوى عناصر وجوده قوة وأعماقها جذوراً وهو الإسلام وذلك عن طريق كثير مما يروجون له من الدهوة إلى القومية العلمانية أو اعتناق الحضارة الغربية أو الدعوة إلى وحدة الثقافة العالمية أو فصل الدين عن الدولة أو إثارة الخلافات بين العناصر والأديان والمذاهب المختلفة التى كانت مؤلفة موحدة فى إخوانه وصدق قبل أن تصل إلى العالم الإسلامى طلائع الفزاة ومعهم المستشرقون والإرساليات . لقد رسمت مخططات الفز والتفريق ما سمى بالسكيان اللبنانى على هذا النحو السياسى الذى تم بفصل لبنان منذ ١٨٦٠ وجعله مركزاً للإرساليات ثم بخلق لبنان الكبير بعد الحرب العالمية الأولى وارتفاع الصيغة الفلسفية للقائمة بأن لبنان كيان خاص قائم على أساس أمة ليست من جنس

العرب ولا يشتركون معهم في شيء إلا في اللغة. ولقد استطارت هذه الدهوة بعد الحرب باسم الفينيقية ووضع لها المستشرقون الفرنسيون أيديولوجيتها كما وضع غيرهم من قبل فلسفة الطورانية وذلك من خلال شبكة الماسونية العالمية التي أهدت مع الإستعمار النموذج « البديل » الذي يقدم للشعوب والأمم في نفس الوقت الذي ينتزع منها « الواقع الأصيل » ولقد كانت الخطأ أن يكون البديل هو مبدأ القوميات ذات الطابع الغربي القائم على العداوة والصراع والاستعلاء بالمنصر والدم والقوم بديلاً عن الوحدة العربية الإسلامية السائدة الجامعة التي كانت تنظم المسلمين والعرب ، ولقد دفعت هذه القوى الانحاديين في الدولة العثمانية لرفع لواء الطورانية التي كانت تتفق مع طبيعة المشفقين الأتراك الذين كانوا قد جردوا من ثقافتهم الإسلامية وغمسوا في ثقافات الثورة الفرنسية وخاصة أوجست كونت ودينه الذي تمبده غير واحد من كبارهم مثل أحمد رضا وكذلك صنعت الإرساليات في لبنان عقلية جديدة منكرة للمفكر الإسلامي ، قد شجنت بالتمصب والكراهية والحقد على العرب والمسلمين ودهيت إلى الانجاء إلى الفينيقية ، مع الارتباط الغربي القديم : ارتباط الكنيسة والثقافة والتجارة ، وقامت الدهوة إلى ثقافة البحر المتوسط الجامعة بين لبنان وفرنسا .

ولم يتوقف لبنان عند اعتناق هذه النظرية لنفسه ، بل أصبح داعياً للعرب جميعاً ولجميع من يرد موارد الإرساليات إلى حل لواء أمرين : (الأول) إحياء المنصرية البائدة القديمة من فينيقية وكلدانية وكنعانية وحيثية وأشورية وآرامية وفرعونية وذلك لاتضاء على الواقع الفكري العربي الإسلامي المسيطر والمشكل للعرب والمسلمين خلال أربعة عشر قرناً رغبة في إزاحته وتجزئته — والثاني : الولاء لفكر الغربي ثقافته وبطولاته وتاريخه ولغته والإشادة بهظمته. وقد وصل هذا الأمر إلى حد استطيع أنه أن نروي هذه الواقعة : يقول السيد محب الدين الخطيب : لما كنت تلميذاً في السنة الأخيرة من مدرسة بيروت الثانوية الأميرية التحق بمدرسة تسمى من أمراء آل شهاب اللبنانيين تلم على يد الكاثوليك الفرنسيين في مدرسة قرية (عين طورا) فكان يسمى بيت الخلاء (سبارك) وكان إذا ارتفعت الزاوية الفرنسية على الانفصلية الفرنسية يوم الأحد يأخذ بيدي فيضعها على قلبه ويقول لي : — ألا تحس بقايي كيف يخفق مع خفقاتها في الهواء . وكان له شعر بالفرنسية يتمنى أمثاله من أبناء سنة الفرنسيين لو يكون لهم مثله وكان أشد تعلقاً بفرنسا وأدبها ودينها واستعمارها من أي قسيس فرنسي . وهكذا صنع الفرنسيون بلبنان منذ الاحتلال الفرنسي بعد الحرب العالمية الأولى من أجل إعداده ليكون مركزاً لتنفيذ الفكري الغربي قائماً لحركة الغزو الفكري في الوطن العربي كله .

(٢)

والدهوة إلى السكان اللبناني المخلص تحمل طابع الأقلية اللبنانية، ذات الماضي الفينيقي، والحاضر القريب المخلص، وهي قومية تقوم على الطائفية، وتعتمد على وجود طائفة نصرانية مارونية كبرى في لبنان بالإضافة إلى طائفة كاثوليكية غير مارونية كبيرة العدد بشكلان مما مظهرًا طائفيًا ضخمًا، مسيطرًا على كل أوجه النشاط السياسي والاجتماعي والثقافي. وتقول الأيدولوجية اللبنانية أن اللبنانيين ليسوا من حيث الجنس عربًا بل فينيقيين أما حضارتهم فهي حضارة البحر المتوسط، وهم لا يمتنون للعرب بصلة ولا قرى إلا بالغة، وقد كانت الدهوة موجودة منذ ١٨٦٠ وربتها الاتصالات ونمتها بالحديث عن الروابط بين الصليبيين واللبنانيين ثم هيئت لأن تصرح على أفق واسع بعد الحرب وفي قدر مشترك مع الفرعونية في مصر والطورانية الجديدة في تركيا. فقد أقامت فرنسا الكبير وضمت أربعة مناطق من سورية إلى لبنان وجعلت من المتوسطية دعامه للفينيقية. وقد كتب منهج هذه الفكر من بعد : أسد رستم وفؤاد اقرايم البستاني. ويقوم طابع لبنان الماضي على أساس الدهوة إلى انفصاله عن البلاد العربية والاشادة بطامة الفينيقية والنقنى بأجدادهم، وقد جرى ذلك الاتجاه وعمق في كتابات سعيد عقل وأخيه (قدموس) والدهوة إلى بحث العامة اللبنانية واتخذها أداة للكتابة ولقد لقيت الفكرة نجاحًا في أوساط معينة كلمها من المثقفين الفرنسيين وخريجي المدارس اليسوعية وكانت الدهوة تركز على أن اللبنانيين لهم قبة هي «المتوسط والغرب» بينما لغبرهم قبة هي الصحراء والشرق.

وقد جرت هذه الدهوة في إطار الدهوة إلى الأقلية والقوميات القامة على المنصرية والجلوس ولكنها ركزت في لبنان على تاريخ قديم أهدت تشكيلة من جديد بحيث يرضى غرور النفس اللبنانية وبشكل منها فكرا كاملا يمتد من الفينيقية إلى الغرب على أساس الربط بين الحضارات القديمة التي قامت على شواطئ البحر الأبيض المتوسط في شواطئ الجنوبية والشمالية، وقد رسمت مؤلفات كثيرة من للسفشرين صورة زائفة ترمي إلى القول بأن لبنان واليونان قد ترابطا في حضارة قديمة قبل للسيحية ثم جاءت للسيحية فربطت بين لبنان وروما، وبين الكنيسة الكاثوليكية ولبنان. والواقع أن هذه المحاولة الفيليقية الاقليمية إنما كانت مخططاً مرسومًا لازل لبنان عن الترابط العربي الإسلامي وقد أشار إلى ذلك عدد من الباحثين، فنقد سيطرت فرنسا على لبنان بدأت تعمل على تكريس الطائفية بحجة المحافظة على التوازن الطائفي ووضعت القواعد والأسس التي لا زالت قائمة حتى اليوم

وأهمها أن تكون الرئاسات الكبرى موزعة على الطوائف حسب أهميتها واعتبار « المروية » حركة معادية للغرب عموماً وأنها تهدف إلى أحياء التقاليد والحضارة الآسيوية لتقف في وجه الإشعاع والتقدم الغربي الذي يحمل لواءه فرنسا وتبشر به بعثاتها الدينية والتعليمية المنتشرة في هذه المناطق والنظر إلى المروية على أنها حركة إسلامية منصفة لذلك يجب أن يقف المسيحيون في وجهها صفّاً واحداً ، وشجعتهم على ذلك البعثات التبشيرية في سوريا ولبنان ، كذلك جرى العمل في مجال الثقافة والتاريخ والكتابة على إغلاء شأن لبنان الوثني والمسيحي والحديث عن هياكل قدموس والزهراد والترابط بين هشتروت وجوبيتر والحديث عن الكنعانيين ومدينة راميثا وترددت أسماء آرام وفينيقيا وباسل وكلداني وسريان ويقصد بها شيء واحد هو الإنساف الذي هاجر من الجزيرة العربية قبل التاريخ وبمعه . وذلك كله من أجل إغلاء شأن اللاهوتي اللبناني للمند إلى الفينيقية والذي كان بعيد الأثر في أوروبا وكيف أنه هاد إلى الترابط مرة أخرى بالغرب والحضارة الغربية والكنيسة الكاثوليكية . ويؤكد أكثر من باحث أن الكيان اللبناني لم يكن بعيداً عن النصيبات الاستعمارية وأنه باستقراء التاريخ اللبناني نجد أن الطائفية لم تدخل لبنان إلا عقب الاستعمار الغربي الذي فرض في منتصف القرن التاسع عشر على لبنان وكانت سياسة فرنسا هي العمل على تشجيع الطائفية في لبنان .

ويقول زكي النقاش : أن اللبنانيين لم يعرفوا الطائفية في عهد المعنيين بالرغم من أنه امتداد قرابة قرنين من الزمان في ظل الحكم العثماني مما يدل صراحة على أن الطائفية إنما جاءت من الخارج على أيدي الإرساليات والتفصليات والسفارات المختلفة . ويرى الدكتور حمدي بدوي أن سياسة لبنان تقوم على جعل لبنان دولة تقوم على التوازن الطائفي على أن يظل الموارة مسيطرين عليها دون أن يكون لبنان مارونياً خالصاً وأن دستور لبنان ١٩٢٦ الذي منحه فرنسا جعل الطائفية نصّاً في الدستور فيما يتعلق بتوزيع المناصب على أساس طائفي . وهذا كله مما يؤكد القول بأن الإقليمية اللبنانية على هذا النحو والتي صنعها الاستعمار الفرنسي قد خلطت بحيث تجعل لبنان بعيداً عن أي ترابط عربي بل أن هذا التخطيط لم يخلق قومية لبنانية بالمعنى المعروف . وفي هذا يقول كمال جنبلاط إن القومية اللبنانية غير موجودة حتى الساعة إلا هذا المفهوم الامتدادي للرباط السياسي والشعوري الجماهي للطوائف المسيحية وهم لا يشدون من وراء تعميم هذه التفكير إلا تركيز لون معين من وجهة الإدارة والسياسة والاقتصاد ، والخطأ الكبير هو للزج والخلط بين المسيحية ولبنان فالواقع اللبناني وجد قبل أن توجد النصرانية ووجد بعدها وانكفاً أمام تيار الفتوحات الإسلامية ويرى محمد هزه دروزة أن صلة لبنان الوثني بالمروية قائمة منذ أقدم الأزمنة حتى الآن وأنها أصيلة فيه ، إذ أن الفينيقيين

دراسة تاريخهم والتهوين من شأن اللغة العربية ، ومن هنا تواصل الطائفية فحديتها على المروية والاسلام وتدهو إلى تمزيق هذه الرابطة وتقف في وجه المروية . وقد حرص الاستعمار على تركيز المتنقضات بين لبنان الطائفي والوحدة العربية بهدف تضييق لبنان من طريق حركة البقطة العربية الاسلامية أو الوحدة العربية وما يزال فكرة لبنان الخالدة ولبنان الأزلي ولبنان السرمدي ، تغذي بكتابات جديدة حتى لا تتوقف ولا تنهار أمام قوة البقطة العربية . وقد فشلت إلى حد كبير فكرة الفيليقية وللتنوسطية وأن بقيت فكرة الطائفية الاقليمية . وبصور نبيه أمين فارس نتائج هذا الفشل فيقول : « وإذا فشل أصحاب هذه المحاولة (الفيليقية للتنوسطية) في جر الكافة إلى حركتهم عادوا إلى العمل بدفهم حقد الهزيمة وخبرة اللبدان إلى جهود جديدة جبارة في سبيل الوصول إلى غايتهم ، وانصرفوا بعد أن أدركوا هتم الهجوم المباشر إلى أساليب غير مباشرة ، فقالوا : بالطابع الخاص وأخذوا يلغفون هذه الفكرة الانتزالية بجذاب العلم والأدب » . ومن أخطر ما ترده الدعوات التبشيرية هو انتقاص دور العرب والمسلمين في الحضارة العالمية ومحاولة تصويرهم على أنهم جزء من حضارة البحر للتنوسط الفيليقية اليونانية القديمة وكأنهم امتداداً لها ولم يزد دورهم على أنهم حلوا إلى الغرب ثقافات الفرس والبيزنطيين والأقباط والنصارى واليهود وضائبة حران الوثنيين ؛ وفي هذا يقول أمين فارس : استولى العرب على ملاحه البحر الأبيض المتوسط غير أن حضارته استولت عليهم فدخلوا في مجراها وصبوا اقتداحاً كانوا قد استقوها من مياه الثقافات الأخرى ولا شك أن هذا ظلم وحطاً مبين ، ذلك أن العرب الذين حملوا رسالة الاسلام لا شك قد قدموا للانسانية فكرياً جديداً وثقافة ذات طابع توحيدى خالص يختلف أشد الاختلاف عن الثقافات التي كان تبشها ولا ريب أن الاسلام قد قدم للانسانية جرعه من أصدق مقومات البشرية في مجال السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية وهي جرعه نفذت بها الحضارة الغربية والفكر الأوروبي الحديث على نحو واضح لاسميه فيه وأبرز معالمه المنهج العلمي التجريبي ومنهج المعرفة الاسلامية القائم على الروح والمادة وهو ما يختلف اختلافاً واضحاً مع منهج الاغريق الوثني ومنهج الضوصيه الشرقية القائم على الوجدان وحده أما القول بأن الاسلام حمل ثقافات الأمم إلى الغرب فحوض اغتراء ، ذلك أن الاسلام قد صب خير ما في هذه الثقافات في كيانها وصهرها وأحاطها شيئاً جديداً دون أن يخرج هذه المعاصر عن دائرة كيانها الصحيح القائم على التوحيد والحق والعدل . وهو حين ترجم الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية لم يقبل بها تسلياً ولكنه ناقشها ورد منها وأخذ ولكنه لم ينصهر فيها ولكنه صهرها في داخله وظل محتفظاً بجوهره ثم أقام منهجه ومنطقه وذائته الخاصة دون أن ينحرف كما انحرفت أديان وثقافات أخرى سبقته استطاعت الفلسفة اليونانية أن تلتصق بها .

(٣٠)

الصهيونية واليهودية العالمية

بعد الحرب العالمية الأولى دخل عنصر غريب في نطاق الدولة العثمانية والعالم الإسلامي تركزي في منطقة فلسطين التاريخية وقريباً من (بيت المقدس) وكان هذا العنصر اليهودي قد بدأ يتسلل منذ وقت بعيد ولكنه امتنع أن يكشف وجوده بعد سقوط السلطان عبد الحميد حيث استطاع من خلال الاتحاديين الذين كانوا على الاطلاق ماسونيين عاشوا في احضان الدعوة إلى إعادة بناء هيكل سليمان من خلال مخططات وطقوس واصطلاحات كلها تعمل من أجل تجميع أكبر قدر ممكن من المسلمين والمسيحيين لخدمة أهداف اليهودية العالمية ممثلاً في ذلك النظام السري الرهيب الذي كان له دوره الخطير في ثلاثة من أكبر الأحداث في العالم كله في مقدمتها : الثورة الفرنسية وتوحيد سلطان الكنيسة وإطلاق اليهود من الجيتو كمواطنين لم يلبثوا أن سيطروا على دفة السياسة في أوروبا كلها من خلال الحافل الماسونية ، ثم لم يلبثوا بعد ذلك أن قادوا حركة الفكر الأوربي ووجهوها لخدمة أهدافهم بادئين بإحتواء الفلسفات الغربية المسيحية وإخراجها من جوهرها وفرض القيم الوثنية الاخرقية عليها من أجل تدمير مقوماتها وتحقيق الأهداف التي رسمتها برتوكولات صهيون .

ثم كان العمل الثاني في هذا المخطط هو إسقاط الدولة العثمانية وتمزيقها وقد تم ذلك على خطوتين أولاً إسقاط السلطان عبد الحميد ومعه دعوة الجامعة الإسلامية وإحلال الاتحاديين في تركيا رابعين لواء الجامعة التطورانية ثم خلق رأس جسر تغريبي خطير في لبنان يتركز في الإرساليات التبشيرية ذات المحتوى اليهودي الصهيوني من خلال الفكر العالمي والغربي ، هذا الذي إنتهى بإقامة نظام خاص مستغل في لبنان يفسح المجال لتركيز أعمال الحافل الماسونية والإرساليات التبشيرية في العالم الإسلامي والبلاد العربية وكانت مصر التي سقطت تحت الاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢ نتيجة القروض اليهودية الأوربية ، قد أعدت لتكون مسرحاً لحركة الفكرية اليهودية الاستعمارية من خلال الصحافة التي قادها خريجو الإرساليات ووجهت مخططاتها منذ اليوم الأول لتزيق وحدة العرب والإسلام وتصديق الخلاف بين العرب والترك وإثارة نمرات القوميات والإقليميات الضيقة وفي مقدمتها القومية المصرية أو الفرعونية ، بالإضافة إلى القومية اللبنانية أو الفيلينية ، وبذلك تحقق في نهاية الحرب العالمية الأولى سقوط الدولة العثمانية وإفصال البلاد العربية عنها لتقع فريسة الاحتلال الفرنسي البريطاني مع قيام وطن قومي لليهود في فلسطين بنساء على نصريح بلفور عام ١٩١٨ . وبذلك تم تحقيق الخطوة

الأولى من مخطط الصهيونية العالمية الذي تقرر في مؤتمر بال ١٨٩٧ والذي نشرت من بعده وثائقه المسماة « بروتوكولات حكماء صهيون » والذي استهدف سيطرة اليهودية العالمية على العالم كله في خلال مائة سنة . ولقد كان قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ هو أقوى خطوات التمزق الذي أصاب البلاد العربية التي ظلت تتخبط خلال هذه الفترة بين الاقليميات والتمزبات وبين دهوات الفرعونية في مصر والفيلينية في لبنان والأشورية والبابلية في العراق وسوريا . وقد حلت هذه الدهوات محل الجامعة الإسلامية التي انتهت بسقوط الدولة العثمانية ونحوها بعد الحرب العالمية إلى دولة تركية علمانية وفق ما أطلق عليه « الطورانية الجديدة » ومنذ ذلك الوقت إختفت كلمة « الجامعة الإسلامية » تدريجياً وتقلصت من الاصطلاحات السياسية والفكرية ، وخاصة بعد أن أسقط مصطفى كمال الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ نهائياً ولم يستطع المسلمون إعادتها أو إقامتها مرة أخرى ، وأن يحقق كثير من أهدافها من خلال خطوات التصحيح التي تمت في ظل حركة البقطة العربية الإسلامية الممتدة بالرغم من مخطط التفریب المسيطر ثقافياً بالصحافة وتعليمياً بالتبشير من خلال مبادئ الإرساليات فكان قيام الوهابية الجديدة في الحجاز ، وروز دور الأزهر ومكة وحركات الإصلاح والتجديد الإسلامي التي قادتها جمعيات الشبان والإخوان المسلمين في مصر والشرق العربي . وهذا بالإضافة إلى المؤتمرات الإسلامية الجديدة قد أوجد مرتكزاً جديداً مؤملاً لتقنين الأخوة الإسلامية ودعمها . ولقد كشف قيام إسرائيل عن حقائق كثيرة صححت وقائع التاريخ المعاصر وربطت بين مخططات اليهودية العالمية والمحافل الماسونية والإرساليات التبشيرية في العالم الإسلامي كله كما كشفت مخططات النفوذ الاستعماري التي أقرها منذ عام ١٩٠٧ بإيجاد حاجز بشري بين آسيا وإفريقيا ليكون حائلاً دون الوحدة والتجميع ، وقد كانت فلسطين هي نقطة الحشد التي ركزت عليها الصهيونية العالمية محقة بذلك هدف الاستعمار في تمزيق الرقعة العربية في أدق أجزائها والحيلولة دون خطوة للتوحيد الأول على طريق الرابطة الإسلامية وهي التجميع العربي على أساس أن الوجود الموحد هو أساس البقطة وأكبر عناصر التجميع الإسلامي الواسع .

وكان من بين ما كشفه قيام إسرائيل حقيقة موقف السلطان عبد الحميد من اليهودية العالمية ورده الحاسم في مواجهة مخططات الصهيونية العالمية للاستيلاء على فلسطين ، والدور الخطير الذي لعبته « الدعوة » في الدولة العثمانية لتعطيلها وإعداد قيادة سياسية تتحرك من خلال مخططات الماسونية في محافلها ، تلك هي قيادة الأنحاديين التي عمقت الخلاف بين العرب والترك وقطعت آخر الخيوط بينهما ثم ما كان من هور طليعهم الجديدة مصطفى أتاتورك كما كشفت الحقائق دور لورانس في

هذا المحاط الصهيوني الزاحف ، ودور معد زخول ولطفي السيد وجامعة المقطم ، وفق المنهج الذي وضعه كرومر ، وكوزن ، وما كانت تخفيه دهوات الفرعونية والفيليقية وغيرها من أهداف خدمة إقامة إسرائيل وتركيز الصهيونية المالية قواها في فلسطين تمهيداً لسيطرة على القدس ، التي احتلتها الانجليز عام ١٩١٨ وأعلنوا فيها أن الحروب الصليبية قد انتهت ، وجاء اليهود ليقولوا أنهم قد تسلموا القدس فعلا منذ ذلك اليوم ، وأن نجاح الآورد الذي إنما كان خطوة على طريق تحقيق الهدف الكبير ، والذي وصل بالفعل إلى أيدي الصهيونية العالمية عام ١٩٤٧ باستيلاء اليهود عليها نهائياً وتأهبهم منذ اللحظة لبناء هيكل سليمان في مكان المسجد الأقصى . وما كشفت الوثائق في هذا الصدد ذلك الخطاب الذي أرسله لأمر بكى الماسوني (جريدى س . نردى) إلى ما أسماه (مجلس مسجد عمر) والذي ينص على أن الماسونية تعتبر أن مسجد عمر في القدس هو مقر هيكل سليمان وهو في حساب الماسونية المحفل رقم واحد في العالم كله ، وهذه حقيقة كشفت عن هدف الماسونية الأساسي وعن سر تسميتها باسم البنائين الأحرار وإصرارها على بناء هيكل في كل محفل ماسوني على هيئة هيكل سليمان .

وهي حقيقة قد عرفها الماسون الذين بلغوا الدرجة الثالثة والثلاثين قبل أن تقوم إسرائيل في فلسطين ، قبل أن تسيطر إسرائيل على القدس . ولا شك أن كتابات كثيرة في الصحف والمجلات المصرية وغيرها منذ إنشاء المنتطف ١٨٧٥ والحلال ١٨٩٧ تكشف عن إعادات واضحة لمخططات الماسونية وفلسفتها المادية الواضحة . أما البروتوكولات فقد ظهرت في العالم كله ما عدا العالم الإسلامي منذ عام ١٩٠٢ . أما في مصر والبلاد العربية فإنها لم تعرف قبل عام ١٩٥٠ أى بعد قيام إسرائيل بالفعل في فلسطين وهي حينئذ لم تكن بدق تكشف عن نصوص صريحة وردت في كتابات كثير من كتاب البلاد العربية وخاصة خريجي معاهد الإرساليات التبشيرية أو المبعوثين العائدين من فرنسا وبريطانيا وأمريكا منذ أوائل هذا القرن وفي كتابات جورجى زيدان وصلاح موسى وطه حسين . كما تكشف ذلك في الرابطة التي ظهرت جلية بين هر نزل وفرويد ، وبين الصهيونية العالمية ومنهج علم النفس التحليلي وما تبع ذلك من آراء دور كايم وسارتر وليفى بريل وغيرهم . وهذه المخطوط كلها تستند في الحق إعادة النظر في الأدب العربي المعاصر كله وفي نظريات الفكر الغربي الوافد سواء في مجال التاريخ أو الأدب أو الاجتماع أو السياسة وخاصة في تلك التعريفات الواضحة التي حفلت بها دوائر المعارف والموسوعات التاريخية في محاولة تزييف حقيقة وضع المسلمين والعرب في فلسطين وإضافة أكاذيب تجعل لليهودية بعض الحقوق التاريخية الرائفة وما تزال هذه الكتب في

أبدى الباحثين لم تصحح بعد ولملها من المراجع التي يعتمد عليها وفي مقدمتها بروكلمان والمنجد ودائرة المعارف الإسلامية والموضوعه المزييه المبصرة .

لقد كشفت هذه الوثائق عن ذلك الترابط بين المدعووات الإقليمية والقوميات الضيقة ، كما كشفت عن ذلك التناقض بين المحافل الماسونية والإرساليات التبشيرية على أهداف واضحة ، ذلك أن هذا الجسم الغريب لم يكن ليحيى أو يستمر إذا ما صححت المفاهيم وعادت الرابطة الأصلية بين العروبة والإسلام وبين الإسلام والمجتمع الإسلامى ومن هنا سر الحملة للصنم على الشريعة الإسلامية واللغة العربية والتاريخ الإسلامى ومحاولة الفصل الواضحة بين حضارة عربية وحضارة إسلامية وتاريخ عربى وتاريخ إسلامى وأمة عربية وأمة إسلامية ومحاولة التركيز على النظرية الغربية فى القومية لإحلالها محل مفهوم العروبة الذى تنصل جذوره بالإسلام والقولان ، وهى نظرية وافدة لها غلوفها فى الشكل التاريخى والاجتهادى الغربى ، وإذا كانت القوميات أو الوحدة العربية سلاحاً شهراً العرب فى وجه الاستعمار ولواء نشره لتتجمع لمقاومة الاحتلال بدلاً من شعار الجامعة الإسلامية بعد سقوط الدولة العثمانية فإن الغزو الفكرى الغربى يحاول بكل الطرق أن يحول بتتنا وبين اهتمامنا مفهومنا الأصل للستمد من مزاجنا النفسى وذاتيتنا التى كونتها أربعة عشر قرناً من الحضارة والفكر الإسلامى للتصل إلى للتفاعل .

وقد تكشف لنا أن إحياء القوميات المحلية والاقليميات الضيقة إنما هو هدف مقصود وغرض واضح يهدف إلى الحيلولة دون تجمع العرب والمسلمين فكرياً وسياسياً ، والمعروف أن وحدة الفكر هى أساس الوحدة السياسية وفى هذا يقول لورانس برون بشكل واضح : « إن الخطر الحقيقى كان فى نظام الاسلام وفى قدرته على التوسع والاختضاع وفى حيويته ، إنه الجسد الواحد الوحيد فى وجه الاستعمار الأوروبى وإذا ما اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لمة على العالم وخطراً وأمكن أن يصبحوا نفمة له أيضاً ، أما إذا بقوا متفرقين فانهم يظلون بلا قوة ولا تأثير » . ويكشف الكتاب الغربيون أهداف المخطط الصهيونى الذى لا يتحقق له إقامة وجود يمكن أن يستمر عشرين عاماً فى قلب البلاد العربية بإجراء خطير هو إطلاق صيحات القوميات الضيقة والاقليميات فيقول إمرى ريفرى فى كتابه قضية السلام « إن الوحدة التى احتفظ بها القرآن قروناً بين الشعوب الإسلامية المختلفة الأصول قد ذهبت وصار الشعب الإسلامى قوميات شتى » .

(٢)

إن إطلاق مبدأ القوميات في أوروبا كان من وراءه مخطط واضح هو : أولاً : إثارة دول البلقان باسم القوميات على الدولة العثمانية وقد بلغ ذلك مدى لا حد له وآرزت الدول الأوروبية والبابوية الرومانية في سبيل تحقيق كل ما ناك من قوة في سبيل هدم القسم الأوربي من الدولة العثمانية . ثانياً : إثارة العرب على الدولة العثمانية وإثارة الأتراك على العرب ، وخلق ذلك الصراع باسم القوميات ، تحت لواء الطورانية في تركيا والفرعونية في مصر والعربية في سوريا والعراق . ثالثاً : كان إعلان صيغة القوميات هو أول الخطوات لإبراز القومية اليهودية التي نص عليها وعد بلفور صراحة بمباراة « وطن قومي لليهود » .

وقد أعلن ذلك قبل أن يكون لليهود قومية حقيقية لها دعائهما من اللغة والأرض والأمة . ولم يتم بناء الجامعة العبرية على جبل الزيتون من أجل إحياء اللغة العبرية إلا بعد ذلك ، وكانت جماعات المهاجرين اليهود إلى فلسطين حتى ذلك التاريخ لا تشكل قومية ولا أمة . وفي عام ١٩٠٩ عندما هزلت الماسونية لليهودية الصهيونية من داخل الاتحاديين السلطان عبد الحميد لم يكن لليهود في فلسطين وجود يمكن أن يحقق هدف إقامة وطن أو تشكيل أمة . غير أن الاتحاديين لم يلبثوا أن فتحوا الباب واسماً للصهيونية المالية فبلغت مبلغاً لا حد له في خلال هذه السنوات العشرة لحكمهم إلى قيام الحرب العالمية حيث كانت الطورانية والاتحاديين واثقلاً ١٩٠٨ في تركيا هي الحلقة الأخيرة في سبيل الوصول إلى فلسطين ومبدأ الاتجاه الحاسم في شراء الأراضي فقد سمح الاتحاديون لليهود بشراء أراضي الدولة وفي مقدمتها الأراضي الفسيحة المعروفة باسم (الحفلك) واضطاع اليهود أن يحملوا حكومة الاتحاديين على سن القوانين والأنظمة التي تمكنهم من الشراء تحت أسماء شركات تحمل أسماء عربية لمدة ثمانية .

والمعروف أن الصهيونيين كان لهم في الحكومة الاتحادية ثلاث وزارات هي الأشغال العامة والتجارة والزراعة واليومنة والتلغراف . وكان جلوبد ناظر المالية من الدومنة هو صاحب الحصول والاطول في الاقتصاد العثماني . وقد تعالت صيحات العرب من خطر الصهيونية في البرلمان العثماني بعد الانقلاب الذي حكم به الاتحاديون ومن أبرز من تحدثوا عن هذا الخطر روجي الخالدي وشكري العسلي ونجيب نصار . ولنحجب نصار كتاب عن الصهيونية أصدره سنة ١٩١١ وكانت فصوله قد نشرت في جريدة الكرمل منذ عام ١٩٠٨ . ويقول حجاج نويهض في كتابه عن يروتوكولات صهيون في هذا

الصدد : كان زعماء الصهيونية قد استطاعوا أن يقطعوا مسافة طويلة في الوصول إلى فلسطين عن طريق استانبول العثمانية في مدة الست سنين التي انقضت من يوم إعلان الدستور العثماني ١٩٠٨ إلى صيف ١٩١٤ وهي السنة التي وقعت فيها الحرب وسبب نجاح السياسة الصهيونية في المملكة العثمانية هو تمسكهم من استالة هدد من كبار السياسة الأتراك المسلمين الذين يرجعون بأصولهم الدموية إلى اليهود الذين أخرجوا من أسيانيا آخر القرن الخامس عشر وعرفوا باسم الدعوة خبيوط الدهاء الصهيونيين جعلت تمتد إلى عصب الدولة لا منذ سنة الانقلاب فصاعداً بل من وقت قام هرتزل في العقد الأخير وقبل ذلك ولولا تنبه النواب العرب في البرلمان العثماني واشتداد صيحاتهم لقفز الصهيونيون قفزات أطول مما استطاعوا نيله. ويكفي أن نقول أن الفلح في الحركة الطورانية أو العصبية الجنسية الطورانية كان بالتالي حافزاً للترك الطورانيين لوقوع في النهاية بين مخليين ، غخاب ألمانيا الناهضة لاستعمار معظم المملكة العثمانية عن طريق مشروع سكة حديد (برلين بغداد) والوصول إلى اليمن عن طريق مشروع سكة حديد الحجاز الذي تم إنشاؤها عام ١٩٠٨ ومخلب الصهيونية الطامعة في فلسطين .

وقد فشلت ألمانيا في الوصول إلى الشرق عن طريق استانبول . وفشل الأتراك الطورانيين في إنشاء امبراطورية طورانية ينضوي تحتها الأصل التركي من بلغاريا إلى جنوب أوروبا إلى أقصى التركستان شرقاً في آسيا الوسطى . وريح الصهيونيون . ولا ريب في أن اليهودية العنصرية كانت قد رسمت خطة ذات مراحل للوصول إلى فلسطين وإلى بيت المقدس ، وأنها استخدمت في ذلك مؤسستين هما الصهيونية والماسونية . وإسرائيل هي قفاز اليهودية الخارجى أو غلطها الأول . ولقد كان سر القوة اليهودية هو قدرتها على إخفاء أجهزتها عن العالم ، غير أنه أسقط في يدها عام ١٨٩٧ في مدينة بازل بسويسرا عندما دهمها نقر من الشرطة القيصيرية الروسية القاديين من موسكو فأشملت البناء في البناء بفرض إخفاء البروتوكولات ، التي أمكن الحصول على قدر كبير منها والتي تكشف عن هدف اليهودية العالمية في التسلط على العالم بحكومة يهودية بعد تخريب روسيا المسيحية الأرثوذكسية وأوروبا الكاثوليكية والبابوية ثم الاسلام . كشف الغطاء عن ذلك المخطط اليهودي السرى المرتبط بمقائد يهودية صهيونية مستمدة من التوراة الخرفة ومستفاد من التلمود . يقول هيجاج أويغس : أن البروتوكولات هي المخطط الذي وضعه رجال المال والاقتصاد اليهودي لتخريب المسيحية والبابوية ثم الاسلام ، ويقول إنها عصابة كبار اليهود السريين التي تجدد كيانتها الخفية في أثناء الثورة الفرنسية ووالث سهرها في منتصف القرن الماضي في أيام كارل ماركس ونشأت نشاطاً

خاصاً في روسيا القيصرية في الرابع الأخير من القرن الماضي ، ثم هفتت مؤتمرها الصهيوني العالمي
بزعامه (هرتزل) ١٨٩٧ . ويمتد أن واضع هذه البروتوكولات هو (اشرجنز برج) من يهود أودسا
للمشهور في عالم الكتابة اليهودية باسم (احدها عام) . ومنذ بدأت الحركة الصهيونية وقد تضافرت
جهود العلماء اليهود على محاولة إيجاد سند الوطن القوي في فلسطين ، يبدو ذلك في كتاب الدكتور
إسرائيل ولفنسن (أبو ذئيب) في بحثه عن اليهود في جزيرة العرب قبل الإسلام الذي أعده تحت
إشراف الدكتور طه حسين في الجامعة المصرية ونوقش علناً في حرم الجامعة عام ١٩٢٧ وقوامه أن للمستعمرات
اليهودية في الجزيرة العربية قد أثرت تأثيراً قوياً في الحياة العقلية والأدبية للجاهلية من أهل الحجاز .
وقد هتيت دوائر الأدب العربي في مصر وعلى رأسها أدباء كثيرون ومحققون كثيرة بالدفاع عن حق
اليهود في فلسطين وترديد دعاوى الاضطهاد وفي مقدمة ذلك مجلتي للفتنط والهلل . وكان الدكتور
طه حسين دوراً هاماً في هذا المخطط فقد ألقي عدداً من المحاضرات حاول أن يثبت لليهود حقاً في بلاد
العرب ، ودوراً في الأدب العربي كما هي بالاهتمام في أبحاثه على كتب في إسرائيل من أجل إقرار
أكاذيب ، أو تزييف حقائق وفي مقدمتها كتابي طبقات ابن سعد ، وأساب الأشراف وهما مما طبعته
للطابع الإسرائيلية واستهدفت به إخفاء شخصية عبد الله بن سبا اليهودي ودوره في الفتنة التي لحقت
بالمسلمين أيام عثمان وقد جرى طه حسين على هذا النحو وأنكر وجود شخصية عبد الله بن سبا في
كتابه الفتنة الكبرى وسخر من المؤرخين الذين أشاروا إلى دوره الخطير .

وكذلك لقي ماكس نوردو اهتمام العقاد والمازني واسماعيل مظهر وترددت آراؤه على صفحات
المجلات المصرية واحتوتها مؤلفاتهم والمعروف أن ماكس نوردو هو خليفة هرتزل على الحركة
الصهيونية بعد وفاة الآخر عام ١٩٠٤ . وقد هاجم نوردو الحضارة الغربية باعتبارها حضارة مسيحية
في كتابه (الأكاذيب المقررة) الذي وزع على أوسع نطاق . وهاجم امبراطورية هابسبورج (النمسا)
التي كانت تضم بولونيا وتشكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا ورومانيا وإيطاليا ، وقد ركزت دهوة
للقوميات على تخطيم هذه الدولة وذلك لغرض خاص باليهودية العالمية التي كانت تشكل قوة كبرى في
بولونيا ثم انفصلت بعد تمزق هذه الامبراطورية . كما قام عدد آخر من مفكرى اليهود الذين أتبعوا
لهم السيطرة السكالة على الفكر الغربي بوضع نظريات معينة من شأنها أن تفرض نفوذ اليهودية
العالمية وتطمح كل النظريات والقيم الاجتماعية المتعارف عليها والتي أقرتها الأديان السماوية وفي مقدمة
هؤلاء ماركس وبرجسون وفرويد . .

جواد

نشي تصوي .

(٣)

اعتمدت فلسفة الصهيونية على نصوص من التوراة الحالية وهي غير التوراة المنزلة على موسى ،
وفسرتها على نحو معين ، متجاهلة التطور التاريخي الذي جاء بعد ذلك وذلك لعدم اعترافها بالمسيحية
والإسلام . وقوام هذه النظرية أن اليهود هم شعب الله المختار وأنهم هم وحدهم أبناء إبراهيم الذين
وعدوا بالأرض الواقعة بين النيل والفرات وهذا سر الحلة العنيفة الجائرة على السيد المسيح واحتضان
كل الكائنات المتصفة التي تعرضت له أو للمسيحية من أمثال ما كتب رينان ونيشة بالإضافة إلى
عمليات التخريب من الداخل التي قامت بها اليهودية في الفكر المسيحي وتدمير قيمه ومقوماته وهو
عمل امتد من وقت بعيد وكان له أثره الكبير على الفكر الغربي كله ولما كانت اليهودية لا تعترف بالمسيحية
دينًا سماويًا متزلاً جاء لتعديل ما وصل إليه اليهود من انحراف ، وتصحيح مسار اليهودية المنزلة حسبما جاء على
لسان السيد المسيح : ما جئت لأتقض التاموس وإنما جئت لأكمل .. أقول لما كانت اليهودية لا تعترف
بالمسيحية فهي تدهي أن لها مسيحها الذي سيحيى آخر الزمان من نسل يهودا وهو ليس مسيح
النصارى ، وكذلك أنكر اليهود ما في التوراة عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم وقد تناولوا هذا
المعنى في الانسكولوجيا اليهودية مؤكدين أن خطوتهم التالية هي إظهار مسيح اليهود في الدنيا . ويقول
جورج بوست : أنه ظهر بين اليهودية أربعة وهشرون مسيحاً كذاباً وأشهرهم (بروكيه) الذي عاش
في القرن الثاني لليلاد وادعى أنه ملك اليهود وثار بهم على الدولة الرومانية قتل منهم في هذه الثورة
أكثر من نصف مليون يهودي . وآخر المسحاء الكذبة : يهودي ألماني اسمه (مردخاي) ظهر عام
١٦٨٢ م واشتد اضطهاد النصارى لليهود بسببه فتوارى . ويقوم مفهوم الفلسفة اليهودية التي تعتبر
الصهيونية واجبتها السياسية والماسونية أداها الكبرى في التعبير بأهل الأديان الأخرى ليسكنوا
خدماً لها ، تقوم على أساس الاستملاء العنصري والجنسي فهم يهود وكل العالم جويم أو أميون ويحل
لهم الرب يأخذونه من الجويم ، كما يحل لهم كل ما يملكه الأميون ، « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه
بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دامت عليه قاعاً ذلك تأثم قالوا
ليس علينا في الأميين سبيل » وإله اليهود كما تصوره التوراة الزائفة والتلمود والمشنا ، هو إله الحرب
وهو رب الجنود الإله يهوه : الشرير المتوحش للشعوب بإراقة الدماء . وأخطر مفاهيمهم إنكار
البعث واعتبار الحياة الدنيا هي كل شيء وإن على كل إنسان أن يسارع إلى التناط كل لغة ممكنة .
وهم يقررون مبدأ الغاية التي تبرر الوسيلة بعيداً عن القيم والأخلاقيات فلا بأس بالنذر والوقمة
والكذب في تحقيق أي نجاح وقد دمر إسرائيل اليهود رئيس وزراء بريطانيا الدولة الإنجليزية أن

تتخذها قاهدة ذهبية لسياساتها مع الشعوب ولا سيما في المستعمرات. وقد وضع اليهود الاقتصاد العالمي على أساس الذهب بمحتكونه لا على أساس قوة العمل والغروات الأخرى. ووفق هذه الفلسفة المطامحة إلى السيطرة على العالم كله وإقامة مملكة يهوذا في القدس وبناء هيكل سليمان يبدو مخطط الفكر الغربي العالمي واضحاً اليوم في كل تياراته ومخططاته. وذلك في تفهيمها مبادئ الحرية والمساواة وإفساد الحكام وزعماء الشعوب والاستماعة في هدم كل قوة جديدة بالنساء والمال والسكيد أو إجهاضها قبل أن تكتمل والعمل على إفساد الشباب والقضاء على الضمائر والأديان ونظام الأسرة. وأبرز دعاوهم فصل الدين عن الدولة، وفصل المجتمعات عن الدين، وإعلان حرية الدين التي تسكن في إنكار الأديان السبوية وإنكار الرسل والأنبياء والوحي والسكنب للندوة وإغراء الناس بالشهوات وإفساد المرأة وإشاعة الرذيلة والانحلال حتى يسقط الأعميون خاضعين لنفوذ اليهودية العالمية وهم من أجل ذلك همزوا نظرية دارون وحولوها إلى الإتجاه الذي فتح همراً من المادية التلودية ثم دعواهم بنظريات ماركس وفرويد في الاقتصاد وعلم النفس ودفعوا نظرية فرويد الانحلالية دفعا باعلاها على كل نظرية أخرى معتدلة أو معقولة من أجل تدمير مقومات الأمم، ثم فرضوها على الآداب والقصة كما فرضوا التفسير المادي للتاريخ على كتابات التاريخ والاقتصاد والاجتماع. وهم الذين همزوا مذاهب القوميات في أوروبا والعالم الإسلامي من أجل تحطيم الدول الكبرى وتمزيق الأمم عن طريق العقائد والفكر، وهم أيضاً دعاة الافليمية وفي نفس الوقت دعاة العالمية وهم المشاركون في الأنظمة الرأسمالية والأنظمة الشيوعية وقد كشف أحد زعمائهم عن هدفهم الواضح من ضرب القوى العالمية بعضها ببعض وهو إيقاع الغرب والشرق في حرب عالمية ثالثة لتحطيم القوتين معاً وإزالة جميع الموانع نحو سيادة اليهود للعالم. وقد كشف الخطاب الذي ألقاه الحاخام هانويل رابينوفيتش هام ١٩٥٤ من نوايا اليهود العالمية التي تلتخص في : (أولاً) إشمال نيران حرب عالمية ثالثة. (ثانياً) تهميض الولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفيتي. (ثالثاً) اعتبار زعماء الدولتين مجرمي حرب. (رابعاً) القضاء على الأجناس غير الاسرائيلية. وقد رتبت اليهودية العالمية ذلك منذ وقت بعيد بالاشراف على الصحافة في دور النشر ووكالات الأنباء، والسيطرة على مذاهب العلم والفلسفة والفن والمسرح والسبنا والجامعات ونظم التعليم والامتلاء على البنوك والشركات والبورصات واحتكار الذهب والفسلظ على اقتصاديات الدول الكبرى كأمريكا وروسيا وفي بروتوكولات صهيون إشارة واضحة إلى أن الأدب والصحافة قوتان في طليعة القوى التوجيبية الهامة وإلى أنه يجب أن تكون الصحافة تافهة كاذبة بمبيدة عن الحق، وأن تعمل لتحرير وإثارة المشاعر التي هي في حاجة إليها من أجل أهدافهم.

ولاشك أن سيطرة اليهودية العالمية على صناعة السينما في هيلود والعالم كله تقريباً وإدارة للمسابقات العالمية لأحسن الأفلام كلها تحت إشرافهم أمر واضح . وقد برزت مقومات الفكر الصهيوني كله في الكتابات للماسونية التي تملي للمنتسبين إليها فلسفة كاملة متحررة في الأديان السماوية وقائمة على أساس دمج وصياغته كل أساطير الأولين في قالب براق قوامه وحدة الوجود وما تزال واجهات النيو صوفية والروحية الحديثة والبهائية من أبرز مؤسسات اليهودية العالمية حتى ينخدع الناس في مجال الدهوة المادية الروحية جميعاً . وقد سيطرت اليهودية العالمية على حركة الاستشراق التي تقوم على بحث الكتب القديمة ، والتي كان من آثارها إعادة نشر الكتب ذات الصفة المعينة بآثاره الخلاف بين الطوائف وللذاهب والاديان ، وإعادة التبشير بالدعوات المهدامة التي مضت وانقضت كالباطنية والمردكية والزرادشتية وكذلك بحث الكتب ذات المحتويات التافهة والمفككة ونشر كتب السحر والأساطير والخرافات والبخت والعالم التي تصاغ الآن في أساليب فنية تمجد القارئ البسيط الساذج الذي لا يعرف أبعاد الدهوة المسمومة .

ولاشك أن من أم الأهداف إخافة التفاهات ودفعها إلى السيطرة على برامج الإذاعة والتليفزيون والصحف ، مع ما تحمله بين توجيهات مقصودة لهدم مقومات الدين في الأسرة والمجتمع والفرد ، ونشر الاباحية والإلحاد والتمرد من الأخلاق . وليس من الحق أن يقال أن اليهودية العالمية قد قامت وحدها بأعداد ذلك كله ولكنها شاركت فيه ووجهته وانتفعت به في سبيل تحقيق غايتها البعيدة وهي تدمير مقومات الأمم حتى تقع فريسة في مصيدة الامبراطورية اليهودية المرتجاء . ويباى اليهود بعد إقامة إسرائيل بكثير من أعمالهم التي كانت خفية في الماضي ويكشفون عنها فهم يؤكدون أنهم دمروا المبقرية الروسية ، وأسقطوا الخلافة الإسلامية العثمانية ، وكذلك للملكيات في ألمانيا والنمسا ورومانيا وأصبانيا وإيطاليا وأنهم كانوا مدبري الحرب العالمية الأولى والثانية التي فقدت فيها أوروبا الملايين من أبنائها والملايين من الجنهيات وخسرها الغالب والمفلوب ولم يظفر بفنائها غير اليهود .

(٣١)

العروبة ومفهوم القوميات الوافد

(١)

القوميات

في الفترة ما بين الحربين العالميتين انفصلت البلاد العربية انفصالاً تاماً عن الدولة العثمانية حاملة لواء الخلافة والجماعة الإسلامية . ثم سقطت هذه الدولة بعد هزيمتها في الحرب العالمية الأولى وبرز الكيان العربي السياسي الذي كان قد انفصل خلال الحرب عن تركيا في ظل التحدى الذي حل لواء الانحاديون بالدعوة إلى الطورانية ومحاولة تبريك العناصر العربية وأنجاه العرب إلى رفع لواء العروبة كدعوة للتجمع وللقاومة ومواجهة حركة التنريك . ثم اتسع نطاق دعوة العروبة بعد الحرب مباشرة أثر الفشل الذريع الذي منى به العرب بعد أن آزرها بريطانيا وفرنسا خلال الحرب بناء على وعد بقيام الدولة العربية ثم تبين لهم زيف هذا التماقد وقيام الدولتين باحتلال البلاد العربية التي كانت تابعة للدولة العثمانية وهي (الشام بأجزائه الأربعة) والعراق ، وانكشف مخطط الاستعمار الذي تضمنته معاهدة سايكس بيكو ونصريح بلفور . ومن ثم أصبحت أغلب البلاد العربية تحت سيطرة الاحتلال البريطاني والفرنسي والإيطالي . ومن خلال هذا الاحتلال بدأت الدعوة الإقليمية الضخمة على النحو الذي عرف في إلهاء الإقليميات المحلية : كالمصرية والسورية واللبنانية والعراقية وغيرها ومحاولة إعطاء هذه الإقليميات طابع القوميات . ثم برز طابع العروبة الذي كان هو منطلق سوريا والعراق والحجاز في مواجهة الطورانية أولاً ثم في وجه الاحتلال الفرنسي لسوريا ولبنان والبريطاني للعراق وبدأ صوت الدعوة إلى العروبة يعلو ويؤكد ذاته في ظل التحديات التي فرضتها قضية فلسطين والدور الذي قامت بها بريطانيا في سبيل تنفيذ وعد بلفور بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين .

غير أن « العروبة » في ذلك الوقت كانت تعبيراً تلقائياً لمواجهة النفوذ الأجنبي وكلمة لتجمع بين الأقطار العربية المحتة ولم يكن يحمل أى معنى معانى القوميات التي عرفتها أوروبا ويمكن أن يقال بحق أنه تجمع هذه المنطقة في دائرة أقل من الدائرة الإسلامية التي سقطت بسقوط الدولة العثمانية والتي كانت نجماً أكبر في وجه النفوذ الاستعماري أساساً . لقد كانت البلاد العربية في هذه المرحلة تنحرك في دائرة الوحدة السياسية الإسلامية الجامعة فلما سقطت تحولت هذه الدائرة إلى رابطة فكرية

ثقافية ونشأ من داخلها تشكيل عربي سياسي جامع ثم هززا الاستعمار المعنى الإقليمي الذي كان ظهوره واستعلائه يمثل رد فعل للحركة الضخمة التي كانت تستهدف القضاء على الوجود المعنوي للوطن والأرض والأمة جميعاً . ومن هنا فقد تحرك العرب بين الحربين في ثلاث دوائر متداخلة غير منفصلة وغير متعارضة وهي دائرة الوطن ودائرة العروبة ودائرة الفكر الإسلامي . واستطاعت الدائرة الوطنية أن تقاوم الإقليميات والقوميات الضيقة ، واستطاع المفهوم الإسلامي العربي المترابط الموحد أن يعطي الدائرة الوطنية قوة وفعالية دون أن يسقط في فخاخ الإقليمية المنصوبة لها لإخراجها عن طبيعتها وإغراقها في الطريق الوثني القديم السابق للإسلام وقد سقطت فعلا دهسوى القهرونية في مصر والأشورية في العراق والفيليقية في سوريا أما في لبنان فقد كان لها منطلقها الخاص الذي انبثقت منه الفيليقية جداراً لتعزب كيانها المنفصل عن العروبة والإسلام جميعاً . ولقد كانت حركة البقعة العربية الإسلامية ممثلة في جمعيات الشبان المسلمين في مصر وشباب محمد في سوريا وما تفرع منها من جمعيات الهداية والتمدين والأخوة وغيرها قد استطاعت أن تفرغ مفهوم التحرك الفكري السياسي العربي في قالب جامع بين الوطنية المحلية لسكل قطر وبين العروبة والإسلام على أساس أن الدوائر الثلاثة تتحرك من داخل بعضها دون أن تتعارض وأنها تلتقي جميعها على واجبه واحده هي مقاومه النفوذ الغربي الزاحف والصهيوني الجديد والتماس منابع الفكر الإسلامي في ثقافة المجتمع وأنظمتهم ومقرراته ، ولقد عملت الهيئات الاجتماعية والإسلامية المختلفة خلال هذه المرحلة في الدوائر الثلاث دون تمارض أو تضارب بحسبان أنها قوى ثلاثة تسلم كل واحدة منها إلى الأخرى وأن الوطنية تنطق بالأرض والعروبة تنطق بالأمة والإسلام يرتبط بالفكر ومناهج الحياة والمجتمع . وهذا نموذج من الأيديولوجية التي عرفتها مرحلة ما بين الحربين في ترابط الوطنية والعروبة والإسلام لأحد قادة البقعة في هذه المرحلة .

« هذا الوطن العربي الممتد من الخليج الفارسي إلى طنجه هل سمع أقطاره وانفساح مساه وحدته جغرافيه لا تفصل بينهما حواجز طبيعيه ، ولا تعزقها تضاريس أرضيه حتى إن الزاكن ليستطيع أن يقطع من أقصاه إلى أقصاه من غير تعب ولا هناء ، وهو مع ذلك أحدهم بقاع الدنيا هواء ، والطقس مناخا وأهذبها أنهارا وإنه ليؤكد يستغني بخيرات وثرواته الطبيعيه عن كل ما سواه .

« وهو كذلك وحدة روحيه بسلام الإسلام في عني أبنائه جميعاً ، فلهدون منهم يقدرسون الإسلام كمعقده ودين وغير المسلمين يعترفون به كشرعية قومية عادلة ونظام اجهاهي فاضل ثبت في أرضهم ، وعاش في بلادهم وترعرع في أوطانهم واشتركوا جميعاً في حياتهم وحمايتهم والذود عنه والانتصار له الإسلام نفسه مع عظيم سلطانه على المؤمنين به وعمق نفوذه في قلوبهم أوسع المقاسد

صدراً وألينا قلباً وأرقها بالمخالفين ما لا يؤذيهم ، ولا يهيجهم ولا يهتدي عليهم حتى في حال
السكرانية والغضب ، وإعما هو العدل الشامل والرحمة السكاة لكل ذى كبر رتبة .

« وهذا الوطن وحسنة لغوية سريان لغة العرب في أبنائه ونشوها بينهم تقدسها الحاريب في
الصلوات ويخلدها كتاب الله في آيات ينفات ، ونحوها قلوب غير المسلمين بأرقى المشاهر وأجل
الذكرات . [ففى قلوب يقوم الدين بحرسها وفى قلوب يقوم الحب والولاء] وهو وحدة فكرية
ثقافية بما أنه منبع الفيض الروحي في العالم كله ومصدر الفلسفات ومهبط الوحي والنبوات ومهد
الشرائع والديانات : « وهو وحدة اجتماعية يتشابه العادات والتقاليد فيه تشابهاً يكاد يكون تاماً في
شعوبه وسكانه ويؤلف بين أبناء هذا الوطن بعد هذا كله للصالح العملية المشتركة ولا شك في أن
كل شعب من شعوبه يدرك مدى الفوائد العظيمة الجليلة التي تعود عليه بمودته إلى هذه الوحدة
وهو ذنها إليه وبخاصة في الزمن الذي لا تميش فيه إلا الأمم المتجمعة والشعوب الموحدة المتكئة .
وإذا كانت مرحلة ما بين الحربين هي مرحلة الوطنية فإن حركة العروبة فيها لم تكن واضحة ولذلك
فإن معركة أيدولوجيتها لم تظهر إلا في السنوات الأخيرة السابقة للحرب العالمية الثانية . غير أن هذه
الفترة حققت نتائج هامة في مواجهة الإقليميات وتصنيفها واحتواء الفكر العربي الإسلامي لها على
أنها جزء منه وليست معارضة له .

غير أن قضية فلسطين فرضت وضوح مضمون العروبة بين مضامين الوطنية والإسلام كجزء
منها وحلقة وسطى تجمع بينهما وكان من أبرز المظاهر في هذا الشأن أن السياسيين المصريين انجبروا
نحو العروبة بحسب التقارب الذي بدأ بين مصر والشام أساساً . وكان ذلك علامة على انتشار
الطابع الاقلى الذي ظل مسيطراً فترة طويلة ومقلداً للأبواب بين مصر : وبين العروبة والعالم
الإسلامي جرباً على الخطة التي رسمها لطفي السيد عام ١٩١١ والتي امتدت بعد الحرب الأولى ثم حلت
وبلغت درجة في الغلو والانحراف عن المفهوم الطبيعي للوطنية . وقد جرى ذلك مع الاتجاه الطبيعي
الذي حملت لواءه حركة اليقظة العربية الإسلامية التي اهتمت أساساً في حركة التحديد الإسلامي على
الأمة العربية باعتبارها القوة المرجحاة لقيادة اليقظة والتي حملت لواء الإسلام ونزل القرآن بلفتها
وبعث رسول الإسلام من ذروة أهراتها . وكان مفهوم « العروبة » واضح تماماً في أنه تجمع من أجل
مواجهة الاستعمار ومن أجل نهضة العالم الإسلامي كله ودخوله في مرحلة جديدة من مراحل اليقظة
والبعث . غير أن هذا المفهوم لم يكن قائماً على تنظيم أو تقديس للعروبة أو استعلاء على أو عرق
أو عنصري ، ولم يكن هادفاً إلى إقامة حواجز بين العرب وبين الأمم الإسلامية التي تجمعها بها وحدة

العقيدة أو الفكر . وإنما برز هذا المعنى في المرحلة التالية لذلك وكان مصدره انحراف مفهوم العروبة عن مكانه الأصلي ، ودخول المفهوم الغربي الوافد للقوميات واستعلائه ومن ورائه قوى النفوذ الاستعماري التي كانت حريصة على أن تخلق أجواء الخصومة والتضارب والصراع بين العرب والترك والفرس على النحو الذي قامت به عما وقع بين العرب والترك . وخلاصة القول أن الانحياز إلى العروبة كان موقفا طبيعيا غير مفروض ولا دخيل لإزاء الواقع السيلاني الذي وجد العرب أنفسهم فيه بعد صراع الاتحاديين لهم لتفريكتهم من ناحية ثم بعد سقوطهم في أسر الاحتلال الغربي وسقوط فلسطين تحت النفوذ الصهيوني . كان لا بد للعرب من تجمع جديد من خلال حلقة أكبر من الوطنية والإقليمية التي فرضها النفوذ الاستعماري ونماها وخلق لها فلسفتها ، ومن ثم فقد كان التنادي بالوحدة العربية والتجمع العربي وكان الفكر الإسلامي هو مصدر الضوء في تشكيل هذا التجمع تحت لواء « العروبة » .

ولم يكن هذا في الواقع هو الامتداد أو المثيل لما كانت تنادي به الصيحات في القرن التاسع عشر في لبنان ومن أمثال إبراهيم البازي أو البستاني أو نجيب غزوري فإن ذلك كانت دهوة باسم العروبة القبلية والفسانية القديمة التي تحاول أن تعلى المفاهيم السائدة الإسلام كصيحة تنادي بين الموارنة والعرب المسيحيين في ظل ما حاول النفوذ الأجنبي أن يلقى إليهم أو يدهوم إليه لتشكيل بعيداً عن العروبة والإسلام جميعاً في كيان خاص حاول الاستعلاء بأنه مقدس وخالد وأزلى ليحافظ على وجوده الخاص . ولكن الدهوة إلى العروبة كانت صيحة الجامعة العامة وكانت تستمد وجودها ككل حركات العالم الإسلامي السياسية من جوهر القيم الأساسية التي كانت تفسح للمسالمين والعرب التشكل في مواجهة الأحداث على النحو الذي يمكنهم من مدافعة الأخطار ومن إعادة بناء الأساس لقد كانت الجامعة الإسلامية التي حل لواءها السلطان عبد الحميد هي أداة المواجهة للنفوذ الاستعماري على مستوى الدولة العثمانية فلما أسقط الاستعمار هذه الدولة ، كانت التحديات الخطيرة التي تلت ذلك تحكم على العرب أن يتنادوا تحت لواء الواقع القريب وضمن الحلقة الوسطى : « حلقة العروبة » وكان هذا التنادي تلقائياً ولم يطلق عليه أي اسم آخر ، وكلمة القوميات وغيرها كانت غريبة ومستحدثة ولا تمثل أبداً ذلك التشكيل الفكري والاجتهادي والسياسي الذي يجمع العرب باسم الجامعة التي تجمعهم وهي الفكر العربي الإسلامي بما صاغ من ذاتيتهم ومزاجهم وبجذعهم . ولم تكن اللغة العربية في الحقيقة هي الرابطة ذلك لأن اللغة العربية ليست رابطة قومية على غط اللغات الأوروبية وإنما هو القرآن في الحقيقة الرابطة القومية والإنسانية والوطنية الجامعة على المستويات الثلاث ومن

خلال كل تشكل وطني أو على مستوى الأمة أو على مستوى الفكر . وقد كانت العروبة على السنة الدعاة والمفكرين والسياسيين في ذلك الوقت رابطة تجمع ولا تفرق ، وهي رابطة لا تعطي معنى التمسك أو التفرقة المنصرمة ، ولا تقيم الحواجز بين العرب والفرس والتتريك والأفغان والمندود والجاويين على أساس أن رابطة وحدة الفكر الجامعة للعرب هم نفسها للمنتدة الواسعة وإنما كان يدهم هذه العروبة عاملان كبيران :

(العامل الأول) هو أن اليقظة العربية الإسلامية تجددت صيغتها من قلب الجزيرة العربية علامة على أن العرب مبدعون نهضة العالم الإسلامي . (العامل الثاني) هو ذلك للثبات الممان والجهد والتي تجدد نملا في هذه الفترة وهو إيمان المسلمين في مختلف أنحاء العالم بأنه وإن تسكن سقطت الخلافة فان العرب هم أصحاب القنة والفكر والسكبة والأزهر والقرآن هم المرجعون لليقظة الإسلامية وحركة جديدة من حركات التشكل للعالم الإسلامي كله : وهذا هو الخطر الخطير الذي واجه الاستعمار الغربي بعد أن سقطت الخلافة والدولة العثمانية حينما أحس بأن العروبة ستشكل قوة فكرية واحدة تدفع إلى الأمام حركة اليقظة . ومن هنا بدأت عملية للمقاومة العنيدة الظالمة التي حشدت لها الأقاليم والأذهان الاستعمارية والفكرية والصهيونية والماسونية لإلتهاء مفهوم فلسفي يمزق جوهر العروبة الأصل ويذيب مضمونها ويفرقها بين أكثر من مذهب ودعوة ومن هنا كان طرح مفهوم القومية العلمانية الغربية الوافدة .

(٣٢)

طرح النظرية الغربية في القوميات

لم تلبث حركة التغريب إذ رأت كيف أخذت فكرة «العروبة» طريقها الأصل كحلقة وسطى بين رابطة الأرض (الوطنية) وبين رابطة الفكر (الإسلام) أن تدخل إليها تحريفا ينسب بها ويفسدها ويصيبها بالاضطراب والعجز عن طريقها الحق ، البسيط ، الذاتي ، التلقائي ، الفطري ، ولما كانت «دعوة الإفليسيات» قد فشلت في تحقيق التزقي الفكري والاجتماعي والسياسي للعروبة والاسلام فقد جاءت النظرية الغربية الوافدة في القوميات عاملا هاما في زعزعة المقومات الأصلية والقيم الأساسية وتعمية العروبة ، من كل ما يتصل بها سواء على صعيد الفكر كالثقافة والتاريخ والفن ، أو على صعيد السياسة كالترايط والانفتاح بين الامم الاسلامية ذات التاريخ والثقافة المعقدة

الواحدة والتي تجمعها منذ خمسة عشر قرناً أرضية ثابتة ورصيد ضخم . فكانت النظرية الغربية في القومية تريد أن تحمل معها ثلاث محاذير خطيرة :

١ - طابع الاستعلاء الجلسى المفلق في مواجهه الامم الاسلاميه . ٢ - طابع الانزعال السكامل من التاريخ والتراث والمنومات الاسلاميه . ٣ - خلق وجود معاصر منفصل عما من الاسلام ومن العالم الاسلامى متصل بالغرب ، مندغم في تفسيراته وقيمه وطوايعه . وقد خاب عن الدين طرحوا النظرية الغربية في القومية أن هناك عاملاً ضخماً لا سبيل إلى تجاهله أو إغفاله في أى نظرة علمية ذلك هو الطابع الفكرى العميق الذى صاغه الإسلام للتشكل العربى في أولى مراحل وجود العرب كأمة بعد أن كانوا مجموعة من القبائل للتفرقة للتصارعة وأن هذا الطابع قد أقام حداً فاصلاً عميقاً (فكرياً وسياسياً واجتماعياً) بين ماضى العرب والعبريين والشاميين والامراقيين والقارية جميعاً وكل من عاش في هذا العالم للستد الذى سيطر عليه الإسلام وشكله الفكر الإسلامى وخاصة تلك للمنطقة التى تعربت وأصبحت تسمى الأمة العربية أو بحال العروبة . وأنه لا سبيل إلى إعادة هذه الأمم إلى ماضيها القديم بعد أن نقلها الإسلام تلك الثقل الواسعة من الأساطير والوثنيات والمصيبات والصراع الفكرى والفراغ الاجتماعى إلى ذلك الطابع للتسكامل من التوحيد والعدل والحق وللقوميات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية الواضحة في ذلك النظام الذى نزل به القرآن ورفع لواءه الإسلام . وأن أية معاودة لإحياء تلك الصفحات القديمة سواء في الجاهلية العربية أو الوثنية الفرعونية أو الفيليقية أو حتى خارج محيط الأمة العربية في الوثنيات الفارسية والهندية فإن ذلك أمر مستحيل غاية الاستحالة مهما أطلق عليه اسم القوميات أو الإقليميات . وربما كان ذلك مبسوراً في أوربا التى لم تغير للسيحية تشكيلها الفكرى أو العقلى والذى كان قائماً في إطار الفلسفة اليونانية والقانون الرومانى أساساً . أما في العالم الإسلامى وفي الأمة العربية بالذات التى حملت لواء الإسلام وأذاخت به في العالمين شرقاً إلى الصين وغرباً إلى أسوار فيينا وإلى نهر القوار فإن هناك استحالة ذلك التحول واستحالة نقل التجربة الغربية أو تطبيق ظاهرة تاريخية في مجتمع غير المجتمع الذى جرت فيه مع اختلاف عميق وجذرى في كل الظروف والملابسات والأماكن والمقائد والصور والأمم . في عام ١٩٤٠ تقريباً بدأت عملية طرح النظرية الغربية في القوميات على الفكر العربى وظهرت أقلام تتحدث عن فلسفة القوميات وتشكلت هذه الفلسفة في هيئة مؤسسات وأحزاب ومدارس فكرية وبدأت نقطة انطلاقها من لبنان ومن خلال خيريه معاهد الإرساليات والعائدين من بعثات علمية في فرنسا واتخذ بعضهم الأسلوب الجنج الحالم الصوفى الذى يحاول أن يعطى كلمة

القومية العربية مفهوم العقائد الدينية ، ويروج لها في إطار من المزامير والموسيقى والأناشيد والتراتيل
 هل نحو يؤثر في نفوس الشباب الطامح للتوقد حماسة إلى مثل أعلى وفكرة ومنهج فسكر وحبابة .
 وقد شاء أصحاب الدعوة أن يرجعوا التاريخ المكتوب الذي عاشته العرب والاسلام ، أن يرجعوه
 القهقري من جديد ليدخلوا فيه كلمة القومية التي لم يكن يعرفها والتي لم تخرج على الألسنة والأقلام إلا
 في أوائل هذا القرن والتي يندر أن يوجد لها مكتوب لأديب أو مفكر أو شاعر يتخذ من كلمة
 (ق و م) شعاراً له أو منطلقاً في قصيدة أو مقال أو كتاب . وحيث لم يكن في التاريخ العربي الاسلامي
 الممتد ما يشير إلى نفس هذا المعنى بوصفه دهوة إلى تجميع الأمة أو العنصر أو الجنس مما لم يكن
 موجوداً بطبيعة هذه العصور ولم تكن الحاجة إليه بطبيعة التحديات التي فرضت وجوده في السنوات
 الأخيرة . ذلك أن أصحاب الدعوة لم يسكنهم أن يقولوا كلتهم اليوم ولسكنهم حاولوا أن يقيموا لها
 تاريخاً طويلاً بعيد المدى يسبق ظهور الإسلام ويمتد من خلاله ويقيم تاريخين وفكرتين وكتابين :
 أحدهما اسمه الأمة العربية والآخر اسمه الأمة الإسلامية . ولا شك أن ذلك تاريخياً وعلماً أمر زائف
 أشد الزيف ولا صحة له ، ولا يمكن تقبله أو إقراره ، ذلك أنه بالحق لم تكن هناك أمتين أو عنصرين
 أو دهيين عربية وإسلامية ، بل لم يكن من الممكن إيجاد ما يمكن أن يمزج ما بين العرب والمسلمين ،
 خلال هذا التاريخ الطويل الذي كان العرب والمسلمون فيه كلا متكاملًا ، وكانت العروبة الإسلامية
 جاع مصمت ، وتشكل مترابط جندى ، ولو قد حاول هؤلاء الدعاة أن يوجدوا لقرب تاريخاً منفصلاً
 لما وجدوا ، فلقد بدأ تاريخ العرب حقيقة في نفس الوقت الذي شكلهم فيه الإسلام وبنام كانه
 وأهلهم ليحملوا رسالته .

وتاريخ العرب قبل الاسلام لا يمكن أن يعطى أية حجة أو أى دليل على مفهوم القومية ولسكنه
 يمكن أن يعطى ألف دليل على مفهوم التعصب والقبلية والعراع الدموي بين العروق والقبائل .
 ولقد كانت فكرة دعاة القومية المجنحة واضحا ، فقد كانوا يريدون بمزاميرهم وتراويلهم أن يواجهوا
 دهوة اليقظة الفكرية العربية التي كانت قد استحصدت وقويت وقطعت مراحل طويلة ودخلت في
 دور من أهم أدوارها من خلال الجملعات والهياث وأن يصار هوها . كما كان هدفهم الأكبر من رفع
 لواء القومية العربية إحياء الجاهلية ، والعودة بالعرب إلى كنعان وخسان وآرام وإحياء هذا التراث
 القديم بعد أن سيطر الفكر الاسلامي أربعة عشر قرناً كاملة على هذا العالم الواسع واستوعب في أعماقه
 كل فكرة صالحة وكل نظرية صائبة من الفلسفات والمذاهب القديمة التي هزتها العرب أو الفرس أو
 الهندود أو اليونان ثم صاغها من داخل بنائه الجديد فلم يمد هناك غير صورة واحدة جامعة هي الفكر

الإسلامى الذى يختلف عن الاسلام نفسه ، فى أنه كان عبارة الفكر البشرى مصانفا فى إطار الاسلام والتوحيد ومبليا فى ضوء القرآن ثم اتسم نطاق طرح النظرية الغربية الوافدة فى القوميات على ألسنة هديد من الكتاب وتمددت المذاهب المطروحة وحاولت أن تستمد مفاهيمها ومقوماتها من الولاء لإحدى النظريات الغربية أو إلى الأخرى ، وفى الغرب كانت قد ظهرت بضع عشرة نظرية فمن هؤلاء الدعاة من أخذ نظرية (الله) ومنهم من أخذ نظرية (رسالة الأمة) ومنهم من أخذ نظرية (المشيئة) . وتضاربت وجهة الرأى بين أصحاب هذه النظريات وما زالت حتى اليوم دون أن تحقق اتفاقا على نظرية معينة أو تشكل كامل وقد اختلفت عند الدعاة باختلاف ولائهم والمدارس الفكرية التى نشأوا فيها أو الأهداف التى يحملون لواءها والتبعية التى يميلون لها . ولكن النظرة العامة تعطى إشارة إلى أن النظرية وافدة وغربية وليست منبعثة من وجودنا ، وليست تتمثل ففكرنا أو كيانتنا أو جوهر قيمنا ولعل مر ذلك راجع إلى أن الذين حملوا لواء هذه النظريات إما أنهم لم يعرفوا الاسلام معرفة عميقة وإن كان بعضهم يحمل أسماء إسلامية ، أو أنه متابعاً لمفهوم الغرب عن الاسلام ، أو أنه كان من غير الغالبية العربية ديناً أو فكراً أو متابعاً لفهم الغربى للاسلام . أما أخطر ما وقع فيه هؤلاء الدعاة جميعاً أنهم صدروا فى قيادة الأمة العربية وفى التقنين لها فى مفهوم القومية ، وفى رسم مناهج مجتمعاتهم وفكرها من داخل النظرية الغربية الواضحة ومن إطار المسيحية الغربية أو الفهم الغربى لها وهو أن الاسلام دين روحى محض ، مثله كمثل المسيحية ، وأنه لاهوت خالص وعلاقة بين الله والفرد ولا صلة له مطلقاً بأنظمة المجتمع ولا الأخلاق ولا منهج الحياة .

ومن الأمور التى تحتاج إلى نظرة عميقة أن كل الداهين إلى مبدأ القوميات كانوا غربى النظرة أو على ولاد غربى أو كانوا لا يفهمون حقيقة الاسلام الجامعة بين الدين والدولة وبين الدين والمجتمع وأنه حضارة وثقافة ومنهج حياة وأن دعاة القومية لم يكونوا أكثر إيماناً بهذه الأمن من دعاة الاقليميات حتى لم يمكن أن يقال أن دهورهم الى القومية إنما تمثل طابعا اقليميا فى النظرة ، وأبلغ أخطائهم ذلك الالتباس الذى يشيرونه ويدكونه بين العروبة والاسلام ، وذلك الفصل بين الاسلام والمجتمع . وبالجملة فإن دعاة القومية الوافدة قد جانبوا الواقع والفهم العميق للاسلام والعروبة . وإن محاولتهم فرض مفهوم غريب دخيل وافد ، إنما كان سبباً فى ذلك العجز وذلك الفشل وذلك الاضطراب الذى لازم الدهوة العربية خلال هذه السنوات الطويلة حتى بدأ فى نظر الكثيرين فشلاً ذريعا لهم للافكرة التى تستطيع أن تشرق طريقها إذا ما التفتت جوهرها وذاتيتها وفطرتها فى ضوء الواقع الذى يقرره الفكر الاسلامى البالغ الساهر والذى لا يمكن تجاوزه أو التحرك منه إلى خارجه .

وخلاصة ما تقرره النظرية القومية الوافدة : ١ - إنكار أثر الاسلام للعنوى . ٢ - إنكار
 الغرابط بين العروبة والاسلام . ٣ - إنكار الغرابط بين الاسلام والمجتمع . ٤ - اعتبار الاسلام
 مرحلة من تاريخ العرب . ٥ - إنكار بحث الماضي أو ما ليس له . ٦ - القومية هي الأساس ووعاها
 بضم الاسلام . ٧ - الاسلام يؤلف إحدى الخصائص للوضعية للأمة العربية . ٨ - الاسلام تبع
 من قلب العروبة . ٩ - للأمة العربية رسالة مقدسة . ١٠ - نسيته مرحلة من التاريخ العربي
 بالهدم الاسلامي . ١١ - تجاهل النظم السياسية الاسلامية . ١٢ - الاسلام هو الايمان بالقضاء
 والقدر والله واليوم الآخر .

١٣ - افقة هي مقوم القومية والتاريخ مقوم آخر . إن الذين حملوا لواء النظرية الغربية في
 القوميات كانوا في الأغلب من خريجي معاهد الإرساليات أو من أساتذتها ، أو من الذين عملوا مع
 الانحاديين دعاة الطورانية ، أو من الذين عملوا في الأحزاب الشيوعية والاقليمية وقد تمثل أغلبهم
 بطابع واضح من التمسب للعروبة الأصيلة والاسلام ومنهم من كان على ولاء واضح للدولة الأجنبية
 ومنهم من كان من زعماء الحافل الماسونية والواقع أن دعاة القومية بمذهوم الغرب الوافد ينقصهم
 إكمال النظرة وربما يعوزهم الانصاف والبعد عن التمسب . وقد حملوا مفهوماً غريباً طرح في بعض
 أقطار أوربا في ظل تحديات تختلف اختلافاً جوهرياً عن التحديات التي تواجهها الأمة العربية وقد
 التبست النظرية أساساً بطابع الأهداف التي حملتها الإرساليات وأبرز معالمها هي : ١ - السخرية
 بالاسلام وقيمه وأنظمتها واعتباره ديناً لاهوتياً صرفاً . ٢ - اعتبار اللغة العربية لغة أمة تخضع لما
 تخضع له اللغات الغربية . ٣ - القول بأن أوربا هي التي أيقظت العرب وللسلمين . ٤ - الإهجاب
 البالغ والتقدير للتاريخ الغربي والحضارة الغربية . ٥ - الدعوة إلى أسلوب النكر الغربي أسلوباً
 لفكر العربي .

٦ - انتقاص البولات الإسلامية والعربية . ٧ - القول بأن الفلسفة العربية هي الفلسفة اليونانية
 مكتوبة بحروف عربية . ٨ - القول بأن الاسلام مرحلة في تاريخ العرب وأنه ثقافة العصور الوسطى .
 ٩ - القول بأنه ليست هناك إلا حضارة واحدة قام بها اليونان ثم الأوروبيون في العصر الحديث .
 ١٠ - النظر إلى رسول الاسلام على أنه بطل عربي أو أنه زعيم اجتماعي . ١١ - مهاجمة التاريخ
 والنظر إليه على أنه عامل معوق . ١٢ - الحلة على القديم كله وازدراءه والتمسب منه . وتستطيع أن
 تجد ذلك واضحاً من خلال كتابات دعاة النظرية الغربية في القومية وتشم من هذه الكتابات روح

السكرامية والشهامة والحقد والتعصب . ولقد كشف الباحثون الغربيون مدى التخليق الواضح في نظرية القومية التي حل لوادها دعاة يكتبون بالعربية وردوها إلى أصول أجنبية مخفية . وأبرز هذه الدلائل : (أولا) إن القول بأن لكل أمة رسالة خاصة بها عليها أن تقوم بها هو مضمون نظرية هرز . (ثانيا) التأكيد على التاريخ وعلى الوجود القوي هو مضمون نظرية هيجل . (ثالثا) القول بالارادة العامة هي نظرية جان جاك روسو (رابعا) الأساس الاقتصادي للسياسة مأخوذ من نظرية ماركس . (خامسا) واضح في النظرية أثر المذهب الحيوي الذي نادى به بيرجسون .

(٣٣)

مبدأ القوميات في أوروبا

ظهر مبدأ القوميات في أوروبا على أثر الصراع الذي نشأ بعد ظهور البروتستانتية وانقسام المجتمع الأوروبي بعد أن كانت تجمعه وحدة الكنيسة الكاثوليكية . ولقد كانت الثورة الفرنسية بعد البروتستانتية عاملا هاما في ظهور القوميات وسقوط الامبراطورية الكبرى وإعادة تشكيل الدولة في أوروبا على أساس رابطة اللغات والقوميات والأجناس ، وكانت صيحة القوميات في البلقان تحت أسماء اللغات من العوامل الهامة في محاولة انفصال هذه الأجزاء عن الدولة العثمانية . وكانت الحملة الضخمة التي شنتها الماسونية على المسيحية عاملا هاما في هذا التشكل الأوروبي ، خاصة بعد عصر التنوير وظهور الفلسفات المادية التي هاجمت الدين بصفة عامة وأعلنت من شأن العناصر والدماء والأعراق . ولقد كان لليهودية العالمية مأرب ضخم من وراء هذا التحول الذي بدأ بالثورة الفرنسية واجتاز طريقه على صراع القوميات وإعادة تشكيل الدول وإسقاط الامبراطورية البولونية التي كان لليهود يحتلون جزءا منها . ولا شك أن إسقاط النفوذ الموحد الذي كان تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية من أهم العوامل في تأكيد سيطرة اليهودية العالمية على الاقتصاد والسياسة والفكر بعد أن انكسر قيد العزلة اليهودية باعلان مبادئ الماسونية العالمية في أول ضربة قوية هي الثورة الفرنسية التي حملت المبادئ (حرية ، إخاء ، مساواة) والتي أنهت بها هزة اليهودى وانكسار القيد الذي كان مفروضا عليه في المجتمع ومن ثم انفسح المجال أمام اليهود للسيطرة على القيادات السياسية في فرنسا ثم في أوروبا جميعها بعد الثورات المشابهة والمعسكة للثورة الفرنسية . وكان على اليهودية العالمية أن تعظم قوة ضخمة أخرى تقف في طريقها للوصول إلى القدس وبناء هيكل سليمان هي الدولة

العثمانية والخلافة الإسلامية ، ونقل مبدأ القوميات من أوروبا إلى الترك والعرب والفرس والأفغان والهنود جميعاً لاحتلاله مكان رابطة الجامعة الإسلامية . ويقول هانس كهن في كتابه « عصر القومية » . إن الثورة الفرنسية التي أعلنت في البداية رسالة السلام العام ألقت بأوروبا في أتون حرب أطول أمداً وأشد تدميراً من أي حرب مضت منذ هددت الحرب الدينية فقد ظهرت الزعامات القومية لأول مرة في إيرلندا وروسيا وأسبانيا وإيطاليا والنرويج .

وأشار إلى أثر ظهور البروتستانتية ومطالبتها بتلاوة الكتاب للقدس مما أعلن على ترجمته إلى اللغات الوطنية ، فكانت هذه الترجمة نقطة البداية التي انطلقت منها اللغات والآداب القومية في طريق التطور والترفيع . ومعنى هذا أن البروتستانتية كانت مقدمة للقوميات التي قامت في أوروبا على أساس اللغات منفصلة عن الكنيسة وعن الفكر للسبب العام . ومن الواضح أن الدعوة إلى القوميات ، على هذا النحو الخطير الذي اجتاحت أوروبا كان مقدمة لبروز القومية اليهودية التي لم يكن لها أي مقوم من مقومات القومية : وهما الوطن أو اللغة . ولقد غزت اليهودية العالمية الدعوة القومية في أوروبا حتى أصبحت هذه الدعوة كما يقول هانس كهن : « أصبحت القومية هي القوة السياسية والثقافية الحاسمة بين جميع الشعوب والحضارات على وجه الأرض وأن القرن العشرين هو أول فترة في التاريخ أخذت منها جميع الجلس البشرى خطة سياسية واحدة هي القومية » . غير أن هانس يعقب على ذلك بأمرين يقرر فيهما النتائج التي وصلت إليها الدعوة إلى القومية التي بدأت في أوروبا وانبتت في العالم كله : أولاً : إن انتشار القومية لم يمهّد السبيل لإيجاد مجتمع إنساني يسوده التعاون والائتلاف . ثانياً : إن القومية على الرغم من كونها منصراً عالمياً وروحاً حراً هي عامل قوى من عوامل الانقسام بين الشعوب ما لم تآخذها روح حرة من التسامح والوافق أو نزعة عالمية إنسانية ذات عقيدة سياسية ، وأن تأكيدها للسيادة القومية وللمميزات الثقافية لا يساعد على تعزيز التعاون بين الشعوب . ويقول نقولاً زيادة : « إن عصر النهضة الأوروبية هي نقطة الابتداء في عودة القومية » . « تفرقت أوروبا من سلطان الكنيسة القوي للسيطر على الفكر وتحررت من سيطرة اللغة اللاتينية التي كانت تسبب بسبيل التعبير عن الأفكار فتركت اللغة اللاتينية جانباً واستعملت اللغة المحلية » . وهو يرى أن فكرة الامبراطورية العالمية والكنيسة الجامعة واللغة اللاتينية قد زالت ليحل محلها الانتقال إلى الفكرة الجديدة : أصبحت الجامعة التي تسكن بلداً واحداً تشعر أنها تتكون من أفراد متشابهين فيما بينهم مختلفين عن غيرهم ، أي أنهم أمة . هذا هو اللناخ الذي نشأت فيه القوميات في أوروبا والعوامل التي

أثرت فيه قبل هو نفس اللشاح الذي نشأت فيه فكرة « المروية » في الشرق . وهل كان العرب في حاجة إلى الانفصال عن الدين الجامع أو اللغة الجامعة - الواقع أن التحديدات يختلف وأن أبرز التحديدات في قيام المروية هو التجمع على أساس الأمة بعد أن سقط العامل الجامع الأكبر على أساس الفكر وهو الدولة العثمانية بمعنى التجمع في وجه النفوذ الأجنبي الزاحف . ولقد كان العرب قد تجمعوا تلقائياً ومن خلال ذاتيتهم ووفق مفاهيمهم وقسمهم على « المروية » للربط بالاسلام : ففكرأ وأما أما ما ألقى إليهم وطرح عليهم من نظرية وافدة باسم القوميات مستمدة من واقع الغرب ومن تجربة قائمة في مضامينها على تشكّل لا يطابق الفكر ولا العقلية ولا الذاتية ولا للزواج العربي الذي شكله الإسلام منذ أربعة عشر قرناً ولم ينفك يؤثر فيه ويرتبط به ارتباطاً عضوياً ، أما هذا الذي ألقى إليهم فهو شيء مختلف .

(٣٤)

من التبعية الغربية إلى الأصالة الإسلامية

(١)

وحدة الفكر العربي الإسلامي

طرح على الفكر الإسلامي ووليدته الثقافة العربية في الأربعينات وما بعدها نظرية القوميات الوافدة كما طرحت من قبل نظريات عديدة في السياسة والاجتماع والقانون والأدب . وقد واجه الفكر الإسلامي هذه النظرية على النحو الذي واجه به مختلف النظريات الوافدة التي جاءت مع النفوذ الغربي ، حيث بدأت المواجهة بالنقوض والنظر ، فحسباً لا يخلو من الإيجاب بالبريق ، والتأثر بالمصدر ، ومحاولة تحليل الأصول ، وظل دهاء نظرية القوميات يطرحون من أفكارهم : المتشاكل والمتعارض . من العديد من المذاهب التي عرفها الغرب في تحليل هذه القضية حيث توجد عشرات المفاهيم الألمانية والفرنسية والإيطالية مما جرى البحث عنها بأقلام العديد من فلاسفة الأجتناس والقوميات والعناصر والدماء والأهراق ، منذ هبت هذه الموجة العاصفة في أوروبا بعد الثورة الفرنسية واشتدّت تحت تأثير تحديدات مختلفة وبتوجيه قوى متعددة ، تحاول أن تشكل المجتمع الغربي تشكلاً جديداً من جميع نواحيه السياسية والفكرية .

وقد كان طبيعياً أن تضل نظرية القوميات الغربية الوافدة مطروحة في العالم الإسلامي الذي كان قد واجه بعد الزحف الاستعماري وسقوط الدولة العثمانية والخلافة موقفاً بالنسبة في الدقة والخطأ ، أفرز اتجاهين أساسيين لتفطية الفراغ وإعادة تشكيل القوى المتجمعة : أما أحد هذه المواقف فهو التجمع الوطني المرتبط بالأرض ثم بالأمة كإكمال من أبرز عوامل المواجهة ، وقد بدأ هذا في ظهور المروية كإكمال لجميع البلاد العربية بعد أن انتهى تجمعها بالدولة العثمانية والخلافة الإسلامية .

وقد كان هذا الاتجاه طبيعياً وتلقائياً وفق القاعدة التي دار فيها التاريخ الإسلامي العربي منذ ظهور الإسلام إلى اليوم بين حلقات ووحدات متداخلة هي وحدة الوطن ووحدة الأمة ووحدة الفكر . فهو يتجه من الأولى إلى الأخيرة ويكر من الأخيرة إلى الأولى على مراحل ووفق التعديلات التي تواجهه والأخطار التي يتعرض لها أو مصادر القوة التي تدفعه إلى الإكمال .

ولكنه لا يخرج عن هذه الحلقات الثلاثة ولا يتوقف عند مرحلة منها باعتبارها الغاية أو النهاية إلا إذا بلغ الوحدة الكبرى : والوحدة في مفهوم الفكر الإسلامي والتاريخ الإسلامي هي وحدة فكر وقيم وهمائذ بالدرجة الأولى ، وليست وحدة أرض أو جنس قائمة بذاتها أو وحدة لغة أو تاريخ منفصلة عن وحدة الفكر نفسه . ذلك أن الفكر الإسلامي كان منذ نشأته متكاملاً وشموخاً وقاماً على اجتماع العناصر المختلفة لأهل تفرقها ، وعلى أساس ارتباط العقل والقلب والروح والمادة أساساً . ومن هنا فإن المروية بوصفها حلقة من وحدات ثلاث متداخلة كانت في ظهورها استجابة طبيعية وتشكلاً تلقائياً للمقاومة ضد الاستعمار كأسلوب لإقامة «تجمع» في دائرة الأمة بعد أن سقط التجمع الأكبر الذي كان قائماً بالدولة العثمانية والخلافة الإسلامية .

هذه المروية — وليست القومية — لم تكن استجابة لمبدأ القوميات الغربية الوافدة ، وإنما كانت تطوراً طبيعياً لحركة اليقظة العربية الإسلامية في مرحلة من أدنى مراحلها اضطرت فيها نخباء ظروف الغزو الاستعماري إلى التحرك مرتين : الأولى إلى دائرة الوطن وهي مرحلة استمرت خلال فترة الحربين العالميتين ، ثم انتقلت إلى دائرة الأمة بمجرد أن اتضحت حركة الاستقلال الذاتي وأسرع بها إلى هذه الحلقة الوسطى ، نهدي الاحتلال اليهودي لفلسطين العربية الإسلامية ، مما سارع بالتحرك الوطني الإقليمي الذي فرضه الاستعمار إلى تشكيل جهامي في دائرة المروية . غهد أن النفوذ الاستعماري لم يدع حركة اليقظة العربية الإسلامية تجري في طريقها الطبيعي أو تنطلق إلى غايتها دون أن يضع لها القيود والمراقيل ويفرض عليها البلية والاضطراب وذلك بطرح هتبرات

من نظريات القوميات والاقليميات الغربية التي اهتمت بها عدد من رجاله الذين تملأوا في الغرب أو
 تخرجوا من معاهد الإرساليات التبشيرية فأصبح كل منهم علم على نظرية سواء أكانت إقليمية الوطن
 أو إقليمية القومية، أو قومية اللغة، أو قومية الأرض أو قومية الرسالة الخالدة . وكانت هذه
 النظريات للطروحة إنما تريد أن تفسد التحرك الطبيعي لحركة البقطة من دائرة الوطنية الإقليمية التي
 ركز عليها الاستعمار طويلا بنظريات الفرهونية والفيليقية والبربرية والآشورية، وغيرها ثم سقطت
 هذه النظريات بعد قليل في ضوء كاشف هو أن العروبة الحنيفية كانت منذ وقت بعيد تندافع موجاتها
 من الجزيرة العربية إلى العراق والشام ومصر والمغرب لتتشكل في أسماء مختلفة يجمعها في النهاية جامع
 واحد منذ ترابطت هذه المنطقة المريقة تحت اسم واحد، وروح واحدة، كان للاديان السايوية المنزلة
 بها أبعد الأثر في صياغتها وتوحيدها . لقد حاول الاستعمار وضع كلمة القومية بديلا لكلمة العروبة،
 حملا على خلق الصراع حتى لا تستطيع كلمة العروبة أن تستكون وجودها أو تحقق ارتباطها الطبيعي
 ولقد كانت هذه المناهج الغربية الوافدة إنما تحاول أساساً أن تجهض هذه الحلقة الوسطى وهذا
 التشكيل العربي الحنفي (الجامع للفكر والعقيدة والعرق والأرض واللغة) أو تقضى عليها . فقد رأى
 الاستعمار أن الدهوة إلى العروبة قد بدأت تشكل بأصالة في مكانها الطبيعي من حركة البقطة ، فلم
 يلبث أن طرح هذه المذاهب في هذه المرحلة كما طرحها في المرحلة السابقة وفشلت وتخطت ، وأدخل
 إليها مفاهيم غربية عنها حاول بها إبعادها عن دائرة الفكر العربي الإسلامي الجامع عقلياً وروحياً من
 ناحية ، وعن العالم الإسلامي الذي يتكامل مع الأمة العربية جغرافياً واقتصادياً وفكرياً أيضاً
 ويستحيل أن ينفصل عنها . ولم يكن للعروبة إزاء ذلك لتحقق وجودها إلا أن تلتصقه من داخل
 مفاهيمها هذه المرتبطة بالقيم التي أعطاه إياها ذلك الفكر الجامع الموحد . نعم ، لم يدع لنا النفوذ
 الغربي قدرة على النظر والاختيار ، ومراجعة هذه الدهوات بل فقد بها إلينا من طرق فرضها فرضاً
 على متاهج التلم وعلى أساليب الثقافة ، وعلى كتابات الصحافة ، وذلك من طريق تلك الأجيال التي
 رباهما أساساً في معاهد الإرساليات واقتنصها هذه النظريات ثم أتاح فرصة القيادة الفكرية في دائرة
 التغريب الزاحية ، وهذا يبدو واضحاً في طرح مفاهيم القومية الغربية في الدولة العثمانية أولاً تحت
 اسم الطورانية ثم في البلاد العربية من بعد أن تشكلت حلقة العروبة طبيعياً وتلقائياً، مستمدة وجودها
 من القيم الأساسية الجامعة للفكر الإسلامي غير منفصلة عنه .

وربما تكون نظريات القوميات الغربية الوافدة التي فرضت نفسها قد أضررت بعض الذين

لا ينعمون الفكر الاسلامي الاصيل ولا يعرفون قيمة ابعاده ، غير أن السنوات الطويلة التي انقضت في المراجعة والمواجهة ، كشفت عن حقيقة واقعة : هي أن هذه النظريات متعارضة مع طبيعة النفس العربية والعقل العربي ، وأنها بادية الزيف ، وبادية الاختلاف مع المزاج للنفس ومع الذاتية الأصيلة ومع العقائد المؤصلة التي تشكلت عليها هذه الأمة منذ أربعة عشر قرناً ، ولقد كان هذا شأن الفكر الاسلامي دائماً في مواجهة النظريات الوافدة ، يصارعها على مهل ، ويأخذ منها ما يتفق مع كيانه الاصيل ثم يدفعها برفق لتندحرج بعيداً . لقد كشفت الحقيقة الواقعة أن هذه النظريات الوافدة لا تتفق مع طبائع الأمة وأصولها وإن الزيف لا يستطيع أن يحمل عمل الأصالة ، مهما بدأ له من بريق ساطع ، أو أصوات تملو وزدد ، وتتمدد ، لقد كشف جوهر الفكر الاسلامي العربي عن أن هذه النظريات الوافدة تتعارض معارضة أصيلة مع الذاتية العربية الإسلامية والمزاج للنفس للام التي شكلها الفكر الاسلامي ، وإن هذه الأم لا بد أن تعود لجوهرها الاصيل بالرغم من كل القيود والقوى التي تحاول أن تقسمها في أوضاع محددة . ويبدو ذلك واضحاً في كل البلاد الإسلامية التي اهتمت نظرية القوميات الغربية الوافدة ، ويبدو جلياً واضحاً في المنطقة العربية ، والتي تمد منطلق اليقظة العربية الإسلامية في العصر الحديث إنطلاقاً إلى نهضة شاملة والتي كانت نظريات الإقليميات والقوميات الإقليمية الوافدة عاملاً على تمويقها وتحطيم طريقها ومن هنا قد آن لفكر العربي الاسلامي أن يكشف عن جوهره ويصدر عن نظرة أصيلة تقوم على « وحدة الفكر » أساساً للعروبة ، إيماناً بذلك الترابط العضوي بين العروبة والإسلام الذي شكلته علاقة امتدت خمسة عشر قرناً وقام على أصول نفسية واجتماعية تشمل الذاتية والمزاج والروح العربي الاسلامي التي يختلف اختلافاً جذرياً عن القانية والمزاج والروح الأوربي الغربي .

قوام هذه النظرة : أن وحدة الفكر والقيم هي أساس العروبة الحثيفية ذات الجذور العميقة التي تشكلت في هذه المنطقة منذ تأملت لرسالات السماء والتي مضت تصحح نفسها مرحلة وفق ذلك التكامل الاصيل بين الروح والمادة والقلب والعقل والدين والدنيا فجاء مفهومها الفكري ، قائماً على أن أساس أن الفكر الاسلامي هو فكر جامع للمجتمع والأخلاق والعقائد ، وبمحيبانه فكر العروبة الحقيقية الجامع بين الأديان السلوية جميعاً التي هي من مصدر واحد فهي عروبة ذات أرضية من الفكر الاسلامي والاسلام من غير المسلمين فكر ، وللمسلمين دين وفكر ، وهي عروبة مفتوحة ثقافياً على الفنايخ والتراث والقديم ، ومفتوحة جغرافياً على العالم الاسلامي والأمم الإسلامية . وهذه العروبة

حلقة من وحدات ثلاث متداخلة متكاملة هي وحدة الوطن ووحدة الأمة ووحدة الفكر كل منها تسلم إلى الأخرى بترتيبها الطبيعي . وإذا كان مفهوم التكامل على مستوى الأمة في هذه النظريات يقوم على أسس متعددة تعدد النظريات وتعدد الأمم التي ظهرت فيها هذه النظريات انطلاقاً من الفكر الغربي الأوربي المنجزاً القائم على الانفصال بين القيم ، فإن الأمر يختلف تماماً في الفكر العربي الاسلامي . فحيث تكونت وحدة اللغة ، أو وحدة التاريخ ، أو وحدة المفاهيم الاجتماعية أو وحدة العادات أو وحدة التقاليد ، كل منها وحدة قائمه بذاتها ؛ نجد أن هذه العناصر المختلفة مجتمعة في الفكر الاسلامي ما يسمى « وحدة الفكر والقيم » ولذلك فنحن لا نأخذ النظرية الغربية التي تركز على اللغة وحدها كما شاع أخيراً وذاع ، ذلك لأن اللغة في مفهوم الفكر الاسلامي هي أداة الفكر فليست هي بنفسها التي تصنع الأمم إنما يصنعه ذلك الفكر الذي تحمله اللغة . هذا فضلاً عن أن مفهوم اللغة يختلف لدينا عن مفهومه في الغرب ، حيث يقولون إن الأمة تسقط إذ سقطت اللغة ، ولكن التاريخ الاسلامي العربي المعاصر يشهد بأن أمة بالذات هي الجزائر لم تسقط بعد أن سقطت اللغة ، لأنها استتست أساساً على الفكر فجماها ، فلم تكن اللغة العربية هي التي حفظت للجزائر كيائها الضائع في وجه النفوذ الاستعماري وإنما كان الفكر الاسلامي أساساً الذي كان سندها وعمادها ومصدر قوتها ومنطلق انبعاثها

(٢)

وحدة الفكر لا وحدة اللغة

فمن وجهة النظر العربية الاسلامية . تقوم وحدة الفكر والقيم أساساً لوحدة الأمة ، وليست اللغة وحدها هي التي تمثل جزءاً من هذا السكل المتكامل الجامع ولكنها أحد عناصر الفكر : إن اللغة هي وعاء الفكر لا الفكر نفسه فكل عناصر الفكر إنما تتشكل في اللغة ، ولذلك فإن الفكر هو الذي يصنع اللغة وليست اللغة هي التي تصنع الفكر . ولقد كانت اللغة العربية قبل الاسلام على ما بها من قدرة استيعاب لا تحصى إلا مشاعر قبليه فلما جاء الاسلام ونزل بها القرآن خلقها خلقاً جديداً حتى يبدو الفارق بعيداً جداً بين مضامينها وما ألقى إليها من قيم ومفاهيم . ومن هنا جاءت استحالة ترجمة القرآن لأن الحصة التي أعطاهها القرآن لفته جعلتها لغة قرآنية خالصة . ومن هنا أصبحت لغة فكر ولغة أمة ، وأصبح من المستحيل الفصل بين وجوبها وكان القرآن هو المصدر في بقائها وامتدادها وحياتها إلى هذا الوقت على النحو الذي نستطيع به أن نفهم ما ألقى إليها منذ خمسة عشر قرناً . فالفكر أساساً هو الذي

صنع اللغة العربية ، والفكر هو قوامها ومضمونها . هذا المعنى لا يرد على خاطر الداعين إلى أن الأمة العربية تجميعها اللغة ، إنما يرد بدلا منه القول بأن اللغة أداة تعبير . إن الفكر الاسلامى العربى وليس اللغة هو الذى صاغ فكر العرب ووجه أدواقهم وفرس نماذج القيم الكبرى فى نفوسهم . والفكر الاسلامى وليست اللغة هو الذى صنعت وتصنع وحدة النظرة إلى الحياة والآثار المكتوبة ومضامينها من شعر وقصص وأمثال وحكم وهى التى تمثل وحدة الاستجابة وليست اللغة .

والنشابة العقل وللزاجى والتكوين النفسى ليس إلا نتيجة الفكر لا اللغة ، وإذا قيل إن اللغة هى أداة وحدة الأمة ، فإن اللغة العربية لم تكن كذلك بدون القرآن الذى حفظ اللغة من التفتك إلى عاميات وكذلك حفظها من الانقراض . وهو الذى حد من تطور الهجات الإقليمية العامة وبذلك حفظ الإسلام عاملا هاما من هوامل العروبة . والقرآن وهو مصدر الفكر العربى الإسلامى — هو الذى حال دون تطور الهجات العربية إلى لغات مستقلة قائمه بنفسها ، ذلك إن وحدة الأمة الروحية والفكرية واللعنوية القائمة على القرآن بقيت سليمة بعد أن تجزأت سياسياً . وليست اللغة ولكنه الفكر العربى الإسلامى الذى حقق وحدة العرب (مسلمين وخير مسلمين) فجعلهم متشابهين فى نظرتهم إلى قيمة الشخصية الإنسانية وإلى العمل الإنسانى وإلى الوقت وإلى المرأة وإلى فهمهم للشرف والشهامة وقصة العرض والوفاء والسكرم والضيافة وحماية الجار . وبالرغم من تأكيد بعض دعاة نظرية القومية الواحدة على اللغة كأساس لوحدة الأمة فإن أحدهم يقول : إن القرابة بين الأمم تكون نفسانية ومعنوية أكثر مما تكون جسيانية ومادية ، وإن أقرب العوامل التى تؤدى إلى تكوين القرابة للعنوية هى اللغة والتاريخ ، فإن الاعتقاد بوحدة الأصل إنما تكون فى الدرجة الأولى من الوحدة فى اللغة والاشتراك فى التاريخ .

ولو كان هذا الباحث منصفاً لوصل إلى أن الجوهر فى القرابة للعنوية والنفسانية بين الأمم هو وحدة الفكر الكبرى ، الذى يدخل إليها عناصر لا تحصى ولكن الانتهاء للنظرية الغربية وحدها والدوران فى فلكها قد حال دون اكتشاف العوامل العديدة التى تشكل العروبة والتى تضمها جميعاً وحدة الفكر . وإذا كانت اللغة كما يقول ساحل الحميرى هى واسطة التفاهم وهى آلة التفكير لأن التفكير ما هو إلا نكلم باطنى والتفكير إنما هو نوع من التفكير الجهرى . فإنا نترك الأصل ونتمسك بالفرع . نترك الفكر نفسه وهو الأصل الذى جاءت اللغة واسطة له وآلة ، ونتمسك بالآلة الواسطة ، ونركز عليها . ولكن أمر ذلك معروف فإن ساحل الحميرى ، ربيب الطورانية والأنحاديين ، والمخاض

للساكنة ، والفكر العربي لا يستطيع أن يفتح باباً خطيراً ، هو باب الفكر العربي الإسلامي لأن ذلك من شأنه أن يحطم كل ما يذهب إليه من خلاف وما يذهب من تعارض بين العروبة والإسلام . وليس صحيحاً ما يقوله ساطع الحصري من أن الأمم تتميز بلغاتها في الدرجة الأولى ، وإنما الحقيقة إن الأمم تتميز بفكرها ، هذا الفكر الذي تصنمه مقومات مختلفة ، كما أنه ليس صحيحاً ما رددته من أنه إذا ضاعت لغة أمة فقد فقدت الحياة ، ذلك أن فكر الأمة هو في الحقيقة مصدر ضياعها أو بقائها . ولقد ضاعت اللغة العربية في الجزائر ولكن الفكر الإسلامي استطاع أن يبتعثها من جديد واستطاعت من طريق فكرها أن تسترد وجودها ولغتها . ولماذا يتحدثون عن اللغة وعن التاريخ كأنهما قيمتان مستقلتان والفكر بجمعهما . وما هي اللغة العربية بغير الإسلام والقرآن إلا مجمع الكهان ، وما هو تاريخ العرب إن كان لهم تاريخ إلا تاريخهم الإسلامي ، إن الاستعمار لا يحارب اللغة وحدها ولا التاريخ وحده ولكن يحرّك الفكر كله ويركّز على التشابه العقلي وللازواج والتكوين النفسي ووحدة النظرة في شؤون الحياة ووحدة الاستجابة للوثرات الخارجية ، ويردونها جميعاً لغة ، فهل من الحق ، إنها ترتبط باللغة أم أنها ترتبط بالفكر أساساً . وإن النظرة العربية إلى مختلف القيم الأساسية في الحياة والمجتمع إنما مردها إلى تلك الأصول والقيم التي شادها الفكر الإسلامي العربي ، والتي ترتبط بنزول الأديان السماوية في هذه المنطقة ونفسية العرب وخصائصهم التي كونت همتهم . إن وحدة الفكر الإسلامي العربي في الحقيقة قد صنعتها الأديان والثقافات التي هرقها هذه للمنطقة والتي تشكلت في وحدة واحدة ، وهي التي صاغت وحدة اللغة ووحدة التاريخ ووحدة التقاليد ووحدة العادات ووحدة النظم الاجتماعية .

ومن هنا فإن مفهوم نظرية القوميات الواحدة ، هذا المفهوم المغلق المحدود باللغة والتاريخ منفصلين عن الفكر الإسلامي وما شطر منه ، لا يستطيع أن تجاوب مع النفس العربية الأصيلة ، فهي محدودة وناقصة من ناحية لأنها لا تستوعب الفكر الإسلامي في شموله وتكامله ، وهي مغلقة لأنها تريد أن تنفصل عن ذلك الانتر الضخم إلى المتفاعل الذي تركه الإسلام في الأمة العربية وما تزال مرتبطة به في مختلف نواحي التاريخ والثقافة والتراث والسياسة والحضارة . وهي في نفس الوقت نظرية حائرة لأنها تعارض وتخاصم امتدادات الأمة العربية المرتبطة بوحدة الفكر الإسلامي إلى الفرس والترك والهنود مبصرة أوجه الخلاف مؤججه نار الخصومة هي نحو (يوم بعث) . ثم هي بعد ذلك دخيلة مستوردة وافدة نحاول أن نتحايل بأجزاء ومزق من هشرات النظريات في القوميات تجمع وتنشكّل ثم لا يستطيع أن تواجه وهج الحقيقة ولا ضوء الفكر العربي الإسلامي الساطع .

إن العرب من حيث تربطهم وحدة فكر منفتحون على البربر والفرس والترك والزنج والاكرااد وعلى الفيليبية والفرهونية والآشورية ، بحسبكم أنها موجات أو حلقات في هذه الرابطة العربية الخنيفية . إن الفكر الاسلامي لا الاجناس والعرق والدماء هي أساس وحدة العروبة فإن الفكر الاسلامي المستمد من القرآن لم يصنعه جنس معين ، وليس هو للعرب وحدهم ، ولم يكن من صنائه عروق وانما هو وليد مناخ اسلامي أصيل ، وفكر مستوهب للعقول والقلوب جميعا ، فلا هبرة بما يقال بتقدم جنس على جنس في العالم أو الحضارة الاسلامية العربية ، ذلك أن القرآن أساسا هو صانع العقل العربي الاسلامي والفكر كله . إذن فالفكر لا الأمة ولا اللغة ولا الأرض - ارتفاعا فوق نظرية العنصرية العرقية - هو أساس الوحدة ، وفي بوتقته صيغت اللغة والتاريخ وتشكلت النفسية والعقلية ، وللشئنة ، وتكاملت وحدة الماضي والحاضر . وخطأ التعارض بين اللغة والفكر دو ما يسمى « بالدين » والدين كلمة لم تفهم في الفكر الاسلامي فهما صحيحا فهي مازال تحمل مفهومها الفكر العربي المسيحي اللاهوتي الذي لا يمتد الإسلام الذي جاء جامعا للدين والاجتماع والحضارة . فالإسلام هو الصورة النهائية لأديان السماء التي نزلت إلى هذه المنطقة منذ جاء إبراهيم بالحنيفية السمحاء فهو قد تشكل في صورته المتعددة حتى استوفى صورته السكالة في الإسلام بفعل حامل التكوين النفس المشترك ووحدة التاريخ بين العرب والمسلمين ، وبين المسلمين والعرب غير المسلمين فنحن إذن أمام وحدة الفكر الجامعة : التي تضم كل عناصر الوحدة المفرقة التي تحاول النظريات الغربية الوافدة أن تقدمها منفصلة .

إنها جماع العقلية ، واللغة ، والتاريخ ، والتراث ، والمشاهير والعواطف والتقاليد والقيم والتحديات . والفكر هو كل هذه القيم جميعا مجتمعة مترابطة . واقد صيغ مفهوم العربية والعروبة مرتبطا بالإسلام منذ أول الإسلام على نحو واضح صريح . فالعربي ليس من يتكلم عربيا بل من يفكر عربيا ، وإنما العربية اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي ومن هنا كانت الدعوة إلى تعريب المسلمين أي أن يصبح كل مسلم عربي الفكر باللغة والقرآن ، والفكر الاسلامي كان دائما مصدر الوحدة وليس المنصر أو الجلس . واختفاء اللغة لا يحول دون بقاء الأمة ، وصالح الدين الكردي والظاهر بيبرس الملوكي وهيد الكرم الخطاطي البربري كلهم من داخل نطاق وحدة الفكر الاسلامي الجامعة ، الكردي والفرس والبربر والمسلمين والمسيحيين واليهود ، واللغة والشيمة ولكل الفرق والاجناس والأديان التي تحتويها منطقة (العروبة الخنيفية) ليست هناك ثقافة للمسلمين وحدهم ، وليس هناك فكر للمسلمين وحدهم ولكنها ثقافة جامعة وفكر جامع .

ولقد وجدت نظرية اللغة رديداً ومعارضات تاريخية وهلمية أسقطتها ولم تجد أمامها دفاعاً ، فإذا
 قلوا إن اللغة أس الأساس لوحدة الأمة فقد كانت اللغة مشتركة بين بريطانيا وأمريكا وأيرلندا وفي
 سويسرا ، ثلاث لغات وفي بلجيكا لغتان وكانت هناك قوميات لها أكثر من لغة ، فالانحداد في اللغة
 لا يقضى حتماً نشوء وحدة أو نشوء قومية ، وسقوط اللغة لا يقضى على الأمة ، فالفكر وليس اللغة
 أساس الوحدة . ولذلك فإن الامتياز يحاول أن يحطم وحدة الفكر الإسلامي بإدخال فكره ومترجماته .
 لقد ركز ساطع الحمري على اللغة استمداً من ماكس نوردي اليهودي الذي خلف هرتزل في
 قيادة الحركة الصهيونية والذي دعاه بالعالم الفيلسوف ، والمعروف أن هرتزل إنما كان يستهدف هو
 وقومه بالدعوة إلى القوميات إذاعة القومية اليهودية . ولذلك فقد صنعوا النظرية في مواجهة أمرين :
 معارضة العروبة ونزقيها وإقامة يهودية وبناءها . ولم يكن لليهود لغة قائمة في ذلك الوقت ولكن دعاة
 القوميات جميعاً أكدوا أن اليهودية دين وقومية ولو لم يكن لها لغة أو أرض أو وطن . فلا عبرة بما
 قاله ماكس نوردي ، ولا هيردر ولا رينان فقد كان هؤلاء يصدرون من مشاكل أهم الخاصة
 ويضعون النظريات في ضوء تحديات مجتمعاتهم وعصرهم ونكون نحن أبعد الناس من الحق حين
 ننقل من أمم صاغت أفكارها في ضوء ظروفها وأوضاعها وفي مواجهة تحدياتها ولنا من ظروفنا
 وأوضاعنا ومفاهيم أفكارنا ما يأذن لنا بأن نحدد مكان العروبة ، في بناء الفكر العربي الإسلامي وفي
 مجال اليقظة العربية الإسلامية .

(٢)

ما هو الفكر العربي الإسلامي

من حقنا وقد نقرر أن وحدة الفكر هي أس الأساس في العروبة التي هي حلقة وسطى من حلقات
 ثلاث : تتحرك بينها الأمم في ظل التاريخ العربي الإسلامي قوة وضعفاً ، وتتجمع في أحدها في مواجهة
 الأحداث والغزو ، ومن حقنا أن نقائل : ما هو الفكر العربي الإسلامي الجامع وما علاقته بالأديان
 والثقافات . إن الإسلام بطبيعته دين ومنهج حياة ، وقد أقام منذ اليوم الأول لظهوره حضارة
 استوعبت ثقافات الأمم التي دخلت في نطاقه ، وفلسفتها بعد أن استصغى جوهرها وأذابتها في بوتقته
 وشكلها من جديد في إطار التوحيد الذي هو القيمة الأساسية العليا للأديان السماوية التي نزلت في
 هذه المنطقة .

ولقد كانت هذه المنطقة العربية الحنيفية بؤرة رسالات السماء منذ أنزلت وكان أهلها دعاتها وحملتها ، وكان الإسلام خاتماً وخلاصتها للصفاة . ولقد أفر الإسلام تلك القاعدة الواضحة ، القائلة : « لا إكراه في الدين » ومن ثم فقد ترك جانب العقيدة أو اللاهوت في الإسلام للمسلمين وحدهم كما ترك العقائد في الأديان المختلفة في صورتها الواقعة ، ونشأت هناك حصارة عقلية واجتماعية استصفت كل ما حصله العقل البشري والفكر الإنساني من علوم وثقافات وأفكار وفلسفات وكان قوامها ما عرف بالفكر الإسلامي العربي الذي لم يعد ملكاً للمسلمين وحدهم ولكنه أصبح فكر هذا العالم الحنيفي الذي نزلت فيه الأديان وانفتحت آفاقه على الفرس والترك والمزرد وغيرهم . ومن هنا فقد أصبح الإسلام بمحكم طبيعته ومن واقعه الفكري والثقافي ديناً ومنهج حياة ، فهو لا يحاكم مطلقاً على فهو ما يحاكم الأديان اللاهوتية التعمدية التي اقتصرت على توثيق العلاقة بين الله والإنسان . وهذه هي نقطة الخطأ للتعبد أحياناً في محاولة محاكاة الإسلام والفكر الإسلامي إلى مواقف مشابهة لفكر الغربي من المسيحية أو غيرها من الأديان . ومن هذه النقطة الدقيقة نجى جميع الخلافات الخاصة بالقوميات الإثنيات والخاصة بالديقراطية والاشتراكية ، والخاصة بالأدب والقانون والسياسة والاجتماع . فالإسلام دين ، ولكنه منهج حياة ونظام مجتمع وحضارة وفكر مستوهد كامل لأبعاد الحياة المختلفة . وهو دين للسلم ولكنه أيضاً فكر وثقافة وحضارة وحرف وتقاليدهم القيم لخير للمسلمين ، الذين انصهرت ثقافتهم وفلسفاتهم في الفكر الإسلامي منذ وقت طويل وتشكلت حياتهم الاجتماعية على هذا النحو فلم يكن لهم فكر مستقل منذ بزوغ الإسلام ولا تاريخ مستقل بل مشاركة كاملة أخذاً وعطاء في الفقه والقانون والاجتماع والتربية :

ولقد كان المسلمون والمسيحيون وكل الطوائف والمذاهب ، دينية وعرقية قد صاغت نظرية كيانها الاجتماعية والعقل والروحي في شكل واحد وصورة واحدة ، لا تختلف إلا في أمر واحد هو أن يذهب للسلم إلى المسجد والمسيحي إلى الكنيسة ، وكل أمر بعد ذلك تواجهه نفوس قوية للتناق والاحساس والمشاهر ، بحيث يمكن أن يقال هناك مزاج فكري واحد عربي إسلامي ، شكلته الأديان منذ إبراهيم ، ووضع في صيغته النهائية منذ جاء الإسلام الذي لم يفرق بين مسلم وغير مسلم ، ولا بين عربي وعجمي ، في تنظيم واسع مفتوح مرناً (ليس لابن البيضاء فضل على ابن السوداء) : لقد انصبت كل القيم الفكرية والثقافة والاجتماعية الهندية والفارسية والرومانية والمسيحية والافريقية في بوتقة الفكر الواحد الذي صاغ منها وتشكلت منه كاملاً . والمسيحيون في هذه الجماعة مشاركون في هذا الفكر والذرة والتراث ، وتتكون ثقافتهم من تعاليم دينهم المسيحي مع ثقافة الإسلام الجامعة ،

هذه القيم الفكرية التي هي قيم كل مسلم ومسيحي ويهودى فضلا عن تشابه القيم الروحية بين أهل الأديان في أنها جميعا رسالة السماء ومصدرها واحد هو الحق تبارك وتعالى وهدفها هو الحق والخير والعدل . « ومن هذه القيم والمعاني التي تبلورت في بوتقة الفكر العربى الاسلامى تبدو (وحدة الفكر) مقدمة على وحدة الجنس ، وهي تصبوغ (روح الأمة) ولقد أفصح كثير من الكتاب المنصفين عن هذا المعنى .

ومن هنا يبدو الخطر البالغ الذى تنهيه نظرية القوميات الغربية الوافدة فى الفضل والتجزئة بين المفاهيم ، فانه وحدة فكرنا تتمثل فى امتزاج القيم واندماجها ، فنحن نؤمن بالروح والمادة والعقل والقلب ، والدين والدنيا ، كلها متكاملة وليست منفصلة وليس فكرنا العربى الاسلامى روحيا خالصا وليس ماديا خالصا ، فهو فطرة متكاملة إنسانية شاملة تمتزج فيها ، العروبة والاسلام ولا ينفصلان . ومن هنا يبدو الخلاف الواضح بين النظرة الغربية الاسلامية إلى « القوميات » ، وخامة فى القول الذى يركزون عليه : « إن الدين ليس من مقومات وحدة الأمة » . ويصدق هذا القول إذا أريد بالدين ، أى دين لاهوتى تعبدى ، أما الاسلام فإن الموقف بالنسبة له يختلف ، لأنه يجمع بين هذا الجانب الذى لا يرتبط به إلا أهله ولا يفرض على غيرهم وبين شقه الآخر المتكامل معه ، وهو أنه نظام مجتمعي ومنهج حياة وحضارة وفكر إنسانى جامع لفكر الأمم والأديان والأهراق والعلاقات التى شاركت فيه ، هذه الثروة التى صبت جميعها فى بوتقة الاسلام فصاها فى إطار التوحيد . وقد كشف كثير من الكتاب المنصفين هذه الحقيقة وأفاضوا فى التعبير عنها وبما قالوه : إن الاسلام بالنسبة إلى العرب ليس عقيدة أخروية فحسب ، ولا هو أخلاق مجردة بل هو أجدى مفصح عن شعورهم السكونى ونظرتهم إلى الحياة ، سوف يعرف المسيحيون العرب أن الاسلام لم ثقافة قومية يجب أن يشبعوا بها حتى يفهموها فيحرصوا على الاسلام حرصهم على أمن شيء فى هروبهم . هذه هي وحدة الفكر العربى الاسلامى التى ربطت العربى غير المسلم بالمسلم العربى فى قيم أساسية ومقومات أصيلة ، فالفكر الاسلامى يشمل العروبة والاسلام جميعا ، وإن نصرانية الذين لا تحول دون إسلامية الفكر ، وإن العروبة لا تصارع الإسلام ولا تتف فى الوجه المضاد وإن التجربة الغربية للدين والقومية قد تؤخذ مأخذ الاعتبار ولكن لا تؤخذ مأخذ التطبيق فإن مفاهيم فكرنا العربى الإسلامى تختلف فى جذورها عن مفاهيم الفكر الغربى أساسا . وإن وحدة الفكر العربى الإسلامى هو ذلك الانفعال الوجدانى والعقلى إزاء الأحداث والأخطار والتصرفات اليومية .

(٤)

خاصية الفكر العربي الإسلامي

إن أبرز خاصية للفكر العربي الإسلامي تلك التي تفصله عن الفكر الشرقى الروحى نتائج فلسفات (زرادشت وبوزا وكنفوشيوس) وعن الفكر الغربى المادى نتائج فلسفات (داروين وماركس وفرويد) يبدو بينهما الفكر الإسلامى جامعاً للروح والمادة، والعقل والقلب، فى شكل متمزج متكامل : والفكر الإسلامى وحدة كاملة عناصرها : الاجتماع والسياسة والاقتصاد والقانون والفقه والتاريخ هذه الوحدة لا سبيل إلى فصلها ، بإعلاء عنصر منها على مختلف العناصر أو إقراره بالحركة والواقع أنه لا يوجد قطاع من الفكر الإسلامى يمكن فهمه أو التعامل معه لو أخذ بمفرده ، وهزل عن القطاعات الأخرى . ولذلك فإن أخطر محاولات التغريب كانت تنصب على تمزيق وحدة الفكر الإسلامى إلى مقومات مستقلة وإعلاء بعضها . ومزية الفكر العربى الإسلامى هو شموله واتساع آفاقه ورعايته فى تقبل الجديد دون الخروج عن جنوده وأصوله ، والتسكيف مع واقع البيئات وأوضاع المجتمعات . وأبرز عوامل التكامل فى الفكر الإسلامى ارتباطه بالتراث والجنود والماضى والتاريخ فهو لم ينفصل عن الماضى ، بل استمر متصلاً ، ولم يتحول ، إلى تراث متعفى ثم أهيد إحيائه بل ظل متفاعلاً حياً خلال هذه القرون المنصلة وكانت حلقات التاريخ العربى الإسلامى مؤجات متوالية تسلم إحداها إلى الأخرى وهو فكر قادر وفق قانون الأساسى أن يتجدد من الداخل ولتنسج منابعه الأساسية فى كل أزمة تلم به ، فيعيد تشكيل نفسه من جديد . ومن أبرز مميزات أنه أقام «وحدة فكر» اجتمعت عليها الأجناس والأمم والثقافات ثم انصهرت فيها . والفقه والأدب والتاريخ كلها قطاعات من هذا الفكر للتكامل ، ولا تستطيع هذه العناصر أن تتحرك إلا من داخل الإطار الموحد .

وقد فرق الفكر العربى الإسلامى بين المعرفة والمعقيدة فالأولى عامة للبشرية، والثانية خاصة لكل أمة، كما فرق بين العلم والفلسفة ، فالعلم عام للأمم وهو نعمة التجريبية ، والفلسفة نظرية عقلية خاصة بأمة أو عصر .

ويجمع الفكر العربى الإسلامى بين الفردية والجماعية فى تعامل صادق ، كما يجمع بين الثبات والتطور فالقيم الأساسية فيه ثابتة الجذور ، متطورة الفروع ، ثابتة الاطار متحركة الأجزاء ، ولقد رسم الفكر العربى الإسلامى إطاراً صرناً واسعاً وترك حرية الحركة تجري من داخله .

وفي الفكر العربي الإسلامي لا ينفصل الدين عن المجتمع ، ولا الجديد عن القديم فالجديد صورة
أخيرة لتطور القديم والقديم خلاصة خبرة السابقين ، وأبرز مظاهر الفكر العربي الإسلامي الأخلاق ،
ذلك القامم المشترك على جميع عناصر السياسة والاجتماع والتربية والقانون . وكان الإيمان العميق بالله
أساس الفكر العربي الإسلامي هو العامل الأكبر الذي جنبه الانقسام إلى جانب ديني وجانب
هقلي . وقد وجع الفكر العربي الإسلامي وحدة الفكر أساسا على عصبية الجنس أو العنصرية .
وقد كانت عقيدة التوحيد هي التي ألهمت العرب والمسلمين فكرة الشخصية الدينية ،
حررت حقوقهم من الوثنيات الموروثة وجمعهم على عقيدة واحدة ترفع النفوس عن الخضوع لسكان
من كان إلا الواحد الأحد . فالفكر العربي الإسلامي كيان حضوي متكامل ، وكائن حي ذو وحدة
متعددة الجوانب تفتح الانسجام والتوازن والتعاون ، وفي داخله تتربط القيم الدينية والاجتماعية
والسياسية وللقومات كاللغة والتاريخ والتراث .

* * *

(٥)

الفكر الإسلامي والثقافة العربية

إن الفكر الإسلامي هو الأصل الذي منه خرجت الثقافات: العربية والفارسية والتركية والهندية
وغيرها : والثقافة منذ نشأت ارتبطت باللغة والأمة ، والثقافة العربية وليدة الفكر الإسلامي ومنبثقة
من مقومات واسعة غير منفصلة عنه إلا بحسبانها ثقافة أمة ، قوامها اللغة العربية . ويضم الفكر بحسبانها
فكر العالم الإسلامي ، كما تضم الثقافة على أساس أنها ثقافة الأمة العربية : وحدات أساسية أبرزها :
الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتربية والعلم والدين والأخلاق والقانون .

وأم قوانين الفكر الإسلامي والثقافة العربية إن هذه الروافد متكاملة وإنما جيمها متصل
بالمجتمع والانسان تنمو جيمها في بناء كامل لا ينفصل ولا يتجزئ بل تتواصل وتتكامل ، تقوم
أقساماً على التوازن والشمول فلا ينمو منها رافد على حساب رافد آخر ، ولا يستعمل قطاع على حساب
قطاع آخر .

وبمثل الفكر الإسلامى (كما نثل الثقافة العربية وليدته وللمستمدة منه) نظرة شاملة متكاملة إلى الحياة والمجتمع والحضارة يمكن أن يطلق عليها أبدلوجية مرمة .

الحلقات الثلاث فى روابط الإلم والشعوب

يدور الفكر الإسلامى فى ثلاث حلقات متكاملة متداخلة طوال تاريخه كله : الرابطة الصفرى : الوحدة الوطنية . الرابطة الوسطى : العروبة . الرابطة الكبرى : وحدة الفكر . وقد مررت الحضارة الإسلامية بالروابط الثلاث على التدرج فى تاريخها الطويل وفى حالات الأزمت والتحديات وعندما يقع الانفصال بين التجمعات الكبرى تلمس الرابطة الصفرى ثم تنتقل منها إلى الرابطة الوسطى . وهى فى مختلف هذه الحلقات تلمس مفاهيم الفكر الإسلامى الجامع الموحد ، المفتوح على التاريخ والتراث ، والمفتوح على الأمم والشعوب التى تربطها وحدة هذا الفكر . ولقد كانت رابطة الانتماء إلى فكر موحد أو ثقافة موحدة هى أوسع هذه الروابط وأعقها وآخرها ظهوراً بعد أن استحصدت العائلة البشرية وارتفعت فرق القبلات والإقليمات وتمصبها . فقد شككت وحدة الفكر رابطة كبرى بين الأمم التى تلافى على ثقافات تربطها أصول واحدة من العقائد والقيم والمنومات ، وكانت الرابطة العربية الإسلامية أقوى هذه الروابط وأوسعها نطاقاً وما تزال كذلك لأنها تقوم على عقد اجتماعى مكتوب هو « القرآن » الذى لا يزال هو اللغة الجامعة الموحدة (دون اللغة العربية واللغات الإقليمية) فالقرآن لغة وتاريخ وفكر جامع . ووحدة الفكر هذه ليست ملكاً للمسلمين وحدهم ولكنها ملك لأهل هذا العالم الواسع الجامع بمن فيه من أمم وأديان وأعراق وهقائد ولغات لأنها كلها قد صهرت فكرها وثقافتها فى هذه الوحدة الجامعة : وحدة الفكر العربى الإسلامى .

(٣٥)

ترابط العروبة والإسلام

إن التكامل بين العروبة والإسلام أمر طبيعى يصل فى قوته وعمقه إلى درجة الترابط العضوى الذى إذا فعم انتهى به أمر العروبة والإسلام معاً وهو ما يصعب تصوره أو القول به . وليس من البسير فهم أبعاد هذا التكامل أو الترابط إلا بدراسة واسعة عميقة مستوعدة لمفهوم العروبة ومفهوم الإسلام . فالعروبة هى الوعاء الذى ظهر فيه الإسلام أول مرة ومنه أمتد واتسع فى الأفاق ، ومن هنا فقد بقى هذا الوعاء قائماً منذ شكله الإسلام ، ولا يزال على مدى التاريخ له مكانة القيادى الواضح

من حيث أنه هو « الأم » التي أصدرت وأوردت وحملت اللواء وأنداحت به في العالمين ، عائدة بالمسلمين جميعاً إلى قبلة واحدة ، ومركز ثقل واحد لاسبيل إلى التجمع حول غيره أو انفراطه باهتباره مركز الدائرة . ولقد كانت هذه المنطقة منذ قرون بعيدة سابقة على الأديان الثلاث الكبرى قد تأهلت لرسالة السماء ولبعوث الأنبياء ولدهوة التوحيد وكان أبرز هذه المعالم « الحنيقة السمحاء » التي حملها إبراهيم ومنها امتدت إلى أبنائه (إسحق) جد اليهود والمسيحيين و (إسماعيل) جد العرب وظلت هذه المنطقة الممتدة من العراق إلى آسيا الصغرى إلى فلسطين إلى مصر على أيدي هذا الجنس أو هذه الأمة أو هذا الأهراق وكان الإسلام هو صورتها النهائية والعالمية في « الإسلام » المنزل على محمد بن عبد الله ديننا ونظام مجتمع قوامه كتاب عربي مبين هو القرآن . هذا هو الترابط الجذري للمعيق تحت اسم العروبة الحنيقية : هذه الأمة التي انطلقت من الجزيرة العربية موجات بعد موجات منذ خمسة آلاف عام ، إلى مصر وإلى الشام وإلى العراق وإلى المغرب ومنها كانت هجرات الأكاديين والآشوريين والكنعانيين والآراميين والأنباط والمناخنة والفسطاطية والهجرة الإسلامية الكبرى وهجرة الأكراد والآراميين الحديثة والشركس والتركمان والأتراك . وذلك لا عجب أن تكون هناك أمم وحضارات ومذاهب تشككت داخل هذا المعترك الضخم مما ظهر أخيراً تحت أسماء الفينيقية والبابلية والفرهونية والآشورية والبربرية وكلها ذات مصدر واحد ، وكلها انصهرت في الإسلام ، هذه الأجناس وهذه الهما والأهراق في [وحدة الفكر] كاملة انتهى معها ذلك التشكيل العنصري الذي ابتدئته من جديد قوى الغزو الاستعماري والتغريب الفكري من أجل تمزيق وحدة هذه الأمم التي انصهرت في الفكر الإسلامي بفلسفاتها ومذاهبها وقيمتها ومفاهيمها ولم يعد لها منذ أربعة عشر قرناً تاريخ منفصل ولا مجتمع منفصل ولا ثقافة منفصلة ، ولا استجابة للأحداث إلا ذلك الطابع الموحد المشترك الذي صنمه الفكر الإسلامي الذي أصبح فكراً هاماً شاملاً للأديان والعقائد والأهراق والأجناس والمذاهب والفرق عنصرية كانت أم ديلية .

ولا ريب أن عملية الانصهار الكبرى هذه التي شهدتها « العروبة الحنيقية » قد تشككت هفائداً وجانبياً على نحو متكامل متداخل بحيث لم يعد من البسير الفصل بين وحدة الأديان ووحدة الأجناس فالمنطقة كلها لها أم واحدة هي الجزيرة العربية ، ولها دين واحد هو دين إبراهيم الذي تفرعت منه اليهودية والمسيحية والإسلام . وهذا هو سر العسر الشديد لتطبيق نظرية القومية الغربية الوافدة أو تلاقيها مع طبيعة هذا التشكل الذي يطلق عليه « العروبة الحنيقية » . إن الخطوط العامة لطبيعة هذه الأمة وهذا الفكر وهذه القوة قد شكلها ميراث ضخم صنعته الأديان وأهراق الأمم والأخلاق

والشيم والمروءات أبرز مظاهر التوحيد (وقوامه الايمان بالله وهما من الأخلاق). هذا هو طابع هذه المنطقة التي نزلت فيها الأديان قبل المسيحية وقبل الاسلام بأكثر من ألفي عام وليس هو الذي صاغها ولكنه هو الذي وضعها في الصورة الأخيرة بعد أن حرقها عوامل كثيرة. هذه المنطقة نزلت فيها الأنبياء والتقت على حدودها الحضارات والثقافات التي جاءت من الهند وپارس ومن اليونان والرومان وانصهرت فشكلت «وحدة فكر» ثم تشكلت الثقافات التي استمدت مقوماتها من الفكر الاسلامي فقامت على أسسه وقيمه لا تنفصل وإن اختلفت. هذا هو الكيان العملاق الضخم الذي لا يوصف بأنه قومية، ولا أمة، إنه تشكل ضخيم قوامه العربي والاسلام، إنها قوة إنسانية ضخمة على قاهرة عريقة، لها امتدادها الطبيعي الفكري والفكرى الذي يمثل الجناح الأيسر من الغرب العربي، ولها امتدادها الفكرى الذى تمثل فارس وأفغان والهند والملايو وتركيا. إنه تشكل ارتبط بالعقول والقلوب والنفوس فكون «وحدة فكر» لها طابعها المختلف عن فكر الغرب كله، من حيث قيامه على التوحيد إنه تشكل يمثل فى حلقات وحدة الوطن ووحدة الأمة ووحدة الفكر الجامعة؛ لا يعرف مفهوم الاقليميات ولا القوميات الوافدة، ولا يتشكل فيه، هذا الكيان الفكرى القائم، عميق الجذور فهو الممتد الراسخ، يواجه التحديات ويتشكل إزاءها بما يحفظ له كيانه وذاتيته وبما يدفعه إلى الخروج من الأزمة. وقد تنبه إلى هذا للمعنى كاتب عربى واسع الأفق هو الأستاذ البان فانيق فقال: إن كانت الوطنية فى البلاد العربية أو الاسلامية قابلة للمقاومة مع الأجنبي صابرة تحت الحجز منخذة لبعض الوسائل المصرية فهى لا تفعل ذلك نزولاً من شخصيتها وإنما تفعل ذلك لتنهض وتقوى وتجتاز هذه الفترة الصعبة حينئذ تستعمل سلاحها ضد مستعبدتها وتظهر مميزات الجفسيية وتؤسس مرة ثانية تلك الامبراطورية بمجدها السالف.

فالمسلمون سواء كانوا فى الشرق الأدنى أو فى شمال إفريقيا أو فى الجزيرة أو فى فارس أو فى الافغان أو فى الهند أو فى أواسط إفريقيا يولون وجههم شطر قبلة واحدة هى مكة، وما مكة إلا رمز الاسلام واللغة العربية فهم مرتبطون بهذه العروبة التي لا تنقسم، فرقتهم السياسية بمحدودها المصطنعة وما دار فى قفار الصحارى حاد الحبس ينطق بالضاد وتؤذن فيه مئذنة تسيح باسم الله. وهذه الرابطة العربية الاسلامية الخافية عن الابهين موجودة، فليقل الغرب ما شاء وليحاول تكسير هذه الكتلة للشبهة المستندة إلى إعتقاد عميق فيها فعل فان الاجزاء تعود لوحدها عن طريق سبيل العرب جاهلها. هذا هو البعد الغيب دائماً عن طرحوا مذاهب القوميات والاقليميات الغربية الوافدة وحاولوا أن يصبوا الفكر العربى الاسلامى والعروبة فى قوايلها ظانين أن هذا الفكر بعمقه وجسارته

وأبعاده يمكن أن يتشكل على النحو الذي يريدونه ، ينتزع منه شيئاً وبضئف شيئاً ، وما يطلب إليه أن ينتزعه هو أرسخ أهدته التي قام عليها .

إن هذا التشكيل العربي الاسلامي قد برز في التاريخ منذ تسعة قرون في وجه محمد خطير هو الغزوين الصليبي والمغولي ، واستطاع أن يؤكد وجوده وأن يحطم الغزو ويسحقه ، عندما عاد إلى مقوماته الأصلية واستلم ذاتة ومزاجه الأصل وعاد إلى مفهومه الأساسي في وحدة الفكر والقيم الجامعة . هذا الكيان هو الذي تشكل في وجه الاستعمار ، في الاقليميات تارة وفي الوطنيات تارة وبالتجمع حول الأمة والعنصر والدم والعرق ، فإنه لا يلبث أن يستعيد طوابقه ومقوماته ، وهو هكذا دائماً ينتقل بين حلقات الوطنية والأمة والفكر راجعاً في حالة الضعف ، أو ظافراً في حالة القوة . وكل ما أريد أن أقول أن هذه أمة لها ذاتية خاصة لا تخضع لمقاييس الفكر الغربي الوافد أو مذاهب المنصرية الأوروبية التي أقامتها اليهودية العالمية ، لتوضع داخلها ، وتغير للمنصفين أن يواجهوا واقع هذه الأمة وجوهر فكرها ثم ينظروا كيف يتشكل كيانها . إن الفكر العربي الاسلامي قد وقف من نظريات الاقليميات والقوميات الغربية الوافدة موقفه من مختلف المذاهب الاجتماعية أو السياسية أو الأدبية المطروحة ، أخذ منها ما يتفق مع طبيعته ثم تخاص من الفضلات . وفي العصر الحديث عندما زحف الغزو الاستعماري كانت مختلف حركات المقاومة عربية إسلامية سواء كانت باسم الوطنية أو باسم العروبة . ويشهد بذلك (الفرد كاتول صبيث) حين يقول : هذه الحركات القومية التي تهدف إلى التخلص من التدخل الأجنبي ، لم تكن هذه الحركات مطابقة للإسلام بحسب ، بل هي جزء لا يتجزأ من فكرة بعث الاسلام ، فنضال الأندونيسيين المسلمين للتخلص من الهولنديين وكفاح السوريين ومسلمي المغرب للتخلص من الفرنسيين ونضال مسلمي الهند ضد البريطانيين كل ذلك كان جزءاً من حركة المسلمين لبناء مجتمع إسلامي في العصر الحاضر ، ومن هذا القبيل قيام الأتراك بطرد اليونانيين عام ١٩٢١ والبرانيين للقضاء على منظمة النفوذ الروسية الانجليزية كانت جميعها خطوات نحو إحياء الاسلام فكل المسلمين مسلمون اجتماعياً وسياسياً ، وإذا كان ثمة اختلاف بين الزعماء الوطنيين والزعماء الدينيين فهو خلاف لم يتخذ مظهر النضال والكفاح .

وتداخل العروبة والاسلام ، وتكاملهما وترابطهما ليس موضع خلاف حتى بين أصحاب نظريات القوميات الوافدة بل هو حقيقة مؤكدة وفي نظر كثير من الكتابات الغربيين ، يبدو هذا الترابط

وأضحاً جلياً ، يقول مورد بهر جر : لم يميز العرب المسلمون بين ديانتهم وقوميتهم ، وظل هذا القرآن بين الدين والقومية قائماً حتى يومنا هذا . وهكذا أن الاسلام لم يتقدم إلى العرب وحسب ، بل إنه البناء الذي صيغ في داخله العرب ولقد نهام القرآن في آيات كثيرة عن التمييز العنصري والقوى والفيل والاختلافات الأخرى بين أنفسهم لأنهم جميعاً مشتركون في وحدة تخضع كل هذه المشارب التي تميزها الآن .

(٣٦)

الاسلام صانع العروبة

الاسلام هو صانع العروبة ومنشئها ، وهو للقوم الاسامى لوجودها الذي تشكلت به بعد الاسلام في وحدة لسان ووحدة أمة . والاسلام إلى ذلك منهج حياة ونظام مجتمع ومنطلق حضارة إنسانية وثقافة علمية ، بما يقدمه من عطاء ضخم في مختلف مجالات السياسة والاجتماع والقانون والتربية واللغة والاقتصاد ، فكيف يمكن القول بأن الاسلام عربي أو إنه عنصر من عناصر العروبة . وكيف يمكن أن يتحول للشكل وللضمون إلى درجة يصبح فيها جزء من الكيان الذي صنعه . إن وضع الاسلام في مثل هذه الصورة التي يرددها بعض دعاة للذاهب القومية الغربية الوافدة إنما يكشف عن هجر كبير في مجال فهم الاسلام ومكانته وموضعه من الأمة العربية ومن العالم الاسلامي ومن الانسانية عامة . وإذا كان الاسلام قد ظهر في الأمة العربية وبلسان العرب فإن ذلك من شأنه أن يرفع شأن العرب والعربية ، أما الاسلام فإنه لم يكن ديناً « هربياً » بمفهوم الأديان الأخرى ، أو أنه دين قومي ، أو أنه دين محلي ، أو أنه دين لاهوتي ، ذلك كله حين يردده الثغريبيون فأعماهم ينفقون أنفسهم وأقصدادهم وفهمهم ويكشفون عن هجر كبير في التصدي لقضية لا يعرفون أبعادها ، أو أنهم يتناولونها تناول غير العلماء من أصحاب الاهواء والاحقاد والطامع السياسية والاستعمارية وإنهم بذلك إنما ينفقون أنفسهم ومكانهم في انظر أقرب الناس إليهم فانه من المستحيل أن يصدق أحد من العرب أو للمسلمين أن الاسلام دين قومي للعرب ، عنصر من عناصر قوميتهم ، أو أنه دين لاهوتي قاصر على العبادات .

ذلك أن الاسلام أمر خطير في تاريخ العالم كله لاني تاريخ العرب والمسلمين وحدهم فهو باعتراف

عشرات من أهلام التاريخ والسياسة والفكر في الشرق والغرب : هو الحد الفاصل بين تاريخ العالم القديم والحديث . وأنه منذ بزوغ فجره لم يقض أمر من أمور هذا الكواكب من دونه . وهو في منهجه الجامع المتكامل حامل رسالة الحق والعدل إلى الإنسانية ، متفاهل مع التاريخ البشري أخفاً وعطاء لم يتوقف أثره ، ولم يجمد منهجه ، قادر على العطاء الدائم ، فيه الحلول الجذرية لازمات البشرية ومعضلاتها ، وهو المفتوح على الثقافات والحضارات ، القادر على الاخذ والعطاء والحركة ، على نحو خالد ، على نحو لا يعرف دين ولا فلسفة ولا نظرية ولا مذهب من مذاهب الدنيا كلها وهو في مفهومه الصحيح دين ودنيا ، ونظام متكامل يربط الإنسان بالله وبالإسان وبالجموع وبالسكون ، مندفع في قوة لا تحطمه القوى ، ولا يشيخ ولا يهرم ، متجدد دائماً لأنه يقوم على أساس التوحيد الذي لا يعرف الغناء ، تبلورت في فكره فلسفات الأمم وهفائدها ، وانصهرت في بوتقته ثقافات البشرية ، من فارسية ومصرية ويونانية ورومانية وهندية فصاها من جديد وشكلها خلقاً آخر ، ولم تستطع أى فلسفة من هذه الفلسفات أن تصوغه أى تحويه فهو القائم بالحق ، عملاقاً حاكماً ، لا تنسب الفلسفات إليه ولا يقتطع منه ولكنه نظام متكامل ، صنع الله الذي أتقن كل شيء ، وما زال كتابه « القرآن » النص الوحيد للوثق الباقي على وجه الأرض من رسالات السماء ، وهو للنهج الجامع الذي يحمل بين دفتيه كل علوم الدنيا والدين والآخرة ، وفيه من كل ما في السكون من نظرات ومناهج ، أصل أصيل « ما فرطنا في الكتاب من شيء » . هذا الإسلام ، ليس من الحق ولا من العلم بأقل دقائمه أن يقال منه أنه « دين عربي » ولقد حاول أحد الكتاب المسلمين أن يصور عطاء الإسلام للمغرب فقال :

* كانوا قبائل متفرقة فاذا الإسلام يجمعهم برابطة متينة في دولة واحدة . * وكانوا يتنافسون ويتصارعون ويقتل بعضهم بعضاً فاذا الإسلام يحرم دماءهم . * وكان يقتتلون إلى الموت لأتفه الأسباب فاذا الإسلام يوفر دمهم إلى القصد الأسمى . * وكانوا يتحدثون لهجات متعددة محدودة الانتشار فاذا الإسلام يكرس إحداها لغة للجميع تصبح بعد وقت لغة العالم المعروف لهم ، سياسة وحضارة . * كان شعارهم النار فأصبح الجهاد . * كانوا في عزلة عن العالم فاذا الإسلام يجعلهم محور العالم . * كانوا يحكم العزلة فقراء ضعفاء فاذا الإسلام يحكمهم على قسم واسع ممن كانوا يحكمونهم من قبل . * تحقق ذلك في ربع قرن وأبدى من حياة الجاهلية ، ما كانت يتم لولا الإسلام ألا بقرون .

* أبطل الدم بعنصر التوحيد بين أفراد الجماعة الواحدة وأحل محله الإيمان بالله . * ألقى ابتعاد الجماعة الواحدة تحت سائر الجماعات وجعل ذلك الإيمان نفسه عروة وثقى بين مختلف الجماعات مثلما هي عروة وثقى بين الأفراد . * منع حديث للمبارك القدوة ورواية أشعارها ووضع مكانها آيات قرآنية في الوحدة والجماعة . * قتل العلاقات ضمن الأمة من صعيد نفسى هقدى روحى هذا ما أورده كاتب عربى غير مسلم عن أثر الإسلام في العرب فكيف بأثر الإسلام في العالم كله والعرب اليوم على أكثر التقدير عشرة ملايين من بين ألف مليون من المسلمين . هذا هو ما نمنيه من خفة الكتاب التفريريبيين حين يتكلمون عن (إسلام عربى) . ٢ - وخطأ آخر أشد خطراً وظلماً من الخطأ هو القول بأن الإسلام قد أدى دوره التاريخى وقاد الأمة العربية إلى الجدد ولم يعد يصلح أساساً للحياة العربية في الوقت الحاضر والمستقبل . وتبدو في هذه الكلمات مرارة الحقد ، والبغض ، والبعد عن الحق والانصاف ، فإذا كان الإسلام قد فعل ذلك بالعرب في الماضي ، أفليس هو أفقر اليوم والانسانية تمر في أزمة مادية عنيفة ، إن يردّها إلى الحق وأن يقدم لها بلسم جراحها . إن البشرية اليوم تنطلق إلى أفق مضى ، ولن نجد أفقاً بعد هذه التجارب التى أجرتها والنظريات التى صاغتها وأثبتت جميعها فشلها في تحقيق المجتمع الناجح ، لن نجد غير هذا الأفق : الاسلام . أما الأمة العربية « فانها تعلم أن لا حياة إلا بالاسلام ، فهو الذى يوأها مكانها في التاريخ وهو الذى أهاد إليها وحدتها القومية والفنية فكان هذا الوطن العربى ، وبالإسلام أوجد العرب أعظم نهضة وأرحم إدارة وأهدل تشريع وبالإسلام صد العرب طغيان الصليبية وردوها إلى وطنها » . إن طراح كتاب التفرير ودعاة مذاهب القوميات الغربية الوافدة لن ينحرق وسوف يرتد على أعناقهم صاغراً ، ولن ينصهر الاسلام في نظرية القوميات ، كما إنصهرت أديان أخرى ، وسيتبقى الاسلام أساساً من أسس السكيات العربى ، لا تقوم العروبة إلا به ، ولن تقوم منفصلة عنه ، وإذا حاولت ذلك فلن نجد شيئاً تقوم به غيره ومهما ذهبت وراء الحق أو التاريخ أو الروابط الروحية أو النفسية فإنها كلها تعود إلى الفكر العربى الاسلامى الجامع الذى هو مصدر الوحدة الحقيقية .

ليس الاسلام ظاهرة تاريخية عابرة ، وليس الاسلام رسالة موقوتة مضت ، أبداً ، بل هو قوة أساسية في أعماق العرب والمسلمين . ولن نجد هذه المفاهيم الغربية الوافدة إلا صدقاً قليلاً عند أولئك الذين شكلتهم معاهد ارشاليات التبشيرية ، أما هذا الجمع الضخم المائل من العرب ومن ورائهم المسلمين الذين يستمدون في مصادر ثقافتهم وأصول فكرهم على منهج القرآن ومفهومه فلوهم ان يرو محمداً بطلا هربيا ولا نبيا للعربية ولكنهم يرونه رسول الله المؤيد بالوحى ، ولن يرو الاسلام

مرحلياً ولا هربياً ولا مرحلة من التاريخ ولا مجرد حركة وطنية عربية على النحو الذى يراه هؤلاء
ولكنهم يرونه : ذلك العملاق المجيب للمجز الذى قلب موازين القوى وصنع من العرب أمة
ضخمة والذى تقدم إلى العالم فصاغه من جديد فى أقل من مائة عام وما يزال يصوغه فى فكره وذاتيقته
ومزاجه النفسى وعقليته . وسيظل ما دام القرآن قائماً يتلى وينظر فيه . وأن أثر الاسلام فى البشرية
لهو واحد من الموضوعات الخطيرة التى تناولها الكتاب الغربيون فى ضوء حضارتهم وأديانهم ، ومن
أبرز هذه الدراسات كتاب (محمد وشارلمان) الذى ألفه (هنرى بيرين) والذى قصد به تبيان
أن الاسلام كان القوة الهائلة التى حولت مجرى التاريخ الأوروبى حتى لم يكن أن يقال بحق أن العصر
الوسيط والنهضة الحديثة هما ثمرة من ثمار ظهور الاسلام . ويرى للأورخون أن نقطة التحول فى
التاريخ الأوروبى هى سقوط الامبراطورية الرومانية وأن أغلب المؤرخين قد أجمعوا على أن الشعوب
الجرمانية التى كانت تعيش على تخوم الامبراطورية الشمالية هى التى اجتاحت حدود الرومان وقضت
على دولتهم ، أما (هنرى بيرين) فيرى أن هذه الشعوب كانت من هوان الشأن وضيق الحياة إلى
الدرجة التى تجعلها تنظر إلى الرومان نظرة العبد إلى السادة فما كان يحظر ببالها بل ما كانت ترهب
أبداً أن تناوى روما وتقضى عليها . أما للسلمون فكانوا يعتقدون أنهم أرق وأسمى من الرومان
فى جميع أسباب الحياة ولا سيما فى الناحية الدينية التى كانت مبعث قوتهم ومصدر تشريعهم فلم
يجمعوا من منازلة الرومان ليقضوا على سطوتهم وسيادتهم وهذا هو الفارق بين الشعوب الجرمانية
والشعوب الإسلامية حينذاك . فأولئك كانوا يمدون أنفسهم عيالا على الدولة الرومانية وهؤلاء كانوا
يرون أنفسهم أحق بسيادة العالم من الرومان الذين ضعفوا وشاخوا وكان أسراء الجرمان يفتخرون بما
يمنحه إياهم أباطرة الرومان من الأوسمة والألقاب أما رجال الإسلام فكانوا يأفنون من مثل هذه
الرشى لأنها تقدم عن هم أدنى منها ديناً وخلقاً وأصلاً . أما الشعوب الإسلامية فكانت ترى نفسها
جديرة بأن تمنح الرومانيين ديناً حديثاً وترشدكم إلى مدينة أخرى ، ولم تسكت تهب ثورة المسلمين
واسير كتابهم إلى أراضى الرومان حتى تلتقى ما كان هؤلاء من للعالم والآثار وكأنما كانت رماداً .
وهكذا يصل هنرى بيرين — وهو قول برده كثير من غيرهم من المنصفين إلى أن الإسلام : هو
القوة الهائلة التى حولت مجرى التاريخ الأوروبى حتى يمكن القول بأن العصر الوسيط والعصر الحديث
هما ثمرة من ثمار ظهور الإسلام .

ويقول على الطنطاوى فى الترابط بين المروية والإسلام : من قال بالمروية قال بالإسلام لأن المروية لم
تكن شيئاً مذكوراً لولا الإسلام ومن قال بالإسلام قال بالمروية ، لأن الإسلام دين نبيه عربى وقرأه

عربي وليس من المستطاع تجريده العربية من الإسلام . والإسلام هو الذي أسقط الجنسية وحاربها وضع كل دعوة إلى عصبية جنسية أو قومية وأسقط حواجز القوميات . ولم يطمس الإسلام الواقع التي تجعل سكاناً ظاهراً لنبي عربي والعرب قومه والقرآن كتاب عربي والحج عربي ولولا الإسلام ما انتشرت لغة العرب . وتاريخ العرب هو تاريخ الإسلام ، ولو يؤخذ منه الإسلام وما نشأ عنه لم يبق للعرب شيء ، واللغة العربية قطبها القرآن ودهاة الإسلام بلغاء العرب والعربية والإسلام ذاتا ريتين : صغيرة وكبيرة إحداها وسط الأخرى فالعرب ولد بمجدهم وتاريخهم يوم « ولد محمد » . ويصور الدكتور اسحق الحسيني العروبة بأنها عروبة العقل وعروبة اللسان وعروبة القلب وإن إسقاط أي ركن من هذه الأركان يخل بالعروبة ويفسدها .

ولذلك فهو يرى كل من استنفل بالفكر العربي الإسلامي عربي : شوقي السكري الأصل للهرى الجنسية ، صلاح الدين وهكندا . وبطابق هذا ما قاله أرسول : إنما العربية اللسان فمن تكلم بالعروبية فهو عربي : ويقارن حسن السكري بين موقف الديانة المسيحية في قول البيوت وبين موقف الإسلام ، يقول البيوت ، أن الديانة المسيحية هي أكبر جامع موحد للثقافة الغربية ويتساءل هل يصح أن يقال أن « الإسلام » هو أكبر جامع وموحد للثقافة العربية ويقول : إذا لم يفعل الإسلام ذلك فما هو الذي يجمع بين العرب . ويؤكد الدكتور المهدي المنجرة استحالة فهم أمور العروبة بعيداً عن الإسلام فيقول « من الصعب إن لم يكن من المستحيل فهم الشئون العربية بدون اعتبار أثر الإسلام كدين وفلسفة وكحضارة وكأصلوب في الحياة ، ذلك لأن الحركة العربية ظاهرة إسلامية والعرب في غالبهم مسلمون » وإذا قارنا الإسلام بالديانات الرئيسية الأخرى فإننا نجد أن الإسلام يهتم أكثر من أي شيء بالإيمان ، وبينما ينظر المسيحيون إلى دينهم كبراث ، ينظر المسلمون إلى دينهم كحقيقة حية وكفناء روحي حقيقي ، لا يفرق المسلمون بين المسائل الروحية والزمنية كما يفعل المسيحيون لأن الإسلام نظام تمام ، هيكل عضوي يتجلى في مظاهر التشريع الإسلامي والحكم ومفهوم الدولة من المسلمين ، وهنا تبدو أهمية التشريع الإسلامي كقوة موحدة تتجلى في أنه حامل أساسى بصير المجتمع الإسلامي في جماعة ملتزمة .

(٣٧)

موقف الاسلام من العروبة

أن منهج الفكر الإسلامى فى سمته وبسره واتساع آفاقه كاطار صرن على تقبل مختلف الأنظمة والمذاهب والمطريات لم يتوقف به أمام أى نظرية غربية تطرح عليه فى العصر الحديث ، سواء أكانت فى مجال السياسة أو الاجتماع ، ولكن التحفظ الوحيد الذى كان دائماً موضع النظر ، هو التماس جوهره ، والحيلولة دون الانصراف فى أى بوتقة ، والمحافظة على مقوماته وذاتيته مع انفتاح كامل وتقبل ممتح لكل ما يطرح عليه .

ومن هناك كان موقف الإسلام من العروبة ، فالإسلام لم يحارب التشكيل العربى ولكنه حفظ له أصالته وقبله فى دائرة وحدة الفكر العربى الإسلامى ، وقد شهد بذلك [هاملتون جب] حين قال : « الإسلام لم يحارب المبدأ القومى ولا نظر العلماء إلى فكرة الأمة العربية على أنها شيء غريب دخيل منافس للدين ومخالف له . لم تكن الأمة العربية قد تحولت إلى تجربة (القومية العربية) حتى يشعر الفكر الإسلامى بوحشة واستغراب ، ولم تقف فكرة الأمة العربية ضد الإسلام . وإنما وقفت الفكرة العربية أمام الفكرة العثمانية تناظرها وتجادلها وتتصدى لها وتطالب بحقوقها ثم تتهربها مغمرة فى حق الإسلام . ويخرج الإسلام من المعركة ، وكأنه فوق الصراع بين الولاء العربى والولاء العثمانى توضيح للعربى المسلم أمراً هاماً هو أنه يمكن أن يكون مسلماً فى الدين عربياً فى السياسة ، يلتقى مع الفرنكى والهندي فى العبادة ويلتقى مع المسيحي العربى فى الوطن والدولة .

ومهما يكن فى عبارة (جب) من قصور فى فهم ترابط الإسلام ديناً ودولة وترابط العروبة والإسلام ولكنه يوحى بما نريد أن نقوله من صلة الإسلام بالعروبة وشببه به ما قاله جاك بيرك : من أن الروح العربية لا تزال تحتفظ حتى اليوم بمزيج ذاتى لها أو تلتشى من جديد استقلالاً ذاتياً فى الاحساس والتعبير لا يصبح معه لئى نظام خارجى أبداً كانت قدرته على الاغناء أن ينازحها فيه ، والذى لم يقله جاك بيرك أن هذا المرجع الذاتى : هو الإسلام . ومن الحق أن أثر الإسلام فى العرب بعيد المدى وعميق . حتى ليسكن القول بأن العرب لم يكن لهم وجود أمة قبل الإسلام ، فقد أعطاهم الإسلام صفة الأمة ووحدهم ثم أعطاهم الرسالة التى حلوها إلى العالم كله ، واتقوا أعطاهم الزمامة السياسية ،

ثم حفظ الاسلام اللغة العربية وأمدّها بقدر ضخّم من المضمون والأداء مما مثلا في القرآن الكريم .
ومن ثم فإن الاسلام هو الذي أعطى للعرب مفهوم الحضارة والعلم ، فلبست هناك حضارة عربية أو
علم عربي أو فكر عربي أو لغة عربية وإنما هناك حضارة عربية إسلامية وفكر عربي إسلامي وعلم
عربي إسلامي ولغة عربية إسلامية والذين يقولون بحضارة عربية أو فكر عربي ، يقصر فهمهم أو
يقصر إنصافهم ، وكذلك من يقولون بأن الحضارة العربية الإسلامية حضارة دينية أو أن فكرهم
ديني أو أن لغتهم دينية ، أولئك لا يفهمون مضمون الفكر العربي الإسلامي ولا مقوماته الأساسية ،
ذلك أنه فكر متكامل شامل يضم الدين واللغة والتاريخ والاجتماع والاقتصاد . وليس الدين فيه
إلا عنصر من العناصر ، التي يشكلها الاسلام ؛ ذلك أنه لا سبيل إلى تصور حضارة أو ثقافة أو فكر
عربي منفصل عن الترابط العربي الإسلامي أو وحدة الفكر الإسلامي العربي الجامعة ، لقد حقق
الاسلام وحدة العرب كما حقق القرآن وحدة اللغة وتركيب العروبة والاسلام : أمة وفكر يجامع ما بينهما
(العروبة الإسلامية) وهو جامع تاريخي تطور فأصبح كيانا ، وهو كيان مفتوح على القيم وعلى الأمم
فالكيان العربي مفتوح الأبعاد بالعالم الإسلامي ، انفتاح فكر أساسي فكل مسلم عربي باللغة والفكر
وللثقافة والقيم .

ولابن تيمية في ذلك دراسة واسعة ، فالمجم هم الذين حرروا العرب من التتار والصليبيين
والمماليك هم الذين سحقوا التتار في عين جالوت وصلاح الدين ، وقطر والظاهر بيبرس ، والسلاجقة
لهم دورهم الواضح في الحروب الصليبية والبربر لمهم أثرهم الكبير في فتح الأندلس واستعادته
و كذلك للأكراد دورهم .

(٢)

العروبة ومكانها من الاسلام

أن مكان العروبة من الاسلام لا يحتاج إلى تفصيل كثير ، فالعرب هم مادة الاسلام ومكانهم
في المجتمع البشري هو علامة على مكان الاسلام فإذا ذلوا ذل الاسلام وقد كانوا حملة الرسالة والدعوة ،
قاموا بنشرها إلى أبعد نقطة في الملايو وعبروا البحر إلى حدود نهر الفوار وإلى الصين وإلى أسوار
فيتنا . ويرى شفيق غريال أن العروبة صورة خاصة من الجامعة الإسلامية والثقافة الإسلامية ومن هنا
فلا تعارض بينهما . يقول : الاسلام دين وهو جامعة جمعت وتجميع الشعوب الإسلامية وهي جامعة

لم تقتض ولا تقتضى وجود الادارة أو السلطة المركزية كما نفهمها ، بل أن أقاليم العالم الاسلامى حتى فى المصور الأولى للخلافة تمتعت فى الواقع بمقدار من الحركةمكنها من التمتع بحياة إقليمية خصبة متميزة . والاسلام أيضاً ثقافة بمعنى أنه (طريقة حياة) أو كما يقول السلف (آداب) وقد شرح ذلك ابن خلدون فى قوله : الحياة الاسلامية ثقافة بهذا المعنى الشامل لأمر الدين والدنيا ، وبينما تتنوع الثقافة الاسلامية تنوعاً عظيماً إذ هي من وراء ذلك التنوع تمثل الطابع الاسلامى المشترك . وقد كان بناء الثقافة الاسلامية على هذا النحو من أعجب فصول التاريخ الانسانى وأعظمها فهمى ثقافة واسعة سمحت لمكنت الشعوب التى حملت فيها من أن تجارى مزاجها الخاصة أو عنصريتها القومية ، وقبلت شعوباً على درجات متفاوتة من الحضارة أو كانت تنسب لسلالات بشرية مختلفة ولأصول تاريخية متباينة والثقافة الاسلامية بقيت صحيحة وبقيت إسلامية .

كما أشار شفيق غربال إلى محاولة تجريد العروبة من الاسلام فقال : يظن أن اختلاف العرب ديناً يقتضى تجريد حركتهم من عنصر الدين حرصاً على جمع الكلمة وهذا وهم أولاً لانه يناقض ما أثبتته التاريخ من مشاركة غير المسلمين فى بناء الثقافة التاريخية . وثانياً : لانه يناقض ما أثبتته التاريخ الحديث من مشاركة غير المسلمين فى بناء الحركة العربية التحريرية الاستقلالية . وثالثاً : لانه يجعل المصلحة الكبرى وهى جمع الكلمة على إصلاح دنى إسلامى مسيحي يصد الاتحاد والمادية . ويحاول اسبا هيل مظهر أن يصل إلى هذا المعنى : معنى ترابط العروبة والاسلام فيقول : إذا قال أحدنا (الجامعة الاسلامية) فانما يعنى جامعة عربية روحها الاسلام ، وإذا قال أحدنا (الجامعة العربية) فانما يعنى جامعة اسلامية روحها العروبة وكل قول يبين هذا القول خطأ وكل نزعة تخالف هذه النزعة شعبية خبيثة .

ثم يفصل هذه للمادة فيقول : « اقترن الكلام فى العروبة بالاسلام لأن الثابت الذى لا لجساج فيه ولا ريب بداخله إن الإسلام لم ينزل بلغة العرب فقط وإنما نزل بأخلاقهم وصفاتهم الروحية العليا فالعربى انصهر فى مسلم بصفاته العربية والمسلم عربى بما فى الإسلام من روح العرب . » أقول مملوؤاً ثقة بصحة ما أقول أن الإسلام فكرة جامعة ومعنى أنه فكرة جامعة أنه (دين ودولة) ونمها قبل اليوم بمكس ذلك ومهما حاول البعض أن يبرج عن الإسلام هذه الصفة وبها قيدت نظمات الحكم فيظل الإسلام فكرة جامعة تجمع الدين والدولة فى فكرة واحدة وهى فكرة الدفاع عن المجموع الذى يستظل بالإسلام .

د منها تفرقت فيه النحل واختلفت المذاهب وتباينت النزعات فان حكومات المسلمين في هذا العصر قد اضطرت مغلوبه إلى مجازاة روح النظام الحديث في المدينة الأوروبية ففصلت بين الدين والدولة فإن هذا الفصل ينبغي إلا يعتمدى أنه فصل في الأراضاع لا في الروح ، فكل حكومة من حكومات الإسلام في هذا العصر ، وإن كانت قد قبلت على ذلك نظامها الحديثة فإنها قد نصت في دساتيرها على أن دين الدولة : الإسلام . « ولست أعرف حقيقة الباحث الذى حدد بالذين وضعوا هذه الدساتير على إثبات هذا النص ، فالدولة شخص معنوى والنص على أن ذلك الشخص المعنوى له دين اسم الإسلام أمر لا يخرج من التناقض ولكنى أعتقد أن هذا النص لم يثبت في دساتير الدول الإسلامية إلا استجابة لوعى خفى مستمد من روح الإسلام وأنه دين ودولة معا ، أملت على أولئك المشركين روح إسلامية لم تحب في أنفسهم يوم شعلتها وإن كانت قد استخفت فإنما كان استخفاؤها تحت ظروف لا حاجة لنا إلا الإفاضة فيها . كل هذا لأقول أن روح الإسلام : تلك الروح التى نشأت بنشوة الإسلام وستظل باقية ما بقى الاسلام والتى أنشأت أول نظام موحد من الدين والدولة وأدبجتها معا هي روح لا تفرق بين رعايا الدولة من حيث العقائد بل أنها روح تقدر الحرية أولا وتحمي رعاياها حماية بلغت منتهى التسامح في تاريخ الدنيا . ويرى بعض الكتاب الغربيين أن الاعتماد بالعرب عن الاسلام معناه انفصال البناء عن أساسه وهذا ما يردده موروييرجو الذى يقول « قد ثبت تاريخيا أن قوة العرب تعنى قوة الاسلام ونفس الشيء يمكن أن يتكرر حيث يبرز الاسلام انصارات واسعة في أفريقيا . ويؤكد (إيبه أمين فارس) على اثر الاسلام في قيام المروية ووجودها نفسه وبصور موقف العرب غير المسلمين من عبقرية الاسلام يقول : فالعرب إنما دخلوا التاريخ العام وأصبح لهم وجود تاريخي كرامة وشاركو في الحضارة الانسانية مشاركة نيرة بظهور النبي محمد بن عبد الله مبشرا برسالة الاسلام ، وإذا كان المسلمون يعتبرون محمداً رسول الله الأعظم وخاتم النبيين فإن العرب يعتبرونه بطلهم القومى وأعظم إنسان أخرجته الأمة العربية ، وإذا كان المسلمون يقدسون القرآن الكريم لأنه كلام الله للوحي به إلى رسول محمد فإن للعرب يعتبرونه مثال البلاغة العربية الأهل والأعوجج الكلام المبين والحارس الأمين الذى حفظ عليهم لغتهم سليمة من العجمة والركاكة والاندثار والقبولان في الاتجاه العامة الاقليمية على الرغم من الانحلال الذى أصاب العرب ومن الأمم الاجنبية التى أخضعت العرب لسلطانها فإن اعتر المسلمون بالحضارة الاسلامية ومجدوا أبطال المسلمين الخالدين وخلقاتهم الهادين المادلين فإن العرب (يقصد من هم غير المسلمين) يمتزجون بهذه الحضارة لأن عبقرية أمتهم العربية كان النصيب الاكبر في خلقها ولأن لغتهم العربية كانت الإقبال الذى ظهرت

فيه ويعيدون هؤلاء الأبطال لأنهم أبطالهم القوميون . ولما كانت العربية هي قوام الاسلام ومادته ولغة قرآنه ونبيه ، فقد امتد أعجاب المسلمين إلى كل ما هو عربي وإلى كل عربي خدم اللغة العربية وأغناها وشارك في الحضارة مسلماً كان أو غير مسلم . ثم يقول : وهكذا تتشابك العروبة والاسلام في التاريخ القديم تشابكاً عضوياً متفاعلاً لا مجال إلى فصل الوحدة إلى الأخرى . ونحن نقول للكتاب : وما يزال هذا التشابك قائماً ومستمرّاً إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم فإن من الاستحالة التي تخالف نوايس الكون ، وقوانين الامم في بنائها وتطورها أن تنقسم العروبة عن الاسلام ، مبهطاً رحت الاستعمارية الغربية عشرات النظريات في الاقليميات والقوميات الموفدة التي لا يقبلها المزاج العربي الاسلامي ولا النفس العربية الاسلامية والتي ثبت فشلها وسقوطها بعد هذه السنوات الطويلة والمحاولات الضخمة من بنائها ومحاولة إقناع المسلمين والعرب بها بينما هي لا تتفق مع طبيعتهم وذايتهم وأصول ثقافتهم .

ثم يقول : نبيه أمين فارس د وكذلك يتشابك الاسلام والعروبة في التاريخ الحديث تشابكاً عضوياً متفاعلاً لا مجال إلى فصل الواحدة عن الأخرى في نفوس كثير من القادة والقوميين بل جمهور المسلمين وهل كانت النهضة العربية الحديثة إلا تياراً من النهضة الاسلامية في القرن التاسع عشر . وهذه كلمة منصفه من كاتب تعريبي يعترف بها بالرغم مما له من آراء أخرى مسدومة مفرضة وبعد فمقطع القول أن الاسلام صانع للامة العربية (أولاً) كقيادة له ثم هو الإنسانية كلها من بعد ، رسالة حملتها أيدي العرب وأقلامهم ولغتهم وشقت بها الآفاق إلى كل مكان وقد مضت رسالة العرب وليكنها لا تزال تتجدد فالعرب أعمق فهماً للإسلام حيث فهم اللغة العربية : لغة القرآن وفيهم للفهم الوسط القائم على مفهوم السنة الصحيح الجامع بعيداً عن الفلسفات والنصوف والشعر وبمسنداً عن مذاهب الاعتزال والحلول والباطنية وغيرها . فهم أصدق تمثيلاً للإسلام وأقدر انشاس على حمل دعوته إلى الآفاق .

(غير المسلمين من العرب وموقفهم من الإسلام) أن موقف كثير من المفكرين المنصفين غير المسلمين من العرب من مفهوم (وحدة الفكر والقيم) وترباط العروبة والإسلام يبدو واضحاً جلياً لا تشوبه شائبة التحدى التي تفرضها تلك الأقلام التابعة وذات الولاء الغربي . وتكشف هذه الأقلام المنصفة عن حقيقة أساسية هو أنه ليس هناك لجنوع مسلم ومسيحي في (العربية الخنيفية) على هذا النحو الذي يصوره عيسى البندك : « العربي كان أم مسيحياً تربطه بالإسلام والعربية ، واللغة التي

بشكلهم بها والأخلاق التي يتخلق بها، والتي يزاوئها، وما يمتاز به من إباء وشهامة وصروعة، أراد أم كره، إذا ما أراد عربي أن يزهم أنه غير ذلك فقد نبت بطويعه واختياره جميع هذه السجاياء الطبيعية الممتازة، بل يكون قد فرق بيديه المالة السماوية التي ضربت على خبزه قوساً مشعاً بأنوار السكرامة والجد. أننا ومن إيماننا قاطعاً بأن كيان النصراري جزء من كيان إخوانهم المسلمين العرب وإن مصالحهم مصالحتنا.

وينجلي على أقلام كتاب العرب غير المسلمين فهمهم للعلاقة بين العربية والإسلام، والعلاقة بين القومية العربية والمسيحية، فهم يرون أن الفكرة القومية المجردة في الغرب إنما فصلت بين القومية والدين لأن الدين دخل على أوروبا من الخارج فهو أجنبي عن طبيعتها وتاريخها وهو خلاصة من العقيدة الأخروية والأخلاق، لم ينزل بلفهم القومية ولا أفصح عن حاجتهم إليها ولا امتزج بتاريخهم. في حين أن الإسلام بالنسبة إلى العرب ليس عقيدة أخروية ولا هو أخلاق مجردة. بل هو ثقافة قومية.

(٣٨)

مبدأ القوميات بين أوروبا والعالم الإسلامي

كانت صيحة القوميات في أوروبا من مخططات اليهودية العالمية للقضاء على نفوذ الكنيسة الموحدة والقضاء على حقوق الملوك وامتيازات رجال الدين. وإذا كان أي رد فعل إنما هو نتيجة فعل مساو له في القيمة فإن ظهور القوميات (كظهور الاشتراكية) إنما جاء نتيجة تحدى خطير، هو تنزع الملوك بسلطة مطلقة في التصرف وتأييد الكنيسة لهذا التصرف تأييداً مطلقاً، وكان في ذاته عاملاً لإقرار طابع المسيحية الأصيل وهو انفصال نفوذ الكنيسة عن الدولة تخلصاً من طغيان الملوك. ذلك أن المسيحية لم تكن في الأصل ذات نفوذ سياسي تجاه الدولة، إلا حين حاولت الكنيسة أن تقيم فلسفتها على هذا الأساس ولا شك أن هذه الصورة بكاملها لا توجد في المجتمع الإسلامي الذي يراده أن يتطبع بنظرية الغرب الرافدة في القومية. ذلك أن الإسلام كان بطبيعته ديناً ودولة، وكان نظام المجتمع شامل وكان داهية العدل والحق، وكان قائماً كالديف المصات في وجبه الملوك والأمراء، فضلاً على أنه لم تكن له كنيسة ولا حكومة ثيوقراطية ولا طبقة كهان أو رجال دين لهم نفوذ خاص ولا وصاية على الحكومات أو المجتمعات. لم يعرف للعالم الإسلامي الذي طرحت عليه

نظرية القومية العربية الوافدة مثل هذه العوامل ، ولذلك فإنه لم يتقبل نظرية مفروضة لا تتفق مع ذاتيته ومزاجه النفسى ولا تتشكل من خلال فكره العربى الإسلامى الذى له طابعه وقيمه ومفاهيمه فى مختلف العلاقات وأبرزها علاقة العروبة بالاسلام . وتوالى روابط الأرض والأمة والفكر دون تضارب فيما بينهما . فى ظل هذه الأوضاع الأوضاع الاجتماعية ، ومن خلال الطابع الفكرى والثقافى الذى يجمع بين فلسفة الاغريق وشرعية الرومان وإطار المسيحية فى كل تضارب ، وفى مجتمع تنهار فيه الرابطة بين المجتمع والسكنية مع انفصال السكنية إلى كتبتين ، مع ضربات مطارق اليهودية العالمية التى تتمثل فى تأجيج نيران القوميات ، وخلق تمصبات الجنس والدم والعرق والأرض والأمة تبدو القوميات الأوروبية مغلقة عدوانية . ولعل هذا أوضح طوابع التفاوت بين العروبة والايرانية والتركية والهندية التى يجمعها رباط أكيد وجذور عميقة من القرآن والفكر الإسلامى ووحدة النظرة والتوحيد . هذا التفاوت يصوره أحد الباحثين فيقول :

القومية فى نظر الشعوب الغربية ضيقة شرسة متمصبة مفرطة بالتمصّب مغلقة نحو الانسانية : (تنسم) بشيوع روح الاحتقار الشديد بين مختلف القوميات الغربية بعضها تجاه البعض الآخر على ما بها من الروابط المديدة وليست النظرية الألمانية وحدها ذات الطابع الذاتى العميق ، بل كل القوميات على درجة متفاوتة فى العمق والشراسة والتاريخ السياسى الغربى أكبر شاهد على ذلك لأنه غارق فى الدم . ويرى الباحث أنه نتيجة لقوة تغلغل روح العنصرية فى القوميات الغربية لم تستطع روح الدين المسيحى أن تؤثر فى هذه القوميات أو تلطف منها . « والمسيحية ليست متمصبة ولكن التمعصّب فى الرسومات الوثنية التى عمتها التراث اليونانى القديم خلال عصر النهضة الأوروبية . إن « حقيقة الروح التى تسير القوميات فى الغرب ناشئة عن العنصرية المتغلغلة فى أعماق النفوس وليست منعكسة عن العنصرية المتغلغلة فى أعماق النفوس وليست منعكسة عن المسيحية الصحيحة . » ويقول أحرار الفكر من الغربيين : إن المسيحية ديانة لم تلاءم الشعوب الغربية لأنها ديانة شرقية شامية والتفسير العلمى لهذا التقرير هو أن المسيحية ديانة إنسانية - وطابع الروح الغربية متعلق غير مفتوح وغير متسامح لم تستطع روح المسيحية أن تؤثر فيه . « إن اليونانيين القدماء كان يحسبون أنفسهم الشعب المختار وكل ما هدام برابرة حتى كانت فيلسوفهم أرسطو يقول بطلستان : الحمد لله الذى خلق يونانياً لا بربرياً ورجلاً لا امرأة . » هؤلاء اليونان كانوا يقدسون المدينة وأخذ الرومان بهذه النظرية وعندهم اقتبس الغربيون تعبهم الوهم الأم وحقوقه ، فعلمت

أحاسيس الوطنية الاقليمية الضيقة والعصبية المفرطة، حتى طبعت القوميات بطابعها حيث لا تتسامح مع القوميات الأخرى . « وهذا لا تجده له مثيلاً في النفسية العربية . » المسيحية لم تستطع التلاقى مع روح القومية المتعصب ، وقد اضطرت صلابة القوميات الغربية وشرستها أن تسير في ركابها أينما سارت ، بل زادت على ذلك فأضفى رجالها على مذابح القوميات المتطاحنة القداسة المسيحية .. (١٠٠ هـ .) مجلة الأزهر م ٣٠ / ٢) . وعندنا أن اليهودية العالمية التي تشكلت فلتحتها الهادمة للمسيحية في محافل الماسونية وفكرها وكتاباتها ، قد استنطاعت بعد الثورة الفرنسية التي قادتها لحساب هدم الطابع المسيحي الغربي أن تجعل من مبدأ القوميات التي ابتكرته أكبر هادم للوحدة الغربية المسيحية . وإنها أرادت بعد ذلك نقل المعركة إلى العالم الاسلامي والدليل على ذلك أن الدولة العثمانية التي كانت تضم قوميات متعددة كالعرب والترك واليوناني والبلغاري والألبان والأرمن والشركس والأكراد هي التي تدعو إلى الطورانية وإن العنصر الحاكم هو الذي ينشر صراع القوميات ويمزق الدولة ، وكان العنصر الحاكم الذي أهدته المحافل الماسونية لهذا الغرض في تركيبهم الاتحاديين والسكاليين .

أما العرب فإنهم لم يحاولوا الانفصال عن الدولة العثمانية ، إلا بعد أن اغتلمم الاتحاديون باسم الطورانية ، ويزعم الله عبد الحميد الزهراوى الذى داخله الماسون حين قال بلسانهم إن الرابطة الدينية هجرت دائماً عن إيجاد الوحدة السياسية . وهل كان حقاً ما بين العرب والترك رابطة دينية وهل الرابطة الاسلامية يمكن أن توصف بأنها دينية إلا على السنة خصومها ودعاة التفويض . قبل الاجابة على هذا السؤال علينا أن نعرف كيف واجهت أوروبا مبدأ القوميات .

نظرية الدم

إن مبدأ القوميات في أوروبا لم يأخذ شكلاً واحداً ولكن أخذ عدداً من الصور والأشكال منها العنصرية والعرقية . أو نظرية الدم . وقد انتشر مذهب العرقية في أثناء المائة سنة الأخيرة في معظم أنحاء العالم وبلغ أوجه في ألمانيا وفلسفة التاريخ في ألمانيا قبل الحرب الأخيرة كانت تقوم على المذهب العرقى دون غيره ، فهم يقررون أن الحضارة لا تنشأ ولا تزدهر إلا على يد الشعوب الآرية ولا سيما الفرع النوردىكى الشمالى منها ، لذلك ينسبون نشوء جميع الحضارات بما فيها الهندية الفارسية إلى فنوحات آرية . والعرق فسكرة بيولوجية لا ثقافية ، لذلك فإن تصنيف العروق وتبويبها يقوم على أساس الملامح الجسدية كالفامة ولون البشرة ولون العيون وشكل الرأس وحجمه ولا يصح تصنيف

المعروف على أساس اللغة أو نوع الحضارة . ونشوء الفكرة العنصرية في ألمانيا قديم بدأه أدوردي جوبينو (١٩١٦ - ١٨٨٢) وشارك فيه فاشيه دى لا بوج وهوسون تشيرلين . ويقول جوبينو : أول من وضع أصول القومية الإحيائية الجديدة في بحث له تحت عنوان (مقال في بيان للتفاوت بين الأجناس البشرية) إن الدم ذو أهمية عظيمة وإن الناس يتفاوتون في العنصرية ، وإن الحضارة لا يمكن أن ينتقل من شعب إلى شعب ، ولذلك فإن الأجناس المتأخرة لا يمكن أن تسمو إلى مستوى أرفع وأن الشعب الألماني هو الشعب المختار إذ المبقرية عنصرية مرهونة ببقاء الدم ، وقد شجع جوبينو مذهب عبادة الأسلاف باعتباره وسيلة للمحافظة على بقاء الأجناس الراقية وتمكنها من الاطلاع برسالها في زعامة العالم . وقد أجمع فلاسفة نظرية الدم على أن الجنس الآري النورديكي هو أرقى جنس وهو الذي خلق المدنيات .

الحلقات الثلاث

وهكذا علمت صيغة الدم ، صيغة العناصر ، صيغة الأجناس ، وجمعت العالم كله . وقد واجهت أوروبا مضطرب هذه الصيغة ، وفتحت أبوابها لدراسات وكتابات أجهت كل وجهة ، فقد أراد بها البعض إحياء العصبية القديمة كالألمان والإيطاليين وأراد بها اليهود خلق عصبية جنسية ليست موجودة جغرافياً ، ولكنها وجدت بالمهجرة المنتملة إلى فلسطين .

أما العرب والمسلمين فقد كان موقفهم واضحاً من كل دعوة إلى العنصرية والأجناس ، فقد أعطاهم الإسلام مفهوماً واضحاً صريحاً لذلك ، فغير أن سيطرة الغرب على العالم الإسلامي وفرض مفاهيمه ونظرياته عليه ، قد أقام هذه الدعوات إلى القومية ولكنه عجز أن يفرض مفهومه عليها فقد استمدت القوميات الإسلامية مفاهيمها من داخل فكرها واتخذت من القوميات وسائل للقوة والنمو والتحرر من النفوذ الأجنبي ولكنها رفضت مفهوم القومية العدوانية التي تصارع جيرانها من القوميات الأخرى ، ونما في ظل ذلك مفهوم « العروبة » الذي أعاد تجميع الأجزاء العربية التي فتتها الاستعمار باسم الاقليات ، ولم ير العرب بأصاً من إحياء الوطنيات في الداخل مع الترابط العربي ، وفق مفهومهم الواضح الذي يربط الحلقات بعضها ببعض . ذلك إن الفكر العربي الإسلامي يؤمن أساساً بالترابط والانقاء بين الوطنية للربطة بالأرض والعروبة والمرتبطة بالأمة والإسلام الجامع لوحدة الفكر . ونظراً لمرونة الفكر الإسلامي وسماحته وبالارتباط مع مقوماته الأساسية القائمة على التكامل ، فإنه لم يكن هناك شيء من التناقض أو الصراع أو التمازج ، بين أن تسير الحلقات الثلاث في طريقها دون

أن تعارض ، فإنها ستلتقي على الطريق الصحيح ، ففي فترات الضغط الاستعماري الشديد لجأت الأجزاء الإسلامية والعربية إلى مرحلة الوطنية والارتباط بالأرض ولكنها لم تنفصل عن العروبة ووحدة الفكر ، ثم استطاعت أن تنحدر من الاستعمار وتدخل في الحلقة الثانية (أى في مرحلة العروبة وارتباط الأمة) وهي الآن على أبواب المرحلة الثالثة الجامعة : مرحلة وحدة الفكر .

محوران في العقائد والدماء

والنجم البشري مادة يدور حول محورين : محور الفكر والعقائد ومحور الدماء والعروق . فالإسلام هو : «وحدة فكر» لأهله و«وحدة عقيدة» لمتلقيه . وهو وحدة فكر لأنه ليس ديناً محسباً ، ولكنه في الجانب الآخر (غير الدين اللاهوتي) حضارة ومنهج حياة ونظام مجتمع . وهو في هذا يخالف المسيحية التي هي دين لاهوتي خالص ومجموعة من الوصايا . ولقد كان الإسلام كوحدة فكر يرتبط باللغة العربية ، غير أن النفوذ الاستعماري قد حال بين جريان اللغة العربية مع الإسلام حينما ذهب إلى الناس عقيدة وفكرًا وما يزال يؤثر في هذه الأمم والشوب بتقليب لغاته الأجنبية أو اللغات الإقليمية حتى يحول دون ذلك التكامل .

مع ذلك فإن العالم الإسلامي لا يؤمن بوحدة اللغة ولكنه يؤمن بوحدة الفكر الجامعة ويرى اللغة طريقاً إلى ذلك تمهد لها السبل وترفع العقبات . لقد جاء الإسلام عقيدة إنسانية عامة انصهر في داخله فكر الأقوام وأجناس التي اعتنقته وتلك التي عاشت داخل إطاره . فشكل فكر واحد جامع ، غير أن الإستعمار هو الذي عمل على تمزيق هذه الوحدة وأبنت دهورات التناريخ القديم السابق للإسلام ونمساها وفنداها بالحفريات الأثرية وإحياء اللغات والفلسكور والتاريخ والقصص والأساطير حتى يحول دون ذلك التشكل الجامع الذي أقره الإسلام أربعة عشر قرناً . وجلة القول أن القوميات في أوروبا قد ارتبطت بأمرين خطيرين يتعارضان مع العالم الإسلامي : (أولاً) العودة إلى الجذور القديمة مع تقدير الآثار القومية التي غيرت كل شيء . (ثانياً) ارتباط القومية اللادينية أو نقي أثر الدين مع أن الدين جزء من الثقافة وله ارتباط باللغة والتاريخ .

(٣٩)

الخصومة في وجه وحدة العروبة والإسلام

إن هناك محاولة دأمة تلقى جو من الاضطراب والتناقض بين العروبة والإسلام في سبيل غاية محددة هي : الحيلولة دون وحدتهما أو تلاقيهما ومن هنا فإن هناك دائماً عمل بالخصومة لا ينقطع حتى لا يتم هذا اللقاء ولا يتكامل ولا يحقق نتائجها . ولا ريب أن اليهودية العالمية بل على سبيل القطع إنها هي التي أثارت في العصر الحديث محاولة إيجاد صراع وتناقض بين العروبة والإسلام وبين الدين والقومية ، وأن الاستعمار الغربي الحديث هو الذي طرح هذه القضية في العالم الإسلامي رغبة في التجزئة والإقليمية التي تحقق له هدفاً ضخماً هو : « الحيلولة دون وحدة العرب والمسلمين » وما يتوقع من حظ لهذه الوحدة . ولما كانت وحدة العرب والمسلمين لها جذورها الضخمة البعيدة لدى في الفكر الإسلامي وفي القرآن نفسه ، فقد طرحت عشرات للذئاب والقضايا والدعوات والأنظمة والنماذج التي حدثت في أوروبا لتفطية هذه للمنطقة ودوام تحريك هذه القضية وإثارتها فترة بعد أخرى ، وإذا تمها ونحويلها إلى عقائد من طريق مهادد الإرساليات أو الجماعات والمبشرين التي قام عليها بعض خريجي هذه للمهادد ، وانفجرت من الشباب النض الذي كان مع الأسف قد أفرغ فكره تماماً من مفاهيم الفكر الإسلامي وأصوله ، ومن ثم فقد أمسكن تشكيكه — وهو في مرحلة التشكل والنطلع إلى للنل الأعلى وفق عبارات رمزية يراقة إنشائية ذات أسلوب رومانتيكي ، مجنح ، قائم على الظلال والأضواء ، مما يكتبه بعض المنصدين باسم « القومية » على هيئة أناشيد الثوراة وذلك في محاولة لإعطاء هذه للمفاهيم طابع القداسة ومضاهات الرسائل المنزلة من السماء .

وقد فشلت هذه المحاولات جميعاً وباءت فالتسقوط الذريع لأنها لم تحسب أصول الظلمات والأمزجة التي شكلها الإسلام والعروبة وقد تعددت مثل هذه المحاولات وتنوعت واستهدفت أساساً الحيلولة دون ترابط العرب والمسلمين وهزل العرب من المسلمين وعن الإسلام جميعاً ، ودن قيام «وحدة فكر» تكون مقدسة لوحدة سياسية ، وهي دهوة دائمة من طريق الأساليب الزائفة المنسوجة في قوالب ذات مظهر علمي إلى تأريث الخلاف الدائم بين العروبة والإسلام وبين العرب أنفسهم ، وبين القوميات والإقليميات ، وبين الأمم والشعوب وبين وحدة اللغة ووحدة الأرض ووحدة الفكر حتى لا يكون هناك لقاء إن الهدف من تأجيج نيران القوميات والإقليميات إنما يستهدف تأخير الوحدة القادمة

على مقاومة العدو، ومواجهة الغزو وإغراق العرب والمسلمين في دهوات متعددة . ولكن النتيجة الواضحة أنه قد فشلت كل محاولة ترمي إلى إدخال واقعنا العربي الإسلامي في القالب الغربي عن طريق استيراد النظريات وخاصة نظريات القومية الأوروبية التي تنظر إلى الإسلام كدين، والدين مستبعد من خصائص القومية ، ذلك أن منطقتي فكرنا وتاريخنا يقوم على العروبة وليس على القومية الوافدة . والعروبة بمفهومها العميق التاريخي الواسع للفتوح على الإنسانية والعالم الإسلامي . هذه العروبة ليست استجابة لمبدأ القوميات الذي يحتاج العالم ولكنه إفاء مع حقيقة ليس إلى تجاوزها من سبيل في بناء النهضة ، وهي إذا كانت صيغة التجمع في وجه النفوذ الاستعماري وتهدية فن المسحيل أن تشكل على النحو الذي يحاول أن يفرضه ليقسد هدفها ، أو يخلق للصراع في داخلها ، وحتى لا نستطيع أن نستكمل وجودها أو نحقق هدفها .

إن التماس للنهضة العربية للوحدة على النحو الذي نحاول أن نصوره للذاهب الغربية هو غريب عنا ولا يلتقي معنا لأنه في الصورة التي هزتها أوروبا ، إنما استمدت شكله من واقع وظروف وتاريخ مخالف كل المخالفة للواقع الذي تواجه به هذه الأمة تحدياتها ، فإن التمسنا لواقعنا هذه المذاهب الوافدة فإننا نكون قد مهدنا لإجهاض حركة الوحدة والقضاء عليها ، ذلك أن الاستعمار حين رأى أن الدعوة إلى الوحدة على أساس العروبة الخنيفة حذر إلى طرح هذه النظريات لبعثرة القوى وإذابة المزاج النفسي للوحد الذي منه تستمد الأمة إنجاحها الأصل ، وذلك بمحاولة إبادة عن الإسلام فكراً وخلق حدود صفيقة وهداوية بين الأجزاء العربية والأجزاء الإسلامية . وهل تستطيع العروبة أن تحقق وجودها إلا من داخل مضامينها ، هذه المضامين للربطة بقيمها الأصلية وتاريخها للمتمدن وما يفرضان من واقع وأسلوب عمل — أن محاولة هزل العرب من الماضي (التاريخ والتراث والفكر) هي محاولة هزل كل وصيده النفسي والاجتماعي وامتداده الحى وهي أخطر ما تحاوله حركات الغزو الاستعماري ، من أجل التنبية سواء استهدفت هذا الفصل بين الدين والمجتمع أو بين الدين والدولة أو أهلاء وحدة اللغة والتاريخ أو وحدة الجنس والعرق . وإذا كان لنا أن نقاسم لما اضطربت الدعوة إلى الوحدة طويلاً قبل أن نحقق شيئاً ذي بال ، كان لنا أن نقول أن ذلك وقع لاقها التمسست المفهوم الغربي الوافد لجانيت القطرة ، ومن ثم فقد أصابها التعمد حين استسلمت لحاثير الفكر الغربي عن طريق التغريب ، وهذا هو ما كان يريد لها الاستعمار حتى لا تحقق غايتها وتظل غارقة في تبة الصراع لا تخرج منه ولو بعد أربعين عاماً . إن هدف الوحدة عن طريق مفهوم العروبة الأصل واضح وتلقائي ومستمد من أصالة وحدة الفكر العربي الإسلامي ومن أعماق الذاتية وفي ضوء المزاج النفسي الاجتماعي

أما نظريات القوميات الوافدة (ما يركز منها على اللغة والتاريخ وحدهما أو يركز على الأرض وحدها) فهو نبت غريب ، لقد كانت العروبة هي صيغة التجمع في نطاق الامة بمد سقوط حصن التجمع الرابط بين العروبة والاسلام ، وكان هدفها « التماس » قوة جديده تواجه الاستعمار وتكتل القوى وفق قيم الامة العربية الاسلامية الفكر لا وفق مفاهيم العلمانية والمادية الغربية . وإنما لجأ العرب إلى « العروبة » كأسلوب من أساليب التجمع في وجه الغزو بمد أن سقطت « وحدة الفكر » الجامعة بين العرب والمسلمين ، وكان ذلك إنجهاً طبيعياً في حلقة أكثر استحكاماً وأقل تعرضاً للمخاطر وأكثر تقارباً في الأرض والعرق ، وهي في نفس الوقت « بؤرة » التاريخ الإسلامي الأولى التي انطلق منها هذا الضياء إلى العالم كله ، ويمكن أن ينطلق منها مرة أخرى . يقول بايندر : « استعمار الشرق العربي الفكرة القومية من الغرب (والحق أنها فرضت عليه وما استمارها) كوسيلة يدخل بها العالم المعصرى كما حدده الغرب المسيطر ، لكن حقول المثقفين العرب ولا سيما أولئك الذين عرفوا بعض الشيء عن المعرفة التقليدية لم تكن من النوع الذي يقبل كل شيء » .

ويرى بايندر أن « المحتوى » في العالم الإسلامي ، كان يختلف إختلافاً ملحوظاً ، وهناك أن فهم الطريقة الخاصة بالنظور القومي في مصر والبلاد العربية تعتمد أساساً على « معرفة الأثر الإسلامي في فهم الأفكار الغربية » ويقول : لم تكن القومية العربية عند المسلمين هي الرد الفوري على الضغوط الغربية فعلى النقيض من ذلك جرت المحاولة أولاً ببعث إسلامي سياسي ثم تلحقها محاولة أخرى لإصلاح النظرية القانونية في الإسلام ، ومن الحق أن يقال أن الخصومة التي أثارها الصهيونية والاستعمار عن طريق حركتي التغريب والشموبية في وجه المفهوم الأصيل للعروبة كانت حادة وهنيفة ، وكانت هادفة أساساً إلى إفساد الأصيل بطرح البديل وترويجيه في السوق على النحو الذي يجمسه السلعة الوحيدة المعروضة في محاولة لتعطية التيار الأصيل وردمه نهائياً . ولكن إصالة الفكر الإسلامي كانت قادرة دائماً على مواجهه كل واعد ، وقد كشفت عن مقدرتها في مواقع كثيرة ، منها حلة الترجمة اليونانية في القرن الرابع ، وفي مواجهة ما طرح من نظريات في السياسة والاجتماع والتربية والقانون منذ سيطر النفوذ الاستعماري على العالم الإسلامي ؛ ومن هنا كان موقفها من النظريات الوافدة في مجال القومية والاقليميات بالرغم مما صيغت به هذه النظريات على نحو يراق يرضى للنفوس البسيطة والمقول المحددة ذلك أن هذه النظريات كانت بطبيعتها متعارضة مع الفطرة ومع المزاج النفس العربي الإسلامي الأصيل الذي يؤمن بالآفاق الواسعة المفتوحة ولا يؤمن بالصراع أو التناقض أو التجزئة .

(٤٠)

تحديات التكامل بين العروبة والاسلام

أولاً : محازير مبدأ القوميات الوافدة

ماهى المفاهيم الاساسية التى يتميز بها مبدأ القوميات الغرب الوافدة وماهى محازيره :

(أولاً) الابواب المغلقة على الامم بالعداء والاستعلاء والمنافسة فى أوروبا أى أنها قومية الصراع والتنافس والاستعلاء . وهذا المفهوم من المسير قيامه بالنسبة للعرب كأمة كانت هى قاعدة للعالم الإسلامى سياسياً وفكرياً ، ثم هفقت مع هذه الامم الاسلاميه روابط فكر ومجتمع أمنت أربعة عشر قرناً ، لقد ارتضت أوروبا القومية بعد أن حررت نفسها نهائياً من الدين كقيدة جاممه وكانت قد ترجمت الانجيل وانتقلت إلى كاثوليك وبروتستانت ثم سيطرت اليهودية العالمية على البروتستانت كمشاهدة لتدمير المسيحية الغربية من الداخل . وكذلك بعد أن انتهت من وحدة اللغة لم تعد فى أوروبا لغة جامعة ، فقد سقطت اللغة اللاتينية نهائياً . ومن هنا نذكر محاولات الاستعمار فى إثارة الخلاف بين العرب والفرس ، وبين العرب والترك لإغلاق باب الالتقاء وتدمير مفهوم العروبة الأصيل ونحويله إلى مفهوم القومية العدوانية الوافدة الذى طبقته أوروبا ، إن أكبر ما هدفت إليه نظريه القومية الوافدة هى عزل الأجناس فى العالم الإسلامى عن بعضها البعض وإقامة حواجز سياسية وفكرية وثقافية بينها ثم خلق أسباب الفرقة والتنازع والصراع حتى لا تلتقى على وحدة فكر أو وحدة سياسية أو اجتماعية ، وخاصة عزل العرب عن الأتراك بعد ترابط دام أكثر من ثلاثمائة عام

ثانياً : العرف أنفسهم لم يكن لهم وجود حقيقى كأمة أو كوحدة قبل الاسلام وليس فى نراهم شاعر واحد تحدث عن العروبة بل كانت القبيلة هى الاساس ، ومن هنا فإن من المسير على الباحث أن يجد تاريخاً للعرب بعيداً عن تاريخ الإسلام أو يجد قبا وكياناً للعرب بعيداً عن الاسلام ، أو يجد حافظاً للعرب غير مرتبط بالاسلام .

ثالثاً : خطأ محاولة التفضل على الاسلام بأثر العرب فيه ، والعكس هو الصحيح فالاسلام هو الذى جعل العرب عرباً وليس العرب هم الذين جعلوا الاسلام إسلاماً ، وإنما كان لهم دورهم الواضح المعترف به لاشك فى نشر الاسلام .

ولقد كانت المفاهيم واضحة وقائمة منذ وقت بعيد من أن العرب مادة الإسلام وإنه إذا ذل العرب ذل الإسلام . ومن هنا يسقط قول الغلاة القائلون بتفديس الأمة العربية ، والذين يصفونها (نجاسة روحانية) أو أنها (عقيدة) أو يعطون المعنى القومي الوافد طابعاً فلسفياً لاهوتياً أو صوفياً أو مثالياً على هيئة للزامير التي يراد بها إغراء الشباب وتقلهم من الدين إلى القومية باعتبارها دين جديد . هؤلاء الذين يقولون بأن ظهور الأمة على مسرح التاريخ كظهور الإلهام على مسرح الوجدان مع الاهتمام بالجاهلية والتكرير عليها ووصف اللغة العربية بالمعقرية أو وصف محمد بالبطولة . هذه الدعوة التي تهاجم بنصف الفارسية والتركية وتضرب الامتداد الإسلامي للعروبة وتثير حوله الخصومات والأحقاد ، هي دعوة زائفة ، لأنها لا تستمد مقوماتها من إصالة المنابع ولا من صفاء المزاج النفسى الأصيل ، أما العروبة فإنها تحرر الأمة من التعصب والعنصرية والقداسة والاستملاء وتلتبس مفاهيم العرب والمسلمين على النحو الذى فهمه الإمام الشافعى والإمام ابن تيمية .

رابعاً : ليس الإسلام عنصراً مرحلياً فى تاريخ العرب أو فى تاريخ الإنسانية ، فالإسلام فى حقيقته مبدأ التاريخ الحقيقى للعرب والانسانية جميعاً وأنه حين جاء فحدد الحدود والفواصل بين عصر وعصر ، بين عصر الاضطراب الوثنى المادى الذى تصارعت فيه الفلسفات اليونانية مع الأديان المنزلة ، وانحرفت مفاهيم الأديان وتغيرت ، واضطرب أمر السكنتب السماوية ومفاهيمها وشأت البشرية لحظة العبور إلى مفهوم السماء المتجدد فمكثت رسالة الاسلام أتم الله بها الدين وكان القرآن خاتم السكنتب السماوية ومحمد خاتم الأنبياء والرسل ، وما زال القرآن منذ نزل من السماء إلى اليوم (وسيطلاً) النص الموثق الذى لا يأتيه التحريف ، والذى يرسم للإنسانية طريقها إلى الحق . فلن يكون الاسلام عنصراً مرحلياً ، بل ستكون المذاهب والفلسفات هى النظريات المرحلية المتغيرة ، وتبقى للإنسانية القيم الثابتة ، والقوانين الأساسية ممتدة فى القرآن والاسلام .

خامساً : لم يتفق أصحاب مذاهب القوميات الوافدة على مفهوم واحد ، هناك عشرات وكلها وافدة ودخيلة : منها القومية العلمانية ونظرية المشرق والمغرب ونظرية الاقليم البنانية مطروحة للعقل العربى ولتطبيقها على العرب جميعاً . ومن العسير تحرير طبيعة الفكر العربى الاسلامى الأصيلة لتقبل مفهوم أو مذهب يحاول إرضاء طائفة من الطوائف ، لأنه الفكر الغالب السامع هو الذى يجمع ولا يفرق ، أن الطوائف قد عرفت منذ التاريخ الطويل كيف امتدت الحساية والحضانة فأخذت حريتها فى مجال العمل والعبادة ، ولم تتحرك هوامل الفلق إلا حين حركها النفوذ الأجنبي الاستعمارى

الذى يريد أن يفرق ويمزق ، ويحول دون قيام النهضة على أصولها ، ودون أن يبدو دوره واضحاً ظاهراً ، بل يبقى خفياً ، من وراء من يدفعهم ويثير في نفوسهم المخاوف التى لم تنصح أبداً . وهذه الطوائف تعرف أنها جزء من هذا التشكل العربى الاسلامى وأنه ليس لها فكر ولا تاريخ ولا تراث ولا قيم مستقلة خارجة عن هذا الفكر والتاريخ . يقول عزيز ميرم : إنما تقدم الغرب على الشرق فى فكرة بناء الوحدة القومية على أساس وحدة الدم والتاريخ والوطن ليمصب القريين لأديانهم فتقاتلوا من أجلها دهوراً أما فى الشرق فلنساهل الدين الاسلامى وتسامحه لم يمنع الاسلام الطوائف غير الاسلامية من المعيشة والانتشار إلى جواره وقد وضع الاسلام منذ نشأته قاعدة حرية الدين وأجاز للطوائف غير الاسلامية حق مباشرة شؤونها الداخلية بنفسها وفقاً لأحكام أديانها (الأهرام ١٩٢٢/٣/٨) . ولا شك أن أصحاب المذاهب القومية الواحدة ليسوا على استعداد لقبول أى شيء ذلك أنهم لا يريدون البحث الحر النزيه ، بل هم يدهون إلى الشكل الذى رسمته القوى الأجنبية وتشكل فكرهم أساساً على الاعتقاد به وقد اتفقوا أما كنهم القيادية فى العالم العربى بفضل هذه الدعوات وفى ظل ألويتها .

سادساً : خطأ المحاولة التى تطرح العروبة كبديل للإسلام من حيث هو فكر ونظام ومجتمع . ولا ريب أن هروبة الفكر تعنى إسلاميته فليس هناك فلسفة عربية فى الفكر غير مستمدة من القرآن . وأن محاولة خلق فلسفة عربية معاصرة معزولة عن الاسلام هى محاولة لن تحقق كثيراً من النجاح ولا الاستمرار إلا فى الظروف التى تساندتها فيها الدهايات ومن يفرضونها أو يحمون وجودها الزائف . إن محاولة خلق وجود عربى ، أو هروبة ، أو فكر عربى على النحو العلمانى المنفصل عن الاسلام أمر بالغ الاستحالة ، وبالغ الابتعاد عن القانية العربية والمزاج النفسى الذى عرفته هذه الأمة . وإن هذا الفصل المتعمد بين الفكر وبين الاسلام هو فصل غير طبيعى وأبلغ خطأ أن يراد به الفصل بين العروبة والدين ، فليس الاسلام ديناً نحسب ولكن دين وحضارة ونظام مجتمع .

إن هزل العروبة عن الاسلام أو خلق هروبة غير إسلامية هى إحدى وسائل الدفاع عن وجود إسرائيل فى العالم الاسلامى والبلاد العربية ، ذلك أن العودة إلى ترابط العروبة والاسلام ذلك الترابط العضوى الجندرى هو أول معول فى وجود إسرائيل والنفوذ الأجنبى الاستعمارى والصهيونى مما .

سابعاً : أهم أخطاء النظرية القول بأن الإسلام دين وأن العروبة قومية وأن ماتعبطه أوروبا بصالح التطبيق في العالم الإسلامي . وهي عبارة أخرى : محاولة وضع القومية في مواجهة الدين ، وحتى إن صح هذا فإنه من المستحيل أن توضع العروبة في مواجهة الاسلام فالعربية لغة لا يمكن أن تذهب إلى المنحرف كاللاتينية لأن لها جذورها وارتباطاتها القائمة المتصلة بفكر وثقافة وعبادة ألف مليون مسلم ، والاسلام كدين لا يمكن أن ينضوى في المسجد لأنه دين متكامل هو دين ونظام مجتمع والقرآن لا يمكن أن يترجم بوصفه القرآن بل باعتباره ما يترجم من معاني القرآن ، وهناك الفارق بينه وبين ترجمة الكتاب المقدس في أوروبا أن أكبر الأخطاء في فهم القوميات وفي فهم العروبة ، هو تجاهل ذلك الفارق الدقيق بين كلمة دين وكلمة عروبة ، فإذا فهمت هذه النقطة بوضوح بدا أن كل ما كتب أو أغلبه كان محمولا على خطأ هذا الفهم غير المقصود أو المتعمد ، ليست هناك في العالم الاسلامي حركة قومية خالصة وحركة دينية خالصة ولكنها كلها حركات عروبية إسلامية ، لبيت هناك حضارة عروبية أو حضارة إسلامية ولكنها حضارة عربية إسلامية .

ثامناً : من الاستعانة بنجاح الدعوة إلى العودة لما قبل الاسلام : الفينيقية والفرهونية وقد انتهت التجربة المصرية إلى الفشل الذريع ، فإن الفرهونية لم تجد الجذور الأصلية التي اجتمعت الاسلام وأقام بدلا منها عالما آخر مختلفا كل الاختلاف . وكذلك فإن ما نحاوله الفينيقية إنما يعبر بقوة دفع خارجية وليست له أصالة حقيقية إلا على اعتبار أن الفينيقية فرع من العروبة قديم وكذلك الفرهونية . ذلك أن الاسلام كان عاملا حاسما في الفصل العميق بين عالمين : عالم ما قبل الاسلام في هذه المنطقة وعالم ما بعده . والواقع أن إعادة العرب والمسلمين إلى ما قبل الاسلام معناه فكرا العودة إلى الوثنية الفكرية التي يتعارض معها التوحيد ، تلك الوثنية التي تؤمن بالقوى الطبيعية المختلفة كالشمس والنيل والتمساح ، وكذلك إلى الفنون القائمة على أساس التهاويل والأسماعير والحرافات التي أنست العقل الانساني وحرر الاسلام منها البشرية تحريراً تاماً ، ولا شك أن هذا فكر قد اندثر وباد ولا يمكن أن يعود العقل الاسلامي كرة أخرى إليه . ولا شك أن الأشورية والبابلية والسكندانية والآرامية والفينيقية والفرهونية ، كلها موجات خرجت من الجزيرة العربية ونزحت عن موطنها الأول وانداحت في هذه المنطقة العربية الخنيفة ، وأبناء هذه العروق جميعا هم العرب الذين نزلت فيهم الأديان قبل أن تغلب المنصرية على الخنيفة . ناسماً : خطأ نقل المعادلة بين القومية والدين إلى العروبة والاسلام ، فالاسلام دين ونظام ومجتمع ، والعروبة دعوة تجمع أمة ذات تاريخ ولغة ووجود شكله الاسلام فكراً وقومياً .

والقومية لا تمتلك منهج حياة ولا نظام مجتمع ، وإنما هي حلقة من حلقات ثلاث هي (الوطنية — الأمة — الفكر) ، الوطن رابطته الأرض والأمة رابطته اللغة والجنس والفكر رابطته البناء الاجتماعي والعقائدي . طائراً . الشخصية العربية هي شخصية إسلامية لها لون عربي ، ليس هناك شخصية عربية مستقلة أو منفصلة وإن تكون ، لأنها بطبيعتها وتركيبها وجودها نشأت من وجود الإسلام نفسه الذي أعطى لغة العربية القرآن مصدراً خالداً للنشريع والبيان جميعاً ، وأعطاهما وحدة اللسان ووحدة الفكر ، ونقلها من شتات القبيلة إلى وحدة الأمة ومن صراع الجاهلية ووثنياتها إلى الوحدةانية والأخاء والمعدل . حادى عشر : يختلف المجتمع الإسلامي عن المجتمع الغربي : بأنه جامع بين عقيدتين أو دينين : دين أغلبية ودين أقلية ، ولكن الإسلام — الحضاري — غير العقدي واللامرئي هو للمسلمين معاً ، فالمسيحيين على حد تعبير أحد دعاةهم يرون في الإسلام ثقافة قومية لم يجب أن ينشئوا بها لأنه تنصل بطبيعتهم وتاريخهم ، وكان أحد زعماء السياسة القدامى يقول : أنه مسلم وطنياً نصراني دينياً .

ثاني عشر : زيف القول الذي طرحه الصهيونية العالمية للصونية من أن عصر الأديان قد انتهى وقد جاء عصر القوميات ، أو عصر اللادينية ، والقوميات في أوروبا تركت تاريخاً سيئاً وانطباعاً كارديناً وانتهت منها أوروبا ثم صدرتها للعالم الإسلامي ، وإذا كان مردودوا هذا يصدقون على أديانهم فإنهم واهمون إذا كانوا يقصدون الإسلام . ذلك أن الإسلام ليس ديناً أرضياً ، وليس ديناً لاهوتياً ، ولكنه حركة اجتماعية شاملة تضم ثقافات وعقائد وقيم المسلمين والمسيحيين جميعاً ، فقد آمنه الإسلام للثقافات والفلسفات التي هرستها المذطقة كلها من قبله وهي ما تسمى بالثقافة الحثيية . ولا شك أن هذه المحاولة التي تسمى بالقومية العلمانية التي تهدف إلى إقصاء القيم الفكرية والروحية التي جاءت بها الأديان من الحياة الاجتماعية وتحرير الفرد والأمة من رابطة العقائد والأخلاق ، هذه العلمانية هي أساس في النظرية القومية الوافدة ودهوات الأجناس والعروق ، ومن هنا فإنها تتعارض معارضة أساسية مع مفهوم الإسلام الجامع بين العروبة والإسلام تحت لواء « وحدة فكر » . ثالث عشر : إن أمر الجنسيات والقوميات يختلف في العالم الإسلامي عنه في العالم الغربي في أشياء كثيرة أهمها : إن الإسلام حين جاء قطع تلك الأصول القديمة كلها من فرعونية وفينيقية وأشورية وبابلية وصهرها من جديد في « وحدة فكر » . ومن المصعب أن أغلب هذه الفروع قد جاءت من الجزيرة العربية أصلاً فهي لا تختلف من حيث مبادئها . إن قوة الإسلام في القضاء على هذه الأجناس وإذابتها لا تقاب ، وإن إحياؤها من جديد لا يعني شيئاً أكثر من تشككها من جديد في دائرة الإسلام نفسه ، فالإسلام رابطته

هقيقة الجذور صهرت الفكر الإنساني كله في أعماقها واستصفت وشكلته من جديد في دائرة التوحيد ، ونفت ما سوى ذلك .

وما تزال رابطة وحدة الفكر أكبر من رابطة الأجناس والدماء ، بل إن رابطة الأجناس في ظل اللهوات الجديدة قد أخذت تنصهر ، فهي في الفكر الإسلامي منصهرة وما تبقى منها محتفظاً بذاتيته فإنه لا يستطيع أن يفصل عن المفهوم الواسع لمفاهيم اللغة والتاريخ والثقافة وكلها ذات جسد دور إسلامية هربية . والواقع الملموس أن هناك اتصال وترايط بين العرب والإسلام لا صبيل إلى تمزيقه ، أنه ترايط جفري ضخم قد تشكل منذ قرون بعيد على ما يمثل الإسلام من حيث هو هقيدة وما عتل العرب من حيث هي أمه والمسر في ذلك أن الإسلام ليس ديناً بمعنى الدين الذي عرفته أوزيا حسين وضعت نظرية القوميات ، فهو دين ونظام مجتمع ومنهج حياة ، وهو هقيدة وشرعية وفكر وحضارة . ولقد تأكد فساد نظرية الدم في البلاد العربية وفساد القومية المسقنة على أساس العنصرية حيث تقوم النظرة الإسلامية على حرمان التفاضل بالأجناس والأنساب والطبقات حيث لا فضل لأبيض على أسود ولا هربي على هجمي ، فالإسلام ينكر فوارق الجنس ، وفوارق اللون ، وفوارق العقيدة . رابع عشر: إن العلمانية في محيط العرب والإسلام دهوة لا ضرورة لها ولا لتيجة ترجى منها ، فليس في هذا المحيط هيئة تقسوم مقام الكنيسة وليس علماء المسلمين هم رجال دين ، وليس في الإسلام حكومة ثيوقراطية قامت أو تقوم ، والمجتمعات الإسلامية قد مزجت الإسلام بالمجتمع مزجاً كاملاً هقدياً وهضوياً لا صبيل إلى نزعة فتد شكلت الأمة على هذا النحو ولن تستطيع التحرر من ذلك إلا بإعادة خلقها من جديد .

والمسيحيون مسلمون فكراً أو مسيحيون هقيدة ، فالفكر والثقافة والتاريخ العربي إنما كان بعض كله من خلال قناة واحدة ، لم تنفصل ولم تهق في خلاف أو صراع أو تعارض أو تضاد إلا حين فرض الاستعمار نفوذه وطرح شبهاته . وكل المخاوف التي تثار لا تنقض الروابط العميقة بين أبناء الأمة الواحدة ، وهي ليست إلا محاولات النفوذ الغربي لنصهم هروءة الوحدة بالتحريف : ومن حيث أن الإسلام دين ونظام ومجتمع . فإنه يستحيل على العلمانية أن تنجح ، ذلك أن الإسلام تقدم للإنسانية نمطاً عالياً من التشرييع والنظام في مختلف مجالات القانون والتربية والسياسة والاقتصاد .

ثانيا : تحديدات التكامل بين العروبة والإسلام

واجه الالتقاء بين العروبة والإسلام تحديدات عدة أهمها :

(١) تحديد الطورانية (٢) تحديد الاستعمار (٣) تحديد تزييف الفكر الإسلامى بطرح الشبهات والنظريات الوافدة ، ولقد كان الهدف من طرح هذه الشبهات والنظريات إغراق المسلمين والعرب فى دهوات متعددة متضاربة حتى لا تتشكل لهم وحدة فكر جامعة ، ومن ثم كانت دهوات الإقليمية والقومية اللادينية والعالمية تستهدف جميعاً محاصرة البقعة العربية الإسلامية لتحويل دون تشكيلها فى حركة كاملة وتعميلها بدعوات متعددة متضاربة حتى يضيع خطها الأصيل ، ويبدو نافماً ضئيلاً وباهتاً بين هذه الخطوط المتعددة . غير أن الفكر الإسلامى استطاع فى ظل هذه التحديدات أن يستكشف جوهره وأن يؤكد وجوده وأن يصحح مفاهيمه ، ويحرر مقوماته من التقليد والجلود ، والوافد والدخيل ملتصقاً أصوله الأصيلة وقيمه الأساسية ومنابعه الأولى من القرآن والسنة الصحيحة قبل أن تختلط بالفلسفة أو الاعتزال أو تفاريم الفقه أو التصوف ليتخذ منها قاعدة لانطلاقه مؤمناً بأن وحدة هذا الفكر الجامع لأهل العروبة الحنيفية التى تمتد على الأرض العربية مفتوحة على العالم الإسلامى كله جغرافياً وعلى الفكر الإسلامى تاريخياً . ومن ثم فقد انخفضت حرارة ذلك التيار الذى كان غالباً فى الإيمان بالحضارة الغربية أو الاحجاب بالفكر الغربى ، وحل محله إيمان بالذات والسكان وقد جاء ذلك على أثر ضربات المعاول وانكشاف الزيف التى حملته نظريات وشبهات التفریب التى كانت تعتمد إلى تركيز النفوذ الاستعمارى بسلب الذاتية العربية الإسلامية جوهرها الأصيل وتشويه القيم الأساسية .

وعندنا : إن العرب والمسلمون قد خرجوا فعلاً من مرحلة التبعية الفكرية ودخلوا ساحة الرشد والذاتية الأصيلة . ولا ريب أن وضع (العروبة) فى مواجهة (الإسلام) هى محاولة استعمارية ، وأن وضع القومية فى مواجهة الدين (فى نطاق الفكر العربى الإسلامى) هو خطأ بالغ فى فهم الإسلام والعروبة معاً . قد لا يتفق الدين والقومية فى الغرب والسكن الإسلام والعروبة لاختلافان ولا يتمازجان . ومن هنا يمكن القول : إن النظرية للطروحة للقومية هى نظرية عنصرية أصلاً ، أما نظرية العروبة الحنيفية ، فإنها تستمد وجودها من إصالة الفهم للواقع العربى وامتداده على أرض الشرق الإسلامى ، متصلاً بذلك السكان الفكرى الممبق الجذور الذى شكل مختلف الوحدات والتجمعات التى عرفها

العرب والمسلمون خلال أربعة عشر قرناً . إن الفكر الإسلامي لا يجد تمازجاً بين دائرة الوطن ودائرة الأمة ، ولكنه يمارض التحرك من خارج دائرة القيم الأساسية ، على هذا النحو من « التشكل » الزائف وفق نظرية وأفدة مما يطرحه تلامذة الثقافات الأجنبية والارصاليات التبشيرية . إن بيننا وبين نظريات الغرب محاذير عدة أهمها : أولاً : إن الغرب له وجهة نظر في أمور بما تتفق مع نفوذه فهو لا ينظر إلى القضايا العربية الإسلامية نظرة تجريدية أو علمية خالصة . ثانياً : إن فكر الغرب يقوم على إنشطار في المعرفة بين العلم والدين والقلب والعقل . ثالثاً : إن الغرب يبني كل منطلقاته الفكرية على أساسين (١) العلمانية التي ترفض الأديان (٢) المنصرية التي لا تعترف بالوجود إلا للجنس الأبيض ولا ترى لغير أوروبا ذرراً في الحضارة . رابعاً : إن أى حركة فكرية عربية (سياسية أو إجتاهية أو فكرية) لا بد أن تبدأ من اللبائع ، هذا فضلاً عن أن هناك من النصوص التاريخية للوثوق بها ما يؤكد أن دعوة القوميات الغربية إنما صدرت عن جأش الأجناس والدماء والأهراق التي شنتها اليهودية على العالم كله من أجل القضاء على وحدة الكنيسة في أوروبا ووحدة الجامعة الإسلامية للترتبط بالدولة العثمانية في العالم الإسلامي لاثارة الصراع بين الأمم جميعاً ، وتركز وجود زائف للجنس اليهودي في فلسطين . ولقد أكد كثير من علماء الغرب هذا المعنى حتى قال واحد من أساطين الفكرة القومية هو (جاك فينو) « إن نظرية الاجناس منشغل مكاناً هاماً في تاريخ أضاليل الفكر البشري » .

ولا شك أن تأريث دعوة المنصرية الغربية الجأشة والاستعلاء باللون والحضارة والتفوق المادى كان مقدماً لما وقع في أوروبا وترك أثره بارزاً في العالم الاسلامى . ولا شك أن طرح مفاهيم المنصرية الغربية في مجال العالم الاسلامى هو الذى فتح باب التنازع بين العناصر التي جمعها وحدة فكر (عربية إسلامية) الأكراد والعرب والسنة والشيعية والمسلمين والمسيحيين والبربر واللغاربة . ومن هنا فقد كان على المثقفين العرب والمسلمين أن يتيقظوا إزاء ما تطرحه الدوائر الاستعمارية ومعاهد الارصاليات فهو ليس صحيحاً في جملته ، وهو مصبوغ بصبغة معينة يراد بها الفصل بين الوحدة الفكرية للعرب والمسلمين ، فمل الذين خدعتهم هذه الفلسفات والآراء طويلاً أن يتحرروا منها وأن يعرفوا أن العدو لا يقول الحق ولا يريد الخير ، وأن أهل المنظمة كانوا من قبله يشكون وحدة أخوة ومحبة وحيكون كذلك رغم كل دسائسه ومكره وخدائيه لبعض من يستمعون له أو يصدقونه ، ولقد كان الفكر الاسلامى العربى على مدى المصور سمحاً كريماً داهياً الى حرية الرأى والعقيدة وسلامة الصدر واليد .

ولسكن واقعين في النظرة حين نرى أن بنية الفكر العربي الاسلامي وطبيعة المجتمع العربي الاسلامي ترفض كل فكرة وافدة زائفة ، إن كثيراً من الثقافات تستطيع أن تتقبل الفكر الوافد وتشكل فيه لسكن الفكر العربي الاسلامي بمراقته وإصاليته وذاتيته الواضحة يستحيل عليه التشكل أو الاحتواء أو الذوبان . وقد يبدو - وقنأما - في ظل ظروف القاهرة أو سلطة قاهرة ، أنه قبل النظرية الغربية المطروحة أو كاد ، سواء في مجال الإقليمية أو القومية أو الديمقراطية أو غيرها ، واستكنه لا يلبث أن يستجيش من أعماقه ويستكشف ذاتيته وي طرح منها المفروض والوافد وبمنته في ما يتفق مع طابعه فيمنعه ويحيله إلى كيانه دون أن يفقد طابعه الأساسي . وفي ضوء هذا يبدو ههنا ما يبدو إليه بعض الكتاب من تحرير مفهوم « العروبة » من أي التباس مع المفهوم الاسلامي وم يعرفون استعالة ذلك وههنا أقصر فلاسفة القومية منه ونشل أي نظرية مهما بلغت براعة صاحبها ، عن تحقيق هذا الفصل ، وأن ذلك في ذاته يخالف أساساً لتناموس للسكون ومنع الاحتجاج والتاريخ ، ذلك أن الارتباط العميق الجندري القائم بالقرآن وقيمه ومفاهيمه ، هذا الارتباط لا سبيل إلى فصله أو إزالته .

خاتمة

لقد آن لفكر الإسلام أن يصدر عن نظرة أصيلة في ترابط العروبة الإسلامية يستمدّها من فهم عميق وأصيل للجذور الحقيقية والقيم الأساسية لمفاهيم العقيدة والتاريخ واللغة وفهم أصيل لملات الوطن والأمة والفكر . وأن يجرى هذا الأمر بعد أن هدأت تلك الضجة الشديدة التي أثارها دعاة الإقليمية ودعاة القومية الغربية الوافدة وأصحاب المفاهيم التي تستهدف تدمير ما بين الأمم الإسلامية وبين العرب العرب من ناحية وبين الإسلام والمسلمين والعرب من روابط فكرية ونفسية وإجتماعية لها تراثها العميق الممتد عبر أربعة عشر قرناً والذي شكلها أساساً منذ ظهرت دهوة الإسلام في قالب الجزيرة العربية وامندت منها إلى الآفاق - شكلها على مفهوم جامع ، وقد كان لابد من القيام بمراجعة كاملة للنظرية الغربية الوافدة في القوميات والإقليميات ومعرفة مدى نفاذها واختلافها مع واقعنا . وكيف يمكن أن تلتقي مع كياناتنا هذه الذي شكله القرآن منذ نزل بالحق ، وقامت على أساسه أصول نفسية واجتماعية تمثل القاذية والمزاج والروح العربية الإسلامية التي تختلف اختلافًا واضحاً وعميقاً وجندرياً عن مثيلها في الفكر الغربي .

قوام هذه النظرة إن (وحدة الفكر والقيم والوقائد) هي أساس الخيفية ذات الجذور العميقة التي

تشكلت منذ تأملت هذه الأرض لرسالات السماء ومضت تصحح نفسها مرحلة بعد مرحلة ، وقد انطلقت من قلب الجزيرة العربية تلك الموجات التي انداحت من العراق حتى إفريقيا فكانت بمثابة التوسيد العميق لرسالة الإسلام حين جاءت لتلتقي مع أمة عربية تحمل لوائها إلى العالمين فهي هروبة حنيفة منذ انطلاقتها تحمل جذور التوحيد والعدل والرحمة ، فلما جاء الإسلام صقلها ونقاها وبرأها بما أُلِمَ بها على مدى العصور من وثنية أو شرك أو انحراف ، وأعادها حنيفة إسلامية وهي هروبة مفتوحة ثقافياً على التاريخ والتراث ومفتوحة جغرافياً على العالم الإسلامي والأمة الإسلامية ، وهي في أعماقها ثلاث حلقات متداخلة لا تنقسم هي : الوطن والأمة والفكر كل منها يسلم إلى الوحدة والتكامل وهذا هو الفارق العميق بين مفهوم العروبة ومفهوم القومية الوافدة ، فضلاً عن الخلاف بين الدين بمفهوم الغرب لا هو تآخراً خالصاً بين الدين بمفهوم الإسلام نظاماً جامعاً بين منهج حياة وعقيدة . ولا ريب أن التعريب كان خفياً بأن يفضل بين العروبة والإسلام ، وأن يطرح البديل الغربي ، وقد بدأت هذه النظريات في معاهد الدراسات ومحافل المصاحبة وركزت الأضواء على الدين حلوا هذه الدعوات ليصبحوا أهلاً ومنازل تفرى الشباب الغض الذي لم يكن قادراً على أن يفهم حقيقة فكره الإسلامي وصلته بالعروبة ، وكان الهدف هو الحيلولة دون وضع (حركة البيضة الإسلامية) على طريقها الصحيح والعمل دون وصول العرب حبل الرسالة الإسلامية إلى مكانهم الحق .

وقد تبين أن فكرة العروبة جاءت في مواجهة التحدي بفكرة الطورانية ، ولكنها كانت هروبة ذات مضمون إسلامي ، وكانت استجابة المقاومة ضد الاستعمار بصد سقوط الدولة العثمانية في محاولة لا تامة تجمع أصغر في دائرة الأمة بديلاً عن الوحدة السياسية التي سقطت : هذه العروبة لم تسكن في صدور القادحين لها أولاً استجابة لمفهوم القوميات الغربية الوافدة وإنما كانت منطلقاً إلى الوحدة الإسلامية مرة أخرى عندما نزول غمة الاحتلال والسيطرة الأجنبية ، وكانت تطوراً طبيعياً فرضته الأحداث حين اضطرت حركة البيضة إلى التحرك تحت ظروف الإسلام في دائرة الوطن أو الأمة كمقدمة لبلوغها مرحلة الوحدة الكبرى ، غير أن النفوذ الاستعماري لم يدع الطريق خالها ، وإنما دفع إليه دعوات ومفاهيم ونظريات معوقة لي محاولة إخراجها من واقعها وأساسه أو بلبيلته وإفساده فقد حاول الاستعمار وضع كلمة القومية بديلاً لكلمة العروبة عملاً على خافي الهراع حتى لا تستطيع كلمة العروبة أن تستكمل وجودها أو تحقق ارتباطها الطبيعي ، ولقد كانت هذه المناهج الغربية التي طرحت نظرية القومية العربية الوافدة إنما تحاول أن تجهض هذه الدعوة أو تنفق عليها ، فقد رأى أن الدعوة إلى العروبة قد بدأت تتشكل في أصالة لتأخذ مكان الفكرة الإسلامية فسرعان ما هزأها

بمفاهيم غربية عنها حاول بها إيمادها عن الإسلام فسكرأ وفصلها عن المسالم الاسلامى جغرافيا .
خير أن السنوات الطويلة التى انقضت فى المراجعة والمواجهة كشفت عن حقيقة واقعة : هى أن طبائع
الأشياء وأصولها الإصيلة لابد أن تحمل محل الزيف الذى يبدو حين يطرح وله بريق ساطع . ثم يتكشف
جوهره من غشاء كغشاء السيل فإذا به معارض لذاته الإصيلة والمزاج النفسى الأهم فلا تلبت
الأمة الاسلامية أن تلفظ ذلك كله وترفضه وتعود إلى جوهرها الأصيل بالرغم من الفيود التى تحاول
أن تمجزها فى أوضاع محددة .

(٢)

كانت النظريات الاقليمية والقومية الغربية قد صاغت أحقاد الصهيونية والاستعمار وهى تحس
بقوه الترابط بين العروبة والاسلام ، وأن غفلات بطابع زائف من العلم أو بريق من الصناعة . وكان
أ كذب المقاييس بمقاييس الاسلام على الأديان الأخرى دون النظر إلى طبيعة الاسلام المختلفة عن
طبيعة الدين بمعنى العبادة ودون التفرقة بين كلمة دين وكلمة اسلام وبين كلمة قومية وكلمة عروبة ؛ ودون
بيان الفارق بين صلة القومية بالدين فى الغرب وبين صلة الاسلام بالعروبة فى عالم الاسلام ، وكان
الخطأ الكبير هو افتراض أن النظريات الأوروبية فى القومية أو فى غيرها صالحة للتطبيق أو صالحة
لمقاييس واقع العرب والمسلمين . ومن السذاجة أن يظن البعض أن يتخذ العرب من مبدأ القوميات
دينا يضمنون له قداسة الاسلام ، والذين قالوا بذلك أو دهبوا إليه كانوا جده غافلين من مفهوم لاسلام
وجوهر فكره ولكنهم اهتمدوا على أن الارشاليات والمدارس الوطنية قد علمت الدين للعرب على
أنه عبادة وليس على مفهومه الحقيقى منهج حياة كامل . والواقع أنه لن تصبح القومية ديانة للعرب
والمسلمين أبداً ولن يكون لها قداسة العقيدة ، فإن العرب والمسلمين إنما يشككون أنفسهم فى ضوء
التحديات وظروف الأزمات من خلال فكر واسع عميق قادر على العطاء فى كل الأحوال ، مفتوح
على التلقى ، قادر على الأخذ والرد ، لا ينصهر ولا يذوب ولا يحنوى . ولذلك فقد سقطت محاولات
بث القومية على أنها عقيدة روحية تستطيع أن تخلف الاسلام أو تحل محله . وتكشف بعد قليل
أن القومية بمفهومها الغربى محاولة لصدام العروبة بمحتواها الأصيل ذلك أن فكرة العروبة بمفهوم
الحق إنما تقوم فى نطاق أخلاق معترفة بمكانها من الاسلام مفتوحة على الفرس والتركة والأمم
الاسلامية جميعاً متكاملة بها . وما نزال النقاغات العربية والفارسية والتركية تصدر إطار الاسلام
ولا تستطيع الاقليات أو القوميات الوافدة أن تبلغ منها مبلغ المنصب الذى عرفته القوميات الغربية

ولن تستطيع العروبة أن تخرج عن مفهوم الإسلام مهما أوقد لها التفريب النار - في الاستعلاء بالمضى الوثني أو الإنفلاق عن الأمة الإسلامية .

أن أقوى أهداف النفوذ الأجنبي (كانت وما تزال) وضع للمسلمين والعرب في قوالب الفكر الغربي وإخراجهم من مناهج فكرهم ومفاهيمهم الأصلية ، وقد استطاع التفريب ذلك من طريق فرض سيطرته على التعليم والثقافة والصحافة بواسطة معاهد الإرساليات وغيرها التي خرجت مجاميع من القادة والكبراء ولكن هذه المحاولة قد اكتشفت اليوم تماماً وتبين مدى أثارها على الأخطار والتحذيرات التي واجهت المسلمين والعرب في ربع قرن الأخير . كذلك فقد فشلت (العلمانية) ولم تستطع أن تحقق شيئاً كما فشلت الديمقراطية الليبرالية ومن بعدها الماركسية ، ذلك لأنها فرضت دون تقبل حقيق في ظل ظروف وتحديات ولم تكن منبثقة أصلاً من داخل السكان العربي الإسلامي ، ووقفت العلمانية والمادية والليبرالية والماركسية في وجه المفهوم العقائدي الإسلامي الشامل الجامع ونبت أن بقضة العرب والمسلمين لا تتم أبداً من خلال الثقافات الوافدة أو النظريات الأجنبية . كما تبين مدى ترابط الفكر الإسلامي في قيمه ومفاهيمه إلى الحد الذي لا يمكن الفصل فيه بين اللغة والتاريخ والعقيدة والتراث . إن الذين طرحوا نظرية القومية الإقليمية والعلمانية (ساطع الحصري ، ميشيل عفلق ، أنطون سعادة ، فيليب حقي) لم يكونوا من نتاج هذا الفكر الإسلامي الأصيل ولذلك جاءت نظرياتهم معارضة للمفهوم التلقائي الذاتي الأصيل المنبعث من الفطرة الصافية وكانت دعواتهم تستهدف تمزيق وحدة هذه الأمة الإسلامية تحت نظريات اللغة والأرض والمثبنة والعلمانية . وتبين بوضوح أن الهدف هو إبقاء المسلمين والعرب في انفصال وصراع في داخلهم ، فضلاً عن ذلك الجسم الغريب المفروس في قلب الوطن العربي وليكون ذلك كله حائلاً عن الانتقال من مرحلة اليقظة إلى مرحلة النهضة والتجمع والتشكل الحقيقي المستند من القيم الأساسية .

وقد جاءت الحقيقة واضحة بعد تلك المعركة الواسعة الضخمة مع مفهوم القوميات والإقليميات الوافدة لتقول أن الفكر الإسلامي لا يقر صراع الأديان أو الأجناس وأنه من الخطأ وضع الإسلام في مواجهة القومية أو القومية في مواجهة الإسلام ، وأن حركة العروبة هي موجة من موجات اليقظة العربية الإسلامية فهي وليدتها ومتصلة بها وعمدة لتحقيق هدف الوحدة الكبرى . وتبين أن العروبة هي بالإسلام وأن الإسلام هو الذي أعطى العرب وجودهم وكيانهم وأن مذاهب العلمانية أو القومية لن تستطيع إخراج الفكر الإسلامي عن ترابط العروبة والإسلام ، أو الروحي والمادي ، أو التماثل الجامع وستسقط النظريات الوافدة في القومية والإقليمية والعلمانية والمادية والماركسية .

وأن نظرية القومية العربية هي دعوة عنصرية تستهدف قطع الروابط والصلات بين جامعة المسلمين وقد هجر مبدأ القوميات في أوروبا أن يحقق لها شيئاً إلا التمزق والتضارب والصراع . لقد كان هدف الاستعمار والتغريب والفرز الأجنبي تفريق الأمة الإسلامية إلى كيانات ، ولذلك فقد أبعد التربية الإسلامية عن برامج الدراسة والتعليم لهدم الأجيال الناشئة وأبعد القيم الإسلامية عن الحياة الاجتماعية وأهمها الإيمان والأخلاق وأبعد الشريعة الإسلامية وفرض قانوناً أجنبياً وافداً وأبعد فكرة وحدة الفكر الجامعة وأبدلها بالاقليميات والقوميات المتصارعة . وحاول التشكيك في مقدرة اللغة العربية على ترجمة العلوم وسيطرة العاميات واللهجات الأجنبية عليها ، كما عزلها عن التاريخ الإسلامي ببطولاته ومواضع وحصرها في التاريخ الاقليمي ، كما حاول عزل الأدب العربي الحديث عن الأدب الإسلامي وفرض مناهج التفكير الغربي وهذه كلها محاولة واحدة للقضاء على وحدة الإسلام : وتمزيق جبهته ، ولكن المسلمين والعرب قد تنبهوا إلى هذه المحاذير وهذه التحذيرات وواجهوا كتابهم ومفكرهم وكشفوا عن أخطارها وأخطائها وأنسوا طريق الأصالة والمنابع الأولى وكانت قضية التفرقة بين العروبة والإسلام من آخر هذه القضايا والتحذيرات وكان لا بد أن تقال فيها كلمة واضحة صريحة . تكشف الزبوف المتراكمة والأخطار القائمة .

الوثائق

عندما بدأت حركة الاستعمار الحديث عملت الدول الكبرى على رسم مخطط كامل للاستعمار ظلت تنميه ونظوره حتى تكامل في صورة خطة عامة ، وقد ظلت وثائق هذا المخطط سرية ممنوعة من التداول حتى لا تقع في أيدي المفكرين ودعاة حركة البقعة العربية الإسلامية مما يؤدي إلى كشف الخطة أو إفسادها قبل إكمالها ، وتنفيذها . غير أن صراع الدول الكبرى وتعارض ملامحها ، وظهور حركة الفرز الصهيونية الماسوية كمخطط مستقل مختلف عن مخططات الاستعمار قد كشف كثيراً من الدوافع والأغراض والخلفيات المستورة ، وألقي هذه الوثائق بين أيدي الساسة والمفكرين في العالم الإسلامي ، ومنها وثائق ظلت محجوبة عن العالم الإسلامي أكثر من خمسين عاماً ، ووثائق أخرى كشفتها مطامع الصهيونية المتصارعة مع مطامع الاستعمار نفسه ، وقد تكشف أغلب الوثائق بعد قيام إسرائيل في قلب الوطن العربي عام ١٩٤٨ . وقد تبدو هذه الوثائق وهي مفرقة غير ذات قيمة كبيرة ولكنها حين تتجمع وترابط تستطیع أن تشكل صورة واضحة لمخطط كامل خطير لمزو العالم الإسلامي وتمزيقه وتغريب الفكر الإسلامي وتدميره كقائمة لفرض النفوذ الأجنبي الاستعماري عليه .

ولا شك أن منطلق هذه المخططات وأبرز معالم هذه الوثائق يبدأ بنفسك الروابط بين المروبة والإسلام وبين الدولة العثمانية والعرب وبمعل أساساً على فهم الوحدة الجندرية والترابط العضوي بين العرب والمسلمين وهو ما تم تنفيذه فعلاً، بتدمير الدولة العثمانية من الداخل وفرض الدعوة الاتحاديين عليها ثم تمزيق الدولة وإسقاط الخلافة ثم مضت حلقات العمل خطوة بعد خطوة .

وثيقة رقم ١ بروتوكولات صهيون

نشرها سرجيوس نيلوس بالروسية ١٩٠٢ وأعيد نشرها عام ١٩٠٥ وترجمت إلى الألمانية ١٩١٩ ونشرتها جريدة التيسس باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٠ ثم نشرتها جريدة للورننج بوست ، وكانت قد أودعت للتحف البريطاني منذ عام ١٩٠٦ .

أما في العالم الإسلامي والبلاد العربية فإن أول ما أشير إليها هو ما نشرته مجلة الرسالة عام ١٩٤٩ وما كانت ترجمه روز اليوسف ١٩٥١ ثم جاءت كتابات نقولا حداد في الرسالة ١٩٥١ وكان د محمد خليفة التونسي ، أول من ترجمها في مجلة الرسالة سنة ١٩٥١ ، وقد ظلت هذه البروتوكولات سرية منذ أن عرضت في مؤتمر بال سنة ١٨٩٧ حتى افترض أمرها في أواخر القرن التاسع عشر وقال سرجيوس نيلوس عندما طبعها عام ١٩٠٥ أنه أرسلها عام ١٩٠١ مترجمة إلى الروسية من أصل فرنسي . ثم وردت نسخة من طبعة سرجيوس نيلوس إلى للتحف البريطاني عام ١٩٠٦ ثم عثر عليها (فكتور مادسون) مراسل للورننج بوست في موسكو أثناء الإقلااب الروسى وطبعها جمعية الطباعة البريطانية ، ونشرت جريدة نيويورك ورلد سنة ١٩٢١ تعليقاً على هذه الطبعة ، وقال هنرى فوردمعلقاً عليها : إنها تصدق على ما هو حادث الآن في العالم ، لقد مر على نشرها نحو ستة عشر عاماً وهي تصدق على حالة العالم في هذه الفترة ، وفي ١٤ يوليو ١٩٢٢ نشرت جريدة جويش كرونيكل اليهودية بعض مذكرات تيودور هرتزل وفيها خلاصة حديث مع السكولونيل جولدميث ، وقد ملح هذا اليهودي المنتصر لهرتزل بما استفاد منه أن ثلاثمائة شيخ من شيوخ إسرائيل معروف بعضهم لبعض يقررون مصير القارة الأوروبية وهم ينتخبون خلفائهم . وقد أشار محمد خليفة التونسي في أول ترجمته له البروتوكولات إلى اللغة العربية إلى أن هذه البروتوكولات هي من أسرار اليهود التي يحرسون على إخفائها أشد الحرس ثم افترض أمرها منذ نصف قرن تقريباً إذ وصل خبرها إلى أحد وجوه الروس في عهد القيصرية وهو سرجي نيلوس وهي مكتوبة بالروسية فقام بطبعها عام ١٩٠٥ وكتب لها مقدمة وتعليقاً كانت قد وصلت إليه عام ١٩٠١ وأنها ترجمة صحيحة لأوراق مخطوطة

مرفقتها سيده من أحد رؤوس الماسونية الأحرار في نهاية اجتماع ماسوني عقد في باريس ونحوى بروتوكولات صهيون مخططاً كاملاً للخطة التي تدبرها الصهيونية العالمية للسيطرة على العالم في خلال مائة سنة وتكشف على الوسائل التي تتخذها من طريق الصحافة والمسرح والنظريات الفلسفية لتندسير العالم قبل السيطرة عليه.

وثيقة رقم ٢ تقرير كامبل بترمان (١٩٠٧)

وجه كامبل بترمان رئيس وزراء بريطانيا إلى لجنة من علماء التاريخ والقانون والسياسة خطاباً قال فيه : « إن الامبراطوريات تتكون وتتسع وتقوى ثم تستقر إلى حد ما ثم تفل رويداً رويداً وتزول . والتاريخ مليء بمثل هذه الأمثلة وهي لا تتغير بالنسبة لكل نهضة ولكل أمة فهناك إمبراطوريات روما وأثينا والهند والصين وقبلها بابل وأشور والفراعنة وغيرها . فهل يمكن الحصول على أسباب أو وسائل تحول دون سقوط الاستعمار الأوربي وانهاره أو تأخره أو تؤخر مصيره المظلم بعد أن بلغ الآن القدر . وبعد أن أصبحت أوروبا قارة قديمة استنفذت مواردها وشاغت معالمها بينما العالم الآخر لا يزال في شبابه يتطلع إلى مزيد من العلم والتنظيم والرفاهية » .

(تقرير الخبراء)

وقد كتب العلماء المتخصصون تقريراً خاصاً إلى وزارة الخارجية البريطانية جاء فيه : والخطر ضد الاستعمار في آسيا وأفريقيا ضئيل ولكن الخطر الضخم يكمن في البحر المتوسط وهذا البحر همزة الوصل بين الغرب والشرق وحوض مهد الأديان والحضارات ، ويعيش في شواطئه الجنوبية والشرقية بوجه خاص شعب واحد تنوافر له وحدة التاريخ والدين واللسان ، وكل مقومات التجميع والترابط . هذا فضلاً عن نزعاته الثورية وثرواته الطبيعية . فإذا تكون النتيجة لوقعات هذه المنطقة الوسائل الحديثة وإمكانات الثورة الصناعية الأوربية وانتشر التعليم بها وارتفعت الثقافة . إذا حدث ما سلف فتحل الضربة القاضية حتماً بالاستعمار الغربي ، وبناء على ذلك فإنه يمكن معالجة الموقف على النحو التالي : (أولاً) على الدول ذات المصالح المشتركة أن تعمل على استمرار تجزؤ هذه المنطقة وتأخرها وإبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك وتأخر وجيل . (ثانياً) ضرورة العمل على فصل الجزء الأفريقي في هذه المنطقة عن الجزء الآسيوي ، وتقترح اللجنة لذلك إقامة حاجز بشري قوى وغريب يحتل الجسر البري الذي يربط آسيا وأفريقيا . وبحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار عدوة لسكان المنطقة .

وثيقة رقم ٣ : خطاب لينتزر إلى لويس الرابع في ١٥ مارس ١٦٧٢

أريد أن أحدث إليكم يا مولاي في مشروع غزو مصر ولا يوجد بين أجزاء الأرض بلاد غير مصر يمكن السيطرة منه على العالم كله وعلى تجارة الدنيا بأسرها ، وهي تستطيع أن تلمب هذا الدور بسهولة استيعابها لعدد كبير من السكان وبسبب أرضها المنعمدة المثال . ولقد كانت في ماضى الأيام مهبطاً للعلوم ومحراباً لنعمة الله ولكنها اليوم معقل للديانة المحدية التي تفسد بنا ولاى دافع تخسر للسيحية تلك الأرض للقدسة التي تصل آسيا بأفريقيا والتي جمعت فيها الطبيعة حاجزاً بين البحر الأبيض والبحر الأحمر ، ومدخلا لبلاد الشرق بأجمعها ومستودعا لكنوز أوروبا والهند . وإذا كانت القسطنطينية قلعة لجيوش الامبراطورية العثمانية إلا أن الهجوم للباغت لن يترك لها فرصة النجدة لبعد الشقة بينها وبين أوروبا ، ومصر تكتنفها صحراوات فسيحة فلا يمكن إغاثتها بالجيوش ولذلك فإنكم حينما تغزون مصر منقضون على الامبراطورية التركية القضاء للهمم .

وثيقة رقم ٤ : بروتوكول معاهدة لوزان للعقود بين الحلفاء والدولة التركية عام ١٩٢٣

(للمروفة بشروط كرزن الأربعة)

أولاً : قطع كل صلة بالإسلام . ثانياً : إلغاء الخلافة . ثالثاً : إخراج أنصار الخلافة والإسلام من البلاد . رابعاً : اتخاذ دستور مدنى بدلاً من تركيا القديم للتأسيس على الإسلام .

وثيقة رقم ٥ : خطاب السلطان عبد الحميد في الرد على هرتزل

« بلغوا الدكتور هرتزل ألا يبدل بعد اليوم شيئاً من المحاولة في هذا الأمر (التوطن بفلسطين) فإنى لست مستمداً لأن أتخلى عن شبر واحد من هذه البلاد لتذهب إلى الغير ، فالبلاد ليست ملكى بل هى ملك شعبي ، روى ترايها بدمائه أما ديون الدولة فليست حاراً لأن غيرها من الدول هى الأخرى مدينة مثل فرنسا فليحتفظ اليهود بأموالهم ، فالدولة العلية لا يمكن أن تمنح وراء حصون بليت بأموال أهداء الإسلام » .

وثيقة رقم ٦ : خطاب من بانخ ليني الصهيونى إلى كارل ماركس

(مجلة باريس : أول يولييه ١٨٧٨)

« يقتضى التنظيم الجديد للانسانية أن ينتشر أبناء إسرائيل على سطح الأرض وينسلوا في كل مكان زمام الأمور خصوصاً إذا نجحوا في فرض إشراف شديد على الطبقة العاملة وثمانى الحكومات

الإمبراطورية حيث أنه للملكية الفردية وتفرض رعايتها في كل مكان على الأموال العامة .

وثيقة رقم ٧ : رأى كرومر في الإسلام والجامعة الإسلامية

من تقاويره أهوام : ١٩٠٣ - ١٩٠٥ - ١٩٠٦

في مصر اليوم جبل جديد يختلف من أجداده في أمور كثيرة فيمكن أن تحسده نفسه يوماً بأن يجد إلى تلك الأركان القديمة بدا لا تعرف حرمة القديم فيكون أشد عليها من يد حكومة تعدها اليوم طبقاً لأرشاد قوم لا شأن لهم في الأمر (يعني الأنجليز) لأنهم لا يدينون بالدين الإسلامي فإذا كان لهذا الحساب نصيب من الصواب فالأجداد بأبناء اليوم أن يشرعوا في الإصلاح ويلافتوا الأمر قبل حلوله . إن الساهين لأرجاع مجد الإسلام يحاولون أن يمجوا في القرن العشرين المبادئ التي تكونت قبل أكثر من ألف سنة لقيادة أمه بدوية في حالة الفطرة ، أن من تلك المبادئ ما يخالف الفكر المعصري وبناقضه مثل إباحة الاسترقاق وما جاء من العلاقات بين الجنسين . إنني لا أصدق أن المسلمين يتحدون معا وينماونون متى خرجت مسألة الجامعة الإسلامية من القول إلى الفعل ، وثانياً لأنني أثق بقوة أوروبا واقتدارها عند الاقتضاء على تلافى هذه الحركة من الجبهه المادية .

وثيقة رقم ٨ : النشرة اليهودية عام ١٨٦١

« إن روح الماسونية الأوروبية هي روح اليهودية في معتقداتها الاساسية لها نفس المثل التي تنسب طريق إسرائيل وتدعمه ومكان تنويعها هو سبب العبادة البديعة ، حيث تكون القدس رمزا وقلباً ومنصراً » .

وثيقة رقم ٩ : (كتاب تاريخ الترك والمغول في آسيا منذ بدأ نشأتها إلى عام ١٤٠٥)

Introdaction a L'histaire de L,Asia 'Tureset Mongals de Origines ei 1405

الكتاب ظهر عام ١٨٩٦ من تأليف لثوني كاهون (اليهودي) .

وفي عام ١٩١٦ أعلن المجلس العلمي الفرنسي اهتمامه بهذا الكتاب ونوه به ولفت النظر إليه في تركيز بالغ ، وكان ذلك الحدث مقترناً بالحركة الطورانية في الحقولة الألمانية .

وكانت الفكرة الطورانية قد أنشأها لأول مرة : المستشرق المجري اليهودي (قامبري) بين (١٨٦٨ - ١٨٧٤) وقد تبناها الانجليز فعملوا على تكوين كتلة منصرية من الأتراك الممانيين

وأترك الشرق ليحطموا النفوذ الروس المتزايد في آسيا الوسطى ثم خير الانجليز ضياعهم وأيسدوا
ميطرة الروس على الشرق آسيا .

وهكذا كانت فكرة الجامعة الطورانية واحدة من الخارج وهي نفس الفكرة التي حمل لواءها أناس
ليسوا من الترك وعلى رأسهم (ضيا كوك الب) فالفكرة أجنبية المنشأ وأقرب حبلوا لوائها ليسوا
أنزاكا ، وكانت تهدف أساساً إلى تعميق الخط المنصري الإفيلسي مستقلاً عن الاسلام ، وهي الفاعدة
القديمة التي وضعها (فبري) المستشرق المجري اليهودي يدهوى أنه لا وطن في الاسلام .

وثيقة رقم ١٠ : (الماسونية والاتحاد والترقي)

في احتفال عقد في القاهرة خلال شهر يناير ١٩١٠ نقلته (مجلة المقتطف) في عدد فبراير ١٩١٠
تحدث برتو بك بالتركية : وهو أحد أعمدة جمعية الاتحاد والترقي بعد اسقاط السلطان عبد الحميد :

قال برتو بك : نحن العثمانيون مدبثون للماسونية بأ كبير دين ، لأنها هي التي بثت في نفوس
أعضاء جمعية الاتحاد والترقي روح الحرية ، وبها اقتصدوا في إنشاء جميعهم التي فككت قيود استبدادهم .
كما أنني على الحكومة الانجليزية والأمة الانجليزية لأنهما ساعدتا العثمانيين في هذا الانقلاب المبارك
الذي قوض أساس الاستبداد ووحد أركان الحرية في الممالك العثمانية . وقال : أن الماسونية هي المحرك
الأول والمرشد الأكبر لجمعية الاتحاد والترقي .

وثيقة رقم ١١ : (التبشير في العالم الإسلامي)

ألقى الدكتور صمويل زويمر كبير المبشرين في العالم الإسلامي خطاباً في مؤتمر لكتنو التبشيري
عام ١٩١١ فأشار إلى الانقلابات السياسية التي حدثت أخيراً في العالم الإسلامي فشكر الله على حدوث
هذه الانقلابات في غرب آسيا وقال أنها كانت : « موجبة للاعجاب والامتنان وقد بددت معالم
التجسس (يقصد سقوط السلطان عبد الحميد) وإنما أقامت الحرية على أكتاف الاستبداد ، وصار
التحول في البلاد العثمانية والعربية والفارسية غير ممنوع وأصبح عبد الحميد سجيناً في دلائيك وقال
إن عدد المسلمين الذين تحت سلطنة الدول النصرانية سيزداد كثيراً عقب انقلابات قريبة المحصول
وبذلك تزداد مسئولية الملوكة النصرانية في مهمة تهجير العالم الإسلامي .

النص في كتاب الفارة على العالم الإسلامي اسمه بالفرنسية :

Lo Conquete du Monde Moselman .

وثيقة رقم ١٢ : مدارس الإرساليات

قرار مؤتمر ونبرج لنبشير سنة ١٩١٠

« اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى في عاصمة تركيا على أن معاهد التعليم الثانوي التي أسسها الأرمينيون في البلاد الإسلامية كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية يرجع على تأثير العمل المشترك الذي قامت به دول أوروبا كلها .

(شاتليه) : الغارة على العالم الإسلامي

وثيقة رقم ١٣ : الحروب الصليبية

هن كتاب الأحوال الشخصية في الجمهورية اللبنانية (بطرس حبيقة) . ترجع مسلات الموارنة بالفرنسيين إلى الحروب الصليبية وكان لهم فيها الهداة والقادة المخلصون في اجتياز طرق هذه البلاد الصعبة التي كانوا ينتقلون لفتحها من حاضرة إلى حاضرة حتى أورشليم .

وثيقة رقم ١٤ : خطاب من لويس ملك فرنسا إلى أمير موارنة لبنان وإلى بطريرك وأساقفة الطائفة

« إن قلبنا امتلأ فرحاً حينما أقبل علينا ولدكم سيمان فهو الشهادة الحسية على مواطنكم الطيبة .
نحونا موقنون أن هذه الملة التي تنسب إلى القديس مارون هي جزء من الأمة الفرنسية » .

وثيقة رقم ١٥ : قرار المؤتمر الاستعماري في برلين ١٩١٠

إن ارتفاع الإسلام يهدد نمو مستعمراتنا بخاطر عظيم لذلك فإن المؤتمر الاستعماري ينصح للحكومة بزيادة الإشراف والمراقبة على أدوار هذه الحركة . والمؤتمر الاستعماري يشير على الدين في أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام وأن يزيلوا العراقيل عن طريق انتشار التبشير .

وثيقة رقم ١٦ : جريدة ألمانيا - ٢٥ ديسمبر ١٩٠٩

كتب المليونير اليهودي : والتر راثنو يقول :

هناك ثلاثمائة رجل كل منهم يعرف زملائه الآخرين يتحكمون في مصير أوروبا ، إنهم ينتخبون خلفاءهم من الأشخاص المحيطين بهم . وهؤلاء اليهود يملكون الوسائل التي تمكنهم من القضاء على أية حكومة لا يرضون عنها .

وثيقة رقم ١٧ : الماسونية

قال جرجي زيدان في كتابه : تاريخ الماسونية العام : كانت الماسونية مصدراً لكثير من التعاليم التي أصبحت من أقوى دعائم المدن البربرية القديمة والحديثة .

وثيقة رقم ١٨ : فولتير والماسونية

يقول جرجي زيدان في كتابه تاريخ الماسونية العام : في ١٧٧٨ انضم الفيلسوف الشهير فولتير إلى الماسونية وكانت امتحاناته مقصورة على بعض مسائل أدبية مع أخفّال الامتحانات الأخرى ثم نقل إلى الشرق الأعظم وكان من أهم أعضائه .

وثيقة رقم ١٩ : مائة مشروع لتقسيم تركيا

Cent pirojets departege de La Turquie تأليف الوزير الروماني : دجوطارا

صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٠ وضم وصفاً لمائة مشروع حاولت أوروبا إيقادها من أجل تمزيق الدولة العثمانية في الفترة التي آلت ظهور هذه الدولة وتوسّعها في أوروبا عام ١٣٥٦ بمسورها مضيق الدردنيل والاستيلاء على أدرنة ١٣٦٠ وهذه المشروعات تدعو إلى مقاتلة المسلمين والأتراك بالسيف والتجارة وتدهو إلى التجمع والتخطيط لتفوز من البحر الأبيض أو من الحبشة أو من غيرها وتركها كلها على استمادة بيت المقدس .

وثيقة رقم ٢٠ : خطاب بلفور رئيس البعثة البريطانية في ١٨ أيار ١٩١٧ إلى وزير الدولة الأمريكي

لا شك أن القضاء على الأمبراطورية العثمانية قضاء تاماً هو من أهدافنا التي نريد تحقيقها وقد يظل الشعب التركي - ونأمل أن يظل - مستقلاً أو شبه مستقل في آسيا الصغرى ، فلذا نبحثنا أولاً شك أن تركيا ستفقد كل الأجزاء التي يطلق عليها عادة اسم البلاد العربية وستفقد كذلك أهم المناطق في وادي الفرات ودجلة كما أنها ستفقد استانبول .

وثيقة رقم ٢١: مذكرة وزارة الخارجية الفرنسية (أول سبتمبر ١٩١٦)

« إن إعلان الثورة العربية في الحجاز هو في مصلحة الخلفاء من جهة وجوه ، فأما من الوجهة السياسية فإن اتساع نطاقها حتى تشمل شعوب فلسطين وسورية وأرمينية الصغرى وتحرير هذه الشعوب من النير التركي يهيء لفرنسا أسباب التدخل في شؤون هذه للقاطعات كما تشغل من الوجهة العسكرية الجيش التركي ، أما من الوجهة الأدبية فإنها تعود للجانب الأكبر من رعاياها المسلمين إلى اعتبار الترك كمتمدين على الأماكن للقدسة فيزداد تعلقهم بفرنسا لأنها - مكانج الترك وحلفائهم وتزيدم إخلاصاً لها . بناء على هذه الاعتبارات قد يكون من المفيد العمل على تنمية الثورة وصبتها بصيغة إسلامية » .

وثيقة رقم ٢٢ : لورنس (أحمد الحكيم السبعة)

إننى أكثر ما أكون غراً إن الدم الانجليزى لم يسفك في المارك الثلاثين لاقى خضتها لأن جميع الأقطار الخاضعة لنا لم تكن تساوى في نظرى موت انجليزى واحد . لقد جازفت بخدمة العرب لاهتقادى أن مساعدتهم كانت ضرورية لانتصارنا القليل الفنى في الشرق ولاهتقادى أننا كبنا الحرب مع الحثث بوهودنا أفضل من عدم الانتصار . وليست الجيوش البريطانية الزاحفة على فلسطين وموريا والعراق إلا طليعة الغزو الأوروبى لطريق البنرول .

وثيقة رقم ٢٣: انتهت الحروب الصليبية (عن كتاب ديدل المطبوع سنة ١٩٣٧)

وصب لويد جورج فتوح فلسطين بأنها الحرب الصليبية الأخيرة ، وقال الأورد الابى في خطبة سياسية في لولابارك بمصر الجديدة عام ١٩٢٢ : أن فتوح بيت المقدس تعد حرباً صليبية أخرى . ووصف ديدل لورنس بأنه محارب صليبي Crusader

وثيقة رقم ٢٤ : قال القاضى أومسترونج في كتابه الخونة الصادر سنة ١٩٤٧

إن فكرة قيام عصبة الأمم والأمم المتحدة وتبنيها امبراطورية صهيونية عالمية قد طرحت بهذا الترتيب الزمنى على بساط البحث في المؤتمر الصهيونى في باذل عام ١٨٩٧ . لقد أعلن الصهيونيون المجتمعون في هذا المؤتمر ، أن هدفهم يرمى إلى إخضاع الشعوب المسيحية في العالم ونأسيس امبراطورية صهيونية يرأسها ملك يكون إمبراطوراً على العالم كله .

وثيقة رقم ٢٥ : معاهدة ليران

عقدت بين الفاتيكان والحكومة الإيطالية يوم ١٠ فبراير ١٩٢٩ معاهدة ليران التي تقرّر بمقتضاها أن تدفع الحكومة الإيطالية ٧٥٠ مليون ليرة إيطالية كتعويض عن حقوق الفاتيكان المالية التي توقفت منذ عام ١٨٧١ عندما وقع الخلاف بينهما وكذلك على ربح قدره خمسة في المائة لقرض إسمي قدره ثلاثة مليارات ليرة تصدره الحكومة الإيطالية . وصرح الكاردينال جيبباري كبير البطارقة أن الفاتيكان تعتزم أن تستخدم القسم الأكبر من هذا المال في تقوية نفوذ الكنيسة الممنوى وبث الدعوة الكاثوليكية وتقوية البعثات التبشيرية في المشرق وأفريقيا .

وثيقة رقم ٢٦ : تقرير الدكتور زويمر للدوائر التبشيرية عام ١٩٢٧

« إن هدم الإسلام في نفوس المسلمين له أهمية كبرى في شيء واحد هو قبول الفكر الغربي كصديق دولي وأن أول ما يجب عمله للقضاء على الإسلام هو إيجاد القوميات ، وأن الفرض من التبشير هو قتل الإسلام واستعباد المسلمين وإن الغاية التي نرعى إليها هي إخراج المسلم من الإسلام فقط ليسكون أما ملحداً أو مضطرباً في دينه وعندها لا يسكون مسلماً أي لا تسكون له عقيدة يدين بها ويجب أن يسكون التبشير بواسطة رسول من صفوفهم لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها .

وثيقة رقم ٢٧ : الدعوة والاتحاديين

يقول كارل بروكلمان في كتابه الإسلام في القرن التاسع عشر :

تلقي المتآمرون الذين دهموا أنفسهم (جمعية الاتحاد والترقي) مساعدة مالية من (الدعوة) وهم يهود سالونيك الداخلون في الإسلام والذين كانوا يسيطرون على الحياة الاقتصادية في تلك المدينة .

وثيقة رقم ٢٨ : مؤامرة الحلفاء بالعرب

يقول الأمير شكيب أرسلان :

لو كنت أعلم أن هذا الخلم سينتقمق لما سبقني في هذه الحلقة سابق وكنت أول من يدهو إلى الانفصال عن الترك ، لأن الأمة العربية يجب أن تسكون متبوعة لاتباعه وكنت أعتقد أن الحلفاء سيفقدون بالعرب ويتفاقمون بلادم بعد انفصالهم عن الترك وبعض العرب من الندم على انتمهم

بانكائرا ، فانا أختار أهون الشرين وأرى خطر التفرقة على العرب أخف بما لا يتصور من خطر الأفرنج . كنت أهدف أن هناك مؤامرة فصل العرب عن التركة والاتقاعاض على بلادهم ثانياً لنفسية مستعمرات المحلفاء ووطناً قومياً لليهود .

وثيقة رقم ٢٩ : أخطاء التاريخ

يقول هاميلتون جب وهارون بوذن : في مقدمة كتاب المجتمع الاسلامي والغرب : أن كثيراً من الآراء الشائعة فيما يتعلق بتاريخ تركيا ومصر في القرن الثامن عشر آراء خاطئة ، آراء كنا نحن أيضاً نأخذ بها عندما أقمنا على كتابة هذا البحث ، لذا نرى أن واجبنا الأول هو عرض الوثائق والامعطيات التي جعلتنا نبذل رأينا في هذا الأمر تبديلاً تاماً .

وثيقة رقم ٣٠ : الدولة العثمانية

يقول برنارد لويس في بحثه : الإسلام في تركيا : كانت الامبراطورية العثمانية منذ تأسيسها حتى زمن سقوطها دولة تركز قواها في سبيل تقدم شوكة الإسلام وحمايته ضد أي اعتداء خارجي ، وكانت الامبراطورية العثمانية في نظر الرجل العثماني التركي بمثابة الإسلام ذاته ، وكانت الشعوب التي تتألف منها الامبراطورية العثمانية تعتبر ذاتها أولاً وأخيراً شعوباً اسلامية ، وكانت لفظة « عثمانية » تعني اسم السلالة المالكية ولم تصطبغ لفظة « عثمانية » بصيغة ذات مدلول قومي إلا في القرن التاسع عشر . وذلك تحت تأثير الفكرة الليبرالية الأوروبية .

وثيقة رقم ٣١ : تقرير هنري مورجنيو السفير الأمريكي

إن أعضاء تركيا الفتاة لم يكونوا دولة بالمعنى الصحيح بل كانوا حزباً غير مسئول أو نوعاً من الجمعيات السرية التي تسلمت الوظائف الحكومية العامة عن طريق الدسائس والتمويه والاختيال .

وثيقة رقم ٣٢ : تركيا الفتاة

يقول برنارد لويس : إن سجل السنوات العشر من ١٩٠٨ إلى ١٩١٨ يبدو لأول وهلة مجللاً قائماً ، إنهم بالرغم من التجارب الذين قاموا بها ، قد انتهت بهم إلى الدكتاتورية وإنهم يملكون على أمور عديدة قاموا بها .

وثيقة رقم ٣٣ : يقول أنتوني ناتنج (مجلة الغرب) لندن ١٩٦٤

منذ أن جمع محمد أنصاره الأولين في مطلع القرن السابع وبدأ أول خطوات الانتشار العربي أصبح
هل العالم الغربي أن يحسب حساب الإسلام كقوة دائمة وصلبة تواجهه عبر البحر الأبيض. إن قوى
الغرب المسيحية كانت تواجه العالم العربي على مدى ألف وثلاثمائة سنة في نهضته وانهياره .

وثيقة رقم ٣٤ : مصطفى كمال أتاتورك

يقول اليهودي إيلي ليفي أبو عسل في كتابه نقطة العالم اليهودي (١٩٣٤) : أظهر مصطفى كمال
سعة الصدر نحو البعض من اليهود الذين نبذتهم ألمانيا وفتح لهم باب تركيا على مصاريحها واستمان بهم
في تنظيم الجامعة التركية على أحدث الأساليب العلمية العصرية ، هذا القدر من التكريم التي أبدأها
نحو اليهود كان غريباً في نفس مصطفى كمال .

وثيقة رقم ٣٥ : العرب ونجربة الترك

يقول المستشرق : هاملتون جب : إن العرب إذا اتبعوا الأتراك في منهجهم اللاديني حطوا
أنفسهم بأيديهم ، لأن ذلك ما ينطوي عليه من إضفاء رابطة الإسلام بينهم أو وضعه في وضع ثانوي
سيؤدي بالطبع وبالضرورة إلى إحياء العصبية الجاهلية بهم ويفتح الباب للعنصرية الوطنية المحلية
ويجعلها محل القومية العربية الشاملة التي وضع أساسها بتوحيد شعوبها في ظل إخوانه وشريعته ولغة قرآنه .

وثيقة رقم ٣٦ : التبشير والعراق

« من الشروط التي اشترطت على العراق لكي تلتحق بمصبة الأمم عام ١٩٣٠ أن تكفل حماية
البعثات التبشيرية في الشرق .

وثيقة رقم ٣٧ : لبنان والصليبيين

يقول الدكتور نبيه أمين فارس في كتابه « العرب الأحياء » : « ... حتى إذا أطلقت طلائع
الصليبيين على لبنان أمكن أن يمدوم بثلاثين ألف نبال أجمع الفرقة على الإعجاب بشجاعتهم
ومهارتهم فالمارونية بلب لبنان ولبنان في الكثير من مزاياه وخصائصه صنع المارونيين » .

وثيقة رقم ٣٨ : البعثات التبشيرية

من كتاب المسر ما كاب أصدرته شركة هالدمان ويوليوس للشعر في ولاية تكساس الأمريكية سنة ١٩٣٢ . « إن جمعيات التبشير البروتستانتية في الولايات المتحدة وبريطانيا تجمع من التبرعات خمسون مليون ريال في العام للدهوة المباشرة أو غير المباشرة إلى التبشير ، فإذا أضيف إلى ذلك ما يجمع من ألمانيا وهولندا وغيرها فإن البعثات التبشيرية تحصل مائة مليون ريال . يقول : إن هذا ما ينفق سنويا منذ عشرين سنة على التبشير فكأن هذا العمل قد كلف الدول الغربية في هذه الفترة الأخيرة أثنى مليون ريال أو أربعة مليون جنيه . هذا في عشرين سنة وبغير نظر إلى ما أنفق منذ القرن السابع عشر . وإذا كانت الهيئات الدينية المنظمة قد كسبت عدداً من الوثنيين في القرن الماضي فإن الانتشار العظيم الذي فاز به الإسلام لم يكن إلا بالإقناع لا بالهدايا والمنح فالإسلام يفتو في أفريقيا ويغلب كل تبشير .

ثم قال : إن الحاسة في سبيل التبشير ليس لها سند للنطاق لأنها صناعية منسكفة وقد قال السيد لوجارد في كتابه (إفريقيا الاستوائية الإنجليزية) إن الإفريقي الذي يعلمه للبشرون لا يعمل عليه وقال مسر ما كاب إن إن التبشير كان في كل حال يريد الاستعمار ودهوته ورسوله وإث للبشرين بفروا التباغض بين الشعوب .

وثيقة رقم ٣٩ : خطاب الحفل الماسوني الأمريكي (١٩٦٨)

إلى مجلس هر الأمانة : مدينة القدس : إنني ورفيقي أودي مورني عضوان في الحفل الماسوني الذي يحمل شعار (للماسونيون القدماء) الأحرار ، المرضيون ، وأنتم تدركون أن هيكل سليمان كان الحفل الماسوني الأصلي وأن الملك سليمان كان رئيس الحفل ، وقد دمر ذلك الهيكل سنة ٧٠ م . إنني أعلم أن مسجدكم هو المائل الحقيقي الشرعي لذلك الهيكل وإن مسجدكم هذا واقع على هذا الملك هو والصخرة التي قدم عليها أبونا إبراهيم ولده إسحق قرباناً لله . وإنني أعلم أنكم معشر العرب أبناء إسماعيل قد قمتم بحماية تلك الصخرة عبر القرون فلنتقدم بشكراً لله على هذا . إنني كمسيحي وعضو في النظام الماسوني أترأس جماعة في أمريكا تطمح أن ترى هيكل سليمان وقد أعيد بناؤه وإذا سمح مسجد هر لمنطق بالقيام بذلك المشروع فإننا سنقوم بجمع مائة مليون دولار لذلك الغرض أو أي مبلغ من المال لإعادة بناء الهيكل . إن مسجدكم إن يفتقد الإشراف على الهيكل . وعندما يكتمل الهيكل سيندر لله وللملك سليمان وللنظام الماسوني ويعطى لكم مجاًناً . وبالإضافة إلى ذلك

وبساح من هياتكم سيتمنح كل أخ ماسوني يساهم في إعادة بناء هيكل سليمان عضوية في محفل الملك سليمان الماسوني رقم (٩) في مدينة القدس وكل ماسوني العالم يحبون أن يكونوا أعضاء في محفل الملك سليمان الماسوني ... الخ . (جريدى نرى)

وثيقة رقم ٤٠ : خطاب السلطان عبد الحميد إلى أبي الشامات

كشفت الوثيقة التي أعلنت عام ١٩٧٢ عن حلقة مفقودة في حياة السلطان عبد الحميد ، وذلك عن موقفه من محاولة الصهيونية العالمية في نزعها عن ملكه وما جاء بعد ذلك من أحداث . كتب هذه الرسالة السلطان عبد الحميد عام ١٣٢٩ هـ وأرسلها إلى الشيخ محمود أبو الشامات شيخ الطريقة الشاذلية بدمشق . قال : لاني لم أنخل من اخلافة الإسلامية لسبب ما سوى أننى بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون تورك) وتهديدهم - اضطرت وأجبرت على ترك اخلافة . إن هؤلاء الاتحاديون قد أصروا وأصرروا على بأن أن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين) ورغم إصرارهم قلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف وأخيراً وعدوا بتقديم (١٥٠) مئة وخمسين مليون ليرة انجليزية ذهباً فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً وأجبتهم بهذا الجواب القاطع الآتي :

« إنكم لو دفعتن ملء الدنيا ذهباً - فضلاً عن (١٥٠) مئة وخمسين مليون ليرة انكليزية ذهباً فلن أقبل بتسليفكم على وجه قطعي ، ولقد خدمت الله الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة فلم أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين ، لهذا لن أقبل تسليفكم بوجه قطعي أيضاً . وبعد جوابي القطعي إتفقوا على خلعي ، وأبأوني أنهم سيعيدونني إلى (سلايك) فقبلت بهذا التكليف الأخير . هذا وحمدت المولى وأحمد لاني لم أقبل أن الطلخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدى الناشئ عن تسليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراض المقدسة : فلسطين وقد كان بعد ما كان ، ولهذا فإنني أكرر الحمد والثناء على الله المتعال واعتقد أن ما عرضت كاف في هذا الموضوع العام وبه أختتم رسالتي هذه . يا أستاذي العظيم : لقد أطلت عليكم النجبة ، ولقد دفنني لهذه الإطالة أن تحيط بمتاحنك هذا وتحيط بجهنمكم بذلك هذا أيضاً . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . »

خادم المسلمين

في ٢٢ أيلول ١٣٢٩

عبد الحميد بن عبد المجيد

نشرت هذه الرسالة عام ١٩٧٣ ولكن الأحاديث التي كشفت عن حقيقة موقف السلطان عبد الحميد كانت قد بدأت قبل ذلك بوقت طويل . وقد ارتبط موقفه بدراسات قضية فلسطين وموقف الصهيونية المالية وجاءت مذكرات هرتزل للكشف عن محاولات الانقاء والتفهم التي قام بها هرتزل منذ عام ١٨٩٨ إلى عام ١٩٠٢ والتي تحقق فشل جدواها وأرسل إليه السلطان الرسالة المشهورة التي نشرها هرتزل في مذكراته فكانت شهادة العدو ، ثم تبين بعد ذلك مما حصل عليه الأستاذة : طه الولي وصعيد الأفغاني من وثائق ومذكرات وذكريات سلامة هذا الإنجاء ، وكأنما آن الأوان لتصحيح موقف هذا الرجل الكريم وفي الملتقى الإسلامي في الجزائر وعلى مدى ثلاث سنوات متوالية لم يتوقف البحث في هذا الأمر وكانت أبحاث الدراسات تحمل لواء الإنصاف لهذا الرجل (سنوات ١٩٧٣/١٩٧٤/١٩٧٥) كما وقع ذلك على منبر رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة عام ١٩٧٤ . يقول الأستاذ سعيد الأفغاني : (وشهادته هامة لموقف الشام من الدولة العثمانية خلال حكم الاتحاديين :

درس معلونا في حياتهم السوء الكثير عن ظلم السلطان عبد الحميد الخليفة الألماني واقتونا له تاريخاً أسود حافلاً بالإرهاب ونحن صغار كما نلقوه أيام الاتحاديين آخر العهد التركي ونشأنا على ذلك وبقينا عليه إلى الآن : هذا التاريخ عند جبهة جيلنا من المسلمين التي لا يعترفها ارنيا ، ثم انجبت الأيام لدوى البصائر عن خلافة ، فتبين للناس أن حزب الانحصاد التركي الذي قام ضباطه بالقوات المسلحة على السلطان واغتصبوا الحكم وبقوا على اغتصابه إلى أن تناثرت المملكة العثمانية أشلاء ممزقة ، وتبين للناس أن أقطاب هذا الحزب الحقيقيين كانوا من يهود سلاويك وأنهم افترخوا تاريخاً يوافق نزعاتهم وما يفتنون فرضوه فرضاً على الناشئة في المدارس . تاريخاً كله من صنع أيديهم توصلا إلى هدف زعموه للناس من رفع الظلم ونشر الحرية والعدالة والإخاء والساواة ، وتلك كانت شعاراتهم يومئذ فتبهم المتحمسون من الشبيبة أفراداً وجهات ، ولكن الغرض الحقيقي لم يكن يعرفه إلا قليل جداً من هذا الحزب انضج بعد السنوات الطوال لنفر ضئيل من الباحثين ، وكان الفضل في انكشافه للنسبة الكبرى : نسبة فلسطين .

وأشار الأستاذ سعيد الأفغاني : إلى قدرة اليهود على افتراء التاريخ بذكائهم وحديدتهم ونازهم يوم كانوا يسبون الحزب الحاكم في تركيا وإنهم كانوا من الدهاء والكيد والمعنرة على تسميم الأفسكار كما يشاؤون .

ويذكر الأستاذ سعيد الأفغاني : إنه لما خلع السلطان ووضع في قصر في سلاطيك كان من الحراس الذين أقيموا عليه أحد تلاميذ الشيخ أبي الشامات وعن طريقة تم المواصلات السرية الكتابية بين الشيخ والسلطان المخلوع ، وحفظ الزمان لنا هذه الرسالة التي أرسلها السلطان إلى الشيخ وفيها البيان الصريح عن سر خلع كشفه لشيخه . احتفظ الشيخ بهذه الرسالة سرّاً مكشوما طوال حكم الاتحاديين حتى إذا زال الحكم التركي عن سورية أطلع عليها بعض خلائه ، ثم حافظ عليها بعد وفاته أبناءهم من بعده إذ كانت من أنفس التحف التي يحرص عليها الحريصون لا يظهرون عليها إلا الثقات من أهل ودم ، حتى إذا قدم العهد وظهر عليها آثار الأيام ضنوا بها على الجميع وقد سعى بعض وجهاء دمشق من أبناء الشيخ حتى أنعمهم بإطلاقها عليها إذ لا يجوز كتمان أمرها الآن حتى لا يضيع الحق وحتى يصحح كثير من الباحثين والعلماء خطأ ورطتهم فيه الدعايات الباطلة فلي الورثة الطلب مشكورين وإعازرونيها في مطلع هذا العام ٧٢ ريثما صورتها وردتها لهم . أما الترجمة العربية للرسالة فقد قام بها صديق لهم من أهل العلم بنص اللتين العربية والفارسية هو الشيخ أحمد القاضي .

وما أظن الوثيقة بحاجة إلى تعليق فليس بعد بيان السلطان بنفسه عما جرى له بيان ولا بعد هذه الصراحة بوقاحة اليهود وعلاهم الاتحاديين صراحة ونحن الذين نعيش عام ١٩٧٢ بعد أن رأينا تنابع الأحداث منذ عهد بلغفور سنة ١٩١٧ وما لحقه صححنا كثيراً من نظراتنا السابقة إلى الحلفاء ومواهبهم وألمنا بأثر اليهود في الحوادث المالية إلما نظرياً وصرفنا نرتاب بل نخاف أشد الخوف كلما رفع حزب شعارات تشقها بعد أن علمنا هم اليقين ما كان وراء شمسارات (الحرية والمساواة) التي رفعها حزب الانحسار والترقي من استعباد واضطهاد وتفريق إراقة دماء وشنق ضحايا . لقد كان (الاتحاد) الذي سمي به الحزب نفسه تشقينا للأمة الواحدة وتمييزاً بين عناصرها وإضاعة لبعض بلادها ، وكان (الترقي) انحداراً إلى المساوية حيث لفظت المملكة عندها نفسها الأخير .

(نشرت الوثيقة في مجلة العربي د ديسمبر ١٩٧٢)

المصادر العامة

- سيرة الرسول : محمد بن اسحق
 كتاب الطبقات الكبير :
 سيرة رسول الله : ابن هشام
 تاريخ الأمم والملوك : الطبري
 تجارب الأمم : ابن مسكويه
 السكامل في التاريخ : ابن الأثير
 البداية والنهاية : ابن كثير
 مروج الذهب : المسعودي
 فتوح البلدان : البلاذري
 تاريخ دول الإسلام : الذهبي
 المقدمة - العبر والمبندأ والخبر : ابن خلدون
 السلوك لمعرفة دول الملوك : المقريزي
 نفع الطبيب : المقرئ
 العواصم بن القواصم : ابن العربي
 مختصر تاريخ البشر : أبو الفداء
 بدائع الزهور في وقائع الدهور : ابن اياس
 النجوم الزاهرة : ابن تغري بردي
 المعجب في تلخيص المغرب : المرأ كشى
 الاكليل : الهمداني
 الأخبار الطوال : الدينوري
 مرآة الزمان : سبط ابن الجوزي

مراجع البحث

- حاضر العالم الإسلامي : شكيب ارسلان
 ماذا خسر العالم : أبو الحسن الندوي
 تاريخ الجزائر : أحمد توفيق المدني
 حرب الثلاثمائة عام بين الجزائر وأصيانيا : المدني
 التذكير على منكري النعمة والخلافة : مصطفى صبري
 لورانس العرب على خطى هرزل : زهدي الفانح
 بحث عن الحروب الصليبية : حسين مؤنس
 مواقف حاسمة : محمد عبد الله هنان
 فيه وأصالة : مولود قاسم
 الاستعمار : الأمير مصطفى الشرفاوي
 التوجيه السياسي للفكرة العربية : محمد رفعت
 للعرب والترك : توفيق برو
 الخطر المحقق بالاسلام : جواد رفعت
 خاطرات جمال الدين : محمد الخزومي
 الماسونية في العراق : الدكتور الزغبى
 مؤامرة اليهود على المسيحية : إميل الخوري
 إشواء القومية العربية : زين الدين نور الدين
 فلسفة التاريخ العثماني (ج ٢) : محمد جميل زينهم
 لبنان في التاريخ : فيليب حتى
 الإدارة العثمانية في ولاية سوريا : عبد العزيز محمد هوض
 بقطة العرب : جورج أنطونيوس
 خطر اليهودية على الإسلام والمسيحية : عبد الله التل
 البروتوكولات : هجاج نويهض
 بروتوكولات صهيون : محمد خليفة التونسي
 تاريخ الماسونية العام : جورجى زيدان
 الفكرة العربية : أنيس صايغ

مذكرات محمد كرد علي ج ١

لمضارة العربية : ناجي معروف
مصور الوسطى الأوروبية : دكتور هيد القادر
أحمد اليوسف
نظام السياسية الحديثة : أحمد سويلم العمري
هذا العالم العربي : أمين فارس

الصحف والمجلات

مجلة البيان ١٩٦٩

مجلة المقتطف : م ١٤

مجلة المنار : م ١٠ ، م ١٤ ، م ١٧

مجلة الهلال : م ١٧

مجلة دهوة الحق : ١٩٥٩ / ١٩٦٣

مجلة الرابطة العربية : أبريل ١٩٣٨

مجلة المشرق م ١٣ ، م ١٤ ، م ١٥

مجلة الفتح م ١٧

مجلة الأبحاث م ١٩٥٨

جريدة الأخبار (٦ مارس ١٩٣٤)

هيد العزيز جاويش

المراجع الأجنبية

الصهيونية والشيوعية : فرنك لي برنتون
نويس السادس وماري انطوانيت : فستاوبسغر
تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ : ارنست ر. افردر
العالم والغرب : أرنولد توينبي
الإسلام قوة الغد العالمية : بول شتر
تاريخ الإسلام الكبير : الكونت كاتياي
دراسة في التاريخ : أرنولد توينبي
سقوط الامبراطورية الرومانية : جيبون
قصة الحضارة : ول ديورانت
تراث المصور الوسطى : كويب - جاكوب
محمد وشارلمان : هنري بيرين
موجز تاريخ الشرق الأوسط : كيرك
الإسلام في الغرب : جان بول ريو
مائة مشروع ليقسم تركيا : دجوفارا
المجتمع الاسلامي والغرب : هاملتون جب

مقدمات العلوم والمناهج

«موسوعة إسلامية جامعة» تهدف إلى إرساء منهج إسلامي جامع للفكر الإسلامي تضم عشرة مجلدات في عشر موضوعات كبرى يستقل كل منها بمجلد خاص وتتكامل في مجموعها العام بحيث تستوعب مختلف القضايا الإسلامية استيعاباً كاملاً.

المجلد الأول : الفكر الإسلامي (صدر)

تناول بالبحث الجذور الأساسية للفكر الإسلامي التي بناها القرآن الكريم والسنة المطهرة وما واجه الفكر الإسلامي من محاولات الفزو الثقافي والتغريب وكيف انبثقت حركة اليقظة الإسلامية في العصر الحديث في مقاومة ضخمة للتبشير والاستشراق.

المجلد الثاني : تاريخ الإسلام منذ فجره إلى اليوم (هذا المجلد)

- المجلد الثالث : العالم الإسلامي المعاصر
- المجلد الرابع : اللغة والأدب والثقافة
- المجلد الخامس : التبشير والاستشراق والهدورات الهدامة
- المجلد السادس : المجتمع الإسلامي
- المجلد السابع : الحضارة والعلم والعلوم الاجتماعية
- المجلد الثامن : الإسلام في مواجهة الفلسفات والأديان
- المجلد التاسع : الشبهات والأخطاء الشائعة
- المجلد العاشر : حركة اليقظة الإسلامية

من المنتظر أن تصدر ملاحق للموسوعة بعد انتهائها
تصدر المجلدات تباعاً من دار الانصار للطبع والنشر

مطبعة التقدم

٤٤ شارع الموارث بالمدينة - القاهرة

تليفون ٤٦٠٢١

رقم الايداع ٣٩١٤ - ٧٩

الرقم القياسي ٧٨٠٧

المجلد الثاني

تاريخ الإسلام

« من فجر الإسلام إلى العصر الحديث .
« عالم الإسلام وعالم الغرب .
« من الوحدة الإسلامية العثمانية : إلى الترك والعرب »

يقدم هذا المجلد دراسة مستوعبة كاملة لتاريخ الإسلام : منذ طلوع فجره وبزوغ نجمه إلى اليوم مروراً بمراحله المختلفة وأحداثه الكبرى وتوسعاته في قارات آسيا وأوروبا وأفريقيا ، كاشف عن أكبر أحداثه في مواجهة الحملات الصليبية والمفولية والغزو الفرنسي على جبهات الأندلس والمغرب والشام وبيت المقدس ومصر وعلاقة الإسلام بعالم الغرب من خلال الاستعمار الغربي والصهيونية والشيوعية كاشفاً عن علاقات الترك والعرب من خلال دولة الخلافة العثمانية والعروبة والإسلام ومحاولات القوميات الضيقة والاقليميات والوحدة الإسلامية والتضامن وبزوغ عصر النهضة انطلاقاً إلى عصر النهضة على مشارف القرن الخامس عشر الهجري .

أنور أنجندى

دار الأندلس
الطبعة الأولى : ١٩٨١
الطبعة الثانية : ١٩٨٢

- ب -
آفاق للبحث

الموضوع	ص
الرسالة الأولى	
من فجر الإسلام إلى العصر الحديث	
أطار البحث	٩
(١) الإسلام والتاريخ	٥
(٢) بناء الجماعة الإسلامية (باب)	١٠
الجماعة الإسلامية في مكة	١٣
الجماعة الإسلامية في المدينة	١٦
(٤) تكامل مفهوم الإسلام	٢٤
(٥) بناء الإسلام وتوسعاته (باب)	٣٤
(٧) الإسلام والحرب	٤٣
(٨) مرحلة الانصهار والبلورة	٥٠
(١٠) أزمة الحضارة	٥٨
عصر عثمان	٦٢
الامام على	٦٥
حركة المعارضة	٦٨
دعاة المثل الأعلى (الخوارج)	٧٠
دعاة العاطفة (آل البيت)	٧١
دعاة النقد الاجتماعي	٧٣
الواقعيون	٧٥
(١١) النظام السياسي	٨٠
الدولة العباسية	٨٤
(١٢) الموازنة على الإسلام	٨٨
(١٣) حركة الدفع من الإسلام	٩٤
المعتزلة والدفاع عن الإسلام	٩٦
انصهار المجتمع الاسلامي	١٠٤
(١٤) دور الاسلام في العلم	١٠٦
(١٥) انتشار الاسلام	١١١
(١٦) مرحلة الغزو الخارجي (باب)	١١٥
(١٧) أزمة الاسلام	١٢١
(١٨) الروم وعالم الاسلام	١٢٦
(١٩) الحروب الصليبية في المشرق	١٣٠
المقاومة	١٤٠
(٢٠) غزو الفرنجة للمغرب	١٤٢
(٢١) الغزو المغولي للتتار	١٤٦
(٢٢) موجة السلاجقة	
(٢٣) موجة البربر	١٦٥
(٢٤) موجة المماليك	١٧١
(٢٥) انتشار الاسلام في مرحلة الغزو	
الخارجي	١٧٥
(٢٦) الفكر والثقافة في مرحلة الغزو	١٧٩
الخارجي	
الحركة الموسوعية الكبرى	١٨٤
الفكر الاسلامي يقاوم تحديات الغزو	١٨٧
الفكر لا الأدب هو أداة المقاومة	١٨٩
(٢٧) مرحلة الوحدة الاسلامية العثمانية	١٩٤
(باب)	
(٢٨) القوى الاسلامية الثلاث	٢٠٨
(٢٩) الاسلام والاندلس	٢١٠
(٣٠) الثقافة في عصر الوحدة الاسلامية	
العثمانية	٢١٦

٣٤٠	(١) الاسلام بفتحهم أوروبا (جبهة بيزانطة)	٢١٩	الحركة الصوفية
٣٤٨	(٢) على جبهة الأندلس	٢٢٥	(٣١) البتلة العربية الاسلامية (باب)
٣٥٧	(٤) أوروبا في الاسلام	٢٣١	(٣٢) تركيا العثمانية بين الرفعة والانحدار
	(٥) أجنحة الحركة - من الأندلس	٢٣٩	(٣٣) حركات البتلة والتجديد
٣٦١	إلى الشام	٢٥٠	البتلة في عالم الاسلام
٣٧٦	نظرة الغرب إلى الاسلام	٢٥٢	(٣٤) الاسلام والغرب
	(٩) أوروبا والغرب من المسيحية إلى	٢٥٦	(٣٥) الغرب والاسلام
	الاستعمار (باب)	٢٦٢	(٣٦) انتشار الاسلام
٣٨٨	أوروبا المسيحية	٢٦٧	(٣٧) بين العرب والترك
٣٩٨	(١٢) تمزق الوحدة الأوروبية	٢٦٩	مراحل الخلاف
٤٠٣	(١٣) الفكر الغربي المسيحي	٢٧٣	الحرب الصليبية الجديدة
٤١٠	(١٤) أثر الاسلام في الغرب	٢٨١	معالم أساسية في تاريخ الاسلام (باب)
٤١٦	(١٥) الاستعمار	٢٨٧	(٣٩) العرب مادة الاسلام
٤٢٥	(١٦) الدولة العثمانية وسبعة قرون (باب)	٢٩٤	(٤٠) انتشار الاسلام ذاتياً
٤٢٥	العثمانيون حول أسوار فينا	٣٠٠	(٤١) مفهوم البطالة في تاريخ الاسلام
٤٣١	الدفاع في وجه الهجوم المضاد	٣٠٤	بطولة الحرب
٤٣٨	محاذير الغزو الفكري	٣٠٨	بناء الدول
	عالم الاسلام في قبضة الغرب (باب)	٣١٢	تكريم العلماء
٤٤٤	الدولة العثمانية - الطورانية	٣١٢	(٤٢) المرأة في تاريخ الاسلام
٤٥٠	(٢١) العرب والترك	٣١٧	(٤٣) عوامل التأخر ودوافع التقدم
٤٦٠	(٢٢) الصهيونية والوصول إلى القدس	٣٢١	(٤٤) فلسفة تاريخ الاسلام (باب)
٤٦٨	(٢٣) اسقاط الخلافة	٣٢٤	تسكامل مفهوم التاريخ الاسلامي
٤٧٨	(٢٤) وصول روسيا	٣٣٠	حركة التاريخ الاسلامي وغاياته
	(٢٥) قوى الاستعمار والصهيونية	٣٣٨	أبرز وقائع تاريخ الاسلام
	والشيوعية المتصارعة (باب)		الرسالة الثانية
٤٨٤	(٢٦) الشيوعية والاستعمار		عالم الاسلام وعالم الغرب
٨٤٧	(٢٧) الشيوعية والصهيونية	٣٤٠	مدخل

٦١٤	الارصاليات التبشيرية	٤٩٤	عالم الغرب اليوم إزاء الاسلام (باب)
٦١٨	(١٥) لبنان مركز التجمع	٥٠٦	(٢٩) فساد المجتمع الغربي
٦٢٥	(١٧) الترابط بين التبشير والمسامونية		(٣٠) الاسلام في دورة الفلك
٦٢٩	(١٨) نماز التبشير والمسامونية	٥١٣	ألف مليون مسلم
٦٣١	(١٩) أعمال الارصاليات	٥١٦	(٣١) هودة الاسلام إلى أوروبا
٦٣٣	(٢٠) الاتحاديون وليس السلطان	٥٢١	(٣٢) الاسلام في الأفق
٦٣٨	(٢١) الحركة الطورانية (باب)	٥٢٥	(٣٣) التفوق البشري
٦٥٤	(٢٢) الاقليميات الضيقة	٥٣١	(٣٤) مستقبل الاسلام
٦٦١	(٢٣) ما بعد عبد الحيد		الرسالة الثانية
٦٦٢	(٢٤) الاسلام والجامعة الطورانية		من الوحدة الاسلامية العنانية إلى الترك
	(٢٥) بديل للخلافة العنانية (لورس)		والعرب
٦٦٦	والهاشميون	٥٤٠	تفسير جديد لتاريخ الاسلام
	(٢٦) تمزيق وحدة العروبة والاسلام (باب)		(١) الوحدة الاسلامية تحت لواء الخلافة
٦٧٩	(٢٧) الخلافة الاسلامية		(٢) ما هي الحركة التي نعمل لوائها
١٩٢	(٢٨) الدعوة الاقليمية المصرية		(٣) التحديات في مواجهة الحركة
٦٩٥	(٢٩) الفيزيقية اللبنانية		(٤) عبد الحيد والصهيونية
٧٠٢	(٣٠) الصهيونية واليهودية العالمية		(٥) عبد الحيد وجمال الدين
	(٣١) عروبة ومفهوم القوميات الوافدة (باب)		(٦) المؤامرة على الدولة العنانية
٧١٦	(٣٢) طرح النظرية الغربية في القوميات	٥٨٣	الدعوة
٧٢١	(٣٣) مبدأ القوميات في أوروبا	٥٨٩	(٧) مخططات اليهود العالمية
	(٣٤) من النجبة الغربية إلى الأصالة	٥٩٢	(٨) الثورة الفرنسية
٧٧٠	الوثائق	٥٩٣	(٩) إحتواء الأديان
٦٣٦	(٣٥) ترابط العروبة والاسلام	٥٩٧	(١٠) اليهودية في العالم الاسلامي
٧٤٠	(٣٦) الاسلام صانع العروبة	٦٠٥	(١١) دولة الاتحاديين
٧٤٥	(٣٧) موقف الاسلام من العروبة	٦٠٨	(١٢) الماسونية في الدولة العنانية
٧٥٠	(٣٨) مبدأ القوميات بين أوروبا والعالم الاسلامي	٦١١	(١٣) رجال الاتحاد والترقي
			تمزيق العالم الاسلامي (باب ١٤)